تاريخ المصريين ٤٥

الحروب الصليبية

تأليف

وليم الصورى

ترجمة

د. حسن حبشى

الجزء الأول




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخ المصريين

٤٥



رئيس مجلس الإدارة
د. سمير سرحان

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:
عبد العظيم الشبلى

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

الحروب الصليبية

(١٠٩٤ ـ ١١٨٤ م)

الجزء الأول

تأليف

وليم الصورى

ترجمة وتقديم

د. حسن حبشي



١٩٩١

هذه ترجمة لكتاب :

A

HISTORY OF DEEDS DONE BEYOND THE SEA

BY

WILLIAM OF TYRE

TRANSLATED BY

EMILY ATWATER BABCOK

&

A C. KREY

Columbia University Press

1943

تقـديم

يسرني أن أقدم للقارىء هذا العمل العلمي العظيم ، لمؤلف عظيم ، ومترجم عظيم • أما العمل فهو تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصورى ، الذى يعرفه طلاب الدراسات التاريخية كأحد أعظم المصادر في تاريخ هذه الحروب الخالدة ، وكأقدمها أيضا ، فقد رأى النور في صورته الأصلية في القرن السادس عشر الميلادى • وهو يعالج الفترة التى امتدت من عام ١٠٩٤ الى عام ١١٨٤ ، أى على مدى تسعين عاما من عمر مصر والشام ، فضلا عن بعض أقاليم أعالى العراق وآسيا الصغرى • وهذه الفترة والتى تلتها على مدى قرن ونصف آخر من الزمان ، هى التى أخذت تتدفق فيها من غرب أوربا تلك الهجرات الشعبية المسلحة المتسربلة بمسوح الدين والمتمسحة بالصليب وهي التى عرفت باسم الحملات الصليبية •

أما مؤلف الكتاب فهو وليم الصورى ، الذى ولد في ١١٣٠ م ، والذى يعده بعض المؤرخين الأوروبيين واحدا من أعظم مؤرخي العصور الوسطى قاطبة • وقد توفرت له من أدوات الكتابة التاريخية ما لم يتوفر لغيره ، فالى جانب اتقانه للغة اللاتينية والفرنسية واليونانية ، والمامه بالعربية ، فقد كان تحت يده من الوثائق ما جعله مبرزا في الكتابة التاريخية وحجة في عصره • وقد شغل من المناصب ما جعله جزءا من الأحداث التى يؤرخ لها ، فقد كان مشرفا على ديوان الرسائل في بلاط مملكة بيت المقدس ،

وسفيرا للملك عمورى فى بلاط امانويل امبراطور بيزنطة ، الى جانب شغله لمراكز دينية تدرج فيها حتى بلغ الذروه فى سلك الكهنوت ، وصار رئيس أساقفة صور . ومعنى ذلك أنه وصل الى أسمى المناصب غير الحربية فى الدوله بعد الملك .

أما المترجم فهو الأستاذ الدكتور حسن حبشى ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى ، الذى حصل على درجة الدكتوراه من جامعة لندن . واختير للتدريس فى كلية « ساوث ايلنج » بلندن ، وتدرج فى سلك التدريس الجامعى فى جامعة عين شمس ، مدرسا فأستاذا مساعدا ، فأستاذا لكرسى التاريخ بكليه الآداب ، ولمعرفته باللغه اللاتينية والفرنسيه القديمة ، فقد ترجم العديد من الكتب الى اللغه العربية ، فترجم عن اللاتينية أول وثيقة عن الحروب الصليبيه ، التى سماها بالعربيه « تاريخ الفرنجة وحجاج بيت المقدس » ، ثم أتبعها بترجمة حياه الملك لويس التاسع وحملاته على مصر والشام للمؤرخ الفرنسى جوانفيل ، كما ترجم عن الفرنسية القديمة كتاب «فتح القسطنطينية» على يد الصليبيين لروبرت كلارى . كما نشر مخطوطه « مضمار الحقائق وسر الخلائق » لتقى الدين الحموى ، ابن أخى صلاح الدين الأيوبى ، وفيه جزء يتعلق بمعركته فى سبيل استرداد بيت المقدس . ثم ترجم مذكرات « جودفرى فلهاردوان » الفرنسى عن الحملة الصليبية الرابعة

وتعد ترجمة الأستاذ الدكتور حسن حبشى لكتاب « الحروب الصليبية » لوليم الصورى ، التى سوف نصدرها فى أربعة مجلدات ، من أهم الأعمال العلمية التى يثبت بها الأستاذ الدكتور حسن حبشى مكانته العلمية الرفيعة فى بلدنا وفى العالم العربى ، وهى دليل على عظمة هذا الأستاذ الكبير الذى كرس حياته لخدمة علم التاريخ ، وتفرد الى حد كبير بقدر عظيم من الدقة العلمية التى

ترسم للجيل الجديد من مؤرخينا الشبان الطريق السليم والوحيد للوصول الى الأستاذية بمعناها الصحيح .

لذلك لا يسعنى الا أن أعرب عن سرور هذه السلسلة من « تاريخ المصريين » بنشر هـــذا العمل العلمى العظيم ، الذى يهم المثقف والعالم المتخصص ويضعه فى أكرم مكان من المكتبة العربية .

والله الموفق ؟

رئيس التحرير

أ. د. عبد العظيم رمضان



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

يتعلق هذا الكتاب الذى بين يدى القارىء بحقبة من الزمن امتدت من ١٠٩٤ حتى ١١٨٤ أى على طول تسعين عاما من عمر مركزى الثقل فى الشرق الاسلامى وهما مصر والشام ، وينسحب ذلك ـ الى حد ما ـ على بعض أقاليم أعالى العراق وآسيا الصغرى ، وقد شهدت هذه الفترة والتى تليها ـ لمدة قرن آخر ونصف قرن من الزمان ـ جموعا كثيفة وجيوشا جرارة هى فى الواقع هجرات شعوبية أخذت تتدفق ـ على وجه الخصوص ـ من غرب أوربا ، متسربلة بمسوح الدين ، ومتخذة لها شعارا زائفا هو « انقاذ بيت المقدس من أيدى المارقين » ، ولو صدقت لقالت امتلاكه لنفسها واحتلالها منطقة الشرق الأدنى بأكملها بعد تفريغها من أصحابها الحقيقيين أيا كان دينهم ومذهبهم .

والواقع أنه كانت هنـاك دوافع أعمق من هـذه الشعارات الخادعة ، ذات الرنين الدينى المحرك للشعور الغربى لا سيما بين العـامة ، وكانت هـذه الدوافع تكمن وراء الزحوف التى عرفت بالحملات الصليبية .

أما مؤلف هذا الكتاب فيعرفه المؤرخون منذ عصره حتى اليوم باسم « وليم » ، فإن زادوا في التعريف به قالوا « الصورى » ، وإذا رحنا نسأله من يكون أبوه فلا نحظى منه ولا ممن ترجموا له وكتبوا عنه ـ وهم كثيرون ـ بإجابة ما ، إذ يمسكون عن الرد ولو بشيء يكون مثار حوار وجدل ، وما نعته بالصورى إلا نسبة إلى المدينة المعروفة باسم صور بالساحل الشامي والتي لها تاريخ ـ وأى تاريخ ـ في العصور المختلفة قديمها وحديثها ، فقد صار مؤرخنا « وليم » رئيس أساقفتها سنة ١١٧٥ أى بعد دخول الصليبيين بلاد الشام بأكثر من ثلاثة أرباع القرن وبعد بضع سنوات قلائل من فتح الصليبيين للمدينة .



أصله ونشأته :

إذا كان الناس لم يعرفوا سلسلة نسب « وليم » فإنهم لم يعرفوا أيضا سنة مولده بل اختلفوا فيها اختلافا بينا ، فمنهم من عدوها سنة ١١٢٧ وعلى رأس هؤلاء المؤرخ الانجليزى « بيورى » وذلك حين قام بنشر كتاب « ادوارد جيبون » عن « تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية » ، وهو الكتاب العظيم المعدود من عيون التراث الكلاسيكى في الأدب والتاريخ على السواء .

وأخر غيرهم سنة مولده فجعلوها سنة ١١٣٠ دون أن يجزموا جزما باتا بتلك السنة ، وذلك أنهم حين يشيرون إليها يترددون في كلامهم عنها ويسبقونها بقولهم « حوالى سنة ١١٣٠ » ، وأيا كان عام مولده فالمتتبع لأحداث عمره التي نعرف جزءا كبيرا منها لا سيما منذ أن قارب سن الشباب يرى أنه عاش في هذه الدنيا أكثر من نصف قرن من الزمان صرف الشطر الأخير منه طالبا للعلم سواء في

مملكه بيت المقـدس اللاتينيه أو فى فرنسا وايطـاليا . ومكبا على الدراسات الدينيه ومسرفا على ديوان الرسائل فى بلاط مملكة بيت المقدس اللاتينيه وسفيرا للملك عمورى الى بلاط « امانويل » امبراطور بيزنطة ، الى جانب شغله لمراكز دينية ندرج فيها حتى بلغ الذروه فى سلك الكهنوت المسيحى اذ صار رئيس أساقفة صور ومات وهو يتطلع فى حسره لأن يكون بطرك بيت المقدس . ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، فاذا عرفنا ذلك كله عنـه تملكنا العجب من جهـل التاريخ لأسرته جهلا حمل بعض المؤرخين المحدثين على القول بأنه كان من أسرة من عامة الناس فى القدس ، ويريد هذا الفريق أن يقول أنها ليست من الفرسان ولا النبلاء ولا الأشراف ، بيد أن ذلك كله لم يمنعه أن يكون فى القمة من المؤرخين اذ كتب ما كتب ، وأن يشغل أسمى المناصب غير الحربية فى الدولة اللاتينية بعد الملك . وأن يسبق أقرانه فى العلم والذكاء والمعرفة وسعه الاطلاع ودراسة أعماق النفس الانســانية سبقا لم يجـاره فيه أحـــد من أنداده ومعاصريه .

على أية حال فقد أدى جهل المؤرخين بأسرته الى التضارب البين فى أين كان مسقطه والاختلاف الكبير فيه فقال بعضهم أنه ولد بالقدس بعد أن صارت مملكة صليبية ، ودرج على ثراها فأحبها حبا تمثل فى أن جعلها مركز كتاباته التاريخية التى اتسعت مساحتها القلمية ولكنها كانت تصدر عن تلك المدينة المبجلة فى التاريخ والموقرة عند جميع الأديان السماوية ، والتى هى عنده واسطة العقد ، لذلك نراه يطيـل فى دراستها ويجعلهـا مستهل كتابته التاريخية منـذ أن فتحها المسلمون زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطـاب وان كان قد أوجز ايجازا شديدا فى عرضه للفترة الممتدة منذ الفتح العربى لها عام ٦١٤ م حتى اغتصبها الصليبيون سنة ١٠٩٩ م .

فاذا أخذنا بالرأى القائل بمولده فى المملكة جار لنا أن نقول أنه كان من أبناء فلسطين بعد الغزو الصليبى ، وهو قول غير بعيد عن الصحة ، لكن هذا يدفعنا للتساؤل : أكان أبوه هو أيضا من أهلها ؟ ، أم أنه كان وافدا عليها ؟ .. فان كان وافدا فمتى كان ذلك ؟ وكيف كانت هيئة حضوره ؟ وهل كان مجيؤه اليها صحبة الجماعات الطارئة عليها من بلاد الغرب الأوربى ؟ .

وقد ثارت هذه التساؤلات فى أذهان كثيرين ممن ترجموا له وذهبوا فى ذلك الموضوع مذاهب شتى ، فمنهم من رد أباه الى أصل فرنسى ، ومنهم من قال انه ايطالى ، وزعم آخرون أنه انجليزى ، وقال غير هؤلاء وهؤلاء أنه ألمانى ، دون أن يبين أى واحد من هؤلاء علام كان اعتماده فى تقرير نسبه الى هذا القطر أو ذاك .

هذا التضارب الكبير فى تحديد مسقط رأس الأب يرجع الى سكوت الابن « وليم » عن هذا الجانب سكوتا مطلقا ، مما حمل مؤرخيه على أن يختلفوا فى أصله حيث لم يشر هو اليه من قريب أو بعيد ، هذا على الرغم من أنه هو نفسه كان شديد الحرص على أن يرد أكثر القادة والزعماء ورجال الدين وأصحاب الأمر الذين وردت الاشارة اليهم فى كتابه الى مواطنهم الأولى حتى ولو كانوا شرقيين ، مع ذكر أنسابهم فى معظم الأحوال ، لكنه لم يفعل ذلك بأصله هو ذاته ، مما فتح باب الاجتهاد والتكهن واسعا أمام من كتبوا عنــه فكان اجتهادهم أقرب الى الحدس والتخمين منه لأن يصل الى أمر مقرر ، وصار هؤلاء المجتهدون شيعا وأحزابا يذهب كل منها فى هذا الموضوع مذهبا يخالف ما يذهب اليه الآخرون ، فردته كل طائفة الى بلد أوربى غير البلد الذى ردته اليه الأخرى ، هذا الى جانب من جعلوا القدس مهبط رأسه .

فاذا استعرضنا آراء هؤلاء الذين يردونه الى اصل أوربى عجزنا معهم عن تحديد ذلك الأصل تماما ، وأول من نطالعهم هم من قالوا أنه المانى الأصل ، غير أن المطالعة الدقيقة لكتاب « وليم » التاريخى هذا تحملنا على استبعاد هذا الرأى ، لأنه حين يعرض لبعض من اشتركوا فى التجريدات الصليبية من التيوتون « الألمان » نراه يندد بهم تنديدا بالغا بسبب سوء مسلكهم وهمجيتهم التى يميط عنها اللثام دون تحرج من جانبه أو رعاية لهم وهم على دينه ومذهبه . كما أنه يشير الى أن بعضهم كانوا لا يتورعون عن الافساد فى بلاد « اخوانهم » المسيحيين الأوربيين ، مدمرين للأرض وهاتكين للعرض وهم فى طريقهم لانقاذ اخوانهم « المسيحيين الشرقيين » ... فلو كان وليم جرمانى التبعة لما تناولهم هذا التناول المر ولأغضى عن بعض مخازيهم أو قلل من حدته عليهم .

ومما يؤكد عدم سريان الدم الألمانى فى عروقه أنه حين يعرض لمن ساهموا من الألمان فى الحملة الثانية فانه يقدم الدليل – عن غير قصد – على جهله بأكثر المقدمين من وجوههم .

★★★

اذا كنا قد استبعدنا أن يكون ألمانيا فهل يمكن أن يكون انجليزيا ؟

هناك لفيف من الناس يعتقدون أنه من هذه الجزيرة ، وهم معذورون فى اعتقادهم هذا اذ خلطوا بينه وبين شخص آخر انجليزى كان يحمل نفس الاسم ، كما أنه صار رئيس أساقفة صور ويعف أيضا لذلك « بوليم » الصورى ، ولكنه كان غير صاحبنا مؤلف هذا الكتاب ، ويحق لنا – بناء على ما سنقدمه حالا – أن نسميه « بوليم » الصورى « الأول » على حين نسمى مؤلف كتابنا هذا بوليم الصورى

« الثاني » ، ولقد كان هذا الوليم الصوري الأول انجليزيا فحا وكان يشغل وظيفة حارس القبر المقدس في بيت المقدس والقيم عليه ، وكان مؤلفنا يعرفه ويكتب عنه في تاريخه (١) ويثني على أخلاقه ومنهجه في الحياة ثناء عاطرا ، ويقول عنه بصريح العبارة أنه « انجليزي المولد » ، ثم يتابع بعد قليل كلامه عنه فيعته « بسلفنا وسلف جميعنا نحن الذين جئنا من بعده » ، أي في رياسة أسقفية صور التي كان وليمالأول رئيس أساقفتها سنة ١١٧٠ ، لذلك يؤرخ له مؤرخنا وينعته « بسلفنا العظيم صاحب الذكر المجيد » ، ثم يشير الى ذهابه الى روما ليتسلم عصا الرعوية من البابا بعد أن مسحه بطرك القدس بالزيت .

هذا هو بعض الخبر عن وليم الأول الصوري .

ثم ان مؤلفنا وليم الصوري الثاني (صاحب الكتاب الذي بين يدي القارىء ترجمته العربية الآن) يتابع كلامه عنه مع ايراده لكامل الوثيقة التي كتبها أدريان بابا روما حينذاك لتأييد وليم الصوري الأول والتي يقول فيهـا الجالس على كرسي بطرس برومة موجهـا الخطاب الى بطاركة المشرق وأساقفته ومطارنته : « ... انا نؤمن ايمانا جازما بأن كنيستكم الأم في صور ستجني منه (أي من وليم الانجليزي) أحسن الثمار .... » .

ويكتب نفس البابا خطابا الى « جورموند » بطرك القدس يقول له فيه بشأن هذا الأسقف « ... ايماء الى خطاب محبتكم الأخوية فقد رحبنا بأخينا وليم (الأول) الذي اخترتموه رئيسا لأساقفة الكنيسة في صور » (٢) .

---

(١) الكتاب ١٣ ، الفصل ٢٣ .

(٢) نفس الكتاب والفصل .

لقد كان هذا الاسم « وليم » ، ونعته « برئيس أساقفة صور » تم تاريخ هذا الحدث ووقوعه في السبعينات من القرن الثاني عشر دافعا الكثيرين على أن يزلوا زلة تاريخية كبرى ، اذ خلطوا بين الاسين خلطا يدحضه المتتبع لتاريخ كل منهما ، ولقد زعموا ان وليم الأول « الانجليزى » هو نفسه وليم مؤلف تاريخنا هذا ، فقالوا أن الثانى « انجليزى » الأصل وما هو بانجليزيه ·

وبناء على هذا التصحيح الذى سقناه فان هذه النسبة تسقط عن صاحبنا وليم ، كما أن هذا التصحيح يحملنا على أن نقول مع القائلين بنفى هذا الأصل الانجليزى ، كما أنه يؤيدنا فى هذا النفى ما نراه فى كتابه هذا الذى بين يدى القارىء الآن من تنديده بالانجليز ممثلين فى شخص البابا أدريان الرابع – وهو انجليزى – حيث يصفه وليم بالمرتشى ويتهمه بالمحاباة فى الانتخابات الكنسية مما يثلم كرامته كرجل دين يفترض فيه أن يكون الحق منهاجه(٣)، وكان هـذا الهجوم العنيف من صاحبنا وليم حين آثر هذا البابا « الانجليزى » الأصل أحد مواطنيه وهو الكاهن « رالف » بمنصب ليس من حقه فيقره سنة ١١٥٦ أسقف لبيت لحم ، ويرى وليم أن نجاح رالف هذا فى « تولى شئون هذه الكنيسة العظمة راجع الى عطف مواطنه البابا أدريان الرابع (الانجليزى) » (٤) ·

ولا يعنينا هنا قول وليم فى رالف « الأسقف » ولكن يهمنا تهجمه على رالف « الانجليزى » ، وهذا ما نتبينه أيضا من ثنايا كلامه عن هنرى الأول ملك انجلترا ، ووصفه اياه « بمغتصب العرش المستحوذ عليه بالخديعة » ويشير الى أنه فى سبيل الاحتفاظ بهذا

---

(٣) ك ١٨ ، ف ٨ ·

(٤) ك ، ف ١٧ ·

العرس حسس كل فوى المملكه لدفع أحه صاحب الحق اسرعى (٥)

بحلص من هدا ومن كثير غيره مما ورد فى الكتاب الدى بين أيدينا الى يهجم مؤلفه على الانجلبر أو على الأقل نقده اللاذع لهم مما بباعد بيبه وبين أن نكون له عرق فيهم ، والا كان أخف نقدا فى هجومه عليهم .

★★★

ودهب آخرون للقول بأنه « فرنسى » الأصل ، معتمدين فى دلك على أنه فلما يرد دكر فرنسا الا ويكون لسان ثناء عليها وتمجيد لها (٦) ، وسيرى المطالع لهذه الترجمة العربيه دلك المديح فى مواضع متعددة منها . وفى رأينا أن هدا المديح هو الدى حمل دائره المعارف الأمريكية (٧) لأن تذكر فى نبذة قصيرة أنه من أبوين فرنسيين ، على أنه يبدو أن هدا الأصل الفرنسى لم يجد استجابه من دائره المعارف البريطانية (٨) فلم تقل به وآثرت السكوت عنه تماما ، ولعليهـــا خافت ان تنزلق فى هوة ليس لهـــا قرار ، ان هى دكرت بالتحديد ما يمكن أن يكون موطنه الأصلى ، ومن قال لا أدرى فقد أفتى ، كما أن الدائرة لم تعتبر فرنسا الا موطن ثقافة له ، وهو قول حق .



(٥) ك ٥ ، ف ١٣ ، وانظر .

Privite Orton · *The Shoiter Cambridge Medieval* History vol 1, pp 591 et Seq.

(٦) وسيرى فى مقدمتنا هذه أن هدا كان موقفه أيضا ازاء ايطاليا .

(٧) American *Ency* *Art* William of Tyre

(٨) *Ency* *Brit.* *Art* William of Tyre

على أن ذهابه الى فرنسا كان ــ كما نعرف ــ لمتابعة دراسته للقانون ، غير أن هذا لا ينهض دليلا على أنه ذو عرق فرنسى والا صح أن نقول أنه ايطالى ، اذ المعروف أنه ذهب الى ايطاليا هى الأخرى أكثر من مرة ، ولكن كان ذهابه اليها هى الأخرى من أجل دراسة القانون أيضا ، كذلك ذهب الى رومة لحضور مجمع كان منعقدا بها فى أكتوبر ١١٧٨ على رأس وفد كهنوتى يضم طائفة من كبار رجال الدين منهم هرقل رئيس أساقفة قيصرية ، الى جانب أساقفة بيت لحم وسميساط وعكا وطرابلس وغيرهم (٩) ٠

حقيقة أن مطالعة ما كتبه وليم عن ايطاليا يبين معرفته العميقة بها ويرسم لها صورة طيبة فى ذهن القارىء ، ثم أنه كان لا يدع فرصة تمر الا ويشير اليها حتى لو لم يكن الموضع موضع حديث مباشر عنها ، ونستدل على ذلك مما قاله حين عرض لهجوم المسلمين على أحد موانىء صقلية ، اذ وجد الفرصة مناسبة للاشارة الى ايطاليا وذكر أنها ملجأ الأمان (١٠) لقوات روجر كونت صقلية ، كما أنه كان كثير الثناء على الجاليات الايطالية ومساعى المدن التجارية الايطالية الحميدة فى خدمة الصالح المسيحى ، فيذكر أن طائفة منهم وهم الأمالفيون كانوا قد قدموا التماسا للخليفة الفاطمى يسألونه السماح لهم بقطعة من الأرض فى القدس ــ وقت أن كانت القدس تابعة لمصر ــ ليقيموا لهم كنيسة فيها ، ولما كان هؤلاء الأمالفيون « أصدقاء لمصر ويحملون اليها المواد المفيدة » فقد أجابهم الخليفة لما سألوه وكان عطفه عليهم جميلا تمثل فى ضخامة ما منحهم اياه ، فشيدوا ديرا عرف بدير مريم المجدلية مما جعل مؤرخنا وليم يثنى

---

(٩) ك ٢١ ، ف ٢٦ ٠

(١٠) ك ١٣ ، ف ٢٢ ٠

على الآمالفيين ثناء مستطابا ، وانسحب هذا الثناء بالتالى عنده على ايطـــاليا (١١) .

لكن هذا كله لا يمكن أن يحملنا على نسبه عائلته الى ايطاليا .

★★★

اذا كنا قد رفضنا أن يكون فرنسيا ، ونفينا عنه أن يكون ألمانيا ، وأنكرنا عليه أصلا انجليزيا ودحضنا الرأى القائل بأنه كان ايطاليا ، فلا يسعنا الا أن نقول ـ على الترجيح ـ أنه كان من مواطنى مملكة بيت المقدس بل ومن مواليد القدس ، بل ونضيف الى ذلك أن أباه كان واحدا من اثنين اما أنه ولد هو الآخر بفلسطين ونشأ بها فكانت القدس وطنا له ولولده وليم ، واما أنه كان من آلاف الناس من طبقة العامة الذين وفدوا مع الجيوش الصليبية وساهم فى حروب الفتح ثم شـــاء القدر أن يتخطاه القتل فيمن قتلوا فى معاركها فصار مواطنا عاديا ثم تزوج فأنجب ـ فيمن أنجب ـ مؤرخنا وليم فى سنة ١١٣٠ ، وان قال البعض أنه ولد سنة ١١٢٧ .

وسواء أكان مولد وليم الصورى فى هذه السنة أو تلك ـ وان كنا نرجح سنة ١١٣٠ ـ فقد تفتحت عيناه على القدس التى كانت أول أرض مس جلده ترابها ، حتى انه لينعتها فى كثير من المواضع « بوطنى » وقل أن يشير اليها الا فى اجلال وحب .

وحبب أوطان الرجال اليهمو مآرب قضاها الشباب هنالكا

وحسبنا أن نقرأ فى تمهيده لتاريخه فى هذا الجزء الأول لنرى كيف سيطر عليه حب القدس ، كما يعزو تأليفه كتابه هذا الى ذلك

---

(١١) ك ١٨ ، ف ٥ .

الحب » وأنه استجابة لارادة هذا الوطن ونداءه شرع فى مهمة يأبى الشرف التنحي عنها » (١٢) ويقصد بها وضع تاريخه ٠

★★★

اذا لم نكن قد وصلنا الى رأى قاطع فى أبيه : هل كان وافدا على القدس أم انه من أهلها فان رأينا حيـــال الابن أنه كان من مواليد القدس ، لان سنة ١١٣٠ (وحتى ١١٢٧) متأخرة نسبيا فى تاريخ التجريدات الصليبية ، اذ كان قد انسلخ من عمر الزمان منذ مقدم أولاها ثلث قرن ، تضاءلت فيه أعداد الجماعات الأوربية الوافدة ، كما أن المسيحى الأوربى الذى عاش فى فلسطين منذ أول الحملات الصليبية عد نفسه فلسطينيا ، وكان يرفض فى سريرته فى بادىء الأمر بقاء الوافدين الأوربيين ولا يعتبرهم الا حجاجا ، وأما من أقاموا واتخذوها سكنا لهم بدلا من ديارهم فى أوربا فقد عدهم دخلاء متطفلين ، ليس لهم حق فى الاقامة الدائمة بها ، وأن واجبهم — اذا فرغوا من حجهم — العودة من حيث جاءوا ، لأنهم لم يجيئوا الا حجاجا وزوارا ، فاذا انتهوا من أداء شعائرهم ومناسكهم وجب عليهم العودة الى ديارهم ٠

ان ذلك الحب الذى فى نفس مؤرخنا وليم لهذا البلد يجعلنا نرجح أن القدس كانت مهبط رأسه فى أحد عامى ١١٢٧ أو ١١٣٠ ، أو فيما بينهما وان نشأته بالقـدس جعلته يعرف كل نواحيهـا الطوبوغرافية والتاريخيـة ، فهو يذكر وقوعها فى منطقـة جدباء شحيحة بالماء (١٣) كما يعرف أماكنها الأثرية وما تنضح به من

---

(١٢) انظر التمهيد الذى قدمه وليم بين يدى كتابه هذا ٠

(١٣) ك ٨ ، ف ١ ، ٤ ، ٧ ٠

ذكريات قديمة قد ترجع الى زمن النبى نوح (١٤) ، كما أنه قل ان يشير الى القدس ــ كما قلنا ــ الا بكلمة « وطنى » ، ثم انه يخصص مواضع كثيرة من صفحات كتابه هذا لذكر بطاركتها وما أحاط بكل واحد منهم من ظروف كانت تؤيده أو تعارضه(١٥)٠

هذا هو مجمل القول فى وليم من حيث نسبته الى القدس ٠

★★★

أظهر وليم منذ نعومة أظفاره ميلا كبيرا للدرس والتحصيل ، ولابد أنه التحق ببعض مدارس عصره التى كانت ملحقة بالأديرة والكنائس ، وبعضها بقصر الملك ، وكان تلاميذها بطبيعة الحال وفى الغالب من أبناء الطبقة العليا فى المجتمع اللاتينى الغربى فى الشرق ، ثم تسنى له أن يتم تعليمه فى فرنسا ٠

ويبدو أنه أظهر ولعا متزايدا بدراسة الفقه المسيحى مما جذب اليه أنظار الكبيرين من رجال الكنيسة ورجال الدين ، الذين كان أكثرهم اهتماما به بطرس من أهل برشلونة باسبانيا وسنسميه هنا بطرس الاسبانى أو البرسلونى وكان قيما على الآثار المسيحية والقبر بكنيسة القيامة ، ثم انتهى المطاف أخيرا به لكى يكون رئيس أساقفة صور (١٦) وكان بطرس هذا حقا بوليم راعيا له ، محيطا اياه منذ وقت مبكر برعايته ، مسبغا عليه عطفه ، كما أنه قربه اليه ادراكا منه بمكن أن تكون لهذا الشاب من عد مرموق ان وجد من

---

(١٤) ك ٨ ، ف ١ ٠

(١٥) ك ٩ ، ف ، ١٥ ، ك ١١ ، ف ٤ ، ١٥ ، ك ١٢ ، ف ٦ ، ك ١٣ ، ف ٢٦ ، ك ١٦ ، ف ١٧ ٠

(١٦) الكتاب ١٦ ، ف ١٧ ٠

بأخذ بيده . ويدلنا هذه العناية من جانب بطرس الاسبانى على أنه رأى فيه نبوغا - فى حقل الدراسات الدينية - لم يلحظه بمثل هذه الصورة عند غيره ، لذلك اعتزم أن يكون هو راعيه والآخذ بيده فى طريق التقدم ، فكان له ما اعتزم ، وحفظ وليم له هذه اليد البيضاء عليه وأشاد بتلك المكرمة التى اختصه بها ، ومن هنا تعددت اشاراته اليه بالاجلال فى صفحات عدة من تاريخه ، ثم ان وليم كان يرى نسبته اليه فى ميدان العمل الكنسى شرفا كبيرا له ، وزاد من قدره - بعد حين - أنه كان أحد من تولوا قبله أسقفية صور ولذلك كان كثيرا ما يشير اليه بقوله « سلفنا » ويرى فى ذلك مفخرة له .

وهكذا وجد وليم فى بطرس الرجل العالم الذى يساعده على زيادة حظه من التعلم والبروز فى مجال اللاهوت ، هذا الى جانب أنه كان عونا له فى الاطلاع على أمور كانت من خبايا السياسة فى المملكة .

★★★

كذلك وجد وليم - منذ فجر شبابه - حدبا من رجل آخر من رجال الدين اتفقت نظرته اليه مع نظرة بطرس الاسبانى ، ذلك هو « فولشرز » بطرك القدس ورئيس أساقفة صور أيضا الذى يكثر مؤرخنا من الاشارة اليه والاشادة بفضله عليه (١٧) وقد ساعده فولشرز هذا على أن يكون من بين رجال الكهنوت الذين بعث بهم الى ايطاليا لينهلوا مزيدا من الثقافة الدينية ، فذهب الى بعض معاهدها الكبرى فى بعثة طالت مدتها حتى بلغت عامين وذلك من عيد فصح ١١٦١ حتى سنة ١١٦٣ ، حيث انكب مؤرخنا فى هذين العامين على

(١٧) انظر على سبيل المثال الكتاب ١٦ ، الفصول ١٧ و ١٨ و ١٩ ، والكتاب ١٨ ، الفصل الثالث .

دراســـه القـانون والآداب ، ثم رجع الى المملكة ليعاود سناطه فى أسقفية صور « رئيس شمامسة لها » (١٨) ٠

★★★

ولقد انسع مجال ثقافته بفضل اتصاله المباشر بأماكن تعد من مصـادر الثقافه ، زادت من اطلاعه الشـخصى ، ذلك أنه تسنى له الذهاب الى بيزنطه ١١٦٧ موفدا من الملك عمورى سـفيرا له لدى الامبراطور « مانويل » حتى يضمن انضمام القسطنطينية اليه فى مشروعه الضخم لمهاجمه مصر ، وعهد اليه بأن يغريه بتوقيع اتفاقيه بين بيزنطه وبين بيت المقدس ، وانطلق وليم الى وجهته (١٩) ليجد امبراطورها مشغولا فى الحرب من نواحى البلقان ، ولكنه أنجز ما عهد به اليه على أحسن صورة ، وعاد فى خريف ١١٦٨ بمعاهده بين المملكة اللاتينيه والامبراطورية الاغريقية حسب تسمية أهل ذلك الوقت لهـــا (٢٠) ، وقد وقع وليم من نفس الامبراطور مانويل موقعا كريمـــا تجلى فيمـــا أبداه له من ود وما أعده عليه من الهـــدايا ٠

لم يكن لرحل مثل وليم أن يمضى وقته فى بيزنطه دون عمل لا سيما أن هذه الاقامة طالت حتى بلغت ـ كما يقال ـ ستة أشهر فقضى جزءا منها فى الاتصال برجال الكنيسة اليونانية وان كانوا على غير مذهبه وزاده هذا الاتصال اتقانا للغة اليونانية ٠

ومن هذا نستطيع القول بأنه كان واحدا ممن يمكن أن يقال

---

(١٨) الكتاب العشرون الفصل الثانى ٠
(١٩) وليام الكتاب الثانى عشر ٠
(٢٠) الكتاب ٢٠ ، ف ٤ ٠

فيهم أنهم من علماء عصره وأعرفهم بالسياسة المحليه والدوليه . كما يمكن أن يقال ان ذهابه الى القسطنطينية كان كسبا علميا الى جانب نجاحه الدبلوماسى ·

ويتجلى لنا ما كان عليه من علم ومعرفة وثقافه من أنه استطاع ان يبرىء ساحته عند البابا مما رماه به فردريك رئيس الأساقفه من تهم ظالمة ، كما استطاع بقوه حجته ودلاقه لسانه ، ووضوح بيانه أن يعود من عند خليفه بطرس منصورا مبرءا من كل مذمة ونقيصه ·

★★★

وأدرك من حول وليم كفاءته التى لم تغب عن عمورى فعهد اليه سنة ١١٦٩ بأن يؤلف كتابا عنه يتناول فتره حكمه ، فقبل ذلك عن طيب خاطر ، وحين شرع فى تدوين هذا التاريخ الذى سماه Gesta Amalrici regis رأى فجوة لا يعرف عنها شيئا الا التافه اليسير والنادر الذى تلقفه سماعا من أفواه الناس دون أن يكون واثقا منه تمام الثقة ، أما هذه الفجوة فكانت خلال غيبته هو ذاته فى بيزنطة ثم انشغال الملك فى حملته على مصر التى بادر الى القيام بها غير منتظر عودة سفيره من القسطنطينة (٢١) لذلك رأى وليم أن الأمانة التاريخية تفرض عليه أن يقف على أخبـــار هذه الفتره متلقيا اياها من مصادرها الأولى وفى مقدمتها عمورى كشاهد العيان لها وهو الذى شارك فى رسمها على حين غاب هو عنها ، فلم يبخل عليه مولاه بما أراده لا سيما وقد توثقت بينهما مودة عميقة رفعت

(٢١) لم يخف على مؤرخى الفترة المسلمين الدوافع والضغوط التى كان يتعرض لها عمورى حتى تعجل الزحف على مصر ، فتناولها ابن الأثير فى كتابه الكامل وأتابكة الموصل ، وأبو شامة فى الروضتين ·

سبهما كل حجاب وحملت عمورى على أن يصرح له فى ذات مرة عن مسأله خطيرة جدا كزعيم للنصرانية وحام للصليبية ألا وهى ما يضطرب فى صدره من حالة الشك فى أمر أجمعت عليه جميع الأديان السماوية ويكون أساسا من أسس الايمان ، ألا وهو البعث والنشور بعد الموت ·

وكانت ثقة الملك فى مؤرخنا عظيمة حتى أنه عهد اليه ـ حين كلفه بوضع كتاب عن حكمه ـ أن يقوم على تربية ولده وولى عهده بولدوين الرابع الذى لم يجاوز حينذاك التاسعة من عمره ، فأقبل وليم على هذه المهمة بنفس راضية وظل يرعى الغلام فكريا وخلقيا وجسمانيا أربع سنوات متتاليات لم يقصر فيها على بذل ما ينبغى عليه بذله ليصبح الغلام مؤهلا لحكم المملكة ، بل زاد فكان من بين ما درسه له الآداب الكلاسيكية القديمة ، وعلمه هو وغلمان فى مثل عمره من أولاد النبلاء والأشراف ما ينبغى أن يتعلمه هؤلاء من الفروسية وركوب الخيل وألعاب القوى التى تقوى فيهم الصبر على احتمال الآلام ، وانه ليقول عن هذه الفترة « لقد كرست نفسى طول مدة اشرافى على تلميذى الملكى على رعايته وبذلت من أجله غاية جهدى وحاولت تربيته خلقيا وأدبيا » ثم يصف حادثا نجم للصبى ذات يوم وهو يلعب مع أترابه تكشف له عن اصابته بمرض خطير استلزم من أبيه علاجه بسنى الأدوية والمراهم فما أحدث نفعا ثم بعث فى كل ناحية فى طلب أحسن المطببين لكنهم لم يسعفوه فى وقف هذا الداء الذى كان قد استشرى ببلدوين الصغير ، « فقد عرفنا بعدئذ أنه يشكو من ذلك الداء الخطر الذى لا رجاء منه » (٢٢) على حد قوله ويعنى بذلك الجذام ·

هكذا تولى وليم تربية الصبى بلدوين ·

---

(٢٢) الكتاب ٢١ ف ١ ·

على أن الدى يهمنا من فىره فيامه بسفيف الغلام أنها أتاحت له الفرصة لأن يكون أكثر اتصالا بالعديد من رحال البلاط ونبلاء المملكه ، وساعده هذا الاتصال على زيادة الوقوف على ما يطلع اليه من المعلومات التى ساعده فى تآليفه التى سنعرض لها حالا وكان الجزء الهام من بعضها يتعلق بأحداث وقته لذلك كان عمله يتطلب منه الاطلاع على الوثائق والمعاهدات والمراسم التى صدرت ابان تلك الحقبة ، وكذلك المراسلات التى وردت الى المملكة أو صدرت عنها وكان عند هؤلاء الرحال الذين أتيح له زياده الاتصال بهم ما يساعده على أداء مهمته على أكمل وجه .

★★★

وشغل وليم وظيفة المستشار الملكى التى كان يشغلها قبله « رالف » رئيس أسـاقفة بيت لحم الذى كانت وفاته فى ابريل ١١٧٤ (٢٣) . واذ ذاك وقع الاختيار على مؤرخنا ليحل مكانه ، وأنه ليقول فى ذلك « ولكى يكون هناك من يحل موضعه فى وظيفـة المراسلات الملكية ، فقد استحاب عمورى لمشورة باروناته وعيننى فى هذا المكان وخلع على وظيفة المستشار » (٢٤) .



---

(٢٣) الكتاب ٢٠ ، ف ٣٠ و ٣١ .

(٢٤) الكتاب ٢١ ، ف ٥

مؤلفاته

لقد خلدت وليم مؤلفاته التى فقد منهـا ما فقد وبقى منهـا ما بقى ، ولولا كتابه الحالى لما عرفناه الا واحدا من كبار رجال الدين لا نذكرهم الا حين نقرأ عنهم فى ثنايا الكتب ، أما هو فقد بقى اسمه على ألسنة طلاب الدراسات التاريخية لا سيما فى تاريخ الحروب الصليبيه بفضل هذا الكتاب الذى نترجمه الآن الى العربية ، والذى رأى النور لأول مرة فى صورته الأصلية فى القرن السادس عشر أى بعد أكثر من ثلاثة قرون من وفاة مؤلفه .

ولقد توفرت أدوات التأليف عند وليم من سعة اطلاعه على ما وصـل الى يده من كتب نعدها اليـوم المصدر الأول للحروب الصليبية خاصة باللغة اللاتينية وما توفر لديه من الوثائق مما هيأ له الفرصه لأن يكون بارزا فى الكتابة التاريخية وحجة موثوقا به فيما ألف ، حتى لقد عده العالم رنسمان « واحدا من أعظم مؤرخى العصور الوسطى » على الاطلاق (٢٥) . هذا الى جانب اتقانه لكثير من اللغات الغربية والشرقية وفى مقدمتها اللاتينية وفرنسية العصور الوسطى واليونانية كذلك المامه باللغة العربية الماما ساعده على الاطلاع على بعض ما كتب فيها ، كما ذكر هو وكما سنشير اليه فى موضعه ، ولن نقول مع بعض القائلين بأنه كان عارفا بالعبـرية والفارسية فذلك قول لا نستطيع أن نؤكده ، وزيادة على ذلك كله فقد كان

---

(٢٥) Runciman *A History Of The Crusades*, vol., 2, p 437

كبير النظر في الآداب والمؤلفات القديمة لا سيما اللاتينية وعلى كتابات كبار رجالها أمثال « أوفيد » و « شيشيرون » الذى يسميه أحيانا بصاحبنا مما ساعد على أن يكون له قلم سيال ولغه مطواعة وقدرة على التعبير في غير عسر على ما يريد أن يوصله الى قارئه ·

★★★

والمعروف أن وليم وضع ثلاثة كتب تاريخية ذات سمه معينه ، يتصل اثنان منها عن قرب بالحروب الصليبية ، هذا الى جانب كتاب آخر سجل فيه أعمال المجمع الكنسى المنعقد في روما في نهايه سنة ١١٧٨ ، وحضره مؤرخنا على رأس وفد من كبار الأساقفه والمطارنه ، الى جانب ممثل لبطرك بيت المقدس الذى حال مرضه اذ ذاك بينه وبين حضوره هذا المجمع الذى يعتبر أكبر المجامع التى شهدتها المسيحية الغربية ، وشارك وليم فيما دار فيه من مناقشات خطيرة ، وقدم تقريرا عن وضع الكنيسة والدولة في مملكة بيت المقدس اللاتينيه ، وقال البعض من مؤرخى هذا المجمع — وهم صادقون فيما قالوا — ان الجمع أعجبوا بوليم وعرفوا فيه رجلا فقيها ، وحجه في الملة ، وملما بما ينبغى أن يلم به من يهتم بدراسة أحوال اللاتين في الشرق دينا ووضعا ، كما رأوا فيه محدثا لبقا ومجادلا يحسن الجدل ويفحم معارضيه ان احتاج الموقف الى الافحام ·

وعاد وليم من هذا المؤتمر الدينى وقد سبقته أخباره ، فسأله رفاقه كما سأله رجال من البلاط البابوى والكنائس اللاتينية أن يضع كتابا عن أعمال المجمع ، فنهض بما التمسوه منه ، وجمع في ذلك سفرا قبل انه أودع نسخة منه في أرشيفات صور لكن الباحثين في تاريخه وأعماله أجمعوا على ضياع هذه النسخة للأسف، كما ضاع اثنان من مؤلفاته الأخرى ·

وعلى الرغم من عدم وجود نسخه من هذا التقرير فى الأيدى الا أن الأمر الذى لا يرقى اليه الشك هو أن « بعض » جلساء المؤتمر تضمنت بعض ما فى تقرير وليم ، والعكس صحيح ، خصوصا وأن وليم كان أحد مقررى المؤتمر (٢٦) ٠

★★★

اذا كان رفاق وليم قد التمسوا منه وضع هذا التقرير الذى صار كتابا من كتب تاريخ المجامع الكنسية فان الفضل فيما ألفه من كتب أخرى فى ميدان التاريخ يرجع الى الملك عمورى الذى كان حريصا على أن يبقى اسمه حيا على ألسنة الملأ من أهل عصره والأجيال التى تليهم ، لذلك فانه سأل صاحبنا وليم أن يضع كتابا عنه هو ذاته حاكما لمملكة بيت المقدس اللاتينية ، وترك تنظيم هذا الكتاب لمؤرخنا واثقا من أنه بفضل كفاءته وألمعيته ـ سوف يطلع على الناس بكتاب يرضيه ٠

واستجاب وليم لرغبة الملك لما رأى فى تحقيق هذه الرغبة من حفظ لتاريخ مملكة بيت المقدس فى فترة كان هو نفسه شاهدها وعرض لما قد يقوم به عمورى من حروب ترفع راية المسيحية اذ كان الأمل معقودا على أن ينتصر الملك على القوة الاسلامية ممثلة فى مصر فتخلص له سقوطها وجه الشرق الاسلامى بأجمعه ٠

وأقبل وليم يخطط للكتاب الذى كلف بوضعه والذى سماه « انجازات الملك عمورى » Gesta Amalrici regis ، ثم جاء يوم بدا للملك أن يمهد لعهده بعرض شامل لتاريخ ملوك مملكة بيت

(٢٦) أدين بالفضل فى معظم هذه المعلومات الى مقدمة الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب الذى اشتمل الى جانب مادته التى كتبها وليم ما أضافه المترجمان من حواش وتعليقات لو ترجمت لكانت وحدها كتابا كبيرا فى حد ذاته ٠

المقدس منذ « جودفروى دى بويون » الذى رأى غاية معاصره أن يقال له حامى القبر المقدس فكان له وحده ما أراد ولم يشاركه فى هذا اللقب غيره ، اذ نعت الذين جاءوا من بعده بالملوك حتى يتم لهم تطبيق النظام الاقطاعى على الصورة المعروف بها فى أوربا الغربيه ·

صارح عمورى مؤرخه برأيه فيما ستكون عليه صوره الكتاب الذى يريده ·

وفى رأينا أن عمورى كان يعتقد اعتقادا جازما ـ ويشاركه وليم الى حد ما ـ بأن مصر لابد واقعة فى يده ـ بعد العهد أو قرب ـ وكان يرى أن فتحه اياها واستيلاءه عليها سيكونان نقطة انتقال كبرى في تاريخ القوى الصليبيه وأنه يعادل فتح اللاتين لبيت المقدس ان لم يزد عليه ، وبذلك تكتمل حلقـــات الحصار حول العــــالم الاسلامى ، ولعله كان يرى أن استيلاءه على مصر ييسر له الطريق الى مكه والمدينة ، ولعل هذا كان فى سريرة الأمير الصليبى · « رينـــو دى شاتيون » الذى نعرفه المراجع الاسلامية باسم « أرناط » ، والذى كانت نهايته وتأديبه على يد صلاح الدين بعد قليل ·



ونعرف أن شروع وليم فى وضع تاريخ الملك عمورى كان سنه ١١٦٧ ، وتمثلت الخطوة الأولى منه فى اتصال مؤلفه بالقادة وكبار الشخصيات التى ساهمت فى الحملة على مصر ، وأما الخطوة الثانية فكانت جمعه كل ما تيسر له أن يجمعه ممن صحبوا الحملة وشاهدوا أحداثها وكان لهم نصيب فيها ، ولم يقصر اهتمامه على الأحـــداث السياسه والحربيـــــة بل جاوزها الى وصــــف الحكومة فى مصر والبلاط الفاطمى وتعرض لأولى الأمر من مخططى السياسة المصرية اذ ذاك ، ويلاحظ أيضـــا أن نشاط الاسكندرية التجارى استلفت انتباهه ·

على أنه اذا كان هــذا الكتاب أصبح الآن فى عــداد الكتب المفقودة فلابد أن بعضه لا سيما ما يتعلق بمصر وارد فى الأقســام الأخيرة من تاريخه الكبير الذى توجد الآن ترجمته العربية بين يدى قارئى هذه الصفحات ٠

★★★

ثم اقترح عمورى على وليم أن يكتب تاريخا للمملكة منذ قيامها على أيدى اللاتين ، وصادف هذا الاقتراح قبولا عند المؤرخ ، وصفق له قلبه اذ ليس أحب الى نفسه من تأليف كتاب عن القدس ، يخلد اسمه هو ويشرف قدره ويكون تاريخا لأحب بلد الى فؤاده ٠

وهــكذا نلاحظ ما لعمورى من فضــل على طلاب التــاريخ والنــاظرين فيــه حتى الآن اذ فكر فى أن يكون هنــاك كتاب عن المملكة ، وأن يقوم بوضعه الرجل الذى رأى فيه الملك كل ما يحببه اليه سمتا وخلقا ودينا وكفاءة وقدرة تساعده على انجاز هذا العمل الذى أدرك عمورى انه يجمــع بين ثلاثة أمور كبيره ، أولها روعه الموضوع اذ هو عن بيت المقدس ، وثانيها شأن عظمة عمورى ذاته ، وثالثها دقة جامعه وليم ٠

على أن قبول وليم اقتراح مولاه كان معناه ارجاء ما شرع فيه وما أنجزه منه عن عهد الملك عمورى ، كذلك كان لابد له من أن ينصرف الى تدوين ما قبل هذا العهد جاعلا نقطة الابتداء هى قيــام بطرس الناسك بالحج الى الأحرام المسيحية فى بيت المقدس ثم رجوعه الى أوربا حاثا أمراءها وشعوبها والبابا اربان الثانى لمساعدة مسيحيى الشرق وارسال الحملات الى أرض فلسطين وبلاد الشام ٠

كان عمورى هو الدافع لوليم لكتابة كل ما كتب من كتب فى التاريخ ، فقد اقترح عليه القيام بوضع تاريخ لعهده ثم زاد فطلب اليه أن يكتب له مجلدا عن تاريخ ملوك الشرق ، ولكى ييسر عليه

المهمة فقد زوده بكتاب فى هذا الموضوع لأسقف مصرى ، يعرف العربية هو أوتوسيوس سعيد بن بطريق استعرض فيه العالم الاسلامى منذ ظهور النبى عليه الصلاة والسلام حتى السنة الخامسة من خلافة الراضى العباسى ، وهى سنة ٣٢٦ هـ (= ٩٣٧ م) (١) واستجاب وليم لطلب مولاه ووضع كتابه الذى سماه كما قال ـ أو قال من وقفوا عليه اذ ذاك ـ « بأعمال أمراء المشرق » "Gesta Orientalium Principum" ولنا أن نتوقع أن جزءا كبيرا منه لم يكن سوى ترجمة لكتاب ابن بطريق ، وان لم نستطع الجزم بما تضمنه كتاب وليم هذا لعدم وصول نسخة منه الينا ... لكن .. أين يوجد هذا الكتاب الآن ؟! ... ذلك ما لا نعرفه مما يدفعنا لاعتباره فى عداد الكتب المفقودة بناء على خلو فهارس دور الكتب العامة من أية اشارة اليه أو الى صفحات يرجح أنها منه (٢٧)، هذا على الرغم من أن مقدمة الترجمة الأمريكية لتاريخ وليم تشير الى أن « ماتيو بارى » ذكر فى «مختصره التاريخى» وجود كتابى وليم : التاريخ الكبير وتاريخ أمراء المشرق فى مكتبة سانت البانز التى حوت بها ما حوت بمعظم المكتبات الديرية فى القرن السادس عشر ، وتمضى هذه الاشارة فتبين أن نسخة من تاريخه الكبير وحده ـ التى نترجمها الآن ـ هى التى قدر لها النجاة فانتقلت الى مكتبة المتحف البريطانى ولا تزال محفوظة به حتى اليوم ، أما مخطوطة أمراء المشرق فقد فقدت ولم يوقف لها على أثر حتى يومنا هذا .

★★★

---

(٢٧) ولم يشر وليم الى عنوان كتاب سعيد بن بطريق الذى هو التاريخ المجموع على التحقيق والمعروف بنظم الجوهر ، وكان فى مكتبة الملك وهو الكتاب الذى نشره المستشرق الانجليزى « ادوارد بوكوك » فى اكسفورد سنة ١٦٥٩ وأرفقه بترجمة لاتينية ، كما طبع مرتين بعد ذلك بقرنين ونصف قرن من الزمان فى مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت الأولى منهما سنة ١٩٠٥ والثانية سنة ١٩٠٩ .

تاريخه الكبير

على أنه بدا للملك فى سنه ١١٧٠ ـ أى فبل وفاته بأربع سنوات ـ أن يمهد لحكمه بكتاب يؤرخ للمملكة اللاتينيه مند بدء الدعوة الصليبية حتى مستهل حكمه سنة ١١٦٢ ٠

وان استقراء ما جرى ـ وما بين أيدينا ـ ليفصح فى جلاء عن أن هدا الافراح قد وقع موقع الرضا من نفس وليم الصورى لأنه رأى أنه حين يفرغ من هدا الكتاب فانه يكون قد أرخ ـ كرجل دين أولا ـ لما يعتبره جهادا دينيا مسيحيا من وجهة نظره ، فيرضى بدلك ميوله ودراساته التى بوأته مكانة كبيرة فى عالم الكنيسة فى القرن الثانى عشر ، كما أنه يكون قد أرخ لخمسة من حكام وملوك المملكة اللاتينية قبل عمورى(٢٨) ، كما يكون قد أرخ للنشاط الصليبى بعد استقرار اللاتين فى الشرق ، وما كان بينهم وبين الجماعات المسيحية الأخرى من غير مذهبهم كالأرمن والسريان والبعاقبة والأرثوذكس ، ثم ما بين هؤلاء جميعا وبين المسلمين من صلات سلمية أحيانا وعدوانية أحيانا أخرى ٠

لذلك قبل وليم ما اقترحه عليه عمورى مما أسفر عن تأليفه لتاريخه الكبير "Gesta Hierosolymitorum regus" الذى لم يقف به عند سنة ١١٦٢ (وهى بداية حكم عمورى) بل جاوزها

---

(٢٨) وهم جودفرى دى بوبون وان لم يلقب بالملك ، ثم بولدوين الأول فالثانى ، ثم فولك دانجو فبولدوين الثالث ٠

فسمل كل عهده ، ثم طالت حتى وقفت عند سنة ١١٨٤ ، أي بعد موت الملك بعشر سنوات تناول فيها حكم ولده بولدوين الرابع

والواقع أنه اعتمد فى القسم الأول الذى يمتد حتى سنة ١١٢٧ على مصادر لاتينية عاصر أصحابها أحداث الفترة من ١٠٩٥ حتى ذلك التاريخ ، ويمكن أن نقول انهم كانوا ثلاثة أو أربعة ، فى مقدمتهم من نسميه بالمؤرخ المجهول الذى كان من غير شك من أهل ايطاليا ، والذى رافق حملة بوهمند بن روبرت جسكارد وكان بوهمند هذا مؤسس أول امارة صليبية هي انطـــاكية منتزعا اياها من أيدى المسلمين ٠

وقد تبعثرت أوراق كتاب هذا المؤرخ المجهول ولم يبق منها الا القليل الذى جمعه الباحثون وسموه باسم "Gesta Francorum Hierosolymitanorum" وقد ترجمناه الى العربية بعنوان « أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس » (٢٩) ٠

والى جانب هذا فقد نظر وليم فيما كتبه روبرت داجيل الذى ترجمه الدكتور حسين محمد عطية باسم « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » (٣٠) ٠

كذلك نرى وليم يعتمد على ما سبقه اليه فولشر دى شارترر ويعرف كتابه باسم
'Fulcheri Carnotensis historia Hierosolymitana
1095-1127)' ، وهو آخر ما لدينا من تاريخ شاهد عيان لفترة

---

(٢٩) فيما يتعلق بصاحب هذه المذكرات فانا نحيل القارئ الى ما قلناه عنه والى دراستنا لمذكراته فى مقدمتنا للترجمة العربية المشار اليها وقد نشرتها دار الفكر العربى ، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٢ ٠

(٣٠) نشرته دار المعرفة بالاسكندرية سنة ١٩٨٩ ٠

امتدت ما يقرب من ثلاث وثلاثين سنة تقريبا منذ أن خطب البابا ايربان الثـــانى خطبته التاريخية المشهورة فى كلير مونت بجنوب فرنسا فأشعل نيران حروب استمرت عدة قرون ٠

ويتبين لنا ـ من سرد هؤلاء المؤلفين ـ ان المادة التى تضمنها مذكراتهم أو أوراقهم وقفت عند سنة ١١٢٧ م ، وكانت مادة وفيرة راح يقارن بعضها ببعض ، فما صح منها فى نفسه أبقاه ، وما أنكره تخلى عنه ولم يأخذ به ٠

★★★

ولعل السمة البارزة فى كتابات وليم عن هذه الفترة بالذات هى أخذه بوجهة النظر الغربية فى سرده وتعليقه على الأحداث ، وذلك راجع كما قلنا الى وجهة نظره فى الأصول التى خلفها كتاب مسيحيون وقساوسة ورهبان صحبوا الجيوش الصليبية المكرة على اختلاف جنسيات زعمائها وقوادها ، ونرى هذا الطابع واضحا فى نقده المر للامبراطورية البيزيطة ولا سيما امبراطورها الكسيوس كومنين (٣٥) ، وهو نقـد أميل للهجو المقذع أكثر فيه من نعتها « بالخيانة » حتى فضل عليها المسلمين فى بعض الأحيان وقد ترسبت هذه التهمة القطعة فى نفوس الأوربيين جيلا بعد جيل لمدة قرن من الزمان حتى انفجرت فى سنة ١٢٠٢ م فيمـــا عرف بالحمـــلة الصليبية الرابعة التى توجهت الى القسطنطينية وأزالت امبراطوريتها

---

(٣٥) نشير هنا الى اعتزامنا باذن الله نشر ترجمتنا العربية لكتاب « الكسياد » للمؤرخة أنا كومنين Anna Comnena بعد فراغنا من نشر كتاب وليم الصورى هذا ٠

لنعود ـ رغم أنف الصليبيين العربيين ـ للوجود بعد ما يبيف على نصف قرن (٣٦) ٠

وقد غيرت هـذه الحمله الصليبيه الرابعه المفهـوم الصليبى وبدلت معالم الوضع عامة والخريطه الجغرافية لبلاد اليونان وحاولت تبديل الناحية الديموجرافية بصورة ملحوظة ٠

كانت هده في الواقع هى صفه المرحله الأولى من تاريخ ولم الكبير أما المرحلة الـــثانيه فنبـدأ من تكوين مملكه بيت المقـدس واستكمال البنــاء اللاتينيـــة بتأسيس الرها وأنطاكيه وطرابلس كامارات لاتينية استبعدت كلها القاعدة الأساسيه التى كان يجب أن ترتكز عليها لتضمن بقاءها لأنـنـا نراها أهملت تـمـاما أهل البلاد الأصليين حتى من كان منهم مسيحيا ، اذ عـدهم المحتلون طبقــه ثانيه فى المجتمع الجديد وربما وضعوهم فى مرتبة أدنى من هذه أيضا فلم ينظروا اليهم الا كعملاء أو فعلة أو صناع يبذلون الجهد لتحقيق مآرب السادة الوافدين الذين لم يسمحوا لأهل هذه الطبقة الثانية بأن يكون لهم رأى فى توجيه السياسة بل صيروها أوربية افط عنه ، وظنوا أنهم قادرون بذلك على الاحتفاظ بها الى الأبد ، ناسين أن هناك أجيالا ـ من بين اللاتين ـ ستظهر على مر السنين وتخمد فى نفسها الكراهـــة لأهل البلاد ، كما يملى عليهـا الزمن والتطور أن تبتعد الرابطة بينها وبين اللاتين ، على حين تزداد هذه الرابطة بين هذه الأجيال وبين الأهالى الأصليين ٠

على أن وليم يشير فى أكثر من موضع من تاريخه الكبير الى اطلاعه على وثائق ومراجع عربية دون أن يذكر موضعها وسكت عن

---

(٣٦)انظر فتح القسطنطينية لروبرت كلارى ، ترجمة حسن حبشي ونشر مكتبة الشرق الأوسط ، وانظر أيضا مذكرات فلهاردوان ترجمة حسن حبشي ، وقد نشرته جامعة الملك عبد العزيز بجدة سنة ١٤٠٥هـ ٠

سمينها كما هو سأنه في مراجعه بغير هده اللغه لا سيما اللاتينيه .
وما نحسب هده الوثائق الا أنها كانت موجودة فى أرشيفات القصر الملكي بالقدس وكذلك ربما اسعان بما في مكتبة الملك عمورى الى لابد وأنها كانت حافلة ـ الى حد ما ـ بكتب عربية وقد أشار أحد المؤرخين (٣٧) الى أن سفينه كانت تحمل فيما تحمل كتبا لاسامة ابن منقذ جنحت قرب صور فاستولى عليها بولدوين الثالث وأضافها الى مكتبة القصر .

★★★

أما الفترة الثالثة من كتابه فهى التى تميزت بظهور المنازعات بين الصليبيين أنفسهم وتفكيرهم تفكيرا توسعيا لم يقف عند حدود بلاد الشام وشمال العراق بل جاوز هذه الحدود الى ما وراءها من قوى اسلامية صغيرة ، وبلغت هذه الفكرة ذروتها عند الملك عمورى فى تخطيطه لتوسيع رقعة مملكة بيت المقـدس الى خارج حدودها الجنوبية حيث مصر الفاطمية فالأيوبية بل ان بعض هؤلاء الأمراء اللاتين كانوا من المخاطرين الذين ذهب أحدهم مذهبا جريئا بعيدا فتطلع الى مكة والمدينة .

وكان رجال هذه الفترة الثالثة يرون أن فتح القدس والاستيلاء عليها سـنة ١١٠١ هو الخطوة الأولى على طريق دعم الصليبية فى الشرق الاسلامى وأن هذا الفتح قد أدى مهمته وأنجز غايته بالاستيلاء على بعض الامارات فى الشـام ، وأن الخطـوة الثانية لهـذا الدعم الصليبى هى فتح مصر ، وساروا فى هـذا الطريق خطـوة عملية ملحوظة فى هجوم عمورى أكثر من مرة على مصر ، وهو هجوم أطال

(٣٧) راجع Hitti *A Syrian Gentleman*, p 61. ، حيث أشارت اليه مقـدمة الترجمة الانجليزية لكتاب ولم .

ولم في عرضه وان عاد منه الغزاة مقلمي الأظفار ، منهوكي القوى ، وقدر لوليم أن يشاهد أولبات هذا الانهاك ممثلا في ظهور صلاح الدين الأيوبي بعد أن استقر في مصر وحمل راية الجهاد التي ورثها عن نور (٣٨) الدين محمود بن زنكي صاحب حلب والموصل وتمرب هذه الأحداث بعكس ما كان يرجوه دعاة الغزو اذ أدت الى تفكك الهيكل الصليبي ، ولقد واكب وليم في أخريات أيامه هذه الفترة بل وكان في ركب بولدوين الرابع في محاربته لصلاح ببلاد الشام ولم تفته الاشارة الى ذلك كله مما يشكل الجزء الأكبر من الكتب الثلاثة التي ختم بها مؤلفه حتى زحزحت ما عداها ، مما يخيل الى قارئه أنه يكتب تاريخ مصر — من وجهة نظره — أكثر مما يكتب تاريخ القدس .

★★★

ان متابعة الكلام عن هذا التاريخ الكبير الذي نترجمه الآن الى العربية هي في الوقت ذاته كلام عن سيرة مؤلفه الذي لو كان قد وقف قلمه عند سنة ١١٧٤ التي مات فيها عموري وهو في الثامنة والثلاثين من عمره لما لامه أحد ، اذ يكون بما كتبه حتى ذلك العام قد أوفى بعهده للملك الراحل في ادراج عهده في هـذا الكتاب التاريخي وألحقه بتاريخ المملكة منذ تأسيسها .

لكن كانت هناك ثلاثة أمور تحمله على متابعة الكتابة عن الملك الصغير أولها أنه هو ابن مولاه الراحل ، وثانيها الوفاء لذكرى أبيه ، وثالثها أنه هو نفسه كان ولا يزال معلم الملك الجديد ومثقفه ، وهكذا كان وليم يعيش في جو يعبق بكل ما يذكره بعموري ، وهل هناك

---

(٣٨) انظر حسن حبشي . نور الدين والصليبيون أو حركة الافاقة الاسلامية في القرن السادس الهجري .

أكثر من أن يكون ولده بولدوين الصبى قد حل مكانه يوم ١٥ يوليو ١١٧٤ (٣٩) ·

★★★

وعاش وليم بعد موت عمورى ليكتب عن بولدوين الرابع ثلاثه أبواب أو « كتب » كما يسميها (٤٠) ، ولا يحسبن القارىء أنه أطال فى الكتابه عن عهــد تلميذه الملك ، بل لقد خالف كل ظن اذ أوجز حين كان الاسهاب متوقعا منه ، وكان ظن الذين لا يدرون شيئا عن بواطن الأمور ولا يعرفون منها غير ظاهرها أن له دالة على بولدوين لقربه منه ، وأنها تتيح له فرصه أكبر مما قد تتاح لغيره فى الوقوف على كل أسرار الدولة ، لكن الوضع الجديد فى المملكه كان مهيئا الفرصة لقوم حاولوا جهدهم ابعاده عن الملك أو فرض رقابة عليه حتى لا يعمد الى تكوين حزب موال لبولدوين يفسد تطلعات الطامعين فى الوصاية على الملك ·

ورأى وليم سماء المملكة تتلبد بالغيوم والعواصف السياسيه . كما هاله استفحال القوة المصرية استفحالا شجع أهل دمشق على أن يسلموا بلدهم وما حوله الى صلاح الدين مما جعل المملكه توشك أن تقع بين شقى الرحى من الســـمال والجنوب ، ورأى من الخير أن يشغل نفسه بالاهتمام بالأمور الكنسية والانصراف الى معاودة الاهتمام بكتابة تاريخه الكبير وكان يجد بين هذا وذاك ساعات يعاود فيها هوايته القديمة ، وتعنى بها مطالعه كتب التراث القديم الغربى ·

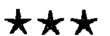
وقد أحس وليم بالحزن الشديد يسيطر عليه وزاد ألمه أن يضيع أمله فى أن يصبح بطركا لبيت المقدس فى أعقاب وفاه بطركها

---

(٣٩) الكتاب ٢١ · الفصل الثانى ·

(٤٠) هى الكتب ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ·

أماлريك فقد تمكن منافسه هرقل يوم ٦ أكتوبر ١١٨٠ من أن يسلبها منه بفضل الملكة الأم « أجنس » وحربها ٠ ومما يظهر ألمه الشديد لضياع أمله هذا أنه سكت سكونا شبه مطبق عن ابداء رأيه في هذا الانتخاب لما يثيره في نفسه من آلام وأحزان فكل ما قاله في هذا الصدد « ٠٠٠ مات أماлريك بطرك بيت المقدس بعد عشرين سنة من توليه بطركية القدس ، واذ ذاك أخذ مكانه هرقل رئيس أساقفة قيصرية » (٤١) ٠



منهجـــه :

سار وليم على نهج القدامى فى تقسيمه لمؤلفه هذا الى ما سماه ب « الكتب » التى هي فى مصطلحنا اليوم «الفصول» أو «الأبواب» ، كما قسم كل كتاب الى ما سماه «بالفصول» ، ويعنى بها «الفقرات» التى تضمنها هذا « الكتاب » ٠

وقسم وليم تاريخه الكبير هذا الى ثلاثة وعشرين « كتابا » تكاد تكون متساوية فى الطول الا الأخير منها ، كما يبدو أنه خص كل ملك من ملوكها « بكتابين » لم يستثن من ذلك سوى « جودفروى » فقد أفرد له كتابا واحدا ، وطبيعى أن يكون ما خصه به قاصرا على كتاب واحد لأن فترة حكمه لم تجاوز سنة واحدة ولم يكن معدودا بين من تولوا حكم مملكة بيت المقدس وسمى كل واحد منهم بالملك ، اذ انفرد هو عنهم جميعا بلقب حامى القبر المقدس ٠

كذلك خص بولدوين الرابع بثلاثة كتب ، أما الفصول التى يشتمل عليها كل كتاب فكانت فقرات بسيطة قد لا يتجاوز الفصل

(٤١) الكتاب الثاني والعشرون ، الفصل الرابع ٠

منها ـ حسب سمبته ـ صفحه واحده فان راد كان صفحتين ، وكان كل كتاب يسمل على ما يقرب من ثلاثين « فصلا » الا الأخير فلم يسمل على أى فصل بل كان ملخصا شاملا ترجم فيه عما يشعر به من احباط ·

★★★

وقد مهد لذلك كله بثمانية كتب قبل أن يبدأ بكتابه عن جودفروى أسار فى أولها الى ما أسماه بصحوة المسيحية لتخليص القدس وبين فيه نشاط بطرس الناسك وطلائع الحملة الأولى عبر البطاميه ثم ثنى بتجمعات الصليبيين فى القسطنطينيه بالاستيلاء على نيقية والزحف على آسيا الصغرى ، فاذا كان الكتاب الرابع قد تناول اجتياح الصليبيين لشمال الشام وبدء حصار أنطاكية التى استغرق حصارها عنده والاستيلاء عليها الكتاب الخامس أما السادس فيتعلق بما لاقاه الصليبيون من حصار وانتصارهم الذى مهد للاستقاق فى صفوفهم لولا أنهم تابعوا زحفهم الى بيت المقدس وهو ما استغرق بأجمعه الفصل السابع . أما الثامن فهو نهاية رحلة الحج والاستيلاء على القدس ثم يلى ذلك ما كتبه عن جودفروى فالملك بولدوين الأول وتوسع المملكه فى عهده واتساع رقعة أنطاكية ثم بولدوين الثانى والاضطرابات فى شمال الشام وهذه استغرقت منه أربعة كتب هى التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر وهنا ينتهى الجزء الأول من هذا التاريخ كما رتبه ولم ليبدأ الجزء الثانى بالاستيلاء على صور وامتداد النفوذ الملكى على الامارات اللاتينية أما الكتاب التالى لذلك وهو الرابع عشر فمن عهد فولك دانجو ويليه الخامس عشر عن محاولات الامبراطور البيزنطى جنا لبسط نفوذه على الامارات الصليبية ثم يجىء عهد بولدوين الثالث والملكة الأم « ملزند » وخبر الحملة الصليبية الثانية ويرتبط بذلك مباشره الاستيلاء على عسقلان وفشل الحملة المذكورة

حالا ثم التطلع الى مصر وكل ذلك تضمنه الكتب . السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر فاذا كان الكتابان التاسع عشر والعشرون فهما امتداد لترجمة هذا التطلع الصليبى الى صراع مع مصر حول مصر ومحاولة عقد تحالف صليبى بيزنطى لفتحها وذلك فى عهد الملك عمورى ، ثم يبدأ الكتاب الحادى والعشرون ببولدوين الرابع الأبرص وتنازع المصالح الشخصية بين الجماعات الصليبية ثم ختام ذلك كله فى الكتاب الثالث والعشرين وفيه نرى وليم يتساءل : أمن الممكن أن يتم انقاذ القدس على يد ريموند صاحب طرابلس ؟ ويدل هذا الاستفهام من جانبه على أنه كتبه فى أثناء الصراع بين الأمراء الصليبيين فى محاولة كل منهم السيطرة على بيت المقدس ، وكانت الأحوال لا سيما ظهور القوة المصرية الصلاحية يمثل خطرا على الصليبين أدركه وليم وصرح به ثم أثبت سير الأحداث صحة توقعاته ٠

★★★

وبعد فهذا تعريف عاجل بوليم الصورى وكتابه الذى كان الحافز لى على ترجمته هو قيامى بتدريس الحروب الصليبية فى كلية الآداب (جامعة عين شمس) بعد عودتى من انجلترا ، ثم شاءت الظروف أن أقوم بالمحاضرة فى نفس المادة فى قسمى البكالوريوس والدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، واعتبرت هذا الكتاب ـ وهو وثيقة تاريخية معاصرة لبعض الأحداث والتجريدات الحربية على العالم الاسلامى ـ من متطلبات محاضراتى هناك ، ثم طرأت فكرة تقديمه للنشر بالكلية بجدة ، فرأى زميلى وصديقى الدكتور حمد محمد العرينان أن تكون « مذكرات فلهاردوان » عن الحرب الصليبية الرابعة هى باكورة ما تنشره لجنة البحث العلمى بها ، وحظى الكتاب بموافقة المجلس العلمى للجامعة هناك ٠

وان كتاب رلسم الصورى هذا لهو واحد من مجموعة الكتب والوثائق المعلقه بهذه الحروب والمكتوبة باقلام معاصرين لها من غير العرب والمسلمين ، وحمدا لله ان مكنني من نشر خمسه مصادر منها حتى الآن ، وفي الطريق ـ ان شاء الله ـ اثنان ، أحدهمــا هو « الاسـتيلاء على دمياط » لبادربورن ، والآخر هو « ألكسسياد » أو تاريخ الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين بقـلم ابنــه « آنا كومنين » ·

ولقد اعتمدت في ترجمتي العربية هذه على النسخة الانجليزيه التى اضطلع بترجمتها والتعليق عليها المؤرخان السيدة اميلى اتوانر بابكوك ، و أ· كراى سنة ١٩٤٣ وهى فى مجلدين ضخمين ، وقد تفضلت مكتبة جامعة القاهره فأذنت لى بتصويرها ·

ولقد عنيت من جانبى بالمحافظة على مفهوم النص وروحه بقدر الامكان ، مع مراعاة الجانب العربى من حيث اللغة والأسلوب ، غير أنني أبحت لنفسى أن أستعمل لفظ « الصليبين » فى مواضع خاصة حين رأيت سياق الموضوع يتطلب ذلك حتى لا يختلط الأمر على القارىء ، فلا يعرف أى الجماعات المسيحيه يقصدها المؤلف ·

أما ما أضفته الى الترجمة العربية ـ وهو قليل ـ فقد وضعته بين حاصرتين على هذه الصورة [···] ، لكن حذفت من الترجمة العربية بضعة أسطر أملها على المؤلف طبيعة العصر والأحداث ومركزه الديني ، وهي سطور قد تكون لحمتها التعصب وسداها الجهل بالاسلام وعدم ادراك كنهه ، ولم يؤد هذا الحذف الى فراغ فى سياق الموضوع أو اخلال به ·

وستصدر هذه الترجمه باذن الله فى أربعـــة أجزاء بدلا من اثنين كما فى الانجليزيه وأرجو من الله التوفيق والهدايه ٠

القاهره فى :

د. حسن حبشى

التاسع من المحرم سنه ١٤١١ هـ

الحادى والثلاثين من يوليو ١٩٩٠ م


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلمة شــكر

أرى لزاما على أن أتقدم بالشكر الخالص للصـــديق الكريم الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان اذ تفضل فجعل هذه الترجمة من سلسلة مطبوعات « تاريخ المصريين » التي يشرف على اصدارها ٠

كما أشـكر الصديق العـالم الأب جورج قنواتي بدير الآباء الدومنيكان بالعباسيه فقد أعانني بكثير مما يعرفه هو وأجهله أنا من ارشادات العهدين القديم والجديد وأذن لي في الرجوع الى مكتبـــه الدير ٠

والمنه في عنقي لمكتبه جامعه القاهرة اذ أذنت لي بتصـــوير الترجمه الانجليزية كاملة وبذلك يسرت لي العكوف على نقـله الى العربية أنى كنت ، وشـــكرا للقوامين على مكتبات جامعات القاهره واسكندريه وعين شمس والملك عبد العزيز بجده ، ولزملائي وتلامذتي وأصـــدقائي في مصر والخارج ، ولتلميذي القديم تركي هزاع التركاني من السعودية فقد طالع معي مخطوطة هذه الترجمـــة وتفضل بنسخها ثم كتابتها على الآلة الكاتبه ٠

ح٠ح٠



الحروب الصليبية

(١٠٩٤ ـ ١١٨٤)



التمهيـــد

من وليم ـ الذى لولا رحمة الرب ما استحق ان يكون خادما للكنيسة المقدســة فى صور ـ الى الاخـوة المسيحيين الموقرين الذين قد يصلهم هذا الكتاب ٠٠٠٠ لكم الخلاص الأبدى من أجل السيد ٠

لا يشك انسان عاقل فى أن تدوين أعمال الملوك مهمة محفوفة بالصعاب والمخــاطر ، واذا نحينــا جانبا ذكر الجهد الذى لا ينتهى والمعاناة التى لا تنقضى ، وما يتطلبه عمل من هذا النوع من التحلى باليقظة الدائمة ، فان هوة سحيقة تفتح فاها أمام كاتب التاريخ الذى يلقى المشقه العظمى فى محاولته تجنب هذا الأمر أو ذاك ، ذلك لأنه فى الوقت الذى يحاول فيه النجاة من « خاريبديس » ، فالأرجح أنه سوف يقع فى براثن « سكيلا » التى تعرف كيف تدمره الدمار الشامل وهى محاطة بكلابها ، ذلك لأن الكاتب اما أن يؤجج غضب الكثيرين ضده وأثناء جريه وراء حقيقة ما وقع ، واما أن يلتزم الصمت ازاء مسيرة الأحــداث أملا منــه فى أن يقلل ما أمكن من

الامعاص منه ، حتى يبدو بلا أخطاء ، وذلك لأن تعمد مجاوزة الصدق واخفاء الحقائق عن قصد يعتبر أمرا مخالفا تمام المخالفة للواجب الملقى على عاتق المؤرخ ، ومما لا شك فيه أن فشل الفرد فى أداء الواجب المفروض عليه انما هو خطأ ، اذا كان مفهوم الواجب فى الواقع هو « مطابقة سلوك كل فرد لما يتفق وعادات بلده ونظمه » ٠

ومن ناحية أخرى فان الجرى وراء سلسلة من الأحداث دون ادخال تعبير عليها أو تحريفها عن محجة الصدق انما هو مسلك يثير الغضب على الدوام ، اذ يقول المثل القديم « ان التغاضى عن الحق يكسب المرء الأصدقاء ، أما التصريح به فيورث الكراهية » ويترتب على ذلك أمران :

اما أن يتراخى المؤرخون فى أداء الواجب الذى تقتضيه مهمتهم فيبالغون فى اظهار التوقير الذى يجاوز كل حد ، واما أنهم فى بحثهم الجاد عن حقيقة مسألة من المسائل يجلبون على أنفسهم الكراهية التى تنجم عن قول الصدق ، ومن ثم فان السائد هو أن من سمة هذين السبيلين أن يخالف كل منهما الآخر ، وأن يصبحا مصدر تعب لما تفرضانه من مستلزمات لا مناص منها ٠

لقد قال كاتبنا شيشرون « لئن كان الحق مضنيا لما ينجم عنه فى الواقع من كراهية مطبقة للصدق فان الاستسلام أشد رزية » ، وذلك لأن تعامل المرء بلين مع الصـــديق يحمله على الاندفاع فى التهور المؤدى للخراب » وهذا احساس ينعكس على المرء الذى يجور على مقتضيات الواجب فيكتم الحقائق الثابتة رجاء أن يكون أريحيا ٠

ان الكُتاب الذين تدفعهم الرغبة فى المداهنة الى أن يُضَمِّنوا عن قصد فى ثنايا مؤلفاتهم التاريخية ما ليس بحق انما يسلكون مسلكا شائنا ، والأحرى أن لا يُدرجوا فى عداد المؤرخين ، واذا كان

اخفاء الحقائق النابتة المتعلقة بأمر من الأمور يعتبر أمرا شسيعا ينافص مهمة الكاتب بمام المنافصه ، والأشد سناعه منه هو أن بخلط الحق بما ليس بحق ، فيقدم للأجيال القادمة التى نعتمد فسا قول الحق ما هو كذب صراح على أنه حقيقة ثابتة ·

وزيادة على هده المخاطر فان كاتب التاريخ كبرا ما يقابل مثل هذه الصعوبة ـ بل وما هو أشد منها ـ مما يحتم عليه أن يبدل قصارى جهده لتجنبها بقدر الامكان ، وأعنى بذلك أن كرامة الأحداث التاريخية الشامخة قد تنهار بسبب ضعف العرض ونقصان البلاغة ، لذلك ينبغى أن يكون أسلوب الكاتب في عرضه للأحداث على نفس المستوى العالى للأخبار التى يرويها ، ولا يسعى أن تكون لغة الكاتب وطريقة عرضه للموضوع دون المستوى الرائع الذى يجب أن يتوفر للموضوع ، ومن ثم فان أكبر ما يخشاه المرء هو أن يؤدى العرض السقيم الى افساد عظمة الفكرة ، فتبدو الأعمال الجوهرية وكأنها تافهة عديمة القيمة بسبب الضعف الذى يعتور سردها ، وقديما لاحظ الخطيب المصقع (شيشرون) فى القسم الأول من كتابه « الحوار التوسكانى » أن تدوين المرء لأفكاره ـ بدون أن تكون عنده القدرة على حسن ترتيبها أو ابرازها فى جلاء تام ، أو جعلها شيقة تجذب القارىء اليها انما هو عمل رجل يسىء الى الأدب بجهالة ويبدد وقته هباء » ·

★★★

ويبدو أننا فى كتابنا الحالى هذا قد وقعنا فى محاذير متعددة وشبهات جمة ، ذلك لأن سرد الأحداث يتطلب منا أن ندرج فى هذه الدراسة التى نقوم بكتابتها الآن كثيرا من التفاصيل عن أخلاق الملوك الشخصية وحياتهم وطباعهم الذاتية ، غير ملقين بالا عما اذا كانت هذه الحقائق حميدة فى حد ذاتها ، أم أنها خليقة بالنقد الذى

تستحقه ، ومن المحتمل أن نجد الأجيال التالية لهؤلاء الملوك ــ حين متابعتهم هذا الكتاب ــ صعوبة فى قبول ما احتواه بين دفتيه ، أو قد نغتصب هذه الأجيال من المؤلف غصبا لا يستحقه • وحينذاك سوف يعتبرونه أحد رجلين : اما أنه كذاب أشر ، أو حاسد كفور •

ويعلم الله أننا بذلنا جهدنا كى نتجنب التهمتين تجنب المرء للطاعون •

أما ما سوى ذلك فمما لا شك فيه أنه كان اندفاعا منا أن نحاول القيام بعمل هو فوق طاقتنا • كان فيه لعنا لا نرقى بحال من الأحوال الى روعة الموضوع وجلالة قدره ، ومع ذلك فقد تسنى لنا أن ننجز شيئا ما ، شأننا فى ذلك شأن الذين لا دراية لهم بالرسم ولم يقفوا على أسرار هذا الفن حين يسمح لهم فى العادة برسم الخطوط الأولى لصورة ما فيضعون الألوان غير المناسبة ، ثم تجىء بعد ذلك يد الفنان الصناع العارف بالألوان فيضيف لمسات جمالية أحسن من هذه اللمسات ، ولذلك فنحن ــ مع شدة تمسكنا بالصدق الذى لم نحد عنه قط ــ قد قمنا بمحاولات كبيرة لوضع الأسس التى يمكن للبانى الذى يبزنا بمقدرته الرائعة ــ أن يقيم عليها صرحا متكاملا •

وربما كان الأحدى أن ألوذ بالصمت بسبب القصور الخطير والعثرات الجمة التى تنتظر هذا المجهود ، وكان الأحرى بى أن أصمت وأرغم قلمى على الكف عن الكتابة ، غير أن ما تملكنى من حب دائم لوطنى قد دفعنى لولوج هذا السبيل ، اذ كانت احتياجات الوقت تتطلب رجلا مطبوعا على الاخلاص ، مستعدا لبذل حياته فى هــذا السبيل •

وأعود فأكرر أنه من حق الوطن ألا تظل تلك الأعمــال التى أنجزها هذا الوطن مطمورة فى زوايا الجهل وطيات الاهمال على مدى

قرن من الزمان ، وأن يسمح للنسيان أن يسحب عليها ذيوله من غير حق بل ان هذا الوطن يأمرني بعكس ذلك اذ يأمرني بالحفاظ عليها عن طريق قلمي من أجل نفع الأجيال القادمة ٠

لذلك فقد استجبت لارادته ، وشرعت في مهمة يأبى الشرف التنحي عنها ، ونهضت غير عابيء بنقد الأجيال التالية ، ولا مكترث بأي حكم تحكم به على أسلوبي الضعيف في معرض تناول مثل هذا الموضوع الجليل ٠

وليس من شك في أنني لبيت نداء الوطن بنفس الحماسة التي بذلها هذا الوطن ، عسى أن يكون العمل جديرا بالثناء الذي يتفق مع الاخلاص ٠

لقد انجذبنا بروعة تراب وطننا ، ولم نعبأ بضآلة امكانياتنا ، ولا الجهد الذي يبذل ، من غير اتكال على مساعدة ما ، ولكننا قمنا بهذا العمل مدفوعين بالود الصادق والحب الخالص ٠

يضاف الى هذه الحوافز ما أمر به الملك عموري الأول قدس الله روحه وصاحب السجل الباهر في الجهاد من أجل السيد ٠

ولقد حفزني هذا الأمر — وأسباب هامة أخرى — على أن آخذ على عاتقي القيام بهذا العمل ، أضف الى ذلك أنني قمت بوضع تاريخ آخر غير هـذا التاريخ اسـتجابة لأمر الملك الذي أمدني بالوثائق العربية الضرورية ، وكان المصدر الرئيسي الذي اتخذناه لذلك هو استعمالنا كتاب تاريخ بطرك اسكندرية الموقر سعيد بن البطريق الذي يبدأ من زمن [النبي] محمـد [صلعم] متضمنا أحـداث خمسمائة وسبعين سنة ، أي حتى عامنا الحالي هذا الذي هو عـام ١١٨٤ من مولد المسيح ، ومع ذلك فليس بين أيدينا لهذا الكتاب الحالي مصادر مكتوبة سواء في اليونانية أو العربية للاسترشاد بها ،

وانما كان اعتمادنا على الرواية الشفهيه وحدها ، الا فى ايراد قليل من الأحداث التى شاهدناها بنفسنا ، وتتبعنا سير الحوادث ، فيبدأ الكتاب بسفر أولئك الرجال والزعماء المغاوير الذين أحبهم الله فخرجوا استجابة لنداء السيد من ممالك الغرب ، واستولوا — بيد قويه — على أرض الميعاد ومعظم بلاد الشام ، ولقد تابعنا باخلاص عظيم التاريخ ابتداء من هذه النقطه لفترة تجاوزت أربعة وثمانين عاما ، انتهت بعهد بلدوين الرابع — وهو السابع فى ثبت الملوك ، اذا أدرجنا معهم لورد جودفروى الذى كان أول حاكم هناك ، ورغبة منا فى أن يزداد ويكمل علم أى راغب فى مزيد من التفاصيل .بأحوال البلاد الشرقيه فقد وصفنا أولا — فى ايجاز واختصار — متى كان احتلال هذه البلاد وكم كانت المآسى التى تحملتها كثيرة ، كما ألممنا أيضا بوصف حال المؤمنين من أهل تلك الحقبة الوسطى الذين كانوا يعيشون بين مارقى هذه الأرض ٠

ثم ذكرنا كيف نهض أمراء ممالك الغرب لتحمل مسئولية الحج بهدف تحرير اخوانهم بعد طول الأسر الذى عانوه ٠

★★★

فاذا قدر القارىء المهام المتعددة المتباينة التى تقع على كاهلنا فانه سوف يكون على يقين من أننا قد قاسينا مشقة كبرى ازاء نوع هذه المهام ، التى كان أولها المسئولية الضخمة المتعلقة بأمور تتصل بأسقفية صور الشهيرة الداخلة تحت حماية الرب ، والتى تم اختيارنا لتوليها ، لا لميزة خصصنا بها دون سوانا ، ولكن فضلا من الله وحده٠

وأما ثانيها فقد وكل الى القيام بأعمال خاصة بجلالة الملك حيث نيطت بى — فى قصره الشريف — وظيفة المستشار ، هذا بالاضافة الى ما كان هناك بين آونة وأخرى من شتى الأمور التى تتطلب

اهتمامنا ، فاذا أخذ القارىء هده الأمور بعين الاعتبار فانه سوف يكون أكثر تسامحا معنا ان هو وجد فى الكتاب الذى هو الآن بين يديه شيئا لا يقبله ، دلك لأنه حين يكون المرء مسعولا بمسائل متباينة فانه من المستحيل على الذاكرة أن تنسط على الوجه الأكمل ، كما يشق عليها أن تولى كل موضوع ما هو قمين به من العنايه ، كما أنه من المستحيل على الانسان أن يصرف عنايته الكلية الى شتى المواضيع، وأن يوزع اهتمامه عليها جميعا ، ثم يطلب منه أن يكون له من النشاط الذهنى مثل الذى يفترض أن يكون له لو أنه كان قد صرف همه الى أمر واحد فقط •

ومن ثم فان المرء ازاء هذه الظروف يكون أهلا لتسامح أكبر •

ان هذا العمل فى مجموعه يحتوى على ثلاثة وعشرين كتابا ، وينقسم كل منها الى عدد معين من الفصول حتى يتيسر للقارىء أن يجد ما يبحث عنه فى الأجزاء المختلفة من الرواية وانى أعتزم — ان مدت لى الحياة — أن أضيف من وقت لآخر الى ما كتب أحداث وقتنا التى قد تتمخض عنها تطورات المستقبل وأن أزيد عدد الكتب بقدر ما يسمح به الموضوع •

★★★

واننى أعتقد ولست مخطئا فى هذا الاعتقاد — أن هذا الكتاب يقدم بينة واضحة عن تجربتنا ، كما أننا وقد كتبناه استجابة لتجربتنا — قد أمطنا اللثام عن سلبيات كان لابد لها أن تظل مخفية لو أننا لذنا بالصمت ، غير أننا نؤثر أنْ لا نجد ما يزدهينا على أن نكون فى حاجة الى ما يهذب النفس (١) •

---

(١) أشار وليم فى النص هنا الى قصة لا يدرك معناها الا من يقرأ الاصحاح الثانى والعشرين من انجيل متى (١ — ١٤) من أن ملكا صنع عرسا لابنه وأرسل =

وأدعو الرب القـــادر وحـده على كل ذلك أن يكلأنا برحمته فلا يحيق بنا هذا المصير ، كما نعرف معرفة تامة أن للخطأ فى العادة ألفاظا كثيرة « وأن يخفى البعض شفتاه كاذبتان ومسـبع المذمة جاهل وكثرة الكلام لا تخلو من معصية » ٠

ومن ثم فاننا بروح من المحبة الأخوية ندعو مطالع هذا الكتاب فى الله ، اذا وجد ما يستحق النقد ألا يتردد فى تبيانه فى رحمـة صادقة وأن يقوم ما اعوج منا فيكسب لنفسه نعمة الحياة الأبدية ٠

كذلك نرجو مطالع هذا الكتاب أن يذكرنا فى صلواته فيكسب عطف الرب علينا ، فان وقعنا فى ثنايا هذا الكتاب فى خطأ فنرجوه ألا يتمنى لنا الموت ، عسى أن يتفضل مخلص العالم ـ بفضل طيبته الوفيرة ورحمته التى لا تفشل أبدا فيتغمدنا بغفرانه ، ذلك لاننـا نحن التعساء والخدم الذين لا جدوى منهم فى بيته مخطئون كل الخطأ أمام ضميرنا ، ونخشى يوم الدينونة خسة عظمى ٠

هنا ينتهى التمهيد

= عبيده ليدعو المدعوين الى العرس فلم يريدوا أن يأتوا ، فارسل غيرهم الى آخرين يدعوهم للوليمة « لكنهم تهاونوا » فقد مضى منهم الى حقله من مضى ، والى تجارته من كان يتاجر ، أما الذين بقوا فقد « أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم » ، فلما سمع الملك غضب وارسل جنوده وأهلك أولئك القاتلين ، وأحرق مدينتهم ، ثم قال لعبيده « أما العرس فمستحق ، وأما المدعوون فلم يكونوا مستحقين » ثم أرسلهم آمرا اياهم ليدعوا كل من وجدوه الى العرس ، فجمعـوا له « كل من وجدوهم ٠ أشرارا وصالحين ، فامتلأ العرس من المتكئين ، فلما دخل الملك لينظر رأى هنـاك انسانا لم يكن لابسا لباس العرس فقـال له ٠ « يا صاحبى كيف دخلت الى هنا وليس عليك لباس العرس ؟ » ، ثم يكمل وليم الصورة بالاشارة الى ما جاء فى الاصحاح العاشر من سفر الأمثال (١٩) فى « أن من يخفى المعصية فشفتاه كاذبتان ، ومشيع المذمة جاهل وكثرة الكلام لا تخلو من معصية » ٠ كما جاء فى النص ٠ وقد ساق وليم هذا كله فى استشهاد قصـير ليبرر موقفه ، وكان قصر الاستشهاد حاملا ايانا على هذه الحاشية فى هذه الترجمة العربية ٠

الكتاب الأول

المسيحية تهب لاستخلاص بيت المقدس ، وبطرس الناسك يبدأ فى الزحف مع جماعات أخرى ٠

فصول الكتاب الأول :

١ ـ ذكر قيام عمر بن الخطاب ثانى خلفاء محمد (صلعم) بالاستيلاء على بيت المقدس زمن الامبراطور هرقل ٠

٢ ـ الظروف التى مكنت عمر بن الخطاب من الاستيلاء على الشرق ولم تكن فى الحسبان ، وكيف أنه لما جاء الى بيت المقدس أمر باعادة بناء هيكل السيد ٠

٣ ـ كيف تحملت سورية طويلا أسر الرق تحت حكم الولاة المختلفين ، وكيف أحدث صداقة الامبراطور شارلمان العظيم مع هرون الرشيد ملك

فارس(*) على المسبحيين الذين كانوا يعيشون فى كنف المسلمين •

٤ ـ كيف انتقلت المدينه المقدسة الى نفوذ خليفة مصر ، وكيف أن نير عبودية المؤمنين صار غير محتمل زمن الخليفة الحاكم [بأمر الله) ، كذلك ما يتعلق بهدم كنيسة القيامة بالقدس •

٥ ـ عرض للظروف التى كانت سائده حينذاك بين الصادقين الذين كانوا يعيشون بين غير المتألهين•

٦ ـ الخليفة الطاهر يخلف أباه الكريه كحاكم لمملكة مصر ويعيد تشييد الكنيسة بناء على التماس رومانوس امبراطور القسطنطينية وبجهود « جون كاريانين » و « قسطنطين مونوماخوس » ويمدهما بالمواد اللازمة •

٧ ـ القول فى أصل الجنس التركى وتاريخه القديم .

٨ ـ ذكر أنواع الأهوال الكبيرة التى خضع لها العالم يومذاك •

٩ ـ كيف تمكن الفرس من احتلال كل البلاد •

١٠ ـ ذكر ذهاب كل جيوش المؤمنين معا الى المدينة المقدسة ، وما لقيته من المعاملة داخل القدس وخارجها ، وكيف وقعت المدينة مرة ثانية فى أيدي الترك •

(*) هكذا ينعته مؤرخنا ، والمقصود خليفة المسلمين ببغداد •

٢١ ـ بطرس الناسك يستدعى قواته الهاربة ويحاول الوصول من جديد الى تفاهم سلمى مع البلغار ، ولكن يحدث شغب جديد ـ أنكى من سالفه ـ وتتفرق كتائب بطرس ٠

٢٢ ـ بطرس يجمع سرادم جيشه المهزوم ويمضى الى القسطنطينية ، ثم يعبر البسفور ويعسكر فى سيبيا ٠

٢٣ ـ جيش بطرس يستولى فى غيابه على الماشية من الاقليم الواقع حول مدينة نيقية ويحتل احدى القلاع القريبة منها ٠

٢٤ ـ قلج أرسلان ـ أحد أمراء الترك ـ يسترد المكان المذكور آنفا ويقتل بالسيف كل من وجده فيه ٠

٢٥ ـ الجيش الصليبى يتحرك بكافة عساكره ضد قلج أرسلان لقتله اخوانهم التيوتون ، ولكنه يلقى الهزيمة وهو يحاربه ٠

٢٦ ـ قلج أرسلان المنتصر على شعبنا يدمر المعسكر ويأخذ من وجده فيه ما بين قتيل وأسير ، ثم يمضى لمحاصرة مدينة سيفيتوت ، غير أنه يرتد على أعقابه حين يسمع برسالة الامبراطور ٠

٢٧ ـ القسيس التيوتونى جوتسوك يصل الى المجر وهو يقود جيشا ثانيا ولا يتردد فى ارتكاب أعمال فاضحة فى حق المجريين يعف اللسان عن روايتها ٠

٢٨ ـ رسالة ملك المجر الى المدعو جوتشوك وجيشه والقضاء على هذا الجيش قضاء مبرما ٠

٢٩ ـ كيف أن جمعا كبيرا من القوم المفتونين الذين خرجوا فى أعقاب الجماعات الأولى راحوا يقتلون اليهود ويسيرون فى غير نظام .

٣٠ ـ قلعة فيزنبرج ومصرع سبعمائة مجرى ، ثم بيان كيف هلكوا أخيرا بارادة الهية وقتلوا جميعا تقريبا على يد العدو .



هنا يبدأ
الكتاب الأول

المسيحية تهب لاستخلاص بيت
القدس وبطرس الناسك يبدأ
الزحف مع جماعات أخرى

- ١ -

تذهب التواريخ القديمه والرواية الشرقية للقول بأنه فى زمن الامبراطور الرومانى هرقل بدأت تعالىم محمد [صـــلعم] تثبت أقدامها تثبيتا قويا فى الشرق •

ولما عاد هرقل من فارس متـوجا بأكاليل النصر عاد أيضـاً بصليب المسيح ، وأقام فترة من الزمن فى بلاد الشام رسم خلالها « موديستوس » المبجل أسقفا لمدينة القدس التى كان خسرو ــ كسرى فارس الطـــاغية ــ قد خــرب كنائسها ، فعهـــد الامبراطور الى « موديستوس » هذا باعادة ترميمها ، آخذا العهد على نفسه أن ينفق من ماله الخاص كل ما يتكلفه هذا الترميم •

فى هذا الوقت بالذات كان عمر بن الخطاب ــ ثانى خلفاء محمد [صلعم] فى مملكته وملكه ــ قد استولى على غزه ــ احدى مدن فلسطين الشهيرة ــ بجيش لجب من العرب لا يحصيه العد ، ثم ما لبث أن

تمكن بما تحت يده ، من الكتائب والحسود التى جمعها أثناء زحفه أن يفتح بلاد الدماشقة ويستولى على دمشق ، كل ذلك والامبراطور هرقل في فيليقية « لا يعمل شيئا سوى مراقبة الأحداث في تطورها، فلما جاءه الخبر بأن العرب قد دفعهم اعـــدادهم الكبير بجموعهم الضخمة الى غزو الأراضى الرومانية ولم يترددوا فى صم مدنها اليهم أدرك أن قوته ليست كافية لصد مثل هذا الجيش وقمع غلوائه ، فآثر السلامة بالرجوع الى بلده ، بدلا من أن يقاتل قوات لا تكافئها قواته ، وألا يغامر صدها فى حرب لا يعرف ما تتمخض عنه ، وكان الأهالى المغلوبون لا يطمعون الا فى حمـــايته اياهم ، لكنـــه غادرهم فازداد بأس العرب شدة مما ساعدهم فى زمن وجيز على الاستيلاء على جميع البلاد الممتدة من اللاذقية بالشام حتى مصر •

ولقد شرحنا فى كتاب آخر ، وفى دقة بالغة ، ما كان من شأن محمد [صلعم] ومتى كان ظهوره ، كما ألممنا بالأحداث التى انتهت الى أن يعلن أنه النبى المرسل من الله ، كما وصفنا هناك أسلوب حياته ودعوته والأراضى التى بسط عليها سلطانه ، وكم عاش من السنين وذكرنا خلفاءه وكيف اتبعوا طريقته فى نشر هذه المبادىء فى أرجاء الدنيا •

- ٢ -

لقد كانت هناك ظروف خاصة سهلت فتح الشرق ، ذلك أنه قبل سنوات قلائل من هذا الفتح قام خسرو ــ الذى أشرنا اليه حالا ــ بغزو بلاد الشام بالسيف ، فدمر المدن ، وأحرق ما حولها من البقاع، وهدم الكنائس ، وزج بالناس فى السجون ، ثم استولى على المدينة

المقدسه ، وقتل بحد السيف سته وثلاثين الفا من اهلهــا ، ثم رجع الى فارس حاملا معه الصليب الأعظم ، هذا الى جانب استصحابه ايضا « زكريا » اسقف بيت المقدس اسيرا وكذلك من بقى على قيد الحياة من سكانها ومن اهالى النواحى المجاورة .

كان هذا الحاكم الفارسي الجبار قد تزوج من ماريه احدى بنات الامبراطور [البيزنطى] موريس الذى كانت تربطه روابط الصداقة القويه بالبابا المبارك جريجورى [العظيم] الذى عمَّد أحد أطفال الامبراطور عند حوض المعمودية ، كما أن خسروا عُمد هو الآخر ارضاء لخاطر زوجته وظل محافظا على ما بينــه وبين الروم من العلاقات الودية طيلة حياة موريس الذى مات فحلفه على العرش القيصر فوكاس بعد أن غدر بموريس فاغتاله ، واذ ذاك أغار الملك خسرو على الامبراطورية وزحف عليها بجيش حرب الأراضى التابعة لها ، وذلك بسبب تقززه من خيانة أولئك الذين ارتضوا أن يولوا أمورهم رجلا دنيئا قد لطخت يداه بدم مولاه ، فعدهم خسرو شركاء لفوكاس فى اتفاق سرى واعتبرهم حلفاء فى الجرم ذاته ، كما أن زوجته مارية راحت هى الأخرى تزيد ما يصدره من غضب من أجل الثأر لأبيها ، فلما فرغ كسرى من فتح بقية الأراضى التى كانت تحت الحكم الرومانى كانت بلاد الشام هى آخر ما استولى عليه كما قلنا ، فقتل من أهلها من قتل ، وأسر منهم من أسر وساقهم معه الى فارس .

لذلك لما دخل العرب بلاد [الشام] وجدوها خالية قد غادرها أهلهـــا ، فبادروا لاغتنام الفرصـــة التى لم يكونوا يتوقعونهـــا لبسط سلطانهم ، وفرضوا نفس المصير على مدينة القدس الحبيبة الى الرب وان منوا بالحياة على سكانها القلائل ممن لا زالوا مقيمين بها عساهم ينفعونهم فى جمع الجزية التى فرضوها عليهم ، غير أنهم ســمحوا للمغــلوبين أن يعيــدوا ترميم ما دمر من الكنائس وأداء

سعائرهم الديسة ،كما أبقوا لهم أسقفهم ، وآذنوا لهم بممارسه الديانة المسيحية بلا قيد ٠

★★★

وفي أثناء اقامة عمر [بن الخطاب] ببيت المقدس راح يستقصى فى دقة عن موضع هيكل (١) السد ويسأل عنه الأهالى لا سيما الأسقف الموقر « سفرونيوس » خليفه « موديسوس » الطيب الذكر ، ويقال ان الأمير الرومانى « تيتس » هو الذى دمر هذا الهيكل أثناء تخريبه المدينة ذاتها ، فدل القوم [عمر] على موضعه وأشاروا الى ما بقى من أطلال ضئيلة تشير الى هذا الأثر القديم ، واذ ذاك أمر [عمر] باعادة بنائه ، ورصد قدرا كبيرا من المال للنفقة على ذلك الغرض ، كما جلب لبنائه العمال ، وحمل اليه – عن طيب خاطر – شتى مواد البناء اللازمة له من الرخام والخشب ، فما لبث الهيكل أن كمل فى زمن قصير ، واستوى على الصورة التى رسمها عمر له فى ذهنه ، والتى يراها اليوم زائر القدس ٠

ثم أوقف [الخليفة] على الهيكل كثيرا من الأملاك الفسيحة الغنية التى كان دخلها كافيا للحفاظ عليه سليما ، وللصرف على تجديد أجزائه القديمة ، وزوده بمصابيح لا تنطفىء أنوارها أبدا بفضل أولئك الذين يقومون بالخدمة فيه ٠

لكن لما كان كل واحد يعرف تمام المعرفة شكل هذا البناء ونفاسة صنعه فان تفصيل ذلك ليس من شأن هذا الكتاب الحالى ٠

على أنه توجد داخل هذا البناء وخارجه آثار قديمة قيمة ، ونقوش عربية محلاة بالفسيفساء التى يعتقد أنها راجعة الى هذا العهد ، وهى توضح اسم بانيه ، وما أنفقه عليه وتواريخ ذلك كله منذ البداية حتى كمل البناء ٠

---

(١) يقصد بذلك كنيسة القيامة ٠

- ٣ -

لقد دانت المدينه المقدسه ـ حبيبه الرب ـ لحكم الأعداء بسبب خطايانا وتحملت على مدى أربعمائه وتسعين سنه قيدا لا نستحقه وعانت المشقة على الدوام رغم اختلاف ظروف هذا الأسر بعضها عن بعض ، وكان تغير الأحداث المستمر يتمثل فى تبدل ولاتها وحكامها الواحد بعد الآخر ، كما مرت عليها ضراء وضاءة وأخرى كالحه تبعا لطبيعة كل حاكم تؤول اليه مقاليد الأمور بها ، وكان حالها أشبه بحال مريض تتحسن صحته تارة ، وتسوء أخرى بتغير الأيام ، ولكن الشفاء كان أمـرا مستحيلا ما دامت فى قبضة حكام طغاة وشعب لا يدين بدينها ، بيد أن السلام رفرف بجناحيه على شعب الله ابان عهد ذلك الحاكم الجديد بكل سناء ، وأعنى به هرون الملقب بالرشيد الذى دان له الشرق ، والذى لا زال تسامحه وعطفه النادرى المثال وطبيعته الرائعة محل تقدير عميق وثناء لا ينقطع فى الشرق حتى اليــــوم ٠

ولقـد قامت العـلاقات الطيبة بين هرون وبين المسيحيين على أساس من التفاهم الرائع الذى أرسى دعائمه الامبراطور الورع الخالد الذكر « شارلمان » عن طريق السفراء المستمرين جيئة وذهابا ، وكان الود العظيم من جانب ذلك الخليفة مصدر راحة كبرى للمؤمنين ، حتى لكأنهم يعيشون فى ظل حكم الامبراطور شارل وليس تحت حكم هرون ، وتطالع فى سيرة ذلك الخليفة الشهير قول القائل « ان علاقات شارلمان مع ملك الفارسيين (١) هرون صاحب السلطان على كافة أنحاء العالم ــ باستثناء الهند ــ كانت علاقات كريمة حتى ان الأمير [شارلمان] كان يؤثره بمودته على سائر ملوك الدنيا وحكامها، وكان يرى أنه لا ينبغى أن يكون التعظيم والاجلال الا له وحده دونهم جميعا ، ولما وفد على هرون الرسل الذين بعثهم شارلمان لزيارة القبر

---

(١) نقصد بذلك المسلمين ٠

المقدس وكنيسة القيامة ودخلوا عليه بالهدايا والتحف ، واعلموه بما جاءوا من اجله ، وافصحوا له عن رغبة مولاهم لم يكتف هرون باجابتهم الى كل ما سألوه اياه بل زاد فمكنهم من ملكية هذا المكان واعتباره من املاك شارلمان . فلما حان موعد اوبة الرسل الى مولاهم أوفد الرشيد سفراء من قبله الى شارلمان ، حاملين اليه هداياه الثمينة من الثياب الحريرية والتوابل وغير ذلك من منتجات الاقطار الشرقية ، كما كان قد أرسل قبل بضع سنوات من ذلك التاريخ الى شارلمان — بناء على رجائه — فيلا كان الوحيد عنده اذ ذاك :

وكان شارلمان يمد يد العون السخي على الدوام لمن يعيش فى القدس من المؤمنين الموجودين تحت حكم المارقين ، كما شمل بره من كان منهم يسكن مصر وافريقيا التى يحكمها الشرقيون المتعصبون ، ونقرأ فى ترجمة حياته « انه لما كان شديد التقوى فقد جرت عادته على بسط يده بالمال للفقراء فى سخاء بالغ ، سماه الاغريق بالزكاة ، آخذا نفسه بهذا العمل عطفا منه عليهم لسد حاجتهم ، ولم يقصر فعله هذا على من هم فى مملكته ، بل تعداهم الى كافة المسيحيين الذين يعيشون فى مسرة حتى ولو كانوا وراء البحار فى بلاد الشام ومصر وبيت المقدس واسكندرية وقرطبة .

أما الدافع الخاص الذى حمله على عقد أواصر الصداقة مع الملوك فهو طمعه فى أن يتمكن من مد يد الغوث والمساعدة لمن يعيشون تحت رحمة هؤلاء الحكام .

واذا أراد القارىء الوقوف على ماكانت تكابده القدس : مدينة الله وما حولها من شدة بسبب كثرة التغيرات للظروف والأحوال خلال هذه الفترة الانتقالية ، فليقرأ كتابى المسمى « تاريخ أعمال أمراء المشرق » فقد أجهدت نفسى فى أن يكون سجلا شاملا لأحداث حوالى خمسمائة وسبعين من السنين ، أعنى منذ زمن محمد [صلعم] حتى الوقت الحاضر . وهو سنة ١١٨٢ من مولد المسيح .

كان هناك فى ذلك الوقت صراع موصول الحلقات بين المصريين والفرس أشعلت جذوته المنافسة الضارية بينهما حول الزعامة ، على أن الامر الذى لا ينكره احد هو أن كل واحدة من هاتين الامتين كانت تعتنق مذهبا يخالف المذهب الذى تعتنقه الأخرى تمام المخالفة ، مما أدى الى حد كبير الى اثارة شعور البغضاء بينهما ، ولا يزال اختلاف المذهبين الدينيين بينهما حتى اليوم هو موضوع الجدال الناشب بين هاتين الأمتين سويا أفضى للقضاء على كل تراحم بينهما، حتى ان كل واحدة منهما تعتبر الأخرى كافرة ، وقد ذهب هذا الشعور مذهبا بعيدا أدى برغبة كل منهما فى مخالفة الأخرى حتى فى الاسم ، فيطلق أتباع المذهب الشرقى على أنفسهم اسم « أهل السنه » على حين أن الذين يؤثرون اتباع المذهب الشرقى المصرى — وهو أقرب ما تكون الينا — يطلقون على أنفسهم اسم «الشيعه» غير أن شرح الاختلاف فى الخطأ بينهما لا يدخل فى نطاق هذا الكتاب ٠

وقد أخذت مملكة مصر تزداد قوة يوما بعد يوم اذ استولت على الولايات والأقطار الممتدة حتى أنطاكية ، كما وقعت فى يدها مدينة القدس وغيرها من المدن التى خضعت لنفس القوانين ، وترتب على ذلك أن خفت بعض الشىء متاعب المسيحيين الذين دخلوا تحت سيطرتها ، شأنهم فى ذلك شأن سجناء يسمح لهم بالتمتع بقليل من الاستجمام ، وأخيرا أصبح الحاكم [بأمر الله] خليفة لهذه المملكة جزاء وفاقا للؤم الانسان ، فجاوزت خطايا هذا الخليفة خطايا جميع سابقيه ولاحقيه على السواء ، حتى غدا اسمه مضرب الأمثال عند الأجيال التالية التى تطالع خبر جنونه ، وكان هذا الرجل مشهورا بشتى ضروب الاثم والاجتراء على ارتكاب المعاصى مما جعل حياته — وهى كريهة عند الله والخلق معا — تستحق رسالة خاصة قائمة

بدايها ، فكان من الأفعال الذميمة التى اجترحها قيامه بهدم كنيسه القيامة التى شيدها فى الأصل « ماكسيموس » الموقر أسقف بيت المقدس بأمر الامبراطور قسطنطين ثم أعيد ترميمها ـ زمن هرقل ـ على يد « موديسوس » الموقر ٠

وكان والى الرملة واسمه « ياروق » وهو أحد رجال الحاكم بأمر الله ـ قد أخذ على عاتقه تنفيذ أمر الخليفة ، وسرعان ما أعمل معول الهدم فى البناء حتى سواه بالأرض ، وكان رئيس الكنيسه يومذاك هو «أوريسوس» المعظم حال من هذا الخليفه السفيه ، وتقول الرواية ان الخليفة اتخذ هذا الاجراء البعيد المدى ليبرهن لأهل ملته على مدى اخلاصه للمله ، اذ كانوا ينعتونه بالنصرانى قدحا فيه ونبلا منه لانه ولد من أم نصرانية ، ومن ثم حملته الرغبة فى محو هذه التهمة منه على أن يقترف تلك الجريمة ، ولما كان يعتقد أن لن يكون هناك بعدئذ اتهامات توجه الى شخصه وان خصومه لن تواتيهم الفرصة بعد ذلك لشن حملات ضارية عليه فقد هدم مهد الايمان الكاثوليكى الذى تصدر عنه الديانة المسيحية ٠

- ٥ -

أخذت أحوال مسيحيى بيت المقدس منذ ذلك الوقت تزداد سوءا ، ولايرجع ذلك فحسب الى ما يشعرون به من حزن مقيم بسبب هدم كنيسة القيامة المباركة ، بل وأيضا الى الأعباء المتزايدة التى يقاسونها من جراء مختلف الخدمات المفروضة عليهم ، فقد وجدوا أنفسهم مطالبين بدفع اتاوات وضرائب باهظة ينوء بها كاهلهم ، ويرفضها العرف وتشجبها الامتيـــازات التى منحهم اياها حكامهم السابقون ، هذا بالاضافة الى منعهم من أداء شعائرهم الدينية التى

كانوا يمارسونها سرا وجهرا تحت حكم الولاه المحتلين ، وكانوا كلما ران عليهم ظلام الأيام ألزموا بالبقاء داخل بيوتهم فلا يجرؤون على الخروج بين الناس ، بل انهم لم يعودوا يرون بيوتهم ملجأ آمنا لهم ، فقد كان خصومهم يحصبونهم بالحجاره ، ويرمونهم بالقاذورات ويسنون عليهم هجمات وحشية ويلاقون هم من الازعاج أشده، لاسيما في أعيادهم الخاصة ، وكانت التهمة العابرة يرمونهم بها أى فرد كافية لجرهم بالعنف وتوقيع القصاص عليهم وتعذيبهم من غير محاكمه ، كما تصادر بضائعهم وتجاراتهم ، وتنهب أملاكهم ، ويختطف الناس أبناءهم وبناتهم أمام أعينهم ويرغمون بالجلد تارة والكلمات المعسوله والوعود الكاذبة تارة أخرى على جب دينهم ، فان لم يفعلوا ذلك صب خصومهم عليهم جام غضبهم ، وأذاقوهم العذاب ألوانا ونصبوا لهم المشانق ·

وكان بطركهم الموجود آنذاك هو الذى يتحمل في بادىء الأمر هذه البلايا وتلك الاهانات ، ثم أخذ بعدئذ يحض أهل ملته – سرا وجهرا – على التمسك بالصبر ، ويعدهم بأكاليل الشهادة – في العالم الآخر – تنعقد على رءوسهم جزاء ما تحملوه من الشرور الدنيوية ، فكانت كلماته الهاما لهم وبلسما لجراحهم فاقتدوا به ، وراح كل منهم يواسى الآخر ويشد من عزمه ، يفعلون ذلك في حب متبادل ، فاستهانوا بالأهوال الدنيوية بلقوتها في سبيل المسيح ·

وان الأمر ليطول بنا جدا لو تكلمنا عن الحالات الفرديه ، أو تحدثنا عن ضروب التعذيب الجثماني الذى تحمله خدام المسيح هؤلاء بصبر يرجون منه أن تزلف لهم الجنة ، لكننى أسوق مثلا واحدا من أمثلة جمة لتدرك جلالتكم لماذا كانت أتفه الأسباب تؤدى بهم الى ورود حوض الردى ، ذلك أنه كان يعيش بين ظهرانى قومنا في مدينة القدس واحد من الأشرار الفجرة الذين انطوت نفسه على كراهية سوداء لأهلنا كانت تحمله على الدوام لاضطهادهم ، فدد

هذا الرجل مكيده فيها هلاكهم ، اذ انسل خلسه ذات ليله حاملا جيفة كلب ثم ألقاها فى ساحة الجامع الذى كان الموامون عليه - كذلك أهل المدينه كلهم - حريصين أشد الحرص على نظافته التامه ، فلما أهل فجر اليوم التالى أقبل المصلون على المسجد لاقامه الصلاه ، فوجدوا جثه الحيوان النجس يتصاعد منها النتن ، فثارت ثائرتهم ، وتعالت صرخاتهم حتى صخب المدينه كلها على صياحهم ، وأسرع الناس الى المسجد ، فأجمعوا الرأى كلهم - دون أن يشذ عنه أحد - على أن مسئولية الحادث تقع على كاهل المسيحيين وحدهم ٠ فماذا كان بعدئذ ٠

لقد تقرر اعدام جميع النصارى باعتبار أن الموت ولا شيء سواه - هو وحده الذى يمكن أن يكفروا به عن هذا الدنس ، فتأهب المؤمنون - وكلهم ثقه ببراءه ذيلهم - لتحمل الموت من أجل المسيح، وبينما كان الجلادون يتقدمون مسهرين سيوفهم ويوشكون أن ينفذوا الأوامر الصادرة اليهم اذا بشاب يافع يفيض قلبه بالنحوة يتقدم الجموع جاعلا نفسه الفداء لهم ويقول لهم :

« أيها الاخوة ٠٠ ستكون أكبر نكبة أن تهلك الكنيسه كلها بهذه الطريقة ، وانه لأجدى أن يقدم واحد حياته فداء للناس جميعا فلا يهلك الشعب المسيحى جميعه ، فعدونى أن تكرموا ذكراى سويا ، وأن توقروا أسرتى الى الأبد ، وتخصوها بالتشريف ، ان خلصتكم بأمر الرب ، فان عاهدتمونى أن تفوا بهذه الشروط خلصتكم جميعا بأمر الرب من هذه المذبحة » ٠

وأنصت المسيحيون الى كلماته فى فرح شديد ، وأبدوا استعدادهم للوفاء له عن طيب خاطر بما سألهم ، وقطعوا على أنفسهم العهد أن يخرج فى يوم عيد الشعانين موكب مهيب ممن هم من ذريته، يحملون الى المدينة أغصان الزيتون رمزا لسيدنا يسوع المسيح :

حينداك أسلم الساب نفسه لوجوه آهل بيت المقدس ، معلنا لهم أنه هو الذى اقترف ذلك الجرم ، فبرأ بذلك ساحة المسيحيين الآخرين ، اذ ما كاد القضاة يسمعون قصته حتى صفحوا عن بقية قومه ، أما هو فقد قتلوه بالسيف ، وهكذا قدم حياته من أجل اخوته ، وقابل الموت بعزم كريم ، ونام أطيب نومه مباركة وهو واثق كل الثقة أنه قد حظى بعطف الرب ٠

- ٦ -

ولقد تأتى أخيرا أن حلت الشفقة الالهية والعطف الربانى على هذا الشعب المنكوب حين وافاه العون الكريم بالرحمة بوضعه البائس، اذ فارق الأمير الخبيث الدنيا ، وتقلد من بعده ابنه « الظاهر » مقاليد السلطة ، فاجتث الاضطهاد من جذوره ، وجدد الاتفاقية التى نقضها أبوه ، وأحكم روابط الصداقة مع رومانوس امبراطور القسطنطينية الملقب بلهيوبوليس ، الذى استجاب الظاهر لرجائه فأذن للنصارى باعادة تشييد الكنيسة ، لكن على الرغم من حصول مؤمنى القدس الأتقياء على هذا الاذن الا أنهم أدركوا آن مواردهم المالية وحدها عاجزة عن اعادة بناء أمر عظيم كهذا الأمر ، ومن ثم أرسلوا سفارة الى « قنسطنطين مونوماخوس » الذى ولى العرش بعد « رومانوس » وصار اليه الصولجان والتاج فتضرع اليه السفراء باكين بين يديه ، ووصفوا له ما تكبده الناس من حزن ممض وشقاء بالغ بسبب تدمير كنيستهم . وتضرعوا اليه آن يعمهم سخاؤ الامبراطورى ليتمكنوا من اعادة تشييد الكنيسة ، وكان القوم قد عهدوا بهذه السفارة الى رجل من أهل القسطنطينية اسمه «جون كارياتيس» جمع بين شرف الأصل ونبل الخلق ، قد نبذ وراءه ظهريا جميع مباهج

الدنيا من أجل خدمة المسيح وصرف همه لرعاية الله . وكان جون هذا يعيش يومئذ فى بيت المقدس ، عارفا عن الدنيا ، باهجا بهج الفقراء من أجل المسيح ، فناط القوم به هذه المهمة فأداها صابرا غير مقصر،وأخلص فى عرضها بين يدى الامبراطور المبجل حبيب الله. ونجح فى مسعاه ، اذ وعده قسطنطين من ماله بالمال اللازم للسير فى اجراءات اعادة البناء ، وزاد فجعل هذه النفقة المالية من جيبه الخاص ، فلما أنجز جون مهمته على الوجه الأكمل آب الى بيت المقدس والفرحة تغمره لحصوله على الوعد الذى كان المؤمنون يتلهفون عليه ٠

وعلم القاصى والدانى بنجاح رحلته ، وتوفيقه فيما حصل عليه ، فارتفعت معنويات رجال الدين والناس جميعا ، وبدوا وكأنهم قوم أبلوا من مرض خطير ، وكان رئيس تلك الكنيسة فى ذلك الوقت هو البطرك « نقفور » ٠

لم يكد الناس يتأكدون من منحهم الاذن بالبناء وحصولهم على المال من الخزانة الامبراطورية حتى شيدوا كنيسة القيامة المجددة التى لا تزال حتى اليوم فى القدس ، وكان ذلك سنة ١٠٤٨ من ميلاد المسيح ، أعنى قبل تحرير المدينة بواحد وخمسين عاما ، وبعد هدم الكنيسة بسبع وثلاثين سنة ، فلما كمل البناء واستقام عاليا رأى الناس فيه عزاء لهم عما كابدوه من الأهوال والأخطار القاتلة التى تعرضوا لها من قبل ٠

بيد أن الشعب المؤمن لم يتخلص تماما من المتاعب والبلايا التى لم تتوقف عن أن تصيبه بين آن وآخر ، فكم تعرض للبصق والصفع، وطالما زج به فى السجن وكبل بالقيود ، ولم يقتصر الأمر فى الاضطهاد على من كانوا بالقدس وحدها من المسيحيين بل تعداهم الى من كانوا يسكنون فى بيت لحم « وتكوا » أيضا ، ولم يحدث

أن جاء وال جديد أو أرسل الخليفة نائبا عنه الا تجددت الاهانات تنصب على رأس شعب الرب المتدين الذى لم يقصر أبدا فى الوفاء بكل ما هو مفروض عليه ، ثم يهدد بعد ذلك مباشرة بهدم الكنيسة ، حتى صارت هذه المعاملة عادة تتجدد كل سنة تقريبا .

واصطنعت شتى الطرق لابتزاز هذا الشعب ، فاذا أراد مضطهده اغتصاب أى شيء منه أو من البطرك وتلكأ هؤلاء فى الاستجابة هددوا فى الحال بهدم كنيستهم .

وكانوا يعانون كل سنة على وجه التقريب هذه المعاملة ، فيدعى النواب الجدد أن أوامر ولاتهم صريحة بتسوية الكنائس بالأرض فى الحال ان تجرأ أصحابها على التأخير فى دفع الجزية والضرائب المفروضة عليهم .

لكن على الرغم من ذلك فان المسيحيين نعموا ـ على طول مدى حكم المصريين والفرس ـ بأحوال معيشية أطيب من التى عاشوا فى ظلها بعد أن بسط الترك سلطانهم ومدوا نفوذهم على ممتلكات المصريين والفرس ، اذ أخذت أحوالهم تزداد سوءا مرة أخرى منذ أن أصبحت المدينة المقدسة تحت اشراف الترك ، كما قاسى شعب الله (على مدى ثمانية وعشرين عاما من الحكم التركى) مشاقا أعظم هولا من المشاق التى عاناها تحت نير المصريين والفرس والتى بدت فى نظره أقل فداحة .

- ٧ -

وسوف نتحدث كثيرا عن الترك فى هذا الكتاب وعن عدوانهم على شعبنا كما سنقص أيضا أخبار البطولة المجيدة التى طالما قمنا بها ضدهم ولما كانوا قد دأبوا منذ ظهورهم حتى الآن على الاندفاع الطائش فى مهاجمتنا فانه يبدو من الأوفق فى الكتاب الحالى أن نقدم موجزا عن نشأة هذا الجنس وتاريخه القديم ، ونتكلم كذلك عن نبوئه مقعد العظمة التى تشهد الأخبار أنهم حافظوا عليها آمادا طويلة .

لقد جاء جنس الترك أو التركمان (وهما من نبعة واحدة) فى الأصل من المناطق الشمالية ، وهم قوم متفرقون فى المناطق ولا يقيمون فى مكان واحد ، بل كانوا يتجولون على الدوام هنا وهناك سعيا وراء المرعى النضير لقطعانهم . ولم تكن لهم مدن أو قرى أو أماكن معينة يستقرون فيها ، فان رأت احدى القبائل أن تغير مكانها شدت بأجمعها رحالها وخرجت تسعى وقد نصبت عليها شيخا يكون أكبر رجالها سنا ، وهو الذى ترفع اليه القبيلة شتى مشاكلها فيقضى فيها بما يرى ، ويلتزم المتخاصمون بطاعته فيما قدر وقرر ، لأنه لم يكن مسموحا لأحد ما أن يتبع هوى ذاته ويخالف ما يقضى به الشيخ ، وكانوا يأخذون معهم أثناء تجوالهم جميع ما يحتاجونه من علف الجياد ، ويستصحبون معهم الماشية والغنم وكذلك عبيدهم ونساءهم ، وذلك كله هو جميع ما يملكون .

وهم لا يهتمون بالزراعة ، ولا يعرفون البيع ولا الشراء ، وليس لهم من وسيلة فى الحصول على ضرورات الحياة سوى المقايضة فان أعجبهم موضع معشوشب لطيف وأرادوا النزول به فترة من الوقت دون اضطراب أرسلوا من قبلهم طائفة من أعقل رجالهم الى صاحب الناحية يسألونه أن يأذن لهم بضرب خيامهم هناك ، فاذا انتهوا الى

انفاق مرض على دفع قدر معين دفعوه لحاكم هذه الناحيه ، ثم يقيمون بعد ذلك في الغابات والمراعي وفق الشروط المبرمة ·

★★★

وحدث ذات مره أن انفصلت طائفه من هؤلاء الناس عمن سواها ودخلت بلاد فارس ، فوجدت الاقليم ملائما كل الملاءمه لاحتياجاتها، فدفعت للحاكم ما اتفقوا معه عليه في البدايه ، وأقاموا هناك ردحا من السنين أطول مما جرت به عادتهم ، وتزايد خلال هذه الفترة عددهم زياده هائله ، والواقع أنه لم يكن هناك حد نقف عنده كثرتهم ، حتى انتهى الأمر أخيرا بملك فارس والأهالي أن يتخوفوا من تزايد عددهم الكبير وتوجسوا خيفه منه ، فراحوا يقلبون الأمر فيما بينهم حتى انتهى بهم الى وجوب استعمال القوة في طرد هؤلاء الدخلاء من مملكتهم ، لكنهم ما لبثوا أن رأوا تغيير هذه الخطه . فأضافوا مطالب جديدة زادت من المصاعب المتراكمه دون أن يخف الضغط المعتاد ، وكانوا يطمعون أن يؤدى هذا الأمر الى ارهاقهم ارهاقا يحملهم على النزوح من تلقاء أنفسهم ومن غير ضغط عليهم ، ومع ذلك فقد ظلوا أعواما طوالا بعد ذلك متحملين عبئا ثقيلا من المتاعب ، كما أرهقتهم الاتاوات المفروضة عليهم ، وأخيرا تشاوروا فيما بينهم فقر رأيهم على أنه لم تعد لهم طاقة على تحمل ما هم فيه ·

فلما علم الملك بذلك أمر المنادى أن ينادى بوجوب رحيلهم جميعا من أرجاء المملكة في فترة معينة لا يتجاوزونها ، ومن ثم عبروا نهر « كوبار » وهو حد المملكة في تلك الناحية ، واغتنموا الفرصه اذ ذاك لاقامة جموعهم الكثيفة ، فلما تهيأت لهم الحياة في فسحة من الأرض وفي رقعة أوسع مما كانت لهم من قبل تأملوا ما هم فيه من الكثرة ، فراعهم أن يستكين جيش كبير لا يحصيه العد كجيشهم هذا لصلف أي آمر ، وعجبوا من أنفسهم أن يتحملوا شنآن الخدمة

ودفع الجزيه وكان من الجلى أنهم يماثلون الفرس وغيرهم من الشعوب فى العدد والبأس ، وبدا لهم أن العقبة الوحيدة التى تقوم أمام احتلال الأراضى المجاورة بالقوة انما ترجع لعدم وجود ملك يتولى أمرهم ، كما هو الحال فى بقية الأمم الأخرى .

لذلك قرروا أن يولوا عليهم ملكا فاستعرضوا قومهم جميعا فوجدوا من بينهم مائة أسرة لها الصدارة على غيرها ، فأمروا أن يخرج رجل من كل أسرة ومعه قوسه ، فتجمعت بين أيديهم حزمة فيها مائة قوس بعدد العائلات ، واذ داك استدعوا صبيا صغيرا وأمروه أن يسحب سهما واحدا بعد أن غطوها ، وكان الاتفاق بينهم على أن يتم اختيار الملك من الأسرة التى منها السهم الذى يسحبه الصبى ، وشاءت الصدفة أن يكون السهم المسحوب هو سهم السلاجقة فكان الملك الذى يلى أمرهم فى المستقبل من هذه الأسرة حسبما جرى عليه اتفاقهم .

ثم أمروا باختيار مائة فرد من السلاجقة اشترطوا فيهم أن يكون كل واحد منهم أكبر رجال عشيرته سنا وأعظمهم خلقا ، وأحسنهم طبعا ، وأكثرهم اقداما ، ثم يتقدم كل واحد من هؤلاء برمح عليه اسمه وجعلوا من هذه الرماح مرة أخرى حزمة وأحسنوا غطاءها ، ونادوا ثانية على الغلام ذاته (أو آخر فى مثل براءته) وأمروه أن يسحب رمحا فكان الرمح الذى سحبه الصبى يحمل اسم سلجوق .

وكان سلجوق هذا رجلا جميل المنظر من أسرة مرموقة ، قد ذاع أمره وصيته فى عشيرته ، وعلى الرغم من كبر سنه الا أنه كان قوى البنية . قد طال تمرسه بفن الحرب ، وكان كل شىء فيه يشير الى أنه أمير عظيم .

نصّب الرجل باجماعهم كبيرا عليهم ، ووضعوا في يده السلطة الملوكيه ، ووفروه التوفير الواجب نحو الملك واقسموا على طاعته وقطعوا له يمين الولاء الصادق بتنفيذ كل ما يقضى به فيهم ، فبادر هذا الملك في الحال الى استخدام السلطه الموكله اليه للعمل على ما فيه خير المملكة وبعث المنادى في الناس المجتمعين أن يعبروا النهر من جديد بكل كتائبهم وأن يحتلوا أرض فارس التى غادروها منـــذ قليـــل ، كما أمرهم بالاســتيلاء على المملكة المجــاورة حتى لا يضـــطروا في مستقبل أيامهم أن يهيمــوا على وجوههم في أرض الغير ، وحتى لا يكونوا عرضة لاستبداد غير محتمل من الشعوب الغريبة عنهم ٠

وتمكنوا في مدى سنوات قلائل من اكتساح بلاد فارس وجميع الممالك الشرقية والتغلب على بلاد العرب وغيرهم من أصحاب النفوذ والسلطة من الأمم الأخرى ، وهكذا أتيح لهذا الشعب البسيط التافه أن يتسنم فجأة معارج الذروة ويتبوأ القمة حتى ملك الشرق كله ٠

وكان حدوث ذلك قبل ثلاثين أو أربعين عاما من قيام أمرائنا الغربيين بحملة الحج التى هي موضوع هذا الكتاب ٠

ولكي نفرق على الأقل في الاسم بين هذه القبائل التى نَصَّبت عليها ملكا فنالتها الشهرة العظيمة وذيوع الصيت وبين أولئك الذين لا زالوا محتفظين بأسلوب حيــاتهم الخشن الفطرى فانا نقول ان الجماعة الأولى تعرف الآن بالترك ، وأما الثانية فتعرف باسمها الأصلى وهو « التركمان » ٠

ولما ترك للترك غزو جميع ممالك الشرق تطلعوا لفتح مصر القوية فزحفوا على بلاد الشام ، واستولوا على بيت المقدس واحتلوا عدة مدن قريبة منها فزادوا من متــاعب المؤمنين الساكنين هنــاك زيادة أرهقتهم كل الارهاق لما فرضوه عليهم من أعمال يؤدونها لهم ، كما أشرنا الى ذلك حالا ٠

- ٨ -

لم يكن المؤمنون فى الشرق وحدهم هم الذين أباح عليهم الطغاة بكلكلهم بل لقد ضعف الايمان ووهى فى الغرب وفى كافة انحاء الارض ، لا سيما بين من كانوا يسمون بالمؤمنين فتلاشت خشية الله من قلوب الناس ، وضاع العدل من الارض . وانعدمت الطمأنينه اذ فشى العنف بين الامم ، وساد الغش وعمت الخيانه والخديعه والاحتيال كل صقع وناد ، وطويت كل فضيله . فلم يعد وجود لها وصارت عدما وارتفعت رايه الشر مكانها . والذى لا مراء فيه هو أن الدنيا قد بدت وكأنها منحدره فى هوه الظلام ، وأنه قرب الموعد النائى لظهور ابن الانسان « فقد أمسك الكثيرون عن عمل الخير ، وأصبح الايمان فى العالم غريبا ، وعمت الفوضى ، ولم يعد أحد يراعى مكانه صاحب مكانه ، وخيل للناظر أن العالم يريد أن يعود القهقرى الى الوراء الى وضعه الأول من الفوضى التى كان عليها ، كما لم يعد الأمراء الكبار الذين كانوا ملزمين بالسير برعيتهم نحو السلام مكترثين باتفاقيات السلام التى تعقد بين بعضهم والبعض الآخر ، وراح كل منهم يقاتل حتى لأتفه الأسباب ، وعاثوا فى الأرض فسادا يحرقون كل ما يلاقونه ، ويستولون على الغنائم التى وجدوها ، ومكنوا أتباعهم السفله الأوغاد من اغتصاب ما يملكه الفقراء ، ولم يعد وسط الكوارث الجمه طمأنينه على أية ملكيه ، وكان مجرد الشك فى حيازة الشخص لشىء ذى قيمة سببا كافيا لتقييده والزج به فى السجن حيث يلقى من العذاب الجثمانى ما لا يحتمل ، ولم تعد أمتعة الأديرة والكنائس بمنجاة من هذا الشر ، كما لم يعد أحد يراعى ما لممتلكات هذه الأماكن الطاهرة من امتيازات منحها الأمراء الأتقياء لها ، وانعدم التقدير الذى كانت تضفيه عليها مكانتها الرفيعة التى كانت لها من قبل ، فاقتحمت المعابد وانتهكت حرماتها، ونهبت الأوعية المعدة للخدمة المقدسة ، ولم تفرق يد الانتهاك بين

الطـــاهر والدنس ، وانعـــدم التمييز بينهما وشملت الأســلاب فيما شملت أكسيه المذابح والأردية الكهنوتية والأواني المخصصــه لخدمة السيد ، وتعقبوا اللائذين بأقصى الأماكن الدينية والمعتصمين بالاحرام المقدسه واللاجئين الى ساحات الكنائس فطالتهم ايديهم وساقوهم الى التعذيب ، وجرعوهم كأس الردى دهاقا ، هـذا الى جانب اللصوص الظلمه الذين تسلحوا بالسيوف في الطرق العامه وراحوا ينصبون الكمائن لتصيد المسافرين ، فلم ينج من بطشهم حاج ولم يسلم من شرهم رجل دين ، ولم تكن القرى هي الأخرى بمنجاة من الأخطار لأن السفاحين المحليين أحالوا جميع الشوارع والدروب الى أماكن تبث الخوف في نفوس الأبرياء ، وربما كان أسد الناس عرضة للوقوع في المهالك هم أبعدهم عن الشبهات ٠

ومورست شتى أنواع الفجور جهرا ومن غير حياء كما لو كانت أمرا مشروعا . ولم تعد تراعى روابط القربى من الدم والزواج ، وتخلى الناس عن العفة ــ وهي غاليه عند الله وملائكته ــ فنبذوها نبذ النواه ، وصارت الصدارة للدعارة والانكباب على الشراب والمهالك على ألعاب الميسر والقمار التي تحتـــاج الى سهرات لليلة طويله ، فمارسوا ذلك كله في ساحات المعـــابد ، وانعدم التدبر والتعفف وساوى رجال الدين بقية الناس في ممارسة الخناء غير السريه وصاروا كمن نقرأ عنهم في الأنبياء حين يقال :

« كما الشعب هكذا الكاهن ، وكما العبد هكذا سيده » (١) فقصر الكهنـــة في أداء واجبـــاتهم « وكلهم كلاب بكم لا تقـــدر أن تنبح » (٢) ، فكانوا لايتورعون عن مقابلة أي أحد « ولا نأبى رؤوسهم

(١) هوشع ٤ : ٩ ، واشعيا ٢٤ : ٢٤ ٠
(٢) اشعيا ٥٦ : ١٠ ٠

رب » (١) الحد . وصاروا كالرعاه الدين أهملوا قطعان الماسيه الموكول اليهم حراستها وتركوها عرصة لهجمات الدئاب ، وداسوا كلمات المسيح حيث يقول (٢) « مجانا أخذتم » مجانا اعطوا » ، ولم يتورعوا عن خطيئه السيمونيه . فلطخوا بعار حجرى (٣) .

فهل ثم حاجه لمزيد من القول ؟

والخلاصه أن أصبحت الصداره للرذائل « اذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض » ، ولم تستطع تهديدات الرب التى تحلت كنذير شؤم من السماء ولا الظواهر الأرضية أن تزجر من سلكوا طريق الشر ، فانتشرت المجاعات وعمت الأوبئه وأرعدت السماء بالبرد (٤) ، وضربت الزلازل كثيرا من البلاد المختلفة وظهر غير ذلك من الدلائل التى عددها المسيح فى الانجيل (٥) .

ومع ذلك فلم يرعو الناس عن غيهم بل ظلوا يرتكبون شتى الموبقات (٦) ، شأنهم فى ذلك شأن الأغنام تتمرغ فى روثها (٧) .

وأهانوا الرب الرءوف الذى تعذب طويلا فكان مثلهم فى ذلك مثل الدين قال فيهم السيد (٨) .

---

(١) المزامير ١٤١ : ٥ .

(٢) متى ١٠ : ٨ .

(٣) انظر القصة والخبر كاملين فى الملوك (ثان) ٥ : ٢٠ – ٢٧ .

(٤) التكوين : ١٢ .

(٥) اشارة الى ما ورد فى متى ٢٤ : ٧ من قوله « لأنه تقوم أمة على أمة ، ومملكة على مملكة وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل فى اماكن » .

(٦) راجع قول السيد المسيح فى لوقا ٢١ : ١١ .

(٧) راجع رسالة بطرس الثانية ٢ : ٢٢ حيث قال « كأنهم كلب قد عاد الى قيئه ، وخنزيره مغتسلة فى مراغة الحمأة » .

(٨) راجع أرميا ٥ : ٣ ، ٥١ : ٩ « ضربتهم فلم يتوجعوا . أفنيتهم وأبوا قبول التأديب » .

« يا رب أليست عيناك على الحق · ضربتهم فلم يتوجعوا · أفنيتهم وأبوا قبول التأديب · صلبوا وجوههم أكثر من الصخر · أبوا الرجوع » ، وكذلك قوله « داوينا بابل فلم تشف » ·

- ٩ -

حين فاض مرجل الغضب بالرب من هـذه الأمور قضى على المؤمنين الصادقين الموجودين فى أرض الميعاد أن يرسفوا فى قيد العبودية المشار اليها من قبل ، وأن يقاسوا من الشدائد ما يعجز اللسان عن وصفه ، وبالاضافة الى ذلك فانه أثار عليهم خصومهم وصب عليهم سوط عذاب فابتلى الذين ظلوا حتى هذه اللحظة سادرين فى غيهم ومعتقدين أن كل شيء سيظل سائرا وفق هواهم ذلك أنه بينما كان « رومانوس » الملقب بـ « ديوجينوس » يحكم الاغريق ويدير دفة أمور المملكة فى القسطنطينية على أتم صورة من النجاح اذا بواحد من حكام فارس وسورية الأقوياء واسمه ألب أرسلان ينهض من قلب الشرق بعساكر كثيفة جمعهم من شتى الأمم الجاحدة. وكانوا من الكثرة بالصورة التى غطت ـ كما قيل ـ وجه البسيطة ، كما اصطحب معه العربات الحربية والفرسان ، ومشت خلفه قطعان الماشية والأغنام ، وكان مجهزا بكل شيء تجهيزا رائعا ، وتقدم حتى دخل الامبراطورية [البيزنطيه] وأخضعها كلها لسلطانه وسيطر على كل شيء خارج المدن من الحقول والبلدان المسورة والقلاع المنيعة دون أن يخرج أحد لصده ولم يعترض زحفه أى معترض ، ذلك لأن كل واحد من الناس كان لا يعنيه غير سلامة نفسه ، ولا يكترث حتى بنسائه ولا أطفاله بل ولا بالحرية ذاتها ، وعلم الامبراطور فى هذه الأثناء بأن جيشا قويا معاديا له كأنه السيف المسلول يهدد بقطع الرقاب قد شرع فى تخريب الامبراطورية المسيحية ، فدفعته

شده انشغال باله الى استدعاء قواته من الفرسان وجميع المساه الذين تستطيع الأمة تقديمهم ، اسجابة لما يفرصه الموقف الحرج ٠

فماذا نقول أكثر من ذلك ؟

لقـــد زحف الامبـراطور بـكل ما تجمـع لديه من الكتائب ، وما حشده من الفرسان الكثيرين ، ولكن زحفه كان على غير رضا من الفلاقى الخصم لكن بعد أن كان قد استولى على قلب الامبراطوريه وأخذ يتوغل فى داخل البلاد ٠

ثم كانت المعركة التى شبت بعـد ذلك فى ملازكرت معركة ضارية ضراوة تتناسب مع قوتين تعادل كل منهما الأخرى تقريبا وتحرك كلا منهما كراهية يزيدها عنفـا ايمان شديد الصـلابة ، وكراهية لمعتقدات يعتبر الواحـد منهما أن خصمه يصدر فيها عن دنس ٠

فماذا نقول أكثر من هذا ؟

لقـــد باد الجيش النصرانى ، ودارت الدائرة على صـــفوف المؤمنين ، وسفك العدو دماء فداها المسيح بدمه ، وكان أسوأ النكبات التى حاقت بهم وقوع الامبراطور فى الأسر ٠

وعاد من هذا الجيش من قيضت لهم الحياة ليقصوا نبأ النكسه التى ألمت بهم ، فاستمع الناس فى ذهول لما يقولون ، وأدى بهم الحزن الذى استولى على نفوسهم الى اليأس من حياتهم وسلامتهم ، فأسلموا أنفسهم للبكاء الممض ٠

فى هذه الأثناء انتشى العدو العظيم ــ وان يكن كافرا ــ بنصره الساحق ، وأخذ يباهى بما أحرز من الظهور ، فأمر [ألب أرسلان]

باحضار الامبراطور من يديه ، وجلس هو على عرشه الملوكى ، ثم أمر بطرح رومانوس تحت قدميه ، وأراد اظهار احتقاره لكل ما هو مسيحي فاتخذ من جسد الامبراطور موطئا لقدميه ، وراح يدوسه صعودا ونزولا ، حتى اذا رضيت نفسه بما ألحقه به من تحقير وازدراء أمر طائفة من كبار رجال الامبراطور الذين أسروا معه أن يرفعوه من على الأرض ، وأذن لهم جميعا بالرحيل •



حين صك نبأ هذه الاهانة سمع أمراء المملكة بادروا الى اختيار رجل آخر ولوه أمرهم ، شعورا منهم بأن رومانوس ــ الذى لقى هذه الاهانات الجسدية ــ لم يكن بعد أهلا لحمل الصولجان ، ولا جديرا بهالات الشرف التى تليق بأغسطس ، بعد أن فضح أقبح فضيحة ، ثم سملوا عينيه ، وان تكرموا عليه بالحياة ليعيش ما بقى من أيامه كمواطن عادى •



لم يصادف ملك شاه أية عقبة فى تنفيذ أهدافه ، فقد نجح فيما أقدم عليه ، اذ استولى على جميع البلاد الممتدة من لاذقية الشام الى مضيق البسفور الذى ينساب الى جوار القسطنطينية ، وكانت الأرض التى استولى عليها تقدر برحلة ثلاثين يوما طولا ، وعشرة أو خمسة عشر يوما عرضا واسترق جميع سكان المدن والقرى ، وهكذا (١) « غضب الرب على شعبه وكره ميراثه وأسلمهم ليد الأمم، وتسلط عليهم مبغضوهم •

---

(١) المزامير ١٠٦ : ٤١ •

ثم كانت مدينه أنطاكيه الهامة آخر ما استولى عليه ، وكانت لها الصدارة بين كثير من الولايات في النبل والروعة . اذ كانت أول مركز لأمير الحواريين ، ثم أصبحت تدفع الجزيه لخصوم ملتها ، وهكذا دخل تحت سيادة المارقين – وفي زمن قصير نسبيا – بلاد « كوليسيريا » بما اشتملت عليه من ولايات فينيقية وايسوريا و « بامفيليا » و « ليكيا » و « كبادوسيا » و « غلاطيه » وأبصا ولايتا « بونتوس » و « بسينيا » وقسم من آسيا الصغرى ، وتشتهر كلها بكثرة مواردها ، وكان أغلب سكانها من النصارى لكن جرى عليهم الأسر ، وغلبت الكنائس على أمرها وامتدت اليها يد التدمير ، وانطلق الأعداء يطاردون الملة المسيحية لا تأخذهم في هذه المطاردة هوادة اذ أجمعوا العزم على استئصالها ، ولو كان تحت يد ملكشاه قوة بحرية لتم له ما أراد من غزو جدال فتح المدينة الملوكية (أعنى القسطنطينية)، ذلك لانه بث في نفوس الاغريق من الرعب ما جعلهم يستبعدون سلامة أنفسهم حتى داخل أسوار عاصمتهم ، ولم يعودوا يعتبرون تغلغل البحر في أرضهم كافيا لضمان سلامتهم تمام السلامة .

أدت هذه الأحداث – وأخرى مشابهة لها في طبيعتها – الى سيطرة الفرس التامة على كافة سكان بيت المقدس وما جاورها ، فغمر اليأس الناس من قمة رأسهم الى أخمص أقدامهم ذلك أن عزاءهم – كما قيل – كان يأتيهم في وقت الشدة من القصر الامبراطوري يوم كانت الامبراطورية تنعم بالرخاء ، فكانت سلامتها وسلامة أحوالها وانتعاش حال المدن المجاورة – وفي مقدمتها جميعا أنطاكية – تبعث في نفوسهم أملا كبيرا في أن ينعموا بالعيش أحرارا في مستقبل أيامهم .

أما الآن فقد أصبحوا جزعين على أنفسهم وعلى غيرهم فعمتهم الاشاعات المتشـــئومة حتى أصبحوا يودون الموت أكثر مما يرجـون

الحماه ، وانهارت عزائمهم اعتقادا منهم أن قد قضى عليهم بالأسر الأبـدى ٠

- ١٠ -

حدث فى أثناء هذه الأوقات العصيبة الخطره أن وصـل الى مدينة القدس جماعه ضـخمه من اليونان واللاتين نجـوا من شتى صنوف الهلاك فى أرض العدو ، وكان مجيئهم لأداء مناسك العباده فى الأماكن الطاهره ولكن حراس أبوابها لم يأذنوا لهم بدخولها حتى يدفعوا قطعه النقود الذهبيه التى جرت العاده أن يدفعها كل داخل ، غير أنهم كانوا قد صرفوا فى أثناء رحلتهم كل دانق كان معهم ، ولم يبق فى يدهم شيء من نقد يؤدونه لسداد هذا الرسم المالى ، وان كانوا قد وصلوا ــ بشق النفس ــ الى هدفهم الذى طال شوقهم اليه ، فبلغوه سالمين ٠

وتجمع الحجـاج زرافات أمام المدينـــه ينتظرون الاذن لهم بدخولها ، وطال انتظارهم حتى مات منهم أكثر من ألف حاج بسبب الجوع والعرى ، وكان هؤلاء النـاس (الحجاج) ــ الأحيـاء منهم والأموات ــ عبئا ثقيلا ينوء به كاهل الأهالى التعساء الذين حاولوا المحافظة على حياة من لا يزال فيه نفس يتردد ، فراحوا يمدونهم بما قدروا عليه من الطعام يمسكون به رمقهم ، كما بذلوا من جانبهم جهدا فى دفن المـوتى ، رغم أن مشاغلهم الخصـوصية كانت فوق طاقتهم ٠

أما الحجاج الذين دفعوا الرســم النقـدى المقرر ، وأذن لهم بدخول بيت المقدس فقد أضافوا الى المواطنين عبئا زاد من أعبائهم

وحملهم مسئولية أضخم ، لما كان يتهدد هؤلاء الحجاج من الأخطار أثناء تجوالهم الذى كان يتسم بالبعد عن الحذر تلهفا منهم على زيارة الأماكن المقدسة ، وكانت هذه الأخطار تتمثل فى البصق عليهم ، أو لكمهم على آذانهم ، أو ما هو أسـوأ من ذلك ألا وهو خنقهم سرا . ومن ثم فانه لما راح الحجاج يسرعون فى المضى الى الاماكن المقدسة مضى المواطنون يسعونهم فى حنان أخوى مؤملين أن يتمكنوا بهذه الطريقة من دفع هذه الأخطار عنهم حرصا منهم على حياتهم وسلامتهم وجزعا من أن تقع لهم حادث مؤلم .



وكان فى المدينة دير تملكه « الأمالفيون » لا يزال يعرف حتى اليوم باسم دير القديسة مارى «حامية اللاتين» وهو ملاصق للمارستان به كنيسـة صغيرة أقيمت تمجيـدا لبطـرك الاسـكندرية المبـارك « جون المنير » وكان يقوم بالعناية بالمارستان رئيس أساقفة « الدير المذكور حالا » . كما كانت المعونة تبذل به فى أى وقت للحجـاج البؤساء الذين يحضرون فى مثل هذه الظروف فينفق عليهم مما يأتى من الدير أو من الهبات التى تجود بها المؤمنون وكان قل أن يوجد بين الألف من الحجاج القادمين واحد يستطيع أن يكفل ذاته ويقيم أود نفسـه اذ يكون أكثرهم قد فقدوا نفقـة سفرهم ، وأرهقتهم الصعاب المهلكة ، وما استطاعوا بلوغ غايتهم سالمين الا بعد عسر ومشقة .

هكذا لم يكن ثم راحة للمواطنين فى بلدهم ولا فى خارجه ، وما كان من يوم ينقضى عليهم الا ويحمل لهم نذر الموت ، الذى كان هناك ما هو أنكى منه ألا وهو جزعهم مما هو ماثل أمامهم على الدوام من الاسترقاق الفظ الذى ليست لهم قدرة على احتماله .

وكان هناك شيء آخر أدى بهم الى أقصى آيات الحزن ، وذلك أن العدو كان يدخل قسرا الكنائس التى أعيدت لأصحابها والتى بذلوا جهدا كبيرا فى الحفاظ عليها ومنحها عليهم وهم فى ذروه انغمارهم فى أداء طقوسهم الدينية غير عابىء قط بما لهذه الأماكن الطاهرة من حرمة واحترام ، فينحدر من مذابحها مقاعد له ، ويبث الفزع فى قلوب المصلين بصفيره وصياحه الجنونى ، ثم يقلب كئوس القرابين ويطأ بأقدامه الأدوات الخاصة بالمراسم الدينية ، ويحطم التماثيل الرخامية ويكيل اللكمات لرجال الدين ويصب عليهم وابلا من اللعنات ، ثم يجذب البطرك المولى الأمر من كرسيه ، ويجذبه من شعره ، ويأخذ بلحيته ويطرحه أرضا كأنه مجرم حقير ، وكم من مرة ألقى به الأعداء فى الحبس من غير جريرة ، وعاملوه معاملة لا تجوز الا مع أحقر العبيد ..... كل ذلك تعذيبا لأتباعه الذين شاركوه الألم باعتبارهم اياه أباهم الروحى ٠

لقد ظل هذا الشعب المؤمن بالرب - كما قلنا - يقاسى ذلك القيد الفظ ، ولكنه أبى الا أن يظل مستمسكا بدينه رغم بلواه على مدى أربعمائة وسبعين سنة ٠ وطالما جأر هؤلاء بالشكوى الى الرب فى صلواتهم التى لا تنقطع واستغاثوا به فى أنات باكية ، وزفرات حرى ، راجين أن يخلصهم من العذاب الذى لاقوه جزاء خطاياهم ، وكم سألوه ، أن تتغمدهم رحمته العظيمة فتبعد عنهم سؤر عصبة عليهم لأنهم وقعوا فى هوة الشر كما يقول القائل « غمر ينادى غمرا (١) ... كل تياراته ولجحه طمت عليه » ٠

وأخيرا عطف الرب عليهم وتحنن بنظرة منه وهو على كرسيه المجيد ورغب فى وضع حد لهذا الشقاء ، فأبى حنانه الأبوى الا أن يمنحهم الراحة التى يلتمسونها ٠

---

(١) المزامير ، ٤٢ ٠ ٧ ٠

ان اهتمامنا في هذا الكتاب منصب على بيان طريقة وتنظيم هذه الخطه الالهيه التى أرادها الله لانقاذ شعبه من بلواه تمجيـدا للمخلص في المسيح ٠

- ١١ -

فى هذا الوقت بالذات الذى كانت فيه المدينة المحبوبه من الرب تمر بتلك المتاعب السابق وصفها ، كان هناك بين الجموع الكبيرة التى سافرت الى الأماكن المقدسة من أجل العباده والصلاه قسيس اسمه « بطرس » من أسقفيه « أميس » فى مملكه الفرنجة ويعرف « بالناسك » ، وهو لقب طابق لفظه واقعه وكان هـذا الرجل قد شدته الى بيت المقدس نفس الحماسة الروحية ٠

أما عن هيئته فكان رجلا قميئا ليس فيه ما يجذب النظر اليه، لكن كانت تسكن هذا الجسد الضئيل شجاعة عظمى ، هذا الى انه كان امرءا خفيف الروح ذكيا ، جميل العينين ، ولا تنقصه البلاغة اذ كانت طبيعة ركبت فيه وخلقة فطر عليها ٠

وبعد أن دفع المقرر جبايته من كل مسيحى راغب فى دخول المدينة استضافه أحد الأنقياء المؤمنين بالمسيح ، ولما كان بطرس رجلا طلعة فقد راح يلقى على مضيفه السؤال تلو السؤال مستفسرا منه عن أحوال النصارى فتجمع لديه منه تفاصيل جمة لا تقف عند حد الأخطار الحالية بل تجاوزتها الى ذكر الاضطهادات التى قاساها أجدادهم من قبل على مدى سنوات طوال غابرة ، أما الأخبار التى فاته سماعها منه فما لاذن فقد أدركها بالملاحظة الدقيقة التى أسعفته

بها عيناه ، كما دلته استقصاءاته الخاصة دلالة جلية على صدق ما سمعه من الآخرين ، ومما تجمع لديه بعد مروره على الكنائس خلال اقامته فى المدينة ، ثم ترامى الى سمعه ما كان عليه بطرك المدينة من كثرة الورع وعظم الخوف من الله فتمنى لو تكلم معه عن الأحوال السائدة اذ ذاك فى المقدس ، كما طمع أيضا فى الحصول على صورة كاملة أكثر وضوحا عن أمور معينة أخرى فمضى الى رؤيته ، حتى اذا صار فى حضرته كان حوار طيب استمع به كل من الرجلين وكان هناك مترجم أمين يترجم ما يقوله كل منهما .

أدرك البطرك « سمعون » من كلام بطرس أنه أمام رجل فطن، ملم الماما واسعا بكثير من الأمور ، قادر على الاقناع بالكلمة والفعل فأخذ يشرح له فى اسهاب وصدق الأهوال الجمة المصبة فى وحشية على شعب الرب الساكن بيت المقدس ، فتأثرت مشاعر بطرس الأخوية عند سماعه هذه الرواية تأثرا لم يملك معه دموعه عن الانهمار ، ثم راح يسأل فى لهفة عما اذا كان فى الامكان ايجاد طريقة ما للخلاص من هذه المصاعب المحدقة بهم ، فأجابه الرجل الصالح « اعلم يا بطرس أن السيد الحنون الرحيم يأبى أن تكرب أناتنا وآهاتنا الباكية بسبب الخطايا التى كبلنا بها أنفسنا ، ولسبب الآثام التى ارتكبناها ولم نتطهر منها ، ومن ثم فلا محل فى حاضرنا لوقف القصاص منا ، ولكن رحمة الرب العظيمة لن تسمح بأن يمسنا ضر ، وبقوة اخوانك المخلصين فى عبادتهم لاسيد هذا الى أن مملكتهم ـ التى تفزع أعداءنا ـ تمتد امتدادا فسيحا شرقا وغربا ، فان هم تعاطفوا معنا فى حب أخوى وشاركونا فى موقفنا الحالى وقدموا من العلاج ما يدفع المصائب التى تنثال علينا أو ان هم على الأقل تشفعوا لنا عند المسيح فقد يراودنا الأمل فى الحصول على أى عون من امبراطورية الاغريق على الرغم من أنهم كانوا أكثر

ارتباطا بنا برابطة الدم والجوار ، هذا الى ما عندهم من ثروات ضخمة أعظم الضخامة ، ولكنهم أصبحوا اليوم لا يقدرون على الدفاع عن أنفسهم اذ تلاشت قوتهم بددا ، كما أنهم فقدوا ـ حسبما سمع جنابكم الأخوى ـ أكثر من نصف امبراطوريتهم على مدى سنوات قلائل » ٠

فرد عليه بطرس قائلا : اعلم أيها الأب المبارك أنه اذا توفر لكنيسة رومة وأمراء الغرب مُبلِّغ المعنى ثقة يخبرهم بالمصائب التى تكابدونها ، فلا شك أنهم سوف يبادرون الى بذل الجهد لتقديم العلاج بأسرع ما يمكنهم قولا وعملا لتخليصكم من هذه المساوئ ، وعليك أن تبادر فى الكتابة الى قداسة البابا والى الكنيسة فى رومة وأن تؤكد الخطاب بخاتم سيادتكم وأما أنا فلن أتراجع من جهتى عن حمل هذه الرسالة رجاء خلاص روحى ، كما أننى مستعد ـ مهتديا بالله ـ لزيارة الجميع والتوسل اليهم ، وسأكون الشاهد عندهم على محنتهم التى تجاوز كل حد وأدعو الجميع أفرادا وجماعات ألا تتوانوا عن اسعافكم بما فيه خلاصكم » ٠

نزلت هذه الكلمات نزول السلوى على نفس البطرك وملأتها بالغبطة ، كما تقبلتها قلوب الجميع قبولا حسنا ، وفرت عيون المسيحيين فرحا لبطرس وشكروا رجل الرب شكرا جزيلا على عاطفته ، وناولوه المكتوب الذى سألهم اياه ٠

- ١٢ -

« حقا يارب يا مولانا ٠٠ كم أنت عظيم ورحمتك بلا حدود

« حقا يا عيسى السفيه لن يخيب قط من ناط أمله ببابك ٠

« اذ من أين جاءت مثل هذه الثقة لحاج بلا معين ومن غير سند كبدا الحاج بطرس وهو ناء عن مسقط رأسه حتى يأخذ نفسه ويحمل على عاتقه مهمة فوق طاقته ؟ ثم هل له أن يطمع بعد ذلك في تحقيق ما يستطيع الله » ٠

« ان التفسير الوحيد هو أنه وجه أفكاره نحوك يا رب وأنت حاديه ، وفاض قلبه بالحب المتقد فتعاطف مع اخوانه ، وأحب من حوله حبه لنفسه فسار للوفاء بما فرض عليه ، وعلى الرغم من ضعف قوة كيانه الا أن المحبة كانت تشد أزره ، كما أنه رغم ما ألقاه اخوانه على عاتقه عن مهمة شاقة ان لم تكن مستحيلة الا أنها تيسرت عليه وذللت له بفضل ما طبع في قلبه من حب لله ولجيرانه ذلك لان الحب قوى كالموت » وأنه لا ينفع الا الايمان الكامل بالمحبة (١) » ٠

« ان خادمك لن يتردد اذ أظهرت نفسك له وشجعته بمرآك ولن يتذبذب ، ولكنه ينهض قويا ليكمل عمل الحب » ٠



---

(١) انظر غلاطية ، ٥ ٦ ٠

وحدث في أحد الأيام أن خادم الرب هذا الذى أتكلم عنه كان مشغول البال على غير العادة بالتفكير فى العودة الى وطنه والوفاء بالمهمة التى حملها ، ثم دخل كنيسة القيامة واتجه بقلب خاشع كل الخشوع الى منبع الرحمة ، وأمضى الليل فى الصلاة والتهجد ، حتى اذا خارت عاطفته سقط على الدرج واستغرق فى النوم العميق استغراقا لم يحدث له من قبل ، وخيل اليه أنه يرى سيدنا عيسى المسيح واقفا أمامه كالطيف وهو يقول له : « انهض يا بطرس وأسرع وانجز ما عهد به اليك من المهام غير خواف ولا وجل لأننى سأكون معك ... لقد جاء الوقت لتطهير الأماكن المقدسة ولمساعدة خدمى » .

واستيقظ بطرس مستريحا الى الرؤية التى رآها وصار أكثر ميلا للطاعة ورأى - استجابة للانذار الربانى - أن لا يتريث أكثر من هذا ، فدب النشاط فى أوصاله وتأهب للرجوع ، ولما فرغ من الصلوات المألوفة مضى الى الأب البطرك (سيمون) يستأذنه فى العودة فنفحه ببركاته فانطلق شطر البحر حيث وجد سفينة تجارية على وشك الابحار عن طريق أبوليا فاستقلها فبلغ « بارى » بعد رحلة موفقة . وبينما كان على وشك المضى الى رومة اذا به يعلم بوجود البابا اربان [الثانى] فى تلك النواحى فرفع اليه رسالة البطرك ومسيحيى القـــدس ، ووصف له ما يعانونه من الأهوال والمتاعب على أيدى الطغاة الموجودين فى الأماكن الطاهرة ونقل اليه فى دقة وبراعة ما عهد اليه به .

حدث قبل سنوات من هذا الوقت أن نشب صراع عنيف بين هنري ملك الألمان وامبراطور الرومان وبين البابا جريجوري السابع سلف اربان الثاني ، وقد دار هذا الصراع حول الخاتم وعباءه الأساقفه الراحلين ، وكان العرف قد جرى – لا سيما فى الامبراطوريه – على ارسال خاتم أسقف الكنيسه الراحل ومسوحه الكهنوتية الى الامبراطور الذى يقوم بعد ذلك بملئ بارسال واحد من بطانته أو أحد قساوسته ويكل اليه مهام الرعوية فى ذلك المكان دون انتظار لقيام رجال الدين بانتخابه ، لكن البابا [جريجوري السابع] شعر بأن هذا العمل يخالف كل نواميس العدل لما فيه من هدر لحقوق الكنيسة ووطئها بالأقدام ، فقام من جانبه ينهى الامبراطور عن عجرفته الكريهه هذه ، يكرر منه مرارا هذا النهى بالكف عما يفعل فلما رأى أن لا جدوى من هذه التحذيرات الهادئه أصدر ضده قرار الحرمان .

غضب الامبراطور من هذا الاجراء أشد الغضب ، وشرع فى اضطهاد الكنيسة فى روما فعمد الى تنصيب جيبرت – رئيس أساقفه رافنا – مكان البابا المعظم جريجوري ، وكان جيبرت هذا كبير الثراء واسع المعرفة مكنه ثرونه الطائلة واعتماده على بطش الامبراطور من خلع جريجوري الموقر وتولى هو قسرا الأبرشية الرسولية ، وكم كان غبيا غاية الغباء تنقصه صحه التفكير حين اعتقد اعتقادا حازما بأنه هو البابا حقا لعينه زورا وبهتانا بهذا اللقب .



كان العالم الشقى الغارق فى الرذيلة يسير – كما قلنا قبل هذا – فى طريق خطر خاسر فلما نشب هذا النزاع ازداد تردى العالم

فى هوة أشد عمقا لتخليه عن كل احترام واجب لله وللانسان ، وراح يجرى وراء كل ما دنسته الخطيئة ، ويباعد ما بينه وبين كل ما ينطوى على الخير ، وفتحت السجون أبوابها للأساقفة ، وكان اذا تجرأ أحد من رجال الكنيسة على معارضة الامبراطور فى تسببه هذا زج به الامبراطور فى الحبس وصادر كل ما يملك ، كأنه مجرم قتل نفسا ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد من صب الأهوال الدنيويه على رجال الدين بل صاروا عرضة على الدوام للخلع من أبرشياتهم وتعيين سواهم فى أماكنهم هذه .

وفر جريجورى من نقمة الامبراطور الى « ابوليا » حيث لقى أعظم الترحيب ، وعومل أشرف معاملة من جانب دوقها روبرت جيسكارد الذى مد يد المساعدة الى البابا ونجاه من الوقوع فى يد الامبراطور حتى تمكن أخيرا من الوصول الى سالرنو حيث وافاه أجله بها ودفن فى ثراها ، فخلفه اذ ذاك على كرسى البابوية البابا فكتور الذى لم تجاوز بابويته شهرين فقط . فتلاه البابا ايربان الثانى الذى أشرنا اليه من قبل والذى لجأ الى قلاع أتباعه النبلاء المخلصين ليدرأ عن نفسه غضب الامبراطور هنرى المذكور من قبل، لكنه لم يكن أبدا بمنجاة منه اذ كان (الامبراطور الجديد) مصرا فى عناد شابه عناد سلفه فى سلوك هذا الطريق الخبيث .

وعلى الرغم مما كان فيه البابا من بلاء عظيم الا أنه أحسن لقاء الموقر بطرس الذى شغل نفسه منذ رجوعه من القدس بتنفيذ المهمة التى ألقيت على عاتقه ، فوعده ايربان وعدا من الرب الذى هو خادمه انه مبادر لمساعدته فى مسعاه الذى جاء اليه من أجله متى لاحت له الفرصـــة .

حينذاك اشتعلت جذوة الحماسة الزكية فى نفس بطرس الذى راح يذرع كافة أرجاء ايطاليا وعبر جبال الألب ولم يترك أميرا من

الامراء الا راره ، عير مدخر وسعا في حثهم جميعا وتحذيرهم ولومهم.
فنجحت تحذيراته ـ بفضل الرب ـ في حمل بعضهم على المبادره
الى الخروج لمساعده اخوانهم الذين مسهم البلوى ونزل بهم الضر .
رغبة منهم في ألا يدعوا الأماكن المقدسة ـ وهي البقاع التي تعطف
السيد فشرفها بحضوره وصانها عن أن تدنس بالخبائث .

ولم يكتف بطرس بما أثمرته دعوته بين الأمراء وحدهم ، لكنه
تطلع الى أن تؤدي تحذيراته القوية الى تحريك نفوس العامة وأهل
الطبقة الدنيا ، واشعال جذوة حماسهم للقيام بنفس الواجب .

وبينما كان يشق طريقه في بطء بين الممالك والشعوب راح
ـ في وفاء صادق لرسالته وفي نشوة روحية مقدسة ـ يبشر بنفس
الرسالة بين أفقر الناس وأدناهم ، ورعى المسيح مسعاه البار فكان
من عطفه عليه انه لا يكاد يدعو الناس حتى تؤتي دعوته آكلها طيبة.
وأصبح تبشيره هذا ضروريا أشد الضرورة للبابا الذي أجمع أمره
على أن يتبعه دون ابطاء الى ما وراء الجبال ، ذلك لان كلام بطرس
كان يفتح قلوب سامعيه لطاعته فلا يجد البابا صعوبة في دعوتهم
الى نفس الأمر الذي يؤدي الى تحقيق هدفه تحقيقا يجعله قادرا على
التأثير فيهم .

- ١٤ -

كانت السنة سنة ١٠٩٥ من مولد السيد المسيح وهي الثالثة
والأربعون من تتويج هنري الرابع ملكا على الألمان ، وهنري هـذا
هو الثاني عشر من أباطرة الرومان ، كما كان يحكم فرنسا فيليب

الأول بن هنرى الاول ملك الفرنجه العظيم ، ورأى البابا اربان — وقتــــذاك — ان خبث بنى ادم قد جاوز كل مدى ، وأن كل شىء يتدنى الى اسفل كما لو كان يتجه الى السر ، ومن ثم عقــد مجمعا لكل ايطاليا فى « بياشنزا » فكان هذا المجمع خطوه احتيج اليها كل الاحتياج لرد غلو الناس ، فلما انتهى هذا المجمع غادر البابا ايطاليا فرارا من غضب الامبراطور عليه ، وعبر جبال الألب ودخل مملكة فرنسا حيث نسلم نأكيدا بينا عما سمعه حالا من الأخبار تبين منه أنه لم يعد أحد ما فى أية ناحية يكترث بالقدر العلويه ، الى جانب استخفاف النـــاس بتعاليم الأناجيــل وبلاشى الايمان ، وباتت كل نعمه وفضيلة مهدده بالخطر وفغرت مملكة الشر ودولة الظلام فاها لتبتلع الجميع ٠

ونظرا لمكانة البابا ايربان الثانى فقد كان شديد الهمه لمعرفة السبيل الذى يسلكه للقضاء على الرذائل والخطايا الفاحشه التى كانت للأسف تزداد شناعة حتى لتكاد أن تبتلع الدنيا بأجمعها . لذلك عزم على الدعوه لمجمع عام عقد أولا فى « فىربلسه » ثم فى « بوى » ، حتى اذا حل شهر نوفمبر اجتمع باسم الرب فى كليرمونت — احدى مدن « أوفرن » — مجمع مقدس من الأساقفة ورؤساء الاديره من شتى النواحى والولايات الواقعــة وراء جبال الألب ، تكلؤهم الرعاية الالهية ٠

وحضر هذا الاجتماع أيضا بعض أمراء تلك الولايات ذاتها . كما تقررت فيه التنظيمـات التى يمكن أن تؤدى الى التخلص من الظروف غير الملائمة التى تمر بها الكنيسة ، وكان هذا القرار بناء على نصيحة رجال الدين وأهل التقوى ، كما أذيعت المراسيم التى كان يرجى منها أن تساعد على تقويم الأخلاق وتصحيح الأخطـاء الجسيمة ٠

ولما كان بطرس الناسك يسعر بالمسئولية الكبيرة نحاه الرساله النى حملها ، فقد رأى أن هذه الاجراءات ربما أدت الى عودة السلام الذى يبدو وكأنه قد تلاشى من الدنيا ٠

وأخيرا آلقى ابرمان خطبه وهى كما يلى ٠

- ١٥ -

« اعلموا أيها الاخوة الأعزاء ، وحق لكم أن تعلموا كيف أن فادى الجنس البشرى قد نزل فى تجالبد هيكل بشرى لخلاصنا جميعا ، وعاش بيننا كانسان ، وكان مجيئه تمجيدا لأرض الميعاد التى وعد بها من قبل ، والتى ذاعت شهرتها بأعمال الناموس وبالمعجزات المتكررة التى قام بها ، وهذا ما يشير اليه العهدان : القديم والجديد فى كل ما تضمناه تقريبا ، وأن الواضح حقا أنه أحب تلك الأرض حبا صادقا منذ أن تعطف على ذلك الجزء من الأرض ــ أو بلفظ أدق ــ على هذه البقعة الصغيرة فسماها بميراثه ، رغم أن للرب « الأرض (١) وملؤها المسكونة وكل الساكنين فيها » ومن ثم فانه هو القائل أيضا بصوت أشعيا (٢) « ميراثى اسرائيل » والقائل أيضا (٣) « ان كرم رب الجنود هو بيت اسرائيل » ٠

---

(١) مزامير ٢٤ ، ١ ، ٤٩ ، ١٢ ٠

(٢) اشعيا : ١٦ ، ٢٥ ٠

(٣) اشعيا ٥ ٧ ٠

وعلى الرغم من أنه كرس الدنيا بأجمعها منذ البدء لنفسه الا أنه اسمى المدينة المقدسة على وجه الخصوص لتكون خاصة به ، وذلك بشهادة النبى القائلة « الرب(١) أحب ابواب صهيون أكثر من جميع مساكن يعقوب » ، وقد قيل فى هذه المدينة أقوال كثيرة رائعة فهناك أكد مخلصنا بتعاليمه وعذابه وقيامه من بين الموتى أن الخلاص انما يكون فى أرضها ، لذا فقد اختيرت تلك المدينة منذ البدء لتكون شاهدا على هذه الأمور ، ولتكون هيكل الأسرار ، واختيرت حقا لتكون خاصة لمن اصطفاهم بقوله : « اهتفي يا بنت أورشليم » هو ذا ملكك يأتى اليك من أجل أورشليم المدينة التى اخترتها لنفسى لأضع اسمى (٢) فيها .

لكن على الرغم من أن خطايا أهلها حملت الرب العادل على أن يوقعها مرة بعد أخرى فى أيدى الشريرين ، ويجعلها تكابد فظائعهم فترة من الوقت ، الا أنه لا ينبغى أن يذهب الظن بأحد الى أنه تخلى عنها ونبذها نبذ النواة لانه مكتوب (٣) « ان الذى يحبه الرب يؤدبه ويجلده » .

ولكنه يغضب على من يقول له (٤) « لذلك ... أحل غضبى بك فتنصرف غيرتى عنك فأسكن ولا أغضب بعد » ومن ثم فانه يحب هذه المدينة حبا لا تطفى جذوته وأنه القائل (٥) « ستكونين اكليل

---

(١) مزامير ، ٨٧ ٢ .

(٢) ملوك أول ، ١١ ، ٣٦ .

(٣) عبرانيين ، ١٢ : ٦ .

(٤) حزقيال ، ١٦ : ٤٢ .

(٥) اشعيا ، ٦٢ ، ٣ ، ٤ .

جمال بيد الرب ، وتاجا ملكيا بكف الهك ، ولا يقال بعد ذلك مهجوره ولا يقال بعد لارضك موحشه بل تدعين حفصيبه وأرضك ترعى بعوله لان الرب يسر بك (١) » ٠

وان مهد ايماننا ، ومهبط رأس مولانا ومنبع الخلاص قد تملكها الآن عنوة شعب غير مسأله ، هو ابن الجاريه المصريه [هاجر] لدى يفرض على أبناء المرأة الحرة [سارة] ظروفا بالغة السوء حتى قالت : « اطرد هذه الجارية وابنها » ٠

★★★

لقد ظل جنس الشرفيين (٢) البغيض عبر سنوات طوال مصب يبسط سلطانه على الأراضى الطاهرة التى مشى عليها السيد بقدمه ، ثم خضع المؤمنون للقهر ، وراحوا يتخبطون فى قيد الأسر ، فدخلت الكلاب الأماكن الطاهرة ودنس الهيكل وضربت المذلة على عباد الرب، واليوم ها هو ذا الشعب المختار يحمل الأحوال التى لا يستحقها ، وها هم رجال الدين مسترقون ، والكرامة ساقطة فى الوحل والطين، وأصبحت مدينة الرب — التى هى فوق كل مدينة — محكومه لا حاكمة ، فمن ذا الذى لا تنفطر نفسه كمدا ، ولا يذوب قلبه حسرة حين تخطر بباله هذه الاهانات !!

« أيها الاخوة الأعزاء : من ذا الذى يستطيع سماع هذا كله ولا تبكى مقلتاه ؟

« لقد غضب يسوع فطرد من هيكل الرب جميع من اتخذوه

---

(١) سفر التكوين ، ٢١ ١٠ ٠

(٢) وقد يمكن ترجمتها بالمسلمين لأن لفظ Saracens أصبح فى كتب الغربيين فى العصور الوسطى وعند بعض المؤرخين المحدثين مرادفا لكلمة «المسلمين» ٠

مكانا للبيع والسراء ، حتى لا يصير بيت أبيه ـ وهو بيت الصلاه ـ مغاره للصوص ومأوى للشياطين (١) ٠

« لقد كان هذا هو الذى أثار الحماسة الكريمه فى نفس القديس ماسوس ـ السلف العظيم للمكابيين الطاهرين كما يشهد بذلك هو نفسه اذ يقول : « لقد أصبح الهيكل شبه انسان بلا شرف ، وتلاشت كل المآثر الرائعة » ٠

« ان مدينة ملك الملوك التى نقلت الى الآخرين نواميس الايمان السليم قد دانت رغم أنفها الى برهان الخوارج ، كما أن كنيسة القيامة المجيدة التى هى آخر مكان رقد فيه السيد تقاسى حكمهم وتصطبغ بأوساخ أقوام لن تكون لهم حظ القيامة بل كتب عليهم أن يظلوا فى الجحيم الى الأبد ، كأنهم هشيم النار لا ينطفىء لهيبها أبدا ، كما أن الأماكن الموقرة المخصصة للأسرار الالهية ، والمواضع التى عرفت السيد زائرا لها بشخصه ، وشاهدت آياته ، وبالها حسناته ، وتحسم فيها كل البراهين الدالة على ذلك فى ايمان صادق قد غدت مداود للماشية وحظائر للبهم ، كما أن أحسن الناس الذين باركهم رب الأرباب قد تعالى أنينهم من جراء عبء الخدمات المفروضة عليهم ولا يستطيعون التحلل منها ، ولا يعقدون عليها الا الأحمال الشاقه ٠

وان أبناء هذه المواضع ـ وهم أغلى مهر للكنيسة الأم ـ قد ألقى القبض عليهم ، وسيقوا أذلة ، وأرغموا على خدمة الخوارج الدنسين ، حتى ينكروا اسم الله الحى القيوم ، وينطق شفاههم الطاهره بالتجديف فيه ، فاذا امتنعوا ذعرا من أوامر الكفار الآثمه

---

(١) متى ٢١ ٠ ١٢ ـ ١٣ ٠

دبحوهم بالسيف ذبح الأضاحى فيدخلون فى عداد الشهداء الأبرار ·

« ان الذين انتهكوا حرمة المقدسات الدينيــة لا يقيمون حرمة للمكان ولا للنــاس ، ولا يتــورعون عن قــتل القسس واللاويين ، ويرغمون العذارى على ارتكاب الفحشاء والا كان الموت بالعذاب من نصيبهن ولم يشفع عندهم للعجائز شيخوختهن ·

« الا فالويل لنا نحن الذين نعيش فى تعاسة الزمن الخطير الذى تنبأ به الملك الطاهر داود المختار من الله ، وشكى منه اذ قال (١) « يارب ، ان الامم قد دخلوا ميراثك ونجســوا هيكل قدسك » ، وقوله (٢) · « الخطاه يسحقون شعبك يا رب ويذلونه ، حتى متى الطغــاه يا ربى يشمتون ؟ متى يا رب تغضب كل الغضب وتتقد كالنار غيرتك ؟ » ··· « هــل الى الدهور يرفض الرب ولا يعود للرضا » ··· « حتى متى يا رب تختبىء كل الاختفاء » « أذكر يا رب ماذا صار لنا ، اشرف وانظر الى عارنا » ··· الويل لى حين ولدت لأرى هذا البؤس المحيق بشعبى وبالبلد المقدس وأن يسلم الى أيدى الأعراب (٣) ·

« أنت هو ملكى ، يا الله باسمك ندوس القائمين علينا » (٤) ، فحسب « لا تظنوا انى جئت لألقى سلاما على الأرض بل سيفا » (٥) · فسلحوا أنفسكم أيها الأحباب بحماسة السيد فبه ننطح مضايقينا ،

---

(١) مزامير ، ٧٩ ١ ·

(٢) مزامير ، ٩٤ : ٥ ·

(٣) راجع المكابيين ، ٢ ٧ ·

(٤) مزامير ، ٤٤ ٤ ·

(٥) متى ١٠ . ٣٤ ·

واذا أحس أحدكم بالحمية لسريعه الرب فلينضم الينا ، وهيا بنا نمضي لنحطم القيود التي تكبلنا ونلقي بعيدا بحبالهم عنا ، فالروح نفسه يشهد أيضا لأرواحنا أننا أولاد الله ، فان كنا أولاده فاننا ورثه أيضا ووارثون مع المسيح » (١) واذهبوا وليكن الرب معكم ، ووجهوا السلاح الذى شحذتموه لقتل بعضكم البعض الى صدور أعداء الملة وخصوم المسيح ٠

« ان مملكة الرب لن تكون لمن أجرموا فسرقوا ومن اتهموا باشعال النار عن عمد ، ولا لمن نهبوا النـــاس وسفكوا الدماء ولا لأصحاب الجرائم الأخرى المشابهة لهذه فى طبيعتها ٠

فأطيعوا الرب الطاعة التى يرضاها ، عسى أن تتنزل عليكم رحمته سريعا وتكون لكم شفاعة القديسين فيغفر لكم ما اقترفتم من خطايا أثرتم بها حنق الرب عليكم فاستشاط غضبا ٠

« وعلى ذلك فنحن محذروكم وموصوكم باسم الرب بالعمل على التطهر من خطاياكم وذلك بمشاطرة اخواننا سكان القدس وما حولهم فى مصائبهم وآلامهم ، وكونوا شركاء لهم فى ارث ملكوت السموات ، وعليكم أن تكبحوا بكل عضبة دينة وقاحة الكفار الذين يحاولون اخضاع الممالك والولايات والدول ، وأن تحاربوا ما وسعكم الجهد هؤلاء الذين أجمعوا العزم على ازالة الاسم المسيحى ، فان لم تفعلوا ذلك فان كنيسة الرب التى لم ترتكب اثما سوف تفقد الايمان سريعا وتكون السيادة لجهالة الوثنية ، ولقد رأى بعضكم بعينى رأسه هذه الأمور التى نتكلم عنها الآن ، وعرف مدى الأهوال التى يحملها أولئك الأسعاء ، وان رسالتهم التى أحضرها بيده ذلك الرجل الموقر « بطرس » الموجود معنا الآن لتحمل نفس الأمر ٠

---

(١) رومية ، ٨ : ١٧ ٠

« ومن ثم فنقة منا برحمة الرب ، وبمدرة الحواريين الطوبانس بطرس وبولس لنعفر خطايا المسيحيين الصادقين الذين يحملون السلاح لقتال الكفار ، ويتحملون مشقة رحلة الحج هذه . ونضع عنهم كل عقاب مفروض عليهم بسبب آثامهم ، ولنثق الذاهبون الى هناك بنية صادقة وبثقة تامة بغفران خطاياهم ، وبحصولهم على النعمة الأبدية .

« كما أننا في الوقت ذاته سوف نبسط حماية الكنيسة ورعاية المباركين بطرس وبولس على من ينهضون مسلحين بإيمانهم الصادق لحمل عبء محاربة الكبار ، وسندرجهم في عداد أبنائنا المطيعين المخلصين « ونرسم بأن يطمئنوا ، وألا يخالجهم أدنى خوف على أملاكهم وذويهم ، فان اجترأ أحد ما ـ أثناء هذا الحج ـ على أن يسبب لهم ضيقا أصدر أسقف ناحيته قرار الحرمان ضده ، ويظل قرارا مصلطا عليه عند الجميع حتى ترد المسروقات ، وحتى يقدم التعويض الملائم عن الأشياء المفقودة ، كما أن الأساقفة والقساوسة الذين لا يقفون موقفا صلبا ضد أمثال هذه الأحداث سيعاقبون بحرمانهم من ممارسة مهام وظائفهم حتى يتوبوا ؛ لينالوا رحمة الكنيسة الرسولية » هكذا ختم [البابا اربان الثاني] موعظته ، وأمر جميع الحاضرين اذ ذاك من رجال الكنائس بالعودة الى أبرشياتهم ليكرسوا أنفسهم لما سمعوه ، وليسعوا سعيا حثيثا لحث أتباعهم على النهوض الى الحج .

ولما فرغ [اربان] من هذه الرسالة أمسك عن الكلام وانفض المجمع الذى راح كل من حضره يودع أخاه ويرجع الى موطنه ؛ وانصرفوا منصاعين في صدق واخلاص لتنفيذ قرارات المؤتمر (١) وحث الناس جميعا على التواصي بحفظ السلام الذى ائتلف الناس على تسميته « بسلام الرب » . وصدر الأمر بعدم اعاقة من عزموا

---

(١) أى مؤتمر كلارمونت .

على لرسله ، وألا ىدم فى وجههم العراقيل أثناء اتخذهم الاجراءات اللازمه للسفر .

- ١٦ -

وزياده على دلك فانه نظرا للخدمات الجليلة التى أداها بطرس للدين ، فان الله انعم علىه — وهو الخادم المطيع المبشر . دو الهمه العالىة الرائعة — بالبلاعة والفصاحه ، ووهبه القبول الحسن فى عيون الجميع حتى ان كلماته كانت ىبدو وكأنها وحى من الله ، اد تلقاها القوم — صغيرهم وكبيرهم — بالرضا والامتثال ، غير عابئين بما ينطوى عليه تنفيذها من مشقة .

ولم تكن الحماسه الدينية لهذا الحج قاصره على من استمعوا اليه شخصيا . بل تجاوزتهم خطبته — حين داعت طولا وعرضا — الى من لم يكونوا حاضريها ، فبثت فيهم رغبة عارمة للقيام بنفس الرحله ، كما صدع الأساقفه بما أمروا به ، مطهرين الدعوة الكريم فدفعوا أتباعهم للسفر للحج ، ودأبوا على التنقل فى ربوع أسقفياتهم يبذرون بذور الحياة بين الناس، وما كان لحبة منها أن تموت اذ كانت لا تقع الا وتؤتى آكالها طيبة مباركه ، ومن الحق أن نقول أنه تحققت كلمة السيد (١) اد يقول « ما جئت لألقى سلاما بل سيفا » ، فقد انفصل الزوج عن زوجته والمرأة عن بعلها ، وفارق الآباء أبناءهم والأبناء آباءهم ، ولم يستطع أى رباط محبـه أن يحول دون هده الحماسـة ، كما غادر كثير من الرهبـان أديرتهم ، وفعل النساك

---

(١) متى ١٠ : ٣٤ .

شعائهم فتركوا صوامعهم التى اتحدوها طواعية ملجأ يهيم فيه كل واحد منهم على انفراد « حبا فى الله » .

لكن الرب لم يكن مع الجميع فى عملهم هـذا ، اذ لم تكن الحصافة ـ وهى أم الفضائل كلها ـ محركهم الحقيقى ، فقد شارك البعض البعض الآخر حتى لا يفترقوا عن بعضهم ، ونهض آخرون حتى لا يتهموا بالتراخي والكسل ، وساهم غير هؤلاء وهؤلاء بدوافع تافهه ، أو عساهم بخروجهم هذا يهربون من دائنيهم الذين أثقلوهم بالديون الفادحة ، وهكذا كانت هنـاك أسـباب مختلفة أسرعت بالجميع الى نفس الهدف ، ولم يكن هناك فى بلاد العرب أى اعتراف بالسن أو الجنس أو الوضع أو الظروف . كما لم يستطع أحد منع أحد من القيام بالرحلة مهما زوق له الكلام ، بل اتحد البعض بالبعض دون تمييز بين الواحد والآخر فكانوا جميعا يدا واحدة ، وأقسموا كلهم اليمين بقلوبهم وأرواحهم ، وبدا الانجاز الحرفى لمـا جاء فى الكتاب(١) من انه « ستـأتى أمم كثيرة من بعيد تمتدح أورشليم وتسجد لها ، ويحملون الهدايا فى أيديهم » .

لقد تلقى الكثيرون ممن حضروا مؤتمر « كليرمونت » هـذه الكلمة الراسخة بفرح عظيم ، وكان على رأسهم « أديمار » أسقف « بوى » ذلك الرجل الطاهر النبيل العاطر الذكر ، والذى صار بعدئذ النـائب للبـابا ، فسار بسعب الرب فى حملته هذه سيرة ملؤها الصدق والاخلاص .

كما كان من بينهم أيضا « ولىم أسقف أورنج » الصـادق الايمان والذى يخاف الله .

---

(١) طوبيا ، ١٣ . ١١ ـ ١٥ .

ودبت (١) نفس الحماسة كذلك في نفوس أمراء جميع الممالك الذين لم يحضروا الاجتماع ، اذ راح كل واحد منهم يشجع صاحبه ويستعدون للسفر الذي حددوا يوما معينا له يكون بعد اتمام جميع ما يلزم من الاستعدادات وبعد ان يجمع كل رفاقهم ، والحق أنه يبدو كأن العناية الالهية هي التي رتبت الحملة التي نتكلم عنها . وكأن الأوامر صدرت اليهم من الرب ، ذلك أنه لم يكن يشاع أن أميرا ما من الأمراء قد قطع العهد على نفسه بالحج حتى يتوافد الناس عليه زمرا اثر زمر ، يتوسلون اليه أن يسمح لهم بالانضمام الى جماعته ، ويعترفون بسيادته عليهم ، ويقطعون العهد على أنفسهم بالطاعة والاخلاص له ، ولما كان المثل (٢) يقول عار على أن أتخلف عن الناس اذا كان الطاعون قد أخذهم حتى آخر واحد منهم » ، فقد أسرعوا الى تجهيز أنفسهم بكل ما يلزمهم ويحتاجون اليه ، وكانوا يتزاحمون ويسابق كل منهم الآخر ، والحق أنه كان تكريسا الهيا لان نار التطهير هذه كانت لازمة لمحو خطايا الماضي وحب آثامه التي كانت ــ وا أسفاه ــ كثيرة جدا ، كما كان الانصراف لتدبير السفر معدا في منع ارتكاب الخطأ بعد ذلك ، بعد أن كانوا قد حادوا عن طريق الرب وأساءوا السير مع غيرهم .

وقد اتفقت الآراء جميعا على قبول ما اشترطه البابا من قيام كل من أقسموا على السفر لهذا الحج برسم شارة الخلاص على ثيابهم ، ألا وهى الصليب الزاهى ، وبذلك يحملون على أكتافهم

---

(١) جاء في الترجمة الانجليزية التي اعتمدناها ، وبناء على ما ذكره Mansi . Sacrorum conciliarum nova et amplissima collectio, vol xx. col. 923.

أن كل ذكر بلغ الثانية عشرة أو أكثر كان عليه أن يقطع اليمين كل ثلاث سنوات على حفظ سلام الرب ومراعاته .

(٢) رد المترجمان الامريكيان هذا المثل الى هوراس Horace · Ars Poet. 417

ذكرى الذى عزموا على زيارة الناحية التى شهدت آلامه ، وكانوا فى عملهم هذا مقلدين للسيد الذى أسرع الى هناك من أجل خلاصنا. لانه : « يولد لنا ولد ، ونعطى ابنا ونكون الرياسه على كتفه » (١) .

ويبدو كأن الآية التالية من سفر أشعيا تشير الى هذه الحركة حيث يقول ان السيد (٢) سوف يرفع راية للأمم ويجمع منفيى اسرائيل .

وظهر أيضا تمام كلام السيد حرفا بحرف مصداقا لقوله (٣): «ان أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى» .

- ١٧ -

عقد الأمراء التالية أسماؤهم من كلتا المملكتين النية على تقوية عزائمهم بعلامة الصليب ارتباطا منهم بالحج القادم :

السادة المشاهير : هيج الكبير شقيق فيلب الاول ملك الفرنجة ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نرمندى ابن وليم الأول ملك الانجليز ، وستيفن كونت شارترز وبلوا والد كونت تيوبولد الكبير ، وأديمار أسقف بوى ، ووليم أسقف أورنج ، وريموند كونت تولوز وسنت جيل ، مع آخرين غيرهم من الرجال العظماء .

كما ذهب أيضا المحارب الباسل لورد جودفروى العظيم دوق اللورين ، ورحل معه كذلك أخواه اللوردان بلدوين وأستاس ،

(١) اشعيا ، ٩ : ٦ .
(٢) اشعيا ، ١١ : ١٢ .
(٣) متى ، ١٦ : ٢٤ .

وصحبهم كذلك بلدوين الملقب بورج وهو قريب الاخوه الثلاثه وابن لورد هيج كونت ريتيل ، وحاسه دى جراى ، وبلدوين كونت هينولت ، وايزور كونت ديى ، وربولد كونت أورنج ، ووليم كونت فوريز ، وكونت ستفن دومال ، وروبرو كونت برش ، وهيج كونت سنت بول ٠

وممن صحبهم من علية القوم وان لم يكونوا من فئة الكونتات : النبلاء اللامعون الذين تقدموا طواعية من تلقاء أنفسهم وهـــم : ٠

هنرى ديتس ، ورالف بوحنسى ، وايفرارد دى بويسيه ، وجاستون دى بيارف ، ووليم أمانجو ، وجاستون دى بزيبه ، ووليم دى مونتليبه ، وجرارد دى روسيلون ، وحيرارد دى شريزى ، وروجر دى بارتفيل ، وجى دى بوسسا ، وحى دى جارلاند سكال ملك الفرنجة ، وتوماس دى لافير ، وجالن دى كالفومونت ٠

وكما سار بطرس الناسك بطائفة كثيفة من الناس جمعهم بمشقة كبيرة من مملكة [فرنسا] وامبراطوريه [آلمانيا] ٠

وجاء من الجانب الآخر من جبال الألب بوهيموند أمير تارنتو ابن روبرت جسكارد دوق أبوليا ، وابن أخته تانكريد ، وكثيرون غيرهم لا نعى ذاكرتنا أسماءهم ولا نحصيهم عدا ٠

وظل جميع هؤلاء — مع قوات ضخمة من أهل القتال فى انتظار الساعة الملائمة للانضمام للكتائب الحربية المسيحية ، وهم على أتم الهمة لبذل أرواحهم لتحمل أهوال حج عظيم كهذا الحج مرضاة للمسيح ٠

ومن ثم فما كاد الشتاء ينصرم ونبدأ بواشير الربيع فى الظهور وتنكسر شدة البرد ويعود الجو اللطيف يغمر الدنيا حتى هبوا

جيادهم ، وأعدوا سلاحهم ، وجمعوا متاعهم ، كما ظل من أزمعوا الخروج معا على اتصـــال بعضهم ببعض ، وحددوا موعدا دقيقــا فيما بينهم والساعة التى رأوها ملائمة لبدء مسيرهم ، واتفقوا أين يكون ملتقاهم ، واستعرضوا المسالك فاختـــاروا أيسرها عليهم وأسرعها فى ابلاغهم غايتهم • واذ لم يكن فى قدره أى قائد أن ينفرد وحده بتوفير المئونة لهذه الآلاف المؤلفة من الناس فقد رتبوا ترتيبا دقيقا أن يقوم كل واحد من الأمراء الكبار بالسير على انفراد بمن يتبعه من القوات ، ويسلك طريقا لا يسير فيه سواه ، واتفقوا على ألا تلتقى هذه الجيوش الا فى مدينة « نيقية » •

لهذا – كما سنشرح فيما بعد – سار الدوق [جودفردى] بكتائبه من طريق المجر ، واتخذ كونت تولوز وأسقف بوى طريقهما عبر « دلماشيا » أما الزعماء الآخرون فاخترقوا « آبوليا » وبذلك وصلوا فى النهاية الى القسطنطينية ، وان لم يكن بلوغهم جميعا فى وقت واحد بل فى أوقات مختلفة • وأعدوا فى الوقت ذاته العتاد الذى رأوه كافيا لرحلة طويلة كهذه الرحلة ، وراح كل منهم يقدر المال الذى تتطلبه هذه السفرة بما يتناسب وطول الطريق • كل ذلك وهم ناسون أن الأمور كلها بيد الله وليس بيـــد البشر لأن الانسان فى ضعفه لا يعلم ما يأتى به الغد •

لم تكن ثم دار واحدة من دور جميـــع ولايات الغرب ساكنة هادئة ، بل كان كل امرئ منهمكا حسب امكانياته فى ترتيب ما يهمه من أموره الخاصة ، فهنا الأب يدبر شئون أسرته ، وهناك الابن وثم الأسرة كلها منصرفة لاعداد ترتيبات السفر •

وجاءت رسائل كثيرة بعث بها أولئك الذين أزمعوا الرحيل فى وقت واحد ، يستحث كل منهم الآخر ويحذره التأخر فى الخروج • وينصحه بالتبكير فيه • ولما أخذ الذين قلنا انهم قادة الجماعات

المحلفه فى دعوة البعيه فقد انتزعوا أنفسهم من أحضان أعزائهم وسط العويل والزفرات ، وقد ودع كل منهم الآخر وتبادلوا القبلات فيما بينهم ، ثم رحلوا ، وكان خروجهم فى جو من الانتحاب والولولة ، فترى الأمهات يصحبن الأبناء وترى البنات يودعن الأبناء والأخوات والأشقاء ، أما الزوجات فانطلقن يودعن أزواجهن حاملات أطفالهن الرضع على أذرعهن ٠

فلما فرغن من الوداع الأخير رحن يتابعن بنظرات حادة من لا يستطعن مصاحبتهم أبعد من ذلك ٠

- ١٨ -

كان وولتر المفلس الشريف النبعة والمحارب الكمى أول من نهض للحج حيث بدأ رحلته فى اليوم الثامن من شهر مارس عام ١٠٩٦ من مولد المسيح ، واستصحب معه طائفة كبيرة من الجند المشاه ، أما الفرسان الذين كانوا معه فلم يزيدوا عن شرذمة ضئيلة ، فلما عبر بهم مملكة النيوتون دخلوا بلاد مملكة المجر التى كان الوصول اليها أمرا عسيرا لكثرة المستنقعات التى تغطى معظم نواحيها وأحداق الأنهار الكبيرة بها ، ومن ثم لم يكن فى استطاعة المسافر الوصول الى المملكة أو الخروج منها الا من أماكن معينة شديدة الضيق ٠

كانت مملكة المجر حينذاك تحت حكم أشد الملوك تمسكا بالمسيحية ، ألا وهو الملك « كولمان » الذى ما كاد يعلم باقتراب « وولتر » وكان يعرف خبر رحلته ويستصوب هدفه الكريم حتى رحب بدخوله مملكته ، وسمح له أن يسير فيها بحملته ، كما أذن

له بعقد سوق عامه ، فسار « وولتر » في بلاده آمنـا ، وبلغ نهر « ماروس » سالما ، وهو الحد الفاصل المعروف به بين المجر والبلغار ، ثم عبر النهر ووصل بعوانه الى أرض البلغـار في مكان يعرف « ببلجراد » .

لم يكن يدور بخلد [وولتر] أن طائفة من جماعته قد تخلفت وراءه على الجانب الآخر من النهر في موضع يعرف باسم « سملن » لشراء الطعام وما لا غنى عنه في الرحلة ، فأمسك المجريون بهؤلاء الرجال وجردوهم مما عليهم من الثياب وضربوهم ، ثم أرسلوهم بعد ذلك الى أصحابهم خاوى الوفاض،فحزن القوم جميعهم حزنا عميقا للمحنة الطامة التى حاقت برفاقهم ، ومع ذلك فقد أيقنوا تمام اليقين أنه من الصعب عليهم — بل من المستحيل — أن يعودوا فيعبروا النهر أخذا بالثأر لما في ذلك من تأجيل مسيرتهم ، فرأوا — في ظروفهم الراهنة هذه — أن التغاضى عن المضرة التى أصابتهم أجدى عليهم من المبادرة الى القيـام بعمل طائش لا يستطيعون اجتيازه فيصبحوا على ما فعلوا نادمين . واذ كان أملهم في الله الذى نهضوا من أجله عظيما فقد انصرفوا عما أرادوه ايمـانا منهم بأنه ما من مصيبة يلقاها جند المسيح الا والرب غير مهملها بل معاقب عليها بمثلها لأنه وعد أتباعه بذلك اذ قال (1) : « تكونون مبغضين من الجميع من أجـل اسـمى ، ولكن شعرة من رؤوسـكم لا تهلك ، وبصبركم اقتنوا أنفسكم » . ومن ثم ساروا لطيتهم ، ومضوا في طريقهم حتى جاءوا — كما قلنا — الى « بلجراد » فوجدوا « وولتر » قد سأل الدوق حاكم أهلها أن يأذن لهم بعقد سوق يتبايعون فيه ، ولكنه رفض رجاءه ، فلم يجد اذ ذاك بدا من أن يضرب معسكره أمام المدينة ، واذ كان عاجزا عن كبح جماح حسه الجائع فقد فقد الكثير

(1) لوقا ٢١ . ١٨ — ١٩ .

من رجاله ، ذلك لأن عسكره لما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الحصول على أى شىء من البلغار انطلقوا للبحث عن الطعام ولم يتحرجوا عن أية وسيلة لالتماسه دفعا للجوع الذين عضهم بنابه ، فقدر لهم أن يأتوا الى قطعان من الماشية والأغنام كانت للبلغار فأخذوها قسرا وساقوها الى المعسكر ، فلم يكد أصحاب القطعان يعلمون بما جرى لها من نهب حتى هبوا الى أسلحتهم وكروا على [اللاتين] كرة ضاربة مجمعين العزم على استرجاعها ، وهاجموا اللصوص الذين كانوا يسوقون الدواب أمامهم ، وفتكوا بهم غير جماعة قوامها مائة وخمسون رجلا قدرت لهم النجاة انفصلوا عن بقية رفاقهم ولجأوا الى كنيسة صادفوها في فرارهم فأضرم العدو فيها النار ، فمات حرقا من اعتصموا بها الا قلة لاذت بأذيال الفرار .

ولما أدرك « وولتر » أنه يقود جيشا عتيدا لا يعرف النظام ولا يكترث بما يفعل فقد انفصل عمن اتبعوا شهواتهم اتباعا أعجزه عن كبح جماحهم ، وسلك ببقية عسكره مسلكا فيه الحكمة والحرص، فاجتاز بهم غابات بلغاريا الكثيفة ، حتى انتهى السير بهم أخيرا الى « سرالكا » (١) وهى مدينة حصينة من مدن « داكيا الوسطى » ، فصرح لحاكمها بما لحقه من الخسارة وشكى اليه النكبة التى حاقت ظلما بشعب الله على يد البلغار وطلب منه أن يعوضه عن ذلك كله ، فعامله هذا الدوق معاملة كلها عطف عليه ، لانه كان رجلا مستقيما يخاف الله ، وصرح لهم باقامة سوق يستطيع الجيش أن يشترى منه ما يحتاجه بثمن معقول ، وكيل لا تطفيف فيه ، وزاد فوعدهم أنه غير حاجب عنهم ما يحتاجونه مما تفرضه نواميس الانسانية ، كما أمدهم بمرشدين يدلونهم على بقية الطريق حتى يبلغوا المدينة

---

(١) رجحت الترجمة الانجليزية لهذا الكتـــاب أن تكون هذه المدينة هي « صوفيا » في الوقت الحالى .

الامبراطوريه ، ولما وصل « وولنر » الى القسطنطينية جىء به الى حضرة الامبراطور ، ونجح فى الحصول من جلالته على اذن يسمح له بانزال جيشه قرب البلد وبعقد سوق للتجارة ، على أن يكون ذلك الى حين ، حتى يصل بطرس [الناسك] الذى كان قد أذن لوولنر أن يسير تحت قيادته ٠

- ١٩ -

ما كادت تمضى فترة وجيزة بعد الأحداث التى ذكرناها حتى زحف بطرس عبر « لوثاريجيا » و « فرانكونيا » و « بافاريا » والاقليم المسمى بالنمسا ، وكان تحت امرته حشد ضخم يكاد يقرب من أربعين ألفا جعل منهم جيشا على اختلاف أممهم وقبائلهم وألسنتهم وشعوبهم ، فلما أشرف بهم على تخوم مملكة المجر بعث برسالة الى ملكها ، فجاءه الاذن فى يسر بالدخول ، على أن يسير فى المملكة فى هدوء ، غير محدث ازعاجا ولا مسبب شغبا فاستجاب بطرس لما اشترطه الملك ، وبادر بالانتفاع من هذا الاذن ، ودخل المملكة بعسكره ، وأمده أهلها بكميات كبيرة من الطعام قدموها اليه بثمن معقول ووفق شروط طيبة ، فتقدم العسكر فى هدوء الى المدينة « سملين » التى أسرنا اليها ، حيث جاءهم نبأ ما حاق برفاقهم الذين سبقوهم بقيادة « وولنر » وما عوملوا به من معاملة دنيئة على أيدى أهل تلك الناحية ، فلما طالعوا ما كان معلقا على أسوار المدينة من أسلاب وسلاح رفاقهم رمزا لانتصار المجريين عليهم أغضبهم ذلك كل الغضب وحينذاك انتضوا أسلحتهم واقتحموا المدينة عنوة ، فلقى غالب أهلها مصرعهم اما قتلا بالسيف أو غرقا فى النهر القريب منها ، ويقال انه هلك فى هذه الحركة الهوجاء ما يناهز أربعة آلاف

مجرى ، وكان ذلك عقابا يكافىء جرمهم ، وتقول الأخبار أن « بطرس فقد في هذا اليوم مائة رجل فقط من رجاله ، فلما فرغ الحجاج من الاستيلاء على المدينة بقوة السلاح أقاموا بها خمسة أيام سويا بسبب ما وجدوه بها من وافر الطعام •

★★★

كان دوق البلغار المدعو « نيكيتاس » هو المسئول عن رفض السماح لوولتر وجيشه بعقد السوق ، فلما ترامى الى سمعه خبر انتقام عسكر بطرس من مدينة « سملين » بسبب المعاملة التى كان قد صادفها جيش وولتر تسرب الخوف الى نفسه من أن ينزل به هؤلاء نفس العقاب لانه لم يكن بريئا من هذا الموضوع ، ولما كان « نيكيتاس » غير واثق تماما من وسائل الدفاع عن مدينة بلغراد التى يحكمها فقد غادرها ، وغادروها فى اثره سكانها جميعا مستصحبين معهم مواشيهم ودوابهم ، ولاذوا الى الغابات فرارا الى ما بها من المخابىء والأماكن السرية •

وبينما كان بطرس لا يزال مقيما بالمدينه المغلوبة على أمرها جاءته الأخبار بأن ملك المجر - وقد هزه نبأ المذبحة التى حرت على شعبه - استدعى اليه قواته الحربية من شتى أرجاء تلك الناحية واستعد استعدادا جبارا للثأر لهذه الدماء المهراقة ، فبادر بطرس فى لحظته الى الاستيلاء على جميع السفن الراسية على طول النهر ، وأمر جيشه بركوبها والعبور بها على وجه السرعة . فاستجابوا له وأخذوا معهم ما وجدوه بالمدينة المنهوبة من ماشية ودواب ، وحازوا ما بها من أغلى الأسلاب حتى توفر بين أيديهم من ذلك كثرة فوق الوصف ، ولما تم نقل كل شيء الى الشاطىء الآخر ضربوا معسكرهم أمام بلجراد التى وجدوها مهجورة من أهلها ، وسار بطرس من هناك بمن معه ثمانية أيام اجتاز خلالها غابة كثيفة بالغة الاتساع ، خرج

منها الى « نبش » ، وسار من خلفه كل الجيس بما معه من عرباب ومركبات وقطعان الماشية والدواب ٠

ومدينة «نبش» هذه شديدة الحصانة بفضل سورها وأبراجها التى تحميها قوة كبيرة من السجعان والأبطال ، فعبر جسر [بطرس] النهر الذى يجرى الى جوار المدينة من حسر صخرى ، وضرب معسكره على مقربة منه ٠

كانت المئونة التى معهم فى الزحف قد آخذت فى النفاذ ، وأصبح العسكر يواجه نقصا بينا فى الطعام ، ومن ثم بعثوا برساله الى حاكم المدينة يتوسلون اليه فى لهجة رقيقة أن يأذن لهم باقامة سوق بشروط كريمة وأسعار معتدله ، وتكون السوق حافلة بمطلبات الحياة اليومية الضرورية لهؤلاء القوم الحجاج الذين خرجوا امتثالا للأوامر الالهية ، فأجابهم الوالى بأنه غير مستطيع الاذن لهم بذلك الا اذا بعثوا اليه أولا برهائن من رجالهم تأكيدا لعدم قيامهم باحداث أى أذى ، وأنهم لن يقدموا على أى عمل من أعمال العنف يصيبون به الأهالى العاملين بالسوق ، وارتضى الطرفان هـذا الشرط ، وأرسل [اللاتين] اليه الرهائن ، واذ ذاك مضى المواطنون من المدينة حاملين معهم بضائعهم ٠

- ٢٠ -

توفرت كميات هائلة من الزاد لكل الجيس ، وجرى التعامل بين الجانبين بيعا وشراء على أحسن ما يكون التعامل ، وانصرم الليل فى هدوء تام ، والناس من كلا الجانبين يتحدثون بعضا الى بعض فى مودة ، حتى اذا بدت تباشير الصباح عاد الرهائن الى قومهم وأخذ

الجيس ينأهب للمسير ، وبينما كانوا على وشك الرحيل ـ أو بلفظ أدق ـ بينما كان الجانب الأكبر ـ ان لم يكن الجيس كله قد أخذ في الرحيل ، اذا بجماعة قليلة من طغام الناس ودعاة الفوضى ممن يستحقون لعنة الله عليهم قد حدثتهم نفوسهم باحداث شغب نافه في الليلة السابقة أثناء شد ائهم بعض ما يلزمهم من رجل بلغاري ، فانسحبوا قليلا من الصفوف التي كانت قد رحلت وأضرموا النار في سبع طواحين كانت موجودة قرب الجسر وفوق النهر المذكور ، فأتت النار عليها كلها حتى صارت رمادا ٠

كان أبناء اللاعون هؤلاء ـ وعددهم قرابة مائة سخص ـ من سعب السوبون الذين لم يكف العمل الشرير الذي ارتكبوه في اطفاء غضبهم المجنون ، بل زادوا عليه فراحوا يقذفون بالنار بيوت طائفة معينة من الناس تقع خارج الأسوار فأحرقوها هي الأخرى ،ونفوسهم ملأى بنفس الضغينة . فلما فرغوا من جريمتهم هذه أسرعوا للانضمام الى بقية الجيس البريء مما فعلوه ، وساروا كأنهم غير شاعرين بما ارتكبوه من الاثم ٠

كان حاكم المدينة قد تلقاهم في الليلة السالفة لقاء بالغ اللطف . فلما رأى نكرانهم لأفضاله عليهم اضطر لتدبير خطة يعاقبهم بها بدلا من متابعة الاحسان اليهم ، وترمي هذه الخطة للقضاء عليهم قضاء لم يعرف النصفة فيه ، اذ عدهم جميعا لصوصا مخربين ، وأخذ الجيس كله بجريمة شرذمة قليلين ، ومن ثم استدعى اليه الأهالي وأمرهم بحمل السلاح ، ولم يتأخر هو ذاته عن قيادتهم بنفسه فكانوا جمعا كبيرا ، وراح يشجعهم بالقول والعمل على مطاردة الصليبين كما لو كانوا ماضين للثأر من فجرة دنسين ، وأصبح أهل البلاد كلهم رجلا واحدا ، قد توحدت مشاعرهم ، وتقدموا مهاجمين القوات التي كانت قد سبقت غيرها ، ثم كروا على المؤخرة

كرة عنيفة وراحوا يعملون سيوفهم فيها . ثم جاءوا الى أولئك التعساء الذين لم يكونوا قد انضموا بعد الى الجنس الأصلى فهاجموهم بشدة، وجرعوهم كئوس الموت دهاقا ، كما أوقعوا نفس العقــاب ، ان قصدا أو عفوا ـ بكثير من الأبرياء ، فأخذوا البرىء بجريرة المذنب ، واستولوا على العربات والمركبات المحملة بشتى أنواع المئونه ، وقبدوا الشيوخ والعجزه والنساء والصبيان والبنات الذين لم يستطيعوا اللحاق بقية القوم ، وســاروا بهم ، فشفى غليلهم ما سـفك فى المذبحة من دماء القتلى ، ثم عادوا الى المدينة محملين بالغنائم ·

- ٣١ -

راح بطرس فى هذه الأثناء يتقدم بطليعة عسكره وكبار رجال الحملة وهم على جهل تام بالكارثة التى أصابت رفاقهم حتى طالعهم فجأة رسول يخب به جواده على عجل ، حاملا اليهم نبأ الفاجعة ، وأسهب لهم فى شرح قصة القبض على رفاقهم اسهابا ما كاد يصافح أذنى بطرس حتى نادى فى العسكر أن يوافوه ، واستجاب لنصيحة أهل التجربة منهم ، فكروا راجعين عبر الطريق الذى تقدموا منه طوال اليوم كله ، فلما طالعهم جثث اخوانهم الصرعى ـ وكانت برهانا على المذبحة ـ لم يستطيعوا امساك أنفسهم عن البكاء والعويل. ثم وقفوا أخـيرا للمرة الثانية أمام المدينة فى البقعة التى كانوا معسكرين فيها الليلة البارحة ·

لم تكن عند بطرس ومن معه من زملائه الذين كانوا أحسن من غيرهم فى سيطرتهم على انفعالاتهم الا فكرة واحــدة وغرض واحــد بالنسبة لهـذه المسـألة ··· لقـد عادوا ليكتشـفوا

سبب الفاجعة . ولتحاولوا ازالة دواعي النزاع حتى يتمكنوا من متابعة رحلة حجهم في أمان أكبر ، وذلك حين يستتب السلام استتبابا تاما ويعود على أكمل وجه بين الشعبين ، وتصفو النفوس من كل شائبة ، فأرسلوا الى حاكم المدينة والى شيوخها من أجل هذه الرغبة رجالا أهل فطنة وادراك للمسئولية ، وعهدوا اليهم أن يتقصوا الحقائق والظروف التي أفضت الى ذلك الشغب الفجائي ، واهراق كثير من الدماء البريئة .

فلما وقف الرسل على سبب [هذا الشقاق] تبين لهم أن الأهالي لم يعمدوا الى حمل السلاح جزافا بلا مبرر يدعوهم للغضب، ولما لم يكن الوقت ملائما للمطالبة بالثأر جزاء ما ارتكبوا من الأخطاء ، فقد بذل الرسل غاية جهدهم لمحاولة اعادة السلام الى مجراه ، بأن يعاد الى رفاقهم كل ما فقدوه من الغنائم والمتاع .

وبينما كانوا يسعون سعيا حثيثا للوصول الى هذه الخاتمة والى اتفاق يرضي الطرفين ، اذا بهم يسمعون ضجة هوجاء في المعسكر سببها العواطف المتأججة الثائرة ، وأذكاها تهور بعض الأشخاص الذين لا يكترثون بشيء ما ، ولكنهم أرادوا سلوك طريق العنف للانتقام لما وقع عليهم من أضرار .

وطمع بطرس في تهدئة ثائرتهم وازالة ما قد يؤدي الى مذبحة أخرى ، فاختار رهطا من المسئولين أصحاب النفوذ القوي وأرسلهم الى الرعاع في محاولة منه لمنعهم ـ وهم في سورة غضبهم الجنوني ـ من مهاجمة الأهالي ، فما أحدث هذه المحاولة نفعا ، فقد رفضوا أن يستمعوا الى تحذيره المجدي ، واذ ذاك أصدر أوامر صريحة الى الجيش عن طريق المنادين أن يلتزم كل واحد يمين الطاعة التي في عنقه له ، ولا يحاول بأي صورة من الصور أن يساعد أو يعضد الذين

يريدون التحرق بسلوكهم الطائش على سجب السلام الذى عاد برفرف الآن من جديد عليهم ·

واستجاب الجيس لهذا التوجيه وعده أمرا لا مفر من الخضوع له ، واذ ذاك ركن الجميع الى الهدوء انتظارا لانتهاء الثوره الأولى ومعرفة نتائج الأمر كله ·

أما الرسل الذين كانوا ذهبوا الى الحاكم لعقد الاتفاق فقد رأوا العكس من ذلك ، وأن الأهالى لم يمكن تهدئة ثائرتهم ، بل ان غضبهم راح يزداد عنفا بين لحظة وأخرى ، فلما أدركوا ألا أمل فى نجاح مهمتهم التى جاءوا من أجلها نبذوا هذه المحاولة وراء ظهورهم ، وعادوا الى المعسكر لمساعده رجل الرب بطرس فى اخماد نائرة الفتنة ، لكن هذا كان ضربا من المستحيل ، فقد اندفع قرابة ألف من الناس فى هذه المحاولة المجنونة ، وكانوا فى عددهم هذا يماثلون عدد من هب من أهل البلد ، وتمخض الأمر عن معركه شرسة جرت أمام المدينة ·

ورأى من بداخل المدينة أن السفاق قد مس من هم خارجها ، واذ كانت الفتنة قد وقعت على كره من بطرس وعلى الرغم من أمره الصريح ، فقد راودهم الأمل فى وقوف بقية الجيش بمعزل عنه لا تمد له يد المساعدة ، واذ ذاك فتحوا مزاليج الأبواب ، واندفعت جموعهم هادرة ففتكت بما يقرب من خمسمائة رجل من رجالنا الذين على الجسر ، والذين كانت بقيتهم كلها لا تعرف مواضع المخاضات ، ولا تدرى شيئا ما عن الموقع بأجمعه ، فابتلعها النهر ، فلما رأى العسكر هذا المنظر هبوا سراعا الى أسلحتهم لأنهم لم يعودوا قادرين على تحمل الأهوال التى انصبت على رفاقهم ، والتقى الجمعان المتعاديان وجها لوجه فى معركة وحشية أسفرت عن مذبحة مروعة .

فكان الحطب في هده المرة أشد من سابقه ، ولم يستطع العامه ولا الرعاع غير النطاميين أن يصمدوا أمام ضغط البلغار عليهم ، فتخلوا عن موضعهم ولاذوا بأذيال الفرار ، فتأثر بهذا الهرب الجنوبي آخرون كانوا يحاربون ببسالة ، فاقتفوا أثرهم وفعلوا فعلهم ٠

على هده الصوره هرب الجيس كله ٠

فلما تصدعت الصفوف وانفرط عقدها ، لم يعد يوجد أحد ما يحاول المقاومة ، وفي وسط هذا الاضطراب فقد بطرس كل ما كان الأمراء المخلصون قد أهدوه اياه من الهدايا ، كما ضاع كل ما كان عنده من مال كان قد اعتزم بذله في سد حاجات الفقراء وأهل الفاقة في أثناء الطريق ، وذلك بسبب استيلاء العدو على العربة التي كانت تحمل هذه الثروة ، فضاع كل شيء بضياعها ٠

أما البلغار فقد حدوا في اثرهم يقصونهم والغضب يملأ جوانحهم ، فقارب من قتلوهم منهم عشرة آلاف مسيحي ، واستولوا على العربات ، ونهبوا ما عندهم من المتاع ، وسبوا كثيرا من النساء ، واسترقوا العديد من الأطفال ٠

فأما الذين سلموا من الوقوع في أيديهم فقد التمسوا النجاة في الفرار الى أعماق الأدغال التي لا يمكن الوصول اليها ، وكان من أصعب الأمور استدعاءهم للرجوع في اليوم الثالث ، اذ أخذوا يدقون لهم الطبول ، وينفخون الأبواق ، حتى التفوا حول بطرس هم ومن نجا منهم ، وارتدوا جميعا الى تل صغير يرتفع بعض الشيء عن السهل ٠

ولما كان اليوم الرابع وقد تجمعت القوات المسرده ، وأقبل الهاربون من الأماكن الخفية التى ظلوا متوارين فيها ثلاثة أيام سويا ، وصار عدد الجيش الذى عاد بعضه الى بعض يقرب من ثلاثين ألفا نهضوا من جديد لمتابعة الزحف ، وعلى الرغم من سلوكهم الطائش الذى أدى الى ضياع ما يقرب من ألفى عربة نقل ومركبة حمولة من أيديهم ، الا أنهم استشعروا العـــار ان لم يتجزوا حجهم فعادوا لمواصلة رحلتهم تحت ظروف بالغة المشقة ، اذ بينما كانوا يهمون بالسير رغم حاجتهم الملحة الى المئونة اذا بوافد من الامبراطور يصل الى المعسكر مزودا بالأوامر الامبراطورية الصادرة الى بطرس وغيره من قادة العسكر ، فخاطبهم الرسول علانية بقوله ٠

« أيها السادة النبلاء العظام : لقد وصلت الى سمع الامبراطور شائعة تتضمن رميكم بتهمة شنعة ذات طبيعـــة نكراء ، ونقول انكم سرتم سيرة خرقاء فى امبراطوريته ، وأنكم ارتكبتم أمرا اذا فى حق سكان البلاد وحق رعاياه ، وأثرتم القلاقل والاضطرابات ، فاذا طمعتم فى أى وقت فى نوال عطفه ، وأن تقعوا عند جلالته موقع الرضا فاننا ننهاكم ـ بأمره ـ ألا تفكروا فى البقاء بأى مدينة من مدنه أمدا يتجاوز ثلاثة أيام ، وعليكم أن تسدوا رحالكم سريعا الى القسطنطينية فى انضـــباط ونظـــام تامين ، وســـدل الجيش على الطريق ، ونعينكم بما تحتاجونه من الطعام بثمن مقبول » ٠

شدت هذه الكلمات من عزيمة القوم ودفعتهم حاجتهم للطعام الى التسرد ، كما أن رأفة الامبراطور أنعشت الآمال فى نفوسهم ، فراحوا يشرحون للمبعوث الامبراطورى بعض الظروف التى أدت الى الاضطراب الأخير مدافعين عن أنفسهم ، ومبرئين عنـــده ساحتهم ،

وتحدثوا عن تذرعهم بالصبر في احتمال البلايا التى أنزلها البلغار بهم ظلما وعدوانا ، فلمـا فرغوا من كل ذلك ساروا ـ كما وجههم ـ راسدس حتى بلغوا القسطنطينية بعد رحلة شاقه . فلما بلغوها وجدوا بهـا « وولتر المفلس » وقواته التى كانت معه فى انتظار قدومهم ، فانضم المعسكران بعضهما الى بعض ، وخيموا فى الموضع الذى خصص لهم ، واستجاب بطرس للاستدعاء الامبراطورى . فدخل المدينة ووقف فى الحضره المملوكية التى سألته عن مقاصده من وراء هذه الحركة الكبيرة ودوافعه اليها ، فأسهب بطرس فى شرح الأمـر اسهابا دل على ما هو عليه من فصـاحة اللسان وقوه الجنان ، وأخبره أن أكثر أمراء العرب قادمون فى أثره ، وهم رجال مخلصون فى خدمه الرب .

ولقد أظهر [بطرس] روحا عالية ، وامتلاكا لناصية البلاغة ، مما حمل كبار رجال القصر على الاعجاب بفطنته وشجاعته ، بل ان الامبراطور ذاته مال اليه كل الميل وأثنى على هدفه ، ثم صرفه بعد هذا الاستقبال الكريم ، محملا بالهدايا الرائعة ، وأمره بالعودة الى جنده الذين معه .

★★★

كان الجيش قد أقام فى هذا الموضع بضعة أيام أتيح لرجاله خلالها أن ينعموا بالراحة وبما طاب لهم من المآكل ، ثم صدر الأمر الامبراطورى بتزويدهم بالسفن يعبرون بها البسفور الى «بيثينيا» وهى أول الولايات فى منطقة آسيا ، وبعدها نفس البحر الذى بلغوا مكانا يقع عليه اسمه «سيفيتوت» فأقاموا به وضربوا معسكرهم فيه .

- ٢٣ -

كانت البقعة التى عسكر فيها الحسن تقع على تخوم بلاد العدو، فظلوا مقيمين بها أمدا قارب الشهرين امامه طيبة ناعمه ، توفرت لهم بها شتى صنوف المئونة . كما أنه فى خلال هذه الفترة كانت هناك كميات ضخمة من البضائع تعرض عليهم كل يوم للبيع ، كما أتيحت لهم فرصة من الاستجمام الذى كانوا فى مسيس الحاجة اليه ، غير أن هذه النعمه العظيمة من الطعام والفراغ الكبير حولت هؤلاء التعساء والجفاة الى قوم استبد بهم الطيش،ودفعتهم البلهنية التى يتقلبون فى مطارفها الى الصلف ، فكونوا من بينهم جماعات لا تأتمر بأمر أحد ، وراحوا يتوغلون فى البلاد - على غير رضى من رؤسائهم - لمسافة بلغت عشرة أميال أو أكثر ، فساقوا منها قطعان الماشية والدواب .

وطالما جاءتهم كتب من الامبراطور يحذرهم مغبة ما يقترفون ، وينهاهم عن التجرؤ على الابتعاد أو استفزاز العدو ، ويأمرهم بالبقاء فى الموضع الذى خصص لهم ، وأن ينهجوا النهج القويم الى حين وصول قوادهم الذين قيل انهم قادمون وراءهم .

وخاف بطرس على من وكلت اليه رعايتهم فذهب الى المدينة الامبراطورية عساه يحصل على تخفيض ثمن ما يشترونه ، وعلى ظروف أحسن فى المتاجرة ، فاغتنم العسكر المشاكس الذى لم يألف النظام فرصة تغيب بطرس ، وساروا سيرة رعناء حين قامت طائفة منهم ، قوامها سبعة آلاف جندى من المشاة الذين يماثلون من ذكرنا فى غيهم ، وانفصلوا عن الجيش الأصلى ، وضموا اليهم ثلاثمائة فارس وزحفوا جميعا على نقية من غير اكتراث باعتراض رفاقهم الآخرين على مسلكهم هذا ، ورتبوا صفوفهم للحرب ،

واندفعوا فساقوا من ضــواحي المدينة عــددا كبيرا من القطعـــان والأغنام ، وعادوا بها سالمين الى المعسكر ٠

★★★

ورأى جماعه من النيوتون وغيرهم ممن يتكلمون لغتهم ما صادفه اللاتين من النجاح في غزوتهم هذه ، فتملكتهم هم أيضا الرغبة فى مجاراتهم في السلب والنهب ، وأجمعوا العزم على القيــام بمثل هذه المحاولة ، مؤملين أن يحوزوا من الفخر لأنفسهم مثل الذى حازه هؤلاء ، وأن يرفهوا عن دوابهم فجمعوا من هذه الأمة [التيوتونيه] ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص ومائتى فارس . ورحلوا بهم على نيقية ٠

وكان في ذلك الاقليم ــ وعلى بعد أربعـــة أميال من نيقية نفسها ــ مدينة حصينة تقع على سطح أحد التلال ، فدنا منها هؤلاء النيوتون وهاجموها أعنف هجوم ، وأحدقوا بها من شتى النواحى، واستولوا قسرا على ذلك المكان رغم استبسال أهله فى مقاومتهم . لكنهم فتكوا بهم وملكوا كل شيء فى البلد ، ثم أعجبهم جمال الناحيه وغناها فحصنوها تحصينا قويا ، وأجمعوا العزم على البقاء هناك حتى يصل القواد ٠

- ٢٤ -

كان [قلج أرسلان بن] سليمان [بن قطامس] صاحب هذه الأرض وحاكمها قد علم قبـــل ذلك بأمد طويل بقـــدوم الزعمـــاء الصليبيين ، ومن ثم حشد جيشـــا كثيفـــا من الشجعان الذين

لا يحصيهم العد من نواحي السرق ، بادلا في سبيل دلك كل وسائل الاغراء والمال ، وعاد بهم الى هده الجهات ليمد يد المساعدة المنسوده الى أهالى الناحية ابتغاء صد هجمات العدو ، فلما بلغه الحبر أن التيوتون الذين ذكرناهم حالا قد استولوا على احدى قلاعه ، بادر الى الزحف عليهم ، وحاصر القلعة حصارا شديدا ، وحكم السيف فى رقاب كل من وجده فيها •

ووصلت أنباء هذه النكبة الى المعسكر [الصليبى] ، وسرعان ما تردد الصدى بأن طائفة التيوتون الذين غادروا المعسكر منذ قريب قد هلكوا عن بكرة أبيهم على يد قلج أرسلان . فاستبد الذعر بنفوس القوم من هذا النبأ ، ولم يستطيعوا أن يكتموا ما اعتملت به صدورهم من الأسى ، فأسلموا أنفسهم للبكاء والأنين ، حتى اذا أصبحت الحقيقة فى النهاية معروفة لا خفاء فيها عم الاضطراب جميع الناس فى المعسكر ، وارتفعت صيحاتهم عالية تلح الحاحا شديدا ألا يسكتوا عن هذه النكبة التى نزلت باخوانهم ، وتنادوا بأن يهب الفرسان والمشاة لحمل السلاح للخروج ثأرا لدم رفاقهم المقتولين. وكان أعظم رجال الجيش وأهل الخبرة فى مثل هذه الأمور راغبين فى اطاعة أوامر الامبراطور ، فلما أرادوا التغلب على هذا الموضوع وكبح جماح العامة الطائشــة ثار الناس ضدهم وتمردوا عليهم ، ورأسوا عليهم واحدا منهم اسمه « جودفروى » ويلقب « ببوريل » وكان صعلوكا ، وجعلوه قائد هذه العصبة ، وراحوا يصبون اللعنات على رءوس أصحاب المكانة العليا ، زاعمين أن عدم اتاحة الفرصــة للانتقام بالسيف ممن قتلوا اخوانهم انما يرجع الى الجبن ، أكثر من أن يكون صادرا عن تفكير سليم •

كانت الغلبه أخيرا لمشيئه العناصر الشريره ، فحملوا وراءهم النساء والأطفال والشيوخ العزل من السلاح ، على حين تسلح الباقون . فتجمع منهم رهط كانوا خمسة وعشرين الفا من المشاة المدججين بالسيوف ، ومائتين من الفرسان المجهزين أحسن تجهيز بما عليهم من الزردباب ، وصفوا صفوفهم للقتـــال ، وزحفوا فى الغابات المشار اليها ، وكانت وجهتهم ناحية التل فى اقليم نيقية ، وما كادوا يتقدمونه ثلاثة أميال فى الغابة حتى كان قد بلغها أيضا قلج أرسلان على رأس جيش من قومه كالذبى كثره ، وراح بعد السير شطر معسكرنا الذى ذكرنا موضعه من قبل ، قاصدا مباغتته بالهجوم ، وترامت الى الأسماع صحات وصيحات غير مألوفة صادره من الغابات أنبأته أن الصليبيين قد غادروا مخيمهم ، وأنهم فى الطريق لمهاجمته ، فبادر فى لحظته الى مغادرة الغابة والنزول الى السهل الفسيح ،! ففعل رجالنا مثلما فعل [قلج أرسلان] ، غير شاعرين باقتراب العدو منهم ، فلما اكتشفوا أنه أدنى ما يكون اليهم هموا للانقضاض عليه ، وراح كل واحد منهم يشجع الآخر ويشد من عزيمته ، وأحاطوا به مسرعين بسيوفهم لينتقموا بأيديهم لدم اخوانهم المراق ، لكن بينما كان رجالنا مندفعين الى الأمام بقلوب ملؤها الحميه والغيرة اذا بسيوف العدو تتلقاهم ، وذلك لأن الترك ــ وقد أيقنوا أنه صراع حتى الموت ــ قاوموا مقاومة عنيفـــة ، يذكيها غضبهم العارم واعتزازهم بكثرة جنـدهم ، واستبسل الجانبان استبسالا قويا رائعا لكن دارت الدائرة أخيرا على الصليبيين بسبب كثره خصومهم ، ولما لم يستطع رجالنا أن يتحملوا شدة المعركه أكثر مما تحملوا فقد اضطربت صفوفهم ولاذوا بأذيال الفرار ، فانقض عليهم الترك بسيوفهم وتعقبـوهم حتى معسـكرهم ، وأعملوا فيهم مذبحة شنيعة .

٢/ /

وقد قتل في هذه المعركة بضعة رجال من ذوى المكانة في معسكر بطرس ، منهم « وولتر » المفلس ، و « رينه دى بروس » و « فولشر دى أورلانز » وغيرهم ٠

أما الخمسة وعشرون ألفا من الجند المشاة ، والخمسمائة فارس الذين كانوا قد خرجوا من المعسكر ، فقد راح معظمهم ما بين قتل وأسر ٠

- ٣٦ -

دبت النشوة الكبرى فى أعطاف قلج أرسلان ، وهزته الفرحة الطاغية لهذا النصر الذى حازه ، ولما لم يعد باقيا أحد قادرا على مقاومته فقد حكم السيف فى رقاب الأحياء ، غير مستبق على قيد الحياة أحدا مريضا كان أو عجوزا ، رجلا كان أو امرأة ، وهلك الرهبان وجميع رجال الدين ، لم يستثن من هؤلاء كلهم سوى من لم يبلغوا سن الرشد من الصبيان والبنات الصغيرات الذين كان يغمدهم عنده بهاء طلعتهم وصغر سنهم ، ولم تكن استبقاؤه اياهم الا لتضرب عليهم الرق ٠

★★★

وكان على الساحل قرب المعسكر حصن قديم نصف خرب ، ليس له أبواب ولا مزاليج ، وليس من أحد يقيم به ، فألجأت الضرورة طائفة من الحجاج تقدر بثلاثة آلاف حاج الى الهروب الى هذا الحصن والاعتصام به ، اعتقادا منهم أنهم واجدون فيه الملاذ الأمين ، وحاولوا الدفاع عن أنفسهم فى موقفهم العصيب هذا لسد

مداخله بدروعهم ر د لاحجار الضخمة يدحرجونها الى هناك ، كى يحولوا
بين أى أحد من الاقتراب منه . ولكن الترك شددوا عليهم الحصار
فلم تمنع هذه الشدة المحصورين من الاستبسال دفاعا عنه حتى
ردوا مهاجميهم على أعقابهم ، كما أرسلوا فى الوقت ذاته رسولا على
جناح السرعة الى بطرس يخبره بهلاك جماعته ، وأن القلة الباقية
منهم على قيد الحياة تكابدون حصارا شديدا ضربه العدو عليهم فى
قلعة نصف خربة ، وأنهم فى مسيس الحاجة للطعام والسلاح .
فبادر بطرس بالمضى من ساعته الى الامبراطور ، واستطاع بتوسلاته
اليه وتضرعاته أن يحمله على أن يرسل فى لحظته هذه بعض الغراب
الى هناك . وألقى لقواد العسكر أمره بانقاذ الأحياء منهم من الخطر
الذى يكتنفهم . فأنجزوا ما كلفهم به على أتم وجه ، اذ ما كاد الترك
يسمعون بأمر الامبراطور حتى كفوا فى الحال عن مهاجمة ذلك
المكان . وانسحبوا ومن خلفهم أسراهم ، وعادوا الى نيقية ، كما
حملوا بالاضافة الى ذلك أحسن الأسلاب والخيم والفساطيط والجياد
والبغال وجميع المجوهرات التى نهبوها من الصليبيين .

وهكذا فان الطيش الجنونى الذى كان عليه هؤلاء القوم الجفاة
عبر المطامس ، انصرفوا عن الأخذ بمشورة من هم أحكم منهم قد
أدى بهم الى الابادة الشاملة ، ولما لم يكونوا معتادين على النظام
المحمود فقد سلكوا سبلا لم يجنوا من ورائه خيرا ، واصبحوا نهبا
لسيوف العدو .

- ٢٧ -

بعد فترة وجيزة من وصول بطرس الى « سمبا » قام قسيس توتونى اسمه « جوسوك » سار فى أثر خطى بطرس يحدوه الشوق لأداء رحلة الحج هذه ٠ ولما كان جوسوك قادرا بالطبيعة على استمالة الناس اليه بكلامه فقد استطاع اغراء كثير من التوتونيين فى جميع رحاب تلك المملكة على الاشتراك فى هذه المهمه ، حتى تجمع لديه منهم قرابة خمسة عشر ألف حاج دخل بهم المجر ، ثم داق كندا . كما استجاب المجريون من جانبهم الى أوامر ملكهم فقدموا البضائع بأثمان معقوله الى رجال جيش « جوسوك » الذين اطربتهم وفرة الطعام بين أيديهم ، فأسلموا أنفسهم الى البطالة والكسل ، وانغمسوا فى الشراب يعبون منه عبا ، وأساءوا السيره مع الأهالى وألحقوا بهم شرورا كثيرة اذ راحوا ينهبونهم ، وامتدت أيديهم بالسرقة الى البضائع المعروضة للبيع فى الأسواق العامة ، واجترحوا السيئات فقتلوا الناس غير مراعين أصول الضيافة ٠

فلما وصلت أخبار ما فعلوا الى الملك استبد به الغضب ، فأمر أن ينادى فى كافة أرجاء مملكته أن يحمل الناس وكبار ملاك الأرض السلاح للقضاء على هذه الأخطار الكبيرة ، لا سيما وقد ارتكب فى كثير من النواحى تجاوزات مهلكة ، بلغت من العار حدا يفوق الوصف ويعف اللسان عن ذكرها ، وكان من المستحيل على الملك أن يغض الطرف عن مثل هذه الجرائم والا اتهم بالجبن ، وجلب على نفسه كراهية شعبه له ، ومن ثم تجمعت قوات المملكه ، وكروا كرة رجل واحد غاضب على الصليبيين ، باعتبارهم أعداء يستحقون الاستئصال التام ، وأجمعوا العزم على الفتك بهم انتقاما مما اجترحوا من الآثام ٠

وأخيرا نسى لفوات الملك أن تغير على طائفة من هؤلاء المجانين الفوضويين فى مكان يعرف « ببلجراد » يقع وسط تلك المملكة . وكان هؤلاء (الصربيون) قد سمعوا بزحف الملك ، وأيقنوا تمام اليقين من حنقه الشديد عليهم ، كما أزعجهم شعورهم بما اقترفوا من الجرم ، ورآهم المجريون — وقد حملوا سلاحهم — عازمين على رد القوة بالقوة فأرادوا درأ الخطر عن أنفسهم ، لكنهم أدركوا إستحالة الاشتباك معهم دون أن يفقدوا الكثيرين من رجالهم ، ذلك لأن هؤلاء المسيحيين [الصربيون] كانوا فى الواقع رجالا ذوى بأس وشجاعة ، ومهرة فى استعمال السلاح ، يأبون أن يسلموا أرواحهم من غير قتال ، ولذلك فان المجريين — جريا على مألوف عادتهم — حاولوا أن ينالوا بالحيلة ما يعجزون عن نيله بالعنف ، فأرسلوا وفادة الى « جوبسوك » وزعماء جنسه ، يطمئنون خواطرهم — خديعة — بالكلمات المعسولة .

- ٢٨ -

لقد قالوا لهم :

« أنه ترامى الى سمع الملك الشكوى المريرة من فعال جنسكم ، وقيل له انكم أنزلتم برعاياه الخاضعين له كثيرا من الأضرار البالغة والأهوال التى يعجز اللسان عن ذكرها ، وأنكم جازيتم حسن المعاملة التى عومل بها عسكركم بأسوأ ما يكون الجزاء ، ومع ذلك فان الملك يدرك بحكمته تمام الادراك أنكم لستم جميعا تحملون وزر هذه الجرائم ، وهو واثق أن فيكم رجالا حكماء ممن تمتلئ قلوبهم بخشية الله لم ترضهم فعال الآخرين الشريرة ، وأن هذه الجرائم

التى أثارت عن حق الحنق الملكى قد نمت على غير رضى هؤلاء وأنها حدثت رغم استنكارهم ، ولما كانت رغبة الملك ألا تؤدى خطايا البعض الى تأثيم الكل ، وألا يؤخذ البرىء بجريرة المذنب فقد قرر أن يكبح جماح غضبه حتى لا يصيب اخوانه فى الملة المسيحية بضرر ، ومن ثم فاننا نشير عليكم أن تستسلموا وتسلموا كل ما معكم الآن ، بما فى ذلك سلاحكم ، دون قيد أو شرط ، واضعين ذلك كله فى يد الملك حتى يذهب عنه غضبه تماما ، فان لم تفعلوا ذلك لم يستطع أحد منكم النجاة من الموت ـ لأنكم ـ بوجودكم فى وسط مملكته ـ لستم أكفاء لنا فى القوة الحربية ، كما أنه لا قدرة لكم على النجاة من بطشه » .

☆☆☆

ظهر منذ البداية عدم رضاء « جوتسوك » ورؤساء جنده عن المسلك الجنونى الذى سلكه شعبهم العنيد ، لكن بساطة قلوبهم دفعتهم للثقة فى اعتبار رحمة الملك أمرا لا يخالج الشك فيه أحدا ، ومن ثم فقد حملوا عسكرهم بالقوة تقريبا على الاذعان لفكرة تسليم أنفسهم وسلاحهم وكل ما تملكه أيديهم الى الملك ، وبذلك يكفرون عما ارتكبوه من آثام جرحته ، وانتهى الأمر أخيرا برضائهم عن فكرة أسهم بما تقرر ، هذا على الرغم من احتجاجهم العنيف ، ومداهم السديد للحرب دفاعا عن أنفسهم ، بيد أنهم ما كادوا يفرغون من تسليم أسلحتهم وجميع متاعهم لقواد الملك ورسله حتى وجدوا الموت فى انتظـــارهم ، بدلا من العطف الذى كانوا يتوقعــونه ، اذ قام الجرمان بمباغتة التيوتون على غرة منهم ، وكروا عليهم فى الوقت الذى كان فيه هؤلاء عزلا من كل سلاح ، ايمانا منهم برحمة الملك ، وثقة منهم به ، وأعمل الجرمان فيهم مذبحة من أشنع المذابح فى البعد عن الانسانية ، دون تفرقة بين الصالح والطالح منهم وأسفر

الأمر عن غرق المكان كله فى بحر الدم المطلول ، وامتلائه بجثث القتلى وانتهى الأمر بهلاك هذا الجمع الكثيف الذى لم يبق منه سوى نفر قليل نجـوا من الهلاك الشامل ، ممن شملتهم رحمـة الرب فلم تأخذهم سيوف المجريين ، فعادوا الى وطنهم يقصون خبر المذبحة ، ويروون نبأ المصير المشئوم الذى لقيه اخوانهم على من ارتبطوا بالعهد ممن كانوا على وشك القيام بذلك الحج ذاته وأسدوا النصح لهؤلاء الحجاج الجدد بوجوب اصطناع الحكمة فى سيرهم ، واتخاذ أكبر قدر من الحذر من هذا الشعب الدنيء ، لما ارتكبه من خيانة لن تمحى من الأذهان .

- ٢٩ -

فى هذه الأثناء — أو بعدها بقليل — تجمعت من بلاد الغرب زمر كثيفة لا يحصيها العد من المشاة ، كانت تحركهم نفس الرغبة [فى الحج] ، وانطلقوا لم تزعموا عليهم أحـــدا أو يتخذوا لهم مرشدا ، وزحفوا من غير هدى ولا تبصر أو حكمة ، على الرغم من أنه كان بينهم فى الواقع رجال من أصل شريف ، أمثـــال « توماس دى لافر » و « كلاربولدوى فندبل » ، و « وليم النجار » وكونت هارتمان وغيرهم ، غير أن القوم كانوا لا يعرفون الانضباط فلم يطيعوا هـؤلاء السادة بأى صـــورة من الصور ، وضربوا عرض الحائط بما أشار به عليهم أهل الحجى والتبصرة ، فانطلقوا على وجوههم هنا وهنـــاك ، مقترفين الفعال التى يرفضها القانون ، ويرتكبون ما تمليه عليهم شهواتهم ، ومن ثم فقد ركبوا متن الجنون والشطط ، مع أن واجبهم كان يحتم عليهم أن يحملهم خوفهم من الله على السير فى هذه الرحلة الناهضين بها سيرا كله طاعة للأوامر الالهية ، وأن

يلتزموا تمام الالتزام بالنظام في حجهم الذي يقومون به من اجل المسيح ولكنهم كانوا لا يمرون بمدينة أو قرية الا وثبوا على من فيها من يهودها فذبحوهم من غير أن تأخذهم رحمة ، ولم يكن اليهود قد أخذوا حذرهم منهم اذ لم يكن هناك ما يحملهم على أن يتوجسوا منهم سرا فيخافونهم ·

وقد وقعت هذه الاعتداءات على وجه الخصوص في مدينتي « كولونيا » و « متز » حيث كان الكونت « اميكو » أحد نبلاء ومشهوري تلك الناحية الأقوياء قد انضم بالكثير ممن دعوه الى عصابات الحجاج ، وكان [ايميكو] بالنسبة الى مكانته ملزما بما تفرضه عليه هذه المكانة من التمسك بالأخلاقيات . الا أنه لم يكن بالشخص الذي يستحب التجاوز في السلوك ، فسار على العكس من ذلك ، اذ ساهم فيما ارتكبه أتباعه من أعمال الفساد والشر ، وزاد على هذا فراح يشجعهم على اقتراف الجرائم ·

اخترقت هذه الجموع كلها « فرانكونيا » و « بافاريا » حتى بلغت ناحية تدعى « مسسبورج » (فيزلبورج) على تخوم المجر ، وكانوا يتوقعون السماح لهم بالدخول من غير صعوبة ، لكنهم ما كادوا يرون المدخل مغلقا في وجوههم حتى وقفوا على هذا الجانب من الجسر ·

وكان في الناحية قلعة شديدة الحصانة يفصل حمايتها نهرى « الدانوب » و « لبثا » لها ، وكذلك المستنقعات العميقة المحيطة بها ·

وتقول الأخبار ان عدد الجيش الذي زحف الى هناك قارب مائتي ألف جندي من المشاة ، وثلاثة آلاف من الفرسان ·

يضاف الى ذلك أن ملك المجر أصدر أوامره بعدم السماح لهؤلاء العسكر الراغبين في عبور بلده بدخوله ، فقد تذكر الأهوال

التى كان قد أوقعها بعوان « جوشوك » فخاف ان هو اذن لهذا العسكر بالدخول أن يدفعوا الى القتال لأخذ الثأر ، لا سيما وأن خبر المجزرة الدامية التى جرت حديثا قد عم السهل والجبل ، وتردد فى جميع الآفاق ، فحملت شناعة هذه الفعال الملك على الخوف .

وعلى الرغم من ذلك فقد اتصل هؤلاء الحجاج بالموكول اليهم حراسة المدينة وبقواد الفرق القائمة بحماية هـذه الناحية وكان اتصالهم بهم لسؤالهم الاذن لهم بارسال رسل من قبلهم الى الملك يلتمسون منه الحصول على اتفاقية تخولهم عبور تلك الأراضى .

وفى خلال هذه الفترة كان الحجـاج قد ضربوا معسكرهم فى مرعى معشوشب بهذه الناحية ، وأقاموا فى انتظار ما يسفر عنه سفاريهم الى الملك .

- ٣٠ -

انقضت بضعة أيام عاد بعدها الرسل الذين كانوا قد بعثوا الى الملك ، وأعلموا فشل سفارتهم فشلا تاما ، وحينذاك أيقن زعماء الحملة أن لا رجاء فى خير يأتيهم من ناحية الملك ، لذلك أجمعوا أمرهم على تخريب بلاده الواقعة على هذا الجانب من النهر ، واضرام النيران فى ضواحيها ، سالكين بذلك مسلك الأعـداء فى أملاكه ، وبينما كانوا ذات يـوم منهمكين غاية الانهماك فى هذا العمل اذا بكوكبـة من رجال الملك قوامها سبعمائة فارس قد عبـرت النهر لحماية المنطقة من أن يعيث الأعداء فيها تخريبا ، فصادفوا على غير انتظار جماعة الحجاج فلم يستطع الفرسان تجنبهم ، كما حال النهر

بسهم وبين العوده الى الساحة التي جاءوا منها ، فالقى فرسان الكوكبه أو خلفهم مصرعهم ، ولم ينج منهم الا نفر قليل فقدوا جيادهم ورأوا الاحتماء بحلفاء المستنقعات حفاظا على حياتهم وحمايه لأرواحهم .

تملكت الشجاعه الحجاج بما أحرزوه من نصر على عدوهم ، وصمموا على بناء بعض الجسور ومهاجمة القلعه حتى اذا تم لهم فتح الطريق بحد السيف عزموا على دخول المملكه ، لذلك استدعوا جميع عسكرهم لتحصين هذه الغابة ، وعبروا الجسور التى فرغوا حالا من اقامتها ، وتمكنوا من الوصول الى الحصون والقلاع ، ثم دفعتهم الجرأه للاستعداد لنسف الأســوار وشق طريقهم الى الداخـل ، متخذين من دروعهم وقاء لهم ، ونجحت محاولاتهم الجاده فى فتح ثغرات فى أماكن كثيره من الأسوار ، حتى اذا تابع عملهم نقطه صار دخول الحجاج فيها الى المدينة أمرا مقررا ، واستبد اليأس بنفوس المقيمين بها الذين لم يعد لهم أمل فى البقـــاء على حياتهم ، اذا بالصليبيين المهاجمين يصيبهم رعب مفاجىء أرسلته السماء هلعت له قلوبهم فتخلوا عن الهجوم وفروا تاركين وراءهم معظم متاعهم ، وعلى الرغم من أن ظاهر الأمور كان يشير الى أن النصر حليفهم وأنه ليس هناك ما يبرر فرارهم ، الا أنهم ولوا على أعقابهم منهزمين ، مدبرين غير مقبلين ، ويقال أنه لم يكن ثم سبب وجيه الا أن تكون آثامهم الجمة وخطاياهم الكثيرة قد حلت عليهم ســخط الله لأنهم كانوا قد غرقوا الى الأذقان فى لجة الكفر الذى يزلزل بالخوف قلوب أصحابه مصداقا لكلمات الحكيم « يهرب الجبان دون أن يكون أحد يطـــارده » .

تبـــدل وضـــع المجريين الى ما هو أحسن حـــين رأوا القوات الصليبية تلوذ بأذيال الفرار فانطلقوا انطلاق الغالبين يتعقبون هذه القوات التى أنزلت الفزع الممض بهم منذ قليل وكانت هذه القوات

المعادية هى التى لم تكونوا يستطيعون دفعها حتى وهم وراء الاسوار فى حماية المستنقعات . أما الآن فقد راحوا يطاردونهم من تلقاء أنفسهم ، ولم يكتفوا بث الفزع فيهم ، بل زادوا فراحوا يقتلونهم .

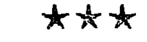
★★★

فر من هؤلاء كوت « ايمكو » ومعه الجانب الأكبر من قواته المدحوره ، وعاد بهم الى وطنه .

أما الأمراء الآخرون الذين أسرت الهم من قبل فقد فروا عبر « كارينثيا » حتى بلغوا ايطاليا التى عبروها ووصلوا الى حدود « أبوليا » ومن هنا اتجهوا نحو بلاد اليونان فى أثر أولئك الغزاة الذين قاموا هم أيضا بنفس هذه الرحلة ، والذين كانوا قد اضطروا عليهم أن يركبوا البحر الى « دورازو » .

ولقد تأثر الغرب كله عن حق بهذه الحركة وبغيرها مما على شاكلتها ، وراحت كل أمة على وجه التقريب ترسل قواتها على حده . وقد انفصلت الواحده منها عن الأخرى ، فمضى للحج جماعات تحت امرة قادة معينين ، وخرج آخرون من غير أن يرئسوا عليهم أحدا لكن كان من الواضح أن الطريق الذى سلكه القوم عبر المجر كان أقصر الطرق . بيد أنه أصبح مسدودا فى وجوههم . بسبب ما أثاروه بسكان هذه البلاد من المضرة والشرور التى جاوزت كل مدى وبسبب ما ارتكبه الحجاج الذين سبقوهم من جرم ، فأصابوا به الناس من غير اثم اقترفوه .

من أجل هذا السبب واجه الذين جاءوا من بعدهم صعوبة بالغة فى الحصول على عطف ملك المجر .



هنا ينتهى الكتاب الأول

الكتاب الثانى

جيوش الحملة الصليبية الأولى
تزحف الى القسطنطينية

فصول الكتاب الثانى :

١ ـ موعد رحيل حودفروى والنبلاء المصاحبين له ، وكيف تقدموا حتى بلغوا المجر ٠

٢ ـ رساله الدوق الى كولمان ملك المجر على لسان « حودفروى ديس » ، ورد الملك على الدوق ٠

٣ ـ الملك وقوادنا يعقدون مجلسا فيما بينهم ويرسلون بلدوين أخا الدوق « رهينة » ثم عودته بعد احتبازهم المجر ، والملك يتحف الدوق بكثير من الهدايا ٠

٤ ـ عسكريا يهدم في أراضي الامبراطورية ، ووصف الدخـول وملاحظة عن أحـوال بلاد الاغـريق التعسة ٠

٥ ـ الدوق يرسل مبعوثين الى الامبراطور يطلبـون منه اطــلاق هيج العظيـم وغـيره من النبلاء الموجودين في السجون ٠ قواتـنا تنهب الاقليم ثم تصل في النهاية الى القسطنطينية ٠

٦ ـ الامبراطور يدعو الدوق للحضور اليه ، لـكن الدوق يرفض الدعـوة فسبب العداوه التسعـة بينهما فيعمد الامبراطور الى حيلة ماكره يصل بها الجيش الى مكان عينه له ٠

٧ ـ وصـف موقع القسطنطينـة ٠ الدوق يرسـل رسلا الى الامبراطور ، وحسننا يكابد المتاعب من الكمـائن التى لم يكن يتوقعهـا والتى نصبـها الاغريق له ٠

٨ الجيش يعود الى المدينـه ويسبـب معركة كبيرة تتمخض عن مذبحة فظيعة في الاغريق ٠

٩ ـ النــاس يهرعـون لحمل السـلاح ويعملون يد التخريب في الناحية كلهـا ، ويسفر الأمر عن توفر كميات ضخمة من المئونة في المعسكر ٠

١٠ ـ وصـول رسل من ناحيـة بوهيموند الى الدوق جودفروى يحملون اليه رجاءه بعدم الذهاب الى الامبراطور ورد الدوق على بوهيموند ٠

١١ ـ الامبراطور يرسل ابنه جون بورفيروجنيتس الى الدوق رهينة عنده ، ويدعو جودفروى اليه فيذهب جودفروى فيتبناه الامبراطور ويستقر السلام بين الاثنين ٠

١٢ ـ الدوق يستأذن فى المغادرة فترة من الوقت فيرحل محملا بالهدايا ٠ عقد سوق للحجاج وعبور عسكر الدوق الى البسفور وضربهم خيامهم فى الاقليم المحيط بخلقدونيا ٠

١٣ ـ اسراع بوهموند فى القدوم ووصف من كان فى معيته من الكبار وتدبير الامبراطور الخطط السرية لصدهم ٠

١٤ ـ رسالة الامبراطور الكسيوس الى لورد بوهموند وقيام جيش الامبراطور بهجوم سرى على معسكر بوهموند والقبض على أسرى فصح نوايا الامبراطور السرية

١٥ ـ الدوق [جودفروى] يخرج لاستقبال الأمير بوهموند ويسير به رغم أنفه الى الامبراطور الذى يستقبله باحترام كبير ، كما أن تانكريد تحرك فى الوقت ذاته كتائبه فى سرية فتنضم الى جيش الدوق ٠

١٦ ـ وصول روبرت كونت فلاندرز بجيشه وذهابه محروسا الى حضرة الامبراطور بناء على استدعاء الأخير له ٠ واغداق الهدايا الجمة عليه ثم عبوره البحر وانضمامه الى الزعماء الآخرين ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٧ ـ كونت تولوز وأسقف بوى يخترقان دلماشيا بجيوشهما ، ويلاقيان كثيرا من الصعوبات فى عبور هذه البلاد ٠

١٨ ـ سفارة امبراطورية تقابل الكونت فى دورازو . والبلغاريون يلقون القبض على أسقف بوى ولكن سرعان ما تطلق العناية الالهية سراحه ، وحين وصول ريموند الى « رودستو » يصله رسل من الامبراطور ومن قادتنا مرة أخرى ٠

١٩ ـ الكونت يترك جيشه ويذهب الى الامبراطور لكنه لا يوافق على وجهة نظره ، فيعمد الامبراطور ـ خيانة منه له ـ الى اصدار الأوامر بمهاجمة جيش الكونت ٠

٢٠ ـ الاغريق يباغتون جيش الكونت أثناء غيابه فيحتدم الكونت غيظا من الامبراطور ألكسيوس الذى يبدى ندمه على ما جرى ويدفعه خوفه على نفسه الى أن يطلب من الأمراء التدخل ويتظاهر ببراءته مما حدث ٠

٢١ ـ الكونت يتصافى مع الامبراطور بسبب وساطة القادة ويدعوه لمرافقة القادة الصليبيين فى زحفهم ، أما القوات التى عبرت البحر فتسرع الى نيقية ويسير الكونت فى أثرهم فى الحال ٠

٢٢ ـ وصول روبرت كونت نرمندى وأستاس ـ أخى الدوق ـ بكتائبهما الى القسطنطينية واستقبال الامبراطور لهما بالترحيب ووصلهما بالهدايا

الحمه ثم عبورهما السعور ومحنتهما الى الزعماء الآخرين ٠

٢٣ ـ اتصال أحـــد موظفى الامبراطـور ـ واســمه تابيكبوس ـ بزعمائنا وتودده اليهم وكان رجلا شديد المكر مطبوعا على الحب الدنىء ٠





هنا يبدا

الكتاب الثانى

جيوس الحمله الصليبية الأولى تزحف الى القسطنطينية

- ١ -

فى نفس هذه السنة ، أعنى سنه ١٠٩٦ من مولد السيد المسيح ، وفى اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس ، قام « جودفروى » دوق « لوثاريخيا » العظيم المبجل بجمع أصدقائه فى رحلة الحج ، وأعد أمتعته بالطريقة المألوفة ، وكان خروجه بعد رحيل « بطرس الناسك » أثر الطامة الكبرى التى حاقت به وأشرنا اليها ، وفى أعقاب مذبحة جماعة « حوتنسوك » التى ذكرناها أيضا ، وبعد النكبة الأخرى التى حرت على حدود المجر ووصفناها سابقا ، وقلنا انها نزلت بالجيس الذى جاء من بعده ولقد انضم الى معسكر « حودفروى » رجال من ذوى المكانة السامية ، الحديرين بخلود الذكر ممن ربطوا أنفسهم به ، وهم لورد « بلدوين دى موتس » كونت « همنولت » ، ولورد هيج كونت « سـنت بول » ، وابنه « انجراند » وكان شابا غرانقا عالى الهمة ، وكونت « حارنيه » المعروف بجراى ، ولورد « رينار » كونت نول وأخوه بطرس ولورد بلدوين « دى بورج » أحد أقارب الدوق [جودفروى] ، ولورد « هنرى دينش » وأخوه « حودفروى » ، و « دودو دى كونسى » ، و « كونون دى موساج » وكثيرون غيرهم ممن لا نعى اسماءهم ولا ندرك عددهم .

ولقد سار هؤلاء جميعا فى طريقهم فى هدوء مسيره طائفة واحدة مترابطة ، حتى اذا كان يوم ٢٠ سبتمبر بلغوا سالمين معافين ناحية فى ولاية النمسا تعرف باسم « سولنبورج » حيث يكون نهر « ليتا » الحد الفاصل بين أقاليم الامبراطورية وبلاد مملكة المجر ٠

وحين بلغ هؤلاء هذه المدينة وقعت عليهم وقع الصاعقة أخبار النكبة التى قيل انها حاقت بجوتسوك وعسكره ، فتشاور بعضهم مع بعض كيف يتسنى لهم السير قدما فى أمان حتى يتم لهم انجاز العمل الذى أزمعوا القيام به ، فاتفق رأيهم فى النهاية على وجوب ارسال سفارة الى ملك المجر تستقصى منه السبب الذى أدى الى هلاك جنس اخوانهم الذين سبقوهم فى تلك البلاد على هذه الصوره ٠

وزيادة على ذلك فقد كلف الرسل الموفدون بايجاد فرصة للتفاهم مع الملك حول اسباب السلام ، وأوصوا أن ينحلوا جانبا عن اثارة الشكاية من الخصومات السابقة ، حتى يتمكنوا من الحصول على اذن يمرون به سالمين عبر المجر ، لأنهم لو راحوا يبحثون عن طريق آخر يسلكونه بعد أن بدأوا مسيرتهم فان خسارتهم تكون فادحة ، ومشقتهم التى يلقونها عظيمة ، لذلك اختاروا لهذه السفاره الشريف « جودفروى ديش » أخا هنرى ، مع طائفة معينة من ذوى المكانة العاليه والرتبه النبيله ، وكان اختيارهم [جودفروى ديش] راجعا الى روابط الود والصداقة التى كانت تربطه منذ سنوات طويلة سالفة بملك المجر ، فلما صار [جودفروى] فى حضرة الملك حياه بما يليق بمكانته ، ثم ألقى على مسامعه بما كلف أن يقوله :



- ٢ -

قال :

« لقد جئنـــا الى جلالتكم مبعوثين من قبل النبل السرى « جودفروى دوق لوثارنجيا » ومن فى صحبته من القادة الآخرين ، عباد الرب المرافقين له ، والصادقين فى طاعتهم للاراده الربانية ٠

« وانهم ليتوقون أن تعرفهم السبب الذى من أجله عومل شعب مسيحى طالعتنا جثثهم على طول الطريق هذه المعاملة التى سكرها الانسانية على يدكم ، وأسم أمة ذاعت شهرتها بين الأمم بأنها من الشعوب المؤمنة المخلصة ، وكأنه كان من الأسلم لهؤلاء المسيحيين لو أنهم ولوا وجوههم شطر بلاد العدو فسلكوها ، فان كانت جرائم هؤلاء الناس شنعة بشاعة استحقوا من أجلها العقاب الشديد فان الذين أرسلونى اليك مستعدون أن يتحملوا — عن طيب خاطر — اصلاح ما أفسدوه ، ذلك لأنه اذا كان الجرم يعادل العقوبة كان ذلك عدلا ، ولن نثير غضبا كبيرا ، بل ينبغى أن نتقبله فى صبر ٠

« أما اذا لم يكن الأمر كذلك ، ولم يكن هناك مبرر لمهاجمتكم الأبرياء ، فان زعماءنا لا يقبلون السكوت وغض الطرف عن النكبات التى كانت من نصيب خدام الرب ، بل انهم مستعدون للثأر لدم اخوانهم ولذلك فانهم ينتظرون أن توافيهم بالجواب عن كل هــذه الأمور ، وسوف يتخذون قرارهم بما يتفق وخلاصة ردكم » ٠

وختم جودفروى دبش خطابه بهذه الكلمات ٠

فأجابه الملك وهو محاط بكبار رجالاته ٠

« أيها العزيز جودفروى ، يا من حبوناه منذ زمن بعيد بمودتنا التى هو أهل لها ، انه ليسعدنا أن تكون قد أتيت لا لتجدد صداقة

الأيام الحالية فحسب بل ولتسمعنا ونحن نؤكد براءتنا أمام حكم عاقل مثلك .

« اننا - كما قلت بحق - فى عداد المؤمنين ، واننا نستطيع بأعمالنا أن نعلى من شأن هذا الاسم ، ولكن الذين سبقوكم من أتباع بطرس الناسك وذيول جوتنسوك ومن بعدهم ممن حاولوا الاستيلاء قسرا على احدى قلاعنا القائمة على أطراف المملكة ، واقتحام مملكتنا بالعنف ، لم يكونوا فى الواقع من أتباع المسيح . ولا أهلا لحمل هذا النعت ، فلقد احتفلنا ببطرس وحشده فى بداية الأمر احتفالا كريما ووهبناهم ما عندنا من السلع مجانا وبثمن رخيص . ولكنهم رغم ذلك كانوا كالحية تختبىء فى الصـــدر أو كالفأر فى صوان الملابس ، اذ ردوا احسان المضيف أسوأ رد ، لأنهم بدلا مما كان يحتمه عليهم الواجب من مجازاتنا بالشكر على ما تفضلنا به عليهم ، اذا بهم يقتحمون واحدة من مدننا الواقعة فى أقصى تخوم المملكة ، ويفتكون بأهلها فتكا ذريعا ثم يرحلون فى خسة اللصوص . سائقين أمامهم قطعان الماشية والأغنام ، وحاملين معهم ما سلبوه ، وعلى الرغم من هذا الفعل الذميم فقد أذنا لجيوش جوتنسوك بالدخول دون أن تكلفة رهقا أو تعبا ، كأننا لم نلق أذى من الجيوش التى سبقته فى المجىء ، لكن رجاله لم يترددوا بدورهم فى النهب ، ولم يكفوا عن العنف ، ولم يتحرجوا عن اضرام النار ، بل انهم لم يتورعوا عن سفك الدماء لأوهى الأسباب وأتفه العلل ، ومن ثم فقد أغضبوا الرب منهم بسبب شناعة جرائمهم .

« ولما لم يعد فى طوق صبرنا قدرة على تحمل ما أنزلوه من البلايا برعايانا ، فقد صح عزمنا على القيـام ببعض ما فيه علاج لهذه الظروف الخطرة ، فدلتنا تجـــاربنا الماضية على أن الحـكمة تقتضينا أن نوصد أبواب مملكتنا فى وجه هذه الجماعات المؤلفة من حثالة أوغـاد ، حتى لا ننكب للمرة الثـــالثة على أيديهم ، فكانت

محاربتنا اياهم كأعداء خيرا مما يسرلونه بنا من اهانات ، ويلحقونه بنا من الخسائر الفادحة .

« فليكن اذن فيما فصلت عذرا لنا عندك ، وأنت الرجل الفطن اللبيب ، فوالله لقد بينا الحق الصراح كما جرى » .

ولما فرغ الملك من قوله هذا أمر باستضافة الرسل أحسن ضيافة ، وأن يعاملوا بوافر الاحترام حتى يستطيع ـ بعد مشاوره رجاله ـ اعداد رسل الى القادة [الصليبيين] يحملون اليهم الرد الملائم ، ثم بعث أخيرا الى الدوق والى القادة بعض أهل بيته صحبة السفراء ، وحملهم هذه الرسالة التالية .

« لقد سمعنا وجاءتنا الأخبار الصادقة منذ أمد بعيد بأنك بعد عن حق أميرا عظيما جليلا ، كبير القدر في قومه ، كما أن العقلاء ـ وان بعدوا عنك أرضا ـ يثنون على صدق ايمانكم ، وثبات جنانكم ثباتا يشكرون عليه ، وقد شدتنا اليكم حسن الأحدوثة عنكم ، وبطوله أعمالكم فرأينا أن نحبك حتى في غيابك ، وأن نحبوك بعطف أكبر . ونحن نعتقد أن الرجال النبلاء الذين أرسلتهم ، والذين يماثلونكم أيضا في تحمسهم للعقيدة المسيحية ، قد قاموا كذلك بعمل كله تقوى . ولما كنا عازفين كل العزوف عن أن يعتور الفتور والتراخي ما بيننا من ود بسبب عمل غير مرضى ، فاننا على استعداد لأن نعمل كل ما يزيد هذه المودة نماء ، ونبذل العطف للجميع ، ونعاملهم معاملة تنطوى على الحب الأخوى » .

وها هى دى الفرصة قد واتتنا لنرجوكم أن تتفضلوا بالحضور الى قلعتنا « سيبيرون » لنعقد واياكم مجلسا طال اشتياقنا له وتطلعنا اليه ، وحتى نكون قادرين على الوصول الى سلام يتلاءم مع رغباتكم » .

بعــد اسماع الدوف الى رســل الملك ومشاوراته أصدقاءه ، غرب يوما معينا مضى فيه الى المكان الذى قسم له ، مسصحبا معه ثلاثمائة فارس من الصفوة المنفاة من رجاله ، فلما احتاز الجسر وجــد الملك الذى استقبله أروع استقبال ، وخصه بأسمى آيات الترحيب ، وأبدى كل منهما لصاحبه الصداقة الحميمة ، ثم اتفقا فى النهاية على تبادل الرهائن الذين يختاروبهم من علية القوم ، كما اتفقا على ألا تطوى صدور الجانبين على كراهية بعضهم لبعض ، وأن يعود السلام بين الفريقين ، فلما تم قبول هذه الشروط أذن الملك للدوق وعسكره بدخول المملكة .

ورغبة من الملك فى أن يزداد قلبه طمأنينة اذ يسمح بدخول مثل هذا الجيش اللجب الذى قد يحدث — بطريق الصدفة المحضة — أن يتوسل بأى ذريعة لاحداث ما يكون فيه مضايقة للملك اعتمادا منه على كثرة عدده وشجاعته فقد سألهم أن يعطوه بلدوين — أخا الدوق — وروجته وأهل بيته رهائن عنده ، فوافق الدوق على ذلك . وأسلم أخاه رهينة كما اتفق على ذلك من قبل ، ثم دخل المملكة راضى النفس قرير العين بعسكره ، وحينذاك أصدر الملك — وفاء بوعده — قرارا يقضى بتقديم الطعام اللازم للجند فى كل ناحية يمرون بها من نواحى البلد لقاء سعر معقول ، وألا يطفف عليهم فى الكيل ، وزيادة على ذلك فقد أمر بأن يصحب الجيش سوق يبتاعون منها ما يريدون .

أما الدوق فقــد أمر من جانبه أن ينــادى المنــادون فى أرجاء المعسكر ألا ينهب أحد شيئا ما أو يلجأ للعنف أو الشدة مع من يأتون الى الجيش ، والا كان الموت جزاءه ومصادرة كل ما بيده ، كما أمر أن تجرى معاملات البيع والشراء فى جو من السلام والمحبة الأخــوية .

وهكذا قدر لهم ـ بفضل من الله ـ أن يعبروا كل بلاد المجر في سلام لم يعكر صفوه أحد من الطرفين ، ثم مضى الملك برهائنه الى يسار الجيش على رأس قوة كبيرة من حرسه الخاص ، وهو على أتم أهبة لأن يخمد في الحال أى شغب قد يحدث ، فلما وصلوا أخيرا الى « سملين » التى تكررت الاشـــارة اليها توقفوا على شاطىء نهـــر الساف . حتى تم اعداد ممر للعسكر [الصليبى] ، وإذا لم يجدوا سوى بضع قوارب قليلة لا تكفى لنقل قوم كثيرين كهؤلاء القوم فقد جهزت أرمات لهذا الغرض ، وأقاموا ألف فارس فى كامل سلاحهم لحراسة الساطىء الآخر ضد ما قد يكون هناك من كمين ينصبه العدو لهم حتى يتسر للجيش ـ بعد عبوره النهر ـ أن يجد مكانا هادئا توفرت فيه أسباب الراحة .

وحينذاك أخـــذ الحجاج ينقلون الى الجـــانب الآخر فى لهفة وشـــــوق .

ما كاد [اللاتين] وبعض زعمائهم يجتازون النهر حتى أسرع الملك بالمقدم مستصحبا معه حرسا كثيرين ، وأسلم بلدوين وزوجته وبقية الرهائن الى الدوق وفق ما اتفقوا عليه فى البداية ، ثم وصل الدوق ومن معه من القادة بالغالى الثمين من الهدايا التى وصلهم بها الملك تكريما لهم واجلالا لقدرهم ، ثم عاد الملك بعدئذ الى قصره .

حينذاك بادر الدوق مع القادة الآخرين وبقية الناس الى السير وراء الجند الذين كانوا قد عبروا النهر الى الشاطىء الآخر ، حتى اذا وصلوا الى بلجراد ـ احدى مدن بلغاريا التى أشرت اليها من قبل ـ نصب الدوق خيامه ، فلما فرغوا من ترتيب متاعهم ، وتهيأ الجند للرحيل ، شقوا طريقهم عبر غابات بلغاريا وأدغالها الشاسعة الكثيفة ، فبلغوا أول ما بلغوا مدينة « نيش » ثم « سترالكيا » .

- ٤ -

من اليسير على المرء أن يدرك ما عليه الاغريق من النعاسة وأن يعرف مدى الضعف الذى بلغته الامبراطورية حين يساهد أوصاع الأماكن التى كانت فى السالف ولايات غنية ، حافلة بكل ما تشتهيه النفس من السلع والمتجر ، لكن حدث بعد انتهاء حكم أمراء القسطنطينية اللاتين أن وقعت الامبراطورية بسبب أخطائها وعمائها تحت سلطان اليونان بزعامة نقفور الأول . فاغتنمت شعوب المنطقه المجاورة فرصة ضعفها وبادرت فى الحال الى شن سلسلة من الغارات على الأراضى الخاضعة للامبراطورية ، وراحت تعامل السكان وفق هواها .

كان من بين هؤلاء الغزاه جماعه « البلغار المبربرين » ، الذين لم يأخذوا بحظ من الحضاره ولكنهم أغاروا عليها من الشمال . وبسطوا سلطانهم على جميع الأقطار الممتدة من الدانوب حتى مدينه القسطنطينة الامبراطورية ، وكذلك الى بحر الأدرياتيك ، ونجم عن ذلك أن اضطربت أسماء الولايات واختلطت الحدود بعضها ببعض . وأطلق اسم « بلغاريا » على كل الأصقاع التى طولها مسيرة شهر ، وعرضها عشرة أيام أو أكثر . ولم يدرك الاغريق الأشقياء أن هذا الاسم بالذات كان دليلا على اللعنة التى انصبت عليهم ، ذلك لأنه كانت تقع فى القديم على بحر الأدرياتيك ولايتا « ابيروس » وكانت عاصمة احداهما الكبرى هى « دورازو » التى كانت فى وقت من الأوقات قصبة بيرهوس « ملك الأبيروت » وكان رجلا شجاعا وكان موضع الاعجاب من الناس .

كان الاقليم الذى يوشك أن يجتازه الدوق [جودفروى] على رأس جيشه يتألف من ولايتى « داكيا » وأعنى بهما داكيا (ريبنسس)

وهى البى نكون على يسارهم حبن عبورهم الدانوب . وداكيا السحربه البى مروا بهـــا فى طريقهم ، وفيهـــا مديبتنا سس وسيرالكما الرائعـــان .

كذلك كانب بوجد ولايات أخرى فى نفس المنطقه هى اركاديا وساليا ومقدونيا وأقاليم براقيا الثلاثة التى قدر لها أن ناهى نفس الحظ العاثر [الذى لقيته الامبراطوريه] لم نكن هذه الولايات كلها هى وحدها الأملاك البى صـــاعب من يد الاعريق بسبب ضعفهم ، دلك أنه لم يكن مسموحا لأحد ما أن يقيم فى الأراضى الواقعه فى الولايات القاصية ، ولا يجوز له زراعتها حتى بعد أن أخضع الامبراطور « بازيل » الاعريقى نفس الشعب البلغارى . وكان واضحا على وجه الخصوص فى حالة الأراضى المتاخمة لحدود الممالك الأجنبيه والتي كانت تمتد الى بلادهم وأعنى بها ولايتى « داكيا » ، ولا نزال نفس الوصف منطبقا حتى اليوم . ولما كانت الناحيه بأجمعها مغطاه بالغابات الكثيفة والنباتات المتشـــابكة فلم يكن ثم أحد بقادر على اختراقها حتى ولو رغب فى دلك ، ويرجع هذا الى أن اليونان وضعوا ثقتهم الكبرى فى العوائق البى تعود الى صعوبة الطرق وكثره أشجار العوسج والشوك التى كانت تعتبر وسائل دفاعية تفوق ما تستطيعه قوات اليونان الدفاعية .

ونهج اليونان هذه السياسة دائما فتركوا « بيروس بريموس » أرضا عذراء خالية من السكان ، حتى ان الغابات المهجوره والأحراج الموحشة أصبحت لا تنتج طعاما ، وصارت عقبة كأداء فى وجه من يبغي دخولها ، وكان هذا الاقليم الذى لابد من أن يجتازه بقيـــة القادة الآخرين يبدأ عند « دورا زو » ويمتد مسيرة أربعة أيام فى الجبال المسماة بجبال البلقان .



سار الدوق بمن معه من العسكر عبر داكيا البحريه المعروفه أيضا باسم « موزيا » ، فلما احتاز الأحراج المسماة عاده بممر سانت بازيل صادف ناحيه أكثر اتساعا ورفاهية أمدته بكميات وفيرة من المئونه حتى جاء الى مدينه « فيلبو بولس » الجميلة ، الآهلة بالسكان . وهنا علم بما فعله الامبراطور من زج هيج الكبير - أخي ملك فرنسا - في السجن مع ثلة من رفاقه النبلاء ، فأرسل على جناح السرعه وفي لحظته رجالا من قبله الى الامبراطور . ولاحقه بالرسل ملحا عليه أن يطلق سراح هؤلاء الرجال . ويلومه على ما أنزله بهم - وهم الذين وهبوا أنفسهم لرحلة الحج نفسها - لكنه سجنهم من غير جرم ارتكبوه .

وكان هذا الرجل الوجيه [هيج] أول القاده جميعا في الخروج الى الحملة ، وقد احتاز جبال الألب ودخل ايطاليا ، ثم غادرها الى « أبوليا » حيث أبحر في حراسة قليلة ، وتوقف في « دورازو » في انتظار القادمين وراءه ، ولم يكن يخطر بباله أبدا وقوع أي خطر عليه ولا على من معه ، وهم في مملكة الاغريق المنظور اليهم بأنهم يعتنقون المسيحية . غير أن والى هذه الناحية ألقى القبض عليه وزج به في السجن ، ليسلمه الى الامبراطور كي يقضي فيه بما تشاؤه ارادته الملوكية ، فحبسه الامبراطور كما لو كان لصا أو سفاكا للدماء ، وكان الامبراطور ينتظر وصول القادة الذين قالوا انهم في الطريق . فاذا قدر لهم النجاح في الحضور أطلق سراحه كيد يمن بها عليهم ، أما ان كان الأمر غير ذلك فاسوف يبقيه أسيرا طول حيـــاته .

كانت الامبراطورية اليونانية في هذه الآونة تحت حكم رجل ماكر يدعى « ألكسيوس » ويلقب « نكومسنوس » ، كان يعيش من عمل في القصر الامبراطورى ، ويشغل وظيفة كبير الحجاب التى يطلق به واحيانا ، وهى وظيفة يسمونها نحن [اللاس] بحاجب الحجاب . أو مدبر شئون القصر ، وتجعله في مكانة تلى مباشرة مكانة الامبراطور ، مما أسبغ عليه تقديرا كبيرا عند الامبراطور « نقفور » الملقب « سوبوتانس » صاحب الصولجان في هذا الوقت ، لكن ذلك الرجل [الكسيوس] خان ولى نعمته [نقفور] وكان ذلك قبل مجيء شعبنا بخمس سنوات أو ست فخلع مولاه وتقلد الأمر بدلا منه فى الامبراطوريه ، وأصبح مالكا لها الآن اغتصابا .

وجاء رسل الدوق الى الامبراطور ، وراحوا ينفذون التعليمات الملقاة اليهم ويسألونه في الحاف أن يطلق سراح هيج ورفاقه ، فلما رأوا اصرار الامبراطور على رفض رجائهم عادوا الى الجيش الذى كان اذ ذاك قد جاوز « أدرنه » ونزل للاستجمام فى أحد السهول .

ولما علم الدوق والقـــاده الآخرون عن طريق معـــرفتهم أن الامبراطور لن يمن بالحرية على هؤلاء الرجال [هيج ورفاقه] اتفق رأيهم جميعا على الاذن لعسكرهم بنهب الاقليم ، واذ طالت اقامتهم هنا ثمانية أيام سويا فقد دمروا الناحية دمارا شاملا . لكن ما كادت أنباء ما فعلوا تصل الى سمع الامبراطور حتى بعث رسلا من لدنه الى الدوق يرجوه — عن طريقهم — أن يكف أيدى جنده عن أعمال التخريب هذه ، ويؤكد له أنه مستجيب لرجـائه ، ومطلق سراح الأشراف الذين فى حبسه ، فقبل الدوق هذا الاجراء بنفس جذلى وأمر جنده بالتوقف عن متابعة السلب والنهب ، ثم سار بعدئذ الى مدينة القسطنطينية مستصحبا قواته فى أحسن نظام ، فلما صار

أمامها أمر جسمه ، القوى البأس ، الكثيف العدد ، بنصب خيامهم هناك واقامة معسكرهم ·

أما النبلاء الذين أسرنا اليهم وهم : هبج الكبير و « دروحو دى نيسل » ــ و « وليم » النجار . و « كلاريبولد دى فنديل » ، فقد قدموا من المدينة لمقابلته ، ثم ذهبوا الى المعسكر شاكرين له يده عليهم فى تحريرهم من أسرهم ، فاستقبلهم الدوق استقبالا تفيض بالود ، وحباهم بما هم أهل له من التعظيم ، واستبقاهم معه بعض الوقت مسبغا عليهم عطفه ، ومواسيهم مواساة الأخ لاخوانه يشاركهم آلامهم التى تحملوها ظلما ·

- ٦ -

لم يكد هؤلاء يفرغون من عناق بعضهم البعض ومن تبادل الأحاديث الرقيقة فيما بينهم ، حتى وصل رسل من جهة الامبراطور [ألكسيوس كومنين] يحملون الأوامر بوجوب اسراع الدوق للمثول بالقصر الامبراطورى ولكن فى حرس قليل ، غير أن الدوق رأى ــ بعد مشاورة أصدقائه ــ أن يرجىء ذهابه اليه ، مما أغضب ألكسيوس غضبا حمله على رفض الاذن لهم بعقد سوق يبتاع منه العسكر الوافد مع الدوق ويشترون ، بعد أن ما صار فيه القوم جميعا من مسيس الحاجة الى المئونة وقلة ما لديهم منها ، حمل القادة مرة ثانية على الاتفاق على اجتياح تلك النواحى بجماعات مسلحة كبيرة ، وعادوا يسوقون أمامهم قطعان الماشية والأغنام التى غنموها ، ورجعوا الى المعسكر وقد فاضت أيديهم بشتى أنواع المأكولات ، حتى ان الرعاع منهم أصابوا منها وفرة ضخمة أصابتهم بالكظة ·



ولما رأى الامبراطور أن المنطقة قد تعرضت للحريق والنهب ، خاف أن تتطور الأمور الى ما هو أفدح من هذا فأمر بعقد السوق ، ولما كان يوم الأحزان لمولد سيدنا قد قرب موعده ، وصار على الأبواب فقد أصدر الزعماء – احتراما للدين – قرارا ينهى الجند عن النهب وارتكاب الموبقات خلال هذه الأيام الأربعة ، فانقضى العيد في أتم هدوء وسلام •

ثم جاءت بعد ذلك رسالة من الامبراطور تسيل كلماتها رقة وعذوبة ، وان انطوت على الخديعة ، يسألهم فيها أن يخرج الجيش عن طريق الجسر المجاور للقصر المسمى بقصر « بلاشرناى » وأن يقيموا في القصور المتعددة المتناثرة على شاطىء البسفور ، فأقبلوا في يسر على تنفيذ هذا الأمر ، لأن طلائع الشتاء الذى كان على الأبواب كانت تزعجهم أشد الازعاج ، كما ضربتهم العواصف الثلجية بشدة لم يسبق لها مثيل ، حتى ان الخيام لم تمنع المطر من التسرب اليهم ، فتولاهم الجزع من الخطر الذى يهدد الطعام وسائر معداتهم بالفساد والعفونة بسبب التعرض الدائم للرطوبة ، ولم يكن هناك من انسان ولا حيوان ولا ذى روح بقادر أن يتحمل أكثر من هذا البرد القاسى الذى كان يخترق كل شيء ، وعجزوا عن مجابهة الثلوج الكثيرة ، ناهيك بالبلل والمتاعب التى لحقت بهم وكانت فوق طاقتهم•

وعلى الرغم مما كانت تحمله كلمات الامبراطور من العطف على الحجاج ، الا أن هدفه الحقيقي كان يختلف عن ذلك تمام الاختلاف. فقد كان السبب الجوهرى لهذا الانفصال هو أن يصبح العسكر أقل حرية في التحرك هنا وهناك ان هم صاروا فى بقعة محدودة ، كما تزداد قدرة الامبراطور فى كبح جماحهم والسيطرة عليهم •

ولكى يكون هذا القول أكثر وضوحا فلابد من ابراز بعض الحقائق عن موقع تلك المدينة المذكورة أعلاه •

- ٧ -

ان بحر بنطس [البحر الأسود] الذى يتخذ اسمه من الاقليم المجاور له يقع على بعد ثلاثين ميلا من شمال القسطنطينية ، ويكون جزء معين من هذا البحر على شكل نهر ينحدر جنوبا عبر مسالك ضيقة . ثم يستقيم مجراه لمسافة قدرها مائتان وثلاثون ميلا ، يخترق فيها مدينتى سيستون « وابيدوس » الموغلتين فى القدم ونقع احداهما فى أوربا ، والأخرى فى آسيا ، ثم يصب فى النهاية فى بحرنا الأبيض المتوسط ، وعند خروج هذا الماء من البحر الأسود ينتشر لثلاثين ميلا فى مجرى يمتد من الممر الأول الذى دخله ويكون فى الناحية الغربية خليجا يقرب طوله من خمسة أميال الى ستة ، وعرضه ميل واحد ، ويسمى هذا المجرى الضيق الذى يمتد لمائتين وثلاثين ميلا من البحر الأسود الى البحر الأبيض المتوسط بالبسفور أو « بروبونتس » أو « هللسبونت » ، ويشهد بذلك « سولينوس » فى الفصل السابع عشر من مذكراته حيث يقول « ان خليج أوربة الرابع يبدأ عند الهللسبونت وينتهى عند بحيرة « ماوتس » والعرض الكلى لهذا المجرى المائى الذى يفصل أوربة عن آسيا يتحول الى مضيق يتألف من سبعة روافد ، وهـذا هو البسفور الذى عبره احررسيس على جسر من القوارب أمر باقامته ، ويجرى الماء من هنا على شكل قناة الى مدينة « بريانوس » الآسيوية التى استولى عليها الاسكندر الأكبر أثناء مروره بجوارها حين كان يتطلع لغزو العالم ، ويتسع هذا المجرى المائى مرة أخرى ويتحول الى سطح واسع جدا من المياه فيسمى بروبونتس [أى البسفور] - أما الآن فانه يضيق الى مسافة عرضها خمسمائة خطوة ، ويصبح بسفور تراقيا الذى نقل « دارا » جنده عبره ·

ويبدو أن هذه الأسماء ترجع فى أصولها الى الشعراء القدامى

فسمى البسفور بهذا الاسم لما يقال من أن جوبتر تنكر فى شكل ثور حاملا عبر مياهه « أوربه » ابنة أجنور ·

وجاء اسم هيللسبونت من « هله » أخت « فركسيس » الذى تزعم الأسطورة أنه عبر هو الآخر البحر بأخيها على ظهر كبش ، وهو يعتبر الحد الفاصل بين أوربا وآسيا ، ويعرف عادة باسم ذراع سنت جورج وقد ذكرنا طوله ، أما عرضه فليس متساويا فى كل الأماكن ، ونظرا لموقع الأراضى المجاورة له وطبيعة تكوينها فان عرضه الآن يصل الى ميل ، ثم يتسع حتى يبلغ ثلاثين ميلا أو أكثر ·

وأما الخليج الذى يمتد الى الغرب فيكون ــ كما ذكرنا ــ واحدا من أشهر موانى الدنيا وله مرفأ رحب ، وأما المدينة التى نتكلم عنها فتقع فى زاوية بين هذا الخليج وبين البسفور ، وكانت تسمى فى القديم بيزنطة التى كانت موضعا لا يعتد به ، والأغلب أنها كانت آخر المدن فى تراقيا ، أما الآن فهى أسعد المدن حظا اذ تحمل اسم الامبراطور الذى زاد فيها حتى أصبحت قصبة الولايات كلها كما صارت مقر الامبراطور ، وأصبح اسمها بفضل مكانتها الممتازة منافسا لاسم سيدتها رومة ·

وتذهب الروايه الواردة فى الكتاب الثالث « لبول أورسياس » الى أن تأسيس هـذه المدينة كان على يد « باوساوسـوس » ملك الاسبرطيين ، وهى على شكل مثلث غير متساوى الأضلاع التى يمتد أولها من تلك الزاوية الواقعة بين البحر وبين هيللسبونت حيث توجد كنيسة سنت جورج المعروفة باسم « مانجانا » ، ويمتد هذا الضلع بامتداد الميناء الى القصر الجديد المسمى بقصر بلاشرناى ·

أما الضلع الثانى فيمتد على طول البسفور من عند دير سنت جورج الى البوابة الذهبية ·

وأما القسم الثالث فيمتد بطول الاقليم من نفس البوابة الى قصر بلاشيرناى المذكور حالا ، وهو محصن بالأسوار والأبراج ووسائل الدفاع الخارجية ، ويوجد عنده نهر يصب فى المبناء وهو ضحل جدا فى الصيف ، أما فى الشتاء فتغزر مياهه بسبب فيضان مياه الأمطار مما يصبح الجسر معه ضرورة لابد منها .

★★★

ولما اجتاز جيشنا هذا الجسر مضى الى النواحى التى خصصت له فى بعض المبانى الكبيرة القائمة على امتداد شاطىء البسفور . وهى الدور الواقعة بين مياهه ومياه البحر الأسود ، وحدث فى أثناء انتظارهم قدوم القادة الآخرين أن تسلم الدوق عدة رسائل من الامبراطور . يرجوه فيها الشخوص اليه ، غير أن عدم اطمئنان « جودفروى » الى صدق الملك وتخوفه من الاجتماع به حملاه على الاحجام عن استجابة دعواته ، وان شعر آن من سوء الأدب ومخالفة نواميس الشرف ألا يبعث على الأقل أشخاصا ملائمين لتمثيله عنده ، طالما هو عازف عن الذهاب بنفسه ، ومن ثم فقد أرسل النبيل كونون دى مونتاج وبلدوين دى بورج وهنرى ديس يعتذرون للامبراطور عن عدم قدوم جودفروى . فلما أدرك ألكسيوس أن لا رجعة للدوق فيما قرره وأنه لا سبيل أبدا لارغامه على الحضور الى مجلسه عاد فأمر بغض السوق ونقضه ، ولكن هذا الاجراء لم ينجح فى ثنى هذا الرجل [جودفروى] عن عزمه ، واذ ذاك اتخذ ألكسيوس اجراءات أشد صرامة ، فأرسل فى السر جماعة من رماة الأقواس عبر النهر ، فى قوارب الى المكان الذى كانت تعسكر فيه قوات الدوق ، فلما أهلت أولى تباشير الصباح قتل هؤلاء الرجال بسهامهم طائفة كبيرة من رجالنا لم يكونوا فحسب من بين الذين ذهبوا الى الشاطىء ، بل وأيضا ممن كانوا يطلون من النوافذ .

حين جاء نبأ ما جرى الى الدوق استدعى فى الحال زعماء الناس لمساورتهم ، ونزل على ما أجمعوا كلهم عليه ، فوجه أخاه [بلدوين] على رأس كتيبة من العسكر للاستيلاء على وجه السرعة على الجسر الذى عبره الجيش ، حتى لا يغدو محصورا فى هذه الأماكن الضيقة ، وحتى لا يفقد الكثيرون من رجاله ، فخرج بلدوين الشجاع على رأس خمسمائة فارس وأسرع بهم الى الجسر واستولى عليه عنوة ، ولم يعد الخطر قاصرا على من جاءوا بالقوارب بل ان المدينة بأجمعها أيضا حملت السلاح تريد الفتك برجالنا .

رأى الصليبيون أن اتباعهم الاغريق نشطون فى اقامة الاستعدادات ضدهم ، كما حمل الأهالى السلاح للقضاء عليهم ، لذلك أضرموا النار فى جميع القصور التى كانوا ينزلونها ، والتى تمتد مسافة ستة أميال أو سبعة على طول البسفور ، فشب الحريق فى جميعها ، سواء ما كان منهـا ملكا للأهالى ، أو كان للامبراطور ، والتهمتها النيران حتى تهاوت الى الأرض ، وسمع رجالنا دق الطبول ونفير الأبواق يتردد مدويا فى الأحيـاء المحتلة التى كانوا قد انكفؤوا اليها التماسا للراحة ، فأسرعوا لحمل سلاحهم ، وتبعوا الدوق الذى أسرع الى الجسر يقود عسكره وقد صفهم للقتال ، غير أن أصحاب الخبرة الحربية الكبيرة خافوا أن يضيق العدو الخناق على الجيش وهو فى مواضعه الضيقة هـذه ، فيهلكون ان استولى الخصم على الجسر ، ومن ثم لم يتريثوا فى انتظار فرق المشاة ، بل بادروا الى جمع كل الخيالة فى تلك الناحية ، الا أن بلدوين ـ أخا الدوق ـ كان كما قلنا ـ قد أسرع الى الأمام واحتل الجسر رغم محاولات الأعداء فأرغمهم أن يولوا الأدبار هاربين ، فسيطر بذلك على الشاطىء الآخر للنهر ، واستخلصه لجيشنا .

ومن ثم فقد تمكن الدوق وجميع رجاله من العبور بكل ما معهم من المتاع والتجهيزات ، وأقاموا مره أخرى فى موضع بالعراء بواحه المدينة ، ويمتد فى كل اتجاه دون أى عائق ٠

ولما اقترب المساء من الدخول نشبت معركه فى البقعة الواقعه عندما يعرف الآن باسم قلعه بوهيموند الموجودة بين كنيسة القديسين الطاهرين كوزمو وداميين وبين قصر بلاشرناى الجديد ، القائم فى زاوية من المدينه قرب الميناء ، وهلك فى هذه الموقعة أعداد كبيره من الناس ، وعجز الاغريق عن تحمل ضراوة القتال فكفوا عنه وارتدوا الى المدينة ٠

حينذاك نزل عسكرنا المنصور فى أروع بقعه من الساحه التى استولوا عليها بشجاعتهم ، ولولا سرعة دخول الليل ووضعه نهاية للقتال الدائر بين الجيشين لتمكن الأهالى من معاودة الحرب بسبب ما يضمرونه من الكراهية السوداء التى كانت تعشش فى صدورهم نحونا ، وزادها حدة غضبهم علينا ، وكان من الممكن حينذاك أن تجرى معركة ثانية أشد وحشية من سابقتها فتتمخض عنها خساره فى الأرواح أكبر من الخسارة السالفة ٠

هنا ـ ولأول مره ـ تجلى بوضوح للعيان مدى الشر الذى انطوت عليه خطة الامبراطور فى اصدار الأمر بنقل المعسكر ، اذ كان ذلك نابعا عن رغبة منه فى أن يضع هذا الشعب الصليبى الذى تساوره الشكوك فيه فى منطقة ضيقة محدودة ، فيصبح بين المطرقة والسندان ٠

- ٩ -

ما كاد النهار يطلع على الكون حتى نودى علانية بين الناس بحمل السلاح ، وخرجت طائفه بقيادة رهط من الزعماء لتفتيش المنطقة التى حولهم ، والعودة بالأطعمة التى منع الامبراطور بيعها . وصدرت الأوامر لهذه الطائفة بالحصول على ما خرجوا من أجله ان غصبا أو بالشراء ، وألا يخلفوا وراءهم ماشية ولا غنما ولا علفا ، ولا أى نوع من المئونة .

كما صدرت الأوامر لغيرهم ولطائفة من القادة بالبقاء مع الدوق فى المعسكر لحراسته ، ذلك أنهم حين اكتشفوا غدر الامبراطور وخيانة شعبه ، لم يدخروا وسعا فى الاستعانه بكل الوسائل الممكنه لحماية أنفسهم من هذه المكائد الوضيعة ، فنهضت اذ ذاك كتيبة كبيرة من الفرسان والمشاة ، وخرجت فى حملة لجلب الطعام وطالت غيبتهم ستة أيام بلياليها ، راحوا خلالها ينهبون الحقول فى دائرة محيطها ستون ميلا ، فلما كان اليوم الثامن عادوا الى المعسكر بكميات وفيرة من المواد الغذائية لا يتصورها العقل ، والحق أن قطعان الماشية والأغنام ودواب الحمل - بله العربات - كانت كثيرة جدا ، حتى لقد صادفوا صعوبة بالغة فى احضار كل ما نهبوه .

- ١٠ -

بينما كانت هذه الأمور تجرى فى المعسكر وصل الى [جودفروى] رسول من الأمير بوهيموند يحمل اليه خطابا يقول فيه :

« اعرف يا أعظم الرجال انك تتعامل مع أحقر الحيوانات ، ومع رجل خسيس كل الخسة ، ليس له من غرض أبدا الا الخديعة ، ولا يتورع عن اصطناع أى وسيلة أو سلوك أى سبيل يكون فيه هلاك كل من هو من أمة اللاوى ، وسيبرهن لك تقديرك الذاتى — أن آجلا أو عاجلا — على صدق احساسى نحو هذا الرجل ، وذلك لأننى أعرف أن اليونان يضمرون الشر والضغينة لكل من هو لاتينى، وتلك طبيعة متأصلة فيهم ما لهم منها من فكاك ولا يستطيعون عنها حولا ، ومن ثم فعليك أن تغادر المدينة — اذ شئت — وترحل الى النواحى المحيطة بأدرنة و « فيلبوبولس » ودع عساكر الجند الذين عهد بهم الرب الملك ليستجمعوا وينعموا بلذيذ الطعام فى منطقة أخرى خصبة ، وانى لقادم الملك — ان بأذن الرب — فى مطلع الربيع لأقدم الملك — باعتبارك مولاى — خدماتى الأخوية المطوية على الحب والنصيحة ضد أمر الاغريق اللئيم » .

☆☆☆

قرأ الدوق الرسالة ، وبعد أن تبصر مليا فى فحواها عقد مجلسا مع القادة ، ثم أرسل الرد كتابة وشفاها بهذه الصورة الحكيمة .

« انى أعرف يا شقيقى الحبيب — كما جاءتنى الأخبار منذ وقت طويل مؤكده صدق ما أحس — أن الجنس اليونانى المحتال يطوى قلبه على الكراهية العميقة لنا ، ويتلهف للاضرار بشعبنا ، واذا كنت فى حاجة الى شىء من هذه المعرفة من قبل فقد أكدتها التجربة يوما بعد يوم ، ولست أشك فى أن ما انطبعت عليه أنت من صادق النوايا يحركك ضدهم ، كما لا أشك فى صحة احساسك الغريزى بخستهم ، ولكننى اذ أضع خوفى من الله أمام عينى ،

ولا أغمضها عن هدف حملى ، فان بدنى يقسعر من أن أوجه ضد أى شعب مسيحى سيفى الذى قطعت العهد على أن أناضل به الكفار ، ومهما يكن الأمر فان الجيش الذى معنا ـ أيها المحب للرب ـ مشتاق شوقا الى قدومك وقدوم الأمراء الآخرين المخلصين للسيد » .

- ١١ -

استبد بالامبراطور وبجميع من حوله الفزع الكبير حين رأوا البلد بأكمله عرضة للنهب ، كما أنه لم يعد فى قدره الامبراطور احتمال أنين شعبه وبكائه ، وزاد الطين بلة ما عرفه من خبر مجىء رسل الأمير بوهيموند وقدومه حالا فى أثرهم ، كما أنه خاف ان يتحد الأمراء الذين على وشك الوصول ويصبحوا يدا واحده تعمل لدماره قبل أن ينجح هو فى استرضاء الدوق ونهدئة ثائرته ، ومن ثم فقد عاود مرة ثانية ارسال مبعوثيه اليه ، ملتمسا منه زيارته وكان هذا هو السبب الذى حمله على أن يجهد نفسه كل الاجتهاد فى أن يتم الوفاق بينه وبين الدوق قبل وصول هؤلاء الأمراء ، ومن ثم أرسل وفادة ثانية الى الدوق يلح عليه أن يبادر بالحضور الى القصر دون أى ابطاء أو تمهل حاملا بصله ابنه « حنا بورفيرجنيتس » الذى أرسله اليه ليكون رهينة عنده .

ولقد أثلج هـذا الاتصال قلوب القادة [اللاتين] فأوفدوا اثنين من ذوى المكانة الرفيعة هما « كونون دى مونتاج » و « بلدوين دى بورج » ليكونا فى استقبال ابن الامبراطور الذى عهدوا به الى الرعاية الكريمة من بلدوين أخى الدوق ، وما كاد ذلك الأمر يتم خلف الدوق أخاه فى قيادة الجيش وشخص هو الى المدينة ، يصحبه

القادة الآخرون ، ودخل على الامبراطور الذى كان يتلهف أشد اللهفة على قدومه فاستقبله الامبراطور استقبالا كريما وكان محاطا برجاله البارزين وكلهم يتوقون لرؤية الرجل الذى طالما سمعوا به وعرفوا الكثير عنه من قبل ·

وأكرم الامبراطور أيضـــا وفادة من كانوا فى شرف صحبة الدوق ، واحتفى بكل منهم الاحتفاء اللائق بقدره ومكانته ، ثم قبلهم جميعا قبلة السلام ، وأكثر من السؤال عن صحتهم ، مخاطبا كل واحد باسمه ، وترفق لهم ، وأبدى لهم العطف عساه يكسب ودهم. ثم التفت الى الدوق قائلا له ·

« أيها الدوق المحبوب لقد سمعنا أنك أعظم من معك من الأمراء سلطانا وقوة ، وما كنا جاهلين حماستك الكريمة فيما عاهدت به نفسك القيام به من مشروع حاطتك التقوى الكريمة فيه برعايتها. أضف الى ذلك أن الأخبار التى ذاعت عنك شرقا وغربا قد أكدت لنا أنك رجل قوى الروح ، صادق الايمان ، ولهذا فقد اكتسبت عن حق حب الكثيرين حتى من لم تتح لهم الفرصة للقائك ·

« ولما كانت رغبتنا أن نحوطك بكل آيات الحب ، وأن نخصك بالود الصادق ، فقد صممنا أن نتبناك اليوم ابنا لنا فى حضرة كبار رجال قصرنا المقدس ، ونعهد اليك بامبراطوريتنا ، عسى أن يظل تماسكها عن طريقك صحيحا غير منثلم فى نظر الجمـــوع التى احتشدت هنا ، وكذلك فى عيون أبناء العصور القادمة » ·

بهذه الكلمات التى صحبها احتفال ملكى جرت العادة باتخاذه كلما كان هناك تبن من هـــذا النوع ، أمر الامبراطور أن يلبســـوا الدوق الثياب الامبراطورية ، وتبناه حربيا على عادة المملكة ·

وبهذا عاد السلام وحسن النية بين الاثنين من جديد ·

حين فرغ الامبراطور من هذا الحفل فتح خزائنه للدوق ورفاقه، ووصلهم بالهدايا الذهبية الرائعة ، وأغدق عليهم الجواهر والثياب الحريرية . والمزهريات الغالية النفيســه التى يعجز الحـــال عن تصويرها صنعه وقيمة ، وذلك لأن الامبراطور أراد – من وراء اتحافهم بالهدايا التى أكرمهم بها – أن يسر دخولهم واعجابهم بما هو عليه من ثراء ليس له مثيل ، كما هدف أن يجتاب ألبابهم بعظمته الملوكية ولذلك لم يقتصر كرمه الذى خص به الدوق على أن يكون مره واحدة وحسب ، بل أخذ منذ يوم العطاس حتى عيد الصعود يرسل اليه أسبوعيا من القصر الامبراطورى من النقود الذهبيـــه ما يكل أكتاف اربعة رجال أشداء عن حمله . هذا الى جانب عشره أثقال من الدراهم النحاسية ، غير ان الدوق لم يستبق من كل ذلك شيئا لنفسه ، بل جاد بما جاءه على النبلاء والجيش ، حسبما يستلزم حاجة كل فرد .

★★★

استأذن الدوق ومن معــه ، بعدئذ الامبراطور فى الرحيل . ورجعوا الى المعســكر ، ثم ردوا اليــه ولده يوحنــا الذى كانوا قد استبقوه فى المعسكر رهينة الى حين أوبة الدوق ، وقد صحبه فى رجوعه كوكبة من حرس الشرف .

حينذاك أصـــدر الامبراطور بـــابا عاما يقضى بتجهيز كل ما يحتاجه جيش الدوق بثمن معقول ، وكيل لا جور فيه ولا ظلم ، ويودى بقتل كل مخالف لهذا القرار ، كما أعلن الدوق من ناحيته على لسان مناديه باعدام كل من يرتكب فى معسكره عملا من أعمال العنف . أو يخطىء فى حق رجال الامبراطور ، وبهذا استمر الجانبان

فى تعاون متبادل بينهما فى أمور البيع والشراء وسادهما جو من التوفاق التام .

ولما آذن شهر مارس بالانتصاف علم الدوق بوصول القادة الآخرين ونزولهم بجيوشهم فى تلك الناحية ، فأمر الامبراطور بتهيئة السفن وعبورهم البسفور ، بعد أن وافقه على هذا الأمر كبار رجالاته أيضا ، واذ ذاك ضرب [جودفروى] معسكره فى خلقدونية فى بثينيا التى كانت أول ولاية فى آسيا يصل اليها .

☆☆☆

وكان قد انعقد [فى سنة ٤٥١] فى خلقدونية التى هى من أعمال بيثينيا ، وفى زمن كل من البابا ليو الكبير والامبراطور مارسيان المجمع الدينى الرابع العام ، وحضره ستمائة وستة وثلاثون من آباء الكنيسة ، فشجب المجمع هرطقات كل من الراهب « اوتيخيوس » راهب اسكندرية و « ديوسكوروس » بطركها .

كان هذا المكان [وأعنى به خلقدونية] أقرب ما يكون الى القسطنطينية ، ولا يفصله عنها سوى البسفور ، ويستطيع الناظر من هنا أن يطالع المدينة « الملوكية » ، حتى لكأنها الى جواره .

يضاف الى ذلك أنه كان فى استطاعة من تحتم عليهم أعمالهم الذهاب اليها من المعسكر القيام بهذه الرحلة ذهابا وايابا ثلاث أو أربع مرات يوميا .

غير أن كلمات الامبراطور المعسولة ـ فى الالحاح على الدوق بأن يعبر هو وجيشه البحر قبل الوقت الذى كان محددا لذلك ـ لم تكن صادرة عن اخلاص وصدق طوية ، بل كانت على العكس من ذلك نابعة

.با دابع عليه من الحيل والرغبة فى خداع الدوق حتى لا يصمم ارادته الى قوات اللاتين الآخرين عند وصولها ، كما أنه سلك سبيل الخبث ذاته حين احتال فأرغم الآخرين الذين جاءوا بعدئذ على ركوب البحر . واحدا بعد الآخر ، حتى لا يتسنى مطلقا وجود جيشين معا فى وقت واحد أمام المدينة .

- ١٣ -

هكذا كان الموقف بين الامبراطور والدوق فى القسطنطينية ، وحدث فى هذه الأثناء ــ وقبل دخول فصل الشتاء القارس البرد ــ أن قام اللورد بوهيموند بن روبرت جيسكارد أمير تارانتو بعبور بحر الأدرياتك ، ووصل الى دورازو على رأس جميع عسكره ، وتابع من هناك ــ هو من معه ــ الزحف فى بطء عبر غابات بلغاريا وكان قد انضم الى جيشه كثير من أصحاب المكانة السامية وأهل النبل من ايطاليا وغيرها من البلاد ، وقد أوردنا أسماء هؤلاء وعددهم لتظل ذكراهم خالدة أبدا ، منهم تانكريد بن وليم مارشيسوس ، وريتشارد البرنسيباتى بن وليم ذى الذراع الحديدية أخو روبرت جيسكارد ، وأخوه رينولف ، وروبرت انزى ، وهيرمان دى كانى ، وروبرت دى سورديفال ، وروبرت بن تستان ، وهمفرى ابن رالف ، وريتشاردر ابن كونت رينولف ، وكونت ريرونولو مع اخوته ، وكذلك بويللودى شارترز ، والبريد دى كانسانو ، وهمفرى من مونت سكاليوزو .

انخرط هؤلاء جميعا تحت راية بوهيموند ، حتى اذا بلغوا « كاستوريا » احتفلوا بعيد ميلاد المسيح .

لم تكن المدينة تعقد فى هذا المكان أسواقا لمن يمر بالناحية من الناس ، ومن ثم اضطر [اللاتين] للاستيلاء قسرا على قطعان الماشية والدواب ، ونهب كل ما يحتاجونه للعيش مما أدى الى خسارة الأهالى الذين نظروا اليهم نظرتهم للأعداء .

ثم أخذ [اللاتين] بعد ذلك فى متابعة زحفهم من عند الناحية حتى بلغوا منطقة شديدة الخصب والنماء ، وتعرف باسم « بلا جونيا » فضربوا معسكرهم بها ، وهنا وافتهم الأخبار أنه يوجد على مقربة منهم مدينة حصينة يسكنها الهراطقة . فأوسعوا خطاهم نحوها ما وسعتهم السرعة واستولوا عليها بالسلاح . وأضرموا النار فى مبانيها . وراح ما بها من من هنالك بالسيف أو صريع النيران النار ، ثم عادوا منها محملين بالغنائم الضخمة والأسلاب الوفيرة .

ولما سمع الامبراطور أن كتائب بوهيموند تابع زحفها ، أوعز سرا الى مقدمى جنوده الذين كان قد أرسلهم فى مسالك ذلك المكان أن يظلوا سائرين مع جميع قوات تلك الناحية الى جانب القوات المسيحية حتى يصلوا الى نهر الوردار ، على أن يغتنموا الفرصة ان لاحت لهم ليلا أو نهارا للاغارة على طليعة الجيش ، سرا أو جهرا ، وذلك لما نمى الى علمه من أعمال القتل التى جرت عند مجىء القائد بوهيموند ، وكان الامبراطور قد ذاق منه ومن أبيه روبرت جسكارد الأهوال الجمة فى سالف الأيام ، لكنه استطاع بفضل ما طبع عليه من الدهاء والمكر ـ أن يوفق غاية التوفيق فى ستر أغراضه واخفاء أهدافه . بارساله طائفة من كبار من حوله الى هذا الرجل العظيم [بوهيموند] ألقى اليهم أن يكلموه بلين الكلام وأرقه ، وأن يصطنعوا معه من الأسلوب المطمئن ما يخفى غرضه ، وأن يستعملوا كلمات تبث فى نفسه الطمأنينة ، لكنها تخفى وراءها الغدر الذى لا مناص

منه ، كما أمرهم أن يبدلوا قصارى جهدهم لخديعته . وكانت لهجة الرسالة المكتوبة اليه وكذلك الكلمات التى جاء بها الرسل كالآتى

- ١٤ -

« قد علم جلالتنا — رعانا الله — بما لا يدع مجالا للشك أنك أمير جليل القدر ، قوى الشكيمة ، رفيع المكانة ، كما أنه يعلم أنك ابن أمير مبجل نوى لم يعرف الكلل اليه سبيلا ، وقد أنزلناك منا منزلة الحب ، وحبوناك من اقبالنا ما أنت أهل له . وان كنا لم نرك وجها لوجه حتى الآن .

★★★

« وقد علمنا أن طاعتك للرب حملتك على أن تهب نفسك لخدمته ، وأن تشارك بقية الأمراء المخلصين فى القيام برحلة الحج . وان هدفنا هو أن نزيدك منا حبا ، وننزلك منزلة الود من نفسنا لذا (فانا نلتمس منك) أيها الصديق الحبيب أن توعز الى أتباعك بكف أيديهم ومنع أذاهم عن رعايانا ، وألا يرتكبوا عملا من أعمال العنف أو النهب أو اضرام الحرائق ، ونسألك أن تبادر ما وسعك البدار للمجيء الى حضرتنا لا تخاف شيئا ما ، عساك أن تنعم بآلاف الشرف ، وتحظى بالنعم التى نعتزم اغداقها عليك ، ولقد أصدرنا أمرنا الى حامل هذه الهدايا على تهيئة كل ما هو لازم لجيشك، بثمن لا فصال فيه ، حتى تظل امداداتكم بأسباب العيش موصولة على الدوام » .

وعلى الرغم مما يوحي به ظاهر كلمات الامبراطور هذه من الود الكبير ، الا أنها كانت تخفي وراءها السم ، غير أن بوهيموند ـ وهو الرجل الفطن اللماح ، المدرك تمام الادراك ما تنطوى عليه نفس الامبراطور من الشر ـ كتم مشاعره ، وأخذ حذره الشديد ، وأزجى الى الملك آيات الشكر على ما أبداه من العطف والاهتمام بسلامته ، وتبع الدوق هؤلاء المرشدين ، حتى اذا بلغوا نهر الوردار وجدوا قسما من عسكرنا قد عبروا النهر حالا ووقفوا على ساطئه الآخر ، بينما كان هناك غيرهم يتأهبون لعبوره ، فظن أتباع الامبراطور الذين كانوا يقتفون أثر معظم جيشنا ان قد لاحت الفرصة لهم ، فكروا في وحشية ضارية ، وروح عدوانية كريهة ، على هذا الرهط من الناس الذين كانوا على وشك العبور .

فلما اتضح المكر السيء لتانكريد ـ وكان مستعدا للدوام للعمل ـ هب كأنه البرق الخاطف الى تلك الناحية ، مستصحبا معه ما يقرب من ألفى فارس وعبروا النهر المزبد سباحة الى شاطئه الآخر الذى لم يكادوا يصلونه حتى وثبوا على العدو بسيوفهم ، فمزقوا صفوفه وأرغموه على الفرار ، ثم مضوا يعقبونه بعض الوقت وفتكوا بالكثير من رجاله ، كما أسروا البعض منهم وجاءوا بهم الى بوهيموند الذى أمطرهم بأسئلته ، مستفسرا منهم عما وراء مطاردتهم جيشنا مستحيا مثلهم واقتفاء أثره ، فقالوا له انهم رجال الامبراطور ومرتزقته ، وأنه لابد لهم من الانصياع لأمره ، وقتال من أوصاهم بقتالهم ..

وحينذاك اتضح للجميع بما لا يدع مجالا للشك والريبة زيف كل ما قاله الامبراطور لهم وانه قول لحمته الخديعة ، وسداه الرياء .

غير أن بوهيموند لما كان يعلم أنه موشك على الرحيل ، وانه في حاجة لاستعمال كل ما يقدمه له الامبراطور من وسائل السفر ،

فقد تصــــدى للوقوف فى وجه ارادة بقية رجاله ، ورأى أن يكتم أحاسيسه ، حتى لا يثير حنق ألكسيوس من غير فائدة يجنيها ٠

- ١٥ -

بعد أن احتاز الجيش مقدونيا وولاية الليريا كلها ، راح يحث الخطى وهو تحت قيادة جودفروى الحكيمة حتى دنى من المدينة ، فوقف قربها ، وكان ذلك قبل عيد الميلاد بخمسة أيام ، وهنا جاءت سفارة ثانية من الامبراطور الذى أرســل يرجو من بوهيموند فى الحاح أن يحلف وراءه قوانه ، ويمضى لزيارته فى حرس قليل ، فتردد بوهيموند فترة قصيرة وأجل تنفيذ هذه الأوامر بعض الوقت، لانه كان يشك فى نوايا الامبراطور ويدرك ما يضمره من السر ، وبينما كان يبحث فيما ينبغى عليه اتخــاذه ، اذا بالدوق العظيــم جودفروى يقبل فى أبهة عظيمة ، تحوطه كوكبة سرية من النبلاء ، وقد وفد على بوهيموند ــ استجابة لتوسلات الإمبراطور الملحة عليه ــ فى محاولة منه لحمله على زيارة جلالته الامبراطورية دون خوف أو وجل ، فعانق كل منهما الآخــر ، وتبــادلا قبلات الحب ، ودارت بينهما الأحاديث اللطيفة وراح كل منهما يسأل الآخر عن أحواله ، فلما فرغا من ذلك أشار الدوق جودفروى ــ بناء على ما لديه من المعلمات ــ على بوهيموند ــ بزيارة الامبراطور ، ولكن الآخر أظهر فى بداية الأمر اصراره الشديد على رفض هذا العرض ، غير عابىء بنصيحة الدق ، لعــدم ايمــانه بصدق ما يقوله الامبراطور كمــا ذكرنا ، بيد أنه رضخ فى النهاية لرجاء جودفروى ، ومضى مطمئنا فى حراسة الدوق الى القصر ، فلما بلغه تلقــــاه الامبراطور بقبلة

السلام ، وأحاطه بكل ضروب العطف ، وبعد حوار أخوى طويل أصبح بوهيموند « رجل الامبراطور » كما يقول الملل وأعلن بيعته له ، وأقسم يمين الولاء له حرفيا على عادة الافصال لساداتهم اللوردات الاقطاعيين .

فلما فرغ من قسمه انهالت عليه الهدايا الغالية التى لا تقدر بثمن ، والتى جىء له بها من الخزانة الملوكية ، حسب قدمرا الله الذهب والثياب والمرهرات زالأحجار الكريمة . وبذلك انعقد السلام بين الاثنين .

★☆☆

أما تانكريد — ابن أخت بوهيموند — وكان رجلا يسير كل ما فيه الى عظمته — فقد كان حريصا كل الحرص على ألا يذهب الى الامبراطور حتى لا يتحدث اليه ، وبينما كان خاله [بوهيموند] لا يزال فى البلاط الامبراطورى انتقل هو بكل عسكره الى بثينيا فى اقليم خلقدونيه الواقعة على لجانب الآخر من البسفور ، وضرب خايمه قرب جيش الدوق [جودفروى] الذى كان قد عبر البحر منذ قليل وأصبح الآن فى انتظار الجيوش الأخرى .

ولما علم الامبراطور [ألكسيوس] بتجنب تانكريد المجىء الى حضرته اشتد غضبه منه ، الا أنه تمسك بالعقل وكظم غيظه ، وراح يغدق — بين آونة وأخرى — الهدايا على الأمراء الذين يزورونه ، فاذا ما صدروا عنه الى معسكراتهم فيما وراء السفور — وصلهم بآيات التشريف .

وأقام الجنسان هنا فى وئام واستقرا فى انسجام على مقربة

من المدينه فى انتظار وصول الجيوش الأخرى ، ثم انضم الجميع بعضهم الى بعض فى جيش واحد فى السير الى الحج الذى اعتزموه ٠

ولقد أمدت المدينة الملوكية والمنطقة التى حولها أهل المعسكر بكميات كبيرة من الطعام ، حتى أصبح الجميع قادرين على التمتع بالوفرة منه حسبما يشاءون ٠

- ١٦ -

فى هذه الأثناء ، وعند اقتراب دخول فصل الشتاء ، شرع روبرت كونت فلاندرز العظيم فى الابحار من « بارى » احدى مدن أبوليا الساحلية ، وأرسى بعد ابحاره بجميع حشمه فى « دورارو » وتحاشى زمهرير الشتاء بنزوله وسط الشاباب والمراعى وفى منطقة خصبة تزخر بشتى متطلبات الحياة ، فأقام بها ، حتى اذا دنى فصل الربيع تابع رحلته وهو أنشط ما يكون لينضم الى القادة الآخرين الذين سبقوه فعبروا البحر ٠

وأنفذ الامبراطور – كما فعل مع القادة الآخرين – رسلا من جهته الى كونت فلاندرز قبل وصوله القسطنطينية ، يسرون عليه بترك قواته خلفه ، ومتابعة رحلته مع ثلة من رفاقه ، للمثول بالحضرة الامبراطورية ، وأوقفه هؤلاء الرسل على كل صغيرة وكبيرة مما فعل سابقوه فى هذا الموضوع مع الامبراطور ، فلما بلغ الكونت القسطنطينية مضى الى القصر فى شرذمة ضئيلة من حاشيته ، فلقاه الامبراطور بكل مظاهر الاجلال ، وعامله أطيب معاملة ، فلم يكن من [الكونت] الا أن نهج نهج الآخرين فقطع على نفسه يمين الولاء الذى

طلبه منه الامبراطور ، واذ ذاك انهال عليه من مظاهر التكريم والهدايا أكثر مما انهال على السابقين ، وكان حظ رفاقه مثل هذا الحظ من الكرم ، وان نال كل منه حسب مرتبته ٠

وصدر الاذن لجبس كوت فلاندرز بالبقاء عدة أيام في المدينة منعما بأطيب الطعام ومستجما ، وقد أكثر الكونت في هذه الأيام من اجتماعاته مع الامبراطور لبحث المواضيع التي رآها ضرورية ، فلما فرغ منها استأذنه في الرحيل بعسكره فأذن له ، فأبحر للانضمام الى اخوانه الحجاج الذين استقبلوه بالحب العظيم ، وانضم الحشدان بعضهما الى بعض ٠

أقام القادة بضعة أيام يقص الواحد منهم على الآخر الاحداث المختلفة التي جرت له في رحلته ، وقد سادتهم روح البهجة ، حتى اذا فرغوا من استعراضهم للصعوبات التي مرت بهم اتجهوا أخيرا الى مناقشة المسائل الخطرة ، وكان من الضروري بعد أن عقد كل منهم محادثات دقيقة مع الآخر أن يقرروا متى وكيف تكون انجاز المشروع الذي أقدموا على النهوض به ، وبينما كانوا منهمكين في لوم رفاقهم الذين تأخروا في المجيء وتحميلهم مسئولية انصرام الوقت بلا طائل اذا برسول يصلهم من كونت تولوز وأسقف بوى تنبؤهم بانهما على مقربة منهم ، وأنهما سرعان ما سيدخلان المدينة ٠

- ١٧ -

يلازم هذان الرحالان العظيمان منذ مستهل السير ، وظلا جنبا الى جنب بحشودهما ، فكانا رفيقي رحلة لم ينفصل أحدهما فيها عن الآخر ، وكان في ركابهما رجال بارزون من علية القوم خلقا ومكانة ،

منهم : ولم أسقف أورنج ، ورينبولد كوت نفس المدينة [أورنج] وجاسـون دى بيرييه ، وجيرار دى روسـيلون ، ووليم كونت مونتبلييه ، ووليم كوت فورير ، وريمـوند بيليه ، وجاسـون دى بيارن ، ووليم أمانجـو وكثيرون غـيرهم ممن لم تع الداكرة أسماءهم ، الا انهم سيظلون من غير شك أحياء فى ذاكرة الزمان ، ذلك لانهم آثروا الفقر عن رضـا وطيب خاطر ، فهجروا ، مهبط رؤوس آبائهم وفارقوا أحبـابهم وأقاربهم ، وتخـلوا عن أملاكهم الفسيحة التى ورثوها عن أسلافهم من أجل اقتفاء خطى المسيح ٠

وصدقت النية من هؤلاء الناس جميعا فأخلصوا فى خروجهم واتباعهم من ذكرنا من الرجال الموقرين ، وشدوا رحالهم الى ايطاليا ، واجتازوا لمبارديا ، حتى اذا خلفوا وراءهم الاقليم المسمى«فورم جيلى»

دخلوا استريا القريبة من « أكويليا » فأفضى بهم السير فى النهاية الى أرض « دلماشيا » الواقعة على امتداد الطريق الواصل بين المجر وبحر أدرياتيك ، والتى توجد بها أربع مدن كبرى هى « زارا » و « سالونا » (المسماة أيضا بسبالتو) و « أنتيفارى » و « راجوزة » التى يسكنها قوم قد أوغلوا فى الهمجيـة ، وبلغوا من الوحشية أقصاها ، فهم يعيشون على السلب والنهب والقتل ٠

وأرضهم مكسوة كلهـا بالغابات ، وتشقها الأنهار الكبيرة ، وتحفل بالمراعى الفسيحة ، ومن ثم تقل بها الحقول الا ما تناثر منها هنا وهناك ٠

ويعتمد الأهالى فى معاشهم اعتمادا تاما على الماشية والأغنـام باستثناء جماعات قليلة جدا تقيم على ساحل البحر ، وتختلف اختلافا بينا عن بقية القوم فى العادات واللغة ، فلسان هذه الجماعة هو اللاتينى ، على حين يتكلم بقية الأهالى اللغة السلافية ، وسلوكهم هو سلوك المتبربرين ٠

ولما دخل الكونت وأسقف بوى ورجالهما هذه الولاية صادفهم كثير من الصعاب على طول الطريق لا سيما بسبب طبيعة الاقليم الوعرة ، واضطراب فصل الشتاء ، كما ظلوا بضعة أيام يكابدون وطأه المجاعة لقلة ما عندهم من الطعام والمئونه ·

ولما طالع الأهالى وجوه قوما فزعوا فزعا شديدا ، حملهم على ترك مدنهم والتخلى عن أماكنهم الحصينة ، وفروا فرارهم من وحوش كاسره ، واعتصموا بالتلال والأدغال مستصحبين معهم نساءهم وأطفالهم ومتاعهم وان ظلوا يتابعون فى خلسه - وعلى بعد - آثار جيشنا الزاحف ، ويفتكون بمن ترميه الأقدار فى أيديهم من المرضى والمسنين والعجائز من النساء ، ممن لم تسعفهم قواهم وخطاهم البطيئة بملازمة بقية القوم ، فانفصلوا عنهم ·

ولما كان الكونت يشعر بالمسئوليه الملقاة على عاتقه عن هذا الحشد الكثيف ، فقد ولى قيادة الطليعة الزاحفه أمامه جماعة من الزعماء · وأما هو فقد وقف فى المؤخرة على رأس الجانب الأكبر من الفرسان ، كما أنه هو ذاته كان آخر العائدين الى معسكره ·

★★★

كان الجو مليئا بالضباب الكثيف ، والظلام شديدا كأنه قطع متصل بعضها ببعض حتى ليكاد المرء يحسها ، ومن ثم فقد كان من الصعب جدا على السائر فى الخلف أن يتبين الذين أمامه ، على حين أن طليعة الجيش كانت لا ترى قدامها أكثر من رمية حجر ، هذا الى جانب ما ذكرناه من أن الاقليم زاخر بالأنهار والقنوات المائية ، وتكثر فيها المستنقعات التى تعمل على زيادة الرطوبة والضباب الكثيف لحظة بعد أخرى ، حتى كاد الهواء أن يخنق الأنفاس ·

يضاف الى ذلك أن المواطنين الدلماشيين والسلاف كانوا على

دراية تامة بالاقليم ، فراحوا يتابعون الجيش وهم على القمم الشاهقة وفى الغابات الكثيفة ، وكثيرا ما كانوا يبرزون فجأة من الغابات لمهاجمة الحجاج العزل من السلاح ·

غير أن الكونت ومن معه من القادة طالما قاموا أيضا من جانبهم يردون على هجماتهم عليهم بمثلها ، فقصفت حرابهم وسيوفهم على الكثيرين منهم ، وكان فى امكانهم أن يفحشوا القتل فيهم أكثر مما فعلوا لولا فرار هؤلاء الدلماسيين الى الأحراج القريبة منهم ، متخذين منها ملجأ أمينا لهم ، وحدث فى يوم من الأيام أن وقع بعض هؤلاء الأشرار فى يد الجيش فأمر الكونت بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، عسى أن يكون فى هذا العقاب زجر لغيرهم ، فيكفون — جزعا — عن متابعة الجيش وملاحقته ·

ظل الحجاج ثلاثة أسابيع متتالية يعبرون هذا الجزء من الاقليم وهم فى كرب وضيق ، حتى انتهوا أخيرا الى موضع يقال له « سكوتارى » وجدوا به ملك السلاف ، ولما كان الكونت رجلا رحيما رضى الخلق فقد سخى فى تقديم الهدايا الى ملك السلاف راجيا أن يؤدى هذا الكرم من جانبه الى توثيق روابط الصداقة بين الجانبين ، وحتى يضمن لمن معه مودة الأهالى عساهم يعقدون لهم سوقا يشترون منها ما يحتاجونه من بضاعة ·

لكن الكونت لم يستطع — حتى بهذا السلوك — أن يهدىء من وحشية هؤلاء القوم ، أو يخفف من فظاظتهم ، بل الواقع أنهم ازدادوا شراسة عما كانوا عليه من قبل ·

لكن تسنى للجيش أن يصل فى النهاية الى دورازو بعد مسيرة أربعين يوما داخل أرض دلماشيا كابد فيها كل الصعاب ·

حاصرت المخاوف الكثيرة الامبراطور من مقدم الكونت ، لما كان عليه هذا الأمير من الفطنة والعقل ، الى جانب ما كان تحت قيادته من جيش بالغ الضخامة ، وكان الامبراطور قد أرسل منذ أمد طويل قبل وصول الصلبيين الى هذا المكان سفارة من كبار رجالاته لمقابلة الكونت فى دورازو ، وعهد اليهم أن ينقلوا اليه تحياته الرقيقة النابضة بالود ، فامتثلوا لأوامر مولاهم وذهبوا الى الكونت وخاطبوه بألفاظ سداها الرقة ولحمتها المداهنة ، وقدموا اليه رسالة الامبراطور التى تضمنت الآتى :

« أيها الكونت العزيز ، لقد طبق الخافقين منذ أمد بعيد كبير من أخبار فطنتك ، وما اشتهرت به من حسن الأحدوثة شهرة ذاعت شرقا وغربا حتى بلغت بلاطنا ، مما حملنا على حبك ، ومن أجل هذا الحب ، ورغبة منا فى اظهار مودتنا ، فاننا ندعوك الينا لنؤكد لك – بسبب فضائلك – وعلى رءوس الأشهاد – تقديرنا الشخصى لما أنت عليه من الفضل ، ونحن نتطلع فى لهفة الى قدومك علينا ، واننا نريد أن نناقش مع عظمتك – وأنت العزيز الغالى عند امبراطوريتنا – كثيرا من المسائل المتعلقة بالأمور العامة ، ونرجوك رجاء حارا أن يكون سيرك عبر بلادنا من غير شغب ولا ازعاج ، وأن تبادر بالمجىء الينا معتمدا على محبتنا ، ولتكن واثقا مما عزمنا عليه من اغداقنا عليك آيات الشرف ، كما أصدرنا تعليمات الى حاملى هذه الهدايا أن يهيئوا موضعا تبتاعون فيه ما تحتاجونه ، وأن يظل التعامل التجارى بين قومنا وقومكم موصولا ، تحت شروط ملائمة كل الملاءمة » .

حين تسلم الكونت هذا الخطاب انشرح صدره وصدور عسكره انشراحا كبيرا ، فقرروا متابعة السير ، فساروا أياما كثيرة

واسوا حلالها المنساق فى اجتيازهم الأحراج والجبال ، حتى اذا جاوزوا بلاد ابيروس كلها نزلوا فى الاقليم المسمى ببلاجونيا ، ناصبين معسكرهم به لكثرة ما يزخر به مما تهواه النفس .

وأما أسقف بوى الذى عاش حياته عفيفا طاهر الذيل فقد انتقى من دون الجند مكانا قصيا ايثارا منه لراحته ، ونصب هناك معسكره ، لكن ما لبث البلغار أن هاجموه وأخذوه أسيرا ، غير أنه لما كان شعب الرب لا يزال فى مسيس الحاجة الى قسيس عظيم كهذا القسيس فقد أبت رحمة الرب الا أن تداركه ، فأبقت على حياته ، وما كان ذلك الابقاء الا عن طريق الصدفة البحتة وحدها ، اذ طلب منه أحد اللصوص أن يسلمه ما معه من الذهب ليبسط عليه فضل حمايته ، فلا يناله أحد بضر ، فأعطاه ما طلبه ، فأغضب هذا بقية اللصوص ، فثارت بينهم فتنة تعالى ضجيجها حتى سمعها عسكرنا ، فهبوا جميعا الى سلاحهم ، وكروا على المفسدين وأنقذوا الأسقف المبجل ومن معه من بين أيديهم .

★★★

تابع العسكر بعد ذلك مسيرتهم ثانية فعبروا سالونيكا وكل بلاد مقدونيا ، وظلوا يتابعون زحفهم المضنى عدة أيام حتى بلغوا مدينة « رودستو » البحرية المطلة على البسفور ، والتى تبعد عن القسطنطينية مسيرة أربعة أيام ، وهنا جاء الى الكونت وفد آخر من جهة الامبراطور ، كما وفد عليه رسل من القادة [اللاتين] الذين قدموا قبله يمحضونه النصح ، ويلحون عليه أن يأذن لجيشه بالسير ولكن فى بطء ، أما هو فعليه أن يبادر بالخروج فى شرذمة ضئيلة من حرسه للذهاب الى الامبراطور ، حتى اذا فرغ من أمره معه يكون جيشه قد بلغ [القسطنطينية] ، واذ ذاك يستطيع ملاحقة الآخرين

بأسرع ما يمكن ، دون أى اعاقة للجيس الذى كان راعما فى سرعة الزحف ٠

وكان الكونت قد أرسل [الى القادة] من تلقاء نفسه حماعة من عنده . فلما عادوا اليه شجعوه على اتخاذ نفس الخطوة ٠

- ١٩ -

تلاشى أخيرا تردد الكونت أمام الالحاح المستمر من جانب مندوبى كل من الرسل الامبراطوريين والقادة [اللاتين] الذين التمسوا هم أيضا منه أن يسرع الى قصر الامبراطور ، فاستجاب لهم جميعا . وترك جيشه تحت الحمايه الدقيقة من جانب الأساقفه وغيرهم من الأشراف الذين كانوا فى المعسكر ، ومضى هو ملبيا الدعوات المكرره اليه ، ودخل القسطنطينيه فى رهط قليل من حاشيته ، وفى حراسة مندوبى الامبراطورية ، فلما مثل أمام الامبراطور بالغ الامبراطور ووجوه رجاله فى الترحاب به واظهار التقدير العظيم له ، لكن ما كادت تنتهى كرمات الثناء التى قيلت لاستمالته وخديعته ، والتى تضمنت الالحاح الشديد عليه لقطع يمين الولاء للامبراطور بالطريقة التى اتبعها القادة الآخرون الذين سبقوه ، أقول ما كادت هذه الكلمات المعسولة تنتهى حتى رفض الكونت قطع اليمين رفضا باتا ٠

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى القسطنطينية اذا بالامبراطور قد استبد به الحنق لرفض الكونت اعلان تبعيته له كما فعل الآخرون ، وحينذاك أسر الى قادة جنده الموجودين فى تلك النواحى

بمباعة فواب الكونت وأخدها على عره ، وأمرهم آلا يدخروا وسعا في ازعاجهم ، حتى ولو أدى بهم الأمر الى اغتيالهم ، وفد شجعه على ركوب هذا المركب وسلوك هدا السبيل النزام القادة الآخرين بيمين الولاء الىى قطعوها له ، كما أغراه على ذلك أيصا أن جنوسهم كلها كانت قد عبرت البحر ولم يعد من السىر رجوعها ، كذلك صدر الأمر الى جميع السفن المتجهة لنقل البجاره أو الناس بحرا بعدم مغادره الساطىء الآخر ، وبذلك نصبح كل فكره للرجوع ضربا من العبث لانعدام وسائل النقل ، وكان الامبراطور قد نجح بكلماته المعسولة الخادعة ، وما اصطنعه من اغراءات كبيرة فى حمل الجنوس على العبور فردا بعد فرد حىى لا يتجمعوا كلهم فى المدينة فى وقت واحد . وكان الداعى له الى ذلك الأمر هو خوفه ــ كما سرحنا ــ من أن يجيء هؤلاء العسكر فيكون فى تجمعهم كلهم خطر ما بعده من خطر عليه . كما أن سخاء القادة لم يكن عن كرم أو حسن قصد ، بل كان سياسة خبيثة تنطوى على المكر وهى وليدة اليأس ، ومع ذلك فقد أقدم زعماؤنا على تلبية ما طلبه الامبراطور منهم لنقتهم فيه وتصديقهم لما يقوله ، وكان من أصعب الأمور اقناعهم بسوء طوية الاغريق ، ولؤم نية الامبراطور وخداعه وختله الذى لا ينقضى ، لا سيما منذ أن بالغ فى السخاء عليهم واكرامهم وتظاهره نحوهم بأقصى مظاهر حسن النية ٠

- ٢٠ -

راح الضباط الذين تلقوا أوامر الامبراطور ــ وهم من أمراء الخمسمائة وكذلك الموكل اليهم قيادة القوات الحربية ــ ينفذون توجيهاته ، فقاموا سرا ــ والليل يلف الدنيا بظلامه ــ بمهاجمة

عسكر الكونت الذين لم يكونوا يتوقعون قط أى خطر يأتيهم من هذه الناحية ، فتراخى حراسهم ، وغفلت عيونهم ، فأخذهم الاغريق على غرة منهم ، وفتكوا بالكثيرين منهم فتكا ذريعا ، وذلك لأن المباغتة أدت الى عدم اتاحة الفرصة لهم لانتضاء سيوفهم ، فجرت فيهم مذبحة محزنة ، وفر من نجى فرارا مشينا لكنهم ما لبثوا أن رجعوا على أعقابهم حين تبصروا حالهم ، واستردوا شجاعتهم وعاودتهم بطولتهم، فأنزلوا كثيرا من الخسائر بتلك العصابات الحربية من مرتزقة الامبراطور . ولقد أبدى الصليبيون مقاومة عبقرية آخذين بعين الاعتبار ظروف الزمان والمكان ، غير أن اليأس بدأ يتسرب الى نفوسهم بسبب مشقة الطريق وما يلقونه كل يوم تقريبا من أخطار لا تنتهي، تأتيهم على غير انتظار منهم ، فراحوا يستسلمون لليأس ، وطالما لاموا أنفسهم على ذلك ، وأخذت حماستهم تفتر كل يوم عن الذى قبله بسبب الارهاق الذى نال منهم كل منال ، ومن جراء المصاعب الشاقة التى واجهتهم ، وندم الكثيرون منهم على المغامرة التى أقدموا عليها ندما جاوز الكثيرين من العامة الى طائفة كبيرة من أبرز رجالهم الذين يشأونهم مكانة ، والواقع أن الريبة ساورتهم فى قدرتهم على انجاز حججهم ، فنسوا ما قطعوه على أنفسهم من عهود ، وما أقسموه من أيمان ، وراحوا يعدون العدة للعودة من حيث جاءوا ، ولولا أن أخذتهم تحذيرات الأساقفة ورجال الدين من كل جانب ونصائحهم اليهم وحثهم اياهم على الوفاء بما فى أعناقهم من يمين فهجروا الجيش وحاولوا الرجوع الى ديارهم ، غير مبالين بالخطب الذى يترتب على ذلك .

ولما سمع الكونت هذا النبأ عصر الحزن قلبه واستبد به الألم وبكى وأعلن أن قد غرر به ، ثم أرسل رهطا من أشرافه المخلصين الى الامبراطور يقولون له على لسانه انه خائن ، لأنه خرج على جميع مقتضيات اللياقة والذوق اذ أمر رجاله بمحاربة جيش الكونت

ريموند فى الوقت الذى ذهب فيه ريموند الى الامبراطور استجابه للكتب العـــديدة التى جاءته من القـــادة ، ونزولا على التماساتهم الكثيرة منه ٠

كذلك لام الكونت القـــادة لمداومتهم الالحاح عليه بالمضى الى الامبراطور حتى ترك جيشه وشخص الى القسطنطينية ، وأعلمهم ريموند بالمصائب التى ألمت بكتائبه وبخيانة الامبراطور لها ، ثم طالبهم ــ كأخوة له ــ أن يثأروا لهذه الفعال الشائنة ٠

★★★

لو ان قوة الكونت كانت مكافئة لرغبته الصادقة فى الانتقام لرجاله لما كان لتهديدات الآخرين ، ولا لتدخل سواهم من القادة قدرة على ثنيه عما اعتزمه ، فقد اشتهر عنه انه كان رجلا صلب الارادة ، قوى الشكيمة ولا يثنيه ثان عما أجمع العزم عليه ، كما أنه لا ينسى الاساءة أبدا ٠

وحين عرف الامبراطور المدى البعيد الذى ذهب اليه ندم على ما بدر منه ، ورأى أن يبعث فى استدعاء القـــادة الذين لا زالوا بجيوشهم على الشواطىء الأخرى طالبا اليهم المثول فى حضرته ، طمعا منه فى أن يؤدى تدخل هؤلاء القادة ــ وهم الدوق وبوهيموند وكونت فلاندرز ــ الى استرضاء ريموند ، فاستجابوا كلهم لدعوته، وعلى الرغم من شدة حنقهم جميعا على ما قد جرى الا أنهم رأوا عدم ملاءمة الزمان ولا المكان لطلب الثأر ، ومن ثم انفردوا بالكونت رجاء أن يحملوه على ألا يصرح بالأخطاء التى يشعرون أنها قد حاقت به وبهم أيضا ، مبينين له أن اندفاعه فى طريق الانتقام قد يؤدى الى ضياع جهد أيام طويلة ، والى عرقلة زحف أولئك الذين يرغبون فى السير فى طريق السيد ، فاستجاب الكونت لحججهم هذه ، ورضخ

لتدخلهم الرحم ، وكبت مساعره المريرة واحساسه بالألم ، وحصع لنصيحة القادة ، ووافق على ما رنبوه ، وحينذاك ذهبوا جميعا الى الامبراطور بنفوس راضية وان عبروا بالاجماع عما يسعرون به من السخط على ما جرى ، فلما أدرك الامبراطور ما هم عليه من الاستياء ، وقد وحدهم جميعا شعور جماعى مبين ربط بينهم جميعا لم يجد بدا من التنازل والاعتذار للكونت أمامه وفى حضور بطانته ومن لا تمت اليهم بصلة . وزاد فأقسم بأنه لم يعلم بما قالوه من خبر الاهانة التى لحقت الكونت ، وأن شيئا من ذلك لم يصدر عن أمره . وقال انه على الرغم من ذلك فانه راغب فى استرضاء الكونت ليؤكد له براءته ·

هكذا كانت تنكشف للعيان — يوما بعد يوم — خدع الاغريق وخيانة الامبراطور ، ولم يعد هناك أحد من الزعماء لم يتضح له وضوح الشمس فى وسط النهار ان نفس الكسوس تنطوى على كراهة سوداء لشعبنا واحتقاره اياه ، ومع ذلك فلما كان تحقيق هدف الحجاج يدفعهم الى أمور أخرى . ولما كانوا هم أنفسهم نواقين لانجاز مهمتهم على الوجه الذى يرضاه الرب ، فقد رأوا أن التجاوز عما لحقهم من الأهوال أعظم من انصرافهم عن هذا المشروع المقدس الذى جاءوا من أجله ·

- ٢١ -

انصاع الكونت لنصيحة القادة فصافى مع الامبراطور ، وأقسم له يمين الولاء على الصورة التى أقسمها الآخرون ، فأصبح الامبراطور منذئذ يحوه بعطفه الشامل ، ويسخو عليه بالهدايا

السمسه الىى لا يحصيها العـد ، والنى تبلغ قبمتهـا فدرا لا يدركه التصور ، كما مضى يصـــل الزعماء الآخرين بالمزيد من العطايا ، واذ ذاك اسنأذنوه فى الرحيـل فأذن لهم ، والتمســوا مں الكونت ـ على وحه الخصوص ـ ألا يبطىء فى اللحاق بهم ، بل عليه أن يجىء اليهم على جباح السرعة ، واذ ذاك انطلقوا عابرين المسفور ، وانتصبوا الى كنائيهم الموجوده فى بيئينا •

أما عسكر الكونت [ريموند] فكانوا فد بلغوا القسطنطينية حينذاك ، فأمرهم الكونت بركوب البحر فى ساعتهم هذه فاستجابوا لأمره . وانضموا الى الجيوش التى سبقتهم وان تخلف ريموند عنهم للنظر فى ترتيب أموره الخاصة ، وتصريفها تصريفا لم يحل بينه ـ وهو الرجل الفطن ـ وبين الاهتمام بالصالح العام ، اذ فعل ما فعله القاده الآخرون من قبله حين راح يرجو الامبراطور رجاء الملح أن يصحب القوم فى زحفهم . على أن تكون له قيادة جيش المسيح ، ويكون حينذاك صاحب الأمر فيه •

وعلى الرغم من أن جميع قادتنا ـ لا سيما كونت تولوز ـ طالما التمسوا منه مرة بعد أخرى أن يتفضل بمرافقتهم كقائد لجيش المسيح ، وأن يأخذ القيادة العليا بيده ، الا أنه ظل يتنصل متحللا المعاذير ، بحجة أنه محاط بأعـــداء همجيين كالبلغـــار والكومان والبشـــناق الذين لا يكفون عن الحـركة على حـدود الامبراطورية لاغتنام الفرصـــة لشن هجمـاتهم الفجائية ، وتهديد سلم الدولة وأمانيها . وبين لهم أنه رغم رغبته الشديدة فى المساهمة معهم فى الحج العظيم . ومشاركتهم فى النصر المقبل الا أنه لا يستطيع أن يتنحى عن المسئولية الملقاة على عانقه بمملكته ، والا أتاح الفرصـة للعدو المحدق بها لينزل الضر بها •

لكن كان جميع ما صرح به افكا وكل ما قاله بهتانا حشوه الخديعة •

وكانت غيرته من رجالنا هى التى دعته الى هذا الادعاء ، لانه كان يلتمس أى ذريعة تمكنه من كف مساعدته من شعبنا واعاقة تقدمهم بأى وسيلة يستطيعها ٠

وكان القادة الذين عبروا البحر حالا ـ وأعنى بهم جودفروى وبوهيموند وروبرت كونت فلاندرز وأسقف بوى ـ قد أعدوا حوائجهم وصاروا على أهبة الاستعداد لمواصلة الحج مرة أخرى ، كما أزمعوا السير على مهل الى نيقية فى انتظار رفاقهم القادمين وراءهم ، ومن ثم ساروا يومهم كله قاصدين نيقوميديا ، التى هى أكبر مدن ولاية بثينيا ، واذ ذاك خف بطرس الناسك لمقابلة الكتائب المقدمة وتحية الزعماء ٠

كان بطرس ـ تجنبا منه للجو القارس ـ قد أمضى الشتاء فى هذه الناحية مع الفئة القليلة الباقية ممن ظلوا على قيد الحياة . فانضم بهم الى زمر الحجاج الذين رحبوا به أجمل ترحيب ، ولما سألوه عما لقيه جيشه من الأهوال أسهب لهم فى تفصيل كل ما حاق بهم ، ولم يفته أن يصف لهم روح الفوضى والتمرد التى كان عليها هؤلاء العصاة الرعاع الذين خرجوا فى صحبته ، ونسب النكبة التى ألمت بهم الى سلوكهم الذاتى أكثر من نسبتها الى شىء سواه فشاركه القادة الحزن العميق فى مصيبته ، ثم وصلوه هو ومن معه بالهدايا الثمينة الجمة ٠

ازداد حينذاك عدد الجيش زيادة كبيرة بعون الرب ، وذلك لان الطوائف المختلفة اتحدت حتى صارت جماعة واحدة تابعت السير تحت قيادة حكيمة لبقة ، فبلغوا نيقية فى الوقت المحدد ، ونصبوا معسكرهم على شكل دائرة أحاطت بالمدينة ، وخصصوا أماكن معينة

للزعماء الذين لم يعدوا بعد ، حتى اذا كان اليوم الخامس عشر من شهر مايو [سنة ١٠٩٧] ضربوا الحصار على المدينة ٠

★★★

حين فرغ كونت تولوز من انجاز شئونه في القسطنطينية استأذن الامبراطور في الرحيل ، فسخا عليه ثانية سخاء بالغا ، ووصله بالهدايا اكراما له ، فسار بمن كان قد ظل معه من رجال جيشه ، مقتفين أثر عسكر اخوانهم ومسرعين في زحفهم ، وسرعان ما بلغوا المدينة المذكورة آنفا ٠

- ٢٢ -

في هذه الأثناء قام لورد روبرت - كونت نرمندى العظيم - وغيره من كبار النبلاء البارزين ممن كانوا في معيته ، ومنهم لورد ستيفن كونت شارترز وبلوا ، ولورد أسطاس أخو الدوق جودفروى، بإيفاد الرسل من جانبهم الى الامبراطور والى اخوانهم ، يعلنون اليهم أنهم قادمون حالا ٠

وكان مع هؤلاء أيضا ستيفن كونت أومال ، وألان فيرجانت ، وكونون ، أحد سراة بريتاني ، وكذلك روترو كونت بيرش ، وروجر بارنفيل ٠

وكان جميع هؤلاء النبلاء مع كثير من غيرهم من الأبطال البارزين وفيهم كونت فلاندرز وهيج العظيم قد وصلوا العام المنصرم الى أبوليا مع دخول فصل الشتاء ٠

وكان الأخيران قد عبرا البحر الى دورازو ، أما بعضهم فقد كان خوفهم من برودة الجو القاسية حاملا اياهم على قضاء الشتاء فى ربوع أبوليا اللطيفة ، وعلى حدود كلابريا [قلهورية] ٠

لكن ما كاد الربيع يطل حتى استدعوا أتباعهم الحجاج ، وجهزوا متاعهم للسفر ، ويمموا وجوههم شطر الساحل ، سالكين الطريق الذى سلكه الآخرون ، فأبحروا الى دورازو ، وأرسوا بها ، ثم تابعوا سفرهم منها على جناح السرعة لتعويض الوقت الذى قضوه فى أبوليا ، وأعانهم الرب فاجتازوا الولايات الوسطى لا سيما « الليريكوم » ومقدونيا ومنطقتى تراقيا ، وكانت رحلة هادئة أبلغتهم القسطنطينية آمنين ، فاستدعاهم الامبراطور استدعاءه الزعماء الآخرين من قبل ، فلما دخلوا القصر تلقاهم جلالته وجمع من حوله من الرجال البارزين لقاء حارا مشرقا ٠

ثم أجرى الامبراطور محادثات طويلة مع الزعماء الثلاثة ، مجتمعين تارة ، ومع كل منهم على حدة تارة أخرى ، ملاحقا اياهم بكلماته الرقيقة ، ووعوده الجمة ، فقطعوا له على أنفسهم العهد الذى قطعه الآخرون له من قبل ٠

وكان هؤلاء القادة الآخرون قد أخبروهم ـ قبل ذهابهم الى الامبراطور ـ بكل ما ينبغى عليهم فعله فقالوا لأنفسهم ، لسنا أكبر من كبارنا الذين سبقونا » ، ومن ثم فانهم اقتداء منهم بهم نهجوا نهجهم وربطوا أنفسهم بالامبراطور وقطعوا له يمينا كاليمين التى قطعها له على أنفسهم من سبقوهم ، فكان الرد عليهم أن حظوا بعطف أكبر مما حظى به هؤلاء ، وأصبحوا جديرين بالحصول على مِنَح فاقت كل ما قدم من قبل ، فكثر المال بين أيديهم ، وجاءهم من الهدايا ما لم يروا له مثيلا من قبل ، من الذهب والملابس الثمينة والأوانى التى تشد الناظر اليها : مادة وصنعة ، وكذلك الثياب

الحريرية ، فأذهلهم سخاء الامبراطور الذى حاورت عطاياه فى طبيعتها وقدرها كل ما نتصوره نحن ، ثم انطلقوا محملين بهذه الهدايا الرائعة بعد استئذانهم الامبراطور فى الخروج حتى لا يكونوا سببا فى تأخير اخوانهم الحجاج ، وعبروا البسفور ، وأسرعوا بجموعهم الى نيقيه حيث كانت بقية الجيش الصليبى لا تزال بها ، فتلقاهم الأمراء بالأحضان ، ثم نزلوا جميعهم راضين فى المكان الذى قسم لهم .

- ٢٣ -

اتصل بمعسكرنا اغريقى اسمه « تاتيكيوس » كان موضع ثقة الامبراطور . وكان لئيم الطبع غدارا ، بدل أنفه الأفطس على ما انطوت عليه نفسه من الشر ، وكان زعماؤنا قد سألوا الامبراطور أن يمدهم بمرشد لتكون رحلتهم أكثر أمانا ، فصدر الأمر الامبراطورى بتعيين [تاتيكيوس هذا] ليكون مرافقا ومرشدا لنا .

لم تكن معرفته التامة بتلك النواحى هى وحدها ـ كما قيل ـ التى دعت الى اختياره ، بل ان الامبراطور كان كبير الاعتماد عليه لما كان عليه من فساد النية والنفاق الذى لا حد له ، فانضم تاتيكيوس بقواته الخاصة الى زعمائنا ، عساه يكون كالأوزة التى تصبح غالبا بين الدجاج ، وكالحبة الرقطاء بين ثعابين الأكل ، فكان أذن الامبراطور وعينه فى كل ما يجرى بالحملة ، ويفسر له كل ملاحظة يبديها أى شخص تفسيرا يرشح بالحقد ، ويتلقى من مولاه على يد الرسل الكثيرين المترددين بينهما غدوا ورواحا موجزا للخطط التى يوحيه اليها مشاريعه الشريرة .



ولقد تألف هنا ــ ولأول مرة ــ جيش متحد للسيد الحى ، وكان فى مجمــوعه مكونا من زمر شــتى ألقت قيادتها الى رجال تزعموها فى أماكن مختلفة وفى أوقات متباينة ، ثم انحدرت هذه الجماعات الكثيرة حتى اذا وصلت الى ها هنا صارت جيشا واحدا ، ذلك لأنه لم يتأت لأحد من قادة جيش الرب وزعمائه منذ مغادرتهم أوطانهم حتى بلوغهم هذه المدينة وضربهم معسكرانهم بها ، أقول لم يتأت لهؤلاء رؤية بعضهم البعض ، ولم تسنح لهم الفرصة لمناقشة المسائل المتعلقة بالصالح العام كما سنحت لهم الآن ٠

وأحصوا العسكر فوجدوهم سبعمائة ألف شخص ، ذكرا وأنثى مشاه لا ظهر عندهم ، أما الفرســـــان من أصحاب الدروع فكانوا مائة ألف ٠

وقد عسكر هذا الجيش بأجمعه أمام مدينة نيقية ، مكرسا كل نشاطه بشتى الطرق الممكنة للاستيلاء عليها ، وبذلك يهدون أول ثمار عملهم للسيد فى اخلاص ٠



هنا ينتهى الكتاب الثانى

الكتاب الثالث

الاستيلاء على نيقية والزحف عبر آسيا الصغرى

فصول الكتاب الثالث

١ ـ وصف مدينة نيقية وذكر أسباب شهرتها ، وكيف جمع حاكمها قلج أرسلان قوة كبيرة من الترك من كل نواحى الشرق لمحاربتنا ، وكيف أعدوا الكمين لمهاجمتنا .

٢ ـ قواتنا تهاجم المدينة فى ضراوة ولكن المواطنين يجدون سبيلا لهم للخروج عن طريق البحيرة ، فيرسل اليهم قلج أرسلان رسالة يشد بها أزرهم .

٣ ـ القبض على حامل الرسالة وافضاؤه الى القادة بكل أسرار العدو ، ووصول كونت تولوز

ـ وكان الغـائب الوحيد ـ على جناح السرعة استجابة للزعماء الآخرين ·

٤ ـ قلج أرسلان ينزل من التلال ويهاجم معسكرنا بعنف ، ولكن الهزيمة تحيق بجيشه ويرسل رجالنا بعض امارات انتصـارهم الى الامبراطور فيكافيء الزعماء على ما فعلوا ·

٥ ـ اقـامه القـادة في الأماكن التي خصصت لهم ومهاجمة المدينة المحاصرة من كل النواحي وهلاك طائفة من النبلاء في المعركة ·

٦ ـ أهل المدينة يحطمون آلة كانت على الأسـوار فيهلك نحوهـا كثير من الصليبيين ، كمـا أن البحيرة تعوق نجاح محاولاتنا ·

٧ ـ الصـليبيون ينقلون القـوارب من البحر على العربات ويسيطرون على البحيرة ، وينظر الأهالى في يأس ودهشة الى براعة شعبنا ·

٨ ـ معـاودة الهجوم على نيقيـة من كل الجهات ، ومحاولات كونت تولوز التغلب على برج أمامه واستعماله من أجل ذلك الآلات وشتى الحيل المحكمة ، ولكن مقـاومة الأهالى أدت الى فشـل جهوده ·

٩ ـ البراعة العظيمة التي أظهرها جود فروى ، وقيام أحد الأهالى بقذف النار وصب الزيت على الآلات

وما حدث اذ ذاك من المصير المحزن الذى لقيه أحد رجالنا البارزين ٠

١٠ ـ أحد الصناع يقدم خدماته للزعماء اليائسين فيبنى لهم آلة ويحدث نقبا بالسور الذى سرعان ما ينهار ٠

١١ ـ زوجة قلج أرسلان تقع فى الاسر هى وولداها أثناء محاولتها الفرار ويستولى اليأس على الأهالى فيفاوضون تاتيكوس الاغريقى كى يستسلموا ، ويبعث القادة الرسل الى الامبراطور بشأن هذا الموضوع ٠

١٢ ـ الامبراطور يوفد رسلا من قبله لتسلم المدينة ، كما يبعث أيضا بالهدايا والشكر للقادة ، ولكن السخط يستولى على الصليبيين ويشكون من شجب الاتفاق بينه وبينهم ، ويصدر الامبراطور أمره بسوق الأسرى الى القسطنطينية ويقدم لهم الهدايا ويبعث بهم من هناك الى بلادهم ٠

١٣ ـ رفع الحصار عن نيقية ، والجيش يتابع زحفه وينفرق القادة ، ويقوم قلج أرسلان باعتراض الصليبيين مرة ثانية بجيش كثيف ٠

١٤ ـ نشوب المعركة وهلاك وليم أخى تانكريد فيها ، وأما جيش بوهيموند فيصبح بأكمله فى خطر عظيم، كما أن تانكريد ينجو من الأسر بأعجوبة٠

١٥ ـ القادة الآخرون يصلون لنجدة اخوانهم المنهوكين ، فيفر قلج أرسلان ويحيق البوار

بجيشه ، ويعود الصليبيون وقد فاصت أيديهم بالغنائم ، وينجمع العسكر كلهم مره أخرى ·

١٦ ـ الجيوش ندخل « بيزيديا » ولكنها نكابد هنا الشدة بسبب قلة الماء ويصبح العسكر فى حال بالغة الحزن شديدة الخطورة ·

١٧ ـ انفصال بعض القادة عن بقية اخوانهم وتخريبهم الاقليم المجاور ، ونجاة الدوق من الموت باعجوبه من هجوم دب عليه ·

١٨ ـ اصابة كونت تولوز بمرض أشفى به على الموت ، وأما الجيش فيعبر « ليكونيا » ويصل الى « مرعش » حيث تموت زوجة بلدوين أخى الدوق ·

١٩ ـ ذهاب تانكريد الى قيليقية ومحاصرته طرسوس ، وزيارة بلدوين ـ أخى الدوق ـ لتلك النواحى واستقباله بالتعظيم الذى هو أهل له ·

٢٠ ـ بلدوين يطلب انزال راية تانكريد من فوق القلعة ليرفع رايته مكانها ، فيرتد تانكريد غاضبا ويستولى « جلف » على أذنة ·

٢١ ـ استيلاء تانكريد عنوة على المصيصة وهى احدى المدن الواقعة فى نفس الاقليم ·

٢٢ ـ استيلاء بلدوين على طرسوس وهلاك ثلاثمائة صليبى أمام باب المدينة فى نكبة فادحة ·

٢٣ ـ بعض المحاربين يحملون السلاح لمقاتلة بلدوين ، ولكنهم يهدأون أخيرا وبصـــل الى طرســوس أسطول من الغرب محمل بالرحال ٠

٢٤ ـ بلدوين يزحف على المصصه بعد استيلائه على طرسوس ، وينشب معركة بينه وبين تانكريد ثم يتصافى الاثنان ويتصالحان ٠

٢٥ ـ بلدوين يعود للجيش الأصلى أما تانكريد فيغير على كافة أرجاء قيلقية ويستولى عليها ، فيسرع الحكام المجاورون لمهادنته كسبا لوده ويقدمون الهدايا اليه ٠



هنـا يبـدأ
الكتاب الثالث
الاستيلاء على نيقية والزحف عبر آسيا الصغرى

- ١ -

كانت نيقية ـ وهى احدى مدن بيثينيا وعاصمة الاقليم ـ خاضعة فى القديم لنيقوميديا ، ثم تحررت من سلطانها علىها على يد الامبراطور قنسطنطين . بعدما لما قرره أول مجمع دينى مقدس انعقد فيها ، فقد حدث فى عهد كل من البابا سلفستر واسكندر الموقر بطرك القسطنطينيه والامبراطور قسطنطين الذى اشرنا اليه حالا أن اجتمع فى بقيه مجمع مقدس حضره ثلاثمائه وثمانون من آباء الكنيسة ليحددوا قرارا ضد هرطقه آريوس وأتباعه ، فتحض المجمع عن سحب ما عليه هؤلاء من عقيدة فاسدة ضاله ، واستبدالها بالحق المبنى على شـهادة الكتاب المقدس ، وبذلك قدم المجمع الى كنيسة الرب ايمانا نقى الجوانب ، كما عقد فى نفس المدينه مجمع عام آخـر ، يعرف بالسابع ، فى زمن الامبراطور المؤمن قسطنطين [السابع] ابن ايرين ، احتجاجا على اللا أيقونيين أعنى المهاجمين للصور المقدسة ، وكان يجلس على كرسى رومه اذ ذاك البابا أدريان. وكان بطـرك القسطنطينيـة حينـــذاك ثاراتيــوس الموقر ، ولقى الهراطقة المشار اليهم فى هـذا المجتمع من الكنيسه الارثوذكسية الحكم العادل الذى يستحقونه بشجب بهتانهم .



وتقع مدينة « نيقية » فى الاقليم السهلى ، وتتمتع بموقع رائع كل الروعة ، وتشرف عليهـا الجبـال التى تحيط بهـا من شتى النواحى ، كما أنهـا حافلة بأحسن الحقول فى المنطقة فأرضهـا خصبة ، هذا الى جانب المزايا العديدة التى سمحت بها عليها الغابات والاحراج ، ويوجد بالقرب من المدينة بحيرة عظيمة الاتساع ، وهى تمتد شطر الغرب امتدادا كبيرا ، وكانت الأمواج اذا هاجت بهـا علت المياه وغسلت جدرانها ·

وزيادة على ذلك فان نيقية مكتظة بالسكان الذين هم مساعير حرب ، وتقوم بحراستها حراسة تامة أسوار عريضة الاتسـاع ، وابراج ساهقة الارتفاع ، قدت من الصخر الجلمود ، حتى ان الدهشة استولت على رجالنا حين أخذوا يقتربون منها فرأوا وسـائل دفاع ضخمة ·

كانت المدينة وبعض الاقليم والولايات المتاخمة لها فى هـذا الوقت تحت حكم وال تركى شديد المراس قوى الشكيمة ، يدعى « قلج أرسلان » ويكنى « بالشاه » التى تعنى الملك فى اللسـان الفارسى ، وكان قلج أرسلان هذا على جانب كبير من الحذق ، وما كان يسمع بعزم فواتنا على المجىء حتى أخذ للأمر أهبته ومضى الى الشرق يلتمس العون والنجدة من حكام تلك النواحى ليحول بين الصليبيين وبين المجىء ، واستطاع بقوة اقنـاعه ، وبالمزيد من التوسلات ، وبالمال الذى بذله أن يجمع اليه من فارس وما تاخمها أعدادا ضخمة من الأتراك الذين طمع أن يعينوه على انقاذ « نيقية » وتجنيب الناحية بأجمعها ويلات الخطر الذى يهددها ، وحدث قبل هذا بقليل ـ وكان على القسطنطينية الامبراطور رومانوس ديوجينيس وهو الثالث قبل الامبراطور الحالى الكسيوس [كومنين] ـ أن تمكن أقوى ملـوك فارس يومذاك واسمه ملك شاه ـ وهو عم قلج أرسلان من الاستيلاء

عنوه على جميع الأقاليم الممتده من خليج السفور حتى بلاد الشام ومسيرها رحلة ثلاثين يوما ، كما تمتد نفس المسافة من البحر الأبيض المتوسط الى الشمال ، وقد آلت معظم تلك الأراضى فى ذلك الوقت الى قلج أرسلان الذى استغل ملكيته اياها ، فتطلع الى الاستيلاء على كل الاقليم الممتد من طوروس فى قيلقية الى السفور ، ومن ثم كان له ــ وهو على مدى رمية قوس من القسطنطينية ذاتها ــ نوابه الذين يجبون له الضرائب من المارين بها ، كما كان هؤلاء النواب يجمعون لمولاهم الجزية والاتاوات من كل النواحى المحيطة بالاقليم ٠

كان هــذا الحاكم يقيم فى المنــاطق الجبلية المجاورة ، التى لا تبعد عن قواتنا أكثر من عشرة أميال ، وكان يترقب الفرصــة المواتية لمهاجمتها دون أن يعرض نفسه للخطر بفضل ما توفر له من جيش بذل الجهد فى جمعه ، وبهذا كان يأمل أن يذهب عن المدينة الجزع الذى يؤرقها من هذا العسكر ٠

- ٢ -

لم تكد قواتنا تقف أمام المدينة حتى شنت هجوما عنيفا عليها رغم عدم حسن ترتيب العسكر ، لأنه لم يكن قد تم تنظيمه بعد ، ومع ذلك فان عسكرنا الذين جاءوا أولا قد تخيروا لأنفسهم مواضع محددة يقيمون فيها ، وخصصــوا أخرى ملائمة للقادمين بعدهم ، وبذلوا غاية جهدهم لمنع الأهالى من دخــول المدينة أو الخروج منها غير أن البحيرة الملاصقة لأسوار المدينة ــ كما قلنا ــ كانت تقف حائلا دون تنفيذ هذه الخطة بسبب ما كانت توفره السفن الموجودة

فيها من السلامة لمن يريدون الخروج من البلد أو دخوله ، ويغلهم حيث شاؤوا ، ولما لم يكن لدى جيشنا قوة بحرية فقد كان عاجزا عن تقييد حرية التنقل هذه ، ولكنه استطاع بشتى الحيل أن يمنع الوصول الى المدينة عن طريق البر بفضل عنايته الشديدة بمراقبة جميع مسالكها ومنافذها ، ولما عرف قلج أرسلان أن مدينته تعاني أهوال الحصار فقد أرسل اثنين من أتباعه ليدخل الطمأنينة في قلوب أهلها ، وبشجعهم على الاستمرار في الصمود ، وقد أرسلهما في قارب يعبر بهما البحيرة ، وبعث معهما عبارات التشجيع التي جاء فيها حسب العادة •

« ان قدوم هؤلاء المناكيد المبربرين الذين يظنون أنفسهم قادرين على فرض الحصار على مدينتنا لا ينبغي أن يسبب لكم خوفا كبيرا ، لأنني مرابط الى جواركم بقوة ضخمة من الرجال الأشداء العظماء ، كما أنني في ارتقاب أعداد أكثر قادمة بعدهم ، وحين يلتئم شمل هذه القوات كلها في جمع واحد فسوف نفاجىء معسكرهم بالهجوم ، فاذا هاجمناهم نحن من الخارج فهبوا أنتم من ناحيتكم لمساعدتنا ، وكونوا مستعدين لفتح الأبواب وانهضوا متحدين لا يشغلكم شاغل سوى مهاجمتهم ، ولا ترهبنكم كثرة عددهم اذ ليس عندهم من العدد والعدة ما يكافىء ما عند قواتنا النشيطة ، لأنهم جاؤوا من أقصى بلاد العرب ، فأعياهم طول السفر ، وأرهقهم بعد المسافة ، وفت في عضدهم ما صادفوه من المتاعب ، وهم لا يملكون سوى جياد لا تصمد للقتال الشديد ، ومن ثم فهم ليسوا نظراء لقواتنا التي وصلت حالا ، ولا يبلغ نشاطهم نشاطها ، وعليكم ان تذكروا كيف انتصرنا في يسر على جيشهم القوي ، وأوردنا ما ينيف على خمسين ألف من رجالهم ورد الردى في يوم واحد ، فقروا نفسا واهدأوا بالا ، ولا يأخذنكم الجزع لانكم تلقون نهار الغد نجدة كبيرة ، وسوف تتخلصون من العدو » •

ظل الرسولان مبحرين على طول الساحل سعيا لأحسن مكان يرسوان فيه ، وبينما كانا يلمسان منفذا أمينا يدخلان منه اذا برجالنا يباغتونهما على حين غرة منهما ، فوقع أحدهما فى الأسر ، وأما الآخر فقد قتل خلال الهجوم ، فأخذوا الأسير الى القادة لم يمسوه بسوء ، فاعترف لهم تحت التهديد والخوف بما يعرفه وكشف النقاب عن كل شيء وأخبرهم عمن أرسله وعما حمله على ارساله ٠ فاتضح من روايته أن قلج أرسلان بعث بالرجلين ليخبر الأهالى أنه قريب منهم ، وأنه قادم اليهم بالجند القوى الذى جمعه ، وقد أجمع العزم على مباغتة معسكرنا غدا ٠

فلما عرف زعماء كتائبنا أن قلج أرسلان على وشك القدوم أمروا بابقاء الأسير تحت الحراسة ، وبادروا فى لحظتهم فأرسلوا من قبلهم الى كونت تولوز والى أسقف بوى ـ اللذين لم يكونا قد انضما الى بقية العسكر حتى هذه اللحظة ـ رجالا يلتمسون منهما المجيء على جناح السرعة ، فلما تسلم هذان القائدان تلك الرسالة من اخوانهما جزعا عليهم جزعا غير قليل ، وندما على تأخرهما عن اللحاق بهما . وخرجا وظلا سائرين طول الليل حتى بلغا المعسكر مع أولى تباشير الصباح وقبل شروق الشمس ، ونفذا وحولهما الناس ما بين مهلل وهاتف ، والرايات ، تخفق أمامهما ، وتلمع الأسلحة فى الجو ، وما كادا يضعان أثقالهما جانبا ليتخذا مكانا مع بقية الجيش فى المكان المقسوم لهما حتى انحدر قلج أرسلان من ناحية الجبال ـ وكانت الساعة الثالثة طبقا لما قاله الأسير ، واجتاز السهل فى طريقه الى المدينة ، على رأس حشد كثيف من الفرسان ، ان تعدهم تجدهم قرابة خمسين ألف رجل ، وما كاد رجالنا يرون العدو حتى هبوا الى أسلحتهم فحملوها ، والى طبول الحرب فدقوها ، والى الأبواق فنفخوا فيها ، وأيقظوا العسكر كلهم فرتبوا صفوفهم استعدادا للقتال ، وأخذوا لكل شيء قد يعرض لهم أهبته ، وتهيئوا

لمواجهة العدو القريب منهم فى صوره الترموا فيها غاية الالتزام بقواعد التنظيم الحربى الذى دربوا عليه ومارسوه طويلا ٠

- ٤ -

أرسل فلج أرسلان كتيبة قوامها عشرة آلاف رجل على خيولهم ليكونوا طليعته ، نحو البوابة الجنوبية التى وكلت حراستها الى كونت تولوز ، لكن لما كان فلج أرسلان غير عالم بوصول ريموند فقد توقع أن يجد البوابة كعهده بها فى اليومين السالفين من غير حراسة ، بيد أن أمله تبدد هباء اذ صادف عندها من الجنود المرابطين أكثر مما فى أية بقعة أخرى ، لكنه لم يكن عالما بهذه التغييرات ٠

ومن ثم أسرع فشن غارة شعواء على رجال الكونت الذين رغم أنهم لم يتخففوا من أحمالهم الا منذ قريب الا أنهم صمدوا للهجوم ، وبددوا شمل الصف الأول من عسكر العدو الذى أدبر هاربا ، بيد أن ظهور فلج أرسلان على رأس امدادات قوية أحيا عزيمة عسكره ، فعادوا الى ساحة القتال بعد أن كان قد انفرط عقد نظامهم٠

فى هذه اللحظات لاحظ الدوق وبوهيموند وكونت فلاندرز أن العدو قد عاد بقوات أكبر عددا وأنها تقف صفوفا متراصة ، كما لاحظوا أن الارهاق بلغ من رجال كونت تولوز مبلغا جاوز الحد ، بسبب جيش كاسح باسل الشجاعة قد اندفع اندفاع رجل واحد لمساعدة رفاقه ، فقام [الثلاثة] قومة صادقة بمهاجمة معسكرات العدو والقريبة ، وتناوشوه بالرماح والسيوف ، وعلى الرغم مما كان يبدو على العدو حين طلوعه فى البداية من دلائل الشجاعة والبأس ـ

الا أنه لم نمض غير ساعه واحده من الصراع حتى فقدوا أربعه آلاف نفس ما بين قتيل وأسير ، مما حمل بقينهم على الفرار ·

وهكذا أحرزت قواتنا هذا النصر الأول بعون الرب ، فاستمروا يحاصرون الخصم حصارا أحاطوا فيه بالأسوار ، فلم يجرؤ قلج أرسلان أو أى أمير آخر من أمراء العدو — منذ ذلك اليوم وأيام الحصار التالية له — على القيام بهجوم كهذا الهجوم ، واذا كان زعماؤنا المذكورون آنفا قد برهنوا على كفاءتهم ، فان تانكريد وولتر دى جار لاند صنجاك الفرنجة ، وجى دى بوسسا ، وروجر دى بار نفل أبدوا من البسالة ما أذاع صيتهم وأكسبهم حسن الأحدوثة ·

ورغبة فى زياده بث الفزع فى قلوب الأعداء فقد صدر الأمر لرجالنا بقذف أعداد كبيرة من رؤوس الترك المقتولين الى داخل المدينة ، قذفت بها الآلات اليهم ، وكما بعثوا الى الامبراطور ألفا من هذه الرؤوس وطائفة من الأسرى هدية ، فكان لذلك وقع طيب فى نفسه ، وزيادة على ذلك فقد قام ألكسيوس بمكافأة زعماء الجيوش بمبالغ طائلة من المال ، وخلع عليهم شتى أنواع الثياب الحريرية المختلفة الأنواع ، ثم زاد فى كرمه فأرسل المواد الضروريه لهم من غير ابطاء عليهم ، وأمر بتجهيز سوق حافله بالبضائع من أجلهم ·

أراد قوادنا تنفيذ غرضهم ، فرأوا من الملائم فرض الحصار على المدينة من كل جوانبها كما قلنا وذلك بوضع القواد فى أماكن استراتيجية راحوا يصبون منها وابلا من الأضرار على الأهالى ، عساهم يحملونهم على الاستسلام دون مشقة نلقاها ، لذلك قسموا منطقة السور الى أقسام متساوية ، عهدوا بكل قسم منها الى فريق معين من الزعماء ·

فرابط الدوق وأخواه بقواتهم فى الجانب السرفى ٠

أما القسم الشمالى من المدينة فقد وقف فيه بوهيموند بجيشه ومعه تانكريد والقادة الذين تبعوه . والذين ذكرنا أسماءهم من قبل٠

وكان يلى هؤلاء فى الترتيب كونت فلاندرز ، وأمير نورماندى مع جندهما ٠

كما خصص الشطر الجنوبى لريموند كونت تولوز ولأسقف بوى بمن معهما ٠

وقام سيفن كونت شارنرز وبلوا بنصب معسكره وراءهم ٠ وكان معه هيج الكبير وبعض النبلاء الآخرين والرجال العظام ٠

ولما تم الاحداق تماما بالمدينة على هذه الصورة أجمع القادة على وجوب الاسراع فى نصب الآلات اللازمة لتقويض الأسوار ، وهى الآلات المسماة بالآلات المتحركة ٠

كذلك صـدرت الأوامر بالتعجيل ببنـاء آلات رمى المنجنيق وقذف الأحجار التى توفر الحصول على المواد الملائمه لصعبا من الغابات القريبة ٠

- ٥ -

وسار العمل سيرا حثيثا فجىء بالفعلة الذين راحوا يتنافسون فيما بينهم فى انجاز ما بيدهم من عمل ، ليفرغوا لمهاجمة المدينة ، وظلوا على هذه الصورة سبعة أسابيع ، وان دأبوا خلالها على مراوحة

المدينة بهجماتهم بين آن وآخر ، حتى جاء يوم من أيام كرهم طالعهم فيه نكد الطالع ، يوم فقدوا اثنين من محاربيهم الأشاوس جمعا بين نبل المحتد ورفعة المكانة ، هما : بلدوين الملقب بكالديرون ، وبلدوين الغنتى ، فقد هلكا وهما يقاتلان أروع قتال أثناء قصف المدينة ، اذ أصيب أحدهما بحجر أرداه صريعا ، وجاء الآخر سهم عرب أودى بحياته ، ومن ثم فرر القادة شن هجوم ثان ، ولكن هلك فيه وليم كونت فوريز ، وجالو دى ليل ، وهما يحاربان ببسالة ، فقد رميا بسهمين أصابا منهما مقتلا ·

وأصاب المرض هنا أيضا دى بوسسا أحد نبلاء مملكة الفرنجة ، وكان مرضا عضالا أودى به ، فدب الذعر فى نفوس شعب الرب لهلاك هؤلاء المحاربين الذين شيعوا الى مثواهم الأخير مخاطين بالشرف والحزن العميق ، وكان موكب جنازتهم موكبا حافلا لم تجر العادة بمثله الا لمن تسنموا ذروة الشرف الرفيع ·

- ٦ -

وحدث فى مرة أخرى أن كان جميع القادة منصرفين الى الحصار ، وقد بذلوا أنفسهم أصدق البذل فى ذلك ، فلم ينالوا قسطا من الراحة أو قليلا من التمهل ، وراحوا يحاولون بكل ما فى وسعهم نصب آلاتهم على الأسوار ، عساهم يتمكنون من شق طريق لأنفسهم يقتحمون منه المدينة ·

وانصرف كونت هارتمان وهنرى ديش ـ وهما نبيلان من مملكة التيوتون ـ وانصرف أتباعهما وحواشيهما ومعاونوهم الى

نصب آله صنعت ــ على أحسن ما تكون الصنعه ــ من جذوع البلوط التى شدوا بعضهـا الى بعض شـدا متينا ، وأحاطوا الآله بأعمده غلاظ ، وربت عسى أن نسع فى جوفها عشرين من الفرسان الشجعان عهد اليهم بتقويض السور ، فادا صار الفرسان فى جوف الآلة أمنوا على أنفسهم حتى من أعتى الصخور الضخمه التى ترميهم بها الآلات. لكن حين أسندت هذه الآلة الى الجدار اشتد الاهالى فى رميها من فوق رميا أسفر عن تحطيمها تمام التحطيم ، بسبب ما انهال عليها من القدائف الحجريه ، فتناثرت أجزاؤها بددا ، وهلك جميع من كانوا بداخلها فقد سحقوا سحقا فاشتد حزن الناس على هؤلاء النبلاء ، وعظم الكرب لضياع جهد أيام كثيره صرفوهـا فى بنـاء تهدم عن آخره ، ولم تعد به أدنى فائدة ، وحزن الناس على مصـير أولئك الشجعان الدين تفطر القلوب للنهاية التى انتهوا اليها ، ومع ذلك فما زال الأمل يراود النفوس ويهدد الجوانح ، لتفيئهم الجازم بأن هؤلاء الذين خاطروا بحياتهم فى سبيل المسيح فى هذا العمل انما فازوا بحياة أسمى من هذه الحياه الدنيا ، ولادراكهم الحقيقى أن هؤلاء الرجال الدين ماتوا فى ذلك القتال ماتوا شهداء ، لذلك فقد ازدروا هم أيضا الموت واستهانوا بالحياة الدنيا ، واستمروا يواجهون شتى المخاطر بقلوب ثابتة الجنان ، ومن ثم فقد اتفق القاده عـلى الاستمرار فى مضاعفة رمى جميع أسوار المدينه ، وراح كل قائد يبذل قصارى جهده فى تشديد الحصار ــ فى قطاعه الذى وكل اليه ــ شدة حملت بقية الناس على التحدث بما كان منه ، وسار العمل قدما ، وان كلفهم غاليا ، كما أن المعارك الموصولة والكمائن شبه الدائمه ، لم تدع لأهل البلد وقتا لالتقاط أنفاسهم .

ومع ذلك فان البحيرة المجاورة للمدينة كانت تقف أمام ما يعمله الصليبيون كأكبر عقبة أفسـدت عليهم جنى الثمرة المرجوة التى بذلوا من أجلها جهودهم المضنية ، هذا الى جانب ان هذه البحيرة كانت

مصدر راحة وطمأنينة للمحصورين الذين تيسر لهم بركوبهم ماءها أن يجلبوا ما يشاؤون من الطعام والمئونة ثم انها كانت تمكنهم بين آونة وأخرى من ادخال رؤوس كثيرة من الماشية الى المدينة تحت بصر قوانسا التى كانت تقف مكتوفة الأيدى عاجزة عن منعهم من ذلك .

- ٧ -

حينذاك اجتمع القادة أحباب الله للنظر فى هذه المشكلة على وجه الخصوص ، وتدبير أحسن الوسائل لمعالجتها ، واستقر الرأى منهم أخيرا على ارسال رهط من بينهم الى البحر ، تحرسهم كوكبة من الفرسان ، ووكلوا الى هذه الطائفة من الناس أن ينقلوا القوارب من اليابسة الى البحيرة مفككة أو كاملة ، مستعملين فى ذلك ما تيسر لهم من عربات الحمل والعجلات وغيرها من وسائل النقل . ورأوا أن عدم تنفيذ هذا الاجراء لابد أن يؤدى الى فشل جميع مجهودات الصليبيين وضياع كل ما بذلوه من مال ولا تعود ثمة جدوى لأى شىء ما .

وخرج الرهط الموكل اليهم تنفيذ هذه الخطة فيسَّر السيد طريقهم ، وكلأ محاولتهم برعايته ، اذ وجدوا السفن الراسية هناك من الحجم المتوسط فحصلوا عليها فى سهولة من الامبراطور ، وجروها على اليابسة الى البحر بعد أن شدوا كل ثلاث عربات أو أربع الى بعض حسب طول السفن التى يحتاجونها ، وأمكن بهذا النقل على مدى ليلة واحدة سحب هذه القوارب من البر الى

البحيره ، مسافة سبعة أميال أو نريد ، بعد أن شدوا الحبال الى أكتاف الرجال ورقاب الجياد ، وكان من بينها سفن كبيرة الحجم تسع الواحده منها ما بين خمسين ومائه مقاتل ٠

ولما تم سحب هذا الأسطول على اليابسه ، وفرغوا من انزاله الى البحيرة ، بلغت فرحة الجيش الصليبي غايتهـا ، وأسرع الى الشاطىء ، وجىء بالجدافين المهره والرجال المفتولى السواعد المشهود لهم بالمهارة فى هذا الفن ، وسرعان ما امتلأت قلوب الجميع بالثقـة فى استيلائهم على المدينة ٠

ولاحظ أهل البلد وجود عدد من السفن أكبر ممـا اعتادوا رؤيته ، فتملكتهم الدهشة ولم يدروا أهى بعض من الأسطول الذى جاء لمساعدتهم أم انها من سفن العدو ٠

ثم أدركوا بعد حين أنها لنا ، قد نقلها رجالنا من البحر بعد بذلهم مجهودات مضنية فى سحبها على اليابسة ، ثم أنزلوهـا الى البحيرة فتملكتهم من الدهشة أكبرها من بأس الصليبيين ومهارتهم اذ نجحوا فى تنفيذ عمل يعتبر من الميئوس منه وشبه مستحيل ٠

- ٨ -

أدى ادخال السفن الصليبية الى سد مخرج المدينه عن طريق البحيرة ، ومن ثم نادى المنادى أن تحمـل كل كتيبة سلاحهـا ، وتقف بقيادة قائدها فى المكان المخصص لها ، كمـا نودى بتشديد الضغط على أهل البلد ، وشن الهجوم العنيف على المدينة ، ومضى

كل قائد يشد من عزم رجاله ، ويخرج على رأسهم الى المعركه وهم فى أكمل سلاح ، فلما تم ذلك كله حرب معركه لم تكن فى الحسبان ، أبدع فيها رجالنا أيما ابداع فى استعمال الآلات ، ودللوا على شجاعتهم ، وبينما كان بعضهم منصرفا الى ملعمه الأسوار ، مضى غيرهم يقذفون الأحجار الضخمة على الحصون لتضعف صمودها .

أما القسم الجنوبى الذى عهد به الى كوند بولوز لتخذه مركزا لهجماته فكان به برج يبز كل برج سواه فى ارتفاعه الشاهق وبنائه المحكم ، وقيل ان زوجه قلج أرسلان كانت تقيم على مقربة منه .



وظل الكوند بضعة أيام يبذل كل جهده لهدم هذا البرج فما أفلح ، بل باءت مساعيه كلها بالفشل اذ على الرغم من موالاته رميه بالصخور التى كانت تنصب عليه من آلتين الا أن البناء الصلد أثبت أنه من المستحيل زحزحة حجر واحد منه ، فلم يثن ذلك الكوند عن مضاعفة الضغط عليه كما زاد من عدد الآلات التى أعدها لقصفه ، غير أن موالاة قذفه بكتل الصخر والأحجار الثقيلة أصابته بالشروخ فوهت مقاومته ، وانتهى الأمر أخيرا الى اضعافه ، فلما رأى العسكر هذا المنظر البهيج وثبوا فرحين وثبة قوية عبروا بها الخندق المملوء بالماء حتى حاذوا الأسوار فى محاولة منهم لتقويضه ، وكان كل منهم يشجع رفيقه على الهدم ، فان أعجزهم الهدم فلا أقل من فتح ثغرة فيه .



كان الأهالى يدركون أن الخطر يهددهم ان انهـــار البرج ، فانطلقوا يملؤون داخله بالأحجار والآسمنت حتى اذا زعزعت الآلات أسواره أو قوضتها حل الجديد محل القديم ، وأصبح عائقا فى طريق الذين يحاولون فتح الثغرة ٠

غير أن رجالنا نجحوا فى هذه الأثناء فى سبيت سمار مسين الى السور من هجمات العدو ، ثم قيض النجاح لهم أخيرا بعد أن بذلوا من الجهد غايته ، وبفضل عددهم الحربية ، وتمكنوا من فتح ثغرة كافيه لادخال رجلين في عبر مشقه كما أخذ الأهالى فى الوقت ذاته يزيدون من مقاومتهم العنيفة ضد عدوهم . وراحوا يقابلون الحيلة بالحيلة ، ويواجهون القوة بقوة مثلها ، وأظهروا روحا لا تقل عما عند الصليبين وحاربوا بكل ما يملكون ، وجاهدوا كأنهم رجـل واحد ، فرموا بالنشاب والمنجنيق وكل سلاح تيسر بين أيديهم تسنى لهم العثــور عليه ، وتكاتفوا فى رد العــدو وتفادى الأهوال المنصبة عليهم ٠

- ٩ -

كان من بين المدافعين عن الســور والقــائمين بصــد القوات المهاجمة رجل تميز من بين الرجال بضخامة جسمانه وشدة بطشه ، وكان نسيج وحده بما تنطوى عليه نفسه من كراهية لنا لم يحاول سترها ، وقد أذاق هــذا الرجل رجالنا كثيرا من العطب بما كان يرميهم به عن قوسه ، وقد غره ما كان يصادفه على الدوام من كبد لنا ، ولم يعف عن نيل رجالنا بفاحش القول يرميهم به ، فلم يطق جود فروى العظيم احتمال هذا العار ، فتنكب قوسا ضخما ، وتخير مكانا مناسبا ، وسدد رميته فى دقة ، فأصاب السهم ـ وقد انطلق ـ

أحشاء هذا الخاسر فجندله صريعا على الارض قد فارقه روحه فلقى الجزاء الحق الذى محا الاهانات الجمة التى كان يصبها على الصليبيين ، وكان رفاق هذا الزنيم قد نسجوا على منواله فوضعوا خطة محكمة كل الاحكام فى هذا الجزء من السور ، غير أن فزعهم من الدوق استبد بأكثرهم فقللوا من رميهم رجالنا بالسلاح ، وكفوا عن ملاحقتهم بالاهانات ، على أن رجالا غيرهم لم يعلموا بنبأ هذه النكبة فثابروا على نشاطهم فى الدفاع عن المدينة من أماكن أخرى على طول السور من أخذهم الحذر الشديد . ولم يكفوا عن اصابة رجالنا برميهم وهم على الأسوار والأبراج فيتركونهم ما بين جريح وقتيل ، ولم يكتفوا بأن يصبوا عليهم القار والزيت والدهن وغير ذلك من المواد التى تؤجج النار ضراما ، بل زادوا على ذلك بأن راحوا يرمون النار المشتعلة على الآلات فتلف أكثرها ، الا ما كان منها فى أماكن شددت عليها الحراسة الدقيقة .

★★★

أما رجالنا الذين كانوا فى الناحية الجنوبية فكانوا يشنون هجومهم العنيف على البرج ، واستمروا على ذلك الحال من النشاط حتى النهاية ، لكنهم لما رأوا أنهم كلما نقبوا جزءا من السور نهارا رممه العدو ليلا فانهم سرعان ما تراخوا فى جهودهم بعض الشىء ، حتى اذا أيقنوا فشلهم التام كادوا أن يقلعوا عما هم فيه ، لولا أن رجلا منهم شجاعا عالى المكانة — وهو فارس من جيش كونت نرمندى قام بمحاولة بارعة ، مؤملا من ورائها أن يقتفى الآخرون منواله ، فلبس درعه ، ووضع خوذته على رأسه ، وعبر الخندق مستهينا بكل خطر ، ودنا من السور متخذا من ترسه مجنا يقيه العطب ، هادفا من وراء ذلك أن يقوض البناء الحجرى الجديد الذى شيده الأهالى فى الليل ، وأن يعيد فتح الثغرة التى كانت موجودة فى اليوم

السابق ، فأصر أهل البلد أن يكون الهجوم الدى يشنوبه مس أعلى هجوما عنيفا ، فباءت محاولة [الفارس النورماندى] بالفشل اذا لم يجرؤ أحـد من الصليبيين على القدوم لنجدبه ، فىردى قتيلا فـد سحقته القذائف الحجرية الضخمه ، فهلك تحت السور على مشهد من رفاقه الذين وان كانوا راغبين أسد الرغبه فى انقاذه ، الا أنهم كانوا أعجز ما نكونون على مده بأى عون من جانبهم ، فجذب المارقون الجثة الهامدة بالخطاطيف الحديدية ، وقذفوا بها فيما وراء السور ، حيث ظلت موضع سخريتهم المفذعه ، ثم جردوه فى النهايه من درعه وسلبوه حوذته ، وألقوا به الى قوادنا فى الخارج ، فبكاه الناس وهم يثنـون عليه وعلى شجاعته ، ثم دفنـوه بما يليق به من الاحترام وسجوا جثمانه فى قبره ، ولم يشكوا أبدا فى أن منيته هذه كانت عظيمة فى عين الرب ، وأن روحه ـ وقد لقيت هذه الخاتمة النبيلة ـ سوف تكون مع أرواح الصفوة المختارين ، لأن الجميع ـ كما قيل اجمعوا على أن من يسقطون فى ساحة القتال سيوفى لهم ما وعدوا به من حياة أبدية مجيدة بين القديسين .

- ١٠ -

قام فى هذه الأثناء زعماء جيوشنا الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الرب بعقد مؤتمر على مألوف عادتهم بعد ان اتضح لهم عدم احراز أى تقدم فى مشروعهم ، بل تبينوا أن واقعهم جرى على العكس ممـا رتبوا ، وأدركوا أنهم أضاعوا جهودهم وبعثروا نشاطهم سدى ، ومن ثم راحوا يتشاورون فيما بينهم بروح ملؤها الجد فيما ينبغى عليهم عمله فى ظروفهم الراهنة هذه ، وبينما هم يقلبون الأمر على شتى

وجوهه بقلوب جازعة ، اذا برجل لمباردى يأتيهم ويبنئهم أنه لاحظ ألا جدوى من وراء حمع مشاريع مهندسيهم ، وان جهدهم داهب ادراج الرياح ، وذكر لهم ما هو عليه من مهاره فائقة فى هده الصنعة . وبين لهم أنهم لو وفروا له المواد اللازمه والمال الكافى لاتمام العمل بأخذونه مما عندهم فى حرابتهم العامه فانه بمشيئة الرب منحره فى ايام قلائل معدودات وأنه مدمر البرج . وفاتح فيه نفرة واسعه ، ان يشأ الجميع أن يقتحموه منهـا لم يعسر ذلك عليهم . وأكد لهم أنه منم دلك العمل دون أن يفقد رجلا واحدا ، فأمدوه بما يكفى نفقاته مما أخدوه من الأموال العامة هذا بالاضافه الى تخصيصهم مبلغا مناسبا مكافأة له على جهده ·

وجىء له بالمواد التى أرادها ، فعمل آله رائعه الصنع صممت على هيئة يستطيع من بداخلها ـ رغم مقاومة العدو ـ أن يعلقوها الى البرج من غير خطر يهددهم . فان دخلوها أحصنهم وتمكنوا من متابعه عملهم فى تقويض المبانى وهم آمنون ، لا خوف عليهم ·

وأنجز الرجل صنع هده الآلة كما أرادها ، فلما ضمت أجزاؤها بعضها الى بعض وتم تحصينها من كل النواحى حسبما أشـــار [صانعها اللومباردى] دخلها هو مع رهط من الرجال الشجعان ، وبدأوا عملهم فى تقويض المبانى وهم آمنون ، لا خوف عليهم · ثم دفع القوم الآلة بمن فى داخلها من الصناع ، حتى اجتازت الخندق ثم سنوها الى الأسوار فى براعة ومهارة فائقين ·

على أن الأهالى لم يفارقهم اندفاعهم الدى طبعوا عليه ، فراحوا يرمون الآلة من عل ، ويقذفونهم بالنيران المستعلة فما أجدتهم هذه القذائف ولا أضرت بالآلة ، ولا كان منها شر عليهـا لأن الانحدار الشديد لكل من السقف وجوانب الآلة حال بين هذه القذائف وبين

آن تسمقر حيث رميت . فسلم كل من كان فى الداخل من الرجال ، وسرعان ما أخذت ثقة الأعداء تتزعزع فى أساليبهم التقليدية ، وكان اعجابهم بعبقرية المخترع وقوة الآلة ، اعجابا بالغا لما اتضح من فشل كل حيله حيالها .

كان الذين بداخل هذا المخبأ آمنين تماما من مكائد العدو ، ومن ثم ظلوا يتابعون عملهم فى تقويض البرج وفى نقب السور بكل ما أوتوا من قوة ، ولم يكد الصدع يلم بحجر الأساس فيخلعه حتى وضعوا مكانه العروق والأعمدة الخشبية خوفا من أن ينهار ما فوق السور على الآلة فيسحقها سحقا اذا ما نزع الأساس اذ لا تعود الآلة قادرة على تحمل كتلة ضخمة كهذه الكتلة ان هى انهارت عليها .

ولما اتضح أن البرج قد نقب بما يكفى لسقوطه ، اشعلوا النيران فى الدعائم التى يقوم عليها الحائط الآيل للسقوط . وجىء أيضا بمواد ملتهبة تعمل على بقاء النار مشتعلة على الدوام ، واذ ذاك ترك العمال الآلة وغادروها مسرعين الى رفاقهم ، حتى اذا انتصف الليل أو كاد أتت النار على الأعمدة الخشبية فصيرتها هشيما ، وانهار البرج وصحب انهياره دوى كأنه الرعد ، أثار فى الناس جميعا — حتى من كانوا على مسافة قاصية — فزعا وخفت له قلوبهم ، ونبه صوت انهياره الجند فهبوا الى أسلحتهم مجمعين العزم على اقتحام المدينة عنوة .

- ١١ -

طلت زوجة قلج أرسلان — حتى هذه اللحظة — صابرة صبرا شديدا على تحمل أهوال الحصار ، أما الآن وقد بلغ الفزع منها غايته بسبب انهيار البرج فقد أمرت — كعادة النساء — باعداد السفن

وصحبت جواريها وكل أهل بيتها ، وانسلت سرا من المدينة عازمة على التماس مكان يكون أكثر أمنا وسلامة ، لكن الصليبيين كانوا قد أقاموا حراسا فى القوارب الراسية بالبحيرة لمنع المحصورين من الدخول أو الخروج ، وإذ كان هؤلاء الحراس رجالا عملاء قد أعدوا لكل شىء عدته ، ويقظين أشد اليقظة فى مراقبة أية حركة فقد تكشف لهم أمر هذه السيدة وهى على وشك الهروب . فأمسكوها ومعها ولداها الصغيران وساروا بهم الى القادة الذين أمروا بوضعها وولديها تحت الحراسة الكثيفة .

★★★

أما الأهالى فقد مسهم الفزع الشديد بسبب الثغرة التى تمكن عدوهم من فتحها ، وبسبب القبض على سيدة لها هذه الخطورة ، وتملكهم اليأس القاتل من قدرتهم ، فأرسلوا فى لحظتهم وفادة الى الزعماء يلتمسون منهم منحهم هدنة لترتيب خطة الاستسلام .

ولما كان تاتيكيوس الذى تكلمت عنه من قبل رجلا شديد المكر كبير الدهاء ، فقد أدرك أن الأهالى لابد أن يتخلوا عن دفاعهم عن المدينة . ومن ثم دعا كبار رجال المدينة الى لقاء معه نصحهم فيه أن يستسلموا للامبراطور اجلالا له ، كما أشار الى ان جيش الحجاج الواقف الآن قبالة المدينة مشغول هذه اللحظة بانجاز أمور أخرى ، وذكر لهم أن هؤلاء الرجال الذين كان اشتراكهم فى الحصار عن طريق الصدفة البحتة قد بعدوا تماما عن خططهم الرئيسية ، كما أكد لهم أن الامبراطور سوف يقف على الدوام الى جانبهم (وليس الى جانب الصليبيين) ، وأن فى قدرتهم الاعتماد التام على رحمته الجديرة بشكرهم ، وحينذاك يحق لهم أن يأملوا أن تكون الأمور أكثر يسرا عليهم وألقى اليهم أن الخير لهم أن يستسلموا – اذا

استسلموا ـ الى الامبراطور وأن يؤثروه على قوم مجهولين ، وأفهمهم ان الاستسلام الذى لا مفر منه يجب أن يكون للامبراطور الذى سوف يمكن اذ ذاك ـ بمعونتهم من استرداد المدينة التى انتزعت منه ظلما منذ قريب بسبب بطش الأتراك .

آتت هذه الحجج القوية وأمثالها اكلها فى حمل الأهالى المجتمعين على موافقة [تاتيكيوس على ما طلبه] مشترطين عليه ضمان سلامتهم ، فلما استجاب الى ما طلبوه منه وما اشترطوه عليه فقد آثروا أن يسلموا المدينة وأنفسهم وكل ما ملكت أيديهم الى الامبراطور .

***

لم يكن هذا العرض مرفوضا أيضا من جانب القادة الصليبيين نظرا لأنهم كانوا فى الواقع يتطلعون الى خاتمة تختلف كل الاختلاف عن هذه الخاتمة ، ولم يكن من غرضهم أن يقيموا فى نيقية أطول مما أقاموا ، ومع ذلك فقد طمعوا أن يطبق الاتفاق [المبرم بينهم وبين ألكسيوس] فتندفع غنائم المدينة وأسلابها الى الجيش تعويضا له عن المشاق التى كابدها والخسائر التى منى بها وتحملها .

على أن [القادة اللاتين] اشترطوا ـ قبل أن يبحثوا كل ما يتعلق بالاستسلام . وقبل أن يوافقوا على ما فيه تحقيق رغبات الأهالى فى هذا الصدد ـ أقول انهم اشترطوا ان يعود الى الجيش جميع اخوانهم من عسكر بطرس الناسك ، الذين أسرهم قلج أرسلان فى قلعة سيفتوت وكذلك من أسرهم الأهالى أثناء الحصار .

لذلك تمت موافقة القادة وأهل المعسكر على انفاذ رسل من قبلهم الى الامبراطور ، يحملون اليه الرسالة التالية يقولون له فيها :

« لقد أخلص الجيش الصليبي وقواده النبيلة في حصار نيقية محبة منهم في المسيح ، واستطاعوا بجهودهم الصادقة الدؤوبة ، وبعون الرب أن يرغموا تلك المدينة على الخضوع ، واننا لنلتمس من كريم جلالتكم أن لا تتأخروا عن ارسال بعض وجوه رجالكم الى تلك الناحية ، على رأس قوة كافية لتسلم هذه المدينة التى استسلمت تقديرا منها لاسمكم .

« وعلى الاهالى ان يلتزموا هم أيضا بارجاع من فى أيديهم من الأسرى وهم كثيرون ، ذلك لأننا راغبون فى الرحيل فى أعقاب تسلم جلالتكم المدينة ، ومعتزمون متابعة السير فى طريق الحج الذى اعتزمناه بفضل الله » .

- ١٢ -

ملأت هذه الرسالة قلب الامبراطور غبطة ، فأبعد فى ساعته الى نيقية رهطا اختارهم من حاشيته وثقاته وأهل الخبرة ممن يستطيع الاعتماد عليهم فى تسلم المدينة والقيام بتحصينها ، وكلفهم بأن يحملوا اليه — كملك خاص له دون سواه — كل ما غنم من الأسرى من ذهب وفضة وشتى أنواع المتاع . كما أرسل الى القادة هدايا ضخمة طمعا منه فى كسب ودهم ، وزاد فأزجى اليهم شكره الخاص — كتابة وقولا — على خدماتهم الجليلة والعطاء العظيم الذى حصلت عليه الامبراطورية بفضل جهودهم .



على أن الحنق بلغ غايته مداه بعامة الجند ومن دونهم ، لما بذلوه هم أيضا من أقصى الجهد فى حصار المدينة : الأمر الذى كانوا

يتوقعون معه أن تكون لهم وحدهم ودون سواهم هذه الغنائم التى استولوا عليها من الأسرى ، وما عثروا عليه من البضائع ، وما زخرت به المخازن الموجودة فى المدينة ذاتها ، فيعوضهم ذلك كله عن خسارتهم لأملاكهم ، لكن تبين لهم الآن أنهم لم يجزوا الجزاء الأوفى على ما تكبدوه من المشاق فقد اتضح لهم ما عزم عليه الامبراطور من احتجاز كل شىء لنفسه ولخزانته الخاصة ، أعنى الغنائم التى نص الاتفاق المبرم بينهم وبين الامبراطور على أن تكون غنيمة مشاعة . فندموا على ما بذلوا من جهد ، وتجلى لهم الآن أن كل المال الذى أنفقوه قد ضاع بددا .

كذلك دأب العادة على اتهام الامبراطور [ألكسيوس كومنين] بأنه نكث عهده ، وخالف نصوص الاتفاقية التى نصت شروطها المبرمة بينهم وبينه على أنهم اذا استولوا أثناء زحفهم كلهم معا على بلاد الشام بإرشاد الرب على أى مدينة من المدن التى كانت تابعة لامبراطوريته وجب عليهم ردها اليه هى وما يلحقها من النواحى ، أما الغنائم والأسلاب وما شاكلها فتؤول من غير جدال الى العسكر مكافأة لهم على جهودهم ، وتعويضا عن النفقات التى تكبدوها .

★★★

بادر الصليبيون الى اخراج مرتزقة الامبراطور من المدينة وردوهم الى مولاهم صفر الأيدى ، وما كان لأحد أن يلومهم على هذا العمل الذى قاموا به ، بل اللوم يكون فى التزامهم الوفاء بالعهد مع رجل نقض عهده معهم ، غير أنه لما كان الخوف من الرب يملأ جوانحهم ، ولما كانت الرغبة فى الاسراع بانجاز عمل أجل خطرا من هذا وأبلغ أهمية يملأ نفوسهم ، ولما كان اتمام حجهم هو مقصودهم فقد كتموا مشاعرهم الحقيقية فى صدورهم حفاظا منهم على الصالح العام .

ثم حاولوا بكلماتهم الرقيقه تهدئة مشاعر العامة الدين كان سخطهم شديدا على هذه المعاملة التى عاملهم بها الامبراطور ٠

★★★

ولما دخل المدينه الرسل الاعريق الدين أوفدهم الامبراطور لاستلامها وأخدوا سلاح أهلها وسلموا البلد منهم مضوا الى المعسكر ووقفوا أمام القاده باعتبارهم – أى الرسل – مسئولين عن حياه الأهالى وسلامتهم مصرحين بأن الأهالى هم الدين أعادوا المدينة الى الامبراطور ، وانهم استأمنوه على أنفسهم ، وأسلموه رقابهم ٠

بعد ان استسلمت مدينه نيقيه على هده الصورة ، أقيمت فيها قوه كافيـة لحمايتها ، وسيرت بعدئذ امرأة قلج أرسلان وولداها ، وطائفة كبيره من الأسرى الى القسطنطينية ، فلم يكتف الامبراطور بمعاملتهم بالرحمة ، بل زاد فبالغ فى الاحسان اليهم واكرامهم اذ لم تكد تنقضى أيام قلائل على ذلك الأمر . حتى رد عليهم حريتهم التى كانوا يتمتعون بها من قبل ، ويقال ان الدافع له على ذلك هو ما كان يراوده من الأمل فى اكتساب موده الترك ، وما كان يطمع فيه من تحويلهم ضدنا من غير جهد يبذل ، وما كان يقدره من أن قواتنـا لو حاصرت أى مدينـة أخرى فلن يخامر أهل تلك المدينة خوف منه ، أن هم استسلموا له على هذه الصورة التى استسلمت له بها مدينة نيقية ٠

وكان الاستيلاء على مدينة نيقية فى العشرين من يونيو من مولد السيد ٠

- ١٣ -

لم يكد الحصار يرفع عن نيقية حتى أصدر القادة أمرهم بمتابعة السير ، فرتب العسكر متاعهم ، وخرجت كتائبهم يوم التاسع والعشرين من يونيو ، في وحدة متماسكة ، وظلوا سائرين لمدة يومين ، فلما كانت الليلة الثانية اتفقوا على النزول عند جسر معين لوفرة الماء عنده ، فأقاموا هناك ، حتى اذا أهلت طلائع الفجر الوليد وان كان الظلام لا يزال يمد رواقه على الكون تأهبوا للرحيل مرة أخرى فعبروا الجسر . وهنا حدث اما صدفة أو باتفاق من القادة — أن مضى كل منهم بكتيبته مفارقا غيره ، واذا ببوهيموند كونت نورماندى، وستيفن كونت بلوا ، وتانكريد وهيج كونت سنت بول ييممون وجوههم ناحية المسار ، وساروا ذلك اليوم وحدهم ليس معهم غيرهم ، حتى انتهى بهم السير الى واد يسمى «بجورجون» فعسكروا به حوالى الساعة التاسعة ، ونزلوا عند ضفاف نبع جار ، كثير الكلأ ، وافر المرعى ، وأقاموا الحرس حول العسكر ، ونعموا بليلة هادئة رغم انشغال بالهم .

★★★

أما القادة الآخرون فقد اتجهوا يمينا ضاربين معسكرهم — بعد مسيرة يوم — في ناحية لا يكاد يفصلهم فيها عن غيرهم سوى ميلين ، وقد توفر لهم هنا أيضا المرعى الطيب والماء الغزير .

في هذه الأثناء كان قلج أرسلان — وقد أهمه الخطب الذى نزل به — دائم التفكير فيما دهمه على أيدى الصليبيين من ضياع تلك المدينة الرائعة من قبضته ، وما كان من فقده لزوجته والصبيين ، فاشتعلت نيران الثأر في قلبه وأجمع العزم — ان أمكن — على نصب كمين لعدوه ، حينذاك حشد عددا كبيرا من العسكر ، منعقبا بهم

الجيش الذى انعطف الى اليسار بنفس خطاه ، وكانت عيونه تأتيه على الدوام بأخبار حركات العسكر الذى يسبقه ويتلهف لاغتنام الفرصة الملائمة لمناعسهم ، وسرعان ما أعلمه كشافه بانقسام الجيش شطرين ، وأن أقربهما اليه أضعفهما وأقلهما عددا ، فأدرك فى الحال أن الفرصة التى ينشدها منذ وقت طويل قد واتته فنزل من الجبل بجيشه الذى لا يحصيه العد ·

★★★

وما كاد الضياء يسرع فى تبديد غبش الظلام الكثيف حتى تبين للمراقبين ذلك لأن الجيش الصليبى كان قد وضع رجالا يرصدون من بعد مكائد العدو ، ويعطون الاشاره فى الوقت المناسب ، فأعطوها ، فدقت الطبول فى الحال محذره من اقترابه ، فهب العسكر جميعهم الى سلاحهم وقد نبههم دق الطبول ونداء المنادين ، وأسرجوا خيولهم واستعدوا للالتحام فيما وراء من النواحى ، وكان ذلك فى الصباح الباكر من أول يوليو ، واصطفت الصفوف للقتال ، سواء منهم أمراء المئين أو أمراء الخمسين ، وتقدم كل واحد منهم على رأس جماعته ، أما الزعماء فكانت أماكنهم فى أجنحة المشاة ·

ولما كانوا يريدون أن يكون تقدم القوات للقتال من غير عائق يعوقها ، فقد أنزلوا فى غابات البوص المتكاثف القريبة منهم جميع العجزة والمسنين من الرجال والنساء ، والآلاف المؤلفة ممن لا جدوى ترنجى منهم فى المعركة وجعلوا معهم كل متاعهم ، وكان هذا المكان الذى اختاروه ، والذى تحميه العربات الخفيفه وغيرها من مراكب النقل ملاذا أمينا ، وبعثوا بالرسل الى كتائب الجيش الأخرى التى دفعها الطيش للانفصال عنهم حاملين اليهم نبأ ما هم فيه من حرج وضيق ويحثونهم على المجيء اليهم على جناح السرعة لنجدتهم ·

ومن ثم تمت احاده تنظيم كل شيء في معسكر بوهيموند وفق ما تقضي به أصول الحرب . ولما قاربت الساعة الثانية نهارا ظهر قلج أرسلان ، يقود جماعة لا يحصيها العد من الترك . فاستولت الدهشة على جيشنا ، اذ لم نر في هذا الحشد الكثيف الذي قيل انه جاوز مائتي الف مقاتل سوى الخياله . على حين كانت قواتنا ـ كما قيل ـ تتألف من خليط من الفرسان والمشاة .

- ١٤ -

حين أخذ جيش الترك في الاقتراب تعالت في المعسكر ضجه هائله لم يعد أحد يدرك معها أو يستبين منها كلمة مما يقال ، فلم يكن نسمع الا صلصلة السلاح ، وصهيل الخيل ، وقرع الطبول ونفخ الأبواق ، وهتافات العسكر الحماسيه التى تعالت حتى خيل انها تبلغ عنان السماء . مما أوقع الفزع فى قلوب من لم يألفوا شهود مثل هذا الموقف .

وأخذت صفوف الترك ترمي بنفسها على قواتنا ، ممطرة اياها بوابل هتان من السهام ، كأنها المطر الهتان فسدت الأفق ، حتى انه ما من أحد من المحاربين الصليبيين الا وقد أصابه جرح لتوالى السهام بعضها فى اثر بعض ، وكانت كل رمية أكثف من سابقتها ، فان فات سهم واحدا أصابه التالى بجرح واذ كان هذا الأسلوب من القتال غريبا على رجالنا وليس مألوفا عندهم ، فقد صعبت عليهم مواجهته ، وأخذت خيولهم تتهاوى تحتهم وأمام أعينهم ، وهم عاجزون عن نجدتها اذ كانوا هم أنفسهم مرمى ضربات تأتيهم من حيث لا يحتسبون ، ومن نواح سدت عليهم فيها مسالك الفرار ، ومع ذلك فقد استمروا يقاتلون خصومهم بالسيوف والحراب ، ويجاهدونهم دفعا الى الوراء ، حتى اذا عجز الترك عن الصمود بسبب

شده الغاره عليهم ، فنحوا صفوفهم عمدا لتجنب الالتحام ، فجازت الحيلة على الصليبيين اذ لم يجدوا واحدا يتصدى لهم ، ورجعوا الى مواقعهم فى الخلف دون احراز النجاح ، وحينذاك عاد الترك ثانيه فضموا صفوفهم ، وكروا على رجالنا صابين عليهم سيلا جارفا من السهام والنشاب ، حتى قل أن استطاع صليبى واحد فى هذه اللحظه النجاه من غير جراح خطيره نافذة . وقد قاوموا ما وسعهم المقاومة ، يحميهم ما عليهم من الدروع والزرديات والخود ، ولكن تساقطت الجياد على الأرض ، ووقع من لا سلاح معه واختلط الحابل بالنابل ·

ولقد سقط فى هذه المعركه قرابه ألفين من وجـوه الفرسان والمشاه على السواء ، كان من بينهم « ولبم » ابن المركيز الطيب وأخو تانكرد ، وكان شابا يبسر يومه بما سيكون عليه فى غده ، ذلك أنه بينما كان مستبسلا فى الدفاع عن جماعته ، اذا بسهم غرب أصابه فصرعه ·

كذلك لقى روبرت أوف باريس نهايته بنفس الطريقة ، وكان محاربا بارعا مشهودا له بالكفاءه ·

بل ان تانكرد ذاته ــ الذى لم يكن يكترث بالحياه ولا يعبأ بمكانته السامية ــ كاد أن يكون هو نفسه من الهالكين ، وكان الموت منه قاب قوسين أو أدنى ، اذ طوح بنفسه فى معمعان القتال ، صابا على العدو أهوال الدمار ، ولكنه نجا بفضل ما بذله بوهموند من جهد فانتزعه من براثن الموت رغم أنفه · واستمرت كفه العدو تزداد رجحانا ، على حين شالت كفة الصليبيين وأخذت شوكتهم فى الضعف ، واذ ذاك شرع الترك فى مهاجمتنا بالسيوف ، وتضييق الخناق علينا ، وهم أقرب ما يكونون الينا ، حتى لم تعد أية جدوى

نرتجى من الفسى المدلاه من نجادها ، فاصطرب الصفوف ، وارىد المحاربون الى حسب نوجد أمعتهم وأحمالهم فى الغـابات الكثيفه المتشابكه ، وراحوا يتزاحمون حول العربات ، أملا فى أن يجدوا شيئا من الحمايه ٠

- ١٥ -

فى هده الانباء التى كان حشد الايمان فيها يحارب تحت عدء الظروف ، والتى أخذت فيها قوة بوهيموند فى الضعف والتلاشى ، خف لنجدتهم رهط من اخوانهم الأساوس العظـام ، تطالع فيهم دوق جودفروى ، وكونت ريموند ، وهيج العظيم ، وبلدوين أسماس أخا الدوق وسواهم من القادة الذين أخلصوا النيه لله وكانوا قد خلفوا وراءهم فى المعسكر من لا ظهر عندهم يركبونه ، وتركوهم مع شتى أنواع الأمتعة ، أما هم فقد هبوا نجدة على رأس أربعين ألف مقاتل من الفرسان ومعهم أحسن السلاح ، فبث قدومهم الحماسة الشديدة فى رجال بوهيموند الذين كانوا على وشك التسلم ، فلما عاودهم بأسهم ، عادوا الى ساحة المعركة أشوق ما يكونون لأخـذ الثأر ، الثأر ، انتقاما لما نزل بهم من المصائب ومسح عار هزيمتهم السابقه ، وكروا على العدو كرة ضاربة ، وأجادوا الضرب بسيوفهم بأيد لا يعرف الكلل اليها طريقه وما لبثوا قليلا الا وقد هزموا الأعداء الذين لم يعودوا قادرين على الصمود ، والذين كانوا يخافونهم أشد الخوف ، ويحسبونهم أشد منهم بأسا ٠

★★★

وقد راح أسقف بوى ــ مع رهط من مساعديه فى نفس أسقفيته ــ يقوى عزائم الناس ويعظهم ويشــجع القادة ألا يتراخوا فى قتالهم

أخذا بدم من هلك من اخوانهم ، مؤكدا لهم أن النصر لابد مسعفهم من السماء ، ودعاهم الا يمكنوا خصوم الله وأعداء اسم المسيح من التباهى بأنهم أهلكوا المؤمنين . وظل رجال الرب يحثون الناس على القتال بهذه الكلمات وأمثالها من عبارات التشجيع ، وبثوا فيهم الشجاعة .

ومن ثم شن الصليبيون فى همة لم نعهد فيهم من قبل ، هجوما عنيفا سلوا فيه سيوفهم على الأعداء ، مفرقين صفوفهم حتى حملوهم على الفرار ، وأعملوا فيهم مذبحة شرسة ، كما راحوا يتعقبون الفارين فى اصرار وعزم مسافة ثلاثة أو أربعة أميال الى ما وراء معسكرهم الذى كان يقوم فى واد شديد الخصوبة ، وكان القتل فيهم قطيعا .

وهكذا تبدد الترك أمام عدوهم متكبدين خسائر فادحة فى الأرواح . ثم عاد الصليبيون الى معسكر خصومهم فجاءوا منه ببعض من قومهم [اللاتين] ممن كان العدو قد أسرهم ، وعثروا فى هذا المعسكر على كميات كبيرة من الذهب والفضة ، كما استولوا على كثير من الحمير وبغال الحمل وقوافل الجمال (وهى دواب لم يتيسر لقومنا رؤيتها من قبل) كما استولوا على بعض الخيل ووجدوا فيما وجدوا شتى أنواع الخيم والفساطيط المختلفة الألوان ، فأخذوا هذه المغانم الغالية كلها وقفلوا راجعين بها الى معسكرهم ترفرف عليهم رايات النصر ومحملين بأغلى الأسلاب ، وسائقين أمامهم الدواب والعبيد .

ويقال ان العدو فقد فى هذا اليوم ما يقرب من ثلاثة آلاف رجل من رجاله الأقوياء البارزين من أصحاب المكانة الرفيعة فى قومهم ، كما سقط فى تلك المعركة أربعة آلاف من عامتنا ، ومن الطبقات الدنيا من الرجال والنساء على السواء .

ويقول أهل السن ـ اعتمادا منهم على ما تعيه ذاكرتهم ـ أنه لم يهلك من وجوه قومنا سوى اثنين فقط ، ولقد جرت الموقعة يوم أول يوليو ، وكان الحظ فيها بين صعود وهبوط كما أنها جرت بين قوات لا يكافىء أحد الجانبين فيها الآخر في العدد ولا في العدد ، واستمرت من الساعة الثالثة حتى الثامنة من ذلك اليوم وقيل ان عدد الفرسان وحدهم الذين أحصوا في جيش قلج أرسلان كان يربو على مائة ألف وخمسين ألفا ، أما فرسان الصليبين الذين شاركوا في هذه المعركة فقد قاربوا الخمسين ألفا •

ولما فرغ الجيش من هذا النصر المشيب الذي هيأته له العناية الالهية انضم رجاله بعضهم الى بعض مرة ثانية ، وأتيحت لهم فترة راحة قصيرة صرفوها في مداواة جرحاهم ، وأقاموا ثلاثة أيام سويا وسط المراعي الخضراء مستجمين معنين بجيادهم ، وزاد في رفاهيتهم جميعا ما خلفه العدو وراءه رغم ارادته من مئونة وأحمال ضخمة من المأكولات الكثيرة •

★★★

وظهر قوادنا العظام ظهورا بينا في هذه الأزمة الخطيرة ، كما واتت الفرصة من هم دونهم لكسب المجد المؤثل ، لاسيما بلدوين بورج وتوماس لافير ، ورينو دي بوفيه ، وجالو دي شومونت ، وجاستون دي بيرن وجيرارد دي شريزي •

وتقرر منذ هذا اليوم بالاجماع أن تنضم الكتائب بعضها الى جانب البعض وتتوحد ، وأن تسير مترافقة كالجسد الواحد حتى يتقاسموا جميع اقبال الحظ اذ يقبل ، وادباره اذ يدبر •

أمام المحاربين مستحمين في هذه الناحيه ثلاثه أيام كما فدا وكانوا هم وحمادهم أحوج ما يكونون لهده الراحة ، ثم لما ناداهم النفير استعدوا مرة أخرى لمتابعه رحلة حجهم التى بدأوها ، وكان طريقهم الذى سلكوه بمر عبر كل بلاد بسينبا الى بسسديا ، وقد دفعهم رغبتهم فى اختصار زحفهم الى النزول عن عبر قصد فى اقليم جاف ، يكاد يكون بأكمله حلوا من الماء ، ولما صاروا فريسه للخطرين الجسيمين : الظمأ وسدة قيظ يوليو كما هى العادة ، فقد أخذ أعداد كبيرة منهم فى الهرب ، وتقول الروايات أنه هلك يوم ذاك أكثر من خمسمائة من الحنسين من شدة العطش والحر ، وتمضى الروايه فتقول ان الحوامل من النساء طرحن ما فى بطونهن من شدة الظمأ والحر المهلك ، وكان ذلك حدثا لم يسجل التاريخ له مثلا ٠

أما النساء اللاتى كن يعانين غصص الكرب الشديد ، فقد حلمن أطفالهن فى المعسكر ، منهم الأحياء ومنهم الموتى ، وفيهم من يعانون سكرات الموت ، ودفعت الرحمة الانسانية غيرهن الى احتضان أطفالهن فى صدورهن ، غير آبهات أن يراهن الرجال وهن ينطلقن فى الطرقات شبه عاريات ، لا يشغل بالهن شيء سوى خطر الموت المفزع ، غير حافلات بأنوثتهن ٠

★★★

ولم يجد الرجال فتيلا قوتهم الجثمانية الهائلة ، فأعمى عليهم من وطأة الحر ، ومما بذلوه من جهد ، فراحوا يلهثون بأفواه مفتوحة، وأنوف تتلهف على نسمة ريح ، ويسعون لالتماس الرطوبة ، عساها تخفف بعض ما هم فيه من ظمأ ، لكنهم لم يجدوا شيئا مما ينشدونه٠

لم تقتصر مكابدة هذه الأهوال على الآدميين وحدهم ، بل تعدتهم أيضا الى دوابهم التى تحمل متاعهم فقضتهم كل بهيمة ذات ظلف كانت تستجيب لكل ما تؤمر به ، أما الطيـــور الصغيرة والصقور المحلقة فى الســماء فقد لفظت أنفاسها . كما أن البزاة التى كان النبلاء يستمتعون بها أثناء خروجهم للصيد والقنص فقد ماتت هى الأخرى فى أيدى أصحابها ، على الرغم من الرعاية القصـوى التى يحيطونها بها .

وأما الكلاب ذات حاسة الشم النافذة والمدربة على الصيد ، والحيوانات الأليفة فقد هجـرت أصحابها الذين تبعتهم ، وراحت تتساقط على طول الطريق وهى تلهث من الظمأ ، وكان أشد الأشياء ايلاما للسادة وأوجعها لنفوسهم ، هى أن جيادهم الصافنات ــ وهى رفيقتهم فى حروبهم وكان عليها كل اعتمادهم فى طلبهم الســلامة لأنفسهم والتى حققت الفخـر لنفسها بقوائمها الوثابة وأسـنانها الشرافة ــ تموت هى الأخرى نافقة كما نفقت دواب الحمل العادية تحت وطأة الحرارة والظمأ .

وأخيرا تفضل رب كل الرحمة ورب السلوى، فأنقذ هؤلاء الحجاج المعذبين الظماء اذ قادهم الى نهر كانوا أحوج ما يكونون اليه وقد طال بحثهم عنه ، فتدافعوا الى مائه فى لهفة مجنونة ، وراح كل منهم يزاحم الآخر فى الوصول اليه . لكنهم بعثورهم على هذا الماء الذى طال شوقهم اليه سقطوا فى خطر أكبر مما هم فيه ، حيث أقبلوا يعبون منه عبا ، ولا يستطيعون مسك أنفسهم عن الشرب ، فكان ذلك خطأ منهم فى هذه الحال ، اذ كانت كثرة الماء تحمل لهم الهلاك، الذى كانوا قد نجوا منه من قبل ، ولم يقف الأمر عند هلاك الآدميين بل نفق كثير من دوابهم بنفس الأسلوب .

ثم شاءت عناية الرب أخيرا أن تنقذهم من هذه الأخطار فجاءوا

الى ناحية شديدة الخصب والنماء قرب أنطاكيه الصغرى ، عاصمه بسيديا ، وكانت من أجمل النواحي لما فيها من الغنوات والمراعى ، فضربوا مخيمانهم في حقولها الخضراء ٠

- ١٧ -

وحدث لأول مرة في هذا الموضع أن عمد بعض الزعماء الى الانفصال بقواتهم عن الجيش الرئيسى ، وكان أول من فعل ذلك منهم بلدوين أخو الدوق ، وانضم اليه بطرس كونت ستنناى وأخوه رينارد كونت تول ، وبلدوين دى بورج ، وجلبرت دى مونت كلير ، واستصحبوا معهم سبعمائة فارس وجماعة من الجند المشاه ٠

أما ثانى القادة الذين انفصلوا عن الجيش فكان تانكريد وفى صحبته ريتشارد من برنسباتس ، وروبرت أوف اترى على رأس قوة كبيرة قوامها خمسمائه فارس وبعض الجند المشاه ٠

كان يحرك هؤلاء الفرسان جميعا غرض واحد لا يختلفون فيه ، ألا وهو استطلاع الطرق واستكشاف الاقليم المجاور ، والبحث عما يجدونه ، وكان عليهم بعد ذلك أن يبعثوا الى الزعماء الذين أرسلوهم جميعا بتقارير عن كل ما حدث بالنسبة للزمان والمكان ، وأن الجيش يمكنه متابعة الزحف في سلام وطمأنينة ، وكانوا في بداية مغادرتهم المعسكر ملازمين للطريق الرئيسى فمروا ببعض المدن المجاورة ومنها قونية وهرقلة ، ثم عرجوا بعدئذ يمينا ، وأخذوا يحثون الخطى ناحية الساحل ٠

في هذه الأثناء اسهوى الدوق والقاده الآحرين ممن ظلوا في المعسكر حسن منظر النواحي المحيطة بهم وبهاؤها ، وجذب انتباههم قرب المكان من الغابات ، فانطلقوا الى واحدة منها في طلب الصيد وذلك لانهم أحسوا وهم في غمرة انشغالهم بالعمل المضني بحاجتهم الى الترويح عن أنفسهم بعض الشيء ، وودوا لو خلوا وراءهم ــ ولو لفترة قصيره ــ ما يشغل بالهم من أمور كانت تقلقهم على الدوام ، فلما دخلوا الغابة استلفت انتباههم كثير من مباهجها ، فتفرقت بهم المسالك ، ولاقوا مخاطر جمة .

فأما الدوق الذي خرج للغابة التماسا للرياضة وللهو ، فقد واجه على غير انتظار دبا بشع المنظر يتأهب ليعض على رجل من الفقراء الحجاج يعمل حطابا قاصدا افتراسه ، وعبثا كانت مجاهدة الرجل في العثور على ملجأ يهرب اليه فرارا من الدب . فلم يسعه الا الصراخ بصوت عال يسأل المعونة في محنته الخطيرة التي هو فيها ، وشاء القدر أن يظهر في هذه اللحظة الدوق الذي أشفق على رفيقه المنكوب ، فاندفع لنجدته ، فما كاد الدب يرى الدوق الذي كان موشكا أن يرفع سيفه لضربه حتى انصرف عن فريسته الأولى وألقى بنفسه على الخصم الشجاع ، مكشرا عن أنيابه ، ومسددا نحوه مخالبه ، فأصاب حصانه بجرح خطير وجد الدوق نفسه ازاءه مضطرا للنزول عن ظهره ، مصلتا سيفه لمهاجمة الوحش الذي زمجر زمجرة ترتعد لها الفرائص ، وأقبل على الدوق فاغرا فاه ، مكشرا عن أنيابه . غير مكترث بسيف الدوق ، بل هم بالامساك بصاحبه الذي رد هجمته بحسامه محاولا جهده أن يطعنه طعنة نجلاء ترديه ، فتحاشى الحيوان السلاح ، وطوق الدوق بذراعيه وطرحه أرضا ، فلم يعد الدوق يملك دفاعا عن نفسه اذ علاه الوحش ، وأصبح من اليسير عليه أن يمزقه اربا بمخالبه وأسنانه ، ولكن المحارب الباسل استل حسامه ، واذ كان شديد البأس فقد احتضن الدب المهاجم

بيسراه ، بينما أعمدت نماه سيفه حتى مقصبه فى جسده وصرعه ، وهكذا كسب الدوق الجولة بالدم وان حرح منها نجرح خطر فى ساقه ارتمى منه على الأرض وقد وهى بدنه وسرى الضعف فى كيانه اذ انساب من دمه ما لم يعد معه قادرا على النهوض ٠

وتعالى صراخ الرجـــل العقعر الذى قدرت له النجاة بفضـــل مساعده الدوق له ، فنبه صياحه العسكر لما جرى ، فانطلقوا كلهم صوب الناحية التى كان البطل الشجاع ـ حامى الجيوش ـ مسجى فيها ، وقد أثخنته جراحه فوضعوه على محفة ، وحمله القادة الآخرون الى المعسكر وسط بكاء الجميع ، واستدعوا له المطببين الذين بذلوا المحاولات السابقة لانقاذه ، ووصفوا له من الأدوية المناسبة ما جعل الأمل يداعب النفوس فى أن يسترد عافيته ٠

- ١٨ -

حدث فى هذا الوقت بالذات أن اعترى المرض الشديد رينوبد كوبت بولور ، ذلك المبجل الذائع الصيت ، وحمل هو الآخر فى محفة وقد أنهكتـــه علته وأثقله مرضه ، حتى انهم لما وضعوه على الأرض فى انتظار موته كانت أنفاسه شبه مقطوعة ، فقام ولم أسقف أورانج الطاهر السلوك بأداء كل الشـــعائر التى تؤدى للمؤمنين ، مثلما يفعل ازاء رجل قد انتهى ولفظ أنفاسه ٠

واذا رأى العسكر أنهم قد حرموا ـ أو كادوا أن يحرمـوا ـ من توجيهات هذين الرجلين العظيمين فقد ران عليهم من اليـــأس

ما كاد ان يصرفهم عن متابعة رحلة الحج الذى كانوا قد قطعوا العهد على أنفسهم للقيام به . واستحرطوا جميعا فى البكاء لانشغال بالهم بحالة قائديهما ، وقام كل الحجاج أثناء بأديهم الشعائر الدينية برفع أكف الضراعة للرب عساه يرد على هذين الزعيمين عافيتهما ، فأصغى اليهم الرب الرحيم واستجاب لتوسلاتهم ودعائهم ، ورد على الرجلين صحتهما ، وأصبحت الرحمة لصلوب شعبه .



ولما انتهى العسكر الحجاج من اجتياز ببسيديا دخلوا اقليم ليكونيا ، وجاءوا الى عاصمته قونية ، وكانت هذه الناحية قاحلة جرداء . فابتلوا فيها بنقص كبير فى الطعام أدخل اليأس الى قلوبهم، وكان الترك قد علموا من قبل بزحفنا عليهم . فانطلقوا يعيثون فسادا فى الاقليم بأجمعه ، ونهبوا جميع مدنه اعتمادا منهم على عجز رجال أى مدينة عن المقاومة . وزادوا على ذلك بأن سبوا النساء ، واسترقوا الأطفال ونهبوا كل ما صادفوه من الماشية والأغنام ، ثم فروا الى الجبال المنيعة متحصنين بها . وكان أملهم الوحيد هو أن يبادر الصليبيون الى مغادرة الاقليم حين بلغ الجهد منهم غايته بسبب حاجتهم للطعام ، ولم يكن الترك واهمين فى هذا الأمل ، اذ فر الحجاج من هذه الناحية القاحلة التى لا يستطيع اسعافهم بما يقيم أودهم وغادروها على جناح السرعة .

فلما خلفوا هرقلة وراءهم ، جاءوا الى مدينة مرعش ، فنصبوا معسكرهم بها . وأقاموا بها ثلاثة أيام .

وفى أثناء وجودهم فى مدينة مرعش هذه فاضت روح [جودهيلد] زوجة بلدوين ــ أخي جودفروى ــ الذى كان قد تركها فى رعاية أخويه حين سفره ، فرقدت فى الرب فى هدوء ، ولفظت

انقاسـا بعد مرض عضال أمضها ، وكانت «جودهلد» (١) هذه امرأة شريفة المولد ، عاشت حياة حميدة طاهرة ، وتخلقت بالخلق الكريم ، ودفنت حيث ماتت ، بعد أن أقاموا لها شعائر الشرف الجديرة بها .

- ١٩ -

في هذه الأثناء قام تانكريد الفاضل ، وهو من هو في الفضل بعرض الحصار على طوروس وهي أهم مدن تلك الولاية . ونجح اذ سلك أقصر الطرق فكان أول من بلغ قليقيا احدى ولايات الشرق ، وبناء على ما يقوله القدماء فان ولاية « أنتوكينا » كانت تسمى بمنطقة الشرق .

ويتاخم قليقية من الشرق ولاية كوابسريا ، « سوريه الشمالية » كما تتاخمها من الغرب ايسوريا ، ويحدها من الشمال جبال طوروس ومن الجنوب بحر ايجة ، ويوجد بها مدينتان رئيستان هما طرسوس موطن معلم المبتدين ومهبط رأسه أما الأخرى فتدعى « عين زربة » ولكل منهما قراها التابعة لها . ومن أجل هذا يقال أنه يوجد قليقية الأولى وقليقيه الثانية .

والقول السائع أن مؤسس طرسوس كان يدعى « طارسيس » وهو ثاني أولاد « حافام » ابن يافث الذى تذهب الروايات القديمة الى أنه الابن الثالث لنوح ، ويدللون على صحة هذا القول بأن المدينة تحمل اسم مؤسسها .

---

(١) أشارت الترجمة الانجليزية فى تعليقها على حبر هذه السيدة أنها عرفت بأكثر من اسم ، ومع أن وليم أثر من هذه الأسماء كلمة « جوتيريا GUTEREA » الا أننا نفضل « جودهلد » بناء على المراجع الواردة فى هذه الحاشية الانجليزية .

ومع ذلك فان لسولسوس رأيا مخالفا لهذا الرأى بشأن عدد المؤسسين ، فيقول فى الفصل الثالث والأربعين من كتابه «المذكرات» « وتتبع قليقيا مدينة طرسوس التى هى أم المدن ، والتى أسسها برسيوس داناى الشريف ، ويسقيها نهر « كيندس » الذى يقول بعض النقاد انه ينبع من جبال طوروس وينحدر انحدارا عميقا محبقا ، على حين يذهب آخرون للقول انه أحد روافد نهر « هند اسباس » .

وربما كان هناك شيء من الصحة فى كلا القولين من أن مؤسسها هو طارسيس ، ثم جاء من بعده برسيوس فحصنها وزاد فيها .

أقام تانكريد ورجاله على حصار مدينة طوروس بضعة ايام حتى أرغم أهلها ــ بالوعيد تارة والكلام المعسول تارة أخرى ــ أن يقبلوا ما رسمه من ادخال رايته ورفعها على أحد أبراجهم رمزا لاعترافهم بالخضوع له . فاستجابوا لطلبه هذا ، مشترطين عليه أن يظلهم بحمايته حتى يحضر بوهيموند والحبر الرئيسى ، وألا يرغمهم ــ خلال الفترة الواقعة فيما بين دخوله وقدوم بوهيموند ــ على مغادرة دورهم أو ترك مزارعهم ، فان رضى بهذه الشروط قبلوا أن يسلموا المدينة فى هدوء الى بوهيموند حين يصل ، ويبدو أن هذا العرض كان مرضيا لتانكريد . فقد قبله هو أيضا .

كان أهالى هذه المدينة مسيحيين مثل جميع بقية سكان الاقليم ، وهم يتألفون من الأرمن والاغريق ، غير ثلة قليلة من الترك الذين كانت لهم الغلبة الحربية لمهارتهم فى استعمال السلاح . والذين كانت حراسة الحصون موكولة اليهم ، ويقع على عاتقهم مهمة قمع الأهالى بالشدة ، أما المؤمنون فلم يكن مسموحا لهم بحمل السلاح ومن ثم صرفوا همتهم لممارسة التجارة والاشتغال بالزراعة .

فى هذه الأثناء كان بلدوين ــ أخو الدوق ــ ورفاقه الذين

سلكوا مسالك لم تكن مألوفة ـ في مسيس الحاجة للطعام ، لكن تسنى له أخيرا ، بعد جولات دائرية ، أن يصل بالصدفة الى قمة جبل من الجبال اسشرف منها منظرا يمتد حتى البحر الى قيليقيا ومدنها المسايره تحت قدميه ·

★★★

ولما تبين لبلدوين أن هناك معسكرا حول طرسوس ، سرت المخاوف أن يكون قد ضل الطريق ، وأن تكون هذه الخيام خيام عدوه ، بيد أن رغبته الملحه فى الوقوف على هويه هذا الاقليم وعمن يكون أصحاب هذا المعسكر الذى يراه على بعد دفعته للخروج على رأس جماعته بما عرف عنه من الاقدام ، ونزل بهم الى السهل ·

وكان تانكريد قد أقام لنفسه هو الآخر عيونا فى نقاط مرتفعة، كما أخذ حذره توقعا لأى عدوان قد يقوم به العدو ، فاستدعى فى الحال اليه رفاقه فى الحرب وحملوا أسلحتهم لتعينه بأن الذين رآهم انما هم عسكر الخصم ، جاءوا نجدة للمدينة ، فصاح فى رجاله مسحثا اياهم ، وخرج بهم رافعين راياتهم لصد القوات الزاحفة ، ولم تطر روحه شعاعا لايمانه بالله ، فلما اقترب المصافان بعضهما من بعض ورأى كل واحد منهما الآخر رؤيا العين ، عرف أن لبست هذه أسلحة العدو ، فدنا اذ ذاك كل واحد من الآخر فى اطمئنان وتعانقوا ·

وبعد الفراغ من الأحاديث الرقيقة المألوفة انضم بعضهم الى بعض وتابعوا زحفهم الى المدينة لاكمال الحصار ، فتلقاهم تانكريد بالترحاب والاكرام ، وأولم لهم لتلتهم هذه وليمة قدم لهم فيها لحوم الأغنام والماشية التى نهبوها من النواحى المتاخمة ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ٢٠ -

ولما أشرق الصباح وتجلى النهار ، رأى بلدوين ورفاقه رايه تانكريد تخفق على أعلى برج بالمدينه ، فهبستهم الغيره فى الحال بأنيابها ، ونسوا أواصر الحب والأخوة التى عقدوها فيما بينهم أثناء زحفهم فى سلام ، وهى الأواصر التى صمموا - أفرادا وجماعات - على أن تظل عراها ثابتة لا انفصام لها ، لكن الذى جرى كان عكس ذلك ، اذ غضب رجال بلدوين من جرأة تانكريد على رفع رايته فوق المدينه ، فى الوقت الذى يوجد فيه كثيرون غيره من الأمراء الحاضرين ، وهم أكثر منه جندا ، وأكثف عسكرا ٠

كان تانكريد رجلا متواضعا فأراد فثء غضبهم ، فأنكر أن يكون قد استهدف اهانتهم من وراء رفع رايته ، وقال انه اتفق على رفعها مع أهل المدينة بسبب بسالته ، وذلك قبل وصول الزعماء . وقبل أن يخامر الأمل أحدا فى قدومهم ٠

أما بلدوين الذى راح أصحابه يثيرونه بكل فواهم ، ويحثونه على سلوك هذا السبيل ، فلم يعبأ بما فعله تانكريد ، بل نهج عكس هذا النهج ، وكان مدفوعا فى ذلك بانفعالاته ، فجاوز حدود الفطنة . فتطاول على تانكريد بكلماته السفيهة ، وأذن غطرسته الى مأزق أوشك فيه كل منهما أن يقاتل صاحبه ، ويفتك به ، وأخيرا استدعى بلدوين اليه أهل البلد ، وهددهم علانية بتخريب المدينة وما جاورها من النواحى غير عابئ بما وعدهم به تانكريد من بسط حمايته عليهم ، ان لم يبادروا الى انزال راية تانكريد ونصب رايته هو مكانها ٠

ولما رأى الأهالى أن بلدوين أشد من تانكريد بأسا وأكثر منه جندا فقد أذعنوا له على نفس الشروط التى سلف لهم اشتراطها على

تانكريد الذى أنزلوا رايته ورفعوا مكانها علم بلدوين ، فلما رأى تانكريد هذا الحيف الذى حاق به أحرقه الغيظ عن حق ، لكنه كظم غيظه بفضل ما طبع عليه من رجاحة العقل . ومن تعوده الصبر على تحمل الآلام شفقة منه من حدوث شقاق خطير بين قوات المؤمنين . لذلك نقص معسكره ، وارتد الى مدينة مجاورة يدعونها « أدنة » ، فلما بلغها لم يأذن له أهلها بدخولها لان شخصا معينه اسمه «جلف» من الأمة البرجندية كان قد استولى عليها ، وكان « جلف » هذا انفصل عن الجيش الأصلى مع ثلة من الآخرين ، وجمع الله جسدا كثيفا من الناس انخرطوا تحت رايته ، وشاءت الصدفة أن تؤدى به الى أذنة حيث طرد منها الترك ، واستولى عليها قسرا .

ولما علم تانكريد أن مشيئة الرب قد أسقطت هذه المدينة فى أيدى شعبنا ، بعث الرسـل الى جلف يلتمس منه فتح أبوابهـا لندخلها جماعته وأعلمه أنه يبغى النزول بها وشراء ما بحاجة عسكره من ضروروات العيش . فاستجاب جلف للرسـل ، وأمد تانكريد وخيله بكل ما هو لازم لهم فى كفاية وفترة جعل بعضها الله هبة . والبعض الآخر بأثمان معقولة ، وذلك لان جلف كان قد وجد المكان مليئا بالذهب والفضة وقطعـان الماشية والأغنـام والحبوب والنبيذ والزيت ، وقصارى القول بكل شيء نافع .

- ٢١ -

حين طلع النهـار رحل تانكريد من المدينة بكل من معه وأغذ السير فى الطريق الرئيسى المؤدى الى المصيصة ، التى كانت واحدة من أروع مدن هذا الاقليم ، والتى نالت حظا من الشهرة بفضـل

آســوارها وأبراجها وكثره سكانها ، كمــا زاد فى قدرها موقعها البهج ، وحقولها الحصبة ، وأرضها العسة ، وما كاد تانكريد يعسكر على مقربة منها حتى أغار عليها وراوحها بسلسلة غير مقطوعة من الغارات حتى تمكن من الاستيلاء عليها فى مدى أيام قلائل بمعونة الرب ، وحكم السيف فى رقاب أهلها المارقين .

ووجد بها تانكريد ثروات ضخمة وكميات كبيرة من الميره من كل صنف فوزع على أتباعه كل ما وجده ، فى أنصبة يلائم كل منها ما أداه كل حاج من الخدمة ، ففاضت أيديهم بما ملكوا ، وعوضهم الطعام الوفير عن أيام المسغبة التى قاسوها من قبــل ، كما استسلموا فى الوقت ذاته للراحة ، وأقبلوا على أكل ما يشتهون . وأطلقوا ما عندهم من دواب النقل حرة ترعى كيف شاءت .

- ٢٢ -

راح بلدوين - بعــد رحيل تانكريد - يكثر من تأنيب أهل طرسوس ويهددهم تهديدا شديدا ويحذرهم مره بعد أخرى ، وأمرهم أن يفتحوا الأبواب أمام عسكره ليدخلوها ، اذ خيــل اليه أن العار لاحقه ان هو أضاع الوقت بلا عمل حتى مجيء الجيش ، فخــاف الأهالى منه أن يهاجم المدينة من قرب ان هم رفضوا اطاعة أمره ، لما رأوا من عجز تانكريد عن مقاومته ، هذا الى جانب زعزعة ثقتهم فى قدرتهم الذاتية فجعلوا من الضرورة فضيلة ، وفتحوا الأبواب وأدخلوا بلدوين وجميع عسكره ، وخصصــوا برجين جعلوهما فى وقتهما الراهن سكنا خاصا له .

أما بقية جنده فقد تفرقوا فى بيوت المؤمنين من أهل المدينة .

وأما الابراج الأخرى فكانت في أيدي الترك الذين كانوا لا يزالون يحتلون المدينه ، وكانوا أكثر منهم عددا . هذا بالاضافة الى أنهم كانوا يملكون بلا جدال معظم استحكامات البلد . ومع ذلك كانت الريبة تخامر نفوسهم من ناحية طائفه النصارى الذين أذنوا [لعدوه] بدخول البلد ، واذ لم يكن لديهم ثم أمل في نجده تأتيهم . فقد كانوا يلتمسون الفرصة للتسلل في الخفاء الى خارجها مع زوجاتهم وأبنائهم وما ملكت أيديهم .

وحدث في هذه الليله بالذات ان وصل الى طرسوس ثلاثمائه رجل من حمله بوهيموند كانوا في طريقهم للانضمام الى تانكريد . فأصدر بلدوين أمره بعدم السماح لهم بدخول المدينه ، ولما كان طول السفر قد أرهقهم ، ونقص في أيديهم ضرورات العيش . فقد ألحفوا في السؤال التماسا للسكن وعقد سوق لهم . فعطف عليهم في محنتهم هذه رفاقهم من الحجاج الذين هم دونهم مكانة والذين كانوا في المدينة ، وألحوا في طلب الاذن لهم بالدخول لكنهم ردوا فاشلين ، لأنهم كانوا ، كما قيل طائفة من رجال حملة بوهموند الذين كانوا مغذين السير لمساندة تانكريد .

وعلى الرغم من عدم قدرة المسيحيين الموجودين في المدينة من الخروج الا أنه لم تكن تنقصهم العواطف الأخوية فراحوا يدلون الحبال بالسلال من الأسوار ملأى بالخبز ، والروايا مترعة بالنبيذ . وهكذا أمكنهم امداد الذين بالخارج بالطعام الكافي لهم في هذه الليلة ، ولما وجد هؤلاء الرجال ألا مناص لهم من البقاء خلف الأسوار فقد وطنوا أنفسهم على الاقامة أمام أبواب المدينة ، وتدبر حاجاتهم جهد استطاعتهم .

فلما كان الليل استسلم للنوم العميق والراحة التامة من داخل المدينة وخارجها على السواء من المسيحيين ، وضرب السكون أطنابه

ولكنه كان سكونا مريبا ، فقد قام الترك وغيرهم من كفار طوروس بفتح الباب فى هدوء تام ، وخرجوا منلصصين مستصحبين معهم نساءهم وأطفالهم وعبيدهم وكل ما ملكت أيديهم ، وذلك لأنهم لم يكونوا يشعرون بالهدوء فى بلدهم الى جوار هؤلاء الضيوف الذين نزلوا بينهم على كره منهم ولكنهم خافوا مساكننهم ، وأصبح هؤلاء الترك قادرين كل القدرة على مغادرة المدينة متى شاءوا ، اذ كان فى أيديهم بوابة أو اثنتان من بواباتها ، وأبوا الا أن يخلفوا وراءهم انتصارا دمويا على عدوهم ، ذلك أنهم بعد أن فرغوا من ارسال أحمالهم وما ثقل من متاعهم أمامهم عادوا ففتكوا بكل الذين كانوا يغطون فى سباتهم العميق .

- ٢٣ -

فلما كان اليوم التالى وقد ملأ النور الكون ، استيقظ مسيحيو المدينة فوجدوها مهجورة ،فعجبوا كيف هرب العدو من غير ضجة . وانطلقوا الى الأسوار ومداخل المدينة عساهم يعرفون كيف تمكن هؤلاء من التسلل الى خارجها ، وبينما كانوا يتقصون الأمر فى دقة وينقصون كل ركن وزاوية اذا بهم يطالعون آثار المذبحة التى أنزلها الترك الفارون بخدام المسيح فحزنوا أشد الحزن ، وتقطعت نفوسهم حسرات وأسلموا أنفسهم للبكاء .

ثم وقف رجال الطبقة النابهة على بعد من الآخرين وحملوا السلاح ضد بلدوين وغيره من الزعماء الذين يشأونه مكانة ، وذلك لأنهم اعتبروهم السبب فى هلاك رفاقهم الحجاج ، حين أبوا أن يستضيفوهم ، وكانت هذه الاستضافة واجبا لا يصح التنصل

منه ، كما كانت حقا لكل ذى حاجة ، ومن ثم فقد استبد بهم الحنق، فاندفعوا اندفاعا عدوانيا يقصـــدون النيل من زعمائهم الذين لولا انسحابهم الى الأبراج العـــالية لقتل منهم مثل الذين قتلوا وراء الأســوار ٠

ولما رأى بلدوين أخيرا أن الهرج الذى استولى على الناس بحق آخذ فى الزيادة ، راح يدبر فى لهفه كيف يبرر مسلكه ، وكيف يعتذر عن نفسه عند قومه ، عسى أن يهـدأ ثائرتهم ، ويركنوا الى السكينة ، فتريث لحظة استرد فيها أنفاســه ، وسألهم الانصات فهدأت غاغة الرجال قليلا وان كانوا لا يزالون مشهرين أسلحتهم ، وراح هو يبرىء ساحته عندهم ، مقسما لهم بأن السبب الوحيد الذى حمله على اغلاق أبواب المدينة فى وجه الحجاج هو أنه كان قد وعد وعدا لا حنث فيه ألا يسمح لأحد بدخولها حتى يصل الدوق ، كما أن كلماته المرائية ، وألفاظ الاستعطاف التى كان لابد منها فى مثل هذا الموقف والتى قالها وقالها بعض أشرافهم فعلت فعلها ، وأفلحت فهدأت من ثائرة الناس بعض الهدوء وتراضوا فيما بينهم ٠

وهكذا انتهى النزاع ، ولبث القوم هناك فى سكون بضعة أيام ، حتى رأوا أسطولا يمخر البحر على مسافة تقرب من ثلاثة أميال من طرسوس ، فما كاد الفرسان والمشاة يطالعون هذه السفن حتى هبوا سراعا ناحيتها ، وتحدثوا مع القادمين من البحر فعلموا منهم أنهم نصارى ، ولما سألوهم من أى البلاد هم قالوا انهم من فلاندرز وهولندة وفريزيا ، حيث ظلوا يمارسون القرصنة ثمانى سنوات ، ثم صحت ضمائرهم فندموا على ما كان منهم ، وتابوا عن اثمهم فركبوا هذا البحر فى طريقهم الى القدس للصلاة ٠

فلما عرف رحالنا أنهم مسيحيون مثلهم دعوهم لدخول الميناء ،

وصافح بعضهم بعضا ، وبادلوا فيما بينهم قبلات السلام ، وبعد أن أرست السفن آمنة بالثغر قادوا رجالها الى طرسوس .

كان زعيم هؤلاء القوم يدعى « جينمار » من اقليم بولونيا ، ومن مقاطعة كونت استاس ، والد جودفروى ، وما كاد جينمار يعلم أن بلدوين هو ابن سيده حتى ترك الأسطول وتهيأ لمرافقته الى القدس ، وكان جينمار فاحش الثراء وزاد من ثرائه هذه الحرفة الدنيئة التى مارسها ردحا طويلا من الزمن ، وكان فى خدمته رهط كبير من الناس أبى معظمهم الا مصاحبته حين علموا بعزمه على اتباع بلدوين ، واذ ذاك انتقى انتقاء دقيقا خمسمائة من أتباع القائدين لحماية المدينة ، أما كل من سواهم فقد راحوا يتهيئون للخروج للبحث عن حظوظهم .

- ٢٤ -

غادر الجيش طرسوس ميمما وجهه شطر المصيصه حتى بلغها، وكان تانكريد كما قلنا من قبل - قد احتلها عنوة منذ أمد قريب ، وأحكم قبضته عليها فأنزل بلدوين جنده خارجها وفي البساتين المحيطة بها . ليقينه التام بأن تانكريد لن يسمح لهم قط بدخول المدينة .

ولما ترامى الى سمع تانكريد خبر وصول بلدوين ، وانه نصب معسكره على مقربة منه ، غلى مرجل غضبه ، وثارت ثائرته وتأججت نيران سخطه اذ عاودته ذكرى المصائب التى صبها هذا الرجل ظلما

وعدوانا عليه ، ودعا رجاله وهو في سوره حنقه الى حمل السلاح مجمعا العزم على رد الصاع صاعين ، وأن ينزل ببلدوين من الأذى مثل الذى أنزله هو به من قبل ، ومن ثم أنهض فرقة من رماة النساب لرمى جياد بلدوين التى سرحها فى المراعى ، ولأخذها أو دفعها . كما خرج تانكريد ذاته فى خمسمائه فارس فى دروعهم مهاجما بهم معسكر بلدوين وآخذا الحراس على غره منهم قبل أن يسمكنوا من امتساق سيوفهم ، حتى كاد أن يفسهم عن بكرة أبيهم ، ولكنهم مع دلك هبوا الى أسلحتهم واستعدوا للمقاومة . وحرت فى اثر ذلك معركة عنيفة ، استبسل فيها كل من الجانبين استبسالا ضاريا كما لو كان كل واحد منهم يحارب خصما لدودا ، فسقط من الجانبين قتلى كثيرون ، وأسر كل فريق رجالا من رجال الفريق الآخر . غير أن عسكر تانكريد كان دون عسكر بلدوين بأسا ، وأقل منه عددا ، ثم ان القتال أجهد تانكريد اجهادا لم يعد قادرا معه على تحمل شدته ، فاضطر الى ترك ساحة المعركة ، والارتداد الى المدينة .

★★★

كان الجسر الشديد الضيق الذى يعلو النهر الفاصل بين معسكر بلدوين وبين المدينة يقف عقبة كأداء فى وجه قوات تانكريد وهى تسرع فى الفرار الى المدينة ، حتى لقد هلك رهط غير قليل من فرسانه ومشاته ، وان أسعف الفرار ثلة منهم هربوا الى داخل البلد ، ولولا أن الليل أرخى سدوله مما أدى الى وقف القتال لكان من الممكن أن تكون الخسائر أفدح مما هى عليه ، نظرا لما كان يكنه كل فريق من كراهية تضطرم كالنار فى قلبه للفريق الآخر .

كان من بين أتباع تانكريد الذين وقعوا فى الأسر رجال نبلاء بارزون منهم واحد من ذوى قرباه اسمه ريتشارد دى برنسباني .

وآخـــر اســـمه روبرت دانزى ، وكانت مشـوره هدين الرجلين وتحريضاتهما هى السبب الرئيسى فى قيام نانكريد بحركة الانتقام التى ذكرناها ٠

كما وقع فى أسر نانكريد واحد من أتباع بلدوين ومن علية القوم وأسـماهم مكانه ، هو جلبرت دى مونت كلير ، ونجم عن غياب هؤلاء القادة أن شاع الاضطراب فى صفوف كلا الجانبين ، اعتقادا منهم بهلاكهم فى معركة اليوم ٠

وحين ذر قرن الفجر فى اليوم التالى أخذت أحاسيس الكراهية فى التلاشى ، وخفت سورة الغضب ، وكان الفضل فى ذلك للرحمه الالهيـة اذ تذكروا ما جـاءوا من أجله ، فصفا تفكيرهم وعاد الى هدوئه . ومن ثم مضت الرسل بين الجانبين تنشد اقرار السلام ، ورجع كل أسير الى جماعته ، كما راحوا يتبادلون قبلات السـلام ارضاء لكلا الجيشين ، وعاد الوئام يرفرف من جديد بين الجميع وأظلهم السلم بجناحيه ٠

- ٢٥ -

نزل بلدوين على طلب رفاقه ، وعاد من المصيصة منضما بكل عسكره الى الجيش الأصلى الذى كان قد وصل ــ كما قلنا ــ الى مرعش ، وكان بلدوين قد علم بالحادث الخطير الذى ألم بالدوق فى بيسيديا أمام انطاكية فاشتد جزعه على سلامة جودفروى ، وأراد أن يتأكد تماما عن واقع حاله ٠

كان نانكريد فى هذه الأثناء قد زاد من بأس قواته بمن ضمهم اليها من الرجال الذين جاءوا فى صحبة الأسطول ، فكثر جيشه بهم كثرة بالغـة ، مكنته من اجتياح كل ما لقيه ، والاستيلاء قسرا على معاقل العدو التى وجدها فأضرم النار فيها حتى تهاوت الى الأرض ، واذ ذاك عرض من فيها على السيف فقتلهم جميعا ، وكان آخر مكان عصف به جنده هو « الاسكندرية الصغرى » التى استولى عليها أيضا رغم مقاومتها اليائسة ، فمكنه هذا النصر الأخير من أن يصبح مسيطرا على الاقليم كله ·

سرعان ما تواردت الأخبار تشير الى تمام استيلاء نانكريد على كل المنطقة ، بفضل ما تجمع لديه من مختلف القوات ، فارفضت قلوب الترك والأرمن الجبليين خوفا من أن يعوج نانكريد عليهم ، ويفتح مدنهم ، ويسترق أهلهم ، فراح كل ينافس الآخر فى سرعة المبادرة بارسال الرسل اليه ، محملين بالهدايا الثمينة من الذهب والفضة والجياد والخيول والأقمشة الحريرية ، مؤملين أن يهدىء هذا الكرم حدة غضب ذلك الزعيم العظيم ، عساهم يكسبون وده ، ويعقدون واياه أواصر الصداقة ·

هكذا كان النجاح حليف نانكريد فى كل خطاه ، لأن الرب كان معه ، ولأن السيد كان يوجه جميع أعماله لأنه خادم أمين ·



هنا ينتهى الكتاب الثالث



الكتاب الرابع

اجتياح الصليبيين شمال الشام وشروعهم في حصـــار أنطاكيـــة

فصول الكتاب الرابع :

١ ـ بولدوين أخو الدوق ـ يعود الى الجنس الأصلي وينزل على اقتراح باكراد فيقود حمله برحف الى الشمال ويحتل كل الاقليم حتى الفرات ·

٢ ـ شهرة بلدوين تنتشر في كل ناحيه ، فيستدعيه آهل الرها فيستجيب لهم ويسرع اليهم عـابرا الفرات ولكنه يقع في كمين نصب له في بعض الطريق فتخرج المسيحيون لمقابلته ويجعلون من أنفسهم حرسا له ويدخلونه المدينة فرحين به ·

٣ ـ الغيره من نجاح بلدوين تدب في نفس حاكـــم

المدينه الذى يندم على قراره الذى اتخذه ويرغب فى شجب الاتفاق ، لكنه من أجل استرضاء الأهالى يتبنى بلدوين ويتخذه ولدا وان أضمر الغدر به .

٤ ـ بلدوين يحاصر سمبساط استجابة لرجاء أهـل المديـــه الذين يتآمرون ضد حاكمها الضعيف انتقاما منه للأضرار الجسيمة التى أنزلها بهم .

٥ ـ الأهالى يفتكون بحاكم الرها وينصبون بلدوين واليـا عليهـم فيشترى سميساط من حاكمهـا « بلدك » بمبلغ كبير من المـال .

٦ ـ بلدوين يحاصر بلدة « سروج » ويستولى عليهـا بالقوة فيسكره أهلها شكرا يعجز اللسان عن وصفه .

٧ ـ ارسال طائفـة معينة من رجـال الجيش الأصلى يحتلون بالقوة مدينة « أرتاح » واذ تترامى أنباء ذلك الى أهل أنطاكيه يبادرون الى هنـــاك بقوة ضخمة وينصبون كمينـــا لشعبنا ، ويهاجمون مدينة « أرتاح » لكنهـــم يفشلون فى محاولتهم هذه فيعودون الى ديارهم بعد تحصين الجسر .

٨ ـ الجيش الرئيسى يصل « أرتاح » ويرسل الكشافة من هـذا المكان لكشف الطـريق ثم يقترب من الجسر ويعبر النهـر رغم مـا بذله العـدو من محاولات كان يهدف من ورائها الى صده .

٩ ـ وصف مدينة أنطاكيه ، ومكانتها ٠

١٠ ـ القول فى الاقليم الذى به المدينه ووصف موقعها ٠

١١ ـ من كان حاكم هذه المدينه التى هى أنطاكيه ، وكيف بادر هذا الحاكم ـ حين سماعه بنبأ اقترابنا ـ الى تحصينها ، ثم جلب الى داخلها العسكر الذين استقدمهم من المدن المجاورة ٠

١٢ ـ زعماؤنا يتشاورون فيما بينهم ويتقدم الجيش الى المدينة ٠

١٣ ـ القادة يأخذون مواضعهم حول أنطاكية فى أماكن استراتيجية ويسدون منافذ المدينة فيسيطر الخوف على نفوس الأهالى ٠

١٤ ـ المسيحيون يقيمون جسرا خشبيا على النهر حتى يساعدهم على توفير مزيد من حرية الحركة للبحث عن العلف ، كما يقوم الأهالى بشن هجمات مفاجئة على معسكر كونت تولوز من أقرب البوابات اليهم ٠

١٥ ـ الكونت يقوم بكثير من المحاولات ضد العدو وينتهى الأمر أخيرا بسد البوابة بأكوام من الأحجار يهيلونها أمامها ٠

١٦ ـ العدو يهاجم الجماعات التى خرجت فى التماس العلف وينتج عن ذلك قتال ضار يهلك فيه

الكثيرون من الجانبين اذ يهلك بعضهم بالسيف ويبتلع النهر غيرهم فيموتون غرقى .

١٧ ـ الضعف يستولى على جميع الاقاليم وتتفاقم المجاعة وتزداد سوءا ويصبح الناس في صراع ضد الجوع ، كما تؤدى الأمطار الغزيرة الى الرطوبة التى تعمل على انتشار العفن فى الخيام وهو عفن يهدد الجيش بالفناء .

١٨ ـ بوهيموند وكونت فلاندرز يخرجان فى حملة كبيرة سعيا وراء الكلأ ، كما يقوم المواطنون فى الوقت ذاته بتشن هجوم فجائى على المعسكر ، ويمنى الصليبيون بخسارة كبرى ويكثر فيهم الجرحى .

١٩ ـ الفرقة الباحثة عن الطعام تكشف العدو وتهزمه ، ثم تعود بالغنيمة والأسلاب الوفيرة .

٢٠ ـ مقتل « زفين » أحد أبناء ملك الدانمركين على أيدى الاتراك قرب « فيلو ميليام » بينما كان يغذ السير للانضمام الى الجيش .

٢١ ـ تاتيكيوس الوغد يترك الجيش وليس فى نيته العودة اليه ويدعى ان ذهابه انما هو من أجل عقد سوق يستبضعون فيها ، كما يزعم أنه ماض الى الامبراطور ليسأله الحضور لمساعدتهم .

٢٢ ـ المجاعة تزداد تفشيا والطاعون المهلك يصيب الناس فيأمرهم الأساقفة بصيام ثلاثة أيام ،

ويسرد الدوق جود فروى صحته تماما ويفرح الجيش بشفاهته ٠

٢٣ ـ نورد بوهيموند يقترح خطة حكيمه للقضاء على ما سببه الكسافة الذين أرسلهم العدو من الازعاج ٠

٢٤ ـ خليفة مصر يوفد رسلا من قبله الى الزعماء ويطلب عقد معاهدة بينه وبينهم ويحاول كسب مودتهم ٠



هنـــا يبـــدأ

الكتـــاب الرابـــع

اجتياح الصليبيين لشمال الشام وشروعهم فى حصار أنطاكية

— ١ —

بيسما كان ٠انكريد يتابع احصاع كل ارجاء ميليميا عير هياب ولا وجل ، كان الجيش الرئيسى قد وصـــل الى مرعش [يوم ١٣ أكتوبر ١٠٩٧] ، واذ داك اعتزم بلدوين زياره أخيه جود فروى ، فلما وجده قد تماثل للشفاء ثارت فى نفسه نيران الغيره مں ٠انكريد مرة أحرى ، وأحمطه منه أں يجمع الكل على امتداح بسالته التى طبق خبرها الآفاق ، ومں ثم دعا اليه أصدقاءه ، واوصى ايهم بعزمه على معاودة القيام بمخاطرات جديدة وسألهم اں يكونوا عونا له فى تحقيق هدا الهدف . لكنهم كرهوا ان يصاحبوه فى حروجه . لـــا سمعوه عن وقاحته المتناهية حيال تانكريد أثناء وجودهما أمام أسوار طرسوس فى قيليقيا ، اعتمادا منه على كثرة أتباعه . والحق انه لم يشذ أحد منهم عن الاجماع على اں مسلكه كان اذ ذاك مسلكا مشينا ، وهـــو اجماع استحقه عں حق جزاء جريمته الشنعاء ، وما كان لبوهيموند ورحاله اں يتركوا ما لحق بتانكريد دون عقاب .

ولم يجد بلدوين من يقبل مرافقته فى حملته هده عير شرذمـــة قليلين ، كما عنفه أخوه خادم الرب ــ تعنيفا قاسيا على عمله هذا ، ولـــا أدرك بلدوين شناعة ما اقترف من جرم فقد أعلن بكل مذلة انه

ستسعد لأن يقدم لتانكريد النبيل الاعتذار الواجب عما اقترفه من اساءة في حقه ٠

ولما كان بلدوين قد أخطأ بناء على ما أشار به غيره عليه أكثر من ان يكون خطؤه نابعا من تلقاء ذاته ، ولما كان هذا المسلك بحريص من سواه ولبس من طبعه ، فقد سامحه الجميع واسترد ثقتهم به ٠ والحق انه كان رجلا موضع الاطراء من كل الوجوه كما انه لم يؤخذ عليه قط بعدئذ ساعة نزرى به كهذه الشناعة ٠

وكان لبلدوين صديق من أشراف الأرض يدعى « باكراد » تعرف عليه في بيثينية بعد فراره من حبس الامبراطور ، وظل هذا الرجل يلازم بلدوين على الدوام في جميع رحلاته . ومع أنه كان محاربا شديدا الا أنه كان شديد المكر ، مغموز الوفاء ، وقد دأب على الالحاح على بلدوين واغرائه بشتي السبل على جمع العسكر ، ووعد بأن ينضم هو اليه في حملة يشنها على النواحي المتاخمة التى قال انه من اليسير اجتلالها بقوة صغيرة ، ونزل بلدوين أخيرا على الحاح «باكراد» ، وخرج مسترشدا به على رأس مائتى فارس ، وحشد غير قليل من المشاة وزحف بهم ميمما وجهه ناحية الشمال ، وسرعان ما دخل اقليما شديد الخصب والثراء ، أغلب أهله مسيحيون صادقون في دينهم ، أما البقية من السكان ، وهم قلة كافرة ، فكانوا أصحاب القلاع ، وكانوا يعاملون المؤمنين الصادقين كما يحلو لهم ، كما كانوا يحرمونهم من الانخراط في الخدمة الحربية ٠

وكان فلاحو الاقليم من المسيحيين الكارهين لأن يتسود عليهم قوم من غير ملتهم ، لذلك لم يكد بلدوين يدخل تلك الناحية حتى أسلموه الأماكن الحصينة ، وما غبرت أيام قلائل على ذلك الأمر حتى كان بلدوين قد ملك من الناحية أغلبها ، بالغا في ذلك نهر الفرات

العظيم ، وصار اسمه وحده كافيا لبث الرعب فى ذلك الاقليم وما حوله ، وبلغ الخوف فى نفوس الاعداء منه حدا غادروا معه قلاعهم من تلقاء أنفسهم ، وهاموا على وجوههم ، على الرغم من انه لم يرسل رجلا واحدا من رجاله لقتالهم ·

وكان مجرد حضور بلدوين قد بث الشجاعة والثقة فى قلوب المخلصين الذين رحبوا به ، وتمت كلمات النبى (١) : « كيف يطرد واحد ألفا ، ويهزم اثنان ربوة » ·

لم يكن العامة وحدهم هم الذين تعلقوا ببلدوين ، بل حالفه أيضا امراء تلك النواحى المسيحيون وأخلصوا النية فى مصادقته ، وآزروه فيما يفعله ، وامدوه بالجند ، وبذلوا له الطاعة الصادقة ·

- ٢ -

على أنه لم تمض بضعة أيام حتى كان اسم هذا الرجل العظيم يجرى على كل لسان ، وحتى كانت أعماله الجليلة مشهورة فى كل مكان ، واستساغ خبرها فى كل الولايات المجاورة ، وراح الجميع يثنون على بطولته ، ويمتدحون اخلاصه ، ويشيدون بشجاعته ، وملأ صيته الآفاق ، فلم يبق أحد من أهل الرها الا وقد سمع به ، وسرعان ما راحت المدينة تتحدث بأن قائدا باسلا من الجيش الصليبى ، قادر على تحريرهم تماما من رق العبودية وردهم الى الحريه ، وترتب على ذلك أن جاءته وفادة ممن كان بيدهم أمر حراسة المدينه وكانوا من أصحاب النفوذ فيها ، يدعونه دعوة صادقة ــ بالكلمه المنطوقه والمكتوبة ــ أن يأتى اليهم ·

---

(١) تثنية ، ٣٢ : ٣٠ ·

وأوديسا هي احدى مدن العراق السهيره أيصا باسم الرها وهي المدينة التي أرسل اليها توبيب الكبير ولده توبيب الساب . ليطلب من قريبه « جابيلوس » عسرة مكاييل من الفصة كان الأب قد اعاره اياها وهو طفل ·

وكان أهالى الرها قد اعتقوا المذهب المتعلق بالخلاص المسيحى على يد الرسول «تاديوس» ، وذلك في أعقاب أسبوع الآلام ، والحق أنهم كانوا من كل النواحي أهلا لما ينفق مع ما بسر به ذلك الرسول العظم وبرسالته مخلصا التي كتبها الى ملكهم « ابجار » ، وعدا ما نطالعه في الفصل الأول من التاريخ الكنسى الذى كتبه يوسيبوس القيصرى ، وقد ظل القوم مخلصين في تمسكهم بهذه العقيدة منذ ايمانهم بها لاول مره في زمن الرسل ، ثم قدر لهم أن يقعوا تحت نير خصوم ملتهم الذين أرغموهم على دفع الضرائب والاتاوات سنويا ، كما اغتصبوا منهم عنوة كل ما في ايديهم من بساتين الكروم والمزارع ، فلم يعد أحد يجرؤ على العيش داخل المدينة سوى من ملأ الايمان قلبه ، فكانت مدينة الرها — دون غيرها من جميع مدن الناحية — هي التي احتفظت بحريتها الأصيلة ولم تلوثها الجاهلية ، ومع ان العدو كان قد استولى منذ أمد بعيد على جميع النواحي التي حولها الا أنها ظلت بمنأى عن الخضوع له ، ولم تأذن لأى صاحب عقيدة أخرى أن يعيش في رحابها ·

ولقد كابد أهل الرها الأمرين من أولئك الذين يعيشون في المدن والقلاع المجاورة لهم ، الذين لم يكونوا يأذنون لمواطنى الرها بمغادرتها أو القيام بعمل خارجها ·

كانت أمور المدينة بيد حاكم من بلاد الاغريق ، أرسله ليدير شئونها ويتولى الأمر فيها ، ومنذ أن أصبحت البلاد كلها تابعة لامبراطور القسطنطينية ، وكان هذا الوالى شيخا طاعنا في السن ،

واهن القوى ، ليس له من صلبه ولد ولا بنت ، ولما كان الترك قد وصلوا الى هناك قبل انتهاء فترة حكومه فقد اضطرتهم الضروره لابقائه حيث هو ، فظلت له الحكومة في البلد ، وربما كان ذلك راجعا اما لعجزه عن الرجوع الى بلده ، أو لأن الناس لم يرغموه على التخلى عن السلطة ، ومن ثم كان بلا نفع ولا جدوى ، عاجزا عن حمايه رعيته من الضرر ينزل بهم ، أو دفع الشر عنهم أو تخفيف ما يلقونه من الضيق ٠

ولقد وفد على بلدوين ـ كما قلنا ـ مبعوثون من قبل المواطنين وبرضاء هذا الحاكم يلتمسون منه القدوم عليهم وتخفيف مصائبهم ٠

فلما استمع بلدوين الى التماس العامة والخاصة ، أجمع عزمه على استجابة رجائهم بعد أن شاور أصدقاءه في هذا الأمر ، فأعد العدة اذ ذاك للسير اليهم ، وخرج غير مستصحب معه سوى ثمانين فارسا ، عبر بهم نهر الفرات ، ومخلفا بقية أتباعه وراءه للقيام بحراسة القلاع والمدن الواقعة على ذلك الجانب من النهر ، وللمحافظة على الاملاك التى منحها الرب له ، فلما علم الاتراك الذين يعيشون على الجانب البعيد من النهر بخبر سيره اليهم نصبوا له الكمائن فى طريقه الذى كانت به احدى المدن الحصينه وعليها وال أرمنى ، فانحاز اليها بلدوين تجنبا للكمائن التى رصدوها له فى الطريق فلما بلغها استقبله حاكمها استقبالا كريما وأحسن استضافته ، فاقام بها يومين لم يجرؤ خلالهما على السير قدما ، مما سرب الملل الى نفوس الترك الذين كانوا قد اعدوا له كمينا ، وضاقوا ذراعا من طول انتظارهم اياه ، فرفعوا بيارقهم وظهروا فجأة فى حشد كثيف قوى أمام الناحية التى هو فيها وراحوا يسوقون أمامهم قطعان الماشيه من المراعى المجاورة ، ولما لم يكن المسيحيون مكافئين لخصومهم فى البأس ولا فى العدد فانهم لم يخاطروا بالخروج اليهم بل أقاموا فى القلعة حيث هم ، حتى اذا كان اليوم الثالث رحل الأتراك ٠

حينـذاك تابع سيره المتقطع الى مدينة الرها حيث استقبله حاكمها بالتعظيم عند وصوله اليها ، وشاركه الترحيب به جميع من فيها ، كما خف لاستقباله رجال الدين والناس عامة وقد ساروا أمامه منشدين الاهازيج والتراتيل الدينية على وقع الدفوف ودق الطبول ٠

- ٣ -

على أن الحاكم الذى كان السبب فى استدعاء بلدوين ، سرعان ما شعر بعضة الغيرة تنهش قلبه منه ، فراح يستعرض فيما بينه وبين نفســه ، ما أظهره الناس من الحفاوة والترحيب بهـذا القائد عند وصوله ، وتمنى لو نقض ما أبرمه معه من اتفاق كان يتضمن — حين وجه الدعوة اليه — أن يناصفه طول حياته كل ما تملكه المدينة من البضائع والضرائب وجميع دخلها من الأتاوات ، ثم يؤول كل شيء . بعد ذلك الى بلدوين ٠

أما الآن فقد رغب الحاكم فى تقديم عرض مخالف لهذا العرض يتلخص فى ان يبذل بلدوين المساعده للمدينة ولأهلها ضد استبداد الترك ، وأن يدفع عنها شرهم ، على أن يعوضه الحاكم ذاته مقابل ذلك تعويضا ماليا سنويا مجزيا مسرفا ، حسبما يتراءى له كرجل عادل ، لكن بلدوين رفض هذا العرض وازدراه لأنه عَرض ينزله منزله الجندى المرتزق ، الذى يتناول أجرا لقاء خدماته ، لذلك أخذ يعـد العده للعودة من حيث جاء ، فلما عرف الأهالى بعزمه على الرحيل ، بادروا بالذهاب الى الحاكم وأصروا على الا يأذن بأى حال من الأحوال برحيل زعيم جليل القدر كهذا الزعيم عنهم ، فهو رجل لاغناء لهم عنه لتحقيق حريتهم ، وطالبوه أن يضم بلدوين اليه وفقا لشروط

الاتفاق ، حتى ينعم هو والمدينة كلها بالسلام الذى هو غاية ما ينشدون ·

وازاء هذه المطالب المجمع عليها من عامة الناس وخاصتهم ، وازاء المحبة العميقة التى يتمتع بها بلدوين فى نفوسهم شعر الحاكم بمدى الخطر الذى يتهدده ان لم يستجب لرجائهم هذا ، ومن ثم رضخ لهم على مضض وأجابهم الى كل ما طلبوه منه ، وكان ذلك على كره منه ، وزاد على ذلك فعمد الى تحسين مسلكه السابق بأن تبنى بلدوين فى حضرة أهل البلد ، واعلن فى احتفال مهيب يلائم مع جلال الحدث بأنه يأذن له أن يناصفه كل شيء فى حياته فان مات كان هو الحاكم من بعده ، فعربدت الفرحة فى قلوب الناس أجمعين لانهم كانوا يرون أن بلدوين هو معقد آمالهم فى النجاة ، وأخذوا منذ هذه اللحظة فى الاقدام على كل عمل يتطلب الجرأة ، واطمئنانا منهم الى حماية سيدهم الجديد لهم ، ولما راحوا يسترجعون ما نالهم من وصب على يد حاكمهم فقد شرعوا يخططون للانتقام منه ، متى يسمح الزمان والمكان بذلك ، وهذا مما اتضح من مجرى الاحداث ·

- ٤ -

وكانت تقع على مقربة من الرها مدينة سميساط الموغلة فى القدم والشهيرة باستحكاماتها الحصينة ، يحكمها تركى كافر اسمه بلدوك ، وهو محارب مقدام ، ولكنه مخادع لئيم ، وقد أنزل كثيرا من المصائب بأهل الرها ، فضاعف عليهم الخراج والضرائب التى فرضها على مزارعهم ، وأثقل كاهلهم بما كلفهم به من الأعمال . وجرت عادته على أخذ أطفالهم رهائن لديه ، ضمانا للوفاء بهذه

الامور ، وكان هؤلاء الرهائن يرغمون تحت ظروف بالغه القسوه على العمل فى خدمه كرفيق يحملون الطين والآجر ، ومن ثم فقد ركع كافة السكان عند قدمي بلودين بعيون باكية يستعطفونه أن يعمل على حمايتهم من ظلم الطاغيه ، وأن يعيد اليهم أبناءهم الذين فى جيشه فأصغى بلدوين باهتمام الى أول رجاء لشعبه ، أملا منه فى اكتساب ودهم ، فدعاهم جميعا اليه ، وورودهم بالسلاح ، وخرج بطائفه منهم زاحفا على سميساط .

وظل بلدوين بضعه أيام يراوح المدينة ويعاديها بالهجمات المتتاليه ، لكنه صادف مقاومه شرسة من جانب من فيها من الترك ، ثقه منهم فى استحكاماتها القويه ، وسرعان ما ادرك بلدوين أنه غير مدرك منها أربه ولا بالغ منها غاية ، فانقلب راجعا الى الرها ، تاركا وراءه على مقربة من سميساط وفي مكان حصين ملائم — جماعه من الفرسان ، أمرهم بمداومة الاغارة عليها ، وألا يذيقوا أهلها طعم الراحـــة .

سرعان ما تبين لمواطنى الرها ما عليه بلدوين من النشاط . وما يلقاه من النجاح فى كل ما ينهض به . وأدركوا ظلم الاجراء الذى حاق بمحرر المدينه وبمرسى دعائم السلام بها ، حين ساووه برجل لا انتفاع منه أبدا للمدينة ، وأيقنوا أن بلدوين هذا قمين بأن يملك كل شيء ، وان ينخلص مما لا يتفق وهواه ، ومن ثم استدعوا واحدا من أشرافهم يدعى قسطنطين ، وكان واسع النفوذ وصاحب عدة قلاع شديدة المنعة ، واقعة على جبل قريب منهم واقترحوا باجماع منهم أن يفتكوا بحاكمهم ، ويحلوا بلدوين مكانه ، ليكون وحده صاحب الأمر والنهى ، وقد دعاهم الى ذلك ما كانوا يضمرونه لحاكمهم من كراهية هو أهل لها ، فقد قيـــل انه سلبهم ما عندهم من الذهب والفضه وغير ذلك من كل غال وثمين ، وظلمهم ظلما فاحشا ، وكان

اذا ما حاول أحد مقاومه آثار عداوه الترك صدهم بما يصلهم به من الرشاوى ، حتى يصبح الرجل التعيس منهم لا يخاف فحسب قطع كرومه وافساد حقوله ومزروعاته وسلب قطعانه واغنامه ، بل ان حياته ذاتها تصبح فى خطر ·

- ٥ -

ادرك مواطنو الرها الذين كانت فعال حاكمهم السريره ماثله على الدوام فى اذهانهم ان قد واتتهم الفرصة لنيل حريتهم المنشوده منذ زمن طويل على يد هذا الضيف ، ومن ثم فانهم - وفقا للخطط التى تم اتفاقهم عليها - اسرعوا لحمل السلاح وهاجموا البرج الذى اتخذه حاكمهم مستقرا له هجوما عنيفا محاولين هدمه بعزم لا ينثنى ، فاشتد خوف الوالى على حياته بسبب غضب الأهالى وسخطهم الذى هو أهل له والذى له ما يبرره . فاستدعى اليه بلدوين ، ونثر امامه كل الأموال ، وتوسل اليه أن يكون واسطه له عند الناس ·

وعلى الرغم من أن بلدوين سعى سعيا صادقا الى حمايه الحاكم ، وصرف كل أذى ينزل به على أيدى المواطنين ، وزعم أنه بذل قصارى جهده لتنبيهم عما اعتزموه الا أنه سرعان ما تبين له فشل محاولاته وذهابها أدراج الرياح ، لأن غضبهم على واليهم كان يزداد عنفا وحده شيئا بعد شئ ، وحينذاك انكفأ بلدوين الى الحاكم . ومحضه النصيحه أن يتخذ من الاجراءات ما شاء لتأمين حياته وسلامتها ، فلما أعيت الحاكم كل السبل فى التماس علاج للأمر تعلق بحبل دلاه من احدى النوافذ بيد أنه هلك قبل أن يبلغ الأرض ، اذ ناوشته آلف سهم من سهام القوم الذين سحبوه الى القصر جثمانا هامدا وقطعوا رأسه، لكن ذلك كله لم يشف لهم غليلا ·

فلما كان اليوم التالى نصبوا بلدوين حاكما عليهم رغم اعتراضاته ، وقطعوا له يمين الولاء ثم طلعوا به فى موكب بهى مهيب الى قلعة المدينه ، وأعطوه كل ما اكسره واليهم السابق طوال سنين عدة من الأموال والثروات الكبيره ، ومن ثم عاد الهدوء يرفرف على المدينة .

ولما راى « بلدوك » الذى كان كما قلنا حاكم سميساط ـ نجاح بلدوين نجاحا لا جدال فيه ، وأنه محصع كل الاقاليم ، فقد عرض عليه أن يبيعه مدينته بعشره آلاف قطعة ذهبية ، واذ كان بلدوين يدرك أن أخذ سميساط بالقوة ليس بالأمر اليسير فصل تحصيناتها ، فقد دفع بعد مداولات طويله ـ المبلغ الضخم الذى طلبه صاحبها ، وتسلم البلدة ، واسترد رهائن الرها ، مما زاد في عينه فى العيون زيادة كبيرة .

ولما قدر له انجاز هذه المأثره منذ اللحظة الأولى من حكمه . فقد اكتسب حب أهالى الرها العظيم ، الذين اعتبروه منذ هذه اللحظه واليا عليهم وأبا لهم أيضا ، وكانوا على أتم أهبة لبذل أرواحهم دفاعا عن كل ما فيه صالحه ومجده .

- ٦ -

كان يوجد فى نفس الولاية قرب الرها مدينة يقال لها «سروج» كانت هى الأخرى غاصة بمن ليسوا على الملة ، وعليها نائب تركى اسمه « بلاس » قد دأب على مضايقة الرها ، ومستها منه البلايا الضارة ، مما جعل بلدوين يستجيب لتوسلات الأهالى اليه ، فجمع جيشا لغزو سروج ، حتى اذا وافى اليوم الموعود زحف عليها وحاصرها نزولا على رغبة شعبه ، وضرب أولا معسكره حولها ووضع

آلاته على اكمل صوره واحسن هيئه . سرغ فى مهاجمتها فى عنف
بث الخوف فى نفوس أهلها حين رأوا عزمه المطبق على تحقيق هدفه ،
فى الوقت الذى كادوا يسكون فيه فى مبلغ قوتهم الدانيه فأبلوا أن
يسلموه المدينه ان ضمن لهم حياتهم وسلامتهم ، فلما وافق على هذه
الشروط أسلموه المكان فأقام من رجاله جماعه رابطت بالمدينه لحمايتها،
وجعل القياده فيهم لواحد من الذين شاركوا فى المفاوضات ، وفرض
على أهل سروج جزيه سنوية ، ثم رجع الى الرها متوجا بالفخر ·
ولقد أدى احتلال الصليبيين لسروج الى حريه الاتصال بين أنطاكيه
والرها ، اذ كان وقوعها فى منتصف الطريق بين الرها والفرات
يعتبر عقبه كأداء أمام الذين يودون الغدو والرواح بينهما ·

والآن وقد قدمنا هذه البيانات عن عمل بلدوين فيما بنا نعود
الى قصه الجيش [الصليبى] الأصلى ·

- ٧ -

بينما كان بلدوين مشغلا اشتغالا كبيرا فى اقليم الرها فيما
وراء الفرات ، كان الجيش الرئيسي قد وصل الى مرعش ، بعد أن
اجتاز – كما قلنا – جبالا شديدة الانحدار ، وأودية منعرجه ، وكان
سكان هذه المدينة – الا القليل منهم – نصارى ، وكانت قلعتها فى
يد الترك الذين يتحكمون كيفما شاءوا فى الأهالى ، ولم يكد الترك
يعلمون أن جيشا آخذ فى الاقتراب منهم حتى فروا خفية وفى ذعر
شديد ، تاركين البلد كله فى قبضة المؤمنين ·

ولما بلغ الجيش الخارج فى سبيل الرب هذا المكان ، عسكر
أمام أسوار المدينة فى المراعى الخضراء ، وصدرت الأوامر الى المعسكر

ان يتجنبوا العنف مع اهل البلد ، كمـا انعقد فى هذا المكان سوق حافلة . ثم جاء الى الصليبيين رهط من ثقات أهل البلد ، يخبرونهم أن فى يد الترك مدينة أخرى فى ذلك الاقليم تسمى «ارتاح» ، وتقع فى اقليم اكثر خصبا ويغتص بالنعم الوفيرة ، فاتفق الرأى على ان يخرج فى الحال روبرت كونت فلاندرز اليها على رأس ألف فارس عليهم زرد الحديد ، وصحبهم جماعة من الاشراف ، منهم روبرت دى روزيير ، وجوسيلون بن كونون كونت مونتاج ، وما كادوا يبلغون تلك الناحية حتى شرع روبرت فى اعداد ترتيبات الحصار ، فغادر الترك المدينة وارتدوا الى القلعة لتقيهم فى منعتها .

وما كاد الأرمن وغيرهم من المؤمنين الصادقين النازلين أرتـاح يعلمون أن هؤلاء المحاربين ـ بأسلحتهـم البراقة ـ قد جـاءوا من الجنس الذى طال انتظارهم اياه وتشوقوا اليه ، حتى انتعش الامل بالحركة فى صدورهم فهبوا الى أسلحتهم وانقلبوا على الترك الذين احتلوهم زمنا طويلا فرضوا عليهم خلاله حكمهم القاسى ، وأعملـوا فيهم القتل دون براح ، قاذفين برؤوسهم فيما وراء الأسوار ، كما فتحوا الأبواب على مصاريعها ، ودعوا فى اخلاص ذويهم القوم الواقفين خارجها الى الدخول ، وسألوهم أن يضربوا مخيماتهم بها ، أضف الى ذلك أنهم أوفوا بشروط الضيافة ، فوفروا لهؤلاء المحاربين وجيادهم على السواء ما يحتاجونه .

★★★

وتعرف ارتاح أيضا باسم « سالسيس » وهى مثل مرعش التى أشرنا اليها من قبل فى انها تمثل احدى المدن الاسقفية التابعة لكرسى بطركية أنطاكية التى تبعد عنها خمسة عشر ميلا .

ولقد انتشر نبأ هذا الحادث فى كل مكان فحرك ساكن أهل أنطاكية الذين تدافعوا متحمسين لتسليح أنفسهم ، واستعدوا للفتك

بالعراة الدين جعلوا من أنفسهم سادة لارباح بدبحهم مواطنيها ، واد داك تم انتقاء عسره آلاف ممن تجمعوا فى انطاكية للدفاع عنها ، وجيوهم سراعا الى مدينة أرباح ، فلما صاروا على مقربة منها أرسلوا امامهم ربيئة منهم قوامها ثلاثون فارسا من حملة الأسلحة الخفيفه وراكبى جياد الحرب الخفيفه ، أما بقية القوة فقد كمنت فى ناحيه من الغابه ٠

وأما الطليعة التى كانت تقوم بحراسة من فى الكمين ، فقد طلب على ظهور جيادها ، تروح وتغدو أمام المدينه حتى ليحسبها الرائى أنهـــا خرجت فى طلب بعض الأســلاب والغــــائم ، فيغتر اد داك المسيحيون ، ويدفعهم الطيش الى مهاجمتها دون تبصر ٠

ولقد أدت سلاطة هذه الطليعه فى عدوها ورواحها الى أن فقد المؤمنون الذين كانوا داخل الأســوار صبرهم ، فهبــوا سراعــا الى سلاحهم ، وانطلقوا فى أثر العدو دون أن يأخذوا حذرهم ، وأوغلوا فطلعت عليهم الكمائن التى وضعها الأعداء لهم ، وخرجوا من مخابئهم فى الحال ، ووثبوا عليهم وقاموا بمحاولات يائسه لقطع طريق العوده على الصليبيين الذين لو قدر لهم النجاح فى الوصول الى المدينــــه لوجدوا فيها ملجأ يقيهم من القوات الكثيرة التى كانت قادمة فى اعقابهم ، الا أن رجالنا استطاعوا بفضل من الله أن يفسدوا عليهم حيلهم ، مما مكنهم من الارتداد بمن معهم سالمين ٠

حينذاك ادرك العدو أن الاستيلاء على المدينه ليس بالامر الهين ، ومن ثم شرع فى حصارها ، وظل يواليها بالرمى على مدى يوم كامل دون أن ينال منها شيئا ، بينما قام المسيحيون الذين بداخلها فى الدفاع المجيد عنها ، ولمــا جاءت الأخبار باقتراب جيشنا الرئيسى أدرك العدو ما وراء استمراره فى البقاء من خطر عليه وأصاخ للنصيحة المثلى ، وعاد الى أنطاكية تاركا طائفة من الجنــد لحراســة الجسر

الموصل بين المدينتين ، وهكذا صان الكونت وأصحابه بأسيم المدينة التى وهبها الرب لهم ، وحافظوا عليها الى حين وصول الجيش الرئيسى ٠

وفى خلال هذا الوقت مرض « جوسلون » الشاب الموهوب بن كونون كونت موساج الذى تكلمت عنه آنفا مرضا عضالا ٠ أودى بحياته ، فدفن فى ذلك المكان بكل ما يليق به من مظاهر الاحترام ٠

- ٨ -

ما كاد الترك القادمون من أنطاكيه يغادرون أرتاح عند انبلاج النهار ، حتى جاء الخبر بأن الجيش الصليبى قد أصبح على مشارف المدينه ، وأنه قد نصب مخيمه على مقربة منها ، واتصاع زعماء الجيش للنصح فأرسلوا خمسة عشر ألف فارس مدججين بالسلاح لمساعدة من فى « أرتاح » من اخوانهم الذين جاءت الأنباء بما يعانونه من أهوال الحصار المفروضة عليهم ، وكانت الأوامر تتلخص فى أنه اذا وقع الحصار وأصبح الوصول الى المدينه أمرا ميسورا ، عاد كونت فلاندرز وبقية الكبار الذين بصحبته الى الجيش ، بعد أن يكلوا حراسة المكان الى حامية كافية ، كما صدرت مثل هذه التعليمات الى تانكريد الذى كان قد رجع لتوه من قيليقيا ، بعد ان صار الاقليم كله ملك يمينه فعادوا ، وعاد جميع القادة الأخرين الذين كانوا قد خرجوا الى نواح مختلفة حسبما أملت عليهم مصالحهم ، ولم يكن ينقصهم سوى بلدوين الذى كان سلطانه فيما حول الرها يزداد بمشيئة الرب قوة يوما بعد يوم، وهكذا تجمعت فرق الجيش المختلفة، وتماسكت قواته مرة أخرى ، واذ ذاك نودى فى الجميع الا ينفصل أحد ما عن الجيش الرئيسى الا بأمر يصدر اليه ٠

حينذاك نقضوا خيامهم ، وأخذوا فى الزحف على أنطاكيه من أقصر الطرق الموصله اليها ؛ واعترضهم فى منتصف طريقهم نهر أقيم عليه جسر عرف بأنه منيع التحصين ، فرغب القوم فى ازالة كل عقبة فى هذه الناحية يمكن أن تعرقل الجيش ، فقدموا أمامهم روبرت كونت نورماندى على رأس رجاله ، وكلفوه بكشف الطريق ، فان توقع أيه صعوبة أفضى بها الى الكتيبه التى خلفه ، وسرح لقادتها الأمر تفصيلا ، وكان على رأس هـذه الكتيبة الوجيهان افرار دى بويسيه وروجر دى بارنفيل البارعان فى استعمال السـلاح ، وقد نشرا أعلامهما ٠

ولما انفصـل الكونت وأتباعه من الجيش الأصلى تقدموه حتى بلغوا الجسر المشار اليه وكان بناء حجريا شديد الضخامة ، يقوم على كل من طرفيه برج متين الحصانة من نفس الحجر الصلد ، وكان فى كل برج مائة من المحاربين الأقوياء الشجعان البارعين فى الرمى بالنشاب وحسن استعمال الأقواس ، قد وكل اليهم حماية البرجين ومنع أى أحد من الاقتراب منهما عن طريق مخاضـات النهر ، كما وصل من أنطاكـة سبعمائة فارس رابطوا على الشـاطىء البعيد ، وسيطروا على المخاضات ليحولوا ـ تحت أى ظـرف من الظروف ـ بين رجالنـا وبين عبـور هذا النهر المسمى بنهر العاصى ، ويطلق عليه الناس اسم النهـر « الفاصى » وهو ينطلق من هذا الجسر وينزل الى البحر مرورا بأنطاكيـة ، ويظن البعض أنه هو نهـر دمشق المعروف باسم « فرفر » ، ولكن تأكد لدينا بمـا لا يحتمل النقض خطـأ أصحاب هـذا القول ، ذلك أن نهـرى فرفر والبانة ينبعان من جبال لبنان ، وبعد أن يشقا الاقليـم الذى به مدينـة دمشق ويجاوزانها ـ ينطلقان بسرعة ناحية الشرق ، حتى ليخيل للمرء أنهما ضاعا فى الصحراء ٠

أما نهر العاصى فعلى العكس من هذين النهرين ينبع من اقليم

هليوبوليس ، المسمى أيضا ببعلبك ، ويجتاز سيزر وأنطاكية حيث يصب فى البحر الأبيض المتوسط ٠



ولما بلغ كونت رمندي بقواته هذا الجسر تكاتف على الحيلوله بينه وبين عبوره حراس برجي الجسر ، والمدافعون الذين وقفوا على الساطىء الآخر من النهر ، وترتب على ذلك قتال شديد الضراوه فى هذه الناحية بين الفريقين ، يزيد من عنفه أن رجالنا كانوا مستميتين فى شق طريق لهم بالقوة وسط وابل هتان من السهام أمطرهم بها العـــدو الذى راح يبـــذل أقصى طاقته لمنعهم من الوصول ، ودفعهم بعيدا عن المخاضات ٠

فى هذه الأثناء التى كان كل من الجانبين فيها يجهد نفســـه غاية الاجهاد من أجل غايته كان الجيش الرئيسى يدنو شيئا فشيئا ، ذلك لأنه لمـا شاع أن الكونت وحرس المقدمة قد ردوا على اعقابهـم من جراء القتال عند الجسر ، بادر العسكر [الصليبى] الى الاسراع لمساعدة اخوانهم المحاربين ، فلما رأوا ارتداد العدو راودهم الأمـــل فى فتح الطريق ، عسى أن يتمكن الجيش من العبور من غير تأخير ٠

ولمـا تكامل وصول جميع الكتائب دقت الطبول ، ونودى بحمل السـلاح ، فاستجاب الجند للنـداء بكل مـا بهم من بأس ، وسيطروا على الجسر بالقوة ، وأرغمـوا العـدو على الفـرار ، أمـا الصليبيون الذين لم تسعفهم الظروف بوجود موضع لهم على الجسر يحاربون منه ، فقد أبوا أن يظلوا فى أماكنهم بلا قتال ولكنهـم مضوا فاكتسفوا المخاضة ، وعبروا الى الجانب الآخر ، ونجحوا فى زحزحة الأعـداء من أماكنهم مما جعلهم لا يصادفون بعـد ذلك أيـة مقاومه فى احتلال الضفة الاخرى من النهر ، واذ تم عبور كل الجيش

بعرباته الحربية ومركباته وما معهم من شتى صنوف المتاع . نصبوا معسكرهم في مراع فسيحة خضراء على بعد خمسة أو ستة أميال من المدينة ، حتى اذا كان اليوم التالي تابعوا زحفهم في الطريق الرئيسي الكبير الواقع بين النهر والجبال . فلما صاروا على بعد ميل واحد من اسوار المدينة نصبوا خيامهم .

- ٩ -

وأنطاكية مدينة عظيمة مجيــدة ، تتبوأ المرتبة الثالثة ان لم تكن الثانية بعد روما ذاتها (ثمة اختلاف كبير تجاه هذه المسألة) ، وهي تقف على رأس الجميع ، ولها الصدارة على كل منطقــة الشرق وكانت تدعى في الأرمنة القديمة «ريبلانا» وهنا كان قد جيء بصدقيا ملك يهوذا مع أبنائه في حضرة نابخذ نصر ملك بابل الذى أمر بقتل الابناء أمام ابيهم ، ثم سملت عينا الأب ذاته بعدئذ ، ولمـا مــات الاسكندر المقدوني خلفه في حكم جزء من هذا الاقليم « انتيوكس » فأحاط المدينة بأبراج على سور شديد الارتفــاع ، حتى صــارت المدينة بفضل « انتيوكس » في حال أحسن مما كانت عليه من قبل ، وأمــر أن تسمى بأنطاكية اشتقاقا من اسمه ، واتخذها عاصمــة لمملكته ، وقرر أن تكون المقر الملكي له ولخلفائه على مدى العصور ، وكان في هذه المدينة أبرشية كهنوتية لكبير الحواريين الذى كان أول من تبوأ وظيفة الأسقف هناك ، لأن الموقر ثيوفيلوس أحد مواطني أنطاكية وذوى النفوذ القوى - كان قد أقام كنيسة في بيته ، وهو الذى كتب له لوقا انجيله وأعمال الرسل ، وكان هو الآخر من أهل أنطاكية كما أنه خلف بطرس الطوباني في نفس الكنيسة . وكان ترتيبه السابع في ثبت من تولوا أسقفيتها .

وقد عقد فى هذه المدينه أول مجمع للمؤمنين الذين اصطلح على تسميتهم بالمسيحيين ، اشتقاقا من كلمه المسيح • ولقد رحبت هذه المدينة عن طواعيه وشوق بتعاليم هذا الحوارى واهتدت كلها مره واحده الى العقيدة المسيحية ، وكانت هى أول مدينه راحت تبشر بالاسم الذى كان كالعطر الطيب فاح شذاه فعطر جميع الأرجاء ، ما قرب منهــا وما بعــد ، ومن ثم اختير لها اســم جديد فسميت « ثيئبوليس » وهكذا فان المدينه التى كان يطلق عليها من قبل اسم رجل شرير كافر عادت فمنحها السيد منحة طيبه هى أهل لها ، وأصبحت تعرف بأنها مدينة وموطن الذى دعاها للايمان ، لانه كان لهذه المدينة فى أيام خطئها السالفه السيطره على كثير من الاقاليم الخاضعة لها ، حتى اذا تقدم الزمن عاشت حياه طاهره برة ، متبعه طريق المسيح ، واستبقت نفس الأساقفة •

ويقال انه كان تحت امره بطرك هذه المدينه ــ الحبيبه الى الله ــ عشرون ولاية ، كان لأربع عشرة منها أساقفتها وكهنتها ، أما الست الباقيات فلها أساقفتها المعروفون بالجاثليق ، وكان احدهم يختص بأبى ، والآخر بهيريبوبولس أو بغداد ولكل منهم قساوسته . وتندرج كل هذه الولايات تحت اسم واحد هو المشرق الذى ورد فى تقرير مجمع القسطنطينية حيث نقرأ فيه « فليكن لأساقفة المشرق اداره المشرق وحده ، ولكن شرف التقدمة لكنيسة أنطاكيه حسبما هو وارد فى قوانين مجمع نيقية المقدس » •

تمتاز مدينة انطاكية بموقعها الرائع فى ولاية كوليسيريا التى هى جزء من سوريه الكبرى ، وهى تمتد عبر واد فريد فى بهــائه وخصب تربته ومزارعه التى تسقى كلها فى الواقع بالروافد والقنوات المائيه ، ويقع هذا الوادى وسط جبال تنحدر ناحيه المغرب كما يمتد قرابه أربعين ميلا طولا ، وأما عرضه فيتراوح بين أربعه وستة اميال حسب الناحيه التى هو بها ، ويوجد فى القسم العلوى منه بحــيره تكونت من تدفق المياه من الينابيع المجاوره التى تتجمع كلها هنا ، كما يوجد على مسيرة مثل منهــا النهر الذى يجــرى عبر الوادى ثم يجاور المدينه الى البحر ٠

وينبثق كذلك من البحيره جدول صغير يصب فى نفس النهر فى انحداره قرب المدينه ، وعلى الرغم من شده ارتفاع الجبال التى تكتنف المدينة من جانبيها ، الا أنه يخرج منها مجرى مـاء عــذب يسير متعرجا ، كمــا أن جوانبها المنحدره حتى القمه صــالحه تماما للزراعة ، ويعرف الجبل الواقع فى الجنوب باسم العاصى (اورنتس) كاسم النهر الذى يشق المدينه ، ويقول جيروم ان أنطاكية تقع بين العاصى وبين الجبل الذى يحمل نفس الاسم وينحدر من هذا الجبل الذى يسير على طول البحر ثم يرتفع ارتفاعا شاهقا وينفرد بتسمية خاصة به ذات دلالة معينه ، اذ يعرف عاده بجبل «بارليبه» ، ويظن بعض الكتاب أنه هو جبل «برناسس» المكرس لباخوس وأبولو،ويبدو ان هذه الفكرة قائمة على وجود النبع المعروف بنبع «دافنى» القريب منه ، ويرى البعض أنه هو النبع القسطالى المذكور فى الأســاطير القديمة ، والذى كان مكرسا لآلهة الفنون والشعر والغناء ، الكثيره الورود فى كتابات الفلاسفة ، ويقال انه يتبع من الناحية التى تعرف بمدرجات بوهيموند قرب المدينة الموجودة فى سفح جبل العاصى ،

غير أن هده الفكرة بعيدة جدا عن الواقع ، اذ المؤكد ان جبل برناسس يقع فى اقليم بوييسيا الدى هو جزء من « سساليا » وقد وصفه «أوفيد» في القسم الأول لمن كتابه « مبامورفبورس » فقال بأن أرض فوكيس نفصل الحقول البوييسة عن حقول أيتكا . وهى اقلم خصب عندما تجف الأرض ، ولكن حدث أ نتدفقت المباه فجأه بغزارة فى ذلك الوقت البعيد ، كما يوجد هناك جبل يرتفع الى عنان السماء العالية المعروفة باسم بارناسس والتى تبدو شامخة كأنما تخترق السحاب .

ويسمى سولينوس فى الفصل الحادى والأربعين من كتابه « بولى هستور » التاريخ العام هدا الجبل بجبل كاسيوس حيث يقول « وعلى مقربة من أنطاكية وفى ملاصقة سلوقيا ، يوجد جبل كاسيوس الدى يمكن أن يرى المرء من قمته قرص الشمس حتى الساعة الرابعة من الليل ، فاذا استدار المرء قليلا — حين يبدد الضوء الظلام — أمكنه أن يرى على هذا الجبل الليل ويرى من الجانب الآخر النهار » .

★★★

وحتى لا يقع القارىء فى حيرة من كلمة سلوقيا الغامضة فيجب اخباره انه توجد مدينتان بهذا الاسم أولاهما هى عاصمة ايسوريا ، وتبعد عن أنطاكية مسيرة تزيد على خمسة أميال .

أما الأخرى فمجاورة لها ، ولا تبعد احداهما عن الأخرى أكثر من عشرة أميال ، وهى تقع قرب منبع نهر العاصى ، وتسمى هذه المدينة الآن بميناء القديس سمعان ، أما النبع المذكور آنفا فيعرف باسم « دافن » أو النبع القسطالى ، ويقال انه كان فى هذا المكان قديما معبد لابولو كان أقوام فى عقيدتهم الخرافية يقصدونه لسؤاله فيما استغلق عليهم ادراكه ، وحدث أن استقر هنا قرب

أنطاكية ـ فترة من الوقت ـ المارق جوليـــان بعد انفصاله عن المسيح وردته عن تعاليم الدين الحق ، وكان في أثناء اعداده الحمـلة على الفرس يكثر من التردد على معبد ابولو ، يستشيره فيما هـــو قادم عليه ، ويشير ثيودوريس الى هذه الحقيقة في الفصل الحادى والثلاثين من كتابه « التاريخ الثلاثى » بقوله :

« لما راح جوليان يلتمس جوابا من الهيكل البيثيى في دافنى حول مدى النجاح المحتمل لحربه ضد الفرس اذا بالكاهن ينهره لأن جثمان الشهيد بابيلاس كان مدفونا على مقربة من هناك واذ ذاك أمر جوليان بنقله » .

ويرد الاشارة الى نفس الحادث ـ ولكن في تفصيل أكثر ـ في الكتاب العاشر من التاريخ الدينى حيث جاء فيه ان جوليان قدم دليلا آخر على حماقته ورعونته ، حين راح يسترضى أبولو في غابة دافنى القريبة من النبع الفستالى بضاحية من ضواحى أنطاكيه ، فـــلم يستطع الحصول على رد على سؤاله فتساءل ما الذى يعنيه هذا الصمت، فأجابه كهنة الشيطان ان قبر الشهيد بابيلاس قريب من هنـــاك . ومن ثم فانه لا يمكن الاجابه على سؤاله .

★★★

وعلى الرغم من أن هذا النبع معروف بالنبع الفستالى . الا انـه يجب ألا يختلط في الأذهان بالنبع الفستالى الآخر الذى يسمى أيضا بنبع بيجاسوس ، أو رافد هيبوكرين وأجانيب ، اذ ان هـذا الآخر موجود في بيوتيا بناء على ما يقوله سولنوس الذى يكتب فيقول .

« ويوجد قرب طيبة جبل هلكون وغابة كثرون ونهر اسمناس، كما يوجد هنا أيضا ينابيع اريوسا وهيبوديا وسالماس وديرسى ، وان كان أهمها جميعا ينبوع أجانب وهيبوكرين » .

ولما كان ديموس مبدع الحروف هو أول من عثر على هـذه الينابيع أثناء تجواله في المنطقة بحثا عن موضع يستمر فيه فـان خيال الشعراء القوى أدى الى ظهور اسطورتين تقول احداهما ان النبع يتدفق من حوافر حصانه ، وأن الشرب منه كان ملهمة للفنون » .

★★★

ويوجد في الشمال من أنطاكيه هضبه تعرف عادة باسم « الجبل الأسود » تكثر بها الينابيع وسيقى من الروافد ، وكانت ماثره على سكان المنطقة جمة ، ممثله في الغابات والمراعي ، ويقال ان هـذه الناحيه كانت تزخر في قديم الزمن بكثير من الاديره ، بل توجد بها في وقتنا الحاضر أماكن طاهره كثيرة ، مليئة بالمحبة وهي مساكن أولئك الذين وهبوا أنفسهم لخدمه الرب .

★★★

ويجرى وسط هذا الوادى النهر الذى يصب فى البحر ، والذى ذكرناه آنفا ، وقد شيدت المدينه على أقرب وأعمق منحدر للجبـــل ناحيه الجنوب بينه وبين النهر ، كما يبدأ السور من قمة المرتفـــع ويسير على طول السفح منحدرا الى النهر ، وتكتنف محيطها أرض شاسعة الاتساع تمتد من جانب الجبل والسهل .

ويوجد وراء السور أيضا قمتان ناطحتان السحاب ، وتقـــع قلعة أنطاكية على ذروة أعلى هاتين القمتين ، وهى بناء شديد الحصانة يعدونه موضعا لا يمكن اقتحامه ، ويفصل هاتين القمتين بعضهما عن بعض هوه ضيقة ينحدر عبرها تيار جارف منصب من الجبل ، كمـــا يجرى وسط المدينة هذا النهر الذى له أياد جمة على السكان ، كذلك توجد عدة ينابيع أخرى بالمدينة أهمها بالباب الشرقى المعروف بباب

القديس بولس ، أما نبع دافنى الذى يبعد حوالى ثلاثة أو اربعة أميال، فقد تم حفره عن طريق اقامة مجرى فوق القناطر وتفننوا فاحتالوا حتى جعلوا الماء يتدفق الى أماكن مختلفة كثيرة فى أوقات معينة .

وتحيط بالمدينة من أعاليها ومنحدراتها وسهلها أسوار من الحجر الأصم ، السديد الضخامة ، العظيم الارتفاع ، ويطل على كل عددا كبير من الأبراج التى أعدت للدفاع أحسن اعداد ، وهى على ابعاد متساوية بعضها من بعض . ويجرى النهر الى الغرب فى الناحية السفلى التى هى أحدث جزء من المدينة ، ويقترب مجراه كل الاقتراب من الاسوار ومن الجبل الذى يعتبر تكملة لسور المدينة وبواباتها ويقول بعض الثقات ان المدينة تمتد مسافة ميلين طولا ، ويقول عرضها بل ثلاثة ، وهى تبعد عن البحر مسافة اثنى عشر ميلا .

- ١١ -

كان حاكم هذه المدينة الذائعة الصيت رجلا تركى الأصل يدعى ياغى سيان ، وهو من اتباع عاهل عظيم سديد البأس اسمه ملكشاه هو سلطان فارس الذى أشرنا اليه من قبل ، وقد استطاع الأمير [ملكشاه] بقوة السلاح أن يضم الى سلطانه جميع هذه الولايات وأن يدخلها تحت حكمه ، ثم رأى أخيرا أن يعود الى وطنه بعد ان دانت له كل الشعوب والقبائل . فعاد ووزع فتوحاته بين أولاد أخيه وأتباعه . اعتمادا منه أنهم كلما تذكروا مآثره الجمة عليهم اشتد ارتباطهم به واخلاصهم له ، فكانت نيقية وما جاورها من الولايات . من نصيب قلج ارسلان فى هذا التقسيم ، كما أشرنا آنفا .

أما دمسق وما يبعها من المدن التى تدفع لها الجزيه وكذلك الاقليم الذى هو حولها ، فكانت من نصيب ابن أخ آخر له اسمه دقاق ٠

وخلع ملكساه على هذين العاهلين مرتبة السلطنة ولقبها ، ولما كانت مملكه قلج ارسلان واقعة على حدود اليونان فقد كانت فى نزاع دائم مع امبراطوريه القسطنطينية ٠

أما دقاق ـ فكان بسبب ماملك ـ فى حروب لا يحمد أوارها مع المصريين ، والذى راح [ملك شاه] ينظر اليهم بعين الريبة الكبرة للزيادة المطرده فى قوتهم وبطشهم ٠

أما التابع الآخر من اتباع السلطان واسمه آق سنقر ـ وهو والد [عماد الدين] زنكى ، وجد نور الدين [محمود] فكانت حلب السهيرة من نصيبه ٠

وأغدق ملكساه فيض كرمه أيضا على باغى سيان الذى نتكلم الآن عنه ، فوصله بمثل ما وصل به هذين الرجلين ، اذ اقطعه أنطاكيه مع اقليم صغير ، وقد حمله على هذا ما كان من احتلال خلفه مصر كل البلاد حتى اللادقية بالشام ٠

***

ولما علم ياغى سيان أن جيشا كبيرا بقيادة قادة صليبيين فى طريقه اليه أنفذ كثيرا من الرسائل ـ شفاها وكتابة ـ الى جميع أمراء الشرق كله ، يطلب منهم مساعدته ، لاسيما خليفه بغداد وسلطان فارس العظيم ، وهو أقوى الحكام جميعا الذين استجابوا لطلبه فى يسر ، ولبوا نداءه على عجل ، وكان الحامل لهم على ذلك ما ترامى الى أسماعهم منذ وقت بعيد من خبر تقدمنا ، وما يحمله

هذا الزحف من خطر حسيم عليهم . ولما كان الب ارسلان يعلم بحربه وكشاهد عيان بما عليه هذه الجيوش الصليبية من كثرة العدد والبطولة التي لا تقهر ، فقد بعث الى هذين العاهلين بتفصيل دقيق عن هذه الجيوش .

وقد أثرت في هذين السلطانين الماساته الحاره ودموعه المسكوبة ، فاستجابا له بارسال النجده اليه ، وكان الباعث لأحدهما على هذه النجدة رغبته في التكفير عن تقصيره ، وأما الآخر فكانت استجابته ناجمة عن رغبته في ضمان سلامه بلده من غزوات الصليبيين . وحماية نفسه في الوقت ذاته من بطشهم .

وتعهد الملكان بارسال القوات المطلوبة اليه ومده بالمساعدة المنشودة ، وقد برهنت النتيجة فيما بعد على انهما صدقا فيما عاهدا ، وأوفيا بما وعدا .

كان القلق الشديد من مجيء الصليبيين مستبدا بباغي سيان . ومن ثم دأب على حشد العسكر من الولايات والمدن المجاورة ، واذ كان يتوقع الحصار بين لحظه وأخرى فانه لم يدخر وسعا في جمع الكثير من الميرة والسلاح ، وفي تشجيع أهل المدن وحثهم على جلب كل ما يحتاجه صنع الآلات من الحديد والصلب وغير ذلك من المواد الأخرى التي لا غنى عنها في العادة في مثل هذه الظروف ، كما ان الأهالي أنفسهم كانوا متحمسين غاية الحماسه في الحفاظ على سلامة المدينة وأمنها ، وبذلوا كل ما في طاقتهم لجلب كل ما يغنيهم ان هم حوصروا ، فلم يدعوا ناحية من نواحي الاقليم الا جابوها ونهبوا كل ما جاورهم ، وعادوا محملين بالحبوب والنبيذ والزيت وشتى مستلزمات الحياة ، وساقوا أمامهم قطعان الماشية والأغنام ، حتى امتلأت المدينة بكل ما هو ضروري من الميره ، ومن ثم استطاعوا

ـ بعد نظرهم وبجهودهم الكبيرة ـ أن يدعموا مركزهم أمام ضراوة الجيش الصليبي القادم عليهم .

أما البلاد التي مر بها الجيش الصليبي فقد هرب منها الى أنطاكيه كثيرون من ذوي المكانه والبأس ، فرارا من وجه غزاتها دون أن يدعوهم أحد لذلك ، وانما فعلوا هذا خوفا على سلامتهم ورأوا في تحصينات مدينة أنطاكية وقوتها ما يستحيل معه اقتحامها . ومن ثم زاد عدد سكانها زيادة عظمى بهؤلاء الوافدين . ويقال انه كان من بين الأهالي وجمعات المرتزقه حوالى سته أو سبعة آلاف فارس . وأكثر من خمسه عشر ألف أو عشرين الفا من المشاه المدججين بالسلاح تأهبا للحرب .

- ١٢ -

حين رأى رجالنا أنهم قد صاروا قاب قوسين أو أدنى من أنطاكية ، اجتمعوا للتشاور فيما بينهم ، واقترح بعض الزعماء ـ نظرا لقرب دخول الشتاء ـ أن يؤجلوا حصار المدينه حتى مطلع الربيع وبرروا هذا التأجيل بأنه سيكون من أصعب الأمور تجميع العسكر قبل ذلك الوقت ، نظرا لتشتت الجند في الوقت الحالي في المدن والقلاع المختلفه ، وزادوا على ذلك أنه يجب عليهم انتظار ما اعتزمه امبراطور القسطنطينية من ارسال فرقة كبيرة من قواته ، كما أنه كان في الطريق اليهم كتائب جديدة قادمة من البلاد الواقعه فيما وراء الألب ، وأن الحكمة تقتضيهم انتظار وصول هذه الجيوش التي سوف تؤدي الى زياده العسكر زيادة هائلة تمكنهم ـ كما قالوا ـ من تحقيق هدفهم المنشود في يسر أكثر .

أما في الفترة التي لا تمارس فيها هذه القوات الحرب فانه يمكن تقسيمها أقساما تذهب كل واحد منها بمفرده دون الآخر لقضاء الشتاء فيما جاوره من المناطق التي هي أقل تعرضا للهجوم ، حتى اذا ما وافى الربيع عاد الجيش وانضم بعضه الى بعض مرة أخرى ، وتكون رجاله قد استردوا نشاطهم ، وتأهبوا للقيام بالأعمال التي لابد لهم من القيام بها ، كما أن الخيول ستكون أوفر قوة بسبب العلف وما تتمتع به من الراحة أثناء فصل الشتاء .

على أن غيرهم رأوا ان هناك ما هو أحدث من ذلك . ألا وهو الاحداث بالمدينة في الحال في حركة مفاجئة وعلى غير توقع منها . وقالوا انه اذا أتيح للأهالي فترة من التقاط الأنفاس فسوف يتوفر لهم وقت أطول يصرفون فيه لدعم وسائل دفاعهم . وتجميع الكتائب الكبيرة التي استدعوها لمعونتهم .

ولقد تغلب في هذا الاجتماع التام رأى الفريق القائل بوجوب المبادرة الى حصار المدينة وأن الخطر في ارجاء القتال ، وأن القوات التي ترسل للاستكشاف لا ينبغي ان تنفصل بعضها عن بعض ، وهكذا انعقدت الآراء جميعا على الزحف على المدينة والبدء في عمليات الحصار في الحال واللحظة .

ومن ثم فقد فوضوا خيامهم يوم ١٨ أكتوبر وزحفوا شطر مدينة أنطاكية حتى صاروا أمامها ، وعلى الرغم مما قيل من أن القوات الصليبية التي كانت تحسن استعمال السيف كانت تبلغ ثلاثة آلاف شخص ليس بينهم امرأة ولا طفل . الا أنه كان من المستحيل على الجيش أن يحيط بالمدينة احاطة كاملة . ذلك لأنه بالاضافة الى قمم الجبال التي قلنا انها تقع في منطقة الأسوار والتي لم تبذل أية محاولة لتطويقها ، فان هذا الجزء من المدينة ممتد من

سفح الجبـل الى النهر ــ وهو جـزء أكثر انبساطا ــ لم يكن فى الامكان الاحداق به بحصار مستمر ٠

ولقد صـحب وصـــول الجيش الصليبى والعمل فى اقامه المعسكر كثير من الجلبة ، وكان يخيل للسامع أن نفخ الأبواق ، وصهيل الخيل ، وقعقعة السلاح ، وهى مختلطه بصيحات الرجال ، قد بلغت عنان السماء ، ومع ذلك فقد ساد المدينة صمت مطبق خلال ذلك اليوم بطوله والأيام التالية لوصول جيشنا ، ولم يتردد فيها صوت أو يسمع نأمة من أى نوع ، حتى لقد كان يخيل للمرء أن المدينة خلت تماما من كل مدافع عنها ، رغم أنه كان يقوم على حراستها أعداد كبيرة من الحرس ، ولديها الكثير من الميرة والمئونة ٠

- ١٣ -

كان فى هذا القسم من أنطاكيه ــ الواقع فى السـهل ــ خمس بوابات ، واحدة منها فى الموضع الأعلى من الناحيه الشرقية ــ وتعرف الآن ببوابة القديس بولس ، نسـبة الى أنه يوجـد فى المنحـدر الذى فى أعلاها دير مكرس للحوارى المسمى بهذا الاسم ، كما يوجد أمامها مباشرة بوابة أخرى تعرف بالبوابة الغربية ويفصلها عنهـا منطقة تمتد بطول المدينة ، وهى المعروفة الآن ببوابة القديس جورج والتى هى على مقربة من موضع كنيسة هذا الشهيد ٠

أما من الجانب الشمالى فكانت هناك ثلاثة أبواب تطل جميعها على النهر ، وتعرف العليا منها بباب الكلب ، ويوجد أمامها مباشرة جسر يجتاز المشى ويكمل السور ، وأما الثانى فيعرف الآن بباب

الدوق ويبعدان قدر ميل عن النهر . ويطلق على الثالث اسم باب الجسر اذ يوجد هنا الجسر الذى يعلو النهر ، وذلك لأن مياه النهر تلطم الأسوار ولا ترتد عن المدينه فيما بين بوابه الدوق المسار اليها حالا الواقعه فى المنتصف ، وبين آخر بوابه فى هذا الجانب ·

ولما كان من المستحيل على الجيش الوصول الى هذه البوابه أو بوابه القديس جورج الا عبر النهر فلم يضرب الحصار على هذين البابين وان أحيط بالأبواب الأخر العلويه ، فقام بوهيموند ومن انضموا الى معسكره منذ البدايه بمحاصرة أعلى هذه البوابات ·

وكان حوله - وان كان اسفل منه - عسكر روبرت دوق نورماندى . وروبرت كونت فلاندرز ، وستيفن كونت بلوا ، وهيو العظيم ، وقد استمر هؤلاء القادة بمن معهم من جماعاتهم النورماندية والفرنجية والبريطانيـة فى حصـار الناحية الممتدة من معسكر بوهيمـوند الى باب الكلب الذى أحـدق به ريموند كونت تولوز وأسقف بوى وغيرهما من النبلاء الذين ساروا تحت قيادتهم مع حشد كثيف من الجاسكونيين والبروفنساليين والبرجنديين ، وكانت جموعهم تشغل كافة المنطقة حتى البوابة التاليه ·

وقد أقام الدوق جودفروى معسكره فى تلك الناحية الاخيرة ، وكان معه أخوه أستاس ، وبلدوين دى هينولت وريتشارد دى تول ، وكونون دى مونتاج ، وكلهم من الكونتات والمحاربين ذوى الشهرة المدويه ، بالاضافه الى غيرهم من النبلاء الذين انخرطوا تحت رايه الدوق منذ البداية ، فشغلوا بمن معهم من عساكرهم اللوثارنجيين والفريزيين والسوابيين والسكون والفرنجة والبافاريين كل ما بقى من الناحية تقريبا حتى باب الجسر ، وقد وضعت هذه القوات على هيئة مثلث ، تمتد رءوسـه بين المدينـة وبين النهر الذى يغسـل

أسوارها ، وبين معسكر القواد الآخرين ، وكانت توجد في هذه الناحية الأحراج التي احتسها حشما عن آخرها واتخذ مما حصل عامة منها متاريس تحميه وتحمي خيوله .

★★★

كان أهل البلد يتطلعون من خلال الفتحات الموجودة في الأبراج والاسوار الى العسكر ، فأدهشهم بريق أسلحتهم الذي يخطف الأنظار وأذهلهم نشاطهم في عملهم نشاطا لا يعرف الكلل ، وطريقة اسكانهم من معهم ، وترتيبهم خيام المعسكر ، كما امتلأت نفوسهم خوفا مما شاهدوه من كثرة الجنود وقوتهم ، ولما راحوا يقارنون حاضرهم بماضيهم ، والأخطار التي تهددهم حاليا بما كانوا ينعمون به من استتباب الأمن تملكهم الفزع على نسائهم وأولادهم وبيوتهم التي درجوا فيها ، وعلى حريتهم وهي أعلى ما تملكه الانسان ، ورأوا أن من اختطفهم الموت أسعد حظا منهم لأنهم لم يكابدوا الخطر الشديد الذي يكابدونه هم من وجودهم في غمرة هذه المصائب ، وهكذا باتوا يترقبون بين يوم وآخر سقوط المدينة وهلاك أهلها ، وذلك لاعتقادهم الجازم أن حصارا كهذا الحصار الشديد ، يصحبه مثل هذه الشدة والرحم ، لا يمكن أن تسفر نهايته الا عن دمار المدينة وفناء حريتها .

- ١٤ -

كانت الحاجة الى حصول من في المعسكر على العلف لخيولهم والميرة اللازمة لأنفسهم حاملة اياهم على القيام بطلعات متعددة وراء النهر ، وقد ذهب بهم السير في بعضها الى مسافات قاصية ، وكانوا

يرجعون بعد كل خروج سالمين غانمين . بسبب استمرار بناء الاعمالى داخل المدينه دون أن يجسروا على التجوال فيما حولها ، حتى آلف العسكر العبور عده مرات فى اليوم الواحد رغم أنه لم يكن من المستطاع القيام بهذا العبور الا سباحه . وسرعان ما تجلت هــذه الحقيقة للمحصورين ، فشرعوا من جانبهم فى عبور النهر من فوق الجسر ، تاره جهرا وتاره خلسه ، مما أدى الى قدرتهم فى أحيان كثيرة الى قتل عدد قليل من رجالنــا . أو اصابتهم بالجراح ، لأنهم اعتادوا التجول هنا وهناك دون ان يأخذوا حذرهم ، وكانوا يحرزون فى أفراد قلائل بحثا عما يحتاجونه ، وقد استفاد العدو فائده قصوى من أن النهر كان يقف حجر عثره كبرى فى طريق عودة الصليبيين ، كما أن هذه الصعوبه ذاتها هى التى كانت تمنع أهل المعسكر من معاونة أصحابهم وهم يرونهم يقعون فى يد العدو ، وأراد القاده التغلب على هذا الموقف فرأوا الخير فى بناء برج من أى مادة تتوفر عندهم . لأنه ان يبن مثل هذا البرج تكن مساعدتهم أكثر فعالية فى القضــاء على أحابيل العدو ، كما انه يساعد العسكر على النجاح فى العودة الى مجتمعاتهم ، دون أن يتكبدوا الا خســائر طفيفة ، يضاف الى ذلك أنه يفتح طريقا آمنا ملائما للمشاه اذا ما دعاهم داع الى الخروج لأمر عاجل ، لاسيما ما يتطلب منهم النزول الى الساحل .

★★★

كان هناك عدد من المراكب راسيا فى النهر وعلى سطح البحيرة التى فوقهم ، فربطوا هذه القوارب بعضها الى بعض ربطا محكما ، ثم بسطوا عليها ألواحا سميكة ، ومواد خشبيه أخرى تصلح لهذا الغرض ، وأحكموا شدها بعضهــا الى بعض احكاما كبيرا بحبال مجدولة من الصفصاف ، وبذلك وجد جسر قوى كاف تماما لأن يتسع

فى المره الواحده عدة أشخاص يعبرونه جنبا الى جنب ، فكان هذا البناء الخشبى ملائما كل الملاءمة لرحالنا ، وكان منصوبا قرب معسكر الدوق فى مواجهة البوابة التى خصصت له للمراقبة ، وعلى مسافه تقرب من ميل من الجسر الحجرى المتصل بالمدينه ، ولا نزال هذه البوابة التى ذكرناها حالا تسمى ببوابة الدوق لارتباطه بها . اذ كان معسكره يشغل كل الناحية الواقعه بينها وبين الجسر الحديث البناء ، ولم يكن يشاركه فى هذا الموضع مشارك ٠

لم يكن الخطر يهدد الصليبيين من هذا الجسر وحده أو من ناحيه البوابة المتصلة به فحسب ، بل كانت البوابة العليا التى كانت السالفة فيما وراء ذلك ، والمعروفة اليوم بباب الكلب ، تعد مصدر خطر جسيم يهدد قواتنا ، لأنه كان فى هذا الموضع ــ كما قلنا ــ جسر صخرى يمتد فوق مستنقع ويخرج من المدينة ، وقد تكون هذا المستنقع من المياه المتدفقة بلا انقطاع من المنبع الموجود عند البــــوابة السرقـــة ، أو بوابة القــديس بولس ، وكذلك من المياه الواصلة على الدوام من الروافد الأخرى . وكثيرا ما جاءت عن طريق هذا الجسر غارات جمة فى منتصف الليل ، وأخرى فجائية بالنهار ، وكلها تســـتهدف معسكر كونت تولوز الموكل اليه حراســـه تلك البوابة ، وكان من عادة العدو أن يقتحم البوابه ويصب وابلا من السهام تتهاوى كالمطر الدفاق ، مما يؤدى الى مصرع الكثيرين من رجال الكونت واصابتهم بالجراح ، وكان حل اعتماد الخصم على هذا النوع من الهجوم لأنه يمكنه خير تمكين من النجاة سالما عبر الجسر الى المدينة بعد اتمام غارته ، وقتله من قتل ، بينما لا يستطيع الصليبيون مطاردته الا من هذا الطريق ، ومن ثم فقد كانت الجياد والبغال التى فقدها كونت تولوز وأسقف بوى وغيرهما من النبلاء المرابطين فى تلك الناحية تجاوز كثيرا ما فقده عسكر القادة الآخرين٠

أدت الخسائر التى وقعت فى صفوف المحاربين الناجمة عن هذا الوضع الى استيلاء الهم المقيم على الكونت والأسقف المعظم ، ومن ثم فقد استدعيا رجالهما ، ووجهاهم للحصول على مجنات وآلات حديدية ، وتوحيد جهدهم لتحطيم الجسر ، فلما كان اليوم المحدد لذلك الأمر قدم الفرسان وعليهم ررديابهم ودروعهم ، وقد غطوا رؤوسهم بالمغافر ، وتجمعوا عند الجسر ، وحاولوا هدمه بكل ما فى طوقهم من قدره لكن هذا البناء الأصم كان أقوى من كل حديد ، فقاومهم واستعصى عليهم . كما راح الأهالى يعرقلون جهد العسكر اذ يرمونهم بالحجارة ويمطرونهم بوابل من السهام والنشاب . فلما رأى الصليبيون فشل أنفسهم فى محاولتهم عده تحلوا عنها الى أخرى مخلفة لها ، فقرروا اقامة آلة حربية فى مواجهة الجسر مع وضع حراسة مستمرة من رجال مسلحين ، ليس لهم من عمل سوى صد الهجمات التى يسنها المحاصرون . وجمعوا اذ ذاك كل ما تحتاجه هذه الخطه . كما جاءوا بالعمال ، ولم تكد تنقضى غير أيام قلائل حتى كان العمل قد أنجز تماما على أحسن ما يكون الانجاز ، فقد بذل العمال جهدا شاقا ، وواجهوا الأخطار فى جرهم الآلة الى موضعها حتى قامت أمام الجسر كالصرح الممرد ، وعهد بها الى حماية الكونت وملاحظته .

فلما رأى البلديون الآله منصوبه الى الأسوار ، لم يحجموا عن المخاطره فصوبوا آلات رميهم اليها ، وحاولوا اضعاف الدما التى راحوا يصبون عليها وابلا غير منقطع من قذائفهم الحجرية الضخمة ، كما شرع الذين فوق الأسوار والأبراج يقوقون نبالهم وسواها من أنواع السهام ، ويرمون بها رميا شديدا يبغون بها من هم حول الآلة لردوهم عن الجسر .

وهكـذا استمر المدافعون الواقفون على الأسـوار فى سن عاراتهم من كل ناحية . وفى صب وابل من السهام والصخور يأخذ بعضهم بخاطر البعض الآخر أمـلا منهم فى رد الصاعدين الى الوراء ولو قليلا ، على حين اندفع غيرهم لفتح البوابة فى كرة عنيفة استـولوا فيها على الجسر عنوة ، وشقوا طريقهم الى الآلة يقاتلون من يعترضهم . وشنوا مسرعة فى أيديهم ، ومزحزحين من وكلت اليهم حمايتها ، ثم أشعلوا النار فيها حتى أحالوها رمادا ، حينذاك أدرك رجالنا أنهم لن يقدروا على التقدم ان هم اتبعوا هذه الخطة فى مواجهة المتاعب التى تصادفهم عند البرج ، ولذلك فما كاد اليوم التالى يطلع حتى كانوا قد اقاموا ثلاث آلات ، وراحوا يصبون منها وابلا موصولا من القذائف . مؤملين من وراء ذلك أن يضعفوا على الأقل الأسـوار والبوابة ليمنعوا الأهـالى من سن عاراتهم العدوانية ، وحتى لا يجرؤ أحد منهم على الخروج من تلك البوابة طالما أن الآلات مستمرة فى عملها ، ولكن لم تكن هذه العمليات لتهدأ قليلا حتى يعاود المحصورون هجماتهم ، ويسببون كثيرا من الأذى لمن اقترب منهم من أهل المعسكر .

غير أن هذه الخطة برهنت هى الأخرى على عدم جدواها ، فعمد الصليبيون الى ابتاع طريقة اقترحها عليهم واحد منهم ، ألا وهى أخذ الأحجار الكبيرة وجذوع الأشجار الضخمة التى يعجز المائة من الرجال عن زحزحتها الا بشق النفس وراحوا يدحرجونها ناحية البناية . وقام بهـذا العمل ألف فارس مدرعين تحت الجيش بأجمعه . حيث حملوا هذه الأشياء فوق الجسر ، وجعلوها كومة كبيرة أمام البناية ، فباءت اذ ذاك جميع محاولات الأهالى فى دفعها بالفشل الذريع وقضت هذه الخطط على كل هجوم فجائى يشنه العدو من هذه البوابة .

وحدث فى أحد تلك الأيام أن خرجت طائفة من المشاة والفرسان من جيشنا ، تبلغ الثلاثمائة عدا ، وجاوزت الجسر الى ما وراءه التماسا للعلف ، ونفروا حربا على عادتهم فى ربوع تلك الناحية بحثا عن الأشياء الضروريه ، وكانت حاجتهم الملحة فى التفتيش عن الطعام تضطرهم الى سلوك هذا الطريق الذى اعتادوه ، وعادوا سالمين من عدوانهم التى خرجوا فيها يبحثون عن الميره حتى وهم محملون بأحمال ثقال مما يحتاجونه ، ومن ثم اعتقدوا ان الحظ سوف يمشى فى ركابهم على الدوام ، ولم يخطر على بالهم أبدا امكان وقوع حادث لهم ، كتلك الأحداث التى تصاحب الخروج فى طلب العلف زمن الحرب ، فتناسوا الحذر والانتباه الواجبين .

فلما رأى المواطنون هذه الجماعة أرسلوا منهم حشدا كبيرا لمناغبتها ، حتى اذا ما عبرت الجسر الصخرى انطلقوا بكل ما أوتوا من قوة شطر الصليبيين الذين كانوا يجولون هناك دون أن يأخذوا حذرهم ، فأغاروا عليهم ، وقتلوا أكثرهم ، وأما من قدرت لهم النجاة فقد لاذوا بأذيال الفرار .

هرب الصليبيون الى الجسر المصنوع من القوارب رجاء الوصول الى المعسكر ، ولكن الجسر كان مزدحما بمن سبقوهم اليه ، واذ ذاك حاول أكثرهم عبوره عن طريق المخاضة ، فابتلعهم الموج وكان نصيبهم الموت بعد أن كان يراودهم الأمل فى النجاه ، وأما من سواهم . فقد تدافعت حشودهم الكثيفة وتزاحموا فسقطوا من أعلى الجسر فى النهر ، فصرعتهم الأمواج ، وقذفت بهم الى الأعماق التى فغرت لهم فاها وأبت أن تردهم .

حين سمع الجيش خبر هذه النكبه هب آلاف من الفرسان الى أسلحتهم وعبروا النهر . فاعترضــهم العدو وهو عائد بعــد قتله الصليبيين فرحا بمـا وقع فى يده من الغنائم ، فهاجمه رجالنا فى الحال ، وراحوا يقتصون آثاره فى عزم لا يلين ، حتى بلغوا بوابة المدينـه ، وكان الخطب جسيما . وحـين رأى أهل البلد اخوانهم الموطنين فى هذا الخطر الباعث على الأسى وهم يروحون ما بين قتيل وجريح تحركت قلوبهم عطفا عليهم ففتحوا الباب ، وتجمعوا عبر الجسر الحجرى ، فى جموع كثيفه لمد يد المعونه الى أصدقائهم ، وشنوا هجوما شديدا – لم يؤلف منهم من قبل – على قواتنا التى قاومت فى بداية الأمر مقاومه شديدة ، لكن ما لبث ان تغلبت عليها الجموع الكثيفة ، فولوا على أدبارهم هاربين ، وجد الخصوم فى اثرهم حتى بلغوا الجسر المصنوع من القوارب ، ومات فى هذا القتال كثير من مشاتنــا بحد السيف ، وابتلعت لجة النهر العديد غيرهم ، كمــا اضــطربت صفوف الفرســان وهم يهربون من العدو وراح بعضهم يزاحم بعضا ، فسقطوا هم أيضا فى النهر ، وقد أثقلتهم الدروع والزرديات والخوذات التى عليهم ، فابتلعهم اليم هم وخيولهم ، ولم يعودوا قط للظهور .

وهكذا كابد رجالنا من الحصار أهوالا لا تقل عما كان يكابده من كانوا وراء الأسوار ، ولم يعودوا قادرين على التخفى فى خروجهم الى النواحى التى حولهم بل أصبح أمرهم مكشوفا لأهل البلد الذين بذلوا من جانبهم كل محاولة لصدهم ، وحدث فى نفس الوقت ان أخذت قوات معادية أخرى تتربص بهم فى الغابات وتترصدهم فى الحقول ، وتنصب لتصيدهم الكمائن التى كثيرا ما صادفت النجاح . وترتب على ذلك أن فقد رجالنا الجرأة على الخروج من معسكرهم ، أو الذهاب بعيدا فى طلب الطعام كما لم يعد المعسكر ذاته مكانا

آمنا لأن الجمع صـــاروا فى فرغ من ان تاعبهم على عره القوه الضخمه ــ التى فبل أن العدو قد أحد فى جمعها من نواح متعدده ٠

هنا قد يتساءل الرجل العاقل : أى الحالين كان أحسن من عيرها ، وأيها كان مبعث فرع « حاله الجيش المحاصر أم أولئك الذين كان المفروض فيهم أن يكونوا محاصرين ؟ » ٠

- ١٧ -

لو حاولت ان أذكر بالتفصيل الاهوال التى كانت تقع عالدا كل يوم فى الأماكن المختلفه بسبب هذا الحصار العنيف الطويل الأمد لكان أمرا يطول شرحه وليس موضعه فى هذا الموجز التاريخى الذى أحاول أن أنجزه بكل الدقه ، فلنتجاوز الأحداث الخاصة ونتابع مجرى الحوادث العامة ٠

حينما دخل الحصار شهره الثالث مع تقلب الحظوظ فى عده الحرب المستمرة أخذ الطعام فى التناقص فى المعسكر وعانى الجيش الأمرين من قله المئونة ٠

فى البدء كانت هناك وفره بالغه الضخامة فى كل شىء تمس الحاجة اليه من طعام الانسان وعلف الجياد ، وتوهم الناس ــ جريا على عادة الجهال ــ أنهم سوف يظلون ناعمين بهذا الوضع السوى . غير متوقعين أى عناء قد يلم بهم ، ومن ثم لم يحسنوا التصرف فيما بين أيديهم من خيرات ، مما ترتب عليه ان أتوا فى وقت وجيز على ما لديهم من طعام كان المفروض فيه أن تكفيهم أياما طوالا لو أنهم التزموا الاعتدال فى استهلاكه ، لكن لم يكن هناك حد لاسراف

الجند ، ولم يلترموا القصد الذى هو سمه العقلاء ، بل كان ىم بدح سفبه فى كل ناحيه ، تعدى ضرورات عيش الانسان الى علف الجياد ودواب النقل ، ولم يعرفوا الوسط فى أى شىء مما نجم عنه أن أصبح الجيش بأجمعه موشكا على الفناء ، وذلك بسبب ما ترتب على انتشار المجاعه من تضاؤل عدد المحاربين ، وحينذاك نودى فى الناس بعقد مجلس عام يضمهم جميعا ، وقرروا تقسيم كل الغنائم التى تقع فى أيديهم قسمة عادلة ، وأكدوا قرارهم هـذا باليمين قطعوهـا على أنفسهم ، وكونت لذلك عده كتائب قوام كل منها ثلاثمائة أو أربعمائه رجل ، خرجوا معا وراحوا يذرعون الناحيه بأكملها فى محاوله منهم للحصول على الطعام بأى وسيلة يقدرون عليها •

واعتاد هؤلاء الباحثون عن الطعام ان يعودوا وقد فاضت أيديهم بالأسلاب الكبيرة ، والغنائم الوفيرة ، والمئونة الضخمة ، وكان ذلك قبل أن يأخذ أهل البلد أنفسهم بمهاجمه هذه الجماعات ووضع الكمائن لها ، وأيضا ابان الوقت الذى كان فيه الاقليم الذى حولهم لا يزال غاصا بقطعان الماشية والأغنام وأحمال الحبوب والشراب وغير ذلك من الغلات ، وكان هذا هو السبب فيما أشرنا اليه من قبل من وفرة المئونة فى المعسكر ، أما الآن فقد غاضت موارد الأراضى المجاورة ، ونقصت غلاتها ، أضف الى ذلك أن الترك الذين كانت شوكتهم قد ضعفت من جراء ما استولى عليهم من خوف أذل نفوسهم عادوا فاستردوا بأسهم وشجاعتهم فى الدفاع عما يملكون ، وأصبح العلافون يعودون [للمعسكر] صفر الأيدى ، وكثيرا ما كان يحدث أن يقتل الخارجون عن بكرة أبيهم فلا يبقى منهم أحد يحدث عما كان مصيرهم •

أخذت الذخائر تقل يوما بعد يوم ، وعمت المجاعة حتى لم يعد من اليسير الحصول بشلنين على الخبز الذى يكفى لوجبة الشخص

في يوم واحد ، وأصبح ثمن الثمره أو العجله ماركين بعد أن كانت تباع من قبل بخمسة شلنات ، ولا تكاد الثمانية شلنات تكفي لشراء علف وجبة واحده للحصان في ليله واحده ، وكان الجيش قد جلب معه أكثر من سبعين ألف حصان لم يبق منها في المعسكر سوى ألفين أو أقل ، أما البقية فقد هلكت بردا ، ونفقت جوعا ، أما مالازال منها حيا فقد أخذ عدده في التناقص شيئا فشيئا . وأصابها الهزال بسبب الجوع والبرد المهلك ٠

يضاف الى ذلك تسرب الرطوبة والعفن الى الفساطيط والخيم حتى لقد هلك الكثيرون ممن كانت لا تزال عندهم الأطعمه ، لأنهم لم يعودوا قادرين على تحمل البرد الشديد ، وليس عندهم من غطاء يدفع عنهم زمهريره ، وهطلت الأمطار الغزيره فأفسدت الطعام ، وتعفنت الملابس ، ولم يعد ثمة مكان يستطيع الحجاج ان يسندوا رؤوسهم اليه أو يكوموا حاجاتهم فيه ٠

وقد ترتب على هذه الظروف ان تفشى الوباء في كتائب العسكر ، وكان وباء قاتلا لم يجدوا معه مكانا يوارون فيه جثث موتاهم ، ولم يستطيعوا اقامة الشعائر الجنائزية لهم ٠

أما الذين كانت دلائل الصحة لا تزال باديه عليهم فقد فروا خفية حتى لا يقعوا فريسة لهذا الطاعون المهلك ، فهرب بعضهم الى لورد بلدوين في الرها ، وبعضهم الآخر الى قيليقيا عند حكام مدنها ، ومضى آخرون عبر هؤلاء وهؤلاء الى النواحي التي كانت قد آلت الى حكم الصليبيين ، ونجم عن رحيل هؤلاء ، وهلاك من قتله الجوع وأفناهم المرض ، ومن قتلوا بالسيف ان تضاءل الجيش الى الحد الذي قل معه عدد الأحياء منهم عن نصف ما كانوا عليه ٠

تدبر قادة الرب المخلصـــون ماران على الناس من الحزن ، وفكروا فيما شاهدوه من الأهوال التى ألمت بهم ، ففاضت نفوسهم حسره ، وتشفقت أكبادهم أسى على هذا الجيش المنكوب . فاجتمعوا كدأبهم للتشـاور فى ايجـــاد علاج يدفع هذه المصـــائب المهلكة واستعرضوا مختلف الاقتراحات ، حتى استقر الرأى بهم أخيرا على خروج أعظم قادتهم بطائفة من الجند لشن حملة على أرض العدو ، يستولون فيهـــا على الماشـــية ، وينهبون ما يقـــدرون عليـــه من الطعـــام اللازم ، على أن تقيم البقية الباقيـــة من الرجـــال فى المعســـكر أثنـــاء غياب هؤلاء الرجـــال ، وان تبذل هذه البقية الباقيـــة غاية الجهد فى حمـــاية الجيش ، واتفقوا على أن يكلوا مهمـــة جلب المئـــونة الى بوهيموند وكونت فلانــدرز ، وأن يبقى كونت تولوز وأسقف بوى لحراسة المعسكر ، وكان كونت نورماندى غائبـــا اذ ذاك ، كمـــا كان جـــود فروى دوق اللورين ملازما للفراش لاصابته بمرض شديد ، فاستصحب القائدان معهما طائفة كافية من الفرسان والجنود المشاة بقدر ما استطاع الجيش المنهوك امدادهما به ، ودخلوا أرض العدو .

ما كاد المحصورون يعلمون برحيل بوهيموند وكونت فلاندرز ، وبغياب كونت نورماندى ، وبمرض الدوق حتى دبت فيهم الشجاعه على غير عادتهم ، واغتنموا الفرصة لمهاجمة معسكرنا ، يقينا منهم جميعا بأن تغيب هؤلاء القادة انما هو فرصة لا يجوز أن تفلت من أيديهم ، فاستدعوا من المدينة حشدا كثيفا من شتى صنوف الناس واجتمعوا كلهم عند الجسر وكان مدخله مفتوحا . فراح كل واحد منهم يزاحم الآخر ويتدافعون فى اجتياز النهر : البعض منهم عن طريق الجسر ، والبعض الآخر عن طريق المخاضة السفلى فى محاولة

منهم لمهاجمة معسكرنا ، ولكن الكونت تصدى لهم بكتيبة من الفرسان ، فاضطرهم الى الارتداد الى المدينه وقد فقدوا رجلين من رجالهم ٠

وحدث فى أثناء هذا الخروج أن حاول بعض فرساننا الاستيلاء على جواد كبا براكبه فسقط عنه ، فلما رأى الحشد التعيس ـ الذى لم يعد يحسن التفكير ـ هذا المنظر خيل الوهم لهم أن الفرسان قد فروا خوفا ، ومن ثم فقد لاذوا هم أيضـا بأذيال الفرار ، وزاحم بعضهم بعضا عن كثب ، فكان فى ذلك هلاكهم بأيديهم ، وسرعان ما أدرك المواطنون أن الحجاج يولون الادبار دون أن يدفعهم أحد ، فاندفعوا مره أخرى فوق الجسر ، وهاجموا الهاربين بسيوفهم ، وتلاحموا واياهم ، ففروا منهم فتعقبوهم من الجسر الصخرى حتى بلغوا جسر المراكب ، وهنا كان الخطب جسيما ، فقد اندفع رجالنا وزاحم بعضهم بعضا حتى سدوا الطريق على أنفسهم ، فهلك منهم خمسة عشر فارسا وعشرون من الجند المشاة ، قد هبرت بعضهم السيوف فماتوا بحدها ، وغرق البعض الآخر فى النهر ، فملأت الفرحة الكبرى قلوب الأعداء بهذا النصر فانكفأوا الى المدينه قد أسكرهم النصر ٠

- ١٩ -

فى هذه الاثناء خرج بوهيموند وكونت فلاندرز بموافقة الجمع على رأس طائفة من الجند ، فى حمله لجلب الطعام ، مؤملين أن يعودوا بوفرة ضخمة من المئونة حتى يبددوا ما نزل بالمعسكر من الضيق ، وقد أدت غدواتهم الحسنة الطالع فى أرض العدو لتقليل نكباتنا ، لأنهم استولوا على منزل للعدو زاخر تماما بكل ما هو نافع ٠

وأرسل بوهيموند جماعة من الكشافه الى مختلف النواحى ، لتقصى أخبار الناحيه ، ثم الرجوع اليه بالغنيمة ان تهيأ لها العثور على غنيمة ، فلما رجعوا اليه أنبأه بعضهم أن عددا كبيرا من الأتراك قد نصبوا خيامهم فى تلك الضاحية ، فما كاد يسمع ذلك حتى بادر فأرسل ضدهم كونت فلاندرز مع حرس قوى ، ثم ما لبث أن مضى هو ذاته فى أثرهم على رأس الجيش الأصلى لمساعدتهم ان كانت ثمة حاجة الى مثل هذه المساعده ، ولكن لما كان الكونت رجلا شجاعا ومحاربا عظيما ، فقد استبسل فى مهاجمة الأعداء ، ولم يعد الى بوهيموند حتى كان قد أفنى من الكفار مائة ، فلاذت بقيتهم بأذيال الفرار ، وبينما كان راجعا الى الجيش الكبير مجللا بالنصر ، جاءه الكشافه الآخرون وأخبروه أن قوة من العدو تزيد عن سابقتها فى لتقصى أخبار الناحية ، ثم الرجوع اليه بالغنيمة ان تهيأ لها العثور على العدد والبأس تتقدم من ناحية أخرى ، فبعث لصدهم طائفة مع الكونت ، ثم مضى هو ببقية عسكره وراءه ليكون على أهبة لنجدته ان استلزم الأمر النجده ، وشاءت رحمة الرب التى كانت هدى لقوادنا — أن يتردى العدو فى بعض الشعاب الضيقة فانكفأ راجعا هاربا ، اذ أدرك ان لن تجدى الأقواس ولا السهام نفعا فى هذا المنال ، ولكن سيكون السيف هو الفيصل فى هذاالصراع وجها لوجه ، وهو نوع من القتال ليس بالمألوف عند العدو الذى ولى حينذاك على ادباره فارا فجد الصليبيون فى تعقبه مسافة ميلين ، وأوردوا الكثيرين من رجاله حتفهم ، ثم عاد رجالنا الى معسكرهم سالمين غانمين ، وجاءوا معهم — كرمز لانتصارهم — بالكثير من الجياد والبغال وغيرها من الأسلاب ، ومجمل القول أنهم عادوا بكل ضروب الغنائم التى استولوا عليها من شتى نواحى الاقليم المحيط بهم .

ولقد بث نجاحهم الفرحة العظمى فى نفوس اخوانهم الحجاج ، وأتاح لهم الفرصة للاستجمام وان كانت قصيرة يستريحون فيها من

نعمهم ، على أن الغنيمه — مع هدا كله لم تكن ضـخمة حـدا ـ بيد أنها كانت على أنه حال كافية لسموس حموعهم ولو لبضعه أيام قلائل ، ومن ثم فانه لم يتهيأ للجيش أن يتخلص تماما من متاعبه ٠

- ٢٠ -

وجاء في هذا الوقت من أرض رومانيا(١) خبر محزن ملؤه الشجو والفزع ، فبث الذعر في أفئدة الجمع وزاد من قسـوة وضعهم الباعث على اليأس ٠

لقد كان الخبر الذى ثبتت صحته كما يلي : —

كان هناك رجل شديد السطوة رفيع المكانة فى قومه يدعى روبين (وهو ابن ملك الدنمركين) ، قد جمع الى كرم الحسب حسن الخلق ، وبهاء الطلعة ، لكنه ، كان يتحرق شوقا للقيام بنفس هذا الحج ، فأسرع ليساعد فى حصار أنطاكية على رأس ألف وخمسمائه شاب من نفس الأمه خرجوا وعليهم من السلاح أحسنه ، واذ كانت مغادرته مملكة أبيـه بعـد فترة من خروج الآخرين فقد راح يسرع الخطى ما وسعه الاسراع ، عساه يمكن هو ومن معه من الانضمام الى الكتائب التى سبقته ، غير أنه انشغل بأمور خاصة به عاقت خطاه وعجز عن مغالبتها ، وكان أمله ان يتغلب عليها فتأخر ، فسار وحده على رأس قواته الخاصة من غير حراسة من أي احد من القاده الآخرين ، واقتفى أثر من سبقوه ، فبلغ القسطنطينية التى رحب

---

(١) لعله يقصد به جغرافيا آسيا الصغرى ٠

به امبراطورها أعظم ترحيب ، ثم تابع سيره حتى بلغ بيفيه سالما ، ثم أعذ المسير نحو الجيش فدخل أرض آسيا الصغرى فى جميع خاصته ، وعسكر دون أن يأخذ حذره ـ بين مدينتي «فيليو ميلنام» و «بيرما» ، فخرجت عليه قوه كبيره من الأتراك ليلا وباغتته فجأه ، وأخذته على غره فمثلته فى فسطاطه ، واستيقظ جماعتــه للأسف متأخرين على جلبه العدو المقترب ، فهبوا لحمل سلاحهم ولكن كان الوقت قد فات اذ هاجمهم العدو قبل ان يأخذوا أهبتهم تماما لصده وفتك بهم جميعا وان كانوا رغم ذلك قاوموه مقاومه بطوليه طويله ، وأحرز العدو النصر ، ولكنه نصر ملطخ بالدماء ، وبذلك لم يضــح رجال [رفين] بأرواحهم هباء .

- ٢١ -

كان الامبراطور كما قلنــا من قبل عين تاتيكيوس نائبا عنه ، ومرشدا للحجاج أثنـاء زحفهم ، فظل حتى هذه اللحظة مصاحبــا للعســــكر الحجاج ، أما الآن وقد رأى المصاعب المحدقة بهم فقـد ساوره الخوف ـ لجبن طبع عليه ـ ألا يستمر القادة فى حججهم .

وتوقع يوما يهلك فيه الجيش كله بسيوف الأعداء ، ومن ثم جاء الى مجلس اجتمع فيه القاده ، واجتهد غايه الاجتهاد ليحملهم على التخلي عن الحصار ، وتوجيه الجيش كله الى المدن والقلاع القريبة منهم لأنهم واجدون فيها المئونة بوفرة زائدة كما انهم يستطيعون هنا ان يستمروا فى مضايقة أهل أنطاكية لأن الامبراطور كان قد جمع لمساعدتهم حشودا من أمم شتى بلغت آلافا لا يحصيها العـد وأعدها كى تصلهم مع مطلع الربيع ، وأضاف تاتيكيوس الى ذلك

انه لما كان قد عزم منذ البداية على أن يشاطرهم متاعبهم ، وأن يكون معهم فى السراء والضراء ، وفى العسر واليسر فانه يريد أن يقوم بمهمة أكبر مما عهد القيام بها ، ويستهدف الصالح العام ، فذكر لهم أن قصده هو أن يذهب لخطبه الى الامبراطور لحث الجيش الامبراطورى على الاسراع ، وان يعد المئونه اللازمة من الطعام ليحملها معه من الناحية التى على هذا الجانب من المدينه فلم يعارضه أحد من قادتنا ولم يرفضوا اقتراحه ، رغم أنهم كانوا يدركون منذ الوهلة الأولى مكر تاتيكوس وخيانته التى حاول سترها بما زعمه لهم من دعوى تحملهم على تصديقه ذلك أنه ترك معسكره وجانبا غير ضئيل من أتباعه لم يستصحبهم معه ، والحق أنه لم يفعل ذلك الا لأنه لم يكن يعبأ بما فيه سلامتهم أو ربما لانه أوعز اليهم سرا أن يرحلوا فى أثره ، وجعل بينه وبينهم موعدا يوما يلقاهم فيه عند مكان حدده لهم ٠

ورحل تاتيكيوس مدعيا أنه عائد اليهم عن قريب ، لكنه لم يأت بعد ذلك أبدا ، فدل ذلك على لؤم نفسه ، وخبث طويته ، ونكثه لعهده وأنه بذلك يستحق الموت الأبدى ٠

لقد كان رحيله سابقة مؤذية فلم يعد القادرون على التسلل خلسة من المعسكر يعبأون بما قطعوه على أنفسهم من الأيمان ولا يكترثون بالعهود القوية التى أخذوها على أنفسهم منذ البداية ٠

وكانت المجاعة فى نفس الوقت تزداد افحاشا وتعسيا ، وعجز القاده عن ايجاد حل بات ينقذهم من هذا الشر المستطير ، فتحيروا من بينهم جماعة اتفقوا على أن يخرج منهم كل اثنين معا مرة بعد الأخرى بقوات كبيره الى أرض العدو ، وغالبا كانوا يعودون الى قومهم منتصرين ، وان لم يغنموا شيئا وليس معهم شىء من الميرة التى كانت حاجتهم اليها ملحة بل يعودون صفر الأيدى ، ذلك أنه كان قد تردد

بين العدو نبأ اعتباد خروج الصليبيين وشنهم الهجمات ، فبادر الأعداء لنقل قطعانهم ومواشيهم وغيرها مما يملكون من صنوف الحيوان الى الجبال التى لم يكن ثم سبيل لاقتحامها ، ولم يكن الصليبيون قادرين على التوغل فى تلك النواحى البعيدة التى اعتصم خصومهم بها ، وحتى لو قدر لهم أن ينجحوا فى الوصول اليها فانه لم يكن من الهين أن يغنموا شيئا ٠

- ٢٢ -

كانت المجاعة اذ ذاك تزداد تفشيا وشدة فى الجيش يوما بعد يوم مما نجم عنها انتشـــار الطاعون وكثير من الأمراض الأخرى ، ونسب أصحاب السن الكبيرة وأهل الخبرة الواسعة هذه الأهوال الى خطايا الناس ، وان الرب استشاط غضبا منهم ، وحق له أن يغضب ، فصب سوط عـذابه على أطفــاله المارقين لذلك اجتمعوا فيما بينهم للتشاور فيما يفعلون ، وخافوا الله كأنه أمامهم يرونه رؤيا العين ، وشرعوا يتحاورون فيما يجب عليهم ، فرأوا أن يبادروا بالتكفير عن آثامهم واعلان توبتهم الصدوق ، والرجوع عن أخطــاء الماضى ، وتجنب الوقوع فى مثلها فى المستقبل ، مؤملين من وراء ذلك أن يطفئوا غضب الرب ٠ واذ ذاك قام صاحب الشرع فيهم أسقف بوى نائب الكنيسة الرسولية وسواه من كبار رجال الدين أحباب الرب ، وأجمعوا الرأى على مطالبة الجيش كله وأمرائه العلمانيين بصيام ثلاثة أيام عسى أن يكون تعذيبهم الجسد مؤديا الى شـد عزائمهم ، فلما فعلوا ذلك مخلصين صمموا على تطهير المعسكر من كل عاهرة وامرأة كريهة السمعة ، وجعلوا الاعدام عقوبة للفحشاء والفجور بشتى أنواعه ، وصدر قرار الحرمان على المجان والسكيرين،

ووقع تحت طائلة هذا العقاب شتى أنواع ألعاب القمار والقسم بالأيمان الكاذبة والتطفيف في الكيل والغش في المقاييس ، وكل ضروب الاحتيال من سرقة الغير ، ونهبهم ، وسلبهم ·

ولما تقررت هذه القواعد ووافق عليها بالاجماع عينوا قضاة وكلوا اليهم مراقبة هذه الآثام ، ومنحوهم كل السلطة في الكشف عن أصحابها ، وانزال العقاب بهم فما لبثوا أن وجدوا بعد قليل جماعة شجبت هذه القوانين ، فلما قامت البينة على هؤلاء الخطاة شهر بهم تشهيرا قاسيا ، وأدانهم القضاة ، وحكموا عليهم بأقصى ما يقضى به القانون تبعا لنوع الجريمة التي ارتكبها الواحد منهم ، فارتدع سواهم وكفوا عن اقتراف جرائم كهذه الجرائم ·

وهكذا عاد الناس برضوان الله ورحمته يجنون ثمار الحياة الطاهرة وهدأ غضب الرب عليهم ، وتجلى هذا في أن أحد اللورد جود فروى — الذى كان وحده أشبه بدعامة الجيش كله — في النقاهة واسترداد صحته تماما ، وتعافى من وعكته الحادة التى آدته طويلا بسبب الجرح الذى أصابه من الدب في بسيديا من ضواحي أنطاكية ، وكان شفاؤه عزاء كبير للمحاربين في محنتهم ·

— ٢٣ —

ترددت في هذه الأثناء اشاعات وأخبار رن صداها قويا في كافة أنحاء المشرق ، وجاورته حتى بلغت ممالك الجنوب والشعوب الأخرى الخارجية مفادها أن قوات كبيرة من الصليبيين زحفت حتى بلغت أبواب أنطاكية وأنهم كانوا يدا واحدة في حصارهم اياها

فخاف كل حاكم على بلده ، وباروا ، فاندس الجواسيس يسللون الى جيشنا الوافد للوقوف على التفاصيل الدقيقه حول أسلوب هذا مزودين بالتقارير عن أحوال المعسكر الصليبي الى من دسوهم علينا ، ثم يحل سواهم مكانهم لنفس العرض ، ولم يكن دون أن يتعرف عليهم أحد لأنهم كانوا يتقنون عده لغات ، فيزعم البعض منهم أنهم اغريق ويزعم سواهم أنهم سريان ، ويدعى غيرهم أنهم من الأرمن ، ويصطنع جميعهم في يسر وسهوله ما لهذه الأمم من خصائص في لهجتها وعاداتها وزيها •

لذلك اجتمع القادة للنظر فيما ينبغي عليهم اتخاذه لتأمين السلامة العامة من هذه الناحية ، ولم يكن من اليسر اخراج هؤلاء الجواسيس من المعسكر لأنهم كانوا قل ان يختلفوا — الا نادرا — عن أهل هذه الأمم التي ذكرناها : لغة وعادات وتقاليد ، فرأى القادة أن يوقعوا ما يرون من عقاب على أفراد قلائل فقط ، حتى يقفوا تماما على الاجراءات التي يتم اتخاذها ضدهم جميعا •

كان هناك ما يدعو هؤلاء الزعماء الى التخوف من مغبة معرفه الكثيرين بأخبارنا ، والى ما يتخذونه حيال هؤلاء الناس فيتسامع بما اتخذوا من ينقلونه الى العدو رعبه في الأضرار بالصليبيين ، واذ بدا للزعماء صعوبة الوصول الى ما يمنع هذه المكائد منعا باتا فقد قام بوهيموند — ذو الذهن الثاقب والفكر الوقاد خطيبا في الزعماء قائلا لهم : —

« سادتي وأخوتي : خلوا مسئولية هذا الموضوع كلها على عاتقي ، وكلوها الى فاني بعون الله واجد لها العلاج الناجع » •

فوافقوه على ما سألهم وانفض سامرهم ، وعاد كل واحد منهم الى معسكره ، وما كاد الليل يرخي سدوله على المعسكر ويستعدون

لاعداد العشاء ، حتى قام بوهيموند ـ وهو ذاكر ما قطعه على نفسه من عهد ـ وأمر باحضار بعض الأسرى من الترك الى مجلسه هذا ، وأسلمهم الى الجلاد آمرا اياه بشنقهم ، ثم أوقد نارا عظيمة كما لو كان يهيىء العشاء ، وأمر بغسل هذه الاجساد ثم شيها على النار ، وألقى بتعليماته الى رجاله أن لو سألهم سائل عن معنى الذى يرون أجابوه بأن الأمراء قرروا من الآن فصاعدا أن نزود موائد القادة بلحوم جميع الأعداء والجواسيس ، بعد طبخها على هذه الصورة •

وانتشرت فى جميع أرجاء الجيش أخبار هذه الاجراءات التى اتخذها بوهيموند فى معسكره فسابق الجميع الى فسطاطه فى فى دهشة ليشاهدوا هذه الخطة الجديدة . وتملك الفزع من كان بالمعسكر من الجواسيس ، وأيقنوا أن ما ظنوه اشاعة صار واقعا ، وأدركوا ما سوف يؤول اليه مصيرهم فغادروا المعسكر فى لحظتهم هذه ، وعادوا الى بلادهم من حيث أتوا وأخبروا سادتهم الذين كانوا قد بعثوا بهم ان ليس لأمة [الفرنجة] مثيل فى الوحشية بين الأمم بل ولا بين الحيوانات المفترسة ، فهم قوم لا يقنعون باحتلال مدن عدوهم وقلاعه ، ولا يكفيهم أن يغنموا شتى أنواع المتاع والرمى بخصومهم فى السجون أو تعذيبهم أو قتلهم ، بل ان هؤلاء الصليبيين يسعون كذلك لملء بطونهم بلحم عدوهم ، ولعق شحمه •

وانتشرت هذه الشائعات وأمثالها ، وتوغلت حتى أقصى بلاد المشرق ، فدب الذعر فى نفوس جميع الأمم ، يستوى فى ذلك من قرب منها ومن بعد ، كما استولى الخوف على كل مدينة أنطاكية وارتعدت أوصالها فرقا وفزعا من وحشية هذه الاجراءات ، وهكذا أدت اجراءات بوهيموند الى التخلص من شر الجواسيس الذين كانوا طاعونا ، وأصبحت خططنا مصونة قبل أن يعرف العدو شيئا عنها •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بصاف الى ذلك أن خليفة مصر – وهو أقوى السلاطين المارقين بسبب كثرة ما لديه من المال والرجال – كان قد أرسل رسله الى فانيا ، ويتلخص أسباب بعثه اياهم الى وجود عداوة متأصلة وعميقة الجذور منذ سنوات طويلة بين أهل المشرق والمصريين ، وهى عداوة ناجمة عن اختلاف معتقداتهم الدينية بعضهما عن بعض ، ومنابذة مذهب الواحد منهم لمذهب الآخر ، وظلت هذه الكراهية دون انقطاع حتى يومنا هذا ، ومن ثم ظلت هاتان المملكتان تحارب كل منهما الأخرى حربا لا هوادة فيها ، وظلت المنافسة بينهما موصولة فكانت كل منهما تسعى الى مد حدودها على حساب الأخرى ، كما بينا ذلك بدقة فى الكتاب الأول من هذا التاريخ ، وتأرجحت السيادة بينهما على مدى الأيام ، فتكون تارة لهذه وتارة لتلك ، وتكون النتيجة أن ما يزداد فى رقعة أملاك واحدة منهما ينقص مثله من أراضى الأخرى.

أما الآن فقد كانت جميع البلاد الممتدة من مصر الى اللاذقية الشام (ونقدر بمسيرة ثلاثين يوما) تحت حكم خليفة مصر ، ولكن حدث قبل ذلك أن قام سلطان فارس – كما ذكرنا آنفا – واستولى قبل مقدم الصليبيين على أنطاكية المتاخمة لحدود المملكة المصرية – كما احتل البلاد الممتدة حتى مضيق البسفور ، وكان حاكم مصر ينظر بعين الريبة الى كل توسع من جانب الفرس أو الترك على السواء ومن ثم كانت فرحته بالغة حين جاءته الأخبار بضياع نيقية من يد قلج أرسلان ، وبهزيمة جيشه فيها ، وأثلج صدره ما علمه من قيام الصليبيين بحصار أنطاكية ، وعد كل خسارة تصيب الأتراك مكسبا له ، ورأى أن المصائب التى تلم بهم تعمل على استقرار أمنه وأمن رعاياه ، وخاف أن تؤدى أهوال طول الحصار الى فشل

رحالنا ، ومن ثم بعث بسفرائه ورجال من حاشيته الى زعمائنا ، يحملون اليهم رجاءه في أن يستمروا في حصارهم الذى فرضوه على أنطاكية ، وعهد الى مندوبيه أن يؤكدوا للصليبيين أن مولاهم السلطان سوف يعينهم بالجند والذخيرة . كما حاول هؤلاء السفراء أيضا كسب الزعماء وحملهم على عقد معاهدة صداقة بين الطرفين ·

وأطاع الرسل أمر مولاهم طاعة صادقة وركبوا البحر فوصلوا الى المعسكر الصليبي . وهم أحرص ما يكونون على أداء المهمة التى حملوها ، فتلقاهم زعماء جيشنا بما يليق بهم من الحفاوة والتبجيل ، وعقدوا معهم عدة اجتماعات ، ليتيحوا لهم الفرصة لابلاغ رسالتهم ·

وأعجب المبعوثون بما رأوه من رجالنا وكثرة عددهم ووفرة سلاحهم وقوة صبرهم على تحمل الشدائد . كما امتلأت قلوبهم حزنا من هذا الجيش ذى القوة المتين . لما أحسوه فى قرارة أنفسهم بما يمكن ان يحدث في المستقبل مما قد يتعرض له مولاهم من تجربة مريرة وهو يحاول سرا نزع قوة واحلال أخرى مكانها ·

ومجمل القول أنه بعد أن تمكن الصليبيون بفضل الله القدير من فتح أنطاكية ، وردها الى العقيــدة المسيحيه وحريتهــا الأولى أن تحررت كل البلاد الممتدة من تلك المدينة حتى حدود مصر القريبة من غزة ، وهي بلاد تقدر مساحتها بمسيرة خمسة عشر يوما ، وقد أصبحت الآن فى أيدى الشعب المؤمن ·



هنا ينتهى الكتاب الرابع



الكتاب الخامس

حصار أنطاكية واحتلالها

فصول الكتاب الخامس

الشاطىء فيقع بعضـــهم فى كمين من الكمائن فيهلكون ٠

٥ ـ خطة رائعة للدوق ثأرا لهذه النكبة الفادحة ٠

٦ ـ العـــدو يعود مكللا بالنصر ولكن ســـيوف الصليبيين تنوشه عند مدخل المدينـــة فيهلك ألفان من رجاله ويوسط الدوق فارسا كافرا ٠

٧ ـ رجالنـــا يقيمون متراســـا على رأس الجسر ويرسلون الى السفن [الجنوية] ما يدل على انتصـــارهم ٠

٨ ـ احاطة المدينة بقلعة جديده أقيمت فى مواجهة الباب الغربى ٠

٩ ـ العسكر الذين كانـوا قد تشردوا هنا وهناك يعودون الى الجيش ، ويرسل بلدوين الهدايا من الرها الى كل واحد من الزعماء ٠

١٠ ـ عندما ينتشر فى المعســكر خبر اقتراب جيش العدو يدعى سيفن كونت بلوا المرض ويمضى الى الميناء معتزما عدم العودة ٠

١١ ـ وصف حال أنطاكيـــة ، ووصف الصداقه التى قامت بين بوهيموند وبين [فيروز] أحـــد مسيحيى المدينة ٠

١٢ ـ المؤامرة التى تمت على يد الرسل بين بوهيموند وبين ذلك الرجل الوفى [فيروز] ٠

١٣ ـ بوهيموند يبذل جهودا ساقه ليتسلم وحده المدينـه حين استسلامها فيوافق الزعماء باستثناء كوس بولور ٠

١٤ ـ الحلفاء [المسلمون] يحاصرون الرها اثناء زحفهم لنجده أنطاكيـه لكنهم يضطرون ازاء مقاومة بلدوين الشديدة الى الارتداد عبر الفلوات دون ان يكسب لهم النجاح ٠

١٥ ـ المسيحيون يشعرون بالفزع الشديد بسبب اقتراب العدو ويرسلون الكشافة للاستطلاع ٠

١٦ ـ الزعماء يجتمعون لتبادل الرأى فيما بينهم وبوهيموند يعلن السر الذى استودعه اياه صديقه فيروز ٠

١٧ ـ الزعماء يتنازلون عن المدينـة لبوهيموند عن طيب خاطر فيقوم هو بمفاوضة صديقه [فيروز] فى السر بشأن تسليمها اليه ٠

١٨ ـ الأهالى يشكون فى فيروز فيعلن براءه ساحته أمام والى المدينة ٠

١٩ ـ وصف ما كان يكابده مسيحيو أنطاكيـة من الارهاب فى القيام بأعمال كبيره يسوء بها كاهلهم وكيف فشلت المذبحة التى دبرت للقضاء عليهم ٠

٢٠ ـ الجنـود [الصليبيـون] يغادر معسكرهم تنفيذا لخطـة فيروز مع عزمهم على العودة ليلا ٠

٢١ ــ بوهيموند يوسل الى صديقه كى يتم ما بدأه فيعمد فيروز الى قتل أخيه لمخالفته اياه ويدخل الصليبيين الى المدينة بواسطة سلم من الحبال ٠

٢٢ ــ المهاجمون يستولون على أحد المداخل ويفتحون الأبواب ، ويندفع العسكر الذين شاركوا فى هذه الخطة الى داخل المدينة ، ويتم الاستيلاء على أنطاكية عنوة ٠

٢٣ ــ الأهالى يرتدون الى القلعة اما ياغى سيان فيلاقى مصرعه خارج الأسوار أثناء محاولته الهرب وهلاك الكثيرين لسقوطهم من الجبل ٠



هنا يبدأ

الكتاب الخامس

حصار أنطاكية واحتلالها

- ١ -

فى نفس هذا الوقت كان أهل أنطاكيه وواليهم فى اقصى حالات الدعر بسبب الظروف التى يعيشون فيها . ولم يعفهم سده ضجر الحجاج من المشقة التى تحملوها . مع صابريهم على ما بيدهم من عمل ، وعدم انصرافهم عن مشروعهم رغم وطأه الظروف القاسية من الجوع والبرد القارس ، بل لقد جرى العكس من ذلك اذ ظل هؤلاء الصليبيون — رغم متاعبهم الجمة — صابرين على السير قدما بعزم ثابت نحو تحقيق الهدف الذى وضعوه نصب أعينهم .

وراح المواطنون — نظرا لما هم فيه من الشـده — يبعثون بالكتب والرسائل . واحدة تلو الاخرى الى من جاورهم من الأمراء ، يسألونهم المبادره الى نجدة اخوانهم . ويدلونهم على أجدى السبل لأداء هذه المساعده ألا وهى أن يدعوا حلفاءهم يتوجهون الى المدينة ويستخفون هم فى كمين حتى نشتبك المواطنون — كعادتهم — فى قتال العدو عند الجسر ثم بتركونهم منصرفين الى القتال فى هذا المكان ، وحين يكون من بداخل أنطاكية مستغرقين تماما فى تلك المواجهة . يخرج أهل الكمائن من كمائنهم ويباغتون الصليبيين الذين يكونون من غير حرس يحرسهم ، فيقعون تحت وطأة الهجوم

عليهم من الأمام والخلف في آن واحد ، فلا يتسنى لأحد منهم النجاة من الموت ٠

ولبى هذه الاستغاثة جيش كثيف من أهل حلب وشيزر وحماه وحمص ومنبج وغيرها من المدن المجاورة ، وخرجوا في سكون بالغ وصمت مطبق ـ حسب الأوامر التي صدرت اليهم ـ حتى قاربوا مدينة « حارم » التي لا تبعد عن أنطاكية بأكثر من أربعة عشر ميلا وضربوا معسكرانهم أثناء انشغالهم بالهجوم على المدينة ، غير أن المخلصين من سكان الناحية ، والذين طالما ساعدونا شعبيا ، أخبروا القادة باقتراب هذا العسكر ، وشرحوا لهم أوضاعه ، فلما بلغهم الخبر اجتمعوا للتشاور فيما يفعلون في هذا الوضع ، فاتفق الرأى منهم أخيرا على أن يغتنموا فرصة دخول الليل فينطلق سرا كل من بالجيش من الفرسان أصحاب الجياد الصالحة للخدمة ، ويرتبون صفوفهم للقتال خلف أعلام قادتهم ، على أن يبقى الرجالة في الوقت ذاته لحماية المعسكر حتى يعود رؤساؤهم الذين خرجوا امتثالا لأمر الرب ٠

- ٣ -

لم يكد الليل يسدل طنبه على الكون حتى غادر الزعماء المدينة حسب الاتفاق ، فساروا على الجسر المصنوع من القوارب ، ومعهم سبعمائة فارس ، حتى صاروا قرب مكان يبعد ميلا من هنا ، وهو واقع بين نهر العاص والبحيرة التي أشرت اليها في وصفي المدينة ، فأقام الجند هنا هذه الليلة مستجمين ، دون أن يعلم العدو بخبر تقدمنا هذا ، ولكن رجاله عبروا النهر هم أيضا في نفس الليلة عن طريق الجسر الأعلى ٠

★★★

على أنه لم تكد طلائع نهار اليوم التالى تظهر فى الافق حتى أعد الصليبيون أسلحتهم وقسموا كتائبهم ست فرق جعلوا كل واحدة منها تحت قيادة رئيس معين كانوا قد اتفقوا عليه من قبل . وأما الترك فقد اتخذوا مكانهم فى ناحية من الضاحيه ، لأنهم علموا من كشافهم أن جماعتنا زاحفه عليهم ، وقد أرسلوا أمامهم فرقتين من العسكر حرسا للجيش الرئيسى الذى كان يتبعهم .

لم يكن مع الصليبيين – كما قلنا – الا قرابة سبعمائة رجل وشاءت الاراده الالهية أن يقسم هؤلاء أنفسهم الى كتائب حسب ما تقتضيه أصول الحرب ، فكان يخيل لرائيهم أنهم آلاف مؤلفة من قوات اضافيه قد بعثتها لهم السماء .

ولما أخذ عسكر العدو فى التقدم والزحف جماعه تلو جماعه ، شرع من كانوا فى الصفوف الأماميه فى شن هجوم عنيف على خطوطنا ، وراحوا يرمونها بوابل هتان من السهام ، ثم يرتدون فى الحال . فلم يعبأ جنودنا بهجومهم . بل زحفوا عليهم . واقتربوا منهم كل الاقتراب ، وكروا عليهم مستعملين سيوفهم وشجاعتهم ، فشقوا لأنفسهم طريقا الى عدو عقيدتهم . والسيوف مشرعة فى أيديهم فاضطربت صفوفهم ودافع بعضهم بعضا . واختلط حابلهم بنابلهم وأحيط بهم فى بقعة كانت البحيرة فيها على أحد جانبيهم . والنهر على الجانب الآخر ، وفقد الترك حرية التحرك فعجزوا عن استعمال فنونهم المألوفة من الرشق بالسهام فالارتداد لكنهم تجمعوا خوفا من أن تنوشهم السيوف ولم يعودوا قادرين على تحمل الضغط الذى مارسه الصليبيون عليهم . وسرعان ما أيقنوا أن أملهم الوحيد فى السلامه انما تكون فى فرارهم . فانقلبوا على أعقابهم هاربين ، فجد رجالنا فى تعقبهم وقد تملكتهم الحماسه ، حتى بلغوا مدينة « حارم » التى كانت تبعد عن ساحة المعركة عشرة أميال ، واستمر القتل فى العدو أثناء ارتداده .

ولما رأى أهل البلد أن الدائــرة قد دارت على عسكرهم الذى هلك معظمــه بسيوف الصليبيين المنتصرين ، خافوا البقـــاء فى القلعة بعد هذه النكبة التى ألمت بأصدقائهم . فأشــعلوا النار فى المكان ، ولاذوا فرارا ·

غير أن الأرمن سكان هذه المنطقة ، وغيرهم من النصارى الذين كان الكثيرون منهم يقطنون تلك الناحية ، اســتولوا على المكان ، وأسلموه فى الحال الى قادتنا قبل عودتهم الى المعسكر · ولقد هلك فى هذا اليوم قرابة ألفين من رجال العدو ، وكانت نشوة الصليبيين عظيمة بما جرى · وفرحتهم ظاهرة بما وقع من النصر المزدوج ، الذى بث فيهم الشجاعة ، وحمدوا الله على ما أتاهم من فضــــله ، ثم عادوا الى مخيماتهم حاملين معهم خمسمائة رأس من قتلى العدو ، وكميات ضخمة من الأسلاب ، من بينها ألف من الجياد القوية ، كانت ذات جدوى عظيمة لنا ·

- ٣ -

ظل أهالى أنطاكية ذلك الليل فى انتظار الســاعة المرتقبة ، وراحوا يستعجلون فى لهفة شروق الفجر تطلعا لهجوم من الخارج يقوم به حلفاؤهم على نصارى المدينة ، فان تم ذلك خرجوا هم من المدينة متلصصين وباغتــوا الصليبيين على غفلة منهــم ، وكانــوا يؤملون أن يؤدى عنصر المباغتة التى لم يستعد لها الصليبيون الى دمارهم ·

وجاءت الساعة الأخيرة من الليل وقد أخذت الســماء تشرق بضــوء دون أن يظهر أى شيء يدل على تقــدم حلفائهم ، ومع ذلك

وقد ذكر كشافيهم أن بعض الزعماء الصليبيين خرجوا كما لو كانوا ماضين لمواجهتهم ، ومن ثم جمع المواطنون قواتهم ، واندفعوا اندفاعا عنيفا من الابواب ، وظلوا معظم هذا اليوم فى مصادمات شديدة مع هؤلاء الصليبيين وأخيرا أفادهم حراسهم الذين كانوا في مواضع عاليه بالمدينة أن هناك جيشا آخر فى الاقتراب ، ومن ثم ارتدوا الى ما وراء الأسوار ، ورابطوا فى الأبراج خلف المتاريس فى النواحى المرتفعه من البلد فى انتظار الجماعات القادمه ، لأنهم كانوا لا يدرون ان كان هؤلاء القادمون من الأعداء أم من الحلفاء ، فلما دنا العسكر من المحاصرين رأوا ملابسهم الحربيه وما معهم من الغنائم والاسلاب فعرفوا حقيقتهم . فاشتد بهم الفزع منهم فقد أدركوا أنها القوات الصليبيه عائده بعد انتصارها على الحلفاء الذين كان المحاصرون يترقبون حضورهم فى لهفة ، فأسلموا أنفسهم للبكاء ، فقد تلاشت آمالهم الجسام . وتقدم جندنا من المدينة ، وانطلقوا الى المعسكر ، ثم أمروا بطرح رؤوس مائتين من الأتراك قبل ان الآلات قذفت بها الى داخل المدينه ، لكى تكون شاهدا على ما أحرزوا من نصر ، ولتزيد فى مضاعفة آلام العدو المبرحة .

أما بقية رؤوس القتلى فقد رفعت على ساريات نصبوها أمام المدينة رامين من وراء ذلك أن تكون هذه المناظر المفجعة قذى فى عيون المحصورين فتتضاعف همومهم الثقيلة ، وعرف من روايه الأسرى الدقيقة أن الحلفاء الذين كانوا يزمعون الحضور لمساعدة أنطاكية قاربوا ثمانية وعشرين ألف مقاتل .

وقد جرى هذا الأمر فى اليوم السابع من فراير عام ١٠٩٧ من مولد السيد المسيح .

فى هذه الأثناء صدق عزم قادتنا على تشييد حصن منيع . أقاموه على رابية مشرفة على معسكر بوهيموند ، راجين من وراء ذلك أن يقف هذا الحصن الحديد سـدا أمام الترك لو راودتهم نفوسهم بالاغارة على قواتنا متى شاءوا . فلما فرغ زعماؤنا من تشييده أقاموا به حامية يقظة تمام اليقظه ، فاطمأنت جوانح العسكر كلهم ، وأحسوا كأنهم داخل مدينة منيعة ، ذات قلعة تكفل أسوارها لهم الحماية ، وتقيهم عادية الهجوم عليهم .

كان هذا المعقل يقع شرقى القلعه التى شيدت منذ أمد قريب .

كذلك كان يوجد الى الجنوب سور يجاوره مستنقع ، على حين كان الى الغرب والشمال النهر الذى يجرى منعرجا حول أنطاكيه .

★★★

وبعد خمسة أشهر من هذا الحصار دخلت مصب النهر من ناحية البحر سفن قادمه من جـنـوه ، محملة بالحجاج والمئونه . فلما أرست حيث وصلت أقامت ، ثم بعث جماعة منها الى المعسكر . تسأل مجىء بعض الزعمـاء الى الجنـويه لتقودوهم فى أمان الى المعسكر .

وكان العدو يعرف أن قومنا اعتادوا الخروج الى الشاطىء غير حذرين ، كما كان يدرك ما عليه البحارة من لهفه شديدة للذهاب الى المعسكر ، فسد رجاله عليهم جميع الطرق والمسالك ، ونصبوا الكمائن لتصيد السابلة الذين لم يحتاطوا لأنفسهم ، مما أدى الى مصرع الكثيرين منهم ، حتى لم يعد أحد يجرؤ بعدئذ على الذهاب الى المعسكر الا أن يكون فى حراسة مشددة .

وصمم الزعماء فى هذا الوقت ذاته على اقامة حصن عند رأس الجسر . مكان مسجد كان لخصومهم ، راجين أن يسد هذا الحصن الطريق فى وجه العدو بعض الشيء ان أراد الوصول الى الجسر ٠

وحدث أن أعدادا كبيرة من الصليبيين كانوا قد نزلوا ناحية الشاطىء لانجاز بعض الأعمال التى كانت لهم هناك ، فلما فرغوا منها عادوا الى مواضعهم ٠

★★★

وكان الاختيار قد وقع على كل من بوهيموند وكونت تولوز ومعهما لورد ايفراردى بويسيه وكونت جارنييه دى جراى من الزعماء لمرافقة السفارة المصرية حتى الساحل . على أن يقوموا فى عودتهم بحراسة الحجاج(١) الذين وفدوا منذ قريب ، والحفاظ على من خرجوا من معسكرنا ، فلما علم أهل أنطاكية بنزول هؤلاء السراه من القوم الى الشاطىء بعثوا ضدهم أربعة آلاف فارس مدججين بالأسلحة الخفيفة وعهدوا اليهم بنصب الكمائن ، فاذا خاطر الصليبيون بالعودة ولم يأخذوا الاحتياطات اللازمة كر عليهم هؤلاء الفرسان كرة ضارية ٠

وحدث فى اليوم الرابع أن كان الحراس عائدين مستصحبين معهم عددا كبيرا من الناس ، وكثيرا من دواب الحمل عليها شتى أنواع الذخيرة دون أن يكون معهم سلاح ، فلم يشعروا الا والعدو يباغتهم فى بعض الشعاب الضيقة ويسدها عليهم ، وكان كونت تولوز يسير فى المقدمة مع حرس الطليعة ، أما المؤخرة فقد وكلت حمايتها الى لورد بوهيموند ٠

---

(١) المقصود بهؤلاء الحجاج « الحربية » ٠

وعلى الرغم من بساله هؤلاء القاده الجديرين بكل احترام ، الا أنهم لم يستطيعوا ـ كما أرادوا ـ السيطرة على من معهم من جموع راح بعضا يزاحم بعضا ، كما عجزوا عن مد يد المعونة لهم لكن ذلك لم يمنعهم من الصمود طويلا حفاظا على شرفهم وحمايه لرفاقهم ، فلما تبين لهم أخيرا عدم جدوى أى مجهود يبذلونه فى هذا السبيل وأن هلاك أرواحهم انما يكمن فى ابطائهم تخلوا ـ بدافع من حرصهم على سلامتهم ـ عن هذا الصراع الذى هو بين طرفين غير متكافئين ، وانقلبوا الى المعسكر بمن استطاع اللحاق بهم ، واذ ذاك تخلى النـاس عن دوابهم ومتاعهم وفروا على وجوههم الى نـواح مختلفه ، فانطلق بعضهم الى الغابات ، وهرب البعض الآخـر الى التـلال أما من لم يسـعفهم الفـرار فقد تـناوشتهم سـيوف العدو ، فكانت النكبة التى حلت بمواطنينا فى هذا الموضع جسيمة ، وقد وصلتنى معلومات شتى عن عدد من هلكوا فى هذا الحادث ، وان قالت الأغلبية انهم كانوا قرابة ثلاثمـائه من الجنسـين ومن مختلف الأعمار ٠

– ٥ –

فى هذه الاثناء وصل الخبر الى المعسكر بأن القوم الذين كانوا راجعين من ناحية البحر قد وقعوا فى كمين نصـبه العـدو لهم ، وأنهم قتلوا جميعا عن بكرة أبيهم فى هجمه لم يكونوا يتوقعونها ، ولم يستطع أحد ما أن يخبر عما اذا كان القادة مازلوا أحياء أم أنهم صاروا فى عداد الهلكى ٠

واذ كان الدوق جود فروى رجلا جم النشاط ، سريع المبادرة الى حمـل السلاح ، فقد تفجرت نفسـه عطفـا على شعب الرب ،

وتفطر قلبه رحمة بهم حتى لكأنهم أولاد صغار له ، ومن ثم استدعى الزعماء والجند وأمرهم بحمل السلاح في لحظتهم هذه ، ثم بعث المنادى ينادى في الناس ألا يغيب أحد عن هذا الموقف الخطير وإلا استحق الموت . بل يحتم على الجميع ان يهبوا لأسلحتهم انتقاما لدماء اخوانهم ، فتجمع كافة الجند وكأنهم رجل واحد ، ولم يتوانوا عن عبور الجسر المصنوع من القوارب ، ثم قسمهم الدوق الى مجموعات . ورأس عليهم جميعا روبرت كوت نورماندى وكونت فلاندرز ، وهيو الكبير ، وأخاه استاس . وحدد لكل طائفة مكانا لايشاركها فيه غيرها ، ولا تتعداه هي الى سواه ، وأمر أن تقف كل جماعة بقيادة قائدها .

ثم أخذ الدوق يشرح لهم الوضع باعتبارهم رجالا مدركين لمسئوليتهم ، وأثار حميتهم بكلماته الملهمة اذ قال لهم : « لو صح ما نقل الينا من أن أعداء النصرانية · اسما وعقيدا ، قد أظهرهم الرب على سادتنا واخوتنا بسبب آثامنا ، فالرأى عندى أيها الرجال الأمجاد أنه لم يبق لنا الا أن نمحو العار الكبير الذى ألحقوه بسيدنا المسيح ، أو نهلك مع من هلكوا . وصدقونى أن نسيت الحياة ولا السلامة أحلى مذاقا من الموت او أى ألم من الآلام ان تذهب دم هؤلاء السادة هدرا فى الثرى . ومحال أن تمر هذه المذبحة المروعة التى جرت على شعب وهب نفسه للرب دون أن نواجه بانتقام عاجل . ويبدو لى أن أعداء الملة سوف يبطرهم انتصارهم فلا يحتاطون لأنفسهم كما جرت عادتهم ، لذلك فانهم لن يترددوا — اعتمادا منهم على بأسهم — فى أن يشقوا طريقهم بين صفوفنا أثناء عودتهم بالاسلاب والغنائم ، واعلموا أن ما نحن فيه من موقف محزن دام حرى بأن يحملنا على مزيد من الحذر . أما التكاسل فيغرى صاحبه بالاهمال .

« فان رأيتم الصواب فيما أقول فهيا بنا نستعد لهم ، وطالما كنا على حق فاننا نطمع ان نحرز النصر بواسطة الواحد القوى الذى نؤمن به ، ونحارب فى سبيله ، فاذا تراءى للعدو أن يعود فيقتحم صفوفنا فلنتقابله سطبى سيوفنا ، ولتكن ذكرى ما صبه علينا من المصائب مذكية فينا ما كان عليه آباؤنا من الشجاعة » ٠

★★★

ووقعت خطبة [الدوق جودفروى] هذه موقع الرضا من نفوسهم واستصوبوها كلهم ، وبينما هم يتدارسون كلامه هذا اذا ببوهيموند يطالعهم عائدا من الشاطىء الى معسكره ، وفى اثره الكونت لم يغب دونه الا قليلا ٠

ورحب الناس برعيميهم ترحيبا صادقا لم يستطيعوا معه أن يحبسوا دموعهم من الانهمار ، اذ أدركوا أنهم كانوا على وشك أن يفقدوا هؤلاء القاده ، ولم يكد الزعماء يعلمون بخطة الدوق حتى وافقوه على فكرته وصرحوا بوجوب تنفيذها ٠

★★★

كان ياغى سيان فى هذه الأثناء – رغم علمه بانتصار قواته – مشغول الخاطر ، قلق البال بشأن سلامة عودتهم ، لاسيما منذ أن عرف أن الجند الذين تركوا المعسكر كانوا أكثر عددا مما جرت العادة به ، ومن ثم نودى فى الناس جميعا أن يخرج فى الحال من فى المدينة من أهل الخبرة بالحرب والقادرين على حمل السلاح ، وأن يجتمعوا عند البوابة القائمة عند الجسر لنجدة أهل البلد العائدين ، ان دعت الضرورة الى مثل هذه النجدة ٠

كما أن قوادنا بعثوا من ناحيتهم كشافة تفقد الطريق الذى يحتمل أن يسلكه العدو فى ايابه ، ايمانا من هؤلاء القواد بأن الرب لابد أن يمنحهم النصر .

- ٦ -

لم يتوان الصليبيون لحظه فى تنظيم صفوفهم ورفع أعلامهم ، وبينما هم يرقبون طلائع الجيش التركى اذا برسلهم قد جاءوهم مسرعين ، ينبؤونهم بأن العدو قد رابط على مقربة منهم ، فتعالت صرخاتهم المجنونة تحث ناسا على حمل السلاح والزحف لصده ، ومن ثم تقدمت الكتائب ما وسعها التقدم ضـارعة الى السـماء أن تعينها ، وراح كل واحد منهم يشجع رفيقه ، وقام الصليبيون - وفى ذهنهم شهرة بطولتهم - يهزون الرماح فى أيديهـم ، وكروا على خصمهم كرة رجل واحد وكثفوا ضغطهم عليه - كمألوف عادتهم - يقاتلونه بالسيف وجها لوجه ، دون أن يدعوا له فرصـة يلتقط فيها أنفاسه انتقاما للمصائب التى أنزلها بهم والتى لا زالت عالقة بأذهانهم ، فما لبث العدو أن داخله سجاعه ، وطار قلبه شعاعا ، وأدبر موليا وجهه شطر الجسر المؤدى الى المدينة ، يسابق كل واحد من رجاله الآخر فى الهروب .

على أن دوق اللورين كان قد جابه كثيرا من أمثال هذه الأرمات، وكان عسكره قد احتلوا موقعا أمام الجسر تقوم تجاهه ربوة عالية بعض الشىء ، وكان الترك فى فرارهم أمام زعمائنا الموقرين أحـد رجلين : اما رجل يتعثر فيسقط وهو يحاول بلوغ الجسر التماسا لملجأ له هناك ، واما رجل لامحيص له من العودة الى موت مؤكد يلقاه فى ساحة المعركة التى كان قد لاذ منها فرارا .

واذ كان كونت فلاندرر محاربا صنديدا ، بارعا كل البراعه فى استعمال السلاح ، فقد خرج بعسكره معقبا أثر الأعداء فى عزم لايفل شباته ، ففرق صفوفهم ، وأنزل بهم من الأهوال مثل الذى أنزلوه من قبل بعسكرنا ، ولم يكن كونت نورماندى أقل شجاعة من آبائه ، فأبلى البلاء الحسن فى هذه الموقعه .

وكان هنا كونت تولوز المتحمس لربه ، والى جانبه هيج العظيم الفخور بما يجرى فى عروقه من دم ملكى ، والذى لم يشن نسب أسرته العريق بأى شين ، وكذلك كونت اوسماس أخو الدوق ، وبلدوين كونت هينولت ، وهيج كونت سنت بول ، وغيرهم من أهل المكانة - فحملوا جميعهم على العدو حملة صدق ، وأظهروا من أعمال البطوله ما أرهق قوة المعاندين ، فذبحوهم ذبح الخراف ، وكان باغى سيان لما أرسل قواته للحرب أمر باغلاق أبواب المدينه من خلفهم ، ليقطع عليهم كل خطة للارتداد ، ساعيا من وراء ذلك الى مضاعفة ضراوتهم ، وحملهم على المزيد من الشدة فى القتال ، معتقدا أنه بذلك يسلك أحسن المسالك وأجداها ، غير أن الخاتمه جاءت على غير ما كان يرجوه ، فقد هلك رجاله الذين لما رأوا احداقنا بهم لم تعد لهم قدرة على صد هجومنا ، أو الفكاك من ضغط رجالنا عليهم ، فالتمسوا خلاصهم فى الفرار الذى لا خلاص لهم سواه ، ولكن خانهم هذا الأمل اذ كان الموت لهم المرصاد ، فتناوشت سيوفنا الفارين منهم ، وفرقتهم شر ممزق .

وتردد فى أنحاء المعسكر فرع الأسلحه ، وقعقعة السيوف البراقة ، وصهيل الخيل ، وصراخ الرجال ، واختلط الحابل بالنابل ، ولولا اختلاف سلاح كل فريق عن الآخر لكانت اتهه غلطة مؤدية الى الخطر الداهم الذى يحمل فى طياته الهلاك .

وتجمع على أسوار انطاكيه وفوق أبراجها ، نساء المدينه وبناتهن وصغارهن وشيوخ البلد ، وكل من ليس عنده قدره على الدفاع عن نفسه ، يشاهدون — من مكانهم الذى يقفون فيه — المذبحه التى تجرى من تحتهم ، وعلا بكاؤهم وراحوا يندبون مصارع أصحابهم ولسان حالهم يقول « ما أسعد من ترفق بهم الموت فقبض أرواحهم قبل أن تمسهم هذه الخطوب » •

أما الأمهات اللاتى كن يفاخرن بكثرة أولادهن ، فقد أصبحن موضع الرثاء وصارت العاقر منهن أسعد من كل ذات ولد » •

ولما رأى ياغى سيان أن الدائره قد دارت على قومه ، وأن البقية الباقية منهم لابد هالكة فى هذه المذبحه التى تجرى على قرب منه ، أمر بسرعة فتح الأبواب حتى يتمكن الباقون من جيشه من دخول المدينة سالمين ، لكنهم تزاحموا على الأبواب التى أزيلت متاريسها تزاحما شديدا . وتعالى ضجيجهم وصراخهم ، ذلك لأن الفارين الذين كان الخصم يتعقبهم حاولوا عبور الجسر ، فتكاثرت جموعهم ، وتدافعوا فزعين يدفع بعضهم بعضا مما أدى الى سقوط الكثيرين منهم فى النهر فغرقوا فى لجته •

ولقد صال دوق اللورين أبدع صوله فى هـذا الاشتباك فبرهن على أنه مسعر حرب وخواض غمرات ، وشاهده النســاء اذ اقترب وهو يقاتل حول الجسر ، وقد جـاء بالدليل البين على بأسه الذى ميزه عن سواه ، وكان ما قام به من العمل أثرا باهرا خالدا ، ومأثرة زادته اجلالا فى نظر الجيش كله ، اذ اندفع بما طبع عليه من جرأه فكان يضرب الضربه الواحده يقطع بها رؤوس أكثر من فارس مدرع ، ثم قص بشجاعة فارسا آخـــر لم يمنعه ما عليــه من زرد الحـديد من أن يصيبه بضربة قطعــه نصـفين ، فتدحرج أعلاهما على الأرض ، وأما أسفلهما فقد دفعوا به الى المدينة

محمولا على فرسه ، فبث هدا المطر العجيب الخوف والدهشة فى نفوس كل من شاهدوه ، ولم يعد خبر هذا الأمر العجيب خافيا على أحد ما ، وتناقلته الألسن ، فشرق وغرب ٠

ويقال ان خساره العدو يومذاك قاربت ألفى رجل : ولولا دخــول الليل الذى حسدنا على أمجادنا وانتصارنا لانتهى حصار أنطاكيه من غير شك فى هدا الوقت ، وكانت آثار المذبحه واضحه كل الوضوح حول الجسر والنهر الذى تبدل لون مائه ، وراح يصب فى البحر سيلا جارفا من الدماء ٠ ولقد قيل ان اثنى عشر من الحكام الأتراك لقــوا مصرعهم فى هذا القتــــال ، فكانوا خساره للمدينه لا تعوض ، وأكد هذا الخبر فيما بعد تأكيدا قاطعا المواطنون المسيحيون الدين قدموا من أنطاكيه الى معسكرنا ٠

- ٧ -

حين طلع النهار على الدنيا عاود القادة اجتماعهم ، شاكرين الله القدير على ما آتاهم من النصر ، ثم عقدوا - فيما بينهم - مجلسا لمناقشــة الوضــع فاتفقوا بلا استثناء على تنفيذ خططهم الأصلية بحذافيرها ، ألا وهى اقامة حصن على رأس الجسر لمنع المواطنين من مغادرة المدينة ، وليتيسر فى الوقت ذاته على رحالتنا حركتهم ويزيد من سلامتهم اذا ما رغبوا فى التجوال هنا وهناك ٠

وكان فى ذلك المكان - كما قلنا سابقا - مسجد يؤدى الترك فيه شعائرهم الدينية ، وقد جعلوا ناحية منه موضعا لدفن موتاهم ٠ فلما كانت الليلة الســالفة ، وصدر من اليوم التالى ظلوا ينقلون

جثث موتاهم الى ذلك الموضع ، فلما تأكد رجالنا من صدق هذا الخبر ، اندفعوا اندفاعا شديدا الى ذلك المكان ، يحدوهم الأمل في العثور به على غنائم تكون مدفونة مع الموتى ، فنبشوا القبور وأخرجوا الجثث ، ولم يقتصروا على أخذ ما وجدوه من الذهب والفضة والأقمشة الغالية بل امتدت أيديهم حتى الى الجثث ذاتها فعبثوا بها .

ولما فشا هذا الخبر أيقن الجميع مدى ما أصاب العدو من خسائر كانت في بادئ الأمر موضع شك ، لان القتال استمر طويلا ، فاغتبط الصليبيون بهذا النبأ غبطة جاوزت غبطتهم بالنصر الذى أحرزوه فى يومهم السابق ، ولقد وجدوا فى تلك المقبرة ألفا وخمسمائة جثة سوى من ابتلعهم النهر فى مراب كبيرة حاقت فيها الخسارة بهم ، وسوى الذين قبروا فى المدينة اضافة الى من أثقلتهم جراحاتهم القاتلة فصاروا معها على شفا الموت ، وأرسل الصليبيون ما يقرب من ثلاثمائة رأس من رؤوس القتلى الى من كانوا موجودين بالميناء ، فتضاعف سرور رجالنا الذين كانوا قد ذهبوا الى هناك بعد معركة اليوم السالف ، وكان هذا تحذيرا نافعا للسفراء المصريين الذين كانوا لا يزالون فى الميناء ولم يغادروه .

★★★

كان الصليبيون الكثيرون الذين فروا من أخطار اليوم الغابر مختفين فى كهوف الجبال وأعماق الغابات ، فلما سمعوا بخبر انتصارنا بادروا فى الحال الى الرجوع الى المعسكر ، وهكذا شاءت ارادة الرب أن يعود الى الجيش كثير من الجند الذين اعتقد الناس أنهم هلكوا فى المعركة ، لكن ها هم الآن يعودون الى الجيش سالمين ، معافين من كل أذى بفضل الرب .

لم يكد يرجع هؤلاء الذين كانوا قد فروا الى مختلف الجهات حتى أقيم على رأس الجسر متراس من الأحجار التى حملوها من

المقابر ، وأخذ القوم يتبارون فى مساعده بعضهم البعض ومعاونه كل منهم زميله فى تشييد المعقل الذى حصن بسور قوى وأحيط بخندق عميق ·

ثم أخذ الزعماء بعد ذلك فى التشاور عمن يقوم بحراسة هذا المكان ، ولم يكن أى واحد منهم مستعدا لحمل مسئولية ثقيلة كهذه المسئولية ، وراح كل منهم يقدم هذا العذر أو ذاك ، غير أن كونت بولوز ـ وهو المرضى عنه من الله ـ تطوع لحمل المسئولية ، وتعهد من أجل الصالح العام أن يقوم بحراسة هذا البناء الجديد ، فاستعاد تماما حب كل رجال الحملة له ، وهو حب كان قد فقده مدة عام لوقوعه فريسة لمرض عطله عن الحركة والفعالية على مدى الصيف الماضى وطول الشتاء التالى له ، ففى الوقت الذى كان بقية القادة ابانه يتحملون مسئولية الجيش بعزيمة لا تقهر كان هو دونهم كأنما لا يعنيه من الأمر شىء ، وكانت تنقصه البشاشة ، ولم يظهر الود تجاه كائن من كان ، وتجلى هذا واضحا غاية الوضوح لكل ذى عينين، فعزوا ذلك الى أنه كان أكثر القوم مالا وأعظمهم ثروة بصورة يتوقعون معها أن تحمله على بذل الكثير من أجلهم ، ولقد أراد أن يعوض ما كان من تراخيه وعدم اكتراثه فقام من تلقاء ذاته وتحمل عبء هذه المهمة ، وقيل أيضا انه وضع تحت تصرف أسقف بوى وبعض النبلاء الآخرين خمسمائة مارك فضـــة وزنا ، تعويضـا لأصحابها عن الخيل التى هلكت لهم فى هذه المعركة ·

فلما عرف أتباعه أنهم عوضوا خيرا عن جيادهم التى فقدوها أظهروا من ضروب الشجاعة والتفنن فى محاربة العدو ما لم يظهروه من قبل فهدأت حدة الشعور ضد الكونت ، وسماه الجميع بأبى الجيش وراعيه ·

- ٨ -

لقد سدت بوابة الجسر بالقلعة الجديده الىى أقام بها الكوس حمسمائة من الرجال الأشداء ، مما حعل مرور المواطنين من خلالها لا يتسنى الا بشق النفس وبالتعرض للخطر البالغ ، لكنها من ناحيه أخرى حعلت قومنا أكثر قدره على الخروج من أجل قضاء مصالحهم الضرورية ، أما العدو فلم يعد قادرا على مغادرة أنطاكية الا عن طريق البوابة الغربية الواقعة بين سفح الجبل والنهر ، ويظهر أن تمتع العدو بالقدرة على الخروج من تلك البوابة لم يعرض قواتنا لكبير من الخطر ، اذ كانت جميع خيامنا منصوبة على الجانب الآخر من النهر ، ومع ذلك فقد شعر الكل أن المحصورين كانوا يتمتعون بكثير من الحرية فى التجوال ، لأن حاجات المدينة الضرورية كانت لا تزال تمر بهذا الطريق ، لذلك عقد القاده الشجعان الحالى الذكر مرة أخرى مؤتمرا من بينهم للتداول فى شأن هذه المشكلة التى رأوا مواجهتها باقامة بعض التحصينات فى موضع ملائم على الجانب الآخر من النهر ، وقرروا أن يقيم بها بعض هؤلاء الزعماء ، ليرصدوا العدو ان أراد الخروج منها أو الدخول اليها فيحولون بينه وبين ما يريد ، وعلى الرغم من انعقاد اجماعهم على وجوب تشييد ذلك الحصن ، الا انه لم يتقدم قط أحد منهم فيتطوع وينهض بحراسته ، وترددوا كثيرا تجاه هذه الصعوبة ، ولم يدروا أى سبيل يسلكونه فيها ، وطال ترددهم ، ثم استقر الرأى منهم فى النهاية على اختيار تانكريد الحم النشاط لأداء هذه المهمة ، وكان على وشك الاعتذار عنها لقلة ما لديه من المال ، لولا أن نهض كونت تولوز وقدم اليه مائة مارك من الفضة لتشييد الحصن ، يضاف الى ذلك تخصيص مبلغ مناسب قدره أربعون ماركا شهريا يقتطع من المال العام يدفع للذين سوف يتعاونون مع تانكريد .

ولقد ترتب على كل ذلك أن شيد حصن ملاصق لتلك البوابة يقوم على أحد التلال ، حيث كان موضعه فى السابق أحد الأديرة ، وعهد بحراسته الى رهط من أهل الحجى الأشداء فبقى هذا الحصن سليما حتى نهاية الحصار بفضل جهود تانكريد الناجحة ·

وكان يوجد على بعد ثلاثة أميال أو أربعة تحت أنطاكيه ، وعلى امتداد نهر العاصى مكان للتعبد ، يتمتع بموقع رائع بين الجبال وبين النهر ، حيث كانت قطعان الأغنام تسرح هناك فى المراعى الخضراء الغنية ، التى كان العدو قد نقل اليها معظم جياده لقلة ما فى المدينة من العلف ، فما كاد الصليبيون يتبينون هذه الحقيقة حتى جمعوا فى هدوء بضع سرايا من الفرسان الذين أسرعوا الى تلك البقعة ، وسلكوا اليها طرقا مهجورة حتى لا ينكشف أمرهم ، فلما صاروا هناك وثبوا على رهط من الفرسان القوامين بحراســـة الماشية ، وقتلوهم ، واستولوا على ألفى حصان من الخيل الصافنات ، ناهيك عما أخذوه من البغال واناثها ، وعادوا بكل ذلك الى المعسكر ، ولم يكن ثم غنائم من أى نوع أكثر أهمية من هذه الغنائم عند الصليبيين فى ذلك الحين ، لأن جميع جيادهم كانت قـد هلكت تقريبـا فى المعركة ، أو نفقت من الجوع أو البرد أو غير ذلك من الكوارث ·

- ٩ -

أحيط بالمدينة من كل جانب ، وعجـز سـكانها عن مجاوزة أسوارها لمزاولة أعمالهم ، وهكذا أحدقت بهم الصعاب الجمة من كل ناحية ، كما بدأت تهددهم أيضا مشكلات أخرى كنقص الطعام الذى

واحتهم تجاه وأصبح سمحه تحتشهم تصوره تعب اليابح السديد فى حلوب المراطنين . كما أصبح العلف نادرا ندره بالغة ، فهزلت الخيول ، وعجزت عن القيام بما كانت تقوم به من قبل .

أما رجالنا فقد أصبحوا أكبر حرية فى الذهاب الى شاطىء البحر ، أو حينما تدعوهم الضرورة الملحة ، وزال الى حد بعيد ما كان يكابده الجيش كله خلال الشتاء من هم مقيم بسبب قلة المئونة ، فقد ولى الشتاء ، وجاء الربيع الطلق ، وهدأ البحر ، ولم يعد الأسطول الراسى بالميناء يلقى مشقة فى الدخول أو الخروج متى شاء ، هذا الى جانب أن الطرق غدت سهلة المسالك بفضل الدفء المتزايد . فاستطاع كل ذى مصلحة أن يخرج لانجاز مصلحته من غير عسر .

كذلك رجع الى الجيش الصليبيون الذين كانوا مضوا لقضاء وقتهم فى القلاع والمدن المجاورة ، فرارا من شظف الحياة وقسوتها فى المعسكر ، وجهزوا أسلحتهم وقويت عزائمهم ، وأعدوا عدتهم للقتـــال .

★★★

على أنه فى هذا الوقت بالذات جاءت الأخبار الى بلدوين — أخى الدوق — بأن الجيش فى صراع مرير ضـــد المجاعة ، فتفطر وابه بالأسى الصادق ، وعزم على امدادهم بضرورات العيش من فائض أمواله الخاصة التى أنعم الله بها عليه ، فكانت عطاياه السخية من الذهب والفضة والأقمشة الحريرية والجياد الصافنات وغير ذلك من كل غال وثمين بلسما داوى ظروف كل زعيم ، ولم يقتصر كرمه على كبارهم فحسب ، بل تعداهم الى الكثير من عامة الناس ، مما أكسبه ميل الجميع اليه وحبهم اياه ، وزيادة على ذلك فان سخاءه لم يقل

عن هدا نجاه مولاه وأخيه الأكبر ، فأمر بأن تحول الى جودفروى جميع ما تغله أملاكه الخاصة الواقعة على دلك الجانب من نهر الفرات حول تل باشر والاقليم المجاور له ، فأمده بالحبوب والسعير والزيت والنبيذ ، الى جانب خمسين ألف قطعة ذهبية وصله بها .

★★★

كان هناك عظيم من عظماء الأرمن شديد البأس اسمه « نيكوسيوس » تربطه ببلدوين وشائج الموده الصادقه ، وقد قام من تلقاء ذاته وبدافع من تقديره لبلدوين ، بارسال طائفة من رجاله يحملون الى الدوق فسطاطا كبير الحجم ، بديع الصنع هديه منه اليه ، الا أن باكراد نصب كمينا لاصطياد الخدم الموكل اليهم حراسه هذه الهدية ، وأمر باغتصاب هذا الفسطاط ، وأن يحمل الى بوهموند ، كأنه هديه منه هو ذاته اليه ، فوصل الى سمع الدوق نبأ هذا الفعل السيء مع تفصيل شامل للحادث كما رواه خدم نيكوسيوس ، وحينذاك خرج جودفروى مستصحبا معه كونت فلاندرز الذى توثقت بينه وبينه وشائج الصداقه العميقة طوال الرحلة وذهب الى بوهموند طالبا اليه أن يرد عليه الهدية التى كانت مرسلة اليه هو ذاته ، ولكنه اغتصبها لنفسه ، غير أن بوهموند ادعى أنها مهداة اليه هو ذاته من النبيل «باكراد» ، وزعم أن من حقه الشرعى الاحتفاظ لنفسه بما يطلبه منه الدوق ، فلما خشى أخيرا من وقوع شقاق فى صفوف الناس ، أو حدوث نزاع بين القادة ، استجاب [بوهموند] لالتماسات الزعماء ورد الى [جودفروى] الفسطاط الذى كان مهدى اليه ، ومن ثم عادت المياه الى مجاريها مرة أخرى بين القائدين ، على أحسن ما تكون العلاقات .

ويخيل الى أنه من المستغرب جدا أن يصر رجل كالدوق يمتاز بدماثة الخلق وحسن الطبع هذا الاصرار الشديد على المطالبة بشيء

تافه غير هام كهذا السيء . ولا أستطيع حيال ذلك الا أن أقول ما جاء في المثل « ومن ذا الذي ترضيك سجاياه كلها » وما جاء في مثل آخر « لكل جواد كبوه » ، كما ان هناك مثلا عبر هذين يقول « يجوز للمرء في المهمة الشاقة أن يغفو لحظة » . ذلك لأنه كثيرا ما نرى في أنفسنا انحرافا عن جادة الصواب تقضى به قوانين الطبيعة البشرية .

- ١٥ -

سرت في هذه الآونة شائعة عمت كل النواحي تقول أن أحد أمراء الفرس الأقوياء استجاب لمطالب الأنطاكيين الخاصه - ولالحاح قومه المستمر ، فأمر بحشد العسكر من كافة أرجاء مملكته ، وارسالهم بحدة الى المدينة ، وقد أذاع مرسوما تاليا يأمر فيه بزحف جيش تركي قوى على بلاد الشام ، اصطفى لقيادته جماعة خاصة من الأمراء وكل اليهم هذه المهمة ، ولم تسر هذه الشائعة في العالم الخارجي وحده فحسب ، ولا عرفت هناك فقط ، بل لقد تحدث بها أيضا جميع اللاجئين من المدينة الذين فروا الى معسكرنا وأكدوا صدقها الذى أخذ يزداد يوما بعد يوم ، حتى قيل ان هذا الجيش أصبح على أبواب المدينة ، فاستبد الذعر بجيشنا واستولى عليه الفزع .

في هذه الأزمة قام ستيفن كونت شارترز ، وهو رجل نبيل واسع النفوذ ، نصبه الزعماء رئيسا لمجالسهم يستشيرونه ، وينزلونه منزلة الوالد لرجاحة عقله التي لا تجارى ، وحسن حكمه على الأمور ، أقول قام هذا الكونت يسأل اخوانه أن يأذنوا له - وقد تعلل بالمرض - أن يفارقهم ليذهب الى الساحل ، مستصحبا معه خدمه وأتباعه وكل ما يملك ، وكان ما أخذه معه شيئا كثيرا للغاية ، أما

عذره الذى قدمه بين أيديهم نهو رغبته فى الاقامة بعض الوقت فى الاسكندرونة حتى يسترد صحته وبعدئذ تكون لديه الفرصة على العودة اليهم ·

وتقع الاسكندرونة على شاطيء البحر ، ولا تبعد كثيرا عن الميناء ، وتعتبر المدخل الى قليقيا ·

وصحب [ستيفن] فى مغادرته هذه أربعة آلاف رجل كانوا قد جاءوا فى معيته ، فلما بلغ الساحل مضى الى الاسكندرونه فى انتظار ما تتمخض عنه الأحداث ، ورسم خطته على أن يعود الى الجيش ان أحرزت قواتنا النصر الذى تسنده بصحة أنه نقه تماما من وعكته، أما ان جرت الأحداث على العكس من ذلك فسوف يرجع الى مقاطعته الخاصة فى السفن التى كان قد جهزها لتكون على أهبة الاستعداد لذلك ، فانطوى هذا المسلك من جانبه على العار المقيم وضياع همته الى الأبد ·

ولقد أزعج فعله المشين هذا القادة الذين خلفهم فى المعسكر ، ورأوا — وكان حقا ما رأوا — أن ما فعله ان هو الا سبة لا يمحى عارها ، ولا يذهب شنارها ، وأحسوا فى الوقت ذاته بحزن تنفطر له المرائر على هذا الرجل النابه الذكر ، الذى لطخ بمسلكه هذا شرف بيته وحط من سمعته ، فراحوا يتنافسون — وكلهم فزع — كيف يواجهون هذا الحادث الذى لم يكن متوقعا قط ، لما يحمل فى طياته من خطر يتمثل فى أن قد يقتفى خطاه سواه ممن لا زالوا معهم فى المعسكر فيجرؤون على القيام بمثل ما قام به ، ومن ثم اتفقوا أخيرا على أمر لم يشذ عنه أحد منهم ألا وهو أن يبعثوا من ينادى بمنع أى شخص كائنا من كان هذا الشخص من مغادرة المدينة ، فان ترك أحد ما المعسكر خلسة من غير اذن الزعماء ، لم تشفع له قط وظيفته الرسمية ، ولا خدماته التى يكون قد أداها ، من أن يصدر ضده قرار

الحرمان ، وأن يحكم عليه بالنار الأبدى ، كما لو كان قد قتل نفسا من غير ذنب ، او أحدث فتنة ... ، هذا الى جانب انزال أقسى أنواع العقاب به ، ورتب على هذا القرار بما تضمنه من الزجر والخوف من العقوبة أن اصبح الكل بعد ذلك الحين عن ترك المعسكر ، حتى ولو لفترة وجيزة ، وأطاع كل واحد منهم القرار كما لو كان هذا الواحد دبريا يستحب للأمر طواعية ومن غير معارضة •

- ١١ -

اعتنقت أنطاكية ـ مدينة الله الحبيبة ـ مله المسيح زمن الحواريين ، حين بشر بها أميرهم ـ كما قلنا ـ وظلت وفية لها ملتزمة بها حتى وقتنا الحاضر •

وبينما كانت أقاليم الشرق كله تدخل تحت حكم خلفاء محمد [صلى الله عليه وسلم] ، وتنتشر فيها عقيدتهم ، أبت هذه المدينة أن يسيطر عليها أية أمة تعتنق غير ما تعتنقه هى ، وعلى الرغم من بسط سيطرة [المسلمين] على جميع البلاد الممتدة من الخليج الفارسى حتى البسفور ، ومن الهند الى أرض الأسبان الا أن مدينة أنطاكية هذه انفردت دون غيرها من المدن بالمحافظة على ايمانها سليما غير مغمور ، وحرصت على حريتها وهى تعيش وسط أمم مخالفة لها •

غير أن ما كابدته [المدينة] من كثرة الحصار على مدى أزمنة طويلة فل فى ساعد مواطنيها الفضلاء ، كما أرهقتهم هجمات العدو التى لم تعد محتملة ، فما لبثوا ـ قبل أربعة عشر عاما من الوقت الذى نتكلم عنه الآن ـ أن تلاشى صمودهم ، واضطروا لتسليم بلدهم

أنطاكيه الى عدوهم ، وحدث أنه لما بلغت جيوسنا أسوارها كان جل سكانها من المؤمنين الصادقين ، ولكن لم يكن لهم أى حول أو قوة فى المدينة ، وقد احترف معظمهم التجاره ، واشتغلوا بالحرف البدويه أجراء عند غيرهم ، ولم يكن مسموحا لهم ولا لأهل الملل الأخرى غير الترك بمزاولة الأعمال الحربية أو شغل الوظائف الهامة .

وحرم على الصليبيين احراز السلاح ، أو ممارسة أى شيء يمت بأى صلة لشئون الحرب ، لذلك ما كاد الخبر باقتراب الحجاج القادمين من الغرب يصل الى مسمع كبار رجال أنطاكية ، حتى ازدادت ريبتهم فى المؤمنين(١) عن ذى قبل ، ومنعوهم ـ لاسيما بعد حصار المدينة ـ من مغادرة بيوتهم ، فكانوا لا يخرجون منها الا فى ساعات فرضوها لهم .

☆ ☆ ☆

كان بين أهل المدينة بعض أسرات معسة شريفة الأصل كريمة المحتد ، توارثت المجد القديم عن الفضلاء ، وكان من بينها أسرة بارزة بسبب أصلها العريق تدعى بسنى «زردة» ، التى تعنى فى اللغةاللاتينية أبناء صناع الزرديات ، ولهذا سمي بنوها بهذا الاسم ، وربما كان ذلك نسبة الى اشتغال جدهم الأكبر بهذه الحرفة ، أو لأنهم هم أنفسهم استمروا فيها ، ومن المحتمل أن بعض رجال من هذه الأسرة كانوا لا يزاولون هذه الصنعة ، ويعملون فى هذا الفن الذى ظل على مدى أجيال متعاقبة وقفا عليهم ، حتى أورثهم هذا اللقب .

---

(١) يعنى المؤلف بهم المسيحيين من سكان أنطاكية .

وكان هناك برج يعرفه الناس ببرج الأختين يقع في الجانب الغربي من المدينة ، ومجاورا للبوابة التي تعرف اليوم باسم سنت جورج ، وقد خصص هذا البرج لتلك العائلة حتى يمكنهم مزاولة عملهم في طمأنينة في هذه الحرفة التي كانت ذات أهمية قصوى لكل من المدينة وواليها .

وكان من هذه الأسرة شقيقان يدعى أكبرهما بفيروز ، وهو رجل قوي النفوذ ، عظيم الجاه ، الى جانب أنه كان كبير عشيرته وأسرته ، وكانت تربطه أواصر صداقة متينة العرى بوالي أنطاكية [باغي سيان المسلم] الذي أغدق عليه نعما كثيرة شرفه بها ، فكان فيروز كاتم السر في القصر ، الى جانب تقلده غير ذلك من الوظائف السامية .

وسمع فيروز بأن « بوهيموند » أمير كبير ذائع الصيت ، وله ضلع بارز في كل ما هو جار في الخارج ، ومن ثم ما كاد الحصار يبدأ حتى نجح فيروز في كسب ود بوهيموند بواسطة الخطابات المترادفة بينهما ، كما ظل فيروز طوال استمرار الحصار حريصا على هذه الصداقة ، فلا ينقضي يوم حتى يوافي بوهيموند بتفصيل ما يجري بالمدينة ، ويبعث اليه بخطط باغي سيان ، واذ كان فيروز رجلا داهية ، فطنا ، يقظ الفؤاد ، فقد حرص كل الحرص على أن يظل خبر اتصاله ببوهيموند سرا مكتوما بينهما ، ونجح في ذلك غاية النجاح ، لانه كان يخاف أن يحدق الخطر الكبير به هو وأسرته من كل جانب ، ان وقف سواهما على هذا السر .

وكان بوهيموند هو الآخر شديد الكتمان لما بينه وبين هذا الرجل من صداقة فطواها في أعماق قلبه ، ولم يعلم أحد بشيء قط عن صلة الواحد منهما بالآخر ، ولا بالرسل المستمرة بينهما ، بل لقد خفي أمر ذلك عن الجميع ، حتى عن خدمهما وأهل بيتهما .

استمر التفاهم السرى بين هذين الرجلين ـ والذى آسرنا اليه حالا ـ قرابة سبعة أشهر ، زخرت بالاتصال الودى بينهما بشأن الطريقة التى يمكن أن يتم بها اعادة المدينة الى المسيحيين ، وطالما ذكر بوهيموند فيروز بهذه المسأله حتى انتهى الأمر آخيرا بفيروز ـ كما قيل ـ بأن بعث اليه بالرد التالى على يد ولده الذى كان يحمل الرسائل المتبادلة بينهما :

« اعلم يا أحسن الرجال ، ويا من هو أغلى على من الحياة دائما ، أننى قد أحببتك حبا خالصا منذ اللحظه التى شاءت فيها اراده الله أن تقوم بيننا هذه الرابطة من الصداقة المتبادلة ، ودعنى أذكرك أكثر من هذا أننى وجدت فى كلماتك صادق العزم الذى لا يتوفر الا فى الرجل الصالح ، ومن ثم فان حبك آخذ يزداد رسوخا فى فؤادى يوما بعد يوم ويعظم قدرك عندى • أما عن الأمر الذى كثر تذكيرك لى به فقد أمعنت فيه النظر مليا ، وعنيت ببحثه مرارا ، وقلبته على شتى جوانبه ، فأيقنت يقينا جازما أننى اذا استطعت أن أعيد بلدى الى حريته السالفة ، وطردت هذه الكلاب القذرة التى تعانى تحكمها فينا ، وأحللت بدلا منها شعبا يعبد الله ، فانى بضيع أحرى يـوم الحساب ، وسوف أنعم بصحبة القديسـين المباركين الى الأبد •

« ومن ناحية أخرى ، فلو قمت أنا بهذه المهمة الشاقة الخطرة ، ولم يكتب لى النجاح فيها ، فلن يشك أحد فى أن سيكون ذلك نهاية بيتى وانهيار سمعة عشيرتى الطيبة تمام الانهيار ، ولن يجرى على اللسان اسمنا أبدا ، غير أن الأمل فى النصر لا يزال يراود النفس فى القيام بهذه المخاطرة ، ومع ذلك فاننى مستعد للنهوض بهـذا العمل ان وافق رفاقك على أن تؤول اليك أنت وحدك دون سواك

هده المدينه حين اسستلامها بفصل حنودى القويه ، وبعون الرب الذى ربط بيننا برباط الصداقة الوثيق ، وسأقوم بالمهمة مهما كانت صعوبتها ، وسيكون قيامى بها بسبب حنى لصغارى الذين أرجو لهم ولك كل الخير » ٠

« وسأسلم اليك من غير عائق هذا البرج السديد الحصانه ، الذى تعرف أنه فى حوزتى ، وحينداك نستطيع أنت ومن معك دخول المدينة آمنين سالمين ٠

« أما ان رأيت انكم حميعا متساوون فيما بينكم ورأيت أنت أن تقسم واياهم المدينة حين تؤخذ على هذه الصورة فانى لن أزج بنفسى فى هذا المأزق الخطير ، ومن أجل خاطر قوم ليس لى هوى فيهم ٠

« وانه لينحتم عليك ــ من أجل الصالح العام وسلامة الحميع ــ أن تبذل قصارى جهدك للحصول على هذه الموافقة من القادة المرتبطين بك ، وكن واثقا كل الثقة أننى حالما أتسلم منك الحبر اليقين بأنكم وفيتم بهذا العهد ، فلن أتوانى فى فتح باب المدينة لكم لتدخلوها ، وهذه هى الغاية التى تلح على من أجلها ٠

« وأزيدك علمــا بأنك ان لم تتحــرك بأسرع ما يمكن ، فلن تدخلوها بعد ذلك أبدا ، لان حاكم هذه المدينة تصله الرسائل ، وتتوالى عليه الكتب كل يوم ، مشيرة الى أن الامدادات التى تتجمع من كافة أرجاء الشرق لمساعدته قد عسكرت حول نهر الفرات ، فى قوة بلغت مائتى ألف فارس ، فاذا وجدتكم هذه الجيوش لا تزالون خارج المدينة فلن تكونوا قادرين بعد ذلك أبدا على مقاومة قوة الأهالى وجيوش حلفائهم القادمة » ٠

- ١٣ -

شرع بوهيموند مند تلك اللحظة في بذل أقصى جهده لاستكناه مساعر كل شخص من القادة ، ومعرفة ما يدور بفكر كل منهم على حدة ، والوقوف على الخطة المتوقع اتخاذها بشأن المدينة المحاصره حين يتم الاستيلاء عليها ، وبرع كل البراعة في اخفاء مشروعه . الا عمن اعتقد أنهم موافقوه على رغباته ، وكان اذا رأى الأمل ضعيفا في نجاحه لدى بعض القادة أرجأ الموضوع الى وقت آخر يكون اكثر ملاءمة . ومع ذلك فقد وافقه على مطالبه كل من دوق جودفروى . وكونت نورماندى ، وكونت فلاندرز ، وهيج العظـــم ، وصارحوه بتأييدهم لما يريده ، واستصوبوا سر الرجل النبيل [فيروز] وأثنوا على فطنته ، وكتموا عزمه في صدورهم كتمانهم لأمر لا ينبغي أن يعلم به أحد قط .

أما كونت تولوز فكان الوحيد الذى شذ عنهم فيما يتعلق بهذا الموضوع . وترتب على موقفه هذا ارجاء المسألة ارجاء كاد أن يدمر ما اتفق عليه ، لان صديق بوهيموند الحميم [أعنى فيروز] . كان رافضا كل الرفض أن يقوم بعمل فيه كثير من الخطر عليه من أجل خاطر الآخرين ، كما ان بوهيموند لم يكن بالشخص الذى يجهد نفسه في عمل للصالح العام ان لم يعد عليه بالجدوى ، لكنه استمر مع ذلك في الحفاظ على مودته الصـــــادقة مع فيروز فحافظ على الدوام بهداياه وملاطفاته ، كما ظلت الرسائل موصولة ومترادفة بينهما ، وأخذ كل منهما يرعى ما بينه وبين صاحبه من الصـــداقة وينميها .

عاد فى هده الأ..اء الى أنطاكيه المبعوبون الدين كان باعى سيان وأهل أنطاكية قد أرسلوهم الى فارس بغية اسجداء العون ، وقد نجحوا فى انجار سفاريهم ، وتحققت مطالبهم ، ذلك لان أمير فارس العظيم كان قد سمع بما تلفاه أنطاكية من الأهوال فتحرك قلبه عطفا عليها ، وكان من صالحه صد محاولات الصليبيين والعمل على سل قويهم حتى لا يطلعوا لفتح بعض أجزاء من مملكته تحت السقف » ومن ثم بعث الى بلاد الشام حشـودا لا يحصيها العـد من الفرس والترك والأكراد ، بقيادة واحد من أصدقائه المقربين . كان يستطيع أن يعتمد على شجاعته واخلاصه وهمته كل الاعتماد ، وألقى اليه بالقيـادة ، وجعل تحت امرته أمراء سنين وقوادا وأمراء خمسين وضباطا آخرين دونهم مرتبة ، يطيعون أمره وينفذون كل ما يقضى به ، كما زوده بكتب لها قوة القانون وجهها الى ولاة جميع الأقاليم التابعة له . والخاضعة لسلطانه متضمنة أمره الى كافة الناس والأمم والقبائل والشعوب على اختلاف ألسنتها ، أن يتبعوا ــ من غير تردد ــ ابنه المحبوب «كربوغا» الذى وكل اليه قيادة جيوشه بسبب خدماته، وأمرهم بالامتثال لسلطان هذا الرجل ، وألزمهم بطاعته فى كل ما يأمرهم به ، وأن يكونوا وفق مشيئته فلا يعارضه فيها معارض .

رأس كربوغا ــ بأمر مولاه ــ الجيوش التى ذكرناها حالا ، وزادها عددا بمن ضمه اليهم من العسكر الذين جمعهم خلال زحفه فى البلاد ، فدخل العراق بمائتى ألف رجل ، وعسكر فى ناحيـه الرها ، حيث جاءته الأخبار المختلفة وهو بها بوقوع هذه المدينة وكل الاقليم المحيط بها فى قبضة أحد قادة الفرنجة الذى كان زاحفا ضده فأجمع النية اذ ذاك على مهاجمة هذه المدينة ــ قبل عبوره الفرات ــ وعزم على الاستيلاء عليها قسرا .

ببد أن بلدوين كان قد علم بتقدم [ياغي سيان] فجلب أناسا شجعانا من كل النواحي التي حول [الرها] لمساعدته ، كما عني بتوفير كل ما تحتاجه مدينته من الطعام والسلاح ، لذلك لم يزعجه كثيرا تهديدات كربوغا السديده له ، حين أمر الأخير أن ينادي المنادون بأن الجيوش موشكة أن تغير على الرها ، وأن تضرب الحصار عليها بكل ما أوتيت من قوه ، ولكن المدينة قاومته في عناد . وسرعان ما تجلى للعيان انه لن تجدي كثيرا من هذه المحاولة ، ولن يكون تقدمه فيها ملحوظا ، مما حمل في النهاية جماعة من أهل الحجى على الذهاب الى قائدهم ، وطال بينه وبينهم الجدل ، حتى انتهى به الأمر الى نبذ هذه المحاولة وعدوها محاولة عارضة ، انصرف ياغي سيان اثرها لمتابعة خطته الأصلية ، التي تتلخص في عبور الفرات والاسراع لنجدة أنطاكية ، وهو الهدف الذي جاء من أجله ، وذكر له هؤلاء الرجال أن أخذه الرها وأسره بلدوين لن يستغرق منه أكثر من يوم واحد ، وذلك في طريق عودته من أنطاكية بعد رفعه الحصار عنها .

★★★

ظل كربوغا محاصرا الرها ثلاثة أسابيع (١) ، أضاع فيها وقته سدى وبدد جهوده عبثا ، ثم بدا له أن يأمر قواته بعد ذلك بعبور النهر فأمرها فاجتازته فسار خلفها مجدا الخطى في همة كبيرة الى هدفه الذي خرج من أجله ، وكان توقف جيش الأعداء أمام الرها ، هو السبب في عدم استطاعة بلدوين أن يكون حاضرا أثناء حصار أنطاكية ، كما كان السبب في خلاص قومنا الذين كان لابد أن يتحرج موقفهم - كما تنبأ فيروز صديق بوهموند - لو أن كربوغا زحف مباشرة على أنطاكية ، وأخذها قبل استيلاء الصليبيين عليها ولكن شاءت نعمة الرب أن تقع أنطاكية قبل وصول المارقين ، والا كان من الصعب على الصليبيين أن يقفوا في طريق كربوغا .

(١) ذكرت الترجمة الانجليزية أنها من ٤ حتى ٢٥ مايو .

- ١٥ -

عمت التسائعه أرجـاء المعسكر في نفس الوقب بتقدم هـذه الحشود الكثيفة وأكد الكثيرون صدق هذا الحبر ، فأيقن العسكر أن العدو قد وصل الى اطراف انطاكيه ، فاستبد الذعر بهم استبدادا كبيرا ، واذ ذاك قام القادة فبعثوا في انجاهات مختلفة رجالا من دوى الخبرة لا يسك أحد أبدا في اخلاصهم ونشاطهم ، وطلبوا اليهم أن يقانلوا وجها لوجه أناسا لايغمر ولاؤهم حتى يمكن الحكم الصحيح عن مدى صدق ما أذيع من الأنباء ، وقد اختير لهذه المهمة محاربون سجعان من ذوى الرتب العالية هم « دروجو دى سرل » و « كلاريبولد دى فنديل » و « جيرارد دى سيريزى » ، و « رينالد كونت نول » وعيرهم ممن غابت عنا أسماؤهم فانتسروا مع أتباعهم فى نواح مختلفه. وبذلوا همتهم فى التقصى الدقيـق فأرسـلوا من قبلهم وبدورهم الكسافه الى النواحى القاصية ، فصارت بين أيديهم بهذه الطريقه أخبار موثوق بها تؤكد تجمع العسكر [الاسلامى] من ستى النواحى وانضمامهم بعضهم الى بعض فى جيش واحد ، كأنهم الأنهار تتجمع لتصب فى البحر ، فلما فرغ الزعماء من ذلك عادوا مؤكدين للقاده الذين كانوا قد بعثوا بهم أنه لا موضع للشك فى الأنباء التى بلغتهم ، وبذلك أخذ كبار قادة الجنس الصليبى حذرهم قبـل سبعه أيام من وصـول كربوغا بقواته أمام أنطاكية . فأوصوا الجواسيس أن يعملوا جهدهم على بقاء هذا الخبر طى الكتمان ، فلا يسمع به أحد من الناس ، خوفا من استيلاء الذعر على جموع العامه التى أضناها الجوع ، وأرهقتها الشدائد التى استمرت طويلا مما قد يدفعها الى تدبير خطة للهرب الذى كان طريقا سلكه في الواقع منذ وقت قريب بعض الزعماء الكبار .

وحينداك نجمع الزعماء لنبادل الرأى حول الموقف الدى أصبح يكرب الحمله بأجمعها ، ويهدد بمأزق يذهب ريحها ، فسرعوا بروح مواضعة وقلوب حـــعه يدبرون الاجراءات الى ينبغى عليهم اتخاذها فى مثل هذه الحال الطارئة ، فاقترح بعضهم أن تخرج كل القوة المشتركة فى الحصار ، فتتصدى للجموع القادمة على بعد ميلين أو ثلاثة أميال من المدينة ، وهنــاك ــ بعد رفعهم أكف الضراعة الى السماء أن تمدهم بالعون ــ يحاولون مقابلة ذلك القائد المتغطرس ، المنفخه أوداجه بما نمى معه من الألوف المؤلفه .

على أن فريقا منهم فضلوا أن يخلفوا وراءهم فى المعسكر قسما من الجيش ، لمنع الأهالى من التسلل والانضمام الى العسكر الوافد اليهم ، وأما ذلك القسم من الجيش الصليبى الذى يساو هؤلاء قوة وكان أخبر منهم بفن الحرب فعليه ــ حسب الاقتراح الأول ــ الخروج لصد الكفار على بعد ميلين ، فان رضى الله القدير بما فعلوا فاتلوهم بعون منه .

وبينما كانوا يناقشون هذا الموضوع مناقشه دقيقه ، ويتبادلون الرأى فيما بينهم تبادلا حرا ، تسلل بوهيموند فى هدوء وانتحى جانبا بطائفة من كبار القـــادة هم : جودفروى ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورماندى ، وريموند كونت تولوز ، حتى اذا أصبحوا وحدهم فى ناحية منعزلة ، وعلى مبعـــدة من الآخرين خاطبهم قائلا :

« انى أرى أيها الاخوه الأحباء العاملون فى خدمه الرب ، انكم قد انزعجتم فزعا من دنو هذا الزعيم ، والذى يقال انه أصبح قريبا منكم كل القرب ، ولقد كان لكل منكم ــ أثناء المؤتمر الذى انعقد

منذ قليل ــ رأيه الذي يخالف رأي سواه ، والذي يصدر عن رغباته الخاصه . ومع ذلك فلبس ثم انفراج مس الموضوع من حدوره . عسواء خرجنا جميعا معا كما اقترح بعضكم ، او اقام فريق من الجند في المعسكر ، فالواضح أن جهودنا الكبيره مهما طال استمرارها ، لن تجدي فتيلا ولن تؤتي ثمرتها . ذلك لأن في خروجنا جميعا معا نهاية للحصار . وقضاء على أهدافنا ، اذ يعود المواطنون احرارا ليس عليهم رقيب ، وحينذاك قد ينضمون الى العدو أو يدخلون عسكر حلفائهم الى المدينة .

« كما أنه لا محيص من حدوث نفس النتيجة لو بقي قسم من الجنود في المعسكر ، ذلك لان جميع قواتنا المتحدة حتى الآن لن تكون قادرة على كبح جماح المواطنين رغم ما هم فيه من ضيق يبعث على اليأس ، ورغم أنهم لا يأملون قط في نجده تأتيهم فتعينهم ، فكيف ينبغي اذن لجزء ضئيل من جيشنا أن يلزمهم بالبقاء داخل الأسوار ان وصل حلفاؤهم ؟ ويبدو لي انهم اذ ذاك سيفعلون واحدا من اثنين : اما أن ينضموا الى حلفائهم وحينذاك تشتد شوكة قواتهم المتحده في الهجوم علينـا بأعداد تفوق أعدادنا . واما أن يحاولوا بطريقة أو أخرى لادخال جند الحلفاء المدينة ، مع بذلهم الجهد في تزويد أنطاكيه بالسلاح والميره مما يشد من ساعدها . وفي هذه الحالة لن يكون عندنا ما يؤكد لنا التغلب على المدينه حتى واذ أعاننا الله فهزمنا العدو خارجها ، لذلك يبدو لي أيها الساده العظام الموقرون أن الواجب يفرض علينا أن نسعى السعي كله للاستيلاء على أنطـاكية قبل وصول هـذا القـائد الكبير ، فان سألتموني وما وسيلتك الى ذلك ، وكيف يمكن تطبيق خطة كهذه الخطة ، فاني أقــرر لكم ــ حتى لا أبدو وكأنني أقترح عليـكم مشروعا يستحيل انجازه ــ أنني قادر على أن أفسح لكم طريقا ، نستطيع منه أن نحقق هدفنا المنشود تحقيقا سريعا وسهلا . ذلك أن لي بأنطاكية صديقا

صدوقا ، عاقلا كل العقل ، بقدر ما يرى عين الانسان العقل ، وأعتقد أننى قد بينت للبعض منكم منذ قليل أن تحت امرة هذا الرجل برجا منيعا شديد الحصانة ، وأنه قد رضى عن طيب خاطر أن يسلمه لى تحت شروط خاصة ، وكنت قد التمست منه مرارا أن يفعل ذلك فاستجاب لى بعد الحاح طويل ، والتزمت له — ردا لهذا الجميل — أن أصله بقدر كبير من المال ، وأن أضمن له ولذريته من بعده أملاكا شاسعة ، وامتيازات سنية ثمنا يكافىء ما قام به ، ان جرت الأمور وفق ما نهوى

« فان رضيتم أيها السادة الأعزاء أن تصبح مدينة أنطاكية تحت حكمى — ان تم الاستيلاء عليها بجهودى الكبيرة — وقبلتم أن تكون وراثة فى بيتى الى الأبد ، فانى مستعد حينذاك أن أخرج الى حيز الوجود ما اتفقت عليه أنا وصديقى (١) هذا ، أما اذا أبيتم ذلك ، فليحاول كل واحد منكم أن يلتمس طريقا أحسن مما ذكرته ، يمكنه من الاستيلاء على المدينة بنفسه ، فان نجح فى ذلك كانت ملكا خالصا له لا يسابقه فيها أحد ولا ينازعه ملكيتها منازع ، وسوف أذعن أنا لما فيه صالحه ، كما أننى مستعد لأن أتنازل له عن أى نصيب يكون لى فى الأمور الحالية » .

- ١٧ -

أصغى الزعماء جميعا لكلمات بوهيموند هذه بقلوب تغمرها الفرحة ، واستجابوا لرجائه ، معترفين بجميله ، ولم يشذ عنهم سوى كونت تولوز ، الذى أعلن فى اصرار أنه لن يتخلى عن نصحه

(١) المقصود به « فيروز » .

كائن من كان ، على حين قطع الآخرون على أنفسهم العهد ان يمنحوا المدينة بملحقاتها لبوهيموند ، لتكون وراثية في بيته الى الأبد .
وأقسم كل رجل منهم — وقد شرط بوهيموند — أن يبقى الأمر سرا مكتوما لا يخبر به احدا قط ، ثم أخذوا كلهم في الوقت ذاته يلحون على الأمير بوهيموند أن يبادر لحسم هذا الموضوع بما عهد فيه من النشاط ، حتى لا يؤدي الابطاء الى حدوث خطر ما . ثم انفض الاجتماع ، فقام بوهيموند بما أثر عنه من طبع لا يعرف الابطاء وعزم يحرق لتنفيذ مشروعه . فاتصل في لحظته بصديقه فيروز بواسطة الرسول الذي اعتادا أن يكون الواسطة بينهما . وأخبره أن الزعماء سمحوا له بكل ما سألهم اياه ، وراح يلح على فيروز ، ويستحلفه بما بينهما من الايمان الصادق ، أن يقوم في الليلة التالية بعون الله بتنفيذ الخطة التي اتفقا عليها . فأثلج ذلك الخبر نفس سامعه الوفي . وغلبت عليه نشوة السرور فوق كل ما يتصور .

★★★

على أنه جرت حادثة قرب هذا الوقت ثبتت من عزم [فيروز] على السير قدما في المؤامرة التي دبرها ، ذلك أنه بينما كان مشغولا أشد الاشتغال بأداء ما تفرضه عليه واجباته الكثيرة التي يقتضيها وضعه في بيت مولاه ، بل وفي البلد كله ، اذا بأمر عاجل لا تدرية يجد أثر ارساله ولده الشاب الى داره ، اذ ما كان الفتى يبلغها حتى طالع منظرا مشينا فاضحا ، حين شاهد أمه بين ذراعي أحد كبار الأتراك في وضع مزر أسخطه غاية السخط . وارتعدت منه أوصاله فزعا ، وتمزقت له نفسه ، فانكفأ سريعا الى أبيه وأخبره بالفضيحة ، فحقق فيروز حنق الزوج المثلوم في شرفه ، المهان في كرامته ، وقيل انه قال في مرارة ، ألم تكف هذه الكلاب القذرة أنها تفرض علينا رقها الظالم ، وتنهب أملاكنا بما تبتزه منا

يوما بعد يوم حتى تسهين بالنفـ.لد الأسريه ، وتقطع الروابط الزوجيه ؟ .... والله لأضعن – اذن عسس – نهايه لهذا المحور ، ولأجارسهم بعون الرب الجزاء الأوفى الذى هم أهل له » .

قال فيروز هذه الكلمات وقد كتم جوانحه على ما يحسه من شعور بالاهانة التى لحقت به ، ثم أرسل الى بوهيموند – كما جرت العادة – ولده الذى يشاركه أسراره ، والذى كان هذا الاثم الذى نزل بأمه قد استورى غضبه ، وأضرم غيظه ، وأمره أبوه – اذ بعثه الى القائد بوهيموند – أن يطلب اليه أن يستعد لكل شيء يستلزمه العمل الذى بين أيديهم استعدادا دقيقا ، وان يخبره أنه لن يقصر فى شيء من جانبه ، بل انه موف بما عاهده به ، وموعدهما الليلة التالية .

كما أشار عليه أن يغادر الزعماء جميعا المعسكر ووراء كل منهم أتباعه ، وأن تكون مغادرتهم المعسكر قرب الساعة التاسعة ، حتى لتحسبهم الرائى وكأنهم قاصدون الزحف على عدوهم . فاذا قرب موعد الحراسة الليلية الأولى عادوا سرا وفى سكون مطبق ، ونهيأوا قرب منتصف الليل للعمل حسب تعليماته ، فاستصحب بوهيموند هذا الشاب فى السر الى القواد العالمين بخبر المؤامرة ، وذكر لهم كل تفاصيل ما رتب حسبما اتفق عليه مع فيروز بمساعدة ولده ، فتملك العجب نفوسهم جميعا من خطة الرجل وصادق اخلاصه ، وأقروا ما رسمه ، واتفقوا على تنفيذه حسبما رتب .

غير أنه كثيرا ما يجد حدث من الاحداث لم يكن متوقعا فتعترض مساريع لها مثل هذه الخطوره . اذ ساورت الريبه - التى يعوزها البرهان - نفوس مواطنى أنطاكيه لاسيما من تقع على أكتافهم المسئولية المباشرة عن أمن المدينه . واحتل الشك فى نفوسهم اكثر من اليقين بأن هناك مفاوضات تجرى فى الخفاء ترمى الى تسليم أنطاكية ، وما لبث هذا الشك أن أصبح موضوعا عاما تلوكه جميع الألسنة . مما دفع كبار المواطنين للاجتماع . وســـاروا الى الوالى للتشاور معه فى حسم هذا الخالج الذى تضطرب به نفوسهم ، والذى بدى محتملا كل الاحتمال ، وتقوم الدلائل الكثيره على ترجيحه .

وكان بأنطاكيه - كما قلنا - رعيل كبير من المسيحيين تحوم حولهم الريب رغم براءتهم براءة تامة من هذه المؤامرة ، وكان من بينهم ذلك الرجل النبيل الذى نتحدث عنه الآن ، والذى رغم اعتماد ياغى سيان على اخلاصه الصادق اعتمادا كبيرا ، الا أن الرجال البارزين الآخرين كانوا يرتابون فيه أكثر من غيره ريبة لم تجعله موضع ثقتهم .

لذلك عقد اجتماع مثير بشأن هذا الموضوع فى حضره ياغى سيان ، تردد فى أثنائه اسم « فيروز » مع أسماء بضعه أفراد آخرين كانوا مثار التشكك ، وكان هناك على ما يبدو كثير من الأسباب التى تحمل على عدم تصديق ما اتهم به ، لأنه كان رجلا جم النشاط وصاحب نفوذ فى المدينة يفوق نفوذ سواه من المسيحيين . وأخيرا رضخ ياغى سيان لالحاح مستشاريه فأمر باحضار فيروز ، فأحضروه . وتعمد الموجودون اثارة نفس الموضوع فى وجوده ليسمعوا ماذا يكون قوله ، ليكونوا قادرين على أن يقرروا - بناء على ما يقوله - اذا كان ما يثار حوله من شك حقيقة أو منيا .

ولكن فيروز كان رجلا شديد الذكاء حاضر البديهه فأدرك فى لحظته ان هذا الاجتماع انما عقد من أجله هو وحده ، وانه هو ذاته موضع الاتهام ، ولذلك أخذ يراوغهم فى اخفاء سره ، واظهار براءته أمامهم ، ويقال انه رد على أولئك الذين اجتمعوا لتقصى أمره بقوله « ان شككتم أيها الرجال المحترمون ، وأنتم كبار رجالات هذه المدينة وسراتها ، لأمر يستحق أعظم الثناء ، ولا يتوفر مثله الا عند ذوى الفطنة ، لأنه من الحكمة الحدس بما يمكن وقوعه ، كما أن شدة الحذر فى الأمر الجليل ليست بضاره ، لذلك يخيل الى انكم قد صدرتم عن واقع ليس بالتافه فى أمر يتعلق بحياتكم وحريتكم ونسائكم وأبنائكم ، ومع ذلك فان قبلتم نصيحتى فان هناك طريقة عادلة عاجلة تؤدى الى العلاج الناجع والشفاء الفعال لهذا البلاء الذى يهددكم ، فالخيانة الملعونة التى يبعثكم بعد نظركم على التخوف منها لا يقدر لها النجاح الا بواسطة الموكول اليهم حراسة الأبراج والأسوار والقوامين على حفظ الأبواب ، فان ظننتم ظن السوء بولاء هؤلاء الناس فاعمدوا الى مداومة استبدالهم بغيرهم ، حتى لا يظل الواحد منهم أمدا طويلا فى مكان واحد ، يمكنه من أن يوثق مع العدو وشائج صداقة مدمرة ، لأنه ليس من السهل اعداد مؤامره من هذا القبيل فى سرعة ، بل تحتاج فى الواقع الى زمن طويل ، كما أنه لا يتسنى لشخص ما بمفرده أن ينجز عملا خطرا كهذا العمل الذى لابد ان يساهم فيه معه مواطنون يشغلون مناصب رفيعة قد أفسدتهم الرشوة حتى صاروا شركاء فى الجريمة ، لكن اذا عمدتم الى القيام بتغييرات فجائية لهؤلاء الناس على غير توقع منهم لها تكونون قد قضيتم على كل فرصة لمفاوضات مهلكة من هذا القبيل » ، ثم أمسك فيروز عن الكلام عندما بلغ هذا الحد من القول . وكان لملاحظاته وقعها الطيب فى نفوس الذين سمعوها فاستصوبوها ، واتضح لهم انه قدم الدليل القاطع والبرهان الجلى على براءته ، وأنه مضى الى حد بعيد على ما خامرهم من الشك فى أمره .

وكان من الممكن ان يبادروا فى لحظتهم عده بسعيد ما أوصى به ، لولا أن النهار كان موشكا على الانصرام ، والليل موشكك على الدخول ، مما يستحيل معه القيام ـ فى ساعه مأخرة كهده الساعة ـ باجراء مثل هذا التغيير الرئيسي فى حراسة المدينه ، لكن الذى استطاعوا عمله هو اصدارهم الأوامر بتشديد الحراسه ، تشديدا صارما لحماية البلد ، غير أنهم كانوا جميعا فى جهل بما دبره ذلك الرجل من تدابير فى الخفاء ، واذ كان على بينه من أن الموقف سيتبدل حالا تبدلا كبيرا ، فقد بذل غاية جهده فى السير قدما بمؤامرته . وفى عجلة قبل وقوع أى شيء يحول دون تنفيذها .

- ١٩ -

ما كاد حسنا يقف أمام أسوار مدينه أنطاكية ، ويفرض عليها الحصار ، حتى ساور الشك الأهالى فى الاغريق والسريان والأرمن وغيرهم من معتنقى المسيحية ، دون النظر الى الجنس الذى ينتمون اليه ، ومن ثم أخرجوا منها جميع العجزة . ومن لا يملكون المواد الضرورية لاعالة أنفسهم وأسرهم الصغيرة ، وقد فعل الأهالى ذلك حتى لا يكون هؤلاء عبئا بتثقـل كاهل المدينه التى لم يؤذن للبقـاء فيها الا للأثرياء ، ومن املأت مخازنهم بالمئونة ووسائل العيش الكثيرة التى توفر الحياة لهم ولذويهم . وان كان هؤلاء لم يسلموا من ارغامهم على أداء خدمات كثيرة فرضت عليهم فرضا . الى جانب ما يكلفون به من أعمال جرت العاده على تكليفهم بها . وكان ذلك سيئا ثقيلا بدا معه أن المنفيين الذين أخرجوا من المدينه كانوا أسعد طالعا ممن أذن لهم بالبقاء فيها ، فقد ضوعفت عليهم الغرامات النقدية التى أخذت منهم اغتصابا حتى لم يبق فى أيديهم

من المال سوى النزر اليسير الذى لم يسلم هو أيضا من استعمال السده فى ابتزازه منهم ٠

ولم يكترث أولو الأمر باحتجاجات هؤلاء ، اذ فرضوا عليهم القيام بارذل الأعمال واشقها فى المدينه ، فاذا أريد تشييد الآلات ، أو نقل جذوع الشجر الضخمة الثقيله ، كلفوهم بذلك فى لحظتهم ، كما أجبروا البعض منهم على حمل الحجارة والأسمنت وكل مواد البناء ، وألزموا سواهم بجلب الأحجار الكبيرة التى اعتادوا دائما وضعها وراء الأســوار بالآلات وربطهــا بالحبال التى سد بها ، وما كان لهؤلاء الناس الا الامتثال وطاعة رؤساء الفعلة الذين لم يكونوا يسمحون لهم بقسط من الراحة ، ثم بلغت هذه الشدة الفظيعة ذروتها حين عقد مضطهدوهم اجتماعا سريا قبل ثمانيــة أيام من الجلسة التى استدعوا اليها فيروز المشكوك فى ولائه وقرروا فى هذا الاجتماع الفتك سرا ــ وتحت جنح الظلام ــ بجميع المسيحيين الذين يعيشون فى أنطاكية ٠ على أنه كان بالمدينة زعيم عاقل قوى النفوذ ، لا يكف عن اظهار صداقته للمسيحيين فى كل الأحوال ، فسعى سعيا حثيثا حتى تمكن ــ بعد لأى ورغم معارضة الآخرين له ــ من أن يؤجل تنفيذ القرار القاضى بقتلهم مدة ثمانية أيام ، ولولا منحهم هذه المهلة لكان من المؤكد ارســـال الجلادين لتنفيذ هذا الحكم الفظ ، ولهلك المسيحيون عن بكرة أبيهم بالسيف فى تلك الليلة ذاتها ٠

كان الغرض من السماح بهذه الأيام الثمانية أن يثبت عندهم باليقين الجازم عما اذا كان فى الامكان رفع الحصار عن المدينة ، فان تأكد لديهم عزم رجالنــا على الاستمرار فى الحصــار فتكوا بالمسيحيين ذبحا ، أما ان ثبت عكس ذلك منوا بالحياة على الأهالى الذين سبقوا أن قضوا عليهم بالموت ٠

فلما انهى فتره تأحيل الحكم ، وحان الليلة الأخيره عنه صدر الأمر سرا بتنفيذ ما قضوا به ، وكانت المديحة على وشك أن تتم فى نفس الليلة التى حددها زعماؤنا لتنفيذ الخطه التى رسمها بوهيموند وفيروز منذ أمد طويل . والتى تمت بعون الرب . لذلك ففى اللحظة التى شرع الصليبيون فيها فى احتلال المدينه لم تشعر كبارها بالخوف من الصيحة التى سمعوها ، فقد ذهب بهم الظن الى أن ما سمعوه لا يعدو أن يكون الشروع فى تطبيق الأوامر التى قضوا بتنفيذها فى مواطنيهم النصارى .

لذلك فانه حين تم لرجالنا الاستيلاء على المدينه بتلك الطريقه ، عثروا فى دور نصاراها على كثير من خصوم مليهم الذين كانوا قد جاءوها مأمورين بالفتك بالمؤمنين الصادقين .

- ٢٠ -

ولما كانت الساعة التاسعه سمع صوت المنادى ينادى فى شتى أرجاء المعسكر بخروج جميع كتائب الفرسان فى كامل عدتهم وراء قوادهم ، وألا يتوانوا عن تنفيذ الأوامر التى سوف تلقى اليهم . ولم تكن العامة هى وحدها التى تجهل جهلا تاما بما دبر فى الخفاء ، اذ الواقع أنه لم تكن يعرف السر سوى ثلة ضئيله من كبار الزعماء .

ومن ثم فانه تبعا لترتيبات فيروز الحكيمه ، غادرت كتائب الفرسان بأجمعها المعسكر ، ومشت كل كتيبة منها وراء علم قائدها وساروا حتى ليظنهم الناظر اليهم أنهم ماضون لجهة بعيدة . لكن

الحميقة هى أنهم كانوا يسطرون أن يسدل الليل سدوله على الكون وتظلم الدنيا فيعودون الى المعسكر فى صمت تام .

★★★

كان لفيرور — رجل الرب هذا — الذى أدى للمسيحيين هذه الخدمه الجلى الجليله — أقول كان له أخ يختلف عنه كل الاختلاف ، سواء فى مساعره أو عرضه . ومن ثم لم يكن فيرور يثق فى اخلاص هذا الأخ ولذلك لم يفض اليه بالسر لعدم ائتمانه عليه . بل انه بذل غايه جهده لاخفاء خططه عنه اخفاء تاما .

وحدث فى الساعه التاسعه من نفس ذلك اليوم ، وقد أخذت كتائبنا فى مغادره المعسكر أن وقف الشقيقان معا على احدى شرفات البرج . يطلان على المعسكر ، فشاهدا الجند يغادرونه .

وأراد الأخ الاكبر أن يسبر غور أخيه ، ويعرف ما يدور فى باله ، فخاطبه قائلا . —

« لكم أرثى يا أخى لهذا الشعب الذى يدين بنفس العقيدة التى ندين بها أنا وأنت ، وكم تحزننى الميته التى سوف يلقاها عاجلا . فها هم عساكره يغادرون مخيماتهم فى ثقة وسكينة ، لا يخافون شيئا كأن أوضاعهم آمنه ، لكنهم لو عرفوا ما نصب لهم من الشراك وما ينتظرهم من الدمار الشامل ، فلربما اتخذوا اجراءات أخرى تضمن لهم السلامة » .

فأجابه أخوه : « انه لحمق منك أن تحمّل نفسك هما لا مبرر له، فانه لا محل لعطفك عليهم ، الا ليتهم جميعا هلكوا بسيوف الترك منذ أول يوم مست أقدام الترك هذه الأرض ... اذن لما

ازدادت أحوالنا سوءا ، وما كان من المستطاع أن تكافأ الفوائد التى تحتنيها من جهودهم مع المشاق التى تحملناها بسببهم » ٠

★★★

لم يكن فيروز حتى هذه اللحظة قد قرر ما اذا كان يفضى بهدفه الى أخيه أم يكتمه عنه ، غير أنه لما سمع هذه الكلمات التى فاه بها شقيقه ، فزع فزع الشخص من الطاعون ، وراح يلعنه فى سره . ويدبر خطة للقضاء عليه حتى لا تقف أعماله عقبة فى طريق طاعة المسيح ، وهكذا وضع فيروز سلامة المسيحيين فوق عاطفة الاخوة ٠

- ٢١ -

فى هذه الأثناء راح بوهيموند يبذل غايه وسعه لانجاز مشروعه ، وبلوغ غايته التى يسعى اليها سعيا حثيثا ، وكذلك خوفه من أن يؤخرها أى تراخ من جانبه ٠٠٠ أقول دفعه ذلك الى زيارة الزعماء : فردا فردا ، راجيا منهم أن يكونوا متأهبين للعمل ٠

وكان يحمل فى يده سلما مجدولا على أحسن ما تكون الصنعه من حبال القنب ليعلقه بأعلى جدران السور ، وليثبته من أدناه بكلاليب حديدية ٠

وما كاد الليل يؤذن بالانصاف حتى كان جميع سكان المدينة قد هجعوا للراحة وغطوا فى سبات عميق بسبب سهرهم المستمر ،

ومواصلتهم العمل ، وحينداك بعث بوهيموند الى فيروز بواحد من أصدقائه من خاصة حاشيته وأخلص الناس اليه ، وعهد الى هذا المترجم أن يستوثق من فيروز تمام الاستيثاق عما اذا كان الوقت ملائما لينقدم رفاق مولاه .

فلما وصل الرسول الى فيروز وجده يطل من كوه صغيره في السور ، يرقب منها ما يجرى وراءه ، فأفضى اليه في صوت خافت برسالة سيده ، فقال له فيروز اجلس مكانك ساكنا ، والزم بالصمت حتى يمر من هنا كبير الحراس الذى هو فى جولاته المعتاده وفى صحبته طائفة كبيرة من أتباعه ، وفى أيديهم المشاعل المضيئة .

ذلك أن تقاليد المدينه حرب - بالاضافة الى الحرس الموجودين فى كل برج - أن يدور كبير الحراس كل ليلة ثلاث مرات أو أربعا بالسور ، ويدور معه فى كل دورة ثلة كبيرة من العسس يحملون المشاعل المضيئة ، فان صادف أحدا قد غلبه النوم ، أو متراخيا فى أداء واجبه ، أنزل به القصاص الجدير به .

وسرعان ما وصل الضابط المكلف بهذه المهمه . فألفى فيروز يراقب الأمور ويؤدى واجبه تمام الأداء ، فأثنى على نشاطه ، وانصرف مطمئن البال هادىء الخاطر .

حينذاك رأى فيروز أن قد حلت اللحظة الملائمة للعمل ، فجاء الى رسول بوهيموند الذى كان متواريا حتى الآن حتى لا يراه أحد وقال له : « هيا عجل بالذهاب الى مولاك واطلب اليه الحضور برجاله المختارين على جناح السرعة » ، فانكفأ الرسول عجلان الى سيده ، فوجده على أتم أهبة ، فاستدعى بوهيموند اليه القادة الآخرين سرا ، فاستجابوا له سراعا ، ثم انطلق كل واحد منهم بمن يتبعه من رجاله حسبما اتفقوا عليه ، وما انقضت لحظات قلائل حتى

كانوا جميعا واقفين اسفل البرج وقفة رجل واحد ، دون أن يسمع أحد لقدومهم صوتا ، أو يحدثوا جلبة ٠

★★★

في خلال تلك الفترة القصيرة كان فيروز قد دخل البرج ، فوجد أخاه يغط في نومه ، ولما كان قد تأكد لديه حقيقة مشاعره وانها ضد المشروع الذى دبره واستعد لتنفيذه ، فقد خشى أن يقوم شقيقه هـذا بما من شأنه عرقلة تحقيقه ، بعد أن أوشك على انجاحه ، ومن ثم طعنه بسيفه طعنة نافذة ، فكانت ضربة طيبة ودنيئة في الوقت ذاته ، ثم عاد فأطل من الكوة الموجودة بالأسوار ، فطالع تحتها حلفاءه ، فحيا كل منهما الآخر تحية فيها الرجاء بسلامة كل جانب ، ثم دلى فيروز حبلا جذب به السلم من أسفل السور ٠

لكن على الرغم من رفع السلم وتثبيته تثبيتا محكما من ناحيتى القمة والقاع الا أن الجرأة لم تواتِ أحدا على تسلقه ، ولم يوجد من يخاطر بحياته فيتسلقه ٠ نزولا على أمر رئيسه ، أو حتى انصياعا لأمر بوهيموند نفسه الذى لم يكد يتبين ذلك الاحجام منهم حتى بادر وأقدم هو ذاته على ارتقاء السلم غير هياب ولا وجل ، فلما بلغ القمة وتعلق بجدار الشرفة امتدت يد فيروز من الداخل وأمسكت باليد المتعلقة بالسور ، فلما عرف فيروز فيها يد بوهيموند نفسه ، قيل انه هتف « عشت يدا ، وسلمت » ٠

وأراد فيروز أن يرفع قدره في نظر بوهيموند وفي عيون المسيحيين الآخرين حين يعلمون بما جرى من اغتياله شقيقه الذى لن يقبل مشاركته في عمل مقدس كهذا العمل ، فأخذ بيد بوهيموند القائد ، وسار به داخل البرج ، وأراه جثة أخيه الهامدة غارقة في دمها ، فما كان من بوهيموند الا أن احتضن

هدا الرجل الصادق فى اخلاصه ، والثابت على عهده ، وقد فاض قلبه بالحب ، ثم عاد الى الشرفة مطلا برأسه قليلا من خلال احدى الفتحات ، ونادى برجاله فى صوت هامس آمرا اياهم بالصعود ، لكنهم كانوا مترددين اذ لم يجرؤ أحدهم على تلبية أمره ، لأنهم كانوا لا يزالون فى شك فيمـا سـمعوه من الشرفة ، فلما أدرك بوهيموند ذلك الأمر من أصحابه نزل اليهم عن طريق السلم ، فكان ذلك برهانا لا ريب فيه على سلامته ، وسرعان ما أخذ كل واحد منهم يزاحم رفيقه ويدافعه بغية الوصول الى السور ، حتى اذا تكامل جمعهم لم يستولوا على ذلك البرج وحده ، بل وقعت فى أيديهم أيضا أبراج كثيرة غيره على كلا جانبيه ، ولقد سمعنا أنه كان من بين الذين تسلقوا السور ، كونت فلاندرز ولورد تانكريد . اقتفى غيرهما أثرهما .

- ٢٢ -

لما رأى الزعماء الآخرون وصول الرجال الأشداء الى شرفات الأسوار فى أعداد كبيرة مما أدى الى فتح أكثر من بوابة لهم ، عادوا سراعا الى المعسكر ليستعد أتباعهم لتلبية الاشارة باقتحام المدينة حين يرسلها لهم رفاقهم الموجودون بها ، وأحس الذين تسـلقوا الأسوار كأنما سرت فيهم حماسة علوية ، فقادهم فيروز بنفسه الى داخل المدينة ، فاستولوا على عشرة أبراج فى ضواحيها ، بعد أن فتكوا بحراسها ، وقد تم ذلك كله والمدينة يلفها السكون المطبق ، فلم يسمع أحد لهم صوتا .

كان فى ناحيه السور الذى صعد منه الصليبيون باب سرى فنزلوا اليه ، وحطموا قضبانه ، وفضوا أقفاله ، وفتحوه وأدخلوا من خلاله العسكر المنتظر فى الخارج ، وازداد عدد المهاجمين خلف الأسوار زياده ضخمه ، واندفع هؤلاء وهؤلاء جميعا الى المكان المعروف بباب الجسر ، وأعملوا الذبح فى الحراس فى هجوم شرس عليهم . ففتحوا هذا المدخل أيضا ·

فى هذه الأثنــاء حمل بعض أتبــاع بوهيموند رايته الى تل مشرف على المدينة ، وركزوها فى مكان بارز للعيان على مرتفع قرب القلعة العليا ·

ثم تلألأت السماء مؤذنه بطلوع الشمس . فنفخ فى الأبواق لتكون اشاره لرجالنا الذين أحدثوا ضجة صاخبة عند مدخل المدينه وليحملوا الجند الذين لا زالوا فى المعسكر على التحرك ، فلما فهم الزعماء معنى هذه الاشارة — التى كان متفقا عليها من قبل — هبوا الى سيوفهم وأسرعوا يأخذون فرقهم كلها ، وانطلقوا على عجل الى المدينة ، واستولوا على منافذها وأبوابها ·

وحينذاك تحرك العامة [اللاتين] الذين ظلوا حتى هذه الساعه على جهل بما دبر من خطط فى الخفاء ، فلما أدركوا أن المعسكر شبه خال قد غادره جل من كانوا فيه انطلقوا هم أيضا فى أعقاب الآخرين وشقوا طريقهم — وقد تملكتهم الحماسة — الى داخل المدينه التى استيقظ أهلها على الضجة العالية ، ولم يستطيعوا أن يتبينوا بادىء ذى بدء حقيقة هذا الصياح العالى الذى لم يألفوه من قبل · لكنهم طالعوا منظر الفرسان العجيب وهم فى دروعهم وزردياتهم يندفعون خلال المدينة ، كما شاهدوا آثار الدمار فى كل ركن وناحيه فى الشوارع والميادين ، حينذاك أدركوا حقيقة الأمر ، ففروا من بيوتهم وهاموا على وجوههم ، محاولين الهرب بنسائهم وأبنائهم ·

وانطلقوا على غير هدى قد ضل صـــوابهم ، فى محاولات مجنونه للتخلص من عصابات الجند المسلحين ، بحثا عن مكان آمن يلوذون به ، فاندفعوا وهم لا يدرون أين يمضون ووقعوا فى طريق المحاربين الآخرين .

أما من كان يسكن المدينه من المسيحيين والسريان والأرمن ومؤمنى الشعوب الأخرى فقد جاوزت فرحتهم كل فرحة لما جرى ، وبادروا الى امتشاق السلاح وانضموا الى الجيش ، واذ كانوا على دراية تامة بكل ركن فى المدينة فقد كانوا نعم المرشدين لغيرهم عبر مسالك البلد المتشابكة المعوجة ، وكانوا اذا وجدوا بوابة لازالت مغلقة وثبوا على حراسها وفتكوا بهم ، وشقوا الطريق بكسر الأقفال ، ثم أدخلوا رفاقهم ، وخيل اليهم أن هـذا التغير المدهش قـد جاء من الرب .

★★★

أما أولئك الذين كانوا يقاسون شدة نير الرق من تلك الكلاب النجسة ، والذين كابدوا وطأة ثقل الخدمات والتعذيب دون أن يرحمهم أحد فقد أصبحوا قادرين على أن يصبوا على أعدائهم مثل الذى صبوه عليهم من الأهوال ويعملوا على تدميرهم .

فى هذه الأثناء تمكن جيشنا كله من دخول المدينه بعد أن استولى على أبوابها وأبراجها وأسوارها من غير مشقة ولا كلفة ، وأخذت رايات الزعماء ورنوكهم المعروفة للجميع تخفق من أعلى الأماكن رمزا للنصر الذى أحرزوه . فاين ألتفت فثم مذبحة وآلام مبرحة وعويل نساء ، وأرباب بيوت يجرى عليهم القتل هم وأهلهم ، وراح الصليبيون يشقون طريقهم الى البيوت ، محطمين كل الأدوات المنزلية ، وصارت جميع حاجات العدو نهبا مســتباحا لأول من يسعفه حظه أن يصـــل اليها ، وحاز المنتصرون حيثما شاءوا ،

فاقتحموا الاماكن التى كان دخولهم اليها محرما عليهم . وطغى عليهم جنون القتل والنهب فلم يراعوا ذكرا ولا أنثى . ولم يوقروا كبيرا لسنه ثم راحوا يستفسرون من كل عابر لشوارع المدينة ومياديها أين تكون بيوت سراة الأهالى وأين يسكن أثرياهم . وكونوا من بعضهم المخادع . وتعمل السيوف فى الأمهات وأطفال النبلاء . ثم راحوا يتقاسمون فيما بينهم ما بالبيوت من أثاث وذهب وفضة وثياب غالية .

ويقال انه قتل ذبحا فى هذا اليوم ما يربو على عشره آلاف من الأهالى . واكتظت الشوارع فى كل مكان بجثث القتلى التى لم تجد أحدا يواريها ، فبقيت حيث هى .

- ٢٣ -

حين رأى ناعى سان أن المدينه قد استسلمت لخصمه الذى تملك جميع أبراجها وحصونها . وحين شاهد الناجين من الهلاك يرتدون الى القلعة على عجل . بدأ الخوف يتسرب الى نفسه من أن يتعقبه المسيحيون الى حيث هو واقف . ويحدقوا به هو أيضا . فاندفع – كأنما قد أصابه مس من الجنون – نحو بوابه خلفيه . وهرب وحده من غير رفيق ، ولم يكن يعنيه سوى الابقاء على مهجته . وبينما كان يتخبط هنا وهناك فى حرج قاتل ويهيم على وجهه من غير هدف واضح اذا بطائفه من الأرمن يصادفونه فعرفوه فى لحظتهم ، فاقتربوا منه حتى لكأنهم يهمون بمعطمه ، فأذن لهم بالدنو منه وهو جزع ، فلما تبينوه وحده عرفوا أنه هارب ، وأدركوا

فى ساعتهم أن المدينه قد سقطت فوثبوا عليه وطرحوه أرضا فى غلظة ، وأخـذوا سيفه وقطعوا به رأسـه وحملوها الى المـدينة ، وقدموها هدية الى القادة وعلى مرأى من الناس جميعا .

ووجدوا أيضا بمدينه أنطاكية جماعه من الأشراف كانوا قد وفدوا اليها من أماكن قاصية لنجدتها ولاظهار جرأتهم ، فلما تبينوا سقوطها فى أيدى المسيحيين أجمعوا العزم على الارتداد الى القلعه العليا دون معرفتهم بالناحيه ، واستبد بهم الذعر والخوف على أنفسهم فانطلقوا هائمين على وجوههم ، لائذين بأذيال الفرار ، لكنهم وجدوا أنفسهم وقد أحدق بهم فى مكان شديد الضيق أعجزهم النزول فيه لشدة انحدار التل تحتهم ، و لايستطيعون الصعود الى أعلى لتكاثر رجالنا عليهم هناك ، وبينما هم يلتمسون فى يأس أى سبيل للنجاة اذا بثلاثمائة واحد منهم على جيادهم يسقطون من أعلى التل ومعهم رنوكهم التى تميز الواحد منهم عن الآخر ، فدقت أعناقهم ، وتهشمت عظامهم ، حتى لم يكد يبقى منهم شىء يدل عليهم .

أما الذين يسكنون المدينـة وما جاورهـا ويلمون بدروبها وشعابها فكانوا أسعد حظا من هؤلاء ، اذ ما كادوا يعلمون بخبر سقوط أنطاكية حتى تجمعوا وانطلقوا مع الفجر الوليد هاربين الى التلال من خلال أبواب أنطاكية التى بدأت تغلق من جديد . لكن قواتنـا تعقبتهم ، فردت البعض منهم ، وأمسـكت بهم وقيدتهم بالسلاسل ، أما من أسعفتهم جيـادهم بالوصول الى التلال فقد اتخذوا من الاجراءات ما حفظ عليهم حياتهم ، وضمن لهم السلامة .

واذ بلغت الساعة الخامسة عادت قواتنا المطاردة ، فلما تجمع كل من كانوا قد انتشروا فى المدينه أجرى استقصاء دقيق دل على أنه لم يعد بها شىء من المئونة ، ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب لأن الحصار ظل مستمرا بغير انقطاع ما يقرب من تسعة شهور متتالية .

علما أنه وجدت كميات ضخمة من الذهب والفضة والجواهر والأواني الثمينة والبسط والأقمشة الحريرية فاستولى عليها الناس ، وفاضت بها أيدي من كانوا حتى الآن جياعا معسولين فاثروا فجأة وصارت لديهم وفرة من كل شيء ٠

على أنه لم يوجد في كافة ارجاء المدينة أكثر من خمسمائة حصان من جياد الحرب ، ولكنها كانت حمولا ضامرة عزيلة تكاد تموت جوعا ٠

وكان الاستيلاء على مدينة أنطاكية في اليوم الثالث من شهر يونيو من سنة ١٠٩٨ من ميلاد المسيح ٠

هنا ينتهي الكتاب الخامس





هنـا يبـدأ
الكتاب السادس

محاصرة الصليبيين : النصر المعجزة

فصول الكتاب السادس :

١ ـ وصف الجبل المشرف على المدينه والذى لا يزال بعضه فى يد العدو الذى أقام حراسا هنـاك ، وارسال رسل الى الساحل الشامى وتحصين المدينة تحصينا قويا ٠

٢ ـ مقـدمة من حشى كربوعا قوامها ثلاثمائة رجـل تخطر أمام المدينة ويخرج لقتالها روجردى بـار نفيل غير أنه يلقى مصرعه مذبوحا ٠

٣ ـ الأمير الكبير يتقدم الى الأمام ويضرب معسكره على

المرتفعات المشرفة على القلعة ، والتغلب على الدوق عند الباب الشرقي وهلاك مائتين من رجالنا .

٤ ـ الصليبيون يحفرون خندقا داخل المدينة يمتد على طول سفح التل ، وهناك تنشب معركة تدور الدائرة فيها على العدو الذى ينزل قائده من الجبل ويحاصر القسم الأسفل من المدينة .

٥ ـ الصليبيون بأنطاكية يكابدون مرارة الجوع فيتسلل بعض النبلاء خلسة ، وتوضع القيادة العليا في يد بوهيموند .

٦ ـ كونت فلاندرز يضرم النار من تلقاء ذاته في الحصن المواجه لباب الجسر حين يجد نفسه عاجزا عن استخلاصه ثم يغادره ، كما أن القائد العام لقوات العدو يبعث الى فارس رهطا من أسراه الصليبيين .

٧ ـ اضطرار الشعب لأكل الطعام القذر ـ وان كان على مضض ـ أمام استفحال المجاعة .

٨ ـ العدو يكاد أن يستولى خلسة على أحد الأبراج ، لكن هنرى دش يقاومه مقاومة باسلة وينجح بعد قتله لكثير من الأتراك ـ في الاستحواذ على البرج بقوة السلاح .

٩ ـ العدو ينزل الى الساحل ويحرق المراكب ويقتل الكثيرين من رجالنا على طول الطريق .

١٠ ـ سـنيفن كـوت سـاررر يرور امبراطـور القسطنطينية ·

١١ ـ حديث سيفن الكاذب الى الامبراطور مما يعـود بأوخم العواقب على الصليبيين ·

١٢ ـ الامبراطور يعود الى بلاده ثقه منه فى كلام الكوبت ثقة حمله على وقف الحملة التى كان قد أعدها لمساعدتنا ·

١٣ ـ أنباء انسحاب الامبراطور سجع العـدو على تكثيف ضغطه على الصليبيين الذين يحملهم اليأس على رفض القيام بواجبهم ، فيضرم بوهيموند النار فى المدينه ليحملهم على الخروج من مخائبهـم ويدبر الزعماء خطة للهرب ، ولكن الدوق يفسد عليهم خطتهم ·

١٤ ـ الرؤيا التى رآها شخص اسمه بطرس [بارتلميو] والكشف عن حـربة المسيح وعـودة السكينة الى نفوس الناس من جديد ·

١٥ ـ الزعماء يجمعون الرأى على بعث بطرس الناسك رسـولا من قبلهم الى العـدو فيمضى ويؤدى السفارة بشجاعة ·

١٦ ـ بطـرس الناسك يعود الى الزعماء ويفصّل لهم الخبر عن وجهـة نظر العدو المتعجرفة . فتعلن الحـرب ·

١٧ ـ الصليبيون يغادرون أنطاكيه بعد اعداد صفوفهم للقتال ويتركون كونت تولوز لحراسة المدينة .

١٨ ـ كربوغا يسعد المسح الصليبيين من مغـــادرة المدينة ، ولكن رجالنا يسفون لهم طريقا بالقوة .

١٩ ـ بينما الصليبيون يتقدمون أخذت السماء تساقط عليهم الندى فنزلت السكينة عليهم جميعا .

٢٠ ـ كربوغا يرتب عسكره للحرب ويشب القتال فى الأحياء المجاوره ، كما يسن فلج أرسلان الهجوم على الصليبيين الموجودين فى المؤخـــرة ويكثف الضغط على صفوف بلدوين فيسرع الزعمـــاء الآخرون لنجدته ويغلبون الترك الذين يضرمون النار لتكوين ساتر دخانى .

٢١ ـ قـــائد قوات العدو يفر ويهلك عسكره ، أمـــا الذين قدرت لهم النجاه فيلودون بأذيال الفرار .

٢٢ ـ بعد أن يفرغ رجالنا من فتكهم فى العدو يعودون الى المعسكر محملين بكميات وفيرة من الأسلاب .

٢٣ ـ الهدوء والنظام يعودان الى أنطاكيـــة ، ويأخـــذ الصليبيون فى تنظيف الكنـــائس وترميمها ، ويعود رجال الدين للاشراف عليها .

هنـــا يبـــدأ
الكتـــاب الســـادس
محاصرة الصليبيين : النصر المعجزه

- ١ -

هدأت الجلبه أخيرا . واستعادت المدينه هدوءها . وكفت سيوف الغالبين التى ارتوت بالدماء من المذابح التى لا نهاية لها . واذ ذاك التقى الزعماء للتشاور فيما بينهم . ادراكا منهم أنه لازال هنـــاك عمل كبير أمامهم حتى يكمل الفتح . لذلك أقاموا حراسا على الابواب والأسوار وعزموا على ارتقاء الجبل ومهاجمه القلعة . وبعثوا المنادى يأمر جميع الفيالق العسكريه بصعود التل المسار اليه . فلما صاروا على المرتفعات اتضح لهم صعوبه اقتحام القلعه بسبب حصانتها ، وانه لا سبيل الى الاستيلاء عليها الا ان اجاعوها . واذ كان هـــذا الأمر يتطلب اياما طويله فقد أدرك الزعماء ضياع كل ما يبذلونه من الجهود . وأنه لابد لهم من سلوك سبل أخرى غير هذه .

كان الجبل المشرف على المدينه يشقه من وسطه واد عميق . له جانبان شديدا الانحدار . وكان انحداره المواجه للشرق أعمـــق المنحدرين ولكنه ينبسط من اعلاه لينتهى الى سهل فسيح زاخـــر ببساتين العنب وبالمزارع . وكانت المسافه بين شقى هذا الوادى العميق شديدة الاتساع حتى ليخيل للناظر أن هناك جبلين وليس جبلا واحدا مشطورا الى شطرين .

أما المنحدر المواجه للغرب فكان أعلى من الآخر ، وهو يضرب بقمته فى العلاء حتى تكاد الجوزاء ، كما تقوم القلعة على أعلى نقطة فيه ، وهى محصنه بالأسوار القوية والأبراج الضخمة ٠

وتمتد من الشرق الى الغرب هوه سحيقه العمق مما يستحيل معها تصور مدى الخطر الذى يتعرض له من يحاول الوصـــول الى القلعة من أحد هذين الجانبين ٠

كما توجد الى الغرب تل أقل ارتفاعا ، ويفصـــل بينه وبين القلعة واد متوسط الاتساع ، وان كان أميل الى الضيق ، وتحفــه منحدرات يسيره ، ويشقه طريق واحد يخرج من القلعة وينحدر الى المدينه ، وهو طريق يمثل فى ذاته خطوره حتى ولو لم يكن هناك من يهاجمها ، ورأى قوادنا أن الحكمة تقتضيهم الاستيلاء على هذا التل ، حتى لا تتاح للعدو فرصه الوصول الى المدينة ان خرج من باب القلعة لمهاجمه قواتنا ، ولذلك تم وضع طائفه من الرجال الشجعان فى ذلك المكان ، وزودوا بما يلزمهم من الطعام والسلاح ، كما تم بناء سور به متاريس حجريه ، ثم نصب فوق هذا كله الآلات وأعدت فى وضع استراتيجى لرد العدو على أعقابه ٠



ونزل الرؤساء مرة أخرى الى المدينه للتشاور فى أمور أهم مما سبق لهم التشاور فيها ، وعقدوا العزم على الرجوع حالما يفرغــون من بحثها ، وكانوا قد أزمعوا على البقاء جميعا ــ ما عدا الدوق ــ فى هذه الناحية حتى يتم الاستيلاء على القلعه ٠

كما اتفق اجماعهم على أن يقوم جودفروى بحراسة الباب الشرقى والطابية الواقعة خارج المدينة ، وذلك لمـا عهدوه فيه من علو الهمة ، وكانت هذه الطابية فى أول انشائها موكولة الى بوهيموند ٠

وجاءت الاخبـــار الى القـاده ان كربوغا الزعيم الكبير المسار اليه سابقا سوف يصل قريبا جدا ، اذ أنه دخل أرض أنطاكيه وبعث بالألوف المؤلفه من عسكره في البلاد . فكان خير ما يسمى عمله في هذا الظرف هو ارسال أحد زعمائنا الى جهة الساحل ، لاستدعـاء الاخوه الذين ذهبوا الى هناك لجلب المئونه اللازمه التى تمكن العثور عليها هناك .

وفي خلال اليومين السابقين لوصول جيش كربوغا الكبير ، لم يترك الصليبيون شبرا من الارض المحيطه بالبـــلد الا ذرعوه وفتشوه تفتيشا دقيقا ، ثم عادوا بكل ما صادفهم من طعام وعليق أيا كان مصدره ، وبذلوا جهودا مضنية لتموين المدينه ، كما أن الأهالى والفلاحين الذين يعيشون في ريف البلاد جاءوا بكل ما استطاعوه من طعام حين أدركوا استسلام أنطاكية للصليبيين ، بيد أن كل ما جيء به من شتى النواحى لم يكن شيئا مذكورا ، ان لم يكن شيئا أبدا يكفي ما ترتب على الحصار الطـــويل الذى استنزف فى مدى شهوره التسعة المتتالية موارد الاقليم بأجمعها ، ولم يخلف شيئا يمكن الاعتداد به لمساعدة رجالنا حتى ولو بضعة أيام .

- ٢ -

فلما كان اليوم التـــالى للاستيلاء على أنطاكية وبينمـــا كان الصليبيون باذلين غاية الهمه فى حراسه المدينة وتزويدها بالمئونة ، اذا بثلاثمـــائة من فارس جيش كربوغا مدججين بالســـلاح من قمـــه

رؤوسهم الى أخمص أقدامهم قد امتطوا الجياد الصافنات واختفوا فى كمين قريب من المدينه ، وكانوا قد جاءوا طليعة لأمر عاجل عن القبض على أى جماعه من رجالنا تكون قد غادرت موضع حراستها خارج الاسوار ثم بعد بها السير دون أن تتخذ الحيطه لحمايه نفسها . وكان ثلاثون من هؤلاء الثلاثمائة على خيول سريعه الركض قد أخذوا يروحون ويجيئون امام المدينه متظاهرين بعدم الاكتراث بأى خطر يداهمهم ، فلما رآهم المسيحيون الذين وراء الأسوار يجوبون بهذه الصورة تفجر مرجل غضبهم عليهم ، أو لعلهم أحسوا العار الشديد ان هم كفوا عن مهاجمتهم . واذ ذاك تحرك « روجر دى بارنفيل » وهو من أتباع روبرت كونت نورماندى ، وكان محاربا باسلا أنجز كثيرا من الأعمال الباهره فى هده الحملة ، وأسرع بامتطاء فرسه وخرج من البوابه وانطلق يسعى مهاجمتهم ، واستصحب معه تله قوامها خمسه عشر رجلا من أتباعه ، وعزم على أن ينجز — كعادته — عملا من أعمال البطوله . وعدا عدوا سريعا مهاجما هؤلاء القوم بشجاعه عظيمه ، فتظاهروا بالفرار هربا منه ، وظلوا ممعنين فى التراجع حتى بلغوا الموضع الذى يختفى فيه رفاقهم الذين برزوا من مكمنهم . وتزايدت أعدادهم بكثرة ، وانضم بعضهم الى بعض فى مهاجمه « بارنفيل » ورهطه هجوما عنيفا لم يجدوا ازاءه بدا من الهرب . ولم يكن روجر ورجاله فى جمعهم يعادلون العدو فى جمعه وبأسه . لذلك حاولوا الرجوع الى المدينة ، غير أنه حال بينهم وبين ماينشدونه سرعه عدو جياد الخصم الذى رمى روجر بسهم قاتل أصاب قلبه ، وأوقعه من على ظهر جواده وأرداه قتيلا ، فحزن عليه رفاقه أشد الحزن ، لأنه كان قد أخلص النية ، فأنجز أهداف الحجاج الصليبين .

ونجح رفاقه فى الوصول الى المدينة ، أما هو — وهو الرجل البارز — فقد حز الأعداء رأسه على مرآى جميع من على الأسوار

والأبراج العاجرين ـ واسماه ـ عن اسعافه ، ورجع العدو لـــم يلحمه أدى ٠

لم يكد [المهـاجمون] يعودون من حيث جـاءوا حتى حرج الصليبيون يدرفون الدمع السحين على روجر ويبكونه ، وحملـــوا جمانه الى المدينة في احتفال يليق به ، ثم أقاموا المراسم الاخيره للميت الراحل في حضرة القادة والناس أجمعين ، ووسدوه الثرى في احتفـــال رائع أقيم في ظله كنيســـة أمـير الرســل [القديس بطـرس] ٠

- ٣ -

ما كاد يطلع فجر اليوم التالي ، وهو الثالث بعد استخلاص المدينة ، ثم ما كادت الشمس تدر قرنهـــا حتى كان أقوى الامراء الذي أسرنا اليه مرارا قد احتل القطر بأجمعه الى آخر ما يمكن أن تراه عين المطل من القسم الأعلى بالمدينة ، واستطـاع بجموعه الغفيرة ـ التي تزيد زيادة أكثر مما تذكره الأخبـــار ـ أن يعبر الجسر العلوي ، ويضرب خيمته فيما بين البحيرة والنهر ، وكان كل منهما يبعد عن الآخر مسافة ميل واحد ، وكانت حملته تشغل مساحـه كبيرة وعسكره كبيرين جدا حتى ضاق بهم السهل الفسيح الذي يقع فيه أنطاكية ، فنصبت مخيمات أخرى غطت التلال المجاورة ٠

٢١٩

ولمـا كان اليوم الثالث من نصبه معسكره أمام أنطاكية تبين له شدة بعده عن المدينة ، فبحث الأمر مع رجاله ، وبيّن لهم أنه يريد أن يكون على مقربة ممن يحتلون القلعة ، ليستطيع تحديهم ان

دعت الضروره الى النجده ، كما أنه أراد أن يدخل قواته الى انطاكيه عبر البوابه الموجوده أسفل القلعه ، ومن ثم قوض معسكره ، وارتقى المرتفعات ، وأحدق بكل الجانب الجنوبي الشرقي للمدينه ، محتـــلا المنطقه الواصلة بين البوابتين الشرقيه والغربيه ٠

كانت هناك طابية أقيمت في البداية لحمـــاية القلعة ، وهي واقعه على تل مرتفع بعض الشيء قرب الباب الشرقي ، وقد عهـــد بهذا المكان أولا الى رعايه بوهيموند الذى شرع - بعد أن تم الاستيلاء على أنطاكيه - في تصريف الاداره العامه للمدينه ، كما عهد بالطابيه المسار اليها والبوابه القريبة منها الى الدوق ليقوم بحراستهـــا . وكان الأعداء قد ضربوا أحد معسكراتهم حول هذه الطابيه ، ودأبوا من هنـــاك على شن هجمـــاتهم الموصـــوله على من بداخلها ، وسرعان ما ضاق الدوق درعا بعربدتهم التي استحال عليه تحملها أكثر من ذلك ، ومن ثم كر عليهم برجاله لاسعاف المدافعين عن الحصن ، الذين كانوا على وشك الاستسلام . كما راوده الأمل في أن يتمكن من التغلب على المعسكر المضروب أمـــام البوابة ، لكنـــه بينمـــا كان ماضيا لنجدة رجاله ، اذا بعسكر من الاتراك يهاجمونه ، وكـــانوا أشد منه بأسا وأكثر عددا ، فأدرك عجزه التام عن الصمود أمامهم . ونجح بعد لأى فى النجاة من سيوفهم ، فانقلب على عقبيه مرتدا الى المدينة ، ومضى الترك في اثره يطاردونه بعزم كبير ، غير أن الغوغاء من الحجاج الذين لا يعرفون النظام تكاثروا وراح بعضهم يزاحـــم بعضـــا في هروبهم البائس ، فسُد المدخل وحال كل واحـــد منهم بين صاحبه وبين الدخول ، مما أدى الى سقوط الكثيرين ، فوطأتهم أقدام الآخرين ، وأثخنت بعضهم جراحهم ، وأسر ســـواهم ، وقد قدر عدد القتلى منهم بمائتي قتيل هلكوا عن بكرة أبيهم ٠

كان الأتراك يعدون الدوق الزعيم الأكبر للجيش الصليبي . وقد أدخلت هزيمته الفرحة في قلوبهم حتى انهم طمعوا في القيام بأعمال أكثر جرأة ، لذلك نزلوا الى المدينة عبر باب القلعة الأعلى ، سالكين طرقا خاصة معروفة لهم تمام المعرفة . وباغتوا رجالنا بالهجوم عليهم ، وأدركوهم وليس عندهم حراسة . فتكوا بالكثيرين منهم ضربا بالسيوف ورميا بالسهام . ومع ذلك فانه لما حاول الصليبيون مطاردتهم ارتدوا سريعا الى النواحي المرتفعة ، واستولوا على القلعة هناك ، لأنه كانت لديهم طرق أكثر من تلك الطرق التي كانت بالتل ، والتي كان رجالنا قد استولوا عليها وأحسنوا تحصينها .

وتكرر حصول هذا الأمر ، وهلك الكثيرون من أهل المدينة من جراء هذه المناورات المحيرة ، حتى أدى بالزعماء الى اجماعهم الأمر على وجوب ايجاد علاج لهذا الشر المستطير . فاتفقوا برضاء تام على قيام بوهيموند وكونت تولوز بحفر خندق عميق عظيم الاتساع ، يكون عند سفح التل بأسفل المدينة . مما لابد أن يؤدي الى الحد من غارات الترك المتتالية في نزولهم من أعلى المدينة ، ولقد ترتب على حفر هذا الخندق أن نعم أهل البلد بفترة من الهدوء .

كذلك رأى الصليبيون أن يشيدوا هناك أيضا طابية لتزداد فعالية هذا العمل في حماية الأهالي ، وشارك في بناء هذه الطابية جميع القوات مشاركة صادقة مخلصة ، كأنما يقيمونها من أجل سلامتهم هم انفسهم . أما الترك – سواء من كان منهم بالقلعة في تلك الناحية أو من كان منهم يحاصر المدينة من الخارج – فقد استمروا ينزلون من خلال البوابة العليا . عن طريق ممرات سرية ،

واكثروا من هجماتهم على هذا العمل الجديد بغية تدميره ، متخذين من أجل ذلك شتى الوسائل المتاحة لهم .

ثم جاء يوم من الأيام خرجت فيه طائفة من الترك أكبر ممـا جرت العـادة به كل مرة ، وكروا عبر المسالك المعروفة لهم ، ثم اندفعوا نحو هـذه القلعة الحديثـة البنـاء ، وشرعوا يهاجمون من بداخلها هجوما عنيفا ، مما كان لابد ان يؤدي الى وقوع من كانوا في تلك الطائفة اسرى في أيدي الترك ، لولا أن هب لنجدتهم القادة الذين كان قد وكل اليهم الدفاع عن نواح أخرى من المدينة الى جانب كل ذ سهم المبعثرين في انطاكية ، وكان هؤلاء القادة هم . بوهيموند ، وانعزار دي بوبسيه ، ورالف دي فوسي ، ورينـالد كرينون ، وبطرس بن حسنلا ، والبريكوس ، وايفو .

ولقد كر الدوق وكونت فلاندرز وامير نورماندى كره صادقه على تلك الناحية مما أدى الى فشل محاولات العدو ، وهلاك الكثيرين من الاتراك ذبحا ، ووقوع بعضهم في الاسر ، أما البقية فقد حملهـا فزعها على الهرب ، ليس من الطابية وحدها ، بل من المدينة كلها .

وانقلب هـؤلاء الفارون الى مولاهم وهم معجبـون بشدة بأس الصليبين ، وألسنتهم تشيد بشجاعتهم العجيبة ، كأنما قد تمت فيهم النبوءة القائلة . « ارجع لكى تصبغ رجلك بالدم . ألسن كلابك من الأعداء نصيبهم » ، لأن الجميع — حتى من اضطهدوهم — كانوا لسان مدح وثناء على هذا الشعب المخلص .

أقام كربوغا أربعـة أيام في الجبال كما قلنا ، حتى اذا فقد كل أمل له في النجاح ، وأدرك أيضا أن علف خيوله قـد نفـد أو كاد قوض معسكره ، ونزل الى السهل مرة أخرى بكل جيشـه عابرا بهم النهر من مخاضة عند قناة موجودة هناك ، وعهد الى قواده بجنـده

الدين ربطهم على شكل دائرة وجعلهم على مسافات متساوية ، ثم راح يحاصر أنطاكية ·

فلما كان اليوم التالى انفصل بعض الأتراك عن قمة الجبل ، وراحوا ينحدرون زاحفين للقتال ، ويرحلوا عن حدودهم · واستبدت جرأتهم في الهجوم على المدافعين المرجودين على السور جراة انتهت الى هلاك بعضهم ، ذلك لأن تانكريد قام بهجوم فجائى عند الباب الشرقى وباغت الترك وهم على هذا الوضع الذى لم يستطيعوا معه معاودة امتطاء جيادهم ، فقتل منهم ستة وولاذ الباقون بأذيال الفرار ثم أمر بقطع رءوس ضحاياه وحملها الى المدينة عزاء لأهلها وسلوى لهم · ومسحا للحزن الممض الذى كان يقطع نياط قلوب المؤمنين لمصرع « روجر دى بارنفيل » الذى قتل هناك ·

- ٥ -

فى هذه الأثناء كان الشعب الصليبى الذى قام بحصار أنطاكية والاستيلاء عليها عنوة وبقوة السلاح قبل ذلك بوقت قصير ـ قد أصبح الآن يعانى شدة الحصار · وهو يعتبر كسر الجدوى فى حياة الانسان · وزيادة على ذلك فقد أنهكت الصعاب الصليبيين انهاكا لم يعد معه فى مقدورهم احتماله ، كما كابدوا شظف العيش بسبب المجاعة التى جاوزت كل حد ، وهكذا وقعوا بين خطين السيف فى الخارج ، والفزع فى الداخل ، ثم انه كان من الطبيعى أن يستبد بهم الخوف من حشود العسكر الكبيرين المحاصرين للمدينة من الخارج هذا بالاضافة الى أن الأتراك كانوا لايزالون يحكمون قبضتهم على القلعة ، حتى راحوا يشنون منها ـ كما قلنا ـ هجماتهم الآخذ بعضها

بحجز البعض الآخر ، فلم يعد المؤمنون يعرفون معنى للراحه ، وتمالك الناس الكثيرين منهم عفا لهم على خطـــاياهم ، حتى أن معظمهم ناسوا مهمتهم والعهود الجمه التى قطعوها على أنفسهم فانفصلوا عن رفاقهم ، ونزلوا خلسه من الأسوار مستعينين بالسلاسل والحبال . منحمعين وحدهم هربا ناحية الساحل ، وسقط بعض هؤلاء فى أيدى العدو فضرب عليهم الرق الدائم ، أما الذين نجحوا فى الوصول الى البحر فقد أرغموا أهل السفن الراسية هناك على قطع حبالها والابحار فى لحظتهم هذه ، وصاحوا فيهم « ان هذا الأمير الكبير [يعنى كربوغا] الذى جاء بعسكره الذين لا يحصيهم العد ، قد استولى بالقوه على المدينة التى كانت منذ قليل فى أيدينا ، ولم ينج من فتكه أحد من رجالنا ، وذبح قوادنا ، ولكن شاءت ارادة الرب أن ننجو وحدنـــا دونهم ... فهيا أسرعوا لفك الحبال والابحار قبل أن يبلغنا [كربوغا] ويلحق بنا عند الشاطىء ويصيبكم ما أصاب قومنا » .

ثم اعتلوا سطح السفن مع من كـانوا عليهـا ، ولاذوا بأذيال الفرار المشين ، الذى لم يقتصر على الغوغاء وحدهم ، ولا على طغـام الناس منهم فحسب ، بل كان بين الهاربين رجال بارزون ، من ذوى المراتب الساميه ، واظهرهم « وليم دى جراند مسنيل » وهو من وجوه أهل « أبوليا » المعروفين ، زوج أخت بوهيموند ، وأخوه « ألبريكرس » ووليم النجار ، وجى دى تروسيل ، ولا مبرت الفقير وغيرهم ممن لا نذكر اسماءهم التى لا ينبغى أن يتضمنها هذا الكتاب ، مـــنذ أن محيت هذه الأسماء من كتاب الحياة .

وكان هناك غير هؤلاء وهؤلاء جماعات قد أزعجها التفكير فى الأخطار الجسيمة ، وعجزت عن تحمل المجاعة والمصائب . فلجـــأت الى العدو ، وكان ذلك من جانبهم أكبر ما ارتكبوه من الموبقات ، لأنهم بذلك أنكروا فى لؤم تعاليم المسيح وعقيدته ، فكان هؤلاء المرتدون

يميلون الى الترك احوال الجيش الصليبى ، مما أدى الى وضع الصليبيين في أسد المآزق خطوره ، كما أن الكثيرين ممن ظلوا مقيمين بالمدينه كانت تراودهم سرا الآمال فى أن يفروا هم أيضا ، وتوقع أسقف بوى الموقر والقائد العظيم بوهيموند هذه المحاولات من جانب هؤلاء ، ومن ثم جاءوا الى رجال من أهل الفطنه الذين دلت التجربة على اخلاصهم ، والموثوق بهم ، وعهد اليهم بحفظ الأبواب ، كما عهد بحراسه الابراج الى زعماء لم يقصروا فى رعايتها بلا كلل : ليلا أو نهارا ، ومن ثم لم يعد أحد ما ــ بارعا كان أم مراوغا ــ بقادر على الهرب ، وأراد القوم أن يكون لهؤلاء الحراس ــ صغيرهم وكبيرهم على السواء ــ حق ممارسة السلطة الكاملة فجعلوهم يقطعون اليمين على أن يطيعوا أوامر بوهيموند بكل الصدق والوفاء حتى ينتهى حصار أنطاكية ، وحتى تقع المعركه التى كانوا فى انتظارها ، ولما أصبح بوهيموند محاطا بأتباعه وحراسه وأصدقائه ، وكل من له ثقة تامة فيهم أحد غاية الحذر ، فلم يحظ قط ــ ليلا أو نهارا ــ بقسط من الراحة ، اذ كان يشغل وقته بالتجول فى الشوارع والميادين ، والتفتيش على الابراج والحصون ، لتطمئن نفسه ويهدأ باله من أنه ليس هناك من أحد متهاونا في مهمته ، وللتأكد من عدم وجود أى فرصة للعدو لدخول المدينه عن طريق الخيانة ٠

وكانت هناك أربع قلاع تتطلب حراستها رعايه خاصة تلك هى الطابية العليا التى شيدت فى مواجهة القلعة العليا مباشره ثم تليها ثانية تقع دونها داخل المدينة ووراء الخندق الذى حفر لصد الهجمات التى تأتى من بوابة المعسكر العالي ٠

وأما ثالثها فكانت خارج الباب الشرقى ، وكانت قد أقيمت لحماية المعسكر قبل احتلال المدينة ٠

وأما رابع هـذه الطوابى فيقع عـلى رأس الجسر وهى التى تمكن الصليبيون بفضلها منذ قريب من مهاجمة بوابة الجسر . وقد عهد فى بداية الأمر بحراسة هذا الحصن الأخير الى كونت تولوز . لكنه تخلى عن هذه الحراسة حين تم الاستيلاء على أنطاكية ، ودخـل المدينة مع الآخرين .

وحدث بعد الاستيلاء على أنطاكية أن قام كونت فلاندرز مع خمسمائة من الأبطال الأشاوس بحراســة هذه القلعة وكثف من استعداداتها الدفاعية ، مخـافة الا يستطيع شعبنا الرواح والمجيء عن طريق الجسر ان سقطت القلعة فى يد العدو . الأمر الذى لابد أن يؤدى الى وضع أشد سوءا .

- ٦ -

لاحظ كربوغا أن رجالنا أصبحوا الآن أكثر حرية فى القـدرة على الخروج والرجوع دون عائق . كما رأى أن الحصـن القائم عنـد الجسر يمثل عقبة كأداء أمام خططه ، لذلك أصدر أمره — فى يـوم من الأيام — الى كتيبة مؤلفة من ألفين من الفرسان المدرعين أن تحمل السلاح وتشن هجوما عنيفا على ذلك الموضع ، فأطاعوه فى لحظتهم ، وتخيروا لأنفسهم مواقع حصينة حول حائط الطابية التى أشرنا اليها حالا ، وقسموا أنفسهم جماعات راحت تتناوب فيما بينها قذف الطابية بسيل لا ينقطع من السهام ، منذ الساعة الأولى من النهـار ، حتى الحادية عشرة منه ، ولكن الكونت ورجاله استبسلوا فى صدهم ، ولم يدخروا وسعا فى الدفاع عن المكان الذى عهد الى الكونت بحمايته .

ولما قاربت الشمس الغروب ، وأخذ الليل ينشر غلائله على الكون ، تبين للمهاجمين أنهم لم يتقدموا الا قليلا ، فتحلوا عن هجومهم وعادوا الى معسكرهم ، غير أن الكونت خشى أن يعاود الاعداء الكره فى اليوم التالى بقوات أضخم من قواته التى تحت يده الآن ، فلا يعـــود فى استطاعته أبدا حماية القلعة ضد حشود العـــدو الكثيفه . لذلك قام فى سكون الليل وأضرم النـــار فى هـــذا الموضع وتركها ترعى كل ما به ، ثم انكفأ الى المدينة بمن خرجوا معه سعياً وراء هذا الامـــل الضـــائع ·

ولمـــا أشرق الصبـــاح رجع عســكر الأمس المهاجمون يعاودون هجومهم مرة أخرى ، وقد انضم اليهم ألفان ، فما بلغوا هذه الناحية حتى وجدوها خاوية على عروشها ، وقد تهدم أكثرها ، فاضطـروا للعوده من حيث جاءوا دون أن ينجزوا مهمتهم ·

وفى خلال هذه الأيام التى كانت قوات العدو فيها تهاجمـــا خلسة ، حدث أن صادفوا بعض الصليبيين من الفقراء المعدمين الذين خرجوا دون أن يأخذوا حذرهم ، فأمسكوهم وساروا بهم الى اميرهم ، هدية منهم اليه كأول غنيمه أسفر عنها نجاحهم ، غير أن سلاح الأسرى الضعيف ، وما عليهم من رث الثياب أثار اشمئزاز الأمير ، اذ لـــم يكن معهم سوى أقواس خشبية ، وسيوف باليه علاها الصدأ ، كما ستر أجسامهم ملابس ممزقه من جراء عملهم الدائم وبسبب قدم هذه الثياب لأنه لم يكن لدى فقراء الحجـــاج ما يدبرون به غير هذه الأسمال ، ويقـــال انه ما كاد هذا الأمير يتفرسهم حتى صاح قائلا : « أبمثل هؤلاء الناس يدب الذعر فى قلوب الأمم الأجنبيه ؟ وهل يحق لقوم كهؤلاء أن يعتبروا أنفسهم أثرياء وما هم الا كأفقر المرتزقة يجود الناس عليهم بلقمة الخبز ؟ ·· ألا فانظروا الى ما يثمن أشراف أهل الشرق من سلاح ··· أما هؤلاء فان الضربه من سلاحهم ظل أن

يؤدى عصفورا أو يسقطه على الأرض ، وعلكيم أن توثقوا هؤلاء الرجال ، وتسوقوهم مكبلين بالأصفاد ومعهم أسلحتهم هذه ، وعليهم ثيابهم المهلهلة ، وتأخذوهم الى مولاى الذى أرسلنى فيعرف من مظهر هؤلاء الأشقياء أن الغلبة على رجال كهؤلاء الرجال لا تستغرق من الوقت الا قليلا ... ودعوه يفكر : أى صيت لمثل هذا الشعب التعس فى تفاخره بما يفتح !! واطلبوا اليه أن ينام قرير العين ويلقى بالتبعة علىّ أنا وحدى ، لأنه لن يمضى وقت قصير حتى لا يكون ثم وجود لهذه الكلاب القذرة ، ولن يحسب لهم حساب بعد ذلك بين الأمم » .

وأمرهم بهذه الكلمات أن يسلموهم الى رجال عيّنهم لهم ، كى يسوقوهم الى السلطان بفارس ، وأن يقصوا اليه بما قاله هو الآن ، ذلك لأنه كان على ثقة تامة من قدرته فى يسر على قهر رجال هؤلاء الرحل وان لم يحرب بأسهم بعد ، غير عالم بأن هذه الكلمات التى ظن أنه يحط بها من قدر هذا الشعب عند مولاه ، وأنها تجلب له المجد ، سوف تكون فى النهاية سببا لنكبته ، ولأنه حين تحيق به الهزيمة النكراء ، ويغوص فى حمأ الفوضى على يد هذا الشعب الحقير ، فان العار الذى يلحق به اذ ذاك سوف يكون أشنع عار ، ذلك لان القاعدة العامة هى ان الهزيمة تكون أيسر احتمالا ان لقيها المغلوب من رجال شجعان أقوياء ، أما اذا أحرز النصر عليه قوم لا اعتداد بهم ، ولا سطوة لهم فان شنار الهزيمة يكون أبلغ ، وعارها أفدح عليه .

- ٧ -

أصبحت المـديه الآن محاصره من كل جاىب ، وقد بفاقم وضع الصليبيين سوءا لأنهم أصبحوا عاجرين عن مبارحتها لقضاء مالهم من أعمال خارجها ، كما سدت المسالك أمامهم في دخولها ، مما ترتب عليه عدم قدرتهم على جلب الطعام اليها ، فعض الجوع بنابه أكثرهم . واختفت المئونه في السافص وانعدم توفر مطالب الحياه الضرورية مما حمل الجوعى على سلوك سبل محجلة لسد هذا النقص ، ولـم يعد ثم مجال لاختيار نوع الطعــام حتى عند أكثر القوم بأنفـا في أمورهم ، ولم يعودوا يأبهون بنظافه اللحم الذى يجدونه أو قذارته ، ولا كيف جيء به ، سواء أكان مسترى أم مسروقا ، ذلك لأن المعده الخاويه تصرخ عاليا في طلب أى نوع من الطعام يسد جوعها ٠

كذلك فارق النبلاء وقارهم ، ولم يتردد الأحــرار في فــرض أنفسهم على موائد من لا يعرفونهم ، من غير دعوة تكون قد وجهـت اليهم ، وتهافتوا على الصدقة يجود غيرهم بها عليهم ، ولا يكفـــون عن الالحاح في استجدائها من ايدى غرباء لا يعرفونهم ، وكان هذا الفعل أمرا مرفوضا عندهم من قبل ٠

كما تخلت العقائل عما كن عليه من الحشمة التى كن قد طبعن عليها ، أما العذارى فلم عدن يأبهن بالخجل الذى كان ســـمة لهن ، ونســين أنوثتهن ، وطلعن بوجــوه عليها غبرة ، وأصــوات حزينة تحرك أقسى القلوب ، ورحن يلتمسن الطعام أنى وجدنه لا يمنعهن خوف من أن يراهن أحد ٠

لكن كان هناك آخرون لم تستطع المجاعة حملهم على التخلى عن وقارهم ، فانكفؤوا بوجوه خامدة الى جهات قاصية ، يمضهم الأسى ،

لأنهم كانوا يؤثرون الموت على المشي بين الناس يسألونهم لقمة تقيم أودهم ·

أما الرجال الذين كانوا من قبل أشداء العزم ، أصحاء البنية ، ذوي بأس شديد ، والذين لم يكن أحد يجهل قدرهم فقد بدوا وكأنهم أنصاف موتى ، يتوكأون في ضعف على عصيهم ، ويجرون أنفسهم في الشوارع والميادين جرا ، وعلى الرغم من أنهم لم يصرحوا بكلمة الا ان وجوههم المكتئبة كانت تفصح عن أنهم يلتمسون احسانا يجود به عليهم العابرون ·

كما أن الأطفال الباكين ، والرضع على أثداء أمهاتهم كنت تراهم في كل مكان وفي مفترق الطرق ، يلتمسون اللقمة تسد رمقهم ورمق من جاءوا بهم الى هذه الدنيا ، لكن يعجزهم الحصول على القدر اليسير من الطعام لأنفسهم ولا تقول لأمهاتهم ·

وفي خضم هذا الزحام الكبير قل أن وُجد أحد عنده من الطعام ما يمكن أن يكفيه هو وحده ، اذ نضبت في الواقع جميع الموارد ، فلم يعد أحد الا وهو يستجدي الآخرين ، واذا شاءت الصدفة أن يكون هناك فرد كان قد بلغ من الثراء مبلغا كبيرا وبقي عنده من هذا المال الخاص شيء ، فما كان لهذا المال أن ينفعه فتيلا ، اذ لم يعد يكفيه لشراء ضرورات الحياة التي لم تعد متوفرة ·

كما أن الأشخاص الذين كانوا معدودين أسخى الناس يدا وأكرمهم ضيافة . أصبحوا الآن يلتمسون الأماكن النائية التي قل أن يغشاها أحد فيلتقطون منها ما يقيمون به أودهم ، ويتكالبون في نهم على الطعام — أيا كان هذا الطعام — الذي استطاعوا الحصول عليه من مصادر مختلفة ، ثم يأبون أن يكون لهم فيه شريك ·

أترى من الضروري أن أقول أكثر من هذا ؟

لقد أصبح لحم الجمال والحمير والخيل والبغال وغيرها من الحيوانات الدنيا وكأنها اشهى ما تكون ان وجدوها ، وانه لمن المؤسى ان نقول انهم كانوا ينبشون الأرض ويخرجون منها جثث الحيوانات المحروقه أو التى ماتت بالطاعون ويقبلون على التهامها ٠

هكذا كانت أنواع الاطعمة التى راحوا يدرءون بها عن أنفسهم غائلة الجوع المض ويطيلون حياتهم التعسه قدر طاقتهم ٠

لم تصب هذه الكربه الرهيبه — واعنى بها المجاعه — العامه وصغار الناس وحدهم فحسب ، بل جاوزتهم أهوالها فمست كبار الزعماء الذين عدوها خَطبا لا يُمكنهم احتماله ، اذ كانوا أكثر من سواهم اعاله للكثيرين من الناس ، ولا يستطيعون أن يكفوا رفدهم عمن جاءهم يلتمسه منهم ٠

وان انباء هذه الحقبه من الزمن لا تزال محفـوره فى اذهان الشيوخ والكهول ونحتاج الى مؤلف خاص يروى ما جرى لكل واحد من هؤلاء الزعماء ، ويتضمن أخبار الغمة والصعاب التى عمل فيها هؤلاء القادة الانقياء من أجل خاطر المسيح ، على أنه يمكن القول ان رجالا كهؤلاء الرجال العظام وجيشا كبيرا كهذا الجيش ، انمـا تحملو ذلك كله صابرين غير متذمرين ٠

— ٨ —

كان من جـراء ما أبداه كربوغا وتـبعيه من حماسـة قويه أن أصبحت أنطاكية محاطة من كل نواحيها بصوره لم يستطع الصليبيون المحصورون داخل أسوارها مغادرتها ، كما أعجزت من كان خارجهـا

عن دخولهـــا والوصول اليهم ، أضـــف الى ذلك ان الاشتباكات الموصوله ـ داخلها وخارجها ـ قد أنهكت قوى الصليبيين انهاكا فاق كل احتمال ، هذا الى جانب أن المصائب الجمة التى نزلت بشعبنا ، وما ابتلى به من شدة المجاعة قد عملت كلها على فل عزيمته ، وأظهر التراخى فى حراسته .

أما الذين لم يعد يشغل بالهم سوى البحث عن كسره الخبـــز يمسكون بها رمقهم فقد كانوا أكثر تهاونا بالنسبة للأمور الأخرى . مما نتج عنه نجاح العدو فى دخول المدينة فى أحد الأيام ، وذلـك بسبب عـــدم توفر الحراسة لبرج كان مجاورا للبرج الذى اقتحم منه الصليبيون المدينة .

وكان بعض الأتراك قد طمعوا فى امتلاك هذا البرج ، معتمين سكون الليل ، فعلقوا السلالم الى الأسوار ، وفكروا فى النزول بعدئذ الى المدينة كما فعلنا من قبل ، فلما بسط الليل طنبه ، وسكنت كل نأمة فى الكون ، أقدم ما يقرب من ثلاثين رجلا وتسلقوا السلم واعتلوا السور ، مستهدفين الاستيلاء على البرج الذى وجدوه خاليا من كل مدافع عنه ، وبينما كانوا منهمكين فى عملهم هذا اذا برئيس العسس يصل الى المكان الذى كانوا يعملون به ، وكان هذا الرجل يقوم اذ ذاك بما اعتاده من المرور حول السور ، فاكتشف المؤامرة ، فأخـذ يصيح محذرا من بالأبراج المجاورة ويعلن اليهم أن العدو قد استولى بالخديعة على البرج ، فأيقظ صياحه جميع الحراس فى تلك الناحية من المدينة ، وكان بينهم الشجاع المرموق « هنرى ديش » فاسرع لتوه الى تلك الجهة مع فارسين آخرين ، همـــا « فرانكو ، وزيجمار » ، وكانا من ذوى قرباه ومن أهل البلده المسماة « مالين » الواقعة على نهر « الموز » ، وخاف ثلاثتهم أن تكون الرشـــوة قـــد استغوت البعض فاستسلموا للخيانة وغدروا بالمدينة .

كذلك هب لمساعدته جماعات من الابراج المجاورة . فهاجم بهم العدو في عنف كدأبه السخط . فأبدى الترك مقاومة شديدة . لكن هنري دس ما لبث الا قليلا حتى نجح في طردهم من البرج . وقتل منهم أربعة أنفس . أما البقية — وكانوا ستة وعشرين رجلا — فقد ألقى بهم من الاسوار . فسقطوا على أم رءوسهم . فدقت أعناقهم وتناثروا أشلاء ممزقة .

وكان هؤلاء الرجال الثلاثون الذين صعدوا البرج قد عزموا على ادخال بقية رفاقهم .

ولقد نكب الزعيم البطل [هنري ديس] في هذا الصدام بفقد صديقه « ريجمار » الذي اخترطته السيوف فهلك ، كما اصيب « فرانكو » بجرح قاتل حملوه معه الى داره وهو يكاد يلفظ أنفاسه .

— ٩ —

تزايدت الحاجة للطعام يوما بعد يوم ، وتزايدت معها مصائب المحصورين ، كما ضاعفت المجاعة آلام الصليبيين . فضجروا من هذه الامور العسيرة والأهوال التي تنزل بهم كل يوم ، فداخلهم اليأس حتى لم يعودوا حريصين على حياتهم وسلامتهم ، فانسلوا من المدينة لا يعلم بهم أحد ، ولم يكترثوا بما كان يكتنفهم من آلاف الاخطار ، فراحوا يشقون طريقهم وسط صفوف العدو كي يتيسر لهم الوصول الى الشاطىء حيث كانت ترسو هناك بعض السفن الجنوية والبيزية ، وكانوا يبغون من وراء ذلك شراء الطعام وجلبه الى المدينة غير أن الطمع في النجاة من هذه الاخطار الجسيمة حمل بعضهم على

الرحيل ، عاقدين العزم على الا يرجعوا أبدا ، ولم يتوقعوا أن قد ربما يحس موقف من خلفوهم وراءهم ، أو أن تتاح لهم فرصة النجاه من سيوف العدو .

في هذه الاثناء تكشف للترك أن بعضا من رجالنا يخرجون خلسه تحت جنح الظلام الى البحر ، ويتجولون هنا وهناك قرب المدينه سعيا وراء الطعام ، فبعثوا في الحال بعضا من رجالهم العارفين بدروب تلك النواحي وشعابها لينصبوا الكمائن لهؤلاء الناس ويقتلوهم كما قتلوا اخوه لهم من قبل ، فحالف النجاح الترك في كثير من هذه المحاولات محالفة جرأتهم أخيرا على ارسال ألفين من فرسانهم المختارين ، وكلفوهم بامساك البحارة والتجار وحرق السفن ، مؤملين من وراء ذلك استئصال هذا النوع من التجاره واذ ذاك يحال بين الصليبيين وبين كل أنواع المئونه ويفقدون كل امل في السلامة .

وصح ما توقعه الترك ، اذ نفذ فرسانهم الأوامر الصادره اليهم تنفيذا دقيقا ، فأضرموا النار في بعض السفن ، وأمسكوا طائفه من ملاحيها الذين خرجوا من غير حراسة ، فتتكوا بالجانب الأكبر منهم ، مما حمل الباقين على الهروب .

ولما ذاع خبر النكبه وساغ نبؤها وتجاوز هذه الناحية الى ما وراءها تبلبلت خواطر التجار الذين كانوا يحضرون الى هنا في رحلات تجاريه من قبرص ورودس وغيرهما من الجزر ، كذلك من سلوقية وايسوريا وبامفيلية ، وسواها من الأقطار البحرية ، وتملكهم الفزع من هذه الأحوال السائدة حتى انهم خافوا أن يعودوا الى هنا أو يجلبوا سلعهم ، ولم يجرءوا على الاقتراب من تلك الناحية ، وترتب على ذلك أن الم الشلل الكامل بالمتاجرة وتوقف الاستبضاع ، وتدهور موقف الصليبيين تدهورا أخطر مما كان عليه من ذي قبل .

وعلى الرغم من ضآلة كمية السلع التى أحضرها التجار ضآلة لا تكفى ابدا لسد احتياجات الناس العديدين ، الا أن بقاء الاتصال البحرى موصولا أعطى بصيصا من الانقاذ للصليبيين ٠

★★★

ولقد صادف العدو فى طريق عودته من ناحية البحر طائفة من المؤمنين عرضهم جميعا على السيف الا شردمة قليلة عاية القلة تمكنوا من التسلل عبر الغابات ، والأدغال ولجأوا الى الكهوف فاستخفوا بها ٠

ولقد ادى خبر هذه الطامة الكبرى والمصيبة الفادحة الى حزنه قوميا حزنا لا يقل عما أنزلته بهم المجاعة القاسية ، وتجدد همهم اذ طرق سمعهم خبر النكبة التي حلت برفاقهم وما يتعرض له أصحابهم كل يوم من هلاك ٠ فتسرب لنفوسهم الناس حتى من الحياة ذاتها ولم يعودوا يتسمون بالحرص عليها ، وقل احتياطهم على أنفسهم ، وتضاءلت طاعتهم لزعمائهم ٠

- ١٠ -

ق هذه الأثناء وصل الى الاسكندرونة « ولىم دى جراند ميريل »، ومن فروا معه ، ووجدوا بها ستيفن كونت شارترر وبلوا الذى كان القادة وكل الناس يرجون عودته بين يوم وآخر . لكنه كان مقيما هناك متذرعا بالمرض ، فأخبره ذلك الرهط بكل ما جرى بأنطاكية . وحملتهم الرغبة في الا يظهروا أنهم فارقوا رفاقهم جبنا بسبب تافه عن ذى موضوع ، فانهم راحوا يبالغون فى وصف الأهوال والسقاء

ـسسرين هناك ، والحق أن الموقف كان قد بلغ من السوء حدا يفوق الوصف ، غير أنهم بالغوا أشد المبالغه فأظهروه بصورة أشد اسودادا وقتامه وزادوا في ذكر الظروف السيئه السائده . ولم يكن «سمس» في حاجه الى سماع مزيد من مثل هذا الكلام حتى يصاحف جبنه ، لانه لم يهجر صحابه ولم يفر عنهم الا لنفس هذه الأسباب ، وان ادعى المرض .

وبعد ان قلبوا الأمر فيما بينهم على شتى وجوهه ركبوا السفن التي كانت في الميناء معده لهم ، وظلوا مبحرين حتى أرسوا اخيرا بعد رحله استغرقت بضعه أيام عند احدى المدن الساحليه ، حيث راحوا يتقصون أين يكون الامبراطور وما ينوى أن يفعله ، وتلقوا عددا من الاخبار عن ذلك الأمر — يختلف بعضها عن بعض في المضمون والصدق مفادها أنه شد الرحال الى أنطاكيه على رأس طائفه كبيرة من العسكر اللاتين والاغريق لمد يد المعونه الى الصليبيين وفاء منه بتعهده معهم ، وأنه الآن معسكر بمن معه في « فيلو ميليوم » .

وكان قد انضم الى الامبراطور ما يقرب من أربعين ألف من اللاتين ، زياده عن الجيوش التي جمعها من شتى الشعوب وكان رأيه أن يخلفهم وراءه في بلاده مع الكتائب التي عنده ، وما كان تركه اياهم الا لفقرهم المدقع أو لتفشى المرض فيهم ، أو لغير هذا أو ذاك من الأسباب القوية ، اما الآن فقد زال عنهم ما يشكونه من وصب ، واشتدت عزائمهم بحضور الامبراطور وحشوده الكثيفه ، واستردوا ثقتهم في الزحف ، وأصبحوا يتلهفون قلبا وروحا على الانضمام الى رفاقهم الحجاج .

حين علم كونت ستيفن والذين في صحبته بأن الامبراطور مرابط في تلك الناحية في انتظار امدادات أخرى كثيرة ، وأنه يقوم

بعمل اسعدادات اضافيه للزحف ، أقول انه حين علم بذلك بادر فسلك أقصر الطرق المؤدية الى الجيش الامبراطورى ، فلما وصل الى هناك قوبل بأعظم آيات الترحيب الممزوجه بالدهشة البالغه . وكان الامبراطور قد عقد اواصر الصداقه منذ بداية الحملة مع استيفن حين جاء مع بقيه الزعماء الآخرين ، ولما راح الامبراطور يستفسر منه استفسارا دقيقا عن احوال القادة الآخرين وسلامتهم وأوضاعهم ، وعما دعاه لتركهم وراءه ، أجابه ستيفن بقوله :

- ١١ -

« أيها الامبراطور الذى يسير الظفر فى ركابه أنى سار . ان رعاياك المخلصين الذين أذنت لهم بالمرور عبر امبراطوريتك منذ أمد قصير ، وشملتهم بفيض جودك ، قد استولوا - أول ما استولوا - على نيقيه ، ثم وصلوا بعد مسيرة ناجحة الى مدينة أنطاكيه فحاصروها تسعة أشهر سويا ، حصارا لم يرفعوه عنها حتى أخذوها عنوة بتوفيق من الرب ، ولم يعز عليهم سوى قلعتها التى كان اقتحامها ضربا من المحال . فاستعصت عليهم بسبب وقوعها على جبل شاهق ، وبفضل أبراجها المشرفه على المدينة التى تبدو وكأنها وكر العقاب ، وكان الظن عند شعبنا أن قد انتهى الحصار ، وانهم تخلصوا من كل خطر بعد استسلام المدينة ، بيد أنه ظهر أنهم قد ترديوا الآن فى خطر أبلغ هولا من سابقه ، وأنهم وقعوا فى صعوبة تفوق كل صعوبة واجهوها من قبل » .

« ذلك انه لم تكد تنقضى غير ثلاثة أيام بعد احتلال المدينة حتى جاء قائد فارسى شديد المراس اسمه « كربوغا » على رأس جحافل من

السرف يجاوز عدها كل تعدير ، فاحدق بالمدينه من كل جانب ، ولم يدع مدحلا مى مداخلها أو محرجا من مخارجها الا سده . وحاقت المحن بالقادة والعامة على السواء بصورة أيأسهم من كل شيء حتى من حمانهم .

« وقل أن يمكن العقل من تصور ما عليه هذا الجيش المحاصر من كثره هائله في العدد ، وموجز القول ان عامه عسكرهم غطوا كل ما حول المدينة ، وانتشروا كأسراب الجراد ، حتى ضاقت الأرض بما رحبت فلم تسع كل خيامهم .

« أما رجالنا فكان أمرهم على النقيض من ذلك ، اذ أخـــذوا يتناقصون تناقصا مفزعا بسبب الجــوع الذى نزل بهم ، ومن جراء البرد والحر اللذين قاسوهما ، وبسبب ما ابتلوا به من قتل وموت ، حتى أن كل ما تبقى بعد ذلك من الجيش فى أنطاكية لم يعد كافيـا للدفاع عنها .

« أضف الى هذا أن المعونة التى كانت تجلبها لهم السفن من مملكتكم والمراكب القادمه من الجزر والمدن الساحليه قد انقطع ورودها نهائيا ـ كما تعلمون ـ بسبب العسكر الذين أرسلهم العدو ، فلـم يدعوا شبرا من الأرض بين أنطاكيه والبحر الا احتلوه ، كما دمروا الاسطول تدميرا يكاد أن يكون تاما ، وحكموا السيف فى البحاره والتجار مما حال بالفعل بين شعبنا وبين كل أمل فى شراء الطعام .

« ولقد جاء الخبر بأن الطعام الموجود الآن فى أنطاكية لا يكفى الناس الا يوما واحدا فقط ، ومما يضاعف متاعبهم خلو المدينه من مكان أمين يلجأون اليه لكثرة تسلل الترك الى المدينة عبر القلعه التى تشرف عليها ، فيشنون هجماتهم على قلب البلد ، ويهاجمون المسيحيين فى الشوارع والميادين ، وهكذا فان ما يقاسيه رجالنا خلف الأسوار لا يقل هولا عما يكابدونه من غارات يواليهم بها العدو من الخارج .

« لدلك فاني ومن معي الآن من القادة وسراة القوم – قد أيقنا تمام اليقين أن ما يقوم به اخواننا انما هو جهد ضائع ، وطالما نشدنا اليهم بحث الامر واستدينا النصح الاحوى للعمل على ما فيه سلامتهم ، وأن لا يستبدوا بأمر يستحيل تحقيقه ، لاسيما وقد تخلت عنهم العناية الربانية ، فلما وجدنا أننا عاجزون عن زحزحتهم عن هدفهم رحنا نلتمس الوسيلة لما فيه نجاتنا حتى لا يؤدى بنا الطيش الى القاء أنفسنا بأيدينا الى التهلكة ، فنفعل مثلما فعلوا .

« والآن فلعل جلالتكم ترون – انتم ومن حولكم من النبلاء المنجدين – أن الخير كل الخير فى الرجوع عما كنتم قد اعتزمتموه من الزحف الى أنطاكية ، حتى لا تحيق نفس الاخطار بمن تقودونهم من عسكركم المظفر ... وان العقل ليناشدكم ان تعودوا من حيث جئتم دون أن تلتحم قواتكم بالقوات الكثيفة التى بعث بها الشرق . وذلك أمر أجدى عليكم من الاندفاع من غير روية لتجريب قوتكم مع هذه الاعداد الضخمة من العسكر الأشداء مادامت النتيجة غير مؤكدة تماما .

« وان هؤلاء الرجال البارزين الموجودين الآن بحضرتكم قد نالهم نفس هذا النصيب ، ويستطيعون أن يؤكدوا لكم صدق ما أقول . كما يعرف ذلك أيضا « تاتيكيوس » الألمعى الحصيف الذى أرسله جلالتكم معنا ، لأنه رأى بعينى رأسه مدى ضعف رجالنا . فسار على هدى العقل فانسحب من العمل معهم ، وانه لقادر أن يجلى الموقف أمام جلالتكم » .

★★★

وكان فى حشد الامبراطور أخ للورد بوهيموند من أبيه – اسمه «جيدو » ، فلما سمع ما قاله « ستيفن كونت شارترز » حزنه ، واستغرق فى البكاء حزنا على مصير أخيه ورفاقه ، ورغب

فى بادىء الامر أن يعارض روايه الكونت ، ورماه بالجبن لنهوره فى الانسحاب من صفوف هؤلاء الزعماء الأجلاء ، ولكن أحدهم واسمه ولنم دى جراند مسرل ـ وكان شريف المولد لا الخلق ـ وهو صهر بوهمويد تمكن من اسكات « جيدو » ٠

- ١٢ -

بعد أن سمع الامبراطور هذه الكلمات . استدعى اليه جميع نبلائه للتشاور فيما اذا كان يجب عليه الزحف الى أنطاكية ، أو التوقف والرجوع الى مملكته ، وبعد أن قلبوا الأمر على شتى وجوهه انتهوا الى أن الحكمة تقتضى العوده بالجيش سالما ، بدلا من اثارة ممالك الشرق كله والتعرض لتقلبات الحرب ٠

★★★

لقد وثق الامبراطور كل الثقه بكلمات ستيفن ، فاعتقد أن كل شيء سيجرى كما قال اعتقادا جعل الخوف يتملك قلبه من كربوغا الذى زعموا أنه دمر قواتنا ، فخشى الكسيوس من قيام كربوغا بمهاجمة الامبراطورية بما تحت يده من الجيوش الكثيفة التى أكدت الأخبار أنه يقودها فى زحفه ، واذ ذاك تصبح من يد الامبراطور مره ثانيه نيقية وجميع سينا التى استردتها جهود القادة الصليبيين البسيطه ، ورأى ـ تجنبا منه لهذا الخطر ـ أن يأمر بحرق ونهب جميع الأراضى الواقعه على طول خط ارتداده ، سواء ما كان منها على يمينه أو على يساره ، بدءا من قونيه وانتهاء بنيقية ، وكان يطمع أن تقف هذه الأراضى بعد تخريبها ـ وقد هجرها أهلها

يضيف موارد العيش فيها ـ عائقا في طريق الأعداء ان حملتهم الظروف على التفكير في توجيه قواتهم ضد مملكته ٠

★★★

ولقد أدى مسلك سيمن هذا الى حرمان الصليبيين من المساعدة التى كانوا فى مسيس الحاجة اليها والتى كان الامبراطور يتأهب لامدادهم بها وفاء بعهده معهم ٠

واذا يمعن المرء تمعنا دقيقا في كلمه الكونت هذه وفى حقائقها الجوهرية ، تبين له أنها عمل لا يمكن غفرانه أبدا ، وأنه صادر عن نزعة شريرة يأباها الشرف ٠

غير أن رعاية الله القادر ـ ولا قادر سواه ـ والحكيم ولا حكيم غيره ـ قضت الا أن يجنى أحسن الثمار من أكبر الأمور شرا ٠ وأفضت الى ما فيه مجد شعب الله وقادته ، ووفاء نحو أولئك الذين تحملوا حماره القيظ ، وتركوا نساءهم وأطفالهم ٠ كى يحاربوا كحجاج للسيد ، رجاء أن تكلل جهودهم بالمجد الدائم مما كان لابد أن يحرموا منه حرمانا تاما لو كان الامبراطور حاضرا ٠ اذ أن وجوده هو وحده حينذاك فى هذا الموقع كان لابد أن يؤدى ـ بلا مساحة ـ الى أن يصدر أمره برفع الحصار بناء على سلطانه الأعلى وقواته الضخمة ، ويكون له الشرف كل الشرف له وحده دون غيره ٠

على أنه يجب على المرء أن يؤمن أن السيد نفسه هو الذى جاء بهذا الشرف ، وجاد به على من أخلصوا النية فى العمل وأدوه بأمانة وصمدوا تحت الظروف القاسية التى لا يحصيها العد ٠ حتى يجنوا ثمار تعبهم ٠ وتنعقد لهم راية النصر ٠

انطلقت الألسن في هذه الأثناء شائعة عمت أرجاء المدينة ، تقول برجوع الامبراطور الى بلاده . فضاعف هذا النبأ من فظاعة الأهوال التي يعانيها الصليبيون ، وملأ قلوبهم بأســا ونفرت نفوسهم اشمئزازا من مجرد ذكرهم كونت ستيفن ، ووصموه بالفجــور الأبدي . كمــا راحوا يلعنــون ولـم دي جراند منزل وكافة من شاركوا في هذه الخيانة الملعونة ، وراحوا يبتهلون الى الرب أن يزج في النار الأبدية مع يهوذا الخائن كل من انسحبوا من هذه الأهوال الطـامة ، والذين خـدعوا شعب الرب فحرموه من المساعدة الكبرى التي كان الله قد أعدها لهم .

★★★

ولما علم كربوغا وكبار قواده ــ عن طريق جواسيسهم ــ أن الامبراطور راجف عليهم اشتد اضطرابهم ، وعظم كربهم ، وحق لهم أن يفزعوا من قواته المؤلفة من زهرة المحاربين في امبراطوريته . فلما جاءهم هؤلاء الجواسيس أنفسهم مرة ثانيـــة بخبر تراجع الاغريق عن زحفهم ، أخذت كربوغا العزة بالاثم فازداد عتوا وبغيا وخيل اليه أنه قد ضمن النصر وجاره ، فبالغ في التضـــبيق على رجالنا مبالغة شرسة ، واشتد في الاحداق بهم مما ترتب عليه أن اكتنف التعاسة كل المؤمنين الموجودين داخل المدينة ، وخاب كل أمل لهم في النجاة . كما فقدوا الرجاء في أن تصلهم أي نجدة من أي جهة كانت ، ولف البأس المطلق الناس أجمعين ، وراح الشعور به يزداد يوما بعد يوم .

وألقيت المسئولية العامة لكل الجيش على عاتق بوهيموند ، الذي بدا له ــ وهو يدور حول المدينة ــ أنه يستحيل عليه باللين

او السده ـ ان يحمل ولو فردا واحدا من النـــاس على الخروج من حيث يختبيء ، ولم يعد يوجد ثم رجل واحد يقوم بالحراسه أو بقاتل العدو داخل البلد أو خارجه ، على الرغم من أن الجميع كانوا يضجون من الأهوال التي أنزلها بهم الأعداء ٠

ثم جاء يوم عاد فيه المنادون والعمال منهوكي القوى من محاولاتهم هذه الفاشله في استدعاء الناس ، فلما شاهد بوهيمـــوند ذلك المنظر أيقن الا جدوى من بذل محاولات جديده لارغامهم على الخروج من مخابئهم ، ومن ثم أمرمعاونيه باضرام النار في أماكن متعدده من المدينه ، عسى أن تحيف النيران هؤلاء الذين غلظت قلوبهم ورفضوا الامتثال للارادة الربانية ، فتحملهم على البروز الى العراء ، ونجحت مناورته هذه وآتت أكلها ، فبعد أن كان عاجزا عجزا تاما قبل هذه اللحظة عن أن يجمع الرجال للقيام بواجبات الخدمه العامه ، اذا بهم يقبلون زرافات بقلوب ملؤها الحماس الشديد يندفعون لأدائها ٠

ويقال ايضا ان اليأس من الحياه دفع بعضا من وجوه الرجال الى عقد اجتماع خاص ، قرروا فيه أن يغتنموا هذه الليلة بالذات للفرار خلسه الى الساطيء ، تاركين وراءهم الشعب وجيش الحجاج بأكمله ، غير أن خبر تدبيرهم هذا بلغ سمع الدوق وأسقف بوى الموقر فاستدعيا اليهما هؤلاء المذنبين وأسرفا في تأنيبهم التأنيب المر ، وذكراهم أن وصمة العـار الأبدية ستطبعهم هم وذراريهم بميسـمها ، ان هم خرجوا على ما يفرضــه عليهم شرفهم وكريم أصـولهم ، أو اذا انسحبوا من هــذا الحشد الكبير من المؤمنين بالمسيح ٠



في وسط هذه الضـائقة كان هناك نقص بيّن في الطعام بين شعب الله بسبب أهوال المجاعه المهلكة ، وما يمارسه العدو من

الضغوط ، سواء من الداخل أو الخارج ، حتى لم يعد ثم علاج لما هم فيه ولا أمل لهم في نجـدة بأبهم من أية ناحيـة ، وعمت البلوى صغيرهم وكبيرهم على السـواء ، وعجز كل واحد عن مسـاعدة الآخر .

وكانوا اذا تذكروا نساءهم وفكروا في صغارهم الذين خلفوهم في بلادهم ، وأملاكهم الشاسعة التي ورثوها عن أسلافهم ، وكيف هجروها حبا في المسيح ، أسلموهم أنفسهم للتشكوى من عدم مجازاه الرب اياهم ، لأنه لم ينظر بعين الشفقة الى المشاق التي تحملوها ، ولا الى صدق اخلاصهم ، بل ابتلاهم بدلا من ذلك بالبلايا كما لو كانوا شعبا غريبا عنه فأسلمهم الى أيدي الأعداء .

- ١٤ -

بينما كان شعب الرب يقاسي البلاء على هذه الصورة ، اذا بالسيد يعطف عليهم ويستمع الى أنينهم ويرسل السـلوى من كرسيه السماوي ، فيقال ان قسيسا اسمه [بارتلميو] من المقاطعة المعروفة باسـم « بروفنس » جـاء الى أسقف بوى وكونت تولوز زاعما لهما أن الحواري المبارك أندروز كان قد ظهر له في المنـام ثلاث أو أربع مرات متتالية وأمره أن يبادر ما وسعه البدار الى اخبار القادة أن الحربة التي طعن بها سيدنا عيسى المسيح في جنبه مدفونة في كنيسة أمير الحواريين ، وعليهم أن ينشطوا كل النشاط في التفتيش عنها في البقعة التي بينها له الحواري بعلامات مميزة .

ومن ثم مضى بطرس الى خادمي الرب هذين المحبوبين ، وفصل

ليما الأمر الذى أقسم أنه حمّله - وبين أن الرسول [أندرور]
ارغمه على دلك مبددا اياه بكثير من المتاعب . بيد أنه رفض أكثر
من مرة اداء هده الرسالة ، لأنه لا يريد عن ان يكون رجلا فقيرا
جاهلا ، غير أنه لم يستطع فى النهاية أن يتجنب تنفيذ أمر الرسول
العاجل أكثر من هذا ، حتى ولو تعرضت حياته للخطر .

وتوسلوا بالسرية التامة فى نقل هذا الخبر الى القادة الآخرين ،
الذين جىء أمامهم ببطرس [بارتلميو] ليسمعوا منه حقيقة الأمر
وصورته فصدقوا روايته ، ثم اجتمعوا فى المكان الذى سماه لهم
فى ارباض الكنيسة المشار اليها آنفا . وحفروا الأرض هناك الى
عمق معين . فوجدوا الحربة كما قال بطرس [بارتلميو] تماما .

ولما سمع الناس هذا النبأ اندفعوا الى الكنيسة كأنهم رجل
واحد . لأنهم شعروا ان السماء أرسلت لهم العزاء . وانهالت
الهدايا والمنح تمجيدا لاكتشاف هذه النعمة العالية . وطرحوا عنهم
ما كان بهم من الفزع ، وتنفسوا الصعداء ، وأحسوا أن قد عاودهم
بأسهم من جديد لتنفيذ الأوامر المباركة ، وكان هناك البعض الذين
ادعوا أنهم رأوا رؤيا العين اشباح الملائكة والرسل الطوباويين ،
وكان ادعاؤهم هذا تعزيزا لقوة ايمانهم بحلم بطرس فارتفعت
نفسية الناس القانطة الحائرة ارتفاعا عجيبا .

وحينذاك استجاب جميع الزعماء لافراح الرجال الموقرين
الذين يخشون الرب وجددوا ايمانهم ، وقطعوا على أنفسهم العهد
بأن يخلص كل منهم النية للآخر ، وتعاهدوا — لئن تداركتهم رحمة
الرب مما هم فيه الآن من وضع حرج . ومنحتهم النصر الذى يرجونه
وظهرا على عدوهم .. ألا يفارق بعضهم بعضا . حتى يستعيدوا بعون
الله المدينة المقدسة والقبر المقدس ، ويردوهما للايمان المسيحى
وحريتهما القديمة .

ظل الناس يقاسون هذه الظروف غير المحتملة ستة وعشرين يوما متتالية اطمأنت بعدها قلوبهم بعـــد طول وجيب ، وراحوا يشعرون عن سواعدهم في شجاعة لم تكن لديهم من قبل ، وأحسوا بالراحة بعد طول عذاب ، وكأنها أمل جاءهم من السماء ، واتفق الجميع صغيرهم وكبيرهم على أن لابد لكل هذه المآسي من نهاية ، وأنه لابد لهم من يوم قريب جدا يقاتلون فيه الخصم ويستطيعون صد أعدائهم الذين يعتدّون كثيرا بقوتهم الكبيرة ، فتتحرر يومذاك المدينة التي وهبها الله لهم ، ومن ثم راودا الحنين في القيام بمحـاولة خوض الحرب مرة اخرى ، بدلا من أن يتركوا أنفسهم نهب الضياع يوما بعد يوم ، وهم في غمرة المجاعة التي استمرت طويلا وأنه أجدى عليهم أن يحاولوا القتال بدلا من ان يتركوا أنفسهم للبأس ينـــوء عليهم بكلكله الذي لا نهاية له فيمتصهم ارهاقا .

كانت هذه هي أحاسيس الجميع الذين لم يعد ثم مفر أمامهم من الخروج من المدينة لمقاتلة العدو ، ولم تقتصر هذه الرغبـة على النبلاء وحدهم ، بل كانت تلتهب في نفوس العامة أيضا الدهـايا حملهم على اتهام قادتهم بالتراخي ، وكرهوا كل تريث من جانبهم .

ورأى القادة أن حماسة الناس انما هي أمر علوى ، فاجتمعوا للتشاور ، واتفق اجماعهم على أن يرسلوا وفادة الى القائد العام لعسكر العدو تعرض عليه الأخذ بواحد من اثنين :

اما أن يرحل ويترك المدينة للصليبيين لتكون ملكا لهم الى الأبد ، وهي المدينة التي عادت الآن اليهم بارادة الرب ، واما أن يستعد للقتال ، ويكون السيف هو الحكم بين الفريقين .

واختير لهذه البعثة الرجل الطاهر الذيل ، الذي ورد الكثير

عنه فى الصفحات السابقه ، وأعنى به بطرس الناسك ، وأشركوا معه رفيقه العاقل الفطن « هيرلوين » (١) الذى كان ملمـا بعض الالمام باللغه الفارسيه ومتمكنا من لسان البارثيين ، وعهد القوم الى هذين الرجلين بتسليم العدو الانذار الذى ذكرناه . على انهم اضافوا الى ذلك شرطا آخر هو أنه اذا آثر الأمير الحرب فله أن يختـــار : اما المبارزة الفردية مع أحد الزعماء الصليبيين ، أو أن يخرج عدد معين من رجاله ضد عدد مساو لهم من رجالنا ، فيبارز بعضـهم بعضا . واما أن يلتقى الجمعان وجها لوجه فى معركة عامه .

وبادر الطرفان هذه اثنان لارسال الوفاده . فانطلق الرجلان اللذان اسرنا اليهما الى معسكر الأمير [كربوغا] مع الحرس الذى خصص لهما . فوجدا كربوغا محاطا بكبار رجاله ونوابه .

وعلى الرغم من ان بطرس الناسك كان رجلا ضئيلا الا انه كان يتمتع بروح عالية ، فأدى المهمة التى وكلت اليه فى صدق وحماسه ، واستطاع بسلوكه الرصين وبما طبع عليـــه من جراءه لا تعرف الخوف ، أن يقترب من البساط الفارسى دون أن يبدى أى خضوع ، وسلم الانذار قائلا :

« لقد أرسلنى مجمع الزعماء المقدس أحباب الله الموحدين فى أنطاكية ، ينهون الى سموكم أن تكف عن مصايقتهم . وترفع الحصار عن المدينه التى أعادتها الرحمه الالهية الى أيديهم . والتى طهرتها

---

(١) يستفاد من هذا أن « هيرلوين » هـــذا كان يعرف اللســانين العربى والفارسى الى جانب لغة ذلك العصر وهى اللاتينية ، وربما كان هناك مثله كثيرون اصطنعهم الصليبيون ممن يعرفون لغات هذه البلاد الشرقية وان كان عددهم ضئيلا ، أو كانوا معدودين دون الصليبيين مكانة لأنهم لم يكونوا محاربين ولكن أرغمتهم الأوضاع أن يكونوا فى صفوف المقاتلين . انظر الترجمة الانجليزية ، ص ٢٨٢ ، حاشية رقم ٨ والمراجع الوارده بها .

من الوسه بطرس أمير الحواريين العاقل المكمل لايمـــانـنا ، والذى اهتدى أنطاكيه بهـديه الى دين المسيح ، وصارت حقا لنا بفضـل قوه معجزاته وكلماته الكريمة المطويه على النصح والإرشاد ، ثم قدر أن ان تغتصب منا عدوانا وظلما ، فاعادها الينا السيد القوى ذو البأس الشديد ٠

« وعلى ذلك فان القادة الصليبيين يعرضون عليك بما ينفى واحساسهم العميق بالمسئولية الموروثة من آبائنا خـدام المســيح المخلصين ان تختار واحدا من عده اقتراحات نضعها أمامك ، وهى أن ترفع الحصار وتنسحب وتكف عن مضايقه الصليبيين ، فان لم تفعل أدركناك بحرب بعد ثلاثه أيام تكون الحكم فيها للسيف بشكم وبينـ ، وزياده على ذلك فان أردت تجنب الصدام بتقديم عـذر مقبول فانهم يخيرونك بين عدة أمور تختار منها واحدا ، وهى اما أن تلتقى بنفسك وجها لوجه مع واحد من قوادنا فى مبارزه لا يكون فيها سواكما ، فان تغلب فيها عليه ملكت كل شىء ، وان هزمك رحلت وتركتنا آمنـين ، وأما الاقتراح الثانى فهو أن يخرج بضعه من فرسانك يقاتلون بضعة من فرسانا يماثلونهم عددا تحت نفس الشروط والا تقاتل الجيشان بأجمعهما من الجانبين فى معركه تقرر المصير » ٠

★★★

لكن الأمير [كربوغا] ازدرى هذه العروض المقدمه اليه ، وقيل انه قال ٠ « ما أظن يا بطرس العزيز أن وصيع زعمائك الذين أرسلوك الى يسمح لهم باقتراح اختيارات يعرضونها علىّ ، أو أن يفرضوا علىّ اختـيارا معينـا حسب أهوائهم ، ذلك لأن بسالتنا أجبرتهم على أن يكونوا فى حال لا يملكون معها حرية الاختيار ، بل

نعرض عليهم اما أن يغادروا البلاد ، واما أن يتخلوا عن رغباتهم بما يتفق وهواى أنا .

« فاذهب الآن الى هؤلاء القادة الأغبياء الذين أوفدوك ، — وقد عم عليهم الآن الوضع الذى هم فيه — وقل لهم انى سوف أستبقى عندى منهم كل من هم فى زهرة الشباب من الحسنين ليكونوا فى خدمة مولاى [السلطان] ، أما من ســواهم فسوف أجعلهم نهب السيوف كأوراق الشجر المتساقطة حتى لا تبقى منهم من يذكر بهم ، ولولا أنى آثرت أن أتركهم يلاقون الموت بالجوع القاسى بدلا من قتلهم بالسيف لدككت الأســـوار عليهم منـــذ زمن بعيد ولاستوليت على المدينة عنوة ، فيجنون ثمرة مسلكهم تحت ضربات السيف المنتقم » .

- ١٦ -

بعد أن عرف بطرس غفلة الأمير كربوغا الذى أرسلوه اليه ، وأدرك مدى سلوكه المتغطرس الناجم عن اعتداده بما لديه من ثروات لا تماثلها أية ثروات أخرى ، وكشف عن نيته كثرة حنده ، أقول بعد أن عرف بطرس ذلك كله استأذنه فى الانصراف وعاد الى جماعته ، فلما بلغ المدينة أراد أن يمضى الى الزعماء الذين بعثوه بالرد الذى حمله اليهم ، وكانت الجموع كلها من الكبار والصغار يتلهفون على سماع فحوى الرد ونتيجة السفارة .

وعزم بطرس [الناسك] على أن يقدم فى حضرة الناس جميعا تقريرا مفصلا بكل ما جرى خــلال اجتماعه بكربوغا ، وعن مسلك هذا الأمير المتغطرس ، كما قرر أن يشير الى تهـــديداته وكبريائه

وعروره ، لكن جودفروى العظيم حاف أثر دلك على العامه ان هم ألمّوا بجميع تفاصيل الموضوع ، ذلك أن العامة وقد أنهكتها الشدائد المستمره ، وضعضع نفسيتها تراكم الأهوال عليها ، وقد يستبد بها الفزع الشديد فتنكب على وجهها خوفا ، لذلك قام [جودفروى] فأطفأ حماسه بطرس ومنعه من الاسترسال وسرد كل ما عنده ، وجذبه بعيدا عن الناس الذين تزاحموا عليه لسماع ما يقـــول . واقترح عليه ألا يفصل كل ماحدث ، بل عليه أن يقتصر على موجز رد كربوغا ألا وهو تصميم العــدو على القتـــال ، وأنه ينبغى على الصليبين أن يصرفوا كل اهتمامهم للاستعداد للحرب ·

ومن ثم لم يعرف الناس مما حكاه بطرس الا أن العدو يطلب القتال . فاجتاحت الجمع صغيرهم وكبيرهم رغبة عارمة ولهفة ملحة للحرب ، واغتبطوا أشد الغبطة اذ تلقوا هــذا الخبر ، وكانت فرحتهم هى ثقتهم بالنصر ، حتى كان يخيل للنــــاظر اليهم أنهم نسوا تماما ما كانوا فيه من الصراع ضـــــد الأهوال التى كانوا يكابدونها ، وأفصحت وجوههم جميعا على اتفاق كلمتهم بأن يكونوا قلبا واحدا وفكرا واحدا . فنودى فيهم أن المعركة واقعـــة غدا ، فعادوا بجوانح قد ملأتها الفرحة حتى لقد انقضى الليـــــل دون أن تغمض لهم عين . سوقا للمعركة ، وجهزوا أســــــلحتهم ، وأعدوا جيادهم ، وراحوا ينظفون صــدرياتهم الحديدية ومغافرهم ، وهيأوا دروعهم ، وشحذوا سيوفهم ، ومن ثم لم يكن عندهم وقت للنـــــوم أو الركون الى الراحه ، ونادى المنادى بين الجمع أن يخرج كل ذى سلاح وقادر على القتال عند تباشير الفجر وقبل شروق الشـــــمس وينضم الى كتيبته ويقف خلف راية قائده المعين له ، فلما بزغ فجر اليوم التالى أقام القسس ورجال الدين الخدمة الدينيـــــة فى كل الكنائس ، وقدموا القرابين ، ثم دعوا الناس الى الاعتراف بنفس ملؤها التواضع والمذلة كالعادة وحضّوهم على التوبة وتحصين أنفسهم

ضد رذائل الدنيا بتناول القربان الذى هو دم المسيح ولحمه ، فلما غفروا لهم خطاياهم وبعثوها الى نفوسهم وعاصت القلوب بمزيد من الحب الصادق ، مضى القوم الى القتال وهم أكثر ثقة من قبل كتلاميذ واتباع القائل (١) : « أنا أعطيكم أن تحبـوا بعضكم بعضا ، كما أحببتكم أنا تحبون انتم أيضا بعضكم بعضا . بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذى ان كان لكم حب بعض لبعض » ٠

بعـد أن تلقى جميع الكتائب الخدمة الدينية ، وغمر الهدوء القلوب ، انهالت عليهم النعمة من السماء انهيالا عجيبا ٠

كما ان أولئك الذين كانوا بالأمس واليوم الذى قبله مطروحين كأن قد فارقتهم الحياة ، وقد بلغ الضعف منهم مبلغا عجزوا معه عن أى شىء حتى عن تحريك جفونهم أو رؤوسهم ، وباتت عليهم الفاقة بكلكلها ، وأمضهم الجوع ، حتى راحوا يلتمسون الأماكن الخفية عن عابثين بمكانتهم التى كانوا عليها من قبل ، أقول انهم برزوا فى هذه اللحظة من تلقاء أنفسهم للعيان ، وتخلصوا من كل خوف وامتشقوا أسلحتهم فى بطولة كما لو كانت القوة دبت فى أوصالهم من جديد واستردوا اقدامهم الذى اعتادوه وراحوا يستعدون للحرب وكلهم أمل فى النصر ،وقلّ ان وجد فى هذا الحشد الكثيف شخص أيا كان عمره أو ظروفه لم يهيىء نفسه للاضطلاع لكل عمل مجيد ، وحملوا كلهم سلاحهم ، وتنبأ الجمع بانتصار الصليبيين ٠

وراح القسس يطوفون بين صفوف العسكر ، وحيث يتجمع الناس ، وعليهم ثيابهم الكهنوتية حاملين الصلبان وصور القديسين فى أيديهم ، واعدين القوم بغفران الذنوب ومحو جميع آثام الخطاة ان هم استبسلوا فى القتال فى المعركة كحماة للعقيدة المسيحية التى

---

(١) يوحنا ، ١٣ . ٣٥ ٠

ورثوها عن آبائهم ، كما قام الأسافقة بارحاء النصح لأمراء الجيش وقواده أفرادا وجماعات ، وحثوهم على النضال ما أسعفتهم البلاغة التى أغدقتها عليهم السماء ، ومنحوا الناس بركاتهم . واستودعوهم فى رعاية الله ، وكان فى مقدمة هؤلاء الأسافقة خادم المسيح الطوبانى أسقف بوى الذى دأب على اسداء النصح والمداومة على الصوم وملازمة الصلاة ، وبر الجميع كرما فى احراج الصدقات ، وكان مستعدا على الدوام للتضحية بنفسه من أجل خاطر السيد .

- ١٧ -

تجمع الجميع كأنهم رجل واحد أمام باب الجسر وذلك ساعة اشراق صباح الثامن والعشرين من يونيه ، بعد أن ابتهلوا الى السماء أن تمدهم بالعون ، وأعدوا صفوفهم للمعركة بعد أن قسموا للفيالق نظام السير وأسلوبه ، وذلك قبل مغادرتهم المدينة ، وتولى هيج العظيم — أخو ملك فرنسا — أمر الفيلق الأول كقائد له وحامل لرايته ، وجعلوا معه أنسلم دى ريبمونت الجدير بالثناء على كل ما يفعل ، وأشركوا معه أشرافا آخرين نعجز عن ذكر أسمائهم وعددهم .

وعهدوا بالفريق الثانى الى روبرت الملقب بالفريانى كونت فلاندرز ، ومعه من ضمهم معسكره من البداية ، أما روبرت دوق نورماندى فقد وكلوا اليه قيادة العسكر الثالث ، وكان معه ابن أخته الفاضل سيفن كونت أومال وغيره ممن كانوا فى بطانته من النبلاء .

أما المبجل أدىمار أسقف بوى ، دو الدكر الغالى ، فقــد حاد المجموعة الرابعة التى كانت ستسمل على حاصة أتباعه وأتباع كونت بولوز ، وكان [أديمار] يحمل حربة السيح المسيح ٠

وأما رينارد كونت بول فقد كلفوه بأن يقود الفيلقين الرابع والخامس ، وكان معه أخوه بطرس دى سنيباى ، وكونت جارنيه دى حراى ، وهنرى دىس ، ورينولد فون أمرباخ ، وولتر دومدارد

وأمر الزعمــاء أن يكون على الفيلق الســادس رينبالد كونت أورانج ، ولدفيج دى موسون ، ولامبرت بن كونون دى موىتاج ٠

أما جودفرى دوق اللورين دلك الأمير العظيم المبجل ، وأخوه الموقر لورد استاس ، فكانا على الكتيبة السابعة ، التى رتبهــا وفق النظام الحربى ٠

وأما القسم الثــامن [من الجيش] فكان بقيــادة تانكريد الفارس المعلم فى نيل حلقه وبراعته فى استعمال السلاح ٠

وأما القسم التاسع فكان فيه هيج كونت سنت بول ، وابنه انجراند ، وتوماس دى لافر ، وبلدوين دى بورج ، وروبرت بن جيرادر ، ورينو دى بوفيه ، وجالو دى شومونت ٠

وأما الفيلق العاشر فقد عهدوا به الى روبرو كونت بيرش ، وايفرارد دى بويسيه ، ودروجو دى مونسى ورالت ابن جودفروى وكونون روتو ٠

وقاد الفيلق الحــادى عشر كل مــن ايزورد كونت ديى ، وريموند ببليه ، وجاسنون دى بزييــه وجيرارد دى روســيلون وولىم دى مونبلييه ووليم أمانجو ٠

أما الفيلق الثانى عشر وهو أكبر الفيالق جميعا فيؤلف مؤخره الجيش ، وقد عهدوا به الى لورد بوهيموند زعيما وقائدا ، ووكلوا اليه أمر هذه المؤخره كى يساعد القوات الأماميه فى اللحظات الحرجه ، كما عهدوا اليـــه أن يرعى من قد يشتد عليهم ضغط العدو ٠

واشتدت وطأة المرض بكونت تولوز فى هذا الوقت ، فخلفوه وراءهم لحماية المدينه ، اذ لازالت قلعتها فى قبضة الترك الذين خيف على المدينه منهم أن يظنوها بلا مدافع بسبب غياب الزعماء ، فيحاولون الاغارة عليها ، ومباغتة من بهـــا من الشيوخ العجزة والنساء وغيرهم من أهلها الذين ليس هناك من أحد يحميهم ٠

ولقد أقام الصليبيون على التل المواجه للقلعة سورا قويا من الأسمنت والحجر ، الى جانب استحكامات اضافية نصبت عليها بعض آلات الرمى ، كما تركوا بها مائتين من الشجعان الأشاوس المدججين بالسلاح للحفاظ عليها ٠

- ١٨ -

حين رتب قواتنا نفســـها على هذه الصورة وهيأوا صفوفهم للقتال ، قرر الزعماء باتفاق الآراء أن يسير أمام الجيش بأجمعه ويتقدمه كل من هيج العظيم [أخو ملك فرنسا] ، وكونت فلاندرز ودوق نورماندى ، أما البقية فعليهم مراعاة الترتيب المتفق عليه ، وجاءت المشاة أولا ومن بعـدهم مباشرة الخيالة كحراس لهـــم ، وأعلن نداء عام يحذر تحذيرا قاطعـــا أى شـــخص من التجرؤ على مد ناظريه الى الغنائم والاسلاب ، بل يكون الاهتمام منصبا على كل ما فيه تحطيم الأعـداء ، حتى اذا ما تم النصر للصليبيين ،

ودارت الدائره على العدو ، امكنهم العودة بنفس راصــــه لجمع الغنيمة .

توقع كربوغا منذ اللحظه الأولى ــ لا سيما بعد زيارة بطرس [الناسك] له ــ أن لابد من قيام الصليبيين بشن غارة فجائيه على معسكره ، ومن ثم فانه اتفق مع الأتراك الموجودين في القلعه أنه اذا لاحظ أحــدهم جمــاعة الصليبيين وهم يستعدون للخــروج من أية ساعه من ساعات يومهم فعلى اهل البلد المبادره بموافاة معسكره باشارة اتفق عليها من قبل .

شرع رجالنا منذ أول ساعه من النهار في تنظيم صفوفهم . فلما لاحظ أتراك القلعة تحركاتهم بادروا فأعطوا الاشاره لمن في معســكرهم ، فعزم كربوغا على التقــدم والحيلولة دون ما تريده ، وأرسل في الحال نحو ألفي فارس ليصرف نظر قواتنا الموجوده عنــد الجسر ويمنعها من مغادره المدينة ، ثم ترجّل هؤلاء الرجال ونزلوا عن ظهور جيادهم ليكون هجومهم اشد عنفا . ولكي يجدوا مجالا أوسع لاستعمال أقواسهم ، فأمكنهم الاستيلاء على الطــريق البعيد من الجسر ، وأما الصليبيون فقد رتبوا صفوفهم . ووزعوا رجالهم وفق قواعد علم القتال ، ثم قاموا بعد ذلك بفتح البوابه ، وزحفت قبائلهم واحدا بعد اخر ، وكانت لا تزال مرابطه في مواضعها على نفس المسافات التي تفصل بين بعضها والبعض الآخر .

وبينما كانت كتائب العدو التي قدمت لمنع جماعتنا من الهجوم تجهد نفسها أشد الاجهاد لبلوغ هذه الغــــايه . عمد هيو العظيم الذي يتولى ــ كما قلنا ــ قيادة الفيلق الأول بارســــال كوكبه من المشاة ورماة الأقواس ، فشنت هجوما عنيفا على الترك الذين حاولوا المقاومة في بداية الأمر ، لكنهم ما لبثوا أن عجزوا أخيرا عن صد قواتنا ، واضطروا الى الفرار على عجل تام ، فاقتفى هيو أثرهم في

عنف لم يستطيعوا معه الوصول الى جيادهم وامتطائها الا بعد لأى وجهد ، وبينما كانوا لائذين بأذيال الهرب استبسل فى مهاجمتهم أسبلم دى ريموث الذائع الصيت الذى كان واقفا فى الصف الأول ، وقدم الدليل الناصع على شجاعته ، واندفع غير عابئ بسلامته حتى صار فى وسطهم وقد كسفوه من كل ناحية ولكنه صمد مرديا بعضهم وطاعنا بسيفه ناوب البعض الآخر ، وأبدى فى الفتك بهم كثيرا من البسالة التى دلت على قدرته واستلفتت اليه الأنظار ، وحدث انه اعجاب جميع المحاربين ، فحف لنجدته هيج العظيم ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورماندى ، وبالدوين كونت هينولت ، واستاس أخو الدوق ، وقد امتلأت نفوسهم اعجابا ببطولته فضموا قواتهم بعضها الى بعض ، وكروا على العدو كره استاصلوا بها سأفة من لازال هناك من عسكره ، ثم تابعوا اقتفاء أثره الى مخيمه وكبدوا المارقين خسارة يعجز اللسان عن وصفها ·

- ١٩ -

بينما كانت قواتنا تغادر المدينة جرى أمر يستحق التسجيل، ذلك أنه فى اللحظه التى أخذوا فيها يتهيأون للعمل ، وقد صاروا بعسكرهم خارج الباب ، اذا ببعض من رجال العدو الذين دبروا أمر منعهم من الخروج يخرون صرعى ، ويلوذ غيرهم بالفرار ، وحدث فى هذه اللحظة بالذات أن أخذت حبات الندى اللذيذ تتساقط على الجيش الصليبى ، وكان رذاذا خفيفا لكنه أنعش رجالنا كل الانعاش ، ونزل عليهم بردا وسلاما ، حتى لكأن السيد ذاته هو الذى يمنحهم بركاته وعطفه ·

وما كان هذا الندى العاوى المعطر نصـــيب أحـد الا وبدت الفرحه فى بدنه . ونسى روحه ، وتسترد قوته تمام الاسترداد ، حتى لكأنه لم يشك قط مشقه ولم يلاق صعوبه طوال رحلة الحج . ولم يقتصر ذلك على الرجال وحدهم ، بل ان الجياد دائما عادت ـ بقوة الله ـ الى ما كانت عليه من النشاط ، على الرغم من انهـا ظلت لبضـعة أيام سالفه لهـذا الحـدث لا تجـد علفـا تقتات به ، ولم يكن لها من طعام سوى ورق الأشجار ولحائها ، أما اليوم فقد جاوزت سرعتها وصبرها سرعه خيل العدو مع ان علف جياده كان من الشعير والتبن .

أدى هذا الأمر الى أن بات الأمل فى النصر قويا ، وبعث هذا الندى فى جنودنا قوة احتمالطاغية فكأنه هو المراد بقول القائل(١)

« اللهم عند خروجك ... الأرض ارتعدت ، السموات ايضا قطرت ... مطرا غزيرا أنضحت يا الله ... ميراثك وهو معيى أنت أصلحته »

والواقع أن جنودنا لم يخامرهم أدنى شك فى أن الذى نالهم انما هو رحمة الروح القدس قد نزلت عليهم .

★★★

ولما أصبحت جميع الكتائب خارج المدينه صمم الزعماء على نشر العسكر حتى الجبال التى تبعد عن أنطاكيـــه قرابه ميلين ، واحتلال السهل بأكمله مخافة أن يحول العدو ـ بأعداده الضخمه ـ خلسه ـ او عنوة ـ بين قواتنا وبين المدينه ، فيكون فى ذلك الخطر علينا ، كما أنه يستطيع بهذه الطريقة ـ كما هى عادته ـ الاحداق

---

(١) مزامير ، ٦٨ ٩ ـ ١٠ .

برجالنا من كل جانب ـ فسقط خط الرجعــه على المتسللين الى المدينه . واخذ الصليبيون يتقدمون ببطء حتى لا تختلط صفوفهم بعضها ببعض ، او يختل نظامها . وقد شاءت الاراده الالهيه أن الصليبيين الذين كان يخيل لرائيهم ـ وهم وراء الأسوار ـ أنهم دون خصمهم عددا ، أو بقول أدق أنهم لا شيء مطلقا بالنسبة اليه ـ قد صــاروا وهم خارجهــا يوازونه عددا ان لم يكونوا أكثر منه حتما ، وهكذا فان « الواحد الذى بارك الأرغفه الخمسة فزاد فى بقاياها زيادة جمة بعد أن أكل الجميع حتى شبعوا قد جاء بمعجزه ليست دون هذه المعجزه حين زاد عدد هؤلاء الناس ، الذين وهبوا أنفسهم للعمل الصالح فى نظره ، وكان ذلك منه تمجيدا لاسمه » ٠

وكان القسس واللاويون الذين وهبوا أنفسهم للرب يسيرون فى ركب من خرجوا للقتــال متسربلين بمســوحهم البيضــــاء ، ورافعين بأيديهم الصليب المجيد ، كما ظل بالمدينة طائفة من الكهنه وكانوا كأمثالهم مدثرين بمسوحهم الكهنوتيه ، واعتلوا الاسوار ورفعوا أيديهم الى السماء لا يكلون عن الابتهال الى السيد بدموعهم وصلواتهم أن يخلص شعبه الوفى ولا يأذن لمنكريه أن يرثوه ٠

- ٢٠ -

فهم كربوغا من الاشارة التى ظهرت على القلعه ومن مطالعته الهاربين المهزومين من أنطاكية عند زحف رجالنـــا ان الصليبيين أخذوا فى التقدم ، فدعا الى اجتماع عاجل حضره كبار الرجال فى السن وقواد عسكره ، للتشاور فى الوضع الذى كان ينظر اليه بازدراء ، ولكنه أصبح يشكل أمرا خطيرا حمله على أن يحوف

من هؤلاء القوم التافهين ، الذين سخر منذ قليل جدا من معداتهم وعددهم الضئيل ، ومن ثم شرع فى ترتيب قواته ، وتنظيم صفوفه استعدادا للقتال ونزولا على نصيحة مستشاريه . واحدث تجربة الأنطاكيين بعين الاعتبار واستطاع بكثير من المهارة تنظيم قواته وترتيب صفوفها للقتال ، وأقام حدا فاصلا بارزا بين الفيالق التى يتألف منها حرس مقدمته وبين السائرين خلفهم . وكان من بين تنظيماته الصارمة ما يلى :

هو أنه أرسل ناحية الساحل كتيبة امتازت بكفاءة رجالها وشجاعتهم ، وقد فعل ذلك قبل أن يشغل الصليبيون كل السهل الواصل بين المدينة والجبال ، ويقال ان هذه الكتيبة كانت بقيادة قلج أرسلان أمير نيقية المشهور الذى تردد ذكره كثيرا فيما سبق ، وكان الهدف من هذه المناورة هو أنه اذا دارت الدائرة على شعب الرب ، واضطروا للهروب ، وجدوا أنفسهم وقد سدت سبل النجاه من خلفهم وقدامهم ، سواء كانوا يريدون الفرار الى البحر أو الى المدينة ، وبذلك يقعون بين القوات التى تطاردهم . وبين الذين يحاولون منعهم من التقدم فتطحنهم رحى القتال بين شقيها .

ثم أقام كربوغا بقية عسكره على اليمين وعلى الشمال ، واضعا كل جماعة تحت قيادة قائدها الخاص . ونادى فى عسكره أنهم ان أرادوا كسب عطفه عليهم ، فعليهم أن يتذكروا ما عرفوا به على الدوام من الشجاعة الفائقة ، وأن يحاربوا خصومهم حربا لا هوادة فيها ، و لايلقوا بالا الى مجهودات قوم لا يدرون ما الحرب ، ولا يزيدون عن أنهم رعاع أنهكتهم المجاعة ، وأعوزهم السلاح ، وقل فى يدهم المال .



ولما احتلت قواتنا كل السهل احتلالا أمنوا معه أن يحدق بهم أى خطر أمروا بدق الطبول ايذانا بالزحف ، وسرع العسكر فى التقدم شيئا فشيئا نحو صفوف العدو ، يتقدمهم حاملو الرايات ، حتى اذا صاروا قريبين من المارقين قربا أعجز الأخيرين عن رميهم بالسهام ، اندفعت الى الامام فى آن واحد صفوفنا الثلاثة الأولى ، وقاتل رجالها العدو بالسيوف والرماح فى الأحياء القريبة .

أما مشاتنا وهم رماة الأقواس والمجنيق ، فقد سبقوا كتائب الفرسان ، وراح الجميع ينافس بعضهم بعضا ، وشنوا من الهجوم أعنفه .

ثم جاء الفرسان فى أعقاب المشاة ، باذلين أقصى الجهد لحماية الطليعة ، وبينما كانت الصفوف الأولى تبذل قصارى جهدها فى القتال ، هب لمعاونتهم من كانوا وراءهم مستبسلين فى الهجوم ، فأثاروا الطليعة للقيام بأعمال أكثر شجاعة وأعظم جرأة ، وهجمت جميع القوات الصليبية باستثناء المؤخرة — التى بقيادة بوهيموند — على العدو وحاربته فى بطولة ، وانسحر القتل فى كثير من الترك ، ودبت الفوضى فى صفوف الباقين فركنوا الى الفرار ، وقضى الدوق ووحدته قضاء مبرما على أقرب وحدات العدو اليه ، غير أنه حدث فى هذه اللحظة أن عاد قلج أرسلان بفيلقه الذى كان — كما قلنا من قبل — قد قاده متجها ناحية الشاطئ وكر به كره عسفه من الخلف على كتيبة بوهيموند ، وراح يرشقها بوابل من السهام التى راحت تتساقط مدارا حتى غطتهم جميعا ، ثم نحّى قوات قلج أرسلان الأقواس جانبا وتجنبت تكتيكاتها المألوفة ، وهاجمت بوهيموند بالهراوات والسيوف وكانت الكرة عليه أضرى ما تكون ، حتى لم تعد صفوفه قادرة على تحمل ضغط هذا الهجوم الشرس ، فدب الاضطراب فى صفوف كتيبته على الرغم من صموده للعدو ،

هو وبلغ ضئيله من رفاقه ، كما أبدى من البسالة الفائقه ما هو قمين به كقائد ، على أنه فى هذه اللحظة الحرجة استجاب الدوق جودفروى لما نودى عليه ، وأسرع بقواته لمساعدة بوهيموند ، وكان ممن جاء مع الدوق من الرجال تنكريد القائد المقدام ، وترتب على مجيء هؤلاء الرجال خير كبير ، تمثل فى توازن قواتهم مع قوات العدو الذى تلاشى بأسه مما شجع الصليبيين على ملاحقته ، غير عابئين أن يصابوا فيجرحون أو يقتلون ، فلما رأى الخصم أن قوته ليست معادلة لقواتنا ، وأدرك أنه لن يستطيع تحمل بأس خصومه أكثر من هذا عمد عسكره الى حيل أخرى ، وكان منها رجوعهم الى مألوف عادتهم ، فأضرموا النار فى الزروع ، فأججت لوجود كميات وفيرة من الحشائش الجافة وأكوام القش التى سرعان ما أمسكت بها النيران ، وساعدت على اتساع مدى الحريق، وعلى الرغم من أن اللهيب كان بسيطا الا أنه أسفر عن دخان كثيف خانق ، فحالت هذه الغمامة بين جيشنا وبين مطاردته العدو بشدة ، ذلك لأن ما أثارته أقدام كثير من الرجال والجنود من الغبار والتراب ، أزاغت أبصارهم وكادت ان تعميها ، حتى لم تكد ترى شيئا ، فاغتنم العدو وجود هذا الدخان ، واتخذ منه ستارا استخدمه بمهارة فى تحقيق غرضه ، فهاجم قواتنا وفتك بطائفة من مشاتنا ، غير أن سرعة عدو جياد الفرسان ساعدتهم على تجنب أخطار الدخان الكثيف ، فكروا عائدين الى ساحة المعركة ، وجاءهم الغوث من السماء ، فاستمروا فى القتال حتى نجحوا آخر الأمر بفضل تجدد نشاطهم ، فى ارغام العدو المارق على الهروب أمام سيوفهم الظامئة للانتقام ، ولم يكفوا عن مطاردته ، حتى حملوه — وقد اضطربت صفوفه أشد الاضطراب — على الارتداد الى حيث يوجد اخوانهم ٠

كان على مقربه من ساحه المعركه واد صغير ، اذا حل الشتاء غمره السيل المتدفق من قمة الجبل العالية ، وقد تمكن فواتنا من طرد العدو الى ما وراء هذا المجرى المائى ، ولم ينوان رجاله عن بذل أقصى جهدهم فى سبيب أقدامهم فوق تل يعلو هذا السهل قليلا ، وراحوا ينفخون فى الأبواق ، ويدقون الطبول فى محاولة منهم لاستدعاء عساكرهم المشتتة هنا وهناك ، ولكن زعماءنا انطلقوا يتعقبونهم دون أن يتوقفوا ولو لحظة واحدة ، وسرعان ما أدركوهم، وبينما كانت المعركة الكبرى دائـرة اذ أقبل من المؤخـرة الدوق جودفروى وبوهيموند وتانكريد وغيرهم من أشراف الرجـــال ، وقاتلوا كتائب قلج أرسلان واستأصلوا شأفتهم بمعونه الرب •

فى هذه الأثنـــاء تمكنت الطليعة المؤلفـــه من هيج الكبير ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورماندى مع الكثيرين ممن يستحقون الذكر الأبدى ، من حمل العســكر المعادى لهم على الهرب ، فاجتاز هؤلاء المحاربون الوادى ، وأزاحوا العدو عنوة من على الجبل ، وأرغموه مرة أخرى على الفرار ، وقد ضربت الفوضى أجرانها عليه ، ولم يعد قادرا على احتمال الضغط الذى مارســته القوات الصليبية عليه •

ظل كربوغا منذ بدء القتال بعيدا عن ساحة المعركه مرابطا على تل معين ، وكانت الرسل موصولة الغدو والرواح حاملة له أخبار المعركه ، وبينما كان يترقب فى لهفة نتيجة هذا الصراع العام ، اذا به يطالع ـ فجأة ـ اختلال نظام قواته وتفرقها ، وفرار عسكره على وجوههم فى شتى النواحى على غير هدى ، وتفرقهم أيدى سبأ ، فغمره الحزن الممض حين أدرك مدى النكبة التى حلت بهم فنصحه

أتباعه بالعمل بكل الوسائل على ما فيه سلامه ، فغادر المعسكر على عجل لائذا بأذيال الفرار غير عابئ مطلقا برجاله ، ولا مسطرا احدا منهم ، وأحد يتبدل على الدوام الجياد على طول الطريق لتسهيل هروبه ، حتى بلغ نهر الفرات ، فعبره وهو في حال من الفزع الشديد ، فلما بلغ شاطئه الآخر لم يصدق أنه بلغه سالما .

حين شاهدت قوات العدو تخلي قائدها عنها وحرمانها من مساعدته اياها ، زايلتها شجاعتها وتلاشى عزمها ، فاستولى رجالها على كل ما عثروا عليه من الحبل ، وحذوا حذو كبيرهم فأمعنوا في الهروب حتى لا يكونوا طعما لسيوف مطارديهم .

ولم يكف رجالنا عن مطاردتهم الا لحوفهم من أن تنفق جيادهم نحبهم من طول المطاردة ، بيد أن تانكريد وشرذمة ضئيلة معه قصوهم مسافة ثلاثة أو أربعة أميال ، حتى حانت ساعة الغروب فرجعوا بعد أن أوقعوا الفزع الأكبر في قلوبهم .

ابتلت القوة الالهية نفوس هؤلاء الفارين بالخوف ، حتى انهم لم يستطيعوا الصمود لهجمات المعتدين عليهم ولا صدها ، اذ يخالون العشرة من رجالنا آلافا مؤلفة ، كما أنهم لم يجدوا أحدا يهديهم ويأخذ بيدهم أثناء هروبهم أماما ، وتوضح هذه الحقيقة أنه ظهر صدق المثل القائل (١) .

« ليس حكمة ولا فطنة ولا مشورة تجاه الرب » .

وظهر جليا في هذه التجربة ذاتها أن قوما أهل متربة تكاد المجاعة تقضي عليهم يصبحون ذوى بأس شديد ، قادرين بمعونة الرب على هزيمة مثل هذا الجيش الكبير من المحاربين الأقوياء وأن

---

(١) أمثال ، ٢١ . ٢٠ .

ينحقق لهم في معركة واحده فوق كل ما كانوا يأملون ، اذ ينمكنون من دحر حمبع قوة المسرف الذى لا يعرف الرب ..

- ٢٢ -

حين فرع رحالنا من المعركه ومنحتهم السماء النصر ، انفلتوا الى مخيمات العدو فوجدوها زاخرة بكل ما هو ضرورى وما لا غنى لهم عنه ، وعثروا على أحمال كبيره من الأمتعه الشرقيه الغاليه التى بلغت من الضحامه قدرا كان من المستحيل معه عدها وتقديرها ، وهي غنائم من الذهب والفضة والجواهر والحرير والملابس الغاليه، الى جانب الأدوات المزركشة الرائعه الصنعة ، النفيسه المادة ، كما وجدت هناك أعداد ضخمه من الجياد وقطعان الماشية وأسراب الأغنام ، بالاضافه الى مقادير هائله من الأطعمة والحبوب ، وكان ما غنموه شيئا عظيم الوفرة ، حتى لقد نحير من كانوا حتى الآن مملقين أشد الاملاق مادا يأخذون وماذا يتركون ، واستولوا على خيام العدو وفساطيطه التى كانوا فى حاجة ملحة اليها ، لأن ما كان لديهم منها من قبل قد قدم العهد به ورث ، وأبلاه هطول المطر الغزير عليه ، مما جعله فى الواقع غير صالح للاستعمال .

ثم عادوا الى أنطاكية وقد فاضت أيديهم بالغنائم الجمة ، فكان مما عادوا به مما خلفه الأتراك وراءهم حين فرارهم الاماء والأطفال ، كما استولوا على مخيم القائد العام ، وهو قطعة من الابداع فى الصنعة قد نسج أغلبه من أحسن أنواع الحرير المتعدد الألوان ، وكان هذا الفسطاط مؤلفا من حجرات تمتد الى جهات

بعيدة ، ويفصلها بعضها عن بعض الشوارع ، وقيل ان هذه الخيمة كانت تسع لألفين من الرجال لايزاحم الواحد منهم فيها الآخر ولا يضايقه ·

رجع الصليبيون الى المدينة محملين بكل ما أصابوه من الغنائم والأسلاب ، وعدوا يومهم هذا يوم فرحة عامرة بسبب النصر الذى أحرزوه ، وعادوا شاكرين من جادت يده عليهم بالغلبة التى وافتهم بعد طول انتظار ، وبعدما قاسوه من الكوارث ، وما نزل بهم من المصائب العديدة ·

أما الترك الذين لازالت القلعة فى أيديهم فقد أدركوا الآن أن قد حاقت الهزيمة بحلفائهم ، ودارت عليهم الدائرة ، ففقدوا كل أمل كان يراودهم فى نجدة تأتيهم من أى مصدر ، وحينذاك أسلموا القلعة لقادتنا الذين خفقت أعلامهم على شاهق أبراجها ، غير أن الترك اشترطوا عليهم أن يأذنوا لهم بالخروج سالمين ، لايعرض لهم أحد بسوء فى أنفسهم ، ولا فى أولادهم ، ولا فيما ملكت أيديهم ·

ومن ثم تم نصر الصليبيين ، واستحوذوا على القلعة برحمة الرب الكبيرة الشاملة ، وأصبح من كانوا بالأمس الدابر فى شدة الاملاق والجوع : أغنياء كل الغنى اليوم بما ملكته أيديهم من كل طيب ·

لقد مرت عليهم أيام عجاف صار فيها أصلب الحجاج عودا من أصحاب الأسماء الرنانة وذوى الصيت الذائع — ولا نذكر العامة أقول مرت أيام صار فيها هؤلاء وقد ضاقت بهم الحياة ضيقا اضطروا معه الى الاستجداء ومد أيديهم بالسؤال ، وحسبنا أن نذكر منهم كونت هارتمان — أحد نبلاء المملكة التيوتونية — فقد صحا ذات يوم ليجد نفسه فى فقر مدقع ، وأصبح هذا النبيل

العظيم يرى المنة الكبرى أن يتصدق عليه الدوق كل يوم بخبز يجود به عليه من مائدته ٠

وشابهه أيضا « هنرى ديش » ، وكان رجلا فاضلا مرموقا ، اذ كاد — من غير مبالغة — أن يهلك جوعا ، لو لم يستضفه الدوق على مائدته ٠

وفى أثناء هذا الحصار كابد الدوق ذاته مشقة كبيرة قبل المعركة لعدم وجود خيل لديه ، لكنه استطاع بعد لأى ومشقة ، وبعد ان قدم ما قدم من الماسات جمة الى كوست بولور ، أن يحصل منه على جواد واحد يمضى به الى المعركة ، وكان جود فروى وسواه من الزعماء الآخرين قد أنفقوا هم أيضا كل ما كانوا قد جاءوا به من المال ، اذ بذلوه فى أعمال البر والرحمة ، لاسيما ما كان منها متعلقا بالنفقة العامة ٠

وهكذا شهدت ساحة المعركة — يوم نشبت المعركة — رجالا أبطالا ذوى حسب يمضون الى الهيجا مشاة ليس عندهم ظهر يركبونه ، وبعضهم يمتطى الحمير وأمثالها من دواب النقل ، ذلك لأنهم كانوا قد أفنوا كل ما معهم من المال ، وأصبحوا اليوم مملقين ليس لديهم خيل ٠

غير أن الله كلأهم برحمته قبل غروب شمس ذلك اليوم ، فأنزل الهزيمة بالاعداء ، وأغدق على أتباعه المحتاجين من الثروة فوق الذى يشتهون وفوق ما يتصورون ، ومن الواضح ان هذا كان تكرارا لقصة السامرة القديمة حين بلغ ثمن بيع المكيال من الدقيق الطحين والشعير قطعة واحدة من النقود (١) ، ولكن لم يمس المساء

---

(١) هذه اشارة الى ما جاء فى التوراة من خبر نبوءة اليشع بالرخص فى السامرة ، اذ ورد فى الملوك الثانى ٠ ٧/١ « وقال اليشع اسمعوا كلام الرب ، هكذا قال الرب فى مثل هذا الوقت ٠ غدا تكون كيلة الدقيق بشاقل ، وكيلتا الشعير بشاقل فى باب السامرة » ٠

على من لم يكن عنده غير ما يمسك رمقه الا وقد توفر له منه ما زاد عن حاجته وما يكفى أن يقيم أود الكثيرين معه .

ولقد وقعت هذه الوقعة فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو ١٠٩٨ من ميلاد المسيح .

- ٢٣ -

لم يكد القادة يعودون من ساحة القتال ويستتب شيء من السلام والنظام حتى انصرفت همة الجميع للعناية بالكنائس . وكان أشد القوم احساسا بالمسئولية تجاه هذا الأهتمام [أديمار دى مونتل] أسقف بوى المعظّم ، باعتباره راعي الجيش . وعاونه بقيه من فى الجيش من القسس معاونه صادقة مخلصه ، كما أقبل الناس يمدون يد المساعدة عن طيب خاطر ، وبهذا عادت الكنيسة الرئيسة المهداه الى أمير الحواريين وبقيه كنائس أنطاكيــة الى مكانتها التى كانت عليها فى الأصل ، وأقام فيها القساوسة الذين وهبوا أنفسهم على الدوام للقيام بالخدمات الدينية .

كان الترك قد دنسوا الأماكن الطاهرة وأخرجوا منها من كان بها من أهل التقوى ، واستخدموا الكنائس استخداما شائنا . فحولوا بعض هذه الأماكن المقدسة الى اسطبلات للخيل ولغيرها من دواب النقل ، ومارسوا فى غيرها أعمالا دنسة ، وطمسوا صور القديسين المبجلين التى كانت على جدران هذه المواضع ، وأزالوا الرموز التى كانت تقوم مقام الكتب والقراءة لعباد الرب البسطاء. وكان ما طمسوه أشياء تبعث التقوى فى نفوس البسطاء ، فصبّ

الترك عصبهم على هذه الاشياء كما لو كانت أحياء يحسون ، فراحوا يسلمون عيونهم ، ويجدعون أنوفها ، ويطمسون هذه الصور بالطين. ويلوثونها بالقاذورات ، ويهدمون المذابح ، ويدنسون هيكل الرب بنعالهم المستكرهة ، فانعقد الاجماع حينذاك على أن يعود رجال الدين في لحظتهم لممارســة الأعمــال التى كانت مناطه بهم من قبل فى الكنائس ، وأن يجمع المال ليعطوا به المحاربين فى سبيل الرب ، وأن يؤخذ ما عثروا من ذهب العــدو وفضته ويصنعون من ذلك الشمعدانات والصلبان وكؤوس القرابين ، ويرســم عليها صــور مستمدة من الكتاب المقدس ، وتستخدم فى كل ما هو ضرورى ولازم للخدمة فى الكنيسة ، كما قدموا الأقمشة الحريرية لصنع الملابس الكهنوتية وأغطية المذابح .

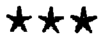
وأعيد البطرك «يوحنا» الصادق الايمان الى أبرشيته ، وكان قد كابد من العذاب على أيدى الترك بعد مقــدم الصليبيين ما يعجز اللسان عن وصفه .

أما المدن المجاورة التى كانت تتمتع بوجود كنائس كاتدرائية بها فقد نصبوا أساقفة يرعونها ، كما وجدوا ــ من ناحية أخرى ــ أنه ليس من اللائق اختيار أو ترسيم بطرك لاتينى فى الوقت الذى كان فيه شاغل هذا المكان الموقر لا يزال على قيد الحياة ، وذلك تحاشيا من وجود اثنين يشغلان نفس الكرسى فى وقت واحــد ، مما يعتبر مخالفة صريحة لقوانين الآباء المقدســين وقراراتهــم المنظمة . على أنه قبل انقضاء عامين غادر البطرك يوحنا بمحض ارادته أنطاكية ، ومضى الى القسطنطينية ، وذلك ادراكا منه أنه لن يكون قادرا ــ كيونانى ــ على أن يحــكم بمطالبــة على اللاتين ؛ فلما غادرها اجتمع رجال الدين والشعب واختاروا بطركا آخر لهم هو برنارد أسقف « أرتاح » من أهل فالنسيا وهو الذى صــاحب أسقف بوى فى هذه الحملة كاشين له .

ثم امتثل الجميع للعهد الذى قطعوه على أنفسهم فى البدايه الا وهو أن تكون السلطه والحكم فى أنطاكيه لبوهيموند ، ففعلوا ما اتفقوا عليه ، ولم يشذ عنهم سوى كونت تولوز ، الذى احتفظ بالبوابه الملاصقه للجسر وبجميع الأبراج المتصله بها ، وأقام فيها حامية من رجاله تتولى أمر حراستها .

على أنه بعد مغادرة الكونت لأنطاكية عمد بوهيموند الى طرد جند [ريموند] من هناك ، وأحل حامية من رجاله محلهم لحراستها ، واستولى على المكان كما سنرى خبر ذلك فيما بعد .

ولقد خلع خاصه رجال بوهيموند عليه لقبا تعظيميا ألا وهو « الأمير » ، الذى أصبح منذ هذه اللحظه لقبا لصاحب أنطاكيه لا يشاركه فيه أحد غيره .



هنا ينتهى الكتاب السادس

●● بهذا ينتهى الجزء الأول من الترجمة العربية لكتاب الأعمال التى تم انجازها فيما وراء البحار أو تاريخ الحروب الصليبية تأليف وليم الصورى ، ويليه الجزء الثانى متضمنا الكتاب السابع حتى الثانى عشر .



الفهرس

● صدر من هذه السلسلة :

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د٠ عبد العظيم رمضان
٢ ـ على ماهر
اعداد : رشوان محمود جاب الله
٣ ـ ثوره يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
٤ ـ التيارات الفكريه فى مصر المعاصرة
د٠ محمد نعمان جلال
٥ ـ غارات أوربا على الشواطىء المصريه فى العصور الوسطى
عليه عبد السميع
٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر ج ١
لمعى المطيعى
٧ ـ صلاح الدين الأيوبى
د٠ عبد المنعم ماجد
د٠ محمد أنيس
٨ ـ رؤيه الجبرتى لأزمة الحياه الفكرية
د٠ على بركات
٩ ـ صفحات مطويه من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى

٣٥ ـ اعلام الموسيقى المصريه عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى

٣٦ ـ المجتمع الاسلامى والعرب حـ ٢
ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

٣٧ ـ النسخ على يوسف
تأليف : د. سليمان صالح

٣٨ ـ فصــول من تاريخ مصر الاقتصــادى والاجتماعى فى العصر العثمانى
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

٣٩ ـ قصة احتلال محمد على لليونان
د . جميل عبيد

٤٠ ـ الأسلحه الفاسدة
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى

٤١ ـ محمد فريد الموقف والمأساة
رفعــت السعيــــد

٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غبريال

٤٣ ـ رحلة فى عقول مصرية
ابراهيــم عبد العزيز

٤٤ ـ الأوقاف والحيــاة الاقتصاديــة فى مصر فى العصر العثمانى
د . محمد عفيفى



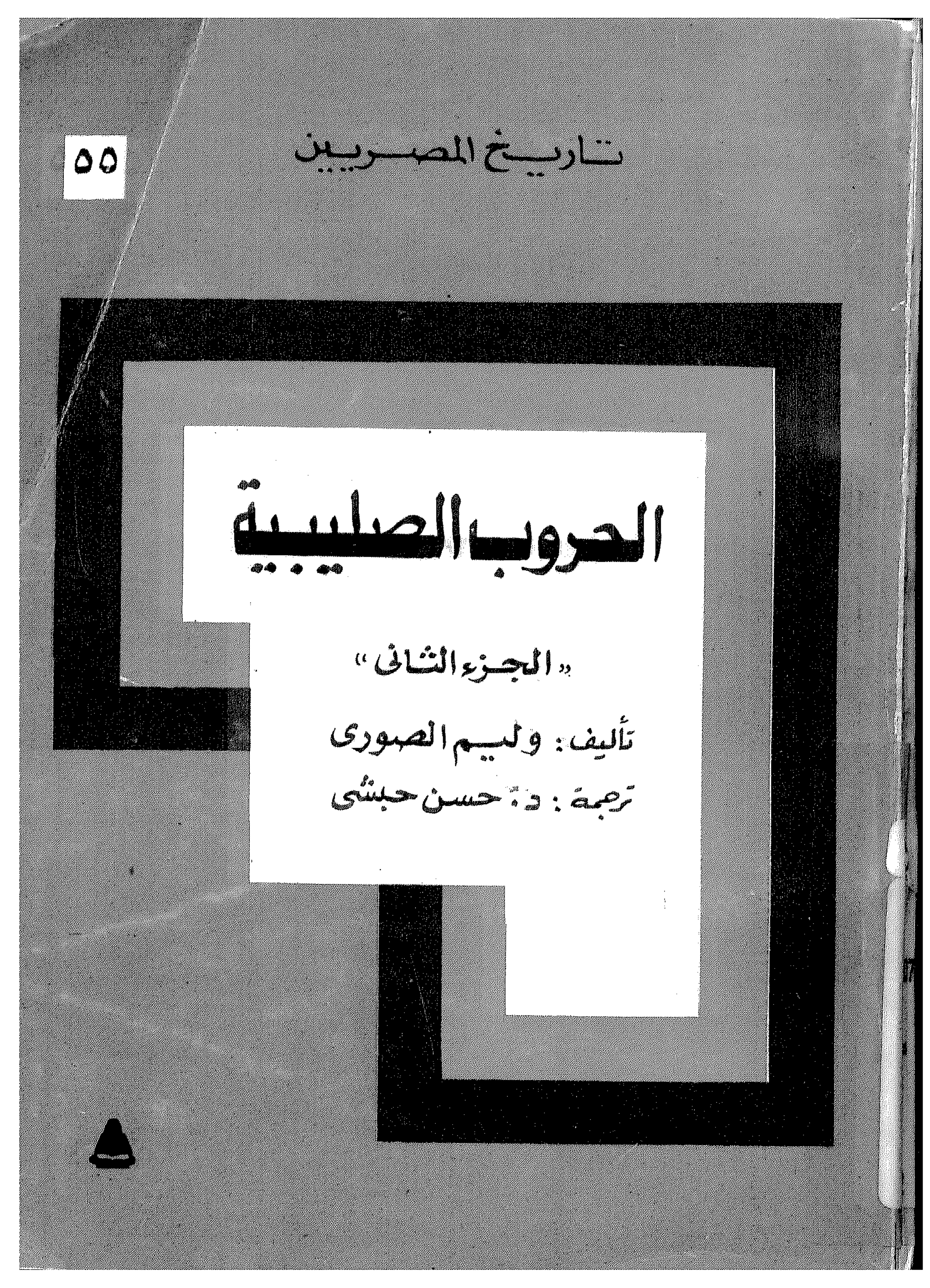


هذا الكتاب ، تاريخ الحروب الصليبية ، عمل علمي كبير لوليم الصوري الذى يعرفه طلاب الدراسات التاريخية كاحد اعظم المصادر فى تاريخ هذه الحروب ، وهو يعالج الفترة التى امتدت من عام ١٠٩٤ - ١٩٨٤ والفترة التى تليها اى على مدى قرن ونصف من الزمان والتى اخذت تتدفق فيها الهجرات الشعبية المسلحة المتسربلة بمسوح الدين والصليب ، وهى التى عرفت باسم الحملات الصليبية .

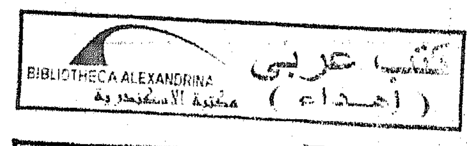
وهذه الترجمة سوف تصدر فى اربعة مجلدات - هذا اولها - اثبت فيها الاستاذ الدكتور حسن حبشي مكانته العلمية وتفرد بقدر عظيم من الدقة التى ترسم للجيل الجديد من المؤرخين الطريق للوصول إلى الاستاذية بمعناها الصحيح .



٣٧٥ قرشا



تاريخ المصريين
٥٥
الحروب الصليبية
"الجزء الثانى"
تأليف: وليم الصورى
ترجمة: د. حسن حبشى


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية
كتاب عربي
(إهداء)

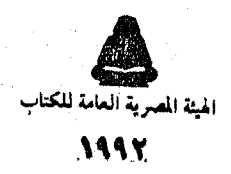


الحروب الصليبية

الجزء الثانى

تأليف
وليم الصورى

ترجمة وتعليق
د. حسن حبشى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

الاخراج الفني : مراد نسيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء الثانى
من كتاب وليم الصورى
عن الحروب الصليبيــة

كتبها الأستاذ الدكتور حسن حبشى

الكتاب الحالى هو الجزء الثانى من أربعة أجزاء من الترجمة العربية لكتاب « تاريخ الحرب الصليبية » المعروف فى الغرب باسم « تاريخ الأعمال التى تمت وراء البحار » لوليم الصورى الذى ختم حياته رئيسا لأساقفة صور ، والذى عاش فى بلاد الشام وفلسطين فى فترة عاصر فيها بعض هذا الصراع العنيف الذى امتد حقبة من الزمن طالت حتى القرن الثالث عشر الميلادى ، شهد خلالها الشرق الاسلامى بل والشرق المسيحى أهوالا على أيدى مهاجرين أوربيين تسربلوا بمسوح الدين والنصرانية ، وان لم يراعوا حتى حقوق المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس، كما أفصحت عن ذلك أحداث ماعرف بالحرب الصــليبية الرابعة التى أزالت الامبراطورية البيزنطيـة

المسيحية دينا ، الأرثوذكسية مذهبا ، لفترة من الزمن بلغت نصف قرن تقريبا ، ولم تشهر هذه الحملة المسماة بالرابعة سيفا فى وجه المسلمين » ، ولاخلصت ــ كما هو مفهوم الصليبية الغربى ــ ارضا من أيديهم بل نزلت كالاعصار الجارف على القسطنطينية التى كانت كنيستها احدى الكنائس الخمس الكبرى فى العالم المسيحى على اختلاف مذاهبه ، فغيرت هذه التجريدة الصليبية من معالم الوجود المذهبى ، وأزالت دولة الروم ولكن لترجع على أيدى ابنائها الذين لم يؤثر فيهم العنت ولا الاضطهاد ولا السيطرة الأوربية ، ولا غلبة المسيحية الكاثوليكية .



ويمتاز هذا الجزء الذى بين يدى القارىء فى صورته العربية بميزتين ، أولاهما أنه امتداد فى أحداثه للجزء الأول ، وثانيتهما انه يتناول فترة عاصرها المؤلف فى شبابه ، وتعرف فيها على موازين الثقل فى توجيه التاريخ السياسى والمذهبى لبلاد الشام فى حقبة امتدت أمدا غير قصير من عمر هذا المشرق .

ويتجلى للقارىء المطامع الشخصية وتحقيق المصالح الذاتية فيما ضمنه وليم فى ثنايا هذا المجلد ، وهى مصالح ارتبطت بالشخصيات القيادية الصليبية وزجت فى أتون معاركها بالجماعات الشعبية وعامة المسيحيين الغربيين ورعاعهم الذين تغلب عليهم الديماجوجية اكثر مما يسيرهم العقل ، فلما طفت هذه الأطماع على السطح ــ حتى قبل استيلائهم على بيت المقدس ــ راح كل زعيم من هؤلاء الزعماء الغربيين ينافس الآخر فى تحقيق ما فيه صالحه ، وأدى ذلك الى ما يسميه وليم « بالشقاق الصليبى » الذى كان فى استطاعة القوى الاسلامية أن توظفه لصالحها ، لكنها اضاعت الفرصة ــ وما أكثر ما تكررت ــ من يدها بسبب الاثرة والأنانية وعدم

رعاية حقوق الرعية ، وتمثل ذلك فى قيام البعض منهم لالتماس معونة هؤلاء الوافدين ، فأحدثوا شرخا فى جبهة كان فى مقدورهم أن يجعلوها جبهة صمود ومقاومة ترد المهاجمين مقهورين ان لم تزلهم ، وما كان هؤلاء الوافدون فى مجموعهم سوى شراذم من الأفاقين ، ساعدها تفكك المسلمين على أن تكون « قوة » وما كانت بالقوة ، كما يتضح من ثنايا هذا المجلد أن عوامل الشقاق الغربى كانت فرصة طيبة لتخليص المسلمين من هؤلاء الغزاة ، كما أن انتشار الأوبئة والطواعين كان فى صالح الجبهة الشرقية التى لم تعرف ـ للأسف ـ كيف تستغل هذه الظروف المواتية .

ويقدم هذا المجلد صورة قلمية عن بدأ قيام « مملكة » صليبية على يد «جود فروى» ، ولو كانت عند الشرق الاسلامى حينذاك نظرة استيعابية دقيقة واعية للظروف المحيطة به وبالصليبيين لأمكن تحويل دفة الأمور الى ما فيه صالح هذا الشرق على يد أبنائه ، ولكن بعض «المسئولين» راحوا يترامون على أقدام الصليبيين ، فكانوا يمدونهم بالمال حينا وبالمعونة فى معرفة الطرق حينا آخر ، حتى مكنوهم من رقابهم ، ولقد وقف أهالى القدس فى بداية الأمر موقفا صلبا شريفا فى وجه الصليبيين الغزاة ، ولم يدخروا وسعا فى صدهم ، ولا تراخت عزائمهم عن مقاومتهم ، كما يشهد الكتاب ، ولكن يد واحدة لا تصفق .

وسقطت القدس غنيمة باردة فى أيدى الصليبيين الذين لم تأخذهم شفقة و رحمة بأحد ما من المقادسة الذين صادفوهم ، فأعملوا فيهم القتل والذبح « حتى فاضت الأماكن بدماء الضحايا » ويصف وليم فظاظة الصليبيين ووحشيتهم بل وهمجيتهم وصفا دقيقا وان حاول تبريره فخانه المنطق فكان تبريرا أعرج .

على أنه باحتلال القدس تبدأ مرحلة جديدة هى المرحلة التنظيمية للوجود الصليبى من الناحية الادارية والدينية والمذهبية ، وبذلك تستقر أقدام الغزاة ليجعلوا من أرض الشام وفلسطين بلدا لهم ، وهم الأغراب عن هذا التراب .

واذا لم يكن عهد جود فروى كملك ، « حام للقبر المقدس » كما لقب نفسه ـ قد استمر طويلا فان الدولة أخذت الجد فى وقفتها على حساب القوى الاسلامية المبعثرة ، كما حاول رجالها فى الوقت ذاته التوسع على حساب القوة البيزنطية ، وهى قوة « نصرانية ، لكن المصالح الذاتية لا تقيم وزنا للدين عند الصليبيين مما يكشف القناع عن أطماعهم الدنيوية وكذب ادعاءاتهم الدينية ، مما أدى الى ظهور قوى « أوربية » أخرى دفعتها أطماعها لأن يكون لها نصيب هى الأخرى من هذا العالم الشرقى ، ومع أن هذه الأطماع كانت فى بداية الأمر قاصرة على بلاد الشام وفلسطين الا أنها سوف تشرئب الى بلاد أخرى كمصر والعراق ، ورتب الغرب خطته هذه على مراحل تكشف عنها مجريات الحروب الصليبية عامة والاتفاقات التجارية ، لولا أن استطاعت مصر الوقوف فى وجه هذه التطلعات الشرهة الآثمة .

ان هذه المقدمة ليست عرضا لمحتويات هذا المجلد لكنها المامة ببعض معالمه ، واننى لأدع الكتاب يحدث قارءه بالكثير والكثير من الأحداث والصراعات وما تمخضت عنه من تركها بصماتها فى تاريخ المنطقة بل والعالم منذ ذلك الحين .

كما اننى أترك القارىء يستشف مايرى من مطالعة هذا الجزء ولا أملى عليه رأيا خاصا ، وسوف يكون لدى القارىء بعد مطالعة

هذا المجلد رأى سوف يســـتكمل ان شاء الله فى المجلدين الثالث والرابع ٠

وأحب أن أشير هنا الى أن الفهرست التفصيلى سوف يكون فى ختام الجزء الرابع ٠

كما أحب ألا يفوتنى الشكر لهيئة الكتاب على قيامها بطبع هذا السفر ، وأرانى مدينا بالشكر للصـــديق الكريم الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان فقد كان حفيا بهذه الترجمة فجعلها من سلسلة تاريخ المصريين التى يشرف على اصدارها ٠

وأرجو من الله العلى التوفيق ٠

القاهرة ــ الدقى　　　　　　　　حسن حبشى

الكتاب السابع

الشقاق بين الصليبيين وزحفهم الى بيت المقدس

فصول الكتاب السابع :

٤ — بلدوين يخـــرج بقوة كبيرة لمقابلة أخيه ، كما أن الزعماء الآخرين يبعثون بالعون والمدد فيهرب رضوان ، ويهلك بعض رجالنا أثناء الزحف ، ويقتل حوالى عشرة آلاف من جند العدو ٠

٥ — الدوق يمضى الى بلد أخيه متجنبا خطر الوباء ، وهنا يخرب قلاع جماعة من الخونة كما يتوجه بعض الزعماء الآخرين الى الرها أيضا لينعموا بكرم بلدوين الباذخ ٠

٦ — أهل الرها يتآمرون ضد حاكمهم ويغضـــبون منه لايثاره اللاتين عليهم ، ولكن خبر هذا التآمر يصل الى سمع بلدوين فيأمر بقتل المتآمرين ٠

٧ — « بلاس » يدبر مؤامرة ضد الكونت الذى يتخذ من الاجراءات ما يضمن سلامته ، ويلقى القبض على طائفة من حلفائه ، ولكن فولبرت دى شارتر يهون من شأن هذه النكبة ، وينتهى الأمر بذبح « بلدوك » المتآمر ٠

٨ — كونت تولوز يستولى على مدينة « البارة » ويقيم أسقفية بها ، دخول سفن تيوتونية فى الميناء وتناقص عدد القوم بســـبب تفشى الموت ٠

٩ — الصليبيون يحاصرون المعرة ويستولون عليها ٠ موت أسقف أورنج وذيوع صيت « جوفيه دى لاتور » ٠

١٠ — الدوق يعود الى أخيه ، ويستأذنه فى الرجوع فيقع فى كمين فى أثناء عودته الى الجيش ولكنه ينجو منه لم ينله أذى ٠

١١ ـ النزاع يشتد فى المعرة بين كونت تولوز وبوهيموند الذى استولى على أملاك الكونت بأنطاكية ، فيجتمع الزعماء فى « الروج » ولكنهم لا يصلون الى قرار حاسم ، ويصارع الناس المجاعة ٠

١٢ ـ اغارة كونت(١) (ريموند دى تولوز) على أرض للعدو واستيلاؤه على ماشيته ، ثم شروعه فى الزحف على بيت المقدس حين رأى نفسه عاجزا عن مقاومة الحاجات الناس أكثر من ذلك ، فينضم اليه فى مسيرته هذه «كونت نرماندى» و « تانكريد » ٠

١٣ ـ اللصوص يهاجمون جيش الكونت (ريموند) أثناء زحفه لكنه يصدهم ببراعة ويستولى عنوة على قلعة حاولت مقاومته ، ثم ينصب معسكره أمام « عرقة » ويفد الى أبواب الزعماء (الصليبيين) رسل البلاد التى حولهم ٠

١٤ ـ وصف « عرقة » وتسلم رجالنا رسالة من بعض أسرانا فى طرابلس يحثونهم على وجوب محاصرة عرقة ٠

١٥ ـ مغادرة فريق من الصليبيين للمعسكر واستيلاؤهم على مدينة « انطرطوس » بالقوة ، ثم عودتهم محملين بالأسلاب الضخمة والاستمرار فى محاصرة عرقة ٠

١٦ ـ وصول (دوق) جود فروى الى اللاذقية وبصحبته كونت فلاندرز وبقية القوات ٠ نجاح الدوق فى تحرير « جينيمار »

---

(١) لقبه وليم الصورى فى الأصل بالدوق ولكن الصواب هو «كونت» ٠

من الحبس كما يعيد اليه أسطوله • وقيام بوهيموند بمرافقة العسكر فى رحيلهم حتى « اللاذقية » •

١٧ ـ الدوق (جو فروى) وجيشه يحدقون بجبلة غير أن مكائد كونت تولوز ترغمه على رفع الحصار وتحمله على الاسراع الى « عرقة » فينضم الى القادة الآخرين ، ولكن حصار هذه المدينة ينتهى بالفشل •

١٨ ـ اثارة موضوع حربة المسيح من جديد ، بطرس (بارتلميو) مكتشف الحربة يمشى وسط النار الملتهبة ولكنه يموت بعد أيام قلائل من ذلك •

١٩ ـ عودة السفراء الذين كان زعماؤنا قد أرسلوهم الى مصر •

٢٠ ـ سفراء من الامبراطور (البيزنطى) يصلون الى الجيش شاكين من بوهيموند ، ويذيعون النبأ بقرب مجىء الامبراطور، والتنازع بين قواتنا • شبوب معركة مع أهل طرابلس ينهزم فيها العدو ، ويعود الصليبيون منتصرين الى معسكرهم •

٢١ ـ صاحب طرابلس يحصل على اتفاقية مع الصليبيين بعد أن دفع لهم مبلغا كبيرا من المال ووصلهم بكثير من الهدايا • ثم يرحل القادة سالكين الطريق الساحلى نزولا على نصيحة المخلصين من سكان تلك النواحى •

٢٢ ـ الصليبيون يعاودون السير مرة ثانية ويمرون ببعض البلاد الساحلية ثم يصلون أخيرا الى اللد والرملة •

٢٣ ـ أهالى القدس يحصنون مدينتهم تحصينا قويا ضد الصليبيين، ويزودونها بالرجال الأبطال وبالسلاح والذخيرة ويخرجون منها معظم سكانها النصارى ٠

٢٤ ـ أهالى بيت لحم يبعثون الرسل الى القادة الذين يوفدون تانكريد الى تلك المدينة فيستولى على كنيستها وعلى الموقع معا ٠

٢٥ ـ الجيش يواصل زحفه حتى يصل الى بيت المقدس ، لكن تقوم مناوشة فى نفس الوقت يهلك فيها بعض من رجال العدو ٠

هنـــا يبدأ

الكتـــاب السابع

الشقاق بين الصليبيين وزحفهم الى بيت المقدس

— ١ —

حين استقرت الأمور فى أنطاكية على هذه الصورة(١) عزم القواد بالاجماع دون معارضة من أحد على ارسال مبعوثين الى الامبراطور يدعونه للحضور بذاته فى الحال لمساعدتهم وفاء بالاتفاق الذى أبرمه معهم من قبل ، وألقوا الى مبعوثيهم أن يخبروه بأن الصليبيين على وشك الزحف الى بيت المقدس ، ويسألونه أن يمضى حالا فى اثرهم حسبما التزم به فى المعاهدة التى أمضاها واياهم ، فان لم يف بشرط الاتفاق أصبحوا فى حل من الالتزام بعهدهم معه ·

واختاروا لهذه السفارة اثنين من نبلائهم ووجوه القوم فيهم ،

(١) راجع الجزء الأول ص ٣١١ — ٣٦١ ·

هما « هيج العظيم » Hugh اخو ملك فرنسا وبولدوين « كونت هينولت » Hainault • الذى اختفى فى أثناء سفره فى معركة قاتل فيها العدو وكان مصيره محوطا بالغموض وموضع جدل ، فمن قائل يقول انه لاقى منيته فى هذا الاشتباك ، الى آخر يذهب للقول بوقوعه فى أسر العدو الذى حمله معه يرسف فى الأغلال الى بعض نواحى المشرق القاصية •

على أن لورد هيج نجح فى تجنب مكائد العدو فوصل سالما الى الامبراطور ، لكنه ــ وا أسفاه ــ عند بلوغه هذا المنعطف كسف بريق أعماله المجيدة بسحابة شديدة القتامة باعدت بعدا كبيرا بينه وبين أمجاد قومه الباهرة ، فاذاكان قد أتى فى أثناء مسيرة الحملة بكثير من أعمال البطولة التى اكسبته مجدا لا يبلى فانه لطخ اسمه الكريم ومرغه فى الوحل فى أثناء هذه السفارة التى أنجزها لمن كلفوه بها ، لكنه لم يأت اليهم بالرد ، ولم يكبد نفسه مشقة الرجوع اليهم فأظهره تقصيره فى أداء هذا الموضوع بمظهر شديد الغرابة تنكره عليه مكانته السامية ، لأن كتاب جوفينال يقول « ان كل شائبة فى الخلق تنطوى فى حد ذاتها على جرم أكبر كلما كبر مقام مرتكبها وعلت مكانته » •

* * *

ما كاد حصار أنطاكية ينتهى هذه النهاية الرائعة بالاستيلاء عليها ، وما كادت أمورها تستقر ويسودها الهدوء حتى ضرب الناس بطاعون لا يعلم أحد أسبابه ، وتزايد عدد ضحاياه زيادة مفزعة ، وفشى حتى قل ان كان ينقضى يوم الا ويخرج الناس لدفن ثلاثين جثة أو أربعين ، والحق أن القلة التى بقيت من الناس بعد الحصار قد تضاءلت حتى كادت أن تكون عدما •

ولقد هاجم هذا الطاعون الخبيث الجميع على اختلاف طبقاتهم، لم يفرق بين صغير وكبير ، وكان من بين الذين ساروا اذ ذاك فى الطريق الذى لابد لكل مخلوق أن يسير فيه « أديمار أسقف بوى »، Adhemar of Puy وهو رجل شريف الخلق ، عظيم القدر ، خالد الذكر ، فبكى الناس كلهم فيه أبا وهاديا لهم ، وشيعه الجميع الى جدثه بزفرات باكية وآهات تصدع الأفئدة ، ودفنوه فى توقير كبير فى كنيسة بطرس الطوبانى فى الموضع الذى يقال انهم وجدوا به حربة المسيح ٠

ولقد فتك هذا الطاعون القاتل فيمن فتك « بهنرى ديش » D'Esch الكريم نسبا السامى خلقا ، فمات ودفن فى قلعة « تل باشر » ٠

كمـا هلك بنفس الـوباء « رينهـولد فون أمـرزباخ » Rhenauld Von Ammershach وهو محارب عظيم شرف قومه بشجاعته الذاتية ، فوورى جسده فى ساحة كنيسة أمير الرسل ٠

وقد تفشى هذا الطاعون أكثر ما تفشى فى النساء على وجه الخصوص ، حتى لقد هلك منهن فيه ما يقرب من خمسين ألف امرأة فى أيام قلائل ٠

وحاول بعض أهل حب الاستطلاع أن يستقصوا أسباب هذا الوباء الملعون فانتهوا الى خواتيم تخالف كل خاتمة منها الأخرى ، فقال بعضهم انه نشأ من جراثيم تسبح فى الهواء ولا تراها العين ، على حين قيل ان الجوع كان قد عض الناس بأنيابه ، فلما تأتى لهم الحصول على الطعام الوفير أقبلوا فى نهم وشـراهة على الأكل تعويضا عن أيام المسغبة ، فكانت بطونهم الجوعى علة هلاكهم ، وأشار هذا البعض الى الحقيقة القائلة ان من كانوا وسطا فى أكلهم

أو تقللوا منه كانوا أحسن حالا من غيرهم ، وأنهم سرعان ما عادوا الى ما كانوا عليه فى السالف من الصحة »(٢) ٠

– ٢ –

فى هذه الأثناء عاد الناس يلحون على قادتهم الحاحا شديدا بمعاودة الاستعداد للسير الى القدس ، وسواء أكان الحاحهم صادرا عن رغبة منهم فى النجاة من الطاعون ، أو كان نابعا عن حبهم للحج الى بيت المقدس التى هى بيت القصيد الذى جاءوا من أجله ، فان الأمر الذى لامراء فيه هو أنهم طالبوا قادتهم بالاستعداد للخروج والسير قدما بجيش السيد لانجاز الغرض الأساسى الذى دفع الجميع لترك أوطانهم ، ومن ثم اجتمع كبارهم وتشاوروا فيما بينهم بشأن رغبة العامة التى رأوها جديرة بالتلبية ٠

وقد اختلف رد الفعل الشخصى للقادة على هذا الطلب ، فرآى فريق منهم أن الواجب يقتضيهم ألا يتوانوا عن الخروج فى ساعتهم ، وبذلك يكونون قد أرضوا رغبات الناس ٠

وأما غيرهم فقالوا ان العقل يفرض عليهم تأجيل الخروج حتى شهر أكتوبر ، وكانوا ناظرين فى ذلك الى ماهم فيه الآن من حر الصيف القائظ الذى لايطاق ، ومن ندرة المياه وقلة ما تحت يدهم من الخيول ، وتضعضع الناس بسبب طول المجاعة التى كابدوها ، وقال أصحاب هذا الرأى ان الناس فى خلال هذه الفترة(٣) يكونون قد حصلوا على مزيد من الجياد ، كما تتاح فرصة من

---

(٢) ذكرت الترجمة الانجليزية أنه لم يمكن تحديد طبيعة هذا الطاعون تحديدا باتا ، وانما كان وباء عم أقاليم البحر الأبيض المتوسط الشرقية ٠

(٣) المقصود بذلك الفترة المنصرمة من هذه اللحظة حتى دخول شهر أكتوبر ٠

الراحة للخيول التى عندهم الآن ، وبذلك يعود الناس الى ما كانوا عليه من قبل بفضل ما نعموا به من الاستجمام والمطعم مما يمكنهم من النهوض بعافية ، ويجعلهم أقدر على تحمل مشاق الزحف ، وقد قوبلت هذه العواطف الأخيرة باستحسان الجميع ، واتفق رأيهم - دون استثناء - على البقاء حتى يحين ذلك الموعد المقترح ·

حينئذاك تفرقوا أملا منهم فى تجنب الموت الذى يهددهم ، كما بدا أنه من المحتمل أيضا أنهم قد يجدون فى هذه الأثناء فى ناحية أخرى غير التى هم فيها الآن وفرة من الميرة ، وأصبح مفهوما لديهم جميعا وجوب عودتهم فى الموعد المضروب دون تأخير ، فذهب بوهيموند الى قيليقية واستولى على مدن طرسوس ، وأذنة ، والمصيصة وعين زربة ، ونصب حكاما من قبله على هذه الأماكن ، وجعل من نفسه الأمير الأكبر على الأقليم بأكمله ·

أما الزعماء الآخرون فقد تفرقوا فى المدن المجاورة بعيدين عن الجيش ، جاعلين همهم استرداد صحتهم وعافية جيادهم ·

كما بادر كثير من أشراف الناس وعامتهم على السواء الى عبور نهر الفرات ، وأخذوا السير فى لهفة قاصدين الرها حيث كان الحكم فيها لبلدوين أخى الدوق ، وكانوا يطمعون فى نواله ورفده ، فأحسن الكونت لقاءهم ، وحباهم بآلائه ، ولم يدخر وسعا ولا قصر فى عطفه عليهم طول اقامتهم فى رحابه ، ثم ردهم فى النهاية الى اخوانهم وقد امتلأت نفوسهم بالغبطة ، وأيديهم بالعطايا الجمة ·

- ٣ -

حدث فى ذلك الوقت أن استجلب رضوان - صاحب حلب - على نفسه نقمة واحد من أتباعه ، وكانت قلعة « أعزاز » فى يد هذا التابع ·

ووصلت الخصومة بين الاثنين حدا حمل الأمير على استد
العسكر من كل النواحي التابعة له ، وضرب الحصار على
القلعة التى أدرك متوليها الا قبل له فى الوقوف فى وجه غ
مولاه القوى الحاذق مالم ينجده الفرنجة ، فأرسل فى الحال و
من خاصته واهل بلده – وكان مسيحيا مخلصاً له – الى اا
(جود فروى) يسأله محالفته ، وزوده بالهدايا اليه ضمانا ا
تأييده ، وزاد بأن وعده أن يخلص له قلبا وروحا ٠

وأبدى رغبة فى أن يرتبط به باتفاقية يلتزم بها التزاما تا
وأفصح عن استعداده لارسال ولده الى الدوق رهينة عنده
يكون على ثقة تامة فيما يقوله ، وحتى لا تخالجه لمحة شك فى اا
بعهده له ٠

وألحف فى الرجاء الى « جود فروى » أن ينهض فى لـ
هذه ليخلصه من الخطر المحدق به ، واعدا اياه أن يجازيه الـ
الأوفى على حسن جميله هذا فى الوقت المناسب ٠

وآتت هذه الكلمات أكلها ، وحركت نفس ذلك الرجل ا
فوثق علاقات المودة بصاحب قلعة (اعزاز) وأظله بعطفه ، و
فأرسل فى لحظته رسلا من جهته الى أخيه بلدوين كونت ا
يدعوه للقدوم عليه بعسكره ليكون عونا له في رفع الحصار ، ا
لذلك الصديق ٠



أما رضوان فقد نصـــب معسكره قبالة قلعة « أعزاز »
خروج الدوق جودفروى من أنطاكية بخمسة أيام ، وكان فى صد
عدد كبير من أخلص أتباعه الذين دعاهم ليكونوا عونا له في المش

الذى يزمع النهوض به ، فتألفت منهم جميعا طائفة قوية خرج بهم مغذا السير لنجدة أعزاز •

أحس رسل صاحب أعزاز الذين بعث بهم الى الدوق أن قد لازمهم التوفيق فى انجاز سفارتهم على أكمل وجه فقد حصلوا على التأييد التام لسيدهم عند الدوق ، على أنه كان من المستحيل عليهم القيام شخصيا باخبار مولاهم بما انتهوا اليه بسبب احاطة العسكر المعادى له للقلعة من كل جانب ، مما استحال معه قيام أحد ما بالدخول اليها أو الخروج منها ، لذلك أطلقوا حمامتين من الحمام الزاجل المدرب على مثل هذه المهمات لايصال الرسالة ، فربطوا فى ذيلى(٤) الحمامتين كتبا تتضمن التفاصيل الوافية عن نجاحهم، ليكون مولاهم على علم تام بكل ما نسنى لهم القيام به ، وما كاد الطائران يطلقان فى الجو حتى طارا خفيفين الى ديارهما ، وهناك أمسكهما المسؤولون عن الحمام الزاجل ومن ربوهما ، وفضوا الرسائل ، وافضوا بمضمونها الى صاحب حلب ، فاستولى عليه الفزع الشديد من العدو المحيط به ، فأيأسه الخوف وفل مقاومته ، ومع ذلك فان قراءته لهذه الرسالة ملأته بالأمل المفرح فى الا خوف عليه ان هو أخذ المبادرة فى مهاجمة عدوه •

— ٤ —

كان الدوق ورفاقه قد قطعوا مسيرة يوم واحد حين صادفهم بلدوين فى طائفة من ثلاثة آلاف مقاتل مدججين بأحسن السلاح ،

---

(٤) يبدو أن هنا خطأ من وليم الصورى فى قوله ان الرسالتين ربطتا الى ذيلى الحمامتين ، فالمعروف أن الرسالة كانت توضع تحت جناح الطائر حفظا لتوازنه ، انظر الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب ، حاشية رقم ١ صفحة ٣٠٢ •

فرحب جود فروى بأخيه ترحيبا يفيض بالحب العميق والود الصافى، وشرح له كل تفاصيل الحملة ، مركزا على وجه الخصوص على محالفة الصـــداقة التى أبرمها مع صاحب « اعزاز » ، فاستصوب بلدوين كل ما قصه عليه أخوه ، وان حذره من أن قواته ليست بكافية لفرض حصار شديد كهذا الحصار الذى يزمع القيام به ونصحه غاية النصح أن يبعث الى القادة المقيمين بأنطاكية - قبل أن يقدم على أى شىء - يرجوهم مساعدته ، لأن مجيئهم اليه يقوى جانبه ويشتد بهم ساعده ، فيتقدم فى تنفيذ مشروعه بمزيد من الثقة ·

استمع الدوق بنفس راضية الى نصيحة شقيقه ، وبعث فى الحال برسول الى كل من بوهيموند وكونت تولوز يناشدهما مناشدة حارة - بحق مابينه وبينهما من روابط الأخوة - أن يهبا من غير ابطاء الى مساعدته فى جهوده القائم بها من أجل حليفه ، وأكد لهما أنه راد لهما هذا الفضل فى الوقت المناسب ، والحق أنه كان قد سألهما هذه المعونة قبل مغادرته المدينة بطريقة فى غاية الود ، والتمس منهما الانضمام اليه ، ولكن الغيرة من أن صاحب « أعزاز » استنجد بجودفروى أولا حملتهما على رفض متابعته والخروج معه ، فلما كانت هذه المرة الثانية عرفا أنه لم يعد بمقدورهما رفض التماس الدوق حفظا لشرفهما ، ومن ثم جمعا قواتهما وخرجا بها فلحقاه فى حملته ، فلما تأتى لجميع القوات أن ينضم بعضها الى البعض بلغت زهاء ثلاثين ألف محارب ·

ويقال انه كان عند رضوان أربعون ألفا من الترك ، ومع ذلك فانه لم يطمئن الى قوته هذه واستولى عليه الفزع من اقترابنا الذى أخبرته عيونه بأنه بات وشيكا ، فسرح جيشه وعاد الى حلب ·

لم تعلم قوات « جود فروى » بفرار العدو فظلت توالى زحفها ،

وتبعها من خلفها كثير من الجند المشاة والفرســـان القادمين من أنطاكية للانضمام للكتائب التى سبقتهم .

ولماكانوا على مسافة غير قصيرة وراء الجيش فقد شاء سوء طالع الكثيرين منهم أن يقعوا فى الكمائن التى كان العدو قد عنى برصدها لهم ، وإذ لم يكونوا مكافئين للترك فى العدد ولا فى البأس فقد تمت الغلبة عليهم فى يسر ومن غير عنت ، فهلك الكثيرون منهم وأسر غيرهم .

ما كاد الدوق والزعماء الآخرون يعلمون بما جرى حتى توقفوا عن الزحف ، واتفقوا على أن يتعقبوا هؤلاء الجناة ، وشاء حسن طالعهم أن يصادفوا الترك قبل تمكنهم من الوصول الى مواقعهم أو بلوغهم الأماكن التى اعتادوا الاختفاء بها ، فكر الصليبيون عليهم بسيوفهم كرة ضاربة ، وسرعان ما فرقوا صفوفهم وشتتوا شملهم وأنقذوا طائفة من رجالنا الذين كانوا قد وقعوا أسرى فى أيدى الترك ، وأســـروا عددا كبيرا من رجال العدو وأعملوا القتل فى الكثيرين منهم .

وفر من نجا فتضاءل عدد العدو حتى كاد ألا يكون شيئا مذكورا، وكان هؤلاء من الصفوة المنتقاة من رجال رضوان وحاشيته ومن خاصته وهم قرابة عشرة آلاف شخص .

بعد أن أحرز جيشنا النصر مضى كله قدما صفا واحدا حتى بلغ غايته ، فخرج للترحيب به صاحب قلعة أعزاز فى ثلاثمائة فارس من فرسانه ، وجثا – على مشهد من الجميع – على ركبتيه ، مطأطىء الرأس ، مزجيا الشكر للدوق أولا ثم للزعماء الآخرين ثانية على مافعلوه ، وأعلن على رؤوس الجميع أنه التـــابع الأمين للقادة الصليبيين ، وقطع على نفسه يمين الود مؤكدا أنه لن ينكث بشىء

من هذا العهد ، أو يخرج على تلك الطاعة ، أو يشجب الوفاء لهم مهما تغيرت الظروف أو تبدل الزمن ٠

وهكذا أدى الدوق لحليفه المساعدة المرجوة ، وانتهى الأمر على خير ما تكون النهاية ، واذ ذاك انقلب بلدوين ــ أخو الدوق ــ راجعا الى الرها ، وعاد الجيش الى أنطاكية ٠

ـ ٥ ـ

لما كان الوباء لايزال منتشرا فى أنطاكية ، والموت متفشيا بين سكانها ، وتزداد حدته يوما بعد يوم ، فقد قرر الدوق أن يستجيب لدعوة أخيه له ليزور بلده الرها ، وكان بلدوين يلح على «جودفروى» ــ أثناء اشتراكهما فى الحملة الأخيرة ــ أن يتقبل رجاءه ويتجنب قيظ أغسطس ، ويفر من عدوى الوباء المنتشر فى الجو ، ومن ثم اصطحب الدوق معه فى سفرته هذه بطانته الخاصة وطائفة كثيفة من فقراء الناس الذين كان يرى لزاما عليه اعالتهم ، ونزل بهم أرض أخيه ، واستقر واياهم فى ناحية تل باشر(٥) وحطب وراوندال حيث يغدو ويروح كيفما شاء ، وينعم بين آن وآخر بصحبة أخيه ٠

وكثيرا ماحدث أثناء مقامه هنا أن قدم عليه أهل تلك النواحى من المتدينين لاسيما الزهاد المقيمون بالأديرة الكثيرة المتناثرة بها ، مستصرخين به من أخوين أرمينيين هما « بكراد » Pahard

---

(٥) فى الأصل Hatab ولم استطع الاستدلال على مرادفها فى العربية الا ن تكون « الحثا » التى أشار اليها ياقوت ومراصد الاطلاع ، انظر فى ذلك Le Strange : Palestine Under Moslems P. 450.
أو لعلها « عينتاب » القريبة من تل باشر ٠

و « كوراسيلويوس »(٦) Corasilius (أو كوخ فاسيل) ، وكانا من ذوى المكانة الرفيعة فى قومهما ولكنهما كانا غاية فى الدهاء والمكر ، وكان بأيديهما قلاع حصـــينة قوية من قلاع هذا الاقليم يعتمدان عليها كل الاعتماد . فكلفا السكان من أمرهم شططا ـ لاسيما أهل الأديرة ـ بابتزازهما الأموال الطائلة منهم بغير حق ، وبلغ عسف هذين الكبيرين غايته حين راحا يقطعان الطريق على سالكيه ويسلبانهم ما يحملون ، وكان ممن تعرضا لهم رجال بعثهم كونت الرها بالهدايا الى أخيه الذى كان لايزال اذ ذاك مشددا الحصار على أنطاكية ، وعمدا الى هذه الهدايا التى كانت مخصـــصة للدوق « جودفروى » ، فارسلاها الى لورد بوهيموند كسبا لتأييده لهما ضد بلدوين كونت الرها ، فلما سمع الدوق الشكوى غلا مرجل غضبه عليهما ، وبعث على الفور ضدهما رهطا من خمسين من خاصة فرسانه ، مع طائفة من أهل تلك الناحية ، فاقتحموا كلهم قلاعها بقوة السلاح وسووها بالأرض ، لتخضيد شوكة هذين الكبيرين ـ ولو الى حدما ـ وحملهما على الكف عن سفههما الذى لم يعد محتملا .

وقد وفد على الدوق أثناء مقامه فى هذا البلد رهط كبير من أبرز رجال جيشنا ، كما تزاحمت على بابه أعداد ضخمة من العامة راحوا يتدافعون طمعا فى نواله وفيض يديه ، وليدرأ عنهم الفقر المدقع الذى ناء عليهم بكلكله ، وأرهقهم أمدا طويلا ، وكان ذلك منهم على وجه الخصـــوص بعد أن صـــارت قلعة عزاز تحت حمايتنا ، وهى القلعة الواقعة فى منتصف الطريق المؤدى الى الرها . فرحب الكونت بهؤلاء القوم أجمل ترحيب ، ثم ردهم بعد أن أغدق عليهم هداياه الجمة ، مما أثار دهشة الجميع ومن جاءوا الى هنا يلتمسون فضل عطائه .

---

(٦) ذكرت الترجمة الانجليزية ، جـ ١ ص ٣٠٤ حاشية رقم ٩ ، أنه ينعت « يكوخ » أى اللص ، ثم عادت وأشارت الى أن هناك من ينكر هذا النعت .

أخذت زرافات الصليبيين تتوالى فى القدوم الى الرها أرتالا بعضها فى اثر البعض ، حتى تبلبلت خواطر الأهالى جزعا من جموع اللاتين هذه ، وعلى الرغم مما لقيه هؤلاء الضيوف من كرم مضيفيهم الكبير الا أنهم سرعان ما أصبحوا مصدر ازعاج بسبب سلوكهم الذى كان ملؤه التحدى . كما راح بلدوين - من ناحية أخرى - يقلل من اعتماده على مشورة النبلاء المحليين الذين كان لهم الفضل فى استحواذه على تلك المدينة العظيمة ، مما أثار حنقا بالغا ضده ، وضد بنى جنسه ، وندمت رعيته أشد الندم على أن جعلوا له الحكم فيهم ، يوم وضعوا زمام الأمور فى يديه ، وساورهم الخوف ، فلما رأوا الا نهاية لمطامعه وتطلعاته خافوا ان ينتهى الأمر به أخيرا الى تجريدهم من كل شىء يملكونه ، ومن ثم راحوا يحيكون ضده مؤامرة مع بعض ولاة الناحية الأتراك ، ويرسمون خطة تؤدى الى اغتياله دون توقع منه حتى يبدو الأمر وكأنه جرى بمحض الصدفة ، فان لم تسعفهم المؤامرة بقتله فلا أقل من أن تنتهى بطرده من المدينة واخراجه منها ، وحملتهم هذه المحاولة على أن يودعوا كل ثرواتهم وجميع ما يملكون عند أصدقائهم من أصحاب القلاع والمدن المجاورة ، وبينما كانوا منهمكين انهماكا دقيقا فى تنفيذ مخططاتهم هذه اذا بكلمة عن هذه المؤامرة تصل الى سمع بلدوين نقلها اليه أحد أصدقائه الأوفياء ، فلما تقصى الكونت الخبر وتجمعت بين يديه البراهين التى لا تجحد عن صدق هذا المشروع بعث قوة كبيرة من خاصة رجاله للقبض على المتآمرين وتقييدهم واعتبارهم قتلة ، وأدت اعترافاتهم الى كشف كل جوانب القضية ، واذ ذاك أمر بسمل عيون زعماء المؤامرة ، وحكم على من دونهم جرما بالنفى من المدينة ومصادرة أملاكهم ، أما غير هؤلاء وهؤلاء فقد تفضل بالاذن لهم بالمقام فى الرها مع الزامهم

بدفع غرامة مالية ضخمة صادر بها كل ما ملكته أيديهم وجعله ملكا خالصا له لايشاركه فيه مشارك ، واستطاع الكونت بهذه الوسيلة أن يحصل على قدر من الذهب بلغ عشـرين ألف قطعة ، سخى بها كلها على ضيوفه (اللاتين) الذين أدت مساعدتهم اياه الى سيطرته على البلاد والقلاع المجاورة حتى أصبح ذكر اسـمه مبعث فزع للمدن وسكان تلك الناحية ، مما حمل الكثيرين منهم على العمل جديا لتدبير ما فيه هلاكه ، حتى لقد فر حموه خلسة الى الجبال معتصما فيما له بها من المعاقل ، وذلك خوفا من أن يلح فى مطالبته بما تبقى له عنده من مهر ابنته الذى كان قد تعهد له بدفعه ، ولكن لم يف له بعهده حتى الآن ٠

— ٧ —

كان هناك شريف تركى الجنس اسمه « بالاس » يعيش فى تلك الناحية من البلاد ، ولى ذات مرة حكم مدينة « سروج » ، وقد ارتبط مع الكونت بحلف صارت الصداقة بمقتضاه بين الاثنين على أتم ما تكون الصداقة بين خدنين ، وذلك قبل وصول اللاتين فى هذه الأعداد الضخمة ، ثم لاحظ هذا الرجل تضاؤل ود بلدوين نحوه ، فذهب الى الكونت لأمر فى نفسه ، مدعيا انه يرجوه أن يتفضـل مشكورا بالحضور اليه ليتسلم بنفسه القلعة الوحيدة التى لازالت باقية فى حوزته ، وربما كان مدفوعا للقيام بهذا العمل باحساسه بالضيق ، أو ربما كان ذلك نزولا على التماس الأهالى ، وصرح لبلدوين انه قانع بعطفه عليه ، وانه يعتبر ذلك جميلا يسديه اليه ويقدره هو كل التقدير له ، وأنه غاية ما يتمناه ، وأعلن اليه أنه معتزم احضار زوجته وأطفاله وكل ما تملك يمينه الى الرها ، وتظاهر بانه فى خوف مقيم من أهل بلده لما بينه وبين الصليبيين من روابط

الود الأخوى ، وراح يلاحق الكونت لتحقيق اربته ، راجيا أن يضرب له بلدوين يوما يزور فيه ذلك المكان ، فلما جاء اليوم المحدد خرج الكونت على رأس مائتى فارس من فرسانه وسار الى القلعة وقد سبقه اليها « بالاس » الذى عمد سرا الى تقوية وسائل الدفاع عن القلعة ، فرتب بداخلها مائة فارس معلمين ، وزودهم بأقوى سلاح ، وأخفاهم داخل ذلك المكان بصورة لم يظهر معها أى واحد منهم ٠

فلما أصبح بلدوين أمام القلعة التمس منه « بالاس » أن لا يدخلها الا فى رهط قليل جدا من رجاله ، مبررا هذا بخوفه من الخطر على موجوده ان دخل الفرسان كلهم معه ، ونجحت توسلاته فى حمل الكونت على الرضوخ لكل ما طلبه منه « بالاس » ، غير أن حسن حظ بلدوين ابى الا أن بعضا ممن معه ـ من أهل الحجا والعقل ـ توجسوا خيفة وخشوا أن يكون الغدر وراء ذلك الالحاح ، فحالوا بالقوة بين الكونت ـ رغم احتجاجه ـ وبين السماح له بدخول الحصن ، وكانوا على حق فى شكهم فى نوايا هذا الرجل الخسيس ، ورأوا السلامة تقتضى تقديم نفر سواه أولا ليعرف ماذا يكون مصيرهم ، فاستجاب الكونت لهذه المشورة الحكيمة ، وأمر أن يدخل المكان اثنا عشر رجلا من أشجع رجاله وعليهم من السلاح أحسنه ، على أن يقف هو مع بقية رجاله ساكنين فى الخارج على مقربة من المكان يرقبون ماذا تكون خاتمة التجربة ، فما جاوز هؤلاء الفرسان الأشاوس عتبة المكان حتى وقعوا ضحية الخيانة الدنيئة التى دبرها بالاس الخبيث ، اذ طلع عليهم الأتراك المائة الذين أشرنا اليهم من قبل من مخابئهم وهم فى كامل سلاحهم ، وأمسكوا بالفرسان الذين جازت عليهم الحيلة غدرا ، ولم تفلح مقاومتهم فوقعوا فى أسرهم فقيدوهم بالسلاسل ، فكان حزن الكونت شديدا ، وأفزعه مآل رجاله الأوفياء اذ فقدهم بهذه المكيدة القذرة ، فراح

يدنو من الحصن حتى صـــار أقرب ما يكون اليه ومضى يهتف ببالاس ، مذكرا اياه بيمين الولاء الذى قطعه له على نفسه ، وحاثا اياه على اعادة الأسرى الذين أخذهم غدرا ، ووعده بقدر كبير من المـــال فـــدية لهم ، فأبى بالاس كل الاباء الا اذا رد الكونت عليه « سروج » فلما أيقن بلدوين عجزه عن عمل أى شىء أكثر من هذا لوقوع القلعة على أرض شديدة الانحدار واستحالة اقتحامها بسبب شدة حصانتها واحكام بنائها استبد به الغضـــب أن يأخذ بالاس رجاله أسرى ، وانقلب راجعا الى الرها يفكر مليا فى الخديعة التى جازت عليه •

فى ذلك الوقت كانت مدينة سروج المذكورة حالا فى حراسة « فولبيرت دى شارترز » صاحب الخبرة الكبيرة فى فن القتال ، وكان معه حامية مؤلفة من مائة فارس فى كامل عدتهم الحربية ، مجهزين تمام التجهيز للعمل ، فلما سمع بالحيلة التى جازت على مولاه تفطر قلبه رحمة به ، وشرع يخطط جديا كيف يرد هذه الاهانة، فنصب ـ ذات يوم لهذا الغرض ـ أمام قلعة بالاس كمينا تخير له بقعة ملائمة كل الملاءمة لمشروعه ، ثم تعمد أن يخرج فى شرذمة قليلين من الحرس اقترب بهم من الحصن بصورة يخيل لرائيها كما لو كان يحاول نهب قطعان من الغنم• أما غرضه الحقيقى فهو أن يغرى العدو بمطاردته ، فلما رأت الحامية التى بالداخل أنه يحاول سرقة القطعان من سرحها هبت الى سلاحها ومضت تطارده ، فتظاهر « فولبيرت » بالفرار فألح العدو فى تقصيه حتى جاء عند الكمين الذى كان رجاله مختفين به فبرزوا من مخبئهم ، فاشتد عزم فولبيرت بهم وكر راجعا على مطارديه وهاجمهم ، فقتل بعضهم ، ونجا غيرهم بشق النفس ، ففروا الى الحصن معتصمين به ، ولكنه أسر منهم ستة نفر •

وتم بعد وقت قصير تبادل الأسرى بين الجانبين ، واسترد

« فولبيرت » ستة من الصليبيين مقابل من اسرهم ، كما نجح اربعة من نفس الاثنى عشر فى التخلص من حراسهم واسترداد حريتهم ، أما الاثنان الباقيان فقد قطعت رقابهما بأمر من ذلك الرجل الخبيث الفاسق ٠

ولقد أخذ بلدوين منذ ذلك اليوم يرفض عقد أى حلف صداقة مع الترك ولم يعد يثق بأيمانهم ، وقدم الدليل الواضح على ذلك بعد قليل ٠

* * *

كان فى نفس الناحية أمير تركى آخر اسمه « بالدوك » هداه تفكيره أن يبيع للكونت (بلدوين) مدينة سميساط القديمة المنيعة التحصين ، وكان « بالدوك » التزم حسب نص الاتفاق المبرم بينه وبين الكونت على أن يحضر زوجته وأولاده وكل أهل بيته الى الرها ، غير أنه كان يقدم من الأعذار المقبولة كل مرة ما أرجأ معه الوفاء بعهوده هذه ، كل ذلك ارتقابا منه لفرصة تسعفه بانزال الضرر ببلدوين ، وحدث فى أحد الأيام أن جاء الرجل الى الكونت ليقدم كعادته عذرا تافها يبرر به تأخره فى الوفاء بما وعد ، فما كان من بلدوين الا أن أمر باطاحة رأسه ، واستطاع بهذا العمل الوجيز أن يمنع امكانية حدوث خيانة اخرى فى المستقبل ٠

ـ ٨ ـ

بينما كان جودفروى لايزال مقيما فى ناحية تل باشر ، وبينما كانت الأحـــداث التى ســـجلناها حالا تجرى فيما حول الرها ، اذا بكونت تولوز ينهض من أنطاكية وفى صحبته أتباعه وطائفة كبيرة من فقراء الناس بها ، واذ كان حريصا على الا يبقى ساكتا

خلال فترة سيره هذه ، فانه قام بحصار « البارة » وهى من المدن القوية التحصين فى ولاية « أفامية » التى تبعد عن أنطاكية مسيرة يومين تقريبا ، فلما تم لريموند غزو جميع الاقليم المجاور له وسقوط «البارة» فى يده ، نصب فيها أسقفا هو بطرس النربرنى أحد خاصته، وكان رجلا ورعاً طاهر السيرة ، كريم الخلق ، فوهب (ريموند) للأسقف الجديد فى لحظته هذه نصف المدينة ونصف ضاحيتها شكرا لله على ما أثابه من أن أصبح للشرق أسقف لاتينى ٠

واستجاب بطرس لتوجيهات الكونت فشخص الى أنطاكية لتتم فيها مقاليد الترسيم ، وهناك تقلد جميع الصلاحيات الكنسية ، وحدث فيما بعد - حين أخذ برنارد فى تنظيم الكنيسة بأنطاكية - ان نقل بطرس - وهو أول بطرك لاتينى للمدينة - تبعية مطرانيته الى تلك الكنيسة ، وأصبح هو ذاته كبير أساقفتها ، كما تسلم شارة الترسيم من يد برنارد ٠

كان فى رفقة كونت تولوز حينذاك شريف اسمه « وليم » شاء حسن طالعه أن يأسر - لحظة الاستيلاء على مدينة انطاكية - زوجة واليها ياغى سيان وطفلين صغيرين لابنها شمس الدولة ، فبقى ثلاثتهم فى رعاية «وليم» الذى بسط عليهم ظل رعايته، فافتداهم شمس الدولة منه بقدر كبير من المال ، فلما تسلم وليم الفدية أطلق سراح السيدة والطفلين وردوا الى حريتهم السابقة ٠

* * *

كذلك حدث قرب هذا الوقت أيضا أن أرست بميناء السويدية طائفة كبيرة من الناس تقدر بألف وخمسمائة شخص ، وكان رسوهم فى أعقاب رحلة حالفهم فيها التوفيق ، وأصلهم من اقليم « راتسبون »

من بلاد التيوتون(٧) ، لكن مالبث هؤلاء القوم جميعا ان ضربهم الطاعون الذى كان منتشرا اذ ذاك ، فماتوا فى فترة وجيزة ، وقد ظل هذا المرض الخبيث يفتك بالناس طوال ثلاثة أشهر متتالية حتى مستهل ديسمبر ، وفنى بسببه أكثر من خمسمائة رجل من طبقة الفرسان وحدهم ، أما ضحاياه من العامة فكانوا فوق الحصر •

ـ ٩ ـ

عاد الى المدينة يوم أول نوفمبر جميع القادة الذين كانوا قد غادروها فرارا من الطاعون حسب اتفاقهم على ذلك ، وكانت مدينة البارة قد سقطت فى أيديهم كما ذكرنا من قبل ، ثم جاء اجماعهم الآن على قبول الاقتراح القاضى بمهاجمة « المعرة » ، وهى مدينة شديدة المناعة بفضل تحصيناتها القوية ، وتبعد عن « البارة » ثمانية أميال ، وكان من الضرورى خلال هذه الفترة القيام بشىء من التحرك نظرا لالحاح الناس الدائم على قادتهم بوجوب متابعة الزحف الى بيت المقدس ، وهو الحاح لم يكن فى الاستطاعة التهرب منه ، ومن ثم اتخذت الاستعدادات اللازمة ، حتى اذا وافى اليوم المقسوم خرج كونت تولوز وكونت فلاندرز وكونت نرماندى ، كما نهض الدوق (جودفروى) ومعه أخوه استاس وتانكريد ، وزحفوا مجمعين العزم على حصار مدينة المعرة التى كان أهلها شديدى الدل والتفاخر بثرائهم الفاحش ، وزاد من تيههم تباهيهم بأنهم فتكوا ذات مرة من قبل بعدد كبير من رجالنا ، وهو فتك عدوه نصرا باهرا لازالوا يعتدون به اعتدادا حملهم على الاستهانة بالجيش الصليبى وتجريحهم قواده بالاهانات المؤلمة يصبونها عليهم صبا ، حتى انهم

---

(٧) تشير الترجمة الانجليزية (ج١ ص ٣١٠ ، حاشية رقم ١٢) الى أن العهدة على « البرت ديه » فى هذا الخبر •

رفعوا الصلبان على حصونهم وابراجهم ازدراء منهم بشـــعبنا ، وتمادوا فى غيهم فأخذوا يبصقون على الآثار المقدسة ٠

واذ بلغت هذه الفعال منهم حد انتهاك حرمة الأحرام الطاهرة فقد فاضت نفوس الصليبيين غيظا ، وتسعرت حنقا فلم يملكوا منع أنفسهم من القيام بشن سلسلة من الهجمات العنيفة على المدينة التى كان من الممكن سقوطها فى أيديهم غداة وصولهم لو كان قد توفر عندهم الكافى من السلالم ٠

* * *

ولما كان اليوم الثالث انضم اليهم بوهيموند بامدادات كبيرة ، واستمر فى محاصرة المدينة فأحدق بالجانب الذى ظل مفتوحا منها حتى هذه اللحظة ، وبعد بضعة أيام من وصوله تأفف الحجاج لطول توقفهم عند المعرة من غير طائل ، فصـــــنعوا أبراجا خشـــبية ، وأرادوا حمايتها فنسجوا لها عصائب من الليف جعلوها جدائل كسوها بها ، ثم نصبوا آلات الرمى ٠

غير أن صبرهم ارفض لطول تأخرهم وضـــاقوا به ذرعا ، وانطلقوا يقصفون المدينة هذه المرة قصفا فاق كل قصف سبقه ، فقاومهم المدافعون الواقفون خلف الأسوار مقاومة عنيفة ، باذلين فى ذلك غاية جهدهم ، وراحوا يرمون أعداءهم بشتى صنوف القذائف ، حتى اذا يئسوا من طرد العدو من تحصيناته راحوا يقذفونه بالحجارة وخلايا النحل وهى تشغى به ويرمونهم بالنيران والكلس ، ولكن الرحمة الالهية الواســعة لم تمكنهم من أن يوقعوا الضرر ــ اذ وقع ــ الا برهط قليل من رجالنا ٠

تبين الآن بوضوح تام أن جميع جهود المدافعين راحت هباء ، وأن قوتهم أخذت تتضعضع مما شجع الصليبيين على أن يشددوا الحصار عن ذى قبل ، وراحوا يقذفون المدينة من كل ناحية ، واستمر الهجوم بلا انقطاع من مطلع النهار الى غروب الشـــمس ، فدب الارهاق فى أبدان المدافعين وأضناهم ما صرفوه من جهد عنيف ، فتراخى بأس مقاومتهم ، وقل عزمهم ، وحينذاك نصب الصليبيون السلالم على الأسوار فنجحوا فى عبور الخنادق بالقوة ٠ وكان أول المتسلقين « جلفيروس » المعروف « بجوفيبيه » « البرجى » وهو من أشراف أبراشية « ليموجس » وتبعه كثيرون غيره ، فسقطت فى أيديهم بعض الأبراج ، ولكن حال دخول الليل دون متابعتهم عملهم والاستحواذ على المدينة بأكملها ، ولذلك أجلوا هذا الأمر الى الغد، واستعدوا لمعاودة الهجوم مع مطلع الفجر ـ واستمر الفرسان ـ ومعهم عدة طوائف من الرجال البارزين ـ يقومون بمراقبة ما حول المدينة طول الليل منعاً للعدو من مغادرتها ٠



على أنه حدث فى هذه الأثناء أن ضاقت العامة ذرعا بالجهد الطويل الذى بذلوه ، وأضنتهم قســـوة المجاعة التى طال أمدها ، فاقتحموا البلد دون علم من كبارهم ، مغتنمين فرصة عدم ظهور أحد من الأعداء على أسوار المدينة التى بدت لهم وقد لفها الصمت المطبق ، فدخلوها ، فاذا هى بلا مدافع عنها ، فامتدت أيديهم الى الغنائم تنهبها، وانصرفوا خلسة يحملونها معهم ، وكان الأهالى اذ ذاك قد فروا الى الخنادق التى تحت الأرض لضمان سلامتهم وحفاظا على أرواحهم ولو الى حين ٠

ولما طلع الصباح هب القادة واستولوا على المدينة من غير كيد ، ولكنهم لم يجدوا أسلابا كبيرة يأخذونها معهم ، وتبين لهم

أن الأهالى قد اختفوا فى السراديب فأضرموا حولها نيرانا تعالت فعقدت سحبا كثيفة من الدخان حملت الهاربين على الاستسلام ، ملقى القتل بعض من اضطروا لمغادرة المخابىء ، وأسر سواهم ٠

ومات فى هذا الحصار وليم أسـقف أورانج الطيب الذكر المخلص للرب ، الخائف منه ٠

وبقى الدوق ومن معه فى المعرة خمسة عشر يوما ، ثم عاد الى أنطاكية حيث تطلبت شئونه الخاصة عودته هذه ، وكان فى معيته فى الرجوع كونت فلاندرز ٠

— ١٠ —

رأى جودفروى دوق اللورين فى هذه الأثناء أن الناس يعدون العدة للخروج ، وأنهم دائبو الالحاح على القادة لمواصلة زحفهم شطر بيت المقدس ، غير أنه عزم قبل مغادرته تلك الناحية على زيارة أخيه ليسعد بالحديث معه ، ومن ثم خرج مع حرسه الخاص الى مملكة بلدوين ، وبعد أن انتشت نفسه بلقائه اياه ، وفرغ من الأمر الذى جاء من أجله ، استأذنه فى الرحيل وانقلب راجعا الى أنطاكية حيث كان القادة الآخرون فى انتظاره ، فلما كان على بعد خمسة أميال أو ستة من المدينة استلفتت نظره بقعة مخضرة لطيفة يجرى بجوارها نبع يتدفق منه الماء عذبا فراتا ، فترجل عندها عن جواده ليتناول طعامه ، وبينما كان رفاقه مشغولين بعمل مثل هذه الترتيبات بقدر ما يسمح الزمان والمكان اذا بكوكبة من فرسان العدو تبرز لهم فجاة من بين عيدان القصب المتشابكة ، وكانت مدججة بالسلاح من رأسها الى أخمص قدميها ، فاندفعت نحو الدوق ورفاقه وهم متحلقون حول طعامهم ، فهب الدوق ورفاقه الى سلاحهم قبل أن يصل الترك

اليهم ، ووثبوا على صهوات جيادهم ، ونشب فى أعقاب ذلك قتال خرج منه الدوق بفضل الرب منصورا ، اذ تمكن من قتل الكثيرين منهم ، وأرغم بقيتهم على الفرار ، ثم تابع سيره الى المدينة مظفرا منصـــورا ٠

- ١١ -

حدث بعد الاستيلاء على المعرة أن شـــب خلاف عنيف بين بوهيموند وكونت تولوز الذى اقترح تسليم المدينة المفتوحة الى أسقف البارة ، فأبى بوهيموند أن يستجيب لاقتراح ريموند بالتنازل للأسقف عن ذلك الجزء من المدينة التى استولى هو بنفسه عليها الا اذا وافق الكونت أولا على أن يسلمه الأبراج التى لازالت فى قبضته بأنطاكية، وانتهى الأمر أخيرا الى انصراف بوهيموند عن القتال فى المعرة ، وعاد غضبان حنقا الى أنطاكية حيث استولى عنوة على الأبراج التى كان أتباع الكونت ريموند قد حصنوها ، وكانت لم تزل فى يدهم بعد أن أخرجوا قسرا منها المدافعين عنها ، واستطاع (بوهيموند) بهذه الحركة السريعة أن يستولى على المدينة كلها وجعل من نفسه سيدها ولا سيد لها سواه ٠

ولما رآى الكونت أن خصمه قد انسحب مما ترتب عليه أن أصبح فى قدرته هو وحده أن يقضى فى المدينة المفتوحة بما شاء فقد أقطعها لأسقف البارة حسب عزمه فى الأصل ، ثم شرع فى مفاوضة الأسقف بشأن حماية المكان من العدو ، وأقام حراسا من الفرسان والمشاة قبل أن يكشف الناس(*) خطته ، فلما كشفوها سخطوا عليه

(*) يقصد الصليبيين ٠

أشد السخط ، وعمت شكاية بعضهم لبعض من أن القادة يحاولون على الدوام اختلاق معاذير يبررون بها تراخيهم ، وقالوا انه يبدو أنهم نسوا تمام النسيان هدفهم الأصلى من أمر حجهم ، وذلك لأنه مامن مدينة كانت تقع فى أيدى الزعماء حتى كانوا يتشاحنون فيما بينهم حولها ويختلفون عمن يملكها منهم ، لذلك قام العامة من تلقاء أنفسهم بعقد اجتماع من بينهم أسفر عن قيامهم بتخريب مدينة المعرة حالما يبعد الكونت عنها لأى سبب من الأسباب ، وكان هدفهم من هذا التدمير أن يزيلوا أى عائق يعوق المشروع الذى اقسموا الأيمان على انجازه ٠

وحدث فى هذا الوقت(٨) بالذات أن اجتمع القادة فى مدينة الروج الواقعة فى منتصف الطريق بين انطاكية والمعرة ، وكان الغرض من اجتماعهم هذا هو النظر فى طلبات العسكر الملحة بوجوب متابعة الحج ، وحدث أن تلقى الكونت (ريموند الصنجيلى) دعوة لحضور هذا الاجتماع فحضره ، واختلفت آراء القادة كلهم ، وتباينت حول هذا الموضوع تباينا أدى الى عدم وصولهم الى اتفاق مثمر أو قرار مفيد بشأنه ٠

لكن بينما كان الكونت فى « الروج » اذا بالناس الذين تركهم فى المعرة يغتنمون فرصة غيابه لتنفيذ عزمهم ، فقاموا بهدم الأسوار والأبراج من أساسها رغم معارضة الأسقف ونهيه اياهم نهيا باتا عن ذلك العمل ، لكنهم لم ينتهوا ، فقد حطموا أسوارها وأبراجها وسووها بالأرض حتى لا يجد الكونت (ريموند) عند عودته أى مبرر لتأخير السير مرة أخرى ٠

---

(٨) كان ذلك فى الاسبوع الأول من يناير ١٠٩٩ وتحددها الترجمة الانجليزية بالرابع منه ٠

ولما عاد ريموند شجته هذه الكارثة وغمته ، ولكنه اذ كان يدرك رغبات الناس فقد رضخ للعقل والحكمة فكتم مشاعره ، على حين ظل القوم متمسكين بمطالبهم لا يتزحزحون عنها قيد أنملة ، وتضرعوا اليه أن يقوم بما يفرضه عليه واجبه كقائد لعيال الرب فى اتمام الحج الذى كانوا قد بدءوا رحلته ، ثم راحوا يهددونه ـ ان أبى عليهم ذلك ـ أنهم عامدون الى واحد من الجند وجاعلوه قائدا عليهم ليسير بهم فى طريق السديد ٠

ومما زاد فى بلاويهم تفشى المجاعة فى صفوف الجيش اذ ذاك، ونقص ماعندهم من الطعام نقصـــا بينا حمل الكثيرين منهم على الخروج على العرف ، فنهجوا نهج الوحوش الكاسرة اذ لم يعفوا عن أكل لحوم الحيوانات القذرة ، ويؤكد البعض ـ وان كان ذلك أمرا يكاد العقل لا يصدقه ـ أن حاجتهم الى الطعام النظيف حملت الكثيرين منهم على التردى فى هوة سحيقة أكلوا معها لحوم البشر ٠

وتفشى الطاعون بين الحجاج أيضا وهو أمر لم يكن ثم مفر منه لاضطرار الناس التعساء الى العيش على الأطعمة الفاسدة القذرة (ان جازت تسمية هذه المأكولات المخالفة للطبيعة بالطعام) ولم تكن هذه المجاعة الفظيعة التى اجتاحت الناس حدثا عابرا لا يلبث أن يزول بعد قليل ، بل ظل القوم عرضة لهذا الوباء لمدة طالت حتى بلغت خمسة أسابيع أو جاوزتها ، كل ذلك وهم مرابطون أمام المعرة يحاولون الاستيلاء عليها ٠

ولقد هلك أمام هذا البلد طائفة من السراة أصحاب الجاه العريض والرتب السامية ، ولم يكن هلاكهم بسبب أحداث القتال وحده ، بل وأيضا نتيجة لشتى الأمراض ، وكان من بينهم واحد فى شرخ الشباب يبشر طالعه بمستقبل زاه ، ذلك هو « انجراند بن هيج » كونت سنت بول اذ ألم به مرض خطير أودى بحياته ٠

اضطرب خاطر كونت تولوز — ذلك الرجل البارز العلم — وتبلبل فكره ، وتحير لا يدرى أى طريق يتحتم عليه سلوكه ، فكم كان ثقيلا على نفسه البؤس الذى ران على أتباعه المعرضين للخطر ، وأحزنه موقفهم العصيب ، فقد كانت قلوب القوم — صغيرهم وكبيرهم — وهم المعرضون للخطر تصطرم برغبة جامحة لمتابعة الحج ، كما أن مطالبهم الدائمة وبكاءهم المستمر وتوسلاتهم الحارة حرمت الكونت من أن يذوق للراحة طعما ، ومن ثم فان أمله فى ايجاد علاج ناجح لكل هذه المتاعب حمله على تحديد الخامس عشر من الشهر(٩) موعدا لبدء زحفهم الى بيت المقدس ، وقد فعل ذلك ارضاء لمطالب الناس وبدافع من ضميره رغم يقينه الجازم بعدم رضاء الزعماء الآخرين أن يتابعوه فى هذا المسلك ٠

ودفعت ريموند رغبته فى انقاذ القوم من خطر المجاعة الجائحة المتزايدة لأن يستعرض أشد رجاله بأسا ، وانتقى منهم طائفة من الفرسان وأخرى من المشاة ، واقتحم بهم أرض العدو ٠ أما من سواهم فقد تركهم فى المدينة راميا من وراء ذلك أن يحصل بأى ثمن على كل ما هو لازم لتوفير العيش للناس ، ودخل بهؤلاء الرجال الأقوياء أرضا للعدو كانت شديدة الخصب ، وأغار على كثير من بلدانها الحصينة ، وأحرق بعض أرباضها ، وعاد من هذه الغزاة بقطعان كثيرة من الماشية والدواب ، والعديد من العبيد والجوارى ، وكميات ضخمة من المآكل اكتظت بها بطون الجوعى الخماص فأكلوا حتى أصابتهم كظة ، كما أصبح فى مقدور (ريموند دى

---

(٩) المقصود يناير ١٠٩٩م ٠

تولوز) أيضا أن يبعث بجزء وفير من المئونة لمن ظلوا باقين فى مدينة المعرة لحراســـتها ٠

* * *

تردد الكونت (ريموند دى تولوز) بعد عودته من هذه الغزاة حول الطريق الذى يسلكه ، ذلك لأن الناس عادوا يصيحون من جديد بأن اليوم المحدد للرحيل قد دنا ، ورفضوا أى توان عن الزحف ، ولما كان ريموند موقنا أن القوم فى الواقع على حق فقد شعر أنه لم يعد قادرا على الوقوف فى وجه توسلاتهم ، واذ ذاك عمد الى اضرام النيران فى المدينة حتى صارت هشيما ، ذلك لأنه أصبح وحده فى جانب الخروج اذ لم يوافقه أحد من الزعماء الآخرين على السير معه ، ومن ثم شرع فى سفره ، لم يصحبه غير أتباعه وحدهم ٠

ولما لم يكن معه غير عدد ضئيل من الفرسان فقد التمس من أسقف البارة أن يرافقه فى زحفه ، فلم يخيب الأسقف التماسه ولم يرده خائبا فيما طلب ، فعهد بأموره الخاصة الى واحد من كبار النبلاء اسمه « وليم الكومليكو » تاركا معه سبعة من الفرســـان وثلاثين من الجند المشاة ، وقد أدى هذا الرجل ما عهد اليه به باخلاص وصدق عظيمين ، حتى لقد زاد عدد فرسانه السبعة فبلغوا أربعين ، وبلغ مشاته ثمانين أو أكثر ، بعد أن كانوا ثلاثين فقط ، وترتب على مجهوداته هذه ان اتسعت أملاك مولاه اتساعا كبيرا ٠

خرج الكونت فى اليوم المحدد للسير لم ينتظر أحدا ، وسار فى صحبته مايقرب من عشرة آلاف رجل ، ليس فيهم من الفرسان أكثر من ثلاثمائة وخمسين فارســـا ، كما انضم اليه كونت نرماندى وتانكريد ، ومع كل واحد منهما أربعون فارسا ، ورفقة كثيرون من

العسكر والمشاة ، ولم يفارقاه قط فى سيره ، وصادفوا فى طريقهم بعد خروجهم وفرة كبيرة من كل مايحتاجونه حتى لم يعودوا فى حاجة الى مزيد •

ولما مروا بشيزر وحماة وحمص التى تسمى فى اللغة الدارجة « بكاميلا » أمدهم حكام هذه الأماكن بالحراس ، وجهزوا لهم أسواقا يتم فيها البيع والشراء على أحسن ما يكون البيع والشراء ، هذا بالاضافة الى مبادرة المدن الحصـــينة والقرى التي مروا بها الى اهدائهم الكثير من الذهب والفضة وتزويدهم بالماشية والأغنام ، كما قدمت اليهم جميع أنواع المئونة منعا لأيديهم من أن تمتد بالسوء الى تلك المناطق ، وأخذت قوة الجيش تزداد يوما بعد يوم ، وتتحسن أموره بسبب توفر كل مايلزم العسكر ، كما تمكنوا شيئا فشيئا من الحصول على أعداد كبيرة من الخيل التى كان نقصها يعود بالضرر العظيم عليهم ، فكان حصولهم عليها بالشراء تارة والهدية تارة أخرى ، أما الآن فقد صار تحت أيديهم ـ وقبل التقائهم بالزعماء الآخرين ـ أكثر من ألف جواد صالحة لخدمة الجيش ، لم تكن عندهم من قبل •

وبعد سيرهم بضعة أيام فى الطريق الداخلى اتفقوا جميعا على العودة الى الطريق الساحلى ، لأنه ييسر عليهم التأكد من وضع الزعماء الآخرين الذين كانوا قد خلفوهم وراءهم فى أرض أنطاكية ، كما أنه يساعدهم على شراء ما قد يحتاجونه مما تحمله الســـفن القادمة من أنطاكية واللاذقية •

ـ ١٣ ـ

جرت أمور الصليبيين طوال سفرهم ـ منذ مغادرتهم المعرة ـ على أحسن وجه ، ولم يضايقهم سوى أوشاب الناس الذين دأبوا

على الاغارة على مؤخرة الحملة ، وعلى القيام بين آن وآخر بسرقة المرضى والشيوخ الذين لم تسعفهم قوتهم بمجاراة الجيش فى سرعة زحفه ، فهلك بعضهم ، ووقع البعض الآخر منهم فى الأسر ، ولكن رد الكونت على هذه الهجمات كان عنيفا ، اذ أمر الجيش بالزحف بقيادة كل من تانكريد وروبرت دوق نرماندى وأسقف البارة ، أما هو فقد تخلف وراءهم مع رهط من رجاله الشجعان يتربصــون للصوص فى كمين نصبه لهم ، وعزم على أن يتحين اللحظة الملائمة ليهاجم هؤلاء الأوغاد الذين كانوا يتعقبون مؤخرة العسكر الزاحف ، ويقطعون الطريق على كل ضال وشريد منه ، لذلك فانه ماكاد هؤلاء الأشرار يهاجمون المؤخرة على مألوف عادتهم حتى برز لهم الكونت فجأة من مخبئه ومن حيث لا يدرون ، وهاجمهم مستأصلا شأفتهم ، ثم عاد الى جنده فرحا مسرورا ومعه ما استولى عليه من الخيول ، وما أصابه من الغنائم وطائفة من الأسرى استصحبهم معه ، واذ ذاك تابع الصليبيون سيرهم آمنين غير ملاقين نصبا ، بعد أن أصبح فى حوزتهم الكثير من كل احتياجاتهم الضرورية ٠

ولم توجد مدينة أو بلدة على يمين أو يسار هذا الاقليم الذى سار فيه الصليبيون الا وبعثت بهداياها الى الجيش وقواده مصحوبة بالتماساتها فى عقد معاهدات صداقة معه ، ولم يشذ عن هذه كلها سوى مدينة واحدة قد أخذت العزة أهلها بالثقة فى عددهم الكبير وحصانة الدفاع عن بلدهم ، فأنكروا عقد سوق للبيع والشراء ، ولم يسعوا فى عقد اتفاقية ، واستكبروا أن يبعثوا للقواد بالهدايا ، بل ساروا على النقيض من ذلك كله اذ جمعوا كل عسكرهم وحاولوا عرقلة مسير الحملة ، فلما رآى الصليبيون ذلك منهم اشتد سخطهم عليهم ، وكروا عليهم كرة رجل واحد ، وما لبثوا غير قليل حتى فرقوا صفوفهم وأسروا جماعة منهم ، واستولوا على المكان عنوة ،

وساقوا أمامهم ما وجدوه من قطعان الدواب والأغنام والخيول التى كانت فى المراعى المجاورة ، وغنموا كل ما العدو من متاع ٠

كان مع الجيش فى هذه الأثناء رسل من بعض الحكام المجاورين الذين جاءوا ينشدون السلام فشاهدوا بأنفسهم قوتنا واقدامنا ، فعادوا الى بلادهم وهم يرجون السلامة لسادتهم الذين أوفدوهم ، وقصوا عليهم ما رأوا من عادات الصليبيين وبسالتهم ، ثم مالبثوا أن رجعوا على جناح السرعة الى الجيش الصليبى محملين بالهدايا من الجياد وشتى أنواع السلع ٠

وانقضت عدة أيام أمضاها الجيش آمنا فى عبور هذه المنطقة الوسطى ، ثم نزل بعدها سهلا قريبا من البحر ، قد حصنته الطبيعة أحسن تحصين ، وبه مدينة قديمة العهد اسمها « عرقة » ، فضرب الصليبيون معسكرهم قربها غير بعيدين عن أسوارها ٠

— ١٤ —

وعرقة هذه هى احدى مدن ولاية فينيقية ، وتقع على مرتفع شديد المناعة عند سفح جبل لبنان ، وتبعد عن البحر مسافة أربعة أو خمسة أميال ، ويمتاز السهل الفسيح الذى توجد فيه بخصبه وكثرة خيراته ، ومراعيه الفسيحة الرائعة ، كما تكثر به القنوات المائية ، وتقول الروايات القديمة ان اسمها مشتق من اسم مؤسسها « اراديوس » سابع ابناء كنعان ثم تحرف هذا الاسم فى وقت متأخر الى Archis أرخيس ٠

نصب الصليبيون — كما قلنا معسكرهم أمام هذه المدينة ، ولم يكن ذلك منهم اعتباطا ولكن نزولا على نصيحة تضمنتها الرسائل

التى بلغتهم من بعض قومنا الذين كانوا فى أسر العدو ، فقد كان هناك رهط من الصـــليبيين عوقوا رغم أنفهم فى مدينة طرابلس الساحلية الرائعة التى تبعد مسافة خمسة أو ستة أميال عن عرقة ، ذلك أن قلة الميرة عند الصليبيين منذ بداية حصار مدينة أنطاكية حتى زمن متأخر بعد فتحها فرضت على هذا النفر (من الصليبيين) الضرب فى أرباض تلك النواحى التماسا للطعام، ولما كانوا لايأخذون حذرهم فى خروجهم فقد كان من الطبيعى أن يكونوا عرضة للوقوع فى يد العدو ، وترتب على ذلك أنه مامن مدينة أو قلعة فى تلك الناحية الا وكان بها من رجالنا نفر من الأسرى الذين كان منهم فى مدينة طرابلس ـ التى ذكرناها حالا ـ أكثر من مائتى اسير ، فلما سمعوا أن جيش الصليبيين آخذ فى الاقتراب بعثوا الى القادة يحذرونهم ان تفوتهم عرقة ، بل يتحتم عليهم حصارها بكل السبل ، اذ من اليسير عليهم الاســـتيلاء عليها فى أيام قلائل ، والا ففى مقدورهم أن يستخلصوا من والى طرابلس مبلغا كبيرا من المال ثمنا لمجاوزتهم مدينة عرقة دون أخذهم اياها ، كما أنهم يستطيعون حين وضعهم شروطهم أن يخلصوا من بها من اخوانهم المعتقلين ، ونفذ الصليبيون هذه الوصية فزحفوا فى الحال على مدينة عرقة ، وضربوا مخيماتهم حولها ، وشـــرعوا فى حصـــارها ، واضعين نصـــب أعينهم أمرين : أولهما معرفة مدى صحة الخبر الذى جاءهم ، وثانيهما أن يشغلوا أنفسهم بشىء ما أثناء انتظارهم بقية الزعماء الذين كان من المتوقع حضورهم سريعا فى أعقابهم ٠

ـ ١٥ ـ

غادر المعســـكر مائة فارس وطائفتان من المشـــاة تقدران بمائتى رجل بقيادة « ريموند بيليه » سعيا وراء حاجات المعيشـــة الضرورية وبحثا عن العلف ، فلجوا فى السير وأبعدوا حتى بلغوا

مدينة « انطرسوس »(١٠) المعروفة عادة باسم طرسوس والتى تبعد عن عرقة مسافة عشرين ميلا .

وتقع « انطرسوس » أو Tortosa « طرسوس » على ساحل البحر ، ويوجد على بعد ميلين تقريبا منها جزيرة صغيرة كانت بها فى الأزمنة الموغلة فى القدم مدينة « أرواد »(١١) القديمة التى ذاعت شهرتها على مدى عدة عصور ، ويشير حزقيال(١٢) النبى الى هذا المكان حين يكتب الى أمير صور فيقول : أهل صيدون وأرواد كانوا ملاحيك » ويقول فى موضع آخر(١٣) : « بنو أرواد مع جيشك على الأسوار من حولك ، والأبطال كانوا فى بروجك » .

وقد استمد المكان الذى هو موضوع كلامنا الآن اسمه من المدينة القديمة التى كانت تدعى « انترادوس » لأنها كانت واقعة مقابل

---

(١٠) وردت هذه المدينة فى الترجمة الانجليزية باسم Antarados ثم وضع المترجمان مرادفا آخر لها هو Tortosa وبالرجوع الى فهرست المدن الملحق بكتاب :
Le Strange : Palestine under Moslems, P. 562, Vol. I, P. 602, Col. 2.

نجد أنه وردت المرادفات التالية :
Antaratus, Antradas, Antarsus & Tartus
وقد أشير اليها كلها بكلمتى « انطرسوس » وأنطرطوس .

(١١) جززيرة « أرواد » ـ وتعرف أيضا باسم « رواد » ـ وأراديوس Araddius وقد ورد ذكرها فى سفر حزقيال كما سيورد وليم حالا وهى واقعة (كما يقول الادريسى القـــرن الثانى عشر) على مقـــربة من « أنطرسوس » ، انظر Le Strange : Op. Cit., PP. 399 — 400.

(١٢) حزقيال ٢٧ : ٨ .

(١٣) حزقيال ٢٧ ، ١١ .

المدينة الأخرى « أرواد » وكل من المكانين فى ولاية فينيقية ومؤسسهما واحد هو « أراديوس » أصغر أبناء كنعان بن حام بن نوح .

* * *

كانت الفصيلة من جيش الكونت المشار اليه حالا قد تقدمت الى انطرسوس وهاجمتها أعنف هجوم ، فقاومها المواطنون بروح عالية فلم يسعف هذا الهجوم الصليبيين فى الحصول على كثير مما كانوا يؤملون من ورائه ، ذلك لأنهم رأوا - وقد دخل الليل - أن يرجئوا كل عملياتهم الحربية الى صباح الغد حين ينضم اليهم رفاقهم الذين سوف يأتون فى اثرهم فى اليوم التالى ، مؤملين أن تكون هجمتهم التالية يومذاك أقوى مما عليه هجمتهم فى يومهم هذا ، غير أن الخوف تسرب الى قلوب أهل البلد وخافوا ان وصلت الامدادات الى عدوهم تحت جنح الظلام أن يصبحوا هم عاجزين عن المقاومة ، غير قادرين على الصمود ، ومن ثم تسربلوا بالظلام وحملوا نساءهم واطفالهم وكل ماملكته أيديهم وفروا الى الجبال يلتمسون فيها الأمان .

ولما بدت طلائع الفجر الوليد حمل الصليبيون سلاحهم ، وهم لا يدرون شيئا عما جرى من الأحداث تحت جنح الدجى ، وراح كل واحد منهم يصيح بصاحبه منتشيا ، وزحفوا على المدينة لاتمام هجومهم الذى بدأوه بالأمس ، غير أنهم لما قاربوها رأوها خاوية على عروشها فدخلوها وقد زايلتهم الرهبة ، واقتحموها بقلوب شجاعة لا تحس خوفا ، وأسعدهم الحظ اذ عثروا على كميات ضخمة من المئونة والغنائم ، وانقلبوا الى خيامهم فرحين بما أصابته أيديهم ، وقصوا على رفاقهم كل ما جرى لهم أثناء غيابهم عنهم ، ولقد أترع نجاح هذه الحملة قلوب الجيش كله بالفرح الطاغى .

وأهل شهر مارس فاقترب اليوم المقسوم لمتابعة رحلة الحج ، واذ ذاك شـــرع من كان قد تخلف فى أنطاكية من الصليبيين فى الضغط الشديد على الزعماء لحملهم على بدء السفر ، وراحوا يلحـــون على « جودفروى » دوق اللورين وروبرت كونت فلاندرز والقائد الآخر[١٤] أن يتهيئوا للخروج وقيادة الناس الذين أمضهم الشوق للوفاء بأيمانهم التى قطعوها على أنفسهم[١٥] ، ولهجت ألسنتهم بالثناء على ما عليه كونت تولوز ودوق نرماندى وتانكريد من اخلاص راســـخ ، وأطنبوا فى مدح ما أبداه هؤلاء القادة من العطف على شعب الرب حين قادوه أياما طويلة قيادة صادقة فى طريق السيد • وقد أثارت هذه الكلمات وأمثالها خامد همة القادة الذين ذكرناهم حالا ، فحـــركتهم للعمل ، فأخذوا فى اعداد متاعهم وكل ما يحتاجه سفرهم هذا ، واستصحبوا معهم جميع الفرســـان والجند المشاة ، وقد فاضت نفوس الجميع بالرغبة العارمة فى الســـير فى الطـــريق المؤدى الى بيت المقـــدس ، فلمــــا كان اليوم الأول من مارس ، تجمع فى اللاذقية بالشام خمسة وعشرون ألف محارب فى أحسن عدتهم الحربية تحت قيادة الزعماء المذكورة أسماؤهم من قبل ، ورافقهم بوهيموند وجيشه حتى اللاذقية ، ولم يستطع مزاملتهم الى ما بعدها ، أو اطالة مكثه فى ذلك الموضع حتى لا يترك أنطاكية ــ التى استحوذ عليها منذ قريب ــ من غير راع قوى ، اذ ما كان لها أن تظل ولو لفترة وجيزة بلا حام لها ، يدفع

---

(١٤) المقصود بكلمة « الآخر » هنا الكونت ريموند الصنجيلى ، كما سيرد بعد قليل •

(١٥) يقصد بذلك ما كانوا قد تعاهدوا عليه من الخروج والزحف الى بيت المقدس والوصول الى كنيسة القيامة •

عنها غائلة الأعداء(١٦) المحيطين بها من كل جانب ، لكن تذكره محالفته الزعماء الآخرين وروابط الصداقة التى قامت بينه وبينهم وهم جميعـــا فى طريق السيد دعاه الى مرافقتهم حتى اللاذقية ، مخلصا لهم كل الاخلاص ، ومبديا تجاههم كل ضـــروب المجاملة والرقة ، مما عمق ذكراه على الدوام فى نفوسهم حتى بعد افتراقهم بعضهم عن بعض ، فلما بلغوا جميعا اللاذقية فارقهم ، وودع الزعماء بكبد تتفطر أسى وعيون دامعة ، ثم استأذنهم فى الرحيل وعاد ليولى المدينة صادق عنايته ٠

* * *

واللاذقية من أجمل المدن الساحلية المطلة على البحر ، وهى ذات تاريخ موغل فى القدم ، وسكانها من النصارى ، كما أنها المدينة الوحيدة بالشام الخاضعة لسيادة الامبراطور الاغريقى ، وقد جاءها واحد اسمه « جينمار » من أهل بولونيا ، وكان قد أرسى كما ذكرنا من قبل(١٧) بأسطوله فى مدينة طرسوس من أعمال قيليقية وقت أن كان بلدوين ـ أخو الدوق جودفروى ـ يحتل هذه المدينة ٠

وقد فشـــل جينمار « فى محاولته الاستيلاء على اللاذقية وادخالها فى طاعته لعدم توفر القوات الكافية تحت يده اذ ذاك ، فأمسك به أهل البلد وزجوا به فى الحبس مع جميع من معه تقريبا ٠

---

(١٦) اذ كانوا يعدون انطاكية هذه اللحظة تابعة لهم ، وكانوا يتوقعون أن يردها الصليبيون اليهم بعد فتحهم اياها تنفيذا للاتفاق المبرم بين الطرفين، انظر ترجمتنا لكتاب الكسباد للاميرة « أنا كومنينا » ، وراجع أيضا
Chalandon, Alexius Comménes I.

(١٧) راجع ص ٢٤٤ من الجزء الأول من ترجمتنا هذه ٠

فالتمس الدوق جودفروى من الحاكم ووجوه رجاله أن يطلقوا سراح «جينمار»، وكان الدافع له الى ذلك أن جينمار هذا كان قادما (١٨) من أرض جودفروى ، هذا بالاضافة الى ما أداه من خدمة جليلة لأخيه بلدوين فى طرسوس ، فاستجاب أهل اللاذقية للدوق اذ كانوا لا يجرءون على مخالفة كلمة واحدة مما يقول ، وزادوا فمنوا على أسيرهم جينمار بفك سراحه هو وجميع رفاقه ، كما أسلموا الى الدوق الأسطول الذى جاء فيه هؤلاء الناس ، فبادر جودفروى باعادة جينمار فى لحظته هذه الى قيادة سفنه ، وأشار عليه أن يتابع رحلته بحرا فى خط يوازى تقدمه هو ذاته برا ، فأطاعه جينمار فيما أشار به عليه .

ـ ١٧ ـ

خرج الجيش بعدئذ من لاذقية الشام وقد اشتد بأسه بالمسيحيين من أهل تلك المدينة ، كما جاء غيرهم من أنطاكية وقيليقية ومدن تلك الناحية ممن لم يكونوا قادرين من قبل على المغامرة لأمور كانت تشغلهم ، فانضموا هم أيضا الى الجيش وساروا برا مصاقبين للساحل حتى بلغوا مدينة « جبلة » المعروفة أيضا باسم « جبلين » والواقعة على بعد اثنى عشر ميلا من اللاذقية ، فعسكروا متحلقين حول المدينة وشرعوا فى عمليات الحصار فترة من الوقت .

واذ كانت هذه هى أولى المدن الساحلية الخاضعة لنفوذ خليفة مصر ، فقد جاء واليها بصحبة نائبه الى الدوق يعرض عليه ستة آلاف قطعة من الذهب ، الى جانب العديد من الهدايا ان رفع الحصار عن المدينة ، لكنه لما رأى ازدراء جودفروى لعرضه الخسيس

---

(١٨) انظر الحاشية السابقة ، ص ٢٤٤ ، س ٤ من الجزء الأول .

وأنه ليس بالرجل الذى يقبل الرشوة فقد سلك طريقا آخر ، اذ أرسل مبعوثين من قبله الى كونت تولوز لما يعرفه فيه من الطمع ، وعرض عليه نفس القدر من المال ان هو انتزع المدينة من يد الدوق ، ويقال ان الكونت قبل هذه الرشوة سرا ، لكنه ادعى أن جيشا كثيفا من عسكر العدو بقيادة كربوغا موشك على المجىء من أرض فارس ، انتقاما للأهوال التى حاقت ببنى جلدتهم الموجودين فى أنطاكية ، كما ادعى أنهم يتأهبون لمعاودة قتال قواتنا من جديد ، وعلى مجال أكبر من حربهم السابقة ، وزعم (ريموند كونت تولوز) أنه تلقى هذه المعلومات المفصلة والموثوق بها من رسل لايمكن الشك فى صدق ما يقولون .

ثم بعث بأسقف « البارة » الموقر على رأس سفارة الى الدوق والى كونت فلاندرز ، وأرسل معه كتبا تلح عليهما الحاحا قويا برفع الحصار عن « جبلة » والاسراع لدرء الخطر المشترك بدافع مابينهم من الحب الأخوى ، فما كاد القادة يعلمون من ظـــاهر الأمر أن اخوانهم مهددون بمثل هذا الخطر حتى بادروا بحسن نية الى فك الحصار والزحف فى الحال ، وأسرعوا فى سيرهم فاجتازوا بفالينيا احدى المدن البحرية الواقعة تحت حصن المرقب ، ثم ساروا فى « مراقية » وهى أول مدينة فينيقية يصادفها القادم من الشمال ، ثم وصلوا بعد ذلك الى انطرطوس المسماة أيضا طرطوس فى الاقليم المذكور أعلاه ، والواقعة هى الأخرى أيضا على ساحل البحر . فأبصروا المكان مقفرا من أهله ، ثم أعجبتهم جزيرة مجاورة فى مواجهة المدينة من الناحية الغربية ،وقد رست بعض سفننا فى احدى المرافىء الملائمة ، واستفاد الصليبيون اذ سلكوا أقصر الطرق من طرطوس حتى أصبحوا بعد أيام قلائل بكامل جيشهم أمام أسوار « عرقة » فهب تانكريد لاستقبالهم ، وشرح للزعماء كل تفاصـــيل

خيانة الكونت ، فلما فرغوا من الانصات الى ما قاله تانكريد نصبوا معسكرهم على حدة ، وعلى مسافة بعيدة بعض الشيء من معسكر القوات التى سبقتهم •

سرعان ما تبين للكونت تغير قلوب الزعماء الآخرين عليه ، فراح يصلهم بالهدايا ويبذل الجهود الكبيرة لاسترضائهم ، ومالبث أن استمالهم اليه بهداياه التى أصلحت ذات البين بينه وبينهم ، ولم يشذ عنهم فى ذلك سوى تانكريد الذى لم يكف عن رمى الكونت بكل تهمة نكراء •

على أن جميع القوات أصبحت الآن حول عرقة متحدة كجسم واحد •

* * *

كان الكونت (ريموند) قد أعد كل عسكره أمام هذه المدينة قبل وصول الدوق ببضعة أيام ، فلم تأت جهوده هذه كلها ثمرتها المرجوة بل ضاعت هباء ، غير أن مجىء القادة الآخرين فتح له باب الأمل فى الاستيلاء على المدينة فىيسر وسهولة ، وفى الوصول الى الغاية المنشودة من جراء هذا الحصار المرهق ، بيد أن الخاتمة جاءت على غير ما كان يطمع فيه ، ذلك لأن الرب كان قد أمسك رحمته عن خطة الصليبيين قبل وصول هذه القوات وبعد وصولها ، فلطالما أغاروا على المدينة لكن بلا جدوى ، فتفننوا فى ابتداع وسائل يضايقون بها المحصورين كنقبهم السـور ، لكن ما كان أكثر العقبات التى اعترضت طريقهم فأذهبت مساعيهم أدراج الرياح ، واتضح لهم أن العناية الالهية تخلت عنهم فى حصارهم هذا لعرقة ، وادركوا أن

من هلك من رجالهم انما هلك من غير طائل ، وان السراة الأمجاد الذين ضحوا بحياتهم انما ضحوا بها من غير فائدة ٠

وشاء الحظ العاثر أن يلقى نفس هذا المصير اثنان من ذوى الشرف الصاعد فيهم ، فأما أحدهما فهو « انسلم دى بيمونت » وكان أخ غمرات لا يهدأ عن خوض غمار الحرب فاستحق خلود الذكر ، وأما الآخر فهو «بونس دى بلازون »الرفيع القدر وأحد أصدقاء كونت تولوز العالى المنزلة ، وقد لقى هذان مصـــرعهما من قذيفة حجر أصابتهما ،وز يادة على ذلك فقد عوق الناس فى عرقة رغم أنوفهم ، لأن رغبتهم الوحيدة كانت تتمثل فى اتمامهم الحج الذى نهضوا من أجله ، ولم يعد يعنيهم أمر حصار البلد ، ولايهمهم ماذا تكون نتيجته، لاسيما بعد وصول الدوق ، حتى ان أتباع الكونت وأصدقاءه الخلص ممن جاءوا فى معيته قد أقاموا هناك على كره منهم ورغم ما تمليهم ضمائرهم ، ولم تكن اقامتهم هذه الا طاعة لمشيئة الكونت القوية ، حتى انتهى الأمر بهم أخيرا الى أن دبروا خطة انسحابهم ، مؤملين من وراء ذلك أن يشاطرهم الكونت ضـــجرهم فينهج نهج القادة الآخرين ويقتفى أثرهم فى زحفهم فى طريق السيد ٠

— ١٨ —

فى هذه الأثناء أثير من جديد موضوع الحربة التى عثروا عليها فى أنطاكية ، وتساءلوا : أحقا هى الحربة التى فجرت الدم والماء من جنب المسيح ؟ أم أن الأمر كله مجرد خدعة ؟ وتشـــكك الناس فى الخبر ، بل وتبلبلت خواطر القادة فأكد البعض أنها كانت نفس الأداة التى اخترقت جنبه ، وهو مرفوع على الصليب ، وما كان كشفها الا لأن العناية الالهية قد أرادت أن تشد عزائم الناس ،

وقال آخرون بل هي برهان صريح على خبث الكونت وانها حيلة احتال بها لخدمة مآربه ٠

كما قالوا ان المؤلف الحقيقى لهذه القضية التى صارت مثار جدل انما هو رجل اسمه « ارنولف » وكان صديقا واشبينا لكونت نرماندى ، وكان يحيا حياة فاسقة شهوانية ، ويجد اللذة فى اثارة النزاع بين الناس على الرغم من انه كان رجلا عالما ، وسيرد الكثير عنه فى الفصول التالية ٠

ولقد ظلت هذه المسألة موضع جدل طويل بين الحجاج حتى انتهى الأمر أخيراً بقيام بطرس (بارتلميو) الذى زعم أنه قد أوحى اليه بخبر الحربة ، وسأل القوم أن يوقدوا ناراً كبيرة ، وقال لهم انه بعون الرب سيبدد شكوك المتشككين عن طريق التحكيم الفعلى للنار ، وأن ليس فى الأمر شىء من الاحتيال ، وسيؤكد لهم — رغم ظنونهم — أن الوحى الالهى هو الذى كشف عن هذه الحربة : عزاء للناس وسلوى لهم ٠

ومن ثم أوقدت نار عظيمة أثارت حـرارتها خوف الواقفين حولها ، وكان ذلك يوم الجمعة السابق لعيد القيامة المجيد ، وفى هذا اليوم الذى نقرأ عنه أن مخلصنا تعذب فيه من أجل خلاصنا اجتمع الناس قاطبة : عامتهم وخاصتهم ، صـــغيرهم وكبيرهم ، ليشهدوا التجربة الحية بشأن هذا الموضوع الهام ، فتطوع لدخول هذه التجربة الشديدة الخطورة الرجل المدعو «بطرس بارتلميو » ، وكان خوريا قليل الحظ من التعليم ، قد أجمع الناس على سذاجته واخلاصه ، فتوجه بالخطاب أول ما توجه الى الجنود الذين تجمعوا حوله ، وتقدم حاملا فى يده حربة المسيح ، واقتحم النار فاجتازها ولم يبد للناظرين أن قد مسه ضرر ولا حاق به أذى ٠

غير أن عمله هذا لم يفشل فحسب فى ازالة الشك من عقول الناس ، بل انه أثار مشكلة أكثر خطورة ، اذ مالبث بطرس هذا أن مات بعد أيام قلائل ، مما حدا بالبعض لأن يعلن أن تجربة النار هذه أدت الى هلاكه قبل أن يحين أجله ، وأنه كان سبب دمار نفسه لمعاونته على التدليس ، ودلل هذا البعض على صدق ما يقولون بأن مظاهر الصحة والقوة كانت بادية عليه قبل دخوله هذه التجربة .

وادعى آخرون أنه خرج من النار سالما معافى ، ولكن حدث ان تحمس الناس فاندفعوا اندفاعا قويا نحـــوه وتكاثروا عليه ، فأصابه منهم أذى أفضى الى موته .

وهكذا فان الموضوع الذى شب حوله الجدل لم يحسم فيه برأى قاطع ، بل بقى على النقيض أكثر من ذى قبل .

ـ ١٩ ـ

فى غضون هذا الوقت عاد الى زعمائنا المبعوثون الذين كانوا قد أوفدوهم استجابة لرجاء الرسل المصريين الذين بعثهم ـ كما ذكرت من قبل ـ خليفة مصر أثناء حصار أنطاكية ، ولقد ظل رسلنا هؤلاء فى ذلك القطر مدة عام قسرا وحيلة ، فلما عادوا عادوا ومعهم رسل من أمير المصريين مزودين برسائل يختلف فحواها هذه السنة اختلافا بينا عن فحوى ما تضمنته الرسالة السابقة ، ففى خلال فترة هذا العام بذلوا أشد الجهد وأصدقه لاكتساب ود قادتنا ، راجين وقوفهم الى جانبهم ضد غطرسة الترك وعنجهية الفرس المتناهية ، أما الآن فقد تغير ذلك كله تمام التغيير ، وراحوا يلوحـــون بأنهم يسبغون فضلا كبيرا على الصـــليبيين حين يأذنون للحجاج غير

المسلحين بالذهاب الى بيت المقدس فى زمر تتألف كل واحدة منها من مائتين أو ثلاثمائة حاج ، ثم يعودون سالمين بعد اتمام حجهم ٠

غير أن قادة القوات الصليبية عدوا هذه الرسالة اهانة لهم ، وأرغموا المبعوثين (المصـــريين) على العودة حاملين الرد بأن الجيش لن يرضى بالذهاب الى هناك فى فئات قليلة حســـب هذه الشروط التى اقترحتها مصر ، بل انهم على العكس سوف يدخلون القدس كجيش موحد ويهددون مملكة مولاهم ٠

كان السبب الذى أدى الى تغير موقف المصريين قد نشأ مما جد بعد انتصارنا فى أنطاكية ، اذ كان الترك حينذاك يمرون بظروف حرجة ، مظهرها تزعزع قواهم الحربية فى كافة أرجاء الشرق ، وتدهور سمعتهم الى الحضيض بعد أن كانت قد بلغت الذرى ، فما حاربوا أمة من أمم الأرض الا ودارت عليهم الدائرة ، مما ترتب عليه تصاعد قوة ملك مصر شيئا فشيئا وعلو نجمه على نجم الترك ، ثم مالبثت جهود أمير معين لهم هو (الأفضل) القائد العام للجيش المصرى أن أدت الى سلب مدينة بيت المقدس من أيدى الترك بعد أن كانوا قد انتزعوها من المصريين قبل ذلك بثلاثين سنة ٠

حينذاك رأى المصريون تدهور قوة خصومهم الترك بعد أن كان الرعب يداخلهم منها ، باعتبارها تفوق قوتهم ، ويرجع السبب فى هذا التدهور الى ما قام به الصليبيون من عمل أدى الى سقوط بأس الترك الى الحضيض ، ومن ثم كان هذا سببا فى ازدراء المصريين للمساعدة تأتيهم من جانب قومنا ، بعد أن كانوا حريصـــين كل كل الحرص عليها ، جادين كل الجد فى طلبها ٠

كذلك قدم رسل من قبل امبراطور القسطنطينية يشكون مر الشكوى من مسلك بوهيموند، ويعلنون أنه خالف شروط الاتفاق الذى كان قد أبرمه مع الامبراطور ، حين أعلن عزمه على الاحتفاظ بأنطاكية ملكا خالصا له ، وبذلك يكون قد حنث بيمين الولاء الذى قطعه على نفسه ، ووقف هؤلاء الرسل وسط الزعماء معلنين أن جميع من مروا عبر القسطنطينية قد أدوا يمين التبعية لمولاهم ، وأنهم قد أقسموا وأيديهم على الكتب المقدسة ألا يستبقوا لأنفسهم قلعة أو مدينة كانت تابعة من قبل للامبراطورية ، حتى ولا القدس ذاتها ، وكذلك جميع الأماكن التى يستولون عليها الا ردوها فى الحال الى الامبراطور يدير بنفسه شئونها ، ثم سكت المبعوثون (الاغريق) عن غير هذا من شروط الاتفاق •

ومن الجلى الواضـــح أنه كان قد تم مثل هذا الاتفاق بين الامبراطور والقادة فى القسطنطينية ، على أنه فى ختام هذا الاتفاق أضيف شرط ينص على أن الكسيوس سوف يلحق بهم من غير توان بكل بطانته ، وبقوة كبيرة من عسكره ، وانه ممدهم ومعينهم بما يكونون فى حاجة اليه ، لذلك رد القادة باجماع الآراء على مطلب السفراء بأن الامبراطور هو أول من شجب الشروط التى اتفق عليها ، وعلى ذلك فالواجب الذى ليس غيره من واجب هو أن يتحمل خسارة ما كان يحق له حسب شروط الاتفاق ، اذ لا عدل فى الوفاء بعهد مع شخص سلك مسلكا مناقضا للعهد الذى نص فيه على أن يلتزم الامبراطور بجمع جيوشه والسير فى اثر القادة حالا فى زحفهم ، وان يهيىء فرصة دائمة للحجاج للمتاجرة مع السفن القادمة بحرا ، وأن يعمل على تقديم وفرة من السلع للبيع لهم جميعا طوال سيرهم ،

ولكنه تجاهل عن عمد هذه الشروط ولم يف بها رغم أن الوفاء بها كان يسيرا عليه . ومن ثم فانهم يحبون أن يقرروا له أن الاجراء الذى اتخذوه بشأن أنطاكية يجب أن يعتبر قرارا نهائيا لا رجعة فيه ولا نكوص عنه ، لأنهم لم يفعلوا الا ما تجيزه لهم حقوقهم ، يضاف الى ذلك أن تنازلهم عن أنطاكية بمحض ارادتهم لمن ارتضوه أميرا لها يجعله حريا بتملكها وتوارثه اياها للأبد .

* * *

ولقد بذل رسل الامبراطور جهودا شاقة رجاء حمل الجيش على انتظار حضور مولاهم الذى سيكون يوم أول يوليو ، وأضافوا الى ذلك قولهم انه سوف يصبل كل الزعماء بالهدايا الجمة، وسيصرف أجورا مجزية للعسكر تمكنهم بلا شك من أن يعيشوا عيشة شريفة ، لذلك عقد الزعماء مؤتمرا لبحث هذا الموضوع ، لكنهم اختلفوا حوله اختلافا جديا فيما بين بعضهم والبعض الآخر ، فكان من رأى كونت تولوز أن مصالحهم يقتضيهم انتظار قدوم الأمير الكبير (الكسيوس كومنين) ، وراح الكونت يعضد هذه الفكرة ، وربما كان صادرا فى ذلك عن ايمان بها ، أو ربما كان بهذا الادعاء يحاول تعطيل القادة والجند حتى يفرغ من غزو المدينة التى كان لايزال يحاصرها ، اذ كان يدرك مدى العار الذى يلحقه والشنار الذى يمسه ان لم ينجح فى مشروعه ، أو عجز عن الاستمرار فى تنفيذه .

وكان هناك آخرون يرون رأيا يخالف هذا الرأى كل المخالفة ويعتقدون أنه من الأصوب ألا يتأخر الحجاج عن مسيرة حجهم التى بدأوها ، فتمامها يؤدى فى النهاية الى خاتمة موفقة للمشروع الذى تحملوا المشاق الجمة من أجله ، وكان قرار هذا الفريق الثانى قائما على تجنب حيل الامبراطور الماكرة وكلماته المعسولة التى جربوها

طويلا ، وأن قرارهم هذا أجدى عليهم من أن يلقوا بأنفسهم من جديد فى متاهات مراوغاته الماكرة التى قد يجدون من الصعب تخليص أنفسهم من حبائلها ان هم سقطوا فيها ٠

ولقد نجم نزاع بين القادة حول هذا الموضوع ، اذ كانت رغباتهم متباينة يستحيل التوفيق بينها ٠

وكان والى طرابلس قد عرض من قبل قدرا كبيرا من المال على الصليبيين ، عساهم يرفعون الحصار عن بلده ، وينزحون بقواتهم ،أما الآن ـ وقد علم بالخلاف الناشب بين قادة الجيش ـ فانه لم يكتف بالتراجع عن مدهم بالمال الذى كان قد تعهد لهم به ، بل زاد فسارع لأن يكون البادىء بمحاولة مواجهة الصليبيين وتجربة حظه فى محاربته اياهم ٠

لكن ترتب على ذلك أن أجمعوا بلا استثناء على النهوض لقتاله ، فخرجوا وقد خلفوا وراءهم لحماية المعسكر (فى عرقة) أسـقف « البارة » ومعه بعض من الزعماء المتمرسين بفنون الحصار ٠ أما بقيتهم فقد صفوهم للمعركة وزحفوا بهم شطر طرابلس ، فوجدوا واليها فى انتظارهم هو وأهلها ، فأخذت الحماسة الفرسان والمشاة اذ أخذوا أماكنهم أمام المدينة متأهبين لقتالها ، أما كونت تولوز فقد ظل أكثر من شهرين متتاليين يحاول عبثا الاستيلاء على عرقة فلم تجده محاولته هذه نفعا ، بل راح الطرابلسـيون ينظـرون الى الصليبيين نظرة ازدراء ، وأخذ خوفهم منهم يتناقص شيئا فشيئا ، وتلاشى ما كانوا يظنونه من شجاعة هؤلاء القوم ، لاسيما وقد قامت البينة على انحرافهم عن العزم القوى الذى كانوا يظهرونه ٠

* * *

ولما بلغ الصليبيون طرابلس وأبصروا قوات العدو وقد أعدت صفوفها لقتالهم بادروهم فى الحال بكرة غاضبة ، أدت منذ اللحظة الأولى الى بث الفوضى فى عسكرهم وحملوه على الفوار ، كما أن اصـــرار الصليبيين القوى أرغم الأهالى على الهروب الى المدينة يرتجون الاستخفاء بها ، ولكن الصليبيين لم يكفوا عن مطاردتهم حتى قتلوا منهم سبعمائة شخص ، ولم يفقد من عسكرنا غير ثلاثة رجال أو أربعة ، وهنا كان الاحتفاء بعيد الفصح يوم ١٠ ابريل ٠

ـ ٢١ ـ

ثم عادوا الى معسكرهم بعد أن واتاهم النصر ، واذ ذاك بادر الناس قاطبة لرفع صوتهم عاليا مطالبين بوجوب تخلى القادة عن هذا الحصار المدمر ، وبضرورة البدء بالســـير الى بيت المقدس ، فالكل مشوق للزحف ، وقد أتى هذا الاصرار العنيد أكله المرجوة حين قرر الدوق وكونت فلاندرز وكونت نرماندى وتانكريد تقويض المعسكر وحرقه ارضاء للجماهير ورفع الحصار عن عرقة ، غير أن كونت تولوز رفض رفضا باتا التخلى عن خطته ، وراح يبذل غاية جهده فى مقاومة ما قرره الزعماء ، بيد أنهم ضربوا بمعارضته عرض الحائط ، ومضى الزحف فى طريقه شطر طرابلس لتعاود مسيرة الحج ما انقطع منها ، وكان من أكبر المتحمسين لتنفيذ هذا القرار رهط كانوا منذ البداية فى معسكر ريموند (كونت تولوز) لكنهم انفصلوا عن صاحبهم وساروا متحمسين وراء القادة الذين ذكرناهم حالا ٠

ولما تكشف للكونت ما فعله أصحابه ، وأدرك فشل كل ما يبذله لهم من وعود لصرفهم عن المسير ولارجاعهم اليه لم يجد بدا من الخضوع للضرورة، وما يفرضه الواقع ، فتتبع الآخرين ولكن على

كره منه ، وسار وساروا حتى اذا صاروا على بعد خمسة أميال تقريبا من مدينة طرابلس نصبوا خيامهم أمامها ، فتخلى حاكم المنطقة الموكول اليه النظر فى شئون الخليفة بها عن مسلكه المتعجرف الذى اظهره قبل ذلك الوقت بقليل ، حين حاول أن يتعامل مع قوادنا معاملة الند للند ، فأرسل سفارة لاجراء مفاوضات الصلح وعرض خمس عشرة ألف قطعة ذهبية الى جانب هداياه من الجياد والبغال والحرير والأوانى الغالية الثمن ، كما وعد برد جميع الأسرى الصليبيين الذين كانوا رهن قبضته ، فرضى الزعماء أن يغادروا ولايته على هذه الشروط . ثم زادوا على ذلك بأن وافقوا على التخلى له فى أثناء مسيرهم عن المدن الثلاث التابعة له، وهى عرقة وطرابلس وجبيل بملحقاتها ، ثم زاد الوالى على هداياه التى ذكرناها فأرسل من لدنه الى الصليبيين قطعانا من الماشية والأغنام وكميات وفيرة من الزاد حتى لا يحملهم نقص الطعام على العيث فسادا فى المزارع التى يمرون بها ، وانزال الأذى بالفلاحين القائمين بزراعة الأرض هناك .

* * *

وكان هناك طائفة معينة من نصارى الشام تعيش على قمم جبال لبنان الشاهقة والتى تطل ذراها العالية على المدن الواقعة الى الشرق كما ذكرت حالا ، وجاء هؤلاء النصارى (المعروفون بالمارونيين) مهنئين الحجاج ومبدين لهم حبهم الأخوى ، ولما كانوا على دراية تامة بالمنطقة وما حولها فقد استدعاهم القادة مستفسرين منهم - باعتبارهم أهل خبرة بالناحية - عن أسلم الطرق وأيسرها الى بيت المقدس ، فصدقهم هؤلاء السوريون القول ودلوهم على الدروب المختلفة المؤدية الى حيث يقصدون ، وبينوا أطوالها ، ثم زكوا لهم فى النهاية طريق الساحل لأنه أقصر الدروب المباشرة الى وجهتهم ،

ولأن الحجاج - ان سلكوا ما أشاروا به عليهم - أمكنهم الحصـول على العون من سفنهم التى سوف تتبع الجيش فى تقدمه ٠

لم يكن الأسطول الصليبى قاصرا على سفن جينمار ورفاقه التى قدمت من فلاندرز ونورماندى وانجلترا كما قلنا ، ولكن كان هناك أيضا شوان من جنوة والبندقية واليونان ، وان كانت أغلب السفن قادمة من قبرص ورودس وغيرهما من الجزر وهى محملة بشتى صنوف البضائع ذات الفائدة القصوى لكتائبنا ٠

***

وبالاضافة الى من ذكرنا من النصارى الشاميين فقد استعان الحجاج برجال من أهل بيت والى طرابلس يدلونهم على الطريق ، فساروا بهم فى محاذاة الساحل ، الى جانب من استعانوا بهم من نصارى الشام الذين ذكرناهم ، فساروا بهم فى محاذاة الساحل جاعلين جبال لبنان على يسارهم ، حتى اذا اجتازوا مدينة « جبيل » عسكروا على شاطىء نهر قرب مكان اسمه « ماوس» فتلبثوا به يوما فى انتظار القادمين وراءهم من أتباعهم الضعاف الخائرى القوى وممن لم تسعفهم صحتهم بمضاهاتهم فى سرعة سيرهم ٠

- ٢٢ -

فلما كان اليوم الثالث نصبوا معسكرهم أمام مدينة بيروت على شاطىء نهر يمر بها ، فهاداهم واليها بالمال ، وأمدهم بكميات وفيرة من المؤونة ، ليحملهم على كف أيديهم عن التعرض للمحاصيل والأشجار ، فأقاموا هنا ليلتهم هذه مستجمين ، حتى اذا طلع اليوم التالى بلغوا مدينة صيدا حيث نصبوا خيامهم على طول شاطىء

النهر ليتوفر عندهم الماء ، ولم يقدم حاكم هذه المدينة لقوادنا أى ضيافة ولم يبد لهم ودا ، ولست أدرى دافعه الى ذلك الموقف ، الا أن تكون شدة وثوقه بقوته واعتماده الكلى عليها حملاه على مضايقة الجيش ، رغم أنه لم يوفق فى خطته هذه ، ولما ضاقت صدور بعض رجالنا ذرعا بهجمات الأهالى المتكررة عليهم ، ولم يعد فى قوس صبرهم منزع لاحتمالها كروا على الخصم كرة قتلوا فيها نفرا من رجاله ، وحملوا بقيتهم على الارتداد الى داخل المدينة ، وترتب على ذلك أن أمضى العسكر ليلتهم وهم فى هدوء لم يكدر خاطرهم أى مكدر من جانب العدو ، فلما جاء الصباح عزموا على البقاء حيث هم فترة وجيزة من الوقت حتى يسترد الناس بعض قواهم ، كما بعثوا رهطا من رجالهم المسلحين بالأسلحة الخفيفة للحصول على ما يلزمهم من الطعام من الضواحى المجاورة ، فأصابوا غنيمة وفيرة وكثرة من الأغنام والماشية ، وعادوا بذلك كله سالمين لا ينقصهم غير واحد منهم اسمه « والتر دى فيرا » ألح فى البعد عنهم طلبا لمزيد من النهب ، فلم يقدر له الرجوع ولم يوقف له على خبر ، فاستولى الحزن الشديد على رفاقه اذ جهلوا مصيره .

***

كان الشطر الأول من طريقهم فى اليوم التالى يمر عبر اقليم جبلى بعض الشىء ، الا أن الزحف انتهى بهم الى أرض أكثر انبساطا ، فمروا وعلى يمينهم مدينة أهل صيدا القديمة المعروفة باسم « ساريتا » التى شب فيها « ايليا »(١٩) رجل الرب ، ثم عبروا هذا النهر المتعرج حتى بلغوا مدينة صور عاصمة هذه المنطقة الشهيرة

(١٩) ملوك أول ١٧ : ٩ ـ ١٠ .

والموطن القديم لكل من اجنور « وكادموس » ، وهنا نصبوا معسكرهم على مقربة من نبع الجنان المعروف ، وهو نبع غزير الماء يعد أعجوبة من أعاجيب الدنيا ، فأمضوا ليلتهم هناك فى بساتينه الفسيحة التى نفيض بكل ما تشتهيه الأنفس من الطيبات ، ولما طلع الصباح تهيأوا ثانية للمسير بعد تغلبهم على ما صادفوه من صعاب الممر الضيق الواقع بين الجبال الشاهقة الارتفاع وبين البحر ، ثم نزلوا الى السهل القريب من مدينة عكا فنصبوا خيامهم على طول شاطىء نهر مجاور للمدينة التى سارع أهلوها وحاكمها لتقديم الهدايا اليهم ، وعقدوا سوقا على أحسن ما تكون السوق ، وبالغ الوالى فى اظهار صداقته نحو الزعماء وعقد معهم اتفاقا ووعدهم أنه مسلمهم مدينة عكا دون مقاومة ان هم نجحوا فى أخذ بيت المقدس وتمكنوا من الاقامة فى المملكة عشرين يوما بعد ذلك ، أو اذا استطاعوا هزيمة القوات المصرية ٠

ثم غادروا عكا سائرين فى طريق واقع بين جبل الكرمل والبحر، جاعلين الجليل على يسارهم حتى بلغوا قيصرية التى هى ثانية مدن فلسطين العظمى المعروفة قديما ببرج ستراتون ، فعسكروا فيها على نهر ينبع من الأدغال القريبة منها ، وهنا على بعد ميلين فقط من قيصرية احتفلوا يوم ٢٨ مايو (١٠٩٩ م) بعيد الفصح ٠

ثم تابع الحجاج سيرهم الشاق فى اليوم الثالث تاركين على يمينهم مدينتى انتيباتريس ويافا ، وعبروا سهلا فسيحا ، ثم اجتازوا « اللتيريا » حتى بلغوا « اللد » التى هى « ديوسبوليس » فرأوا فيها القبر العظيم للشهيد جورج الذى يسود الاعتقاد أن بقاياه ثاوية هناك برحمة السيد ، وكان الامبراطور التقى جستنيان الخالد الذكر حاكم الرومان الأرثوذكسى قد أمر بدافع اخلاصه القوى بتشييد كنيسة فى هذا الموضع تمجيدا لذكرى هذا القديس ٠

غير أنه قبل قليل من وصول الصليبيين قام العدو ـ وقد توقع قدومهم ـ بهدم هذه الكنيسة وتسويتها بالأرض مخافة أن يحيل الحجاج أعمدتها الخشبية الطويلة المستعملة فى بنائها الى عدد وآلات رمى لدك المدينة .

* * *

وعلم قوادنا أنه توجد على مقربة من موضعهم هذا مدينة رائعة تدعى « الرملة » فبعثوا اليها كونت فلاندرز مع خمسمائة فارس ليعرفوا على وجه التأكيد موقف أهلها وما يقترحونه من الشروط ، فاقترب هؤلاء الكشافة من المدينة فلم يخف أحد لمقابلتهم ، فدخلوها من أبوابها المفتوحة على سعتها ، فاذا هى خاوية مهجورة تماما من سكانها الذين لم تكد تجيئهم الأخبار بقرب الصليبيين منهم حتى أمضوا الليلة السابقة فى مغادرتها هم ونساؤهم وأبناؤهم ، وحملوا معهم كل أمتعتهم ، فأصبحت المدينة خاوية على عروشها ، فبادر الكونت (دى فلاندرز) فى لحظته هذه بارسال رسول الى العسكر حاملا اليهم هذا الخبر ، ومشيرا عليهم بالاسراع الى المدينة ما وســـعتهم السرعة ، ومن ثم فانه ما كاد الصليبيون يفرغون من صلواتهم المعتادة حتى زحفوا على الرملة وظلوا مقيمين بها ثلاثة أيام ، ينعمون بما فيها من غلال ونبيذ وزيت .

ثم جاءوا الى رجل نورماندى المولد من أسقفية « روان » اسمه روبرت ورسموه أسقفا على الكنيسة الموجودة فى ذلك الموضـــع ، ومنحوه مدينتى اللد والرملة ومايتبعهما من النواحى ، وجعلوهما منحة لا تسترد أبدا ، وبذلك أهدوا مخلصين أولى ثمار جهودهم الى الشهيد جورج العظيم .

في هذه الأثناء ترددت الأخبار محذرة ســكان بيت المقدس باقترابنا منها ، فأدركوا ادراكا صادقا أن ليس لهذا الحشد الكثيف الذى قيل باقترابه منهم من هدف سوى الاستيلاء على مدينتهم ، فلم يدخروا وسعا ، ولا تراخت عزائمهم عن تحصــينها ، ونافس بعضهم بعضا فى احضار وجمع كل ما استطاعوه مما يلزمهم من الطعام ومن شتى صنوف السلاح والخشب والحديد والصلب ، أو فى كلمة واحدة بكل ذى جدوى لمن هم تحت الحصار ٠

وكان صاحب مصر قد نجح ـ فى خلال هذه السنة ـ فى استرداد سيادته على مدينة القدس بعد أن كانت فى أيدى الترك ، وبسط نفوذه عليها ، لذلك ما كاد يعلم بمغادرة جيشنا لأنطاكية حتى أمر القوم أن يعجلوا كل العجلة باصلاح جميع أبراج المدينة المقدسة وترميم ما يحتاج الى ترميم من أسوارها ، ثم عمل على كسب ولاء سكانها له ، فأمر بان تصرف لهم الأجور السخية من خزانته الخاصة، وأن يسامحوا نهائيا فى ما عليهم من الضرائب والجمارك ، واذ رغب الأهالى فى الاستفادة من مثل هذه الامتيازات والعمل على ما فيه سلامتهم وخيرهم فقد كرسوا أنفسهم لاطاعة الرغبة الخليفية ، فاستدعوا اليهم سكان المدن المجاورة لهم ، واعتنوا بتقوية وسائل الدفاع عن المدينة فحشدوا الكثيرين من الرجال الأقوياء المسلحين أكمل تسليح ٠

واجتمع الكل وهم يد واحدة فى ساحة المسجد الفسيح الأركان ليتدبروا ما يفعلون ازاء ما يتوقعون حدوثه ، وليمنعوا ـ ان أمكن ـ تقدمنا ، فقرروا الوثوب على جميع السكان النصارى وهدم كنيسة القيامة من أساسها وكذلك قبر السيد الموجود هناك حتى يكون ذلك

حائلا فى المستقبل دون مجىء هذا السيل العرم من الحجاج الذين يتقاطرون زرافات بعضها فى أثر بعض لزيارة هذه البقاع وللصلاة فيها ، غير أنهم لما أخذوا يتدبرون ما قرروه خافوا أن يزيد هذا العمل من كراهية الصليبيين لهم ، وقد يحركهم هذا على القيام بمحاولات أشد عنفا للقضاء على أهل بيت المقدس ، ومن ثم تغيرت هذه الخطط فعمدوا الى اغتصاب كل ما بيد سكانها النصارى من مال ومتاع ، وفرضوا عليهم دفع غرامة قدرها أربع عشرة ألف قطعة من الذهب تجبى من البطرك صاحب الولاية اذ ذاك فى مدينة القدس، ويشاركه فى سدادها سكانها النصارى وأهل الأديرة الموجودة فى تلك الناحية .

على أن جميع ما كان يملكه النصارى الذين يعيشون فى بيت المقدس لم يكن كافيا لسداد هذا القدر من المال، ، وعلى ذلك فقد أصبح من الضرورى على البطرك الموقر أن يقوم برحلة الى قبرص للحصول على ما يفى بهذا المطلب الفادح .

كذلك احتاج البطرك الى المال لسداد بعض احتياجاته ولسد عوز المؤمنين ، وكان يطمع أن يستجدى من مؤمنى هذه الجزيرة المخلصين صدقاتهم وزكاتهم فيرسلها الى أهل الرب المنهكين الجائعين ممن يسكنون القدس وأطرافها رجاء الابقاء على حياتهم ، لكن يبدو أن كل هذه الابتزازات لم تسد جشع القوم الذين استعملوا التعذيب والقهر فى اغتصاب كل ما بيد المؤمنين ، بل زادوا فنفوهم جميعا من البلد ، ولم يستثنوا من ذلك النفى سوى الشيوخ والمرضى والنساء والأطفال ، ولم يزل هؤلاء المطرودون هائمين على وجوههم فى القرى الصغيرة القريبة من المدينة حتى لحظة قدومنا ، وهم يتوقعون الموت بين ساعة وأخرى ، دون أن يجرؤوا على دخول

القدس ، كما أنه لم يكن ثم موضع فى هذه الأماكن الخارجية يجدون فيه الأمن أو يمكنهم اللجوء اليه ، فقد كانوا محاطين انى ذهبوا بمضطهديهم ، وكانت كل حركة من جانبهم موضع ريبة سكان القرى الذين كلفوهم بأحط الأعمال وأقساها(٢٠) ٠

كان يعيش بالمدينة الحبيبة الى الرب ابان ذلك الحين رجل تقى نذر حياته لله اسمه « جيرالد » وهو القيم على النزل المذكور آنفا الذى ينزله القادمون الفقراء اذا قدموا القدس لأداء الصلاة ، فيجرى عليهم من الرزق ما يلائم ظروف الزمان والمكان ٠

واعتقد الأعداء ان بحوزة هذا الرجل مالا يخفيه ، وتوجسوا خيفة منه أن يبذله فى الحاق الضرر بهم حين يصل جيشنا ، فلم يتأخروا عن ضربه والزج به فى السجن حيث لاقى فيه أفظع ضروب التعذيب ، حتى تفسخت مفاصل يديه وقدميه ، ولم تعد أطرافه قادرة على الحركة ٠

ـ ٢٤ ـ

أمضى الجيش ثلاثة أيام فى الرملة عين بعدها حراسا لحماية أمنع جزء بالمدينة من هجمات الخصوم ، فلما فرغ من ذلك تأهب لمتابعة زحفه الى غايته المنشودة ، حتى اذا كان فجر اليوم التالى وصل الجنود الى « نيكوبوليس » ، مسترشدين برجال من أهل الخبرة الملمين بالأقاليم احسن الالمام ٠

---

(٢٠) راجع الجزء الأول من هذه الترجمة العربية ، الكتاب ١ ، ف ١١ ، ص ٩٠ ـ ٩٢ ٠

ونيكوبوليس هى احدى مدن فلسطين، وقد ورد فى كتب الانجيليين انها هى قرية « عمواس » ، ويقول القديس لوقا الانجيلى انها على بعد ثلاثة مراحل من بيت المقدس(٢١) ، ويتكلم عنها «اسوزو مينوس» فى الكتاب السادس من تاريخه التثليثى فيقول « بعد أن فتح الرومان يهوذا وخربوا أورشليم سميت عمواس بنيكوبوليس تمجيدا لذلك النصر » ، ويوجد أمام المدينة (وعند مفترق الطريق المعروف بأن المسيح مشى فيه مع كليوبا بعد قيامه كما لو كان قاصدا قرية أخرى) أقول انه يجرى هنا نبع فى مائه شفاء للناس ، اذا اغتسلوا فيه زالت عنهم أوجاعهم ، وتبرأ فيه الحيوانات الدنيا من كل ماتتعرض له من أمراض خاصة بها ، وتقول الرواية فى تفسير هذا الاعتقاد ان المسيح ذاته تجلى فى أثناء هذا السير لتلاميذه عند هذا النبع وغسل بنفسه أقدامهم فى مياهه التى أصبحت منذ ذلك الحين برءا لكل الأسقام ٠

هذه هى الحقائق التى أوردها هذا المؤرخ (سوزو مينوس) المشار اليه عن قرية عمواس ٠

❋ ❋ ❋

أمضى الصليبيون تلك الليلة فى هدوء متمتعين بالماء الغزير والطعام الشهى الوفير ، حتى اذا انتصف الليل أو كاد جاءتهم رسل من المؤمنين المقيمين ببيت لحم يرجون من الدوق جود فروى رجاء حارا أن يبعث اليهم بطائفة من رجاله ، ولم يكن الحاحهم عليه راجعا فحسب لرغبتهم فى أن يمد لهم يد العون ضد العدو الذى كان يسرع من كل البلاد ومن جميع قرى الناحية قاصـــدا بيت المقدس ، بل

---

(٢١) لوقا ٢٤ : ١٣ ٠

وأيضا ليجدوا هم ذاتهم مكانا آمنا لأنفسهم ، واشتد الفزع بمؤمنى بيت لحم مخافة أن يهاجم هؤلاء الكفار مدينتهم، وان يهدموا الكنيسة التى طالما تكرر انقاذ المسيحيين لها من الدمار الذى كان هؤلاء الأعداء يصبونه عليها ، وكان انقاذهم اياها بدفعهم مبالغ نقدية كبيرة لهم ٠

استمع الدوق جود فروى الى التماسات هؤلاء الاخوة المؤمنين بنفس حانية ، فقام باصطفاء مائة من أتباعه الفرسان الأشاوس المدججين بالسلاح الخفيف ، وأمرهم أن يسرعوا فى التو واللحظة الى بيت لحم لمساعدة مسيحييها ، وانضم تانكريد الى هذه الحملة ، وألقيت اليه قيادة تلك الجماعة التى وصلت مع مطلع النهار الى طيتها المنشودة مسترشدة بهداية الرسل ، فاستقبلها الأهالى بالترحاب العظيم ، وساروا بهم الى الكنيسة ومن حولهم العامة ورجال الدين يزفونهم بالأهازيج ، وينشدون بين أيديهم الأناشيد الدينية ، ففاضت القلوب بالفرحة الغامرة وهم يطالعون موضع الميلاد المجيد والمذود الذى كان مهد المخلص ذات مرة ، ثم رفع الأهالى راية تانكريد فوق الكنيسة رمزا للنصر وسط هتافات الغبطة الحماسية ووسط ترتيلهم المزامير وترديدهم اناشيد الشكر الدينية ٠

فى هذه الأثناء كانت قلوب الذين خلفوهم وراءهم تتحرق شوقا لمتابعة الزحف ، وجافاهم النوم اذ عرفوا أنهم صاروا على مقربة من الأماكن الطاهرة ، وعز عليهم الرقاد لما انطوت عليه قلوبهم من حبها وتوقيرها حبا وتوقيرا أعاناهم على احتمال كثير من المشاق والأهوال على مدى ثلاث سنوات سويا ، وراحوا يترقبون فى شوق بزوغ الفجر ليروا نجاح سفرهم وما أسفر عنه حجهم الطويل من خاتمة سعيدة ، وخيل اليهم كأن ليل حراستهم قد طال فوق كل حد ، وانه جاوز كل معقول فى انتظار الغد ، وكان كل انتظار عبئا ثقيلا

وخطرا على قلوبهم الخفاقة ، مصداقا للمثل القائل « ان كل عجلة للقلوب المشتاقة ليست مستغربة» ، وقول الآخر « انه كلما طال الوقت ازداد الشوق لهيبا » .

- ٢٥ -

عندما ذاع فى المعسكر أن رسلا من أهل بيت لحم جاءوا الى الدوق وانه بعث بقوات من الجيش لمساعدتهم هاج الناس غضبا وراح كل يحث الآخـــر على الثورة ، ولم ينتظروا أحدا يأذن لهم بالرحيل ، أو يترقبوا لجظة انسب من اللحظة التى يقدمها لهم طلوع الفجر ، وتذمروا من كل ابطاء فخرجوا تحت جنح الظلام البهيم غير مكترثين بمعارضة قوادهم لهم .

وما كادوا يسيرون مسافة قصيرة وتتخضب السماء قليلا بلون مشرق حتى غادرهم رجل نبيل شجاع هو « جاستون دى بيزييه » على رأس ثلاثين من الفرسان المدججين بالسلاح الخفيف ، واتجه بهم سريعا ناحية بيت المقدس ، مؤملا أن يجد خارج أســـوارها قطعانا من الماشية والأغنام فيستولى عليها ويعود بها الى الجيش ، وصح ما أمله اذ وجد قرب المدينة بعض الماشية فى حراسة رعاة قلائل ماكادوا يبصرون رجالنا حتى فروا مذعورين الى المدينة .

وانطلق جاســـتون مسرعا الى المدينة بما استولى عليه من الماشية التى فر عنها رعاتها الذين صحا أهل البلد من سباتهم على صراخهم ، فبادروا الى حمل سلاحهم وهبوا انشـــط ما يكونون لمطاردة جاستون وهو فى طريق عودته الى المعسكر ، أملا منهم فى استرداد الغنيمة التى سلبها منهم عنوة ، فاســـتولى على الفارس المعلم الخوف من كثرة عدد مطارديه ، فتخلى سريعا عما نهب ،

وهرب مع أصحابه طلبا للسلامة ، حتى اذا بلغوا بقعة واقعة على أحد التلال توقفوا ينتظرون ما يسفر عنه الأمر ، حينما ظهر فجأة من أحد الأودية القريبة تانكريد مع فرسانه المائة وهم قافلون الى المعسكر من بيت لحم ، فأسرع جاستون اليه ، وقص عليه ما حاق به من سوء الحظ ونكد الطالع ، فضم القائدان قواتهما بعضا الى بعض وكر الجميع فى أثر العدو الذى كان عائدا بقطعانه فهاجمه عسكرنا قبل أن يتيسر له الوصول الى المدينة ، وقتلوا الكثيرين من رجاله وفر الباقون ، وعاد القائدان الصليبيان الى المعسكر ظافرين يسوقان مرة ثانية الغنيمة المستردة ٠

ولما سئلوا من أين كان حصولهم على ما نهبوا قالوا انهم جاءوا بها من الحقول التى فى أرباض أورشليم ، فلما صافحت كلمة «أورشليم» سمع الحجاج اعترتهم نشوة روحية عارمة ، لم يستطيعوا معها أن يمسكوا دموعهم من أن تسيل أو يكبتوا آهاتهم ، فهاهى ذى القدس التى تحملوا من أجلها كثيرا من الأهوال على مرآى العين منهم ، واذ ذاك خروا سجدا على الأرض ممجدين الرب وحامدين من منح شعبه المؤمن نعمة خدمته الجليلة المشكورة ، ومثنين على السيد الذى تفضل فاستمع الى دعوات شعبه ورآهم أهلا لأن يتحقق أملهم فى أن يبلغوا المدينة التى استبد الشوق بهم اليها ٠

وكان الحجاج ــ ومعظمهم مشاة حفاة ــ كلما دنوا من المدينة المقدسة واكتحلت عيونهم بمرآها على قرب منهم أفصحت دموعهم وزفراتهم الصادرة من قلوب مخلصة عن فرحتهم الروحية ، وتزايدت حماستهم فى الاندفاع نحو هدفهم ، وما لبثوا الا قليلا حتى كانوا واقفين أمام مدينة بيت المقدس فنصبوا خيامهم حولها حسب الترتيب الذى وضعه زعماؤهم ٠

وهنا تمت نبوة أشعيا وصحت كلمة السيد اذ قال « ارفعوا عيونكم الى بيت المقدس ، وتأملوا قوة الرب ، وانظروا مخلصكم يأتى ليخلصكم من قيودكم(٢٢) ، وقوله : «انتبهوا انتبهوا واستيقظوا، وأنت يا أورشليم حررى نفسك من أغلال الرقبة ٠٠ أيتها الأسيرة يابنت صهيون » ٠

***

هنا ينتهى الكتاب السابع

---

(٢٢) هذه هى الترجمة الحرفية لما أورده وليم فى الاصل ، فهو لم يتقيد تماما ـ وذلك على غير عادته ـ بنص ما جاء فى التوراة فى سفر أشعيا ١٧/٥١ اذ قال : « انهضى انهضى يا أورشليم ، وقومى يا أورشليم التى شربت من يد الرب كأس غضبه قبل كأس » ٠

الكتـــاب الثـــامن

خاتمة رحلة الحج : الاستيلاء على القدس

الفصـــــــول :

١ ـ وصف موقع المدينة المقدسة وذكر النواحى والأماكن الموجودة داخل حدودها ٠

٢ ـ استعراض الأسماء العديدة التى أطلقت على هذه المدينة ، وكيف جعلها داود عاصمة لملكته ، وكيف نقلها الامبراطور هادريان من سفح الجبل الى قمته ، وبعض ملاحظات اخرى عن موقعها ٠

٣ ـ بيان أى جزء من التلين يقع فى نطاق السور ، وكذلك تحديد موقع كنيسة قيامة السيد وهيكله على المرتفعات ووصف شكل الكنيستين ٠

٤ ـ الخبر فى كيفية تشييد المدينة فى بقعة جرداء ليس بها ماء ،

وذكر خبر سلوام أيضا ، وكيف أن الأهالى حين سماعهم باقترابنا طموا الينابيع وأفسدوا الصهاريج ٠

٥ ـ تحديد موعد وصول الجيش الصليبى أمام المدينة وذكر عدد قواتنا وقوات العدو وشرح كيفية ترتيب العسكر ٠

٦ ـ الصليبيون يهاجمون المدينة فى اليوم الثالث بعد ترتيب أماكن العسكر ، ويسترشدون بأحد النصارى المخلصين فى الذهاب الى الغابات لقطع الأشجار التى يصنعون منها آلات الحصار ٠

٧ ـ اصابة الناس بالاغماء بسبب حاجتهم الى الماء وسقوطهم فى يد العدو مرة أخرى أثناء سعيهم وراء الماء وغيره من ضرورات الحياة ٠

٨ ـ الأهالى يصنعون الآلات ويستعدون للمقاومة ويرغمون المؤمنين الساكنين معهم فى المدينة على القيام بأعمال كثيرة فيها جور كثير عليهم ٠

٩ ـ وصول أسطول من جنوه الى يافا وارسال الأدلاء من الجيش لمصاحبة رجاله فى ذهابهم الى موضع الحصار ، ولكن الحرس يتعرضون فى طريقهم لكمين نصبه العدو لهم ٠

١٠ ـ القادمون بحرا يذهبون الى الجيش ويمدون يد العون الفعال فى بناء الآلات ، كما تم عقد الصلح بين ريموند كونت تولوز وتانكريد ٠

١١ ـ اعلان الصيام وصعود كل طوائف الحجاج الى جبل الزيتون٠

١٢ ــ الدوق والكونتان العظيمان يتحركون بعسكرهم أثناء الليل ، وينصبون الآلات حول المدينة ٠

١٣ ــ قصف المدينة وشبوب قتال عنيف بين الجانبين ولكن المعركة تتوقف لدخول الليل ٠

١٤ ــ المحاصرون والمدافعون على السواء يقضون الليل فى حال من القلق البالغ ٠

١٥ ــ العودة للقتال فى اليوم التالى ، واشتداد الهجوم على المدينة اشتدادا أفظع من سابقه ، ومصرع الساحرات ٠

١٦ ــ ظهور آية فى السماء على جبل الزيتون ، واذ ذاك يعود من ارتدوا منذ قليل منهكين ولكنهم يتلهفون على القتال ٠

١٧ ــ كونت تولوز وقواته يهاجمون المدينة بعنف شديد من الناحية الجنوبية ٠

١٨ ــ الدوق وأصدقاؤه يدلون الجسر من فوق البرج الخشبى الى السور ويدخلون قواتهم ، واذ ذاك تستسلم المدينة وتفتح أبوابها ويدخل عسكرنا بيت المقدس ٠

١٩ ــ الدوق يمضى على جواده متجولا فى المدينة هنا وهناك مع اتباعه ، ويأتى من أعمال التخريب ماهو فوق الوصف ، وأما كونت تولوز فيقتحم المدينة من ناحيتها الجنوبية ويدخل رجاله ، فيرتد بعض المواطنين الى القلعة ٠

٢٠ ــ الأهالى يجتمعون بساحة المسجد فيتعقبهم تانكريد الى هناك ويتمخض الأمر عن مذبحة مروعة وبسفك دم كثير هناك ٠

٢١ ـ الهدوء يعود الى المدينة ، وتسكن الجلبة ، وتنحى الأسلحة جانبا للصـــلاة ، ثم يتجول الصليبيون فى القدس لزيارة الأماكن المقدسة وينقضى اليوم فى أداء شعائر وقورة .

٢٢ ـ أسقف بوى وغيره ممن توفاهم الرب أثناء هذا الحج يظهرون فى المدينة ويتجلون للكثيرين .

٢٣ ـ المؤمنون الساكنون بيت المقدس يقدمون الشكر الصـــادق لبطرس الناســـك الذى حملوه من قبل رسالتهم واكرموه الاكرام الذى يستحقه عن حق .

٢٤ ـ تنظيف المدينة من جيف القتلى ، واستسلام الهاربين بالقلعة الى ريموند كونت تولوز ، واعتبار هذا اليوم يوما خالدا أبدا .

* * *

هنـــا يبـــدأ

الكتـــاب الثـــامن

خاتمة رحلة الحج : الاستيلاء على بيت المقـــدس

— ١ —

من الحقائق المعروفة تمام المعرفة أن أورشليم المدينة المقدسة الحبيبة الى الرب تقع على تلال عالية ، وتقول الأخبار القديمة انها كانت تابعة لقبيلة بنيامين .

ويقع الى الغرب منها أرض شمعون وأرض الفلســـطينيين ، وكذلك البحر الأبيض المتوسط الذى تبعد أقرب نقطة منه عنها بأربعة وعشرين ميلا وذلك عن مدينة يافا القديمة .

وتوجد قرية عمواس بين بيت المقدس وبين البحر ، وهى التى سميت فيما بعد بنيكوبوليس ، حيث تجلى السيد — بعد قيامته — لاثنين من تلاميذه .

كذلك تقع قلعة « مودين » وهى احدى قلاع المكابيين الطاهرين الشديدة التحصين ، وأيضا القرية المباركة « نوب » التى أطاع فيها داود وخدمه ــ اذ جاءوا ــ الكاهن « اخيمالك »(١) فأكلوا الخبز المقدس ، كما يوجد هناك أيضا ، ديوسبوليس » وهى اللد ، التى أبرأ فيها بطرس الرجل المقعد الكسيح(٢) الذى ظل طريح الفراش مضطجعا على السرير مفلوجا منذ أن كان فى الثامنة من عمره ٠

كذلك توجد يافا حيث أحيى بطرس من بين الموتى التلميذة المسماة « طابيتا »(٣) صاحبة الأعمال الخيرة والاحسان ، وردها الى الحياة فى وجود القديسين والأرامل ٠

كذلك حدث فى يافا أن تلقى بطرس ــ وهو مقيم فى بيت سمعان الدباغ ــ رسول « كورنيليوس » كما هو وارد فى أعمال الرسل(٤) ٠

ويوجد فى شرقى المدينة ، وعلى بعد أربعة عشر ميلا ، مياه الأردن والصحراء المتاخمة له التى كانت معروفة قديما كل المعرفة لأبناء الأنبياء ، كما يوجد هناك الوادى الخشبى ، حيث يوجد الآن بحر الملح المعروف أيضا ببحيرة الاسفلت أوالبحر الميت ، وكان

---

(١) صموئيل الأول ٢١ : ١ ــ ٦ ٠

(٢) الرجل الذى يشير اليه وليم الصورى فى المتن ولم يذكر اسمه ولا الترجمة الانجليزية هو « اينياس » كما ورد فى أعمال الرسل ، ٩ : ٣ ٠

(٣) جاء فى التوراة أن معنى « طابيتا » هو « الغزالة » ونضيف فى هذه الترجمة العربية ما جاء فى أعمال الرسل ، ٩ : ٣٦ من « انها كانت ممتلئة أعمالا صالحة واحسانات كانت تعملها ، ولما ماتت استدعى بعضهم بطرس فصلى ثم أمرها ــ وهى ميتة ــ بالقيام ففتحت عينيها وجلست ٠

(٤) أعمال الرسل ٩ : ٣٦ وما بعدها ٠

كل هذا الاقليم ـ كما نقرأ فى سفر التكوين(٥) ـ يروى مثل جنة الرب وذلك قبل أن يعصف الرب بسدوم فيدمرها ٠

وتقع على هذا الجانب من الأردن مدينة « أريحا » التى تغلب عليها «يوشع» خليفة موسى بالصلاة أكثر من تغلبه عليها بالحرب ، وهنا رد السيد ـ فيما بعد أثناء مروره بها ـ النظر الى الرجل الأعمى(٦) ، كما يوجد هنا أيضا (جبل) الجلجلة ، وهو المكان الذى انصرف اليه ايليا ٠

وتقع فيما وراء الأردن جلعاد وبيشان وعمون ، ومؤاب التى انتهت من بعد الى الرؤبيين والجاديين ، والى نصف سبط منسى(٧)، ويعرف كل هذا الاقليم باسم عام هو « بلاد العرب » ٠

يوجد الى الجنوب من أورشليم القسم الذى به نصيب يهوذا ، وفيه بيت لحم ، وهو المكان الذى سلكه المخلص ، والموضع الذى سعد بمولد المسيح وكان مهده ، وتوجد هنا مدينة « تقوع » موطن النبيين حبقوق وعاموس ، والخليل الذى يعرف أيضا باسم كارياترب التى توجد بها المقابر الطاهرة للبطاركة المباركين ٠

وتقع الى الشمال من بيت المقدس مدينة « جبعون » التى ذاعت شهرتها بسبب انتصار يوشع بن نون « والتى شهدت معجزة وقوف

---

(٥) سفر التكوين ، ١٣ : ١٠ ٠

(٦) الغريب أن وليم الصورى ، وهو من هو فى حفظه للانجيل ـ يشير الى أن معجزة السيد المسيح كانت لرجل واحد أعمى ، على حين أن الوارد صراحة فى انجيل متى ٢٠ : ٣٠ ـ ٣٣ أنهما كانا اثنين « وكانا جالسين على الطريق » ، ومن شاء المزيد من خبر هذه المعجزة فليرجع الى متى ٠

(٧) انظر يوشع ، الاصحاح ٢٢ ٠

الشمس ساكنة له فى كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل ، وهى أرض سبط افراييم التى يوجد فيها « شلواه » الذى كان ذات مرة حارسا لهيكل السيد ، « وسخار » ، وهى أرض المرأة السامرية التى تكلمت مع المسيح ، و « بيثل » عابد العجل الذهبى والشاهد على خطيئة جيروبيام »(٨) ٠

كما يوجد هنا أيضا « سسبطيه » المدفون بها كل من يوحنا المعمدان وايليا و « عبديا » ، وقد سميت هذه الناحية فيما بعد « بالسامرة » نسبة الى تل « شمر » الذى بنيت عليه ، كما كانت ذات مرة عاصمة ملوك اسرائيل ، فعرف ذلك الاقليم منذ ذلك الحين باسم « السامرة » ٠

كذلك يوجد الى الشمال مدينة نابلس التى كانت تسمى قديما « بشكيم » نسبة الى مؤسسها ، وتقول كلمات سفر التكوين ان شمعون ولاوى ابنى يعقوب قاما لدفع العار الذى جلبه » شكيم بن حمور » على اختهما « دينة » ، بفعلته الشهوانية الحمقاء ، فذبحا شكيم بن حمور وأولاده بالسيف ، وأضرما النار فى المدينة حتى صارت رمادا(٩) ٠

— ٢ —

وتقع أورشليم كبرى مدة اليهودية فى بقعة عديمة المياه والينابيع والغابات والمراعى ، واذا أخذنا بما جاء فى التواريخ

---

(٨) انظر هذا المخبر فى الاصحاح العاشر من سفر يوشع ٠

(٩) سفر التكوين ٣٤ : ٢٥ ٠

القديمة وفى أخبار الشعوب الشرقية فان هذه المدينة كانت تسمى فى البداية باسم « سالم » ، ثم صارت « يبوس » ، وبعد أن حكم داود سبع سنوات فى الخليل أخرج اليبوسيين من سالم وزاد فى حجم المدينة وجعلها قاعدة ملكية(١٠) ، وسماها أورشليم ، ونطالع فى أخبار الأيام الأول ان داود رحـل بعدئذ ومعه كل اسـرائيل الى أورشليم أى « يبوس » حيث كان اليبوسيون هم سكانها ، وقال سكان يبوس لداود : « لا تدخل الى هنا » . ومع ذلك فقد استولى داود على قلعة صهيون التى هى مدينة داود ، وقال داود « أن أول من يضرب اليبوسيين يكون « رأسا وقائدا » ، ولذلك كان يوآب بن صرويه أول المتقدمين فصار رأسا ، ثم سكن داود الحصن الذى سموه مدينة داود ، وبنى المدينة حوله ، فامتدت من ميللو ، كما أن يؤاب جدد بقيتها .

ثم لما حكم سليمان بن داود هذه المدينة فيما بعد سـميت « بهيروسوليما » ، أى أورشليم سليمان ، ويذكر المؤرخان الشهيران ايجسبوس ويوسيفوس انه بسبب خطايا شعب يهوذا فان «تيتوس بن فيسباسيان » أمير الرومان العظيم حاصر أورشليم فى السنة الثانية والأربعين التالية لعذاب السيد، واستولى عليها وهدمها من أساسها، فصـدقت كلمة المسـيح انه « لن يبقى فيها حجـر على حجر لم ينقض »(١١) .

ثم جددت أورشليم بعد ذلك على يد «ايلوس هادريان» امبراطور الرومان ، وهو الرابع فى سلسلة الملوك بعد تيتوس ، فسميت اذ ذاك « ايليا » تمجيدا لاسمه حسبما نطالع ذلك فى أخبار مجمع نيقية

(١٠) الأيام الأول ، ١١ : ٤ ــ ٨ .
(١١) متى ٢٤ : ٢

المســـــكونى ، حيث جاء « ويكون أســــاقفة ايليا مبجلين عند الجميع »(١٢) ٠

كانت المدينة تقوم أصلا عند منحدر التل ، وهى تواجه المشرق والمغرب على السواء وكانت تقع على منحدر كل من جبل صهيون و «موريا » ولم يكن على المرتفعات سوى الهيكل وقلعة «أنتونيا» وقد نقل هادريان المدينة كلها الى قمة الجبل فصار مكان آلام الســـيد وقيامته داخلين ضمن نطاق نفس الموقع حين أعيد بناؤها بعد أن كان هذان الموضعان خارج المدينة قبلا ٠

***

وبيت المقدس أصــــغر من المدن الكبرى وان كانت أكبر من أى مدينة عادية ، وهى ذات شكل رباعى بعض الشىء وان كان أميل الى الاستطالة ، اذ أن أحد أضلاعها أطول من بقية أضلاعها الأخرى، وتحدها من جوانبها الثلاثة وديان عميقة ، ويقع شـــرقيها وادى « يهوشافاط » الذى يشير اليه النبى يوئيل(١٣) فى قوله « لأنه هو ذا فى تلك الأيام وفى ذلك الوقت عندما ارد سبى يهوذا وأورشليم أجمع كل الأمم وأنزلهم الى واد يهو شافاط وأحاكمهم هناك على شعبى وميراثى اسرائيل » ٠

ويوجد فى قاع هذا الوادى كنيسة رائعة أقيمت تمجيدا للعذراء أم المسيح التى يسود الاعتقاد أنها مدفونة بها ولايزال قبرها المبارك مزارا للجموع المتدفقة الى ذلك المكان ، كما يشـــق هذا الوادى جدول « قدرون » الذى يفيض شتاء بمياه الأمطار المنهمرة ويشير

(١٢) انظر Canon VII, first Council of Niceae.
(١٣) يوئيل ٣ : ١ ـ ٢ ٠

اليه القديس يوحنا الانجيلى حيث يقول « وخرج يسوع مع تلاميذه الى عبر وادى قدرون حيث كان بستان(١٤) ٠

ويتصل بهذا الوادى من الناحية الجنوبية رافد آخر اسمه « هنوم » ، الذى صار ــ حين وزعت الأرض بين أبناء اسرائيل ــ حدا للأنصبة المخصصة لــ « بن » ، ويهوذا ، كما هو مكتوب فى يوشع : « وصعد التخم فى وادى ابن هنوم الى جانب اليبوسى من الجنوب هى أورشليم ، وصعد التخم الى رأس الجبل الذى هو قبالة وادى هنوم غربا »(١٥) ٠

ولايزال يرى هنا الحقل الذى اشتراه أكبر التجار الملعونين يهوذا بالمال الذى قبضه ثمنا لتسليمه المخلص لليهود ، ويعرف هذا الحقل باسم « الخلذمة » ثم جعلوه مدفنا للحجاج ٠

كما نقرأ أيضا عن هذا الوادى فى « أخبار الأيام الثانى » فيما يتصل بأحاز (بن داود) ، وهو « أوقد فى وادى هنوم وأحرق بنيه بالنار حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى اسرائيل(١٦) ٠

ويحد بيت المقدس من الغرب جزء من نفس هذا الوادى الذى كانت فيه بركة قديمة ذهبت بالشهرة فى أزمان ملوك يهوذا ، ويمتد الوادى من هنا الى البحيرة العليا المســـماة عادة ببحيرة البطرك المجاورة للمقبرة العتيقة فى جب الأسد ٠

---

(١٤) يوحنا ١٨ : ١ ٠
(١٥) يشوع ١٥ ٠
(١٦) الايام الثانى ٢٨ : ٣ ٠

ويقارب المدينة من الشمال طريق مستو لايزال يرى به الموضع الذى رجم اليهود فيه استيفان أول الشهداء وهو الموضع الذى ركع فيه واستغفر لمضطهديه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة(١٧) ٠

— ٢ —

يقع بيت المقدس على جبلين بناء على ما يقوله داود « أساسه فى الجبال المقدسة » ٠

وتقع قمتا هذين الجبلين داخل نطاق الأسوار ويفصلهما عن بعضهما واد صغير يقسم المدينة الى قسمين ، ويسمى الجبل الواقع الى الغرب بجبل صهيون وقد أشير اليه فى قول القائل : « الرب أحب أبواب صهيون أكثر من جميع مساكن يعقوب »(١٨) ٠

أما الجبل الآخر الواقع الى الشرق ويعرف بجبل « المريا » ، وقد وردت الاشارة اليه فى أخبار الأيام الثانى(١٩) ٠ حيث قيل : « وشرع سليمان فى بناء بيت الرب فى أورشليم فى جبل المريا حيث تراءى لداود أبيه حيثهيأ داود مكانا فى بيدر ارنان اليبوسى » ٠

ويوجد الى الغرب على نفس قمة الجبل كنيسة تسمى بكنيسة صهيون ، ويقوم على مسافة قصيرة منها برج داود ، وهو بناء شديد الضخامة ، سامق الأبراج والأسوار والتحصينات المتصلة به وبذلك يشرف على المدينة التى تجثم تحته ويكون هو قلعتها ٠

---

(١٧) المزامير ٨٧ : ١ ٠
(١٨) المزامير ٨٧ : ٢ ٠
(١٩) الأيام الثانى ٣ : ١ ٠

كما يوجد على مقربة منها كنيسة القيامة الطاهرة الدائرية الشكل ، ولما كانت هذه الكنيسة تقع على منحدر التل الذى ذكرنا حالا أنه يشرف عليها من أعلى ويتاخمها فانه يجعل داخلها حالك الظلمة ، على أن سقفها مشيد من عروق الخشب الشديدة الارتفاع ، المصنوعة أبدع صنعة على شـــكل تاج ، وهى مبنية هكذا لتكون مفتوحة دائما الى السماء مما يتيح للداخل ما يحتاجه من الضوء ، ويقع تحت هذه الفتحة المتسعة قبر المخلص ٠

كان موضع آلام السيد المسمى « كلفارى » أو الجلجلة يقع قبل مجىء شعوبنا اللاتينية خارج حدود هذه الكنيسة ويقال انه وجدت هنا خشبة الصليب الأصلى ، كما تذكر الأخبار أيضا أنهم لما أنزلوا جسد المخلص من على الصليب مسحوه هنا بالزيت وضمخوهبالعطور الزكية ، وأدرجوه فى درج لفائفه من الكتان كما جرب عادة اليهود فى الدفن ، ولم تكن هناك فى ذلك الوقت سوى كنيسة صغيرة جدا ، ولكن بعد أن تمكن الصليبيون من الاستيلاء على بيت المقدس بعون الرب وأحكموا قبضتهم عليها رأوا ما عليه هذا المبنى الأصلى من شدة الصغر فزادوا فيه ثم استخدموا اللافتة بناء جديدا من الحجر المصمت ، شاهق الارتفاع ، أحاط بالكنيسة القديمة ، ورتب ترتيبا محكما ليضم فى داخله الأماكن المقدسة التى وصفناها ٠

ويطل هيكل الســـيد على المنحدرات الشرقية والغربية لجبل « مريا » وقد شيد فى المكان الذى اشترى فيه داود الملك حقلا من « أرونة » اليبوسى وذلك حسبما ورد فى سفر صمويل الثانى(٢٠) ، وفى أخبار الأيام الثانى ، وقد جاء هنا الأمر له ببناء مذبح للسيد

(٢٠) صمويل الثانى ٢٤ : ١٦ وما بعده ٠

فبناه وقدم عليه فيما بعد « بقرا محرقة وذبائح سلامة » ، وهناك نادى هو الرب بصوت سمع فى النار الآتية من السماء على مذبح القربان المحرق كما قام سليمان بعد موت أبيه ببناء الهيكل فى نفس المكان استجابة لأمر الرب(٢١) ٠

ونعرف من التواريخ القديمة كيف كانت هيئة هذا الهيكل وكيف سقط فى يد نابخدا نصر ملك بابل ثم أعيد بناؤه زمن كورش ملك فارس على يد زربابيل ويوسو الكاهن الأعظم ، كما نعرف من هذه التواريخ كيف دمر تيتوس أمير الرومان نفس هذا الهيكل والمدينة كلها فيما بعد ٠

ويكفى أن نشير هنا الى من خطط رسم هذاالبناء وأن نصفشكله لأننا قلنا فى الكتاب الأول(٢٢) من هذا التأليف أن عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء هو بانى هذا الهيكل ، ويؤكد هذا القول النقوش القديمة الموجودة على جدران البناء من الداخل والخارج على السواء ٠

أما صفة البناء فكما يلى :

توجد ساحة مربعة متساوية الأضلاع ، يحوطها سور متوسط الارتفاع ، وتقع هذه الساحة على هضبة يقدر كل من طولها وعرضها مسافة رمية سهم من قوس ، ولها من الناحية الغربية بابان يؤديان الى داخلها ، ويعرف أحدهما بالباب الجميل ، ويقول الخبر الوارد فى أعمال الرسل انه « كان رجل أعرج من بطن أمه يحملونه ٠٠٠ وكانوا يضعونه كل يوم عند باب الهيكل الذى يقال له الجميل يسأل صدقة من الذين يدخلون الهيكل »(٢٣) ٠

---

(٢١) الأيام الثانى ، ٣ : ١ ٠
(٢٢) راجع الجزء الأول من هذه الترجمة العربية ، ص ٦٣ ـ ٦٤ ٠
(٢٣) اعمال الرسل ٣ : ١ ـ ٨ ٠

أما الباب الآخر فقد نسينا اسمه ٠

كما يوجد باب واحد فى السور الشمالى ، وآخر فى الناحية الشرقية ٠

أما القصر الملكى المعروف الآن باسم هيكل سليمان ، فيقوم فى الناحية الجنوبية، كما توجد مآذن شاهقة الارتفاع يصعد اليها مؤذنو الاسلام فى ساعات معينة لدعوة الناس الى الصلاة ، وهذه المآذن تعلو كل باب من الأبواب المؤدية الى المدينة ، وكانت تقوم ــ فى كل ركن من أركان الساحة المربعة ــ التى أشرت اليها حالا ــ مآذن لايزال بعضها موجودا حتى اليوم ، أما غيرها فقد زال بسبب شتى المصائب التى نزلت بها ٠

ولم يكن مسموحا لأحد من الناس أن يعيش فى داخل هذه المواضع ، بل لم يكن أحد ما بقادر على الدخول الى هناك الا وهو حافى القدمين قد غسلهما منذ قليل ، وكان يقف على كل باب من الأبواب حرس مهمتهم مراعاة هذا الأمر مراعاة دقيقة ٠

وكان فى وسط تلك البقعة المجاورة ساحة أخرى ترتفع عن هذه بعض الشىء ، وصورتها أقرب ما تكون الى المربع المتساوى الأضلاع ، ويوجد الى الغرب والجنوب سلمان مدرجان يصعدان الى الساحة ٠

أما من الناحية الشرقية فثم مدخل واحد فقط ، ويوجد فى كل ركن من هذه الساحة مسجد صغير ، ولايزال بعض هذه المساجد قائما حتى اليوم ، أما ماسواها فقد هدمت لتفسح مكانا لأبنية مستحدثة حلت محلها ٠

وفى وسط هذه الساحة العليا يقوم المسجد ، وهو مثمن الشكل متساوى الاضلاع ، كما أن جدرانه الداخلية والخارجية على السواء مرخمة ومحلاة بالفسيفساء ، أما السقف فدائرى مكسو بالرصاص الدقيق الصنعة ، وقد رصفت الساحتان العليا والسفلى ومدرجاتهما بالرخام الأبيض ، ومن ثم فان الأمطار التى تسقط بغزارة فى الشتاء ، وما ينحدر من المسجد ذاته وكذلك المياه التى تتدفق من جهات أخرى نقية صافية فانها كلها تنساب الى الصهاريج الكثيرة الواقعة داخل هذه الناحية التى وصفناها ٠

ويوجد فى وسط المسجد ــ وفى نطاق الصف الداخلى من الأعمدة ــ صخرة ليست شاهقة الارتفاع ولكنها تعلو كهفا ، وتقول الأخبار ان الملاك جلس هناك حينما صرع الناس بأمر الرب قصاصا على جرم داود فى تعدادهم ، ولم يتوقف السيف حتى أمر الرب ثانية بالعفو عنهم ، ثم قام داود بعدئذ واشترى هذا الحقل بستمائة شاقل من الذهب كاملة غير منقوصة الوزن وبنى مذبحا هناك كما ذكرنا من قبل ، والحق ان هذا المكان ظل خمسة عشر عاما قبل مجىء اللاتين وبعدهم مجردا من كل ما يغطيه ، حتى رخمه أخيرا بالرخام الأبيض من استولوا عليه ، كما بنى أعلاه مذبح وهيكل لجوقة المرتلين ، وعين قسيس هناك لاداء الخدمات الدينية ٠

وتقع مدينة أورشليم المؤمنة بالله فى أرض يهوذا التى تعرف أيضا باسم فلسطين الأولى، ويرجع اسم يهوذية هذا الى الوقت الذى انفصل فيه الأسباط العشرة عن « ريغام بن سليمان ليتبعوا جيروييم ابن نباث ، ولم يبق مع ريهوبوم سوى جماعتى بن ويهوذا ، ومنذ ذلك الحين سميت أرض هذين الشعبين بأرض يهوذا من اسم يهوذا كما نقرأ هذا فى الانجيل « انهم عادوا الى أرض يهوذا » ومنذ ذلك الحين سمى « ريهوبوم » وخلفاؤه بملوك يهوذا ، أما حكام القبائل العشر الأخرى فقد عرفوا باسم ملوك اسرائيل أو السامرة ٠

***

وتعرف فلسطين أيضا باسم «فلسطيا» ، وهو مشتق من أصحابها الفلسطينيين ، ويقال ان هناك ثلاث بقاع تعرف كل منها بفلسطين ، أولاها تنفرد باسم يهوذا وعاصمتها أورشليم ، وأما الثانية فمدينتها العظمى قيسارية البحرية ، وأما عاصمة الثالثة فهى بيســـان أو سكيتوبوليس التى تطل عليها الآن كنيسة الناصرة ، واذا خلينا جانبا الاسم الذى يمكن اطلاقه عليها فليس من شك فى أن يهوذا « كانت تعتبر من أرض الميعاد وبلاد الشام ، ونستدل على ذلك من كلمات تلك الرسالة التى نقرأ فيها : « وفى سورية لاسيما فى اقليم فلسطين التى هى جزء من سورية ، وفى الأرض التى تعطف الرب فتجســد فيها بشـــرا من لحم ودم فقد جـــرت العادة اطلاق الحرية فى المسميات » ٠

وتقع هذه المدينة فى الحقيقة وسط أرض الميعاد بناء على ما يستفاد من وصف الحدود حيث قيل(٢٤) « من البرية ولبنان ، هذا الى النهر الكبير : نهر الفرات جميع أرض الحيثيين « والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم » ٠

وتقع المدينة وسط بقاع جدباء خالية تماما من الماء ، ونظرا لخلوها من الجداول والينابيع والأنهار فكل اعتماد أهلها يكون على مياه الأمطار التى اعتادوا ــ اذا ما حل الشتاء ــ أن يجمعوها فى الصــــهاريج الموجودة بكثرة فى كل أنحاء المدينة(٢٥) ، ويدخرونها للاستعمال على مدار السنة ، ومن ثم فان الدهشة تتملكنى مما يقرره سولينوس من اشتهار أرض يهوذا بمياهها اذ يقول فى تاريخه « وتشتهر كورة يهوذا بمياهها وان اختلفت طبيعة هذه المياه بعضها عن بعض » ٠

---

(٢٤) يشوع ١ : ٤ ٠

(٢٥) أخبار الأيام الثانى ٢٨ : ٢ ــ ٥ ٠

ولايمكنني التعليق على هذا التباين الا بقولي : اما أن سولينوس جـــانب الحق في هذا الأمر فلم يقل الواقع ، واما أن عـــوامل التغيير قد اعترت فيما بعد سطح البسيطة ، ومن المعروف جيدا ان حزقيا ملك يهوذا وهو صديق الرب قد توقف عند الينابيع الموجودة خارج المدينة حينما سمع أن جيش سنخريب بن «شلما نصر» أصبح على الأبواب • ونقرأ في هذا الصدد في أخبار الأيام الثاني(٢٦) ولما رأى حزقيا أن سنخاريب قد أتى وقصده محاربة أورشليم تشاور هو ورؤساؤه وجبابرته على طم مياه العيون التي هي في خارج المدينة ، فساعدوه ، فتجمع شعب كثير وطموا جميع الينابيع والنهر الجاري في وسط الأرض قائلين لماذا يأتي ملوك آشـــور ويجدون مياها غزيرة » • وأهم هذه الأنهار هو المسمى جيحون(٢٧) المشار اليه في نفس الكتاب بقوله : « وحزقيا هذا سد مخرج مياه جيحون وأجراها تحت الأرض الى الجهة القريبة من مدينة داود »(٢٨) •

ويقع جيحون الى الجنوب وسط وادى هنوم ببيت المقدس حيث تقوم الآن الكنيسة التي شيدت تمجيدا للشهيد المبارك «بروكوبيوس»، ويقال ان سليمان مسح في هذا المكان ليكون ملكا وذلك طبقا لما جاء في سفر الملوك الأول فقال الملك لهم(٢٩) « خذوا معكم عبيد سيدكم واركبوا سليمان ابني على البغلة التي لي وأنزلوا به الى جيحون ، وليمسحه هناك صادوق الكاهن وناثان النبي ملكا على اسرائيل ،

---

(٢٦) الكلام هنا على لسان المؤلف وليم الصوري ، ونلمح فيه وفي السطور التالية مقدرة وليم على نقد ما يقرأ •

(٢٧) أخبار الأيام الثاني ٣٢ : ٣ •

(٢٨) الملوك الأول ١ : ٣٣ ــ ٣٤ •

(٢٩) المقصود بهم هنا صادوق الكاهن وناثـــان النبي ونباياهن بن يهويا •

واضربوا بالبوق ، وقولوا « ليحيى الملك سليمان » • على أنه يتضح أن هذه الحوادث وقعت قبل زمن (المؤرخ) سولينوس ، لأن مطالعة كتابه المسمى « بوليهستور » يوضح تمام الايضاح أن هذا الكاتب كان موجودا بعد عصر تيتوس أمير الرومان الذى خرب بيت المقدس ، وقبل زمن ايليوس هادريان الذى أعاد بناءها ، اذ تقرأ فى الفصل الأربعين من هذا المؤلف(٣٠) أن أورشليم كانت عاصمة يهوذا ولكنها خربت ، فحلت محلها أريحا لتكون هى العاصمة ، بيد أنه لم تعد لها الصدارة بعد أن غزاها أرتا اجزرسيس •

وعلى بعد ميلين أو ثلاثة أميال فيما وراء المدينة توجد بعض الينابيع ، ولكنها قليلة العدد ، شحيحة المياه ، ومع ذلك فعلى بعد ميل واحد تقريبا الى الجنوب من القدس حيث يلتقى الواديان اللذان أشرنا اليهما من قبل توجد بركة « سلوام » الشهيرة التى بعث اليها المسيح بالرجل الكفيف منذ مولده ليغتسل فيها ويرتد اليه بصر(٣١) •

وسلوام هذه بركة صغيرة توجد فى القسم الأسفل من الوادى، وليس ماؤها بالعذب ولا هو بالدائم التدفق ، لأنه يخرج متقطعا ، ثم أنها تجرى يوما وتتوقف يوما آخر •

* * *

ما كاد الأهالى يعلمون باقتراب الجيش الصليبى حتى طموا منابع الآبار وأفسدوا مخازن المياه التى حول المدينة الى مسافة

---

(٣٠) نقلا عن الترجمة الانجليزية Solinus : Polyhistor, XXXV.

(٣١) انظر يوحنا ٩ : ٧ •

خمس أو ست مراحل ، أملا منهم فى أن ينصـــرف الصليبيون عن حصار المدينة حين يجدون أنفسهم يعانون الظمأ الشديد ، وقد نجحت خطة الأهالى هذه فى تكبيد جيشنا عذابا ليس من بعده عذاب أثناء الحصار الذى أعقب ذلك الأمر ، حسبما نورده فى الفصول التالية .

ومن ناحية أخرى فقد توفرت المياه الكثيرة لمن كانوا فى داخل المدينة بفضل ما كانوا قد خزنوه من مياه الأمطار ، بالاضافة الى ما جلبوه اليها من الينابيع الموجودة خارجها ، والتى كانوا يجلبونها فى القنوات فتصب فى بحيرتين كبيرتين ملاصقتين تماما لجدران المعبد من الخارج ، وان كانتا داخل حدود المدينة ، ولاتزال احداهما تعرف حتى اليوم « ببركة الضأن » لأنها كانت مخصصة لغسيل أغنام الأضاحى ، ويشير يوحنا الانجيلى الى أنه كان لهذه البحيرة خمسة أروقة ، ويقول انه كان ينزل اليها من وقت لآخر ملاك يحرك ماءها ، فمن نزل أولا بعد تحريك الماء برأ من أى مرض اعتراه ، ولقد شفى السيد هنا الرجل المفلوج وأمره أن يحمل سريره ويمشى(٣٢) .

ـ ٥ ـ

ولما كان اليوم السابع من يونيو من عام ١٠٩٩ لمولد المسيح عسكرت كتائب الجيش الصليبى أمام بيت المقدس ، ويقال ان عدد الحجاج كان يقرب من أربعين ألفا من كلا الجنســين ومن شتى الأعمار والطبقات ، وكان فيهم من المشاة عشـرون ألف راجل ، ومن الفرسان ألف وخمسمائة الى جانب حشد لارجاء فيه من المرضى والعجزة .

---

(٣٢) راجع القصة كاملة فى يوحنا ٥ : ٢ ـ ١٢ .

وتقول الأخبار انه كان بداخل بيت المقدس أربعون ألفا من المحاربين الشجعان(٣٣) المزودين بأحسن السلاح ، الى جانب من انهال عليها من أهل القلاع الموجودة فى منطقتها وما جاورها ، وكانوا أعدادا كبيرة جاءوها هربا من وجه الجيش (الصليبى) وطلبا للسلامة ، فقد كانت تحدوهم أيضا الرغبة فى مد يد المساعدة للدفاع عن المدينة الملوكية لانقاذها من الخطر الذى يهددها ، كما جاءوا معهم بامدادات من الرجال المسـلحين وبكميات وفيرة من الزاد ٠

فلما اقترب الصـليبيون من المدينة حرص قوادهم على عقد اجتماع مع أهل الخبرة والدراية للاستفسار عن الجهة التى يمكنهم منها مهاجمة المدينة هجوما يكفل لهم النجاح ، واذ كانت الدروب العميقة المشار اليها من قبل تحول دون الاغارة عليها من الشرق أو من الجنوب ، فقد قرر القادة مباغتة البلد من الشمال ، فرتبوا الأمر على أن تمتد صفوف عسكرهم من الباب المعروف اليوم بباب القديس استيفان المواجه للناحية الشمالية حتى الباب الموجود أسفل برج داود القائم فى الطرف الغربى من المدينة ، والذى يشارك البرج نفسه فى التسمية باسم هذا الملك ذاته ٠

ورتب العسكر على الصورة التالية :

كان أولهم فى الترتيب عسكر جود فروى دوق اللورين ، ثم يليه عسـكر روبرت كونت فلاندرز ، ثم الثالث بقيادة روبرت كونت نورماندى ، فالرابع وهو مؤلف من قوات تانكريد وبعض الأشراف

---

(٣٣) كان هؤلاء بطبيعة الحال من المسلمين كما يستدل من سياق الكلام ٠

الذين وقفوا حول البرج القائم بالركن هناك ، والذى عرف فيما بعد ببرج تانكريد ٠

أما (ريموند) كونت تولوز ومن معه فقد أكملوا خط الحصار الممتد من البرج حتى البوابة الغربية ، غير أنه وجد بعدئذ أن موضعه هذا لن يساعده كثيرا على نجاح الهجوم على المدينة من تلك الناحية، اذ كان يسيطر على معسكره البرج الموجود فوقه ، والذى كان فى الوقت ذاته يحمى البوابة من أسفلها حماية قوية ، كذلك كانت مجاورته الشديدة للوادى الواقع بين معسكره وبين المدينة تقف سدا فى وجه تحركاته ، ومن ثم فقد نزل على مشورة رهط من الرجال الأذكياء الخبيرين بالموضع ، ونقل جزءا من جنده الى التل الذى يقوم عليه بيت المقدس ، وكانت هذه الناحية واقعة بين البلد وبين كنيسة صهيون التى هى على بعد رمية قوس من المدينة من ناحية الشمال ، كما خلف الكونت جزءا من معسكره فى موضعه الأصلى ، ويقال انه فعل ذلك كله لهدفين : أولهما أنه أراد أن يكون رجاله على مقربة من المدينة قربا ييسر لهم الهجوم عليها ، وثانيهما أنه أراد أيضا حماية كنيسة صهيون من أى أذى يريد العدو انزاله بها ٠

وكان هذا هو المكان الذى يعتقد الناس أن المخلص تناول فيه عشاءه الأخير مع تلاميذه وغسل لهم أقدامهم فيه ، كما يقال أيضا انه الموضع الذى نزل فيه الروح القدس على حوارييه على شكل لسان من اللهب فى يوم عيد العنصرة ، ويضاف الى ذلك ما تقوله الرواية القديمة من أنه المكان الذى ماتت فيه مريم الطاهرة ، كما أن به أيضا موضع قبر ستيفان أول الشهداء ٠

على هذه الصورة التى وصفناها كان ترتيب المعسكر .

وهكذا كانت قوات الحصار تحوط بما يقرب من نصف المدينة ، ولم يبق خارج دائرة الحصار سوى القسم الممتد من البوابة الشمالية - المسماة عادة ببوابة القديس استيفان - الى البرج الواقع فى الركن والمشرف على وادى يهو شافاط ، وكذلك المنطقة الممتدة من البرج المقابل لزاوية المدينة فى الجنوب والكائن فوق منحدر نفس الوادى ، ثم يمتد من هناك الى البوابة الجنوبية المعروفة الآن باسم بوابة جبل صهيون .

فلما كان اليوم الخامس من مرابطة جيشنا أمام الأسوار نودى فيهم - صغارا وكبارا - بالاستعداد لغزو المدينة ، وأن يكونوا فى كامل سلاحهم ودروعهم ، فتم ذلك على أكمل وجه ، اذ قام الجميع قومة رجل واحد لانجاز هذه المهمة، وشنوا على شتى النواحى المحاصرة من المدينة هجوما ضاريا نشيطا عجل بالقضاء على التحصينات الخارجية ، وافزع العدو فزعا حمله على الارتداد على أعقابه لحماية الأسوار الداخلية ، والواقع أن الشك أخذ يساور الأهالى عما اذا كان ثم جدوى فى بذل المزيد من المقاومة .

والحق أنه لو كان قد توفر للصليبيين يومئذاك سلالم التسلق ، أو كان لديهم الآلات التى يتمكنون بها من الاستيلاء على الحصون ، لاستطاعوا من غير شك أخذ المدينة فى ذلك اليوم حين هاجموها بهذه الحماسة ،لكنهم بذلوا من الجهد العظيم ما ذهب هباء منذ مطلع الفجر حتى الساعة السابعة تقريبا ، واذ ذاك تبدد أملهم فى النجاح لعدم وجود الآلات معهم ، لذلك أرجأوا القيام بأى عمليات أخرى

حتى يتم صنع هذه الآلات التى سوف تمكنهم بمعونة الرب من معاودة الهجوم هجوما يضمن لهم نجاحا أكبر •

لذلك ركز الزعماء اهتمامهم على موضوع الحصـــول على المواد اللازمة لبناء آلات الحصار ، فرأوا أن ليس فى النواحى التى حولهم ما يحقق لهم غرضهم ، لكن شاء حسن طالعهم أن يكون فى المعسكر اذ ذاك نصرانى من أهل الشـــام خرج مع بعض القادة وأرشدهم الى واد منعزل يبعد عن القدس ستة أميال أو سبعة ، وهو واد غنى بالأشجار الباسقة الكثيرة ، وان لم تكن كلها ملائمة تماما للوفاء بالغرض المنشود، وان وجدوا بينها قدرا كافيا لتحقيق اربتهم فاستدعوا أعدادا كبيرة من الفعلة والنجارين ، فقطعوا الأشـــجار وحملوها على ظهور الجمال وعربات النقل ونقلوها الى المدينة ، ثم بعثوا فى طلب الصناع والمهرة الحاذقين فى هذا النوع من العمل ، فاقبلوا جميعا عليه بنفوس متحمسة ، وقلوب لا يتطرق اليها الكلل ، ولا تكل عن المثابرة على اســـتعمال الفؤوس وغيرها من الأدوات المستعملة فى عمليات الحفر حتى استطاعوا بما توفر بين أيديهم أن يبنوا ما شاءوا من الأبراج وآلات الرمى المعروفة بالمنجنيق وصنعوا كباش الهدم والمدكات لنقض الأسوار •

أما العمال الذين تطوعوا للعمل بلا أجر رغم نقص المادة بين أيديهم، فقد كانت أجورهم من الهبات التى قدمها المخلصون، والواقع أنه لم يكن عند أحد من الزعماء من المال مايزيد عما لدى غيره وما يكفى لسداد أجور البنائين باستثناء كونت تولوز الذى كان أكثرهم ثراء ، فقام وحده من غير مساعدة من أى أحد آخر بدفع نفقات العمال التابعين له من جيبه وخالص ماله ، كما مد يد العون بالمال الى كثير من النبلاء الذين نضبت مواردهم •

بينما كان أكبر الزعماء مشغولين بهذه الأمور الهامة خرج غيرهم من وجوه القوم والبارزين فيهم ناشرين ألويتهم ، وساروا بالناس الى الأماكن التى كانت زاخرة بالغابات القصيرة الأشجار والأحراج ، فأخذوا منها أعواد الخيزران المستوية والفروع اللدنة ، وعادوا بها الى المعسكر على ظهور الجياد والحمير وكل مالديهم من دواب النقل ليعملوا منها شباكا لابد منها لاستكمال أعمال البنائين الهامة ، ودب النشاط فى كل ناحية ، وعمل الجميع فى حماسة لا تهن، ولم يعد هناك واحد فى هذه المجموعة الكبيرة من الناس نراه عاطلا أو لاهيا ، بل اشتغل كل منهم بمايناسبه دون تفرقة بين فرد وآخر ، أو اعتبار لمكانة الشخص منهم فعد كل عمل مجد عملا شريفا ، وهكذا تعاون القوم : غنيهم وفقيرهم على السواء فى القيام بما بين أيديهم من الأعمال حتى لم يعد فيهم أحد الا وهو متحمس للعمل مقبل عليه اقبالا يستوى فيه الجميع ، لا يتأخر من كان منهم رفيع القدر عن مد يد المعونة لصغيرهم الذى كان ملتزما بما فرض عليه ، وشعر الكل أن جميع ما أنجزوه فى حجمهم لن يكون شيئا مذكورا ان لم يؤد بهم الى دخول المدينة ، فذلك ثمرة جهدهم والغاية التى تحملوا من أجلها كثيرا من الأهوال ، واعتبروا كل ما يكلفون به شيئا تافها ان أدى الى ما يصبون اليه ، وفاء بالعهود التى قطعوها على أنفسهم .

— ٧ —

ثم بدأ الجش يكابد الظمأ مكابدة فظيعة وذلك لوقـوع بيت المقدس — كما قلنا — فى أرض مجدبة تماما خالية من الماء ، أما القنوات والينـــابيع والآبار العذبة فكانت بعيدة عنها ، وزاد الأمر مشقة أن لم يكد الأعداء يسمعون باقتراب الصليبيين حتى أفسدوا مصـــادر المياه هذه ، اذ راحوا يلقون فيها بالأوساخ ومختلف

الفضلات ليغدو المكان غير صالح لحصار طويل المدى ، وعمدوا الى بعض الصهاريج وخزانات مياه المطر فثقبوها فلم تعد تمسك ماء ، ومضوا الى البعض الآخر منها فأخفوها عن عيون الحجاج حتى لا يجدوا ما يروى لهم غلة أو يبل لهم صدى وهم فى حالة تبعث على اليأس ٠

ومع ذلك فطالما تردد أهل بيت لحم ومؤمنو مدينة الرسل «تقوع» على الجيش فيسترشد بهم الحجاج فى خروجهم الى العيون التى تبعد أربعة أو خمسة أميال من موضع الحصار ، فكانوا اذا بلغوها - وما يبلغونها الا بشق النفس - تدافعوا بالمناكب ، وزاحم بعضهم بعضا عليها ، وحاول كل منهم أن يستأثر وحده دون صاحبه بالماء فيشب العراك بينهم فيؤخرهم ذلك طويلا ، حتى اذا عادوا الى المعسكر عادوا بقربهم الجلدية وفيها الماء الممزوج بالطين الذى قل أن تشفى القطرة منه ظمأ الظمآن ، ثم يبيعونه جرعات صغيرة بأثمان باهظة ٠

ولم تكن بركة سلوام القريبة من المدينة والتى وصفناها حالا بقادرة على اسعاف العطاش المتضررين بما يكفيهم ، لأن مياهها - وان تكن كثيرة - لم تكن موصولة التدفق فى أوقات منتظمة ، كما ساعد الجو وقيظ يونيو على مضاعفة عذاب الحجاج ، فتزايدت شدة ظمئهم حدة حتى جفت حلوقهم ، وضاقت صدورهم بسبب طبيعة عملهم والتراب المتصاعد ، لذلك أصبحوا يخرجون فى زمر متفرقة وينتشرون فى فجاج الأرض متحملين المشقة بحثا عن الماء ، وكان يحدث فى بعض الأحيان أن تظن هذه الجماعات الصغيرة أنها عثرت على الماء الذى سدت اليه طويلا لكنها تصادف عند بلوغها اياه جموعا كثيفة تسعى هى الأخرى اليه أيضا ، ولذلك فكثيرا ما كانت تشب المنازعات بين بعضهم والبعض حين يعثرون على الينابيع ، واذ كان

كل فريق منهم يحاول صد الآخر عنها فكثيرا ما كان ينتهى الأمر بهم الى قتال بعضهم البعض ، وكان المترجلون منهم أقدر ــ الى حد ما ــ على التخلص من عذابهم اذ يقتصدون فى استعمال الماء حين يعثرون عليه ، أما أصحاب الجياد الكثيرة فكان خطبهم جسيما ، اذ كان عليهم قيادة هذه الحيوانات الظمآى أربعة أو خمسة أميال حتى يصلوا الى الماء ٠

وكانت الحيوانات الشاردة التى عجز أصحابها عن امدادها بالماء تهيم وحدها على وجوهها فى الحقول وتمضى خائرة القوى فى خطى قصيرة ، وكانت الجياد والبغال والحمير وقطعان الماشية والأغنام وقد أمضها الظمأ القاتل تنفق حيث هى ، وترتب على ذلك أن فسد هواء المعسكر من جراء الروائح الكريهة الموبوءة المتصاعدة من رمم هذه الحيوانات النافقة ٠

ولقد أصاب الناس خلال هذا الحصار ــ ما أصابهم وهم أمام أنطاكية ــ من ظمأ قاس لا يقل عن حاجتهم للطعام ، معا دفعهم الى التجوال فى غير حذر فيما يحيط بهم من النواحى يذرعونها بحثا عن الطعام ، وطلبا للعلف اللازم للجياد ، واذ كان العدو عارفا تمام المعرفة بحاجة هذه الجموع الى العلف فكثيرا كان يباغتهم بالهجوم عليهم من نواحى المدينة التى خلت ممن يحرسها فيفتك بالكثيرين منهم ويسلبهم خيولهم ، أما الذين يفرون وقد أثقلتهم جراحهم فكانوا هم السعداء ٠

أخذ عدد رجالنا يتقلص يوما بعد يوم ، اذ لم يكن ينقضى يوم الا ويهلك الكثيرون بسبب شتى الحوادث التى يتعرض لها الانسان، بالاضافة الى انقطاع أية أمدادات أخرى تصلهم لتحل محل هؤلاء الهلكى وتؤدى ما كانوا يؤدونه من الأعمال ٠

أما قوات العدو فكانت فى تزايد مستمر وتكاثر موصول اذ كان حلفاؤهم يجدون طريقهم الى المدينة مفتوحا أمامهم من خلال النواحى التى لم يفرض عليها الحصار ، فيسرعون اليهم منضمين الى قوات الأهالى لتدميرنا .

ـ ٨ ـ

كان عسكرنا فى هذه الأثناء يبذلون فى العمل أقصى جهدهم ويصنعون الآلات وينسجون الشباك المجدولة ، ويشدون السلالم بعضها الى بعض فى مهارة عظيمة ، كما كان المحصورون دائما على اتم أهبة لمقابلة المكيدة بالمكيدة ، ويحسنون الاستفادة من كل حيلة تساعدهم على المقاومة ، هذا الى ما كان متوفرا بالمدينة من العروق الخشبية المقطوعة من الأشجار الباسقة التى حملهم بعد نظرهم فى الدفاع عن القدس الى جلبها قبل وصول الصليبيين ، كما راحوا يعملون ما نعمله فصنعوا من هذه الكتل فيما وراء الأسوار آلات تطاول آلاتنا فى الارتفاع ، وان تكن من مادة أفضل ، وبذلوا فى ذلك غاية البذل حتى لا تكون آلاتهم دون آلاتنا صنعة ولا مادة ، ولم يقصروا فى أن يقيموا على الأسوار والأبراج الكشافين الذين لاتغمض لهم عين عن مراقبة كل ما يجرى فى معسكرنا ، لاسيما فيما يتعلق بالفنون الخاصة بآلات الحرب ، فكانت لا تفوتهم شاردة ولا واردة وان دقت الا وينقلونها فى الحال الى كبار رجالات القدس الذين يجاهدون فى مهارة فائقة فى محاكاة عمل الصليبيين ومقابلة كل جهودهم بنفس البراعة ، وكان هذا أمرا ميسورا نسبيا بسبب ما توفر لأهل بيت المقدس من العمال الذين هم أمهر من عمالنا ، كما كان عندهم من أدوات البناء مايفوق أدواتنا دقة صنعة . هذا الى جانب أنهم كانوا ظاهرين علينا بفضل ماتوفر عندهم من الحديد والنحاس

والحبال وغير ذلك من الأشياء اللازمة لهم ، كما أصدروا مرسوما عاما يلزم جميع المواطنين بالمساعدة فى العمل وفرضوا كثيرا من الالتزامات المرهقة على المؤمنين القاطنين بالمدينة ، المتحملين عذاب الرق اذ يرغمونهم على ممارسة أعمال لم يألفوها ، ويغتصبون منهم الأموال الجمة بالعنف ويسوقونهم الى السجون مصفدين فى الأغلال، حذرا من أن يؤدى تعاطفهم مع الصليبيين لأن يكشفوا لهم عن عورات البلد الخفية ، ولم يكن أحد من المؤمنين يجرؤ على اعتلاء الأسوار أو حتى على الظهور علانية مالم يكن معه حمل يحمله ويجرى به كأنه الدابة ، كما أرغموهم على رفع الأحمال الثقال ، وأجبروا كل من هو متقن لحرفة على القيام بها ، وكانوا يسرعون بتوقيع العقاب عليهم لأتفه التهم والوشـــايات التى يرمون بها ، ويلزمونهم بأن يستضيفوا فى بيوتهم من فروا الى القدس من اللاجئين من القلاع والقرى المجاورة ، ويحملونهم على امدادهم بكل ضروريات العيش ، وعلى الرغم من أن مواد معيشتهم لم تكن كافية لسد أدنى احتياجاتهم هم أنفسهم وحاجات أهل بيتهم ومن يعولونهم الا أنهم فرضوا عليهم السماح للأغراب أن يشاطروهم القليل الذى يملكون ، مع أنهم هم ذاتهم كانوا فى مســيس الحاجة الى هذا القليل هم وذووهم ، وكان أولو الأمر اذا احتاجوا لشىء ما فى عمل عام بادروا الى اقتحام بيوت المؤمنين فيأخذون غصبا من ملاكها كل ما هم فى حاجة اليه وكان المسيحيون أنى وجدوا وفى أى ساعة من ليل أو نهار عرضة للاستدعاء ، فان حال أى حائل بينهم وبين الاستجابة فى الحال لما طلب منهم أمسكوهم فى الحال مسكا فاحشا اذ يجذبونهم من شعورهم ، أو يأخذونهم من لحاهم ويسحبونهم على وجوههم فى فظاظة تحمل حتى العدو على الرثاء لهم ٠

ويبدو أنه لم يكن ثم حد ولا نهاية للأهوال والصعاب التى تطحنهم بثقلها ، ولاقوا من العذاب فوق ما يحتمل مما أسلمهم الى اليأس الذى ليس بعده يأس حتى تمنوا الموت فى سبيل السيد على استمرارهم فى الحياة على ظهر الأرض ، ولامراء فى أن وجودهم التعس لم يكن يزيد عن أن يكون كالعدم ، اذ لم يعودوا ينعمون ولو بيوم راحة أو هدوء تغمض لهم فيه عين .

فكان اذا حدث شيء كريه نسب حدوثه اليهم مما حملهم على اغلاق دورهم فأغلقوها على أنفسهم ، لا يجرؤون على مغادرتها والا ثارت حولهم الشكوك وتعرضوا للاهانات من كل واحد ، وما مرت لحظة الا واتهموا ظلما وبهتانا .

ـ ٩ ـ

بينما كانت هذه الأمور تجرى على هذا المنوال والحصار مضروبا على القدس اذا برسول يفد مخبرا بوصول مراكب من جنوة الى ميناء يافا ، وقد بعث هؤلاء القادمون الجدد الى الزعماء الصليبيين يلتمسون منهم أن يزودوهم بعسكر من الجيش يحرسهم عساهم يمضون فى حراستهم وقيادتهم سالمين الى القدس .

ويافا مدينة على ساحل البحر يتكلم عنها «سولينوس» فى الفصل التاسع والثلاثين من كتابه « أخبار عالمية » فيقول : انها أقدم مدن العالم كلها ، اذ يرجع تأسيسها الى زمن ما قبل الطوفان ، ويمكن للانسان أن يشاهد هناك صخرة لاتزال تحمل آثار السلاسل قيدت

بها « اندروميدا » التى تعرضت فى هذا الموضع (حسبما جاء فى احدى القصص القديمة الصادقة) لوحش بحرى ، كما أن « ماركوس سكاوروس »يشير الى حقيقة هى أنه فى أثناء ولايته لروما عرض عظام هذا الوحش مع أشياء أخرى عجيبة ، وقد وردت هذه الحقيقة فى الحوليات ، كما ذكرت مقاييس الوحش الحقيقية ، فأضـــلاعه تجاوزت الأربعين قدما طولا ، أما ارتفاعه فأعلى من فيلة الهند ، كما أن الواحدة من فقرات ظهره كانت أكثر من نصف قدم عرضا » ٠

ويشير جيروم – فى وثيقة رثائه سنت باولا – الى نفس الشىء فيقول هذه الكلمات : « لقد رأت هي أيضا ميناء يافا الذى هرب اليه « جوناس » ، وهى نفس المدينة التى شاهدت « أندروميدا » مقيدة الى الصخرة كما تقول قصص الشعراء » ٠

ولقد استجاب الى هذا الالتماس(٣٤) كونت تولوز الذى كان له من الأموال مايفوق به بقية الزعماء ، فأرسل – بموافقة الجميع – الى هناك واحدا من النبلاء الذين فى معيته وهو « جيلدمار » الملقب « بكاربنيل » على رأس جماعة تتألف من ثلاثين فارسا وخمسين من المشاة ، ولكن تبين للزعماء بعد رحيل تلك الجماعة أن هذه القوة ليست بكافية لأداء مهمة شاقة كهذه المهمة ، فالتمسوا من الكونت أن ينجدهم بقوات اضافية ، فاستجاب لهم ، وأرسل زيادة على ذلك خمسين فارسا آخرين يشدون أزر الطائفة الأولى ، وجعل عليهم رجلين قادرين بارزين ، هما « ريموند » بيليه ووليم «السابرانى» ٠

---

(٣٤) المقصود بهذا الالتماس ماطلبه بحارة الأسطول الجنوبى من ارسال طائفة من العسكر الصليبى لحمايتهم فى التقدم الى بيت المقدس ٠

كان جيلدمار ــ الذى سبق هذه الجماعة فى الخروج ــ قد دخل السهل المحيط باللد والرملة حين اعترضته جماعة من العدو تقدر بستمائة من الرجال الأشداء الذين سرعان ما وثبوا عليه وفتكوا بأربعة من فرسانه ، وبالحديد من مشاته ، وعلى الرغم من قلة المسيحيين الا أنهم قاوموا ، وأسعفتهم المقاومة وراح كل منهم يشد من عزم أخيه على القتال ، حين شاء حسن الطالع أن يصل اليهم القائدان الآخران اللذان كانا وراءهم ، وذلك قبـــل الفراغ من المعركة ، فرميا بنفسيهما فيها بمن معهما ، وانضم العسكر كلهم بعضا الى بعض وكروا على العدو كرة مكنتهم بفضل المعونة الالهية من قتل مائتين من رجاله ، وأجبروا بقيتهم على الفرار ، أما المسيحيون فقد هلك منهم فى هذا الصراع اثنان من كبارهم ، هما جيلبرت دى تريف « وايكارد دى مونتميرل » فلما عرف الجيش خبر مصيرهما عمه أسى غير قليل • وبعد أن جادت العناية الالهية عليهم بهذا النصر تابعت الكتيبة مسيرها الى يافا التى هى غايتهم ، فوصلوها آمنين ، فتلقاهم البحارة الجنويون بالفرحة ، وعمتهم السعادة لفرط ما صار بينهم من ود ، وما كان بينهم من شيق الحديث ، ثم أقاموا بها فترة من الوقت فى انتظار أن يفرغ هؤلاء القادمون بحرا من انزال متاعهم واعداد أنفسهم للسير •

لكن ظهر الأسطول المصرى فجأة ذات ليلة أمام المدينة على غير توقع من أحد ، وكان هذا الأسطول راسيا عند « عسقلان » يتحين الفرصة لايقاع الأذى بالصليبيين ، فما سمع الناس بهذا النبأ حتى هبوا مسرعين الى الساحل ، وحاولوا فى بادىء الأمر حماية السفن مما يدبره العدو ، بيد أنهم سرعان ما أدركوا ضآلة قواتهم ضآلة لا تسعفهم بمقاومة مثل هذا العدد الكبير ، ومن ثم جردوا المراكب

من أشرعتها وحبالها وبقية تجهيزاتها وحملوا كل ذلك معهم ، ثم انسحبوا بما حملوا الى القلعة ·

غير أن سفينة واحدة كانت غائبة فى حملة استكشافية ثم عادت موسوقة بالغنائم ، فلما رأت العدو قد ملك ميناء يافا تابعت اذ ذاك أبحارها وكانت الريح رخاء فمضـــت حتى بلغت اللاذقية سالمة ·

كانت مدينة يافا فى هذه الآونة مقفرة تماما من سكانها الذين تضاءلت ثقتهم فى قدرة تحصيناتها فهجروها قبل وقت قصير من وصول المسيحيين ، فانصرف جنودنا لاحتلال القلعة دون سواها ، حتى اذا أصبح كل شىء على أهبة الرحيل شخص الوافدون الجدد الى بيت المقدس بكل ما معهم من المتاع ، ومضوا تحت الحراسة المسلحة التى جاءتهم لتدلهم على الطريق ، فلقيتهم الفيالق المعسكرة امام القدس بالفرحة الغامرة ، لأن حضورهم جدد الأمل فى النفوس بالعون الكبير ، اذ كانوا أهل تجربة ومراس ، كما كانوا مهرة فى فن البناء كعادة البحارة دائما ، هذا الى جانب براعتهم فى قطع الأشجار ومسحها وتهيئة الكتل الخشبية المناسبة وصنع الآلات فى أقصر وقت ممكن ، يضاف الى هذا ما أحضروه معهم من أشياء متنوعة برهنت على جدواها فى الحملات الحربية ، وتيسر لهؤلاء الحجاج ـ بمساعدة أولئك الجنوية لهم ـ من انجاز ما كان صعبا مستحيلا قبل مجىء هؤلاء الجنوية ·

ـ ١٠ ـ

دأب الذين تخلفوا فى مكان الحصار على القيام ببناء الآلات، وتم لهم اتمام جانب من عملهم هذا ، وكان الدوق وكونت فلاندرز وكونت نورماندى قد وكلوا الاشراف العام على العمل الى « جاستون

دى بيارن » وكان رجلا حازما عظيم القدر ، فالتمسوا منه أن يشدد الرقابة الفعالة على العمال حتى لا يتراخوا فى العمل الموكول اليهم اداؤه ، كما أن الزعماء طالما خرجوا بأنفسهم على رأس طوائف كبيرة من الناس لقطع الخشب الذى يعودون به الى المعسكر لاتمام عمليـــات البناء المختلفة ، وكان البعض منهم يقوم بقطع الفروع والشجيرات والأغصان وتكويمها ، ثم يجدلونها ضفائر يكســـون بها الآلات من الخارج ، ويقوم غيرهم بســلخ جلود الحيوانات النظيفة منها والقذرة على السواء ، التى تكون قد نفقت ظمأ أو ذبحت وراحوا يغطون أسطح الآلات بهذه الجلود لحمايتها من أن ينالها ضرر ان قذفها العدو بالنار من أعلى حتى يعطبها ٠

ولقد أدت حماسة الدوق والكونتين المذكورين الى بث النشاط العظيم فى العسكر الموجودين على الجانب الشمالى من السور ، كما دبت نفس الحماسة فى القائمين على امتداد هذا الجزء من التحصينات من البرج الموجود فى الركن حتىالبوابة الغربية الموجودة تحت برج داود ، كما أن قوات لورد تانكريد وغيره من السادة الآخرين المبثوثة معسكراتهم فى تلك الناحية قاموا بنفس العمل ، وأظهروا من النشاط مالا يقل عما أظهره غيرهم ٠

وتابع عسكر كونت تولوز وجميع من معه عملهم فى الناحية الجنوبية فى حماسة لا يتطرق اليها الكلل ولا يعتريها الفتور ، بل ان حماستهم فى هذا المجال لم يكن لها مثيل ، ذلك لأن الوسائل المادية المتوفرة لريموند (كونت تولوز) كانت أكبر مما توفر للزعمـــاء الآخرين ، بالاضافة الى ما جاء له منذ قريب من امدادات جديدة من الرجال والعتاد ، فقد انضم الى معسكره كل الذين جاءوا على السفن (الجنوية) وجلبوا معهم كثيرا من المعونات كالحبـــال

والفؤوس وغيرها من الأدوات الحديدية التى لا يمكن الاستغناء عنها لصنع الآلات الحربية ، وكان فى هؤلاء الرجال عمال مهرة دربوا على صنعها واقامتها ، وكانوا ـ كما قلنا ـ أهل خبرة ، قادرين على ابتداع كل جديد يؤدى الى سرعة العمل ، كما ان الشريف وليم « أمير ياكوس » قائد الجنوية لم يدخر جهدا ولا وقتا فى موضوع بناء الآلات .

ظل الجيش بأكمله يبذل قصارى جهده على مدى اربعة اسابيع فى أداء العمل الذى تم بعد مشقة كبيرة ، واذ ذاك اخذ الزعماء فى التشاور فيما بينهم فاتفقوا على يوم معين للهجوم على المدينة .

على أنه فى هذه الأثناء شب خلاف حاد بين كونت تولوز ولورد تانكريد ، كما دب الشقاق بين بعض النبلاء الآخرين لأسباب متعددة ، وحينذاك رآى الزعماء والأساقفة ورجال الدين ، بل وعامة الناس أن الضرورة تحتم ـ قبل كل شيء ـ اعادة الوفاق والود على احسن ما يكون الوفاق والود ، فاتجهوا بقلوب صافية الى العناية الالهية يسألونها العون .

ـ ١١ ـ

لذلك نودى فى الناس نداء عام بصوم يوم حدد لهم ، فلما جاء هذا اليوم المحدد خرج الأساقفة ورجال الدين حفاة فى مسوحهم الكهنوتية يجللهم الوقار التام ، وساروا ومن خلفهم كل اتباعهم ، ويمموا وجوههم شطر جبل الزيتون ، رافعين فى أيديهم الصلبان وآثار القديسين ، ووقف الموقر بطرس الناسك وأرنوف الرجل العالم صديق كونت نورماندى فى الناس خطيبين ، واسعفتهما بلاغتهما ،

فطالبا الجميع بالتمسك بالصبر ، والتحلى بروح التســـامح تجاه بعضهم البعض ٠

* * *

ويقع جبل الزيتون على مسافة ميل واحد من شرقى المدينة وراء وادى يهوشافاط ، الذى يتكلم عنه القديس لوقا فيقول انه على مسيرة مرحلة(٣٥) يوم من بيت المقدس ، وقد صعد من هذا الجبل مخلصنا الى السماء بعد أربعين يوما من قيامته ، وكان ذلك على مشهد من تلاميذه ، فلفته سحابة حجبته عن أنظارهم ٠

ولما وصل المؤمنون الى هذا المكان توجهوا الى الله بقلوب خاشعة ونفوس منكسرة ، يرجون منه العون ، وقد تصاعدت زفراتهم وأناتهم من صميم افئدتهم ، وتصافى الزعماء بعضهم مع بعض ، فلما فرغوا من ذلك كله نزلوا من الجبل ، ودخلوا ثانية كنيسة جبل صهيون ، الواقعة كما قلنا قرب المدينة من الناحية الجنوبية على قمة التل ٠

واذ ذاك استبدت الدهشة بالأهالى من رؤية هذا الموكب وهو يدور حول المدينة ، ولم يدركوا مغزى هذا الدوران ، ثم اتخذوا أماكنهم على الأسوار والأبراج ، وشرعوا يقذفون السهام ويرمون بالمنجنيق صفوف الصليبيين المتراصة ، فأصيب بعض من رجالنا الذين لم يأخذوا حذرهم ٠

وعمد الأعداء الى اظهار احتقارهم وازدرائهم للصليبيين اذ رفعوا الصلبان على الأسوار وراحوا ينالونها بكل قبيح وزادوا

---

(٣٥) ورد بدلها كلمة « سبت » فى اعمال الرسل ١ : ١٢ ــ حيث تقول « جبل الزيتون بالقرب من أورشليم على سفر سبت » ٠

فبصقوا عليها ، ونالوها بألفاظ زرية ، كما راحوا يجدفون فى حق سيدنا عيسى المسيح وفكرة الخلاص •

أما المسيحيون فعلى الرغم من تسعر غضبهم عليهم الا أنهم استمروا فى الوفاء بما عاهدوا أنفسهم عليه حتى بلغوا الكنيسة وهى قبلتهم •

ولما فرغوا للمرة الثانية من صلاتهم اجمعوا على تحديد يوم يشنون فيه هجومهم على المدينة ، ثم عاد الجيش الى معسكرهم بعد أن فرغ الموكب من دورانه حول البلد ، وصدرت الأوامر أنه اذا تبين لهم نقصان أى شىء لابد منه لاتمام نجاح مهمتهم فعليهم احضاره فى الحال حتى لا يترتب على ذلك أى تأخير فى الهجوم •

واقترب اليوم المحدد للهجوم على المدينة ، فلما كانت الليلة السابقة له نقل الدوق والكونت العظيمان معسكرهما لأنهما رأيا أن سور هذه الناحية التى يحاصرانها كان شديد الحصانة ، بسبب ماهو متوفر فيه من الآلات والأسلحة والمحاربين المهرة ، ولما كان الأعداء على حق فى توجسهم الخيفة من هذه الناحية فقد اهتموا بتحصينها تحصينا عرف منه القادة (اللاتين) الا أمل لهم فى انجاز الكثير فى غدهم •

ثم نظروا فرأوا ــ عن حق ــ ما عليه الجانب الآخر من القدس الذى لم يحاصروه من ضعف فى الحراسة ، ومن ثم عمدوا فى ليلتهم هذه الى اعمال النظر وبذل الجهد الكبير فى نقل آلاتهم الحربية ــ والبرج الذى شيدوه ــ قطعة فقطعة قبل ضم بعضها الى بعض الى ذلك القسم من المدينة ، وهو القسم الواقع بين بوابة القديس استيفان وبين البرج الموجود فى الركن الشمالى المطل على وادى يهوشافاط ،

وانتقل المعسكر الى هناك ، وكان العمل الشاق الذى نهضوا به طوال الليل قد مكنهم من نقل الآلات الحربية وتركيبها ووضعها فى الأماكن المناسبة قبل شروق الشـــمس ، كما نصبوا البرج المتحرك على التحصينات عند مكان كان الســـور فيه منخفضا بعض الشىء ، والوصول اليه سهلا ، وقد تم وضعه على هذه الصورة حتى يستطيع المدافعون الذين فى البرج القتال بالأيدى ، ومن هذا يستدل على أن المهمة التى أنجزوها لم تكن يسيرة ، لأنه كان قد تم نقل الآلات قبل بزوغ الشمس مسافة نصف ميل من الموضع السابق للمعسكر ، ثم ضموا الأجزاء بعضها الى بعض ، ووضـــعوا الآلات فى أماكنها الجديدة ٠

ولما بزغ الفجر أسرع الأهالى الى الأسوار لمشاهدة ما كان يفعله الصليبيون وراءها ، فراعهم أنهم لم يروا أثرا للقســـم من العسكر الذى كان موجودا على مدى اليومين السالفين ولا لمعداته هناك ، لكنهم لما تفرسوا فى ناحية منطقة السور تكشف لهم أن معسكر الدوق قد انتقل من هذا الموضع ، ونصـــبت بدله المعدات الحربية ٠

وفى خلال هذه الليلة ذاتها ، تابع الزعماء الآخرون أيضا عملهم فى جهات أخرى من المدينة ، فنقلوا معسكراتهم على النسق الذى اتفقوا عليه ، واستمروا قائمين بالحراسة بعين لايغمض جفنها ، ونصبوا آلاتهم ، وقام كونت تولوز فى الوقت ذاته الى البرج الذى اهتم بصناعته كل الاهتمام، ونصبه على الاستحكامات الموجودة فيما بين كنيسة جبل صهيون وبين المدينة ، كما أن الزعماء الآخرين الذين يحتلون المكان الواقع حول البرج الموجود فى الزاوية والمعروف الآن ببرج تانكريد كانوا قد نقلوا ــ بمثل هذه العناية وذلك الجهد ــ برجا خشبيا يكاد يضاهى الأبراج الأخرى فى ارتفاعه وقوة بنائه ٠

كان الشبه قويا بين الآلات الثلاث فى الشكل وفى دقة الصنعة ، فهى مربعة الصورة ، كما كان هناك سور مزدوج يحمى جانب كل واحدة من هذه الآلات القائمة فى مواجهة المدينة ٠

ثم عمدوا الى حيلة ماهرة مكنتهم من انزال البرج الخارجى بصورة معينة ليصبح معها جسرا يربط بالسور ، مما أمد الجنود بالوسيلة التى ساعدتهم على دخول المدينة ، ولم تدع هذه الحيلة القسم الذى به الآلة معرضا لشىء ما ، لأنه حين ارخاء الساتر الخارجى فان الطبقة الثانية التى تحته تتيح حماية كالحماية التى تنعم بها الجوانب الأخرى ٠

ـ ١٣ ـ

رتب الصليبيون أمرهم على أن يكون جيشهم واقفا بأجمعه وفى كامل عدته أمام المدينة عند طلوع النهار استعدادا للهجوم ، ولم يكن يشغل القلوب سوى شاغل واحد هو : اما أن يستردوا بيت المقدس لتنعم بحريتها المسيحية ، واما أن يضحوا بأنفسهم من أجل المسيح ، ولم يكن فى هذا الجيش الكثيف مسن أو مريض أو غلام الا وقد تملكته الحماسة وعصفت به اللهفة واستبد به الشوق الى القتال ، حتى ان النساء لم تمنعهن أنوثتهن ولا ضعفهن الطبيعى من الاقدام بلا مبالاة على حمل السلاح لخوض المعركة بجنان ثابت فوق طاقتهن ، وهكذا تقدم الصليبيون جميعهم صفا واحدا للمعركة ، محاولين دفع الآلات المستحدثة البناء الى السور عسى أن تسهل عليهم مهاجمة من يشتدون فى مقاومتهم فوق الحواجز والأبراج ٠

أما الأهالى فقد صمموا من ناحيتهم على صد عدوهم حتى آخـــر رمق فيهم ، فراحوا يمطرونهم بوابل هتـــان من النبـــال

والسهام ، ويرمونهم بالحجارة تقذف بها الأيدى أو الآلات بصورة مروعة ، لأنهم كانوا مجمعين العزم على أن يحولوا بين رجالنا وبين الاقتراب من السور ، غير أن الصليبيين الحجاج لم يكونوا يقلون عنهم نشاطا ، فاحتموا بدروعهم ، ونشروا أمامهم ستائرهم المجدولة، وراحوا يمطرونهم بسيل من السهام يطلقونها من أقواسهم، واكتنفوهم بالقذائف وبالطلقات تنصب عليهم من الآلات ، كل ذلك والحجاج يحاولون الاقتراب من التحصينات ، وكانوا يبذلون غاية جهدهم لفل عزائم خصومهم ، فلم يكونوا يتيحون لهم لحظة واحدة يلتقطون فيها أنفاسهم ، وحاول بعض من فى داخل البرج المتحرك أن يدفعوه الى الأمام بواسطة الأعمدة ، كما أن غيرهم من الواقفين عند الآلات شرعوا يقذفون الأسوار بالأحجار الضخمة ، أملا منهم فى أن يدب فيها الضعف فتسقط من الرمى المستمر والقذائف الموصولة ، المتصل بعضها ببعض • وكان هناك قوم غير هؤلاء قد تسلحوا بأسلحة صغيرة يسمونها المنجنيق ، ترمى حجارة دون هذه حجما ، ويعملون فى غير تراخ عساهم يمنعون المدافعين الموجودين بالأبراج من اصابة مقاتلينا بأى ضرر •

على أن الصليبيين الذين كانوا يحاولون دفع الآلة الى الأمام لم ينجحوا النجاح الذى كانوا يطمعون فيه بسبب وجود خندق واسع عميق أمام المتاريس ، وقد وقف هذا الخندق عقبة كأداء عطلت تقدم الآلة الى الأمام ، كما أن الذين كانوا يحاولون عمل ثغرة فى الأسوار لم يحرزوا النتائج المرجوة ، وذلك لأن الأهالى الذين كانوا وراء الأسوار دلوا زكائب مملوءة بالقش ، وعلقوا كتل الخشب الضخمة والوسائد المحشوة بالحرير ، فأفسدت هذه الأشياء اللينة اللدنة مفعول ضربات القذائف ، وقضت على جميع محاولات المهاجمين ، هذا بالاضافة الى أن ما نصبه العدو داخل المدينة من

الآلات كان أكثر عددا مما عندنا ، وكانت السهام والأحجار التى لا تكف آلاتهم عن رميها تفوق عمل الصليبيين ·

على أنه كان كل من الجانبين يبذل أقصى جهده ، كما تدفعه كراهية حادة نحو الآخر لقتاله · لذلك استمرت المعركة من الصباح حتى المساء ، وكانت معركة حامية الوطيس موصولة بصورة تجاوز كل ظن ، فكانت الرماح والقسى تنهال كصيب من السماء على كلا الجانبين ، وكانت قذائف الأحجار التى يرمى بها كل خصم خصمه يصطدم بعضها ببعض وهى مازالت فى الجو ، ثم تسقط فتهلك المقاتلين وتصيبهم بشتى أنواع الهلاك ·

وتساوى جميع مقاتلينا فيما لاقوه من عنت ، سواء منهم من كان مع الدوق ، أو كان مستظلا بعلم كونت تولوز ، أو غيرهما من القادة ، ذلك الهجوم كما قلنا كان يأتى فى آن واحد من ثلاثة محاور ، ويتسم بنفس السمة من العنف والضراوة ، كما أن العمل تزايد أمام الصليبيين زيادة كبرى ، لأنه كان يتحتم عليهم ردم الخندق بالأنقاض والأحجار والتراب ، قبل أن يتمكنوا من شق طريق تتحرك عبره آلات القتال ·

وكانت مهمة المدافعين فى اعاقة القوات المحاصرة شاقة كل المشقة ، فقد استمروا فى بذل الجهد الجبار لصد أنشطة المحاصرين العنيفة ، كما دفعهم اليأس الى محاولة اشعال النار بآلات الصليبيين الحربية فشرعوا يقذفونها بالجمر المتقد ، ويرمونها بالسهام المحملة بالكبريت المشتعل والقار والزيت ، وبكل ما يؤجج النيران ضراما ، وزيادة على ذلك فقد كانت آلات العدو الضخمة التى بنيت داخل المدينة تسدد قذائفها تسديدا محكما الى آلات الصليبيين الموجودة فى الخارج ، حتى أخذت هذه الآلات تضعف وكثرت فى جوانبها

الثقوب ، فاشتد جزع المقاتلين المسيحيين الذين كانوا قد صعدوا الى أدوار البرج العليا لمهاجمة المدينة من هذا الارتفاع ، ولم تقدر لهم الحياة الا بطرح أنفسهم من شاهق ، وأخيرا عمد الصليبيون الى صب المياه بكثرة من عل ، فقيض لهم النجاح فى تعطيل جهود رماة النيران ، وبذلك أمكنهم اخماد لهيبها .

ـ ١٤ ـ

أدى دخول الليل لوضع خاتمة لهذا القتال الذى كان قد اضطرم اضطراما كبيرا وسط الخطر البالغ وان لم يحسم الأمر ، غير أن المقاتلين أصابوا خلال الحراسة الليلية ـ قسطا من الراحة الجثمانية، وان كان القلق النفسى الذى لم ينقطع اطار النوم من عيونهم ولم يقلل من مشقتهم ، فقد كانت قلوبهم التى اترعت غما تضطرب بين صدورهم حرصا منهم على تحقيق غرضهم ، فانتظروا طلوع النهار حتى يعاود كل جانب منهم القتال ، وكانوا أثناء ذلك يتحرقون شوقا لخوض المعركة مرة أخرى ، لأن ايمانهم بالرب كان يحملهم على الثقة فى أنهم ملاقون حظا أطيب يؤتيهم بالنصر .

بيد أن ذلك لم يقلل من فزعهم من أن يتمكن العدو ـ بحيلة أو بأخرى ـ من أن يضرم النار خلسة فى الآلات ، ومن ثم فرضوا عليها الحراسة المستمرة ، وأمضوا ليلة لم تذق عيونهم فيها للكرى طعما .

وكان فزع المحصورين لا يقل عن فزع هؤلاء ، فقد كان أشد ما يقلق بالهم ويزعج خاطرهم أن يغتنم العدو فرصة سكون الليل فيدخل عليهم المدينة لاسيما بعدما رأوا هجمته الشرسة بالأمس عليهم ، وقد يكون سبيله فى ذلك اما باحداث ثغرة فى سورها أو بتسلق حصونها، لذلك أمضوا الليل بأكمله وهم يبذلون أقصى العناية فى حراسة

منطقة التحصينات ، وكان الوضع يتطلب منهم غاية الجد لأن الأمر عندهم كان أمر حياة أو موت ، لذلك أقاموا فى كل برج ضباطا للدراسة الليلية ٠

وكان كبارهم فى هذه الأثناء ، ومن وكلت اليهم مسـئولية حفظ المدينة لا يكفون عن السير فى شـوارعها ، يوصون الناس باليقظة التامة حفاظا على نسائهم وأبنائهم وماملكت أيديهم ، ورعاية للسـلامة العامة ، كما اخذوا انفسهم بالتدقيق فى فحص الأبواب وضبط الطرق ، حتى لاتتاح للعدو فرصة يباغتهم فيها بحبائله ٠

هكذا كانت الكروب تضرب هذا الجانب بما تضرب به الجانب الآخر فلم يذق احدهما طعما للراحة لانشغال باله ، وكان الفزع العقـلى الدائم الذى ران على قلوبهم قد وقر فى أذهـانهم من الاضطراب ماهو أشد هولا فى الواقع من معركة الأمس ٠

ـ ١٥ ـ

أوشك الليل على الانصرام ، وبدأت خيوط الضياء الأولى تعلن اقتراب النهار الذى كانوا يترقبونه بفارغ الصبر حين نودى فى الناس مرة اخرى للقتال الذى كانوا يشـتاقونه اشـتياقا كبيرا ويتحمسون له حماسة بالغة ، فبادر كل منهم فى لحظته الى المهمة التى نيطت به البـارحة ، فوقف البعض عند آلات الرمى قاذفين الأسوار بالأحجار الضخمة الثقيلة الوزن ، ووقف البعض الآخر فى أماكن تحت هذه باذلين أقصى الجهد ومنتهى القوة فى دفع آلة الحصار الى الأمام ٠

وكان هناك غير هؤلاء وهؤلاء من اتخذوا مكانهم فى الطابق العلوى من نفس الآلة ينضحون العدو الموجود فى الأبراج المواجهة

بوابل هتان عن أقواسهم وسهامهم وبما عندهم من الأسلحة ، وهكذا كان القصف مستمرا وفعالا حتى عجز المدافعون عن رفع أيديهم عما هى مشغولة به ، واضطروا الى البقاء حيث هم ، فلما تم ردم الخندق ونقب الأسوار الأمامية استمات بعض المحاصـــرين فى دفع البرج ليصبح أقرب مايكون الى السور ، كما أن قوة أكبر من هذه القوة واصلت فى هذه الأثناء رمى الحجارة والسهام لرد المهاجمين على أعقابهم ، حتى لايكونوا عقبة فى وجه من يقومون بدفع الآلة الى الأمام ٠

فلما رآى الأهالى تزايد جهود الصليبيين استماتوا من جانبهم فى شجب كل خطة فيقابلونها بخطة مثلها ، وراحوا يردون القوة بالقوة ، وتابعوا نشاطهم فى صد المحاصرين ومن يحاولون التقدم بالبرج ، فاخذوا فى رميهم بالسهام والأحجار ، وأسفر نشـــاطهم العجيب عن نجاحهم فى صد تقدمنا ، ولما كانوا يطمعون فى القضاء المبرم على محاولتنا هذه فقد عمدوا الى قذف الآلات بالنار يصبونها عليها فى جرار هشة وماشاكلها مما يتوفر بين أيديهم ، كما رموهم بالكبريت والقطران والزيت والدهون والشمع والخشـــب اليابس والحشائش الجافة وبكل مايصلح أن يكون وقودا يذكى النار اشتعالا، مما أسفر عن انزال الأضرار الفادحة المزعجة بكلا الجانبين المتقاتلين فهلك كثير من الفرسان والجند المشاة بسبب تلك الأهوال والأحداث التى لم تكن فى الحسبان اذ أصابت بعضـــهم القذائف من الآلات فتفتتوا ومزقوا تمزيقا ، وســـقط بعضهم فجأة بســـبب القسى والحراب ، فانحشروا ما بين جواشنهم ودروعهم ، وربما مات بعضهم فى لحظته من حجر رمته به يد أو من قذيفة قذفته بها آلة فصرعته ، وخرج بعضهم ليعيشوا أياما أو الى آخر عمرهم بأطراف مبتورة ، أو أصابهم الشللفلم يعودوا يستطيعون حراكا ٠ على أن هذهالأخطاء

كلها لم تكن قادرة على منع الرجال من الجانبين المتصارعين من الاستمرار فيما هم فيه ، أو فل عزمهم عن مواصلة القتال فى اصرار متسسم بالعنف ، وما كان هناك من أحد ما بقادر على أن يقرر أى الفريقين كان أكثر حماسة من الآخر .

على أنه ليس من الحق أن نمسك عن الاشارة الى حادث بارز يقال انه حدث فى هذا اليوم ، وذلك انه كان عند الصليبيين آلة من بين آلاتهم التى كانت خارج الأسوار أحدثت هلاكا مدمرا فى صفوف المدافعين بسبب ما كانت ترميهم به من صخور ثقيلة رميا جبارا ، فلما رأى المارقون أن ليس عندهم آلة تضاهى هذه الآلة فى عنفها ، جاءوا بساحرتين عسى أن يبطل سحرهما فعل الآلة ابطالا لا تعود فيه للعمل . فارتقت المرأتان السور ، وراحتا تمارسان سحرهما ، واذا بحجر ضخم ينطلق من نفس الآلة فيصيبهما ويسحقهما ومعهما ثلاث بنات كن فى خدمتهما ، فهوت جثثهن جميعا من السور ، فلما طالع الجيش الصليبى هذا المنظر ، تعالى تصفيقه وضج بالهتاف ، ولم يبق أحد فى معسكرنا الا وقد غمرت الفرحة قلبه ، أما أهل بيت المقدس فقد امتلأت نفوسهم غما بسبب هذه النكبة .

— ١٦ —

على الرغم من استمرار القتال حتى الساعة السابعة من ذلك اليوم الا انه لم يسفر تماما عن أى الجانبين سوف يحرز النصر . وبدأ اليأس يتسرب الى نفوس الصليبيين الذين أثقلتهم فداحة الجهد الذى بذلوه ، فتراخوا فى عملهم ورأوا البرج يكاد أن يكون قد دمر تمام التدمير بسبب ما ناله من القذف المستمر ، كما تعالى الدخان من الآلات الأخرى من جراء ما رميت بما جاورها من الحطب المشتعل، فرأى الصليبيون أن خير ما يفعلونه فى هذه الظروف هو أن يسحبوا

هذه الآلات الى الوراء قليلا على نية مواصلة القتال فى الغد ، وترتب على ذلك أن تشكك قومهم فى نجاحهم فراحوا يتسللون لواذا ٠

أما العدو فكان الأمر عنده على العكس من ذلك ، اذ ضاعف من ضراوته وعربدته ، واندفع يقاتل بعنف أشد من العنف الذى اتسم به قتاله حتى الآن ٠

على انه فى وسط هذا اليأس الغامر المطلق جاءت النجدة السماوية للمؤمنين فأسعفتهم بما يرتجون ، اذ تراءى لهم على جبل الزيتون محارب لم يره أحد أبدا بعدئذ فى هذا الموضع ، وقد راح يلوح لهم بدرع يكاد بريقه يأخذ بالأبصار ، ويشير به الى العسكر أن يعودوا لمتابعة ما هم فيه من قتال ٠

وكان دوق جود فروى وأخوه استاس قد أخذا مكانهما فى الطابق الأعلى من البرج المتحرك ليسـاهما بدورهما فى الهجوم وليتأكدا من صيانة آلة الحصار صيانة تامة ، فلما شاهد الدوق هذا الشبح العجيب صفقت جوانحه سرورا ، وشرع فى لحظته ينادى على الناس وكبار القواد بصوت جهورى أن عودوا لما كنتم فيه ، فعاد الناس جميعهم برحمة الرب الى ساحة القتال وقد قويت عزائمهم ، ودبت الحماسة فيهم من جديد دبيبا كان يخيل معه للناظر اليهم أنهم يعاودون المعركة بقوة فتية جديدة ، حتى ان من كانوا قد انسحبوا منذ قليل مثخنين بجراحهم ، ومن أعياهم الارهاق حتى كادوا أن يغمى عليهم ، عادوا الآن من تلقاء أنفسهم وتقدموا للهجوم بعزيمة جبارة وحماسة طاغية ، كما أن القادة والرجال البـارزين الذين كانوا يعتبرون سند الجيش تقدموا وشقوا الطريق فكانوا مثالا احتذاه سواهم واقتدى بهم غيرهم ، كما زاد من شجاعة هؤلاء ما رأوه من تلهف النساء على أن يكون لهن نصيب فى القتال ، ورحن يثرن

نخوة المحاربين ويلقين اليهم من القول ما يرد عليهم بأســـهم ، ويدفعن عنهم الاغماء بما يجلبنه لهم من الماء وهم فى ساحة المعركة . ورفرفت الفرحة فى كل أرجاء المعسكر كما لو كانوا قد انتصروا ، فما انقضت ساعة من نهار حتى كان الخندق قد طم عن آخره ، وحتى كان السور الخارجى قد تصدع وأسندت آلة الحصـــار عنوة الى الأسوار .

ولقد أشرنا حالا الى أن الأهالى كانوا قد دلوا من الجدران كتلا ثقيلة بالغة الطول ليبطلوا مفعول ضـــربات الآلات ، غير أن مقاتلينا الموجودين فى برج الحصار نجحوا فى قطع الحبال التى تشد اثنين من هذه الحواجز فسقطا الى الأرض فتلقاهما من كانوا تحتهما ، وان لم يخل الأمر من خطر كبير ، فحملوا العارضتين فى الحال الى داخل الآلة ، واستعملتا فى دعم الجســـر الذى جعلوه ــ كما سنشرح ذلك فيما بعد ــ يصل من البرج المتحرك الى السور، لأن الخشب الذى كان الجسر مصنوعا منه كان أوهى من أن يتحمل ثقل من يجتازونه ان لم تدعمه هذه العوارض القوية التى وضعت أسفله .

ــ ١٧ ــ

بينما كان الهجوم يشن بهذا العنف القوى من جانب المدينة الشمالى كان كونت تولوز ومن معه يهاجمونها من الجنوب بنفس الضراوة ، وقد ظلوا ثلاثة أيام سويا يعملون بلا انقطاع فى ردم الخندق ، فلما أتموا ردمه ألصقوا احدى آلات الحصار بالســـور بالقوة ، وجعلوها فى وضـــع يجعل كلا من المدافع الموجود داخل الأبراج والصليبى الموجود فى آلات الحصار قادرا على أن يطول الواحد منهما الآخر برمحه فيصيبه ، وكانت الحماســـة قد عمت

المقاتلين انى كانوا ، ولم تقل عنها مثابرتهم فاستمروا فيما هم قائمون به رغم الصعاب المحيطة بهم ، وزاد نشاطهم عما يكون عليه فى العادة ، لأن خادما معينا من خدم المسيح اتخذ مقامه على جبل الزيتون ، وكان وعدهم وعدا أكيداً أن القدس واقعة فى أيديهم فى يومهم هذا ، كما أن شارة(٣٦) الرحمة التى شاهدوها هم أيضا من فوق جبل الزيتون زادت من تأجج حماستهم وجعلتهم أكثر ايمانا بأنهم هم الغالبون ، فتقدم هذان الجيشان الصليبيان الى الامام فى خطى متساوية ، وخيل اليهم كما لو أن الأمر كان موجها بعناية محكمة من نفس القائد الأعظم الذى عزم على أن يعوض عبيده لقاء اخلاصهم فيجازيهم المجازاة اللائقة ، والحق ان الوقت كان قد حان ليجنوا ثمار هذه الجهود الشاقة ، وان يكافأوا على خدماتهم الحربية التى أخلصوا النية من أجلها ·

ـ ١٨ ـ

استطاعت كتائب الدوق والكونتين التى كانت ـ كما قلنا ـ تهاجم المدينة من الناحية الشمالية أن تنجح بعون الرب فى تحطيم التحصينات الخارجية وردم الخندق ، ولم يعد العدو قادرا على مزيد من المقاومة لما ناله من الارهاق ، على حين أصبحت العساكر الصليبية قادرة على الاقتراب من السور دون أن تخشى خطرا ما ، لأنهم لم يجدوا هنا وهناك سوى خصوم اقتصرت جرأتهم على محاولة مهاجمتهم من خلال المنافذ الصغيرة فى الأسوار ·

وصدع المقاتلون الموجودون فى آلات الحصار لأمر الدوق ، فأشعلوا النار فى زكائب القش وفى الحشايا المملوءة بالقطن ،

---

(٣٦) يعنىبها شبح الفارس الذى تراءى لهم وهم فى لحظة قد غلبهم اليأس فيها انظر ما سبق ص ١٢٠ ·

وهبت ريح الشمال فزادت اللهب ضراما وانعقدت سحائب من الدخان الكثيف ساقتها الريح الى المدينة ، حتى ان الذين كانوا يحاولون الدفاع عن السور عجزوا عن فتح أفواههم أو عيونهم فانصرفوا عن الدفاع عن الحصون لما حدث فيهم من الاضطراب واختلط عليهم الأمر من جراء سحب الدخان الأسود ، فلما تبين الدوق ما هو حادث أمر القوم أن يجيئوا فى الحال الى أعلى بالعوارض التى استخلصوها من العدو ، وأن يضعوها على صورة يكون أحد طرفيها مثبتا الى الآلة ، والطرف الآخر على السور ، ثم أمر بعدئذ بتدلية الجانب المتحرك من برج الحصار فكان منها جسر قوى زاد من قدرة احتماله ما وضع تحته من الكتل الثقيلة ، وهكذا فان الأداة التى جاء بها العدو لنفعه عادت عليه بالمضرة • فلما تم نصب البرج على هذه الصورة قام الدوق جود فروى الشريف البارز واستصحب أخاه أستاس وتقدما الناس الى داخل مدينة القدس ، وراح (جود فروى) يحرض الباقين ويشجعهم على النسج على منواله ، فتبعه فى الحال الأخوان لودولف وجيسلبيرت من مواطنى مدينة تورناى ، فاستحقا الذكر الخالد ، واذ ذاك زحف جمع كثيف من الفرسان والمشاة ، حتى لم تعد الآلة ولا الجسر بقادرين على تحمل المزيد ، فلما رأى الأعداء أن السور أصبح فى حوزة الصليبيين وشاهدوا راية الدوق تخفق من فوقه غادروا الحصون والأبراج فارين بأنفسهم الى الشوارع الضيقة •

لم يكد رجالنا يشاهدون استيلاء الدوق وأغلب القواد على الأبراج حتى بادروا الى ارتقاء الآلة ، وراحوا يتنافسون فيما بينهم فى نصب ما معهم من سلالم الصعود الى الأسوار ، وكانت كثيرة فى أيديهم ، ذلك لأنهم كانوا قد اطاعوا ما نودى به فيهم ، فقام كل اثنين من الفرسان باعداد سلم ليكون فى خدمة الجميع ، واستطاعوا

بهذه السلالم أن ينضموا الى الموجودين على السور دون انتظار الاذن لهم بذلك من الدوق ٠

وجاء فى أعقاب جود فروى فى الحال كونت فلاندرز ، ودوق نورماندى ، وتانكريد الباسل الذى لا تأتيه من أية ناحية الا وجدته أهلا لكل ثناء ٠ كما صعد مع هؤلاء هيج الكبير كونت سنت بول ، وبلدوين دى بورج ، وجاستون دى بيارن ، وجاستون دى بزييه ، وجرادر دى روسيلون ، وتوماس دى لافير ، وكونان البريتونى ، وكونت رينبولد الذى هو من مدينة أورنج ، ولودوفج دى مونكون ، وكونون دى مونتاج ، وابنه لامبرت ، وكثيرون غيرهم أعجز عن ذكر أسمائهم وحصرهم ٠

فلما اطمأن الدوق الى دخول جميع هؤلاء الفرسان سالمين لم يصابوا بأذى أنفذ بعضهم فى صحبة حرس أشداء لفتح الباب الشمالى المعروف الآن باسم باب القديس استيفان ليدخل منه من كانوا ينتظرون فى الخارج ، ففتح على مصـــراعيه بلا توان ، فتهافت الجيش بأجمعه فى الدخول من غير نظام ٠

وكان اليوم الجمعة ، وكانت الساعة التاسعة ولاح كأن قد تم بترتيب الهى أن تتحقق رغبة الذين حاربوا من أجل مجد المخلص ، وان يكون تحقيقها فى نفس اليوم الذى لاقى فيه الســـيد العذاب بالمدينة من أجل خلاص العالم ، ونقرأ أنه فى ذلك اليوم كان خلق أول انسان ، وان الانسان الثانى أسلم للموت لخلاص الأول ، ومن ثم فقد كان من الخير أن يكتب النصر باسمه على اعدائه لمن كانوا من جسمه وتشبهوا به ٠

ضم الدوق ومن معه قواتهم بعضها الى بعض ، وانطلقوا هنا وهناك عليهم دروعهم ومعافرهم ، وراحوا يذرعون شوارع المدينة مشرعين سيوفهم فاتكين بكل من يصادفون من الأعداء لايراعون فى ذلك عمرا ولا وضعا ، فكان فى كل ناحية مذبحة مروعة ، وفى كل ركن أكوام من الرؤوس المقطوعة، حتى استحال السير فى كل الأماكن أو الانتقال من موضع الى آخر الا على جثث القتلى ، وكان الزعماء قد شـــقوا طريقهم الى وســـط المدينة سالكين طرقا مختلفة ، ومرتكبين من المذابح فى أثناء تقدمهم مالا يمكن التحدث عنه ، ونهج نهجهم جمع من الناس الظامئين الى دماء العدو ، والذين لا قصد لهم سوى التدمير ٠

فى هذه الأثناء لم يكن كونت تولوز والقواد الذين يحاربون معه فى ناحية جبل صهيون يدرون شيئا قط عن خبر الاستيلاء على المدينة ، ولايعلمون أن قد كتب لنا النصر ، غير أن هتافات الصليبيين العالية وهم يدخلون بيت المقدس ، وصرخات المارقين المخيفة وهم يلقون منيتهم ذبحا بثت الذعر فى نفوس المدافعين عن هذا القسم من المدينة ، فتحيروا كأعظم ما تكون الحيرة بين الهتاف غير المألوف وبين الصراخ المعبر عن الشر ، وسرعان ما اكتشفوا ان قد فضت بيضة المدينة ، وان كتائب الصليبيين قد اقتحمتها عنوة ، فلم يتوانوا حينذاك عن مغادرة الأبراج والتخلى عن الحصون ، وفروا على وجوههم فى شتى النواحى لا ينشدون غير النجاة ولا يطلبون سواها، واعتصم أغلبهم بالقلعة لأنها كانت أقرب المواقع اليهم ٠

وأنزل العسكر الجسر لم يعارضهم فى ذلك معارض ، ثم رفعوا سلالمهم الى الأسوار ، ودخلوا المدينة دون أن يلقوا أدنى مقاومة

من جانب العدو ، وما كادوا يرون أنفسهم بها حتى فتحوا البوابة الجنوبية التى كانت أقرب الأبواب اليهم على مصاريعها وأدخلوا بقية الناس ، فكان من الداخلين من هنا كونت تولوز الباسل الشجاع ومعه ايزورد كونت داى « وريموند بيليه » و « وليم دى سابران » أسقف البارة ورهط غير هؤلاء من النبلاء الذين فات التاريخ أن يحفظ لنا أسماءهم وعددهم ، ومشت هذه الجموع وحدة واحدة ، مسلحة تمام التسليح . وانتشرت فى كل ناحية من نواحى وسـط المدينة وليس لها من هدف سوى بث الدمـار المخيف ، ثم راحت تعترض طريق من لم تصبهم نقمة الدوق ومن معه ، فهربوا الى نواح أخرى من المدينة ، ظانين أنهم بذلك قد فروا من الموت ، لكن تصدت لهم هذه الجموع ، وهكذا فانهم بينما كانوا يحاولون تجنب Scylla اذا بهم يقعون فى ما هو أشـد خطـرا منها ، الا وهو خطر Chardydis وشـهدت أرجـاء المدينة مذبحـة فظيعة الشناعة ، وكان الدم المسفوك مخيفا ، حتى ان المنتصرين أنفسهم ساورهم الاحساس بالخوف وشعروا بالتقزز .

ـ ٢٠ ـ

فر الجانب الأكبر من الناس الى فناء المسـجد لوقوعه فى موضع قاص من المدينة كان محصنا أشد التحصين بسور وأبراج وأبواب ، لكن فرارهم الى هناك لم يسعفهم بالخلاص ، اذ سرعان ما اقتفى تانكريد أثرهم على رأس معظم رجال الجيش الذين اقتحم بهم المسجد ، وأعمل مذبحة شرسة حمل بعدها معه ـ كما يقول الخبر ـ كميات كبيرة من الذهب والفضة والجواهر ، ومع ذلك فالاعتقاد السائد انه لما هدأت العاصفة فيما بعد قام فرد هذه الثروات دون أن تمسها يد .

أما القادة الآخرون فقد ترامى الى علمهم ـ بعد فتكهم بكل من صادفهم فى شتى نواحى المدينة ـ أن الكثيرين قد فروا الى أطراف المسجد الطاهر ، فأسـرعوا كما لو كانوا على اتفاق فيما بينهم وانطلقوا يتعقبونهم • ودخل المسجد حشد من الفرسان والمشاة ، فذبحوا ذبح الشاة كل من لجأ الى هنا يبتغى الحماية ، وأعملوا القتل فيهم لم تأخذهم رحمة بأحد ما ، حتى فاض المكان كله بدماء الضحايا •

وكان ذلك قضاء عادلا من الرب أمضاه فى من دنسوا هيكل السيد بشعائرهم الخرافية وحرموه على شعبه المؤمن ، فكان لابد لهم من أن يكفروا عن خطيئتهم بالموت ، وأن تطهر الأماكن المقدسة بدمهم المهراق •

كان من المستحيل أن يطالع المرء كثرة القتلى دون أن يستولى عليه الفزع ، فقد كانت الأشلاء البشرية فى كل ناحية ، وغطت الأرض دماء المذبوحين ، ولم تكن مطالعة الجثث ـ وقد فارقتها رءوسها ـ ورؤية الأعضاء المبتورة المبعثرة فى جميع الأرجاء هى وحـدها التى أثارت الرعب فى نفوس جميع من شاهدوها ، بل كان هناك ماهو أبعث على الفزع ألا هو منظر المنتصرين أنفسهم وقد تخضبوا بالدماء فغطتهم من رؤوسهم الى أخمص أقدامهم ، فكان منظـرا مروعا بث الرعب فى قلوب كل من قابلوهم ، ويقال انه قتل فى داخل ساحة المسجد وحدها عشرة آلاف من المارقين ، بالاضافة الى أن القتلى الذين تناثرت جثثهم فى كل شوارع المدينة وميادينها لم يكونوا أقل عددا ممن ذكرناهم •

وانطلق بقية العسكر يجوسون خلال الديار بحثا عمن لازال حيا من التعساء الذين قد يكونون مختفين فى الأزقة والدروب الجانبية

فرارا من الموت ، فكانوا اذا عثروا عليهم سحبوهم على مشهد من الناس وذبحوهم ذبح الشياه •

وجعل بعض العسكر من أنفسهم عصابات انطلقت تسطو على البيوت ممسكين بأصحابها ونسائهم وأطفالهم ، وأخذوا كل ما عندهم، ثم راحوا يقتلون البعض بالسيف ، ويقذفون بالبعض الآخر من الأمكنة العالية الى الأرض فتتهشم أعضاؤهم ويهلكون هلاكا مروعا ، ومضى مغتصب كل بيت يدعى أن البيت الذى اقتحمه انما هو ملك خاص له بكل ما احتواه ، وذلك لأن الحجاج كانوا قد اتفقوا قبل الاستيلاء على المدينة على أنها اذا وقعت فى أيديهم يكون كل ما يستولى عليه الواحد منهم ملكا خالصا له الى الأبد لا ينازعه فيه أحد ولا يعارضه فيه معارض ، ومن ثم فقد مضى الحجاج يفتشون المدينة تفتيشا دقيقا، ويقتلون أهلها فى غير خوف ، ووصلوا فى ذلك الى أقصى الأماكن حتى مالا يكون منها على قارعة الطريق ، ومضوا يحطمون مساكن العدو ، ويعلق كل منتصر منهم على مدخل البيت الذى اغتصبه مجنه وسلاحه حتى لا يتوقف بالمكان من يمر به ، بل عليه أن يجاوزه فقد صار ملكا لغيره •

— ٢١ —

لما تم للقادة فتح المدينة كلها وفرغوا من الفتك بمخالفيهم فى العقيدة ، ولما هدأت الجلبة بعض الشىء التقى هؤلاء القادة للتشاور فيما بينهم ، واذ كانوا راغبين فى توفير الحماية للمدينة فقد قرروا — قبل القاء السلاح — أن يقيموا بكل برج حراسا ، ويرتبوا على كل باب من أبواب البلد رجالا مسئولين يوكل اليهم الحفاظ عليه ، وقرروا أن تظل هذه الحراسة قائمة حتى يتفق اجماع الزعماء على

اختيار واحد ينصبونه علانية حاكما على بيت المقدس ، ويكون قادرا على تحمل مسئوليتها وادارة كل شئونها حسبما يرى الأمر ملائما •

والواقع انهم كانوا على حق فى التخوف من مكر العدو المحدق بهم ، فهداهم بعد نظرهم للحذر من غارات فجائية يشنها هذا الخصم عليهم •

ولما انتظمت أمور المدينة أخيرا على ما تهوى نفوسـهم ، وضعوا السلاح جانبا وخرجوا مرتدين من الثياب جديدها ، ومضوا بأيد نظيفة ، وساروا حفاة فى خشـوع ومذلة يطوفون بالأماكن الطاهرة التى تنازل المخلص وكرسها للعبادة ، ومجدها بحضوره بالجسد ، وراحوا يقبلون هذه البقاع الموقرة قبـلات ممزوجة بالزفرات والدموع ، وتبعث عليها العواطف القلبية وساروا تجللهم السكينة ويغشاهم الوقار حتى صاروا أدنى ما يكونون الى كنيسة القيامة وهنا كان التقاء القادة برجال الدين وبالمخلصين من أهل القدس ، وكان النصارى ـ الذين عانوا أعواما طوالا مرارة الأسر من غير ذنب ـ أكثر الجميع اشتياقا لاظهار ما يكنون من شكرهم للفادى الذى ردهم الى الحرية ، فيمموا وجوههم شطر الكنيسة وهم ينشدون الأناشيد الدينية ، ويرتلون الأغانى المقدسة ، ويحملون الصلبان وآثار القديسين •

وكان مما يسر العين ويثلج الصدر ما كان عليه الحجاج من حماسة دينية عميقة تجلت وهم يقتربون من الأماكن الطاهرة ، وماهم عليه من غبطة القلب ونشوة الروح وهم يقبلون اثار زيارة السيد القصيرة للأرض ، وكنت لا ترى فى أى ناحية الا دموعا منهمرة ، ولا تسمع الا زفرات متصاعدة غير أنها لم تكن كالدموع ولا كالزفرات التى تصدر عن الحزن والجزع بل تبعثها التقوى والفرحة الروحية

الغامرة يقدمونها الى الله ، وتردد فى الكنيسة وفى عامة أرجاء القدس صوت الشعب وهو يرفع عقيرته بالشكر للرب فى صوت يخيل لسامعه أنه لابد بالغ السماء ذاتها ، والحق أنهم كانوا كما جاء فى قول القائل : « ان صوت الفرحة والخلاص يكون تحت مظلة المستقيمين(٣٧) .

وأخذت مظاهر الرحمة النابعة عن الاخلاص الصادق تسرى فى جميع أنحاء المدينة ، وراح الكثيرون يبكون وهم يعترفون للسيد بما ارتكبوا من الآثام ، ويقطعون العهد على أنفسهم الا يعودوا ثانية الى اقتراف هذه الخطايا .

ومضى غيرهم – وقد بلغ الكرم منهم غايته – يخلعون كل ما ملكوا على الشيوخ والمرضى وذوى الحاجة ، ويعدون ذلك النعمة الكبرى ، ويرون الغنى كل الغنى فيما قدره الله لهم من أن تمتد بهم الحياة حتى يشاهدوا هذا اليوم .

وزحف غيرهم الى الأماكن الطاهرة على ركبهم وقد تصاعدت زفراتهم من قلوب فاضت بالعاطفة العميقة ، وانطلقوا يغسلون كل شيء بدموعهم ، ويوجهون قولهم لله : « ان انهارا من المياه تنهل من عينى »(*) .

اذن ماذا أقول أكثر من هذا ؟

---

(٣٧) لم أجد هذا النص ولا ما يليه فى المزامير ، ويظهر أن الطبعة الانجليزية أخطأت فذكرت المزمور المائة والسابع عشر ، آية ١٥ مع ان هذا المزمور اقتصر على ١٤ آية فقط وكذلك المزمور ١١٨ فآياته ٢٩ فقط ولذلك ترجمته محاولا ان تكون الترجمة العربية أقرب ما تكون للنص الانجليزى ولأسلوب التوراة .

(*) انظر الحاشية السابقة .

انه لمن الصعب أن تعبر الكلمات عن مدى ما كان عليه هؤلاء القوم المؤمنون من صادق الاخلاص وطاهره وقد راح كل واحد منهم ينافس الآخر فى عمل البر والاحسان ، شاكرين العناية الآلهية ما تفضلت باسـبـاغه عليهم مجازاة لهم على ما بذلوا من مجهودات كبيرة ٠

فأى امرىء ـ مهما بلغ من غلظة القلب وصعوبة المراس ـ لا تصفق روحه فرحا بين جوانحه حين يؤذن له أن يشارك فى قطف ثمرة هذا الحج الغالية ، وحين يجزى الجزاء الأوفى على الجهاد الذى خاضـه ٠

ولقد كانت هذه النعمة عند أصحاب الطبيعة الشفافة تعتبر مكافأة عن البدل القادم الذى وعد السيد اضفاءه على قديسـيه فى انه على قدر العطايا التى ينالونها فى هذه الحياة الدنيا يكون أملهم الأكيد فى ثواب الآخرة ، ذلك ان رحلة حجهم التى يقومون بها الآن فى هذه الدنيا الى بيت المقدس ليست سوى وعد أكيد بأنهم لابد وأن ينالوا نصيبا من الثواب فى الحياة الأخرى ٠

ثم قام الأسـاقفة والقسس بعد ذلك بالاحتفال بالقداس فى الكنائس ، وصلوا لله من أجل الناس ، وقدموا الشكر للرب على النعم التى حباهم بها ٠

ـ ٢٢ ـ

فى هذا اليوم ذاته تجلى فى المدينة المقدسـة ـ بشـهادة الكثيرين ـ اديمار أسقف بوى ، تلك الشخصية الفاضلة ، الخالدة الذكر التى ودعت الحياة فى أنطاكية كما قلنا من قبل ، وقد شهد

الكثيرون على حقيقة تجليه، كما ان هناك فى الواقع نفرا غير قليل من الموقرين الثقات أكدوا تأكيدا جازما انهم رأوه بأعينهم حيث كان هو أول من اعتلى الأسوار ، وأخذ يحث الآخرين ويشد عزائمهم ليتبعوه ، وتعددت مرات تجليه فى هذا اليوم ذاته لكثير من الناس وهم فى طريقهم الى الأماكن الطاهرة ، كما شهد العديدون من زوار البقاع المقدسة كثيرين ممن ماتوا وجرى عليهم قضاء الرب الذى لا مفر منه ، أقول شاهدهم الكثيرون فى هذا الحج وأصبح جليا من هذه الحقيقة الثابتة أن من ودعوا هذه الحياة الفانية لينعموا بالرحمة الأبدية لم يحرموا من تحقيق الرغبة(٣٨) التى ملكت عليهم قلوبهم ، لكنهم نالوا غاية ما كانوا يسعون اليه سعيا خالصا ، وهذا يقدم لنا دليلا قاطعا عن القيامة(٣٩) بعد الموت ٠

وكما حدث للسيد من قيامه من بين الموتى كذلك نام مباركون كثيرون ثم قاموا بالجسد ، وتجلوا للكثيرين فى المدينة المقدسة ، لذلك كان من الملائم أن تتكرر المعجزة الأولى لشد أزر المؤمنين وهم يطهرون موضع القيامة المقدس من خرافات الأمم ، يضاف الى ذلك انه من الخير ان يعتقد الناس بأن الذين رضوا منهم بقضاء الله فيهم قد قاموا ثانية بالروح ٠

ولقد تعدد ظهور هذه الآيات وكثير غيرها مما شابهها لشعب الرب بفضل الرحمة الآلهية وبدت كمعجزات أكثر منها عجائب ، لذلك فقد عم الناس فرح فى الروح والفكر أنساهم ما كابدوه من الصعاب التى لا حصر لها ، وعدوا أنفسهم سعداء اذ أتيح لهم أن يشاهدوا هذا العطف الآلهى ٠

---

(٣٨) يعنى الحج الى بيت المقدس والاستيلاء عليه ٠
(٣٩) يقصد المؤلف رؤية أشباح من ماتوا ٠

وعمت المدينة المقدسة فرحة روحية صعدت الى السيد ، فتعددت اقامة الشعائر الدينية كأنها استجابة من السيد ، وبدا كأن كلمات النبى (أشعيا) قد تحققت حرفيا « افرحوا مع أورشليم وابتهجوا معها ياجميع محبيها »(٤٠) ٠

كان يعيش فى بيت المقدس نصارى أتيحت لهم رؤية بطرس الناسك فيها منذ أربع أو خمس سنوات ، حين حمله البطرك الموقر وكبار رجال الدين فيها والأهالى على السواء رسائل آملين أن تحرك أمراء ممالك الغرب فتعطفهم عليهم ، فلما رآه هؤلاء الناس مرة ثانية عرفوه ، فخروا على ركبهم ساجدين أمامه اعترافا بجميله عليهم ، اذ تذكروا أول يوم جاءهم فيه والصداقة التى ربطتهم به ، وشكروه شكرا صادرا من الأعماق ، فقد حملته شفقته وحدها عليهم أن ينجز فى صدق واخلاص ومن غير ملل المهمة التى كانوا قد أناطوها به وعهدوا بها اليه ، وكان شكرهم فوق كل شىء لله المتجلى على عبيده لأنه قاد خطوات هذا الرجل فى طريق أدركوا معه من الآمال فوق مايرجوه البشر ، اذ الواقع أن السيد هو الذى وهب بطرس لسانا مؤثرا حمل الناس والممالك على أن يتحملوا المشاق الكبيرة بلا تأفف ولا ضجر من أجل اسم المسيح ٠

والحق كل الحق أن كلام هذا الرجل بدا وكأنه موصى به من السيد الذى قال : « هكذا تكون كلمتى التى تخرج من فمى لاترجع الى فارغة ، بل تعمل ماسررت به وتنجح فيما أرسلتها له »(٤١) ٠ وترتب على هذا الأمر أن تنافس الناس ـ أفرادا وجماعات ـ فيما بينهم فى اظهار شتى ضروب التعظيم له ، ونسبوا اليه وحده ـ بعد الرب ـ

---

(٤٠) اشعيا : ٦٦ : ١٠ ٠
(٤١) اشعيا ٥٥ : ١١ ٠

خلاصهم من رقهم القاسى الذى تحملوه سنوات طوالا ، كما عزوا اليه الفضل فى عودة المدينة المقدسة الى حريتها الأولى ٠

وكان البطرك ـ كما قلنا حالا ـ قد أبحر الى قبرص ليحصل من المال على ما ينجد به المدينة ويخلصها ويسعد المواطنين ، وتركزت سفارته فى التماس الصدقات من المؤمنين فى تلك البلاد عساه يدفع بهذه الصدقات الجزية والضرائب الزائدة التى كانت قد فرضت على نصارى بيت المقدس فرضا جاوز قدرتهم على دفعها ، وساورهم الخوف ان عجزوا عن الوفاء بهذه الالتزامات أن يقوم مبتزوهم بهدم الكنائس أو الفتك بالناس كما فعلوا ذلك مرارا من قبل ٠

كان هذا الرجل الموقر جاهلا كل الجهل بما كان قد جرى فى المدينة ، كما أنه كان وجلا من العودة فتصادفه نفس تلك الأوضاع الفظيعة ، بيد ان الرب كان قد أفاء على المدينة حالة من الهدوء الشامل غشى تلك الناحية ، وهو هدوء كان فوق كل ما كان متوقعا ٠

ـ ٢٤ ـ

حين فرغ الناس من صلواتهم وزياراتهم للأماكن الطاهرة التى قاموا بها فى صدق واخلاص رآى الزعماء أن الضرورة تتطلب قبل كل شىء تنظيف المدينة ولاسيما نواحى الهيكل حتى لا يتفشى الطاعون بسبب الهواء الملوث بالنتن المتصاعد من جيف القتلى ، فقرروا أن يقوم بهذا العمل السكان الأسرى الذين شاءت الصدفة أن يتخطأهم منجل الموت ليلقوافى السجون ، بيد أن عددهم لم يكن

كافيا لانجاز مهمة كبيرة كهذه المهمة ، ومن ثم قدم الزعماء أجرا يوميا لفقراء الجيش (الصليبى) لقاء مدهم يد المساعدة فى تنظيف المدينة من غير ابطاء ٠

ولما تم تنفيذ هذا الأمر عاد كل قائد الى الدار التى اتخذها مستقرا له ومقاما ،وكان قد تم اعداد هذه الدور لهم خلال تلك الفترة ، ورتبها لهم من كان بها من خدمها أحسن ترتيب ٠

وقد وجدت المدينة غاصة بشتى أنواع السلع والبضائع حتى توفر لكل فرد من الناس – من أصغرهم الى أكبرهم – كم هائل من كل شىء ، وعثروا فى الدور التى اغتصبوها على كميات ضخمة من الذهب والفضة سوى المجوهرات وغالى الثياب ، ووجدوا المخازن ملأى بالحبوب والنبيذ والزيت ، وأصابوا مقادير وافرة من الماء الذى أدى نقصه عند الصـــليبيين الى تحملهم آلاما فظيعة أثناء الحصار ، ومن ثم فان الذين اتخذوا تلك الدور سكنا لهم أصبحوا قادرين على اسعاف اخوانهم المحتاجين عن طيب خاطر ٠

فلما كان اليومان الثانى والثالث لاحتلال القدس نصبت سوق عامة لبيع شتى أنواع المتجر من غير تطفيف ، ينال كل واحد ما يريده وما تصبو اليه نفسه ، حتى ان العامة حصــــلوا على جميع ما يشاءون فى كميات كبيرة وانقضت الأيام فى احتفالات رائعة ، نعم الحجاج فيها بقسط وافر من الراحة ونالوا كل ما كانت تهفو اليه نفوسهم من الطعام ، كما كانت النعم الكريمة الجمة التى جادت بها السماء عليهم مثار دهشـــــة لا انتهاء لها وكانت تذكرة على الدوام بالخير الذى أفاضه السيد عليهم الذى يحكى الغيث الهتان ٠

ورغبة من القوم فى ان يظل خبر هذا الحدث الجليل حيا على أفضل صورة فقد صدر قرار عام ، قوبل باستحسان الجميع

وتأييدهم ، يقضى باعتبار ذلك اليوم مقدسا يختلف عن غيره من الأيام ، وتقرر اعتباره يوم تمجيد وثناء للاسم المسيحى حيث يذكر بكل تعظيم ما تنبأ به الانبياء بشأن هذا الحدث ، كما تقرر أن يبتهلوا الى الرب على الدوام فى مثل هذا اليوم ابتهالا يستمطرون فيه شآبيب الرحمة على أرواح من يرجع الى جهودهم المشكورة الناجحة الفضل فى رجوع مدينة الله الحبيبة سالمة الى حريتها الأولى فى ظل الايمان المسيحى .

وفى هذه الأثناء رأى الأعـــداء الذين لجأوا الى قلعة داود — فرارا من غضـــبة الســيف — ان المدينة آلت تماما الى أيدى الصليبيين ، وأيقنوا أنه لم تعد لهم قدرة على تحمل الحصار ، واذ ذاك راحوا يفتشون عن كونت تولوز الذى كان مقيما فى الناحية التى بها البرج ، وحصلوا منه على وعد بأن يأذن لهم بالخروج من المدينة هم وذووهم ، وان يؤمن ذهابهم الى عسقلان ، كما انه سمح لهم باستصحاب كل متاعهم الذى كانوا قد جاءوا به معهم الى داخل البرج ، وبذلك أسلموا القلعة للكونت على هذه الشروط .

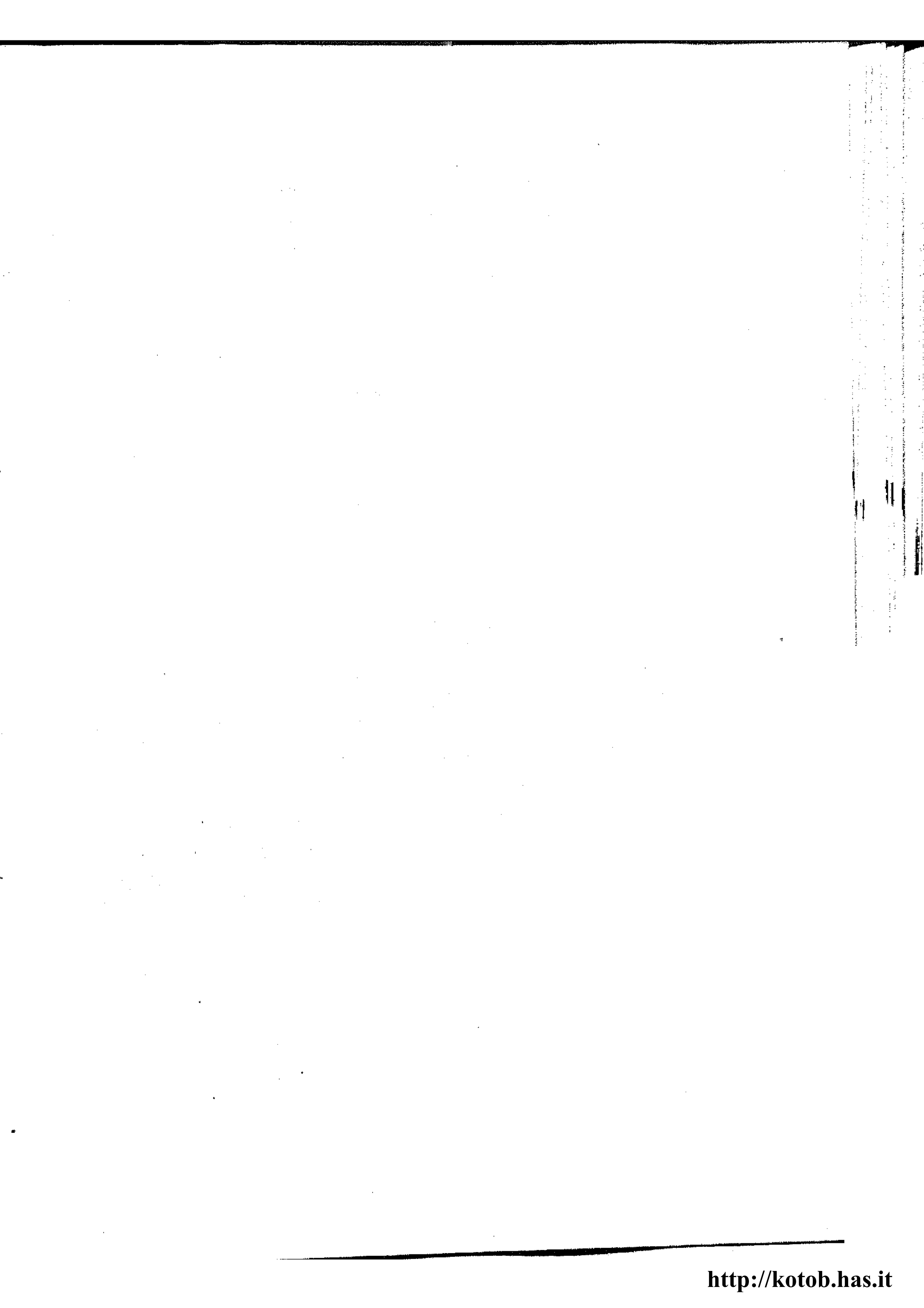


أما الذين عهد اليهم بتطهير المدينة فقد بذلوا — فيما كلفوا به — همة وجهدا كبيرين ، فاحرقت بعض الجيف ، ودفن البعض الآخر حسبما يأذن الوقت ، وأنجزوا عملهم هذا كله فى أيام قلائل معدودات ، وعادت المدينة الى ماكانت عليه من النظافة ، وانطلق الناس زرافات وفى ثقة أكبر الى الأماكن الطاهرة ، وأصبح فى مقدورهم ان تتلاقى زمرهم الكبيرة فى شوارع المدينة وميادينها ، وان ينعموا بالتحدث بعضا الى بعض .

ولقد تم الاستيلاء على القدس حوالى الساعة التاسعة من نهار الجمعة الخامس عشر من يوليو عام ١٠٩٩ من ميلاد المسيح ، وذلك بعد ثلاث سنوات من السنة التى شرع فيها الشعب المؤمن فى تحمل مشقة هذا الحج العظيم ، وكان ذلك زمن « البابا ايربان الثانى » الجالس على كرسى الكنيسة الرومانية الطاهرة وفى عهد الامبراطور هنرى الرابع صاحب امبراطورية الرومان ، وفى زمن فيليب ملك فرنسا ، كما كان بيد الكسيوس صـــولجان الحكم على الاغريق ، وكانت يد السيد الرحيمة تقودهم وتوجههم جميعا .

له الشرف والمجد الى الأبد .

هنا ينتهى الكتاب الثامن



الكتـــاب التاســـع

جودفروى حامى القبر المقدس ببيت المقدس وأنطاكية

فصـــول الكتاب التاســـع :

١ ـ اجتماع الزعماء بعد ثمانية أيام من الاســـتيلاء على بيت المقدس لانتخـــاب واحد منهم ليتولى أمر المدينة والأقاليم المجاورة ، أما رجال الدين عامة فكانوا يحاولون منع هذا الأمر ٠

٢ ـ القادة لا يكترثون بمعارضة رجال الدين ويختارون الدوق (جود فروى) ويمضون به الى بيت المقدس وسط أهازيج الفرح والتراتيل الدينية ٠

٣ ـ حين تؤول مقاليد الحكم الى الدوق (جود فروى) يعمد الى مطالبة (ريموند) كونت تولوز بتسليمه برج داود الذى كان

العدو قد سلمه اليه ، فيشـــب النزاع بين القائدين ولكن جود فروى ينجح أخيرا فى تملك البرج حسب طلبه ٠

٤ ـ أسقف مطيرة الخبيث الغامض يحاول رفع أرنولف ـ الذى هو من جبلته ـ الى كرسى البطركية ولكنه يفشل فى محاولته هذه ثم العثور على صليب السيد ٠

٥ ـ القول عمن يكون الدوق جود فروى ، ومن أين جاء ، ومن هم أسلافه ٠

٦ ـ تنبؤات أمه بمستقبل أولادها ٠

٧ ـ ما تم على يد جود فروى من الانجازات الخالدة فى احدى المعارك ٠

٨ ـ العمل الذى لا مثيل له الذى قام به جود فروى وأدى الى انتصار الامبراطور هنرى على رودلف مغتصــــب عرش سكسونيا ٠

٩ ـ سخاء الدوق الطيب على كنائس بيت المقدس ، وكيف دفعه تواضعه لأن يرفض وضع التاج الملكى على رأسه ٠

١٠ ـ خليفة مصر يستدعى مختلف قواته الحربية ويزحف على بلاد الشام ضد الصليبيين ٠

١١ ـ بعد أن يفرغ الدوق من اتمام فرائضه الدينية فى بيت المقدس يقوم بجمع قواته في الرملة التي كان القادة قد تجمعـــوا فيها ٠

١٢ ـ نشوب القتال وانتصارنا بعون الله واستحواذنا على غنائم لا يحصيها العد ٠

١٣ ـ انفصال الزعماء بعضهم عن بعض وعودة كونت نرمندى ، وكونت فلاندرز الى وطنهما ورجوع كونت تولوز الى القسطنطينية ، واذ ذاك تصبح قيادة طبرية فى يد تانكريد ٠

١٤ ـ ذهاب بوهيموند أمير أنطاكية وبلدوين كونت الرها الى بيت المقدس للاحتفال بعيد ميلاد المسيح ٠

١٥ ـ دامبرت ـ رئيس أساقفة كنيسة بيزا ـ يصبح بطرك بيت المقدس ٠

١٦ ـ نجاح مكائد الشريرين فى بث الشقاق الحاد الذى يصل الى حد الصراع بين الدوق والبطرك حول ملكية برج داود وربع المدينة ٠

١٧ ـ لماذا وضع ربع المدينة تحت ادارة فخامة البطرك وسلطانه ٠

١٨ ـ استمرار نفس الموضوع وبيان أى الأماكن الطاهرة تدخل فى نطاق جزء المدينة الذى تكثر الاشارة اليه ٠

١٩ ـ وصف أحوال المملكة فى ذلك الوقت وذكر حصار الدوق لمدينة أرسوف الساحلية ، ثم السبب فى رفعه ذلك الحصار عنها ٠

٢٠ ـ ذكر حادث يستحق التسجيل جرى لهذا الرجل العظيم (جود فروى) أثناء ذلك الحصار ٠

٢١ ـ وقوع بوهيموند ـ امير أنطـــاكية ـ فى الأسر عند مدينة ملطية •

٢٢ ـ ذكر عمـــل رائع يســـتحق التخليد قام به الدوق فى بلاد العرب •

٢٣ ـ موت الدوق جودفروى ودفنه •

* * *

هنــــا يبـــدأ

الكتــاب التاســع

جودفروى حامى القبر المقدس والملك غير المتوج لبيت المقدس وأنطاكية

ـ ١ ـ

عادت المدينة المقدسة الى الشعب المسيحى بفضل رعاية الرب الغامرة ، وسعدت بشىء من النظام ، ومرت على الناس سبعة أيام نعموا فيها أقصى غايات النعمة والســـرور ، وان مازج فرحتهم الشاملة شىء من خشية الله ومن الفرحة الروحية ، فلما وافى اليوم الثامن التام عقد القادة للتشاور ، وكان غرضهم ـ بعد التوســل بالروح القدس ـ أن يختاروا واحدا من بينهم يلقون اليه بحكم البلد ويحملونه المسئولية الملوكية لتلك الولاية .

لكن بينما كانوا يبحثون هذا الأمر كان رجال الدين يجتمعون هم أيضا فيما بينهم وقد استولت عليهم روح الصـــلف ، وقدموا

مصالحهم الذاتية على مصالح عيسى المسيح ، وأرسلوا رسالة الى الزعماء الصليبيين قالوا لهم فيها ان عندهم مسائل خاصة معينة ، يريدون أن يتحدثوا فيها أمام أولئك الذين يتشاورون الآن فيما بينهم، فلما استجاب القادة لطلبهم قالوا لهم ، « لقد علم رجال الدين انكم قد اجتمعتم لاختيار أحدكم لتنصبوه ملكا ، وما نشك فى شرف هدفكم وصوابه ، فان قدر لهذا الأمر أن يتم على الوجه الصحيح كان قرارا دقيقا جديرا بالتنفيذ ، غير أن الذى لا مشاحة فيه هو أن المسائل الروحية أسمى من المشاكل الزمنية وأعظم منها خطورة ، مما يحتم أن تكون لها الصدارة ، وفى رأينا أنه يجب عليكم - قبل أن تفكروا فى انتخاب أحد لمنصب علمانى - أن تختاروا رجلا قضى حياته فى خدمة الملة ، ويرضى عنه الرب ، ويكون قادرا على رئاسة كنيسته وتدبير أمورها بما يؤدى الى تقدمها وخيرها ، فان قبلتم أن تسير الأمور على هذا السمت قبلناه نحن أيضا بكل الرضا ، وأيدناكم عقلا ووجدانا ، أما ان أبيتم وأعرضتم فاننا سوف نشجب كل ما قررتموه، لأنه يكون قد تم بدون موافقتنا ، ولا يعود لهذا الشخص الذى اخترتموه ذمة فى عنق أحد .

وعلى الرغم من أن اقتراح رجال الدين هذا كان فى ظاهره مقبولا وعظيما ، الا أنه كان ينطوى فى واقعه على كثير من سوء النية ، كما ستبين الخواتيم .

وكان أكبر المتزعمين لهذا الشقاق أسقف « كلابريا » من اقليم « مطيرة » وكان هو الصديق الحميم للمدعو « أرنولف » الذى ورد عنه الشىء الكثير فى الصفحات السابقة ، وكان اسقف كلابريا هذا يرمى الى أن يسوق كرسى البطركية لأرنولف الذى وان كان من رجال الدين الا أنه مذموم السيرة مغموزها ، ثم انه فوق ذلك ابن أحد القساوسة ، وكانت الألسن تلوك طول الرحلة سيرته بالسوء

وتتغامز عليه ، كما أن سفلة المهرجين فى الجوق كانوا يجعلون منه أضحوكة أغانيهم الجنسية ٠

هذا هو الرجل الذى كان أسقف كلابريا يحاول أن يرفعه الى منصب بطركية القدس ، مخالفا جميع القوانين الكنسية المقدسة مخالفة صريحة وعلى كره من الرجال الشرفاء ، كما أن ذلك الأسقف ذاته كان رجلا ساقط الهمة ، دنىء النفس ، فلا عجب أن تمكن فى سهولة ويسر من الوصول الى اتفاق مع أرنولف ، فقديما جاء فى الأمثال « ان الطبيعة تحمل الطيور على الوقوع على أشكالها ، وشبيه الشىء منجذب اليه » ٠

لقد أخذ هذا الرجل نفسه يساوم على كنيسة بيت لحم ، اذ عقد صفقة مع أرنولف ، اتفقا بمقتضاها على أنه اذا ارتقى الأخير كرسى البطركية بفضل سعى الأسقف فعلى أرنولف ألا يقف أبدا فى وجهه فى أن تؤول الكنيسة(١) المذكورة ليكون أسقفها ٠ غير أن الموت وضع خاتمة لكل مشاريعه ، كما سنروى خبر ذلك فى الصفحات التالية ٠

***

لقد هوى الدين القيم وكل معانى الشرف الى الحضيض عند رجال الدين ، فاستشرى الفساد فى كل ناحية ، وسار فى مسيرات محرمة منذ أن غادر دنيانا النائب الرسولى ، الطاهر الذيل والسيرة « اديمار أسقف بوى » ، ثم قام مكانه فى حمل مسئولية هذه الملة وليم أسقف أورنج ، الذى كان رجلا ورعا يخشى الله حق خشيته ، فأدى الأمانة على أحسن مايكون الأداء ، لكنه مالبث أن مات هو الآخر بعد قليل ، وكان موته بالمعرة ٠ فصدق (بعد هذين الرجلين) قول القائل(٢) « كما الشعب هكذا الكاهن » ٠

---

(١) أى كنيسة بيت لحم ٠

(٢) هوشع ٤ : ٩ ٠

ولم يبق بعدهما سوى أسقف البارة وقليليين من أمثالهم ، ممن فاضت قلوبهم بخشية الرب ، ونظرت عيونهم صوب الطريق القويم يسلوكنه ٠

ـ ٢ ـ

لم يكترث الأمراء باعتراضات رجال الدين التى اشرنا اليها فى الفصل السابق ، وعدوها سفسطة غير ذات موضوع ، وعلى الرغم من عزمهم على تنفيذ مشروعهم الا أنه لم يفتهم أخذ اقتراح رجال الدين بعين الاعتبار ، وتقول بعض الأخبار انه من أجل أن تجرى الانتخابات بما يرضى الرب ، وحتى تلقى ميزات المرشحين لهذا الشرف ماتستحق من العناية ، فقد استدعى الزعماء اليهم فى السر أشخاصا من أهل المتنافسين وأتباعهم ، وأخذوا على كل منهم العهد بالصدق فيما يقول ، وألا يحيد أحدهم عن ذكر الحقائق المتعلقة بمولاه وبخلقه ، وقد سلك الزعماء هذا السبيل حتى تتوفر لدى الناخبين المعلومات الكاملة الدقيقة عن قدر كل مرشح ٠

ولما سئل هؤلاء الناس أخيرا أسئلة استفسارية من جانب الناخبين التزموا بأيمانهم التى أقسموها ، ألا وهى بيان عيوب سادتهم وفضائلهم ، غير مخفين من هذه أو تلك شيئا ، على أن يبقى ما صرحوا به سرا مكتوما ، وتوقعوا أن تؤدى هذه الطريقة الى صدور حكم بعيد عن الهوى ، يفصح عن طبيعة كل مرشح وشخصيته ٠

ولما سئل بعض أتباع جود فروى ـ فيمن سئلوا ـ عما يعرفونه من فعال مولاهم الدوق ، قالوا ان أشد ما ضايقهم منه هو أنه دخل ذات مرة احدى الكنائس ، فلم يستطيعوا حمله على مغادرتها رغم الفراغ من الصلاة ، اذ استمر يسأل القسس وغيرهم من أهل المعرفة

عن مغزى كل صورة وكل أيقونة ، حتى استبد الضجر بأصحابه الذين كان هواهم يخالف هواه ، وترتب على طول انتظـــارهم أن ظلت الأطعمة على النار زمنا أطول مما كان مقدرا لنضجها حتى أصبحت غير ذات مذاق ٠

ولما سمع الناخبون هذه الشكاية منهم فى حقه تعجبوا وقالوا « سعيد والله ذلك الرجل الذى له كل هذه الصفات الحميدة ، والذى تكون نقيصته فضيلة يتفاخر بها الآخرون » ٠

وبعد أن استعرض الناخبون كل جوانب المسألة استعراضا دقيقا انعقد اجماعهم على اختيار الدوق جود فروى ، فتم انتخابه ثم ساروا به فى موكب مهيب الى قبر المسيح ، تزفه أغانى المنشدين والمرتلين ٠

* * *

ومع ذلك فقد قيل ان معظم الناخبين كانوا قد اتفقوا على اختيار ريموند كونت تولوز ، لولا أنهم عرفوا عزمه على الرجوع الى وطنه فى الحال ان لم ينول أمر المملكة ٠

واذا كانوا فى حنين شديد الى ديارهم الحبيبة فقد تذرعوا بشتى الذرائع حتى وان كانت ترفضها ضمائرهم ، والتى تزعم أن الكونت غير أهل لهذا المنصب ، ومع ذلك فان ريموند أصم أذنيه عن نداء أرض آبائه وأجداده ، وأخلص النية فى متابعة المسيح فلم يعد الى وطنه وخالف ظن الجميع اذ استمر فى الحج الذى ارتضاه ولم ينصرف عنه ، واتبع بمحض اختياره طريق الفقر حتى النهاية لأنه كان يؤمن بقول القائل(٣) : « ولكن الذى يصير الى المنتهى فهذا

(٣) متى ٢٤ : ١٣ ٠

يخلص » ، كما آمن بقول الآخر[٤] (اذ قال يسوع) « ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر الى الوراء يصلح لملكوت الله » ٠

ـ ٣ ـ

فى الوقت الذى تقلد فيه الدوق مقاليد السلطة العليا فى المملكة برضاء الجميع ،كان كونت صنجيل لايزال مستحوذا على قلعة المدينة وأعنى بها برج داود ، الذى سلمه العدو اليه فى البداية كما قلنا ٠ وكان البرج بناء نحت من الحجر الصلد ، ويقع فى الناحية الغربية فى أعلى بقعة من المدينة التى يمكن رؤيتها كلها من هذا الارتفاع الشاهق وهى جاثمة تحته ٠

ولما رآى الدوق (جود فروى) فراغ يده من هذا الحصن القوى الذى هو آخر معاقل البلد أحس بنقص سيادته ، لذلك اغتنم اجتماع القادة وطلب من الكونت أمامهم أن يسلمه البرج ، فرد عليه ريموند انه لما كان العدو قد سلمه اليه هو وحده دون سواه ، فانه راغب فى بقائه بيده حتى يقلع بحرا الى وطنه يوم عيد الفصح ، اذ أن بقاء القلعة فى يده يضفى أهمية كبرى على مركزه طوال مدة مكثه برجاله فى المملكة ، فكان جواب الدوق أنه سوف يتخلى عن الحكم كله وينفض يده منه ان لم يرد (الكونت) البرج اليه ، كما صرح أنه سيكون من العار عليه ـ وقد نودى به حاكما أعلى ـ أن يظل حصن المدينة تحت سلطان غيره ، فيعتبر هذا الغير اذ ذاك ندا له أو اسمى منه مكانة ٠

وانضم الى جانب الدوق (جود فروى) حينئذ كل من كونت فلاندرز ، وكونت نرماندى ، بل ان أصحاب كونت صنجيل أيدوا

(٤) لوقا ٩ : ٦٢ ٠

معارضيه ، وجاء أن يؤدى موقفهم هذا لايجاد مبرر لمولاهم ريموند يحمله على مغادرة البلاد ، وكانت النتيجة هى اجماع الكل على بقاء الحصن تحت اشراف أسقف البارة ، ليكون قواما عليه حتى يتم البت فيمن يؤول اليه شرعا • على أنه يقال ان الأسقف اسلم الحصن للدوق قبل أن يصل القوم الى القول الفصل فيه ، وحدث فيما بعد أنه لما قام نفر يلومون الأسقف على ما فعل بحق الكونت (ريموند) والحصن ، بادر الأسقف فأعلن على رؤوس الاشهاد أنه لم يفعل ما فعل الا مرغما •

حينذاك احتدم الكونت غضبا وثارت ثائرته ، لأنه أحس بحرمانه من البرج بطريقة ازرت به ، وزيادة على ذلك فقد أدرك عدم اتسام موقف الزعماء الآخرين نحوه بالود الذى هو أهل له ، ورآهم يتناسون أفضاله الجمة التى طالما أغدقها عليهم خلال الحج ، فغادرهم الى الأردن ، وبعد أن سبح فى مائه أخذ يعد العدة للعودة الى بلده نزولا على هوى رفاقه ورغباتهم •

— ٤ —

أما أسقف « مطيرة » الخبيث المحتال فقد دأب طوال هذه الفترة على اغراء الجهال بالتطاول على الزعماء الطاهرى الذيل ، حتى لقد دفعه الحسد الذى يملأ جوانحه الى الزعم بأن القادة دبروا عدم تنصيب راع للكنيسة ليتمكنوا من بسط سيطرتهم الكاملة عليها، طالما لا يوجد لها رئيس يدير شئونها ، ومن ثم قام هذا الأسقف فاختار أرنولف المذكور — رغم معارضة سواه — ووضعه على رأس البطركية ، وعاونه فى هذا المسعى رجال ممن كانوا على شاكلته فى التفكير •

ولقد اعتمد فى هذه الخطوة على تأييد (روبرت) كونت نرماندى صديق أرنولف الحميم ورفيقه فى الرحلة ، كما اعتمد

على أصوات أوشاب الناس ورعاعهم الذين ساندوه فى مسعاه استجابة للمشورة الفاسدة ، بيد أنه لم يقدر لأحد هذين الرجلين أن يتمتع طويلا بثمرة هذا التدبير الكريه ،اذ سرعان ما اضطر أرنولف رغم أنفه للتخلى عن هذا المركز الذى اندفع فى طيش للحصول عليه ، وكذلك كان الحال مع مؤيده البذىء الذى شجعه على سلوك هذا المسلك المعيب ، فلقى هو الآخر جزاءه ٠

***

حدث فى هذا الوقت ذاته أن اكتشف فى ركن قاص من أركان كنيسة القبر المقدس جزء من صليب المسيح ، كان قد أخفاه هنا منذ زمن بعيد المؤمنون الذين كانوا يعيشون تحت عسف « الأمم » ولم يطلع على هذا السر غير نفر قليل ٠

ويرجع الفضل فى كشف هذا الكنز الثمين الموجود فى علبة فضية الى ايمان رجل سورى كان قد عرف مخبأه ، فحمله القوم وهم يرتلون الأناشيد والأغانى الدينية ، وساروا به أولا الى قبر السيد ثم الى الهيكل ، ومضى خلفهم رجال الدين والشعب جنبا الى جنب ، وسرى بين الصليبيين شعور عام هو أن الله العلى جاد عليهم بهذه المنحة عزاء لهم عما تحملوه من الأهوال ، وما صادفوه من المشاق ٠

ـ ٥ ـ

كان الدوق جود فروى الذى يتردد اسمه كثيرا فى ثنايا هذا التاريخ قد استقر ـ برحمة الرب ـ رئيسا أعلى للمملكة ، كما قضى على جميع المنازعات ان كان قد حدث منها شىء وأخذت المملكة فى أيامه تزداد قوة وبأسا حتى ثبتت دعائمها ورسخت أركانها ، لكن لم تجاوز حكومته عاما واحدا ، لأن آثام الناس لم تساعد ـ رغم

الدعاء الكثير له ـ على أن تطول أيام هذا الأمير العظيم ، فلم يقو عود السيطرة المسيحية الغض ، وانتزعه الموت من بين الرجال حتى لايتبدل قلبه فيمتلىء بالكبرياء لأنه مكتوب فى أشعيا : « باد الصديق، وليس أحد يضع ذلك فى قلبه ورجال الاحسان يضمون ، وليس من يفطن بأنه من وجد الشر يضم الصديق »(٥) ٠

* * *

نشأ جود فروى أول ما نشأ فى مملكة الفرنجة اذ ولد فى اقليم « ريمز » بمدينة « بولونيا » المطلة على القنال الانجليزى ، وهو سليل آباء كرام المحتد أتقياء ، فقد قام أبوه « استاس » الكبير أحد كونتات هذه الولاية البارزين النابهين بكثير من الأعمال الجليلة، ولايزال اسمه كرجل تقى يخاف الله محل توقير ، ولا يذكره كبار رجال النواحى المجاورة الا ويثنون عليه الثناء العاطر ٠

وأما أمه « ايدا » فكريمة الأصل ، قد ذهبت هى الأخرى بين نساء الغرب الشريفات بحســـن الأحدوثة لخلقها الرفيع ومكانتها السامية ، وهى أخت « جود فروى » (الكبير) المبجل دوق اللورين الملقب « بستروما » ولما لم يكن لهذا الدوق أولاد من صلبه فقد تبنى ابن أخته وسميه وأوصى له بكل ما يملك ، ومن ثم خلف جود فروى خاله على الدوقية عند موته ٠

وكان لجود فروى الصغير ثلاثة أشقاء : أهلهم سمو خلقهم، وشجاعتهم الفائقة لأن يكونوا عن جدارة اخوة لمولى عظيم مثله ،

---

(٥) اشعيا ٥٧ : ١ ٠

هم : بلدوين كونت الرها الذى خلف فيما بعد (أخاه) جود فروى فى حكم بيت المقدس ، وأما ثانيهما ، فأستاس « كونت بولونيا » الذى سمى بإسم أبيه ، وورث أملاكه ، كما آل اليه حكم المقاطعة بعد موته ، ثم هناك « ماتيلدا » ابنة استاس ، وهى التى تزوجت من « ستيفن » ملك الانجليز العظيم المبجل •

ولما مات بلدوين دون ولد يرثه فقد استدعى رجال الشرق البارزون « استاس » ليخلفه فى المملكة ، لكنه كان عازفا عن الذهاب الى هناك ، مخافة ألا يتم استخلافه على العرش من غير حرب •

أما الأخ الثالث لجود فروى فهو « وليم » ، وكان رجلا ذا شرف صاعد ، لا تنقصه الشجاعة ولا الخلق السوى اللذان كانا يميزان أباه وأخويه ، وقد صحب الأخوان اللذان ذكرناهما مولاهما وشقيقهما فى حملته ، على حين بقى ثالثهما « وليم » فى البلاد لم يبرحها •

كان جود فروى العظيم أكبر اخوته ، وله الصـــدارة عليهم والتقدمة فيهم لما تميز به من نبل الطبع وعمق الايمان ، كما بزهم برحمته وتقواه وعدله ، وكان يغلب عليه الجد ، ويمتاز بصدق الكلمة والبعد تماما عن كل شر ، مع ازدراء لأبهة الدنيا ، وكانت هذه صفة نادرة فى تلك الأيام ، وهى أشد ندرة فى الرجل الذى يتخذ الحرب حرفة له ، ثم انه كان ملازما للصلاة ، دؤوبا على صالح الأعمال ، معروفا بسخاء كفه ، واذ كان مفضالا لين الجانب رحيما ، مالكا لنفسه عند الغضب فقد كان محمودا عند الله ، مرضيا عليه منه •

وكان طويل القامة من غير اسراف كبير ، ولكنه اذا ما قيس بالرجل العادى كان أطول منه « ولم يكن هناك أحد يماثله في شدة

بأسه ، فهو عبل الساعدين ، عريض المنكبين ، تسر طلعته الناظرين، وكان شعر لحيته ورأسه أشقر بعض الشيء ، وقد أجمع الكل على أنه معدوم النظير فى استعمال السلاح وفى ممارسته أفانين الحرب ٠

ـ ٦ ـ

كانت أم هؤلاء الأمراء العظام امرأة متمسكة بالدين فى حياتها ، عاملة على ما فيه مرضاة الله ، وبينما كان هؤلاء الأمراء لايزالون فى سنواتهم الأولى رأت أمهم ـ وقد فاضت نفسها بروحانية طاهرة ـ أحداث أيامهم القادمة ، والوضع المقدر لهم حين يشبون عن الطوق وتتقدم بهم الأعوام ، وكان ما رأته يشبه أن يكون وحيا أوحى به اليها ، ففى ذات مرة من المرات كان صغارها يلعبون جميعا حولها ويتدافعون كعادة أمثالهم من الأطفال ،و يزاحم الواحد منهم الآخر ، ثم يفر كل منهم الى حجر أمه معتصما بها ، حين دخل عليهم أبوهم الموقر كونت استاس ، فاستخفوا منه تحت طيات عباءتها ،و كل منهم يدفع أخاه دفعا هينا بيديه وقدميه ، فلاحظ الكونت عباءة الأم تهتز عليها فسألها ما سر هذه الهزات القوية فردت عليه كما يقولون بقولها : « انهم ثلاثة أمراء عظام ، سيكون أولهم دوقا ، وثانيهم ملكا وثالثهم كونتا » ، فكان ما قالته أشبه بنبوءة علوية تمت كما قالت ، وأكدت الأحداث فيما بعد صدق ما تنبأت به ، فقد خلف الابن الأول خاله فى الدوقية ، ثم اختاره الزعماء بالاجماع فيما بعد حاكما لمملكة بيت المقدس ، وأما من يليه مباشرة وهو بلدوين فقد ولى عرش المملكة من بعده ، على حين أن الأخ الثالث أستاس » خلف أباه بعد موته كوريث لكل الولاية لا يشاركه فيها أحد ، كما قالت أمهم ٠

واننى أتجاوز عامدا قصة البجعة التى تزعم الأسـطورة أن

هؤلاء الأخوة جاءوا منها ، اذ على الرغم من أن كثيرا من الكتاب يقصونها كحقيقة مؤكدة ، الا أنه لا أساس لها من الصحة عندى •

فلنجاوز هذه القصص ، ولنعد الى تاريخ الدوق ، الذى نبدأ فى سرده ، فتذكر الأخبار انه من بين الأعاجيب التى فعلها ـ كعادته ـ اعجوبة تستحق الاشارة ، حتى لنرى أنه ينبغي ادراجها فى مؤلفى الحالى هذا •

ـ ٧ ـ

هناك معـركة من معارك هذا الدوق العظيم الخـالدة ، لها الصدارة بين غيرها ، وتستحق أن نرويها هنا ، وهى اضطراره ـ رغم ارادته ـ للدخول فى مبارزة كان لابد أن يخسر فيها ذيوع صيته كمألوف عادات البلاد لو أنه اعتذر عنها ، ذلك أن قد آذاه وهو فى البلاط الامبراطورى ـ نبيل من وجوه النبلاء هناك ، وان قيل انه من ذوى قرباه ، وكان الأمر يتعلق بأملاك شاسعة وولاية فسيحة الأرجاء ، فتحدد يوم معين للمحاكمة للفصل فيما رمى به ، فلما وافت الساعة المحددة حضر الى البلاط الامبراطورى كل من المدعى والمدعى عليه ، وعرض موضوع النزاع فتقدم الشريف المشار اليه بدعواه ، فدافع الدوق عن نفسه كأحسن ما يكون الدفاع ، ولكن قوانين البلاد كانت تحتم المبارزة الشخصية بين طرفى الخصومة ، فبذل سراة الامبراطورية جهودهم لمنع هذين الرجلين العظيمين من القيام أمام الناس بعمل ليس من اللائق أن يراه النظارة ، اذ كان من الضرورى أن تتمخض المبارزة عن تلويث شرف أحدهما وسمعته من غير فائدة ، لكن راحت جهودهم فى هذا الموضوع هباء ، حين صدر القرار الامبراطورى بالتنفيذ ، وتحلق النبلاء حول الاثنين كما

هى العادة ، وتزاحمت العامة حين دخل المتنازعان الساحة المخصصة للمبارزة الفردية لمعرفة ما تسفر عنه هذه المبارزة •

وبينما كان هذان العظيمان المبجلان يتصارعان فى شجاعة بكل ما أوتيا من قوة اذا بدرع الخصم يصب سيف الدوق ءيتهشم السيف حتى لا يبقى منه فى يده من عند مقبضه سوى قطعة لاتكاد تبلغ نصف قدم ، فلما رأى النبلاء الشهود أن موقف الدوق قد أوفى على الخطر الذى ما بعده خطر نادوا بوقف المبارزة قليلا ، وذهبوا الى الامبراطور يلتمسون منه أن يأذن لهم باقتراح يكون حلا وسطا بين النبيلين العظيمين ، وبينما كانوا منهمكين فى عرض آرائهم اذا بالدوق يعلن رفضه البات لما قد يستفيده من جهود وسطاء السلام بينه وبين منافسه ، واذا به يعود الى الحلقة وكله اصرار تام على معاودة المبارزة •

كان سيف الخصم لايزال سليما ، وقد صارت له اليد العليا . فراح يضاعف من الشد على الدوق ويأبى أن يتيح له لحظة يلتقط فيها أنفاسه ، ومع ذلك فقد استطاع جود فروى فى النهاية أن يسترد براعته المعهودة التى كان الناس يعرفونها فيه ، واندفع الى الأمام غاضبا أشد الغضب ، ومقبض سيفه المكسور فى يده ، وضرب خصمه ضربة نكراء أصابت صدغه الأيسر فجندلته على الأرض وهو بين الحياة والموت ، حتى ظنه الجميع قد فارق الحياة تماما •

ثم طوح جودى فروى جانبا بحطام سيفه من يده وأمسك بحسام خصمه المسجى على الأرض واستدعى اليه السادة الذين كانوا يتحدثون اليه منذ قليل عن حل وسط بينهما ، والتمس منهم أن يضعوا شروط الصلح ، وأن ينصرفوا للعمل على انقاذ هذا الرجل العظيم من تلك الميتة الشائنة اذ حاقت به الهزيمة ، فتملكهم الاعجاب بشجاعة

الدوق الفائقة ، وأذهلتهم رحمته التى لاتقاس بها رحمة ، وراحوا يرتبون أمر الصلح ، وهكذا انتهت المبارزة الى نهاية شريفة ، خرج منها الدوق منصورا ، واستحق فى نظر الجميع ثناء لا يبلى ٠

ـ ٨ ـ

وهناك عمل آخر لا يقل عن هذا العمل روعة ، وسوف يبقى خالدا أبد الدهر فى أذهان الناس ، ونراه نحن جديرا بالاثبات فى هذاالكتاب ، ذلك أن السكسون ـ وهم أشد الشعوب الألمانية غلظة ـ انفوا أن يظلوا يرسفون فى قيد الامبراطورية الرومانية ، ولما كانوا يؤثرون التنقل أحرارا دون قيد أنى شاءوا فقد تخلصـــوا من كل الأغلال التى كان يفرضها النظام عليهم ، وتمردوا على الامبراطور هنرى ، وأوغلوا فى تمردهم المتعمد فنصـــبوا على أنفســهم ملكا معارضا للامبراطور ، وكان هذا الملك أحد كونتاتهم وكبيرا من كبارهم يدعى « رودلف » ٠

اغضبت هذه الاهانة الامبراطور وأثارت خفيظته فدعى اليه كل أمراء المملكة ، حتى اذا صاروا فى حضرته استعرض أمامهم الاهانات التى لم تعد خافية عن أحد ، وطالبهم بالانتقام ، فغضبوا حمية لمجد الامبراطورية ، وساءهم مسلك السكسون الهمجى ، ولم يتوان أى واحد منهم عن عرض خــدماته ، ووعدوه بامدادات عســكرية ٠

ولما لم يكن من المستطاع غض الطرف عن اساءة كهذه الاساءة فقد أعلنوا أنه ما من شىء غير الموت يلقاه السكسون يكفرون به عما اجترحوه من جرم فى حق الامبراطورية ، وأنه لايمكن محو هذه الجريمة الكبرى الا بالسيف يغسل عارها ٠

وجاء اليوم الذى حدده الامبراطور لاجتماع أمراء المملكة ، فالتقوا فى الموضع الذى ضربه لهم وهم يقودون الآلاف المؤلفة من العسكر ومن الأمراء الدينيين والعلمانيين على السواء ، وقد جاءوا بهم من كل أرجاء الامبراطورية ، وكلهم مجمع العزم على مهاجمة بلاد السكسون ، والثأر لهذه الجريمة النكراء والفعلة الشنعاء •

واقترب يوم القتال •

واصطف عساكر الجانبين استعدادا للمعركة •

وحينذاك استدعى الامبراطور اليه كبار قادته ، واستفسر منهم عمن يسلمه علمه الامبراطورى ويكون مطمئنا اليه ، ويجعله القائد العام لهذا الجيش العرمرم ، فردوا عليه فى الحال وباجماع تام منهم على أن ذلك الشخص هو « جود فروى » دوق اللورين ، لأنه أقدر الجميع وأكفأهم لتحمل المسئولية ، فلما عرف الامبراطور أنه المختار من بين الألوف المؤلفة ، وأنه فى نظر الجميع الرجل الذى لا يبزه غيره فقد أسلمه راية النسر ، فلم يبطره ماجرى ولكنه قبـــل هذا الشرف على كره منه •

وبينما كان جيشا الجانبين فى هذا اليوم يتقاتلان فى براعة ، ويشد كل منهما على الآخر بالسيف شدا عنيفا ، اذا بالدوق الذى كان على رأس قوات الامبراطور ويحمل نسره يتحرك ويزحف مواجها الصفوف التى كان يقودها « رودلف » الملك المغتصب ، فاتجهت كل القوات التى تحت قيادة الامبراطور الى حيث اتجه ، فعمت الفوضى كتائب الملك (رودلف) واضطربت صفوفها حين جاءها جود فروى الذى رآه الامبراطور (هنرى) ذاته وبعض كبار رجالاته بأعينهم وقد ضرب قلب رودلف بالراية التى يحملها ضربة طرحته أرضـــا

فسقط جثة هامدة لاحـــراك بها ، واذ ذاك رفع جود فروى الراية الامبراطورية ثانية ، وقد لطخت كلها بدم الملك ٠

فلما شـــاهد السكوسون هلاك ملكهم نكصوا على أعقابهم واستسلموا للامبراطور (هنرى) ففرضت عليهم التعويضات التى تتكافأ وطبيعة جرمهم ، فأعطوه الرهائن ، وأسلموه أسلحتهم ، تأكيدا على عدم عودتهم مرة أخرى لمثل هذه المحاولة ، وهكذا عادوا من جديد يستظلون بعطفه ٠

لقد دونا هذه الأحـــداث لندلل كم كانت هيبة هذا الرجـــل العظيم(٦) ـ الذى نتحدث عنه ـ عظيمة بين أقوى أمراء الدنيا ، ولايستطيع أحد أن يشك فى أنه انفرد بالمعظمة دون بقية الرجال ، وقد شهد له بذلك الأمراء المشهورون الذين قيل فيهم أن ليس لهم من ند أو ضريب ، وقد اثبت صدق هذا الرأى فيهم ما برهن عليه حكمهم عليه وما كان من فعاله النابهة التى جاءت بالدليل البين على أن تقديرهم كان فى موضعه ٠

ولقد قام هذا الرجل الجليل (جود فروى) بعد ذلك بكثير من الأعمال الباهرة التى تستحوذ على الاعجاب والتى لاتزال حتى اليوم تروى كقصص يستحب سماعه ، ومن هذه الأعمال انه لما عزم على المضى الى الحج تنازل عن رضا وطيب خاطر لكنيسة المسيح عن قلعة « بويون » المشهورة المنســـوب هو اليها ، والتى تشتهر بأراضيها وموقعها وتحصيناتها ، وبما تنتجه أقاليمها الفســـيحة الواسعة من شتى الخيرات ٠

---

(٦) يقصد بذلك الدوق جودفروى ٠

لكن لما كنا قد أخذنا أنفسنا بالاقتصار على ذكر أعماله التى قام بها وهو بيننا ، فهيا بنا نعود الى ما كنا فيه ٠

ـ ٩ ـ

كان جود فروى رجلا مخلصا ، يفيض قلبه بالرعاية الكريمة لكل من ينتمى لبيت الرب الشريف ، ذلك أنه بعد انقضاء بضعة أيام، على اختياره رئيسا للمملكة شرع فى تقديم أولى ثمار مسئوليته الى الرب ، فأقام رجالا من الكهنوت فى كنيسة القبر المقدس وفى الهيكل ، وأغدق عليهم من فيض جوده الحسنات الوافرة التى عرفت بالمرتبات الكنسية ، كما قام فى الوقت ذاته بتوفير المسكن الملائم لهم فى تلك الرحاب الحبيبة الى الرب ، وحافظ على القاعدة والتعـــاليم التى تتبعها الكنائس العظمى الثرية التى أنشأها الأمراء الأتقياء فيما وراء الجبال ، وكان المرجو منه أن تزداد انعاماته عليها لو لم يعاجله الموت فيحول دون ما يرتجى ٠

ولما شرع هذا الرجل حبيب الله فى الخروج للحج أخذ فى معيته رهبانا من أحسن الأديرة تنظيما ، ورجالا أتقياء عرفوا بطهارة الذيل ، فكانوا طوال الحج لا يكفون ليلا ولا نهارا عن أداء الخدمات الدينية للدوق فى ساعاتها المقررة ، ووفق طقوس الكنيسة ، فلما آلت اليه السلطة الملوكية أقامهم ـ حســـب طلبهم ـ فى وادى « يهوشافاط » وجازاهم على خدماتهم باقطاعهم الأراضى الشاسعة ٠

ان الأمر يطول بنا جدا ان رحنا نعدد المنح التى أغدقها فى سخاء كريم على كنائس الرب ، ومع ذلك فان استعراض مضمون الامتيازات التى منحت للكنائس يبين مدى كثرتها وقيمة تلك العطايا التى أقطعها ذلك الرجل المتفانى فى خدمة الرب للأماكن المقدســة سعيا وراء خلاص روحه ، كما حمله تواضعه ـ حين ولى السلطة ـ

على رفض ما جرت به عادة الملوك من أن يتوج بتاج من الذهب فى المدينة الطاهرة التى توج فيها مخلص الجنس البشرى بتاج من الشوك لبسه راضيا من أجل خلاصنا ، ومن أجل هذا فان طائفة من الناس لم يقدروا خدمات جود فروى حق قدرها ، يترددون فى ادراجه فى عداد الملوك ، ومرجع ذلك أنهم يضعون الأعمال الجسدية فى مرتبة اسمى من مرتبة الأعمال التى تؤديها النفس المؤمنة بالرب ، أما نحن فنعده ملكا — كان من أحسن الملوك قاطبة وكان هاديا وقدوة لغيرهم ، والحق أنه لا ينبغى لأحد ما أن يظن أن هذا الأمير المؤمن ازدرى هدية تكريس الكنيسة وقربانها المقدس ، لكنه كان يحتقر زهو الدنيا وباطلها الذى يتعرض له كل مخلوق ، فأملى عليه تواضعه أن يرفض التاج الذى مآله الفناء ، طمعا منه فى أن يحصل فيما بعد على تاج لا زوال له أبدا ٠

— ١٠ —

كانت المدينة قد سقطت منذ أمد قريب ولم يبرحها بعض القادة الذين استولوا عليها لخدمة الرب حين سرت شائعة مالبث أن تأكد صدقها ، تلك هى أن خليفة(٧) مصر (الفاطمى) — أقوى الحكام بين الشعوب الشرقية — قد استدعى العسكر من كل البلاد الخاضعة لسلطانه ، وجمع منهم جيشا واحدا كثيفا ، ذلك لأنه كان غاضبا أشد الغضب أن يجىء شعب همجى من أقصى مناطق العالم فيغزو مملكته ، ويستولى عنوة على احدى الولايات الخاضعة له ، فاستدعى اليه أمير جيوشـــه الأفضل المعروف كذلك باسم أمير الجيوش(٨)

---

(٧) فى الأصل « أمير »

(٨) فى الأصل «EMIREIUS» ولكن الأفضل معروف فى المصـــادر الاسلامية باسم « أمير الجيوش » ٠

وكلفه بحشد جيش يضم كل زهرة شباب مصر وعسكر الامبراطورية أيضا ويزحف بهم على بلاد الشام ليقضى القضاء المبرم على الشعب المتطفل ، ويمحوه من على وجه البسيطة ، حتى يتلاشى اسمه من الوجود .

وكان الأفضـــل أرمنى الأصـــل ، مسيحى الوالدين ، لكن أضلته الثروة الفاحشة فأنكر خالقه ، وتخلى عن أيمانه الذى يؤدى وحده الى الطريق المستقيم ، وكان هذا الرجل قد استرد من قبل لمولاه مدينة القدس من أيدى الترك ، ثم جاء الصليبيون فى نفس العام ليحاصروها بفضل الله ويردوها الى الايمان ، لذلك لم ينقض أحد عشر شهرا على فرحة الأفضل بامتلاكها حتى جاء العسكر الصليبى فحررها من وثاق الرق الذى لا يليق بها ، وهكذا فانه لم يتمتع بثمار انتصاره الا لفترة وجيزة جدا ، مرت كأنها اللمحة الخاطفة ، ولما كان الفضل يرجع الى جهوده فى استعادة مولاه (الخليفة) للمدينة فقد سره أن يقوم بالمهمة التى نيطت به .

كان (الأفضل) يطمع أن يحرز النصر فى يسر على أولئك الذين كسفوا شمس مجده ، ومن ثم مضى الى بلاد الشام على رأس كل القوات التى استطاعت مصر أن تمده بها ، تفيض نفسه سخطا ويملؤه الكبرياء الطاغى ، مجمعا العزم على تدمير الصليبيين تدميرا تاما فلا يبقى لهم ذكر فى الوجود ، لكن الرب الذى جاء وصفه(٩) بان «فعله مرهب نحو بنى آدم» قضى بشىء غير الذى أراده الأفضل الذى سار بهذا الجيش الجرار والحشد الرائع من الفرسان وتقدم فى بلاد الشام حتى خيم أمام عسقلان ، وانضمت الى حملته قوات

---

(٩) المزامير ٦٦ : ٥ .

غفيرة جاءته من كل بلاد العرب ودمشـــق ، ولم يكن بين الترك والمصريين مودة ، حسدا من كل منهما للآخر على بأسه الحربى ، وسعى كل منهما سعيا حثيثا لمد رقعة مملكته على حساب خصمه ، غير أن فزعهما من الصـــليبيين فى هذه اللحظة أنسى كلا منهما ما يضمر للآخر من الكراهية ، وقرب هوة الخلاف بينهما ، فانضمت قواتهما بعضها الى بعض لتنفيذ مخطط يستهدف الاطاحة بالصليبيين الذى قدموا حديثا الى البلاد ، ورآى كل جانب من الجانبين ان احتمال غطرسة خصمه ــ حتى ولو ضاق به ذرعا ــ أهون عليه من أن يكابد سيوف المتبربرين الخشنة الفظة ٠

واذ وضع الجانبان هذا الهدف أمام نظرهم فقد تجمعت لديهم قوات لا عد لها من المصريين والعرب والترك ، وضربت مخيماتها فى السهول الواقعة أمام عســـقلان التى قرروا أن يجعلوها نقطة زحفهم على بيت المقدس ، لأنه كان يخيل اليهم أنه ليس من المعقول أن يجرؤ جيشنا على المخاطرة بمواجهة مثل هذا الحشد الكبير فى ساحة القتال ٠

ـ ١١ ـ

حين بلغت هذه الأخبار الصليبيين تجمعوا على بكرة أبيهم : قادة وأساقفة ورجال دين وعامة ، وكان ايمانهم سلاحهم ، وخروا سجدا على وجوههم أمام القبر الطاهر ، داعين الله بين الأنات والدموع ، ومتوجهين اليه بقلوب خاشـــعة ، يسألونه أن يكلأهم برحمته وينقذهم من الخطر الموشك على الالمام بهم ، وأنه اذا كان قد قدر لهم النصر حتى الآن وشاء أن يطهر موضع عبادته فهيهات أن يرضى له أن يلوث حفاظا على اسمه المجيد ٠

وأمسكوا أنفاسهم خاشعين منصرفين لسماع التراتيل والأناشيد الدينية ، ثم أسرعوا حفاة الى الهيكل ، وانطلقت قلوبهم مرة أخرى تصلى للرب قائلة : « اشفق يارب على شعبك ولا تسلم ميراثك للعار(١٠) ٠

ولما فرغوا من صلاتهم على مألوف العادة ، وباركهم الأسقف قام الدوق (جودفروى) فاختار رجالا أبلوا أهل خبرة لحراســة المدينة وادارتها ، أما هو فقد مضى ومعه كونت فلاندرز الى سهول الرملة ، وبقى غيرهما من الزعماء ببيت المقدس ٠

كان « أستلس » الفاضل ـ أخو الدوق ـ فى صحبة تانكريد بنابلس التى شخص اليها انصياعا لأمر الدوق (جود فروى) ، واستجابة لدعوة تلقاها من أهلها ، يقولون له فيها انهم مسلموه المدينة من غير مقاومة ، فطال لبثهما بها ، ولم يكن هذا المكث الطويل راجعا فحسب الى ما كان بها من الثروات الضخمة ، بل وأيضا لوضع حامية تكفى لحراستها ، ولذلك فقد كانا يجهلان ماذا جرى بالقدس ، لكن ما كادت تصلهما دعوة الدوق بالرجوع حتى خفا للعودة فى لحظتهما ، وانضما الى بقية الزعماء ٠

ولما أصبح الدوق وكونت فلاندرز فى الرملة ، جاءتهما الأخبار الصحيحة تؤكد أن الأفضل قد عسكر أمام عسقلان بقواته ، فبادر الدوق فى الحال بارسال رسول من قبله لدعوة القادة الآخرين الذين كانوا باقين ببيت المقدس فى انتظار الخبر اليقين ٠

---

(١٠) يوئيل ٢ : ١٧ ٠

تضمنت رسالة الدوق (جود فروى) خبر تدفق العدو بأعداد كبيرة ، وأنه نصب خيامه على مقربة منهم ، فلم يتوان (ريموند / كونت تولوز ولا الزعماء الآخرون المخلصون لله — بعد سؤالهم الرب المعونة — فى جمع العسكر الذين كانوا اذ ذاك حولهم ، ودخلوا بهم فى أرض الفلسطينيين ، ميممين الموقع المعروف الآن باسم « ابلين » اذ علموا بوجود الدوق به ، واصطحبوا معهم قوة مؤلفة من ألف ومائتى فارس ، وما يقرب من تسعة آلاف جندى من المشاة ، وظل جيشنا مقيما فى « ابلين » مدة يوم ، حتى اذا قاربت الساعة الحادية عشرة نظروا فرأوا على البعد فى السهل قوة كبيرة ، فظنوها عسكر العدو ، فأرسلوا أمامهم مائتى فارس مدججين بالسلاح الخفيف للتأكد من عدد هذه القوات وما هيتها ، أما هم ذاتهم فقد أعدوا انفسهم فى الوقت ذاته للقتال ٠

ولما صارت كتيبة الاستطلاع أقرب ما تكون الى هذا الحشد تبينت فيه أعدادا ضخمة من الماشية والخيول والجمال ، وقد قام على حراستها طائفة من الفرسان على جيادهم ، وكانوا لها شبه رعاة ، فتقدمت كتائبنا حتى اذا صارت قاب قوسين أو أدنى منهم فر الرعاة والفرسان القائمون بالحراســـة ، وولوا الأدبار ، تاركين قطعانهم وأسراب مواشــيهم من غير حراســـة ، فاستولى عليها الصليبيون بلا قتال ٠

ومع ذلك فقد سقط فى الأسر من العدو جماعة ، عرفنا منهم كل ما تجدينا معرفته ، من وضع العدو وخططه ، وصرحوا أن أميرهم الكافر نصب معسكره فى بقعة دانية كل الدنو ، لا تبعد عن هنا أكثر من سبعة أميال ، وأنه مجمع العزم على الزحف بعد يومين لاستئصال شأفة الجيش الصليبى ٠

حينذاك أيقن القادة أن المعركة لابد ناشبة عن قريب ، فرتبوا صفوفهم وجعلوها تسع فرق : ثلاثا منها فى الطليعة ، ومثلها فى القلب ، والثلاث الباقيات فى الساقة ، فلو هاجمهم العدو من أية ناحية تصدت له ثلاث فرق •

لكن لم يمكن الحصول على بيان قاطع بحقيقة عدد العدو ، لأن عسكره كان من الكثرة بالصورة التى يعجز عنها الحصر ، هذا بالاضافة الى الامدادات التى كانت ترد اليه كل يوم •

كانت الغنيمة التى استولى عليها الصليبيون من غير قتال(١١) غنيمة فوق التصور كما قلنا ، فقضوا الليلة فى هذا الموضع فى فرحة غامرة ، غير أن هذا لم يصرفهم – وهم الألباء الخبيرون بالحرب – عن أن يقيموا حول المعسكر عددا كافيا من الحراس الذين لم تغفل لهم عين عن حراسته •

فلما كان اليوم التالى نادى المنادى فى الصليبيين بالنهوض للقتال ، فنظموا صفوفهم وتقدموا كأنهم البنيان المرصوص لحرب العدو • تاركين الخاتمة الى الله يدبرها كيف شاء ، اذ النصر من عنده لأنه هو وحده القادر أن يمكن فئة قليلة من التغلب على فئة كبيرة فى غير عسر •

ولقد رأى المصريون ومن انضم اليهم من بلاد الشام من عزم الصليبيين الجاد ومن وضعهم القوى ما زعزع ثقتهم فى بأسهم ، فصاروا الآن أكثر تعقلا عن ذى قبل ، وأخذ أملهم فى أن تكون لهم الغلبة – اعتمادا على كثافة عددهم – يتضاءل شيئا فشيئا ، اذ كان ظنهم أن كل قوام الجيش الزاحف ضدهم من الجند المشاة •

---

(١١) انظر ما سبق ص ١٦٤ ، س ١٣ – ١٩ •

حقيقة أن عددنا كان صغيرا ، ولكن الذى حدث هو أن قطعان الماشية والدواب التى غنمناها سارت خلفنا من تلقاء ذاتها فكانت تقف اذ يقف الجيش ، وتعاود السير مباشرة اذ يعاودالعسكر الزحف رغم عدم وجود راع لها يرشدها ، وترتب على هذا أن اعتقد العدو أن عددنا لانهاية له ، وأن بأسنا لايماثله بأس ، فلاذوا بأذيال الفرار رغم عدم مطاردة أحد لهم ، لكن أملهم فى السلامة ــ حتى فى هربهم هذا ــ كان أملا واهيا ٠

بيد انه عرض فى ذلك العام عارض سوء لايدرى أحد كنهه ، اختفى معه أسقف « مطيرة » موقد المنازعات ومثير الشقاق اختفاء غامضا ، ولم يعد له يد فى تصريف أمور الدنيا ، ولم ير بعد ذلك قط ابدا ، وكان الدوق قد بعث به لاستدعاء من تخلف ببيت المقدس من الزعماء ، ويقال انه وقع فى أثناء عودته فى يد العدو فقتله أو سجنه سجنا لم يخرج منه أبدا ٠

ولما منح الله النصر للجيش الصليبى انطلق حجاجه الى معسكر العدو فعثروا على كميات ضخمة من شتى أنواع المؤنة ، فأتخمتهم وفرتها حتى انهم تعالوا عن أكل الكعك وعسل النحل ، وحق لأفقرهم أن يقول : « اتخمتنى الوفرة حتى جعلتنى بائسا » ٠

وكان فرار العدو متيحا النصر للصليبيين من غير جهد يبذلونه أو مشقة يكابدونها ، ومن ثم عاد الناس والقادة الى القدس شاكرين انعم الله عليهم ، مثقلين بالأسلاب والغنائم التى فاضت بها أيديهم ، وهكذا عادوا يسحبون أذيال الغبطة ، وتستبد بهم الفرحة ، وراحوا فى انتصـــارهم يوزعون ما غنموا من الثروات ذات اليمين وذات الشمال ٠

حين انتهت هذه المعركة قرر القائدان(١٢) الحبيبان الى الله والمخلصان فى خدمته العودة الى بلديهما فقد كللت بالنجاح رحلة الحج التى شاركا فيها ، ومن ثم خرجا مبحرين الى القسطنطينية التى تلقاهم امبراطورها بالترحاب ، ووصلهما بعطاياه الكريمة ، ثم سافرا منها فبلغ كل منهما مأمنه ســـالما فى روحه ، معافا فى بدنه .

* * *

عاد كونتنرمندى الى بلده ليجد الأمور قد تبدلت تماما عما كانت عليه حين خرج للحج ، وأنها بعيدة كل البعد عما يحب لها أن تكون عليه ، فقد حدث وهو يحارب من أجل المسيح أن مات أخوه الأكبر وليم الملقب بروفوس ملك الانجليز دون وريث ، مما يقضى معه أن يؤول حكم المملكة ـ نفاذا لولاية العهد ـ الى الكونت .

غير أن أخاه الأصغر هنرى أقنع أمراء المملكة أن روبرت قد أصبح ملكا على بيت المقدس ، ولم تعد لديه نية العودة ، ونجح بهذه الخديعة فى تبوء العرش بدلا منه .

لكن ما كاد الكونت يعود حتى طالب فى الحال بحقه فى المملكة. بيد أن أخاه هنرى رفض طلبه هذا رفضا باتا وأبى اباء لا رجوع فيه أن يتخلى عنها ، فجمع الكونت العسكر ، وجهز أسطولا وهاجم انجلترا بالعسكر المدجج بالسلاح ، فحشد أخوه كل قوة المملكة وتقدم لمحاربته ، وكان القتال على وشك الوقوع بين الاثنين لولا وساطة الوسطاء بينهما ، فتم الوصول الى حل وسط مرض للطرفين ، يدفع بمقتضاه الملك لأخيه الأكبر (كونت نرمندى) مبلغا سنويا على أنه ضريبة ، فهدأت ثائرة الدوق بهذا الاتفاق ، وكر راجعا الى بلده ،

---

(١٢) هما كونت نرمندى وكونت فلاندرز .

لكنه مالبث أن طالب أخاه بقلاع معينة فى نرمندى كان هنرى قد استولى عليها قبل اعتلائه العرش ، فلما رفض الملك التخلى له عنها حاصرها روبرت وأخذها عنوة ، فلم يكد هنرى الملك يسمع هذا الخبر حتى عبر البحر الى نرمنديا على رأس قوات كبيرة ، ونازل أخاه ، وأسره وألقى به فى السجن ، فظل رهينة طول أيامه الباقية حتى وافاه أجله وهو به ، فخلفه أخوه الملك فى كل ممتلكاته(١٣) ٠

* * *

أما (ريموند) كونت صـــنجيل فقد عاد الى اللاذقية ببلاد الشام حيث كان قد خلف بها زوجته على عزم الرجوع اليها بعد قليل ، ثم شد رحاله ثانية فى حاشـــية كريمة الى القسطنطينية ، فاستقبله امبراطورها العظيم استقبالا رائعا ، وعامله أحسن معاملة، ثم رده سالما الى سورية محملا بالهدايا الرائعة ، فرجع الكونت الى زوجته وأهل بيته بعد غيبة طالت عامين ، كما سنقص خبر ذلك ٠

أما الدوق فقد اســـتبقى معه النبيل المبجل تانكريد وكونت « جارنييه دى جراى » ورهطا معينا من النبلاء ، وراح يدير دفة أمور المملكة التى خصه الله لها بحكمة وهمة ، فأسبغ كرمه المعتاد على تانكريد ، اذ خلع عليه مدينة طبرية الواقعـــة على بحـــيرة « جيتيسارت » ، وجعلها وراثية فيه الى الأبد ، ومعها كل ولاية الجليل ، كما منحه فى الوقت ذاته حيفا الســـاحلية المســماة « بورفيريون » بكل ملحقاتها ٠

ولقد أدار تانكريد شئون هذه الولاية بهدوء رضى الرب عنه ، حتى أن أهل تلك البلاد لا يذكرونه الى يومنا هذا الا بكل احترام ٠

---

(١٣) اشارت الترجمة الانجليزية الى أن وفاة روبرت كورتهيوز هذا كانت فى سنة ١١٣٤ بقلعة كارديف فى ويلز ، وقد أحالت هذه الترجمـــة القارىء ان شاء المزيد من التوسع فى اخباره الى :
David Robert Curthose, PP. 120 — 129.

كما عنى عناية فائقة بتشـــييد الكنائس فى نواحى تلك الأسقفية ، لاسيما فى الناصرة وطبرية وعلى جبل تابور ، وحبس عليها الحبوس الواسعة ، وزودها أيضا بالتجهيزات والتهاويل الدينية ، لكن جزءا كبيرا من هذه المنح تولى الأمراء الذين خلفوا تانكريد توزيعه تارة بالحيلة وتارة أخرى بالخديعة • ومع ذلك فان ما بقى منها ساعد الكنائس على الصرف على نفسها لســـد احتياجاتها ، ولم يفتها الترحم على روح من سخا على كنائس الرب هذا السخاء الدينى العظيم ، وغمرها بالحب العميق •

ولما كان تانكريد مخلصا حتى فى الأمور الصغيرة فقد كانت نعم الرب عليه كثيرة بصورة أشعرته بما يحسه رب الأسرة من الغبطة ، وجازاه على كل شىء بذله مائة ضعف ، فكوفىء بعد سنتين على خدماته بأن استدعى الى امارة أنطاكية ، فأغدق عطاياه الكثيرة على كنيستها التى أخذ مجدها وشهرتها فى التزايد منذ عهد الرسل ، مضافا الى ذلك توســـيعه رقعة الامارة بما ضمه اليها من المدن والحصون التى استولى عليها ، حتى انبسطت طولا وعرضا ، كما سنورد ذلك فى الصفحات التالية •

— ١٤ —

بينما كانت الأمور تسير قدما على هذه الصورة فى المملكة قرر الدوق بوهيموند أمير أنطاكية وأخوه بلدوين كونت الرها الذهاب الى بيت المقدس ، فقد جاءتهما الأخبار الجمة بما أنعمت به العناية الالهية على اخوانهما ورفاقهما فى هذا الحج الأعظم من النجاح فى الاستيلاء على المدينة المقدسة مما كان انجازا ســـعيدا لهدف رحلتهم ، فحركهما هذا الخبر لتحديد يوم يرحلان فيه تحت رعاية الرب الى المدينة الطاهرة ، وذلك حين يفرغان من اتمام كل الاجراءات

الضرورية لهذه الرحلة التى كان غرضهما منها أن يكملا جهودهما بالوفاء بما عاهدا الله عليه حتى يؤدى حضورهما الأخوى الى بث الطمأنينة فى نفس الدوق وتانكريد وغيرهما من الزعماء ، اذ كان قد تخلف عنهم النبيـــلان العظيمان بوهيموند فى أنطاكية لرعاية الامارة ، وبلدوين فى الرها لحفظ البلد من غارات العدو ٠

وكان الأمر قد تقرر منذ البداية ومنذ الاستيلاء على أنطاكية على أن الصالح العام يقتضى من هذين الزعيمين الا يترك أحدهما أرضه التى منحتها له السماء ، وأن واجبهما يحتم عليهما أن يبذلا ما فى وسعهما من الاهتمام بالدفاع عنها ، فلم يكن من المستبعد أن يعاود العدو القتال بقوات جديدة وفى عنف أكبر مما كان عليه من قبل ، وحينذاك لا يجدى الصليبيين ما أنجزوه نفعا ٠

وعلى الرغم من انشغال كل من هذين الحاكمين أشد الانشغال بأمور مملكته ، الا أنهما عزما عزما أكيدا على الحج ، ومن ثم شرعا فى السفر فى اليوم المحدد ، فاستصحب بوهيموند معه رهطا كبيرا من أصحاب الخيل ومن المشاة ، كما سار على الأقدام كثيرون ممن كان الشوق ينازع نفوسهم للقيام بنفس الحج ، ووصل بوهيموند الى مدينة « فالينيسا » البحرية الواقعة عند سفح حصن المرقب حيث ضرب مخيمه وان كان ذلك على كره شديد من الأهالى ، وهنا انضم اليه بلدوين الذى كان على مقربة منه فاتحدت قواتهما وتابعا الرحلة التى قاما بها ٠

* * *

وحدث فى هذا الوقت بالذات أن أرست فى لاذقية الشام طائفة من حجاج ايطاليا ، من بينهم دامبرت رئيس أساقفة البيازنة ، وكان رجلا عاقلا متعلما ، رحيم القلب ، ميالا لكل عمل شريف ، كما كان

فى هؤلاء الحجاج أيضا أسقف(١٤) « أريانو » فى « أبوليا » وقد انضم هؤلاء الناس الى معسكر القائدين اللذين أشرنا اليهما ، فزادت بذلك القوات زيادة ضخمة ، ويقال ان عدد هذا الحشد من الرجال والنساء ، ممن عندهم ظهر ومن سار راجلا كان يقرب من خمسة وعشرين ألف نسمة ٠

تابع الحجاج سيرهم مصاقبين للساحل مارين بمدن العدو ، مما جعلهم لا يبلغون هدفهم الا بشق النفس ومكابدة المتاعب الجمة بسبب نقص الطعام عندهم ، فقد نفذ كل ما كانوا يحملونه منه فى صدرهم ، ولم تتح لهم قط فرصة للشراء ، كما لم يجدوا شيئا يبتاعونه ، يضاف الى ذلك ما قاساه الكثيرون من العذاب الشديد بسبب زمهرير البرد القارس وهطول المطر الغزير ، لأنهم كانوا فى شهر ديسمبر ، والوقت شتاء ، وقد انفرد أهل طرابلس وقيصرية وحدهم طول هذه الرحلة الطويلة بتمكين هؤلاء المسافرين فى عبورهم البلاد من شراء الطعام ٠ وعلى الرغم من ندرته عند الحجاج ومقاساتهم أهوال الجوع الا أنهم تابعوا مسيرتهم غير عابئين بما يكرثهم من عدم وجود دواب النقل لحمل متاعهم ٠

لكن رعاية الله أبت الا أن تحرسهم ، فبلغوا القدس حيث رحب بهم الدوق (جود فروى) ورجال الدين والأهالى أصدق ترحيب ، ثم زاروا الأماكن المقدسة بقلوب واجفة ٠ ونفوس ملؤها الخشوع ، وشاهدوا بأعينهم صدق ما كانت تأتيهم به الأخبار مما كانوا لايعرفونه

---

(١٤) جاء فى حاشية ٣٥ ، ص ٤٠١ ، ج١ من الترجمة الانجليزية ما يرجح القول بان أسقف « اريانو » كان مع بوهيموند منذ سنة ١٠٩٦ ، وتبنى الترجمة هذا الترجيح على ما جاء فى كل من

A.B. Yewdale : Bohemond, I, Prince of Antioch, P. 38, & H. Hagenmeyer, ed., Fulcher Carantensis Herosolymitana. P. 327.

الا سماعا ، فلما صاروا بمدينة بيت لحم الطاهرة احتفلوا بمولد المسيح ، وهنا راحوا يحملقون بدهشة فى المذود والكهف العجيب الذى أقامت فيه الأم الحنون التى جاءت بمفتاح الخلاص ، فلفت السيد فى الأقمشـــة البســيطة ، وراحت تهدهد من بكائه على صدورها ٠

❊ ❊ ❊

ـ ١٥ ـ

على أنه قبل هذا الأمر بخمسة أشهر تقريبا خلى كرسى كنيسة بيت المقدس من صاحبه ، ومن ثم صارت الحاجة ماسة الى سواه يدبر أمورها ، لذلك اجتمع من كان وقتئذ بهذه المدينة من الأمراء ليوفروا لكنيسة الرب من يشغل هذا المكان ، وطالت بينهم المداولات العقلانية حتى انتهت الى اجماعهم على تنصيب « دامبرت » الموقر فى كرسى البطركية فتم انتخابه ، فشجب اختياره ما كان من انتخاب أرنولف الذى ذكرناه ، وعد انتخابه باطلا ، وأنه يجب التجاوز عنه لأنه تم فى عجلة وغير تبصر ٠

وما كاد رجل الرب « دامبرت » ينصب فى كرسى البطركية حتى سلم بيده كلا من الدوق جود فروى والأمير بوهيموند تقليديهما بما فى يدهما ، فتسلماه فى خشـــوع ، فأما الأول فمنحه مقاليد المملكة ، وأما الثانى فقد وكل اليه أمر الامارة ، فكان ذلك توقيرا منهما باعتبار البطرك نائب السيد على الأرض ٠

وما كادوا يفرغون من مراسيم هذا الحفل حتى رصدت للبطرك المبجل الأموال المناسبة للصرف على أسقفيته الموقرة ، ولم يقف الأمر عند حد منحه الأملاك التى كانت تابعة من قبل للبطرك اليونانى منذ أيام البيزنطيين زمن « الأمم » ، بل أضيفت اليها أملاك جديدة ٠

وبعد أن تمت هذه الأمور على الوجه الأكمل استأذن بوهيموند وبلدوين من الدوق فى عودة كل منهما الى بلده ، ونزلا الى نهر الأردن ، فظلا سائرين على طول شاطئه عبر الوادى الشهير ، ومضيا الى « بيسان سكيتوبوليس » حتى انتهيا أخيرا الى طبرية ، فتزودا – ومن معهما – بما يحتاجونه من الطعام اللازم للرحلة التى تابعوها من جديد على طول بحر الجليل الى فينيقية اللبنـــانية ، جاعلين « بانياس » التى هى قيصرية فيليبى على يمينهما ، ثم دخلا اقليم ايتوريا وجاءا الى الموضع المسمى هليوبوليس والمعروف أيضا باسم « بعلبك » وهنا عادا مرة ثانية الى ساحل البحر حتى أوصلتهما رعاية الله الى أنطاكية سالمين بمن معهم فى أنفسهم وأبدانهم ٠

– ١٦ –

فى هذه الأثناء نجمت مشكلة فى القدس بين البطرك والدوق ، وزاد من حدتها تدخل فئة معينة من مثيرى الفتن الذين يســـتوقد الحسد ضلوعهم لمن يعيشون فى هدوء ، ويفرحون غاية الفرح فى بذرهم بذور الشقاق بينهم ، ذلك أن البطرك طالب أن يعيد الدوق اليه مدينة الرب المقدسة بقلعتها وكذلك مدينة يافا بملحقاتها ، وطال النقاش واحتد بينهما بعض الوقت ، حتى اذا كان يوم(١٥) الاحتفال بدخول السيد المسيح الى الهيكل وتنزيه مريم المباركة وقف الدوق وهو الرجل المتواضع الأريحى التقى وتنازل أمام رجال الدين وكافة الناس عن ربع مدينة يافا لكنيسة القيامة المباركة ٠

ثم لما كان يوم عيد الفصح التالى المبارك قام الدوق فى حضرة رجال الدين وبين الناس الذين احتشدوا للاحتفال بهذا اليوم ، وأسلم البطرك مدينة بيت المقدس وبرج داود وكل ما يلحق به ، وألحق

---

(١٥) وذلك يوم ٢ فبراير سنة ١١٠٠م ٠

الشرط التالى بالعطية الا وهو أن يتمتع هو ذاته(١٦) بالمدينة المشار اليها ، ويكون له الحق فى استعمال ضواحيها حتى يأذن الرب له بأخذ مدينة أو اثنتين أخريين ، وبذلك يزيد فى رقعة المملكة ، كما اشترط أنه اذا مات دون وريث شرعى فان جميع الأملاك المشار اليها تنتقل من غير معارضـــة أو مشاحنة الى ســـلطة البطرك المعظم دامبرت •

ولقد أدرجنا كل هذه التفاصيل فى كتابنا الحالى هذا على الرغم من أنها واردة فى كتابات(١٧) الآخرين ، كما أن هنـــاك أشخاصا من شتى المراتب بذلوا جهدا فى تدوينها فدونت ، ومع ذلك فاننا نتساءل فى دهشة عن الدوافع التى حملت البطرك على اثارة هذه المشكلة ضد الدوق اذ أننا لم نقرأ أبدا ، ولا حدثتنا الأخبار الموثوق بها أن عهد القادة (الصليبيون) المنتصرون بالمملكة للدوق على مثل هذه الشروط التى تجعله يحس بالتزامه بمنح وعود حولية أو عهود دائمية لأى شخص ، أيا كان هذا الشخص •

ولا يظنن أحد بنا الغفلة أو الجهل التام حين ندقق النظر أكثر من أى شخص آخر للوقوف على حقيقة هذه الأمور ، فما غرضنا الا تسجيل واقع هذا الخبر ، وهو غاية كانت فى ذهننا منذ زمن بعيد •

---

(١٦) أى الدوق جودفروى •

(١٧) يتفق المترجم مع ما ورد فى الترجمة الانجليزية من ان هذا دليل بين على أن وليم الصورى رجع فى تدوين أخبـــاره الى بعض مؤلفـــات معاصريه •

مما لا مراء فيه أنه منذ دخـــول اللاتين بيت المقدس ـ بل وقبل ذلك بسنوات طويلة ـ كان ربع المدينة معتبرا ملكا للبطرك ، ويمكن أن نوجز كيف تم ذلك الأمر مع الاشارة الى أصل هذا التملك وسببه ، ولقد توصلنا الى حقائق هذا الموضوع بعد استقراء عميق لهذه المسألة وكثرة السؤال بشأنها ٠

تقول الأخبار القديمة ان هذه المدينة لم تنعم قط بالسلام الدائم ولو لأمد قصـــير حتى يومنا هذا منذ وقوعها فى أيدى المارقين ، بل سارت الأمور فيها على النقيض ، فقد اجتاحتها الحروب المتكررة، وتعددت مرات حصارها بسبب طمع الأمراء المجاورين فى الاستحواذ عليها لأنفسهم ، مما تمخض عن هدم أسوارها ، فتحولت أبراجها الى أطلال خلال أيام الحصار ونكباته ، وأصبح البلد عرضـــــة لمكائد الأعداء من كل ناحية ٠

وكانت مملكة المصريين فى هذا الوقت قد بزت غيرها من ممالك الشرق والغرب قاطبة ، ليس فى كثرة سكانها وثروتها فحسب ، بل وفى السيطرة الدنيويةأيضا، ولما كان خليفة مصر يريد مد رقعة حدود امبراطوريته ، وبسط سلطان سيادته على القريب والبعيد ، فقد أنفذ جيوشه فاحتلت كل بلاد الشام قسرا وتوغلت حتى بلغت مدينة اللاذقية المجاورة لأنطاكية ، والتى تعتبر حدودا لوسط الشام ، ثم عين نوابا يتولون حكم جميع مدنها البحرية والبرية على السواء ، وفرض عليها الجزية ، وألزمها بالارتباط به برباط التبعية ، وزاد على ذلك بأن أرغم كل مدينة أن تعيد ترميم أسوارها ، وأن تشيد حولها أبراجا منيعة ، وترتب على هذا المرسوم العام قيام عامله على بيت المقدس بالزام سكانها بهذه الأوامر الشاملة واعادة السور والأبراج الى ما كانت عليه من قبل ٠

وتعمدوا – عن سوء نية فى أثناء توزيع هذا العمل – الزام النصارى التعســـاء المقيمين ببيت المقدس باعادة تعمير ربع تلك العمائر ، وكان هؤلاء المؤمنون قد طحنتهم السخرة وكابدوا ماهو أشد منها قسوة ، فقد أجهدتهم الضـــرائب ، وأثقلتهم الاتاوات ، وألزموهم القيـــام بالأعمال المزرية حتى لم يعد كل ماتملكه هذه الجماعات كافيا لتمكينها من اعادة برج أو اثنين من هذه الأبراج .

وحين رآى النصارى أن عدوهم يتلمس كل فرصة لمضايقتهم مضايقة لا يملكون لدفعها حولا ولا قوة فقد يمموا وجوههم شطر الوالى ، واستعطفوه فى مذلة وانكســـار سائليه أن يكلفهم بمهمة تتناسب وطاقاتهم ، لعجزهم التام عن انجاز ماكلفوا به ، فلم يرحمهم الوالى ولم تعطفه عليهم دموعهم بل أمرهم أن يغربوا عن وجهه ، وبالغ فى تهديدهم قائلا لهم « ان شجب قرار الأمير(١٨) الأعظم فيه تدنيس ، فعليكم أما أن تنجزوا العمـــل الذى وكل اليكم ، أو أن تستسلموا للسيف كمذنبين فى حق صاحب الجلالة » .

وأدى تدخل الكثيرين من الوسطاء وكثرة ما قدمه النصارى من الهدايا الى حصولهم على تأجيل تنفيذ حكم الوالى الى حين التمكن من ارسال مبعوثين الى الامبراطور بالقسطنطينية يسألونه أن يتصدق عليهم بما يستطيعون به اكمال ماكلفوا به .

– ١٨ –

فأوفدوا فى الحال الى الامبراطور الرسل الذين ما ان صاروا بين يديه حتى مضوا يشرحون له فى تفصيل وضـــع المسيحيين المحزن ، وماهم فيه من البلاء المقيم والحزن الموجع، فحركوا بكلامهم

---

(١٨) يقصد بذلك الخليفة الفاطمى .

أشجان سامعيهم ، وفصلوا لهم مافيه النصارى من نكد عظيم ، وما يتعرضون له من الضرب المهين والبصق والتقييد والزج فى الحبس بسبب اسم المسيح ، وأفاضوا فى مايكابده هؤلاء التعساء على الدوام من ضياع مايملكون بسبب المصادرات الواقعة عليهم ، ناهيك بأنهم عرضة للصلب وشتى أنواع التعذيب ، وأسهبوا فى ذكر ما يتذرع به خصومهم من الحجج للقضاء على هذا الشعب التعيس .

كان الجالس على عرش امبراطورية القسطنطينية وصـــاحب الصولجان يومذاك هو « قسطنطين » مونو ماخوس »(١٩) وكان رجلا عاقلا سوريا ، يدير دفة شئون امبراطوريته بنشاط جم ، وسرعان ما استجاب لالتماسات أتباع المسيح المحزنة ، ووعدهم بالمال الذى يستطيعون به انجاز ما كلفوا به ، وكان الامبراطور صادرا فيما فعل عن احساسه بالعطف الشديد الصادق على ما هم فيه من الكرب والهموم التى لا انقطاع لها ، غير أنه اشترط عليهم أنه غير قابض عنهم المال ان هم استطاعوا الحصول من والى الناحية(٢٠) على وعد بألا يسمح لغير النصارى بالسكن داخل نطاق السور الذى اقترحوا أن يقيموه من هذه المنحة الامبراطورية ، كما كتب هو من توه الى أهل جزيرة قبرص طالبا اليهم أن يعينوا هؤلاء النصارى — اذا ما حصلوا على هذا الامتياز فى بيت المقدس — بمبلغ كاف للصرف على

---

(١٩) حكم قسطنطين مونوماخوس الامبراطورية البيزنطية مايقرب من ثلاثة عشر عاما (١٠٤٢ — ١٠٥٥) ، وتجمع المصادر التى كتبت عنه على ذم عهده ، كما أن الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية بلغ ذروته فى أخريات أيامه ، ونرجح ان وليم الصورى اخطأ حين جعل الامبراطور هو مونوماخوس ، والأغلب أنه يقصد الامبراطور قسطنطين دوكاس العاشر ، يؤكد هذا ما جاء فى صفحة ١٧٨ ، من النص على ســـنة ١٠٦٣

(٢٠) المقصود بها القسم الخاص فى القدس .

العمل المشار اليه ، على أن يخصم من الضرائب والأموال الواجب عليهم دفعها للخزانة ·

فلما حصل الرسل على هذا الوعد من الامبراطور عادوا من حيث جاءوا ، وأخبروا البطرك الجليل وشعب الله بتفصيل مافعلوه ، فقوبل ما فعلوا بالغبطة ، وبذلت الجهود الصادقة المتحمسة لتحقيق الشرط الذى طلبه الامبراطور ، وفى الحال أوفد النصارى الرسل الى مولاهم الكبير وصاحب الأمر فيهم : خليفة مصر ، وصحبت العناية الالهية هؤلاء المبعوثين فقد نجحوا فى سفارتهم ، وحصلوا على مرسوم ممهور بامضاء الخليفة وخاتمه ·

عاد القصـــاد الى بلدهم بعد أن نجحوا فى أداء مهمتهم ، واستطاع النصارى بعون الرب ان يتموا من السور الجزء الذى فرض عليهم بناؤه ، وكان ذلك فى سنة ١٠٦٣ من مولد المســيح وقبل تحرير المدينة المقدسة بست وثلاثين سنة وفى زمن الخليفة المصرى (الفاطمى) المستنصر (١٠٣٥ ــ ١٠٩٤) ·

كان المسلمون والمسيحيون حتى ذلك الحين يعيشون جنبا الى جنب على السواء لا تمييز لواحد منهم على الآخر ولا تفرقة بينهم ، لكن نجم عن هذا القرار اضطرار المسلمين للنزوح الى نواح أخرى من بيت المقدس غير التى كانوا بها ، تاركين الربع المذكور للمؤمنين (النصارى) غير منازعيهم فيه، وترتب على هذا التغيير تحسن أوضاع خدام المسيح المادية ، غير أن ما كان قد فرض عليهم من العيش مع القوم الضالين ، أدى فى كثير من الأحيان الى حدوث منازعات بين الجانبين عملت على زيادة متاعبهم زيادة فادحة ، فلما استطاعوا أخيرا الانفراد بسكنهم من غير ازعاج ، ســارت حياتهم رخية مطمئنة ، فما من نزاع شب بينهم الا رجعوا فيه الى الكنيسة ليفصل فيه البطرك الذى كان قوله وحده هو الفيصل ·

لم يعد لهذا الحى من المدينة منذئذ ، — وفى الظرف الذى وصفناه — من قاض أو رئيس سوى البطرك ، ومن ثم فقد تمسكت الكنيسة بهذا الجزء كملك خاص بها لاينازعها فيه منازع ·

أما صفة هذا الحى فكانت كما يلى :

كان يتألف حده الخارجى من السور الذى يمتد من الباب الغربى — أو باب داود — مارا بالبرج الكائن فى الزاوية والمسمى ببرج تانكريد حتى يصل الى الباب الشمالى المسمى بباب اسطفان أول الشهداء ·

أما حده الداخلى فهو الشارع العام الذى يمتد من باب اسطفان حتى يصل الى الموضع الذى يجلس فيه الصيارفة الى موائدهم ، ثم يرتد الى الوراء ثانية الى الباب الغربى ·

ويقع داخل هذين الحدين طريق الآلام وكنيســـــة القيامة ، والبيمارستان ، كما يوجد أيضا ديران أحدهما للرهبان وثانيهما للنسوة الطاهرات ، ويعرفان بديرى اللاتين ·

كما يقع سكن البطرك ودير حماة القبر المقدس وملحقاته داخل هذه النواحى ·

— ١٩ —

فى هذه الأثناء كان معظم الزعماء الذين شاركوا فى الحملة قد عادوا الى أوطانهم ، لم يتخلف عنهم سوى الدوق الذى عهد اليه بحفظ المملكة ، وغير تانكريد الذى استبقاه جود فروى الى جانبه ليشاركه فى حمل المسئولية لما رآه فيه من رجاحة عقله ونشاطه ونجاحه ، وكانت مصادر الصليبيين المالية وقوتهم الحربية ضئيلة

جدا حينذاك ، فلو جمع كل عسكرهم لما بلغوا بعد طول الكد أكثر من ثلاثمائة فارس ولم يجاوز مشاتهم الألفين ٠

ثم ان المدن التى كنا قد استولينا عليها كانت قليلة العدد ، هذا الى جانب وجودها وسط محيط العدو بصورة لم يكن الصليبيون بقادرين معها على الذهاب من احدى هذه المدن الى الأخرى اذا اقتضت الضرورة ذلك والا كانوا عرضة لخطر جسيم ، كما أن معظم الاقليم المحيط بأملاكهم كان يسكنه الشرقيون المارقون الذين كانوا أشد الناس وحشية فى عدائهم لقومنا ، وكانوا أخطر الجميع علينا لقربهم الكبير منا ، اذ ليس هناك بلاء أشد بلاء بالمرء أو أفعل فى خطبه من عدو يكون له بالمرصاد على الأبواب ، ولم يكن ثم مسيحى يسير فى الطريق العام دون أن يأخذ حذره الشديد والا لقى الهلاك على أيدى الشرقيين ، أو وقع فى أيد تسلمه للأعداء فيسترقونه ٠ يضاف الى ذلك أنهم كانوا يرفضون زرع الحقول عسى أن تفتك المجاعة بقومنا ، بل انهم كانوا يؤثرون أن يكابدوا هم أنفسهم الجوع حتى لا يصل القوت الى المسيحيين الذين يعدونهم أعداء لهم ٠

لم يكن الخطر قاصرا على الطرق العامة فحسب ، بل كان رابضا أيضا داخل أسوار المدينة وفى البيوت ذاتها ، فما كان ثم مكان مايستطيع المرء الاطمئنان فيه على نفسه ، ويرجع ذلك الى قلة عدد السكان وبعثرتهم فى كل ناحية ، كما أن ما كانت عليه الأسوار من هدم جعل كل موضع مكشوفا أمام العدو ، فكان اللصوص يشنون هجماتهم خلسة تحت جنح الظلام ، ويهاجمون المدن المهجورة التى فر عنها أصحابها القلائل وبعدوا عنها ، ويغيرون على الناس فى عقر دورهم ، مما ترتب عليه أن تخلى بعضهم فى السر عما بيدهم من الدور التى كانت فى حوزتهم ، كما تركها معظمهم جهرا ، وشرعوا فى العودة من حيث جاءوا مخافة ان يهاجم العدو من

يسهرون على حمايتهم فلا يوجد اذ ذاك من يقيهم شر مذبحة توشك أن تلم بهم ، وقد أدى هذا الوضع الى اصدار قرار باجراء احصاء سنوى لرعاية مصالح أولئك الذين ظلوا مقيمين حيث هم وسط هذه البلايا متمسكين بأملاكهم لمدة عام ويوم بعده ، ولقد صــدر هذا القانون ـ كما قلنا ـ فى مواجهة أولئك الذين جبنوا فتخلوا عما بأيديهم من الأملاك حتى لا يكونوا قادرين على العودة بعد مرور عام وتجديد دعواهم ٠

وعلى الرغم من أن المملكة كانت فى صراع مع الفقر الا أن جود فروى ـ حبيب الله الخائف منه ـ لم يأل جهدا فى مد رقعة المملكة ، مستعينا بالعناية الالهية ، فجمع العسكر وأهل الناحية جميعا وخرج بهم محاصرا احدى المدن الساحلية القريبة من يافا والتى كانت تدعى من قبل « انتيباتريس » أما الآن فتعرف باســم « أرسوف » ، وكان يتولى الدفاع عنها وقتئذ رجال شجعان مهرة فى استعمال السلاح ، قد توفرت الميرة بين أيديهم ، ولديهم كل ماهو لازم لمعاشهم ، على حين كان الدوق يقاسى فى الخارج الحاجة الملحة لاسيما وأنه لم يكن عنده سفن يستطيع أن يمنع بها من فى المدينة من المحصورين من الخروج منها أو الدخول اليها ، ومن ثم فقد اضطر تحت هذه الحاجة لرفع الحصار عنها عسى أن تواتيه رحمة الله فى المستقبل بفرصة أحسن تمكنه من انجاز غايته ، غير أن موته المبكر حال بينه وبين تنفيذ قصده ، فلم يتسن له أبدا تحقيق رغبته ٠

ـ ٢٠ ـ

لقد رأينا أنه من الخير أن ندرج فى هذا التاريخ حادثا يستحق الاشارة جرى فى أثناء هذا الحصار بالذات ، ذلك أن رهطا من صغار الزعماء المقيمين فى نواحى الاقليم المحيط بجبال السامرة

حيث تقع مدينة نابلس ــ جاءوا الينا حاملين هداياهم من الخبز والنبيذ والتين والزبيب ، ويبدو لى أن الدافع لقدومهم كان لكشف أحوالنا أكثر من تقديمهم الهدايا للدوق الذى طلبوا المثول بين يديه حال بلوغهم المعسكر الصليبى ، فلما صاروا بحضرته قدموا اليه ما جاءوا به من الهدايا ، واذ كان الدوق رجلا شديد التواضع ، نابذا نبذا تماما زينة الدنيا وأبهتها فقد اســـتقبلهم وهو مفترش الأرض على غرارة محشوة بالتبن حيث كان فى انتظار رجوع رجاله الذين كان قد أرسلهم سعيا وراء الكلأ ، فلما رآه الشيوخ القادمون عليه على هذه الصورة ألجمت الدهشة ألسنتهم ، وراحوا يتهامسون فيما بينهم : « كيف لأمير جليل القدر كهذا الأمير ، وسيد عظيم كهذا السيد قادم من الغرب ، وقد هز الشـــرق كلهواستولى على مملكة شديد البأس بيد قوية ــ كيف له أن يجلس هذه الجلسة الزرية ؟ ولماذا لا يحيط نفسه بالطنافس والحرير ، ويقيم حوله جيشا من الحرس المدجج بالسلاح ليظهر للقادمين عليه بمظهر الباطش ؟ » ولما رآهم يتهامسون بذلك فيما بينهم سألهم عم يتسارون ، فلما وقف على ما يتهامسون به قال لهم : « ان الأرض تكفى لتكون مقعدا مؤقتا للآدمى الفانى طالما أنها ستكون مضـــجعه الأبدى بعد موته » ، ففاضت نفوسهم اعجابا برده ، وأكبروا فيه تواضعه ورجاحة عقله ، وانصرف الذين جاءوا لسبر غوره وهم يقولون : « ما أجدر هذا الرجل بامتلاك كل الدنيا ، وانه لحرى ــ وهذه صفته ــ أن يكون له الحكم على الشعوب والممالك » .

* * *

وكان ســـكان النواحى المجاورة ينظرون الى هؤلاء الناس الحجاج بعين الاعجاب ، وان كانوا فى الوقت ذاته يخشون بأسهم ويخافون أن يغلبوهم على أمرهم ، وازداد هذا الخوف والاعجاب

حينما علموا بهذه الحقائق التى تلقوها من أفواه خاصة أصدقائهم ، وقد وثقوا فى كل ما حدثوهم به ٠ ومن ثم شرق هذا الخبر المدهش وغرب حتى وصل الى أقصى ربوع المشرق ٠

ـ ٢١ ـ

فى أثناء هذه الأحداث الجارية بمملكة بيت المقدس كان يحكم مدينة ملطية الواقعة بالجزيرة فيما وراء الفرات رجل أرمنى اسمه « جبريل » ، دفعه خوفه من هجوم الفرس (الدانشمنديين) عليه ويقينه بعدم قدرته على مقاومتهم الى ارسال رسل من قبله الى بوهيموند أمير أنطاكية يلتمس منه القدوم عليه فى الحال ليسلمه على الفور المدينة تحت شروط خاصة محددة ، فما كاد بوهيموند الشجاع يتسلم الرسالة حتى هب فى لحظته مستجيبا هذه الدعوة ، وخرج بأتباعه الذين جرت عادته أن يخرج بهم ، وعبر الفرات وتوغل فى أرض الجزيرة ، وبينما هو موشك على بلوغ غايته اذا بوال تركى قوى اسمه « دانشمند » يباغت رجال بوهيموند وكانت قد بلغته أخبار زحفهم من قبل ، فترصدهم فى بعض الطريق ودهمهم فجأة من حيث لا يدرون ، فأما الذين أمسكهم فقد عرضهم على السيف ، وأما الذين لم يستطيعوا الصمود أمام هذا الجيش فقد لاذوا بأذيال الفرار ٠

وشاء قدر الأمير بوهيموند وسوء طالعه أن يقع بسبب خطاياه فى يد عدوه فكبله بالسلاسل(٢١) ، فكان ذلك نصرا لدانشمند ملأ

---

(٢١) فى الترجمة الانجليزية (ج٢ ص ٤١١ ، حاشية رقم ٥٠) اشارة الى أن هذا الاسر وقع حوالى ١٥ أغسطس سنة ١١٠٠ ، وأن آسرى بوهيموند حملوه الى « نكسار » التى هى قيصرية الجديدة عند الرومان ٠

عطفه كبرياء ، فمضى قدما يسعى لمحاصرة « ملطية » اعتمادا منه على كثرة جنده الذين يقودهم ، وقد طمع فى الاستيلاء عليها فى لحظته ٠

غير أن الفارين كانوا قد نجحوا فى الوصول الى الرها ، وأفاضوا لكونتها فى تفصيل أمر النكبة التى حاقت بهم وبالأمير (بوهيموند) ، فلما سمع ذلك الحاكم الشجاع قصتهم تحرك قلبه شفقة على الأمير اذ هو أخوه ، وتأثر تأثرا عميقا من هذه النكبة الفادحة ، واشتد جزعه من عواقبها ، فأسرع باستدعاء قواته الحربية ، وتزود بكل ما هو ضرورى للزحف الذى تعجله ما وسعته العجلة ٠

والمعروف أن مدينة ملطية تقع على مسيرة ثلاثة أيام من الرها ، لكن الكونت طواها فى سرعة كبيرة حتى اذا قاربها ترامى خبر اقترابه الى سمع دانشمند فرفع الحصار عنها ، وارتد بأسيره بوهيموند والقيد فى يديه الى أقصى ناحية من المملكة ليتحاشى الاشتباك فى القتال ٠

فلما علم الكونت (بلدوين) بفزع دانشمند من مجيئه فزعا حمله على رفع الحصار (عن ملطية) مضى يتعقبه ثلاثة أيام سويا ، أدرك بعدها الا جدوى من هذه المطاردة فعاد أدراجه الى ملطية ، حيث رحب به حاكمها « جبريل » ترحيبا لا يليق الا بالملوك ، وبالغ فى تعظيمه ، ثم سلمه المدينة على نفس الشروط التى كان قد قدمها لبوهيموند ، فلما تم ذلك كله عاد الكونت الى امارته ٠

ـ ٢٢ ـ

فى هذه الأثناء كان الدوق (جود فروى) العظيم ومن أقاموا معه بالقدس لحماية المملكة بعد رحيل القادة الآخرين يقومون بعملهم

وهم يقاسون فظاظة المتربة ، وكانوا قد بلغوا من الفقر مبلغا تعجز الكلمات عن شرحه ٠

وقد جد أمر لم يكن بالحسبان ، ذلك هو مجيء الكشافة الثقات بخبر تأكد صدقه ، يشير الى وجود قبائل عربية فى بعض البلاد العربية عبر الاردن وفى أرض العمونيين ليس لديها وسائل دفاع قوية عن نفسها ، وأنه لو هاجمها أحد أو باغتها بالهجوم لغنم منها الشيء الكثير ، فأغرى بعض القوم جود فروى على مباغتتها ، ومن ثم راح يجمع سرا ما استطاعت المملكة الشـــابة أن تمده به من الفرسان والمشاة ، فلما تم حشدهم فى صعيد واحد عبر بهم الأردن مقتحما أرض العدو ٠ وكللت الغارة بالنجاح ٠

وبينما كان جود فروى عائدا وقد فاضت يداه بما غنم من الماشية والدواب والأسرى ، اذا بشريف عربى بارز من الأبطال المشهورين فى عشيرته بولعه بالحرب قد بعث اليه رسلا من قبله يرجو مهادنته ، فلم يبخل عليه بما تمنى ، ثم مالبث هذا الشريف أن قدم وفى ركبه جماعة من أهل الجاه من العرب لزيارة الدوق ، اذ كانت الأخبار الكثيرة قد جاءته محـــدثة اياه بقوة هؤلاء الناس الوافدين من الغرب وذيوع شهرتهم ،وأ نهم اجتازوا هذه المسافات البعيدة وتحملوا المشـــاق الجمة حتى تمكنوا فى النهاية من قهر الشرق بأجمعه والاستيلاء عليه ، كما ترامى الى سمعه فوق ذلك خبر شجاعة الدوق التى لا تماثلها شجاعة ، وعلم بعزمه الماضى الذى لا يلين ، فملأ الشوق قلبه تطلعا لرؤيته ٠

فلما وقف الشيخ العربى بحضرة الدوق جود فروى وحياه التحية اللائقة به توسل اليه ان يتفضل فيذبح بسيفه جملا ضخما جاء به اليه لهذا الغرض ، لأنه يريد أن يكون قادرا على أن يشهد عند

الآخرين بما عليه الدوق من قوة يكون قد رآها رأى العين ، فقبل جود فروى سؤال الشريف اكراما لقدومه عليه من بلاد نائية لرؤيته ، وتناول سيفه دون أن يشحذه وضرب به البعير ضربة قطت عنقه دون أن يكلفه ذلك جهدا وكأنه كان يحطم شيئا هاشا ، فتملكت الدهشة العربى من هذه القوة الخارقة ، وان كان قد خامره ما جعله ينسب سرا هذا العمل الى حدة مضاء السيف ، ومن ثم استأذنه أن يتكلم اليه فى صراحة وسأله عما اذا كان يستطيع القيام بهذا العمل ذاته ولكن بسيف غير سيفه ، فارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتى الدوق الذى التمس من العربى أن يناوله سيفه هو ، فلما صار فى يده أمر أن يأتوه بمثيل لهذا الجمل ، فلما جىء له به رفع السيف وأهوى به مرة واحدة أطاحت عنق الحيوان ٠

فأظهر الشيخ العربى لأول مرة دهشته وتملكه الاعجاب حتى ألجم لسانه ، وأدرك أن فعل الضربة الثانية لم يكن من حدة السلاح ومضائه ، ولكن بسبب قوة الدوق نفسه ، وصدق لديه كل ما سمعه عن بأس جود فروى ، وبادر فقدم اليه هداياه من الذهب والفضة وما جاء به له من الخيل ، وكسب ود الدوق ، حتى اذا عاد الى بلده كان لسانا يذيع على الجميع ما كان من خبر الدوق ويعلن لكل من يلقاه ما رآه بعينى رأسه من شدة بأسه ٠

وعاد الدوق الى بيت المقدس بأسراه وغنائمه ٠

ـ ٢٣ ـ

وفى شهر يوليو هذا أصيب جود فروى الشجاع حاكم مملكة بيت المقدس بمرض استعصى برؤه منه ، واستشرى به الداء الخبيث وتزايد ، حتى لم يعد يجدى معه أى دواء ، وان لم يكف من حوله عن التماس الدواء فى كل مكان قريب أو بعيد ٠

وأخيرا قدر لتابع المسيح هذا ، الصادق التوبة أن يذهب بعد تناول القربان المقدس فى الطريق الذى لابد أن يذهب فيه كل مخلوق ، حيث يجازيه الرب مائة ضعف عن كل ما قدمت يداه ، وتخلد روحه الخلود الأبدى مع المرضى عنهم ٠

وكانت وفاته فى اليوم الثامن عشر من شهر يوليو فى عام ١١٠٠ من مولد المسيح ، ودفن فى كنيسة القبر المقدس حيث صلب السيد وعذب ، وقد خصصت ناحية معينة أيضا لخلفائه مازالت باقية حتى اليوم ٠

* * *

هنا ينتهى الكتاب التاسع

الكتـــاب العـــاشر

الملك بلدوين الأول وازدياد رقعة المملكة

فصول الكتاب العاشر :

٧ ـ البطرك دامبيرت يتخوف من وصـــول بلدوين فيغادر قصر البطركية ويعتصم بكنيسة جبل صهيون ٠

٨ ـ الكونت يقود حملة ضد عسقلان ويعبر الأردن ويهاجم بلاد العدو بالقوة ثم يعود أخيرا الى بيت المقدس ٠

٩ ـ الوفاق بين البطرك والكونت ، ثم اعتلاء الكونت بلدوين العرش ٠

١٠ ـ الأنطاكيون يستدعون تانكريد الذى لا ينسى مطلقا الاهانة التى الحقها به بلدوين وينفصل عنه ٠

١١ ـ الملك يعبر نهر الأردن ويستحوذ على غنائم كثيرة من أرض العدو ٠ ووصف عمل من أروع الأعمال قام بها الملك ٠

١٢ ـ أمراء الغرب يخرجون ثانية للحج ويبلغون القســطنطينية بقوات ضخمة ٠

١٣ ـ الامبراطور الكسـيوس ينهج النهج المعتـاد فيجعل الترك ينصبون الكمائن للحجاج مما يؤدى الى هلاك الجانب الأكبر منهم ، أما الباقون فيبلغون القدس فى صحبة كونت تولوز ٠

١٤ ـ الملك (بلدوين) يحاصر أرسوف ويستولى عليها قسرا ٠

١٥ ـ الملك (بلدوين) يحاصر أيضا مدينة قيســرية الساحلية ويستولى عليها ٠

١٦ ـ هلاك كثير من الأهالى فى أحد مساجد المدينة ، وتعيين رئيس أساقفة للمدينة المغلوبة ٠

١٧ ـ الملك (بلدوين) يصل الى الرملة فى انتظار العدو الذى ذاع خبر اقترابه ثم يشتبك واياه فى قتال يخرج منه منصورا ٠

١٨ ـ الملك (بلدوين) يمضى بعدئذ الى يافا فتطمئن نفوس الأهالى الذين استبد بهم الفزع حتى كاد أن يهلكهم ٠

١٩ ـ الوافدون الجدد يستولون على مدينة طرطوس ويسلمونها الى كونت تولوز ، ثم يتابعون السفر بعد ذلك الى بيت المقدس فيقابلهم الملك فى بيروت ٠

٢٠ ـ المصـــريون يهاجمون بلاد الصليبيين بقوات كبيرة فيزحف الملك (بلدوين) لصدهم ويقاتلهم فتدور الدائرة عليه اذ لم يأخذ حذره ٠

٢١ ـ فى اثناء هروب الملك من ساحة القتال يرتد الى قلعة الرملة وتكتب له الحياة بفضل شفقة شيخ عربى عليه ، أما غيره فيلاقون مصرعهم فى ذلك المكان ٠

٢٢ ـ الملك (بلدوين) يسلك فى اثناء هربه طرقا متعرجة فيصل أولا الى أرسوف ثم الى يافا ، وتهب جميع قوات المملكة الى نجدته وتنشب معركة تنتهى بانتصار الصليبيين ٠

٢٣ ـ فى هذه الأثناء يبسط تانكريد حمايته على مدينتى أفامية واللاذقية الرائعتين ٠

٢٤ ـ زواج بلدوين دى بورج كونت الرها من ابنة الدوق جبرييل ٠

٢٥ ـ بوهيموند يتخلص من أسر العدو له ويعود الى انطاكية ، فيلجأ البطرك دامبرت اليه فيحسن لقاءه ٠

٢٦ ـ تعيين شخص اسمه ابريمار ـ بعد اخراج دامبيرت ـ بطركا لكنيسة القدس من غير أهلية شرعية ٠ فشل الملك (بلدوين) فى حصـــاره لعكا واصابته بجروح شديدة الخطورة اثناء عودته ٠

٢٧ ـ كونت تولوز يشيد حصنا أمام مدينة طرابلس ويسميه بتل الحجاج ٠

٢٨ ـ الملك يحاصر عكا للمرة الثانية ويستولى عليها قسرا بمساعدة الجنوية له ٠

٢٩ ـ قيام تانكريد وبلدوين وغيرهما بمحاصرة مدينة « حران » بالجزيرة ، واضطرار الأهالى لتسليم البلد بسبب اشتداد وطأة الجوع عليهم ٠

٣٠ ـ ضياع المدينة من يد الصليبيين اثناء تنازعهم فيما بينهم عمن يكون له الحكم فيها ، وصول النجدة الى المحصورين ونشوب معركة هناك فى الأحياء القريبة وهلاك الصليبيين من جراء الخطر الداهم المحيق بهم ٠

* * *

هنـــا يبـــدأ

الكتـــاب العاشر

الملك بلدوين الأول وازدياد رقعة المملكة

ـ ١ ـ

كان المعظم جود فروى ـ الخالد الذكر بفضل المسيح ـ أول حاكم لاتينى لمملكة بيت المقدس ، فلما رحل عن هذه الدنيا ليحيى فى العالم الآخر حياة خيرا من حياته فى عالمنا هنا ، ظل العرش شاغرا ثلاثة أشهر حتى بعث القوم فى استدعاء أخيه وشقيقه من أمه وأبيه بلدوين كونت الرها ليخلفه فى تدبير شئون المملكة التى آلت اليه بالوراثة ، وربما كان الداعى لهذه الدعوة هو احترام رغبات الدوق الأخيرة ، أو ربما كان ذلك استجابة لاجماع الزعماء الذين كان عددهم قد تضاءل تضاؤلا كبيرا جدا ٠

وكان بلدوين فى شبابه قد ألم بكثير من العلوم الانسانية ، ويقال انه لبس مسوح رجل الدين فصار واحدا منهم فكان يجرى

عليه نظرا لكرم أرومته راتب يعرف بالمعاش الكهنوتى ، مما حبس من الأوقاف على كنائس « ريمز » و « كمبراى » و « لييج » ، على أنه لم يلبث ــ بسبب لا نعرفه ــ أن انصرف عن تلك الوظيفة الكنسية وتعلق بالأمور الحربية ، وانخرط فى سلك الجندية ، ثم تزوج بعد حين من سيدة فاضلة من انجلترا رفيعة القدر ، كريمة الأصل اسمها « جود هيلد » صحبها معه حين صحب أخويه جود فروى وأستاس الفاضلين ، صاحبى الذكر الذى لا يبلى فى أول حملة خرجت للحج، فصادفت النجاح والتوفيق من شتى الوجوه ٠

على أن « جود هيلد » ماتت كما قلنا فى هدوء فى مدينة مرعش ودفنت هناك بعد أن أنهكها المرض العضال ، وذلك قبل أن يبلغ جيش المؤمنين انطاكية ٠

ثم أن دوق الرها بعث بعد حين فى استدعاء بلدوين وتبناه ، فلما مات الدوق خلفه بلدوين على الدوقية بكل ملحقاتها كما فصلنا ذلك من قبل ٠ ثم تزوج بلدوين بعد ذلك من ابنة أمير أرمنى شريف عالى المكانة رفيع القدر اسمه « توروس » ، كان يملك هو وأخوه قسطنطين القلاع المنيعة فى اقليم جبال طوروس ، ويأتمر بأمرهما كثير من الأبطال المغاوير ، وينزلهما الشعب الأرمنى منزلة الملوك بفضل ما فى حوزتهما من الثروة الكبيرة ، وما تحت أيديهما من العسكر الكثيف ، ولسنا نرى هنا حاجة لاعادة القول عن أصل بلدوين ونسبه العظيم ، ولا أين ولد ، فقد ذكرنا من قبل ما فيه الكفاية فى معرض كلامنا عن أعمال الكونت والدوق اللذين كانا شريكين فى نبالة الأصل وكرم العرق ٠

- ٢ -

كان بلدوين - كما قالوا - رجلا عملاقا فارع الطول ، وأضخم جثة من أخيه بصورة ظاهرة حتى ليصح أن يقال فيه ما قيل فى شاول(١) « كان أطول من كل الشعب من كتفيه فما فوق » ، وكان ذا بشرة ناصعة البياض ،أما شعر رأسه ولحيته فعسلى اللون ، وله أنف أقنى ، وشفته العليا بارزة بعض الشىء ، أما فكه الأسفل فمتراجع قليلا بصورة لا يمكن أن تشوه طلعته ، وكان وقور السمت ، متحفظا فى لباسه ، مقتصدا فى كلامه ، يلبس على الدوام عباء تتدلى على كتفيه ، ان تحدث فهو رزين فى حديثه ، كما أنه محمود فى عاداته ، وفيه من الوقار ما يحمل من لا يعرفونه تمام المعرفة على الظن بأنه من رجال الدين أكثر من أن يكون علمانيا ، ومع ذلك فلاشك أنه كان كغيره من ذرية آدم ، ووريثا للخطيئة الأولى اذ يقال انه لم يكن يستطيع كبح شهوات البدن ، وانحدر فانغمس فى الملذات الجسدية دون أن يعف عن شىء منها وان لم ينكب أحدا أو يصبه بمضرة فادحة ، والحق انهلم يكن ثم من يدرى بعاداته الفاجرة سوى نفر قلائل من خاصته ، مما يعتبر شيئا نادرا فى مثل هذه الأمور ، واذا كان أنصاره يحاولون - كما هو الحال ازاء جميع الخطاة - تبرير ما فعله الا أنه يمكن اعتبار بعض ما فعله قضاء قضى به عليه الرب ، وهذا مايراه عامة الناس كما سنذكر ذلك فى

ولم يكن بلدوين بالرجل البدين ولا بالفاحل المعروق بل كان وسطا بين هذا وذاك ، الى جانب درايته باستعمال السلاح ، وبراعته فى ركوب الخيل ، وما تميز به النشاط الجم ، كما أنه كان مستعدا على الدوام للقيام بما يطلب اليه القيام به من أعمال المملكة .

(١) صموئيل الأول ١٠ : ٢٣

وربما لم يكن ثمت ضرورة لامتداح اقدامه وبسالته وخبرته بفن الحرب وغير ذلك من شتى الخصائص الرائعة التى تفرد بها ، فقد ورث هو واخوته هذه السجايا كلها أبا عن جد ، وزيادة على ذلك فانه كان شديد المحاكاة للدوق حتى ليرى أن أى انحراف ــ عن السمت الذى اختطه أخوه ــ خطيئة ، لكنه كان قد نضح وده الصادق لشخص متوعر الخلق ، دنىء الطبع اسمه « أرنولف » الذى كان رئيس شمامسة بيت المقدس ، وكان بلدوين يمتثل لكل ما يشير به عليه هذا الرجل امتثالا عيب عليه ، فما أرنولف هذا الا الرجل الذى قلت عنه من قبل انه اغتصب لنفسه كرسى البطركية فناله قسرا رغم ما اشتهر عنه من ميله للشر : فكرا وعملا ·

ــ ٣ ــ

حين ودع الدوق « جودفروى » الحياة ، وأصبح رهين قبره ، قام ــ كما قلنا ــ الذين عهد اليهم بتنفيذ رغباته التى تضمنتها وصيته الأخيرة ، فصرفوا النظر عن مشيئة الراحل ، وآثروا مصالحهم الذاتية فقدموها على ما قضى به مولاهم ، اذ لم يسلموا برج داود للبطرك « دامبيرت » ولم يضعوا المدينة تحت سلطانه حسب بنود الاتفاق الذى أمضاه معهم الدوق الخالد الذكر يوم عيد الفصح المبارك المنصرم فى كنيسة القيامة بحضرة رجال الدين والشعب ·

ولقد تزعم هذه الطائفة المثيرة للفتن رجل اسمه كونت «جارنييه دى جراى » ، وهو محارب صنديد ، ومقاتل كمى وتربطه صلة القرابة بكل من الدوق (جود فروى) والكونت (بلدوين) ، لذلك

ما كاد الدوق يلفظ أنفاسه حتى استولى الكونت (جارنييه) على برج داود وحصنه أعظم تحصين ، ثم بعث فى السر رسلا من قبله ـ دون علم أحد ـ الى كونت بلدوين يأمره بالحضور اليه على جناح السرعة ومن غير ابطاء ، وكان البطرك (دامبيرت) قد ألح مرارا على (جارنييه) تنفيذ رغبات الدوق الأخيرة برد ما للكنيسة من الحقوق ، لكن جارنييه دأب على اختلاق الأعذار والتراخى فى الرد بكل وسيلة سعيا لكسب الوقت وانتظارا لمجىء الكونت (بلدوين) الذى بعث (جارنييه) فى استقدامه، ليجد عنه حضوره جميع مايخصه سليما غير منقوص ، وقد فعل (كونت جراى) ما فعله أملا منه ف استجلاب المزيد من عطف بلدوين عليه نظير ما أظهر من الاخلاص له ، لكنه وهم فيما أمل اذ حدث ما خيب ظنه ، فلم تنقض غير خمسة أيام فقط من ذلك حتى مات جارنييه ، فاعتبر الناس قاطبة موته آية ، ونسبوا الى فضائل البطرك ما لقيه خصم الكنيسة ومضطهدها من الموت الفجائى .

على أن هلاك جارنييه لم يؤد الى تحسين وضع الكنيسة ، اذ لم يكترث الذين كانوا يسيطرون على القلعة بما جرى ، فظلوا مقيمين بها لا يبرحونها حتى يجىء (بلدوين) كونت الرها .

ولما كان البطرك يعلم تمام العلم بما جرى من استدعاء الكونت ، وكان يخشى مجيئه كل الخشية ، فانه لم يأل جهدا فى اصطناع شتى الوسائل للحيلولة دون حضوره ، فأرسل الى بوهيموند أمير أنطاكية رسالة فصل له فيها الأمر بأجمعه ، ولقد رأينا أن الحكمة تقتضينا أن ندرج صورة من هذه الوثيقة فى تاريخنا الحالى هذا لتكون بينة قاطعة بشأن هذه المسألة .

يقول البطرك فى هذه الوثيقة « انك لتعلم يابنى العزيز انك اخترتنى مدبرا وبطركا رغم عزوفى عن ذلك وبغير معرفة منى بما جرى ، وان كانت نفسى تفيض بالخير والتطلعات الطاهرة تجاه هذه الكنيسة التى هى أم الكنائس قاطبة ومليكة الامم ، وكان اختيارك اياى برضاء من رجال الدين والقادة والشعب أجمعين ، وأعليت قدرى بتوجه من الرب ـ وان كنت لا أستحق ذلك ـ وبوأتنى أشرف مقام ، غير اننى كنت فى هذه الذروة العالية هدفا لألف نكاية ونكاية، ولايدرى أحد ما سواى انا وحدى وسوى المسيح الذى لا تخفى عنه خافية ما لاقيت من المشاكل الجمة والمظالم ، وما قاسيت من الأخطار الكبيرة ٠

« ولقد كان مســـــتحيلا على « جود فروى » فى حياته أن يضل أو ينحرف من تلقاء نفسه ، وانما كان خاضعا فى ذلك لمطامع أوغاد حملوه على ان يأخذ من الكنيسة ما كان ينبغى أن يكون ملكا خالصا لها ، وأن يغتصب بعض الأملاك التى كان يديرها البطرك بنفسه حتى فى ظل الحكم التركى ٠

« كذلك مرت الكنيسة المقدسة بمحنة يعجز اللسان عن شرحها، ووصمت بعار يقصر الوصف عنه ، كل ذلك فى الوقت الذى كان الواجب فيه يقضى بأن تحظى بتمجيد أجل وتعظيم اكبر ، ثم قدرت رحمة الله اخيرا أن يعود الدوق الى رشده ، وأن ينبذ ظهريا ذلك القصد الدنس فقام فى يوم الاحتفال بذكرى تنزيه العذراء مريم المباركة ، فأقطع كنيسة القبر المبارك ربع مدينة يافا ، حتى اذا كان يوم الاحتفال بعيد الفصح أيقظت الرحمة الالهية ضميره فصحى من غفوته ، وكره أن يظل سادرا فى غلوائه ، ورفض أن يستسلم لأبهة الدنيا فأعاد من تلقاء ذاته الى الكنيسة كل حق شرعى لها ، فأصبح

بذلك رجل القبر المقدس ورجلنا ، ونذر نفسه لله ، وتعهد أن يخلص فى المحاربة فى سبيله وفى سبيلنا ، فأعاد الى سلطاننا من غير معارضة برج داود، وجميع مدينة القدس وملحقاتها ، وكذلك ممتلكاته هو ذاته الخاصة الموجودة فى يافا ٠

« واذ كانت موارده المالية غير كافية فقد أثبت فى الاتفـــاق – برضاء منا – شرطا يخوله الاحتفاظ بكل هذه الممتلكات ، حتى يأذن الله بزيادة دخله ، ويمن عليه بفتح بابيلون(٢) وغيرها من المدن ، واتفق على أنه ان مات بلا ولد من صلبه يرثه عادت كل هذه الأملاك الى الكنيسة دون أى معارضة ٠

« ومع أنه وعد بكل هذه الأشياء فى يوم عيد الفصح الطاهر أمام القبر المقدس وعلى رءوس الأشهاد من رجال الدين والناس قاطبة ، الا أنه عاد – وهو مسجى على فراش مرضه الأخير – فأكدها فى حضور العديد من الشهود الثقات ٠

غير أنه بعد وفاة جود فروى ظهر كونت جارنييه فجعل من نفسه عدوا للكنيسة ، اذ حصن برج داود رغم معارضتنا ، ولم يعبأ بالقسم الذى أقسمه ، ولا بالاتفاق الصادق الذى أبرمه من قبل، وبعث رسله لاستدعاء الكونت بلدوين ، يخبره على لسانهم أنه منتزع من كنيسة الرب أملاكها عنوة ، ومستبق اياها فى يده قسرا حتى يحضر الكونت نفسه ، ولكن قضاء الله أبى الا ان يأخذ بناصية الكونت (جارنييه) فلفظ روحه بعد أربعـــة أيام من موت الدوق (جود فروى) ، فما ارتدع لهذا الحادث بعض رعاع الطبقة الدنيا ، اذ استولوا على البرج والمدينة بأكملها ، ومازالوا مستحوذين على

---

(٢) يقصد بذلك القاهرة ٠

ذلك كله حتى الآن فى انتظار قدوم الكونت بلدوين ليتم على يديه سقوط الكنيسة ودمار المسيحية ذاتها •

« ولكننى مسلم نفسى ــ أيها الابن العزيز ــ الى رحمة الرب والى حنانك ، واذ كانت شتى المصائب والافتراءات التى دبرتها مكائد الأوغاد ، ونماها افكهم الكبير قد أحدقت بى فقد فوضت أمرى اليك أنت وحدك بعد الله ، ووضعت أملى فى عطفك الراسخ المتين ، وانى لأبث اليك بكلمات باكية وقلب جازع خبر البلايا التى أقاسيها أو على الأصح تقاسيه الكنيسة •

« ومن ثم فانه اذا كان عندك عطف صادق على ، واذا أردت ألا تكون دون سمعة أبيك البهية ، وهو الوالد الذى أنقذ البابا المقدس جريجورى من مدينة رومة حين قام أوغاد الناس ــ بما جبلوا عليه من قسوة جائرة سوف تظل مقرونة بهم الى الأبد ــ فزجوا به فى السجن ، أقول اذا كان عندك العطف ولم تكن دون أبيك همة فاطرح جانبا كل عذر ، وأقبل فى الحال الى عاهدا بمملكتك وأملاكك الى رهط من المحاربين الموثوق بهم ، وبادر مشكورا بالحضور لمساعدة الكنيسة الطاهرة فى محنة صراعاتها المؤلمة ، لأنك تعلم جيدا أنك قد عاهدتنى أن تكون لى عونا ومشيرا ، كما أنك بذلت نفسك عن طواعية وطيب خاطر لتخضع للكنيسة المقدسة ولى معا •

« وعليك أن تكتب كتابا الى بلدوين تنهاه نهيا باتا عن ارتكاب مالا نرضى عنه ، وتأمره الا يأتى الى بيت المقدس لتخريب الكنيسة المقدسة أو لاغتصاب ممتلكاتها بأى شكل من الأشكال ، فقد شاركك هو الآخر أيضا فى اختيارى بطركا لكنيسة بيت المقدس وراعيا لها •

« وعليك أن تبين له أنه لا يتفق والحجا أن يكون قد تحمل كثيرا من المشاق والأخطار من أجل تحرير الكنيسة ثم نصل هذه

الكنيسة ذاتها الى قدر كبير من التدنى والمهانة فتضطر رغم أنفها لخدمة أولئك الذين كان ينبغى لها أن تكون صاحبة السيادة فيهم ، وأن يكون لها ما للأم من حق الأمر والنهى فيهم ، أما اذا أصـــر (بلدوين) على مقاومة العدل ، ورفض الرضوخ للعقل ، وأبى الا أن يحضر فاننى أدعوك بحق يمين الطاعة الذى قطعته على نفسك للقديس بطرس أن تمنع حضوره بكل وسيلة تستطيعها ، حتى ولو استلزم الأمر العنف ان كان ثم ضرورة للعنف » .

، ودعنى أعرف ياولدى العزيز ــ عن طريق نفس الرســـول الذى يحمل كتابى هذا اليك ــ ماذا أنت عازم أن تعمله بالنسبة لهذه الأمور التى أوصيتك بها ، وأن تبعث لى المســـاعدة على جناح السرعة » .

ـ ٥ ـ

ونحن(٣) واثقون أن هذا الكتاب لم يقدر له أبدا أن يصل الى يد الأمير بوهيموند ، اذ كان قد وقع فى أسر العدو قبل قليل من موت طيب الذكر الدوق جود فروى ، أو بعد قليل جدا من مغادرة روحه لجسده وصعودها الى بارئها .

لكن حدث فى هذا الوقت أن ورد على بلدوين كونت الرها من الخبر السار ما أثلج صدره وشرح خاطره ، اذ استسلمت له ملطية عاصمة الميديين الرائعة ، وتم له اخضاع من حوله من الخصوم ، وهكذا استطاع ــ برحمة من الله ــ أن ينجح فى توفير شىء من السلام لنفسه ولشعبه ، وبينما هو فى ذلك اذا بوافد يفد عليه فجأة من بيت المقدس وعلى جناح السرعة يحمل اليه خبر وفاة الدوق (جود فروى) ، ويفضى اليه أيضا بأن أصدقاءه وأتباع الراحل

---

(٣) بعد ان انتهى وليم من ايراد نص الكتاب يعود فيعلق على ماجرى .

يلحون عليه أن يشد رحاله اليهم ما وسعته السرعة ليعتلى العرش مكانه ، فبادر فى الحال الى جمع حرس مؤلف من مائتى فارس وثمانمائة جندى مشاة ، وبدأ رحلته الى القدس فى اليوم الثانى من أكتوبر ، فأثار دهشة الجميع خروجه فى مثل هذه القلة من الأتباع وقيامه برحلة طويلة كهذه الرحلة تفرض عليه المرور ببلاد العدو ، كما عهد برعاية امارته الى رجل عظيم القدر راجح العقل من ذوى قرباه هو بلدوين دى بورج الذى قدر له أن يخلفه فيما بعد ليس فى الرها فحسب ، بل وفى المملكة أيضا •

ولما بلغ بلدوين (أخو جود فروى) أنطـــاكية بعث بزوجته والوصيفات من أهل بيته بكل ما عندهم من ثقيل الأثاث وجزء كبير من متاعبهم الى ناحية البحر، كما أمر باعداد سفينة لتبحر الكونتيسة عليها فى أمان الى يافا التى كانت المدينة الساحلية الوحيدة التى آلت الينا حتى ذلك الوقت ، أما غيرها من المدن فكانت لاتزال فى قبضة المارقين ، ويظهر أن دافعه الى ترتيب الأمر على هذه الصورة هو ما رآه ــ وهو موشك على اجتياز أرض العدو ــ من وجوب تحققه جهد ما أمكنه مما معه ليكون أحسن استعدادا لمواجهة أى صعاب أو هجمات قد تعترضه على غير توقع منه •

* * *

ثم سار هو من أنطاكية الى لاذقية الشام ، فلما بلغها مضى مصاقبا الساحل مارا بجبلة وبانياس ومرقلية و طرطوس وعرقة ، حتى أفضى به السير الى طرابلس فضرب معسكره خارجها ، حيث وافاه هنا واليها مرحبا به ، وبالغ فى الاحتفـــاء به ووصـــله بالهدايا الجمة ، وعلم (بولدوين) من هذا الوالى ذاته أن « دقاقا » صاحب دمشق قد نصب له الكمائن على طول الطريق •

ثم تابع بلدوين زحفه من طرابلس مارا بجبيل حتى بلغ نهر الكلب ، حيث يوجد هنا ممر شديد الخطر يقع بين بحر عاصف وجبل شاهق الارتفاع مما يجعل المرور فى هذا الطريق يكاد أن يكون مستحيلا • ويبلغ طول هذا الممر أربعة فراسخ ، أما عرضه فذراعان، وكان السير فى هذا الشعب الضيق أمرا محفوفا بالخطر ويكاد أن يكون مستحيلا ، ناهيك بما كان من استعانة أهالى تلك الناحية ببعض الأتراك الذين استقدموهم من أقاليم نائية ، وتعاونوا على عرقلة سير كونت بلدوين •

حين بلغ الكونت هذا الموضع قدم أمامه نفرا من رجاله ليكونوا ربيئة تستطلع له الطريق ، فتبين لهم أن بعض المدافعين كانوا قد اجتازوا النهر ونزلوا الى السهل ، فلما عرفوا ذلك خشوا أن يكون العدو قد ترك أعدادا كبيرة خلفهم ترصد خطاهم وتتربص لهم • ومن ثم بعثوا واحدا من بينهم يخبر الكونت بما آلت اليه الأمور ، فبادر بلدوين فى لحظته بتنظيم رجاله للحرب ، زاحفا بهم على العدو ، فوجده متهيئا للقتال ، فأغار عليهم غارة شعواء بددت شملهم من أول صدمة ، ولقى الكثيرون منهم فيها حتفهم وفر الباقون ، ثم أمر بعدئذ عسكره أن ينزلوا متاعهم ، وأن ينصبوا خيامهم فى هذا الموضع الذى قضوا فيه ليلة ليلاء لم يغمض لهم فيها جفن لما يحيق بهم من الخطر الجسيم من جراء وقوع معسكرهم فى شعب ضيق محصور بين الجبال والبحر مما أتاح لعدوهم أن يظل طول الليل يضايقهم برجاله الذين كانوا قد جاءوا بحرا من بيروت وجبيل ، ودأبوا على رميهم بوابل هتان من النبال التى أنزلت الأضرار الفادحة بأولئك الصليبيين الذين كانت خيامهم فى الخلاء على أطراف المعسكر ، ومما زاد كربهم شدة أنهم ــ رغم قربهم من أحد الأنهار ــ كانوا عاجزين فى تلك الليلة عن سقى جيادهم ، مما جعل هذه الحيوانات العجماء

تكابد الأمرين من الظمأ الذى زادت الحرارة البالغة من وطأته ، لاسيما وقد أمضها طول السفر ٠

– ٦ –

لم تكد طلائع الضياء تلوح بالأفق صباح اليوم التالى حتى أمر الكونت – بعد التشاور مع رجاله – باعداد متاعهم للزحف ، وأرسل أمامه جميع الحجاج الضعاف ومن لا يرتجى منهم نفع فى القتال وســـار هو خلفهم بمن معه من المحـــاربين الذين هم أقدر على تحمل وطأة أى هجوم قد يشنه العدو على المؤخرة أو على أحد الجناحين ، وقد هداه بعد نظره الى اتباع هذه الخطة حتى يضلل العدو ، ولم يكن ذلك لعدم ثقته فى جماعته بل ليغرى الخصم على مطاردته فى ارتداده فيعينه ذلك على مواجهته فى السهل فتتيسر له حرية مقاتلته ، لأنه كان يخاف كل الخوف أن يحصر فى الشعاب الضيقة ٠

وبينما كان جيشه يجاهد فى الارتداد راح أعداؤه يضاعفون من مطاردتهم اياه ، اعتقادا منهم بأن بلدوين لم ينسحب برهطه الا خوفا منهم ، ومن ثم اندفعوا من الشعاب الضيقة ، وأخذوا فى ملاحقة الصليبيين بشدة فى النواحى المكشوفة ، واذ ذاك تشمم من كانوا على ظهر السفن رائحة الغنيمة ، فتواثبوا الى الشاطىء طمعا منهم فى كسب المعركة من غير جهد ولا مشقة ، واندفعوا كأنما قد دارت الدائرة على عدوهم ٠

فلما رآهم الكونت قد غادروا المرتفعات وصاروا فى السهل الفسيح مشمرين عن ساعد الجد فى مطاردته أمر رجاله بالارتداد لقتالهم فهبوا بأعلامهم وســـار بهم مهاجما من لازالوا ملحين فى

افتقاء أثره الحاجا شرسا ، ونسج عسكره على منواله ، فاندفعوا متحمسين فى القتال مشرعين سيوفهم البراقة ، يجرعون الخصم كأس الردى قبل أن ينجح فى الارتداد الى الجبال جريا على مألوف عادته ، فعجز رجال العدو عن الصمود لهذه الهجمة يصلون بنارها ، وتملكتهم الدهشة من بأس مطارديهم وجرأتهم حتى انهم لم يحاولوا القيام بأى محاولة للدفاع عن أنفسهم ، وأيقنوا أن الفرار هو أملهم الوحيد ، وأنه طريقهم الذى لا طريق سواه لسلامتهم ٠

أما الذين كانوا قد غادروا السفن فلم يجرءوا على العودة الى البحر ، وأما من فروا الى الجبال فقد هاموا على وجوههم حيارى لا يدرون أين يذهبون ، فاعترضـــتهم المنحدرات الخطرة وترصدهم الموت بشتى ألوانه وهم عنه غافلون ٠

بعد أن استأصل الصليبيون المنتصرون شأفة الخصم على هذه الصورة عادوا آمنين فى سربهم الى الموضع الذى خلفوا فيه متاعهم ومؤنتهم ، واستراحوا هناك تلك الليلة شاكرين الله الذى أذل القوى ونصر الضعيف ، فلما طلع الغد عاودوا زحفهم حتى اذا بلغوا مكانا اسمه « جونية » وقفوا يوزعون الأسلاب والغنائم والأسرى حسب العادة الحربية ، وأعطوا أنفسهم وجيادهم حقها من العناية الواجبة ٠

فلما كان صباح اليوم التالى خرج بلدوين فى نفر من خيالته أصحاب السلاح الخفيف ، رغبة منه فى الحفاظ على بقية أتباعه ، وتقدم بهم فى جرأة الى البقعة التى جرت بها وقعة الأمس ، هادفا من وراء ذلك لأن يتأكد بنفسه تمام التأكد عما اذا كان أعداؤه مازالوا مسيطرين على الشعاب ، أم أن الممر أصبح ميسورا أمام من يريد اجتيازه ، فلما رآه خاليا عن الحراسة وليس من صعوبة تعترض

سالكه أمر باستدعاء جميع أتباعه الذين توافدوا اليه سراعا اثر سماعهم هذا الخبر البهيج وعبروا كلهم بقيادة مولاهم هذا المكان الذى سبب لهم فى الواقع كثيرا من الخوف والرعب ، ثم تابعوا بعد ذلك زحفهم الى مدينة بيروت وعسكروا أمامها ، ثم ساروا على طول شاطىء البحر فمروا بصيدا وصور وعكا ، حتى بلغوا أخيرا مدينة حيفا .

***

على أن الكونت كان يتوجس خيفة من تانكريد لما كان قد ألحقه به ظلما من اهانة فى طرسوس من أعمال « قيليقة » ، لذلك نهى رجاله عن دخول تلك المدينة ، مخافة أن يتذكر تانكريد الأريحى ما ناله من الأذى على يد بلدوين فيعمد الى رد الأذى بمثله .

غير أن تانكريد كان بعيدا عن المدينة فخف أهلها للترحيب بالكونت ، وبالغوا فى تحيته واظهار ما تضمه جوانحهم من حب ومودة أخوية له ، كما أبدوا استعدادهم لعقد سوق لبيع البضائع لاسيما مايلزم رجاله من الطعام بأثمان معقولة .

ثم تابع الجيش زحفه من حيفا الى قيسرية فأرسوف مؤثرا الطريق الساحلى حتى بلغ يافا ، فاحتفى ببلدوين جميع من بها من أهلها ومن رجال الدين احتفاء كبيرا ، ثم سار بمن معه شطر مدينة بيت المقدس حيث خرج للقائه جميع رجال الدين والشعب من لاتين وغيرهم من الأمم الأخرى وسودوه عليهم عن رضى وطيب خاطر ، فلما تم له ذلك سار من يافا بمن معه وطافوا بالكونت شوارع المدينة فرحين به وهم ينشدون التراتيل والأغانى الدينية ، ثم نادوا به سيدا وملكا عليهم .

— ٧ —

حينذاك أدرك « أرنولف » المذكور آنفا ربيب الشيطان البكر وابن الهاوية أنه نال مايستحقه لقاء أعماله الشريرة ، وهوى من كرسى يعقوب الذى اغتصبه بوقاحته الملعونة، وأخذ يثير القلاقل ويعكر صفو سلام دامبيرت الذى كان قد تم اختياره برضى الجميع رئيسا للكنيسة يدير أمورها ، ذلك أنه ماكاد يموت الدوق حتى راح «أرنولف» يرمى البطرك العظيم عند بلدوين بشتى الاتهامات ، كما حرك بعض رجال الدين ضد دامبيرت ، وذلك كله بسبب امتلاء نفسه بالشر وميلها لبذر بذور الشقاق بين الناس ، ولما كان شديد الغنى واسع النفوذ ، الى جانب أنه كان كبير مطارنة بيت المقدس ، فقد أخذت الأموال الكثيرة تتدفق عليه من هيكل الرب ومن موضع الصلب ، ونجح بفضل ثرائه الفاحش ومكره البالغ فى أن يبث الشر الكثير بين رجال الدين ، وأكثر منه فى صفوف المدنيين ٠

ولما كان البطرك المعظم (دامبيرت) عارفا تمام المعرفة بسوء طوية هذا الرجل « أرنولف » الذى كان شوكة تقض جانبه ، ويعرف أيضا سرعة تصديق الكونت له فقد توجس خيفة من حضور هذا الأخير فغادر المقر البطركى ، وفزع الى كنيسة جبل صهيون ، فلما باعد كل البعد ما بينه وبين شتى المنازعات انصرف كمواطن عادى الى القراءة والصلاة يمضى فيهما وقته ، مما ترتب عليه تغيبه عن مشاركة الأهالى احتفالاتهم الترحيبية التى أقاموها لاستقبال بلدوين ٠

ظل الكونت مقيما بضعة أيام فى القدس ليستجم وتستجم جياده ، لكنه لما كان رجلا يحب العمل ويكره الخمول فانه لم يكد يرى أمور المملكة تستقر على صورة مرضية وملائمة للوقت حتى أعد حملة مؤلفة ممن كانوا قد صحبوه ومن القوات التى وجدها بالمملكة ، وظهر بهؤلاء وهؤلاء فجأة أمام عسقلان على غير انتظار من أحد، فأحجم الأهالى عن الخروج اليه خوفا منه ، فأدرك أنه لن يجنى الكثير من هذه الحملة ، ومن ثم سار عبر اقليم واسع يقع بين الجبال والبحر ، ومر بكثير من الأماكن التى وجد دورها يبابا قفرا لمغادرة أصحابها لها وفرارهم الى المخابىء التى تحت الأرض بنسائهم وأولادهم ومواشيهم وقطعانهم ·

وكان قطاع الطرق واللصوص قد ازعجوا هذا القطر ، كما بات الطريق الواصل بين الرملة والقدس شديد الخطورة لكثرة ما أنزلوه بالدروب والمسالك من الأهوال بسبب هجماتهم المتكررة ، كما أنهم طالما أعملوا سيوفهم البتارة فى المسافرين يقاتلونهم فيأخذونهم غدرا ، فلما سمع الكونت بهذا القتال أمر بمطاردتهم فى عنف لا يعرف الهوادة ، وبتكديس مختلف أنواع المواد القابلة للاشتعال أمام مداخل الكهوف التى اختبأوا بها واضرام النار فيها ، مستهدفا من وراء تلك العملية ارغام الفارين المختفين فى المخابىء على الإستسلام والا ماتوا اختناقا من ذلك الدخان الكثيف ، وترتب على هذه الخطة ان لم يعد المختفون داخل المغارات قادرين على تحمل حرارة اللهيب ولا الجمر المتقد ولا الدخان المنتشر فى كل ركن وناحية ، فاستسلموا بلا قيد ولا شرط للكونت الذى لم تأخذه شفقة ولا رحمة بهم ، فأمر بقطع رؤوس مائة منهم فى لحظته فقطعت ، وكان ذلك عقابا عاجلا يكافىء جرمهم ، وأخذ من مخازنهم من الطعام ما يحتاجه رجاله ،

ومن العلف مايلزم دوابه ، ثم تابع سـيره بعدئذ فى أرض أبناء سمعان ، فانتهى به الزحف الى أرض جبلية ، فجاس خلال منطقة « الخليل » المعروفة أيضا باسم « كاريااثاربى » والمشهورة أيضا بأنه قد دفن فيها ابراهيم واسحق ويعقوب ، ثم مشى عبر بساتين كروم « انجادى » الى الوادى الشهير الذى يوجد به البحر الملح .

ومر العسكر « بسيجور » التى وان كانت متناهية فى الصغر الا أنها كانت قادرة على انقاذ « لوط » حين هرب من « سدوم » ، ودخلوا الى أرض « مؤاب » وعبروا كل سورية الوسطى ينتظرون الفرصة المواتية لانزال المضـرة بجنس الترك الغادر ولتحسـين أوضاعهم هم أنفسهم . ومع ذلك فانهم لم يستطيعوا طول هذه المدة أن ينجزوا شيئا سوى أنهم أعالوا أنفسهم وجيادهم ودوابهم التى تحمل أثقالهم مما خلفه أعداؤهم سكان الناحية الذين كانوا قد فروا على وجوههم كعادتهم حين علموا باقتراب الصليبيين قبل أن يدركوهم ، وانطلقوا مسـرعين الى الغابات الموجودة بالجبال الموحشة ، لذلك فانه لما أخذ الصليبيون فى اجتياز هذا الاقليم وجدوا دياره خالية تماما ، والحقول جرداء من كل زرع . واذ أدرك الكونت أخيرا أنه لن ينال شيئا لاسيما وقد دنى موعد الاحتفال بعيد الميلاد فقد كر راجعا من حيث جاء ، ودخـل القدس ثانية فى الحادى والعشرين من شهر ديسمبر ، فوافق دخوله يوم عيد القديس توما الحوارى .

ـ ٩ ـ

وفى سنة ١١٠١ من مولد المسيح نجحت مساعى وسطاء الخير الحميدة فى اصلاح ذات البين بين البطرك المبجل وكونت بلدوين .

وفى يوم عيد الميلاد المبارك توج بلدوين ملكا ودهن بالزيت فى كنيسة بيت لحم على يد البطرك « دامبيرت » المشار اليه ، ووضع

على رأسه التاج المرصع بالجواهر ، وذلك بحضور رجال الدين والشعب ورجال الكنيسة وأمراء المملكة .

ـ ١٠ ـ

كان اعتلاء بلدوين العرش على هذه الصورة ، ولكن تانكريد ـ ذو الأثر المجيد والذاكر أبدا للمسـيح ـ كان يطوى صـدره على ماصبه عليه بلدوين من ظلم أيام وجوده فى طرطوس بقليقية ، واذ كان من خلق تانكريد التدين العميق والعمل على راحة ضميره فقد كره أن يربط نفسه بيمين الولاء لحاكم لا يحس نحوه بالحب الصادق ، فرد على الملك مدينة طبرية ، كما تنازل فى الوقت ذاته عن مدينة حيفا التى كان جود فروى الخالد الذكر قد أقطعه اياها عن طيب خاطر لقاء خدماته الجليلة ، فلما فرغ من ذلك استأذنه فى الرحيـل ، فرحل والجميع كارهون أشـد الكره لرحيله عنهم ، وشخص الى أرض أنطاكية استجابة لتكرر استدعاء وجوهها له ، ليحمل على عاتقه مسئولية الامارة ويشرف على أمورها حتى يعود الأمير بوهيموند ان أذن الله بخلاصه من أسره ، فان لم يقدر له الرجوع آل حكمها بحق الوراثة الى تانكريد الذى لم يكد يبلغ أنطاكية حتى بادر أهلها وكبار رجالاتها الى تسليمه ادارة المدينة كاملة ، وأطلقوا يده يفعل فيها ما يشاء .

***

أما الملك (بلدوين) فقد أقطـع طبرية ـ حـين ردها اليه تانكريد ـ الى رجل رفيع المكانة ، باسل فى الحرب هو « هيج دى سنت أومير » وجعلها وراثية فى عقبه ، وظلت المملكة تنعم بالسلام مدة أربعة أشهر .

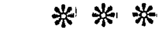
جمع الملك سرا فى خلال هذه الأيام ذاتها طائفة كبيرة من الجند ، واجتاز بهم الأردن ودخل أرض العرب ، وكان جمعه اياهم نزولا على اشارة أشار بها عليه رهط معين من الرجال كانت مهمتهم أن يتقصوا أخبار النواحى المجاورة ، وأن يتجسسوا على نقاط ضعف العدو ، وأوغل (الكونت) بمن جمعهم حتى أدى به التوغل أخيرا الى الصحراء التى اعتاد هؤلاء الناس العيش فيها ، وجاء الى موضع دلته عليه عيونه ، ففاجأهم بالاغارة عليهم متسربلا بظلام الليل ، وكان عدم توقع المارقين للهجوم عليهم دافعا اياهم للتراخى فى الحراسة اذ كانوا قد انكفأوا الى خيامهم طلبا للنوم ، فأمسك (بلدوين) بعضا من رجالهم وسبى جميع نسائهم ، واسترق أطفالهم، واستحوذ على كل ما ملكته أيديهم ، وحمل معه قدرا كبيرا من الغنائم ، من بينها عدد ضخم من الجمال والحمير ، غير أن الناس لما رأوا من مسافة بعيدة اقترابنا منهم ، اعتلى كثير من الرجال خيولهم الصافنات السريعة العدو ، وفروا الى أقصى بقاع الصحراء ايثارا للسلامة ، تاركين نساءهم وأولادهم وخيامهم وكل مايملكونه تحت رحمة عدوهم .

ثم تابع الصليبيون السير فى طريق العودة ، دافعين أمامهم ما غنموه من القطعان ، ساحبين وراءهم الأسرى ، وحدث أن كان بين السبى امرأة عظيمة القدر هى زوجة أحد كبار شيوخهم الأقوياء وقد أسرت فى الكارثة العامة ، ثم جاءها المخاض فى أثناء السير ووضعت مولودها بعد مقاساة آلام الولادة التى تصحب الوضع ، فلما أفضوا بخبرها الى الملك أمر فى الحال أن ينزلوها من فوق البعير الذى كانت تركبه ، وأن يعدوا لها فراشا مما غنموا ، وزودوها بالطعام وبراويتين من الجلد مملوءتين بالماء ، ثم خصص لها وصيفة

ـ كما أرادت ـ تقوم بخـــدمتها وتلبية حاجتها ، وناقتين تعيش على لبنهما ، ثم دثرها (الكونت) فى عباءته التى كانت عليه وخلفها حيث هى ، وتابع هو زحفه مع جيشه ٠

وفى هذا اليوم بالذات ـ أو لعله فى اليوم التالى ـ ظهر الشيخ العربى الكبير ، يتبعه رهط ضخم من رجال عشيرته ، يقص عن قرب ـ كماألوف عادة قومه ـ أثر الجيش الصليبى ، وكان الأسى قد بلغ منه غايته ، وغمه أشد الغم سبى زوجته الشريفة وأم أولاده وهى على وشك الوضع ، ولم يكن يعتبر كل ما خسره شيئا مذكورا اذا ماقيس بفقده اياها ، وظل يمشى ويمشى حتى وصل اليها فجأة فرآها مسجاة على الأرض ، فلما وقع بصره عليها أخذه العجب كل العجب من تلك الروح الانسانية العظيمة التى حاطها بها الملك ، وشرع يشيد بذكر اللاتين مثنيا على رحمة بلدوينالعظيمة الثناء المستطاب ٠ وأقسم ليكونن منذ هذه اللحظة الى آخر عمره وفيا له ما وسعه الوفاء ، وكان هذا عهدا أوفى به فى لحظة حرجة أشد الحرج ٠

فى الوقت الذى كانت تجرى ابانه هذه الأحداث فى الشرق سمع أمراء الغرب بالأمور الجليلة الرائعة التى أجراها الله على أيدى عباده الذين ذهبوا للحج ، وكيف أنه قاد جيشه الى أرض الميعاد عبر بلاد مترامية الأطراف ، وكيف نصـــرهم على الأهوال الجمة البالغة ، وهيأ لهؤلاء الحجاج أن يشاهدوا بأعينهم كيف أذل لهم الأمم وفتح عليهم البلاد ، فاغتبطت نفوس الذين ظلوا وراءهم فرحا بنصر اخوانهم ، وان تقطعت قلوبهم حسرة لأنهم لم يشاركوهم فى حملاتهم التى تكللت بالنصر والغلبة ، ومن ثم اجتمع بعضهم الى بعض ، واتفقوا على أن يشرعوا فى الخروج بحملة جديدة ٠



كان أعظم هؤلاء الحجاج مكانة ذلك الرجل المبجل « وليم كونت بواتو(٤) دوق أكويتية ، ومعه الرجل الذائع الصيت « هيج » العظيم كونت فير ماندوا أخو فيليب ملك الفرنجة ، والذى كان قد صحب الحملة الأولى ، ولكن اضطرته العسرة بعد الاستيلاء على أنطاكية للرجوع الى موطن آبائه • كماكان من بين هؤلاء أيضا « ستيفن » كونت « شارترز وبلوا »(٥) وهو اللبيب الفطن ، ولكنه كان قد جلب على نفسه العار المقيم وأزرى بشرفه حين كانت أنطاكية موشكة على السقوط ، فتخلى عن رفاقه وهجرهم خوفا من المعـــركة التى على الأبواب ، فلطخ هروبه المشين اسمه بعار أبدى ، ثم عن له أن يكفر عن زلته السالفة ، ويمحو ذكرى هذا الاثم الذى علق بالأذهان ، فجمع رهطا كريما من أتباعه واستعد للحج •

كذلك تأهب للقيام بنفس الرحلة « ستيفن البرجندى » الشريف المحتد الكريم الأرومة ، كما تأججت نفس هذه الرغبة فى صدور كثيرين غير هؤلاء من النبلاء المعـــروفين بثرائهم وطهارة حياتهم وكرم أصولهم ، وبراعتهم فى حمل السلاح ، فاستعدوا للسفر ، فلما كان اليوم المضروب للرحلة وقد خرج من القادة العظماء من

---

(٤) المعروف عن كونت بواتو هذا انه كان الى جانب ذلك رجلا اديبـا يقرض الشعر •

(٥) أشارت الترجمة الانجليزية (ج ٢ ص ٤٣١ حاشية رقم ٢٧) الى أن ستيفن كونت شارتر كان يواجه عاصفة شديدة منالاستهجان لمسلكه فى ترك الصليبيين ، بل ان زوجته طالما لامته لوما عنيفا على هذا المسلك وبينت له كم تكابد من الألم من كل النواحى ، وراحت تثير حميته حتى لان واستجاب وقاد هذه الحملة التى يشير اليها وليم الصورى فى المتن ، وقد أوردت الترجمة الانجليزية هذا التعليق بناء على ما ذكره المؤرخ النرمندى « أوردريك فيتال » •

يجاوزون هؤلاء مكانة أزمع هؤلاء النبلاء مشاركتهم بالعسكر الذين معهم ٠

ومن ثم أعدوا كل ما يحتاجون اليه فى سفرهم ، واستدعوا اخوانهم وخرجوا للحج فى الساعة واليوم اللذين اتفقوا عليهما ، سالكين نفس طريق الحملة الأولى ، وان لم يماثلوهم فى حماستهم ، وتلقاهم فى القسطنطينية الامبراطور « الكسيوس كومنين » لقاء طيبا ، ورأوا فى بلاطه كونت تولوز الذى جاء فى الحملة الأولى بأعمال برهنت على كفاءته العظيمة كقائد ، وكان الكونت كما قلنا قد خلف زوجته ومعظم أهل بيته فى اللاذقية ، أما هو فقد مضى الى الامبراطور ملتمسا معونته ليتمكن من العودة الى الشام وليفتح مدينة أو أكثر من مدنها ، لأنه كان منذ خروجه للحج قد أجمع العزم على أن يقضى هنا ما تبقى من عمره ، وألا تكون له رجعة قط الى وطنه ٠

وصفقت الفرحة فى صـــدور هؤلاء الرجال اذ قابلوا رجلا حكيما ونشيطا كهذا الرجل ، ثم جاءوا الى الامبراطور يستأذنونه فى الرحيل ، فســخى عليهم بالهدايا الغالية ، وخرجوا مجتازين البســفور ومسترشدين بالكونت ريموند سان جيل ، ووصــلوا بمن معهم من العسكر الى نيقية فى اقليم « بيثينيا » سالكين نفس الطريق الذى سلكه من سبقوهم ٠

ـ ١٣ ـ

لقد عامل الامبراطور الحجاج ـ كما قلنا ـ أطيب معاملة حينما كانوا عنده ، لكنه نهج نهج الاغريق المألوف ، فأكل الحسد قلبه من نجاح الصليبيين ، وعزم على انزال المضرة بهم ، ومن ثم والى

بعث الرسل الى الترك يحثهم للعمل على ما فيه القضاء على الحجاج، ودأب على مكاتبتهم واخبارهم شفاها بواسطة رسله بقرب وصول الحجاج ، وينبههم مقدما الى أن سلامة أنفسهم تحتم عليهم الا يدعو هذا الحشد الكبير يمر بسلام ، وهكذا كان كالعقرب التى ان ووجهت لم تلدغ ، ولكن السم كل السم فى حمتها التى ينبغى استئصالها ، ولذلك فقد فشى خبر وصول هذه الحملة بواسطة الكسيوس ومبعوثيه ، واستطاع الترك أن يجمعوا الجنود والمرتزقة من كافة أنحاء المشرق متوسلين لتحقيق ذلك بالرجاء والمال ٠

ثم شاءت الظروف — ان عمدا أو صدفة — أن يتفرق الصليبيون بعضهم عن بعض ، وسارت كل طائفة منهم فى طريق غير الطريق الذى سلكته الأخرى ، ذلك لأنهم كانوا أشبه بذرات الرمل لا ترابط بينها ، هذا بالاضافة الى أنه كان ينقصهم التنظيم الحربى الذى التزمه الجيش الأول ، ومن ثم سرت روح قوية من الكراهية نحوهم، فحق عليهم أن يقعوا فى يد العدو الذى أفنى منهم بالسيف أكثر من خمسين ألف نسمة ما بين ذكر وأنثى ٠

أما الذين قيضت لهم العناية الالهية النجاة من قبضة العدو فقد فقدوا كل متاعهم وجهازهم ، وهاموا على وجوههم يلتمسون النجاة عراة حفاة صفر الأيدى من كل شىء ، حتى انتهى بهم الفرار أخيرا الى قيليقية التى بلغوها بطريق الصدفة وليس عن خطة رسموها لأنفسهم ، فلما صاروا فى طرسوس عاصمة تلك الولاية فقدوا هيج العظيم فقد وافاه الموت الذى لامناص له منه ، فدفنوه فى احتفال كبير فى كنيسة معلم « الأمم » العظيم الذى مات فى مهبط رأسه ٠

وبعد أن استجم الحجاج بضعة أيام ناعمين بشهى المأكل تابعوا سيرهم حتى بلغوا امارة أنطاكية التى كان تصريف شئونها بيد تانكريد ، فاستقبلهم كعادته استقبالا حارا ، وخص كونت بواتو

بأعظم جانب من الرعاية ، لأنه كان أسمى الجميع مكانة ، كما أنه انفرد عن كل من معه بما ابتلى به فى تلك الحملة المنكوبة بفقد كل ما كان يملكه ٠

واذ كان الشوق يلح على الحجاج لرؤية الأماكن الطاهرة — فقد أغذوا السير الى بيت المقدس — التى نازعتهم نفوسهم اليها لهفة وحنينا ، فركب البحر منهم من أعوزتهم الجياد ، وأما غيرهم ممن لم يزل عندهم ظهر يركبونه فقد شقوا طريقهم برا ، والتقى هؤلاء وهؤلاء فى انطرسوس : تلك المدينة الساحلية التى تعرف عادة باسم « طرطوس » ، فأغاروا عليها استجابة لنصيحة ريموند كونت تولوز لاسيما وقد بدا لهم أن ليس من اليسير استيلاؤهم عليها ، فأعانهم الله اذ مكنهم من امتلاكها عنوة فى أيام قلائل معدودات ، وراح أهلها ما بين هالك بحد السيف وأسير فرض عليه الرق الأبدى ، فلما فرغوا من ذلك كله أسلموا المدينة الى الكونت ، ثم تقاسموا الغنائم فيما بينهم وفق ما يقضى به قانون الحرب حتى اذا انتهوا من ذلك تابعوا السير نحو هدفهم ، على حين بقى الكونت فى المدينة لحمايتها ، فتخلف على غير رغبة من البقية الذين كانوا يلحون عليه أن يسير معهم ٠

— ١٤ —

بينما كان جيش الحجاج — وقد طالعه سوء الطالع — يجهد نفسه فى شق طريقه عبر بقاع آسيا الصغرى كما وصفنا من قبل كان ملك بيت المقدس — الذى يكره البقاء بلا عمل يشغله ويعد ذلك مضيعة للوقت — أقول كان منصرفا لبذل شتى الوسائل لمد حدود المملكة الضيقة ٠ وحدث أن وصل الى ميناء يافا — مع مستهل

الربيع(٦) ــ أسطول الجنوية ، فتبارى الملك والأهالى فى الاحتفاء بهم ، ولما كان عيد الفصح على وشك الحلول فقد سحبوا سفنهم الى اليابسة ، ومضوا مصعدين الى بيت المقدس للاحتفال بالعيد الذى ما كاد الملك يفرغ من احيائه على مألوف السنة حتى بعث من لدنه رجالا عقلاء محملين بالهدايا المغرية الى قادة الأسطول وكبار وجوه العسكر ، وعهد اليهم بمفاوضتهم ليعلموا منهم علم اليقين عما اذا كان فى نيتهم الرجوع ، أم أنهم مستعدون ــ اذا عوضوا تعويضا سخيا ــ على بذل أنفسهم فترة من الوقت لخدمة الله بمد حدود المملكة » .

فلما تشاور الجنوية فيما بينهم أجابوا أنهم اذا تهيأت لهم الاقامة فى المملكة وفق شروط كريمة فسيكون هدفهم ــ وكان هذا فى الواقع منذ البداية ــ الانصراف ردحا من الزمن لخدمة الرب بتوسيع رقعة المملكة .

ومن ثم عقدت اتفاقية قبلها الطرفان مقسمين على الوفاء بها ، مفادها أنهم طالما يريدون البقاء فى المملكة بأسطولهم فلهم الثلث من كل مدينة أو قلعة أو موضع من المواضع الحصينة مما فى يد العدو ، ومما يكونون هم قد ساعدوا فى الاستيلاء عليه ، لا يعارضهم فى ذلك معارض .

كذلك يحصلون على ثلث الأسرى الأعداء من غير مشاققة ، ويكون لهم ثلث أموال العدو يقسمونها بين رفاقهم . أما الثلثان الباقيان من كل شىء فيكونان من نصيب الملك . وزيادة على ذلك فقد نص الاتفاق على أن يخصص حسب المعاهدة للجنوية شارع معين فى كل مدينة تنتزع من يد الخصم .

---

(٦) وكان ذلك فى منتصف ابريل ١١٠١ .

حينذاك انتعشت الآمال فى صدر الملك ، فقام اعتمادا على المعونة الالهية وجمع كثيرا من الفرسان والمشاة من المدن الخاضعة له ، وفرض الحصار برا وبحرا على مدينة « أرسوف » الساحلية المعروفة أيضا باسم « انتيباتريس » نسبة الى « انتيباتر » والد « هيرود » ٠

وتقع أرسوف وسط مناطق شديدة الخصب ، الى جانب ماتجود به عليها الغابات والمراعى ، وكان الدوق « جود فروى» العاطر الذكر قد عاث فسادا فى أرجاء هذه المدينة فى السنة الغابرة ، لكنه عجز عن حصارها بحرا لقلة ما لديه من السفن ، فلما أدرك استحالة النجاح عاد الى قواعده ، دون أن يحقق غرضه ٠

* * *

نشر بلدوين فى الحال قواته حول المكان على شكل دائرة أحاطت به من كل ناحية ، ثم أمر بتشييد برج متحرك من الكتل الخشبية الضخمة ، فلما فرغوا منه أسنده الفعلة الى الأسوار بعناية فائقة ، لكن قوة السلم لم تكن كافية لاحتمال ثقل ذلك العدد الكبير من الناس الذين اعتلوه ، فهوى الى الأرض حطاما ، وأصيب فى هذا الحادث حوالى مائة من رجالنا كانت اصاباتهم خطيرة ٠

كلذك وقعت طائفة من رجالنا فى يد العدو ، فصلبهم أمام أعين رفاقهم ورفعهم على الشانق ، فأسخط هذا المشهد قلوب الصليبيين وأترعها بالغيظ الشديد واستورى غضبهم ، فكروا على الخصم كرة ضاربة ، وضيقوا عليه الخناق ، وحاصروه هو وأهل المدينة حصارا بليغا حتى بدا العدو وأهل البلد وكأنما قد فقدوا كل قدرة عندهم فى الدفاع حتى عن أنفسهم ٠

وأسند الصليبيون سلالمهم الى الأسوار ، وكانوا على أهبة الاستيلاء على الأبراج والحصون حين قام أهل البلد ــ وقد يئسوا

من كل شيء حتى من الحياة ذاتها ـ وبعثوا من جهتهم وسطاء الى الملك ، حصلوا منه على اذن يخول لهم ـ ان هم أسلموه البلد ـ أن يخرجوا بنسائهم وأولادهم ، على أن يخلفوا وراءهم كل أمتعهم ، وان ذاك تكون لهم السلامة والعافية ، ويزودون بعهد أمان حتى يبلغوا عسقلان ، ولما تم الاستيلاء على القلعة أقام بها الجيش حامية لحراستها ولم يتريث فى الزحف على قيسارية لمحاصرتها ٠

ـ ١٥ ـ

وتقع قيسارية على ساحل البحر ، وكانت تعرف فى العصور السالفة ببرج « ستراتون » ، وتقول كتب التاريخ القديمة ان هيرود الكبير زاد فى رقعتها، وجملها بالمبانى الضخمة ، وسماها «بقيصرية» تشرفا بالامبراطور أوجستوس (قيصر) ، ثم جاء الامبراطورالرومانى فأمر بأن تكون عاصمة فلسطين الثانية ، وتمتاز المدينة بخصائص عظيمة ، منها كثرة القنوات التى تشقها ، وبساتينها المروية أحسن رى ، كما أن لها ميناء ، ونقرأ فيما نقرأ أن هيرود هذا لم يقصر فى بذل المال الكثير والجهد الضخم ليبنى ثغرا هناك يكون مرسى آمنا للسفن ، لكنه لم يفلح فيما حاوله ٠

* * *

ثم زحف الملك بجيشه من هناك وتبعه الأسطول ، مبقيا مسافة لا يتجاوزها من فى البحر ومن على اليابسة ، فلما بلغوا غايتهم حاصروا المدينة ونصبوا آلات الرمى فى أماكن استراتيجية ، وحملوا على المكان حملة صدق ، فاستولى الذعر على قلوب الأهالى من جراء المناوشات الجمة التى جرت حول الأبواب ، كما أن الصخور التى راحت الآلات تقذفها بلا انقطاع أوهنت من مقاومة

الأسوار والأبراج ، وهدمت البيوت حتى لم يستطع المحصورون أن يصيبوا دقيقة واحدة من الراحة ٠

وقد فرغ الصليبيون فى هذه الأثناء من تجهيز آلة ذات ارتفاع عجيب يجعلها فوق جميع الأبراج ، وقد ساعدتهم هذه الآلة على مهاجمة المدينة من غير عناء يلقونه أو ضيق ينزل بهم ، واستمر هذا القتال موصولا مدة قاربت خمسة عشر يوما بين الأهالى وبين جيشنا الذى هاجمهم بكل ما فى طاقته من قوة ، ولكنهم قاوموه مقاومة لم تكن أقل من مقاومتهم اياه ، واستحر القتل فى الجانبين دون انقطاع ، فأدرك الصليبيون بعده أن أهل البلد ليسـوا أهلا لهذه الجهود الشاقة لاعتيادهم الفراغ واستنامتهم الى الاسترخاء أزمنة طويلة لان معها عودهم ، وتراخت عزائمهم ، كما أنه لم يكن لهم تمرس بفنون الحرب ، ولوحظ عليهم – يوما بعد يوم – ضعف بأسهم عن الصمود بسبب ضجرهم من وطأة القتال ، ومن ثم نبذ رجالنا كل تراخ ، وراحوا يشجعون بعضهم بعضا ، ورفضوا أن ينتظروا حتى يتم نصب الآلة التى يصنعونها ، وتكاتفوا فشنوا هجمة أودعوها غضبا لم يعهد من قبل ، فلما شاهد هذا المنظر المحصورون الموجودون داخل أسوارهم استبد بهم الجزع ويئسوا من كل شىء حتى من الحياة ذاتها ، فلم يعودوا يحاولون حماية أسوارهم ، أو يهتمون فتيلا بوسائل دفاعهم ، فلما لاحظ الصليبيون هذه الحالة أسندوا سلالمهم الى الأسوار ، وبادروا الى اعتلاء الحصـون ، وسرعان ما استولوا على الأبراج والقلاع ، وأدت جهود الآخرين الحماسية الى رفع المزاليج من الأبواب وفتحوها على مصاريعها ، فانهارت المدينة ودخلها الملك بجنوده عنوة ٠

حينذاك أخذ الجند المدجج بالسلاح يعيثون فى أرجاء المدينة لا يعرض لهم أحد بردع أو دفع ، واقتحموا الدور التى لم تجد

الأهالى نفعا فيما ظنوه من أنهم واجدون الحماية داخلها ، ففتك العسكر بكبار رجال الأسر ، ونهبوا شتى الأدوات المنزلية ، وامتدت أيديهم فسلبت كل ما رغبوا فيه حتى المساكن ذاتها ، وحكموا السيف فى الأهل والحشم ، واستولوا على الحجرات الخاصة ، ولسنا فى حاجة للحديث عن مصير من قضى القدر بوضعهم فى طريق قواتنا فى الأماكن التى راحوا يختفون فيها فى الشوارع الجانبية ، فكان نصيبهم الموت الذى لم يستطيعوا دفعه ٠

أما الذين قدرت لهم النجاة فقد قتلوا أنفسهم بأيديهم ، اذ ابتلعوا القطع الذهبية والجواهر الغالية ، مما حرك جشع الصليبيين الى درجة أنهم راحوا يبقرون بطون هؤلاء بحثا عما يكونون قد خبأوه من المال فى أمعائهم ٠

— ١٦ —

وكان يوجد فى موضع مرتفع بأحد أقسام المدينة بيعة كبيرة ، تقول الأخبار انها شيدت على أنقاض معبد كان بديع الصنع ، بناه هيرود تعظيما لأوجستوس قيصر ، ففر اليها السكان مؤملين أن يجدوا السلامة والأمان بين جدرانها ، اذ هى موضع عبادة ، لكن الصليبيين شقوا طريقهم قسرا الى هذه البيعة ، وفتكوا فتكا ذريعا باللائذين بها ، فسفكوا دماءهم التى صارت بحرا أخذت تخوضه أقدام المخربين ، وكان منظر الجثث الجمة المبعثرة هنا وهناك منظرا يبعث الفزع فى النفوس ٠

وكان مما عثروا عليه فى هذه البيعة ذاتهـــا وعاء ذو لون أخضر براق على شكل مزهرية ، عرفه الجنوية أنه مصنوع من الزمرد فأخذوه عوضا عن مال كثير كان لهم ، فحصلوا بذلك على

تحفة رائعة يحلون بها كنيستهم ، ولازالوا حتى اليوم يعرضون هذه المزهرية كأعجوبة على كل رفيع المقام ، سامى المكانة يمر بمدينتهم ، مؤكدين له أنها مصنوعة من الزمرد الخالص كما يدل على ذلك لونها .

والواقع أنهم قتلوا كل شباب المدينة أنى ثقفوهم ، ولم يستثنوا من القتل سوى صغار الصبية والبنات ، وهنا تم ما جاء فى كلام الانبياء(٧) : وسلم للسبى عزه ، وجلاله ليد العدو » .

ولما آن للسيف أن يستكن فى غمده ، وتم هلاك الأهالى ، جمع القوم شتى الغنائم فى صعيد واحد ، ونحوا الثلث جانبا جاعليه للجنوية حسبما تم الاتفاق عليه ، وأما الثلثان المتبقيان فكانا من نصيب الملك ورجاله .

ولما كان القليل مما بيد قومنا قد نفد أثناء الطريق فقد أملقوا غاية الاملاق ، وافتقروا أشد الفقر ، أما اليوم ، وقد أصابوا الكثير من الأسلاب والغنائم فقد أترفوا غاية الاتراف بسبب كثرة ما نهبوه .

ثم جلس الملك فى مجلس الحكم وجىء أمامه بكل من والى المدينة الذى يلقبونه فى لغتهم بالأمير ، وبالقاضى الذى يناط اليه أمور العدالة ، فمن الملك عليهما بالحياة طمعا فيما يصيبه من فدية ضخمة يفتديان بها ، لكنه أمر بتكبيلهما بالسلاسل وفرض حراسة شديدة عليهما .

وبينما كان الملك مشغولا بماهو فيه جدت أمور استدعته للخروج، فاضطروا لاختيار رجل اسـمه بلدوين ـ كـ ناقد جاء مع حملة

---

(٧) مزامير ٧٨ : ٦١ .

جودفروى ـ ليكون رئيسا لأساقفة المدينة (قيسارية) فبادر الملك مع رهط آخرين الى الرملة بعد أن ترك نفرا من الجند لحراسة البلد ٠

ـ ١٧ ـ

وتقع مدينة الرملة فى سهل قريب من اللد التى هى « ديوسبوليس » ، ولم أتمكن من معرفة ماذا كانت تسمى هذه المدينة قديما ، ولكن الرأى الشائع هو أن المكان حديث النشأة ولم يكن موجودا فى العصور الأولى ، وتقول الأخبار القديمة انها أسست على يد الأمراء العرب الذين جاءوا بعد (النبى)(٨) محمد (صلعم) وكانت عند أول قدوم الجيش الصليبى الى بلاد الشام مدينة آهلة بالسكان ، يكتنفها سور وأبراج ، وقد توافد الناس اليها فى جموع زاخرة فاستقروا بها ، ولكن لم يكن لها وسائل دفاع خارجية أو خندق ، فلما انصب عساكر الصليبيين الى تلك الناحية غادرها سكانها وفروا عنها الى عسقلان التى كانت تفوقها تحصينا ٠

وهكذا وجد الصليبيون المدينة قد هجرها أهلوها كما قلنا ، فكان من الصعب احتلالها كلها مادام سكانها بهذه القلة الشديدة ، ومن ثم اكتفوا باقامة حصن ذى أسوار ، وبحفر خندق فى جانب منها ٠

وراجت فى ذلك الوقت شائعة لم تكن بعيدة عن الواقع ، تلك هى أن خليفة مصر كان قد أرسل واحدا من كبار قواد جيشه على

---

(٨) استعمل وليم كلمة آثرنا احلال ما بين الاقواس مكانها ٠

راس مجموعة من العسكر الى ناحية عسقلان ، آمرا اياه كعادته ـ أن يتقدم من غير ابطاء لقتال هذا الشعب[٩] الفقير المتسول الذى اجترأ فدخل أملاكه وعكر صفو هدوئها ، وكان على هذا القائد أحد أمرين : اما أن يستأصل هؤلاء القوم استئصالا تاما ويقضى عليهم القضاء المبرم بحد السيف ، واما أن يعود بهم الى مصر مصفدين فى الاغلال ، ويقال انه كان فى جيشه أحد عشر ألفا من الفرسان ، وعشرون ألفا من العسكر المشاة ·

كانت هذه الشائعة هى التى أجبرت الملك (بلدوين) على مغادرة قيسرية على جناح السرعة مخافة أن يعتمد هذا الجيش على كثرة عدده ، فيحاول غزو مملكة بيت المقدس ، مما لابد أن يؤول الى أسوأ الأخطار على صالحها ·

وأقام بلدوين فى الرملة ردحا من الوقت قارب الشهر عاد بعده الى يافا ، اذ لم يبد أثر للعدو ، فلما كان الشهر الثالث لم تستطع القوات المصرية أن تتراخى أكثر من هذا فى تنفيذ أمر مولاها ، والواقع أنهم خافوا أن يكون (الخليفة) قد غضب لابطائهم هذا الابطاء الطويل فى تنفيذ الأمر الذى خرجوا لتنفيذه ، فتشـــجعوا واستعدوا بقواتهم ، وعبأوا صفوفهم للقتال ، وأغاروا غارة خاطفة على أرضنا مهاجمين لها ·

فلما علم الملك بلدوين بما فعلوا أمر باستدعاء قواته ، وكانت بالغة القلة ، لأن صغر مساحة ما تحت يده من البلاد وقف عقبة فى طريق تكوين جيش كبير العدد ، لكن ذلك لم يمنعه من أن يحشد حول اللد والرملة أكبر جند أمكنه جمعهم ، فبلغوا مائتين وستين فارسا وتسعمائة من العسكر المشاة ·

---

(٩) يعنى بذلك الشعب الصليبى الوافد من أوربا ·

ولما اتضح أن العدو آخذ فى الاقتراب أمر الملك بتقسيم قواته الى ست فرق خرج بها لمقابلة الأعداء، وجعل أمامهم راهبا تقيا حاملا فى يده بوقار صـــليب المســـيح ، ولما أتم الصـــليبيون ترتيب صفوفهم على هذه الصورة نظروا الى صـــفوف المارقين ورفعوا وجوههم الى السماء يرجونها العون ليحرزوا النصر ، ثم اندفعوا فى هجمة نكراء لم ترهبهم كثرة خصـــومهم ، وراحوا يقاتلونهم بشدة معملين فيهم سيوفهم ، احساسا منهم بأنهم يقاتلون من أجل الحياة ذاتها ٠

وقاومهم المصريون بكل ما لديهم من طاقة باذلين الجهد كى ينتهى هجوم خصومهم بالفشل ، لأنهم كانوا على يقين تام من أنهم ان لم يعودوا منتصرين حاق الخطر بنسائهم وأولادهم وما ملكت أيديهم مما تركوه بمصر ٠

وحدث أن التحمت مقدمة جيش الأعداء بفريق من جنودنا ، واذ كانت هذه المقدمة أكثر عددا منا فانها سرعان ما بثت الفوضى فى صفوفنا فأجبرتنا على الفرار ، ثم راحت تتعقبنا تعقبا شديدا ، وأوشكت على القضاء على رجالنا واستئصال شأفتنا ٠

أما بقية كتائبنا فقد قاومت أشد المقاومة كما استبد بها الغضب الجارف ، فضـــيقت الخناق على العدو وأعملت فيه مذبحة فظيعة يعجز اللسان عن وصفها ، أما الملك العظيم الشأن فقد أخذ يشجع بالكلمة تارة وبالفعل تارة أخرى هذه الكتيبة مرة وتلك الكتيبة مرة أخرى ، فاذا رأى احداها قد ضاق عليها الخناق وأنها موشكة على الانسحاب أمدها بما تحتاجه ممن معه فتسترد بأسها ٠

وانقضى وقت طويل لم تتضح فيه نتيجة المعركة ، ثم واتت

السماء الصليبيين النصر التام فدارت الدائرة على العدو وهلك قائدهم اذ اخترطه السيف فمات وقد استبسل استبسالا رائعا ٠

وتمزقت صفوف العدو ، واندحرت كتائب من كتائبه حتى آخر رجل الا من فر منهم الى النواحى القاصية ، فلما رآى الملك ذلك نهى أن تمتد يد أحد من رجاله الى الغنائم والا كان الموت نصيبه ، ثم زاد فأمرهم باقتفاء العدو فى هروبه ، والا يضعوا السيف وحذرهم أن تأخذهم رحمة أو شفقة بأحد منهم ، بل يقتلونهم أنى ثقفوهم ، وضرب لهم المثل بنفسه اذ راح يطارد بعض فلول فرسانهم ومشاتهم الخفاف حتى بلغ عسقلان على بعد ثمانية أميال ، ولم يوقفه عن الذبح المروع الا دخول الليل ، واذ ذاك نفخ الملك فى البوق مستدعيا رجاله ، فعادوا الى ساحة المعركة حيث أخذ يوزع الغنائم عليهم تبعا لقانون الحرب ، وقضى ليلته هذه فى الساحة منصورا ٠

وتقول الرواية أن قرابة خمسة آلاف من رجال العدو ذبحوا ذبح الشياه فى ذلك الموضع ، ولما أحصى رجالنا كان المفقودون منهم سبعين فارسا ، وأكثر منهم من الجند المشاة ، على أن الخسارة الحقيقية لم تعرف ٠

— ١٨ —

أما القوات المصرية التى كانت قد أبادت الصيلبيين فى معركة الأمس فقد أوغلت فى مطاردة الهاربين حتى بلغت مدينة يافا ، ووقفت أمامها معلنة الى الأهالى فى صوت جهورى أن قد هلك الملك وكذلك الجيش الصليبى فى ساحة القتال ، وتأكيدا على صدق ما قالوا فقد أبرزوا لهم مايعرفونه من أسلحة اخوانهم وأتباعهم ، وكانت الملكة هى الأخرى فى المدينة فلما شاهدت مع الأهالى ذلك كله لم يخامرها شك فى صدق ماسمعته وسمعوه ، فانخرطوا جميعا فى البكاء ٠

وبعد أن تشاوروا مع كبارهم وأهل الخبرة وبعد النظر انتهوا الى أنه لا مناص لهم من سلوك طريق واحد : ألا وهو ارسال كتاب الى تانكريد أمير أنطاكية يستصرخونه أن يهب سريعا لنجدة المملكة فى محنتها بعد أن لم يعد لها كبير يدبر أمورها ، وأخبروه أنه أصبح الآن ــ بعد الله ــ أمل الشعب المؤمن ·

فى هذه الأثناء كان الملك قد أمضى الليلة فى ساحة القتال ، لكن ما كاد النهار ينبلج حتى أيقظ قواته المنتصرة وهبوا قاصدين يافا ، وبينما هم فى طريقهم اذا بهم يقابلون المارقين الذين بثت قصتهم الكيدية الخوف والفزع فى قلوب أهل يافا ، فلما طالعت هذه القوات الصليبيين ظنتها فى بادىء الأمر اخوانهم اعتقادا منهم بهلاك جيشنا عن آخره فى يومه الغابر ، ومن ثم تقدموا وكلهم ثقة وقد أوشكوا على الانضمام الى قواتنا ، وحينذاك صاح الملك فى أتباعه مشجعا اياهم على مهاجمتهم ، جاعلا من نفسه القدوة لهم ، فتبعه نفر من فرسانه بأسرع مايمكن ، واستبسلوا فى قتالهم حفاظا على حياتهم ، وهجموا على خصوم ملتهم ، وكان قتال اليأس فى الأحياء المجاورة أستعملت فيه السيوف ، وأحيط بالعدو احاطة سدت عليه مسالك النجاة ، فهلك الكثيرون من رجاله ، أما البقية الذين أفزعهم الخوف من الموت فقد ولوا الأدبار ، فشكر الصليبيون الرب ثم تابعوا زحفهم نحو يافا ونفوسهم تفيض بالفرحة ، وامتلأت أيديهم بغنائم العدو وأســـــلابه ·

فى هذه الأثناء كانت قلوب أهل يافا قد استبد بها الجزع الكبير من أخبار الكارثة ، فلما طالعوا الجيش العائد كانوا كمن استيقظ من سبات عميق ، فهبوا الى الأبواب يفتحونها لهم ، وعيونهم مغرورقة بدموع الفرح ، واندفعوا نحوهم مرحبين بهم ، وأفضوا اليهم بالنبأ الأليم الذى سمعوه ، ومدى الحزن العميق الذى استولى

عليهم ، ثم دخل الجميع المدينة ، وأمضوا يومهم فى احتفال ومسرة ، وراح كل منهم يقص على صاحبه خبر الرحمة العجيبة التى منحهم اياها السيد ٠

ولما علم الملك أن الملكة ومستشاريها قد دفعهم خوف اليائسين لكاتبة تانكريد بعث اليه فى لحظته رسولا على جناح السرعة محملا بالكتب التى تعلن اليه ما أحرزه من النجاح الباهر ، وكان الأمير الجليل (تانكريد) شديد الحزن لما سمعه من خبر النكبة التى ألمت بالملكة وهو على وشك الخروج ، لكن نبأ انتصار الملك أثلج صدره فراح يشكر الخالق شكرا جزيلا ٠

ـ ١٩ ـ

فى هذه الأثناء وصل الى أنطاكية النبلاء الذين كانوا قد فقدوا جزءا كبيرا من عسكرهم فى أراضى آسيا الصغرى من جراء النكبة التى ألمت بهم والتى أشرنا اليها من قبل ، ولما أخذوا فى السير سلبوا من العدو مدينة « طرطوس » وأسلموها الى كونت تولوز ، ثم أغذوا الزحف الى القدس ، واذ خاف الملك أن يعوقهم عائق عند نهر الكلب فقد نهض بقواته لمقابلتهم ، فاستولى بادى ذى بدء على الممر ، ولم يكن العمل الذى قام به من أجلهم بسيطا لما ينطوى عليه الاستيلاء على أربع مدن عظيمة معادية مزدحمة بالسكان من صعوبة بالغة ، وهذه المدن هى عكا وصور وصيدا وبيروت ، وكان لابد له من المرور بها قبل وصوله الى غايته ٠

فلما تغلب الملك وأصحابه على مصاعب الممر وجد هناك الرجال الفضلاء المذكورين من قبل ، وهم وليم كونت بواتو ، ودوق أكويتين ، وستيفن كونت بلوا ، وستيفن كونت برجندى ، وجود فروى كونت

فندوم ، وهيج اللوزينيـــانى أخو ريموند كونت تولوز ، وكثيرون غيرهم من علية القوم الذين كانوا جميعا فى غبطة لأمرين ، أما أولهما فلأنهم وجدوا الممر ـ الذى ظلوا يخشونه ـ غير ذى موضوع ، وأما ثانيهما فلوجود الملك هناك ، حيث هب للقائهم فتعانقوا وراحوا يتبادلون فيما بينهم التهانى الصـــادقة وقبلات السـلام ، وأثلج صدورهم ماجرى بينهم من الأحاديث العذبة ، حتى كان يخيل لرائيهم أن قد طمست من أذهانهم كل صور المشاق التى قاسوها والخسائر التى تكبدوها ، والحق أنهم ظهروا وكأنهم لم يصادفوا طوال طريقهم أى ضرر ، وحباهم الملك بكل ضروب الرحمة التى تمليها شرائع الانسانية والمحبة ، ثم قفل بهم الى بيت المقدس .

ولما كان يوم عيد الفصح قد حل فقد أمضوا هذا اليوم بالمدينة المقدسة واحتفوا فيها به ، ثم انطلقوا الى يافا قاصدين الرجوع الى ديارهم ، ولما كان كونت بواتو قد نضبت موارده تماما ونفد كل ما معه فانه استقل احدى السفن وأبحر بها ، فكانت رحلة موفقة أبلغته وطنه ، أما ستيفن كونت بلوا وسميه كونت برجندى اللذان أبحرا أيضا من ذلك الميناء فقد صادفا مشقة بالغة فى البحر استمرت بضعة أيام ، وأرغمتهما الريح المعاكسة على العودة الى يافا .

ـ ٢٠ ـ

كان جميع أولئك الحجاج الذين تكلمنا عنهم لايزالون مقيمين فى الشرق حين انضم أهل عسقلان بعساكرهم الى المصريين الذين نجوا من المعركة التى وصفناها من قبل ، وراحوا يهاجمون معا أملاكنا فى ناحية اللد ، وسورونا ، والرملة ، ويقال ان مقاتليهم كانوا يناهزون العشرين ألفا ، فلما وصل هذا النبأ الى الملك نسى حذره المعتاد ولم يتريث حتى تتجمع باقى القوات القادمة من المدن المجاورة ،

كما أنه لم يستدع النبلاء الذين كانوا معه فى المدينة ، ولكنه اعتمد على قوته الذاتية وحدها ، وركب جواده ، واندفع متهورا عجلا غير مستصحب معه الا ما يقرب من مائتى فارس ، ولقد أحس وجوه المدينة أن العار لابد لاحقهم ان ظلوا — فى هذا الظرف الطارىء الذى هم فيه — مقيمين بلا حركة دون أن يشاطروا اخوانهم مايقومون به ، ومن ثم حصلوا على الجياد من أصدقائهم وأقاربهم ، وتبعوا مولاهم الملك ٠

على أن بلدوين (الملك) سبق الآخرين وخرج مسرعا دون أن أن يأخذ للأمر أهبته ، لكنه حين أبصر كتائب العدو تعجب من كثرتها وبدأ يأسى ويندم على تعجله فى الخروج ، وأدرك فى لحظته صحة المثل القائل « فى العجلة الندامة » ودقة انطباقه عليه ، وندم أشد الندم لاندفاعه الطائش ، ولكنه كان قد أصبح أدنى مايكون الى خصمه وبصورة لا تسمح له بالارتداد خوف العار أو خشية الموت ٠

غير أن الألباء من أهل الخبرة الطويلة فى استعمال السلاح ممن كانوا فى صفوف العدو لاحظوا أن القوات الصليبية كانت تتقدم على غير عادتها وتسير بلا مراعاة للأصول الحربية ، فلم يكن فيها ماجرت العادة به من وجود المشاة والخيالة ، فبث هذا المنظر فى قلوب الأعداء أملا كبيرا فى النصر ، ومن ثم تجرؤوا فرتبوا كتائبهم للقتال ، وشنوا هجوما عاما على قوات الملك ، وكان الهجوم هذه المرة أشد عنفا مما كانت تجرى به عادتهم ، لأنهم رأوا أن الصليبيين من ناحيتهم قد تراخوا فى ترتيبهم الحربى المعتاد ، فاستولى الفزع الأكبر على عسكرنا من ضخامة أعداد العدو وهجمتهم العاتية ، فلم تطق قواتنا احتمال وطأة المعركة وتهافتت علي الفرار بعد أن فقدت رجالا كثيرين ٠

لكن الذين سقطوا فى هذه المعركة ســـقطوا بعد أن أحرزوا انتصارا مخضبا بالدم على عدوهم، لأنهمحاربوا بشجاعة حتى الرمق الأخير ، وبعد أن ذبحوا من ذبحوا فى معركة تشابكوا فيها بالأيدى ، والواقع أنهم اقتحموا صفوف العدو وفرقوا شمله ، وكانوا على وشك استئصال شأفته حين استعاد خصومهم شجاعتهم الضائعة ، وضموا شتات عسكرهم حين تدبروا قلة جمعنا وكثرة جندهم ، فراح بعضهم يهتف بالبعض مشجعا اياه ، وعاد القتال مرة ثانية بهجمة ضارية أشد الضراوة ألزمت الصـــليبيين الفرار فهربوا الى بلدة الرملة مؤملين أن يجدوا بها الأمن والسلامة ٠

أما ستيفن (كونت شارترز) وسميه ستيفن (كونت برجندى) فقد سقطا فى هذا الاشتباك مع غيرهم من النبلاء الذين لاتعى الذاكرة أسماءهم ، ولا ندرى عددهم ، ونحسب أن مما نهنأ عليه أن تكون خاتمة ستيفن كونت شارترز على هذه الصورة التى لقيها ، وهو الشخصية البارزة بين قومه لنسبه الكريم ومآثره الباهرة الجليلة ، ومن الواضح أن الرب عامله برحمته الواســـعة ، فمن عليه بهذه الخاتمة الكريمة وعاد الى سلوكه الذى شانه ذات مرة ولطخ بالعار اسمه حين هرب من المعسكر أمام أنطاكية ، ومادام قد استعاد طيب الأحدوثة عنه بهذه الخاتمة الباهرة فلا مجال أبدا لأن تظل خطيئته السالفة عالقة به ، واننا لنؤمن ايمانا حقا أن أولئك الذين سقطوا من المؤمنين وهم يحاربون الى جانب حملة الصليب من أجل تمجيد اسم المسيح حريون بأن نمحوا من سجلهم كل ما كانوا يعيرون به من نقيصة الاخلال بالواجب ، وأنهم لأهل أن تجب كل خطاياهم ، وتغفر كل ذنوبهم أيا كانت هذه الخطايا وتلك الذنوب ٠

حينما رأى الملك أنه قد أحيط به من كل جانب من قبل عسكر العدو انسحب هو ونفر معه الى القلعة تجنبا لخطر الموت الماثل أمامهم ولم يكن لهم من مكان يلجأون اليه سوى تلك القلعة ، ومع ذلك فانه لم يكن مطمئنا تمام الاطمئنان الى قوة دفاع المكان ، ولذلك ظل يقظان طول ليلته يرمضه الجزع على حياته والخوف على سلامته، لكن حدث أن ذلك الشيخ العربى النبيل — الذى أحسن الملك قبل قليل الى زوجته كما أشرنا(١٠) — غادر معسكر العدو تحت جنح الليل البهيم دون أن يصحبه أحد ووقف أمام القلعة ، وقد امتلأت نفسه بذكرى الرعاية الكريمة التى كان الملك قد أحاط بها زوجته ، وكره الشيخ أن يجحد الجميل فدنا من الحراس الواقفين على الأسوار وقال لهم بصوت أشبه بالهمس : « ان عندى رسالة يجب أن أبلغها للملك فى سرية تامة ، فامضوا بى الى حضرته فى الحال ، لأن الموضوع على جانب كبير من الأهمية » •

وحمل الحراس ما سمعوه الى الملك الذى أصغى لما يقولون ، ثم أمر باحضار الأمير أمامه ، فلما دخل كشف عن ذاته ، وأنه ذاكر للملك الفضل العظيم الذى أسبغه على امرأته من قبل ، وبين له أن للملك جميلا فى عنقه لا ينقضى الا بخدمة تشابهه ، ثم كشف له عن خطط العدو ، وألح عليه بوجوب مغادرة القلعة فى الحال ، لأن المارقين قد استعدوا لمحاصـــرة المكان عند اطلالة الفجر الأولى ، ورتبوا قتل جميع الأسرى الذين يأخذونهم ، ثم راح يغرى الملك بمصاحبته فى التو واللحظة ، وقطع على نفسه العهد أن يصحبه بنفسه بعون الله من غير عائق يعوقه الى موضع آمن لأنه يعرف هذا

---

(١٠) راجع ما سبق ص ٢١١ — ٢١٢ من هذا الجـــزء من الترجمـــة العربية •

الاقليم خير معرفة ، فرضـــخ بلدوين بعد لأى وقبل أن يفر مع هذا الشيخ ، مستصحبا معه عددا قليلا جدا من أتباعه ، مخافة أن تثير كثرتهم شكوك العدو ، وتسللوا فى صحبة هذا الشيخ الذى مضى بهم الى ناحية جبلية ، فتأكد عند الملك اذ ذاك طاعته الصـــادقة واخلاصه العظيم ، وراح يتحدث بها كلما سنحت له الفرصة ، ثم تركه الشيخ وعاد الى جيش العدو •

***

أما المارقون فقد شجعهم النصر القريب الذى احرزوه ، ومن ثم أحاطوا بالقلعة من كل جانب وكروا كرة ضارية على من اعتصم بها من الآبقين ، واستولوا على الموضع قسرا ، وفعلوا بالأسرى ما أرادوا ففتكوا ببعضهم ، وكبلوا البعض الآخر بالقيود ، فارضين عليهم رقا لا فكاك لهم منه أبدا •

ولم يكن فى تاريخ حوليات المملكة حتى هذه اللحظة مجزرة كهذه المجزرة المروعة ، هلك فيها رجال نبلاء شجعان كهؤلاء الرجال، فتضعضعت روح المملكة المعنوية ، وفارقت الجميع شـــجاعتهم ، وتفطرت قلوب العقلاء منهم ، وسقطوا فى هوة عميقة من اليأس حتى كادوا أن يغادروا المملكة لولا أن تداركتهم رحمة انصبت عليهم من فوقهم •

لايستطيع أحد فى الواقع أن ينكر قلة عدد أناسنا ، كما لم يقدر لمن جاءوا من الأقطار الواقعة فيما وراء البحر أن يصـــلوا كلهم سالمين الى الشرق خوفا من مدن العدو الساحلية الكثيرة المتناثرة على يمينهم ويسارهم ، فلقد ذكرنا أنه لم يكن فى أيدى الصليبيين من جميع المدن الساحلية ـ بدءا من لاذقية الشام وانتهاء بالمدن الواقعة على حدود مصر ـ سوى مدينتين فقط هما يافا وقيسرية وقد تملكوهما منذ أمد قريب ، مما ترتب عليه أنه ما كاد الحجاج

يفرغون من أداء حجهم حتى كروا على أعقابهم الى بلادهم ، بعد أن شاهدوا ما عليه أحوال المملكة من ضعف ويأس ، وكان رجوعهم دفعا لما قد يحيق بهم من نكبات كالتى حاقت بغيرهم •

ـ ٢٢ ـ

لقد روينا حالا كيف فر الملك (بلدوين الأول) الى التلال وقد فقد أصحابه ، ويرجع الفضل فى خلاصه مما هو فيه الى جواده السريع واسترشاده بالشـــريف العربى ، بعد أن ظل طول ليلته مستخفيا فى الأماكن الموحشة ، وكان ذهنه فى أثناء ذلك نهبا للفزع الطاغى ، فلما تبلج الصـــباح انطلق برفقة اثنين لقيهما بمحض الصدفة ، وسلك دروبا متعرجة وسط اقليم يغشاه العدو من كل ناحية ، فأوصله المسير سالما فى النهاية الى مدينة « أرسوف » ، ففرح ساكنوها المؤمنون بلقائه ، وبعد أن أكل حتى شبع ، وشرب حتى ارتوى ، عاد جم النشاط ، لأنه كاد أن يغمى عليه من شدة الجوع والظمأ المهلك قبل وصوله الى هذا المكان ، والحق أنه كان يخيل للمرء أن العناية الالهية هى التى هيأت له الظروف الخاصة التى أحاطت بقدومه ، لأن الجانب الأكبر من عسكر العدو كان قد رحل قبل مجيئه بساعة واحدة ، بعد أن ظل العدو يوما بأكمله يغير على البوابة ، ولو قدر لهم أن يصادفوا الملك وهو قريب من المدينة لكان من العسير عليه أن يفلت من أيديهم •

وحدث فى الوقت ذاته أن ترامت الى الخارج أخبار شتى حول مصير الملك ، ذلك أن النفر القليل الذين فروا من المعركة وهربوا الى بيت المقدس أعلنوا أن الملك كان من بين القتلى •

ولم يكد أسقف اللد يسمع بما جرى على الصليبيين ـ الذين أسروا فى قلعة الرملة ـ من قتل وأسر حتى غادر كنيسته هربا الى يافا ، ولما سئل عما وراءه من خبر الملك صرح أنه لا يعلم عنه شيئا

وأن أكد سوء مصـــير كل من لجأوا الى القلعة ، وأن الأمر الذى لا مشاحة فيه هو أنه شاهدهم بعينى رأسه وهم يذبحون ، ولم يتردد فى الاعتراف بأنه هرب سرا طلبا لسلامة روحه ٠

كان الحزن عاما ، فما كنت ترى ناحية من البلد جاءها الخبر الا وقد عمها الأسى ، وتعالى البكـاء فيهـــا ، وران اليأس على النفوس ، فما من أحد الا وقد فقد الأمل فى الحياة ، وتمنى لو أسرع الموت اليه حتى لا يرى نكبة قومه ، ويشهد خراب المملكة ، لكن فى هذه الأزمة الطاحنة وقد استسلمت المملكة للحزن والنحيب ، اذا بالملك (بلدوين) يخرج من أرسوف كأنه نجمة الفجر تتلألأ بين دياجير الظلام ، ويستقل احدى السفن السريعة التى تمضى به الى يافا فيدخلها ، فقابلت يافا حضوره بالغبطة ، ومحا ظهوره الذى جاء على غير انتظار كل الظلال القاتمة ، وأطلع نهارا مشرقا ، وبدت جميع الشرور التى اكتنفت طريق الصـــليبيين قد تلاشت ، وسرعان ما طبق الخبر السعيد الثانى كافة أرجاء المملكة فازدهر الأمل فى نفوس كانت قد طارت شعاعا حين سماعها الخبر الكاذب الأول ٠

وفى هذه الأثناء كان « هيج دى سنت أومير » صاحب طبرية الذى أسرع لانقاذ الملك استجابة لدعاء الناس قد وصل الى أرسوف ومعه ثمانون فارسا ، فما كاد بلدوين يعلم بذلك حتى هب لساعته الى لقائه ، مستصحبا معه كل العسكر الذين أمكنه العثور عليهم فى يافا ، واذ كان العدو يعربد فى كل ناحية لا يخشى أحدا ، فقد خاف الملك منه أن ينصب الكمائن « لهيج » وصحبه ، أو يعيقهم جهرا ٠

ولما التقى القائدان (الصليبيان) عانق كل منهما الآخر وقلبه يزغرد بالسعادة ، وضم كلاهما عسكره الى عسكر رفيقه وعادوا الى يافا حيث استقبلهم أهلوها بمظاهر الفرح ، وسرعان ما أنفذ

الملك الرسل يلتمسون النجدة من سكان المناطق الجبلية الذين بادروا فجمعوا من وصل الى أرسوف من العسكر فى مدى أيام قلائل ، ولكنهم اضطروا لسلوك طريق ملتو ، لأن العدو كان مسيطرا تمام السيطرة على المناطق الداخلية ، غير أنهم صادفوا فى خروجهم من أرسوف « أشد الصعاب بل وأفدح الأخطار التى تهدد حياتهم ، اذ قابلهم العدو فى الطريق ، ولكنهم استطاعوا بعون الله أن يصلوا فى النهاية الى يافا ، وكان عدد الذين بلغوها زهاء تسعين ، وفيهم فرسان من رتب مختلفة ٠

ترتب على وصول هذه الامدادات أن انبعث الأمل من جديد فى فؤاد الملك ، لأنه كان يتلهف على الانتقام من العدو والثأر منه جزاء لما أنزله به من المصائب ، لذلك رتب فصائل خيالته ورفاقه من المشاة للقتال ، وخرج يريد محاربة الخصم غير عابىء بما تحت يد هذا الخصم من جند كثير ، ذلك لأن اعتماده كان على معونة الرب ٠

كان عسكر العدو قريبا منه كل القرب ، لا يفصلهم عنه سوى ثلاثة أميال فقط ، وكانوا قد انهمكوا بنسج أكسية من الحبال وصنع السلالم وشتى أنواع الآلات الحربية من المواد التى انتقوها لهذا العمل ، ودبروا ـ وكان ذلك يبدو يسيرا ـ أن يدمروا المدينة المعادية لهم ويلقوا القبض على الملك وجميع من بها ويأخذوهم كأحط العبيد ، لكن بينما كانوا منصرفين الى ماهم فيه من العمل اذا بالملك يطلع عليهم بجيشه ، فأدركوا خطأ ظنهم فى هزيمة خصمهم اذ رأوه يأخذ المبادرة بيده ويتحداهم للقتال ، فهبوا سراعا الى سلاحهم يحملونه ، وتأهبوا لمنازلتهم بعد أن كانوا يظنون أن قد تلاشى أمرهم ، ولكن الصليبيين كانوا قد أجمعوا العزم على رد الصاع صاعين ، وأن يضاعفوا لهم العذاب الذى أنزلوه بهم ٠ فكروا عليهم كرة مسعورة كأنهم اللبؤة الغاضبة قد انتزع منها أشبالها ، وملأهم هذا الهجوم

حماسة أسبغتها عليهم العناية الالهية فحاربوا بكل طاقاتهم من اجل نسائهم وأولادهم وأرض أسلافهم وذودا عن حريتهم ، فشـــتتوا بسيوفهم شمل العدو ، وقتلوا طائفة كبيرة من رجاله وحملوا بقيتهم على التماس الحياة فى الفرار بصورة مزرية ، غير أن الصليبيين رأوا أن ليس من العقل ـ لقلة عددهم ـ أن يستمروا فى مطاردتهم الى مسافات طويلة فانصرفوا عن ذلك ومالوا على معسكر خصومهم فجمعوا أعدادا كبيرة من الحمير والجمال والخيم فكان ذلك كله غنيمة باردة لهم ، هذا الى جانب ماحملوه من شتى صنوف الطعام ومواد المعيشة ، وهكذا عاد الملك منصورا الى يافا ، فتعالى هتاف الناس فرحا به ، وأقامت المملكة مايقرب من سبعة أشهر فى هدوء لا يعكر صفاءه معكر ·

ـ ٢٣ ـ

بينما كانت هذه الأحداث المختلفة تجرى فى المملكة قام تانكريد العظيم بجمع فرســـانه ومشاته وأحدقوا بمدينة أفامية الرائعة عاصمة اقليم سورية الوسطى، واستمروا يحاصرونها فترة من الوقت حصارا بذلوا فيه كل ما أمكنهم من جهد شأن الســـادة العظام ، وتوسل تانكريد بكل وسيلة جرت بها العادة فى تدمير القلاع ، فلم يترك مكيدة تؤدى الى الاضرار بالمحاصرين ضررا بليغا الا وعمد اليها ، حتى كتب له النصر أخيرا فاستولى على المدينة برحمة من الله ، وبفضل حماســـته التى لا يتطرق اليها الكلال ، وبمجهوداته العظيمة ، وقد أدى هذا الاستيلاء الى اتساع حدود امارته اتساعا كبيرا ·

ويقول الخبر انه تابع زحفه فى نفس اليوم الى اللاذقية التى كانت فى يد الاغريق فاستولى عليها هى الأخرى أيضا وضمها الى

سلطانه ، وقد تم له ذلك وفق الشروط الأولى التى أبرمها مع أهل اللاذقية ، وهى شروط نصت على أن يسلموه بلدهم من غير معارضة فى نفس اليوم الذى يتمكن فيه من فتح أفامية ٠

ويقال ان مؤسس هاتين المدينتين الشهيرتين هو « أنتيوكس بن سلوقس » الذى سماهما باسمى ابنتيه « أفاما » « ولازكيا » ٠ واذا كانت هناك لاذقية أخرى معدودة بين مدن آسيا الصغرى السبعة فاننا نتكلم الآن عن مدينة لاذقية الشام التى يشير اليها القديس يوحنا فى سفر الرؤيا(١١) اذ يقول : « والذى تراه كتب فى كتاب وأرسل الى السبع الكنائس (التى فى آسيا) الى افسس والى سميرنا ، والى برخامس ، والى ثياتيرا ، والى ساردس ، والى فيلادلفيا والى لادوكية » ٠

أما اللاذقية الأخرى فقد جعلها الامبراطور « سافيروس » مستعمرة حسبما جاء فى تاريخ « أولبيان » الذى يتكلم عنها فى موجزه فى فصل جعل عنوانه « احصائيات » فيقول « توجد أيضا مستعمرة اللاذقية فى سورية وهى التى منحها الامبراطور « سافيروس » الحقوق الايطالية مكافأة لها على ما أدته من الخدمات أثناء الحرب الأهلية » ٠

وهكذا استطاع تانكريد ــ بمعونة الرب ــ أن ينجز فى حملة واحدة عملا كان انجازه يتطلب أياما طويلة ، وكسب فى مرة واحدة مدينتين تتبع كلا منهما مناطق شاسعة ، ذات قرى حصينة ، وحقول واسعة ، والحق أن تانكريد كان رجلا يحب الله ، وكان مشهورا

---

(١١) رؤيا يوحنا ١ : ١١ ٠

بايمانه ، مذكورا بأعماله البطولية ومحبوبا من الناس بسبب خدماته الجلى ، ولا جدال فى أن التوفيق كان حليفه فى كل أمر نهض به ٠

ـ ٢٤ ـ

فى هذه الآونة كان بلدوين كونت الرها ـ صاحب الخصال الكريمة والذى خلف الملك فى كونتية الرها ـ أقول كان بلدوين هذا يدير دفة الأمور ـ فى الناحية التى كانت من نصيبه ـ ادارة بذل فيها بالغ النشاط ولازمه التوفيق العظيم ، مما حمل من حوله من الأعداء على خشية جانبه والخوف من سطوته ، ولما كان أعزب لا ولد له ، فقد تزوج « مورفيا » ابنة جبريل دوق ملطية الذى أشرنا اليه من قبل ، فكان مهرها قدرا كبيرا من المال كان بلدوين فى مسيس الحاجة اليه ٠

وكان جبريل أرمنى المولد واللغة والعادات ، ولكنه يونانى المذهب ، وكان الهدوء مستتبا فى أملاك بلدوين ، والسلام يرفرف عليها بجناحيه حين قدم لزيارته قريب له من نبلاء قومنا من اقليم « جانتينيه » واسمه « جوسلين دى كورتناى » ، واذ كان فقيرا لايملك أرضا ولا مالا فقد أقطعه بلدوين اقطاعا شاسعا حتى لا تدفعه الحاجة لأن يحس بالغربة فيستجدى الناس ما يمسك عليه حياته ٠

كان الاقطاع الذى منحه (كونت الرها) له يتضمن كل ذلك القسم من أملاك بلدوين الخاصة المجاورة لنهر الفرات العظيم ، ويضم مدينتى « كوريتيام » « وتولوبا » ، كما يشمل قلاع تل باشر وعينتاب وراوندال وغير ذلك من القـــلاع المنيعة التحصـــين ٠ أما الكونت فقد احتفظ لنفسه بالاقليم الواقع فيما وراء الفرات لأنه أقرب مايكون الى أرض العدو ، كذلك استبقى مدينة واحدة فقط من المدن الداخلية اسمها « سميساط » ٠



كان جوسلين رجلا أوتى القدر الكبير من المعرفة والحكمة ، شديد التبصر والتدقيق فى كل ما يقدم عليه ، فأظهر الحزم البالغ فى تصريف شئونه الخاصة وتدبير أموره ، وكان محبا لأسرته ، محسنا تجاه أهل بيته ، يسخو فى غير اسراف اذا دعته الظروف الى السخاء ، فان لم يكن الأمر كذلك أمسك بيده فى اقتصاد ، كما كان شديد الحرص على مايملك ، وسطا فى مأكله ، لا يحفل كثيرا بملبسه ولا بزينة نفسه · ولقد بذل (جوسلين دى كورتناى) هذا جهدا صادقا فى الحفاظ على ذلك القسم من المقاطعة التى تفضل الكونت الكبير فأقطعه اياها ، حتى صارت تحت يده أشياء كثيرة بوفرة زائدة ·

ـ ٢٥ ـ

عاد فى هذه الأثناء الى أنطاكية بوهيموند أميرها العظيم ، الحميد الصفات ، وكانت عودته اليها بعد أربع سـنوات قضاها أسيرا فى يد العدو ، ثم لاحظته العناية الالهية فأطلق سراحه بعد أن افتدى نفسه(١٢) ·

ولقى بوهيموند لقاء كله غبطة وفرح من جانب البطرك ورجال الدين ومن الناس قاطبة ، ذلك لأن امارة (أنطاكية) والمملكة كانتا تتطلعان فى شوق منذ أمد طويل لعودته هذه ، وكان شكره عظيما لقريبه تانكريد حين علم بمدى اخلاصه وبعد نظره فى ادارة شئون الامارة التى عهد القوم اليه برعايتها أثناء غياب صاحبها ، وكذلك

---

(١٢) لقد دفع الفدية عنه كل من كوخ فاسـيل الارمنـى ، وبلدوين دى بورج ، وبرنارد أسقف انطاكية ، ولم يشارك فيها ابن اخته تانكريد ، حسبما أشارت الترجمة الانجليزية ، انظر R.B. Yewdale, ٢/٤٥١ ·

لما عرفه (بوهيموند) عن الصورة التى أدار بها (تانكريد) أملاكه فى أنطـاكية اذ مد حدودها باسـتيلائه على مدينتين من أعظم المدن(١٣) .

وأراد بوهيموند اظهار تقديره لما أداه تانكريد من الخدمات ومجازاته عليها أحسن الجزاء ، فأقطعه ـ وورثته ـ الجزء الأكبر من ذلك الاقليم يتوارثونه خلفا عن سلف الى الأبد ، ثم لم يلبث الأمير بوهيموند أن عهد اليه بالامارة ، كما سـنروى ذلك فى الصفحات التالية(١٤) .

* * *

فى خلال هذا الوقت دأب « أرنولف » شـماس بيت المقدس الأكبر الذى تعددت الاشارة اليه ـ كالمعهد به ـ على بذر الشقاق والبغضاء بين الملك وبين البطرك « دامبيرت » سعيا منه فى اثارة النزاع بينهما ، وترتب على ذلك أن أطلت من جديد العدواة القديمة التى كانت بينهما(*) وكانت الظواهر توحى بأنها قد ولت وخمدت .

ونجحت محاولات هذا الفاجر (أرنولف) فى اثارة غضـب رجال الدين ضد رجل الرب البطرك الداعى للسلام ، فتزايد عداؤهم نحوه الى حد لم يعد « دامبيرت » قادرا على تحمل ما يتعرض له من المضايقة المستمرة ، فغادر كنيسته كما غادر معها فى الوقت ذاته مدينة القدس ، وخرج فقيرا معدما ، ليس معه من مشير أو مساعد . وفر الى الأمير بوهيموند الذى رحب به ترحيبا كريما ، كما تحركت

---

(١٣) أما هاتان المدينتان فهما أفامية واللاذقية .

(١٤) انظر فيما بعد صفحة ٢٥٤ .

(*) أى بين الملك بلدوين والبطريرك دامبرت .

نفسه عطفا عليه وشفقة به وتذكر أنه كان المسئول الأول عن اعتلاء « دامبيرت » كرسى البطركية فى بيت المقدس ٠

ثم أجرى عليه بوهيموند مرتبا دينيا ضخما حتى لا تضطر الظروف رجل الرب هذا الى العيش عنده تحت ظروف تسىء له كرجل له مكانته الجليلة ، فعهد اليه ــ بعد موافقة « برنارد » بطرك أنطاكية ــ بكنيسة القديس جورج الموجودة أدنى المدينة بكل أراضيها ودخلها الكبير ، وهكذا ظل « دامبرت » مقيما هناك عند بوهيموند حتى مضى الأخير الى « أبوليا » كما سنقص خبر ذلك حالا ٠

ــ ٢٦ ــ

أما الملك (بلدوين) فقد انقاد الى أرنولف الخبيث انقيادا ضالا انحرف به عن الخوف من الرب ، فارتكب آثاما جمة فى أعقاب نفى « دامبرت » اذ نصب فى الكرسى البطركى قسيسا قدما ، سقيم الفهم وان كان شديد التدين اسمه « ابريمار » كان قد جاء مع الحملة الأولى ، وعاش حياة مستقيمة لا عوج فيها ولا التواء ، حببته الى قلوب الجميع ٠

لكنه كان بالنسبة الى ما صار اليه رجلا زمن الفطنة شديد الغباء ، وقد بلغ من بلادة الفهم حدا اعتقد معه أنه قادر على وقوف الجميع الى جانبه ان اغتصب العرش البطركى فى الوقت الذى لازال فيه صاحبه الشرعى على قيد الحياة ٠

***

كذلك حدث فى نفس السنة ــ وهى سنة ١١٠٣ ــ من مولد المسيح ، وعند اقتراب الربيع ــ أن استدعى الملك جميع قوات المملكة

وخرج بهم محاصرا لعكا ، بعد أن شارك فى الاحتفال المقام بالقدس بذكرى قيامة السيد .

وتقع مدينة عكا على الساحل فى ولاية فينيقية ، وهى احدى المراكز الدينية التابعة لأسقفية « صور » العظيمة ، وقد ساعدها وجود مينائها داخل الأسوار وخارجها على أن تكون مرفأ أمينا ومرسى هادئا للسفن ، كما أن وجودها بين الجبال والبحر جعلها ذات موقع فريد ، هذا الى جانب الثروة الكبيرة التى وفرتها لها أراضيها الشاسعة وحقولها الخصبة .

ويجرى بالمدينة نهر عين البقر أو نهر بيلوس .

وتقول الأخبار التى وصلت الينا أن تأسيسها كان على يد الشقيقين بطليموس و « عكو » وأنهما حصناها بأسوار من الحجر الصلد ، وقسماها قسمين يسمى كل واحد منهما باسم واحد من الأخوين ، وهى لاتزال حتى اليوم معروفة باسمى « بطلمية » و « عكا » شأنها فى ذلك شأن معظم مدن الشام اذ جرت القاعدة على أن يكون لكل منها اسمان ، وقد يزيدان فيكونان ثلاثة أسماء .

ولقد جاء الملك (بلدوين) الى هنا مع عسكره ، وأراد تطويقها وسد مسالكها لتذعن له وتستسلم فعجز عما أراد بسبب عدم وجود أسطول عنده ، واذ ذاك اجتث ما حولها من بساتين الفاكهة ، وفتك بطائفة من أهلها ، وساق أمامه ما سلبه من قطعان الماشية والأغنام التى كانت ترعى خارجها ، فلما فرغ من ذلك كله رفع الحصار عنها وانقلب راجعا الى بلده .

ولقد عزم أن يكون رجوعه من طريق قيصرية ، غير أنه لما وصل الى مكان اسمه « بترانكيسا » قرب صور القديمة بين « كفر ناعوم » و « دورا » المعروفة اليوم باسم المجاز ، .. أقول لما وصل الى هنا

شاءت الصدفة أن تطلع عليه طائفة من قطاع الطرق والشطار كانوا مختفين فى احدى الغابات ، فهاجمهم الملك هجوما عنيفا حتى أهلك منهم نفرا غير قليل وفر منه بقيتهم ، غير أن أحدهم قذف – وهو يجرى – خنجرا شاء سوء الطالع أن يصيب الملك فى ظهره ، وينفذ من ضلوعه قرب قلبه ، وكادت الرمية أن تصيبه فى مقتل لولا عناية المطببين واستعمالهم المشارط والكى بالنار مما رد عليه أخيرا بعض صحته ، ولكنه ظل على الدوام يشكو الألم يعاوده من هذا الجرح فى أوقات معينة ٠

– ٢٧ –

فى هذه الأثناء قام ريموند كونت تولوز الطيب الذكر والرجل العظيم المبجل والصـــادق فى تقواه بغزو المدينة المعروفة باســـم طرطوس ، كما أظهر بالغ الجد وجم النشاط فى مد رقعة أملاكه فيما حولها ٠

ولماكان حريصا كل الحرص على اتخاذ كل السبل المؤدية الى استئصال شأفة خصوم المسيحيين من تلك البلاد فقد شيد حصنا على تل مواجه لمدينة طرابلس ، وان بعد عنها قرابة ميلين ٠

ولما كان الحجاج هم الذين شيدوا هذه البناية فقد سماها الكونت اسما يعيد الى الأذهان ذلك الحدث ، ليعرف دائما باسم تل الحجاج ، ولايزال هذا الاسم باقيا حتى اليوم ٠

وقد أســـفر موقع قلعة تل الحجاج الطبيعى ومهارة بنائها الى جعلها مكانا حصينا ، فكان ريموند يشـــن فى كل يوم تقريبا هجمات يقض بها مضـــاجع ســـكان طرابلس ، وترتب على هذه المضايقات المستمرة أن اضطر أهالى الناحية – بل وسكان المدينة ذاتها – الى دفع جزية سنوية له مع اظهارهم الطاعة له والامتثال

لأمره فى كل الأحوال كما لو كان هو وحده مالك المدينة لا ينازعه فى حكومتها منازع ٠

وفى هذا الموضع أنجبت له زوجته ـ وكانت امرأة تقية ورعة ـ ولدا أطلق عليه الاسم العائلى القديم « الفونس » ، وهو الذى خلف أباه فيما بعد وعرف بكونت تولوز ٠

ـ ٢٨ ـ

ولما كان شهر مايو من عام ١١٠٤ من مولد المسيح حشد بلدوين كل قوى شعبه من أدناهم قدرا الى أرفعهم مكانة ، وأسرع لحصار مدينة عكا للمرة الثانية ، واغتنم فرصة ميمونة الطالع اذ كان قد وصل الى بلاد الشام ـ فى هذه اللحظة بالذات ـ أسطول جنوى مؤلف من سبعين مركبا مدببة(١٥) يسمونها بالشوانى ، فما كاد الملك يعلم بوصولها حتى بعث رسالة الى قادة الأسطول يدعوهم فيها بلهجة ودية للمحاربة من أجل المسيح قبل أوبتهم الى ديارهم ، ولفت نظرهم الى المثل الطيب الذى ضربه من قبل سابقوهم من بنى جلدتهم الذين كانت حماستهم للعمل خير مساعد للمملكة فى الاستيلاء على مدينة قيسرية ، وبذلك جنى مواطنو جنوة بهذا العمل المجد الخالد بجانب مكسبهم الدنيوى ٠

وتم الوصول الى اتفاق مع هؤلاء الناس بفضل الجهد الكبير الذى بذله الوسطاء الأذكياء الدبلوماسيون الذين آلوا على أنفسهم الا أن تنجح هذه المفاوضات التى نصت على أن يكون للجنوية على الدوام ثلث العائد وثلث الضرائب والمكوس التى تجبى فى ميناء

---

(١٥) راجع السفن الاسلامية على حروف المعجم للدكتور درويش النخيلى ، ص ٨٤ ٠

عكا مما يفرض على الواردات التى يحملها القادمون اليها بحرا ، هذا بالاضافة الى منحهم كنيسة لهم بالمدينة ، وتكون لهم السيطرة الشرعية التامة على شارع واحد من شوارعها ، ويقوم الجنوية ازاء ذلك بالمساعدة الجدية فى الاستيلاء على المدينة المذكورة ٠

وبدت هذه الشروط مقبولة لدى الملك وكبار رجاله ، فأقسم الطرفان الأيمان تأكيدا لهذا الاتفاق ، وصدر الأمر بكتابتها لتبقى على الدوام وثيقة محفوظة ٠

***

ولما جاء اليوم المحدد حاصر الجنوية عكا من ناحية البحر ، كما ضرب الملك عليها الحصار بعسكره الذى أحاط بها حتى استحال الخروج منها أو الدخول اليها ، وابتلى أهلها بما لا يحصى من الأمراض التى تصاحب الحصار ٠

ولما كانت رغبة الملك هى تحطيم العدو فانه وضع حول المدينة آلات تفننت عبقرية الخبراء الخصبة فى استنباطها ، كما اقاموا أبراجا راحت ترمى المدينة بالأحجار الثقيلة التى أدى اســـتمرار تساقطها الى زلزلة الحصون ، بل والى هدم بعض المبانى الموجودة داخل المدينة ذاتها ٠

وأصاب الأهالى ارهاق شديد من جراء القتال المستمر يراوحهم به الأسطول القائم بحراسة الشواطىء ، ويغاديهم به جيش الملك الرابض على اليابسة ، كما تضاءل عدد الأهالى بسبب الأهوال التى أهلكت الكثير من المدافعين ، حتى وجد العدو نفسه فى موقف يجعل استمراره فى الصمود فى وجه محاصريه أمرا شاقا ، ومن ثم لم يعد ثم مناص أمامهم من الاستسلام ، فاستسلمت المدينة للملك بعد

عشرين يوما سويا بذل فيها المحاربون الصليبيون كل جهدهم فى مهاجمة المارقين الذين أظهروا نفس الجهد فى المقاومة ·

وكانت شروط التسليم التى فرضت على الأهالى هى السماح لمن يريدون ترك المدينة بالخروج والذهاب حيثما شاءوا ، مع ضمان سلامة أرواحهم ومن معهم من حريمهم وصغارهم وما ملكت أيديهم من المتاع ، أما غيرهم الذين يؤثرون البقاء فى دورهم ولا يحبون ترك أرضهم التى درجوا عليها فقد حق لهم العيش بظروف ملائمة ، لقاء دفعهم مبلغا معينا الى الملك كل سنة ·

لم تكد المدينة تصـــبح فى حوزة الملك حتى خصص أملاكا ومساكن للجنوية لقاء الخدمات التى أداها كل واحد منهم ، وهكذا توفر ـ ولأول مرة ـ وجود مدخل آمن للذين يصلون عن طريق البحر ، كما توفر لهم مرسى امين ، وتحرر الساحل ـ الى حد ما ـ من هجمات العدو ·

ـ ٢٩ ـ

فى هذه السنة ذاتها قام بوهيموند واستصحب معه جميع من لهم الصدارة فى امارته ، كما استصحب تانكريد وبلدوين كونت الرها وقريبه جوسلين ، وانضم بعضهم الى بعض ، وانعقد اجماعهم على عبور الفرات ومحاصرة مدينة « حران » القريبة من الرها التى كان المارقون قد احتلوها ، ونشط كل أمير حسب هذا الاتفاق المبرم بينهم وراح يجمع عسكر بلاده ، وفعل مثله من جاوره من حلفائه ، حتى اذا كان اليوم المحدد للزحف عبروا نهر الفرات وبلغوا الرها ·

وساهم فى هذه الحملة المشئومة ثلاثة من رجال الكنيســـة الموقرين ممن يهتدى الناس بهديهم ، هم « برنارد » بطرك أنطاكية

« ودامبيرت » بطرك القدس اللاجيء الشريد الذى كان يعيش اذ ذاك فى انطاكية ، وأخيرا « بندكت » رئيس اساقفة الرها ٠

ولما كان هؤلاء القادة كلهم قد أجمعوا العـــزم على تنفيذ مشروعهم فقد اجتمعوا فى المدينة المشار اليها ، وتقدموا على رأس فيالقهم نحو مكانهم المقصود ٠

* * *

ونعرف من التواريخ القديمة أن « حران » هى الناحية التى قاد « تارح » اليها « ابراهام ابنه ، ولوط بن هارات حفيده » حينما تركا « أور » مدينة الكلدانيين ومضوا ليعيشوا فى أرض كنعان كما هو وارد فى سفر التكوين(١٦) ، وهناك مات « تارح » ، كما تلقى ابراهام أمر ربه ليترك أرضه وعشيرته ويتبع ما وعد به الرب ٠

وهذا هو نفس المـــكان الذى أرغم فيه البارثيون الطـــاغية الرومانى « كراسوس » ، على أن « يشرب » الذهب الذى كان شرها فى جمعه كل الشراهة ٠

وحالما بلغ القادة مدينة حران حاصروها من قرب كبير حسبما اتفقوا عليه منذ البداية ، غير أنهم كانوا فى مسيس الحاجة للاغارة على الناحية المجاورة لقلة ما فى المدينة من المئونة بل لانعدامها ، وكان من الضرورى اتخاذ بعض الوسائل لمنع المحصورين من مغادرة المدينة أو الدخول اليها ٠

---

(١٦) التكوين ، ١١ : ٣١ ، ١٢ : ٣ ٠

وتتلخص حاجتهم الى الطعام فيما يلى : ذلك أن بلدوين كان قد أخذ نفسه أخذا شديدا قبل ذلك بزمن طويل بالتفتيش عن طريقة ماتؤدى بمواطنى البلد الى هذه المتربة ، حتى اذا اشتدت عليهم وطأة الجوع لم يجدوا مناصا من تسليم المدينة ، ورآى الطريقة المثلى لانجاز الخطة فيما يلى : أنه نظر فرآى أن كلا من الرها وحران تبعد عن الأخرى مايقرب من أربعة عشر ميلا ، وبينهما نهر تستخدم مياهه التى تجرى فى القنوات فى رى السهل المجاور وتجعله شديد الخصوبة يغل غلة وفيرة ، ورآى أن العرف جرى منذ زمن بعيد على أن يكون كل ما تنتجه الأراضى الواقعة على هذا الجانب من النهر وقفا على أهالى الرها لا ينازعهم فيه منازع ، أما ما يزرع فى الحقول الواقعة وراء النهر فكان لسكان حران .

وعرف بلدوين انعدام ورود أية مواد غذائية الى الأعداء من الخارج ، مما يفرض عليهم الاعتماد فى كل طعامهم على ما تخرجه هذه الأرض المشتركة بين البلدين ، لذلك آثر أن يتحمل هو نفسه الضيق والا يسمح للأعداء بالعيش على هذه الحقول المشـــتركة ، وهم الذين لا يستطيعون الحصول على احتياجاتهم الغذائية من أى مكان آخر ، لذلك ظل أمدا طويلا يراوحهم ويغاديهم بالغارات المتكررة حتى تمكن من منعهم من زراعة أرضهم ، وكان يأمل بل ويعتقد انه سيكون قادرا على الحصول على المؤونة الوفيرة لشعبه من الاقليم الواقع وراء الفرات ، وكذلك من الناحية القائمة بين الرها وبين ذلك النهر ، كما كان يعتقد انه اذا حرم الأهالى من المؤونة التى ألفوا الحصول عليها من المزارع المشتركة أهلكتهم الحاجة والمتربة ، وظل بلدوين ــ طوال بضع سنوات ــ يحرمهم من زراعة هذه الحقول مما ترتب عليه أن وجد المحصورون أنفسهم كما قلنا فى أشـــد حالات السوء بسبب حاجتهم للطعام ، ولما كان الأهالى يتوقعون منذ زمن

بعيد قدوم الصليبيين عليهم فانهم بعثوا بالكتب وانفذوا الرسل الى أمراء المشرق يسألونهم المبادرة الى اسعافهم على جناح السرعة ، والا فلا مناص لهم من الاستسلام ، غير أن وطأة المجاعة راحت تشتد عليهم يوما بعد يوم ، كما خبا رجاؤهم فى نجدة تأتيهم من ناحية الأمراء الذين استنجدوا بهم ، ولذلك راحوا يتشاورون فيما بينهم عما يفعلون ، فقر رأيهم على أن يسلموا المدينة (للصليبيين) فذلك أجدى عليهم من أن يموتوا جوعا وراء أسوارها ٠

ـ ٣٠ ـ

حينما اتفق الأهالى على اتخاذ هذا القرار خرجوا وسلموا المدينة لمحاصريهم دون قيد أو شرط ٠ غير أنه شب فى هذه اللحظة الحرجة شقاق منكود بين القادة (الصليبيين) بسبب غيرة بعضهم من بعض ، ذلك أن الأمير بوهيموند وكونت بولدوين نازع كل منهما الآخر : أيهما يتسلم المدينة ، وأيهما تتقدم رايته الناس عند دخولهم اياها ، وترتب على هذا الشقاق أن تأخر دخولهم ، وتأجل تسلمهم اياها الى الغد ليتاح لهم الوقت الكافى للتفكير العميق فى هذه المسألة التافهة ٠ وهكذا أثبتت لهم التجربة صحة المثل القائل « ان التوانى يجر فى أذياله الخطر » وكذلك المثل الآخر « اذا هبت رياحك فاغتنمها فان الهلاك فى التأخير » ، ذلك أنه حدث قبل انبثاق فجر اليوم التالى أن وصل حشد ضخم من الأعداء الأتراك ، وكان حشدا كثيفا وقويا ، فما كاد الصليبيون يرونه حتى ساورهم الشك فى قدرتهم بل يئسوا من انقاذ أنفسهم ٠

وجاءت النجدات حاملة معها كميات وفيرة من المؤونة ، كما دل (أهل البلد) حسن تبصرهم على خطة حكيمة هى تقسيم كتائبهم الى فريقين ، يشتبك واحد منهما مع الصليبيين دون اعتبار لما ينجم

عن هذا الاشتباك من نصر أو هلاك • أما الفريق الآخر فيقوم بتزويد المدينة بالمؤنة •

وتم تنفيذ هذه الخطة على الوجه الأكمل ، اذ ما كادت تلوح فى الأفق طلائع النهار حتى رتب العدو عسكره للقتال ، وأعد صفوفه كماالوكانت المعركة ستنشب فى لحظتهم هذه ، وأوقفوا الذين عهد اليهم بحفظ المتاع بعيدين عن غيرهم بعض الشىء •

ورغم ما كان يبدو من تأهب الكفار للقتال الا أن أملهم فى النصر أو حتى الصمود طويلا كان أملا واهيا ، ومن ثم كان هدفهم الوحيد هو شغل الصليبيين بالقتال حتى يتم نقل المئونة الى المدينة المحاصرة ، فلما شاهد قوادنا العدو يستعد هذا الاستعداد قاموا هم بدورهم فصفوا صفوفهم تأهبا للحرب ، وانطلق البطركان بين الجند يشدان من عزائمهم ، فلم يؤت مجهودهما ثمرته لأن رحمة الرب باينتهم ، اذ ما كاد الجانبان يصطدم الواحد منهما بالآخر حتى صارت اليد العليا للعدو فقد ولاه الصليبيون أكتافهم وفروا على أشنع صورة من الفرار ، وتركوا وراءهم معسكرهم بكل ما اشتمل عليه ، ولم يعد يشغل بالهم سوى النجاة بأنفسهم ، لكن لم تقدر لهم النجاة ، فقد نحى الكفار عنهم أقواسهم التى اعتادوا الحرب بها وقاتلوا بسيوفهم ، واشتبكوا بالأيدى فدارت الدائرة على المسيحيين حتى فنوا عن بكرة أبيهم ، ووقع فى الأسر كونت الرها وقريبة جوسلين فحملهم العدو الى ناحية قاصية جدا من بلاده •

أما بوهيموند وتانكريد والبطركان فقد فروا من المعركة ، وان كانت رحاها لاتزال دائرة ، وسلكوا دروبا ملتوية أوصلتهم الى الرها سالمين •

أما رئيس أساقفة الرها ـ ولم تكن له خبرة بالقتال ـ فقد أسر مع من أسر من الجند فزاد عدد الأسرى ، لكن شاءت الصدفة له أن يقع فى يد مسيحى ما كاد يعرف شخصيته حتى تعطف عليه وساعده على الهروب سالما ، رغم أنه كان بذلك العمل يعرض نفسه للهلاك ، وقد تمكن هذا الأسقف ـ بعد بضعة أيام وبرعاية الله ـ أن يصل الى الرها فكانت الفرحة به عظيمة ٠

***

كان أمير أنطـــاكية لايزال فى الرها عندما بلغه خبر وقوع الكونت فى الأسر جزاء خطاياه ، فرآى الأمير ـ ووافقه الرهاويون ـ على ما رآى ـ أن يعهد بالرها والمنطقة كلها الى رعاية تانكريد مع الاشتراط عليه برد حكومتها ـ من غير معارضة ـ الى الكونت حال اطلاق سراحه ، وأن يقوم بوهيموند بالحفاظ على أرض جوسلين ٠

ولم يحدث أبدا أن قرأنا قبل هذا الحادث أو بعده عن معركة بلغت من الشؤم مابلغته هذه المعركة التى أسفرت عن مصرع رجال أبطال كهؤلاء الرجال ، ولا سمعنا عن مثل هذا الفرار المشين الذى لحق بجيشنا ٠

***

هنا ينتهى الكتاب العاشر

الكتـــاب الحادى عشر

خاتمة عهد بلدوين الأول وفتوحات أخرى بالقدس وأنطاكية

فصول الكتاب الحادى عشر :

١ ـ بوهيموند ـ أمير أنطاكية ـ يعهد ببعض شئون امارته الى تانكريد ويسرع الى فرنسا ويتزوج من ابنة ملك الفرنجة أما دامبيرت ـ بطرك بيت المقدس ـ فيذهب الى رومة • بلدوين الملك يهجر زوجته الشرعية دون مبرر شرعى •

٢ ـ وفاة ريموند كونت تولوز وتولى وليم جوردان ابن أخيـــه مكانه ، رضوان أحد الولاة الأتراك الأقوياء يغزو أقاليمنا فيهاجمه تانكريد ويرغمه على الفرار فى غير انتظام •

٣ ـ اغارة المصريين على المملكة بجيش ضخم واشتباك الملك معهم فى القتال وقتله الكثيرين منهم وأسره غيرهم وارغامه الباقين على الفرار •

٤ – وفاة البطرك دامبيرت فى مسينا بصقلية وهو فى رحـــلة العودة ومعه كتاب بابوى ، وان ذاك يسرع ابريمار – مغتصب مقعده – الى رومة ويوفد البابا رئيس أساقفة آرليس المدعو جبلين الى القدس كنائب له ثم يتم بعدئذ تنصيبه بطركا ٠

٥ – النبيل هيج دى سنت أومير – صاحب طبرية – يشيد قلعة فى الجبل المطل على المدينة ويسميها بقلعة تورون ، على أنه لا يلبث أن يصاب بجروح مميتة وهو يحارب الدماشقة ثم يختفى وان كان منتصرا ٠ أما العسقلانيون فيحاولون عمل كمائن لرجالنا ولكنهم يقعون فيها ٠

٦ – بوهيموند يعود من فرنسا الى أبوليا على رأس قوة كبيرة ويدخل بلاد اليونان للنهب ، ولكن يوافيه أجله وهو يتأهب للعودة الى سورية ويخلف وراءه ولدا له اسمه بوهيموند (الذى يعرف بالثانى) ٠

٧ – مجىء جيوش تركية قوية من الشـــرق فى محاولة منها للاستيلاء على كونتية الرها ، لكن تانكريد يستبسل فى دفعهم ويمده الملك بالنجدة ٠

٨ – بلدوين كونت الرها وجوسلين يعودان من أسر العدو لهما ويشنان الحرب ضد تانكريد ٠

٩ – برترام – بن كونت تولوز – يصل الى الشام مع أسطول الجنوية راجيا أن يخلف أباه ، ولكن وليم جوردان يأبى عليه ذلك ثم يصل الخبر بسقوط جبيل ٠

١٠ – الملك بولدوين يسرع الى مدينة طرابلس ويســـتمر فرض الحصار العنيف عليها حتى تستسلم ٠

١١ ـ ذهاب بلدوين كونت الرها الى ملطية لزيارة جبريل حميه ونجاحه فى مشروعه الكبير ٠

١٢ ـ رفع مكانة كنيسة بيت لحم الى مرتبة الكاتدرائية بفضـــل جهود الملك الكبيرة ٠

١٣ ـ فرض الحصار على بيروت برا وبحرا والاستيلاء عليها فى الشهر الثانى من الحصار ٠

١٤ ـ وصول أسطول من الدانيماركيين والنرويجيين الى بلاد الشام فيستطيع الملك بمساعدتهم اياه محاصرة صيدا والاستيلاء عليها ٠ ذكر خبر نجاة الملك من القتل بأعجوبة ٠

١٥ ـ وفاة جبلين بطرك بيت المقدس وتولى الخسيس الكافر أرنولف مكانه ٠

١٦ ـ أحد الجيوش التركية القادمة من الشرق يهاجم مدينة أنطاكية بقوات ضخمة لكن تانكريد يتصدى لهم بشدة ويساعده فى ذلك برترام كونت طرابلس ٠

١٧ ـ فرض الحصار على صور لكن الأهالى يبالغون فى تحصينها مما يؤدى الى فشل محاصريها ٠

١٨ ـ موت تانكريد وتركه الامارة لروجر بن ريتشارد ٠

١٩ ـ مودود ـ أحد الأمراء الأتراك الأقوياء ـ يهاجم المملكة فينهض اليه الملك بلدوين بقوة ضخمة وتنشب معركة تدور فيها الدائرة على الملك ، واذ ذاك يجتاح مودود الناحية كلها اجتياحا لا قبل لأحد باحتماله ٠

٢٠ ـ العسقلانيون يغيرون على بيت المقدس لكن تنتهى غاراتهم بتحطيم قواتهم فيعودون الى بلدهم ٠

٢١ ـ (أدليد) كونتيسة صقلية ترسو فى ميناء عكا وتصبح زوجة الملك ٠

٢٢ ـ المجاعة الفظيعة تجتاح أرض الرها ، وكونت بلدوين يلقى القبض على قريبه جوسلين ويرغمه قسـرا على مغادرة البلاد بأجمعها ٠

٢٣ ـ حدوث زلزال كبير يهز أركان أنطاكية ويقوم برسق ـ الوالى التركى الشديد البأس ـ بالعيث فسادا فيها ٠

٢٤ ـ العسقلانيون يحاصرون يافا ولكن اقتراب الملك يبث الفزع فى قلوبهم فيعودون من حيث جاءوا دون أن يحققوا هدفهم ٠

٢٥ ـ برسق يعيث فسادا مرة ثانية فى أرض أنطاكية فيقوم لصده الأمير روجر بحلفائه ويشتت شمل عسـكره ويرغمه على الفرار ٠

٢٦ ـ اتهام أرنولف البطرك بكثير من الأعمال المستنكرة وذهابه الى رومة ٠ قيام الملك (بلدوين الأول) ببناء قلعة فى سوريا الجنوبية وراء نهر الأردن ويسميها بحصن مونريال ٠

٢٧ ـ نظرا لقلة السكان فى المدينة المقدسة فان الملك (بلدوين) يجلب المسيحيين السـوريين من الأراضى العربية (الى القدس) ويمنحهم دورا يقيمون فيهـا ويعتبرهم سـكان المدينة ٠

٢٨ ـ الملك يطلب من البابا ـ نزولا على اقتراح رجال الدين ـ أن يجعل جميع المدن التى فتحها خاضعة لكنيسة بيت المقدس وارسال صور من هذا الكتاب حول هذا الموضوع ٠

***

هنـــا يبـــدأ

الكتاب الحادى عشر

خاتمة عهد بلدوين الأول وضم فتوحات جديدة للقدس وأنطاكية

ـ ١ ـ

حينما انصرم الصيف أبحر بوهيموند الى أبوليا مستصحبا معه « دامبيرت » بطرك بيت المقدس ، ولما كان الدوق مثقلا بالديون الباهظة فقد طمع أن يحصل أثناء وجوده فى البلاد الواقعة وراء البحر على قدر من المال يكفى لسداد ديونه ثم يكر راجعا بامدادات من الفرسان ، وعهد بادارة دفة شـــئون امارته فى أثناء غيابه وتصريف أمورها العامة الى قريبه الحبيب تانكريد ، واضعا فى يده كل ماله من السلطان .

ولما وصل الى وطنه « أبوليا » لم يطل مكثه به سوى فترة وجيزة عبر بعدها جبال الألب فى صحبة نفر كرام من أتباعه الأوفياء

حتى جاء الى بلاط فيليب ملك الفرنجة العظيم ، الذى كان من بين انعاماته الجمة عليه اثنتان من بناته ، احداهما ابنته الشرعية « كونستانس » التى تزوجها الأمير بوهيموند ، وأما الثانية « فسيسيليا » التى بعث بها بوهيموند من أبوليا الى تانكريد ابن أخته لتكون زوجة له ، وكانت هذه هى ابنة كونتيسة « أنجو » التى هجرت زوجها من أجل فيليب ، فأنجبت له هذه الابنة ، بينما كانت زوجته (الشرعية) لاتزال على قيد الحياة ٠

وبعد أن أنجز بوهيموند شئونه مع الملك فيليب ورتب أموره فى الأراضى الأخرى فيما وراء الجبل عاد الى « أبوليا » ومعه رهط كبير من الفرسان والمشاة الذين أرادوا الحج بحرا ٠

* * *

أما « دامبيرت » فقد مضى الى كنيسة روما حيث كشف عن كل ما كابده من الأهوال ، وما صادفه من المتاعب ، كما فصل فى الوقت ذاته نجاح المكيدة التى دبرها « أرنولف » وأسقط القناع عن هدف الملك الكريه فى محاولته الحط من قدر كنيسة الرب ، واستطاعت قصة البطرك أن تستقطب شفقة الجميع عليه ، وأكسبته عطف الكل ، كذلك بين أن الملك لم يكتف بما أشرت اليه من ارتكابه الجريمة البشعة فى حق « دامبيرت » ، وهى جريمة تشجبها تعاليم الكنيسة بل انه زاد الطين بلة حين أبعد زوجته الشرعية التى اقترن بها فى الرها وقت أن كان كونتها ، فكان بهذا العمل مستهينا بحقوق الزوجية ، متجاهلا مراسيم الشرع حين أرغمها ــ وهى لم تقترف جرما ولم تقارف اثما ــ بأن تترهب فى دير القديسة « حنة » جدة المسيح لأمه مريم البتول ، المبرأة من كل نقيصة ، وكان هذا الدير واقعا فى الناحية الشرقية من بيت المقدس قرب باب « يهوشافاط » وتتاخمه البحيرة التى كانت تعرف فى الأزمنة القديمة ببركة الضأن،

ولايزال هناك حتى اليوم كهف ظاهر للعيان تقول الأخبار القديمة أن يواقيم وحنة عاشا به ، كما ولدت به العذراء المبرأة من كل دنس ، وتقيم فى هذا الدير ثلاث أو أربع نسوة فقيرات ، يمارسن الحياة الدينية ، فزاد الملك من أملاكهن ووسع من أوقافهن حتى يضم زوجته اليهن ٠

وتتعدد الروايات وتتنوع حول سبب انفصال بلدوين عن امرأته ، فيقول بعضها ان الملك أبعدها ليتزوج من اخرى أكثر منها مالا وأرفع مكانة ، فاستطاع بذلك اصلاح حاله وانقاذ نفسه من الفقر الذى أناخ عليه ، والذى كان يرزح هو تحته لأنه كان يسعى للحصول على المال من غيرها تحت اسم « المهر » ٠

ويقول آخرون ان الملكة لم تكن متصاونة ، بل كانت متهاونة فى مراعاة روابط الزوجية فاثارت بذلك غضب رجلها عليها ، ويبدو أنها رحبت بادىء ذى بدء بردها الى رحاب الدين ، وعاشت فى عهدها الأول من ممارستها الرهبنة فى ذلك الدير حياة شريفة فى كل مظاهرها ،و لكنها تلمست أخيرا الفرصة المواتية للتقرب من الملك ، وأنها حصلت ـ بتعلات زائفة ـ على الاذن لها بزيارة بعض ذوى قرباها ممن يعيشون فى القسطنطينية بحجة رغبتها فى الحصول على مال تبذله لتنقذ مجتمعها الذى تعيش فيه من فقره ، فغادرت المملكة بهذه الحجة ، غير انها لم تلبث أن تخلت عن حياتها الدينية ، وأسلمت نفسها لحياة قذرة داعرة ، ولم تلق بالا الى سمعتها ولا الى مكانتها كملكة سابقة ، فمارست الزنى مع كل من صادفته ٠

ـ ٢ ـ

ولما كان اليوم الأخير من شهر فبراير من السنة التالية عام ١١٠٥ من مولد سيدنا ، مات ريموند كونت تولوز الخالد الذكر ،

وقد وافاه أجله أثناء وجوده بالقلعة التى شيدها أمام طرابلس ، وسـماها بقلعة جبل الحجاج ، وكان الكونت رجلا متدينا يخشى الرب ، صادق الايمان بالمسيح ، أهلا للثناء من كل ناحية ، كما أن بطولاته وحياته تستحق كتابا خاصا ٠

وقد خلفه ابن أخيه وليم جوردان الذى تابع حصار طرابلس بنفس حماسة عمه ، وكرس نفسه للعمل بعزيمة جبارة حتى جاء كونت « برترام » ، لكن مالبث الاثنان أن تنازعا الأمر بينهما فتراخى « وليم جوردان » عن جهوده بعض الشىء كما سنذكر حالا ٠

اننا نعتقد أنه ينبغى أن تكون مثابرة الموقر ريموند (كونت تولوز) على العمل وشجاعته موضع اعجاب وثناء ، ليس من الجيل الحاضر فحسب ، بل ومن الأجيال القادمة أيضا ، ذلك أنه منذ أن نهض بالحج من أجل المسيح ظل فى طريقه هذا حتى آخر يوم من أيام حياته ، متمسكا بالصبر والعزم ، ولقد كان فى وطنه رجلا بارزا شـديد السطوة ، يملك مقاطعات شاسعة المساحة ورثها عن أسلافه ، ولم يكن ثم شىء يرغب فيه الا ووجد الكثير منه متوفرا بين يديه ، لكنه آثر ــ رغم ذلك كله ــ أن يهجر بلاده ويخلف أهله طاعة للرب ، مفضلا ذلك على أن يعيش منعما بين قومه تحت مظلة الخطاة ، ولما تم استرداد بيت المقدس شعر القادة الآخرون الذين ساهموا فى حملة الحج هذه أنهم أنجزوا ما كانوا يرغبون فيه ، ومن ثم عادوا الى بلادهم ، لم يشذ عنهم سواه فانه منذ أن حمل الصليب كان يخشى أن يخليه جانبا ، حتى حين ألح عليه خاصة أصحابه ورجال من أهل بيته ــ أن يرجع الى الديار التى طال شـوقها اليه وتطلعت الى عودته ، لاسيما وقد أوفى بيمينه التى أقسمها ، وبعهده الذى قطعه على نفسه الا أنه آثر أن يقدم روحه قربانا للمسيح بدلا من أن يعود ليعب من ملذات الدنيا ، وكان فى ذلك العمل مقتفيا خطى مولاه

الذى قالوا له « انزل من على الصليب ، ففضل – حتى بعد انتهاء آلامه – أن ينزل على أيدى الأغراب من أن يفشل فى العمل الذى قام به لافتدائنا ٠

❋ ❋ ❋

وفى نفس هذه السنة أيضا قام صاحب حلب القوى الأمير رضوان بجمع الامدادات من البلاد المجاورة له ، اما بالاتفاق معهم أو ببذل المال لهم ، ودخل أرض أنطاكية بجيش كالدبا كثرة ، فبث الذعر فى الاقليم كله بغاراته المتعددة ، وكثرة ما أضرم من الحرائق التى كانت تأتى على كل شىء ، فلما علم تانكريد بذلك استدعى اليه فرسانه ومشاته وزحف بهم على الناحية التى اتفقت الأخبار كلها على وجود جيش رضوان بها ، وخرج تانكريد من أنطاكية وسار بجيشه الى « ارتاح » وتأكد له صدق ما وافته به الأخبار ، اذ وجد جموعا كثيرة قد تجمعت هناك ، فتوجه أول ما توجه الى السماء يرجوها العون الذى جاءه جزاء حسناته، ثم كركرة صدق على العدو الذى قاوم بعض الوقت فى بداية الأمر ، لكن مالبثت صفوفه أن تصدعت ، وانفرط عقد عســـكره ، فلاذوا بأذيال الفرار ، ووقع الكثيرون منهم فى الأسر ، وقتل منهم مالا يكاد يحصيه العد ، هذا الى جانب رايات رضوان التى أخذها تانكريد واحتفظ بها ، وكان أول الفارين الأمير رضوان نفسه ، وقد فعل ذلك حرصا منه على حياته ٠

ولقد أثلج هذا النصر قلوب رجالنا كثيرا ، وانشــرحت له صدورهم ، فقد اعتبروه تعويضا لهم عن خســـائرهم المتكررة فى معارك مشابهة لهذه المعركة ، كما أنهم غنموا كثيرا من أحسن جياد العدو بعد سقوط أصحابها عنها ٠

- ٣ -

وحدث فى السنة ذاتها أن جاء الى خليفة مصر نفر من كبار رجالات دولته وقالوا له : « ان هذا الرهط من الحجاج الذين هاجموا أخيرا مملكتك بالقوة وكانوا غير عابئين بالحياة ، قد نجحوا فى الثبات فى وجه قوادك الذين أرسلتهم ضدهم ، وكان انتصارهم فى هذا الهجوم بسبب اعتمادهم على الأعداد الكثيرة من جيوشهم الأولى التى جاءت الى المشرق ، أما الآن فقد عاد معظم هؤلاء الى أوطانهم مما تضاءل معه عدد البقية الباقية منهم تضاؤلا كبيرا ، كما انقطع عن هؤلاء ترادف الامدادات عليهم من الحجاج ، وأدت الهجمات المتعددة عليهم الى انهاكهم غاية الانهاك ، ومن ثم فالرأى عندنا أن الفرصة مواتية لنا — ان اذنتم ياmولانا ، باختيار قائد من كبار رجالكم تبعثونه لتخليص البلاد التى هى الآن فى قبضة ذلك الشعب المنكود » ٠

وافقت هذه الكلمات هوى فى نفس الخليفة واستصوبها ، فأمر بجمع عسكر كثير ، وتهيئة أسطول ضخم وجعل على كل جيش من الجيوش قوادا مختارين ، وأرسلهم الى بلاد الشـــام ، فبث وصولهم الى عسقلان الفزع فى كل الاقليم ٠

ما كادت أخبار هذه الحملة تصل الى ســـمع الملك بلدوين حتى بادر بالزحف الى يافا على رأس جيش المملكة بأجمعه ، وزاد على ذلك بأن أصدر مرسوما واجب النفاذ يأمر فيه قوات كل مدينة بالتجمع فى يافا دون تلكؤ ، فاستجابوا له سراعا ، كما جاء من غيرهم « ابريمار » بطرك بيت المقدس ، حاملا معه خشبة الصليب الشافى الواهب الحياة ٠

زاد عدد قواتنا بوصول هذه الامدادات حتى صـــار عندنا خمسمائة فارس وألفا جندى من المشاة ، كما قيل ان العدو كان فى قوة قاربت خمســـة عشر ألف مقاتل الى جانب المحاربين الذين بالسفن ٠

ما كاد جيش العدو البرى يخرج من عسقلان حتى صدرت الأوامر الى الأسطول بالابحار الى يافا ، فزحف العسكر البرى الى « أسدود » حيث انقسموا هناك الى قسمين ، تقدم أحدهما نحو الرملة يتحدى الملك أن يخرج للقتال ، على حين مضى القسم الثانى الى يافا ، وبينما كان الملك مشغولا بالقسم الأول كان القسم الثانى يتقدم لمهاجمة يافا بعد أن استدعى لمساعدته القوات التى كانت قد جاءت بحرا ، ومن ثم فقد دخل القسم الأول منطقة الرملة يتقدمه النفخ فى الأبواق وقرع الطبول ، وقد عمدوا الى هذا الأمر لغرض معين هو أن يتقدم الجيش الآخر الذى يسير على الساحل فيصل سالما الى يافا فى الوقت الذى يكون فيه الأول يغرى الملك وقواته على مهاجمته ، ولكن فشلت هذه الخطة لأنه حين اقترب الملك على رأس عسكره طارت قلوب المارقين شعاعا وانحل عزمهم ، واستسلموا للخوف ، مما حملهم على استدعاء الفريق الآخر لمساعدتهم ، لكن لم تفدهم هذه الامدادات ، فقد أحسوا أنهم ليسوا على قدر من البأس يكفى لنجاتهم من الوقوع فى قبضة الملك الذى هاجم بمن معه من الرجال الكتائب المتجمعة ضدهم ، وضغطوا عليهم ضغطا شديدا بروح عالية ، ومضى بلدوين فى الوقت ذاته يشجع رجاله بالقول والعمل فتزايد بأسهم ، وأخذ البطرك يســـير بين صفوف الجند حاملا فى يده الصليب الواهب الحياة ، ومقويا عزيمة المحاربين الذين كانوا على وشك النزول الى المعركة ، وداعيا اياهم لأن يتذكروا على الدوام من ارتضى أن يموت على الصليب لخلاص الخطاة ،

كما راح يحرضهم على الاستبسال فى قتال أعداء المسيح وخصوم دينه ، ليحدق لهم أن يطمعوا فى غفران خطاياهم وجبها ، ويمنحهم السيد مائة ضعف ما يجازى به خدمه ، فامتلأت نفوس الصليبيين حيوية وشجاعة بهذه الكلمات ، وتوجهوا الى السـماء يسألونها العون ، وانصبوا فى غضب على الأعداء ، ونجحوا فى قتل عدد كبير منهم ، وأرغموا الباقين على الفرار ٠

وقتل فى هذا الاشتباك حاكم عسقلان ، أما القائد العام للجيش فقد هرب فنجا ، ويقال ان قتلى الخصم بلغوا فى هذا اليوم حوالى أربعة آلاف شخص ، أما رجالنا فلم يهلك منهم سوى ستين ٠

وتمكنت قواتنا - برحمة الرب - من الاستحواذ على معسكر العدو فعثروا فيه على قوافل من الجمال والحمير والخيل ، فانشرحت صدورهم بما غنموا ، ثم عادوا أدراجهم الى يافا حاملين معهم أثمن الأسلاب وأغلى الغنائم ، ومستصحبين معهم كثيرا من الأسرى، وكان من بين من أسروه في هذا اليوم رجل جليل القدر فى قومه ، كان قد ولى أمر عكا ذات مرة فافتداه قومه فيما بعد من الملك بفدية قدرها عشرون ألف قطعة من الذهب ٠

وكان أسطول العدو فى هذا الوقت لايزال راسيا فى ميناء يافا ، فما كادت تبلغه أخبار النكبة التى حلت بقواته البرية حتى اغتنم فرصة هبوب ريح جنوبية مواتية وانسحب الى ميناء صور ، غير أن ريحا صرصرا عاتية هبت على هذا الأسطول وهو على وشك الرحيل الى مصر فمزقته فتبدد ، ودفعت خمسا وعشرين من سفنه الى شاطئنا لعجزها عن مقاومة الأمواج العاتية ، فأمسك عسكرنا أكثر من ألفى رجل من بحارته ونوتيته ، كما هلك الكثيرون من رجال العدو غرقا ٠

كان « دامبيرت » بطرك بيت المقدس فى هذه الأثناء موجودا برومة ، وطالت اقامته بها اذ استبقاه البابا « بسكال » والكنيسة الرومانية حتى يتقرر ما اذا كان ملك بيت المقدس ومن أخـــرجوه يتقدمون بأية تهمة ضده يرمونه بها لتبرير شرعية مسلكهم معه ، لكن لم يتقدم أحد منهم باتهامه بما يدينه أو بما يستوجب اللوم عليه من أجله فى هذه القضية ، فعرف وظهر للعيان أن شلح البطرك لم يكن الا نتيجة غضب ملكى ، ومن ثم زوده « بسكال » برسالة بابوية ورده الى مكانه ، حاظيا بكل العطف ليتابع أمر بطركيته التى أخرج منها ظلما بغير حق ، فذهب الى صقلية وظل مقيما بها فى انتظار وسيلة لنقله ، غير أنه أصيب أثناء وجوده هناك بمرض خطير مات منه يوم ٢٦ يونيو ، وكان قد تولى البطركية مدة أربع سنوات قضاها فى هدوء ، ثم أتبعها بثلاث أخريات قضاها فى المنفى ·

على أنه قبل وصول الخبر بموت « دامبيرت » كان « ابريمار » مغتصب هذه الوظيفة(١) ـ قد عزم على الابحار قاصدا زيارة رومة بعد أن علم أن المعظم « دامبيرت » عائد مرضيا عليه ليتبوأ مكانه الشرعى ، فرغب (ابريمار) أن يؤكد تبرئة ساحة نفسه ، ويثبت أن كل شىء قد تم على غير ارادته ، وأن وضعه فى مكانه هذا كان على غير سعى منه ، فلما وصل الى رومة لم يلق مايرضيه ، ولكنهم أنبأوه أنهم معينون نائبا رسوليا بالقدس ومرسلوه معه الى هناك ليتقصى حقيقة الموضوع على أكمل وجه ، وعين لهذه المهمة « جبلين » رئيس أساقفة « آرليس » وكان قد بلغ من السن أرذله ، فصدرت

---

(١) أى بطركية بيت المقدس ·

اليه أوامر البابا بالمضى الى بيت المقدس ، فمضى حتى اذا بلغها عقد مجمعا من أساقفة المملكة ، واستقصى الحقائق المتعلقة بقضية « ابريمار » كل الاستقصاء(٢) ٠

وأدلى الشهود الصادقون الموثوق بكلامهم الذى لا يرقى اليه الشك بشهاداتهم التى اقتنع بها النائب البابوى « جبلين » ، فأدرك أن خلع « دامبيرت » لم يكن له سند شرعى يبرره ، بل كان نتيجة مكائد « أرنولف » وبطش الملك ، وأن « ابريمار » اعتلى كرسى كاهن لايزال حيا ، ولايزال ينعم بعطف الكنيسة الرومانية ، ومن ثم فان « جبلين » ــ بناء على السلطة المخولة له ــ قام بخلع « ابريمار » من البطركية ، ولكن نظرا لتقواه العميقة وبساطة خلقه غير المألوفة فقد كلف « ابريمار » بادارة كنيسة قيسرية التى كانت خالية اذ ذاك ٠

***

ثم حدث فيمـــــا بعد أن اتبعوا ما كان مألوفا ليكون تناول الموضوع قد تم بالاعتبار الواجب له ، فحددوا يوما معينا يناقش فيه رجال الدين والشعب معا أمر اختيار بطرك لكنيسة القدس ، وبعد استعراض ما أسفر عنه الحوار بين الجانبين من شتى الوجوه

---

(٢) أشارت الترجمة الانجليزية (ج ١ ص ٤٦٧ ، حاشية رقم ١٧) الى أن البابا باسكال الثانى كان قد أرسل خطـــابا الى الملك بلدوين يستفـاد منه غير الذى جاء بالمتن وان « ابريمار » غادر القدس بعد وفاة « دامبرت » ليتسلم الصلاحية من يد البابا ، ثم مضى « ارنولف » فى اثر « ابريمار » مزودا برسائل تتهم ابريمار ، وقد بنت الترجمـــة الانجليزيـة هذا القول على ما ورد فى
R. Rohricht, Regesta regni Hierosolymitani, No. 19.

وقع الاختيار بالاجماع على مندوب الكنيسة الرسولية « جبلين » ليجلس فى كرسى البطركية ، ويقال ان هذا الاختيار كان بتدبير ماكر من ارنولف الذى ذهب الظن به — وقد رأى تقدم سن جبلين وهرمه — الى أن جبلين لن يظل طويلا فى المنصب البطركى ·

***

وحدث فى نفس سنة ١١٠٧ من مولد سيدنا أن قام العسقلانيون بما طبعوا عليه من مكر فنصبوا كمائن فى مواضع معينة على طول الطريق الكبير الواصل بين بيت المقدس والبحر ، ووضعوا فى هذه الكمائن خمسمائة فارس وألف جندى ، وكان ذلك بسبب ما ترامى الى سمعهم من أن طائفة من شعبنا قد غادرت مدينة يافا ، ميممة وجهها شطر بيت المقدس ، فأرادوا أن ينالوا بالدهاء والخديعة ما عجزوا عن نيله بالقوة، فوضعوا كمائن تتربص بالعسكر الحجاج الذين كانوا لا يعلمون شيئا عن كل هذه الكمائن ، فما كاد هؤلاء الحجاج يسيرون فى طريقهم حتى وقعوا فى الشرك الذى نصبه العدو لهم ، فاستولى عليهم القلق الشديد ، وترددوا فيما اذا كانوا يقاتلون أم يعودون من حيث جاءوا ، وبينما هم فى هذا التردد اذا بالعدو يغير عليهم ، فقضى على كل جدل يمكن أن يثيروه ، ولما أدرك رجالنا أنهم بين خيارين لا مفر لهم من أحدهما ، وهما اما أن يحاربوا بكل ما فى وسعهم ، واما أن يقعوا مجللين بالعار ، فقد رضخوا للضرورة وعاودتهم جرأتهم واستردوا شجاعتهم واندفعوا بجاش قوى على من كانوا يحسبونهم رجالا لا تنالهم الأيدى ، فكان للمفاجأة وقعها على الكفار الذين لم يستطيعوا الصمود لهذا الهجوم فلاذوا بأذيال الفرار ، فمضت قواتنا فى أثرهم بعضا من الوقت وقتلت نفرا ممن وقعوا فى يدها من أسراهم ، وهكذا كتب الله النصر للصليبيين الذين

لم يفقدوا سوى ثلاثة رجال فقط ، واستمروا فى طريقهم الى بيت المقدس ٠

ـ ٥ ـ

كانت مدينة صور لاتزال حتى ذلك الوقت فى قبضة الجاحدين الذين كانوا يحاولون اعاقة تقدم الصليبيين بشتى الطرق ، وكان « هيج دى سنت أومير » ـ ذلك الرجل الشريف القوى الباذل نفسه فى خدمة المسيح قد خلف تانكريد فى حكومة مدينة طبرية ، وكان دائم القيام بهجمات خاطفة على صـــور ، ومراوحتها بالغـارات المستمرة بقدر ما تسمح به المسافة بين البلدين ، وهى ثلاثون ميلا ، وكان العسكر فى غدوهم الى صور ورواحهم عنها يتعرضون للخطر لعدم وجود أى قلاع أو أماكن حصينة بين المدينتين يلجأون اليها لو تعقبهم العدو ، لذلك حاول هذا الرجل العظيم تذليل تلك الصعوبة فعزم على بناء حصن على قمة أحد الجبال المطلة على مدينة صور ، وان كان يبعد عنها حوالى عشرة أميال ، وكان الاسم الأصلى لهذا الموضع هو « تبنين » ، ولما كان الحصن واقعا على جبل شاهق الارتفاع ، شديد الانحدار ، فقد أطلق عليه اسم « تورون » واشتهر بطيب هوائه وبديع مناخه وهو يوجد فى قبيلة « عشير » فيما بين البحر وجبل لبنان ، وعلى مسافة متساوية من كلتا المدينتين : صور وبانياس ، وأرضه شديدة الخصب ، وصالحة تماما لزراعة الكروم والأشجار ، كما أن محاصيلها وفيرة بفضل عناية فلاحيها بها ، ومن ثم فان هذا المكان لم يقتصر على أنه أمد بانيه بالفوائد الملائمة كل الملاءمة لاحتياجاته فى وقته حينذاك ، بل انه كان ذا جدوى قصوى لمدينة صور أيضا وبقية الناحية ، وذلك بفضـــل خصوبة أرضـــه وتحصيناته الرائعة الشهيرة ٠

***

وبعد قليل من تشييد هيج النبيل لهذا الحصن اقتحم أرض العدو على رأس سبعين فارسا قاتل بهم أربعة آلاف دمشـــقى ، وصدهم مرتين فى يومه هذا صدا عنيفا ، كما حاول ذلك مرة أخرى ولكن فى ظروف أحسن من سابقتها ، اذ ترادفت الامدادات الاضافية عليه هذه المرة ، كما أن العناية الالهية لاحظته بعينها ، فشدت من عزيمته ، حتى استطاع بعون الله أن يرغم العدو على الفرار ، ولكنه رمى عن قوس بسهم جرحه جرحا قاتلا أرداه ، وكان هيج رجلا عاقلا وبطلا جديرا بكل ثناء على خدماته ، مقبولا كل القبول عند الملك ورجال مملكته ٠

وقد فقد العدو فى هذا الاشتباك مائتى رجل ، كما استولى رجالنا على مثل هذا العدد ، لكن من الخيل ٠

وتلى هذه الأحداث ظهور علامات ونذر كثيرة فى الأفق الشرقى من السماء ، حيث ظل يظهر على مدى أربعين يوما أو أكثر كوكب مذنب يتبعه خط طويل من اللهب ، ويكون ظهوره بعد دخول الظلام ، أما فى الصباح فتبدو الشمس منذ ظهورها حتى الساعة الثالثة من النهار وكأن شمسين تتبعانها وقد تكافأتا فى الحجم ، وان كانتا أقل منها اشعاعا ، كما كان يرى حول الشمس قوس قزح بكل ألوانه الوهاجة ، فكانت كل هذه العلامات تؤذن فى الواقع بتغير فى أحوال الناس ٠

— ٦ —

فى هذا الوقت كان الخائن الوغد «الكسيوس كومنين» امبراطور القسطنطينية يكثر من وضع العراقيل فى طريق الحجاج الراغبين فى عبور بلاده وهم فى طريقهم الى بيت المقدس ، واذا كان قد عمل على مضايقة الحملة الأولى التى لم يجن منها فائدة كبيرة كما قلنا

وذلك بتلمسه مساعدة أحد الولاة الترك الأقوياء وهو قلج أرسلان وينشد مساعدة هذه الأمم والشعوب الكافرة ضد هذه الحملة فانه فى المرة الثانية أخذ يبعث رسله الكثيرين لاثارة نفس هذه الأمم والشعوب الكافرة ضد الحملة الثانية التى كانت بقيادة كونت بواتو، فأسفرت خيانته هذه عن اندحار الحملة(٣) الثانية اندحارا يكاد يكون تاما ، ولم يكتف باللجوء مرة أو مرتين للغدر بالصليبيين ، بل انه ما من مرة أتيحت له فرصة انزال الخسائر والحاق الدمار بهم الا عدها كسبا لنفسه ، ومع ذلك فانه لم يكد ريموند (دى بواتييه) يمثل بمن معه أمام الامبراطور ويصبح فى حضرته حتى أعطاهم الامبراطور من طرف اللسان حلاوة وأمطرهم بهداياه وتحفه ليكون أكثر قدرة على خداعهم ، وبذلك حافظ على ما اشتهر به شعبه من انطباق المثل التالى عليه القائل : « لشد ما أخاف الاغريق حتى ولو قدموا الهدايا » لأنه كان على وجه العموم ينظر بريبة الى تقدم اللاتين ، ولا يأذن بزيادة سطوتهم أو انتشار نفوذهم اذا كان فى مقدوره منع ذلك ٠

كانت هذه المثالب لاتزال حية فى ذهن بوهيموند حين عاد من البلاد الواقعة وراء الجبال على رأس خمسة آلاف فارس وأربعين ألفا من الجند المشاة ، عاقدا النية على العمل لما فيه صالح جميع اللاتين ٠ وكانت عودته بحرا ، ووصوله الى بلاد الامبراطور فى اليوم التاسع من أكتوبر ، فلما فرغ من اجتياحه جميع المدن الساحلية وخرب منها ما خرب مضى فدمر ابروس الأولى والثانية على السواء ثم حاصر « دورازو » قصبة ابيروس الأولى ، وأشعل النار فى كل النواحى المجاورة ، وانطلق يصليها خرابا ويعاملها وفق هواه ، وكان

(٣) المقصود بذلك الطائفة الثانية من الصليبيين الذين كانوا بقيادة ريموند الصنجيلى كونت تولوز ، وليس يقصد بها « الحملة الثانية » التى كانت بقيادة كونراد امبراطور المانيا وملك فرنسا ٠

يتأهب لشق طريقه الى أقصى بقاع الامبراطورية وقد آلى على نفسه ـ بعون الرب ـ الا أن يقضى على كل ما يضر اللاتين ٠

ولما سمع الامبراطور بدخول بوهيموند بلاده على رأس جيش كبير من اللاتين جمع عسكره وتقدم لملاقاته ، وأقام قواته قرب قوات بوهيموند ، غير أن تدخل بعض أصدقاء الطرفين فى هذه الأزمة أدى الى عقد معاهدة بينهما ، أكداها باليمين الصادقة ، وتعهد الامبراطور أن يقوم منذ هذه اللحظة بنية حسنة ومن غير أن يبيت شرا ـ ببذل النصح والعون لأتباع المسيح الراغبين فى المضى الى الشرق ، وأن يمنع رعاياه من وضع العراقيل فى طريقهم ٠

ولما اتفقوا على هذه الشروط وأكدوها باليمين ، قام بوهيموند فأقسم من جانبه قسما آلى فيه على نفسه ألا يحنث فيه ـ بالمحافظة على صداقته للامبراطور وأن يكون تابعا مخلصا له الى الأبد[٤] ٠

حينذاك قدم بوهيموند أمامه طائفة الحجاج الذين كانوا قد التزموا باكمال الرحلة الى بيت المقدس ، أما هو فقد عاد أدراجه الى « أبوليا » حيث تطلبت بعض الشئون الخاصة أن يزيد فى أمد بقائه هناك ، فلما كان الصيف التالى بدأ يعد الترتيبات اللازمة ويجمع السفن ، غير أنه فى أثناء تأهبه للرحيل ـ وقد جمع العسكر من كل ناحية ـ داهمه مرض خطير أدى الى وفاته ، فمات تاركا وريثا ورث اســـمه وامارته ، وكان الوريث ذكرا أنجبته(٥) له ليدى كونستانس ابنة فيليب العظيم ملك الفرنجة ٠

كذلك مات خلال هذه السنة(٦) حموه فيليب ملك الفرنجة الجليل ٠

---

(٤) وكان ذلك فى مارس سنة ١١١١م ٠

(٥) كان مولده سنة ١١٠٩ أى قبل وفاة ابيه بعامين ٠

(٦) اخطأ وليم الصورى اذ يقول « فى هذه السنة » ، فينصرف الذهن الى عام ١١١١ م ، كما هو وارد فى الحاشية رقم ٤ ، لكن موت فيليب كان فى سنة ١١٠٨ ٠

فى ابان ذلك الحين بينما كان العظيمان اللذان أشرنا اليهما من قبل وهما كونت بلدوين وقريبه جوسلين لايزالان فى أسر العدو تجمع عسكر من الترك فى أعداد تفوق الحصر جيء بهم من بلاد المشرق فاغتنموا فرصة غياب هذين الأميرين وأغاروا على أرض الجزيرة غارة شعواء، وعاثوا فسادا وتدميرا ونهبا فيما حول الرها، واستولوا عسفا على بعض الحصون ، وأضرموا النار فى القرى ، وأمسكوا بالفلاحين وغيرهم ممن يعملون فى الحقول ، ولم ينج من ذلك الدمار أى مكان خارج المنطقة الموجود بها المدن المسورة ، مما أسفر عن توقف فلاحة الأرض وندرة الطعام حتى كاد أن ينعدم .

***

كان الحفاظ على المنطقة موكولا الى تانكريد الا أنه جد من الأمور أمور عاقته واضطرته للبقاء فى أنطاكية التى أصبح مسئولا عنها هى الأخرى أيضا كما قلنا منذ رحيل بوهيموند ، فلما علم بما أحدثه العدو من نهب وسلب فيما حول الرها أرسل الى ملك بيت المقدس ليشـــــرح له ماحدث من أمور اقتضت منه أن يبعث فى استدعائه ، كما قام هو ذاته بحشد قوات كثيفة من كل البلدان والحصون ، فما غبرت أيام قلائل حتى كان الملك فى طريقه للانضمام اليه ، لحظة أن كان تانكريد مسرعا الخطى الى هناك وقد استبد به الخوف على امارته ، وانضم الجيشان بعضهما الى بعض فى الحال، وعبرا الفرات معا ، فلما بلغوا الرها وجدوا المارقين - كما قيل - يعربدون هنا وهناك لم يتركوا ناحية من النواحى الا جاسوا خلالها، دون أن يعترضهم معترض ، لكنهم لما علموا بقدوم قواتنا بعثوا فى

استدعاء عساكرهم ، وقلت عربدتهم عن ذى قبل لطول معرفتهم ببأس جنودنا ، فتملكهم الخوف من قتالهم ، وان كانوا رغم ذلك لم يرحبوا بعودتهم الى بلادهم ، لادراكهم ضيق وقت كل من الملك وتانكريد ضـــيقا يمنع هذا وذاك من طول اقامته ، ومن ثم فقد حـاولوا تعويقهما أملا منهم فى أن يؤدى طول هذا التأخير الى ارغام القادة على الرحيل ، واذ ذاك يتمكنون هم من معاودة ماجرت به عادتهم من السلب والنهب ، لكن لم تخف حقيقة مقصدهم على زعمائنا فنهجوا نهجا شديد الملاءمة لهذه الظروف الصعبة ، ذلك انه لما كان الاقليم الواقع فى منطقة نهر الفرات ينتج معظم المحاصيل فقد عمد الزعماء للاستفادة من هذا الوضع ، فأمروا أن تجمع شتى أنواع المؤونة ثم تنقل على ظهور الجياد والابل والحمير والبغال وذلك عبر النهر ، وبهذا تسنى حصول البلدان والقلاع على كميات وفيرة من مواد المعيشة تكفى امدا طويلا ، كما انصب اهتمامهم على وجه الخصوص على امداد مدينة الرها فأمدوها بامدادات وفيرة زادت عن حاجتها ، حتى اذا اطمأن بال هؤلاء القادة على المدن والحصون، وزالت دواعى الخوف عليها بعد تزويدها بالعتاد والرجال والطعام عادوا الى نهر الفرات لأمور أكثر خطورة ، تستدعى التفاتهم اليها .

وبينما كان الصليبيون يعبرون النهر فى قوارب صغيرة خفيفة قليلة العدد ، شرع العدو الذى كان يتعقبهم فى مهاجمة من دونهم ممن لازالوا على الشاطىء الآخر من النهر ، ينتظرون دورهم للعبور ، وفتك ببعضهم وأسر البعض الآخر أمام أعين تانكريد والملك اللذين وقفا عاجزين عن مد يد المعونة اليهم ، فقد حال بينهما وبينهم وجود النهر الذى لم يكن بمقدورهما اجتيازه ، كذلك كان من الصعب عليهما وعلى من معهما ان ينجحوا فى مساعدة قوات ضخمة العدد كهذه القوات على العبور مرة أخرى اذ ليس لديهم ســـوى القليل من القوارب ، ومن ثم كانت قواتنا مضطرة للعودة الى بلدها ، وقد

هصر الحزن قلوبهم حزنا على مصير أولئك التعساء الذين رأوهم رأى العين يروحون ما بين قتيل وأسير ٠

أما الرجال البارزون الذين وكل اليهم حراسة الاقاليم فى هذه الناحية من الفرات فقد بذلوا أقصى جهدهم فى تحصينها ٠

أما الذين قتلوا أو أسروا على شواطىء الفرات فكانوا من فقراء الأرمن الذين فروا أمام الدمار الساحق الذى انزله الترك بالناحية ، فراحوا يلتمسون مكانا آمنا يلجأون اليه ٠

ـ ٨ ـ

فلما كانت السنة التالية أعنى سنة ١١٠٩ من مولد المسيح عاد بلدوين كونت الرها وقريبه جوسلين الى أملاكهما بعد خمس سنوات موصولة قضياها أسيرين لدى العدو ، ثم آن لهما أن يستردا حريتهما منه بعد أن قدما اليه الرهائن ، ورضيا أن يدفعا له المال الذى طلبه فداء لنفسيهما ، ثم شاء الرب أن تمسهما رحمته حين قام الرهائن بقتل حراسهم الموكلين بهم فى احدى القلاع اذ وثبوا عليهم وهم يغطون فى سباتهم وقد أثقلهم كثرة ما شربوا من الخمر ، فلما تم لهم ذلك تسللوا خلسة تحت جنح الظلام وسلكوا دروبا ملتوية واتخذوا طريقهم الى بلدهم ٠

ويقال انه لما وصل الكونت الى الرها رفض تانكريد فى بادىء الأمر أن يأذن له بدخولها ، لكنه مالبث أن تزحزح عن رأيه حين ذكروه باليمين التى قطعها على نفسه لحظة أن عهد اليه القيام بادارة دفة أمورها وقت وقوع الكونت فى الأسر ، وحينذاك أمر أن تسلم المدينة بكل ما حولها الى بلدوين ٠

وأخيرا قام القائدان (بولدوين وجوســـلين دى كورتناى) واستنكرا هذه المعاملة التى يعاملهما بها تانكريد وأعلناها حربا عليه، وان كان جوســلين أكثر الاثنين تشـــددا ، ذلك لأن وجود قلاعه وحصونه على ذلك الجانب من النهر كان يجعله أدنى ما يكون لأرض انطاكية ، وحدث فى أحد الأيام أن خرج (جوسلين) ومعه رهط كبير من الأتراك الذين استنجد بهم فانجدوه ، فشن واياهم غارة شعواء على تانكريد الذى علم بنواياه فهب لقتاله ، وشبت الحرب بينهما فمات فى ساحتها من طليعة رجال تانكريد ما يقرب من خمسمائة رجل ، لكن مالبث جنوده أن عاودتهم شجاعتهم فتجمعوا من جديد وفتكوا بكثير من الترك ، ونجحوا فى هزيمة قوات جوسلين ·

حين وصلت الأمور الى هذا الدرك تدخل كبار رجال الاقليم ورهط من أهل الادراك المقدرين للأمور وعرفوا مدى الخطر الداهم الذى ينذر بما يكون بين رجلين كبيرين كهذين الرجلين من العداء ، والذى لا يستبعد أن يؤدى الى ضرر بليغ بالشعب الصليبى ، ومن ثم أخذوا على عاتقهم القيام بدور صناع الســـلام ، ونجحوا فى التوصل الى تهدئة الأمور بين الطرفين ·

ـ ٩ ـ

وقد حدث فى هذه الأثناء أن جاء « برترام بن ريموند » كونت تولوز الطيب الذكر بأسطول من الجنويين ، وأرسى قرب طرابلس التى كان قريبه « وليم جوردان » لايزال محاصرا لها حصارا دام بلا انقطاع منذ موت ريموند الموقر ، وسرعان ما شب الصراع بين الاثنين (برترام ووليم جوردان) ، لأن أولهما تمسك بحقه فى أن يخلف أباه ، على حين أن ثانيهما وليم طالب بمكافأته على جهوده ،

وما تكبده من المصـــروفات طوال السنوات الأربع المتوالية التى قضاها متحملا مسئولية ادارة أمورها ٠

وأراد الأول أن يخلف أباه (ريموند كونت تولوز الصنجيلى) باعتباره الوريث الشـــرعى له فى ممتلكاته على حين كان وليم يجاهد للاستحواذ على المدينة التى لم يكف عن الحرب فيها من غير كلل ، واستمر النزاع بين الاثنين طويلا ، حتى تدخل أصـــدقاء الطرفين بينهما لاقرار السلام فتم ، وتوصلوا الى حل وســـط ارتضاه الجانبان يقضى بأن يتسلم وليم جوردان عرقة وطرسوس وملحقاتهما ، وان يكون لبرترام طرابلس وجبيل وتل الحجاج بكل ملحقاتها هى الأخرى ، وتم الأمر على هذا الوضع الذى ارتضاه الجانبان ٠

ولقد أصبح وليم ـ بسبب ما آل اليه من نصيبه فى الامارة ـ نائبا لأمير انطاكية ، وقطع له يمين التبعية ، اما برترام فقد تسلم براءة تقلده الأراضى التى اقطعها له ملك بيت المقدس ، ملتزما له بالتبعية الاقطاعية المعتادة ، على أنه فى أثناء تدوين الاتفاق اشترطوا انه اذا مات أحد الطرفين من غير وريث يرثه خلفه الآخر فى كل ما بيده مما يملك ٠

غير أنه بعد اقرار الأمر على هذه الصورة جد سبب تافه أدى الى شبوب النزاع بين كبار أتباع الأسرتين ، وسرعان ما امتطى الكونت وليمجوردان فى لحظته جواده وخب به سريعا الى هناك رجاء اعادة الأمور الى مجاريها ، لكن اصابه بالصدفة سهم غرب أفضى الى موته ، فزعم البعض أن هلاكه انما تم بمكيدة من مكائد برترام الدنيئة ، لكن لم يعرف حتى اليوم على وجه التحقيق الفاعل الحقيقى لهذا الجرح المميت ، وبذلك أصبح برترام المالك الوحيد للاقليم كله بعد زوال خصمه ومنافسه فى امتلاك طرابلس على هذه الصورة

وكان الأسطول الجنوى الذى جاء معه يتألف من سبعين قرقورة بقيادة اثنين منأشرا ف الجنـــوية هما أنســـالدوس ، و « هيج امبرياكوس » اللذان اتضح لهما ان الوقت الذى يصرفانه فى حصار طرابلس وقت ضائع من غير سدى ، وانه من الأجدى محاولة عمل شيء يستحق الذكر ، ومن ثم فقد التمسا من برترام - بأسلوب ودى - أن يصحبهما برا الى جبيل « ثم وجها الأسطول بنفسهما ·

وتقع مدينة جبيل على ساحل فينيقية ، وهى احدى المدن التى اشتهرت بتبعيتها لأسقفية صور التى كان لها عليهاكل حقوق السيادة الدينية كما أشار حزقيال(٧) اذ يقول : « شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك فلاقوك ، جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك » ·

ونطالع مرة ثانية فى الكتاب الأول من سفر الملوك فى شأن هذه المدينة ذاتها(٨) قوله : « نحت الجبيليون الحجارة المربعة ، وهيأوا الأخشاب والحجارة لبناء البيت » ·

وكان الاسم القديم لهذا المكان هو « ايف » اذ يعتقد الناس ان « ايفيوس » سادس ابناء كنعان هو مؤسسها ·

***

أحدقت الجيوش بمدينة « جبيل » برا وبحرا حين أصبحت أمامها ، فاستولى على الأهالي حالة من الفزع الشديد لعدم ثقتهم

---

(٧) حزقيال ٢٧ : ٩ ·
(٨) ملوك أول ٥ : ١٨ ·

فى قدرة وسائل الدفاع المتوفرة لديهم ، لذلك ارسلوا سفارة الى قائدى الأسطول « أنسالدوس » « وهيج امبرياكوس » تعلن اليهما استعداهم لفتح أبواب المدينة لهما والاعتراف بسلطانهما عليها ، على أن يؤذن بمغادرتها لمن أرادوا المغادرة من تلقاء أنفسهم ، ومعهم نساؤهم وأبناؤهم ، لا يلقون فى الخروج عنتا ولا ارهاقا ، وأما الذين لا يحبون ترك دورهم بالمدينة فيسمح لهم بالبقاء فيها تحت شروط مقبولة ، فأجيبوا الى طلبهم ، وتم استسلام المدينة للقائدين (الجنويين) ، وقام أحدهما وهو هيج أمبرياكوس بتسلمها لأمد محدد بعد الاتفاق على قدر معين من المال يدفع سنويا لخزينة الجنوية ، وهذا الرجل هو نفسه جد هيج الذى يحكم المدينة اليوم ويحمل نفس الاسم واللقب ، ولما تم أخذ المدينة على هذه الصورة رجع الأسطول مرة ثانية الى طرابلس .

– ١٠ –

بادر الملك بالذهاب الى طرابلس حين علم أن أسطول الجنوية لايزال يتجول فى نواحيها بعد انتهائه من الاستيلاء على جبيل ، وسعى الى ضم الجنوية الى خدمته الخاصة وفق شروط معينة ليتمكن بمساعدتهم من أخذ مدينة أخرى من المدن الساحلية ، اذ كانت لاتزال على شاطئنا أربع مدن ناشزة هى بيروت وصيدا وصور وعسقلان التى تكون فى مجموعها عائقا كبيرا أمام خططنا لتوسيع رقعة مملكتنا الشابة ، لذلك أحدث حضور الملك فرحة كبرى فى نفوس الجميع ممن كانوا قائمين بالحصار برا وبحرا ، وزادتهم حماسة فى الاقبال على ما بيدهم من العمل ، كما كان حضوره مصدر طمأنينة كبيرة للقائمين بالحصار أمام المدينة ، وتضاعف بأسهم ، وزادت ثقتهم بقدرتهم ، وكان وصوله هذا داعيا – من ناحية أخرى – لتزايد يأس المحصورين والقضاء التام على أملهم فى المقاومة .

على ان عدد الصليبيين أخذ فى التناقص بقدر ما تضاعفت قوتهم التى كانت كلما زادت زاد ظهور ما عليه اعداؤهم من ضعف ، لذلك عمد عسكرنا ازاء هذا الموقف لتجديد هجومهم اعتمادا على الامدادات الجديدة التى جاءتهم ، فكانوا لا يدعون فرصة تلوح لهم الا اغتنموها لتشديد ضغطهم على العدو بروح عالية حتى ليخيل لرائيهم أنهم فى مستهل الحصار رغم أنه كان قد مضى عليهم مايقرب من سبع سنوات متتالية وهم يمارسونه بباس كبير ٠

ورأى الأهالى أن قوة الصليبيين تتزايد يوما بعد يوم عكس التناقص المستمر فى قوتهم هم أنفســـهم ، وادركوا أن قد انهكهم الجهد المتواصل الذى يبذلونه ، كما فقدوا كل أمل فى وصول أى نجدة اليهم ، فقلبوا الأمر على شتى وجوهه فيما بينهم ، جاعلين نصب أعينهم وضع حد لهذه الأهوال الكبيرة ، فبعثوا بالرسل الى الملك والى الكونت يقترحون الاستسلام لهما بالشروط التالية :

أن يسمح بحرية الخروج بلا عائق لمن أراد مغادرة المدينة ، مع الاذن له باستصحاب أهل بيته وحمل حاجاتهم الى أى جهة شاءوها، اما الذين لا يحبون الرحيل عنها فيسمح لهم بالبقاء فى دورهم سالمين آمنين ، مع احتفاظهم بما تملكه أيديهم لقاء دفعهم للكونت سنويا قدرا معينا من المال ٠

استمع الملك الى مطالب الأهالى هذه وراح يتشاور بشأنها مع الكونت وأهل الرأى ثم أعلن قبوله لهذه الشروط على أن تسلم له المدينة فى الحال ، ووقع هذا القرار موقع الرضا من الجميع ، فبعثوا فى احضار الأهالى وأجابوهم الى ما التمسوه ، واقسموا اليمين على الوفاء لهم بهذه الشروط دون شجب أو غدر ، واذ ذاك استسلمت المدينة وفتحت أبوابها لجميع من أراد دخولها ٠

وتم الاستيلاء على طرابلس عاشر يوم من يونيو سنة ١١٠٩ من ميلاد المسيح كما قام « برترام » فى الوقت ذاته وأعلن ان طاعته للملك حق فى عنقه ، وأصبح تابعا اقطاعيا ، وصار خلفاؤه منذ هذا الحين حتى اليوم ملتزمين بنفس هذه التبعية لملك بيت المقدس ٠

بعد أن استرد بلدوين كونت الرها حريته عزم على الذهاب الى ملطية فى صحبة رفاقه فى السلاح لزيارة جبريل والد زوجته الذى كان رجلا فاحش الثراء ، ونظرا لكثرة الرجال الذين كان الكونت يستخدمهم فقد كانت حاجته ماسة للمال يسدد به جامكياتهم لقاء خدماتهم الحربية والتزاماتهم التى يؤدونها له على أحســن وجه ، ولذلك فقد عمد الى خطة ذكية كل الذكاء ، ماكرة كل المكر درس فيها ــ فى مهارة محسوبة ــ كل تفاصيلها لتطابق الوقت الذى يمكنه فيه مقابلة حميه ٠

وبعد أن أعد الكونت كل الترتيبات اللازمة للرحــلة مضى الى حميه جبريل الذى رحب به ترحيبا حــارا فاق كل واجبــات الضيافة ، فقد تبناه جبريل واعتبره واحدا من أهل بيته وتبودلت التهانى ــ كما هى العادة ــ بين الجانبين ، وأظهروا علامة السلام بالأحضان الكثيرة ٠

وظل الكونت مقيما عنده بعضا من الوقت حتى جاء يوم وقد استغرق فيه الاثنان فى حديث طويل فى بعض الشئون الهامة حين ظهرت جماعة من فرسان الكونت ــ بناء على تدبير سابق بينه وبينهم ــ وقطعت على الاثنين حبل حديثهما ، ثم تقدم أحد هؤلاء الفرسان الى الكونت وقال له نيابة عن رفاقه : « ليس من أحد يعلم أكثر منك أيها الكونت كيف أخلص هذا النفر من الفرســان فى الحرب من أجلك زمنا طويلا وصدق اخلاصهم ، وكيف أدوا ذلك بشجاعة فائقة اعتمادا منهم على وعدك الصادق لهم ٠

« وانك لتعلم أيضا مدى الأهوال الكثيرة والبلايا الجمة التي تحملوها زمنا طويلا فى ســــبيلك ، وما كابدوه من السهر الدائم والجوع الشـــد والظمأ الممض والبرد القاسى والقيظ اللافح ، اعتمادا منهم على وعدك الصادق لهم ، وحفاظا منهم على سلامة روحك وسلامة امارتك التى وضعتها العناية الالهية وديعة فى يدك لترعاها ولتدفع عنها ضرر العدو ·

« وانك لتعلم كيف تعرضوا لهجمات الأهالى ومن لازال مقيما هناك من الكفار ، وكيف قضوا على محاولات أعداء الصليب ·

« والآن فان هذا الرهط من الفرسان يدعوك لأن تشهد بالخدمات التى أدوها لك ، وأنت تعرف اننا ظللنا نخدمك وقتا طويلا دون أن نتسلم فيه منك أجرا حتى اضطررنا ـ تحت الحاجة الملحة ـ لأن نطلب منك مرارا اعفاءنا من الخدمة عندك ، وكثيرا ما أدى تعاطفنا معك الى استجابتنا لتوسلاتك فى أن نتريث بعض الوقت ، وكنا نستمع اليك مستمسكين بالصبر يوما بعد يوم ، أما الآن فقد بلغت الروح الحلقوم ، وصرنا فى حال لانستطيع معها الانتظار أكثر مما انتظرنا ، فقد كشر الفقر العاتى عن أنيابه لنا ، وهذا ما يحملنا على أن نرفض أن نستجيب لك فى التأخير أو التأجيل أكثر مما احتملنا ، فاختر لنفسك أحد اثنين ، اما أن تنقدنا ما نستحقه عندك من أجر يسد حاجتنا ، واما أن نصبح فى حل من الاتفاق الذى ربطت به نفسك معنا » ·

وتعجب جبريل من مغزى هذاالكلام ومن خشونة هذه اللهجة التى تنذر بشر مستطير ، وتمكن أخيرا من أن يحاط علما بالموقف عن طريق المترجمين ، ثم استفسر عن طبيعة هذا الالتزام الذى ربط به الكونت نفسه ليدفع أجورهم ، فاعتصم الكونت بلدوين بالصمت كما لو كان الخجل قد عقد لسانه حتى الجمه فلم يعد ينطق ، ولكن

المتحدث باسم الفرسان أجاب بأن هذا الالتزام يقضى بأنه اذا جاء اليوم المحدد لدفع أجورهم ولم يدفعها لهم حلقوا لحيته دون معارضة منه • فذهل جبريل من هذا الاتفاق الذى لم يسمع بمثله من قبل ، وجاوز ذهوله كل حد حتى انه ضرب كفا بكف وهو يزفر ويغلى غضبا •

ذلك أن الشرقيين – من اغريق وغيرهم من الشعوب – يحترمون اللحية احتراما بالغا ، واذا حدث ان انتزعت – ولو صدفة – شعرة واحدة من لحية أحدهم كان ذلك اهانة عظمى وعارا لا يمحى •

واستفسر جبريل من الكونت عما اذا كان واقع أمره يتفق والصورة التى قررها الفرسان ، فجاءه الرد بالايجاب ، فسأله ثانية وهو لايزال مندهشا عما حمله لأن يقسم لهم بشىء له من التقدير العظيم ما يرقى الى أن يكون ظاهرة فردية خاصة ويعتبر شرفا للانسان يعلى مكانته ، فان ضاع ضاع شرفه ، فأجابه الكونت قائلا :

« لقد اقسمت بلحيتى لأنى لا أملك شيئا اغلى قدرا منها يتكافأ ومطالب جندى القوية ، ولكن لا يشغلن مولاى ووالدى باله بهذا الأمر ، لأننى أطمع أن تسعفنى رحمة الرب فيمنحنى هؤلاء الفرسان مهلة أعود خلالها الى الرها فألبى مطالبهم ، وحينذاك أكون قد وفيت لهم العهد الذى أكدته بشرفى » •

غير أن الفرسان – بناء على مالقنوه – أعلنوا على لسان واحد منهم أنهم منفذون تهديداتهم للدوق ، ومنفضون عنه فى الحال الى غير رجعة • وحينذاك ظهر التردد قليلا على جبريل الساذج الطبع ، والذى كان يجهل ما دبروه سرا فيما بينهم ، ثم أعلن قراره بأنه سوف يدفع للجند ما فى ذمة ختنه من مال ، ولن يترك رجلا

مثل هذا الكونت الذى ينزله منزلة الابن ليعانى هذا العار ، ثم سألهم ما قدر هذا الدين ؟ ، فقالوا له « ثلاثون ألف قطعة ذهبية ميخائيلية » وهى نوع من السكة الذهبية كان يجرى التعامل بها فى المعاملات التجارية العامة فى ذلك الوقت ، وقد سميت باسم ميخائيل أحد أباطرة القسطنطينية الذى أمر بسك عملة عليها صورته ٠

واذ ذاك وعد جبريل أن يدفع لزوج ابنته الكونت المبلغ الواجب عليه ، شريطة أن يعده وعدا قاطعا مؤكدا بايمانه أنه لن يعود فيقيد نفسه لأى فرد مرة أخرى ـ مهما كانت الظروف الملحة ـ بمثل هذا القيد ، فلما تم دفع المال استأذن الكونت حماه فى السفر والعودة برجاله ، فاذن لهم وقد امتلأت جيوبهم عن آخرها بالنقود ، وزال عنهم فقرهم ٠ وهكذا عاد الكونت الى امارته وهو أثرى مايكون ٠

ـ ١٢ ـ

كان الملك بلدوين شديد التطلع دائما لفرصة تواتيه لرفع ذكر المملكة التى وهبها الله له ، وللقيام بعمل جدير بالقبول عند مولاه وحاميه ، لذلك فكر ـ وهو فى غمرة حماسته الدينية ـ فى السنة التالية اعنى سنة ١١١٠ من مولد سيدنا) أن يرفع الكنيسة الموجودة فى بيت لحم الى مرتبة الكاتدرائية ، وكانت حتى ذلك الوقت لا تعدو أن تكون كنيسة عادية ٠

وسوف تتضح طبيعة هذا القرار وتصبح أكثر جلاء حين نطالع المرسوم الذى أصدره هذا الملك الشديد التقوى ، فهو كما يلى :

« لقد استطاع شعب الفرنجة بايحاء وتوجيه علويين أن يحرر مدينة القدس الطاهرة من انتهاكات الكفار بعد أن طالت مضايقة الوثنين لها ، وهى المدينة التى مات بها مخلصنا ميتة قضت على

الموت الذى جرى أول ما جرى على الجنس البشرى من جراء خطيئة أول أبوين لنا » ٠

« وقد دخل ذلك الجيش (اللاتينى) هذه المدينة العابدة الرب يوم السابع من يونيو ، فلما كان الخامس عشر من يوليو سقطت فى يده لأن الرب حارب من أجلها ٠

« وفى سنة ١١٠٠ من مولد سيدنا ألهمت الارادة الالهية رجال الدين وريموند دى سنت جيل ، وكونت روبرت دى نرمندى ، وكونت روبرت دى فلاندرز ، وتانكريد ، وسواهم من كبار الرجال المصاحبين لجيش الفرنجة أن يقرروا وضع أمر المدينة المفتوحة فى يد أخى المحبوب الغالى ، والتقى الرحيم دوق جود فروى ، غير ان ارادة الرب قضت أن يرحل عن الدنيا فى هدوء هذا الرجل الجدير بحب الله وحاكم هذه المدينة ، وكان رحيله(٩) فى اليوم الثالث بعد مرور العام الأول من حكمه ٠

« وأعلن — أنا بلدوين الذى اختارته العناية الالهية ليخلفه كأول ملك للاتين ارتضاه رجال الدين والأمراء والشعب — اننى قد نظرت بعين الاجلال الى عظمة كنيسة بيت لحم التى هى موضع ميلاد سيدنا يسوع المسيح ، والمكان الذى توجت فيه رأسى بالتاج المتلألىء وعزمت على أن أعززها بالمكانة الأسقفية الكاملة »(١٠) ٠

« ولقد ظل هذا الخاطر يراودنى زمنا طويلا بنية خالصة حتى انتهى بى الأمر أخيرا الى مفاتحة الأسقف المعظم « أرنولف » ورجال

---

(٩) كان موت جودفروى يوم ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ ٠

(١٠) ذلك ان كنيسة بيت لحم كانت لاتعدو حتى ذلك الوقت أن تكون مجرد كنيسة عادية ٠

الاكليروس في القدس ، وألححت عليهم في الرجاء أن يناقشوا معى ذلك الموضوع ، فوافقوني على التماسى العادل ، وقرروا الذهاب الى رومة لبحثه مع موضوع كنيسة القدس التى كانت رياستها في ذلك الوقت شاغرة من غير رأس يدبر أمورها ، وكانت هذه السفارة مؤلفة من رئيس الشمامسة « أرنولف » ومن « أرشارد » الذى كان فى ذلك الوقت كاهنا ، فمضيا الى رومة مؤيدين بالروح القدس ، ولقيا مساعدة كريمة فى كلا الموضوعين من جانب بسكال بابا الكنيسة الجامعة ، ثم عادا بعدئذ الى بيت المقدس ، وقام البابا بسكال بعد رحليهما فأرسل الى بيت المقدس رئيس أساقفة « آرليس » المدعو « جبلين » وكان رجلا ألمعيا يحيا حياة شـــديدة الطهارة ، وعهد اليه فى حضرة كل من « أرنولف وارشارد » بالقيام بهذه المهمة .

وقد قوبل « جبيلين » بأعظم فرحة من قبلى وقبل رجال الدين والشعب قاطبة ، وراح يتصرف وفق مايرى ، بناء على الأوامر التى تلقاها من البابا بسكال وبفضل حسن نيتى ، ورضاء جميع رجال الدين ببيت المقدس وتأييد المجتمع ، فقرر أن يصبح « اشتينوس » المبجل أول أسقف لبيت لحم ، وكانت له من قبل الرياسة على هذه الكنيسة ذاتها ، كما كان كبير مرتليها ، وهو الذى اختاره رجال الاكليروس بالقدس بناء على رغبتى ورغبة كبار رجالاتى والشـــعب ليكون أسقف عسقلان ، فجعل كنيسة عسقلان – تنفيذا لارادتى وأمرى – تابعة لأبرشية بيت لحم الى حد ما .

« وأخيرا فاننى – أنا بلدوين الذى هو برحمة الرب أول ملك لا تينى لبيت المقدس – قد رحبت مسرورا لقراراته هذه وأكدتها بكل قواى .

« كذلك منحت بمحض ارادتى الأسقف وخلفاءه ملكية مدينة بيت لحم ويكون لهم التصرف فيها ، وهى التى كنت قد أقطعتها

للكنيسة لخلاص روحى وروح أخى الدوق الرحيم جود فروى وجميع أرواح أقاربى ٠

« كذلك اقطعته ومنحته قرية فى اقليم عكا تدعى « البيدر » وأخرى فى اقليم نابلس اسمها « سيلون » وثالثة قرب بيت لحم اسمها بيت بيزان ، وكذلك قريتين فى أرض عسقلان هما «زوفير » وكيكفا بكل محلقاتهما ٠

« كذلك خلصت الكنيسة المشار اليها مماكانت تئن منه ومما كانت ترميها به كنيسة بيت المقدس فيما يتعلق بالأرض والبساتين الموجودة فى ضـــواحى بيت المقدس التى هى جـزء من أملاكى الخاصة ٠

« وزيادة على ذلك فاننى قررت أنه اذا استسلم احد رجال الدين أو العلمانيين للطمع الدنىء ، فتجاسر بعد موتى على شجب ما تم برضائى وتأييد الروح القدس (فيما يتعلق بكنيسة بيت لحم المعظمة باعتبارها موضع ولادة سيدنا ومخلصـــنا) ، وبمعونة بسكال العظيم بابا الكنيسة الرومانية الموقر وبواسطة وكالة نائبه « جبلين » رئيس أساقفة « آرليس » فان هذا الشخص سيعتبر متهما بالتعدى ، فان لم ينفع معه التحذير الكافى بالتراجع عما أقدم عليه فسيعاقب عقابا صارما وينفى نهائيا من مملكتنا ٠

« وزيادة على ذلك فانه اذا رغب أحد من نبلائى أو فرسانى أو مواطنى الملهمين بروح الرب فى أن يتنازل عن بعض ما يملك لهذه الكنيسة ذاتها من أجل خلاص روحه وأرواح أقاربه فاننى أمنحه الحرية فى تنفيذ وصيته الطاهرة ، وتعتبر هبته هذه نافذة شرعا ، وتؤخذ من أملاكه ٠

« ان قرار هذا التنازل وتقرير الأشياء التى تمت قد وضعت وتأكدت بامضائنا فى سنة ١١١٠ من مولد سيدنا ، وفى الدورة الثالثة ، وفى زمن بابوية بسكال الثانى بابا الكنيسة الرومانية ، ووقت أن صار رئيس أساقفة « آرليس » « جبلين » نائب الكنيسة الرسولية هو البطرك المنتخب لبيت المقدس » شهد على ذلك :

أرنولف المطران : رئيس الشامسة •

ارشارد الكاهن •

استاس جرنييه •

انسلم قيم برج داود •

رالف دى فور تيانيتو ، فيكونت بيسللوس •

سيمون بن الدوق •

انفريد رجل الدين •

جيرار الحاجب •

وكثيرون غيرهم •

— ١٣ —

كان جلالة الملك الفاتح العظيم والعابد لله بالحق يسعى دائما وأبدا من غير ملل لزيادة رقعة المملكة التى عهد الرب بها اليه ، وحدث فى فبراير من تلك السنة ذاتها ان اغتنم فرصة مجىء بعض الشوانى لتمضية الشتاء فى المملكة فجمع من كل رحاب مملكته عسكرا بقدر ما استطاع الصليبيون تقديمه وحاصر بهم بيروت •

وتقع هذه المدينة على ساحل البحر فى فينيقية بين جبيـــل وصيدا ، وهى احدى المدن الكبرى التابعة لأسقفية صور ، وكانت فى القديم موضع رعاية الرومان الذين اعتبروها احدى مستعمراتهم ومنحوها حقوق المواطنية ، وحين كتب « أولبيان » عن ولاية فينيقية فى « مختصره » تحت عنوان « الاحصاء » قال : « تمتاز مستعمرة بيروت ــ الواقعة أيضا فى نفس الولاية ــ عن غيرها بالعطف السامى يحبوها به الامبراطور » ، ويتكلم هارديان المبجل عنها فى خطبة من خطبه باعتبارها مستعمرة « أوجستوس التى تتمتـــع بالحقـــوق الايطالية »، ولم يقتصر هذا الامبراطور على منح بيروت الحقوق الايطالية فحسب ، بل زاد فخصها بميزة أخرى هى حقها فى تأسيس المدارس الرومانية بها وهى ميزة لم تمنح الا لقلة من المدن ٠

ويطالع المرء فى الكتاب الأول من القانون الدستورى الذى يبدأ بقوله : « وفى بيروت يوجد أيضا مدرس القانون دوروثيوس » ، والمعتقد أن اسم هذه المدينة كان فى زمن سابق جدا هو « جيرسى » نسبة الى مؤسسها « جيرسيوس » خامس أبناء كنعان ٠

✻ ✻ ✻

ولما وصل الملك بلدوين أمام بيروت استدعى اليه « برترام » كونت طرابلس ، طالبا منه الانضمام اليه ، وشرعا فى الحال فى الاطباق عليها أطباقا عنيفا ، ولكن أقبلت السفن من صور وصيدا وعليها المحاربون الشجعان استعدادا لمساعدة المدينة ، ولو أتيحت لهؤلاء الناس حرية الذهاب والمجىء لتبددت هباء جميع محاولات الذين حاصروها ، لكن حين وصل الأسطول المسيحى الذى كان الملك يعتمد على معاونته فى الحصار خافت تلك السفن المعادية أن تخرج الى عرض البحر ، وسرعان ما ارتدت الى الميناء ، ومن ثم لم يعد الأهالى قادرين على القدوم من البحر أو الخروج اليه ٠

وكان على مقربة من المدينة غابة من الصنوبر استطاع الجيش المحاصر أن يحصل منها على كميات ضخمة من الخشب تصلح لصناعة سلالم التسلق وكل أنواع الآلات ، فصنعوا منها الأبراج الخشبية وآلات الرمى وشتى صنوف العدد النافعة فى الحصار ، وواصلوا هجومهم على المدينة بصورة لم تدع للمدافعين عنها ولو ساعة واحدة من الراحة بالليل أو النهار ، وأخذ الصليبيون يتناوبون العمل فى دوريات الواحدة منها بعد الأخرى ، فانهكوا قوى خصومهم اذ حملوهم من الجهد مالا يطيقون ، واستمر الصليبيون مدة شهرين فى هذه المهمة بهمة صارمة ، وبينما كانوا فى أحد الأيام يشنون غاراتهم على أماكن متفرقة من المدينة فى وقت واحد وبعنف أكبر مما يتطلبه العمل اذا برهط من العسكر قد نفذ صبرهم فقفزوا على السور من الأبراج الخشبية التى كانت مسندة الى الجدران ، واقتدى بهم غيرهم ، وانطلق غير هؤلاء يتسلقون سلالم الصعود ثم هبطوا جميعا وراء السور ، وشقوا طريقهم الى داخل المدينة ٠

لم يجد الأهالى حينذاك بدا من الفرار الى الساحل مما مكن جيشنا من دخول المدينة من غير ان يلقى كيدا واستحوذ عليها كلها ، ولما جاء الخبر بأن الملك وعسكره اقتحموا البلد وثب الصليبيون الموجودون على ظهور السفن الى اليابسة واحتلوا الميناء، وردوا الى الوراء بسيوفهم جموع الأهالى الذين فروا على وجوههم عسى أن يجدوا مكانا آمنا ، وأرغموهم على الرجوع حتى صاروا وسط أعدائهم ، ولما شاء سوء طالع أهل البلد أن يحصروا بين فريقين معاديين لهم فقد ضاقت بهم السبل وضلوا الخطى ، فكانوا يمضون تارة نحو هذا الفريق وتارة نحو الفريق الآخر ، فتناوشتهم سيوف الجانبين فأهلكتهم ٠

وأخيرا استفظع الملك هذه المذبحة التى لاتعرف الرحمة ، فأمر أن ينادى بوقفها ، ومن بالحياة على من بقى على قيد الحياة من المغلوبين الذين راحوا يلتمسون رحمته ٠

وكان الاستيلاء على هذه المدينة يوم ٢٧ ابريل سنة ١١١٠ من ميلاد سيدنا ٠

— ١٤ —

وأبحر فى هذه السـنة ذاتها طائفة من الحجاج من الجزر الموجودة فى الغرب ، لاسيما من البلاد المسماة بالنرويج بعد أن سمعوا بخبر استيلاء أتباع المسيح الصادقين على مدينة بيت المقدس الطاهرة ، ومن ثم رغبوا فى الذهاب اليها طمعا منهم فى تأدية الواجب الدينى ، لذلك أعدوا أسطولا لابأس به وأقلعوا ، فهب عليهم ريح رخاء ظلوا معها مبحرين فى القنال الانجليزى حتى اجتازوا المضيق الموجود بين كالب وجبل أطلس ودخلوا بحرنا وسـاروا مصاقبين لساحله حتى بلغوا يافا ، وكان قائد أسطولهم شابا فارع القامة ، أبلج الطلعة هو أخو ملك النرويج ، فلما القوا مراسيهم بالميناء ونزلوا الى البر يمموا وجوههم مباشرة شطر القدس وهى الغاية المنشودة من حجهم هذا ٠

ولما ترامى نبأ وصولهم الى سمع الملك أسرع الى مقابلتهم ورحب ترحيبا كريما بالأمير محييا اياه ، وحاول فى اثناء حديثه الودى ان يتأكد عما اذا كانت هذه الحملة البحرية تعتزم البقاء فى المملكة بعضا من الوقت ، فان كان الأمر كذلك فهل يقبلون ان يبذلوا عن طيب خاطر بعضا من وقتهم لخدمة المسيح حتى يسـتطيع الصليبيون بفضل جهودهم الحماسية أن يزيدوا رقعة ما يملكون باستيلائهم على واحدة من مدن الكفار ؟ ٠

وبعد أن تشاور الاسكندناويون فيما بينهم أجابوه بأنهم ما جاءوا الا بهدف تكريس أنفسهم لخدمة المسيح ، وزادوا على ذلك بأنهم على أتم أهبة للابحار على وجه السرعة الى أى مدينة ســـاحلية يريد الملك وجيشه محاصرتها ، ولم يطلبوا ثمنا لقاء خدماتهم هذه سوى امدادهم فقط بما يلزمهم من الطعام ٠

أصاخ الملك الى ماقالوه والفرحة تغمره ، وسرعان ما تجمع لديه حشد كثيف من جند المملكة صار جيشا ضخما زحف به لحظة ابحار الأسطول من ميناء عكا وأسرع ما وسعه الاسراع حتى وصل الجيشان أمام المدينة فى وقت واحد تقريبا ٠

* * *

وصيدا ، مدينة بحرية بالغة الأهمية ، وتقع بين بيروت وبين صور العظيمة التى تعتبر جزءا هاما من فينيقية ، وكثيرا ما ترد الاشارة اليها فى كتابات المؤلفين القدامى والمحدثين على السواء ، فمن ذلك ان سليمان فى كتاب الملوك يكتب الى حيرام ملك صور فيقول :

« والآن فآمر أن يقطعوا لى أرزا من لبنان ، ويكون عبيدى مع عبيدك ، وأجرة عبيدك أعطيك اياها حسب كل ما تقول ، لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين »(١١) ٠

ويشير سيدنا أيضا فى الانجيل الى هذه المدينة فيقول : « لو صنعت فى صور وصيدا القوات المصنوعة فيكما لتابتا قديما فى المسوح والرماد »(١٢) ٠

---

(١١) ملوك أول ٥ : ٦ ٠
(١٢) متى ١١ : ٢١ ٠

ونقرأ فيما نقرأ أن المدينة تأسست على يد كنعان حيث لانزال الى اليوم نحتفظ باسم منشئها ، كما انها تعد واحدة من المدن العظمى التابعة لمطرانية صور ٠

وهكذا أحدقت قواتنا بصيدا بحرا وبرا حتى تملك الأهالى الخوف بصـــورة أدركوا معها ألا جدوى من وراء مقاومتهم هذه القوات وأيقنوا أنهم عاجزون عن الصمود فى وجهها ، ودفعتهم الرغبة فى تجنب الخطر المحدق بهم الى محاولة الحصول بالحيلة على ما يعجزون عن نيله بالقوة ٠

* * *

وكان فى حاشية الملك رجل يدعى بلدوين وكان من أخلص الناس له ، ويعتبر حاجبه الخاص ، وكان فى بادىء أمره وثنيا ، ثم طلب أن يعمدوه ، فلم يكتف الملك بدافع من حماسته الدينية أن يرحب به فى جرن المعمودية المقدس ، بل سماه باسمه ، وجعله واحدا من خاصكيته ٠

واذ كان كبار رجال صيدا قد أجمعوا عزمهم على التماس أى وسيلة لتحرير أنفسهم ، فقد أرسلوا فى السر وسطاء لمفاوضة هذا الرجل ، ووعدوه بقدر كبير من المال وبأملاك شاسعة فى المدينة ان هو تمكن من اغتيال الملك فيخلصهم بذلك من خطر كبير ، وكان هذا الرجل بلدوين (المتنصر) مقربا من الملك كل القرب أثيرا عنده ، وكثيرا ما كان يصاحب مولاه ولاأحد معهما ، بل انه كان يرافقه حتى حين يمضى لقضـــاء حاجته الطبيعية ، ومع ذلك فقد رحب بالاقتراح الذى عرضوه عليه ووعدهم بتنفيذه ، والواقع أنه كان ضالعا تماما فى الجريمة ، ولم يكن ينتظر الا اللحظة المناسبة لانجاز فعلته ٠

غير أن طرفا مما دبروا ترامى الى علم بعض مسيحيى المدينة الذين خافوا أن يتم هذا العمل البغيض بسبب غفلة الملك ، فبعثوا اليه خطابا مجهولا يفصلون فيه المؤامرة ، وربطوه بسهم رموه فوقع فى وسط جيشنا ، وشاءت الصدفة أن يقع الكتاب فى يد الملك فيتبلبل خاطره أشد بلبلة ، وحق له أن ينزعج ، فاستدعى اليه فى الحال جميع كبار نبلائه وسألهم ماذا يشيرون عليه فيتبعه ، ثم جاءوا بالمذنب أمامهم فاعترف بجرمه ، وقضى القضاء بموته شنقا ٠

حين ذاع فشل هذه الخطة حاول الأهالى بلوغ غايتهم بطريقة أخرى ، اذ بعثوا رسلا يلتمسون الاذن لكبار رجالهم بمغادرة صيدا، على أن يبقى الأهالى على ما كانوا عليه من قبل وفق شروط مقبولة حتى يتابعوا زراعة الحقول ، فأجيبوا الى ما التمسوه ، واستسلمت المدينة ، وأذن لوجوه القوم بالرحيل من غير مضايقة والذهاب حيثما شاءوا ، مستصحبين معهم حريمهم وأولادهم ٠

وبادر الملك فى لحظته هذه فتفضـــل على أحد نبلائه وهو « أستاس جرنييه » فأقطعه المدينة (أى صيدا) وجعلها وراثية فى عقبه ، فلما تم ذلك استأذن رجال الأسطول (النرويجى) فى العودة من حيث جاءوا فأذن لهم فرحلوا محملين بالهدايا الثمينة ، وعادوا الى بلادهم ، تشيعهم دعوات الجميع ٠

وكان الاستيلاء على المدينة يوم ١٩ ديسمبر سنة ١١١١ من مولد سيدنا ٠

— ١٥ —

مات فى غضون هذا الوقت « جبلين » بطرك بيت المقدس الطيب الذكر ، فاختير مكانه (من غير تأييد الاهى فى رأينا) أرنولف كبير رجال الدين الذى عرف على ألسنة العامة بذى التاج المشين ، وهو

الرجل الذى أشرت اليه كثيرا فى الصفحات السابقة ولكن « حتى لا يملك الفاجر ولايكون شركا للشعب»(١٣) ، ظل « أرنولف » يتابع نهجه الذى أخذ نفسه به سابقا ، ثم زاد فارتكب كثيرا من المعاصى تفوق ما ارتكبه من قبل ، منها أنه زوج بنت أخته(١٤) للورد «أستاس جرنييه » أحد عظماء المملكة وحاكم المدينتين الرائعتين : صيدا وقيسرية ، وحين زفها اليه أقطعه معها أحسن أرض من أوقاف الكنيسة وهى « أريحا » بكل ملحقاتها مع دخلها السنوى الذى يقال انه يبلغ اليوم خمسة آلاف قطعة من الذهب ، كما أن ارنولف هذا لم يتورع – حتى وهو فى كرسى البطركية – عن ممارسة حياة الدنس حتى صار عاره أمرا معروفا للجميع غير خاف على أحد ، ولم يحاول هو كتمان هذه الحقيقة فبدل النظام الذى كان القادة الأوائل قد أرسوا قواعده بعد تدبر دقيق فى كنيسة بيت المقدس ، فسن هو شرائع جديدة ، كما أغرى الملك بالزواج من امرأة أخرى فى الوقت الذى كانت زوجته لاتزال حية ، كما سنسوق ذلك فى موضع آخر .

– ١٦ –

لم تكد تنقضى فترة قصيرة على سقوط صيدا حتى حشد القوم بفارس جيشا ضخما أرادوا من ورائه التظاهر بماهم عليه من قوة ، حتى يتسنى لهم التفاخر فى أيامهم القادمة ، وانطلقوا بهذا الجيش الى بلاد الشام فكانوا وباء استشرى خطره فى المسيحيين ولم يسلموا منه منذ أول قدوم اللاتين حتى السنة الأربعين من تأسيس المملكة ، وكان هذا الطاعون أشد فتكا فيهم من الحية « هيدرا » ذات الرؤوس

---

(١٣) أيوب ، ٣٤ : ٣٠ .

(١٤) هى الكونتيسة أوليدا الصقلية الثرية ، ثم بدا له وقد دنا أجله أن يتوب عن اثمه ، وان يرد اليه زوجته السابقة .

التسعة التى ما ان تقطع لها رأس حتى تظهر اخرى مكانها تزيد من شـــرها ، فقد كان يحدث كل عام تقريبا أن تخرج من قلب فارس جموع كثيفة من ذلك الشعب البغيض ، وينساب فى أرتال ضخمة تكاد تغطى وجه البسيطة ، ولكن الرحمة الالهية عطفت على آلامنا فأقامت مملكة استطاعت أن تقف فى وجه سفاهة الفرس المستبدين ، وتمثلت هذه المملكة فى شعب الايبيريين(١٥) الذى شاءت رحمة الرب ان يتزايد فى العدد والبأس بفضل نجاحه المتواصل ، حتى تمكن من القضاء على جبروت الفرس الذين كان الايبيريون من قبل يتوجسون منهم خيفة ، ويفزعون منهم فزعا شديدا ، أما الآن فقد جاء دور هؤلاء وأصبحوا أكثر من الفرس جندا ويفوقونهم فى اســـتعمال السلاح ، وهكذا فان السلاجقة الذين ظلوا مدى طويلا يبثون الفزع ـ حتى فى أقصى الممالك عنهم ـ أصبحوا الآن يحسون بالرضا ان هم وجدوا شيئا من السلام ولو مؤقتا داخل حدود بلادهم ٠

***

ونرى أن ايبريا المعروفة أيضا باسم « افسجويا » تتصل بفارس من الشـــمال ، وأهلها قوم طوال القامة عرفوا بقوتهم الجثمانية وبطشهم وبحبهم للقتال ، وقد مكنتهم ممارستهم الحروب وهجماتهم المستمرة من أن يمرغوا فى التراب أنف القوات الفارســـية التى أصبحت تشعر بأنها غير مكافئة لهم ، ومن ثم أصبح الفرس جزعين على حالهم وكفوا عن اجتياح أراضى الغير ٠

---

(١٥) أشارت الترجمة الانجليزية (ج ١ ص ٤٩٠ حاشية رقم ٦٧) الى أن ايبريا IBERIA التى نسب اليها هذا الشعب كانت احـــدى ولايات الامبراطورية البيزنطية الادارية قبل مقدم السلاجقة ، وتقع جنوب القوقاز ٠

اقد خرج ذلك الجيش الضخم (أعنى سلاجقة فارس) كما قلت من بلاده مارا ببلاد العراق فعبر نهر الفرات العظيم مخربا النواحى التى يمر بها هناك ، وحاصر تل باشر حيث أمضى شهرا بأكمله يبذل الجهود المضنية أمام هذا المكان ، لكنها ضاعت هباء ، حتى اذا يئس فى النهاية من النجاح رآى التخلى عن هذه المحاولة فمضى الى حلب، واذ كان يعتمد على كثرة عدده فقد كان يطمع أن يرغم تانكريد على الخروج والاندفاع فى مهاجمته دون أن يأخذ حذره • غير أن تانكريد كان رجلا كيسا لا يصدر عنه عمل الا عن روية وتفكير ، فبعث بالكتب على أيدى رسل من قبله الى بلدوين يلتمس منه فى ضراعة أن يسرع ما وسعته السرعة للحضور لنجدته والوقوف الى جانبه ، فجمع بلدوين فى الحال عسكره ، واستصحب معه « برترام » كونت طرابلس ، وزحفا الى تلك الناحية بجيوشهما ، فلما وصلا الى مدينة « الروج » وجدا تانكريد قد سبقهما اليها ، فساروا جميعا جنبا الى جنب ، وتقدموا ضد الخصم الذى وجدوه معسكرا عند شيزر حين بلغوها •

وأخذ كل من الجيشين يطالع الآخر ويتأمله ، وانتهى الأمر أخيرا بانصراف الترك عن القتال ومغادرة تلك الناحية ، واذ ذاك استأذن الصليبيون بعضهم بعضا فى الرجوع فعاد كل الى بلده •

— ١٧ —

فى هذا الوقت كانت جميع المدن الساحلية الممتدة من اللاذقية بالشام حتى عسقلان — التى هى آخر مدن المملكة — قد صارت فى يد الصليبيين ، باستثناء صور التى كانت لاتزال وحدها فى أسر الجاحدين ، ولما شاءت ارادة الرب أن يتمكن الملك من تحرير كل ماسواها فقد أزمع بلدوين الأول على أن يكرس نفســـه لتخليص صور أيضا ، فجمع كل السفن التى أمكنه العثور عليها على امتداد

الساحل كله ، وجعلها أسطولا وجهه للسير الى تلك المدينة بأقصى سرعة ، وكذلك حشد كل القوات البرية ، وجمع الناس من شتى رحاب المملكة ومشى بهم الى هناك ، وجعل من عسكره دائرة أحاطت بالمدينة من كل جهاتها وحاصرتها ·

***

وتقع صور فى قلب البحر أشبه بجزيرة تحيط بها المياه من كل جانب ، وهى عاصمة فينيقية وقصبتها الدينية التى تمتد من نهر « بانياس » الى « بترا انكسيا » على حدود « دورا » وتضم فى نطاقها أربع عشرة مدينة كبرى ·

وسنفصل فيما بعد جميع المزايا التى يتمتع بها موقع هذه المدينة حينما نأتى الى رواية خبر حصارها النهائى والاستيلاء عليها بمشيئة الرب ·

***

وهكذا فرض الحصار على صور ·

ولما كان بلدوين شديد التطلع لنجاح مشروعه فانه صرف نفسه قلبا وروحا الى مراوحة المكان ومفاداته بشتى أساليب المضايقة حتى يحمله على الاستسلام ، ولم يترك وسيلة من وسائل الحصار الا وطبقها ، باذلا غاية جهده لادخال مدينة صور تحت سيطرته، وراح يواصلها بسلسلة من الغارات قد أخذ بعضها بحجز البعض الآخر ، فأنهكت قوى الأهالى ، وزلزلت أسوار المدينة وأبراجها من كثرة ما كانت ترميها به الآلات ، كما سقط على البلد وابل غير منقطع من السهام والرماح ، وعمد بلدوين ــ رغبة منه فى صب الأهوال على

المدينة ــ الى اصدار أمره ببناء برجين خشبيين أعلى من جميع الأبراج الحجرية ، حتى أصبح من اليسير على المرء ــ وهو واقف فوقهما ــ أن يشاهد المدينة كلها تحته • وقد استفاد بلدوين من هذين البرجين أجل فائدة لما كانا ينزلانه بالبلد من الخراب والدمار اللذين لم يكن هناك سبيل للنجاة منهما •

غير أن أهل البلد أثبتوا أنهم رجال أذكياء وابطال مغاوير ، بارعون فى تدبير كل أنواع المكائد ، فكانوا يقابلون كل خطة بخطة مثلها ، ويجدون فى دفع كل ضر ينزل بهم بضــــر مثله يلحقونه بالصليبيين ، من ذلك أنهم جلبوا كميات كبيرة من الأحجار والاسمنت، واعتلوا برجين يواجهان آلاتنا الحربية تمام المواجهة ، ثم راحوا يزيدون فى ارتفاعهما زيادة تشأو ارتفاع أبراجنا ، وسرعان ماصار برجاهما فى وقت قصير جدا أعلى من الآلات الخشبية التى أمامهما، والموجودة خارج الأسوار ، وشرع من بهما من مدافعيهم يصبون النيران على الآلات الحربية التى تحتهم ، وتأهبوا لحرق كل شىء دون أن يجدوا معارضا لهم •

حينذاك رأى الملك ان كل خطة يدبرها تقابل فى الحال بخطة مثلها تفسدها ، هذا بالاضافة الى ما أصابه من انهاك بسبب مواصلة العمل الطويل الذى استمر أربعة شهور أو أكثر دون أن يجنى منه أى فائدة ، واذ ذاك أدرك أنه مضيع وقته أمام أسوار صور ، فتخلى عن محاولته هذه ، مغلوبا على أمره فى مشروعه ، ورفع الحصار عن المدينة وانكفأ عائدا الى عكا ، وفرح الباقون بالرجــــوع الى ديارهم •

- ١٨ -

مات فى هذه الاثناء تانكريد ذو الذكر الطيب والمخلص للسيد ، وستظل كنيسة القديسيين الجامعة تبكيه وتذكر أياديه عليها وتشيد بتقواه ،وحدث وهو مسجى على فراش موته أن كان ممن يقومون على خدمته شاب اسمه « بونس » هو ابن برترام كونت طرابلس ، ويقال انه لما عرف تانكريد أن قد دنى يوم رحيله عن هذه الدنيا أمر بأن يحضروا اليه كلا من زوجته سيسيليا ابنة فيليب ملك الفرنجة وبونس ، ونصحهما أن يتزوج كل منهما الآخر بعد موته ، وتم تنفيذ الوصية بحذافيرها اذ لم يكد تانكريد يسلم أنفاسه ، ويتبعه برترام كونت طرابلس والد الشاب بونس حتى تزوج بونس هذا من أرملة تانكريد ..

كما أن أحد(١٦) أقارب تانكريد واسمه « روجر بن ريتشارد » خلفه حسب وصيته الأخيرة فى امارة أنطاكية على شرط أن يردها الى بوهيموند الصغير بن بوهيموند الكبير حين يبلغ السن القانونية ويطالب بأنطاكية ، ويكون رده لها بلا منازعة أو جدال .

وقد تم دفن تانكريد العظيم فى ظلة كنيسة الرسل فى سنة ١١١٢ من مولد سيدنا .

- ١٩ -

ولما جاء الصيف التالى ، أعنى صيف سنة ١١١٣ من مولد سيدنا ، بعثت فارس للمرة الثانية بعسكر من عسكرها لا يحصيهم العد ، فكانوا أشبه ببركة أقذار يتفجر منها على الدوام الماء الآسن المؤدى الى نشر الوباء ، وكان هذا العسكر بقيادة أمير قوى شريف

(١٦) قيل انه كان ابن أخت تانكريد .

المنبت اسمه « مودود » الذى سارت فى ركابه قوات كثيرة يعجز العد عن احصائها فاجتاز بهم المناطق الوسطى حتى بلغ الفرات حيث سار على خطة خالف بها خطة الجيوش التى سبقت جيشه والتى جرت عادتها على تجربة قوتها ، لكن خاتمة خطة مودود هذه المرة دلت على انها كانت تباين كل ما سبقها من حيث التدبير والقصد ، اذ عبر كل بلاد أعالى الشام جاعلا دمشق على يساره ، ومر بطبرية الواقعة بين جبل لبنان والساحل ونصب معسكره عند الجسر الموجود على نهر الأردن ٠

فلما وصل هذا الخبر الى الملك ـ وكان يعرف اعتماد خصومه على كثرة عددهم ـ دعى لمساعدته كلا من روجر بن ريتشارد أمير انطاكية وكونت طرابلس ، ولكنه تعجل الرحيل مع عسكره قبل وصول هذين الأميرين ، ونصب خيامه فى الناحية الموجود بها عدوه ، فما كاد الفرس يكتشفون ذلك حتى أدركوا أنهم فى حاجة الى التدبير الحربى أكثر من حاجتهم الى الوفرة العددية ٠

ومن ثم أرسلوا ألفى فارس ، وأمروا ألفا وخمسمائة منهم أن يكمنوا لعسكر الملك فى بعض الطريق ، أما الخمسمائة الباقون فقد كلفوهم بالتقدم فى غير نظام حتى تجوز المكيدة على الملك فيمضى فى مطاردتهم ٠ وتم تنفيذ كل شىء وفق ما رتبوا ، اذ ما كاد الملك يبصر هؤلاء الخمسمائة فارس يسيرون بجيادهم غير مبالين بشىء ولا آخذين حذرهم كأنهم يفرون حتى استدعى اليه رجاله واندفع بهم اندفاعا أهوج ضد هؤلاء الفرسان وانطلق يطاردهم فى طيش ، فاذا به يسقط فى الكمين الذى نصبوه له ، ومالبث ان طلع عليه الأعداء من مخابئهم ، فاذا هم قوة كبيرة ، كما عاد الخمسمائة فارس وانضموا اليهم ، وتجمعت هذه القوات فشنت هجوما شرسا على رجالنا الصليبيين الذين عمدوا فى أول الأمر الى مقاومتهم بالسيوف

وقاتلوهم قتالا عنيفا لعلهم يردونهم على أعقابهم ، ولكن كانت الغلبة للعدو بسبب كثرته التى اجتاحت رجالنا وأرغمتهم على الفرار ، ولم يسعفهم هذا القرار بالسلامة بل جرت مذبحة مروعة فى صفوف الهاربين ، حتى ان الملك ذاته ألقى بعلمه الذى كان فى يده الى الأرض ، وكانت نجاته هو احدى المعجزات ، وجرى مثل هذا على أرنولف البطرك الذى كان معه ، وعلى غيرهما من سادات المملكة ، اذ فروا مخلفين وراءهم المعسكر بكل متاعهم ٠

وهكذا استولى العدو على مخيمنا ، وعوقبنا على خطايانا ، فدب الاضطراب فى صفوف شعب الرب على أقبح ما يكون الاضطراب ، ويرجع السبب فى هذه النكبة الى الملك الذى لم يطق صبرا حتى تصل اليه النجدة اطمئنانا منه الى شجاعته الذاتية ٠ مع أن روجر أمير أنطاكية وكونت طرابلس كانا قريبين منه كل القرب ، وليس من شك فى أنهما كانا سوف يصلان اليه فى مدى يوم أو يومين ٠

وهلك فى ذلك اليوم ثلاثون فارسا صليبيا وألف ومائتا جندى من المشاة ، ثم وصل القائدان الكبيران القويان اللذان أشرنا اليهما حالا ، (وهما أمير أنطاكية وكونت طرابلس) فى أعقاب هذه الملمة ، فلما أحيطا خبرا بالنكبة التى ألمت بالملك لاماه على تهوره ، ثم انضمت القوات كلها بعضها الى بعض حتى صارت جيشا واحدا عسكر فى الجبال المجاورة حيث كانوا يستطيعون أن يطلوا على جيوش العدو وهى تحتهم فى الوادى ٠

ولما أدرك خصومنا أن المملكة خلت من المدافعين عنها بعثوا زمرا من عسكرهم الى كل ناحية فاجتاحت الاقليم بأجمعه وجاست

خلال الديار سافكة الدماء فى كل جهة مرت بها ومضرمة النيران ، ناهبة القرى كما أمسكت بالفلاحين وسارت فى الاقليم كله كما لو كانت تحتله .

ولقد هجرنا فى تلك الأيام خدمنا وكذلك الشرقيون الساكنون فى قرانا المسماة بالمستعمرات ، وانضموا الى كتائب العدو وأرشدوهم الى كيفية القضاء علينا ، وكان ذلك أمرا ميسورا عليهم لمعرفتهم التامة بكل تفاصيل وضعنا ، اذ ليس هناك وباء أشد فتكا بالمرء وأشنع فعالية من عدو داخل بيته .

واذ استرشد العدو بهؤلاء الرجال فقد أصبح أقدر عن ذى قبل بسبب مساعدتهم اياه فاستمر فى عيشه بالمدن والقلاع ينهب الغنائم، ويأسر الناس ، ومجمل القول ان المملكة بأجمعها قد آلت الى حال من الفزع الشديد أدى الى عدم تجرؤ أحد ما على الخروج من التحصينات .

ـ ٢٠ ـ

ولقد حدث حادث أكمل فزع قومنا اكمالا تاما ، ذلك أن العسقلانيين كانوا يعرفون أن الملك قد اضطرته الظروف للبقاء فى طبرية مع جميع قوات المملكة ، وأن العدو يسيطر فى الواقع على كافة أرجاء الناحية ، ومن ثم تسللوا كالدود القارض فى عسكر ضخم الى الاقليم الجبلى ومضوا يحاصرون بيت المقدس التى كانت مجردة اذ ذاك تماما من كل قوة تدافع عنها ، فلم يكن أحد يقابلونه خارج المدينة بمنجاة من وقوعه فى أيديهم قتيلا أو أسيرا ، كما أشعلوا النار فى تلال الغلال التى جمعها الفلاحون فى الأجران

بعد أن استوت على سوقها ، وظل الجاحدون مقيمين بضعة أيام أمام بيت المقدس ، وان كان كافة أهلها قد أخذوا حذرهم منهم فظلوا مقيمين وراء أسوارها ، ثم تملك الخوف المهاجمين من عودة الملك فارتدوا أخيرا الى بلادهم ٠

وكان الصيف وقتذاك يخلى مكانه سريعا لفصل الخريف الذى جرت عادة السفن فيه أن تبدأ بجلب الحجاج الذين ما أن علم من جاء منهم بالأهوال الجسام التى يصطليها الملك وشعبه ، حتى أسرع مشاتهم وفرسانهم بالانضمام عن طيب خاطر الى جيشه ، مما نجم عنه تزايد أعداد عسكرنا يوما بعد يوم زيادة ملحوظة ، وهو أمر لم يخف على فؤاد عسكر الجاحدين الذين اســتبد بهم الرعب من أن يستعد الصليبيون بهذه الامدادات الضخمة للانتقام مما نزل بهم من النكبات ، ومن ثم شدوا رحالهم الى دمشق ، وفعل الصليبيون فعلهم فكروا راجعين الى ديارهم ٠

وحين وصل الى دمشق مودود قائد الجيوش المعادية الذى كان قد أنزل كثيرا من البلوى بالمملكة اغتاله الحشاشون ، ويقال ان ذلك الاغتيال تم بعلم الملك طغتكين وموافقته اذ كانت الشـــائعة انه لم يكن يأمن بأس هذا القائد ، ويخشى أن يحرمه من المملكة ٠

ـ ٢١ ـ

بعد رجوع الجيش الصليبى والجميع الى ديارهم قدم على الملك رسول يعلن اليه وصول (أدليد Adelaide كونتسة صقلية الى ميناء عكا ، وكانت هذه السيدة النبيلة هى أرملة روجر الملقب ببورصة أخى روبرت جيسكارد ، وكانت فاحشة الثراء ، واســعة النفوذ ، وكان الملك قد بعث فى السنة المنصرمة اليها بعض اشرافه يلحون عليها أن تقبل الاقتران به ، فانهت رسالته هذه الى ابنها

روجر الذى صار فيما بعد(١٧) ملكا على صقلية وشاورته فى الأمر ويبدو انهما ادركا ما وراء هذا الرجاء من خير للجانبين ، فوافقا عليه وان أوقفا قبولهما على أن يستجيب الملك لشروط اشترطاها ، تنص على انه اذا مات الملك (بلدوين) وقد أنجب طفلا من الكونتيسة آلت المملكة الى هذا الوليد دون أية معارضة أو منازعة فى الأمر ، اما ان وافاه أجله دون أن ينسل ورثه ابنها الكونت روجر وخلفه ملكا على المملكة لا يشـــــاققه فى ذلك أحـــد ، ولا ينكره عليه جاحدا ، وكان الملك قد أوصى رســـله — حين رحيلهم عنه — ان يستجيبوا لكل ما تشترطه الكونتسة ، وألا يدعوا وسيلة من الوسائل الممكنة الا عمدوا اليها ليعودوا وفى صحبتهم الملكة، لأنه كان قد سمع بثرائها وانها تملك من كل شيء قدرا عظيما بفضل ما بينها وبين ولدها من حسن الرابطة ، على حين انه هو (أعنى الملك) كان على العكس منها مملقا ذا متربة ، لاتكاد موارده المالية تكفى متطلباته اليومية وسداد رواتب فرسانه ، ومن ثم فانه تطلع أن يزيد هذا الزواج من دخله الضئيل بفائض مما تملكه (أدليدا) وهو فائض ضخم ٠

ووافق الرسل عن طيب خاطر بالشروط التى قدمت اليهم ، واستجابوا لما طلب منهم ، واقسموا اليمين على ذلك، مؤكدين ان الملك وكبار نبلائه سوف يوافقون على الشروط من غير غش ولا نقض ٠

حينذاك استعدت الكونتسة للسفر ، وجهزها ابنها بكل مايلزمها، فأوسقت السفن بالحنطة والنبيذ والزيت واللحم القديد ، ورتب عليها الرجال وهم فى كامل أسلحتهم ، والفرسان بخيولهم المطهمة، وحملت الكونتسة معها قدرا كبيرا من المال ، وأخذت معها كل متعلقاتها دون أن تترك وراءها شيئا ، ووصلت الى بلادنا كما ذكرنا ٠

---

(١٧) أى فى سنة ١١٣٠ ٠

كان قد احكم تدبير هذا المشـــروع البطرك « أرنولف كما شرحنا من قبل خديعة منه لهذه السيدة الشريفة ، اذ لايستطيع احد أن ينكر أنه قد غرر بها ، لأنها ظنت لطيبة قلبها وصفاء نيتها ان الملك فى وضع يجيز له شرعية الزواج منها ، وهو أمر كان يبعد كل البعد عن الحقيقة ، لأن زوجته التى كان قد عقد قرانه عليها عقدا شرعيا فى الرها كانت لاتزال حية ترزق ٠ وبعد أن أرست الكونتسة تجددت كل الوعود والأيمان على نفس الصورة التى تمت من قبل فى صقلية ، وكان هذا التجديد فى حضرة الملك والبطرك وكبار رجال المملكة ، ولكن لما كان هذا الحلف قد تم بليل وبقصد شرير ، ولم يكن صادرا من قلب صاف فكان أمره الى الله الذى لم ينعم على هذه المرأة ـ رغم طيبتها ـ ببركة الانجاب المعتاد طول اقامتها بالمملكة ، وانتهى الأمر اخيرا بأن حل الشجى محل الغبطة ، والحزن محل الفرحة ، كما سنذكر ذلك فى الصفحات التالية ، ذلك لأن الأشياء التى تبدأ بداية سيئة قل ان تنتهى بالفلاح ، ومع ذلك فان وصولها أجدى ـ بعض الوقت ـ على المملكة كثيرا من النعم ، حتى ان أقل ما يقال هو ما قيل(١٨) : « من ملئه نحن جميعا اخذنا ، ونعمة فوق نعمة » ٠

ـ ٢٢ ـ

حدث فى تلك الأيام ان اجتاحت المجاعة بلدة الرها ، ويرجع بعض السبب فى ذلك الى قسوة الجو التى أفسدت الزرع وأضرت به ، كما يرجع بعضه الآخر الى وقوع الناحية بين المتربصين لها بالسوء ، واحدق العدو بها من كل حدب وصوب احداقا بث الخوف منهم فى نفوس المقيمين بها ، حتى حـــال بينهم وبين العنـــاية بزراعتها ، مما ترتب عليه اضطرار النازلين بها وبالأقاليم المجاورة

---

(١٨) يوحنا ١ : ١٦ ٠

لها تحت شدة الحاجة الى أن يأكلوا خبز الشعير بل والمخلوط أحيانا بحب الصنوبر ٠

***

اما أرض لورد جوسلين فقد نعمت بالسلام لوقوعها على ذلك الجانب من الفرات الذى وفر لها الغلة وأسعفها بكثير من مواد المعيشة ، غير ان جوسلين ـ رغم امتلاء بلاده بكل ما هو طيب ـ سلك مسلكا غبيا فيه جحود للنعمة التى هو فيها ، فلم يقدم أى شىء من فائض ما عنده لسيده الذى تربطه به أيضا وشيجة القربى ، والذى يدين له بكل ما تملكه يداه رغم معرفته التامة ان الكونت وشعبه كانوا فى أشد الحاجة ٠

ثم حدث أن تهيأت الفرصة لكونت بلدوين لأن يبعث بالرسل فى أمر شخصى بحت الى روجر ابن ريتشارد أمير أنطاكية الذى كان قد تزوج واحدة من أخوات الكونت ، ومر هؤلاء الرسل بالفرات فى ذهابهم وايابهم واجتازوا أرض جوسلين الذى أكرم وفادتهم وتلقاهم لقاء كريما ، غير ان رهطا من أتباعه فعلوا فعل السفهاء ، فأخذوا يتندرون على الرسل ويسخرون من فقر بلدوين ، ويتباهون فى الوقت ذاته بما يملكه مولاهم من مال كثير ، وبما عنده من فائض غزير من القمح والنبيذ والزيت ومواد الأكل والأحمـــال الثقيلة من الذهب والفضة ، وما تحت يمينه من الفرسان والجند والمشاة ، وزادوا على ذلك بأن قالوا قول ذى اللسان البذىء الذى لا يأبه بشىء مطلقا ان الكونت ليس بأهل لحكم البلاد ، وان الأجدى عليه ان يبيع كونتيته الى مولاهم لورد جوسلين فينقده عليها مبلغا كبيرا من المال ، ثم يعود الى فرنسا ٠

ولقد مزقت هذه الملاحظات نياط قلوب الرسل رغم ما بذلوه من جهد لكتم مشاعرهم ، وعلى الرغم من أن هذه الأقوال قد صدرت من أشخاص ليسوا فى العير ولا النفير الا أنها بدت وكأنها انعكاس لأحاسيس سيدهم (جوسلين) الذى استأذنه الرسل حينذاك فى الانصراف وعادوا الى الكونت (بلدوين) ، فلما صاروا عنده افضوا اليه بالخبر كاملا غير منقوص ، وحدثوه بكل ما جرى فى رحلتهم ، بما فى ذلك الملاحظات التى قيلت فى بيت لورد جوسلين ، فاستشاط الكونت غضبا مما حدثوه به ، وراح يفكر تفكيرا عميقا فيما سمع ، فهداه يقينه الى ان جوســـلين هو مصـــدر كل هذه الأحاسيس ، وأنها لم تتولد الا فى خاطره ، وغضب من ان رجلا كان هو سبب ثرائه الفاحش ، وكان المنتظر منه ان يقوم بأداء كل ما يفرضه ما أحسن به عليه من ماله الخاص فيفعل نقيض مايقضى به الذوق اذ راح ينتقصه ويزرى بفقره ، كأن الفقر رذيلة ونقيصة ، وبين ان الضيق الذى ألم به لم يكن راجعا الى غفلة منه ، لكنه قضاء شاءه قدره ، وأن ليس له من قوة على دفعه ، وزيادة على ذلك فان الثروة الضخمة التى ينعم بها الآن جوسلين ويتباهى بها انما هى بعض مما كان يملكه الكونت ، ولذلك جاش مرجل الغضب فى صدره عليه ، فتظاهر بالمرض ، ولازم فراشه وأشار على من حوله أن يستدعوا اليه على جناح السرعة قريبه جوسلين الذى بادر اليه غير متوجس خيفة ولا مستريب منه ولا مقدر أن قد يلحقه أذى من هذه الرحلة ، فلما بلغ مدينة الرها وجد الكونت فى قلعتها فى القسم المعروف باسم رانحولات « وأبصـــره راقدا فى حجرة داخلية ، فأدخلوه عليه ، فلما فرغ من أداء التحية الواجبـــة فى مثل هذا المقام سأل الكونت عن صحته فأجابه بلدوين « لقد تحسنت كثيرا بفضــــل الله تحســـنا أكبر مما تود أنت » ، ثم تابع كلامه قائلا له :

« الا خبرنى ياجوسلين : هل تملك شيئا الا ما منحتك اياه ؟ »، فأجابه جوسلين « كلا يامولاى فقال له الكونت » لماذا وأنت فى بحبوحة النعيم والثروة اللتين تدين بهما الى تكفر بالنعمـــة التى أغدقنها عليك ولا تشكرها شكر المقر بحقها ؟ ، ولماذا لا تتعاطف معى - وأنا المحسن اليك - فى حاجتى التى لم تصبنى بسبب رعونة من جانبى ، ولكنها من جراء أمور لا يستطيع أحد أن يتجنبها مهما بلغ من الحكمة والمهارة لأن ذلك لم يحصل من غير قضاء الله ؟ ، ولماذا لا تعيد الى بعض الذى أقطعتك اياه ، لكنك بدلا من ذلك رحت تتهكم على فتعيرنى بالفقر الذى ابتلانى به الرب ، كما لو كان هذا الفقر خطيئة أو اثما ؟ فهل ترانى بلغت من العوز الحد الذى يجب على أن أبيع لك فيه كل ما أنعم به الرب على ثم أرحل هاربا كما تريد أنت؟ والآن ياجوسلين عليك أن تعيد الى كل الأملاك التى منحتها لك ، وكل شىء أقطعتك اياه ، لأنك سلكت سلوك جاحد نعمة لا يستحقها وليس بأهل لها » .

فلما فرغ الكونت من كلامه هذا أمر برمى جوســـلين فى الحبس ، وهناك تعرض بصورة عجيبة محزنة لكل أنواع المساءلة والتعذيب حتى يسلم الأرض كلها ويرد كل شىء كان الكونت أنعم به عليه ، حتى اذا جرد من كل ما تملك يداه غادر الرها وتوجه أول ما توجه الى بلدوين ملك بيت المقدس ، وفصل له كل ما جرى ، وصارحه بعزمه على الرجوع الى بلده الذى جاء منه . فلما سمع (الملك) ما كان من خبره أقطعه مدينة طبرية وما حولها اقطاعا لا يسترد منه أبدا ، وذلك ادراكا منه بأن جوسلين سوف يؤدى المملكة خدمات رائعة ، ولأنه كان يريد أن يشد أزر نفسه بمثل هذا الرجل الخطير .

ويقال ان جوسلين ساس هذه المدينة وملحقاتها بشـــجاعة وحكمة طوال فترة ولايته بهـــا ، كما زاد فى رقعة ممتلكاتهـــا

زيادة ملحوظة ، ويقال انه اشتد فى مضايقة سكان مدينة صور كدأب أسلافه حيالها ، اذ كانت لاتزال فى أيدى المارقين ، وعلى الرغم من أنه كان بعيدا عن أهل صور لوقوع الجبال فاصلا بينه وبينهم ، الا أنه كان كثير الاغارة على أراضيهم مكبدا اياهم أفدح الخســـــائر ٠

– ٢٣ –

ولما كانت سنة ١١١٤ من مولد سيدنا ضرب زلزال عنيف كل بلاد الشـــــام مدمرا كثيرا من مدنها وقلاعها تدميرا تاما ، وكان تخريبه أظهر ما يكون فى قيليقية وايسوريا وسورية الوسطى ٠

فاما فى قيليقية فقد اجتاح الزلزال « المصيصة » وكثيرا من الأماكن الحصينة ، كما دمر مدينة مرعش وامتد فبلغ نواحيها القاصية حتى لم يبق من بعضـــــها الا أطلال تدل عليها ، وارتجت كذلك الأبراج والتحصينات ، وأدى انهيار المبانى الضخمة الى هلاك العدد الغفير من الناس ، واستحالت أكثر المدن الى أكوام من الأنقاض ، وصارت كيمانا وقبورا وأجداثا ضـــــمت من طواه الردم ، وفر الأهالى من مســـــاكنهم فى المدن فزعا من تهدم الدور وطمعوا أن يجـــدوا السلامة فى العراء ، ولكن الخوف أطار النوم عن جفونهم جزعا من أن تتراءى لهم فى أحلامهم صورة المصــــير الذى يفرون منه فى يقظتهم ٠

لم تقتصر هذه النكبة المدمرة على منطقة بذاتها بل امتدت الى جميع النواحى حتى بلغت أقصى أعماق مناطق الشرق ٠



فلما كان العام التالى حشد الوالى التركى القوى برسق – على مألوف عادته – حشدا كثيفا من قومه ، واقتحم امارة أنطاكية مضمرا لها السوء ، وبعد أن جاس خلال ديار الناحية كلها ضرب معسكره بين حلب ودمشق فى انتظار الفرصة المواتية لشن غاراته هنا وهناك من أرضنا ، فاضطرب طغتكين ملك دمشق كل الاضطراب من هذه الحملة التى هلع لها أشد الهلع ، مخافة أن تكون مستهدفة الاضرار به هو ذاته أكثر من استهدافها الصـــليبيين الذين طالما اختبر الترك بأسهم ، فقد لقى مودود العظيم موته على باب بيته غيلة ، واعتقد الناس ان طغتكين كان على علم بما تم تدبيره ، وان اغتياله كان برضى وتدبير منه ٠

لذلك فانه ما كاد طغتكين يعلم بوصول الترك ويدرك تمام الادراك مقصدهم حتى أرسل رسلا من لدنه الى الملك (بلدوين) والى أمير انطاكية ومعهم غالى التحف وثمين الهدايا ، وأكد لهما بالايمان أن يظل طول مدة سريان الهدنة مخلصا فى مراعاة تحالفه مع صليبيى المملكة والامارة ، وفى الوقت ذاته قام أمير انطاكية فناشد الملك أن يمد اليه يد العون لأنه عرف أن الترك أقرب ما يكونون الى بلاده ، وان الأخبار الكثيرة التى وصلته تدل على أنهم يتأهبون للاغارة على أراضيه ، كما دعى من جانبه طغتكين – حسب العهد المبرم بينهما – ان يأتيه على رأس عسكره ٠

وكان الملك خائفا أشد الخوف على سلامة الامارة ، فلم يضع لحظة واحدة من الوقت بل عجل فجمع قواته ، وصحبه بونس كونت طرابلس ، وتبعهما رهط كبير من الفرسان ، وزحفت جموعهم الى هناك فوصلوا بعد أيام قلائل الى حيث حشد الأمير كتائبه ، كما ان طغتكين الذى كان أقرب اليه من سواه وافاه بجند قبل مجىء الملك وانضم الى معسكر الصليبيين حليفا لهم ٠

حيذناك انضم العسكر بعضهم الى بعض حتى صاروا جيشا واحدا واجمعوا الرأى على الزحف شطر مدينة « شيزره » التى قيل ان الجيش المعادى كان موجودا فيها ، لكن ما كاد الترك يعلمون بهذه الحركة حتى أدركوا أنهم لن يقدروا على الصمود فى وجه قواتنا لأنهم ان فعلوا ذلك أصابهم ضرر فادح ، فتظاهروا بالارتداد ارتدادا كان يخيل معه أنهم لا ينوون العودة ، واذ ذاك ســـرح الصليبيون عسكرهم ورجعوا الى أرضهم (١٩) ٠

— ٢٤ —

اغتنم العسقلانيون فرصة انشغال الملك على هذه الصورة فى أرض انطاكية وتغيبه مع معظم قواته وقاموا بمحاصرة يافا ، وكان قد حدث قبل ذلك بقليل أن نهض لمعاونتهم من مصر أسطول مؤلف من سبعين سفينة بقصد احتلال الساحل القريب من يافا ، اما الجيش البرى المكون من آلاف كثيرة من الجند فقد تبعهم ناشرا راياته حيث ظهر فجأة أمام المدينة ٠

ماكاد من فى الأسطول يعلمون بوصول القوات البرية حتى استخفهم السرور فوثبوا من السفن وتأهبوا للاغارة على النواحى المجاورة ، وأحاطوا بالمدينة من كل جانب ، فلما أعطيت الاشارة لهم أغاروا عليها من شتى الجهات غارة شعواء ولكن أهالى يافا دافعوهم دفعا مجيدا على الرغم من قلة عددهم ، وأنهم كانوا دون خصومهم بأسا لكنهم كانوا يذبون عن نسائهم وأولادهم وحريتهم وعن بلدهم ، بل عن كل شىء يجدر أن يموت المرء من أجله ، وراحوا يحصنون الأبراج والأسوار تحصينا منيعا بقدر استطاعتهم ، وتمكنوا من رد العدو الى الوراء مسافة بعيدة حتى لم يستطع الدنو من أسوارهم

(١٩) كان رجوعهم هذا فى منتصف سنة ١١١٥ ٠

بفضل ما قذفوه به من النبال ، ورموه به من المنجنيق ، وصبوه عليه من السهام من آلاتهم، فخاب مسعى العسقلانيين بعد أن كانوا يعقدون الآمال على أن يجدوا المدينة خالية من كل من يدافع عنها ، وكان هؤلاء العقسلانيون قد أقاموا من سلالم التسلق مجموعة كافية من ناحية الطول أو العدد مؤملين من وراء ذلك الا يلاقوا مشقة فى هدم الحصون ، ولكنهم صادفوا من المقاومة الشديدة مالم يتح لهم الفرصة لنصب سلالمهم على الأسوار ، أو رمى المدافعين الموجوديين بالأبراج بأى نوع من القذائف ، ذلك لأن العناية الالهية بسطت رعايتها على المواطنين الذين لم يشعروا بخوف ما من العدو الذى كان يكتنفهم من كل جانب ٠

وكانت أبواب المدينة مصنوعة من الخشب الخالص بدون أى غطاء من النحاس أو الحديد ، فقذفها المهاجمون بالنيران قذفا محكما احترقت معه بعض أجزائها ، كما استطاعوا الحاق الضرر التام بالأهالى ، ووضعهم فى موضع لا يستطيعون الدفاع عنه ٠

واخيرا وبعد انقضاء بضعة أيام على ذلك الوضع أدرك العسقلانيون أن محاولاتهم لم تكلل بالنجاح ، وخافوا أن يحضر أهالى الناحية التى حولهم لنجدة المدينة المحاصرة ، فرفعوا الحصار عنها وانفلتوا الى ديارهم ، كما اغتنم الأسطول فرصة هبوب الرياح المواتية وعاد أدراجه الى ميناء صور ٠

ومع ذلك فقد طمعوا بعد عشرة أيام ان يعرفوا عما اذا كان فى مقدورهم مباغتة أهل يافا الذين لم يكن هناك من يحمي ظهورهم ، لذلك جمعوا الكثيرين من قومهم وغادروا عسقلان سرا ثم ظهروا فجأة ـ وفى سكون للمرة الثانية ـ أمام يافا وباغتوها ، ولكن أهلها كانوا مستعدين لمقاومتهم فقد ألفوا مثل هذه الحيل ٠ لذلك كانوا يتناوبون حراستها ليلا حتى لا يؤخذوا على غرة ، وترتب على هذا انهم ماكادوا يطالعون عسكر العدو وقد عاد متأهبا لمعاودة القتال حتى

تجلت بطولتهم فى اعتلائهم الأبراج والشرفات ، وزاد فى شجاعتهم مالاحظوه من ضعف قوة أعدائهم وضآلة عددهم عما كانت عليه من قبل ، ذلك لأن الأسطول الذى كان فى السابق مصدر خطر عليهم كان قد أبحر وبعدت الشقة بينه وبينهم ، ولم يعد من اليسير عليه أن يرجع اليهم ، وزاد من طمأنينة الأهالى نبأ طرق سمعهم يشير الى قرب وصول الملك ، فزادهم هذا النبأ بأسا على بأس ، وحالفهم الحظ مرارا فواظبوا على قتـــال الأعداء ، وفتكوا بالكثيرين منهم واستمرت المعركة قرابة سبع ساعات من غير انقطاع ، حتى اذا أدرك الجاحدون فشل جهودهم أمروا رجالهم بالعودة فانطلقوا الى عسقلان .

ـ ٢٥ ـ

أما الموقف فى المملكة ابان ذلك الحين فكان على الصـــورة التالية :

تظاهر « برسق » بالفرار من أرض أنطاكية عند اقتراب الملك ورفاقه النبلاء ، فلما فارق كل من الملك وأمير أنطاكية وطغتكين بعضهم بعضــــا وعاد كل منهم الى بلده لتدبير شـــئونه الخاصة تبين « لبرسق » انه لن يكون من اليسير عليهم حشد قواتهم ضده مرة أخرى ، فكر راجعا الى أنطاكية ، وأخذ يعيث فى أرجائها فسادا ويضرم النار فى حقولها وفى أطرافها ، وأباح لجنوده كل مايجدونه خارج الأماكن الحصينة يأخذونه نهبا وسلبا ، ثم قســـمهم الى مجموعات أرسلها الى جهات مختلفة ، وأمرهم أن يفتكوا بكل من يلاقونه ، فان صادفوا فى الحقول أو فى الطرقات العامة من تخلف عن متابعة رفاقه ولم يأخذ حذره أخذوه أسيرا أو عرضـــوه على السيف ، ولم يقف أمر هذه المعاناة على الأماكن التى انعدمت فيها

الحراسة بل أخذوا بالعنف أيضا المدن الحصينة فأحالوا المعرة وكفر طاب أنقاضا حتى راح أهلهما ما بين أسير وقتيل · ومجمل القول ان اليد العليا فى الاقليم بأجمعه صارت للأعداء الذين كانوا يحملون كل يوم ما تصل اليه أيديهم من الغنائم · وفرضوا الرق على الصليبيين ·

فلما علم أمير أنطاكية بهذه الأمور استدعى الى جانبه كونت الرها ، ثم خرج هو بنفسه يوم ١٢ سبتمبر من أنطاكية دون أن يضيع أى وقت حتى وصل الى « الروج » بقواته ، وتقدمت الكشافة فى الحال لاستجلاء خطط العدو وأحواله ، واستعد الأمير فى الوقت ذاته للمعركة فرتب جنده وتأهب بشجاعة لصد المغير ، وبينما هو مشغول بهذه الترتيبات وفق ما تقتضيه أصول الحرب - وقد أخلص الكونت فى مساعدته - اذا برسول يأتيه على جناح السرعة منبئا اياه بأن العدو ضرب معسكرا له فى وادى سرمد ، فعمت الفرحة الجيش بأجمعه بهذا النبأ كما لو كان النصر قد واتاه ·

ولما علم برسق بخبر اقترابنا أمر جنده بالتسلح واعداد صفوفهم للقتال · وراح يحضهم على الاستبسال ، وكان قد عمل على تأمين سلامة نفسه قبل وصول الصليبيين، اذ اتخذ له مكانا مع أخيه وبعض أصدقائه على تل مجاور لتل « دانيث » يستطيع من أعلاه مشاهدة رجاله وهم يحاربون ، واصدار التعليمات اللازمة لضمان استمرار القتال ، وبينما كان هو مشغولا على هذه الصورة اذ بالكتائب الصليبية تأخذ فى التقدم رافعة أعلامها ·

كان بلدون كونت الرها فى الطليعة مع جنده فلم تفزعه كثرة عدوه حين رآه ، بل اندفع مهاجما اياهم اندفاعا ضاريا زلزل

قلوبهم ، وحذت الكتائب الأخرى حذوه فألقوا بأنفسهم على من كان فى القلب من جند خصومهم ، والتحمت السيوف بالسيوف وقد أجمعوا العزم على الثأر مما أنزله عدوهم من أهوال بالضعفاء والفقراء ، فحاول هذا العدو فى بداية الأمر مقاومة الصليبيين باذلا فى هذه المحاولة كل ما فى طاقته فما أجداه ذلك نفعا ، اذ مالبث رجاله ان ولوهم الأدبار فى غير انتظام فزعا من بأسهم وبطشهم وما هم عليه من صبر عجيب ·

وشاهد برسق وهو واقف على قمة التل تدهور قوة جنده وتزايد نجاح الصليبيين ، ففر الى ما وراء تلك الأكمة مستصحبا معه أخاه وأصدقاءه ، تاركا وراءه رايته ومعسكره بكل ما حواه من المتاع ، لا يعنيه شىء سوى انقاذ حياته بالهرب ·

ومضت قواتنا تطارد العسكر الذين اختل نظامهم مطاردة عنيفة، واقتفت خطاهم مسافة تقرب من ميلين ، وأذاقوا الهاربين الويل الأليم، وحكموا السيف فيهم فقتلوا الكثيرين منهم ، أما أمير (انطاكية) فقد ظل مقيما فى ساحة النصر يومين مع طائفة من عسكره ينتظر عودة رجاله الذين راحوا يطاردون العدو فى شتى النواحى ، فلما رجعوا أمر باحضار كل ما غنموه بين يديه ، وكافأ من ساهموا فى النصر بما هم أهل له ، وكان المارقون حين فروا على وجوههم خلفوا خيامهم غير عابئين بما اشتملت عليه من المئونة الكبيرة والأموال الكثيرة، ولم يقتصر الصليبيون على الاستحواذ على الغنائم والأسلاب التى جمعت من كل النواحى ، بل زادوا على ذلك فاستعادوا اخوانهم الذين كانوا فى أسر العدو وقيده وأرسلوهم الى دورهم ، فعادوا فرحين الى أهلهم ونسائهم وأبنائهم وحيواناتهم ، ويقال ان خسارة العدو بلغت أكثر من ثلاثة آلاف رجل فى هذا الاشتباك ·

فلما تم كل شيء على هذه الصورة قدم الأمير (روجر بن ريتشارد) أمامه عددا كبيرا من الخيول والبغال والأسرى ، ومقادير ضخمة من مختلف المتاع ، ودخل هو فى اثرها أنطاكية دخول الظافر المنتصر وسط هتافات الناس وغبطتهم ٠

ـ ٢٦ ـ

وفى حوالى هذا الوقت وفد السرى الأمجد الطاهر الذيل أسقف أورنج المبجل ، نائبا عن البابا لتقصى الحقائق فيما بلغه من مسلك البطرك أرنولف الرذيل ، وما تلوكه الألسن عن حياته الخليعة التى يحياها ، فلما صار الرسول البابوى بيننا بادر فى لحظته الى عقد مجلس حضره كل أساقفة المنطقة ، آمرا « أرنولف » بالمثول أمامهم ، وانتهى الأمر أخيرا بأسقف أورانج ـ بحق ما للكنيسة الرسولية من السلطة ـ بأن خلع « أرنولف » من وظيفته الكهنوتية جزاء وفاقا على فعاله ، مما حمل أرنولف ـ اعتمادا منه على دهائه الخبيث الذى أفسد به عقول الجميع ـ ان يمضى الى كنيسة رومة ، واستطاع ـ بكلماته الناعمة واسرافه فى تقديم الهدايا ـ أن يتغلب على شكوك البابا ورجال الكنيسة فيعود الى مستقره ناعما بعطف الكنيســـة الرسولية ، ورد الى كرسى البطركية فى بيت المقدس ، فرجع اليه فى لحظته معاودا حياة التبذل التى كانت سببا فى خلعه ٠

***

لم يكن بيد الصليبيين اذ ذاك أى قلعة فيما وراء نهر الأردن ، فلما تطلع الملك لتوسيع حدود مملكته فى هذه الناحية استعان بالله وفكر فى بناء قلعة فى اقليم الأراضى العربية الدانية المسمى أيضا باسم سورية الداخلية حتى تصبح الحامية التى توضع فى هذا

المكان قادرة على رد عادية المغير على الحقول الواقعة وراءه والتى كانت تابعة للمملكة وتعتبر أرضـــا خراجية ، فقام الملك من أجل تنفيذ مشـــروعه هذا بجمع قوات مملكته وســـار بهم عبر البحر الميت مجتازا بهم الأرض العربية الثانية التى عاصمتها البتراء ، حيث تخير موضعا مرتفعا ملائما لمشروعه شيد فيه قلعة شديدة المناعة بفضل موقعها الطبيعى وما امتازت به من وسائل دفاعية زودتها بها الطبيعة ، وأخرى صناعية ، فلما كمل البناء وضع به حامية من الفرسان والمشاة وأقطعهم الأراضى الشاسعة ، وكان المكان محصنا بالأسوار والأبراج وبخندق ، وجهز الموضع بالأســـلحة والطعام والآلات ، واذ كان بانيه ملكا فقد سماه اسما مشتقا من الهيبة الملوكية هو « مونتريال » وكانت أرض الناحية أرضا خصبة تنتج كميات وفيرة من الحنطة والنبيذ والزيت ، وزيادة على ذلك فقد كانت مشهورة بموقعها الصحى الممتع للعين ، كما أن هذه القلعة كانت تطل على كل المنطقة المجاورة لها .

— ٢٧ —

كان بال الملك فى هذه الأثناء مشغولا كل الانشغال بمشكلة قلة سكان المدينة المقدسة — حبيبة الله — قلة تجعلها شبه خالية منهم . اذ لم يكن بها العدد الملائم للقيام بما تحتاجه المملكة ، ولم يكن هناك عدد كاف منهم لحراسة مداخل المدينة والدفاع عن أسوارها وأبراجها ضد أية غارة عدوانية تباغتها على غير توقع منها ، ومن ثم فقد أولى الملك هذه المشكلة غاية اهتمامه ، وراح يدير الأمر فى ذهنه ، ويتحدث مع غيره عن الخطط التى تؤدى الى تعميرها بقوم مؤمنين بالرب الحق ، مخلصـــين فى عبادتهم له ، ذلك ان « الأمم » التى كانت تعيش بالمدينة قد بادرت — الا قلة ضئيلة فاذن لها بالعيش هناك ،

لكن هذه القلة التى نجت لم يسمح لها بالبقاء فى المدينة ، كما أنه لم يسمح لأحد من أتباع الملة المسيحية بالعيش فى بلد له هذه القداسة والا كان وجوده طعنا فى تقوى الزعماء ، وكان سكان قطرنا قليلى العدد قلة ملحوظة ويعيشون فى فقر مدقع حتى أنهم كانوا أقل من أن يشغلوا شارعا واحدا من شوارعها ، ناهيك بتضاءل عدد «السوريين» الذين كانوا أصـــــلا من مواطنى المدينة تضاؤلا بالغا من جراء ماتحملوه من المصائب أيام المعارك التى قلصت عددهم حتى كادوا الا يكونوا شيئا مذكورا ، فلما جاء اللاتين الى سورية ـ لاسيما وقد شرع الجيش فى السير الى القدس بعد الاستيلاء على انطاكية ـ راح رفاقهم ومواطنوهم الكفار يسيئون الى خدام الرب هؤلاء اساءة افنت الكثيرين قتلا لأتفه الأمور ولم يرعوا فيهم الا ولا ذمة ، ولم يقيموا وزنا للسن أو الظروف ، واساء المسلمون السيرة فيهم اعتقادا منهم بأن هؤلاء السوريين هم الذين بعثوا برسلهم وكتبهم يستدعون امراء الغرب الذين قيل انهم جاءوا للقضاء على الكفار .

ولقد شعر الملك أنه يحمل على كاهله مسئولية خلاص المدينة من هذا الحزن المخيم عليها ، ومن ثم راح يستقصى أدق الاستقصاء من بعض المصادر كيف يمكنه جلب السكان اليها ، فعلم أخيرا ان هناك كثيرا من المسيحيين يعيشون فى القرى الواقعة فيما وراء نهر الأردن فى بلاد العرب ، قد ضرب عليهم الرق وفرضت عليهم الجزية، فأرسل اليهم يعدهم بحياة أحسن من حياتهم التى يعيشونها الآن ، ثم مالبثت نفسه ان طابت بمن توافد عليه منهم وقد جاءوه بحريمهم وأولادهم ومواشيهم وقطعانهم وكل ماملكته أيديهم، ولم يكن انجذابهم للسكن فى المدينة ناجما فحسب بسبب احترامهم لها بل وأيضـــا لما يكنونه لقومنا من المودة ولما تخفق به ضلوعهم من حب الحرية . حتى ان الكثيرين ممن لم يســـتدعهم الملك نفضوا عن كاهلهم نير

العبودية الثقيل الذى يرزحون تحته ، وقــدموا للاقامة فى المدينة المبجلة عند الرب ، فمنحهم الملك نواحى المدينة التى كانت أكثر من غيرها فى مسيس الحاجة لمساعدتهم فعمرت الدور بهم ٠

ـ ٢٨ ـ

وقد عزم الملك فى هذه الأثناء ـ وربما كان مدفوعا فى ذلك العزم بالحاح رجال الدين ـ على أن يبعث طائفة من الرسل الى رومة يرفعون بعض التماسات معينة للبابا ، تتضمن أن يصـــدر اعلانا يضم بمقتضاه الى سلطان كنيسة بيت المقدس والى سيطرتها جميع المدن والنواحى التى يتمكن الملك بعون الله من الاستيلاء عليها بفضل بأسه كمحارب ، وكذلك مايستطيع أن يستخلصه من يد العدو، ونجح الملك فى الحصول بالنسبة لهذا الموضوع على مرسوم من الكنيسة البابوية نرى ان محتوياته جديرة بأن تدرج فى كتابنا هذا حيث جاء فيه :

« من بسكال خادم خدام الرب الى الملك المبجل بلدوين ملك بيت المقدس ، له التحيات والبركات الرسولية ٠ ان طول فترة امتلاك الكفار وحكمهم الطاغى قد أديا الى حدوث بلبلة بشأن حدود ممتلكات الكنائس التى كانت والتى لاتزال فى نطاق أراضيك ٠

« ولما وجدنا ـ بعد امعان الفكر ـ اننا غير قادرين على رسم حــدود ثابتة لهذه الممتلكات فقد رأينا من الظلم أن لا نســتجيب لالتماسك ٠

« ولكن لما كنت قد أخلصت الاخلاص الصــادق فى تعريض حياتك لأشد الأخطار هولا من أجل اعلاء قدر كنيسة بيت المقدس فاننى أعلن أن تصبح أى مدينة من مدن الكفار أخذتها أو تأخذها فى المستقبل قسرا خاضعة لسلطان تلك الكنيسة وتحت ادارتها ٠

« وزيادة على ذلك فانى آمر أن يحرص أساقفة تلك الكنائس كل الحرص على أن يظهروا للبطرك من الطاعة مثل الطاعة التى يظهرونها لمطارنتهم حتى يشتد ساعده بمؤازرتهم له وحتى يجذوا باتحادهم ثمار الأعمال العظيمة من أجل مجد كنيسة بيت المقدس فيتمجد اسم الرب بحملات الصليبيين » .

صدر هذا فى اللاتيران فى اليوم الثامن من شهر يونيو ١١١١ .

***

ولما كان بلدوين قد ضمن كتابه التماســـا آخر فى نفس الموضوع فقد استجاب له البابا فميز (قداسته) البطرك جبلين بميزة يتمتع بها هو وخلفاؤه من بعده الى أبد الآبدين ، ندرج نصها فى هذا الكتاب وهو :

« من بسكال الأسقف خادم خدم الرب الى أخيه الجليل الشأن جبلين بطرك القدس ، والى خلفائه الذين يجيئون من بعده وفق القانون الكنسى :

« ان الممالك الدنيوية تتغير بتغير العصور والأحوال ، الأمر الذى يتطلب أن تتغير معه حدود الأبرشيات الكنســـية فى كثير من الأقاليم وان تنتقل من مكان لآخر ، واذا كانت حدود كنائس آسيا قد رسمت فى الأزمنة الأولى الا انه اعتور هذه الحدود كثير من الاضطرابات لتوالى تدفق أجناس مختلفة ذات عقائد متباينة .

أما فى وقتنا الحاضر ، فقد عادت بفضل الله ــ مدينتا بيت المقدس وأنطاكية وما جاورهما من النواحى ــ الى حكم الأمـــراء المسيحيين ، لذلك فالواجب يفرض علينا ان نتدخل فنغير ونبدل باذن من الله ما يقتضيه ســـير الزمن ، كما ينبغى علينا أن نعيد تنظيم مايحتاج الى اعادة تنظيم ، ومن ثم فاننا نمنح الكنيسة بالقدس هذه

المدن والولايات التى تم فتحها بمشيئة الرب بفضل الدماء التى بذلها كل من الملك بلدوين الرفيع الشأن والجيوش التابعة له ٠

« وكذلك فاننا نعهد اليك أيها الأخ الحبيب والأسقف الشريك جبلين والى خلفائك من بعدك ، والى كنيسة بيت المقدس بالحق الذى يخوله المقام البطركى أو المقام المطرانى ، ونمنحك بمقتضى ملفوظ هذا المرسوم الحالى — حق التحكم والتصرف فى جميع الولايات والمدن التى ردتها العناية الالهية الى سيطرة الملك المشار اليه ، أو التى تقضى مشيئة الرب أن تسترد فى المستقبل ، لأنه من الملائم لكنيسة القيامة أن تحظى بالمجد الذى هى أهل له بناء على رغبات جنودها المخلصين — وحق لها — وقد تحررت من نير الترك المسلمين — ان تلقى التعظيم الفياض وهى فى أيدى المسيحيين » ٠

***

على أن طاهر الذيل برنارد بطرك أنطاكية غضب أشد الغضب من هذا المرسوم لما رآى فيه من زيادة فى اهانة كنيسته فأرسل فى الحال رسلا الى الكنيسة بروما يشكو من الشكوى من هذا القرار ومن الظلم الفادح الذى نزل به وبكنيسته ، كما بعث بالكتب التى ضمنها عتابه على البابا والكنيسة بأجمعها على الأخطاء التى تضمنها هذا الأمر ، ولما كان البابا راغبا فى أن يذهب غضبه فقد رد عليه بالكاتب التالى :

« من بسكال الأسقف خادم خدم الرب الى أخيه الموقر برنارد بطرك أنطاكية : لك التحية والنعم الرسولية ، انه على الرغم من أن لكنيسة روما الأولوية بين الكنائس الأخرى العظـــام ، وعلى الرغم من أن العناية الالهية شـــرفتها بأن يموت القديس بطرس

فيها بالجسد ، الا أنه قام حب متين العرى بين أسقفى روما ونطاكية، وهو حب لا يسمح بقيام أى خلاف بينهما لأن بطرس هذا نفسه زاد الكنيستين رفعة ٠

« لقد طرأ تغيير كثير خلال الفترة التى تدخل فيها الاحتلال الكافر فى هذه الوحدة التى تربط عظيمى هاتين الكنيســـتين ، وانا لنحمد الرب على انه رد حكم المسيحيين الى مدينة أنطاكية فى عهدنا ٠

« ومن ثم فانه ينبغى أيها الأخ الغالى أن تبقى بيننا نفس هذه الرابطة الوثيقة متينة وقوية ، كما ينبغى عليك الا تسمح أن يساورك أى ظن بأننا نرغب فى أن نحط من قدر كنيسة أنطاكية أو نقلل من شأنها ، واذا كنا قد كتبنا عن غير قصد الى الكنيسة فى أنطاكية أو الى الكنيسة فى بيت المقدس عن أى شىء آخر يتعلق بحدود بعض أبرشيات معينة ، فلا ينبغى أن ينسب ذلك الى نازع شر أو رعونة ، ولا يجوز أن يشب بيننا نزاع حول هذا الموضوع ، ذلك أن موضع الأماكن البعيد والتغيرات التى طرأت على الأسماء القديمة للمدن وللولايات قد سببت عندنا اضطرابا وقلقا كبيرين ، وزيادة على ذلك فقد كان من أغلى أمانينا على الدوام ومن أقربها الى قلبنا أن نعمل على تشجيع قيام ظروف سلام لا ظروف شقاق بين الاخوان ، وأن نحفظ لكل كنيسة حقها ومكانتها ٠

صدر فى لاتيران فى اليوم الثامن من أغسطس (سنة ١١١٢) ٠

ولكى تكون مشاعر البابا ازاء هذا الموضوع مفهومة ، وكذلك غرضه من وراء منحه الملك وكنيسة القدس الامتياز الذى تضمنته مراسيمه فانه كتب أيضا ما يأتى الى البطرك برنارد :

« من بسكال الأسقف خادم عبيد الرب الى غبطة رفيقه الأسقف بطرك أنطاكية : لك التحية والبركات الرسولية(٢٠) ٠

« اننا كما كتبنا الى أخوتكم فى رسالة سابقة نخبرك بحبنا الصادق لك وللكنيسة التى عهد اليك برعايتها ولا نرغب بأى حال من الأحوال أن نقلل من شرف قدركم الســـامى ، بل تجدون على العكس من ذلك اننا راغبون فى أن يظل على الدوام (بمشيئة الرب) تفوق بطركية أنطاكية الذى حـــازته فى الأزمنة الســـالفة تفوقا كاملا غير منقوص ، ولو أمعنت النظر فى المضمون الذى أنطوت عليه رسالتى هذه لتبينت أن المنحة التى منحناها لأبننا بلدوين ملك القدس بناء على التماس مبعوثيه لايمكن أن تقلل أبدا ــ ولو قيد أنملة ــ من حبنـــا لك ، فقد جاء فيها : ان امتلاك الكفار الطويل للبــلاد وحكمهم الظالم قد أديا الى اضطراب بالنســـبة لحدود ممتلكات الكنائس التى كانت ولاتزال فى أرضك ، ومن ثم فاننا نرى أنفسنا ــ بعد طول التروى والأناة ــ غير قادرين على أن نقرر حدودا معينة لها ، لذلك رأينا أن العدل يقتضينا أن نوافق على ملتمسك ، ونظرا لأنك قد عرضت حياتك عن اخلاص للخطر الجسيم سعيا وراء اعلاء شأن كنيســـة بيت المقدس فاننى أقرر أن جميع مدن الـكفار التى استوليت عليها حتى الآن ، وماسوف تستولى عليه : تكون تحت حكم تلك الكنيسة وسلطانها » ٠

« كما يجب أن تفســـر بنفس روح التفـــاهم ما كتبناه الى جبلين بطرك بيت المقدس ذى الذكر الطيب حول المدن والولايات التى شاءت رحمة الرب أن تؤول الى يد الملك بلدوين بفضل بعد نظره

---

(٢٠) كلام البابا هنا موجه الى بطرك أنطاكية ٠

وبفضل دماء العساكر التى سارت وراءه ، أما الكنائس التى مازالت حدودها الموجودة موضـــع نظر ، وكذلك الكنائس التى لم يعتور حدودها وممتلكاتها أى اضطراب رغم طول الاحتلال الكافر وطغيانه، كذلك المدن التابعة لنفس الكنائس فاننا نرغب أن تكون خاضعة لتلك الكنيسة التى تنتمى اليها عن حق منذ آماد بعيدة ، لأننا لا نريد أن نقلل من مكانة الكنائس سعيا لزيادة قوة الأمراء ولا نقصد أن نحرج قوة الأمراء من أجل تعظيم المكانة اللاهوتية ·

صدر فى بنفينتوم فى الثانى عشر من شـــهر مارس (سنة ١١١٣) ·

كذلك كتب الى الملك بلدوين بنفس المعنى ، شارحا له ماذا كان غرضه حين وافق على نفس الالتماسات ، ومبينا له انه لاينبغى بحال من الأحوال أن تحمل كنيسة أنطاكية فوق طاقتها ، فقال :

« من بسكال الأسقف خادم خدم الرب الى ولده وحبيبه بلدوين، ملك بيت المقدس : لك التحية والبركات الرسولية ·

لقد انزعج اخونا البطرك برنارد وجميع رجال كنيسة أنطاكية اشد الانزعاج من قرار الموافقة الذى منحناه لكم استجابة لالتماسك بأن يكون كل ما استوليتم عليه من مدن الكفار وما قد تستولون عليه منهم خاضعا لسلطان كنيسة بيت المقدس ومقامها ، ولما كان هذا التنازل الممنـــوح لتلك الكنائس التى اضـــطربت حـــدودها وممتلكاتها من جراء احتلال الكفار الطويل لها فقد تعالت الشكاية من أن بطرك القدس قد جار ــ برضا منك ــ على حقوق تلك الكنائس المشار اليها والتى لا يشك أحد فى انها كانت تابعة لمطرانية أنطاكية حتى زمن الترك والشرقيين ، ذلك لأن أساقفة تلك الكنائس ــ كانوا يظهرون تبعيتهم وطاعتهم لبطرك انطاكية ، ومن ثم فقد بعثنا الى

البطرك المشار اليه بالكتب التى قررنا فيها استمرار الحفاظ على سلامة الوضع السامى الذى تتمتع به بطركية أنطاكية ، كما قررنا صـــيانته من أن يجور عليه أحد ما ، حسبما هو مقرر منذ الأزمنة البعيدة حتى الآن ، لذلك فاننا نذكرك جادين ـ بل ونأمرك ـ الا يصدر من جانبك أى تعد من هذا القبيل ، لأن الصدق فيه واضح والحق فيه جلى ، بل ينبغى أن تتمتع كل كنيسة بحقها الكامل فى الهيمنة على الأقاليم التى تتبعها تبعية شرعية ، لأننا لا نستطيع أن نقضى بما يخالف نظم آبائنا المقدسة المعروفة بالبداهية ، كما اننا لا نحب أبدا التقليل من مكانة الكنائس لنزيد من قوة الأمراء ، ولا أن نفتات على سلطان الأمراء من أجل تعظيم مكانة الكنيسة ، حتى لا يتعكر فى الحالين صفو سلام الكنيسة بينكم . وقاكم الرب اياه .

« أما رجال الدين فى بيت المقدس ـ وهم الذين خلفوا وراءهم أملاك أسلافهم وغادروا مهد نشأتهم من أجل تعظيم شأن الكنيسة والاهتمام بالملة ، فانا نأمرهم عن طريق هذه الوثيقة الحالية أن يكونوا قانعين بحقوق كنيســــة بيت المقدس ، والا يحاولوا ظلما وعدوانا اغتصاب هذه الأملاك التى يعرف الجميع معرفة تامة أنها حق خالص للكنيسة فى أنطاكية ، وادعو الله القادر على كل شىء أن يكلأ كل خطواتكم برعايته فى جميع ما تقدمون به ، وأن يمنحكم النصر على أعداء الكنيسة .

صدر فى لاتيران فى الثامن عشر من شهر مارس (سنة ١١١٣)

أراد الملك بلدوين أن يحصل على معلومات دقيقة تتعلق بالنواحى المجاورة ، وتقصى أحوال الولايات ، ولذلك فانه قام فى السنة التالية مستصحبا معه الأدلاء من أهل الخبرة بالمنطقة وجماعة من الحاشية رآهم أهلا لتحقيق غرضه المنشود فعبر بهم نهر الأردن وجاس فى أنحاء سورية الوسطى ثم اجتاز الصحراء الفسيحة الى البحر الأحمر حتى أفضى به الزحف الى مدينة « هليم » وهى مكان كان معروفا تمام المعرفة لشعب اسرائيل حيث كان به ـ كما نقرأ فى الأخبار ـ اثنا عشر نبعا وسبعون شجرة نخيل ، فلما بلغ الملك هذا الموضع وجد أن خبر مجيئه قد تسامع به سكانه فتوجسوا خيفة منه وهربوا ناحية البحر المجاور لهم ، وركبوا قوارب صغيرة نجاة بأنفسهم من الموت ، وبعد أن تفحص الملك هذه النواحى تفحصا دقيقا ورآهابعينى رأسه : عاد أدراجه عبر الطريق المؤدى الى قلعة مونتريال التى شيدها منذ أمد قريب ، ثم غادرها ميمما وجهه شطر بيت المقدس ، فلما كان فى بعض الطريق ألم به على غير توقع ـ مرض خطير أضواه حتى لم تعد له طاقة على احتماله، فلما خشى دنومنيته وخزه ضميره وأنبه أشد التانيب ، لأنه ارتكب الخطيئة حين سرح زوجته الشرعية(٢١)، وندم على ماكان منه ندما أورثه حسرة فأفضى بآثامه الى نفر أتقياء يخافون الله واعترف لهم بجرمه ، ووعدهم أن يكفر عما ارتكب ، فنصحوه أن يصرف المرأة

---

(٢١) أما هذه الزوجة الاولى فهى « اردا » بنت طوروس التى أشار وليم هذا الجزء من الترجمة العربية الى أن الملك بلدوين فرض عليها حياة الرهبنة ، فدخلت فى دير القديسة حنة .

التى تزوجها منذ قليل وأن يرد زوجته الأولى الى المرتبة التى حرمها منها ، فوافقهم على هذا الرأى لو مدت له الحياة وأكد الوفاء بذلك بيمين أقسمها ٠

ثم استدعى الملكة الى حضرته وفصـــل لها الأمر تفصيلا ، دقيقا وكان قد بلغها من قبل بعض الشىء عن عزمه هذا فقد حدثها به نفر غير قليل من الناس ، فتسعرت غيظا أن تكون قد استدعيت من وطنها من غير هدف بعد أن مكر بها كبار رجال المملكة الذين ذهبوا اليها لاحضارها ، واذ أحزنها ما جرى ، وأمضتها الاهانة التى لحقتها ، وشجاها ضياع ثروتها من غير جدوى فقد تأهبت للعودة الى بلادها ، وذلك فى السـنة الثالثة من وصــولها الى سورية ٠

اما ابنها فقد فار مرجل غضبه فورة جاوزت الحد لرد أمه على هذه الصورة ، وغلى جوفه بالكراهية المميتة ضد الملكة وشعبها ٠

وقام أمراء مســيحيون آخرون من أجزاء شتى من العالم فجاءوا بأنفسهم أو قدموا الهدايا بسخاء ، فزادوا فى رقعة مملكتنا الناشئة وشدوا من ساعدها ، اما ابنها ومن خلفه من بعده فلم تستل الضغينة من قلوبهم حتى يومنا هذا ، ولم يحدث ان تعطفوا علينا ولو بكلمة ود واحدة ، هذا على الرغم من انه كان فى استطاعتهم أن ينقذونا فى أوقات شدتنا بالمشورة والمعونة اكثر مما يستطيعه سواهم من الأمراء ، الا انهم لم ينسوا قط هذه الأخطاء بل راحوا يصبون من غير حق حنقهم وانتقامهم على الشعب كله بسبب جرم فرد واحد منه ٠

- ٣٠ -

كانت صور هى المدينة الوحيدة الواقعة على الشاطىء التى لاتزال حتى ذلك الحين فى حوزة العدو وكان الملك (بلدوين الأول) حريصا أشد الحرص على الاستيلاء عليها ، ومن ثم فانه قام فى نفس السنة ـ بعد أن زالت علته ـ فشيد (فى سنة ١١١٧) قلعة بين صور وعكا فى نفس الموضع الذى يقال ان الاسكندر المقدونى شيد فيه ـ حين أراد الاستيلاء على صور ـ قلعة سماها « الكسندار يوم » ، نسبة اليه ٠

وتقع الكسنداريوم هذه على شاطىء البحر ، وتبعد عن صور بما يقرب من خمسة أميال ، وتكثر بها الينابيع المائية التى منها ريها ، وقد جدد الملك بلدوين بناءها لتكون شوكة فى جنب أهل صور تقض مضجعهم وتصلح أن تشن الغارات منها عليهم ، ويصحف الناس اليوم اسم هذا المكان فيقولون « سكندليوم » « ويرجع ذلك الى أن الاسكندر يسمى فى العربية « بسكندر » « والكسنداريوم » بسكنداريوم ، واذ كان حرف الراء يتحول فى العادة الى حرف « لام » فان الموضع يعرف عادة باسم سكندليوم ٠

- ٣١ -

ولما كانت السنة التالية مضى الملك (بلدوين الأول) الى مصر على رأس جيش كبير انتقاما من المصريين لكثرة ما أنزلوه به من المصائب ، وشن غارة عنيفة استولى فيها على مدينة الفرما ذات

التاريخ الموغل فى القدم ، ونزل عن كل ما وجده فيها من الميرة الى رفاقه الحربيين ، وأذن لهم باستباحتها .

والفرما ـ كما قلنا ـ مدينة قديمة على ساحل البحر ، ولاتبعد كثيرا عن أحد فرعى النيل المسمى بفرع « دمياط » الذى تقع على مصبه مدينة أخرى أقدم منها تسمى « تنيس » التى شهدت المعجزات التى أظهــرها الرب لفرعون على يد نبيه موسى ، فلما تم للملك الاستيلاء عليها مضى فزار مصب النيل ليتملى بصــره اعجابا بمياهه التى لم يكن قد رآها قط من قبل ، وكان لهذا الأمر أهميته الكبرى عنده لأنه لم يكن قد رأى النيل وهو يصب بعض مائه فى البحر عبر هذا الفرع ، والقول السائد الذى ينزل منزلة العقيدة عند الناس هو أن هذا النيل أحد أربعة أنهار تنبع من الجنة ، فاصطاد الملك ومن معه من هذا الخليج بعض السمك الذى يكثر به كثرة هائلة .

وبعد أن تم له ولهم ما أرادوه عادوا أدراجهم الى المدينة التى استولوا عليها وجهزوا له افطاره من السمك الذى اصطادوه له ، لكنه ما كاد ينهض من مائدة افطاره حتى أحس باضطراب داخلى شديد ، وبمغص ممض فى بطنه ، كما عاوده الألم من جرح قديم كان به فأنهك قواه انهاكا خطيرا أيأسه ومن معه من البقاء حيا ، فأذن المؤذن فى القوم بالرحيل فى لحظتهم هذه ، بيد أن العلة أخذت تتفاقم بالملك ، وبلغ من الضعف حدا عجز معه عن الركوب ، فجاءوه اذ ذاك بمحفة حملوه عليها وهو فى أشد حالات الكرب ، وساروا به وهو على هذا الوضع وعبروا تلك الناحية من البادية الممتدة ما بين مصر والشام حتى وصلوا الى العريش احدى المدن الساحلية القديمة فى تلك الصحراء ، واذعن الملك لمرضه ، وجاءه أجله فحمل عسكره المفجوع فيه جثمانه ودخلوا به القدس يوم الأحد المعــروف بحد

الشعانين عبر وادى يهوشافاط ، حيث كان الناس مجتمعين كعادتهم للاحتفال بهذا العيد ٠

❋ ❋ ❋

وكان موت بلدوين الأول فى سنة ١١١٨ من مولد سيدنا ، وذلك فى العام الثامن عشر من حكمه ، ودفن فى ابهة ملوكية مجاورا لأخيه (جودفروى) فى الموضع المسمى بالجلجلة اسفل موضع الصلب المعروف باسم كالفارى ٠

❋ ❋ ❋

هنا ينتهى الكتاب الحادى عشر

الكتاب الثانى عشر

بلدوين الثانى : الاضطرابات فى شمال سورية

فصول الكتاب الثانى عشر :

٥ ـ وفاة الكسيوس كومنين امبراطور القسطنطينية وموت كل من البابا بسكال ، وكونتسة صقلية التى كانت ذات مرة ملكة لبيت المقدس ٠

٦ ـ الجيش المصرى يقتحم المملكة بقواته البرية والبحرية فيخرج الملك بعسكره لصده ولكن لا يحدث اشتباك بين الطرفين ٠ الموت يوافى « أرنولف » بطرك القدس فيتم اختيار جيرموند مكانه ٠

٧ ـ تاسيس هيئة فرسان المعبد الحربية فى بيت المقدس ٠

٨ ـ موت الملك « جلاسيوس » وتولى « كاليتوس » مكانه ٠

٩ ـ ايلغازى الوالى التركى القوى يهاجم امارة انطاكية بحشد كثيف ويعيث فسادا فى البلد شرقا وغربا ٠

١٠ ـ مصرع الأمير روجر فى المعركة وهزيمة جيشنا ٠

١١ ـ زحف الملك بلدوين الثانى وكونت طرابلس الى انطـــاكية لمقاومة ايلغازى ٠

١٢ ـ الملك والكونت يساهمان فى محاربة ايلغازى فتدور الدائرة على جيش الجاحد ، وتحدث مجزرة فظيعة يهلك فيها هذا الجيش ، واذ ذاك توضع الامارة تحت رعاية الملك ٠

١٣ ـ عقد مجلس بنابلس فى السامرة ٠

١٤ ـ ايلغازى يشـــن حملة ثانية ، ويعاود الهجوم على أنطاكية فيخرج الملك لصده ، اصابة ايلغازى بالسكتة فتميته ٠

١٥ ـ الملك يمنح الحرية التامة لمواطنى القدس ، ويؤكد ذلك بمرسومه ٠

١٦ ـ طغتكين ملك دمشق يخرب منطقة طبرية فيخرج الملك لصده ، ويدمر مدينة جرش ٠

١٧ ـ بلك (أحد أمراء الترك الأقوياء) يهاجم أرض أنطاكية ويأسر جوسلين ، كما يقع الملك (بلدوين الثانى) هو الآخر فى أسر بلك ٠

١٨ ـ جماعة معينة من الأرمن يعرضون أنفسهم للخطر الشديد فى محاولة منهم لانقاذ الملك ويستولون على القلعة حيث يوجد السجناء ، ويطلقون سراح جوسلين ٠

١٩ ـ بلك يسترد القلعة عنوة ، ويفتك بالأرمن معملا فيهم السيف ٠

٢٠ ـ الكونت جوسلين يجمع قوة كبيرة لانقاذ الملك ولكن الفزع الشديد يستبد به من جراء النكبة المنحوسة التى ألمت ببلدوين فيسرح عساكره ويردهم الى أراضيهم ٠

٢١ ـ المصريون يعاودون دخول المملكة بقوات ضخمة فيقابلهم الصليبيون بجيش قوى ويهزمونهم هزيمة نكراء ٠

٢٢ ـ دوج البندقية يبحر الى سورية بأسطول كبير ٠

٢٣ ـ الدوج يصادف أسطول العدو قرب يافا فيهاجمه بضراوة ،

فيضطر العدو الى الارتداد وتقع كثير من الشوانى فى أيدى المسيحيين .

٢٤ ـ الاتفاق المبرم بين دوج البندقية وبارونات المملكة بشـــأن موضوع حصار صور .

٢٥ ـ نســخة من العهد الذى تضمن الاتفاق المبرم بين البنادقة وأمراء مملكة بيت المقدس بشأن حصار صور .

* * *

هنـــا يبـــدأ

الكتاب الثانى عشر

بلدوين الثانى : الاضطرابات فى شمال الشـــام

ـ ١ ـ

كان بلدوين دى بورج ثانى ملوك القدس اللاتين يلقب بأكيوليوس، وكان رجلا ورعا يخشى الله ، مشهورا بوفائه وخبرته الكبيرة بأمور الحرب ، وهو من أمة الفرنجة من أسقفية ريمز ، وأبوه هيج كونت « ريثيل » وأما أمه فكونتسة مليزاند الفاضلة ، التى يقال انها احدى اخوات كثيرات أنجبن العديد من البنين والبنات ، ولا يعرف حقيقة عدد من أنجبوا سوى الدارسين دراسة دقيقة لأنساب الأمراء .

ولقد خرج بلدوين الثانى فى حياة أبيه فى صحبة رهط من الأشراف الذين تفيض قلوبهم بنفس مايفيض به قلبه من التقوى ، وخرج فى حياة أبيه الشيخ المسن الذى تقدم به العمر حاجا الى

القدس كواحد من حاشية قريبه الدوق جودفروى ، وكان بلدوين اذ ذاك أسن أفراد عائلته ، وترك بلدوين فى وطنه أخوين وأختين ، فأما أحد هذين الأخوين ــ واسمه جرفيز ــ فقد اختير فيما بعد أسقفا لكنيسة « ريمز » ، واما الآخر فاسمه « مناسيس » ،وقد تزوجت احدى أختيه واسمها ماتيلدا من حاكم قلعة « فيترى » ، كما اقترنت الثانية ، وتدعى « هيدرنا » من أحد الأشراف ذوى النفوذ واسمه « هيربراند دى هيرجز » وقد أنجبت له « مناسيس دى هيرجز » الذى صار فيما بعد الكونستابل الملكى زمن الملكة مليزاند ٠

ولما مات والد هذا الملك بلدوين خلفه ابنه مناسيس ، وذلك لأن بلدوين ــ وهو أكبر منه ــ كان مشغولا بأمور المملكة فيما وراء البحر ، ثم مات مناسيس » دون ان ينجب ، فتخلى أخوه « جرفيز » عن وظيفته كأسقف ريمز وتزوج ، مما كان خروجا على قوانين الكنيسة ، فآلت اليه شرعا كونتية ريثيل ، وقد اثمر هذا الزواج ابنة واحدة زوجها أبوها لأحد أشراف نورماندى ، فلما مات « جرفيز » انتقلت الكونتية الى هوتييه ابن أخته « ماتيلدا » التى كانت قد تزوجت من حاكم قلعة فيترى » ويكفى هنا ما ذكرناه ٠

ــ ٢ ــ

لما مات طيب الذكر جودفروى بعث القوم فى استدعاء أخيه بلدوين الأول ليتبوأ عرش بيت المقدس مكانه ، وألقوا اليه بمقاليد أمور المملكة فى حفل يليق بجلال ولاية المملكة واذ ذاك قام باختيار خليفة له على كونتية الرها قريبه بلدوين الذى نتكلم عنه الآن والذى امتدت ولايته على الكونتية أكثر من ثمانية عشر عاما ، تميز خلالها حكمه بالقوة والنجاح ، فلما رآى فى السنة الثامنة عشر من حكمه استقرار أمور امارته وهدوءها عزم على زيارة ملك بيت المقدس الذى

هو مولاه وقريبه والمتفضل عليه بما فى يده من الاقطاع ، كما أراد فى الوقت ذاته زيارة الأماكن المقدسة من أجل الصلاة بها فلما تم اتخاذ كافة الترتيبات اللازمة للرحلة عهد برعاية الاقليم الى جماعة معينة من أتباعه الأوفياء الذين يثق فى اخلاصهم وكفاءتهم ثقة تامة ، ولما كان رجلا يقظ الفؤاد لبيبا يأخذ لكل أمر أهبته فقد رتب جميع ما من شأنه حفظ سلامة المدن ، حتى اذا أنجز ذلك الأمر مضى لطيته وفى معيته معشر من الأشراف ·

وبينما هو فى الطريق اذا برسول يعترضه حاملا اليه نبأ تأكد له صدقه ينعى اليه الملك بلدوين الأول فى مصر ، فانشغل بال كونت الرها بخبر موت مولاه وسيده انشغالا ليس بالمستغرب منه ، لكنه لم يتخل عن الرحلة التى خرج من أجلها ، بل تابع الذهاب الى القدس فوصلها فى اليوم المعروف بأحد الشعانين ، وكان الناس قاطبة قد اجتمعوا على جارى عادتهم فى وادى يهوشافاط احتفاء بمراسيم ذلك اليوم العظيم الدينية ، وشاءت الصدفة العجيبة أنه فى اللحظة التى كان الكونت وحاشيته يدخلون المدينة من ناحية كان موكب نعش الملك يدخلها من ناحية أخرى وقد ســـار من ورائه ــ جريا على العرف ــ جميع عســـكره الذى كانوا يرافقونه فى ذهابه الى مصر(١) ·

ــ ٣ ــ

وجىء الى المدينة الطاهرة بجثمان الملك ودفن فى وقار الى جوار جثمان أخيه فى كنيسة القبر المقدسة أمام المكان المســـمى بالجلجثة عند ســـفح جبل كلفارى ، فلما فرغ القوم من مواراته

---

(١) راجع ص ٣٢٩ ــ ٣٣٠ من هذا الجزء ·

التراب اجتمع كبار رجال المملكة من رؤساء الأساقفة وغيرهم من رجال الكنيسة ، كما حضر هذا الاجتماع البطرك أرنولف وبعض الأمراء العلمانيين ، منهم جوسلين صاحب طبرية الذى ألمنا بشىء من خبره آنفا ، وكان رجلا على جانب كبير من الشجاعة ، قويا فى كلامه وفعله ، وراحوا يتشاورون ماذا هم فاعلون ، وطرحت فى هذا الاجتماع الذى عقد من أجل هذا الموضع ذاته آراء شتى متباينة ، فكان من رأى البعض وجوب الانتظار حتى يصل كونت « استاس » كما أوصوا ألا يحدث أى تدخل فى القانون القديم الخاص بوراثة الولاية ، ذلك لأن أخويه صاحبى الذكر الطيب قد أدارا دفة أمور المملكة على خير وجه ، ووقع حكمهما موقع الرضا والقبول عند الجميع •

وقال آخرون ان أمور المملكة وما ينجم على الدوام من حاجات ملحة لا تسمح بمثل هذا التأجيل ، كما أن المتاعب المستمرة لا تأذن بهذا الابطاء ولا تجيز لنا أن نمر بفترة يخلو فيها العرش من حاكم ، بل ان السرعة واجبة ، وان الواجب يتطلب أن نبادر فنتخذ القرارات التى يتطلبها صالح البلاد ، مخافة أن يجد طارىء من الطوارىء فلا يكون هناك أحد يقود العسكر أو يباشر شئون المملكة ، لأن صالح البلد سوف يكون عرضة للخطر ان خلت من رأس يدبر أمورها •

ولقد أشرت آنفا الى أن جوسلين كان رجلا واسع النفوذ فى المملكة فاتفق مع البطرك فى رأيه الذى وجده مطابقا لما فى نفسه ، ومن ثم فانه وضع حدا لتردد الأحزاب وتوقفها عن التصويت اذ أيد المطالبين بتعيين ملك فى الحال وقال :

« ان كونت الرها حاضر معنا وهو رجل جليل القدر تربطه بالملك وشيجة القرابة ، ثم انه الى جانب ذلك مقدام جســـور فى

الحرب ، عظيم القدر من كل جانب عند الجميع ، عقمت كل أرض وولاية عن أن تنجب مثيلا له فهو نسيج وحده وقريع دهره ، ولذلك فتتويجه ملكا علينا خير لنا وأجدى من انتظار أمور خطيرة ٠

كان هناك الكثيرون ممن يعتقدون ان كلمات السيد جوسلين صادرة عن نية صادقة لأنهم كانوا عالمين تمام العلم بالمعاملة التى لقيها منذ قريب على يد الكونت والتى أشرنا اليها من قبل ، وورد على أذهانهم المثل القائل « ان الحق ما شهدت به الاعداء » ، فوثق هذا الفريق كل الثقة بما قاله جوسلين واستجابوا له طائعين فيما نطق به غير عالمين أن هدفه الحقيقى كان مخـــالفا لما قال ، ولم يدركوا ما يرمى اليه فالواقع أنه كان يطمع أن يخلف بلدوين فى الغد فى امارة الرها وقد حمله هذا الطمع على محاولة وضـــع الكونت على العرش ٠

ولما كان البطرك أرنولف ولورد جوسلين قد تبنيا هذه الفكرة ورتباها فيما بينهما فقد كان من اليسير ان يعتنقها بقية القوم ، ومن ثم تم انتخاب بلدوين برغبة الجميع واجماعهم فنصبوه ملكا عليهم ، حتى اذا وافى يوم الاحتفال بعيد القيامة المجيدة الذى كان بعد قليل أقيم احتفال عظيم مسحوه فيه بالمزيت ، وباركوه جريا على العادة المألوفة ووضعوا على رأسه العصابة الملكية ٠

وأيا كان غرض البطرك ولورد جوسلين من وراء هذا الاختيار فان الله برحمة منه جعل الخاتمة خيرا فقد أثبت عدل (بلدوين) وتقواه انه الرجل الكفء ، وحالفه النجاح فى كل أمر أقدم عليه ٠

ومع ذلك فانه يبدو ان سوق العرش اليه كان على غير القاعدة المرعية ، ذلك أنه كان من الحقائق الثابتة ان الذين دلسوا فرفعوه

الى كرسى الملك قد حرموا وريث المملكة الشرعى من حقه فى العرش، اذ انه لما مات الملك (بلدوين الأول) أرسل القوم رهطا من كبار النبلاء يقدمون العرش باجماع عام الى « أوستاس » كونت بولونيا شقيق كل من الدوق جود فروى العظيم والملك بلدوين الأول ، ولست بقادر على الحزم البات عما اذا كان هذا الأمر قد تم حسب رغبة الملك الأخيرة ، أم انه تم نزولا على اجمـــاع تام من أمراء المملكة ٠ وعلى أية حال فقد زار المبعوثون « استاس » وراحوا يغرونه بالمضى معهم حتى أبوليا ليذكروا له المبررات الشرعية لاختياره ، فأطاعهم على كره منه لورعه وتقواه وخشيته الرب ، فقد كان الأخ الحق لهذين الرجلين الجليلين ، والخليفة الصادق لهما ٠

فلما بلغوا أبوليا علم هذا الرجل الموقر بتنصيب قريبه بلدوين كونت الرها اذ ذاك ملكا على بيت المقدس ، فلم يمنع ذلك الخبر الرسل الذين وفدوا لمصاحبته الى المملكة من الاصرار على مواصلة الرحلة وصرحوا بأن الاجراء الذى تم ان هو الا اجراء مناقض للقانون الوضعى ومخالف للشـــرع الالهى ، وانه على غير أقدم قاعدة للاستخلاف الوراثى ، ولايمكن أن تقوم له قائمة ٠

ولكن قيل أن الرجل الفاضـــل الذى تفيض نفسه بروح الله أجابهم بقوله : « باعدوا بينى وبين كل عمـــل يؤدى الى النزاع فى مملكة الرب التى كان دم المسيح سببا فى أن يعمها السلام ، وهى نفس المملكة التى ضحى من أجل هدوئها اخوانى الرجال النبلاء أصحاب الذكر ، وجادوا للعلى بأرواحهم الطاهرة » ٠

واذ ذاك أعيد حزم أمتعته وتجمع مرافقوه وكر على أعقابه راجعا الى وطنه رغم جميع المحاولات التى بذلها الرسل لحمله على الذهاب الى المملكة ٠

كان (الملك الجديد بلدوين الثانى) كما يقولون رجلا فارع الطول ، تستلفت هيئته العيون وكان وسيم الخلقة جميلها ، يتخلل البياض شعره الأشقر ، أما لحيته فطويلة تصل الى صدره وان كانت مدببة ، واما وجنتاه فمشوبتان بالحمرة مع حيوية لا تتفق وتقدم سنه ٠

وكان خبيرا باستعمال السلاح ، بارعا كل البراعة فى القتال على ظهر الخيل ، متمرسا بفنون الحرب ، قويا فى السيطرة على رجاله ، ناجحا فى حملاته ، مطبوعا على الرحمة والشفقة ، ميالا لفعل الخير ، ورعا يخاف الله ، دؤوبا على الصلاة والركوع حتى نمت على يديه وركبته نتوءات جافة بسبب كثرة سجوده ، وعلى الرغم من أنه كان طاعنا فى السن الا أنه كان لا يكل أبدا عن تلبية أمور المملكة اذا دعاه الداعى ٠

ولما تبوأ العرش صادفته بعض المشاكل بشأن كونتيته الرها التى أصبحت بلا مدبر يرعى شئونها ، ومن ثم استدعى اليه — ومن تلقاء ذاته — قريبه جوسلين ، رغبة منه فى التكفير عن خطأ ارتكبه فى حقه ذات مرة ، فلما صار بين يديه عهد اليه بادارة أمور الرها باعتباره أدرى الناس بالاقليم ، وما كاد جوسلين يقطع له يمين التبعية حتىأسلمه العلم وملكه الرها ٠

ثم بعث بلدوين بعدئذ فى طلب زوجته وبناته وجميع أهل بيته من الرها فوصلوا اليه على جناح السرعة سالمين آمنين بفضل ما أحاطهم به جوسلين من الرعاية ، وكانت زوجته مورفيا « ابنة شريف اغريقى اسمه جبريل تكلمنا عنه من قبل(٢) ، وكان قد عقدوا له

---

(٢) سبق لوليم أن نسب جبريل هذا الى أصل أرمنى ولم يشـــر الى اغريقيته ٠

عليها وقت ان كان كونتا وتسلم ـ اذ تزوجها ـ مهرا كان قدرا كبيرا من المال وأنجبت له ثلاث بنات هن «مليزند» و « أليس » و«هوديرنا» أما الرابعة واسمها « ايفيتا » فقد ولدت بعد أنصار ملكا ٠

وقد نصب بلدوين وتوج ملكا فى سنة ١١١٨ من مولد السيد ، ثانى شهر ابريل ، وكان بابا الكنيسة الرومانية يومذاك هو البابا « جلاسيوس » الثانى ، كما كان برنارد أول بطرك للاتين حينئذ فى أنطاكية ، وأرنولف بطرك كنيسة القدس ، وهو رابع البطاركة اللاتنين بهذه المدينة ٠

ـ ٥ ـ

فى هذا الوقت بالذات رحل عن هذه الدنيا « الكسيوس » امبراطور القسطنطينية ، وهو أقبح رجل اشتط فى اضطهاد اللاتين ، وخلفه ابنه يوحنا (الثانى) الذى كان أكثر انسانية منه فاستحق ان ينزل من نفس شعبنا منزلة سامية من المحبة ، هذا على الرغم من أنه لم يكن صادق الاخلاص فى نيته تجاه اللاتين ، كما سنفصل ذلك فى الصفحات التالية ٠

❋ ❋ ❋

ومشى البابا الرومانى بسكال فى الطريق الذى يمشى فيه كل الخلائق قاطبة ، وذلك فى السنة السادسة عشرة من بابويته وخلفه « جلاسيوس » الذى يسمى أيضا « بيوحنا خايتانوس » مدبر شئون الكنيسة الرومانية الطاهرة ٠

كما ماتت السيدة « ادليدا » كونتسة صقلية التى عرفت ذات مرة عند الناس بأنها زوجة الملك بلدوين الثاني المذكور آنفا ، وان لم تكن شرعا كذلك ٠

وفى صيف تلك السنة جمع الأفضل أمير مصر وصاحب الأمر فيها أعدادا كبيرة من الفرسان والمشـــاة من شتى أقاليم مصر ، ورتب أموره على أن يقتحم مملكتنا قسرا بقواته البرية والبحرية معا ، لأنه كان يحسب أنه من السهل عليه أن يقضى بالسيف على شعب صغير جدا كهذا الشعب (الصليبى) ويلحق به الهزيمة ، ويشرد أفراده على وجوههم فى كل بلاد الشام ، لذلك قام بحشد طائفة كبيرة من الفرسان واعداد لا يحصيها العد من المشــــاة البارعين فى الرمى بالحراب واجتاز الصحراء الفسيحة الواقعة بيننا وبين مصر وعسكر بهم أمام عسقلان ٠

وكان ملك دمشق طغتكين « قد علم بأن المصريين قادمون ، فقام بجمع جيش كبير ، وربما كان جمعه ذلك الجيش من تلقاء ذاته أو بايعاز من (المصريين) ، وسلك بهم دروبا لم تجر العادة على سلوكها حتى يتحاشى مواجهة عسكرنا ، وعبر الأردن بمن معه وانضم بهم الى معسكر المصريين لعله يزيدهم قوة فيتمكن من الحاق الأذى بالصليبيين ، وارست بعض السفن عند عسقلان ، ومضى غيرها شطر مدينة صور الشديدة الحصانة ، ذات الميناء الفسيح ، وتلبثوا هناك فى انتظار ما تقضى به أوامر مولاهم ومشيئة قائد الأسطول ، ولكن لما كان ملك بيت المقدس يتوقع منذ زمن بعيد مجيئهم فقد استدعى اليه قوات اضافية من أنطاكية وطرابلس ، اما قواته هو فقد ركزها فى بقعة من بقاع سهل الفلسطينيين ، ثم مضى بعدئذ لمواجهة العدو ، واجتاز الموضع الذى كان يسمى من قبل باســـم « أسدود » والذى يعرف بأنه كانت به احدى مدن الفلســـطينيين الخمس حيث ضرب معسكره ، فصار على مقربة من المصريين ،

وأصبح الجيشان ـ وقد دنى أحدهما من الآخر دنوا يستطيع معه كل منهما أن يرى معسكر خصمه يوما بيوم ٠

وأعقب ذلك فترة توقف امتدت حتى قاربت ثلاثة أشهر لم يتحرك فيها أحد المصافين للهجوم على الآخر اذ كان الصليبيون يخشون أن يحملوا هذا الجيش الكثيف على الاندفاع لقتالهم أن هم بدءوا بالهجوم عليه ٠

كما كان العدو هو الآخر متخوفا مما يشاع عن جرأة جندنا وقوتهم وبراعتهم فى القتال ٠

وأخيرا رأى القائد المصرى ان الحكمة تقتضيه الرجوع الى بلده سالما فذاك أجدى عليه وأسلم من أن يعرض نفسه ورجاله لمعركة لا يدرى بوائقها ، فعادت الحملة أدراجها الى مصر ، فلما اطمأن رجالنا الى عدم عودة المصريين فجأة استأذنوا الملك فى الرجوع هم أيضا فعادوا فرحين الى ديارهم ٠

* * *

ومات فى هذه الأثناء(٣) أرنولف بطرك بيت المقدس ، وكان رجلا يكثر من اختلاق المتاعب ، ولايكترث بمراعاة مهام وظيفته المقدسة ، فتولى مكانه « جورموند » وكان رجلا مستقيما يخشى الله ، وهو من شعب الفرنجة من بلدة « بكوينى » ومن أسقفية « أميين » ، والحق انه تمت فى أيام هذا الرجل ـ وبسبب فضائله كما يعتقد الكثيرون ـ أمور جليلة أدت الى رفعة مجد المملكة واتساعها ، وسنقص خبرها فى الفصول التالية من هذا الكتاب ٠

---

(٣) كانت وفاته يوم ١٨ أبريل سنة ١١١٨م ٠

وقام فى هذه السنة ذاتها طائفة من النبلاء المؤمنين من طبقة الفرسان الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وأعلنوا عن رغبتهم فى أخذ أنفسهم على الدوام بحياة الفقر والطهارة والطاعة ، واقسموا بين يدى البطرك ، وأخذوا العهد على أنفسهم أن يكرسوا أنفسهم لخدمة الله حسب القوانين الشرعية ، وكان من أبرز هؤلاء الرجال وأسبقهم لذلك الأمر « هيج دى باين » الموقر ، و « جود فروى دى سـنت أومير » ، ولما لم يكونوا ينتمون الى كنيسـة معينة ، وليس لهم مكان معين يقيمون فيه فان الملك منحهم سكنا مؤقتا فى قصره الخاص يقع على الجانب الشمالى من هيكل السـيد ، كما منحهم ساحة كانت تابعة للهيكل وقريبة من نفس المكان يستطيع فيها هذا النظام الجديد أن يمارس واجباته الدينية .

كما وفر لهم الملك ونبلاؤه والبطرك ورجال الكنيسة أوقافا خاصة مما تملكه أيديهم ، فأصبحت دخولها تدر على هؤلاء الفرسان ما يقوم بسداد جميع مطالبهم وما يحتاجونه من مأكل وملبس ، وكانت بعض هذه الهبات مقيدة بفترة زمنية محددة ، وبعضها كانت ملكا لهم للأبد ، وكانت مهمة هذا التنظيم الرئيسية التى أوصاهم بها البطرك والأساقفة الآخرون لجب خطاياهم هى أنه يجب عليهم أن يبذلوا ماتسعفهم به طاقاتهم لحفظ المسالك والدروب العامة ، وجعلها آمنة من تهديد اللصوص وقطاع الطرق ، مع بذل العناية الخاصة لحماية الحجاج .

وظل الفرسان الداوية هؤلاء لمدة تسع سنوات من تأسيس نظامهم هذا وهم يلبسون الملابس المدنية كبقية الناس ، ويرتدون ثيابا مما

يخلعها الناس عليهم وذلك لخلاص أرواحهم ، حتى اذا كان العام التاسع لقيام نظام الفرسان هذا عقد فى مدينة « تروى » بفرنسا مجمع حضره رئيسا أساقفة « ريمز » و « سنس » ومساعدوهم • كما حضره أسقف « البانو » مندوبا عن البابا ورؤوســاء أديرة « سيتو » و « كليوفو » و « بوتينى » وكثيرون غيرهم ، وتقرر فى هذا المجمع بأمر من البابا « هونوريوس » و « ســتيفان » بطرك القدس وضع قاعدة عامة لهذه المنظمة ، كما اتفقوا على أن يكون البياض لباسهم •

وعلى الرغم من أنه كان قد انقضت تسع سنوات على قيام فرسان المعبد هؤلاء الا أن عددهم لم يتجاوز التسعة فقط ، ثم أخذوا فى الزيادة بعد هذه الفترة ، وتضاعفت أملاكهم ، كما يقال انهم شرعوا منذ عهد البابا يوجين ـ فى خياطة صلبان من القماش الأحمر على عباءاتهم حتى يمكن التفريق بينهم وبين سواهم ، ولم يقتصر وضع شارة الصليب على الفرسان وحدهم بل لبسها أيضا الاخوان الذين هم دونهم مكانة والمسمون بالسرجندية ، وقد تزايد فرسان المعبد تزايدا كبيرا حتى أنه ليوجد اليوم منهم مايقرب من ثلاثمائة فارس يلبسون العباءات البيضاء ، هذا بالاضافة الى عدد لايكاد يحصى من الاخوان الذين هم دونهم مرتبة •

ويقال انه كانت لهم أملاك شاسعة ، سواء على هذا الجانب من البحر أو فيما وراءه ، ولا توجد ولاية فى العالم المسيحى اليوم الا وتمنح جزءا من ممتلكاتها لهؤلاء الاخوان ، حتى ليقال ان ما أصبحوا يملكونه يعادل ما عند الملوك من الثروات والأموال ، وهم يسمون باخوان فرسان المعبد ، ذلك لأنهم أقاموا ـ كما قلنا ـ فى القصر الملكى على مقربة من هيكل السيد •

ولقد ظل فرسان الهيكل زمنا طويلا وهم أوفياء لهدفهم النبيل ، مؤدين واجبهم على أكمل وجه ، ثم بدا لهم أخير أن يهملوا «التواضع الذى هو حارس جميع الفضائل ، فنزلوا به الى الدرك الأسفل » اذ خرجوا على بطرك بيت المقدس الذى تسلموا منه امتيازاتهم الأولى ورفضوا أن يطيعوه الطاعة التى كان يبديها أسلافهم له ، كما أصبحوا مصدر متاعب شديدة لكنائس الرب لأنهم رفضوا أن يسلموها الأعشار التى هى أولى ثمرات فاكهتهم ، وعاثوا فسادا فى أملاكهم •

— ٨ —

ولما كانت السنة التالية مات كذلك البابا « جالسيوس » المسمى أيضا بيوحنا جايتانوس ، وكان رجلا اشتهر بالعلم ، وهو خليفة البابا بسكال ، ولما كان يتجنب العنف فقد هرب من اضطهاد الامبراطور هنرى وخصمه البابا الزائف « بورد ينوس » ولجأ الى مملكة الفرنجة حيث ظل بها بقية أيامه حتى وافاه أجله ودفن فى « كلونى » فخلفه الرجل النبيل الأصل رئيس أساقفة فينا ، المدعو « جيدو » الذى صارت اليه البابوية فسمى « كاليكستوس » وكانت تربطه صلة القرابة بالامبراطور هنرى ويحظى بعطفه الكبير ، ثم أنتهى به الأمر أخيرا اعتمادا منه على عطف الامبراطور وتشجيعه — الى المضى الى ايطاليا مستصحبا معه الكرادلة وكل حاشيته ، حتى اذا بلغ « سوتريوم » القريبة من مدينة روما ، أمسك بخصمه « بوردينوس » رأس الهراطقة مسكا عنيفا وأمر أن يلبسوه جلد دب ، وان يحمل على جمل ويسيروا به فى صورة كريهة شنعاء الى أحد الأديرة فى كانى قرب « سالرنو » حيث فرضوا عليه أن يعيش حتى آخر أيامه عيشة الرهبان حسبما تقضى بذلك نظم هذا المكان •

وهكذا انتهى الشقاق الذى ظل ثلاثين عاما يقلق بال الكنيسة ، وهو شقاق ظل مستمرا منذ عهد جريجورى السابع وطوال بابوية ايربان (الثانى) وبسكال وجلاسيوس » أسلاف كاليكستوس ، وبقى الامبراطور فى خلال هذا الشقاق سنوات طويلة محروما من صحبة المؤمنين بسبب قرار الحرمان ضده ، اما الآن فقد عاد الى حضن الكنيسة ٠

ـ ٩ ـ

وفى نفس هذه السنة(٤) هاجم ايلغازى امارة أنطاكية ، وهو أحد الأمراء الجاحدين الأقوياء وصاحب الأمر والنهى على هذا الجنس التعس الغادر : جنس التركمان ، وكان شعبه يرهبه كل الرهبة ، وقد عسكر بجموع كثيرة من رعاياه قرب حلب ، كما كان معه طغتكين ملك دمشق ودبيس (بن صدقة) أحد الولاة العرب الأقوياء، وقد ضم هذان الأخيران قواتهما الضخمة الى جيش ايلغازى ٠

وكان بعض الناس قد أفضوا الى روجر أمير أنطاكية الذى تزوج أخت الملك بخبر قدوم هذه الجيوش محذرين اياه منهم ٠ فأرسل الى السادة المجاورين له والى لورد جوسلين كونت الرها ، وبونس بل والى الملك ذاته يصور لهم الخطر الذى يهدده ، ويلح عليهم الحاحا شديدا الا يتوانوا فى المجىء اليه لمساعدته فى هذه الأزمة الطارئة التى اشتدت عليه وطأتها ٠

سرعان ما بادر الملك الى جمع كل من أمكن جمعه من مملكته من العسكر استجابة لهذه الدعوة التى جاءته على غير توقع منه ، وتقدم يحث الخطا الى طرابلس حيث وجد الكونت يتأهب هو الآخر

---

(٤) يعنى سنة ١١١٩ ٠

للخروج ، فانضمت قواتهما بعضها الى بعض وتابعوا الزحف معا بقية الطريق ٠

فى هذه الأثناء تباطأ الأمير عن عمد ، شأنه فى ذلك شأن كثير من البشر، وكان قد غادر أنطاكية وعسكر أمام ارتاح «الحصينة» غير عالم بما ادخره له الغد ، وكان هذا الموضع قد اختير اختيارا صالحا للجيش ، لأن بلوغه أرضنا كان ميســـورا وقد توافر فيه جميع ماتحتاجه هذه الحملة ، كما زخر بشتى وسائل الراحة التى لا توجد عادة الا فى المدن ، فظل الأمير مقيما هنا لبضعة أيام يترقب وصول الملك والكونت ، لكنه مالبث أن أمر الجيش بالتقدم على الرغم من نهى البطرك الذى تبعه الى هناك واحجام الزعماء ، فلم يكن منه الا أن أعلن الى أمرائه أنه لن يتريث أكثر من هذا ، وقد شجعه على ذلك بعض نبلاء هذه الناحية الذين لم يكن يدفعهم الى ذلك رغبتهم فى أداء خدمة للجيش بل كانوا يطمعون أن يكون فى مجيئه حمـــاية لأراضيهم الواقعة قرب معسكر العدو ٠

فاستجاب الأمير لما أشار به عليه هؤلاء الأمراء ، وترك المكان الذى كان قد عسكر فيه أولا ، واندفع فى طيش فأقحم نفسه وجيشه فيما يجر عليه البوار ، اذ نزل بموضع يقال له حقل الدم « وأحصى هنا جيشه فوجده سبعمائة فارس وثلاثة آلاف من المشاة المدربين ، هذا بالاضافة الى جماعة من التجار كانوا يتبعون الجيش للمتاجرة وبيع مامعهم من السلع ٠

ولما رآى الأعداء أن الأمير عسكر على مقربة منهم نقضـــوا خيامهم وتظاهروا بسحب قواتهم كأنهم يريدون مهاجمة حصـــن الأثارب ، أملا منهم فى أن تؤتى هذه المناورة ثمار خطتهم الحقيقية فى سهولة ويسر ، فبلغوا حصن الاثارب وعسكروا قربه هذه الليلة ، ولكنهم لم يقوموا بأى عمل لأن الوقت كان متأخرا ، فلما طلع الصباح بعث الأمير « روجر » كشافته للتجسس وليعرف عما اذا كان الخصم

عازما على مهاجمة المكان فى الحال ، أم أنه مسرع الى المعسكر لقتال قواتنا ، ورتب الأمير جنده للقتال توقعا لهجوم قد يباغتونه به فى لحظتهم هذه ، وبذلك كان مشغولا حين عاد اليه جواسيسه سراعا يخبرونه ان العدو فى ثلاث كتائب ، قوام كل كتيبة منها عشرون ألفا من العسكر ، وأنهم مسرعون فى الاقتراب من جيشنا ، فاستعد الأمير (روجر صاحب أنطاكية) فى الحال للقتال جاعلا جيشه أربعة أقسام ، ثم راح يدور بين صفوفه مخبا بجواده ومشجعا رجاله بكلمات تشد من عزائمهم ، وبينما هو فى غمرة هذه الأمور اذا برايات العدو تخفق معلنة اقترابه الشديد من قواتنا ، وبدأ القتال فى الحال ، واستبسل كل من الجانبين استبسالا عظيما فى حربه ، وان انتهى القتال بانتصار أعدائنا بسبب أخطائنا ٠

وصدرت الأوامر الى القوات التى كانت بقيادة القائدين النبيلين البطلين « جودفروى الراهب » وجى دى فريميل بأن تتقدم هى أولا ضد العدو ، فسارت قدما على أتم نظام يقتضيه العمل الحربى وشتتوا الجانب الأكبر من قوات الخصم وعسكره الكثيف ، وأرغموهم على الفرار ٠

اما الفريق الثانى الذى يقوده «روبرت دى سنت لو » فكان عليه أن يفعل ما فعله الأول ، فيواصل الهجوم ، وان يكون هجومه أعنف من سابقه ، ولكنه جلب ما يستوجب المعرة ، اذ توقف بعضا من الوقت أتاح فيه للعدو فرصة يسترد فيها أنفاسه ويكر كرة ضارية على قلب كتيبة الأمير وهى تتأهب لمساعدة الفرق الأخرى ، واكتسح معه بعضامن هذه القوة فأصبح الرجوع معها ضربا من المحال ٠ على أنه حرت أثناء هذه المعركة حادثة تجدر الاشارة اليها ، ذلك انه بينما كان القتال على أشده بين الطرفين ، اذا بعاصفة هوجاء تهب

من ناحية الشمال ثم تهبط فتلتصق بالأرض وسط ساحة المعركة ، ثم تسفى ترابا كثيفا أعمى رجال الجيش فلم يستطع أحد قتال الآخر ، ثم ارتفع هذا العثير على شكل دوائر تشبه تمام الشبه جرة ضخمة ملتهبة تتصاعد منها شعل كبريتية ، وأدى هذا الحادث العارض المنذر بالسوء الى أن يكون الظفر للعدو فى هذه المرحلة وأن تدور الدائرة على الصليبيين ويهلك معظم عسكرنا بحد السيف ٠

— ١٠ —

كان الأمير (روجر) فى هذه الأثناء يبذل جهده بلا طائل فى دعوة قواته للعودة ، وكان هو ذاته يحارب حرب الأبطال فى شرذمة ضئيلين من خاصته ، ويخاطر بنفسه وسط صفوف العدو غير هياب ولا وجل ، على انه بينما كان فى معمعان القتال اذا بضربة سيف تصيبه فترديه ففر على أثرها بقية رجالنا الذين كان قد تركهم لحفظ الأمتعة والذخيرة ، وآووا الى جبل قريب ، ولما شاهد الهاربون ما كان من أمر الذين نجوا من سلاح العدو وفروا من المعركة ، تجمعوا على قمة هذا التل وراحوا يبذلون محاولات محمومة ليصلوا اليهم ، وكانوا يؤملون أن تكون هذه العصبة من القوة بالدرجة التى تمكنهم من المقاومة والنجاة معها ، لكنهم لم يكادوا يصلون الى هذا الموضع حتى كان خصوم ملتهم قد أجهزوا تماما على من كان فى المعسكر ، ثم التفتوا الى هذه الجماعة فتبددت أيدى سبا ، وما انقضت ساعة من نهار حتى كان رجالها قد قتلوا على بكرة أبيهم ٠

كان رينالد ماسوييه (المعروف برينيه منصور) من أحسن رجال تلك الناحية العظام ، وكان قد التجأ هو وجماعة من الأشراف الى أحد أبراج مدينة «الماورة» طلبا للسلامة، فما كاد ايلغازى يعلم بذلك حتى حث خطاه الى هناك على رأس طائفة مسلحة ، وارغم النبلاء

الموجودين بالبرج على الاستسلام ، وهكذا ترتب على ما ارتكبناه من الخطأ ان لم تقدر النجاة لأحد من الألوف العدة الذين تبعوا مولاهم فى ذلك اليوم ، ولم يبق منهم أحد فى الحياة ليروى خبر ماجرى ، هذا فى الوقت الذى كان فيه قتلى العدو شرذمة قليليين أو لاشىء مطلقا ٠

كان هذا الأمير روجر مذموم السيرة غاية المذمة ، فهو رجل كما تقول الشائعة داعر لا خلاق له ، لا يحترم الروابط الزوجية ، كما أنه كان شديد البخل ، قد اغتصب — طول حكمه لانطاكية — ارث سيده بوهيموند الصغير بن بوهيموند الكبير الذى كان يعيش اذ ذاك مع أمه فى أبوليا ، اذ كان تانكريد الطيب الذكر قد عهد — وهو على فراش الموت — بالحكم الى روجر ، مقدرا أنه لن يرفض تسليم الحكومة الى بوهيموند الصغير أو ورثته ان طلب أحدهم استرجاعها ٠ على أنه يقال انه قبل الوقعة التى مات فيها بحد السيف اعترف باخطائه أمام الرب بقلب كله ذل وندم ، وكان اعترافه على يد بطرس الموقر رئيس أساقفة « أفامية » الذى كان حاضرا فى هذه اللحظة الحرجة ، وزاد على ذلك بأن وعد — بمعونة الرب — ان يعطى عطاء يعادل رجوعه عن اثمه ، ثم خاض المعركة صادق التوبة ٠

— ١١ —

فى هذه الأثناء كان الملك وكونت طرابلس قد وصلا الى المكان المسمى بجبل « نجرة » ، فما كاد ايلغازى يعلم بخبر وصولهما حتى بعث بكتيبة قوامها عشرة آلاف فارس من خيرة فرسانه لصدهما ، وكانت هذه الكتيبة مقسمة الى ثلاث فرق ، تقدمت أولاها تجاه الشاطىء الى ميناء القديس سمعان ، اما الفرقتان الأخريان فقد زحفتا ضد الملك وان اتخذت كل منهما طريقا يخالف طريق الأخرى ، لكن شاءت

الصدفة البحتة أن يلتقى بلدوين (الثانى) باحدى هاتين المجموعتين الأخريين فهاجمها برحمة من الله ، وأفنى الكثيرين من رجالها الذين أسر بعضـــهم ، وارغم البقية على الفرار ، ثم تابع بعدئذ زحفه مع كل من قيضت لهم الحياة من أتباعه بعد المعركة مستعرضا معهم عبر « لاتورس » و « كازابلا » حتى وصل الى انطاكية ففرح بمقدمه البطرك ورجال الدين والناس قاطبة فرحا عظيما ، ثم راح يتشاور مع كل من قبضت لهم الحياة من اتباعه بعد المعركة مستعرضا معهم احسن السبل التى ينبغى عليه اتباعها فى مثل هذا الموقف الشديد التأزم .

كان ايلغازى فى هذه الأثناء قد مر ببلدتى « عم » و « ارتاح » وضرب الحصار على الأتارب وكان شديد الاطمئنان لقيامه بهذه الخطة لأنه كان قد أذيع ان الملك دعى اليه الوالى وأتباعه الفرسان الى انطاكية ، وقد برهنت الأحداث على صدق هذا الخبر ، فقد تقدم ايلغازى من المكان ووجده غير مجهز بما هو لازم للقتال ، فبعث فى لحظته الى شتى النواحى يستقدم الجند الذين يعملون فى بناء التحصينات فحفروا السراديب وكلفهم بنسف الأكمة التى يقوم عليها الحصن فنسفوها واضرموا النيران فى الأعمدة الخشبية التى يستند اليها البناء ، فلما انهارت الرابية التى ترتكز عليها الأسوار والأبراج خاف رجال الحامية أن تهوى القلعة بأكملها حين يتم نسف التل فاستسلموا ، على أن تؤمن لهم حياتهم وان يسمح لهم بالرجوع الى أهلهم من غير اى عائق ، ثم قاد ايلغازى جيشـــه الى قلعة « زردنا » وبدأ عمليات الحصار بها فلم تنقض أيام قلائل الا وقد استسلم من بها على نفس الشروط ، فأيقن الأمير أن لن يقاومه أحد ، ومن ثم أضجره التريث فسار فى الاقليم كله وفق هواه الشخصى ، وهكذا فقد أهالى الأماكن المجاورة كل أمل لهم فى النجاة من بطش رجل قوى كهذا الرجل .

خرج الملك وكونت طرابلس من أنطاكية بكل القوات التى أمكنهما جمعها ، واتجها فى زحفهما شطر « الروج » ظنا منهما أنهما واجدان العدو قرب « الأثارب » ومرا عبر « دانيث » وعسكرا على هضبة يقال لها تل دانيث ، وما كاد خبرهما يصل الى سمع ايلغازى حتى استدعى اليه قواده وهددهم بالموت ان لم يهجروا النوم ويصرفوا كل ليلهم فى الحصول على السلاح والخيل ، وأمرهم أن يبذلوا أقصى الجهد فى الاستعداد لمهاجمة معسكر الملك مع اطلالة الفجر قبل أن يطلع النور ، وبذلك يفاجئون رجال الملك وهم لايزالون يغطون فى نومهم فيحكمون السيف فيهم جميعا ولا يمكنون احدا منهم من الفرار ٠

ولكن الرحمة الالهية قدرت غير ما رسموا ، ذلك ان الملك ورجاله لم يتوانوا فى تيقظهم ولم تغمض لهم عين طول الليل ، وظلوا منهمكين فى ترتيب التفاصيل الضرورية للمعركة القادمة ، ومضى « ابرمار » رئيس أساقفة قيصرية الموقر الذى صحب الملك الى هذه النواحى حاملا صليب المسيح فى يده وراح يعظ الناس ويشجعهم ، فانتضوا أسلحتهم وتأهبوا للاستبسال فى القتال فى شجاعة كبيرة، ولبثوا ينتظرون هجوم العدو عند طلوع النهار ٠

ويقال انه كان مع الملك فى هذه المعركة سبعمائة فارس أمرهم أن يقسموا أنفسهم الى سبع كتائب حسب النظام الحربى ، واصطفت صفوفهم فى انتظار رحمة الرب، فجعلوا فى طليعة الجيش ثلاث كتائب قدموها أمامهم ، اما المشاة فجعلوهم فى الوسط ، واما كونت طرابلس وقواته فكانوا يؤلفون الميمنة ، على حين وقف بارونات أنطاكية فى الميسرة ٠ وكان فى المؤخرة الملك نفسه على رأس أربع كتائب اتفقوا على أن تكون مهمتها مساعدة الآخرين ٠

وبينما هم مصطفون على هذا النحو من التنظيم الحربى فى انتظار مجىء العدو اذا به يكر عليهم فى صرخات مدوية ، ويتقدمه نفخ الأبواق ودق الطبول ، وكانوا فى هجومهم معتمدين كل الاعتماد على أعدادهم التى لا يحصيها العد ، ولكن قواتنا كانت تعتمد على الصليب المنتصر وعلى صدق ايماننا ، وهو أمل لا يخون صاحبه ولا يخزيه ٠

ثم التحمت الصفوف المتراصة القريب بعضها من بعض وتقاتلت وجها لوجه بالسيوف ، ولم يحفل الجانبان أبدا بالشرائع الانسانية ، بل كانا يتقدان عنفا ويتفجران كراهية لا ينضب معينها ، ويتقاتلان كما لو كان كل منهم يقاتل وحوشا ضارية ٠

ورأى المارقون ان جراة مشاتنا تنذر بشر مستطير ، فبذلوا محاولات بطولية للقضاء علينا ، فهلك فى ذلك اليوم طائفة كبيرة من جندنا المشاة بسيف العدو ، وان كان ذلك باذن من الرب ٠

* * *

سرعان ما تبين الملك ان مشاتنا قد اجهدوا أنفســـهم فوق طاقتهم ، وان المقدمة فى حاجة هى الأخرى للمساعدة ، ومن ثم وثب بحرسه وهم ركوب وشقوا طريقهم قدما الى قلب العدو ، وراح بلدوين يضرب بسيفه ضربا عنيفا ذات اليمين وذات الشمال حتى تخلخلت صفوف الخصوم التى كانت أكثر الصفوف حشدا ، وحذا رفاقه حذوه ، ونجح تشجيعه اياهم فى شد عزائمهم فانثالوا على العدو لاتملكهم غير فكرة واحدة ، واستنجدوا بالسماء عســـاها تعينهم ، فاستجابت لهم الرحمة الالهية ، فأفحشوا القتل فى العدو الذى لم يعد احياؤه قادرين على المقاومة بل فروا على وجوههم ٠

ويقال انه سقط من رجالنا فى هذه المعركة مايقرب من سبعمائة من المشاة ومائة من الفرسان ، اما خسائر العدو فبلغت أربعة آلاف

قتيل سوى من جرحوا جروحا مميتة ، أو وقعوا فى الأسر ، فلما شاهد ايغازى هذا الأمر خلى جنوده وحدهم يواجهون الموت وهرب هو مع كل من طغتكين ملك دمشق ودبيس أمير العرب ، اما الصليبيون فقد راحوا يطاردون القوم فى شتى الجهات ، على حين بقى الملك بلدوين (الثانى) هو ورهط قليل من فرسانه فى ساحة القتال خلال الهزيع الأول من الليل ، لكنه اضطر تحت حاجته الى الطعام للعودة الى قلعة « هاب » المجاورة لتناول بعض ما يقيم أودهم ٠

ولما رجع فى الصباح الى ساحة المعركة ارسل نفراً من الرسل الى أخته والى البطرك يحملون اليهما خاتم الملك كرمز أكيد للنصر الذى أحرزه ، وامرهما أن يعلنا أن السماء قد أسعفته بنعمة الغلبة ٠ وظل بلدوين فى الساحة يومه هذا بأكمله لم يبرحها حتى انتصف الليل حين جاءه الخبر اليقين ان الأعداء فقدوا عسكرهم ولا عودة لهم ، وحينذاك جمع هو كل الجند الذين أمكنه جمعهم فى ساعته هذه وسار بهم الى انطاكية يحملون السعف منصورين ، فرحب به بطركها وجميع رجال الدين وأهل المدينة ٠

وقد جادت العناية الالهية بهذا النصر على الصليبيين(٥) فى سنة ١١٢٠ من مولد المسيح وهى السنة الثانية من حكم الملك بلدوين الثانى وذلك فى شهر أغسطس ليلة عيد رفع مريم العذراء الطاهرة أم المسيح ٠

وأرسل الملك الى القدس الصليب الواهب الحياة فى رعاية رئيس أساقفة قيسرية ، وصحبهم حرس من النبلاء ، فقوبل فى يوم تمجيده بترحاب من قبل رجال الدين ومن الناس الذين ساروا كلهم

---

(٥) لم يكن ذلك النصر فى سنة ١١٢٠ كما يذكر وليم بل كان فى السنة التى قبلها ، سنة ١١١٩ ٠

حوله ينشدون التراتيل والاغانى الدينية ، أما بلدوين فقد اضطرته ظروف الامارة الملحة الى البقاء فى أنطاكية ، ثم انعقد رجاؤهم الحار باتفاق من البطرك وكل وجوه القادة ورجال الدين على أن يعهدوا الى الملك برعاية شئون امارة أنطاكية وخولوه السلطة ، واذنوا له باطلاق يده كما لو كان فى مملكته ينظم أمورها كيفما شاء فيعزل من يرى عزله ويسير كل شىء وفق مشيئته ، وحينذاك قام فأعطى أنصبة من سقطوا فى المعركة لابنائهم ولن يمت اليهم بوشيجة قربى ولو بعدت ، حسبما تقضى به الاعراف التى جرى عليها البلد ، كما زوج الارامل برجال كرام مساوين لهن فى المكانة ·

ثم جهز الحصون بالرجال وزودها بالذخيرة والمئونة كلما رأى الحاجة ماسة لذلك ، فلما فرغ من هذا كله غادر أنطاكية فترة من الوقت رجع فيها الى المملكة حيث تم تتويجه هو وزوجته معا يوم عيد ميلاد السيد فى كنيسة بيت لحم ·

— ١٣ —

وفى نفس سنة ١١٢٠ من مولد المسيح حل بمملكة بيت المقدس كثير من النكبات بسبب خطايانا ، فاذا خلينا جانبا ما ابتلينا به من الضرر على يد العدو ، فقد اجتاحت البلاد أسراب الجراد ، ونزلت بنا نازلة الفئران المتوحشة فالتهمت الزروع وأتت عليها على مدى سنوات أربع متتالية ، حتى لقد عز الخبز من كل البلاد ، لذلك قام بطرك القدس « جورموند » التقى الورع وذهب الى نابلس وهى احدى مدن « السامرة » حيث التقى بالملك بلدوين وبكبار رجال الكنيسة وأشراف المملكة ، وعقد اجتماع شعبى ومجمع عام دعى اليه « جور موند » فألقى عظة وعظ فيها الناس ، ولما كان من البين الواضح للجميع أن خطاياهم قد أثارت غضب الرب عليهم فقد اتفقوا

بالاجماع على أن يصلحوا ما قد فسد من أمورهم ، ويقوموا ما اعوج من سلوكهم ، ويكبحوا جماح شهواتهم ، وقال انهم ان فعلوا ذلك حسنت عقباهم فى الحياة الدنيا ، وان هم نبذوا أعمالهم الشريرة انفتح باب الأمل أمامهم اذ لابد أن يرق لهم الخالق ويبسط عليهم ظل رحمته ، لأنه لا يريد الموت للمخطىء بل يؤثر رده ولا يريد له الموت ليهتدى(٦) ، ثم جاءتهم نذر من السماء تهددهم فضربتهم بالزلازل والمت بهم النكبات الجسام الفادحة ، وعضتهم المجاعة بنابها، وأرهقتهم غارات العدو التى كادت أن تكون يومية ، ورأوا ان دفع ذلك يقتضيهم استرضاء الرب بأعمال الخير ، فاتفق اجماعهم الذى لم يشذ عنه أحد على وضع اتفاق عام من خمس وعشرين مادة لها قوة القانون ، وذلك لرغبتهم فى اعلاء القيم الأخلاقية واقرار النظام، ومن يشأ أن يقرأ هذه المواد فالأمر يسير لأنها محفوظة فى سجلات معظم الكنائس .

كان من شهود هذا المجمع « جور موند » بطرك بيت المقدس وبلدوين ثانى ملوكها اللاتين ، و « ابريمار » رئيس أساقفة قيصرية ، « وبرنارد » أسقف الناصرية ، و « اشيتينوس » أسقف بيت لحم ، وروجر أسقف اللد ، و «جلدوين» الراهب المنتخب لدير القديسة مريم فى وادى يهوشافاط ، وبطرس رئيس أساقفة « مونت تابور » ، و « أشارد » رئيس فرسان المعبد ، وأرنولد مقدم جبل صهيون ، و « جيرارد » حارس القبر المقدس ، وباين مستشار الملك ، واستاس جرتييه ، ووليم دى بيورى « وباريسون » كونستابل يافا ، وبلدوين صاحب الرملة وكثيرون غيرهم من جميع المنظمات ممن لا تتوافر لدينا أعدادهم ولا اسماؤهم .

---

(٦) هذه اشارة الى ما جاء فى حزقيال (٣٣ : ١١) : « يقول السيد انى لا أسر بموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا » .

كان ايلغازى رجلا لا يلم به الكلل فى اضطهاد المسيحية : رسما واسما ، وكان أشبه فى ذلك بالزواحف القارضة تسعى للأذى ، من ذلك انه جمع عسكره فى السنة التالية وانتهز فرصة غياب الملك وحاصر بعض قلاعنا ، فلما علم الناس بهذا الخبر بعثوا الى الملك يستدعونه على عجل ، ولما كان الملك مستعدا على الدوام للاستجابة فقد نهض فى كوكبة من فرسان حاشيته وأسرع الى هناك ، حاملا معه صليب المسيح ، واستدعى اليه جوسلين كونت الرها واثنين من كبار السادة اللذين كانا قد انضما الى كبار زعماء أنطاكية وزحفوا على القلعة الحصينة التى أشرنا اليها حالا (وهى قلعة زردنا) وكان ظنهم أنهم سوف يشتبكون فى القتال حال وصولهم الى غايتهم لكن حدث أن ضرب الله ايلغازى بالسكتة القلبية فحرم قادة جيشه من مساعدة زعيمهم لهم ، وكان ما نزل به قضاء عادلا حال دون اشتباكهم فى معركة بينهم ، فحملوا مولاهم وهو فى النزع الأخير فى محفة وأسرعوا به الى حلب ، غير انه يقال انه وهو المخلد فى النار الأبدية ــ قد لفظ أنفاسه قبل أن يصلوا به الى هذا المكان ٠

* * *

ولقد ظل الملك مقيما فى أنطاكية فترة من الوقت لمعالجة الأمور الهامة ، ثم رجع بمشيئة الله سالما الى المملكة ، وكان محبوبا من الجميع ، قريبا الى نفوس الناس فى المملكة وفى الامارة اللتين كان اليه تصريف شئونهما ، فصرف أمورهما على أحسن وجه : امانة واخلاصا رغم بعد كل منهما عن الأخرى بعدا كبيرا ، وليس من اليسير أن نقول لايهما كان اهتمامه الأكبر ، هذا على الرغم من أن المملكة كانت ملكه الخاص التى يورثها شرعا لخلفائه ، اما الامارة فلم تزد عن ان تكون أرضا عهد اليه برعايتها ولكن الحق انه كان يبذل اهتماما أكثر بشئون أنطاكية التى ظل صادقا فى تدبير أمورها

حتى جاءها بوهيموند (الثانى) الصغير ، كما سنقص خبر ذلك فى الصفحات التالية ٠

- ١٥ -

حين كان الملك (بلدوين) بالقدس فى ذلك الوقت ، منح سكانها منحة جليلة القدر بدافع من أريحيته الدينية وسخائه الملوكى ، فرفع عن كاهل الأهالى الضرائب التى كانوا مطالبين بدفعها من قبل ، سواء فى استيرادهم البضائع أو تصديرها ، وزاد فأكد هذا القرار بوثيقة ممهورة بالخاتم الملكى حتى تكون سارية النفاذ الى الأبد ، ولم يعد أى لاتينى يدخل المدينة أو يخرج منها ومعه سلعة ما ملزما بدفع أى شىء تحت أية حجة ، بل أصبح هذا اللاتينى حرا يشترى ويبيع ما يريد لا يكلف من أجل ذلك شيئا ٠ وزاد الملك فمنح السريان والاغريق والأرمن وجميع الناس على اختلاف أممهم ، وشمل ذلك المسلمين أيضا ، فصار لهم الحق فى أن يحملوا الى المدينة المقدسة القمح والشعير وكل ذى روح لا يسألون شيئا يدفعونه على ما يحملون ، وزاد على ذلك فجب الضريبة المعتادة المفروضة على المكاييل والمقاييس ، فاستألف بهذا الصنع قلوب الناس واكتسب رضاء الأهالى ، لأنه بهذا الأسلوب الملوكى وبالحب الذى يستحق التقدير عمل على خير المواطنين وسعادتهم بطريقتين :

أولاهما : انه جعل المدينة تفيض أكثر من ذى قبل بمواد الاعاشة لأنها أصبحت تستورد البضائع من الخارج معفاة من الضرائب ، وثانيهما أنه سار على نهج سلفه فى بذل كل محاولة لزيادة عدد سكان المدينة ، حبيبة الرب(٧) ٠

---

(٧) انظر ما سبق من هذه الترجمة ، جـ ٢ ، ص ٣١٧ ـ ٣١٩ ٠

ولما كانت السنة الثالثة قام طغتكين ملك الدماشقة الغادر الماكر وتحالف مع احد شيوخ العرب ، وانضمت قوات الواحد منها الى قوات الآخر ، ولما رآى ان الملك ينهض وحده بتحمل مسئولية ينوء بها كاهله ، الا وهى رعاية شئون البلدين (بيت المقدس وأنطاكية) فقد اغتنم فرصة انشغاله وأنفذ عسكرا اقتحموا اراضينا الواقعة فى منطقة طبرية وعاثوا فيها فسادا وعدوانا ٠

فلما علم الملك بلدوين بهذه الوقاحة حشد الجند من شتى أرجاء مملكته وأسرع الى هناك بما طبع عليه من سرعة المبادرة ، فترامى خبر اقترابه الى سمع طغتكين فأخذ حذره وانسحب الى ناحية قاصية من بلاده ، ذلك لأنه أدرك عجزه عن تحقيق أى شىء لو انه واجه الملك ، ورأى الخير فى أن يتحاشى ما ينجم عن هذا الاشتباك من المخاطرة ٠

كان الملك فى هذه الأثناء قد زحف بقواته شطر الجنوب وبلغ « جرش » احدى المدائن الكبرى فى ولاية «ديكابوليس» والتى تقع فى يد قبيلة مناساس قرب جبل جلعاد ، ولا تبعد سوى أميال قلائل من نهر الأردن ، وكانت هذه المدينة قد ظلت مهجورة خوف الحرب ، حتى اذا كانت السنة المنصرمة بذل طغتكين المال الكثير وأمر أن يقام بها قلعة من الحجر الأصم الضخم فأقيمت فى أحصن بقعة منها ، وزودها بالذخيرة ، وجهزها بالسلاح ، واقام بها بعضا من خاصة رجاله ممن يثق بهم كل الثقة ٠

سرعان ما هاجم الملك ذلك المكان حال وصوله اليه وهو فى سورة غضبه ، فاستسلمت القلعة بمن فيها من الجند وكانوا أربعين

أقيموا لحراستها ، فاشترطوا أن يسمح لهم بمغادرة المكان الى ذويهم سالمين فى أنفسهم ، فأجيبوا الى ما طلبوه ، واذ ذاك أخذ بلدوين فى التشاور مع مستشاريه عما اذا كان يهدم هذه القلعة ويدك أسوارها ويسويها بالأرض أم يستبقيها ليستخدمها الصليبيون ، فاجتمع الرأى على وجوب هدمها وجعلها أنقاضا ، اذ لا جدوى تعود عليهم ان هم استبقوها فى أيديهم ، لما يكلفهم ذلك من النفقات الباهظة ، والمتاعب المستمرة ، يضاف الى ذلك ان لا أحد يستطيع الوصول الى هذه القلعة دون أن يتعرض للخطر البليغ ٠

— ١٧ —

على هذه الصورة أخذت أمور المملكة فى التحسن والازدهار بشكل مرض بنعمة من الله ، غير أن أعداء السلام ومحبى الفوضى كانوا يحاولون فى هذه الأثناء اثارة المتاعب ، فراح بعضهم يوغر صدر « بونس » ثانى كونتات طرابلس ضد ملك بيت المقدس ، حتى دفعه لنبذ طاعته ، وتصرف تصرفا ملؤه الاستخفاف ، اذ رفض أن يؤدى التزامه بخدمة الملك حسب يمين الولاء الذى فى عنقه له ٠

ووجد الملك أنه يستحيل عليه الاغضاء عن هذه الاهانة ، ومن ثم جمع الفرسان والمشاة من شتى أرجاء المملكة وتقدم بهم الى هناك لمحو العار الذى ألحقه به بونس ، غير ان رجالا أشرافا تداركوا الأمر وتدخلوا بين الطرفين قبل أن تحيق بهما الخسارة ويلحق بهما النكال ، فعاد السلام يرفرف من جديد ، ثم يمم الملك وجهه بعدئذ شطر أنطاكية استجابة لنداء أهلها الذين جابهتهم المشاكل حتى طلبوا منه المعونة ، لأن أميرا تركيا كبيرا قويا اسمه « بلك » أخذ فى مكايدة الاقليم بأجمعه بكثرة ما شنه عليه من الغارات التى يقوم بها وهو واثق من نفسه كل الثقة ، لأنه كان قد قام قبل

ذلك بفترة وجيزة بحملة فجائية أسفرت عن وقوع كل من جوسلين كونت الرها وقريبه « جاليران » فى أسره فزج بهما فى السجن ، غير ان بلك أخذ يقلل من هجماته التى كانت ، كثيفة ، وذلك حين سمع ان الملك قدم بنفسه فتجنب حدوث صدام بينه وبين بلدوين الذى طبق الآفاق صيت انتصاراته الحربية ، كما أدرك بلك أنه من العسير على أى واحد أن يهزم الملك ، لكنه مع ذلك دنى بعض الشىء منه على رأس فرسانه المسلحين بالأسلحة الخفيفة لعل الفرصة تسعفه فينجز رغبته فى انزال المضرة بقواتنا ٠

أما الملك فقد تابع السير بمن جاء بهم من القوات متجها الى أرض كونت الرها ، راجيا أن يكون ذا جدوى لأهلها الذين لم يعد لهم قائد يصرف أمورهم ، فكان يذرع ارجاء الناحية دون أن تغفل له عين عن تقصى أحوال الاقليم تقصيا دقيقا ، ملاحظا ما اذا كانت القلاع محصنة تمام التحصين ٠ وعما اذا كانت بها القوة الكافية من الفرسان والمشاة ، والوفرة من السلاح والذخيرة ، ورتب أن يسد كل نقص يراه بما يفرضه عليه الواجب الملتزم به ٠

وبعد أن خلف قلعة تل باشر وراءه أسرع الى الرها وهو يفكر مليا فى هذه الأمور لأنه كان يرغب فى التأكد من العناية بحال الاقليم الواقع فيما وراء الفرات وضبط أموره من كل الوجوه ، وحدث فى ذات ليلة من ليالى زحفه أن خرج مع نفر من خاصة أتباعه ، وكان الكرى قد ران على عيون معظمهم فتراخوا فى حذرهم ولم يتوقعوا أى خطر يفاجئهم ، فساروا متفرقين ، واذا ببلك يطلع عليهم بغتة ويهاجمهم ، اذ كانت الأخبار قد جاءته عن سير الملك فنصب له ولمن معه كمينا ، وكان حرس الملك غير مستعدين للقتال فقد أثقلهم النعاس وخالطهم الوسن وشاء الحظ العاثر أن يقع بلدوين ذاته فى يد بلك أسيرا ، وكان الحرس الذين فى الطليعة والمؤخرة قد فروا فى هذه

الأثناء على وجوههم وتفرقوا فى شتى الجهات غير عالمين بالنكبة التى حاقت بمولاهم ، وأمر بلك بالملك أن يقيد ورماه فى قلعة خرتبرت الواقعة وراء نهر الفرات حيث كان كونت جوسلين ، «وجاليران» فى الحبس كما ذكرنا ٠

فلما تسامع زعماؤنا فى المملكة بخبر النكبة الفادحة التى حاقت بالملك انشغل بالهم أشد الانشغال حول مصير المملكة ، فاجتمعوا فى مؤتمر مع البطرك وكبار رجال كنيسة مدينة عكا ، وكلهم شعور واحد ، واجمعوا – دون أن يشذ واحد منهم – على اختيار « استاس جرنييه » – وكان رجلا عاقلا مدبرا ذا خبرة كبيرة فى الأمور الحربية لتصريف أمور المملكة وولوه عليهم ، وترجع ثروة استاس الضخمة الى أنه كان قد ورث شرعا مدينتين كبيرتين فى المملكة هما صيدا وقيسرية بكل ملحقاتهما ، ومن ثم فقد عهد اليه زعماؤنا بحكم المملكة وادارة دفة شئونها العامة حتى يأذن الله بالفرج فيطلق سراح الملك ويعود الى حريته ، ويومذاك يكون قادرا مرة أخرى للهيمنة على شئون المملكة ٠

ولنعد الآن لمتابعة خبر نكبة الملك ٠

– ١٨ –

بعد أن قيد الملك والكونت وأصبحا رهينى محبسهما فى تلك القلعة المشار اليها سمع رهط معين من الأرمن (يبلغون الخمسين رجلا) ان عاملى المسيحية العظيمين فى الأسر بقلعة خرتبرت ، فصمموا على القيام بمحاولة انقاذهما دون اكتراث بما يحيق بهم من الخطر ان هم فشلوا فى مسعاهم ٠

واختاروا خطة جديدة كل الجدة ٠

وهناك رواية أخرى تقول انهم قاموا بمحاولتهم هذه استجابة لاستصراخ كونت جوسلين بهم ، ومن ثم طمعوا فى الحصول على مكافأة سخية لقاء تعريضهم أنفسهم لهذا الخطر . وعقد هؤلاء الأرمن الخمسون اتفاقا لا نقض فيه ، وأكدوا اتفاقهم بأغلظ الايمـــان ، وكانت خطتهم أن يذهبوا الى الحصـــن لتحرير هذين الرجـلين العظيمين دون اعتبار للأخطار التى تكتنف هذا العمل . فتنكروا فى فى مسرح الرهبان ولكنهم حملوا الخناجر تحت أثوابهم الفضفاضة ، وانطلقوا الى تلك القلعة حتى ليحسبهم الرائى أنهم فى بعض أعمال ديرية ، ثم راحوا يصطنعون الكلمات والآهات ، والنظرات الحزينة مما يظهرهم وكأنهم قد أوذوا أذية بالغة ، وأن بعض الناس أصابوهم بضرر كبير ، وأعلنوا ـ والدموع تنسكب من عيونهم ـ أنهم يريدون أن يحتجوا عند حاكم الناحية على المعاملة التى صادفوها لأنه هو المسئول عن حفظ النظام حتى لا يقع أى سوء فى المنطقة .

* * *

وهناك رواية أخرى تقول انهم نجحوا فى دخول القلعة متخفين فى زى تجار جاءوا لبيع سلع رخيصة ، فلما اذن لهم أخيرا بدخول المكان استلوا سيوفهم من أغمادها وفتكوا بجميع من اعترضهم .

فهل ثم مزيد نقوله ؟

لقد سيطروا على القلعة ، وخلصوا الملك والكونت وحصنوا المكان على أحسن قدر استطاعوه ، واذ ذاك رأى الملك أن يبعث الكونت جوسلين فى جلب العون على جناح السرعة لانقاذه وانقاذ تلك الجماعة التى كان لجهودها الفضل فى تحريرهما .

ولما اكتشف الترك الذين يعيشون فى تلك النواحى كيف احتال الملك ورفاقه للسيطرة على القلعة حملوا هم أيضا سلاحهم وأغذوا السير اليها وصمموا الا يدخلها أو يخرج منها أحد حتى يصل مولاهم بلك ، لكن على الرغم من ذلك فان كونت جوسلين خرج فى لحظته غير عابىء بالخطر الذى يعرض نفسه له من الكمائن التى ينصبها له الخصم ، وانطلق ، وانطلق معه ثلاثة رفاق له ، يلازمه اثنان منهم طول الطريق ، فان كللت محاولته بالنجاح بعث بالثالث الى الملك رأسا يبشره بما تم ، وهكذا خرج الكونت ورفيقاه حسب الاتفاق ترعاهم عناية الله دون أن يعلم بهم أحد من أولئك الذين كانوا قائمين بحراسة القلعة ، واذ ذاك ردوا زميلهم الثالث الى القلعة ومعه خاتم جوسلين ، دليلا على نجاحهم فى اختراق صفوف العدو .

وفى أثناء غيبة جوسلين قام الملك والنفر الذين كان لمساعدتهم الفضل فى انقاذه بتحصين القلعة بكل وسيلة ممكنة ، لأنهم كانوا يطمعون أن يظلوا قادرين على السيطرة عليها حتى تجىء النجدة التى كانوا يدركون أنها لن تغيب عنهم طويلا .

— ١٩ —

وحدث فى هذه الليلة بالذات أن رأى بلك فى نومه رؤيا مزعجة أفزعته وبلبلت خاطره ، مفادها أن جوسلين سمل عينيه بيديه، فانخلع قلبه رعبا ، وبات نجى الوساوس ، حتى اذا طلع النهار بعث الى القلعة رجالا من لدنه كلفهم بقطع رأس جوسلين دون تمهل أو ابطاء ، فلما اقترب هؤلاء الرجال من القلعة جاءهم الخبر بأنها قد سقطت فى يد العدو ، فارتدوا الى مولاهم على أدبارهم بأسرع ما يمكنهم الارتداد ، وفصلوا له تفصيلا كل ماجرى ، لم يتركوا شاردة ولا واردة الا قصوها عليه ، فلم يتوان الأمير فى استدعاء العسكر من شتى

النواحى فى لحظته هذه وأسرع بهم دون ترتيب الى ذلك المكان وحاصره ، وسد المسالك فى وجه اللاجئين الى الحصن ، ثم عمد بعد ذلك الى الاتصال بالملك بلدوين عن طريق الوسطاء ، يعده وعدا لانكث فيه أنه سوف يأذن له ولجميع من معه بالخروج دون مضايقة ، وانه سوف يعطيهم كتاب أمان حتى يصلوا الى الرها اذا رد بلدوين اليه القلعة من غير كيد ٠

الا أن الملك كان شديد الثقة بمناعة القلعة ، كما أنه كان يعتمد على معونة هؤلاء الأرمن الذين انضموا اليه ، مما حمله على أن يعتقد انه قادر على المحافظة على القلعة فى يده حتى تصله النجدة ، ومن ثم رفض العروض التى تقدم بها بلك ، واستمر فى الدفاع عن الحصن دفاعا مجيدا ، فأسخط هذا الرفض بلك سخطا بالغا ، واستدعى اليه فى الحال الفعلة ، وأمرهم باعداد شتى أنواع الآلات التى يكون فى حاجة اليها فى مهاجمته القلعة وفيها العدو ، وراح يضاعف مضايقتها ، وأصر على انجاز العمل مستغلا استغلالا مفيدا كل الخطط البارعة التى تمكنه من انزال الأذى بالمحصورين ٠

وكانت القلعة مشيدة على تل ذى طبيعة جيرية قديمة ، جعلت الدخول اليها يسيرا ، ولذلك رأى « بلك » انه من السهل عليه تدمير الموضع بملغمته وتقويضه من أساسه ، فجند لذلك الجند المهرة فى حفر الخنادق وأمرهم بحفر أنفاق كبيرة داخل التل، ودعمها بالكتل الخشبية وما شابه ذلك من المواد الأخرى ، وما كاد العمال يفرغون مما كلفوا به حتى اضرموا النار فى المواد القابلة للاشتعال التى وضعت داخل الانفاق ، فلما أتى الحريق على الأعمدة انخسف التل وسقط أحد الأبراج التى عليه سقوطا صحبته رجة هائلة حملت الملك على الاستسلام فى الحال لبلك من غير قيد ولا شرط ، لأنه خاف أن تنهار القلعة بأكملها بنفس الصورة ، فاكتفى بلك بامتلاك الحصن

ومن على بلدوين وابن اخته وجاليران بالحياة ، وأمر بتقييدهم وحملهم الى مدينة حران القريبة من الرها ليبقوا تحت المراقبة الدقيقة ، اما الأرمن المؤمنون الذين عرضوا أنفسهم للأخطار ابتغاء اطلاق سراح مولاهم الملك من الأسر ، فقد لاقوا أنكر صنوف العذاب ، اذ سلخت جلود بعضهم وهم أحياء ، ونشرت أعضاء آخرين ، ودفن سواهم أحياء ، ثم سلم بلك غير هؤلاء الى رجاله يجعلونهم هدفا يفوقون اليه سهامهم ٠

وهم وان لاقوا العذاب فى هذه الدنيا الا أن طمعهم في حياة خالدة أبدية كان أملا لا يخبو فى نفوسهم ، وعلى الرغم من أنهم امتحنوا فى بضعة أمور الا أن مثوبتهم ــ من ناحية أخرى ــ كانت أعظم ٠



ــ ٢٠ ــ

سيطر الفزع المقيم على جوسلين وزملائه الرجالة وهم يتابعون طريقهم فى حذر شديد ، ولم يكن عندهم غير قدر ضئيل من الطعام، وسوى راويتين من النبيذ أحضروهما معهم عن غير قصد ، وظلوا ماضين فى زحفهم هذا حتى أبلغهم الزحف أخيرا شاطىء نهر الفرات، فتشاور جوسلين مع رفاقه الذين يواجهون معه الخطر عن أيسر الدروب ليعبروه ، فقر رأيهم أخيرا على نفخ الراويتين وربطهما الى جوسلين بالحبال ، فاستطاع بهذه الوسيلة وبعون الرب وارشاد اثنين من السباحين المهرة ــ كان كل واحد الى أحد الجانبين ــ أن يصل الى الشاطىء الآخر من النهر سالما آمنا ، ثم تابع سيره ــ وان لم يخف الخطر ــ حافى القدمين فعانى مشقة بالغة لما بذل من جهد لم يألف بذله ، وأضناه السغب وأمضه الظمأ وأرهقه اللغب حتى

بلغ فى النهاية برحمة الله حصن تل باشر الشهير ، لكن لم تمسكه شدة جزعه عن المهمة التى وكلت اليه من متابعة السير الى أنطاكية ، مصحوبا بحرس مؤقت كان لابد له منه ، نظرا لما هو فيه من وضع خطير ، ثم نزل على نصيحة البطرك برنارد فتابع سيره الى القدس حيث شرح لبطركها ولأمراء المملكة أحداث النكبة التى ألمت بالملك ، وقص عليهم بالتفصيل كل ما يتعلق بهذا الأمر ، سائلا اياهم أن يبادروا فى لحظتهم هذه الى ارسال نجدة للملك لأن موقفه المتزعزع لا يتحمل أى تأخير ، بل يتطلب المشاورة السريعة والمعونة العاجلة وان يتم ذلك دون تريث ولا ابطاء ٠

ولقد ترتب على التماساته هذه ان اجتمع أهل المملكة جميعا وقاموا قومة رجل واحد رافعين صليب الصلبوت، وخرجوا من ساعتهم هذه ، وكانوا كلما مروا بمدينة فى طريقهم توالت عليهم الامدادات لتزيد عددهم ، حتى بلغوا أنطاكية حيث انضم اليهم كبار أهلها وعامتهم ، وساروا تحت قيادة الكونت كتلة واحدة الى تل باشر ، وهنا جاءهم الخبر اليقين بكل ما جرى للملك فى خلال هذه الفترة ، واذ رأوا عدم جدوى التقدم أكثر من هذا فقد تقرر باجماع الآراء أن يعودوا كلهم الى أوطانهم ، فيرجع كل واحد من حيث أتى ، غير انهم لم يشاءوا أن تنفض الحملة دون أن تجنى ثمرة لخروجها ، لذلك اتفقوا على أن تنزل هذه الكتائب أقصى مايمكنها من المضرة بالخصم أثناء مرورها قرب حلب ، وتم كل شىء حسب مارسموا ، اذ بينما كانوا سائرين على مقربة من هذه المدينة برز أهلها لهم قاصدين قتالهم ، فما كان من المسيحيين الا أن أرغموهم بقوة السلاح على الارتداد الى المدينة التى ظل عسكرنا أمامها أربعة أيام على السواء رغم محاولات أهلها دفعهم ٠

فلما كان المسيحيون فى طريق العودة انفصل من كانوا من أهل المملكة عمن سواهم وتابعوا زحفهم على انفراد ، حتى اذا

عبروا الأردن أغاروا فجأة على بلد للعدو قرب بيسان ، وباغتوا سـكانها الذين لم يكونوا مسـتعدين أبدا لمثل هذه الغارة . فلاقى الكثيرون منهم حتفهم بحد السيف ، ووقع فى الأسر عدد كبير من الرجال والنساء على السواء ، ثم عاد الصليبيون فرحين مهللين الى بلدهم قد فاضت أيديهم بأوفر الغنائم وأحسن الأسلاب ·

— ٢١ —

كان لأمير مصر ما يبرر سوء ظنه بمملكة بيت المقدس ورآى الفرصة مواتية لغزوها اذ ذاك بسبب وقوع عاهلها فى الاسر ، ومن ثم أمر باستدعاء قوات اضافية من كل ارجاء مصر ، كما أمر ولاة المدن الساحلية الذين لم تكن لهم مهمة سوى الاهتمام بها باعداد السفن وتجهيز الأسطول ، فتم فى الحال كل ماهو لازم للقتال بحرا ·

وما كادت السفن السبعون تأخذ للأمر أهبته حتى عبر الأمير (الأفضل) الصحراء بجيش برى ضخم ، وعسكر قرب عسقلان حيث بقى هنا مع فيالقه ، على حين أبحر الأسطول الى مدينة يافا وألقى مراسيه أمامها ، ثم نزلت القوات البحرية الى البر فى أعداد ضخمة ، وأحاطوا فى الحال بالمدينة من كل نواحيها احاطة السوار بالمعصم ، وشـنوا سـلسلة من المناوشات العدوانية المتواصـلة مستهدفين من ورائها مضايقة عدوهم ، ولما كان عدد المدافعين بالغ القلة فقد استطاع المحاصرون الاقتراب آمنين من سور المدينة اقترابا شديدا مكنهم من نقضه فى كثير من المواضع ، ولو كان قد تسنى لهم متابعة الهجوم فى اليوم التالى أيضا لانهارت الأسوار كلها تحت ضرباتهم ولاستطاعوا الاستيلاء على المدينة عنوة لقلة من بها من المدافعين عنها ·

الا أن البطرك واستاس جرنييه الكونستابل الملكى وغيرهما من كبار رجال المملكة ركزوا فى هذه الأثناء كافة القوات التى استطاعوا

جمعها فى سهل قيسرية عند موضع يقال له « القاقون » واستعدوا للقتال ، وبعثوا بهم الى يافا ، فلما وصل خبر تقدمهم الى أسماع رجال القوات المصرية المحاصرة الموجودة أمام المدينة ارتدوا سراعا الى سفنهم خوفا من مجىء قواتنا ، ونزل رجال البحرية الى قواربهم وأمسكوا بمجاديفهم فى انتظار ماسوف يحدث لقواتهم البرية التى كانوا يعرفون انها قريبة من العدو ، واما الصليبيون فقد أخذوا فى التقدم الى الامام فى هذه الأثناء رافعين صليب المسيح ، وقلوبهم عامرة بالايمان ، مستعينين بعطف الرب ، مما زاد فى أملهم فى أن تكون لهم اليد العليا وأن يكون النصر حليفهم ، وتقدمت صفوفهم حتى صارت قرب موضع اسمه « ابلين » فواجهت العدو الذى جاء بجيوش رتبها خير ترتيب على مألوف عادته وبصورة توحى بأنهم عازمون على الاشتباك مع الصليبيين ، لكنهم ماكادوا يطـــالعون تنظيمنا الرائع ، ويتذكرون الدليل البين على بأسنا حتى دب الوهن فى أوصالهم ، ومع أنهم بدءوا وكأنهم الأسد الضارية الا انهم صاروا الآن أجبن من الأرانب وأرادوا أن يتحاشوا القتال بل انهم ندموا أشد الندم على انهم سعوا اليه بأنفسهم وتمنوا لو أنهم لم يفعلوا ذلك قط ٠

ويقال أن مجموع قواتنا عامة بما فيها شتى طبقات العامة بلغ قرابة سبعة آلاف شخص ٠ اما العدو فكان فى ستة عشر ألف رجل مدججين بالسلاح خرجوا للحرب ، بالاضافة الى العاملين فى الأسطول من أهل السفن ، ولكن روح الصليبيين المعنوية كانت عالية وان ضطربت قلوبهم ألما وامتلأت نفوسهم بالخوف من الله فاستغاثوا به يطلبون العون منه ، واندفعوا على خصومهم بسيوفهم اندفاعا شديدا دون أن يتركوا لهم لحظة يلتقطون فيها أنفاسهم رغم خطر الموت المحدق بهم ، اذ كان القتال وجها لوجه ٠

وتملكت المصريين الدهشة من قوة الصليبيين وجرأتهم ، فقد شاهدوا بأعينهم وتأكدوا مما نزل بهم من الضربات صدق الأخبار التى جاءتهم عنهم ، وان لم يمنعهم ذلك من الاســتعداد لهم . فنشطوا فى مصارعتهم وردوا ضرباتنا العنيفة بعنف مثلها ، لكنهم لم يكونوا لنا ندا فى الاقدام ولا فى الشجاعة ، ففشلت محاولتهم ضدنا ، واضطروا للفرار مخلفين وراءهم معســكرهم الذى كان يفيض بكل صنوف الثروة والمتعة ، ولم يكن يشغلهم سوى النجاة بأنفسهم ٠

وتحمس الصليبيون فى مطاردتهم الى أبعد ماوسعتهم المطاردة، واعملوا فيهم السيف حتى لم ينج من جموعهم الكثيفة الا شرذمة لم يبلغها القتل ولم يجر عليها الأسر حتى ليقال ان من مات من العدو فى ذلك اليوم بلغ سبعة آلاف رجل ٠

ثم انفلت جندنا منصورين الى معســكر العدو فوجدوا به ثروات المصريين ممثلة فى كميات كبيرة من الذهب والفضة وشتى أنواع الأوعية الثمينة والخيم والفســاطيط والجيــاد والدروع والسيوف ، فقسموا الغنائم بينهم حسب قوانين الحرب ، وعاد العسكر الى بلادهم أثرياء فوق الوصف ٠

ما كاد نبأ نكبة الجيش البرى يصل الى سمع أهل الأسطول حتى أبحروا الى مدينة عسقلان التى كانت لاتزال فى قبضة المصريين فكانت ملجأ آمنا لهم ، وقد سمعوا هنا تفصــيلا أتم عن هزيمة الجيش ٠

❋ ❋ ❋

وقد مات فى هذه الأثناء انستاس « جرنييه » وكان رجلا عاقلا ، محمود الشمائل ، ألقوا اليه بادارة دفة شئون المملكة أثناء

غياب الملك ، فلما مات نصبوا مكانه الرجل الطيب الذكر « وليم دى بيورى » صاحب طبرية ، وكان ممدوحا وجيها ، ولما نمى الى علم دوج البندقية «دموينجو ميكائيللى » خبر الصعاب التى ألمت بمملكة الشرق أمر باعداد الأسطول الذى خرج مؤلفا من أربعين قرقورة وثمان وعشرين شينى ، وأربع سفن كبار ملائمة لحمل الأمتعة ، وأبحر فى هذا الوقت متجها الى سورية، وصحبه فى حملته هذه بعض كبار رجالبلده ، فلما بلغوا جزيرة قبرصعلموا أن الأسطول المصرى قد أبحر الى ساحل يافا فى سورية حين بلغه خبر اعتزام البنادقة المجىء ، وكان أسطولهم لايزال راسيا هناك وان نظرت اليه المدن البحرية بكثير من الشك والارتياب ، فكان هذا النبأ مؤديا بالدوج لأن يأمر بالرحيل فى ساعته ، وأسرع بالابحار الى الشاطىء القريب من يافا ، وكان مستعدا للقتال ، لكن جاءه الخبر ان الأســـطول المصرى غادر يافا راجعا الى ناحية عسقلان ، ذلك لأن الأنباء المحزنة عن النكبة التى بلغهم خبر وقوعها لجيشهم البرى فى المعركة التى كانت بينه وبين الصليبيين حملتهم على الارتداد الى مدينة تكون تحت سيطرتهم ، فلما جاء الى البنادقة جواسيسهم بهذا النبأ اداروا دفة سفنهم فى الحال الى عسقلان متطلعين فى لهفة لأن يشتبكوا فى قتال مع الأسطول المصرى ان كان لايزال هناك ، واذ كانوا اهل تجربة عظيمة ومهارة فائقة فى مثل هذه الأمور فقد أعدوا سفنهم للحرب على احسن صورة ممكنة .

كان فى هذا الأسطول البندقى بعض ســـفن ذات منقار أكبر من السفن ذات المجادف التى تسمى بالشوانى ، وقد جهزت كل واحدة منها بمائة مجداف يحتاج كل واحد منها الى رجلين، وبالاضافة الى هذا كله كانت هناك ـ كما قلنا ـ أربع سفن أكبر حجما من هذه لحمل المؤنة والآلات والأسلحة وكل ما يحتاجونه وقد وضعت

هذه السفن والقراقير فى المقدمة حتى اذا رآها العدو من بعيد ظنها سفنا تجارية ولم يحسبها سفن الخصم ٠ وسار من ورائها السفن العراض ، وهكذا مضت القوة على هذا النسق متجهة شطر الساحل ، وكان البحر هادئا أشد الهدوء ، والريح فى جانبهم ، وأسطول العدو على مقربة منهم ، حتى اذا أخذ الصبح فى الاشراق وأعلنت آلهة الفجر طلوع النهار أدرك المصريون ان الاسطول المسيحى يتقدم نحوهم ، فلما طلع النهار رأوه قريبا منهم غاية القرب فتملكهم الفزع ، واستبدت بهم الدهشة ، وانطلقوا الى مجاديفهم ، وقد تأكد لديهم أن القتال واقع لامحالة راحوا يصيحون بالبحارة ويلوحون لهم بأيديهم ان يقطعوا الحبال وينتزعوا المراسى ثم يجمعون النوتية ويمتشقون أسلحتهم ٠

ـ ٢٣ ـ

فى غبرة هذا الارتباك والفزع تناثر عقد نظام العدو غاية التناثر، وفي وسط هذه المعمعة أخذ قارب من قوارب البندقية ـ وعليه الدوق ـ ينساب بسرعة أمام غيره ، وشاءت الصدفة ان يرتطم هذا المركب بالسفينة التى كانت تحمل قائد الأسطول المصرى وكان الارتطام قويا بالدرجة التى أدت بالأمواج لأن تبتلع مركب العدو بمن عليها من المجدفين ٠

وانطلقت القراقير البندقية الأخرى بنفس السرعة ، ونجحت كل واحد منها تقريبا فى قلب واحد من مراكب العدو ، وتلى ذلك معركة حامية الوطيس حارب فيها كل جانب الآخر حربا لا هوادة فيها ، واستحر القتل ، ومما لا يكاد يصدقه العقل ان الذين شاركوا فى هذه المعركة أكدوا تمام التأكيد ان دماء القتلى كانت تغطى المنتصرين وظلت مياه البحر ـ في دائرة قطرها ميلان ـ حمراء قانية

بسبب الجثث التى القيت هناك ومن الدم الذى كان ينساب من السفن وغطت السواحل الجثث التى لفظها البحر حتى فسد الهواء وعم الطاعون المنطقة المحيطة بها بسبب جيف الموتى العفنة ٠

واحتدم القتال فى الأحياء المجاورة لأن أحد الجانبين كان يحارب حربا ضارية ، والجانب الآخر يجاهد كل المجاهدة ويقاومه نفس المقاومة ، ثم شاءت ارادة الله فى النهاية أن يكتب النصـــر للبنادقة ، فأدبر العدو وولى ، واستولى البنادقة على أربعة شوان من شوانيه ، كما أخذوا كثيرا من القراقير ، وكذلك سفينة كبيرة قتل أميرها ، وهكذا أحرزوا نصرا خالدا الى الأبد ٠

لم تكد الرحمة العلوية تمنح شعبنا هذا الفوز حتى أصدر الدوج أوامره بمواصلة الابحار تجاه مصر من غير تريث ولا ابطاء ، وكان أمله أن يلتقى رجاله ببعض أسطول العدو ، ومن ثم فقد أبحروا مصاقبين للساحل حتى بلغوا العريش احدى المدن البحرية القديمة الرابضة على حافة الصحراء ، وتم كل شىء وفق ما أرادوا حتى وافاهم رسول بالخبر اليقين وأنبأهم بكل ما ســوف يصادفونه ، ذلك انهم بينما كانوا يجدفون بهمة فى تلك المياه اذ بهم يلمحون عشرة من سفن العدو على مسافة غير بعيدة عنهم ، فاتجهوا فى ابحارهم سراعا شطرها واستولوا عليها بالقوة فى أول نزال بينهم وبينها ، فقتلوا بعضـــا ممن كان على ظهرها وأخذوا الباقين أسرى ، وكانت هذه السفن محملة بالبضائع القادمة من الشرق ، وأعنى بها التوابل والأقمشة الحريرية ، فوزع البنادقة تلك الاسلاب فيما بينهم حسب مألوف عادتهم ، فامتلأت أيديهم بالثروة ، ثم سحبوا معهم القوارب التى استولوا عليها ، ثم يمموا وجوههم شطر مدينة عكا حيث أرسوا هناك ٠

سرعان ما وصل الى بيت المقدس نبأ رسو دوج البندقية على سواحلنا بقوة بحرية ، وعلم الناس كيف انتصر الدوج على العدو انتصارا قشيبا ، ومن ثم قام « جورموند » بطرك القدس ووليم دى بيورى الكونستابل الملكى وأمين خزانة المملكة ومستشار الملك « بأينز » مع رؤساء الأساقفة والأساقفة وغيرهم من وجوه أهل الدولة فأرسلوا الى الدوج سفارة من أحكم رجالهم وأشرفهم يحملون اليه والى قواد البندقية وقواد الجيش تحيات البطرك والبارونات والشعب ، ويشرحون لهم فرحة أهل القدس وتطلعهم فى لهفة الى قدوم البنادقة اليهم، ويدعونهم للتمتع بكل ما تستطيع المملكة تقديمه لهم كما لو كانوا مواطنين للمدينة ، ويذكرون لهم ان الجميع على أتم استعداد وشوق لضيافتهم أكرم ضيافة حسبما تقتضيه الفرائض الانسانية الواجبة عليهم ، وأبدى الدوج رغبته فى زيارة الأماكن الطاهرة ، وهى رغبة دينية كان يتطلع اليها منذ سنوات طويلة غابرة، كما أبدى رغبته فى الحديث الى الأمراء الذين كانوا قد بعثوا اليه من قبل دعوة قلبية ، لذلك فانه خلف وراءه للرعاية عددا كافيا من أهل الحجى ، وشد رحاله الى القدس غير مستصحب معه سوى كبار رجالاته ، فلما بلغ المدينة قوبل بترحاب كريم وأحاطوه بأعظم آيات التشريف والتعظيم ، فاحتفى فيها بعيد ميلاد سيدنا ، وألح عليه أمراء المملكة الحاحا صادقا أن يهب نفسه بعض الوقت لخدمة المسيح ورفعة المملكة، فكان رد الدوج عليهم انه لم يأت الا وفى نفسه تحقيق هذا الغرض ، وانه آلى على نفسه الا أن يهب ذاته لهذا الهدف ، ولما كان البطرك وكبار رجال المملكة موجودين فقد انعقد الاجماع على مهاجمة احدى المدن الساحلية ولاشىء سوى ذلك ، وان ينصب الهجوم على مدينة صور أو عسقلان لأن جميع المدن

ـ بدءا من نهر مصر حتى أنطاكية ـ قد صارت بفضل الرب ملك يميننا . غير ان رغباتنا تباينت تباينا شديدا حول هذه النقطة ، وأوشك الأمر أن يؤدى الى نزاع خطير ، لأن ممثلى بيت المقدس والرملة ويافا ونابلس وما حول هذه المدن بذلوا قصارى سعيهم كى يوجهوا الحملة ضد عسقلان باعتبارها أقرب ما تكون اليهم ، وأنها لا تكلف جهدا كبيرا ولا تتطلب المال الكثير .

أما الرجال من اهل عكا والناصرة وصيدا وبيروت وطبرية وجبيل وغيرها من مدن الساحل فكانوا على العكس من ذلك ، اذ أصروا على أن تتجه الحملة ضد صور ، وحجتهم فى ذلك انه لما كانت صور مدينة عظيمة وشديدة التحصين فانه يجب بذل جميع الجهود الممكنة لجعلها تحت سيطرتنا حتى لايتمكن العدو من اتخاذ ارضها معبرا الى بلادنا فيستطيع اذ ذاك معاودة الاستيلاء على الناحية كلها .

كان من جراء هذا الاختلاف الشديد فى الآراء ان أوشكت المسألة على التأجيل تأجيلا فيه المضرة ، غير أنه عن طريق جهود بعض الوسطاء رؤى انه من الأوفق ان يحسم هذا النزاع بالقرعة ، وزيادة على ذلك فان الطريقة التى اتخذت لعمل القرعة كانت سوية لا حيف فيها ولا غبن ، فقد وضعت على المذبح قصاصتان من الورق كتب على واحدة منهما كلمة « صور » وعلى الأخرى « عسقلان » ، ثم جيء بيتيم صغير برىء وكلفوه أن يختار احداهما بعد أن عرفه الجميع أن الجيش سوف يزحف من غير نقاش على المدينة المكتوبة على الورقة المسحوبة ، فوقع الاختيار على « صور » .

وقد عرفت هذه التفاصيل من شيوخ معينين أكدوا تأكيدا باتا انهم كانوا شهود عيان لكل هذه الأحداث التى ذكرناها .

وبعد اقرار هذه التفاصيل اجتمع البطرك المعظم وكبار رجالات هذه المنطقة مع الناس فى مدينة عكا حيث كان أسطول البنادقة راسيا فى مرفأ أمين بالميناء ، وتبادل الفريقان الأيمان الغليظة على ان يلتزموا جميعا بشروط الاتفاق الذى ارتضوه ، وأعدت جميع التجهيزات اللازمة لحملة من هذا النوع •

حتى اذا كان اليوم السادس عشر من شهر فبراير ١١٢٤ ضرب الحصار برا وبحرا على مدينة صور •

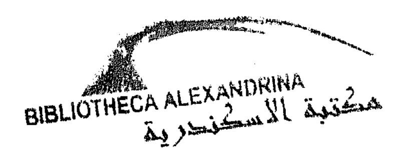
— ٢٥ —

ورغبة منا فى الا يخلو الكتاب من وثيقة بشأن الأحداث التى جرت فى الأزمنة السالفة فاننا ندرج هنا وثيقة هامة تدل على ما جرى ، وهى نسخة من الامتيازات التى تضمنتها الاتفاقية المبرمة بين البنادقة وكبار رجال مملكة بيت المقدس وهى كالآتى :

« باسم الثالوث المقدس الذى لا يتجزأ ، وباسم الواحد الآب والابن والروح القدس : انه فى زمن حكم البابا «كاليسيوس» الثانى وهنرى الرابع(١٨) امبراطور الرومان العظيم والذى يحكم أولهما كنيسة رومة وثانيهما يحكم الامبراطورية ، وفى نفس العام الذى عقد فيه بروما مجمع أقر السلام بمشيئة الرب بين الكنيسة والدولة بخصوص الخاتم والصولجان فان «دومينيجو ميكيلى» دوج البندقية ودلماشيا والكروات وأمير الامبراطورية أى جمهورية البندقية جاء وفى صحبته نفر كبير من الفرسان وأسطول قوى من السفن ، جاء مدافعا عن المسيحيين الذين هم فى أشد الحاجة لدفاعه وقدم مباشرة

---

(١٨) الصواب ان يقال « الخامس » •



من ساحة انتصاره على أسطول الوثنى التابع للملك بابليون ، بعد أن أنزل به هزيمة نكراء أثناء رسوه أمام شواطىء عسقلان •

وهى وثيقة مدونة فى ذيل هذا الكتاب ، ومن ثم سوف تبقى سليمة لا يعتورها التغيير و لاالتبديل ولا تشجب فى المستقبل ، سواء بالنسبة له أو لشعبه بل تظل محفوظة على الدوام آمين •

« انه سوف يكون للبنادقة فى كل مدينة من مدن الملك المشار اليه، والموجودة تحت حكم خلفائه كذلك وفى جميع مدن باروناته •• سوف يكون فى كل هذه المدن للبنادقة كنيسة خاصة بهم وشارع خاص بهم بأكمله ، وكذلك يكون لهم ميدان وحمام ومخبز ، ويكون ذلك حقا لهم يتوارثونه ، ولا يدفعون عن ذلك أبدا أى ضرائب ، كما لو كان ذلك ملكا للملك ذاته •

« ويكون لهم فى الميدان المطجود ببيت المقدس مثلما يكون للملك ذاته ، لكن اذا أراد البنادقة أن يقيموا بعكا فى حيهم هناك فرنا وطاحونة وحماما وتكون لهم موازينهم ومكاييهم ومكاييلهم لكيل النبيذ والزيت وعسل النحل فيسمح بذلك بالمجان لكل شخص ساكن هناك دون معارضة ، ويسمح له بالطبخ أو الطحن أو الاستحمام من غير رسم يدفعه كما هو الحال تماما فيما هو ملك خاص للملك ، ويحق لهم أن يستعملوا المكاييل والموازين وأدوات الكيل كما يلى :

اذا أراد البنادقة المتاجرة فيما بين بعضهم والبعض الآخر فيجب عليهم أن يستعملوا موازينهم الخاصـــة بهم ، أى موازين البندقية ، واذا باع البنادقة بضائعهم لشعوب أخرى غير شـــعبهم فعليهم أن يبيعوا بموازينهم الخاصة ، أى بموازين البندقية •

« اما اذا باع البنادقة أو تسلموا أى شىء للمتاجرة فيه من أى

شعب أجنبى عنهم ليس ببندقى فيؤذن لهم أن يأخذوا بالميزان الملكى وبثمن معلوم ، ومن أجل هذه الامتيازات فليس على البنادقة أن يدفعوا أى ضريبة سواء ما جرت العادة بدفعها أو لأى سبب آخر : أيا كان هذا السبب ، وسواء أكان ذلك عند الدخول أو البقاء أو البيع أو الشراء ، وســـــواء أكانوا مقيمين أو فى أثناء مغادرتهم البلد .

ولن يكون البنادقة ملزمين لأى سبب من الأسباب بدفع أى ضريبة الا فى حالة مجيئهم أو ذهابهم حاملين الحجاج على سفنهم الخاصة ، وحينذاك يكونون (حسب جمرك الملك) ملزمين باعطاء الثلث للملك نفسه .

« ونوافق ملك بيت المقدس ــ وكلنا نيابة عنه ــ أن ندفع لدوج البندقية من دخول صـــور يوم الاحتفال بعيد الرســـولين بطرس وبولص ثلاثمائة قطعة بيزنطية شرقية سنويا كما هو المتفق عليه .

« ويضاف الى ذلك اننا نتعهد لك أيها الدوج دوج البندقية ونتعهد لشعبك اننا لن نأخذ شيئا أكثر من تلك الشعوب التى تتاجر معكم فوق ما اعتادوا دفعه ، ولا نأخذ منهم أكثر مما نأخذه من أولئك الذين يتاجرون مع الشعوب الأخرى .

« وبالاضافة الى ذلك فان ذلك القسم من نفس المكان وشارع عكا الذى يوجد فى أحد أطرافه دار « بطرس » « زنى » ، وفى الطرف الآخر دير القديس ديمتريوس ، وكذلك أيضا جزء آخر من نفس الشارع الذى فيه بيت خشبى واحد وبيتان من الحجر كانا من قبل كوخين من القصب الفارسى ، هما نفس ما خصصه بلدوين ملك بيت المقدس فى الأصل للطوباتى مرقص فتمنح الى الدوج «اردولافو» وخلفائه نظرا للاستيلاء على صيدا .

« واننى « لأقول اننا نؤكد منح هذه الأماكن للقديس مرقص ولك أنت أيها السيد دومينيجو ميكيلى دوج البندقية ولخلفائك بمقتضى هذه الوثيقة ٠

« واننا لنعطيك الحق فى أن تمتلك على الدوام هذه المواضع وان تفعل بها ما تريد ٠

« اما فيما يتعلق بالجزء الآخر من نفس الشارع الممتد فى خط مستقيم من بيت « برنارد دى نيف شاتل » الذى كان من قبل تابعا لجون جوليان حتى بيت جبلبرت اليافاوى الذى هو من أسرة « سنت لو » فاننا نعطيك نفس السلطة التى للملك ٠

« وبالاضافة الى ذلك فانه لا يجوز لأى بندقى فى جميع أملاك الملك أو فى جميع أملاك باروناته أن يدفع أى ضريبة سواء فى الدخول أو فى الاقامة أو فى الخروج تحت أى حجة ، وانما يكون حرا تماما كما لو كان فى البندقية ذاتها ٠

« لكن اذا حدث وكان لأى بندقى قضية قانونية أو مقاضاة فى أى تجارة أو عمل ضد بندقى آخر فان الفصل فى هذه القضية يكون فى محكمة البنادقة ، كما انه اذا شعر أى شخص ان له نزاعا أو قضية ضد أحد البنادقة فيكون نظرها والفصل فيها فى نفس محكمة البنادقة ، لكن اذا اشتكى بندقى شخصا آخر ليس ببندقى فان النظر فى هذه الشكوى يكون فى محكمة الملك ٠

« كذلك فانه اذا مات بندقى وكان موصيا بوصية قبل موته أو غير موص بوصية (وهى التى نقول نحن عنها انها بلا لسان) فان أملاكه تؤول الى أشراف البنادقة وتكون تحت رقابتهم ٠

« واذا حدث لبندقى أن تحطمت سفينته فانه لا يتكبد خسارة أى شىء من أملاكه ، أما اذا كان موته فى جنوح السفينة فان الأملاك التى يتركها سوف ترد الى ورثته أو البنادقة الآخرين » وزيادة على ذلك فانه يكون للبنادقة نفس صلاحيات العدالة ونفس الحقوق التى للمواطنين من أى شعب يكونون ساكنين فى شارع وبيوت البنادقة مثل ما للملك من حقوق على شعبه ·

« وأخيرا فانه يكون للبنادقة ثلث مدينتى صور وعسـقلان وملحقاتهما ، وثلث جميع الاراضى المتصلة بذلك من يوم عيد القديس بطرس ، ويسرى هذا فقط على الأراضى التى هى خاضـعة الآن للشرقيين (أى المسلمين) ولم تصبح بعد فى قبضة الفرنجة ·

« فاذا قدر بمساعدة البنادقة او بأى وسيلة أخرى ان منح الروح القدس احدى هاتين المدينتين ، أو كليهما ان شاء الرب · لتكونا فى يمين المسـيحيين فان ثلث هذه المدينة أو ثلثى هاتين المدينتين ــ كما قيل ــ يملكه البنادقة تمام التملك ويكون لهم سلطات تنظيمية فى هذه النواحى التى تصـبح وراثية الى الأبد دون أى اعتراض أو معارضة ، شأنهم فى هذه الملكية شأن الملك فى تملك الثلثين من المدينة ·

« ومن ثم فاننا جورموند بطرك بيت المقدس سنحمل الملك نفسه ــ اذا شاء الرب أن يطلق سراحه من الأسر ــ على أن يصادق بالتأكيد على الاتفاق المذكور أعلاه كاملا غير منقوص ، لكن اذا أقيم غيره ملكا على مملكة بيت المقدس فاننا سنحمله على تنفيذ العهود المشار اليها قبل اعتلائه العرش والا رفضنا اعتلاءه العرش ، كما ان خلفاء البارونات ، وأى بارونات جدد فى المستقبل سوف يكونون ملزمين بالموافقة على نفس الاتفاق وبالطريقة ذاتها ·

« اما فيما يتعلق بأنطاكية فاننا نعرف تمام المعـــرفة بأن الملك بلدوين الثانى وعدكم أن يكون لكم فى أنطاكية نفس الترتيب كما هو الحال فى بقية المدن الأخرى التابعة للملك ، وان شـــعب أنطاكية يؤكد برضائه التام الاتفاق الملكى المبرم معكم •

« ونحن جورموند بطرك بيت المقدس وكذلك أساقفتنا ورجال الدين والبارونات وأهل بيت المقدس نمحضكم النصيحة ونسدى اليكم العون ، ونعدكم أن ننفذ بدقة وبايمان صادق كل ماسوف يكتب به البابا الينا بشأن هذا الأمر وان تنفذ جميع الأمور السالفة المشار اليها لمراعاة شرف البنادقة •

« وأؤكد بخط يدى أنا جيرموند الذى هو برحمة الرب بطرك بيت المقدس الأشياء المكتوبة أعلاه •

وأنا ابريمار رئيس أساقفة قيصرية أؤكد مثله هذه الأشياء ذاتها •

وأنا برنارد أسقف الناصر ، أؤكدها أيضا •

وأنا اشيتيفوس أسقف بيت لحم ، أؤكدها أيضا •

وأنا روجر صاحب اللد وأسقف كنيسة سنت جورج أؤكدها أيضا •

وأنا جلدوين رئيس دير ســـنت مارى فى وادى يهوشافاط أؤكدها أيضا •

وأنا جيرارد مقدم القبر المقدس ، أؤكدها أيضاً ٠

وأنا ايكارد مقدم هيكل السيد ، أؤكدها أيضا ٠

وأنا أرنولد مقدم جبل صهيون أؤكدها أيضا ٠

وأنا وليم دى بيورى كونستابل الملك أؤكدها أيضا ٠

« كتب هذا فى عكا بيد باينس مستشار ملك بيت المقدس فى سنة ١١٢٣ فى الدورة الثانية » ٠

* * *

هنا ينتهى الكتاب الثانى عشر

صدر من هذه السلسلة :

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ

د • عبد العظيم رمضان

٢ ـ على ماهر

اعداد : رشوان محمود جاب الله

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة

اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة

د • محمد نعمان جلال

٥ ـ غارات أوربا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى

عطية عبد السميع

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر ج ١

لمعى المطيعى

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د • محمد نصر فرحات

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د • علي السيد محمود

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د • احمد محمود صابون

٢٠ ـ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى
د • محمد انيس

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ١
توفيق الطويل

٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر
جمال بدوى

٢٣ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢
توفيق الطويل

٢٤ ـ الصـــحافة الوفدية
د • نجوى كامل

٢٥ ـ المجتمع الاســـلامى
ترجمة : د • عبد الرحيم مصطفى

٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د • سعيد اسماعيل على

٢٧ ـ فتح العرب لمصر ج ١
ترجمة : محمد فريد ابو حديد

٢٨ ـ فتح العرب لمصر ج ٢
ترجمة : محمد فريد ابو حديد

٢٩ ـ مصر فى عهد الاخشيديين
د • سيدة اسماعيل كاشف

٣٠ ـ الموظفون فى مصر
د • حلمى احمد شلبى

٣١ ـ خمسون شخصية وشخصية
شـــكرى القـــاضى

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ ٢
لمعى المطيعى

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د • خالد الكومى

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د • يونان لبيب رزق

٣٥ ـ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى

٣٦ ـ المجتمع الاســـلامى والغرب جـ ٢
ترجمة : د • احمد عبد الرحيم مصطفى

٣٧ ـ الشيخ على يوســـف
تاليف : د • سليمان صالح

٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصـــادى والاجتماعى فى العصر العثمانى

د • عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

٣٩ ـ قصـــة احتلال محمد على لليونان
د • جميل عبيد

٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د . عبد المعنم الدسوقى الجميعى

٤١ ـ محمد فريد الموقف والمأساة
رفعت السعيد

٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غربال

٤٣ ـ رحلة فى عقول مصرية
ابراهيم عبد العزيز

٤٤ ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى
د . محمد عفيفى

٤٥ ـ الحروب الصليبية
تاليف : وليم الصورى
ترجمة : أ . د . حسن حبشى

٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٩ : ١٩٥٧
تاليف : د . عبد الرؤوف احمد عمرو

٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث
تاليف : أ . د . لطيفة محمد سالم

٤٨ ـ الفلاح المصرى
تاليف : د . زبيد عطا

٤٩ ـ العلاقات المصرية الاسرائيلية
تاليف : أ . د . عبد العظيم رمضان

٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية

تأليف : د • سهير اسكندر

٥١ ـ تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية

اعداد : د • عبد العظيم رمضان

٥٢ ـ مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسـيين فى القرن الثامن عشر

تأليف : د • الهام محمد على ذهنى

٥٣ ـ أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك

د • محمد كمال الدين عز الدين على

٥٤ ـ الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى

تأليف : د • محمد عفيفى

الفهـــرس

الصفحة

رقم الايداع ١٩٩٢/٧١٤٦

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3113 — X

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

يعتبر كتاب الحروب الصليبية لوليم الصورى مصدراً أساسياً لما شاهده المؤلف فى معظم مراحل هذه الحرب ، واشتراكه فى بعض أحداثها ، إلى جانب ما توفر له من الاطلاع على كثير من الوثائق الهامة فى لغاتٍ كان يتقن بعضها ، قراءة وكتابة ، كاللاتينية واليونانية والفرنسية القديمة والعربية .

هذا إلى جانب توليه منصب مستشار ملك بيت المقدس ، ورئيس أساقفة صور ، ومشاركته بالرأى فى توجيه هذه الحرب فى بلاد الشام ومصر ، وفى كثير من أحداث تلك الحقبة .

وقد توفر له مترجمٌ ضليعٌ ومؤرخ كبير ، جزل العبارة هو الأستاذ الدكتور حسن حبشى ، الذى ترجم كثيراً من الأصول الأولى للعصور الوسطى ، وقد أضاف للترجمة من التعليق ما دلَّ على أستاذيته .

ويسعد الهيئة أن تكون هذه الترجمة العربية القائمة على مراجعة الترجمتين الانجليزية والفرنسية ضمن سلسلة تاريخ المصريين التى يرأس تحريرها الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان .

٤٧٥ قرشاً

مطابع الهيئة

٦٨

الحروب الصليبية

الجزء الثالث

تأليف: وليم الصورى

ترجمة: د. حسن حبشى





رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

الاخراج الفنى : مراد نسيم

الحروب الصليبية

الجزء الثالث

تأليف : وليم الصوري

ترجمة وتعليق : د. حسن حبشي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

مقـــــدمة

ترجمة الجزء الثالث

اما بعد ، فهذا هو الجزء الثالث من تقسيمنا للترجمة العربية لكتاب الحروب الصليبية • لوليم الصورى رئيس أساقفة صــور ومستشار الملك « عمورى » ملك بيت المقدس الصليبى صاحب الحملة المعروفة ، على مصر وقريع صلاح الدين ، وذلك فى اخريات القرن الثانى عشر الميلادى •

واذا كنا قد اخترنا لهذا الكتاب عنوانا هو «الحروب الصليبية» فان العنوان الذى وضعه له مؤلفه فى نسخته الأصلية منذ ثمانيــة قرون وعقد من الزمان هو : « الأعمال التى تم انجازها فيما وراء البحر » ، يقصد بذلك بلاد الشام ومصر وشمال العراق ، لاسيما امارة الرها الصليبية •

* * *

ان هذا الكتاب يستمد اهميته الخاصية من ان مؤلفه شــاهد عيان لفترة مهمة وغير قصيرة من احداث كتابه ، وهى احداث تركت

بصمتها فى تاريخ العلاقات بين الشـــرق والغرب ، من جهة ، لكما كانت لها آثارها السلبية والايجابية ــ فى مجريات الأمور فى العالمين الاسلامى والمسيحى ، والأخير بشقيه الأرثوذكسى والرومانى • كما أن وليم الصورى هذا ساهم بنفسه فى بعض هذه الأحداث مساهمة جدية سهلتها عليه ــ حينا أو فرضت بعضها عليه أحيانا أخـرى ــ مكانته التى كان يتبوؤها فى المجتمع الصليبى والمسيحى الشرقى من الناحيتين السياسية والدينية ، وما كان له من علاقات ذاتية بكثير من أقطاب العالم البيزنطى والصليبى والبابوى الرومانى •

***

وليس لنا من تعليق على هذا الجزء الثالث من الترجمة العربية سوى أننا حاولنا تفسير بعض الأحداث بنتف قصيرة من المصادر العربية والغربية على السواء ، كما اجتهدنا فى رد ما أمكن رده ــ وهو غير قليل ــ من المدن والأماكن التى وردت فى الكتاب كما وضعه صاحبه ــ الى مرادفاتها فى الكتب والمصادر الجغرافية والتاريخية العربية ، وأرجعنا اقتباساته الدينية الى أصولها من الكتاب المقدس فى التوراة والانجيل ، محتفظين بالنص كما ورد فى الترجمة العربية لهذا الكتاب عن الأصل من اللغات الأصلية •

كما اعتمدنا على بعض المصادر العربية لأحداث هذا الجزء ، ولكننا لم نشأ أن نثقل الترجمة العربية بالحواشى وبالتعليقات اذ أن اهتمامى ــ كعربى اللسان ــ فى هذا الكتاب وغيره مما ترجمت وما عندى من المصادر الأولى هو ترجمة ونقل الأصـــول الاولى عن الحروب الصليبية الى القارىء العربى ليقف على كل أو بعض ما كتبه معاصروها الغربيون والمسيحيون الشرقيون من بيزنطيين وسريان وأرمن ومن شاركوا فيها مشاركة كلية أو جزئيـــة ، حتى تكتمل الصورة عن هذه الحروب بما يتيسر له من مطالعة هذه الأصـــول حتى يتسنى له أن يقارن ذلك بما جاء في المصادر العربية الخاصة

بتلك الفترة ، ويصدر حكمه عليها ولاشك أنه سيكون اذ ذاك حكما أقرب الى الحقيقة والصواب ٠

* * *

ونعود مرة أخرى لنقول ان المراجع والفهـــارس الأبجدية المفصلة والمرادفات الفرنجية للأعـلام والأمـــاكن التى وردت فى الكتاب ستكون فى ختام الجزء الرابع الذى يكتمل به كتاب وليـم الصورى فى ترجمته العربية ٠

ومن الله التوفيق ٠

أ ٠ د / حسن حبشى ٠

فصول الكتـــاب الثالث عشر

١ ـ القول فى قدم صور وشهرتها ٠

٢ ـ البقاع الشامية ومساحاتها ٠

٣ ـ القول فيما حول صور ومزاياها ٠

٤ ـ القول فى انجاز حصار صور وتعدد مرات حصارها ٠

٥ ـ صفة مدينة صور وبيان أحوال أهلها ٠

٦ ـ انجاز الحصار وتخصيص موضع لكل زعيم صـــليبى ٠ محاصرة المدينة والهجوم عليها ٠

٧ ـ الدماشقة المقيمون بصور يستبسلون فى الدفاع عنهـــا ٠ لكن سكانها كانوا متكاسلين بعض الشىء ٠

٨ ـ العسقلانيون يزحفون على القدس لمهاجمتها ، غير أنهـــم يصادفون معاملة قاسية من أهلها أثناء رجوعهم ٠

٩ ــ وصول « طغتكين » ملك الدماشقة لرفع الحصـــــار ولكن الصليبيين يزحفون ضده فيحمله خوفه من استيلائهم عليها على العودة من حيث جاء ٠

١٠ ــ سكان البلد يشعلون النار فى معداتنا الحربية القتـالية ٠ شدة مقاومة رجالنا ٠ الزعماء يرسلون الى أنطاكية فى طلب أحد المهرة فى الرمى بالقذائف ٠

١١ ــ « بلك » يلقى مصرعه فى « منبج » مما يسبب فرحة عارمة تعم كافة رجال الجيش الصليبى ٠ وصول امدادات جديدة لهم ومتابعة حصار المدينة ٠

١٢ ــ العسقلانيون يعاودون الاغارة على الأصقاع التى حـــول بيت المقدس فى الوقت الذى لايزال فيه الجيش الصليبى يتابع الحصار ٠

١٣ ــ أهل صور يكابدون مجاعة فاتكة ولكنهم يصمدون لها ٠ وان أخذوا فى التأهب للاستسلام ، غير أن « طغتكين » يعود الى مساعدتهم لكن من غير جدوى ٠ اســـتسلام البلد للجيش الصليبى ٠

١٤ ــ أهالى صور يمضون ــ بعد تســـليمهم المدينة ــ الى زيارة المعسكر الصليبى ٠ الصـــليبيون يتمون اســـتيلاءهم على المدينـــة ٠

١٥ ــ فك أسر الملك وحصاره لمدينة حلب ٠ الملك يضطر الى رفع الحصار عن البلد بعد اشتباكه فى القتال مع العدو ٠

١٦ ـ الأمير « برسق » التركى يدمر أرجاء أنطاكية فيزحف الملك ضده · حدوث معركة بين الطرفين تنتهى بهزيمة العدو ·

١٧ ـ الملك الصليبى ينزل الهزيمة بالعسقلانيين والمصريين الذين قدموا للمساعدة ·

١٨ ـ الملك يغير على أرض الدماشقة فيزحف « طغتكين » لصده · شبوب المعركة وعودة رجالنا منتصرين ·

١٩ ـ « بونس » كونت طرابلس يستولى على مدينة « رفنية » · موت هنرى امبراطور الرومان ·

٢٠ ـ « البرسقى » يعاود غزو نواحى أنطاكية · رجاله يطعنونه ويقتلونه · وصول الأسطول المصرى الى الشام وهزيمته وارتداده من غير انجاز حملته ·

٢١ ـ بوهيموند الصغير يصل الى أنطاكية · الملك يعيد اليه النواحى التى آلت اليه شرعا بالوراثة ويزوجه ابنته ·

٢٢ ـ النزاع الخطير بين بوهيموند الصغير وبين جوسلين كونت الرها · مبادرة الملك الى الذهاب الى هناك وفضه هذا النزاع · المغاربة يشنون هجوما قاسيا على « سيراكيوز » الصقلية ·

٢٣ ـ تعيين أول رئيس أساقفة لصور ·

٢٤ ـ مجىء كونت أنجو « بناء على الدعوة التى وجهها اليه الملك وزواجه من « مليزند » كبرى بنات الملك » ·

٢٥ ـ وفاة « جورموند » بطرك بيت المقدس واستخلاف «ستيفن» مكانه · ظهور الخلافات بينه وبين الملك ·

٢٦ ــ ملك بيت المقدس يصاحب امير انطــاكية وكونت طرابلس وكونت الرها في الاغارة علي نواحي دمشق • اضطرار الملك الى التراجع بعد هلاك قسم من جيشه • موت « ستيفن » البطرك واختيار وليم(١) مكانه •

٢٧ ــ مصرع بوهيموند امير انطاكية في كيليكية قرب «المصيصة» • اسراع الملك بالذهاب الى انطاكية • أرملة بوهيموند «أليس» تحاول منع ابيها الملك من دخوله البلد الذى يأبى الأهالى الا أن يسلموه هو ذاته المدينة •

٢٨ ــ عودة الملك الي بيت المقدس • اصابته بمرض خطير يودى بحياته • دفنه مع غيره من الملوك فى كنيسة القبر الطاهر •

***

الاستيلاء على صور وبسط السلطان الملوكى على أقاليم لاتينية أخرى

(١)

اذا أخذنا برواية القانونى الفذ « اولبيان » المولود فى صور فصور مدينة موغلة فى القدم لأنه يقول فى « وجيزه » تحت عنوان « الاختصاص » انه من الأمور الثابتة التى لا يرقى اليها الشك هو أنه «كان لبعض المستعمرات حقوق ايطالية ، وقد أتاح موقع صور (التى ولدت بها والتى هى احدى المستعمرات الجليلة) لمدينة صـــور أن تتســـنم ذروة القيادة ، كما أن ظهورها منذ زمن بعيد ومنعتهـــا الشديدة جعلاها ترتبط ارتباطا وثيقا باتفاقية مع الرومان ، فضلاً عن تمتعها بالحقوق الايطالية التى منحها لها امبراطورنا المقدس

« ساويرس » مكافأة لها على صدق عهودها مع جمهورية رومة وامبراطوريتها ٠

ويتجلى لنا من مطالعة الأخبار القديمة أن الملك « أجنور » وأولاده الثلاثة : « أوربة » ، و « كادموس » و « فونكس » اتخذوها دار اقامة لهم ٠

واذا أخذنا بما يقوله الفينيقيون فان اسم الناحية بأجمعها منظور فيه الى « فونكس » ومستمد منه ٠

أما ابنه الآخر « كادموس ، فهو الذى أنشأ مدينة « طيبة » الى جانب استنباطه حروف الهجاء اليونانية ، فكان ذلك عملا أضفى على ذريته من بعده مجدا تليدا ٠

أما الابنة « أوربة » فقد خلعت اسمها على القسم الثالث من العالم المعروف بأوربة ٠

***

ولقد اشتهر أهل صور فى التاريخ بالذكاء الألمعى وخفة الروح، ونسبت اليهم أول محاولة لتسمية عناصر الكلام بأحرف تتلاءم ومنطوقها ، وفضلا عن ذلك فانهم يتباهون بأنهم أول أهل الأرض فى تشييد بيوت لحفظ الأموال ٠

كما ساهموا فى الرفاهية عن طريق رموز الفكر الحية ، أولا وهى معرفة الكتابة ، وهذا أمر لاجدال فيه ، وهو وارد فى تواريخ العصور القديمة ، فيشير اليه « لوكارنو » ، مؤرخ الحروب الأهلية

اذ يقول أنه من الحق أن الفينيقيين هم أول من أقدموا على تحديد طول النغمات بعلامات بدائية · هذا اذا صدقنا ما تقوله الأخبار ·

كما اشتهرت مدينة صور أيضا بأنها كانت أول من قدمت للناس اللون القرمزى وعرفتهم به ، وهو ذلك اللون الرائع المستخرج من مسحوق الأصداف ومن سمك الأرجوان الغالى ، ومن ثم عرف هذا اللون منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا باسم « اللون الصورى » نسبة الى مدينة صور ذاتها ·

* * *

وتقول الروايات فيما تقول ان « سيشاريوس » وزوجته « الياريدو » قدما من صور الى ولاية افريقية وتم على أيديهما تأسيس مدينة « قرطاجة » التى بلغت من القوة مبلغا نافست به الامبراطورية الرومانية منافسة أدت الى تسميتها بالملكة البونية (أى الفينيقية) نسبة الى الناحية التى جاءا منها ، وهكذا اعتز القرطاجيون بأصلهم اعتزازا تمثل فى تسمية انفسهم بالصوريين ·

ونطالع فى الكتاب الأول « لمارو » أنه كانت هناك « مدينة قديمة استعمرها الرجال القادمون من صور » ، كما نقرأ قول القائل : «سوف لا أفرق فى معاملتى بين القرطاجيين والصوريين ، ولن أخص أحد الفريقين بميزات أحرم منها الآخر » ·

* * *

وكان لصور فى البداية اسمان أحدهما « عبرى » وهو Sur سير ، والآخر Tyre « تير » وهو الذى تعرف به حاليا ، والذى يرجع أنه يونانى الأصل ، وتفسيره « انجوسينا » Angousina أو المضايق » ، ولاجدال فى أنه مشتق من اسم مؤسسها « تيراس »

سابع أبناء يافث بن نوح الذى نهج فى تسميتها النهج الذى كان متبعا اذ ذاك فأطلق عليها اسمه هو ذاته ٠

ويتضح وضوحا تاما ما كانت تتمتع به هذه المدينة من الشهرة وذيوع الصيت مما جاء فى حزقيال(٢). اذ يقول له الرب « وأنت يا ابن آدم فارفع مرثاة لصور وقل لصور : أيتها الساكنة عند مداخل البحر ، تاجرة الشعوب الى جزائر كثيرة ، ياصور أنت قلت : أنا كاملة الجمال ٠٠٠ تخومك فى قلب البحور ٠٠ بنـاؤوك تمموا جمالك ٠٠٠ عملوا كل ألواحك من سرو سنير ٠٠٠ أخذو أرزا من لبنان ليصنعوه لك سوارى ٠٠٠ صنعوا من بلوط باشان مجاذيفك ٠٠ صنعوا مقاعدك من عاج مطعم فى البقس من جزائر كتيم ٠٠٠٠ ٠٠ كتان مطرز من مصر هو شراعك ليكون لك راية ٠٠ الأسمانجونى والأرجوان من جزائر أليشة كانا غطاءك » ٠ كما نطالع فى سفر اشعيا(٣) قوله عن مدينة صور :

« اعبروا الى ترشيش ٠٠ ولولوا ياسكان السواحل ٠٠ أهذه لكم المفتخرة التى منذ الأيام القديمة قدمها تنقلها رجلاها بعيدا للتغرب ٠٠٠ من قضى بهذا على صور المتوجة التى تجارها رؤساء ومتسببوها موقرو الأرض » ٠

* * *

وكان « حيرام » الذى عاون سليمان فى بناء هيكل السيد ملكا على صور ، وكذلك كان « أبولونيوس » الذى ذاعت شهرة أعماله فطبقت الآفاق ٠

كما ينتمى الى هذه المدينة أيضا « ابديموس بن ابديمون ». وهو الذى حل ببراعته العجيبة المعميات التى كانت تنطوى عليها

الأحاجى والألغاز الكثيرة التى اعتاد سليمان أن يرســـلها الى « حيرام » ملك صور ·

ويطالع المرء فى الكتاب الثامن للمؤرخ « يوسيفوس » قوله : « ان ميناندر الذى ترجم آثار الصوريين القديمة من الفينيقية الى اللاتينية يذكر هو الآخر هذين الملكين فيقول انه لما مات « أبيبالو » خلفه على العرش ولده حيرام الذى عاش ثلاثا وخمسين سنة ، حكم منها أربعة وثلاثين عاما ، وكان « أبديموس بن أبديمون » سجينا فى ذلك الوقت ، وهو الذى اعتاد أن يفك الألغاز والأحاجى التى كان يرسلها اليه ملك بيت المقدس ·

كما نقرأ ما قاله بعدئذ « وبالاضافة الى ذلك فان سليمان ملك بيت المقدس كان قد أرسل الى حيرام ملك صور ألغازا يرجوه أن يحلها ، فان عجز عن حلها التزم بدفع مبلغ معين من المال كغرامة ، فلما أيقن « حيرام » أنه لن يستطيع لها حلا وأنه موشك على خسارة قدر كبير من المال عهد بحلها الى شخص آخر غيره من صور يدعى « أبديموس » فقام هذا الشخص بالتالى بوضع ألغاز أخرى قدمها لسليمان مشيرا عليه أن يغرم لحيرام قدرا كبيرا من المال ان عجز هو ذاته عن حلها » ·

ومن المحتمل أن يكون هذا الرجل هو الذى تسميه القصص الشعبية والأساطير بمارمولوق الذى يقال انه كان من عادته حل معميات سليمان ثم يضع أخرى تماثلها صـــعوبة ، ثم يقترح على الملك حلهـــا ·

* * *

ولا تزال هذه المدينة تحتفظ بجثة « أوريجن » كما تدل على ذلك شهادة « جيروم » اذ رآها بعينى رأسه ، فقد كتب الى «باماخيوس »

ى « أوخيانوس » رسالة يقول فى مســـتهلها : « انه مر حتى الآن مايقرب من مائة وخمسين عاما منذ أن مات « أوريجن » فى صور »٠

فاذا رجعنا الى ما ورد عنها فى التاريخ المقدس وجدنا أن هذه المدينة هى موطن المرأة الكنعانية العظيمة التى تجلى ايمانها على أقوى صورة حين راحت تتوسل الى المخلص ليدفع عن ابنتها الضر الذى لحقها من الأرواح الشريرة ، فامتدحها السيد وأثنى عليها بقوله لها : « يا امرأة ٠٠ عظيم ايمانك ، ليكن لك ما تريدين » ٠

وقد تركت هذه المرأة من بعدها لبنات جنسها صورة من صور الايمان والصبر المحمود ، اذ كانت أول من علمتهن التوسل الى المسيح المخلص بتوسلات تضمنت الايمان والاحساس والأمل تبعـا لقول النبى(٤) « وبنت صـــور ، أغنى الشـــعوب تترضى وجهك بهدية » ٠

وصور هى قصبة كل فينيقيا التى احتفظت بالصدارة لنفسها بين جميع ولايات الشام بسبب النعم العديدة التى انفردت بها الى جانب ازدحامها بالسكان ٠

(٢)

من الأمور الجديرة بالالتفات ان اسم « سورية » يستعمل فى بعض الأحيان استعمالا واسعا حتى ليطلق على الاقليم كله ، وقد يضيق أحيانا أخرى فيقتصر على قسم واحد منه ، كما كان يضاف فى بعض العصور الى كلمة أخرى فيدل على ولاية معينة بالذات ، وهكذا فان سورية الكبرى تضم ضمن حدودها ولايات متعددة ، وهى تمتد من نهر الفرات حتى مصر ومن كيليكية حتى البحر الأحمر ، وتسمى الولاية الأولى من ولايات الجزء الادنى منها (وهو الواقع

بين دجلة والفرات) باسم « ميسوبوتيميا » أى ما بين النهرين ، وقد أطلق هذا الاسم عليها لوقوعه بين النهرين (بين دجلة والفرات) ولما كان النهر فى اليونانية يعرف باسم « بوتاموس » وفى اللاتينية باسم « فلوفيوس » ، ولما كانت هذه المنطقة جزءا من سورية فطالما وردت فى الكتب المقدسة باسم « ميسوبوتيميا » الشام ·

أما الولاية الثانية الكبرى من سورية والتى تلى أرض ما بين النهرين فتشتمل فيما تشتمل عليه على مدينة أنطاكية العظيمة وجميع ما يتبعها من البلدان · أما الكيليكيتان اللتان هما جزء من سورية فتقعان شمال هذه الولاية المطلة جنوبا على فينيقيا ، ولها التقدمة على سائر أقسام سورية ، ولقد ظل هذا القطر أعواما طويلة وهو ولاية واحدة ، أما الآن فقد صار قسمين أحدهما هو « فينيقية البحرية » وقصبتها صور التى نتحدث عنها الآن والتى تتبعها أربع عشرة مدينة ، وهى تمتد من نهر فالينا « الذى يجرى على مقربة من حصن المرقب حتى الصخرة الناتئة المعروفة الآن باسم « · · · · · · · · وهى قريبة كل القرب من نفس المدينة القديمة التى كانت تسمى بصور القديمة ·

وأما المدن التى تقع فى نطاق هذه الولاية فهى كما يلى :

أولاها من ناحية الجنوب مدينة « بورفيريون » المعروفة أيضا بحيفا ، والمسماة فى اللغة الدارجة بكيفاس ·

وأما الثانية فبطليموسة المعروفة أيضا بعكا ·

وأما الثالثة فتقع الى الشرق وتعرف ببانياس التى هى قيصرية فيليبى

وأما الرابعة من ناحية الشمال فهى « سارينا أو صرفند » ·

وأما الخامسة فصيداء ·

وأما السادسة فبيروت ·

وأما السابعة فجبيل ·

وأما الثامنة فبترون ·

وأما التاسعة فطرابلس ·

وأما العاشرة فأرتوريا ·

وأما الحادية عشرة فعرقة ·

وأما الثانية عشرة فأرواد ·

وأما الثالثة عشرة فطرطوس ·

وأما الرابعة عشرة فمرقية ·

أما فينيقية الثانية (الصغرى) فتعرف بفينيقيـــة اللبنانية ، وعاصمتها دمشق وتسمى أيضا بسورية ، فيقال على سبيل المثـــال « دمشق رأس سورية »(٥) ·

ولقد قسمت سورية هذه فيما بعد الى قسمين أحدهما يعرف بفينيقية دمشق ، والآخر يعرف بفينيقية حمص ·

وأما المنطقتان العربيتان فهما جزء أيضا من سورية ، وعاصمة أولاهما بصرى ، أما الثانية فتعرف بتدمر الصحراوية ·

وهناك أيضا سورية سوبال وعاصمتها « سوبال » والتى هى الأخرى جزء من سورية الكبرى ·

كذلك فان المناطق الفلسطينية الثلاث تؤلف هى أيضا جزءا من سورية ، وينفرد أولها باسم « يهوذا » وعاصمته القدس ، وأما

عاصمة الثانى فقيصرية البحريـة ، وأما قصبة الثالثة فهـى « سيزيوبوليس » المسماه أيضا ببيسان ، ومركزها الآن مدينة الناصرة ٠

وأما آخر ولاية من ولايات سورية الكبرى فهى ولاية « أدوم » وتتجه نحو مصر ٠

(٣)

لم يقتصر الأمر فى صور ـ كما ذكرنا ـ على مناعة تحصينها ، بل كانت تشتهر الى جانب ذلك بتفردها بجمال الموقع وخصب التربة ٠ وعلى الرغم من وقوعها فى البحر ذاته واحاطة الأمواج بها من كل جانب حتى لتبدو وكأنها جزيرة الا أنه يمتد أمام أبوابها حقول فسيحة تصلح كلها للزراعة ، على حين ينبسط أمام المدينة ذاتها سهل خصب التربة غزير الانتاج يوفر للأهالى فى صور كميات هائلة من المواد الغذائية ٠

وعلى الرغم من أن هذه المنطقة قد تبدو صغيرة للعيان اذا ما قورنت بغيرها من المناطق الأخرى الا أن انتاجها الغزير يقوم بديلا عن ضيق رقعتها ، وتعادل ما تغله غلة فدادين شاسعة من الأراضى الخصبة ، ثم انها ليست منطقة مغلقة ، اذ تمتد من ناحية الجنوب صوب عكا وتصل الى المكان المعروف الآن باسم «سكنداليوم» الواقع على بعد اربعة او خمسة أميال من صور ، على حين انها تمتد نفس المسافة تقريبا من الاتجاه الآخر صوب كل من صرفند وصيدا ٠

أما من الناحية الأخرى فتمتد قرابة ميلين ، وقد تصل الى ثلاثة أميال ، وتكثر فى هذا السهل العيون المائية التى تتدفق منها

ينابيع المياة الصافية الصحية ، وتقوم مياهها الباردة بالترويح عن الناس فى الجو الحار ·

والمعتقد أن أشهر هذه العيون ذكرا فى العالم هو النبع الذى يتكلم عنه سليمان فى نشيد الأنشاد(٦) اذ يقول « ينبوع جنات بئر ، مياه حية ، وسيول من لبنان ،، وتتفجر هذه المياه من أسفل جـــزء من السهل ولا تصعد فى الجبال كما هو الحال فى كثير من غـــيرها من الينابيع ، وتبدو وكأنها تنبع من أعمق أعماق الجحيم ، ومع ذلك فقد استطاع الانسان بجهده ومهارته أن يرفعها صناعيا الى المناطق العليا ، فتدفقت بغزارة لتروى جميع الاقليم المحيط بها ، وجعلت السهل صالحا لكثير من الأغراض بفضل مســـيرتها الخيرة ، كما أمكن رفع المياه الى ارتفاع عشرة أقدام ، وذلك بتشييد بناء حجرى يضاهى الحديد فى صلابته ، ومن ثم فان النبع الذى كان قليــــل الجدوى بسبب انخفاض مستواه الطبيعى أصبح بوســــائل الرفع الصناعية التى تحدت الطبيعة مصدر خير عميم لكل الاقليم المحيط به ، وأصبح يصب الماء الغزير فتجود الأرض بالمحاصيل الزراعية ·

وحين يقترب المرء ليتفحص هذا العمل المدهش فانه يرى بوضوح البرج الخارجى وان لم ير شيئا من الماء ، أما اذا بلغ الشخص القمة فانه يشاهد مخزونا ضخما من المياه جىء بها الى هنا ثـــم توزع على الحقول المتاخمة فى قنوات متساوية الارتفاع هائلة البناء ، ونظرا لكثرة الراغبين فى الصعود الى قمة البرج فقد تم تجهيز هذا البرج بسلم من الحجر الصوان يتدرج فى الانحدار بصورة تجعل من اليسير على الفارس أن يظل ممتطيا جواده حتى يبلغ القمة من غير أن يلقى عنتا ولا مشقة ·

ويستفيد كل الأقليم الذى حول هذه الناحية فوائد جمة من هذه المياه التى لا تقف عندحد رى الحدائق والبساتين اليانعة الحـــافلة بأشجار الفاكهة بل تتعداها الى رى حقول القصب الذى يستخرج منه السكر والذى يكون محصوله ثمينا للغاية ولازما تماما للاستعمال ولصحة الانسان ، كما يحمله التجار الى أقصى بقاع الأرض ·

كذلك يصنع هنا من الرمال الموجودة فى هذا السهل نفســـه نوع من الزجاج النفيس الذى يحمل الى أقصى الأماكن وأبعدها ، وهو زجاج فريد فى نوعه وفى جودته ، كما تصلح هذه الرمال لصنع أجمل الزهريات المشهورة برقتها حتى لترى العين ما وراءها ·

هكذا شاعت شهرة هذه المدينة فى الخارج بين غيرها من الأمم الأجنبية ، وتزايدت أرباح التجار أضعافا مضاعفة ·

لم تقتصر صور على أن تكون لها تكل هذه الدخول الكبيرة ، بل زادت أهميتها بفضل ما تتمتع به من تحصينات لا تجاريها فيهـــا سواها ، وهى ما سنتكلم عنه فى الصفحات التالية ·

وترتب على هذه المزايا الجمة والتحصينات المنيعة أن أصبحت صور أحب وأغلى ما يحافظ عليه خليفة مصر الذى هو فى الواقع أقوى حكام الشرق قاطبة ، والذى يسيطر على كل البلاد الممتدة من اللاذقية فى سورية حتى الصحراء الليبية ، كما انه يعتبر مدينة صور خط الدفاع الأول عن مملكته وقصبة امبراطوريته ، ولذلك كان معنيا بتزويدها بالذخيرة والسلاح ، وتجهيزها بالمحاربين الأشداء ، ايمانا منه بسلامة الجسم كله ان سلمت الرأس ·

(٤)

ولما كان اليوم السادس عشر من فبراير ـ كما أشرنا من قبل ـ بلغ جيشانا مدينة صور وحاصراها كأشد ما يكون الحصار ،

ولكنها كانت كما قال حزقيال(٧) « ياصور انت الساكنة عند مداخل البحر » ٠

وهى محاطة بالمياه من كل النواحى باستثناء شريط ضيق من الأرض لا يزيد عن رمية سهم ، ويقول الكتاب القدماء انها لم تكن فى الماضى تعدو أن تكون جزيرة منفصلة تمام الانفصال عن الأرض الرئيسية ، ويؤكدون أن الأمير الاشورى القوى « نابخدانصر » طمع وقت محاصرته اياها أن يوصلها بالأرض ، لكنه لم ينجز هذا العمل ٠

ويشير النبى حزقيال(٨) الى هذا الحصار فى قوله « قال الرب هأنا أجلب على صور نابخدانصر ملك بابل من الشمال ملك الملوك بخيل وبمركبات وبفرسان وجماعة وشعب كبير،فيقتل بناتك فى الحقل بالسيف ، ويبنى عليك معاقل ، ويبنى عليك برجا ، ويقيم عليك مترسة ، ويرفع عليك ترسا » ٠

كما يشير يوسيفوس الى هذا الحصار فى الكتاب العاشر من تاريخه فيقول « ان ديوكليز ذكر هو الآخر هذا الملك فى كتابه الثانى : « المستعمرات » ، كما أن فيلوستراتس قال فيما دونه عن فينيقية والهند « أن هذا الملك ظل يحاصر مدينة صور على مدى ثلاث سنوات وعشرة شهور وقت أن كانت تحت حكم « جوتابيل » ، فلما جاء الأسكندر الأكبر المقدونى بعده وصل صور بالارض ثم استولى بالحرب على المدينة » ٠

ويتكلم يوسيفوس أيضا عن هذا الحصار فى الكتاب الحادى عشر من مؤلفه فى التاريخ القديم فيقول « لقد جاء الاسكندر الى سورية واحتل دمشق ثم حاصر مدينة صور بعد فتحه صيداء » ، ثم يتابع كلامه فيقول انه « استولى على تلك المدينة بسبب دأبه العنيف

على حصارها ، فلما ملكها تابع زحفه الى مدينة جرش » ، ويقول أيضا « لقد مات San Ballat سانبلات بعد أن حاصر صور سبعة أشهر ، وحاصر جرش مدة شهرين » ·

كذلك حاصرها « شلمانصر » ، قبل ذلك الحين وفتح جميع فينيقية ·

كذلك يتكلم يوسيفوس عنه أيضا فى الكتاب التاسع من مؤلفه فى التاريخ القديم فيقول انه قام بحملة ضد صور فى عهد « ايبللوس » كما أن « مانيادار » الذى كتب تاريخ هذه الأزمنة وترجم الى اليونانية آثار صور يقول ان ايبللوس حكمها ستا وثلاثين سنة ، فلما ثار عليه « الاسكيثيون »(٩) ركب البحر اليهم فأخضعهم لأمره ، الا أن سالاماندار ملك الأشوريين تحرك ضدهم ثانية وغزا كل فينيقية ، ثم عاد بعد أن عقد الصلح معهم جميعا ، فتخلت مدن صيداء وعرقة وصور القديمة وغيرها عن صور واستسلمت لنفس هذا الملك الأشورى ، ولما لم تكن صور من المدن التى خضعت للملك فقد عاود الزحف عليها ، وأمده الفينيقيون بستين سفينة وثمانين قرقورة بمجاديفها ، فخرج أهل صور ضد العدو فى اثنتى عشرة سفينة ومزقوا شمل أسطوله شر ممزق ، وأسروا خمسمائة من رجاله فارتفعت بذلك هيبة صور ارتفاعا كبيرا ، غير أن ملك أشور عاد من جديد وأقام حراسا على النهر وعلى قنوات المدينة ، وبذلك حال بين أهل صور وبين الحصول على الماء ، واستمر الوضع على هذا الحال خمس سنوات اضطروا خلالها للشرب من الآبار التى حفروها · وقد وردت هذه الأخبار فى سجلات صور المتعلقة بسلاماندار ملك أشور » ·

(٥)

ومدينة صور هذه أشبه ما تكون بجزيرة لوجودها فى بحر لجى الأمواج ، شديد الخطورة بسبب الصـــخور ذات الارتفاعات المختلفة التى لاتراها العين المجردة ، ومن هنا كان شرها لا يؤمن على الحجاج وغيرهم ممن لا دراية لهم بالمـــكان ان هم حـــاولوا الاقتراب من المدينة من ناحية البحر ، ولم يكن لمثل هؤلاء أن يصلوا اليها دون أن تتعرض سفنهم للعطب على الصخور ، وما لم يكن معهم مرشد ملم بالبحر المحيط بهم ، عارف به فيجنبهم الغرق ٠

وكانت صور محاطة من ناحية البحر بسور مزدوج ذى أبراج شاهقة ، يفصل الواحد منها عن الآخر مسافة مثل التى بينه وبين الذى يليه ، وكان لها من ناحية الشرق (حيث يمكن الوصول اليهـا برا) سور ثلاثى الشكل بعض الشىء ، وأبراج بالغة الضخامـة قد تقارب بعضها من بعض تقاربا شديدا كاد أن يجعلها متلاصقة ٠ كما يوجد رصيف بحرى يتيسر للأهالىأن يبلغوا البحر عبره من كلا جانبيه ٠

أما من الناحية الشمالية فيقوم على حراسة مدخلها برجان ويحرسان أيضا الميناء الواقعة داخل أسوارها ، وتصطدم الأمــواج أول ما تصطدم عند انكسارها بساحل الجزيرة الخارجى الذى يضعف من عنف البحر العاصف ، ومن ثم نشأ مرسى صالح للسفن يصل بين الجزيرة والبر ، وهو آمن للغاية من كل الأمواج الا ما يجىء من ناحية الشمال ٠

وكانت الأوامر قد صدرت للأسطول بالتوجه الى هذا المرفأ ، فتوجه وأرسى فى مكان آمن ٠

أما الجيش فقد احتل البساتين القريبة من المدينة ، وضـرب معسكره على شكل دائرة تلتف حولها ، فحال هذا الوضع بيـن

الأهالى وبين الدخول اليها أو الخروج منها ، مما اضطرهم للبقاء وراء الأسوار على كره منهم ٠

وكانت المدينة تخضع لسيدين أحدهمـــا هو خليفة مصـــر (الفاطمى) الذى يملك ثلثيها باعتباره المالك الأعلى لها ، أما الثلث الباقى فكان فى يد سلطان دمشق لقربه منها ، وكان اعتقاد الخليفة أن الأخير لن يعرض لها بسوء بل على العكس لابد أن يســاعد الأهالى ان ألمت بهم شدة ٠

وكانت صور آهلة بكثير من علية القوم الذين أصابوا حظــا كبيرا من الجاه والثروة بفضل رحلاتهم التجارية المستمرة الى معظم البلاد المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، فجنوا من وراء ذلـك ثروات ضخمة وعادوا بكميات هائلة من السلع الأجنبية التى زادت فى موارد المدينة المالية ، يضاف الى ذلك أن أعدادا كبيرة من أعيان وأثرياء قيصرية وعكا وصيداء وجبيل وطرابلس وغيرها من المــدن الساحلية التى وقعت فى أيدينا فروا الى صور يلتمسون الحمايـة وراء تحصيناتها ، كما ابتاعوا لهم فيها الدور الغالية ، ولم يجر قط فى حسبانهم أن تقع مدينـــة حصـــينة كهذه المدينة فى أيـدى المسيحيين تحت أى ظرف من الظروف ، وكان الحامل لهم على هذا التقدير أنهم كانوا يعدونها عرينا يستحيل اقتحامه ، وحصنا منيعا يستحيل التغلب عليه ، وانها فريدة لا يوجد لها ضريب فى كافة أرجاء الاقليم ٠

(٦)

بعد ان رتب الصليبيون متاعهم وفرغوا من جميع التنظيمات الأخرى على أحسن وجه استطاعوه سحبوا كل سفنهم الى البر حتى صارت قــرب الميناء ، ولم يتركوا منها ســوى مركب واحدة فقط ، جعلوها على أتم أهبة لمواجهة أى طارىء يعرض لهم ، ثم حفروا خندقا

عميقا يمتد من البحر حتى يبلغ الخندق الداخلى فاحتمى به الجيش كله ، ثم جاؤوا الى الميناء بكل ما يلزم لبناء السفن من المواد التى كان البنادقة قد جلبوا منها معهم كميـــات كبيرة ، كما بعثوا فى استقدام العمال لصنع شتى أنواع الآلات الحربية ٠

وعمد البطرك وأشراف المملكة الذين كانوا يقومون بتصريف الأمور حينذاك بدلا من الملك الى استدعاء النجـــارين والبنائين الحاذقين وزودوهم بكل ما يلزم من المواد ، وكلفوهم ببناء برج شاهق الارتفاع يستطيع المقاتلون ـ ان كانوا أعلاه ـ أن يشتبكوا عن قرب فى محاربة المدافعين عن المدينة الموجودين بالأبراج التى على الأسوار كما يتمكنون من كشف المدينة كلها ٠

ثم صدرت الأوامر ببناء آلات حربية قادرة على قذف الأحجار الضخمة لتدك الاسوار والأبراج،وتبث الفزع فى قلوب المقيمين داخل المدينة ٠

وفعل دوج البندقية وجماعته ما فعلته جماعة الملك ، فقاموا ببناء آلات مشابهة لهذه الآلات ونصبوها فى أماكن استراتيجية مهمة، ودأبوا على العمل بهمة لايتطرق اليها الكلل ، وشدة لايتســـرب اليها الوهن ، وأطبقوا على الأهالى شيئا فشيئا وزادوا من مضايقتهم لهم دون أن تتوقف آلات الحصار لحظة عن رمى المكان رميا يلحق به الدمار ، كما أن غارات الصليبيين المتتالية وهجماتهم المســـتمرة التى لا انقطاع لها لم تتح للمدافعين الذين كانوا يبذلون غاية جهدهم لحماية أنفسهم فرصة يلتقطون فيها أنفاسهم ، ويحاولون فى الوقت ذاته صد هجمات أعدائهم المسيحيين وتكبيدهم المضرة ، فبنوا هـــم أيضا ـ داخل المدينة ـ آلات تقذف صخورا ضخمة راحت تتساقط بلا انقطاع على أبراجنا ، وكان لهذا الخوف الذى أوقعته الأحجار المتساقطة أثره فى رجحان كفة أعدائنا ، حتى صارت لهم اليـد

العليا لاسيما فى هذه الناحية التى لم يعد أحد من الصليبيين قادرا على البقاء فيها ، حتى ان الذين شاء قدرهم أن يقوموا بحراسة الآلات كانوا لايجرؤون على الاقتراب منها ، فان هم حاولوا ذلك خافوا وولوا على أعقابهم ولم يستطيعوا البقاء داخل هذه الآلات ، لأنهم ان فعلوا ذلك تعرضوا لأشد أنواع المهالك ، كل هذا والعدو مرابط فى أماكنه بالأبراج العليا وقد تسلح بالأقواس والسهام يواصل قذفهم بوابل من الرماح والنشاب ، وبسيل جارف من الصخور الضخمة التى لم ينقطع رميها من داخل المدينة مما ضيق الخناق على الصليبيين الذين لم يعودوا قادرين على أى شىء حتى ولو كان ذلك اخراج أيديهم ، ومع ذلك فقد تمكنت جماعتنا الموجودة فى أبراج الحصار أن ترد الضربة العنيفة ينزلها بها العدو بضربة تماثلها عنفا ، وأن تواجه القوة بقوة تعادلها بطشا ، مما حمل المدافعين الذين كانوا على الأسوار فى الأبراج على مجابهة هذه المحاولات الضارية ، الا أن الضعف تسرب اليهم فوهن عزمهم ، وأصابهم الكلل فتراخوا عن تحمل أعباء القتال ، وان لم يمنع ذلك الأمر الموكلين بادارة الآلات من الاستمرار فى استرشادهم بالخبراء فى قذف الصواريخ ورمى الأحجار الضخمة ، فحدث مايشبه الانهيار التام فى الأبراج والاسوار لشدة الرمى وكثرة التراب الذى تثيره الأحجار المتساقطة ، فانعقدت من عثيره سحب أضعفت بأس الآلات ، وأقامت ساترا ترابيا فصل بين المحاربين من الجانبين حتى أصبح من الصعب على المدافعين الموجودين فوق الأبراج أن يروا الصليبيين كما أن جميع الصواريخ الطائرة المارة وراء الأبراج والتحصينات راحت تتساقط بعنف فى داخل المدينة فتدمر العمائر الضخمة وتفتتها وتهلك سكانها .

أما فى خارج البلد حيث الريف فقد قاتل الفرسان والمشاة قتالا بطوليا فذا ، واشتبكوا فى غارات ومعارك كادت أن تكون يومية

ضد العدو الذى كان يخرج خلسة من المدينـــة ، وكثيرا ماحدث لرجالنا أن راحوا يتحدون من بداخـــل المدينة كى يخرجوا اليهم ويبرزوا لقتالهم ، وكان المواطنون هم الذين أخذوا مرة أخرى بزمام المبادرة فى مهاجمة محاصريهم ٠

(٧)

ومرت الأيام بعضها فى اثر بعض والقوم يقاتل بعضهم بعضا قتالا لا يدرك احد خاتمته ، وحاول كل من الصليبيين وأهل البلد اختبار صمود الجانب الآخر ، يفعلون ذلك بالهجوم تارة بالآلات الحربية وتارة بالقتال من وراء الأبـــواب ، ذلك لأن لكل فريق كان يبذل غاية جهده للتضييق على الآخر ما استطاع الى ذلك سبيلا ٠ لكن حدث فى هذه اللحظة الحرجة أن اســـتجاب « بونس » كونت طرابلس لاستدعاء أمراء المملكة له ، فجاء فى طائفة من النبلاء مما ضاعف من بأس الصليبيين وأحيا ما وهى من عزائمهم ، ولكن أثره فى نفوس الأعداء كان على العكس من ذلك اذ أحسوا ألا جدوى ترتجى من وراء صمودهم ٠

وكان فى المدينة سبعمائة فارس من فرسان دمشق ، شـــدت فعالهم أزر سكان البلد الذين وان كانوا سراة القوم وأشرافهم الا أنهم كانوا ضعافا قد ركنوا منذ زمن بعيد الى الدعة واســـتناموا للترف ولم يعتادوا القتال ، وحاول هؤلاء الدماشقة أن يكونوا بما يعملون قدوة يحتذيها سكان البلد فيصمدون فى وجه الخصم فيمدهم هؤلاء الفرسان اذ ذاك بالمعونة التى يحتاجونها ، لكنهم ما لبثوا أن نفضوا أيديهم مما هم فيه اذ رأوا أنهم لايستطيعون القيام وحدهم بأعباء الحرب ، لاسيما لما كانوا يشاهدونه من تزايد بأسنا ونجاح محاولاتنا يوما بعد يوم ، على حين أخذت قوات المحصورين فى التضاؤل وعسكرهم فى النقصان نقصانا ينذر بالخطر ٠

وعلى الرغم من أن هؤلاء الفرسان الدماشقة لم يشيروا على مواطنى المدينة بالتسليم الا أنهم فى الوقت ذاته لم يطمعوهم فى الاعتماد كثيرا عليهم ·

* * *

لم يكن هناك ـ كما هو الحال الآن ـ سوى مدخل واحد الى المدينة وبوابة واحدة ، وكانت المدينة بأجمعها ـ كما قلنا ـ أشبه ما تكون بجزيرة تحوطها المياه من كل نواحيها ، الا من جهـــة واحدة ضيقة تؤدى بالداخل الى البوابة ، ولكانت المصادمات المختلفة فى هذه الناحية من جانب كل الفرسان والمشاة مستمرة لا تنقطع كما هو الحال فى مثل هذه الظروف ·

(٨)

على هذه الصورة كان الوضع فى صور ·

وأدرك العسقلانيون فى هذا الوقت أن المملكة فارغة من عسكرها وأن جميع قوة البلد مشغولة بحصار صور ، فبادروا فى الحال الى انتهاز هذه الفرصة واجتـازوا الســـهل الفاصـــل بكل قواتهم ، وأسرعوا شطر الجبال المبنية عليها بيت المقدس ، وكانوا يتوقعون أن يجدوا المدينة الطاهرة خالية ، ويطمعون أن يأسروا من يصادفونه من سكانها ممن يجرؤون على الخروج دون أن يأخذوا حذرهم ، ولم يكن أحد من هؤلاء السكان يتوقع قدوم هؤلاء العسقلانيين الذيـن تمكنوا من قتل ثمانية منهم اذ باغتوهم فى حقولهم وبساتين كرومهم·

وعلى الرغم من قلة عدد الصليبيين الا أنهم كانوا يفيضون ايمانا ويتقدون غيرة صادقة على بلدهم ونسائهم وأبنائهم ، فهرعوا الى السلاح يحملونه ، وانطلقوا من المدينة صوب العدو ولايســـيطر عليهم سوى هدف واحد ، ووقفت قوات كلا الجـــانبين المتعاديين

ترقب الواحدة منهما الأخرى على مدى ثلاث ساعات ، لم يجرؤ الصليبيون أثناءها على مهاجمة خصومهم لاقتصار جندهـــم على المشاة فقط ، بينما كان العسقلانيون قد أدركوا أنه من المستحيل عليهم أن يظلوا طويلا على هذه الصورة دون خطر كبير يتهددهم ، هذا بالاضافة الى أنهم لم يطمئنوا ـ وهم على هذا القرب الشديد من المدينة ـ الى مقاتلة قوم عديدين شجعان لا تلين لهم قناة ، قــد أجمعوا العزم على المقاومة حتى النهاية ، ومن ثم تأهبوا للارتداد على جناح السرعة من حيث جاؤوا ، فقص الصليبيون أثرهم فى حذر لمسافة قصيرة ، ونجحوا فى قتل اثنين وأربعين رجلا منهـــم كما أسروا أربعة من فرسانهم ، واستولوا على سبعة عشر جوادا من جيادهم ، فلما نجحوا فى انجاز هدفهم عــادوا الى بيت المقدس سالمين ·

(٩)

فى هذه الأثناء كانت نفوس أهل صور قد كلــت ، وأنهكهـــم ما يلاقونه من الهجمات المتكررة والغارات المستمرة والأهوال التى لا حصر لها ، فتراخوا فى خروجهم للقتال ، وتضاءلت حماستهم فى القيام بواجباتهم المفروضة عليهم ، وتملكهم مزيد من الدهشة من أن مدينة كهذه المدينة يتوافد اليها الناس زرافات كل يوم برا وبحرا ، وتكتظ غاية الاكتظاظ بشتى أنواع المتاجر التى تأتيهـــا عبر هذين الطريقين أقول تملكتهم الدهشة أن تبلى هذه المدينة بمثل هذه البلايا حتى ليعجز المواطنون والأغراب عن الدخول اليها أو مغادرتها ، زد على ذلك أن الأطعمة بها أخذت فى التناقص حتى كادت أن تعدم ، وحينذاك تشاوروا فيما بينهم عما يصنعون ، وانتهى بهم الرأى الى أن يكتبوا الى خليفة مصر والى سلطان دمشق يخبرونهما بالوضع البالغ السوء الذى يعيشون فيه ، وسألوهما وألحوا فى السؤال

أن يبادرا الى نجدتهم ، فقد بلغ السيل الزبى فى صور ، وآلت الأمور الى اليأس ، وأوضحوا لهما مدى جلد العدو وصبره ، وقوة شكيمته ، وازدياد بأسه يوما بعد يوم ، كما وصفوا لهما ما ابتلوا به من الضعف ونقص الطعام ، وفصلوا لهما موقفهم الذى لا قدرة لأحد على احتماله ٠

أدت هذه الخطوة التى قاموا بها الى رفع روحهم المعنوية بعض الشىء ، واخذوا ـ وهم فى انتظار النجدة المرجوة ـ فى تشجيع بعضهم بعضا على الصمود ، حتى ان الكثيرين منهم الذين اثخنتهم جراحهم فعجزوا عن القتال أخذوا يحثون الآخرين ليستمروا فى الصمود ٠

ثم جاءهم من يخبرهم بأن ملك الدماشقة « طغتكين » قد حركته كتب المحصورين ورسائلهم ، فغادر دمشق على رأس عسكر من الترك لا يحصيهم العد ، وأن معه فى ركابه عددا كبيرا من الفرسان، وقد عسكر بهم الآن على مقربة من صور على شاطىء نهر يبعد عنها بما يقرب من اربعة أميال ، كما راجت الشائعة انه سيصل اليهم فى مدى ثلاثة أيام أسطول مصرى اكبر مما جرت به العادة ومعه الامدادات من الرجال والميرة اللازمة لأهل صور ، الذين قيل لهم أيضا ان صاحب (١٠) دمشق ينتظر امدادات أخرى ، وانه من أجل هذا السبب قد تعمد تأجيل عبور النهر عن قصد ، وانه غير مهاجم الصليبيين حتى يفد الأسطول ليتيسر للقوة البحرية ـ اثناء محاربتها لنا ـ حرية الدخول الى المدينة من غير عائق ٠

فلما علم قادتنا بهذه الأخبار اجتمعوا للتشاور فما بينهم وتدبروا الأمر مليا من شتى وجوهه ، ثم قر قرارهم على تقسيم الجيش الى ثلاثة اقسام ، فتخرج قوات الفرسان بأجمعها والمشاة

المرتزقة تحتقيادة كل من كونت طرابلس ووليم بيورى كونستابل الملك ومدبر أمور المملكة ، فان كانت ثمة ضـــرورة تتطلب محاربة الدماشقة حاربهم هذا القسم بمعونة الرب •

كذلك تقرر أن يبحر الدوق وقواته فى الشـــوانى ، فاذا قدر لهم مصادفة أسطول المصريين فعليهم قتالهم ومحاولة القضـــاء عليهم بحد السيف لكونهم من المحاربين البسلاء •

أما القسم الثالث فكان مؤلفا من عامة الناس الذين توافدوا من شتى مدن المملكة للمشاركة فى الحصار الى جانب القسم الكبير من البنادقة ، كما نيطت بهذا القسم حراسة الآلات الحربية والأبراج المتحركة ومراقبة التزام المحاربين الموجودين فى آلات الحصار بأداء ما كلفوا به والتأكد من استمرار آلات الرمى فى ما هو موكول اليها عادة ، وعدم انقطاع القتال أمام الباب •

واستصوب الجميع هذه الخطة ورأوها ملائمة بحيث ينبغى عليهم تطبيقها فى الحال ، ومن ثم بادر كونت طرابلس ووليـــم بيورى كونستابل الملك الى الخروج من المعسكر بجميع من معهما من الفرسان لصد العدو ، وتقدموا مسافة ميلين دون أن يجرؤ الأعداء على البروز لهم ، ومع ذلك فقد اتضح أن « طغتكين » كان قـــد ضرب معسكره فى الأصل عند النهر وهو مجمع العزم على عبوره ، لكن لما وافته الأخبار بنبأ هذه الخطة الحكيمة التى اتبعها جيشنا • (فى تقسيمه نفسه ثلاثة أقسام) أدرك أن محاربته رجالا شجعانا أذكياء كهؤلاء الرجال انما هى مغامرة خطيرة تنطوى على البوار ، ومن ثم أمر بدق الطبول ليخرج رجاله ، ثم أصدر أمره اليهم بالعودة الى ديارهم •

أما الدوق فكان قد أعد أسطوله للقتال وأبحر الى «الاسكندرونة» التى تبعد عن صور ستة أميال تقريبا ، وتعرف هذه المدينة اليوم باسم « اسكند اليوم » ، فلما بلغها علم بعودة ملك دمشق الى بلده، ولما لم يكن هناك أى دليل على مجىء الأسطول المصرى الذى كان الدوق يترقبه فقد سحب الشوانى مرة ثانية الى الشاطىء ، وعاد الجميع الى المعسكر ليضاعفوا حصارهم شدة عن ذى قبل ٠

(١٠)

وحدث فى أحد الأيام أن اجتمع نفر من شباب صور وتعاهدوا عهدا وثيقا أن يتسللوا خلسة الى معسكرنا لحرق آلاتنا وأبراجنا المتحركة ، مؤملين من وراء ذلك الى اكتساب تقدير بنى جلدتهم وذهابهم بشهرة لا تبلى جدتها فى عيون الذراوى ، فغادروا المدينة سرا من أجل تنفيذ هذه الخطة ونجحوا فى اضرام النار فى آلة كانت شديدة النفع لنا ، فلما رأى الصليبيون ذلك الحريق هبوا فى لحظتهم الى انتضاء أسلحتهم وحاولوا اطفاء اللهب بالماء يصبونه عليه ، فكان ما قاموا به عملا جليلا قمينا بالتسجيل ، ثم قام من بينهم شاب تفرد بالخلق والشجاعة الفذة فارتقى سطح الآلة والنار ممسكة بها وراح يصب عليها الماء كلما جاءه القوم منه بشىء ، وأبصره اذ ذاك المدافعون المرابطون فى الأبراج وهم متنكبون أقواسهم وبأيديهم المجانيق ، ومن ثم وجهوا كل جهدهم ضده ، وعلى الرغم من أنه كان فى ناحية تجعله هدفا لسهامهم الا أنهم فشلوا فى محاولتهم هذه ، وانقضى اليوم لم يمس فيه بجرح ٠ أما عسكرنا فقد أمسكوا بالشباب الذين أضرموا النار وقتلوهم بالسيف عن آخرهم على مرأى من رفاقهم ٠

* * *

ولاحظ الصليبيون أن احدى الآلات الموجودة داخل المدينة

كانت ترمى بمهارة فائقة أبراجنا التى أعددناها للحصار ، وتقذفها بحجارة ضخمة أصابتها اصابات مباشرة ، ولما لم يكن فى المعسكر كله من رجل ماهر خبير فى تصويب القذائف القوية فقد أرسلوا الى انطاكية فى طلب رجل أرمنى اسمه « هافديك » Havedic قيل أنه من أبرع الناس فى هذا الفن ، فجاء فى الحال وأبدى مهارة فائقة فى توجيه الآلات الحربية ، وانطلق يرمى كل ما يراه بالكتل الصخرية الضخمة ويجعله هدفا له فيدمره فى الحال من غير مشقة ، ولم يكد هذا الرجل يصل الى الجيش حتى أجروا عليه راتبا مجزيا من الخزانة العامة ليعيل نفسه على الصورة التى يحب ويهوى ، فبذل قصارى جهده فى العمل الذى استدعى من أجله وأبدى براعة عظيمة حتى لقد بدت المعركة وكأنها تجرى بقوة متجددة ، والحق انها كانت فى نظر أهل صور حربا جديدة ، فقد تضاعفت مصائبهم بقدوم هذا الرجل ٠

(١١)

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى صور كان « بلك » الوالى التركى القوى الذى لايزال الملك فى أسره يحاصر المدينة « منبج »(١١) Hierapolis فأرسل الى واليها وهو قائم على حصارها ويتودد اليه بكلماته المعسولة المخادعة ويسترضيه ، فصدق الرجل ما سمعته أذناه منه لأنه كان ساذجا طيب القلب يؤمن بما يسمع وأسرع فى الحال الى « بلك » الذى ما كاد يراه بين يديه حتى أمر بضرب عنقه ، فضرب ٠

ولما سمع « جوسلين » الكبير كونت الرها بأن « بلك » محاصر لاحدى المدن الواقعة فى بعض الأقاليم المجاورة له استولى عليه الفزع من أنه اذا تم خلع واليها الحالى الذى لا يلقى منه ما يؤرق

باله فلربما حل مكانه آخر يكون أشد خطرا منه عليه ، ومن ثم انطلق فجمع قوة كبيرة من امارة أنطاكية ومن أملاكه الخاصة وأسرع لصد جيش الوالى (بلك) فلما عرف أين يقف العدو ورتب صفوفه للقتال أغار عليه فجأة فهزمه ففر بلك على وجهه فصادفه جوسلين فاخترط سيفه وطرحه أرضا وقط رأسه وهو لا يعرف أن الذى أمامه انما هو قائد الجيش العام • وكان هذا مصداق حلم « بلك » بأن الذى يقطع رأس آخر ويسمل عينيه ويفقده حياته يقال له انه أخرج عينيه(١٢) •

كان جوسلين رجلا حازما كبير الخبرة ، ومن ثم عهد برأس الأمير (بلك) فى الحال الى شاب كلفه بحملها الى الجيش الصليبى لتعم الفرحة بهذا الخبر السعيد ، كما أوصى الرسول بأن يعوج فى طريقه على انطاكية حتى يعلم أهل البلد والعسكر جميعا بهذا النصر القشيب ، فأثلج قدوم هذا الشاب أفئدة الجميع ، وزاد من سعادة المسيحيين فكانت سعادة طافحة •

❋ ❋ ❋

كان « بونس » كونت طرابلس حاضرا فى المعسكر بمن معه ، وكان شديد الطاعة للبطرك ولغيره من القواد حتى لقد كان معهم وكأنه أقل الخدم ، كما كان يظهر على الدوام حماسة من أجـــل الصالح العام ، فأراد أن يفصح عن تقديره للكونت « جوسلين » الذى كان قد بعث اليه الرسول ، كما أراد أن يدلل على أهمية الخبر الذى جاءه به فرفع الشاب الى مرتبة الفرسان وخلع عليه أسلحة هذه الطبقة ، فلما علم الذين معنا فى الحملة بهذا العمل رفعوا أكفهم الى السماء شكرا لله ، وتمجيدا لمن « فعله مرهب نحو بنى آدم(١٣) »

بهذا ازدادت حمية عسكرنا وتجدد ما رث من شجاعتهـــم وتضاعف بأسهم ، واستمروا فيما بأيديهم من العمل وهم أمضى

عزيمة ، وتابعوا غاراتهم ولم يتيحوا للمدينة التى يهاجمونها لحظة من الراحـة ·

أما الأهالى فكانوا من ناحية أخرى يكابدون أفظع الشدة من الجوع الذى عضهم بنابه حتى كاد أن يفنيهم ، ونفد ما كان عندهم من الطعام ، وتلاشى كل أمل لهم فى أى نجدة تأتيهم ، وتسرب الوهن منهم الى عملهم فتوانوا وتراخت هممهم ·

على أنه حدث فى يوم من الأيام أمر ذو بال ، ذلك أن رهطا من شباب المدينة وسباحيها المهرة غامروا بالخروج من مينائهـــا الداخلى وتسللوا الى الميناء الخارجى ونجحوا فى الوصول الى السفينة(١٤) التى ذكرنا من قبل أنها كانت ترسو على الدوام فى البحر لمجابهة أى طارىء لا يكون فى الحسبان ، وجاؤوا معهم بحبل شدوه شدا متينا الى السفينة ثم قطعوا رباطها وسحبوها خلفهم متجهين الى المدينة ، لكن أبصرهم العسس القائم بحراسة الأبراج فنبهوا أصحابهم ، فهب رجالنا على صيحات الانذار وأسرعوا نحو الشاطىء لكن قبل أن يقرروا ما يفعلون كان الشباب قد أدخلوا القارب الميناء ، وكان بالسفينة خمسة رجال مكلفون بالحفاظ عليها ، فلقى أحدهم مصرعه ، وأما الأربعة الآخرون فقد وثبوا فى الماء وسبحوا حتى بلغوا الشاطىء سالمين ·

(١٢)

كان العسقلانيون كالفراشة التى لا يقر لها قرار ، اذ كانوا يتربصون بالصليبيين الدوائر يصيبونهم فيها بالضرر ، ثم جاءهم الخبر بانشغال زهرة الجيش الصليبى بحصار صور حصارا يجعلها عاجزة عن الصمود أمام غارات العدو ، ومن ثم جمعوا قواتهم ثانية

وصعدوا الى اقليم « يهوذا » الجبلى وباغتوا موضعا يعرف باسم « بيلين »(١٥) على بعد خمسة أو ستة أميال شمالى القدس ، وهو يسمى اليوم بمدينة « المحمرة » ، فاستولوا عليه قسرا وحكموا السيف فى رقاب سكانه الذين هلكوا عن بكرة أبيهم ، ولم يستثن من القتل سوى الشيوخ والنساء والأطفال اذا كانوا قد لجئوا الى البرج فقيضت لهم الحياة ٠

وانتشر العسقلانيون فى كل النواحى المجاورة دون أن يجدوا عائقا يعوقهم أو أحدا يصدهم ، وما صادفهم أحد الا قتلوه أو أسروه فانطلقوا فى سيرهم الجنونى يرتكبون ماشاءوا ضد جميع من ينزلون تلك الضاحية ٠

(١٣)

كان أهل صور فى تلك الأثناء يلاقون الأمرين من وطأة المجاعة الفظيعة ، ويكابدون ما لاطاقة لأحد به ، مما حملهم على التفكير فى طرق أخرى ، فتجمعوا زمرا يتناقشون كيف يضعون نهاية لهذه المصائب المحيقة بهم ، فرأوا أن خير ما يفعلونه هو أن يسلموا المدينة للعدو ، وبذلك يبقون على حياتهم ويذهبون الى مدن بنى جلدتهم الأخرى ، وأدركوا أن هذا أجدى عليهم من الموت جوعا وأنظارهم شاخصة الى نسائهم وأطفالهم يسقطون صرعى أمام أعينهم وهم لا يملكون لهم نفعا ولا يستطيعون مساعدتهم ٠

بعد أن فرغت جماعاتهم هذه من مناقشة الموقف الذى هم فيه اجمعوا الرأى على عرض الأمر على شيوخهم وأولى الرأى فيهم وعلى الناس كافة ، فالتام شمل رجال المدينة كلهم فى اجتماع عام حيث بسطت امامهم الحقائق وراحوا يتدبرونها فى دقة ، فاتفقوا بلا

استثناء على وجوب وضع حد تلك الظروف الشديدة السوء ، وأن يجنحوا الى السلم مهما كلفهم هذا السلم من ثمن ، ومهما كبدتهم شروطه من مشقة ٠

وعلم ملك دمشق فى الوقت ذاته بالأهوال والمصـــائب التى يعانى منها أهل صور ، فحركته بلواهم المفجعة فاستدعى حلفاءه من شتى النواحى وزحف بهم صوب البحر حيث كان قد نزل من قبل ، وعسكر مرة أخرى قرب النهر المتاخم لصور ، فلما سمع الصليبيون بذلك خافوا – وحق لهم أن يخافوا – من الغـــرض الكامن وراء حضور صاحب دمشق ، فرتبوا صفوفهم ثانية للحرب توقعا منهـم لنشوب معركة أمام أبوابها ، دون أن يصرفهم ذلك عما هم آخذون به أنفسهم من الاستمرار فى تشديد الحصار بلا انقطاع ، واذ ذاك بعث ملك دمشق من لدنه رجالا أهل فطنة وعقل ليكونوا رسله الى زعماء جيشنا وهم البطرك ودوج البندقية وكونت طرابلس ووليم بيورى وغيرهم من علية القوم فى المملكة ، وكانوا يحملون مقترحات سلام صيغت فى لهجة استرضائية ، وطال الأخذ والرد بين الطرفين حتى انتهوا أخيرا الى عقد موادعة بينهما تنص على أن تستسلم المدينة الى الصليبيين ، على أن يسمح أن يغادرها من أهلها من شـــاء مغادرتها من تلقاء أنفسهم من غير اكراه لهـــم فى ذلك الخروج ولا تعنت ، وان يكونوا سالمين فى أنفسهم ونسائهم وأبنائهم وكل متاعهم(١٦) ٠ أما الذين يؤثرون البقاء فى صور فلهم ما أرادوا وتعود اليهم دورهم وممتلكاتهم ٠

لكن ما أن علم العامة وأهل الطبقة الدنيا من الصليبيين بطبيعة المفاوضات التى كان البارونات يجرونها حتى غضبوا أشد الغضب ، وكرهوا أن يكون تسليم المدينة على هذه الصورة وتلك الشروط ، لأنهم رأوا فى هذا الوضع حرمانا لهم من الغنائم والأسلاب التى

كان لابد لهم من الحصول عليها لو انهم دخلوا المدينة حربا واستولوا عليها قسرا ، ومن ثم فقد اصروا على التمسك بما تتيحه لهم جهودهم الحربية ، غير أن الغلبة فى النهاية كانت لحكمة الرجال المحنكين فتسلموا المدينة ، وأذنوا لأهل البلد بالخروج منه دون عائق حسبما نصت الموادعة المبرمة بينهم ٠

ثم رفع بيرق الملك على البرج الموجود فوق باب المدينة رمزا للنصر الذى أحرزه الصليبيون كما نصبت راية دوج البندقية على البرج المسمى بالبرج الأخضر بينما خفقت أعلام كونت طرابلس على برج « ترانااريا » ٠

❋ ❋ ❋

كان جزء كبير من أبرشية صور قد آل الى أيدى الصليبيين منذ زمن طويل قبل استيلائهم على المدينة بل وقبل حصارها ، ذلك أن كل الأقليم الجبلى القريب منها والممتد تقريبا الى لبنان كان قد انتقل بكل حصونه ومزارعه فى هدوء الى يد رجل شريف بالغ السطوة اتخذ الجبال له مقاما واصطفاها سكنا ، ذلك هو «همفرى» صاحب « تورون » ، وهو والد همفرى الصغير الذى كان قد صار الكونستابل الملكى ، اذ تم له الاستيلاء من غير مقاومة على جميع الأراضى التى تمتد من صور مسافة أربع أو خمس مراحل ، وكان له فى هذه الجبال ذاتها قلعة شديدة المناعة بفضل موقعها وما أقامه بها من الحصون التى كان يشن منها غاراته ضد أهالى صور على غير استعداد منهم لها ٠

كما كان فى هذه الجبال أيضا لصاحب طبرية «وليم دى بيورى» الكونستابل الملكى وسلفه جوسلين لكونت الرها الذى كان أميرا قبله على طبرية كثير من الممتلكات الفسيحة ، وكثيرا ما كانا يباغتان منها « صور » بغارات فجائية لا تتوقعها المدينة ٠

وكان الملك بلدوين (الأول) الطيب الذكر سلف بلدوين الثانى قد اختار بقعة ساحلية تقع على بعد ستة أميال أو سبعة الى الجنوب من صور ، وهذه البقعة قريبة من نبع ماء صاف عذب وشيد حصنا عرف بحصن « سكنداليوم »(١٧) ٠

ولقد ظلت صور زمنا طويلا وهى تقاســى وطأة الهجمات المستمرة عليها من تلك النواحى مما أدى الى تدهور مقاومتهــا الحربية امام هجمات الحجاج الصليبيين عليها ٠

ويقال ان الموقر « أودو ODO » مات فى أثناء هذه الحملة بعد ترسيمه مطرانا لكنيسة بصور حين كانت المدينة لاتزال فى قبضة الأعداء ، ويقال ان ترســيمه هذا تم على يد بطرك القدس وأنــه باركــه ٠

(١٤)

ولما اشتد الضجر بأهل البلد من طول الحصار خرجوا من المدينة ميممين فى عجل شطر معسكرنا وكانوا متلهفين على التخلص مما هم فيه من الشقاء ، ومشتاقين لمعرفة أى نوع من الرجال يكون هؤلاء الصليبيون الذين كان الناس يتخيلونهم قد قدوا من الحديد لصبرهم الطويل على تحمل المشاق والشدائد ، وكفاءتهم فى استعمال السلاح حتى استطاعوا فى شهور قلائل أن ينزلوا بصور الى الدرك الأسفل من الفقر ، وأن يرغموا هذه المدينة الرائعة ذات التحصينات العظيمة على الخضوع لأقسى الشروط ، ووجد الاهالى متعة كبرى فى التعرف على شكل آلاتهم ، وذهلوا لارتفاع أبراجهم المتحركــة وتنوع صنوف السلاح الذى معهم ، ولم تفت الأهــالى شــاردة ولا واردة الا وتقصوا خبرها غاية التقصى ، حتى تجمعت لديهم قصة دقيقة رائعة تروى للذرارى ٠

أما الصليبيون فانهم لما دخلوا المدينة تملكتهم الدهشة هم ايضا ، فقد راقتهم تحصيناتها ، ومتانة مبانيها ، وضخامة أسوارها، وارتفاع ابراجها ، وعظمة مينائها الذى يصعب اقتحامه ، وأثنوا الثناء العاطر على شدة مقاومة أهلها الذين استطاعوا أن يؤجلوا الاستسلام زمنا طويلا رغم مكابدتهم فظاظة المجاعة وندرة الطعام ، اذ لم يجد رجالنا بعد احتلالهم المدينة سوى خمسة مكاييل من القمح ٠

وعلى الرغم من أن عامة الصليبيين كرهـوا فى البداية أن تستسلم المدينة حسب الشروط التى ذكرناها آنفا الا انهم ما لبثوا أن رحبوا بما هو واقع وامتدحوا جهود الكبار الحكيمة وأدركوا انهم قد انجزوا بدأبهم المتواصل وجهدهم المستمر عملا لايمحى أبدا من الأذهان ٠

حينذاك قسمت المدينة الى ثلاثة أقسام اختص الملك باثنين منها ، أما القسم الثالث فآل الى البنادقة وفق الشروط التى سبق الاتفاق عليها ، فلما فرغوا من ذلك عادوا وعاد كل الى داره تغمره الفرحة وتهزه النشوة ٠

وكان الاستيلاء على هذه المدينة وعودتها الى المسيحية فى اليوم التاسع والعشرين من شهر يونيو عام ١١٢٤ من مولد سيدنا ، وهى السنة السادسة من حكم بلدوين ثانى ملوك بيت المقدس ٠

(١٥)

ظل بلدوين ملك بيت المقدس أسيرا فى يد العدو ما يقرب من ثمانية عشر شهرا أو ما يزيد على ذلك قليلا ، فلما كان اليوم التاسع والعشرون من أغسطس من نفس السنة أطلق سراحه(١٨) بعد أن قطع العهد على نفسه بدفع قدر معين من المال وتقديم الرهائن ، فلما

ثم ذلك عاد الى أنطاكية فى رعاية الرب ، ويقال ان المبلغ الذى حدد لافتدائه كان مائة ألف قطعة ميخائيلية ، وهى نوع من العملة كان معمولا بها على وجه الخصوص فى تلك الجهات فى المعاملات التجارية فى الأسواق ويتم بها البيع والشراء ٠

عاد الملك الى أنطاكية مشغول الخاطر تماما لا يدرى كيف يدبر المال اللازم لافتدائه وفك رهائنه ، لذلك استشار طائفة من رجاله الحكماء عن أحسن الطرق لانجاز هذا الأمر ، فأشاروا عليه بحصار مدينة حلب التى كانت تعانى اذ ذاك من قلة الطعام ، والتى كادت أن تكون خالية من سكانها ، وبينوا له أن ربما يكون من اليسير على أهلها ـ اذا اشتد الحصار عليهم ـ أن يردوا الرهائن عليه أو يدفعوا مبلغا من المال يكافىء المبلغ الذى قبل الملك أن يدفعه افتداء لذاته ، فاستجاب الملك لهذا الرأى ، واستدعى اليه جميع فرسانه من شتى أرجاء المملكة وأحدق بالمدينة احداقا قويا ، ثم شرع فى عمليات الحصار شروعا أعجز أهلها عن الخروج منها أو الدخول اليها لمن هو خارجها وبهذا لم يعد للحلبيين مفر من الاعتماد على القـــدر الضئيل من المعونة التى عندهم ٠

وترتب على ذلك أن بعثوا بالكتب التى ترادف بعضها فى اثر بعض الى أمــراء المشرق لاسيما من كان منهم وراء الفرات يشرحون لهم حرج موقفهم ، ويبينون لهم أن المدينة لابد أن تسقط عاجلا ان تاخرت النجدة عن الوصول اليها،فقلق الأمراء غاية القلق على مدينة حليفة لهم كهذه المدينة، ثم عبروا الفرات وزحفوا سراعا لانقاذ حلب من أخطار الحصار ، وكانت هذه النجدات تتألف من سبعة آلاف فارس الى جانب القوامين بحفظ المتاع والذخيرة وسواهم من الأتباع الذين يؤدون لساداتهم الكبار ما فى عنقهم من حق الطاعة الذى قطعوا اليمين على الوفاء لهم به ، فلما تبين للملك (بلدوين) ومن معه

أن العدو قادم بمثل هذه القوات الضخمة رأوا أن الحكمة تملى عليهم الارتداد حفاظا على سلامة أنفسهم والجيش معا وأن ذلك خير من التهور والاندفاع الى معركة مع العدو وهو فى قواته التى تفوق قواتهم عددا ، فارتد الصليبيون ـ قبل أن يبلغ جيش الأعداء المدينة ـ الى قلعة من قلاعهم الحصينة تسمى « أثارب » التى تابعت منها جموعهم الزحف الى أنطاكية ، فلما بلغوها انفصل بعضهم عن بعض وعاد الملك بمن معه الى بيت المقدس حيث استقبله جميع رجال الدين والشعب استقبالا حافلا ، وفرحت نفوس كبار أهل المدينة وعامتهم على السواء برجوعه بعد غيبة طالت حتى قاربت السنتين(١٩) .

ومات فى هذه السنة ذاتها البابا الطيب الذكر « كاليكستوس » Calixtus فخلفه « لامبرت » أسقف « أوستيا » وكان من أهالى بولونيا والذى عرف باسم « هونوريوس » بعد أن فاز على منافسه القسيس الكردينال « ثيوبولد » الملقب بسنت « أناستاسيا » ، ولما كان الانتخاب لم يجر وفق النظـــم الكنســـية المرعية فقد تنحى « هونوريوس » بعد اثنى عشر يوما وخلع بمحض ارادته وفى حضور اخوانه تاج الأسقفية ومسوحها .

وأمام هذه المهانة فزع الاخوان الأساقفة والقسس والكرادلة والشمامسة مما قد ينجم فى المستقبل من دخول بدع مستحدثة فى كنيسة رومة ، فعالجوا الأخطاء التى ارتكبت فى الانتخاب الأصلى ، وعادوا فاختاروا فى المرة الثانية للبابوية « هونوريوس » ثم خروا على قدميه مظهرين له الطاعة اللائقة بمكانته باعتباره بابا الجميع وراعيهم .

بينما كان الملك فى القدس جاءته الرسل تخبره أن البرسقى ـ وهو أحد الأمراء الشرقيين البارزين ـ قد عبر الفرات على رأس جيش قوى جمعه من أقطار المشـــرق ، وأنه أصبح الآن فى اقليم أنطاكية يعيث فسادا فيها حين لم يجد أحدا يعترضه ، وسار سيرة نكراء ، فأشعل النيران فى كل ما صادفه خارج المدن وفى الأماكن الحصينة ، كما اباح لجنده أن ينهبوا الاقليم كله ، ولقد قام زعماء أنطاكية بعدة محاولات لمقاومتـــه لكنها انتهت بالفشل ، فادركوا عجزهم عن عمل أى شىء ، ولما كان موكولا الى الملك رعاية شئون أنطاكية منذ أمد طويل فقد أعلموه بما هم فيه من هم مقيم ، والتمسوا منه أن يحضر لنجدتهم من غير ابطاء ، مع أنه كان يتحمل مسئولية مزدوجة هى رعاية المملكة والامارة معا ، الا أن خوفه على المملكة رغم ارتباطه القوى بها كان أقل من خوفه على امارة أنطاكية ، وذلك أنه كرس تقريبا جميع جهوده لتحسين أوضاعها على مـدى عشر سنوات كان مطالبا خلالها بمعالى الأمور ، وحدث فى اثناء انشغاله بأوضاعه هذه أن وقع فى الأسر فعانى مذلة قيد العـدو وسجنه قرابة عامين ، أما حال المملكة التى كانت ترعاهـا العناية الالهية فكان على العكس من ذلك اذ لم يصادفه فيها ما يعكر صفو باله ، لأن الرب كان يرعى من يصطفيهم فيجعلهم ملوكا لها ، كما كان الرب هاديا له على الدوام فيما فيه الخير والفلاح ، ولما كان الملك حريصا أشد الحرص على الوفاء بكل عهد قطعه على نفسه فقد جمع كل من تسنى له جمعه من القوات وأغذ الزحف بهـــم الى أنطاكية .

وحدث فى هذه الأثناء أن قام البرسقى ـ وكان أميرا شـــديد السطوة ومسعر حرب ـ وحالف « طغتكين » ملك دمشق ، وعلـم الاثنان باستدعاء أهل انطاكية للملك فقاما بحصار القلعة المعروفة بقلعة « كفرطاب » ، ودأبا على مراوحتها بكثير من الهجمات التى أرغمت المحصورين على الاستسلام نظير الابقاء على حياتهم ، واذ أراد البرسقى أن يحرز مثل هذا النصر فقد عبر سورية الصغرى وحاصر قلعة « زردنا » التى بذل أمامها جهودا مضنية استغرقت بضعة أيام ، أدرك بعدها عجزه عن أن ينال منها شيئا ، فوجه همه اذ ذاك لحصار بلدة « اعزاز » الشهيرة التى لم تكن شديدة المناعة ٠

وبينما كان البرسقى مشغولا بوضع مهماته الحربية والاستعداد للقتال والتهيؤ لتدمير المكان المحاصر اذا بالملك يصل وفى صحبته كونت طرابلس وكونت الرها ، وقد جاء ثلاثتهم بأمر الله بقوات كبيرة لمد يـد المساعدة لمن يعانون الحصار ، فلما قارب الصليبيون العدو صفوا أنفسهم ثلاثة اقسام هى الميمنة وتتألف من كبـــار رجـــال أنطاكية ، والميسرة بقيادة كونتى الرها وطرابلس ، وقد وقف كل منهما على رأس عسكره ، أما القســـــم الثالث وهو القلب فكان عليه الملك ٠ وقد بلغ عسكرهم جميعا ألفا ومائة من الفرسان والفين من المشاة ٠

ولما أخذ الصليبيون فى الاقتراب تأكد لدى البرسقى أنهم ـ كرجال محنكين ـ قد دبروا أمرهم أحسن تدبير وتهيأوا لمعركة عاجلة ، واذ لم يكن فى استطاعة البرسقى التراجع عن القتال والا لطخ شرفه بالعار فقد أخذ من جانبه فى تنظيم قواته التى يقال انها بلغت خمسة عشر ألف وجعلها فى عشرين كتيبة ، فلما أصبح المصافان على استعداد للمعركة شد كل منهما على الآخر شدة عنيفة بل أعنف مما جرت به العادة ، فعانقت السيوف السيوف فى ضـــراوة من

الجانبين ، وحمى وطيس القتال وكثر الهلكى من الطرفين ، ذلك لأنه فى صراع له مثل هذا الطابع يكون تدنيس كل ما هو مقدس وازدراء الشرائع عاملين على بث الكراهية المريرة والعداوة السوداء ٠ اما ان كانت الحرب بين أطراف تجمعهم شريعة واحدة وايمان واحد فانها تكون أقل عنفا مما تكون عليه بين طائفتين مختلفتين فى الآراء متباينتين فى الأعراف والتقاليد ،لأ نه اذا لم يوجد أى سبب آخر للكراهية فان عدم اعتناق المتحاربين نفس الايمان يكون سببا كافيا للنزاع الدائم والعداوة المستمرة ٠

وهكذا التحم الجيشان فى قتال وحشى ضار ، وكانت الغلبة أخيرا لفريقنا لأن رب الرحمة الذى يؤتى القلة الغلبة على الكثرة كان فى جانبنا ، فهو القائل(٢٠) عن شعبه المختار « يطرد واحد ألفا ، ويهزم اثنان ربوة لولا أن صخرهم باعهم ، والرب سلمهم » ٠

ودارت الدائرة على العدو ، وكان نصر الصليبيين عظيما لأنه نصر حبتهم به السماء ، ويقال ان خسارة خصمهم فى ساحة هذه المعركة بلغت ألفى رجل ، على حين لم يهلك منا سوى أربعة وعشرين رجلا فقط ٠

واستولى الفزع والاضطراب على البرسقى اذ رأى خاتمة الحملة جاءت على غير ما كان يتوقعه ، واذ ذاك عبر الفرات ونكر راجعا الى دياره بيد أن ارتداده لم يتسم بنفس الغرور الذى اتسم به مجيؤه ٠

ولقد دفع الملك بلدوين فديته وكانت مبلغا كبيرا من المال ، جمع بعضه من غنائم العدو ، وبعضه مما جادت به أيدى اصدقائه واتباعه المخلصين ، فلما تم دفع الفدية ردوا عليه ابنته ذات

السنوات الخمس من العمر والتى كانت رهينة عندهم ، وحينذاك استأذن أهل أنطاكية فى الرحيل عنهم مؤقتا فترة من الوقت ، وعاد سالما الى بيت المقدس ·

ولقد شيد فى هذه السنة ذاتها قلعة فى الجبال المشرفة على مدينة بيروت وسماها « مونت جلافيانوس » ·

(١٧)

انصرم أجل السـلام والاتفاق المؤقت اللذين كانا بين الملك وطغتكين بشأن المبلغ المعين من المال الذى كانا قد اتفقا عليه ، فنجم عن ذلك أن قام الملك بحشد كل فرسان المملكة وأغار بهم على نواحى دمشق واجتاحها فلم يلق كيدا ولم يعترضه معترض ، فخرب بعض الاماكن الموجودة فى المزارع المحيطة بها ، واسترق طائفة من أهلها ثم عاد الى بلده سالما معافى ، قد فاضت يداه بأثمن الغنائم التى سلبها من العدو ·

لم تكد تنقضى ثلاثة أيام على هذه العودة ـ وقبل أن يستجم العسكر ـ جاءت الأنباء بأن الجيش المصرى وصل فى أبهة عظيمة أمام مدينة عسقلان ، وكان من عادة المصريين أن يرسلوا اليهـا أربع مجموعات سنويا تحل الواحدة محل الأخرى حتى تظل قـوة العسقلانيين متجددة على الدوام ، ومن ثم يكونون قادرين دائمـا على متابعة القتال ضد الصليبيين وتكبيدهم الخسائر المتلاحقة ، وكان القادمون الجدد أشوق ما يكونون عادة ليجربوا قتال عسكرنا لأنهم كانوا يريدون أن يعجموا عودنا ويعرفوا بأسنا ، وليقدموا فى الوقت ذاته البرهان الجلى على شجاعتهم ، وكثيرا ما كان يحدث فى هذه المناوشات ان يقع البعض أسرى أو يقتلون بحد السيف ، ذلك لأن

المصريين كانوا غير عارفين بالبلد ، ولم تكن لهم خبرة كافية بفن الحرب ، أما الأهالى الذين كانوا يبذونهم معرفة بالبلاد فقد تجنبوا بحسن تدبيرهم الاصطدام برجالنا رغم أنهم كثيرا ما كانوا يتعقبونهم بلا اكتراث اذا ما أخذ الصليبيون فى الفرار .

* * *

حين ترامى الخبر الى سمع الملك تابع زحفه حتى اذا بلغ الى هنا تخير موضعا ملائما لغرضه تمام الملاءمة ، وكمن فى رهط من أقوى أتباعه وأبسلهم ، ثم قدم طائفة من الفرســـان المدججين بالأسلحة الخفيفة آمرا اياهم بالتجول هنا وهناك فى تلك الناحية تحديا لهم حتى يحملوهم على مطاردتهم ، فلما طالع الأهالى القوات الصليبية تذرع أطراف المدينة فى طمأنينة لم يستطيعوا كظم غيظهم وغضبوا من هذا التطاول الجرىء ، فاندفعوا الى ســـلاحهم غير مكترثين بما تكون عليه العاقبة ، وانطلقوا من جديد فى جماعـــات متفرقة فولاهم رجالنا ظهورهم عن قصد ، وتظاهروا بالفرار منهم ، فجازت الحيلة على العسقلانيين فمضوا فى اثرهم دون أن يأخذوا حذرهم فأوصلتهم المطاردة الى الكمين الذى كان الملك وفرســـانه المختارون يختفون فيه ، فباغتهم بلدوين وكر عليهم بمساعدة رفاقه الذين صدقوا فى معاونته كل الصدق ، وحال بين الكفار وبين التقدم قاطعا عليهم خط الرجعة الى المدينة ، فما لبث القتال أن نشب فى النواحى القريبة وهاجم الصليبيون بسيوفهم المارقين هجوما ضاريا اهلكوا فيه منهم أربعين رجلا قبـــل أن يتمكنوا من العـــودة الى المدينة ، أما بقيتهم فقد نجوا وهم لا يكادون يصدقون أنهم أصبحوا وراء أسوارها ، فتعالى نحيب القوم داخل البلد بصورة لم يسبق لها مثيل ، فكان ذلك دليلا على أن القتلى انما كانوا من أشجع الناس وأشرافهم . وحينذاك أمر الملك أن تدق الطبول ، وينفخ فى الأبواق

لأستدعاء رجاله ، ثم نصب معسكره قرب المدينة وقد عرته الفرحة ، وأمضى الليلة قرير اللعين ناعم البال بما أحرزه من النصر ، ثم عاد الى بيت المقدس سالما فى روحه ، معافى فى بدنه ٠

(١٨)

فلما كان شهر يناير من العام التالى (١١٢٦) من مولد سيدنا وهو السنة الثامنة من حكم بلدوين أمر الملك وكبراؤه أن يؤذن فى الناس قاطبة بعقد اجتماع يحضره الناس صغيرهم وكبيرهم على السواء ، وبعث المنادين ينادون بهذه الأوامر فى مدن المملكة ، فما انقضت أيام معدودات الا وقد تم حشد قوة المملكة الحربية بأكملها ، وتركيزها قرب مدينة « طبرية » تأهبا لغزو أرض دمشق ٠

ما كاد العسكر يجتمعون فى المكان المحدد لهم حتى صدرت الأوامر الحربية بترتيب الأمتعة وتعبئة الصفوف للزحف ، فزحفوا واجتازوا بلاد « ديكابوليس » وأصبحوا داخل أرض العدو ، ثم عبروا من هنا واديا ضيقا يسمونه « كهف رؤاب » أوصلهم الى سهل « ميدان » ، وكان سهلا فسيحا مترامى الأطراف ، منبسطا ، ليس فيه ما يعوق السير،كما يوجد به فيما بين طبرية و«سكيتوبوليس» التى كانت تعرف سابقا باسم « بيسان » ، أقول كان يوجد به نهر « دن » وهو فى طريقه للالتحام بالأردن ٠

ويظن بعضهم ــ معتمدين فى هذا الظن على الاسم نفسه ــ أنه هو نفس النهر الذى اشتق منه المقطع الأخير من لكلمة «الأردن» ، ذلك أن المياه التى تصب فى بحر الجليل ثم تخرج الى مصب هذا النهر ذاته تعرف باسم « أر » ، ولكن حين يتحد نبعا « أر » و «دن » بعضهما ببعض فان المجرى المائى الذى يتألف منهما اذ ذاك يعرف بالأردن ٠

ومع ذلك فانه من ناحية أخرى نجد أن « بيدى » وغيره من علمائنا الذين لا يرقى الشك الى ما يقولونه يذكرون أن منبع هذين المجريين المائيين قريب من « قيصرية فيليبى » الواقعة عند سفح جبل لبنان ، وسمى أحد هذين النهرين باسم « جور » والآخر باسم « دان » ، وتتكون من اتحاد هذن الاثنين مياه الأردن حيث يصبحان مجرى واحدا يصب فى بحيرة « جينيسارت » التى هى بحر الجليل ، ومن هنا يصبحان مرة أخرى نهرا واحدا ، حتى اذا قطع مسافة تقرب من مائة ميل خلال الوادى الشهير صب ماءه فى بحيرة الأسفلت التى تعرف أيضا باسم البحر المالح (أو البحر الميت) ٠

أدى اجتياز جيشنا هذا السهل الى دخوله قرية يسمونها « سالومى » وكان جميع سكانها من النصارى كما هو شأنهم اليوم ، فكف عسكرنا أذاهم عنهم ، ثم زادوا فأحسنوا اليهم وعاملوهم معاملة الاخوة ، وأخذ رجالنا فى تنظيم كتائبهم ، ووضعوا كل فيلق فى المكان المحدد له ، حتى اذا انتهوا من ذلك أسرعوا من هناك الى مكان اسمه « مرج الصفر » الذى تقول الأخبار عنه ان شاول مضطهد كنيسة الرب ذلك الذئب الشرس سمع صوتا يقول(٢٠) له : « شاول ، شاول ، لماذا تضطهدنى » الى آخر الخبر ٠

ويبدو أن العناية الالهية هى التى جعلت جيش أهل الايمان فى الواقع يبلغ هذا الموضع يوم الاحتفال بذكرى هذا الحدث ، يوم تحول شاول من رجل يضطهد الكنيسة الى مهتد وتابع أمين للسيد ٠

ظل الجيش مقيما فى « مرج الصفر » مدة يومين كان يرى فيهما معسكر الخصم فى مواجهته وعلى مقربة منه ، حتى اذا كان اليوم الثالث التقى الجانبان فى ساحة القتال وقد استعد كل من الجانبين كل الاستعداد ، ورتب كل واحد منهما صفوفه أحسن

ترتيب ، وحمل كل منهما على الآخر حملة صدق ، ولما كانت قوى الطرفين متعادلة فقد ظلت نتيجة المعركة فترة طويلة غير معروفة(٢١) وضاعف الملك كدأبه من ضغطه على العدو وراح ينادى رجاله الأشاوس باسمه ويشجعهم على القتال بالقول ويضرب لهم المثل بنفسه ويعدهم النصر الأكيد ، فكانوا أبطالا فى قتالهم اقتداء منهم بقائدهم ، فكروا على خصمهم بقلوب تملؤها حمية الايمان ، وحاولوا أن يكفروا فى الوقت ذاته عن أخطائهم ، وينتقموا لما ارتكب فى حق السيد من ظلم ٠

* * *

أما طغتكين فمضى من ناحيته هو الآخر يثير رجاله بمثل هذه الروح من الحماسة بكلماته اليهم ويرفع من معنوياتهم القتالية بما وعدهم به ، وذكرهم أنهم يحاربون حربا عادلة من أجل حريمهم وأبنائهم ، وأنهم يجاهدون فى سبيل حريتهم وهى أنبل ما فى الحياة ، ويدافعون عن أرض أجدادهم ويدفعون عنها اللصوص ، فأثرت كلماته هذه فى نفوسهم ، فاندفعوا وكلهم حماسة لا تقل عن حماسة رجالنا ، وعزم يكافىء عزم قومنا ٠

ونهج المشاة الصليبيون نهج الملك والفرسان ، فهاجم المشاة صفوف الأعداء هجوما غاضبا وشددوا الضغط عليهم ، ولم يدعوا كافرا من الكفار قد أثخنته جراحه أو احدا منهم شاء حظه العاثر أن يصادفوه فى طريقهم الا وأجهزوا عليه بسيوفهم ، فسدوا بذلك على عسكر العدو بأجمعهم كل سبل النجاة ٠

وعمد مشاتنا الى من وهى من قومهم فسقط وراحوا يردونه الى ساحة القتال ، فمن كان مريضا بعثوا به الى قافلة الأمتعة للعناية به ٠

واستنبط البعض منهم خطة راوا أنها تحمل الدمـــار المبرم لرجال العدو يومذاك ، قوامها أنهم ركزوا اهتمامهم على جيـــاد أعدائهم يرمونها بسهامهم فتجرحها سهامهم فيقع من عليها ويصبحون فريسة سهلة للصليبيين الذين كانوا يتعقبونهم · كما أن الملك هاجم بنفسه صفوف العدو المتراصة هجمة الليث الهصور ، واقتدى به فرسانه الأشاوس العظام فسار الدمار فى ركابهم حيث ساروا ، ونجم عن ذلك مذبحة ارتاع لها الجميع حتى من كتبت لهم الغلبة · ولا يوجد فى تواريخنا حتى وقتنا الحاضر ذكر لمعركة كهذه المعركة فى شراستها وعنفها ، وعلى الرغم من امتدادها من الساعة الثالثة حتى العاشرة الا أنه لم يكن من الممكن حتى الحادية عشرة أن يقرر أحد ما لمن كان النصر يومذاك حتى شاءت الرحمة الالهية أن تتدخل شفاعة معلم المهتدين الأعظم فيلوذ الكفار بأذيال الهرب فرارا ممـا نزل بهم من مذبحة هيهات أن تمحى من الأذهان ، اذ يقال انه هلك من رجالهم فى هذا اليوم أكثر من ألفى رجل ، وأحصينا من فقد منا فكانوا أربعة وعشرين فارسا وثمانين من المشاة ·

هكذا جاء النصر من السماء للصليبيين فاعتبر الملك من عداد الفاتحين ، فشكر الرب على ما آتاه من نصره ، وقاد جيشه مغتبطا فلما كان فى طريق العودة الى وطنه صادف برجا قد لاذ به ست وتسعون من التركمان يرجون السلامة لأنفسهم فاستبسل فى الهجوم عليهم وعرضهم جميعا على السيف فأفناهم على بكرة أبيهم ، ثم استولى بعد زحف قليل على برج حصين آخر فمن بالحياة على الأتراك العشرين الذين كانوا به فقد استسلموا من غير كيد ولا مقاومة ، وكانوا قد جاءوا لحماية البرج الذى أخذ الصليبيون فى نقبه ونسفه فما لبث أن هوى كله الى الأرض مصحوبا بدوى فظيع · وبعد أن أحرز العسكر عدة انتصارات مجيدة تستحق الذكر الخالد عادوا الى بلدهم وهم أسعد ما يكونون ·

أجمع « بونس » كونت طرابلس عزمه فى ذلك الوقت على محاصرة مدينة « رفنية » القريبة من بلاده ، لما قدره من سهولة هذا الحصار ، واذ كان يتطلع الى أن تكلل خطواته هذه بالنجاح التام فقد بعث بكثير من الكتب والرسائل الى ملك بيت المقدس يرجوه فيها القدوم لمعاونته ، ولما كان الملل لا يعرف طريقه الى الملك الذى كان على استعداد تام للمشاركة الصادقة فى كل ما يعود بالنفع على المسيحيين فقد بادر بالشخوص الى هناك فى لحظته على رأس طائفة من الحرس الأشراف ، فلما صار هناك وجد الكونت « بونس » ورجاله على أتم أهبة لخوض المعركة ، وقد استصحبوا معهم من طرابلس الآلات الحربية وكل ما يستلزمه حصار أى مدينة من المدن لاسيما الطعام الذى جاؤوا معهم منه بما يكفيهم أياما طوالا ، ورأى الملك أن » بونس » قدم المشاة أمامه واذ ذاك قاد الملك وبونس عسكريهما الى الناحية التى اقترحاها لتكون مجالا لنشاطهما ، فلما بلغا هذه الناحية فرضا عليها حصارا حال بين الأهالى وبين الدخول الى ذلك الموضع أو الخروج منه ٠

كانت « رفنية » ضعيفة المنعة بسبب موقعها الطبيعى وقلة عدد سكانها ، كما زاد من هذا الضعف توالى الغارات عليها مما انهكها انهاكا أفقدها القدرة على الصمود طويلا ، اذ كان الكونت قد شيد حصنا فى الجبال القريبة من أراضيه ، وجهزه بحامية دأب رجالها على شن الغارات العنيفة على المدينة مما كبدها الأهوال الجسام حتى ضاقت بها الأحوال أشد الضيق ، مما وجد الأهالى معه أنفسهم مضطرين للاستسلام بعد ثمانية عشر يوما من الحصار الشرس ، واذ ذاك أذن لهم بالخروج آمنين سالمين فى أنفسهم ونسائهم وأولادهم ٠

وكانت « رفنية » معدودة من المدن التابعة لولاية « أفامية »

لوقوعها فى نطاقها ، وكان الاستيلاء عليها فى آخر يوم من شهر مارس ، وحينذاك عاد الملك الى القدس حيث احتفل احتفالا دينيا رائعا بعيد الفصح ٠

وواكب هذه الفترة ، بالتقريب موت هنــــرى (الخـــامس) امبراطور الرومان ، فخلفه « لوثير » دوق سكسونيا ، وكان رجلا سنى المناقب قد اربى على الأكفاء فما لبث أن مضى الى « أبوليا » على رأس جيش كبير استولى به قسرا على الاقليم كله حتى «فاروم» Farum وأرغم كونت « روجر » الذى كان قد انتزع ابوليا على الفرار الى صقلية ، وأحل (لوثير) مكانه فى غيبته رجلا عاقلا فطنا اسمه « رينو » ٠

على أن روجر ما لبث أن عاد الى « أبوليا » بعد رحيل « لوثير » عنها فحارب « رينو » فقتله واسترد الدوقية ، ثم توج بعدئذ ملكا على صقلية وجميع ولاية « أبوليا » ٠

(٢٠)

بينما كان الملك لايزال مقيما فى طرابلس اذا برسول من أنطاكية يأتيه على جناح السرعة يخبره ـ شفاها وكتابة ـ ان البرسقى الذى يضطهد ملتنا أشد الاضطهاد قد دخل البقاع على رأس قوة كبيرة من الفرسان ، ولما لم يجد معترضا يعترضه راح يغير على المــــدن ويحرق الأماكن المطلة على التخوم ، وكان يفعل ذلك حسبما تسول له نفسه ويرضاه هواه فيأســر الرجال ويســـبى النساء ويسترق الأطفال ٠

وكان الملك لا يأمن جانب المصريين ولا يخالجه أدنى شك فى أنهم واصلون عن قريب بأسطول ضخم أعدوه من قبل ، فلما تيقن من ذلك النبأ فعل ما يفعله النطاسي الحاذق بعد أدويته حين يرى

الداء قد استشرى ، ومن ثم فان الملك نحى جانبا كل ما كان بين يديه من المهام وأسرع الى هناك يواجه هذه الضرورة الملحة ، لكن ما كاد البرسقى يعلم بهذه الحركة من جانب الملك حتى رفع الحصار الذى كان قد أحكمه حول قلعة « الأثارب » العظيمة وانكفأ راجعا الى أقصى ناحية فى أرض العدو ، لكنه كان قد تمكن قبل وصول الملك من الاستيلاء على احدى البلدان الصغيرة واسـترق بعض نسائها وصغارها ، غير أن رجال هذه القرية المقهورة نجحوا فى الخلاص من يد العدو وان كلفهم ذلك مشقة ركبوا من أجلها الأهوال الخطيرة ، فقد كانوا قوما آثروا السـلامة بدلا من وقوعهـم هم ونساؤهم وأطفالهم فى رق الأسر ٠

غير أنه بعد قليل أصابت هذا البرسقى التعيس ابن الجحيم(٢٢) طعنة أوردته الحتوف على يد خدمه وأفراد من أهل بيته ، وبذلك جنى على نفسه بفعاله ما لابد أن يصيبه به مكره السيىء ، وحصد ثمار اثمه ٠

هكذا كان الوضع فى أرض أنطاكية ٠

* * *

على أنه جرت شائعة فى ذلك الوقت تقول ان أربعة وعشرين من شوانى الأسطول المصرى مبحرة على طول الشـاطىء تتلمس الفرصة للاضرار ببعض مدننا ، وأنها وصلت الى بيروت وأن رجالها مستعدون لأية هجمة عليهم ، وأنهم على أهبة الخروج من مكامنهم لمباغتة وامساك أية جماعة صليبية تشاء الصدفة أن تكون سائرة سيرا عشوائيا أو تكون مقتربة من سورية ٠

غير أن ما كان مع المصريين من الماء نضب مما اضطرهم للنزول على مقربة من أحد الأنهار التماسا لما يبل ظمأهم ، فرآهم أهل بيروت

فانطلقوا نحوهم وساعدهم رجال من المدن فأجلوا المصريين قسرا عن هذا الجدول فحرموهم نهائيا من فرصة استعمال الماء ، كذلك أرغم أهل البلد العدو بسلاحهم على الارتداد الى سفنه فنكص على عقبيه رغم أنفه بعد أن خسر مائة وثلاثين رجلا لاقوا منيتهم أو اخترطتهم السيوف فأهلكتهم ٠

(٢١)

ولما جاء الخريف التالى تحالف بوهيموند الصغير (أمير تارانتو) وابن بوهيموند الكبير مع عمه وليم دوق أبوليا ، وعقد معه اتفاقية بشأن ولاية الحكم القائمة ، وكان من شروط هذا الاتفاق أن من يموت منهما قبل الثانى يخلفه الآخر دون معارضة ٠

ثم استعد بوهيموند الصغير للسفر فجهزت عشرة أغربة واثنتا عشرة قرقورة تصلح لنقل الأمتعة والجهاز الذى معه وكذلك السلاح والمئونة المعدة لهذا الغرض ، وسافر بوهيموند بكل هذا الى سورية وهو مطمئن كل الاطمئنان الى الملك واثق منه كل الثقة اذ كان قد قطع على نفسه العهد ألا يرده خائبا حين يحضر للمطالبة بحقه فى ميراث أبيه ٠

ولما عرف الملك أن أسطول (بوهيموند الثانى) قد بلغ نهر العاصى سالما نهض لاستقباله فى جمع ضخم من وجوه رجال البلد ، وما كاد بوهيموند يدخل مدينة أنطاكية حتى قام بلدوين بردها اليه عن طيب خاطر ، وكان بلدوين يصرف أمورها على أكمل وجه ويرعاها الرعاية الصادقة الكريمة مدة السنوات الثمانى المنصرمة (أثناء غياب بوهيموند) ٠

حين تم رد الامارة الى صاحبها قام جميع كبار رجالاتها ووجوه

اهلها فى حضرة الملك وبتوجيه منه فقطعوا يمين الولاء والتبعية لبوهيموند فى قصره الخاص ، ثم استجاب الملك (بلدوين) لمساعى اصدقاء الطرفين فزوج ابنته الثانية « أليس » من بوهيموند ، وتمت هذه المصاهرة على الشـروط التى ارتضـاها كل من الملك والأمير لتزداد أواصر الصداقة والعلاقات الودية بينهما رسوخا وشدة ٠

كان بوهيموند يناهز اذ ذاك الثامنة عشرة من عمره ، وكان طويل القامة ، مديدها ، بهى الطلعة أغرها ، أصفر شعر الرأس ، جميل تقاطيع الوجه ، يوحى كل ما فيه لرائيه — حتى ولو لم يكن يعرفه — أنه حقا أمير ٠ وكان حلو الحديث مقبوله ، وسرعان ما كان يجتذب انتباه سامعيه وميلهم اليه ، كما كان مبسوط الكف سخى اليد كأبيه ٠

أما فيما يتعلق بنسبه فهو عريق النسب ، اذ أبوه بوهيموند الكبير هو ابن روبرت جيسكارد الجليل الشأن ، والذى ظل اسمه حيا الى الأبد ٠ وأما أمه فهى « كونستانس » ابنة فيليب ملك الفرنجة المعظم ، التى اذا عدت النساء الفاضلات كانت فى طليعتهن بما هى عليه من الخلق الكريم والطبع النبيل ٠

وقد أقيمت حفلات العرس وفق التقاليد السائدة ، وزفت الأميرة فى احتفال مهيب الى الأمير ، ووثق زواجها توثيقا شرعيا ، فلما فرغ القوم من هذا كله عاد الملك الى بيت المقدس سالما معافى ، وقد أحس أنه تخلص من الجانب الأكبر من العبء الذى كان ملقى على عاتقه ٠

❊ ❊ ❊

وقام بوهيموند فى السنة الثانية بحصار قلعة « كفرطاب » التى كان العدو قد استولى عليها قبل ذلك ببضع سنوات ، فاستدعى

بوهيموند العسكر من شتى أرجاء الامارة ، وصـــدرت الأوامــر للمهندسين ببناء الآلات الحربية اللازمة للاستيلاء على أحد المعاقل ، فما لبث هذا المعقل أن سقط بعد فترة وجيزة من بدء عمليات الحصار، فلم يبق بوهيموند على أحد ممن وجدهم فيه بل فتك بهم جميعا ، ولم يلتفت الى الأموال يبذلها من حاولوا الابقاء على أرواحهم ٠

هكذا كانت أولى ثمار قوة بوهيموند الشابة ، التى قدمها هذا الأمير النبيل كبرهان على ما طبع عليه من الكفاءة ٠

(٢٢)

على أنه حدث قبل ذلك بزمن(٢٤) طويل ان شبت خصـومة عنيفة بين هذا الأمير وبين جوسلين الكبير كونت الرها ، ولانعرف ــ نحن على الأقل ــ أسباب هذه الخصومة ، ولكنها كانت بلا جدال خصومة بغيضة فى عين الرب ، ذلك لأن جوسلين كان قد استدعى لساعدته عصابات من التركمان أعداء الملة ، فكان هذا العمل من جانبه خروجا على الأعراف والشرائع الكريمة التى تجرى فى أيامنا، وكان هذا الاستدعاء من جانب « جوسلين » سابقة دميمة تلحـــق العار بذراريه بعده ، فلما جاء الترك لساعدته راح يعيث واياهم فسادا فى أرض أنطاكية مضرما النار فيها ، ومحكما الســـيف فى رقاب أهلها الذين أرغمهم ــ وهم عباد المسـيح المخلصـــون ــ أن يطأطئوا هاماتهم ويسلموا رقابهم لنير عبودية لم يقترفوا جرمــا يعاقبون عليه بها ٠ وكان هذا سلوكا شاذا كل الشذوذ جديرا بالزجر الالهى ، فقد وقع كما قيل أثناء أن كان بوهيموند يجاهد فى سبيل السيد أعداء السيد ، ولم يعلم بوهيموند بما كان ، وعلى ذلك فان جوسلين المذكور أهل للعنة يصبها عليه جميع من يصلهم هذا الخبر، لعنة لحمتها الكراهية ، وسداها السخط عليه ٠

ولما وصلت أخبار هذه البلوى الى سمع الملك جزع لها أشد الجزع الذى لم يتمالك معه نفسه ، وكان أخوف ما يخافه ويشغل باله على وجه الخصوص هو ان يتيح هذا الشقاق للعدو الفرصة لمضايقة الصليبيين لأنه كما قال(٢٥) السيد « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب » ٠

كما كان يشغله الى جانب ذلك أيضا ارتباط طرفى النزاع بــه بوشيجة القربى ، فأحدهما وهو جوسلين ابن اخته ، والآخر وهو بوهيموند : ختنه الذى زوجه منذ قريب بابنته ٠ لذلك عجــل بالذهاب الى أنطاكية لاصــــلاح ذات البين بين الاثنين ، والتوفيق بينهما ، وحالفه النجاح فوثق أواصر العلاقات الودية بين هذيــن الرجلين الجليلين توثيقا عظيما ، ويرجع بعض الفضــــل فى ذلك التوفيق الى المعاونة الصادقة الكريمة التى بذلها « برنارد » بطرك انطاكية ٠

وكان من حسن طالع الملك أن مرض جوسلين فى تلك الآونة مرضا خطيرا أسقمه أشد السقم ، وحتى صار شبح الموت ماثلا أمام عينيه فندم على ما كان منه من الأفعال الآثمة فعاهد الله وهو فى مرضه لئن أسبغ عليه الرب العافية ومد فى حياته ليسترضين الأمير بوهيموند ويصالحه ويرأب الصدع ويعلن ولاءه له ، وتم الأمر كله على هذه الصورة ، اذ ما كاد جوسلين ينقه من وعكته ويلبس ثوب الصحة حتى تم الصلح بينه وبين بوهيموند فى حضرة الملك والبطرك، وصفت النوايا تمام الصفاء ، وأقسم جوســلين لبوهيموند يمين الطاعة التى ظل مراعيا لها بقية أيامه ملتزما بها غاية الالتزام ٠

فلما انتهى الأمر بينهما الى هذه النهاية السعيدة عاد الملك الى بيت المقدس ٠

ويقال أنه جرى خلال هذه الأحداث أن أبحر « روجر » كونت صقلية الى افريقية بأسطول مؤلف من أربعين غرابا كان قد أمـــر بتجهيزها أحسن جهاز ، وبذل الغاية فى العناية بها ، ولكن أخباره كانت قد سبقته الى أهل تلك الولاية فأخذوا للأمر أهبته ، ودبروا أمورهم أحسن تدبير واستعدوا للكونت أكبر استعداد حتى لايجد ثغرة ينفذ منها اليهم بما يضرهم ويلحق بهم الأذى ، ثـم نشطوا نشاط روجر ذاته فسلحوا جميع سفنهم ومضوا يطاردونه مطاردة عنيفة ، مما حملت المسيحيين على الارتداد - رغم أنوفهم - على جناح السرعة ، وهكذا عاد هؤلاء النصارى من غير أن يتمكنوا من تحقيق ما كانوا يرومونه ، لأن القوم لم يكفوا عن مطـــاردتهم حتى بلغوا سواحل صقلية ، فلما وصلوا اليها فى أغربتهم الثمانين باغتوا « سيراكيوز » بالاغارة عليها ، وكانت هذه المدينة القديمة العظيمة قد نعمت دهرا طويلا بالهدوء الذى لم يعكر صفوه معكر فأوهنها الاسترخاء ، ولم تكن تتوقع أبدا فى ظل هذا الأمان المزعوم خطرا كهذا الخطر فلم تجد بدا من الاستسلام فى الحال ، وقتل الأفارقة عددا كبيرا من الأهالى لم يراعوا فيهم شيخا لكبر سنه ، ولا أنثى لضعف جنسها ، أما القلة التى نجت من الهلاك فقد فرض عليهـا الأسر الذى يهون أمامه كل صنوف الموت ، غير أن أسقف البلد ورهطا ضئيلا من رجال الدين بها تمكنوا من النجاة بأرواحهم لكن بعد صعوبة كبيرة ، فقد فروا الى الريف خارج المدينة (٢٦) ٠

(٢٣)

ولما كان الربيع التالى - أعنى بعد أربع سـنوات من عودة «صور» الى حظيرة المسيحية - عقد اجتماع بالمدينة حضره الملك والبطرك وكبار رجال المملكة لاختيار واحد يكون رئيسا لأساقفة كنيستها ٠ فتم الأمر أخيرا بترسيم وليم - قيم كنيسة القبر المقدس -

وهو أنجليزى المولد ، عاش حياة أتسمت بالمثالية البالغة ، وتمتع بالخلق الرضى السوى · على أننا حين نصـــل الى هذه النطقـة لا نستطيع أن نكبح جماح الامنا لأن المثل يقول : « لا ترى العين الا ما تحب ، وما من ألم الا له سبب » ، وقد أثقلت هذه المسألة نفوسنا الى درجة أن الألم الذى خلفته وراءها لم يترك لقلوبنا لحظة من الراحة ، اذ على الرغم من اعجابنا بحكمة تلك الأوقات الا أن الحيرة تتملكنا فنرى فى هذه الحكمة تهورا ، وعلة ذلك أن الذين أقاموا لهم أسقفا من قبل عودة هذه المدينة الى الحرية المسيحية أهملوا تنصيب رأس لهذه الكنيسة وظلوا سادرين فى اهمالهم هذا حتى انقضت أربع سنوات تدهورت خلالها أوضاع الكنائس ، وتضاءل عدد أعضاء الكنيسة الكاتدرائية بدلا مما كان مفروضا من وجوب الاهتمام بها اهتماما يفوق ما يكون لأى كنيسة أخرى ، اذ كانت هى التى تشرف على غيرها من الكنائس وتدبر أمورها ، وهكذا كان حظها أســـوأ الحظوظ جميعا حتى لكأنها شخص تطارده اللعنة ، لأنه مكتـــوب « ملعون من يفسد قدره بيده » ، ومع ذلك فان سلفنا وكذلك نحن الذين خلفناه فى هذه الكنيسة ذاتها قد تسنى لنا الهرب من أن تحل علينا هذه اللعنة ، وحق لهم أن يهربوا لأننا لم نكن الســـبب فى انهيار حظنا ، بل العكس هو الصحيح لأننا أرغمنا على الدخول فى ظروف أخذت تسير من سيىء الى أسوأ بسبب غيرنا ، فليعف السيد عن أولئك الذين أساءوا التصرف فى كنيسته وألا يسوقهم الى جهنم ·

***

بعد أن تسلم سلفنا الطيب النكر « وليم » نعمة الترسيم من يد بطرك القدس مضى الى رومة ليتسلم براءة الكهنوتية ، وقد فعل هذا رغم المعارضة الشديدة من جانب الشخص الذى رسمه ، ورغم محاولات هذا الأخير ·

وقد استقبل البابا « هونوريوس » الثانى فى رومة « وليم » استقبالا طيبا ، واستجاب لرجائه ، ورده الى محله مكرما مبجلا ، ومعه كتاب رسولى كان محتواه كالتالى :

«من هونوريس الأسقف،خادم خدام الرب الى اخوته الأساقفة الموقرين المساعدين ورجال الكهنوت والى أهل صور ، السلام لكم والبركات الرسولية :

«لقد استقبلنا بالود اللائق أخانا العزيز جدا « وليم » رئيس أساقفتكم عند حضوره الينا ، وهو الذى اختير حسب القواعد الكنسية المرعية ، ورسمه بيده أخونا المبجل جورموند بطرك القدس ٠

« وقد شرفناه بالعصى الرعوية ، أعنى منحناه السلطات الرياسية الكاملة ، وانا لمؤمنون بأن ستجنى كنيستكم الأم فى صور منه ـ برحمة الرب ـ كثيرا من النتائج الطيبة ، ولذلك رأينا الخير فى أن نرده اليكم مزودا بعطف الكنيسة الرسولية حاملا لكتابنا هذا ٠ وانا لنأمركم جميعا أن تتقبلوه القبول الحسن ، وتطيعوه الطاعة التامة ، وتظهروا له الاحترام الكبير اللائق به باعتباره مطرانكم وأسقفكم » ٠

كما أرسل البابا الى جورموند بطرك القدس الكتاب التالى :

« من هونوريوس الأسقف خادم الرب الى أخيه المبجل جورموند بطرك القدس : لكم السلام والبركات الرسولية ٠

« تلقينا كتابكم الذى يفيض بالحب الأخوى فرحبنا بأخينا « وليم » الذى رسمتموه رئيسا لأساقفة الكنيسة فى صور ، ولقد حبوناه بحبنا ، كما أكرمناه بالنفحة الرسولية فخولناه ممارسة كل الصلاحيات الكنسية العليا ، وبالاضافة الى ذلك فقد أمرنا

أساقفة كنيستة بالخضوع له وطاعته وتوقيره باعتباره مطرانهم » ·
صدر فى اقليم بارى يوم ٨ يوليو (سنة ١١٢٨) ·

* * *

كذلك اختار البابا نائبا عن الكرسى البابوى هو « جيلز » أسقف « تاسكولم » ، وكان رجلا بليغا فصيحا عالما لاتزال رسائله الشهيرة الى أهل أنطاكية موجودة حتى اليوم وأرسله صحبة رئيس الأساقفة وليم هذا ·

كذلك بعث البابا مع « جيلز » رسالة الى « برنارد » بطرك أنطاكية يطالبه فيها بأن يعيد الى صاحب كنيسة صور رجـــال الكهنوت الذين كانوا تابعين لتلك الكنيسة والذين استبقاهم «برنارد » عنده ، وقال له فيما قال :

« لهذا فانا نأمرك بالكتاب الرسولى وعن طريق أخينا المبجل « جيلز » أسقف « تاسكولم » ونائب الكرسى البابوى أن تعيد الى وليم كبار رجال كنيسة صور ، فان لم يظهروا له الخضوع الواجب عليهم له فى مدى أربعين يوما من مطالعة هذه الرسالة التى بعثناها اليك فاننا نعفيهم من وظائفهم الكنسية منذ ذلك الوقت » ·

* * *

وسنقص فى الموضع المناسب فيما بعد كيف كانت هيئة ترسيم « وليم » بيد بطرك بيت المقدس ، وكيف دان له بالخضوع على الرغم مما هو ثابت من أن كنيسة صور كانت منذ أيام الحواريين حتى اليوم خاضعة لكنيسة أنطاكية ·

(٢٤)

ولما انتصف ربيع السنة التالية أرسى بعدئذ « فولك كونـت انجـــو » المبجـــل الذى كان الملـــك قد اســـتجاب لمشـــورة

الأمـــراء المدنيين والروحـــانيين الاجمـــاعية فاســـــتدعاه ليزوجه ابنته الكبرى السيدة مليزند ، فجاء فى كوكبة من النبلاء المبجلين ، وفى أبهة جليلة تفوق أبهة الملوك روعة وفخامة ٠

وجاء مع فولك وفى صحبته الكونستابل الملكى « وليم بيورى » الذى كان الملك (بعد اطلاق سراحه) قد أرسله مع غيره من النبلاء لدعوة الكونت ٠

فلما نهض « وليم بيورى » لأداء هذه المهمة أذنوا له أن يقسم لهم بحياة الملك وحياة أمراء المملكة على أن يتم زواج الكونت من كبرى بنات الملك فى مدى خمسين يوما من وصول الكونت سالما الى المملكة ، مع توقع اعتلائه العرش عند موت « بولدوين » الملك ، لذلك ما أن وطأت قدما الكونت فولك اليابسة حتى بادر الملك فعقد قران ابنته عليه وفاء للعهد الذى قدمه ، وكان ذلك قبل الاحتفال بعيد العنصرة المقدس الذى أوشك أن يحل ، وتم خلع الملك فى الوقت ذاته على الاثنين(٢٧) مدينتى صور وعكا لتكونا لهما طول حياة الملك ، وقد بقيت هاتان المدينتان فى أيديهما حتى مات الملك بلدوين ٠

ولقد برهن فولك على أنه رجل فطن المعى ، فقد أخلص فى حياة بلدوين فى أداء كل ما على الابن من الواجبات ، وكان وفيا نشيطا فى معالجة أمور المملكة ، كما دل فى توقيره للملك على أنه لم تكن تنقصه الصفات اللازمة لكسب الأصدقاء ٠

(٢٥)

كان « جورموند » بطرك القدس الغالى الذكر محاصرا فى هذه الاثناء باحدى القلاع بمنطقة صيداء وتدعى بقلعة « بلتاسم »(٢٨) التى كانت اذ ذاك فى أيدى جماعة من قطاع الطرق اذا به يســـقط

فريسة لمرض خطير اضطروا معه الى حمله الى صيدا ، لكن العلة ازدادت به سوءا وانتهت بوفاته بالدين البشرى الذى فى عنقه ، ومضى فى الطريق الذى لابد من أن يمضى فيه كل ابن أنثـــى . وكان « جورموند » هذا قد تولى أمر كنيسة القدس مدة قاربت عشر سنوات ، فاختير مكانه رجل عريق النســـب وان يكن ساذجا فى معالجته الأمور الدنيوية ، ذلك هو « ستيفن » رئيس رهبان دير القديس « جون فالى » الواقع فى مدينة « شارترز » ، فقد كان من أهلها وتربطه بالملك بلدوين وشيجة القربى ، كما كان قبل انخراطه فى سلك الرهبان نائب كونت تلك المدينة ، فعاش عيشة مثالية ، ثم بدا له أخيرا أن يتجرد من الدنيا فتجرد وتنسك وانخرط فى سلك رهبان الدير كما أشرنا ، حتى اختير فى النهاية رئيسا لتلك الكنيسة، وكان اختياره هذا عن حق وجدارة نظرا لفضله وكان فى صــــدر شبابه قد درس الآداب دراسة عميقة .

جاء هذا الراهب « ستيفن » الى القدس حاجا ولأداء مناسك العبادة والصلاة ، وبقى بها حتى يؤذن له بالعودة ، وذلك فى نفس الوقت الذى اجتمع فيه رجال الدين والناس بعد فراغهم من مراسم جنازة البطرك « جورموند » وأثناء انشغالهم باختيار راع جديد ، فأجمعوا كلمتهم على اختيار « ستيفن » هذا مكان « جورموند » ، فنصب بطركا مكانه .

غير أنه بعد ترسيمه أخذ فى اثارة المشكلات العصية فى وجه الملك ، من ذلك أنه ادعى أن الشرع يقضى بتبعية مدينة « يافا » له ولكنيســـة القيامـــة ، بـــل لقد ذهـــب أبعد من ذلـــك ، اذ قال بعد أن تم الاستيلاء على عسقلان بأن هذه المدينة الطاهرة ذاتها يجب أن تخضع للكنيسة بنفس الطريقة .

وكان « ستيفن » رجلا كبير الاعتداد بنفسه ، صعب المراس ، لا يعرف التراجع أبدا عن أى عمل ينهض به ، هذا الى جانب شـدة تمسكه الى النهاية بحقوقه تمسكا قويا •

ولقد ترتب على هذا أن دبت العداوة بينه وبين الملك ، وكانت عداوة خطيرة أفسدت ما بينهما ، غير أن وفاة « ستيفن » العـاجلة وضعت ــ كما تقول الأخبار ــ حدا لهذه الخصومة ، فقد وافاه أجله قبل أن ينقضى عليه حولان فى البطركية ، وقال البعض انه مـات مسموما ، ولكن ليس لدينا الدليل القاطع على هذا الزعم ، ولقد أشاع البعض ان الملك عاده وهو مسجى على فراش موته وسـأله كيف حاله فأجابه : « اننى الآن يامولاى فى الحالة التى تتمناها لى » •

(٢٦)

فلما كانت السنة التالية عاد « هيـج دى باينز » أول رئيس لفرسان الهيكل الى بيت المقدس مع ثلة من رجال الدين كان الملك قد أرسلهم فى جماعة من كبار رجالات المملكة الى أمراء الغرب لدعوة الناس للقدوم لمساعدتنا ، وكلفهم فوق كل شىء بمحاولة اغراء ذوى النفوذ للحضور لمعاونتنا فى حصار دمشق ، فانصاع كثير من علية الناس لهم وتأثروا بعذب كلامهم فقدموا الى المملكة ، ومن ثم فان كافة أمراء الشرق المسيحيين اعتمادا منهم على المساعدة القوية من جانب هؤلاء القادمين الجدد ــ اتفقوا على عقد اجتماع حضـره الملك بلدوين « وفولك » كونت أنجو ، « وبونس » كونت طرابلس ، و « بوهيموند » الصغير أمير أنطاكية ، و « جوسـلين » الكبير كونت الرها • وبعد أن طرح هؤلاء القادة فيما بينهـم ما جاءوا من أجله قرروا حشد قوات حربية من شتى الأرجاء واستدعاء حلفائهم ، ثم راحوا يتنافسون ويتحمسون للقتال استعدادا لحصار مدينة دمشق

العظيمة ذات الشـــهرة المدوية ، وكانوا يطمعون فى ارغامها على الاستسلام لهم بتضييقهم الخناق عليها ، غير أن المشـيئة الالهية قضت قضاء عادلا خفيا بفشل هذا المشروع الكبير ، واذا كان حسن الطالع قد لازمهم حتى دخلوا بهدى الرب أرض دمشق الا أنهم لم لم يكادوا يبلغون موضعا يسمونه « مرج الصفر » حتى انفصل عن الجيش رجال من ذوى الرتب الصغيرة ، فقد صدرت لهم الأوامر بالانتشار هنا وهناك لجلب كل ما يلزم الانسان والدواب من طعام وعليق ، وعهدوا الى « وليم بيورى » مع ألف من الفرسان بالاشراف على هذه الجماعات التى انقسمت ـ كما هو الحال فى مثل هذه الغارات الى شراذم صغيرة سارت كل واحدة منها فى طريق أفضى بها الى ابتعاد بعضها عن بعض ، وشرعوا فى مسح الاقليم دون أن يأخذوا حذرهم ، ورأت كل جماعة أن تأخذ لنفســـها كل ماتجده ولا تجعل لغيرها نصيبا مما وجدت ، ولما سيطر عليهم هذا القصد انهمكوا فى نهب المزارع والبيوت وقصرت كل طائفة همتها على ان تحمل الى جماعتها وحدها دون غيرها ما حصلت عليه من الأسلاب والغنائم ، كما شرعت فى السير بلا تبصر أو رويــة ، وســـرعان ما جاوزوا حدود التنظيم الحربى ٠

مالبث نبأ هذا السلوك الطائش أن بلغ ســـمع (تاج الملوك بورى(٣٠) أمير دمشق الذى كان يعرف كل المعرفة جهل هذا العسكر المطبق بالناحية التى هم فيها الآن ، فطمع فى القضاء عليهم لو أنه باغتهم بغارة يشنها عليهم وهو فى صـــفوة مختارة من محاربيه وأعظم عسكره خبرة بفنون القتال ٠

وتحقق ما كان يؤمله ٠

فبينما كان هؤلاء يهيمون على وجوههم على غير هدى بحثا عن الطعام اذا ببيورى يخرج عليهم من حيث لايحتسبون ، فتبدد شملهم

اذ كانوا مشغولين بأمور أخرى وعلى غير استعداد لمواجهة أى خطر ، وتفرقوا فى الحقول فتناوشت الكثير منهم سيوف أعدائهم الذين لم يكفوا عن مطاردتهم مطاردة ألزمت كبارهم وصغارهم وزهرة الجيش المكلفين بحراسة الخارجين فى طلب العلف والطعام، ولاقى الكثيرون من هذه الصفوة المختارة من الجند مصرعهم ·

فلما بلغت انباء هذه الكارثة سمع العسكر الصليبى استشاطت قلوبهم غضبا ، وتملكتهم رغبة جامحة فى محو هذا العار والانتقام من العدو ، فأسرعوا الى أسلحتهم فامتشقوها ، واستعدوا لمواجهة الخصم بعزم ثابت وشجاعة كاملة ، ولكن هيهات للانسان أن ينجز أمرا لم تقض به الارادة الالهية ، فقد أغرقتهم السماء بمطر غزير انهمر حتى كأنه السيل الجارف ، وكان مصحوبا بضباب كثيف نزل عليهم من فوقهم كسفا تلو كسف ، فاستحال السير بسبب المطر ، وبلغت العاصفة حدا من الشدة يئس معها الجميع من الخروج منها أحياء ، وكانت هناك قبل ذلك بوقت طويل نذر صريحة تدل على اقتراب العاصفة ، وقد تمثلت هذه النذر فى السحب السوداء والضباب الكثيف والرياح التى كانت تهب من كل صوب ، والرعد المستمر ، والبرق المتواصل ، غير أن العقل البشرى الذى لا يدرى من الغيب شيئا لم يأبه بالتسامح الالهى اذ ينذره قبل الجائحة ، بل جرت الأمور على العكس من ذلك اذ أبت هذه القوات الا أن تمضى قدما ضد ارادة الرب ، فكان ما أقدموا عليه أمرا مستحيلا، ثم تسنى لهم أخيرا ـ لكن بعد لأى ـ أن يدركوا أن السماء لم ترمهم بهذه العاصفة الا بسبب آثامهم فتخلوا كارهين عن مشروعهم ، وندموا ولكن لات ساعة مندم ·

والحق أن الظروف قد تبدلت كل التبدل ، فقد كان العدو عند خروجهم فى أول الأمر يخشاهم أشد الخشية ، وترتعد فرائصه

منهم ، ويراهم تهديدا خطيرا له ، أما الآن فقد أصبح هؤلاء العسكر ذاتهم كلا على أنفسهم ذاتها حتى صاروا فى حال يرون النصر كل النصر أن يعودوا سالمين الى أماكنهم ، أما العدو فقد غدا آمـــن السرب ، ناعم البال ، مطمئنا الى أن يده صارت الآن هى العليا ٠

وقد حدثت هذه النكبة يوم السادس من ديسمبر عام ١١٣٠ من مولد المسيح ، وفى السنة الثانية عشرة من حكـــم الملك بلدوين ، وجرت تقريبا فى نفس البقعة التى كان الملك قد أحرز فيها انتصارا مؤزرا مهيبا على هذا العدو ذاته منذ أربع سنوات تقريبا ٠

فما أعظمك أيها المخلص الأبدى !!

وما أقصر ادراك البشر عن استيعاب عظمتك حين تهوى الى الدرك الأسفل بأولئك الذين غرهم الغرور ببطشهم ! ٠

لقد رميت يارب فأصميت قلوب الذين لم يؤمنوا الا بالانسان ، والا بالسلاح الذى يصنعه الانسان ، فانزلت بهم من لعنتك ما هـــم أهل له ، ذلك لأنك لا تطلب مساعدا ولا مشاركا لك فى مجدك ، لأنك قلت أيها الرب المبارك(٣١) «كرامتى لا أعطيها لآخر» وقلت أيضا(٣٢) « انه مكتوب لى النقمة ٠ أنا أجازى » ٠

وقلت(٣٣) : « ليس اله معى ٠ أنا أميت وأحيى ، سحقت وأنى أشفى ، وليس من يدى مخلص » ٠

أيها السيد : لقد قلت الحق اذ قلت ان أمل الملك فى الظهور على الأعداء هو أمل قوى ، مادام الملك مسلما أمره كله الى رحمتك العلوية ٠ أما حين يعتمد على كثرة ما لديه ، ويغره بأسه ، ويسكن الى بأس الرجال فانك ممسك عنه عطفك ، وتاركه وحيدا لا سند له غير

ما ملكت يداه · أما حين يضع ثقته فى عون الرب له فانك ميسر له النصر على عدوه رغم قلة جنده ·· انه مضطر للارتداد خائب المسعى رغم من معه من الجموع الكثيفة ·

هكذا حاربتهم السماء فى هذا الوقت ، فقد سلطت عليهم عاصفة من فوقهم أرغمتهم على الارتداد على أعقابهم ارتدادا عجزوا معه عن انجاز مشروعهم ، ولم يستطيعوا الثأر لاخوانهم الذين أهلكتهم سيوف الأعداء ·

❊ ❊ ❊

بعد هذه الأحداث المفجعة تفرق قوادنا اذ أصبح واضحا لهم أن لن يكتب النجاح للعمل الذى أضطروا به ، فعادوا كلهم أدراجهم بالتالى الى ديارهم ·

❊ ❊ ❊

ولقد مات فى هذا الوقت « ستيفن » بطرك القدس الطيب الذكر ، فخلفه « وليم » قيم كنيسة القبر المقدس ، وكان رجلا سلس الطبع ، مخلصا ، حسن الهيئة ، محمود الطبع نبيله ، ملما بعض الالمام بالأدب ، وكان فلمنكى المولد ومن أهل « مالينز » ، وقد لقى القبول الحسن عند الملك وأمراء المملكة والناس قاطبة ·

(٢٧)

ما كاد بوهيموند أمير أنطاكية وزوج ابنة الملك يعود الى امارته من تلك الحملة حتى بادر رضوان أمير حلب بالاغارة عليها ، وكان رضوان واليا تركيا قويا ، وشيطانا مريدا من شياطينهم ، فأراد بوهيموند اذ ذاك أن يمنعه من دخول امارته فأسرع الى كيليكية محاولا صده ، هذا الى جانب أمور أخرى حملت الأمير

الشاب على الذهاب الى هناك وهى أمور تتعلق بشئونه الخاصـــة والعائلية • وبينما هو مخيم فى سهل فسيح يسمى بمرج(٣٤) الديباج اذا بطائفة من رجال العدو يطلعون عليه ويهاجمونه فينفض عنه أصحابه ويتلفت هو حوله فيجد نفسه وحيدا ، فأمسكه العدو وقطع رأسه •

* * *

كان بوهيموند محبوبا من الرب ، وكان المتوقـــع أن يغدو أميرا عظيما لو لم يعاجله الموت ويسعى اليه قدره فينتزعه من هذه الدنيا ، فكان موته خطبا فادحا نزل بأهل أنطاكية فأمضهم حزنا ، وأسفوا عليه اذ كانوا يتوقعون أن تطول أيامه فيطول حكمه وتطول سلامتهم لأنه كان لا يزال فى ريق العمر وميعة الشـباب ، وكانوا يرجون أن يجنوا فى أيامه خيرا كثيرا ، وتجدد بكاؤهم عليه واشتكوا من الخطر الذى يتهددهم بوقوعهم فريسة للأعداء بعد أن لم يعد لهم أمير يلجأون اليه لو نزلت نازلة بساحتهم • ومن ثـــم عقدوا مجلسا للتشاور فيما بينهم فتقرر اللجوء الى ملك بيت المقدس فاستدعوه مرة ثانية •

حين سمع بلدوين بهذه النكبة الجديدة اشتد جزعه وتبلبل خاطره ، وتوجس خيفة أن يلم بالامارة ـ وقد حرمت من قائدها ـ خطب يهون ازاءه كل الخطوب التى نزلت بها من قبل ، ولما كان بلدوين يعتبر ما يصيب الأمراء الصليبيين كأنما قد أصابه هو ذاته فقد نحى جانبا كل مشاكله الخاصة وشرع فى تحمل متاعب الآخرين، وكان يرى أن كل شىء يستطيع القيام به لأى طائفة مسيحية انمـا هو أمر يستأهل عنايته ، ومن ثم أغذ السير الى أنطاكية ، لكن ما كادت ابنته « أليس » تسمع بخبر موت زوجها وتعلم بعزم أبيها على الحضور الى أنطاكية حتى تسلطت عليها روح شريرة حملتها

على تدبير خطة نكراء ، فقد حملها طمعها على أن تعمل ما من شأنه زيادة تأمين مركزها فقررت انفاذ الرسل الى زعيم تركى شـديد البطش تخيرته من بين الجميع اسمه « عماد الدين زنكى » ، راجية أن يعينها فتستبقى أنطاكية خالصة لها وحدها على الدوام ، ولقد فعلت ذلك على الرغم من معارضة كبار رجالها ومعارضة الشعب كله لها فى هذه الخطة ٠

كان بوهيموند الطيب الذكر قد خلف وراءه ابنـــة لم ينجب سواها وتدعى (كونستانس) ، ويبدو أنها لم تكن تحظى بما هى جديرة به من عطف أمها « أليس » التى صممت (سواء عاشت أرملة أم تزوجت ثانية) أن تحرم ابنتها من حقها فى حكم انطاكية حتى تظل محتفظة بالامارة لنفسها لا ينازعها فيها أبدا منازع ، ومن ثم عهدت الأم الى أحد خدمها الخصوصيين فأرسلته الى ذلك العظيم (زنكى) الذى أشرنا اليه حالا ، بهدية على هيأة جواد كالثلج فى بياضه ، وكان مموها بالفضة التى صنع منها أيضا اللجام وما على السرج الذى كان قماشه الحريرى أبيض أيضا ، وبذلك كان البياض هو اللون السائد فيه ، ثم شاءت الصدفة البحتة أن يعترض أحدهم هذا الرسول فى بعض الطريق فجاء به الى حضرة الملك فاعترف بكل تفاصيل المؤامرة فقتلوه جزاء على أفعاله الشريرة ، وتفننوا فى تعذيبه عذابا منكرا ٠

ولما علم الملك بالأحداث المؤلمة التى ذكرناها حـالا فقد بادر بالذهاب الى مدينة أنطاكية ، فلما بلغها أمرت ابنته رجالها بايصاد الأبواب فى وجهه ومنعه من الدخول ، ثم خافت رد الفعل الذى قد يتخذه أبوها ، ومن ثم تخلت عن مكانها لشركائها فى الجريمة ، والى من أفسدت أموالها ضمائرهم ، وراحت تبذل كل محاولة للمقاومة حتى تمارس شهوة طغيانها كيفما شاءت ، ولكن الخاتمة كانت أبعد

ما تكون عما دبرت اذ كان فى هذه المدينة ذاتها رجال يخشون الله أنفوا من تلك الوقاحة الدنسة الصادرة من امرأة رعناء ، وكان من بين هؤلاء الرجال : « بطرس لاتيناتور » أحد رهبان دير سانت « بول » و « وليم أفرسا » فاتفقا مع من كان على شاكلتهما على الاتصـــال بالملك سرا فيرسلون اليه الرسل يستدعونه للمجيء الى أنطاكية ، ورتبوا خطتهم على أن يقف « فولك كونت انجو » عند باب الدوق ، ويقف «جوسلين» عند باب سنت بول ، فوقفا وفتحـــا البابين على مصراعيهما ، ودخل الملك المدينة ٠

ما كادت الأميرة تقف على ما جرى حتى عادت على عقبيها الى القلعة ، لكنها استجابت فى النهاية لدعوات عقلاء أنطاكية ونزلت على نصيحة من هم موضع ثقتها التامة فجاءت بنفسها الى أبيها الملك حتى اذا صارت فى حضرته أعلنت بين يديه استعدادها للنزول على ارادته ٠

وعلى الرغم من أن بلدوين كان حانقا من سلوكها أشد الحنق الا أن قلبه لم يتجرد من الحنان الأبوى فاستجاب أخيراً لالتماسات الذين توسطوا عنده من أجلها ٠

وتسلم الملك أنطاكية وكان الملك قد اقطـــع (ابنته اليس) المدينتين الساحليتين : اللاذقية وجبلة ، مخافة أن تقوم فى وقت آخر بمثل هذه المحاولة ، ذلك لأن زوجها الراحل (بوهيموند الثانى) كان قد أوصى لها فى وصيته الأخيرة بهاتين المدينتين لانهما كانتا جزءا من صداقها ، وقت زواجها منه ٠

ولما فرغ الملك من تنظيم أمور انطاكية على هذه الصورة عهد بها الى رعاية سراتها ، ثم عاد الى بيت المقدس حيث كانت مشاغله الخاصة تستدعيه ، بيد أنه ألزم الجميع : صغارا وكبارا قبل مغادرته الامارة أن يقطعوا على أنفسهم اليمين الغليظة بأن يظلوا طول حكمه وبعده مخلصين فى الحفاظ على انطاكية وملحقاتها للطفلة القاصرة (لكونستانس) ابنة بوهيموند الثانى ، ذلك أنه كان يتخوف من عمل شرير ترتكبه ابنته (اليس) فتحاول ثانية حرمان ابنتها الصغيرة من ميراثها ٠

(٢٨)

عاد الملك الى بيت المقدس فوقع فريسة لمرض خطير أدرك معه أن يوم رحيله قريب ، ومن ثم نحى جانبا كل ابهته الملوكية وغادر القصر فى اطمان متبتل ذليل للرب ، وأذن للقوم أن يحملوه الى قصر البطرك المعظم لأنه كان أقرب الأماكن الى الموضع الذى شهد قيامة السيد ، ولانه هو ذاته كان كبير الامل فى أن مولاه الذى قهر الموت فى ذلك المكان لابد وأن يجعله شريكا له فى قيامته ٠

ثم استدعى اليه ابنته وختنه والطفل بلدوين ، وكان فى الثانية من عمره ، وعهد اليهم بكل سلطات المملكة ، وذلك بحضور البطرك وكبار رجال الكنيسة وبعض الأشراف الذين كانوا موجودين هناك ساعتئذ ، فلما فرغ من ذلك نفحهم بركاته كأمير مؤمن ٠

ثم جاءوه بمسوح دينية دثروه بها كمعترف مؤمن بالمسيح وممارس للحياة الدينية ، حتى اذا مات صعدت روحه الى مالك الأرواح ، ورحل بأمر الرب لينعم بالنعيم مع الأمراء الآخرين ٠

وكان موته فى الحادى والعشرين من شهر أغسطس عام ١١٣١ من مولد سيدنا ، وامتد حكمه ثلاث عشرة سنة ، ودفن الى جوار أسلافه الملوك أصحاب الذكر البهى عند سفح جبل « كالفارى » أمام الموضع المسمى بالجلجثة ، وأقام شعبه مراسيم جنازته فى أبهة رائعة واحتفال ضخم يليق بعظمته كملك ٠

ولاتزال ذكراه باقية حتى الوقت الحالى موضع الاجلال من الجميع لايمانه المثالى ولأفعاله الباهرة ٠



هنا ينتهى الكتاب الثالث عشر ٠

حواشى الكتـــاب الثالث عشر

(١) هو غير وليم مؤلف كتابنا هذا ، انظر ص ٧٢ ٠

(٢) حزقيال ٢/٢٧ ـ ٧ ٠

(٣) اشعيا ٦/٢٣ ـ ٨ ٠

(٤) مزامير ١٢/٤٥ ٠

(٥) راجع اشعيا ٨/٧ ٠

(٦) راجع نشيد الانشاد ١٥/٤ ٠

(٧) حزقيال ٣/٢٧ ٠

(٨) حزقيال ٧/٢٦ ـ ٨ ٠

(٩) الاسكيثيون ، وقد يقال لهم أيضا البشناق ، وهو لفظ عام غير محدد تماما فى الحوليات وكتب التاريخ ، كقولهم « الترك » و « التركمان » « والاتراك » ، وقد يقصد بهم أحيانا السلاجقة على اختلاف فروعهم ، وقد يقصد به المسلمون ، ويلاحظ أن كلا من مؤرخنا وليم الصورى ، والمؤرخة « أنا كومنينا » فى كتابها « ألكسياد » الذى ترجمناه الى العربية يطلق كلمة البشناق » Petchenics أو « Patzinaks وكذلك كلمة

« الاسكيثيين » Schythis على مجموعة من الشعوب التركية البدوية التى كانت دائمة الاغارة على ما حولها ولاتعرف الاستقرار فى مكان واحد ، وقد تطورت بهم الأحوال حتى انخرطوا ــ و انخرط فريق منهم ــ فى الجيش الرومانى ، فنجدهم فى عسكر رومانوس ديوجين ، ثم من بعده فى جيش اسحق كومنين فميخائيل الثامن دوكاس ، كما يلاحظ أن هؤلاء البشناق أو الاسكيثيين قد تحالفوا زمن الكسيوس الأول كومنين مع البوليكان الذين سنعرف بهم فيما بعد والذين كانوا يعيشون فى شبه جزيرة البلقان وقد كلف البوشناق بيزنطة جهودا كبيرة وكبدوها خسائر جمة حتى انهم انزلوا بها هزيمة ساحقة فى « درسترا » Dristra الواقعة على الدانوب الأسفل وذلك فى نهاية القرن التاسع للميلاد ، كما انهم هددوا أمن بيزنطة ، حتى لتشير « أنا كومنينا » فى الفصل الثامن من الكتاب الثامن من الألكسياد الى أن العاصمة القسطنطينية لم تستطع فتح أبوابها لزوار ضريح الشهيد « تيودور » ، لأن البشناق ، أو « الاسكيثيين » أصبحوا فى مرة من المرات أمــام أبوابها ، واذا كان هــؤلاء المتبربرون البــدو الاوربيــون الأسيويون يحتزون بقوتهم الا أنه كان ينقصهم حسن التدبير ودقة الخطــة ودهاء الكسيوس كومنين الذى تمثل مكره فى ضربه المتبربرين بعضــهم ببعض حين شجع الكومان Comans على أن يعيثوا فسادا لمضــايقة البشناق فاستجابوا لما طلبه مما ساعده على أن يحقق غايته اذ أنزل الهزيمة الساحقة بهم بصورة لم يجدوا بعدها بدا من الاستكانة والاستقرار فى شبه جزيرة البلقان ، شرقى نهر الوردار ، ثم انخرطوا بعدئذ فى مســلك عسكره مكونين كتيبة مستقلة ، راجع فى ذلك

Vasilier (A.A.) History of the Byzantine Empire,
(324 — 1453), Lond., 1971, PP. 383 et seq

وانظر المراجع التى ذكرها بشأنهم ٠

(١٠) يمكن للقارىء أن يراجــع فى هذا الصــدد ما جــاء فى ابن القلانسى : نيــل تاريخ دمشق (نشره أمدروز) وما جــاء فى ترجمتــه الانجليزية والفرنسية ، Gibb : Damascus Chronicle

(١١) وتقع فى اقليم « العواصم » على مقربة من « بالس » وتسمى عند الغربيين باسم Hierapolis وقد زارها ابن جبير سنة ١١٨٥م وذلك بعد قليل من تدوين وليم الصورى لهذه الأحداث ، ووصفها فى رحلته

كما وصفها ياقوت الحموى فى معجـــم بلدانه بأنها مدينة يونانيـة كبيرة وقديمة ٠

(١٢) راجع الجزء الثانى من هذه الترجمة العربية ، الكتاب الثانـى عشر ، الفصل ١٩ ،

(١٣) عزامير ٥/٦٦ ٠

(١٤) راجع خبر هذه السفينة الوارد قبل قليل ، ص ٢٧ ٠

(١٥) وقد يقال لها « يبنى » بالألف المقصورة ، و « ابنى » مع ضـم الياء فى الألف والهمزة فى الثانية ٠ ، وهى واقعة على تل صغير ، ويذكر اليعقوبى . فى جغرافيته طبعة جينبول Juynboll ، ليدن ١٨٦١ ، ص ١١٦ . انها من بلدان فلسطين القديمة . كما يشير ياقوت فى معجمـه الذى نشره وحققه « فوستنفلد » ليدن ١٨٦٦ ، ٤/١٠٠٧ الى أن بها ـ كما يقال ـ قبر الصحابى أبى هريرة ٠ انظر فى ذلك :
Le-Strange : Palestine Under The Moslems, PP. 24, 28

(١٦) أورد ابن القلانسى فى ذيل تاريخ دمشق ص ٢١١ وما بعدهـــا « انه كان قد ترامى الى سمع الصليبيين اخراج والى صور الأمير ســـيف الدين مسعود وحمله فى الاسطول الى مصر ، وأنه لما جاء الوالى الجديد أخذ « فى تطييب نفوس الأهالى ، واذ ذاك تحرك الافرنج وحدثوا نفوسهم بتملكها وشرعوا فى الجمع للنزول عليها » ، فلما علم الوالى بما دبره الأعداء أدرك انه لا طاقة له بهم ، لاسيما وأن الخليفة الفاطمى فى مصرالآمربأحكامالله أمر برد ولاية صور الى ظهير الدين أتابك ليتولى حمايتها ، فندب لذلك جماعة لا غناء لهم ولا كفاية فيهـم ٠٠٠ وتوجه مع الافرنج وشـرعوا فى النزول والتأهب لمضايقتها ونزلوا يظاهرها فى شهر ربيع الأول من سنة ٥١٨ هـ ، وضايقوها بالقتال والحصار الى أن خلت الأقوات فيها وعدمت الميرة » ، وكانت هذه هى المرحلة الأولى من مراحل التقدم الصليبى الى صور ٠ ثـم كانت المرحلة الثانية متمثلة بداياتها فى « ضعف النفوس واشراف أهلهـا على الهلاك » واذ ذاك وقع اليأس من المعونة ، فلم يكن من الأتابك الا أن كاتب الفرنج « يداهنهم تارة ويرهبهم أخرى » ثم انتهى الأمر الى تسليم صور للصليبيين ، وجاء فى نص الاتفاق الخاص بالتسليم « أن يؤمن كل من بها ، ويخرج من أراد الخروج من العسكر والرعية بما يقدرون عليـــه

من أموالهم ، ويقيم من أراد الاقامة • ويشير نفس المصدر العربى الى أنه لم يبق فى صور بعد هذا النزوح سوى « الضعيف الذى لايطيق الخروج » وكان تفريغ صور من أهلها الأصليين يوم ٢٣ جمادى الأولى سنة ٥١٨ هـ • ثم تلت ذلك المرحلة الثالثة والأخيرة والتى تمثلت فى اشتداد ساعد الصليبيين بهذه الخاتمة وخروجهم بقيادة بلدوين ملك بيت المقدس وعيثهم فسادا فى نواحى حوران من أعمال دمشق •

(١٧) انظر عن « سكانداليوم » «Scandalium» أى الاسكندرونة ، الجزء الثانى من هذه الترجمة العربية ، ص ٣٢٨ •

(١٨) راجع ترجمتنا العربية ، ج ٢ ، ك ١١ •

(١٩) لم يكن الأمر كما ذكره المؤلف فى المتن أعلاه ، اذ الثابت أن غيابه طال أكثر من ثلاث سنوات •

(٢٠) تثنية ٣٢/٣٠ •

(٢١) فيما يتعلق بمقدمات وقعة مرج الصفر نقول انه فى سنة ٥١٩ هـ ، وردت الأخبار بتأهب بلدوين الثالث للاغارة على حوران ، فاستعد له ظهير الدين أتابك دمشق وكاتب أمراء التركمان ومقدميهم واعيانهم يستنجد بهم ويبذل لهم الاحسان والانعام » وخرج هو ذاته فى عسكره الدمشقى فعلم بقرب الصليبيين من طبرية قاصدين مرج الصفر ، وكان جمع الاسلام كثيفا ، فيه الكثيرون « من أحداث دمشق والشباب الأغرار ورجال الغوطة والمرج والأطراف وأحداث الباطنية من حمص وقصر العين ، وتطاردت طلائع الفريقين » ، وأغارت جماعة وافرة من التركمان على أطراف الافرنج الذين رحلوا بأسرهم من منزلهم هذا » وغر الغرور جماعة التركمان فهاجموهم وهم مولون الأدبار ، فما كان منهم الا ن عادوا وحملوا على المعسكر الاسلامى فكسروه ، راجع ذلك بالتفصيل فى ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ، ص ٢١٢ ـ ٢١٤• أما فيما يتعلق بمرج الصفر الواقع فى غوطة دمشق فانظر معجم البلدان لياقوت ، مادة « مرج الصفر » •

(٢٢) تنم عبارات وليم الصورى الواردة فى المتن عن شدة حقده على الأمير الأسفهلار سيف الدين اق سنقر البرسقى صاحب الموصل الذى كان مصرعه على يد الباطنية فى جامع الموصل ، وكانت صفة مصرعه هى أنه كان قد وثب عليه جماعة من الباطنية رغم أنه كان على غاية الحذر »

والتيقظ لهم والتحفظ منهم ، وذلك بالاستكثار من السلاحدرية والحاقدارية والسلاح الشاك ، وكان يلبس من لبـــاس الحديد ما لا تفعل فيه مواضى السيوف » ، وحوله الغلمان الأتراك والديلم والخراسانية بأنواع السلاح ، ثم جرى أن دخل البرسقى المسجد الجامع لصلاة الجمعة ، وكان فيه جماعة فى زى الصوفية يصلون ، « لم يؤبه لهم ، ولا ارتيب فيهم » فلما شرع البرسقى فى الصلاة وثب عليه هؤلاء بسكاكينهم وضربوه عدة ضربات ، لكنها لم تؤثر فى الحديد الذى عليه « وقد غفل عنه أصـــحابه » . كذلك يصف ابن القلانسى ما كان من الباطنية حين رأوا السكاكين لاتفيد فيما عليه ، فقال احدهم لرفاقه : « ويلكم اطلبوا رأسه وأعلاه » فصدعوا لما اشار بـه عليهم، فخر البرسقى صريعا . وتولى بعده ولده الأمير مسعود الذى كان مشهورا بالنجابة والذكاء وكان معروفا بالشهامة » . واذا كان وليم الصورى يصف البرسقى بألفاظ كلها كراهية حادة فان صدورها من مؤرخنا يفصـح عن عظمة البرسقى ، ويتجلى هذا من أن نظرة المسلمين اليه كانت تخالف تمام المخالفة هذه النظرة الصليبية ، فقد كان الاسفهسلار « ســديد الطريقة ، جميل الأفعال ، حميد الأخلاق ، مؤثرا للعدل والانصاف ، كثير التدين ، محمود المقاصد ، محبا للخير وأهله ، مكرما للفقهاء والصالحين » ، انظر فى ذلك ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١٤ .

(٢٣) راجع الجزء الثانى من ترجمتنا العربية هذه للحروب الصليبية ، الكتاب ١١ ، الفصل السادس .

(٢٤) حددت النسخة الانجليزية تاريخ هذه الخصومة بينهما بصيف ١١٢٧ لكنها لم تبين المصادر التى اعتمدت عليها فى تحديد هذا التاريخ .

(٢٥) راجع لوقا ١١ / ١٧ .

(٢٦) اعتبر مترجما كتاب وليم الى اللغة الانجليزية هذا الخبر الذى لايمت بأى صلة الى مملكة بيت المقدس دليلا على المام وليم الصورى الماما كبيرا بأخبار جنوب ايطاليا مما أدى الى اطالة الحديث عن هذه الأخبار ، وانظر فى خبر هذا الالمام ما كتبنـــاه فى مقدمتنا بالجزء الأول من ترجمتنا لهذا الكتاب .

(٢٧) المقصود بالاثنين هنا كونت فولك ومليزند ابنة ملك بيت المقدس .

(٢٨) الوارد فى النص الانجليزى ان اسم هذا المكان هو Belthasem ولم تستطع الاستدلال على مرادفه العربى ، وان كان لى سترانج يذكر موقعا اسمه Belthshean ويشير فى أكثر من موضع من كتابه الى « بيسان » ويقول انها تعرف فى اللسان الغربى باسم « Belthshean

(٢٩) راجع الحروب الصليبية لوليم الصورى ، ترجمة حسن حبشى ج ٢ ، ك ١٣ ، ف ٧ ٠

(٣٠) الوارد فى الترجمة الانجليزية نقـــلا عن نص وليم اللاتينى « طغتكين » ، وقد تنبهت الترجمة الانجليزية الى خطأ هذه التســـمية ، ولكنها أبقت « طغتكين » على ما هو عليه ٠ وبرجوعنا الى ابن القلانسى الذى عاصر هذه الأحداث وكان شاهد عيان لها نجده يشير فى ذيل تاريخه لدمشق ، ص ٢١٨ ، الى أن ظهير الدين طغتكين مات فى سنة ٥٢٢ هـ ، « فرشح مكانه ولده تاج الملوك ، وهو ما أثبتناه فى متن هذه الترجمـــة العربية أعلاه ، وكان موت طغتكين يوم السبت ٨ صفر ٥٢٢ ، ولم يكن اختيار الناس لتاج الملوك ناجما عن فراغ بل لأن أحداث الصراع الصليبى الاسلامى حينذاك كانت تتطلب رجلا يكافىء « الوقت » فكان « تاج الملوك بورى » « اذ هو المأمول لسد الثلمة » ٠

(٣١) اشعيا ١١/٤٨ ٠

(٣٢) رومية ١٩/١٢ ٠

(٣٣) تثنية ٣٩/٣٢ ـ ٤٠ ٠

(٣٤) فى الأصل « المرج » والأصح ما أثبتناه فى المتن ٠

فصول الكتــاب الرابع عشر

١ ـ نسب وصفة فولك ثالث ملوك بيت المقدس ·

٢ ـ زيارة فولك المقدس فى رحلة حج قبل أن يســـتدعيه الملـك بلدوين ، وكيف تولى العرش ·

٣ ـ خروج جوسلين الكبير كونت الرها الى العدو رغم مرضـــه ووضعه فى المحفة وحمله العدو على الفرار ثم موته بعد ذلك · الخبر عن ابنه جوسلين الصغير ·

٤ ـ استغاثة أهل أنطاكية بالملك فولك ، وكشف القناع عن دناءة الأميرة اليس ارملة بوهيموند الثانى ·

٥ ـ محاولة كونت طرابلس معارضة الملك حين اســـراعه الى أنطاكية وفشله فى هذه المحاولة · تحســـن الأحــــوال فى أنطاكية ·

٦ ـ استدعاء أهالى أنطاكية الملك فولك للمرة الثانية ، وفرض

زنكى الحصار على احدى القلاع الموجودة فى طرابلس ، ومبادرة الملك الى نجدة القلعة استجابة لالحاح أخته ٠

٧ ــ الملك يسرع الى أنطاكية ويرغم من تجمع بها من الكفار على الفرار ، وامتلاء أيادى الأهالى بالغنائم التى نهبوهـــا من العــدو ٠

٨ ــ بطرك القدس وأشراف المملكة يبنون قلعة كانت الحاجة ماسة اليها ويسمونها قلعة « ارنولد » ٠

٩ ــ الملك يأمر باستدعاء ريمـــوند بن كونت بواتـــو ليتــزوج « كونستانس » ابنة بوهيموند ٠

١٠ ــ موت برنارد بطرك أنطاكية واســتخلاف « رالف » رئيس أساقفة « مامسترا » مكانه فى جو مشحون بالاضطرابات ٠

١١ ــ وفاة البابا « هونوريوس » وانتخاب أنوسنت مكانه وظهور شقاق خطير ، وموت وليم رئيس أساقفة صور ، واستخلاف « فولشر » محله : وذهـــابه الى رومة وطلبه الطيلســان وتسلمه اياه

١٢ ــ كنيسة رومة تأمر فولشر باطاعته بطرك بيت المقدس وتخبر بأنه يتسنم فى تلك الكنيسة نفس المكانة التى كانت له سابقا على شعب أنطاكية ٠

١٣ ــ البابا يصدر أمره لكبار رجال الدين التابعين لفولشر بطاعته ويرسل كثيرا من الرسائل من أجل هذا القصد ٠

١٤ ــ شرح الظروف التى أدت الى ظهور الخلاف بين البطركين ٠ وذكر دفاع كل منهما ٠

١٥ ـ اتهام كونت يافا أمام الملك بمؤامرة اغتياله وحدوث اضطراب كبير فى المملكة ٠

١٦ ـ وولتر صاحب قيصرية يتحدى كونت « هيج » لمبارزته ، فيلجأ الأخير الى العدو ويهجره أتباعه ٠

١٧ ـ محاصرة مدينة عكا وقيام نبلاء المملكة بعقد اتفاقية بخصوص السلام ، كما يتم فى الوقت ذاته استيلاء العدو على « بانياس » ٠

١٨ ـ اصابة كونت يافا بجروح خطيرة واندلاع الثورة من جديد وعبوره البحر بعد شفائه حسب الاتفاق ٠

١٩ ـ عقد الهدنة مع الدماشقة وإعادة من كانوا موجودين من قبل فى بانياس من الأسر ٠

٢٠ ـ « ريموند بن كونت بواتو » يصل سرا الى انطاكية ويتزوج « كونستانس » ابنة بوهيموند رغم ارادة أمها الأميرة « أليس » التى تبذل أقصى جهدها لمنع هذا الزواج ، وبذلك يتملك « ريموند » الامارة ٠

٢١ ـ تقرير عن ريموند يتناول عاداته ومظهره والخبر عن أسلافه ونسبه ٠

٢٢ ـ الملك فولك يشيد قلعة لصد غارات العسقلانيين الجريئة ويسميها قلعة « جبلين » أو « بير سبع » ٠

٢٣ ـ مصرع كونت طرابلس عند تل الحجاج بواسطة مؤامرة دبرها خاصة رجاله ، واذ ذلك يخلفه ابنه ريموند الذى انتقم لهلاك أبيه ٠

٢٤ – يوحنا امبراطور القسطنطينية يزحف على انطاكية ويحتل كيليكية ٠

٢٥ – زنكى يحاصر القلعة المسماة « مونتفرات » وحينذاك يحاول الملك الاستعانة بكونت طرابلس لرفع هذا الحصار فيفشل فى محاولته هذه وتدور الدائرة على الصليبيين ، ويقع الكونت فى الأسر ويرتد الملك الى القلعة ٠

٢٦ – زنكى يعاود مهاجمة القلعة فيستصرخ المحصورون بجيرانهم لمساعدتهم ٠

٢٧ – « بزواج » حاكم دمشق يعيث خرابا فى نابلس ويضرم النيران فيها ٠

٢٨ – قوات النجدة تهب لمساعدة الملك فولك ولكن النكبات الجسيمة لاتزال تنزل بالمحصورين ٠

٢٩– وصول النجدة ولكن الظروف تحمل الملك فولك على التسليم فيعقد اتفاقا مع الأعداء ويعود سالما الى أرضه ٠

٣٠ – الأمير يعود الى أنطاكية فيجد المدينة تحت الحصار فيقاوم مقاومة باسلة ، غير أن بعض الأشخاص يتدخلون بينه وبين الامبراطور فيتم عقد الصلح بينهما ٠

هنا يبدأ الكتاب الرابع عشر

فولك ملكا على بيت المقدس والاضطراب فى سورية الشمالية

(١)

لما ودع بلدوين ـ ثانى ملوك بيت المقدس اللاتين ـ هذه الدنيا خلفه على بيت المقدس « فولك كونت تورين ومين وانجو » الذى اشرنا اليه آنفا والذى زوجه الملك « بمليزند » كبرى بناته ٠

كان فولك ذا خدين متوردين اشبه بداود الذى صنعه الرب كما يهوى قلبه ، كما كان رجلا وفيا مهذب الطبع ، لين الجانب ، رؤوفا بالناس ، مواسيا لهم ، وهى خلال غير مالوفة فى رجال لهم هذه البشرة ٠ كما عرف بانه اسخى الناس كفا على اعمـــال البر والصدقة ، وكان اميرا قويا حتى قبل استدعائه لادارة شئون المملكة ،

ونجح كل النجاح فى حكمه لشعبه ، كما كان مسعر حرب كثير الصبر عليها ، عالما بفنون القتال ٠

وكان متوسط الطول ، متقدما فى العمر تقدما كبيرا ، اذ جاوز الستين عاما ٠

وكان من العيوب التى يشكو منها والتى ترجع الى نقص فى الخلق البشرى ضعف ذاكرته وكثرة نسيانه ، حتى انه كان قل أن يتذكر الوجوه أو الأسماء ولو كانت وجوه أهل بيته وأسماءهم فلو أن امرأ ممن تكرم عليهم منذ قريب بعطفه ومحضه صداقته ظهر أمامه فجأة راح يكثر من السؤال عمن يكون هذا الشخص مما يسبب حرجا لأولئك الذين سبقت معرفتهم له ثم جاءوه وسطاء لغيرهم ، اذ يجدون أنفسهم فى حاجة لمن يعرف بهم هم أنفسهم عنده ٠

كان الملك الجديد يسمى باسم أبيه فولك الملقب « بريخين » والذى كان يعرف بكونت تورين وأنجو ، والذى تزوج من برترادا أخت أمورى دى مونتفرات التى أنجبت له ولدين هما « فولك » موضوع كلامنا الآن ، « وجوفروى مارتل » ٠ كما رزقت بابنة هى « هرمنجارد» التى تزوجت أول ما تزوجت بوليم كونت بواتو ، فلما هجرها وطردها هربت الى كونت بريتانى الذى أحبته وعاشت معه وعاشرته معاشرة الزوجية ، فأنجبت له ولدا هو « لكونان » كونت بريتانى الذى عرف بالسمين ٠

بعد أن أنجبت « برترادا » هؤلاء الأولاد الثلاثة من زوجها الشرعى فولك الكبير هجرته وفرت الى « فيليب » ملك الفرنجة الذى نحى جانبا زوجته الشرعية ، وجعل « برترادا » تقاسمه فراشه

فشاطرته أشجانه ، وظل مبقيا اياها معه رغم أنف القانون الكنسى ورغم جميع محاولات الأساقفة وأشراف مملكته ، بل لقد انتهى به الأمر أخيرا الى أن عاملها معاملة الزوج لزوجته ، فأنجب منها ولدين هما « فلورس » وفيليب ، وابنة هى « سيسيليا »(١) التى ذكرناها من قبل والتى تزوجت أول ما تزوجت من « تانكريد » أمير انطاكية ، فلما مات اقترنت ببونس كونت طرابلس ٠

أما الابن الصغير لفولك (الكبير) فقد سمى باسمه أيضا ، ثم تزوج بعد موت أبيه من « أرمبيرج » ابنة هيلى كونت « مين » ، وقد أنجبت ولدين وابنتين ، وكانت أمه هى السبب فى هذا الزواج ٠

وكان فولك فى شبابه يعمل ساقى الشراب فى بلاط مولاه « كونت بواتو » حين جاءت الأخبار تنعى شقيقه الأكبر فبادر الكونت فى الحال الى القبض على الشاب وزج به فى السجن حتى يتمكن من أن يغتصب من فولك بالقوة بعض قلاع معينة كانت واقعة داخل ممتلكاته الخاصة التى كان والد فولك وأخوه قد ورثاها شرعا منذ أمد بعيد ، على الرغم من أنه كان من الناحية الاقطاعية تابعا لكونت بواتو ٠

وكانت أمه « برترادا » قد انفصلت عن أبيه قبل ذلك بزمن طويل وهربت الى ملك الفرنجة ، فلما علمت بحبس ولدها تحركت فيها مشاعر الأمومة فانطلقت الى الملك تستجديه وتستعطفه أن يمن على ابنها باطلاق سراحه ، وأن يرد عليه ماورثه عن أبيه ، فاستجاب الملك الى رجائها ، كما نجحت فى حمل الملك على أن ينعم على فولك بالزواج من ابنة « هيلى » الوحيدة المذكورة آنفا ، فزفت اليه بكل ما ورثته ٠ وكان لفولك من « أبيرج » كما قلنا ولدان وابنتان ، فأما

أكبر الولدين فقد خلف اباه فصار هو الكونت ، وزوجه ملك الانجليز القوى هنرى الكبير من ابنتـــه الوحيدة « ماتيلدا » أرملة هنرى (الأول) امبراطور الرومان · وقد صار لجوفرى بهذا الزواج ثلاثة ابناء هم : هنرى الذى يدير الآن شئون مملكة انجلترا ادارة حكيمة سديدة ، وأما الابن الثانى فهو « جوفرى » الملقب ببلانتا جنت ، وأما الثالث فوليم المعروف بذى السيف الطويل ·

كان الابن الثانى لفولك يدعى « هيلى » باسم جده لأمه وقد زوجه « روترو كونت بيرش » ابنته الوحيدة ، فتعهد ألا يتزوج مرة أخرى ، كما تعهد أن ينقل الى « هيلى » عند موته كل الميراث لكنه لم يف بعهده هذا ولا بأى عهد من العهود الأخرى ، فتزوج أخت اللورد الانجليزى كونت « باتريشيوس » فأنجبت له عدة أطفــال ، وهكذا فقد « هيلى » ــ رغم ما كان يؤمل ــ ميراث زوجته ·

أما « سبيلا » احدى بنـــات فولك فقد تزوجت النبيل العظيم « تييرى كونت فلاندرز » وتمخض هذا الزواج عن مولد فيليب الذى هو اليوم صاحب كونتية فلاندرز ·

أما الابنة الثانية « ماتيلدا » فقد خطبهـــا هنـرى ابن ملك انجلترا ، الا أنه كان مبحرا الى انجلترا قبل أن يتم هذا الزواج فجنحت سفينته فمات غريقا ، فأقسمت ماتيلدا أن تظل أرملة بقية حياتها ، ودخلت دير « فونتفرولت » حيث عاشت عيشة الطهر حتى وافاها اجلها ·

(٢)

كان فولك قد ذهب الى بيت المقدس بعد موت زوجته وقبل أن يستدعيه الملك ، وهناك كرس نفسه للرب فاكتسب ــ عن حق ــ عطف

الجميع ومحبة الملك ، وكانت علاقته بجميع البارونات تتسم بالمودة القوية ، اذ ظل مدة عام بأكمله يصرف من ماله الخاص وهو فى المملكة على مائة فارس ، ثم عاد بعد ذلك سالما الى بلاده حيث راح يستعد لتزويج ولديه وابنتيه ، وينظم أمـور كونتيته على احسـن الوجوه ، فلما رجع من القدس انقضت عليه بضع سـنوات كان منصرفا فيها الى ادارة شئونه فى يقظة وحكمة حتى جاءته سفارة من ملك بيت المقدس ٠

وكان بلدوين مهتما بتدبير زوج لابنته الكبرى حتى يطمئن لانتظام الأمور من بعده فى حكم المملكة ، لذلك أجرى مشاورات طويلة نزل بعدها على نصيحة أشراف مملكته وموافقة الشعب أيضا ، فأرسل الى فولك اثنين من كبار رجاله هما « وليم دى بيورى » ، وجى دى « بريزبار » ليخطبا اليه ابنة بلدوين ويصبح وريثا للعرش ٠

ومن ثم عمد الكونت الى ترتيب أموره الخاصة ونظم شئون الكونتية ، وبارك أطفاله ، وبدأ رحلته استجابة لدعوة الملك ، وخرج وفى صحبته حاشية كبيرة من نبلائه ، فما انقضت أيام قلائل من وصوله الى المملكة حتى زف الملك اليه ابنته الكبرى (مليزند) ، وجعل صداقها مدينتين ساحليتين هما صـور وعكا حيث ظل فولك محتفظا بهما لمدة ثلاث سنوات تقريبا ، واستمر يلقب بالكونت كما كان عليه من قبل ، فلما كان اليوم الحادى والعشرون من أغسطس عام ١١٣١ من مولد سيدنا لفظ الملك أنفاسه ٠ وفى اليوم الرابع عشر من سبتمبر وهو يوم تمجيد الصليب الطاهر توج الكونت فولك وزوجته مليزند تتويجا رائعا ، كما تم ترسيمهما ــ جريا على العادة ــ فى كنيسة القبر المقدس على يد وليم بطرك بيت المقدس الطيب الذكر ٠

(٣)

كان جوسلين كونت الرها فى ذلك الوقت مسجى فى فراشه وقد أنهكه المرض الطويل ، وكان يتوقع قبض روحه فى كل يوم يمر به ، وكان قد حدث فى العام المنصرم وهو فى ناحية قريبة من حلب أن وقع عليه برج مبنى بالطوب اللبن كان قد أمر بنقضه من أساسه حتى يتيسر له الاستيلاء على ذلك المكان وعلى الذين بداخله من الأعداء ، لكن « جوسلين » لم يتخذ ما ينبغى من الحيطة فتردى هو ذاته تحت الردم المباغت الذى كاد أن يدفن تحته حيا لولا أن خلصه من معه بعد صعوبة كبيرة ، فخرج من تحت الردم ولكن بعد أن أصيب بعدة كسور · وقد ظل فترة طويلة من الزمن يعانى آلام كسوره هذه وان نجح رغم ذلك فى الحفاظ على قوة روحه المعنوية التى كانت تصارع الرحيل ، ثم حدث ذات يوم أن قدم عليه رسول على عجل يخبره أن سلطان قونية حاصر « لكريسون » احدى قلاعه ، فما كاد هذا الرجل القوى الروح ، الضعيف البدن ، الثابت الجأش يسمع هذا الخبر حتى أمر فى الحال باستدعاء ابنه اليه ، وأمره بالخروج فى لحظته على رأس جميع عسكر البلد لصد العدو بشجاعة بدلا منه هو لأنه أصبح عاجزا عن الحركة · غير أن الابن راح يختلق الأعذار حتى لا يخرج ، متعللا فى عدم انصياعه لأمره بأن الأخبار جاءت تفيد بأن السلطان المذكور زاحف بجيش ضخم يفوق ما مع جوسلين من العسكر اذ هم قلة قليلة ، فلم يخف الأب المرارة الشديدة من تخاذل ولده ، وعرف من رده أى رجل من الرجال سيكون هذا الابن فى مستقبل أيامه ، فأمر الأب الجيش وكافة أهـــل البـــلد بالخروج للقتال ، فلما تم ذلك أمر بتهيئة محفة له هو ذاته يسجونه عليها غير عابىء بآلامه وضعفه ، وتقدم على هذه الصورة لمواجهة العدو ، وظل مصاحبا العسكر على هذه الهيئة ساعة من الطريق حتى جاءه أحد بارونات تلك البلاد واســـمه « جوفرى » وينعت

بالراهب ، فلما مثل أمامه أنبأه أن السلطان قد رفع الحصار عن « كريسون » حين سمع بخبر زحفه وارتد سريعا على أعقابه ٠

فلما عرف الكونت (جوسلين الأب) الأمر أمر أن توضع المحفة المحمول عليها على الارض ثم رفع لكفيه الى السماء وقد اغرورقت عيناه بالدموع وتنفس الصعداء أن أسبغ الله عليه فى أخريات أيامه رحمته ، وجعله ـ وهو نصف ميت وعلى حافة القبر ـ لا يزال يثير الفزع فى قلوب أعداء الملة المسيحية ، ثم فاضت روحه وهو يتمتم بعبارات الشكر ، ومات مخلفا ابنه المسمى باسمه وان كان دونــه بكثير فى عظمته ، ولكنه كان وريثه الوحيد فى كل ما يملك ٠

* * *

كانت أم « جوسلين » الصغير أختا لليو الأرمنى الذى كان نفوذه بين قومه ضخما جدا ، وعلى الرغم من ضآلة هيكل جوسلين الابن الا أنه كان ممتلىء الأطراف قوى البنية ذا مرة ، شديد السـمرة ، أسود الشعر ، عريض الوجه كثير الندوب بسبب المرض المسـمى بالجدرى ، لكما كان جاحظ العينين بارز الأنف ، وعلى الرغم من أنه كان على جانب من السخاء الطبيعى الا أنه كان منقادا لشهواته ، مكبا على شرب الخمر ، مقبلا كل الاقبال على الخلاعة ، لا يتورع عن أى موبقة تدنس الجسد حتى تدنت سمعته الى الحضيض ، وكان قد تزوج من « بياتريس » أرملة « وليم الساؤنى » وهى سيدة شريفة المكانة كريمة الخلق ، فانجب منها غلاما اسمه « جوسلين الثالث ، وابنة اسمها « أجنس » التى تزوجت مرتين أولاهما من « رينو » صاحب مرعش ، والثانية من « عمورى » كونت يافا الذى صار فيما بعد ملك بيت المقدس ، فأنجب هذا الزواج ولدا هو بلدوين سادس ملوك بيت المقدس ، كما أنجب أختا لبلدوين هى « سبيلا » ، وسنشرح

فيما بعد كيف ان جميع البلاد التى كان يحكمها أبوه بكفاءة اضاعها جوسلين الصغير هذا بسبب تراخيه واهماله ، فكان ذلك جزاء له على خطاياه التى اقترفها ·

(٤)

ظلت مدينة أنطاكية وكل ارضها خلال السنة الأولى من عهد « فولك » بلا أمير يدبر أمورها ، لأن بوهيموند (الثانى) كان قد مات قبل وفاة الملك بلدوين غير تارك وراءه سوى طفلة صغيرة وحيدة هى التى ورثته ، واذ خشى كبار رجال الامارة أن تصبح الامـــارة عرضة لأضرار ينزلها بها العدو لعدم وجود من يحمى بيضتها فقد لجأوا الى الملك يسألونه أن ينهض فيحمل مسئولية تصـــريف الأمور ورعاية كل شيء ، وكانت أرملة الراحل (بوهيموند) وهى « أليس » ابنة بلدوين وشقيقة الملكة مليزند امرأة خسيسة وضـــيعة النفس ، موغلة فى الشر ، ولا تكل عن تدبير المكائد ضد الامارة ، مستعينة فى ذلك بشركاء لها فى مشاريعها الرامية الى حرمان ابنتها وابنة بوهيموند الثانى من أن ترث أباها ، سعيا منها لأن تصفو الامارة لها هى وحدها فتتزوج من جديد بمن يرتضيه هواها ، لكن الملك بلدوين الذى كان لايزال على قيد الحياة أفســـد عليهـــا ما دبرت ، اذ أمر باخراجها قسرا من انطاكية وافهمهـــا أن تقنع بنصيبها الذى كان زوجها جعله صداقا لها وقت اقترانه بها ، وأعنى بهذا الصداق مدينتى جبلة واللاذقية الساحليتين ·

فلما مات أبوها ظلت أن الجو خلا لها وأن الوقت الملائـــم قد حان لتنفيذ خطتها الأصلية ، وكانت هى قد استطاعت بفضـــل هداياها الجمة ووعودها الكثيرة أن تستميل الى جانبها طائفة معينة من كبار القوم فاشركتهم فى مؤامرتها ، وهم « وليم دى سبهونا »

أخو « جارنتون » و « بونس » كونت طرابلس ، و « جوسلين »
الأصغر لكونت الرها ، وكان هذا الأمر هو ما يخشاه كبار الامراء
كل الخشية الذين جاهدوا أعنف الجهاد وبذلوا كل ما فى طاقتهم
من قوة لمقاومة أهدافها الخسيسة ، ومن ثم فانهم التمسوا من الملك
كما قلنا أن يمد اليهم يد المعونة ويمحضهم الرأى السديد فى هذا
الموضوع ٠

(٥)

أصغى الملك بقلق بالغ الى التقرير الذى جاءته به السفارة من
انطاكية بشأن ما يقع فيها من اضطراب ، وتجلت له خطورة الموقف
البالغة ، فاستجاب فى الحال الى الدعوة الموجهة اليه ، ومضى فى
زحفه قدما حتى بلغ بيروت ، ولما رأى أن كونت طرابلس يرفض
السماح له بالمرور عبر بلاده عمد الى استصحاب أحد أشرافه
الأوفياء وهو « انسلم دى بورى » وأبحر الى ميناء السويدية حيث
قابله فريق من أشراف انطاكية والمتنفذين بها ورافقوه الى المدينة ،
ووضعوا الامارة كلها تحت امرته يسيرها وفق رأيه ٠

وأسرع كونت طرابلس فى أثره الى أنطاكية عساه يفسد عليه
كل ما أنجزه ، ذلك لأنه على الرغم من أن زوجته كانت ـ كما قلنا
كثيرا ـ أخت الملك الا أن الشائعة ترددت بأن « بونس » قد استسلم
لرشوة قدمتها له أميرة انطاكية كى يمد اليها يد المساعدة ، وكان
« بونس » يسيطر فى هذه الناحية على حصنين هما « أرسكاثوم »
و « الروج » اللذين آلا اليه شرعا عن طريق تملك زوجته (سيسيليا)
لهما وكانت أرملة « تانكريد » الطيب الذكر الذى منحهما لها وهو
على فراش الموت ، كما أنه كان قد زود هذين الحصنين بالسلاح
وجهزهما بالعسكر ، واتخذهما قاعدة لمضايقة الملك ورجاله ، مما أثار

الحنق الشديد فى نفوس أهالى أنطاكية ، فأخذوا يحثون « فولك » على الزحف ضد الكونت لشجب عداوته الوقحة ، فلبى الملك دعاءهم اذ تذكر اللطمة التى لقيها أثناء رحلته حين رفض « بونس » أن يأذن له بالمرور عبر طرابلس(٢) ، لذلك حشد الملك أكبر حشد تيسر له وزحف به على خصمه ، والتقت القوتان قرب « الروج » واصطف الجانبان للصدام ، ونشبت معركة ضارية ظلت خاتمتها غير معروفة فترة غير قصيرة ، ثم رجحت كفة الملك أخيرا فانتصر ، فلم يجد الكونت ورجاله ازاء هذا الوضع بدا من الهرب ، وكان الجانب الأعظم من رجال الكونت ممن أرهقهم القتال قد أسروا وجيء بهم الى أنطاكية مكبلين بالأغلال ، غير أن الجفوة التى كانت تفسد ما بين الملك والكونت زالت فتصافيا فى النهاية بفضل الجهود الطيبة التى بذلها محبو الوئام المخلصون ،

وعاد الفرسان الذين كانوا فى الأسر الى الكونت ، وبدت أمور أنطاكية فى حال أحسن مما كانت عليه من قبل بيد أن رجال الامارة العقلاء خافوا ان رجع الملك الى دياره أن تضطرب أمـــور الامارة من جديد وتشتعل بنار الفتنة الداخلية التى تتيح للأعداء الكفار أحسن الفرص لمهاجمتها ، لذلك توسلوا الى الملك « فولك » أن يطيل بقاءه بين ظهرانيهم ، فاستجاب لهم عن رضا وطيب خاطر ، شعورا منه بأن مملكته هو ذاته تتمتع بفضل الرب بالاستقرار التام ، بينما أنطاكية التى هو فيها الآن فى أمس الحاجة الى من يحميها ، ومن ثم مكنته حصافته من ترتيب أمور كل من المدينة والمنـــاطق المجاورة لها ، مستعينا فى ذلك بنصيحة وجوه رجالاتها وموافقتهم ، كذلك دفعته الرغبة فى جعل كل شيء على أحسن وجه ممكـن أن يوليها من الرعاية مثلما يولى مملكته الخاصة بل وأكثر مما يوليها ، فاكسبه هذا الصنيع الثناء الجميل المتزايد من جانب الأهالى قاطبة ومن النبلاء المخلصين ، وظل مقيما فى انطاكية ما تطلب الموقف منه

هذه الاقامة ، حتى اذا اطمأن الى استتباب أمنها وانتظام أمورها عاد الى مملكته حيث كانت مسئولياته الخاصة تتطلب عودته ، وترك الامارة فى رعاية رجل قدير شريف المولد هو : « رينييه ماسوييه » .

(٦)

مرت فترة من الوقت انشغل فولك خلالها تماما بأحوال المملكة التى عهد اليه الرب بأمرها ، وكان شأنه شأن « مارتا » دائـــم الانصراف الى تلبية احتياجاتها ، وظل على هذا المنوال حتى قـدم اليه مبعوث من أنطاكية يفيده بأن جيشا كبيرا من الترك من الخليج الفارسى ومن عامة بلاد الشرق قد اجتاح أرض أنطاكية بأعداد كثيفة ، فانزعج خاطره مما سمع وخاف على الامارة التى كانت رعايتها موكولة اليه والتى كانت سلامة سكانها أكبر ما يشغل باله لاسيما وقد وضعوا كل أملهم فيه ، كما تبلبل خاطره لأنه تذكـــر المثل القائل « ان شبت النار فى دار جارك،فبيتك هو الآخر فىخطر»، وعرف أن سقوط جيرانه يحمل اليه فى طياته الخطر عليه هو ذاته ولما كان موقنا بجلالة قدر ما ينطوى عليه اسعافه اخوانه فى شدتهم فقد استدعى العسكر : فرسانا ومشاة من شتى أرجاء المملكة وتأهب للزحف الى هناك بسرعة ، فبلغ صيدا مع جيشه حيث قابل أخته الكونتيسة « سيسيليا » زوجة « بونس » كونت طرابلس التى أفضت اليه بنبأ أثار حزنه ألا وهو أن زنكى ـ أمير حلب ـ الوالى التركى القوى قد شدد الحصار على زوجها فى قلعة من قلاع الامارة اسمها « مونتفراند »(٣) ، فغلبت عليها طبيعة الأنثى فألحت فى التوسل اليه أن يدع فى لحظته هذه جانبا كل ما يشغله حتى ينصرف لتخليص زوجها من وضعه الذى يبعث الأسى فى النفوس ، فحرك تضرعها قلب الملك الذى أجل مؤقتا الموضوع الذى كان قد خرج من أجله ،

وأمر بتوجيه زحفه نحو حصن « بعرين » ، وأخذ فى رفقته فرسانا معينين من فرسان الكونتية لم يكونوا قد صاحبوا الكونت فى حملته فما كاد زنكى يسمع بأن الملك فى طريقه اليه لانقاذ « بونس » حتى شاور جماعته ورفع الحصار بمحض ارادته وعاد بعسكره الى ديـاره ٠

(٧)

على هذه الصورة كان تحرير الكونت ٠

ولما تخلص الملك مما يؤرق باله ويزعج خاطره عاد الى هدفه الأصلى وتابع سيره فى خطوات قوية الى انطاكية حسب ما كان قصده فى البداية ، فلما سمع الأهالى أنه ماض اليهم خفوا الى مقابلته ورحبوا بضيفهم الملكى أجمل ترحيب ، فقد راودهم الأمل أن يتمكنوا بفضل جهوده النشيطة من مواجهة بطش العدو الذى قيل أنه قريب منهم كل القرب ، ذلك لأن الكثرة وان بلغت حدا كبيرا فانها لا تجدى ان لم يتوفر لها القائد ، وما أشبه الجيوش التى ليس لها موجه بذرات الرمل اذ لا يمكن لها أن تتماسك من غير جص يربطها بعضها ببعض ٠

واجمعت الشائعات والتقارير الواردة اذ ذاك على أن الأعداء قد أتموا عبورهم الفرات بجيش قوى حسن التجهيز ، وضموا الى عسكرهم جندا آخرين قابلوهم على ذلك الجانب من النهر ممن لهم خبرة تامة بمسالك تلك الناحية ، كما جاءهم الخبر بأن كافة الحشود مرابطة الآن قرب حلب استعدادا للقيام بغارات فجائية على الاقليم كله والعيث فيه خرابا ، وزادت الاخبار على ذلك بأن هناك قوات من كل الاقليم المجاور قد تجمعت فى موضع يقال له «قنسرين»(٤) ،

فأشار عليهم العارفون بالبلاد أن يباغتوا الامارة بجموعهم هذه ويشنوا عليها غاراتهم غير المتوقعة ٠

حينذاك حشد الملك عسكر الامارة وغادر أنطاكية بمن جاء معه من الفرسان وخيم بهم قرب حصن « حارم »(٥) حيث أملت عليه الحكمة القائلة بأن فى العجلة الندامة بأن يتريث هناك بضعة أيام ترقبا لمجيء الكفار الذين قيل ان عسكرهم كانوا فى كثرة تفوق كل عسكره ، وكان يؤمل اندفاع هذه القوات متحدية اياه للقتال فتكشف القناع عن خطتها فى الحركة لكنهم لم يفعلوا قط شيئا من هذا القبيل بل ظلوا ساكنين فى مخيمهم ، سالمين لم يلقوا كيدا ، وربما فعلوا ذلك انتظارا منهم هم أيضا لامدادات أكثر كانوا يترقبونها ٠ لذلك بادرهم « فولك » بالاغارة عليهم مبادرة أخذتهم على غرة حتى انهم لم يتمكنوا من حمل أسلحتهم ، فتناوشتهم السيوف والرماح من كل جانب ، ولم يستطع النجاة منهم الا نفر قليلون كان الفضل فى نجاتهم راجعا الى جيادهم ، أما غيرهم فقد قتلوا عن بكرة أبيهم ؛ وقارب هلكاهم أن يكونوا ثلاثة آلاف رجل ، فأصبح معسكرهم خاويا منهم ليس به أحد ، وان كان مليئا بشتى أنواع الضرورات والمتاع ٠

وعادت عساكرنا المنصورة الى انطاكية تغمرها الفرحة وتفيض أيديها بالأسلاب الرائعة وقد أثقلها ما حملت حتى انها لم ترغب فى مزيد مما غنمت ، وجاءت معها بشتى أنواع الغنائم وبالكثير من العبيد والجياد وقطعان الماشية والبقر والخيم ، ومجمل القول انهم جاءوا بالغالى الثمين من كل صنف ٠

وتمتع الملك منذ ذلك الحين بحب الانطاكيين حبا لا مزيد عليه ، يستوى فيه السادة منهم والعامة على السواء ، أما الأميرة

فقد كرهته ونقمت من وجوده بانطاكية ، وكان لايزال هناك نفر من الأشراف الذين أيدوا دعواها ممن استجلبتهم بعطاياها السخية فوقفوا ضده ، أما الآن فقد اجتمعت القلوب على حبه اذ جذبهـا قاطبة اليه ٠

(٨)

اضطر الملك أن يطيل اقامته فى أنطاكية حتى يتم الاتفـاق على اختيار أمير لها ، وعادت مقاليد أمور البلد فى هذه الأثناء مرة ثانية الى يده يتصرف فيها كما لو كان البلد بلده ، أما الصليبيون الذين تركهم فى مملكته ونعنى بهم البطرك وأهالى القدس فقد وكلوا أمرهم الى الله وتجمعوا فى عزم بمكان قريب من « نوبة » القديمة وهو المعروف اليوم ببيت نوبا(٦) ، وأقاموا على سفح الجبل القائم على المدخل المؤدى الى السهل وعلى الطريق الذى اذا سلكه المرء أفضى به الى « اللد »(٧) ومنها الى البحر ، أقول شيدوا هناك قلعة من الحجر الأصم ليؤمنوا عبر هذا الدرب طريق الحجـاج الذين كانوا يتعرضون لأخطار جمة بالغة أثناء اجتيازهم الممر الجبلى الضيق وأثناء اختراقهم الشعاب التى كان من المستحيل عليهـم تجنبها ، اذ كان العسقلانيون قد اعتادوا مباغتتهم بالنزول عليهم منها ، فلما نجح الصليبيون فى اتمام البناء ، نعتوه بقلعة « أرنولد » ومن ثم أضحى الطريق بفضل الرب وبفضل هذا الحصن أكثر أمنـا لسالكه ، وأصبحت رحلة الحجاج من بيت المقدس أو اليها أقـل خطورة عن ذى قبل ٠

(٩)

لما شاع ان الملك أحرز نصرا قشيبا ونجح نجاحا ملحوظا فى ادارة دفة أمور أنطاكية وفق ما يراه اكتسب شهرة فائقة وأصبح

واضحا للعيان كأن العناية الربانية قد اختارته لتدبير شـــئون(٨) المملكتين ودعم السلام ونشر الأمن بين النــاس ، لذلك قـــدم الملك لمشاورته فى الخفاء وجهاء أنطاكية لاسيما النفر الذين اقاموا على الولاء المتين للورد « بوهيموند » وابنته التى كانت لا تزال طفـــلة غريرة ، واذ كان الملك يعرف معرفة كبيرة كثيرا من شباب النبلاء البارزين من أهل البلاد الواقعة فيما وراء الجبال فقد جاءه الوجهاء هؤلاء يسألونه أن يشير عليهم بالشخص الذى يصلح أكثر من غيره من بين هؤلاء الأمراء(٩) الكثيرين ليكون زوجا لابنة مولاهم ووريثة أملاك أبيها (بوهيموند الثانى) ، فأصغى اليهم الملك وقد ســـره ما سألوه اياه ، وأثنى على اخلاصهم ، وبدأ يدبر الأمر فيما بينه وبينهم ، وبعد أن استعرضوا كثيرا من الأسماء أجمعوا العزم على أن يبعثوا فى استدعاء «ريموند بن وليم كونت بواتو» ، وهو من شباب الأشراف ذوى القدرة البارزة ، ويقال انه كان حينئذ فى بلاط هنرى الكبير ملك انجلترا الذى تسلم منه شارة الفروسية ، وكان أخوه الأكبر « وليم » فى هذه الأثناء حاكما على « اكويتين » اذ آلت اليه شرعا بالوراثة ، وبعد أن قلبوا الأمر على شتى وجوهه رأوا أن أحكم الطرق هى أن يرسلوا سفارة فى السر اختاروا لها « جيرالد » الملقب بجيبيريس » Jiberius أحد الاخوان آلاسبتارية ، فأرسلوه الى (ريموند) بكتب من البطرك ومن جميع النبلاء ٠

ولقد خافوا ان هم دعوا « ريموند » جهرا على يد رهط من كبار المبعوثين أن تقيم الأميرة أليس العراقيل فى وجه هؤلاء النفر لاسيما وهى امرأة قد حجبت الرحمة عن قلبها ففاض بالشر ، كما أنه كان من السهل الحيلولة بين أى شخص وبين الحضور ، لأن روجر الذى كان اذ ذاك دوقا لأبوليا والذى أصبح ملكا فيما بعد ، أراد أن يخلف هو نفسه قريبه بوهيموند (الثانى) ، وكان يزعم أن انطاكية ــ بكل ملحقاتها ــ تابعة له تبعية شرعية بحق الوراثة ٠

وكان روبرت(١٠) جيسكارد ـ والد بوهيموند الكبير ـ وروجر كونت صقلية الملقب ببورصـــة (والد روجـــر هذا) أقوى أخوين شقيقين من أم واحدة وأب واحد · أما بوهيموند الصغير بن بوهيموند (الأول) فكان والد هذه العذراء التى بعثوا فى استدعاء « ريموند » ليقترن بها ، لذلك كان من الضرورى اتخاذ الحذر فى ارسال الدعوة اذ لو علم منافسوه بالأمر لما استبعد استعمال العنف واللجوء الى المكيدة لمنع قدومه ، فلما رتبت المسألة على هذه الصورة عاد الملك الى بيت المقدس تشيعه بركات الجميع ·

(١٠)

ومات فى هذا الوقت « برنارد » أول بطرك لاتينى لأنطاكية ، وكان شيخا مسنا طيب الذكر ، قوى الايمان ، يخشى الله ربه(١١) وقد سار فى الطريق الذى لابد من أن يسير فيه كل مخلوق ، وكان قد أمضى فى بابويته ستا وثلاثين سنة ، فلما وافاه أجله حدث ما جرى العرف به ألا وهو تجمع كل منتسبى هذه الكنيسة الكبيرة من أساقفة ليرتبوا ما فيه العزاء للكنيسة التى حرمـــت من راعيها ، وبينما كانوا منصرفين تماما لهذه المسألة الخطيرة ـ كما هو الحال فى مثل هذه الأوضاع ـ إذا بالاختيار يقع على واحد اسمه «رالف» كان رئيس أساقفة « المصيصة »(١٢) ومن اقليم قلعة « دومفرونت » على حدود ابرشيتى « نرمنديا » و « مين » ، وكان « رالف » محاربا عظيم القدر ، كبير البر ، محبوبا من العامة والفرسان على السواء وان قيل ان العامة وحدها هى التى اختارته دون أن يدرى اخوانه واتباعه الأساقفة بما جرى ، ثم اجلسوه على الكرسى فى كاتدرائية أمير الحواريين ·

فلما فشـــا خبر هاذ الأمر انفرط عقد أولئك الذين كانوا قد تجمعوا لتنصيب بطرك عليهم بإرادة الرب ، وخافوا هياج العامة

والرعاع المسعورين ، ولكنهم رفضوا طاعة ذلك الشخص الذى لم ينتخبوه بأنفسهم ، فلم يعبأ « رالف » برفضهم بل احتل الكنيســة والمقر البطركى وطالب فى الحال بالتقليد من مذبح القديس بطرس دون مراعاة لكنيسة رومة ، واستطاع بمرور الوقت أن يضم الى صفه بعض رجال الكنيسة ، ولقد أفاد الكثيرون أنه لو كان قد راعــى قوانين الكنيسة مراعاة صحيحة ولم يفسد أوضاعها بما طبع عليه من الكبرياء فلربما أمكنه أن يمضى حياته هناك فى دعة وسلام ، ولكن المثل يقول انه من الصعب أن تنتهى بالخير الأعمــال التى كانت بداياتها سيئة ، ولقد أصبح « رالف » ـ عقابا له على أخطائه ـ مقهورا على أمره بسبب أمواله الطائلة التى جعلته يعتبر نفسه فوق الآخرين ، وسلك مسلكا كما لو كان أميرا لأنطاكية أكثر من أن يكون خليفة لبطرس أو « اجناتيوس » ، فشلح بعضا من كبار رجال الكنيسة بالقوة ، وأمسك آخرين وزج بهم فى الحبس كما لو كانوا قد ارتكبوا كبار الاثم ، وكان من ضحاياه شخص اسمه « أرنولف الكلابرى » ، وهو رجل ضرب بسهم وافر فى العلم الى جانب كرم مولده ، كما كان من ضحاياه أيضا « لامبرت » كاهن نفس الكنيسة الذى كان قد بلغ حدا عظيما فى بساطته المتناهية وأسلوب حياته السامية ، هذا الى جانب أنه كان رجل علم ، لكن « أرنولف » لم يعبأ بذلك كله بل زج بهما ـ كما لو كانا سفاحين ـ فى قبو احدى القلاع وحبسهما فى غرفة ملئت بالكلس ، وظلا يقاسيان العذاب بضعة أيام بحجة أنهما دبرا مؤامرة لقتله ، فجلب بذلك على نفسه مقت الجميع لقيامه بمثل هذه الأعمال المنطوية على الوحشية والفظاظة التى أنزلها باتباعهما ثم صحا ضميره فى النهاية فوخزه وخزا لم يجد معه الأمان فى أى مكان ، وافتقده حتى بين خدمه وحشمه .

فلنكتف الآن بهذا القدر عن هذا الموضــوع ، وســنتكلم عن نهايته فى الوقت والمكان المناسبين فى الفصول التالية(١٣) .

بينما كانت هذه الأحداث تجرى اذ ذاك فى المشرق اذا بالبابا « هونوريوس » يوفى(١٤) دينه للقدر وانتهت أيام حياته ، واذ ذاك عقد اجتماع لاختيار خلف له ، لكن تباينت رغبات الكرادلة فيما بينهم ، ولما لم يتمكنوا من الوصول الى اتفاق فيما بينهم فقد اختير اثنان هما الكردينال « جريجورى » شماس « سنت انجلو » الذى نعت بعد ترسيمه بأنوسنت ، وأما الآخر فهو القسيس « بطرس » الملقب بليو كردينال كنيسة القديسة مارى الواقعة وراء نهر التيبر والمسماة بكنيسة « فننس أوليوم » وقد سـمى « ليو » هذا بـ « أناكلتوس » ، وهو ما سماه به من اختاروه ، وقد ترتب على هذه الثنائية (فى منصب البابوية) أن استحر شقاق عنيف الخطورة هدد كنائس المدينة وأدى الى حرب أهلية هلك فيها الكثيرون من الخلق ، والواقع أنه شقاق هز العالم كله ، وكان من جرائه أن راحت كل مملكة تقاتل الأخرى ، وانتهى الأمر أخيرا بانتصـار البابا « انوسنت » بعد كثير من المشاق والأخطار الكبيرة ، وذلك لأن منافسه « بطرس » مات قبله ٠

وحوالى هذا الوقت تقريبا تخلص سلفنا وليم (الأول) من عبء الجسد ومضى الى ربه ، وكان هو أول رئيس أساقفة لاتينى لمدينة صور بعد تحريرها ، وكان ذلك لوجود شخص تقلد أمر هذه الكنيسة وقت أن كانت صور لا تزال فى قبضة العدو ، ومات قبل استخلاص المدينة كما ذكرنا ٠

ولما مات وليم الأول خلفه الطيب الذكر « فولشر » الأكويتانى من كونتية « انجولم » الذى كان شديد التمسك بالدين وكان يخشى الله ، وعلى الرغم من أنه لم ينل غير قسط ضئيل من العلم الا أنه

كان مخلصا محبا للنظام ، وقد شغل منصـب رئيس رهبان ديـر « سيللز » ، وطبق على اخوانه هناك القوانين التنظيمية ، ولما شب النزاع الذى أشرنا اليه آنفا (وهو النـزاع الذى كان بينه وبين البابا أنوسنت الثانى وبطرس بن بطرس ليو،نائب الكرسى الرسولى) انضم جيرارد المندوب البابوى الى بطرس ، فأقض هذا كثيرا مضجع أنصار الجانب الآخر ، واذ كان فولشر رجلا يحيا حياة فاضـلة فانه لم يطق صبرا على هذه المعاملة ، واستأذن رفاقه ومضى الى بيت المقدس من أجل التبتل ومارس حياة العزلة مع اعتكافه الدائـم بكنيسة الضريح المقدس حتى بعثوا أخيرا فى طلبه لكنيسة صـور التى ظل يدير شئونها بدقة وكفاءة على مدى اثنى عشر عاما ، وهو رابع من تولى هذه الكنيسة (١٥) قبلى أنا الذى أتولى الآن شئونها ، وهى التى لم تسق الينا لكفاءتنا ولكن بهذا قضت مشيئة الـرب وقضت بها لنا .

وبعد أن تسلم « فولشر » هدية الترسيم من يد وليم بطرك بيت المقدس أراد الاقتداء بسلفه فى القيام بزيارة كنيسة رومة ليتسلـم عصا الرعوية ، غير أن البطرك ومعاونيه فى الأثم راحوا يحيكون ما يحول بينه وبين ما يزمعه ، سواء أكان ذلك بالحيلة أو بالقوة ، فكابد « فولشر » المشقة البالغة للنجاة من أيديهم كى يمضى الى الكنيسة فى رومة للسبب الذى ذكرناه آنفا ، وهذا يتضح بجـلاء من لهجة الخطاب التالى الذى كتبه البابا أنوسـنت الثانى حيث يقول :

« من انوسنت الأسقف خادم خدام الرب ، الى أخيه الموقـر وليم بطرك بيت المقدس : لك السلام وعليك البركة الرسولية » .

« لقد أعلنت السلطة الانجيلية أن النعمة الربانية قد خصت بطرس المبارك كأمير الرسل برياسة الكنيسة الجامعة » .

ثم جاء بعد ذلك قوله :

« لقد تملكتنا الدهشة أنك لم تستجب الاستجابة الواجبة في الرد على الكنيسة الأم بعد أن بذلت كنيسة رومة غاية الجهد لتحرير كنيسة الشرق وبعد اراقة دماء كثير من أبنائنا ، واجتذبت لخدمتها قلوب رجال الدين والعلمانيين ، وانك لم تكتف بمضايقة أخينا الموقر فولشر رئيس أساقفة صور حينما جاء جريا على عادة أسلافه ليتسلم الرداء الكهنوتي من الكنيسة في رومة بل زدت فكنت غليظا عليه خشنا معه بعد أن رجع من لدنا ، ولقد أسرفت في هذه المعاملة اذ رفضت أن تعيد اليه المكانة القديمة التي تتمتع بها كنيسة صور ، فعليك أن تنصفه حسب تفويضنا فتعمل في خلال ثلاثة أشهر من تسلم كتابنا هذا على تعويضه عما أصابه من الخسارة ، سواء أكان ذلك في حيفا أو في « برفيريون » ، وعلى أية حال فليس من العدل أن تغتصب منه أنت أو خلفاؤك ما هو حق له من التعظيم ولكنيسة أنطاكية ، وزيادة على ذلك فانه يقال إنك أخذت نفسك بالمغالاة في الاستبداد بأتباع تلك الكنيسة ، ومن ثم فان شئت أن تنعم بالتأييد الديني والعزاء من نفس الكنيسة الأم ، وتلقى العون في احتياجاتك بعطفها فانا نأمرك بحق سلطاننا الرسولي عليك أن تكرم رئيس الأساقفة المشار اليه ولا تسبب له ازعاجا ، ولا تتوان عن أن تعدلكل العدل فيما هو محل لشكواه منك ، وأن يتم ذلك في مدى الأربعين يوما التالية لتسلمك كتابنا هذا ، وزيادة على ذلك فلا تظنن انا فاعلون شيئا يكون مخالفا للسنن المرعية ضد أولئك الخاضعين له ، وانا لمنذروك بسحب طاعته هو ورجاله لك ووضعها في يدنا نحن » .

صدر في لاتيران يوم ١٧ ديسمبر .

صدر الأمر لفولشر عند رجوعه من كنيسة روما أن تكون تبعيته لبطرك بيت المقدس حسب التوجيهات التى منحت لأسلافه وقت أن كان الجدل لايزال على أشده عمن يكون خضوعه الدائم له : ألهذا البطرك أم لذاك ٠

كذلك صدر الأمر اليه أن يشغل فى كنيسة القدس نفس المكانة التى كان يشغلها اسلافه فى كنيسة أنطاكية طوال تبعيتهم لها ٠

وكان من الثابت أن رئيس أساقفة صور كان يطلق عليه فى الشرق لفظ « صاحب القداسة العظمى » ، اذ لم يكن هناك من يجادل فى أنه كان صاحب الصدارة بين الرؤساء الأساقفة الثلاثة عشر الذين كانوا خاضعين لكنيسة انطاكية منذ أيام الرسل ، ويطالع المرء فى قائمة اسماء الأساقفة الكبار الذين كانوا يتولون شئون كنيسة أنطاكية ما يلى :

كرسى الأسقفية الأولى هو كرسى أسقفية صور وتتبعها ثلاث عشرة أسقفية ٠

الكرسى الثانى وهو أسقفية طرسوس ويتبعها خمس أسقفيات ٠

الكرسى الثالث : الرها وتتبعها عشر أسقفيات ٠

الكرسى الرابع : أفامية ، وتتبعها سبع أسقفيات ٠

الكرسى الخامس : منبج ، وتتبعها ثمانى أسقفيات ٠

الكرسى السادس : بصرى ، وتتبعها ثمانى أسقفيات ٠

الكرسى السابع : عين زربة ، وتتبعها تسع أسقفيات .

الكرسى الثامن : سلوقية ، وتتبعها أربع وعشرون أسقفية .

الكرسى التاسع : دمشق ، وتتبعها عشر أسقفيات .

الكرسى العاشر : آمد ، وتتبعها سبع أسقفيات .

الكرسى الحادى عشر : سرجوليوس ، وتتبعها أربع أسقفيات .

الكرسى الثانى عشر : تيودو سيوبوليس وتتبعها سبع أسقفيات .

الكرسى الثالث عشر : حمص وتتبعها أربع أسقفيات .

أما المطرانيات المستقلة فثمانية .

وأما الأسقفيات الرئيسية فاثنتا عشرة واحدة .

ويتجلى من كتاب البابا « انوسنت » المرسل الى « وليم » بطرك بيت المقدس أن كنيسة صور كانت لها الصدارة والمكان الأول بين الكنائس التابعة لكنيسة القدس ، وأن طاعتها لها كانت بأمر البابا وحده نفاذا للمرسوم البابوى الذى يجرى على النمط التالى :

« من انوسنت الأسقف خادم خدام الرب الى وليم بطرك القدس : لك السلام والبركة الرسولية » .

« لما كانت نعمة الرب الجليلة قد عظمت تعظيما باهرا لكنيسة بيت المقدس فى أيامكم ، فالواجب يقتضيك أن تبدى رحمة أكثر تجاه اخوانك ، وأن تبجل - بالحب المتبادل - أولئك الذين تجب عليهم الطاعة لك ، ومن ثم فاننا نوجهك أيها الأخ العزيز أن تحب وتكرم

بالعطف الأخوى اخانا الموقر « فولشر » رئيس أساقفة صور الذى يدين بالطاعة لك بأمر من كنيسة رومة الطاهرة ، وعليك أن ترعـى بكل دقة هذا الخضوع لك ولكنيسة بيت المقدس وهو خضوع فرضه عليك فى الواقع عطف الكنيسة الرسولية ، فلا تضار كنيسة صور العظيمة الذائعة الصيت فى شىء من حقوقها ولا منزلتها ، ذلك لأنه ليس من المناسب أن تسلب منها أنت أو خلفاؤك التعظيم الذى ينبغى أن تبديه لها كنيسة أنطاكية » ٠

صدر فى ألبانو يوم ١٧ يوليو (١١٣٨) ٠

(١٣)

حين عاد « فولشر » من رومة استرد ـ ولكن بصـعوبة ـ أبرشيته الكبرى التى ظلت حتى هذا الوقت تحت سلطان بطـرك بيت المقدس ، وهى أسقفيات عكا وصيداء وبيروت ، أما المدن الأخرى وهى جبيل وطرابلس وطرسوس التى لها أبرشيات تتبع نفس الكنيسة فقد احتفظ بها غصبا بطرك انطاكية ، وتعلل فى ذلك أنه غير خاضع لرئيس الأساقفة على الرغم من أنه لم ينكر أن هذه الأسقفيات كانت تحت نفوذ الأخير ، ورغبة من البابا انوسنت فى ألا يحال بين عودة هذه الأسقفيات الى حضن كنيستها الأم فى صور فقد كتب الى اساقفة الكنائس المذكورة من قبل ، وكذلك الى بطرك انطاكية ما يلى :

« من انوسنت الأسقف خادم خدام الرب الى اخوانه الموقرين : جيرار أسقف طرابلس ، والى « ر » «R» أسقف طرطوسة ، والى « هـ » «H» أسقف جبيل ، لكم السلام والبركة الرسولية » ٠

« يجب أن تعرفوا أيها الاخوان الأعزاء أن وضع الكنيسـة يزداد تألقا حين تبقى مراتبها مصونة لا تمس ، وحين يحظى كل مقدم

كنيسة من الكنائس بما ينبغي له من التوقير دون حجاج أو انكار ، وعلى كل تابع لكنيسة من الكنائس أن يراعى الاحتـــرام المفروض والتعظيم الواجب نحو رؤسائه ان وجد مثل هذا الأمر ، لأنه اذا حجب هذا التوقير عن طريق الخطأ والظلم فسوف يتلاشـــى مبدأ الوحدة الذى يقرر النظام الكهنوتى خضوع كل شىء له فى دقة متناهية ، ويدفعنا الحرص على سلامة بقاء شرف كنائسكم ومكانتها (وحتى لا تصبح هذه الكنائس عديمة الجدوى بســـبب المنازعات الكلامية أو التمرد) لأن نأمركم ونوجهكم عن طريق هذه الرسالة الرسولية لاظهار نفس الطاعة التى فى أعناقكم لنا الى أخينا الموقر فولشر رئيس أساقفة صور كما تبدونها لمطارنتكم .

« وبناء على سلطتنا الرســـولية فاننا نقرر عودتكم وعودة جميع كنائسكم الى لكنيسة صور التى هى كنيستكم العظمى ، ونحلكم من التبعية لبطرك انطاكية . أما اذا خالفتم اوامرنا ولم تعودوا الى طاعة أخينا المشار اليه أعلاه فى مدى ثلاثة أشهر من تسلمكم هذه الرسالة فاننا - بقدرة الرب - سوف نقر الحكم الذى سوف يقضى به رئيس الأساقفة ضدكم وفقا للقوانين الكنسية » .

صدر فى لاتيزان يوم ١٧ يناير (سنة ١١٣٩) .

* * *

ولما كان بطرك أنطاكية رجلا واسع السلطة وكان يســـيطر سيطرة المالك لهذه الأسقفيات منذ زمن طويل ، وكان البابا لايحب أن يقوم من جانبه بعمل أى شىء يقف حائلا بينهم وبين تنفيذ أوامره فقد كتب الى بطرك أنطاكية هذا ذاته يقول له :

« من انوسنت الأسقف خادم خدام الرب الى أخيه رالف الموقر بطرك أنطاكية : السلام والبركة الرسولية لكم .

« لقد جاء فى نصوص القوانين المقدسة أنه ينبغى على كل واحد أن يكون قانعا بما فى يده من الممتلكات ، وألا يتطلع لاغتصاب حقوق الآخرين ، كما أن القوانين الوضعية والشرائع الالهية تمنعنا من أن نصيب جارنا بما لانحب أن نصاب به نحن أنفسنا ، واذا كان هذا من الحقائق الثابتة فانا نأمرك أيها الأخ العزيز ألا تمنع رجال كنيسة صور من أن يظهروا ما ينبغى عليهم اظهاره من الطاعـــة والتوقير لمطرانهم وهو أخونا الموقر فولشر رئيس الأساقفة ، وزيادة على ذلك فانه مما يخالف القواعد الكنسية أن تحجب عن المطارنة طاعة أتباعهم من رجال الدين ، لذلك فانا نرغب فى أن تظل الحقوق الموجودة بين كبار رجال الدين وأتباعهم والنظام القائم مرعية بلا معارضة » .

صدر فى لاتيران فى ١٧ يناير (سنة ١١٣٩) .

* * *

لم يكتف البابا المعظم بالكتابة الى هؤلاء العظماء وحدهـــم بل كتب أيضا بنفس الأسلوب الى الأساقفة الذين استقطبهم بطرك بيت المقدس والذين خافوا منه فرفضوا طاعة الأمر الرســولى ، ونصحهم البابا أن يدعوا جانبا جميع التعلات ، وأن يعلنوا طاعتهم فى الحال لكبير أساقفة صور ، وتقول هذه الرسائل ما يلى :

« من الأسقف انوسنت خادم خدام الرب الى اخوانه الموقرين بلدوين أسقف بيروت ، وبرنارد أسقف صيداء ، ويوحنا أســقف عكا ، سلام الرب عليكم والبركات الرسولية :

« لقد رغب الآباء المطهرون أنه لابد أن تكون فى الكنيسة مراتب ونظم مختلفة فيظهر الصغار خضوعهم وتوقيرهم لمن هم فوقهم حتى تؤدى الوحدة الناتجة من هذا التباين ذاته ، وتؤدى ادارة كل

وظيفة الى أفيد النتائج ، لكنا انزعجنا وبلغت الدهشة بنا غايتها حين علمنا أنه على الرغم من الوقت الطويل الذى انصرم منذ أن أمرناكم بكتبنا الرسولية أن تظهروا الطاعة والتوقير لأخينا المبجل فولشر رئيس أساقفة صور ، فانك لم تفعـــل ذلك بل رحت تقـدم الاعتذارات الفجة والحجج الواهية ، لأنه لاجدال فى أن خطيئة التمرد كخطيئة العرافة والسحر ، وأن العناد كالوثن والتراقيم(١٦) ٠

« ولذلك فانا نأمرك ونوجهك مـــرة ثانية ـ بحق ما لنـــا من الصلاحية الرسولية ـ أن تطرح جانبا جميع الاعتذارات وأن تطيع أخانا « فولشر » فى كل شىء ، كما ننهاك بحق الطاعة التى تظهرها لكل حبر من أحبار الكنيسة) عن أن تنتزع منه لقبا واحدا من ألقاب التبعية والترقير اللذين تدين بهما له باعتباره مطرانا لك ، وزيادة على ذلك فانك اذا دأبت على العناد فاننا سوف نوافق بقوة الله على الحكم الذى نطق به أو ينطق به رئيس الأساقفة هذا ضدك وفقـا للقوانين الكنسية ، فان أطعت هذا فان أى حكم يقضى به عليك أخونا بطرك القدس سوف نعده غير ذى موضوع ونعلن أنه لا قيمة لـــه » ٠

صدر فى لاتيران يوم ١٧ يناير ٠

(١٤)

من الأمور التى تحتاج الى شىء من التفسير هو أن يكتب البابا الى ستة فقط من رؤساء الأساقفة فى الوقت الذى يسيطر فيه شرعا رئيس أساقفة صور على أربعة عشـر أسقفا من كبـــــار الأساقفة ٠

لم يكن لمدينة « بانياس » التى هى « قيصرية فيليبى » أى

اسقف فى هذا الوقت ، أما الأبرشيات الست الأخرى فكان لها رؤساء أساقفة يدينون بطاعتهم لها ، ويعترفون بسلطانها عليهم ، فكانت « صرفند » تتبع مطرانية صيداء كما هو الحال معها حتى الآن •

وتتبع طرابلس أسقفيات البترون وعرقة وأرتاح •

وأما أسقفية انطرسوس التى تعرف أيضا بطرسوس فتملك أسقفية « أرواد » ومرقلية ، كما استبقى بطرك أنطاكية تحت سلطانه الشرعى ثلاثا من هذه الأسقفيات الست هى طرسوس وطرابلس وجبيل ، فلما استولى الصليبيون على هذه المدن نصب البطرك أساقفة فيها ، وكان قصده أنه حالما تتحرر مدينة صور ومطرانيتها فانهما تعلنان ــ وفق الاتفاق السابق ــ الطاعة الواجبة عليهما له باعتباره البطرك فيعيدهما من غير شقاق الى أساقفة صور حسب الارتباط الذى ارتبط به ، ولكن المدن المذكورة كانت تقع فى كونتية طرابلس حيث كان فى قدرة بطرك أنطاكية أن يفعل ذلك دون تدخل من أحد نظرا لأنه لم يكن هناك أى تدخل من جانب الملك •

أما فى الثلاث الأخريات وهى بيروت وصيداء وبطلموسة Ptolemais التى هى عكا فقد رسم بطرك القدس بها الأساقفة وهو مجمع العزم على نقلهم جميعا الى تبعيته متى تم الاستيلاء على مدينة صور العظمى حيث كان من حقه ترسيم أسقف بها ، وذلك لأنه كان ينادى بعكس ما جرت به العادة من أن أسقفية صور ينبغى أن تعلن تبعيتها له هو ذاته ، وكان يعتمد فيما ذهب اليه فى هذا الموضوع على خطاب « باسكال » الذى يبدو منه أنه منح كلا من بلدوين أول ملوك بيت المقدس و « جبلين » ثالث بطاركتها الحق فى أن يكون أساقفة جميع المدن (التى استولى عليها الملك العظيم وعسكره أو التى يتسنى له فتحها) خاضعين لبطرك بيت المقدس •

ولقد قصصنا خبر ذلك من قبل حين كنا نعالج عهد بلدوين أول ملوك القـدس ٠

ومن ثم فانه لما كانت كل ولاية صور قد تحررت قبل أن تتحرر المطرانية ذاتها فقد تقاسم البطركان الأبرشيات بينهما ، فاستولت كنيسة أنطاكية على القسم الواقع خارج مملكة بيت المقدس والذى لازال فى حوزتها حتى الآن ، وهو القسم الممتد من المكان المسمى بالمنطقة القروية ، على حين أن بطرك القدس استحوذ على ما يقع من هذا الجزء فى داخل حدود المملكة ، ولما تم أخيرا بعون الرب استخلاص مطرانية صور الكبرى قام بطرك القدس بعد أربع سنوات من ذلك الخلاص بترسيم رئيس أساقفة لها ، ورد عليه الأماكن التى كان قد استبقاها تحت اشرافه الشخصى ٠

لكن حدث فى خلال هذا الوقت الذى صارت فيه اليد العليا لبطرك القدس على صور أن ضعفت صور غاية الضعف وتدهورت مكانة الكنائس الداخلة فى نطاق المدينة ذاتها ، غير واحدة احتفظ بها لرئيس الأساقفة المقبل ، وقد برهنت هذه الخاتمة على صـدق المثل القائل « ان الذين يطالبون بأربطة الأحذية وهم لا يحتاجونها انما تؤخذ لهم من جلود الآخرين » ٠ اذ لازال البطركان اللذان ذكرناهما يتنازعان حتى اليوم أمورنا ويشتدان فيما يضرنا ، ويثريان بفقرنا ، كما أن الكنيسة التى مزقتها قرارات المجامع العالمية السبعة المقدسة والتى كانت قد انتشرت شرقا وغربا منذ عهود قديمة ترجع الى أيام الرسل فانى أقول ان هذه الكنيسة يسودها الآن الاضطراب ، كما حرمت من أقوى أعضائها ، وباتت تنتظر العزاء وما من أحد يواسيها ، وانها لتمد يدها ضارعة مستغيثة فلا تغاث وقد أصبحت أشبه بالذين قيل عنهم « ان أى أخطاء يرتكبها الملوك يتألم منها الاغريق » ، وأشبه بالذين أكلوا من لحمنا حتى اتخموا الى حـد الغثيان ٠

ومع ذلك فاننا نعزو سبب هذا الشر الأكبر الى كنيسة رومة ذاتها غير متجنين فى ذلك عليها ، لأنها اذا كانت تأمرنا بأن نطيع بطرك القدس فانه مما يشقينا أن نضار ونظلم ببطرك أنطاكية ، لأنه لو عادت الينا وحدتنا فانا نكون على استعداد بقلوب راضية ـ لأن نخضع لأحد البطركين دون معارضة أو مشاحنة منا ٠

ومن ثم فلا يستغربن أحد أو ينكر علينا (نحن الذين أخذنا على عاتقنا كتابة التاريخ) أن ندرج فى هذا الكتاب التفاصيل عن احوال كنيستنا ، لأنه ليس من الملائم أن نتناول أمور غيرنا ثم لا ندرى شيئا عما يخصنا ، اذ يقول المثل « ان الذى يتكلم ويتناسى نفسه انما ينطق غثا » ٠

والآن فلنعد الى التاريخ ٠

(١٥)

حين عاد الملك من أنطاكية كما ذكرنا اضطربت الأمور اضطرابا خطيرا مرة أخرى ، اذ يقال انه قد تآمر عليه اثنان من أكبر أشراف المملكة هما « هيج » كونت يافا و « رومان دى بوى »[٢] صاحب ما وراء الأردن ، ويتطلب تفصيل هذا الأمر منا أن نرجع قليلا الى الوراء ، ففى زمن « بلدوين دى بورج » الذى اعتلى العرش قبل الملك « فولك » كان هناك ممن قاموا بالحج الى بيت المقدس رجل من أصحاب المكانة الرفيعة والنفوذ القوى بين قومه هو «هيج دى بوسييه» من أبرشية « أورليان » ، وكان معه فى حجه هذا زوجته « ماميليا » ابنة « هيج شوليه » كونت « روسى » ، فولدت له اثناء الطريق ابنا فى « أبوليا » لأنها كانت حاملا حين بدأت رحلتها ، ولما كان الوليد ضعيفا أشد الضعف ويخشى عليه من هذا السفر فقد بعث به

« هيج » الى قريبه لورد بوهيموند ، ثم عبر البحر الى الملك بلدوين الذى كان يمت هو الآخر اليه بصلة القرابة ٠

ما كاد « هيج » يصل الى هنا حتى بادر الملك باقطاعه مدينة يافا بملحقاتها وجعلها ارثا فى ذريته من بعده ليكون بذلك تابعا له ، لكن ما لبث « هيج » أن مات ، واذ ذاك قام الملك وقرب اليه كونت « البرت » أحد نبلاء ناحية « لييج » وهو اخو « كونت نامور » ومن أصحاب النفوذ الكبير فى الامبراطورية ، فلما قدم البرت على الملك زوجه الملك من أرملة « هيج » وأقطعه المدينة المشار اليها ٠

ثم مات « البرت » وتبعته زوجته وكان الطفل الذى تركوه وليدا فى « أبوليا » قد بلغ سن الشباب فالتمس من الملك ان يمنحه ما ورثه من أبويه وهو ارث كان قد انتقل شرعا اليه حين مات أبوه ومن بعده أمه ٠

ثم تزوج « هيج » بعدئذ من المبجلة « ايميلونا » ابنة اخى البطرك أرنولف وأرملة الشريف الجليل « استاس جرنييه » الذى كان له توأم هو « استاس الصغير » صاحب مدينة صيداء ، وولتر الذى تولى حكم قيصرية ، وحدث بعد موت الملك بلدوين وارتقاء « فولك » العرش أن شبت خصومة عنيفة لا نعلم اسبابها بين كونت « هيج » والملك الذى قال البعض انه لم يكن كبير الثقة فى الكونت ، فقد شاعت الشائعة بأنه كان على علاقات كبيرة بالملكة ، ويبدو انه كانت هناك ادلة كثيرة تؤكد صحة هذه الشائعة ، ومن ثم فقد حركت الملك غيرته على زوجته حتى ليقال ان نفسه انطوت على كراهية سوداء كان يضمرها لهذا الرجل(١٨) ٠

وكان كونت « هيج » شابا فارع الطول ، مليح التقاطيع ، بارعا فى القتال ، يبهج العيون مرآه ويملك اعجاب الناس ، وقد جادت عليه الطبيعة بكل فتنة ، وحبته بجمال لا حد له ، وبذلك لم تفتح العين على مثيل له فى المملكة فى روعة الصورة وبهاء الهيئة هذا الى شرف مولده ، وبراعته فى فنون القتال ، الى جانب وشيجة القرابة القوية التى كانت تربطه بالملكة من جهة الأب ، لأن والديهما كانا ابنى خالة ، فأمهاتهما أختان •

على أن البعض يميل الى التقليل من حقيقة هذه الشائعة فيقول ان السبب الوحيد لهذه الكراهية هو ما كان عليه الكونت من صلف طاغ وغرور شديد حملاه على أن يرفض الخضوع للملك كبقية أشراف المملكة حتى لج فى عصيان أوامره •

(١٦)

ثم جاء يوم من الأيام جاء فيه « ولتر » صاحب قيصرية وهو ابن زوجة « هيج » وكان شابا تتدفق فيه الحياة ويتمتع بمظهر جميل ، كما اشتهر بين الناس بقوته ، ووقف « وولتر » فى هذا اليوم فى جمع من النبلاء وقد انعقد البلاط الملكى ورمى هيج بالخيانة العظمى ، مصرحا بذلك على رؤوس الأشهاد وفى حضرة الملك الذى قيل ان ذلك كان بتدبير منه ، واتهمه بالتآمر على حياة الملك مع ثلة من الأشراف الذين هم من نفس جبلته ، فخرج بذلك على كل أخلاقيات الوقت وسلوكياته الطيبة •

لكن « هيج » انكر التهمة وعدها فرية كاذبة ، لكنه قال انه على الرغم من براءة ساحته الا انه راض بما يحكم به البلاط فى هذه الافتراءات التى رمى بها ظلما ، فتداول رجال البلاط الامر فيما

بينهم ، ثم أقروا ما تقضى به عادة الفرنجة من مبارزة كل من « هيج » و « وولتر » للآخر ، واتفقوا على يوم معين تقام فيه هذه المبارزة ، واذ ذاك غادر الكونت البلاط عائدا الى يافا لكنه تغيب عن الحضور فى اليوم المحدد للمبارزة ، ولا يعرف أحد على وجه التأكيد أكان ذلك الغياب راجعا الى تأنيب ضميره له وادراكه لفداحة اثمه ، أم أنه كان راجعا الى عدم اطمئنانه الى البلاط ، ومهما كانت الحقيقة فلا شك فى أنه بمسلكه هذا جلب على نفسه ـ حتى بين أنصاره الخلص ـ الظن الكبير بأنه ضالع فى المؤامرة المنسوبة اليه ، وترتب على اصراره على عدم الاستجابة الى نداءات النبلاء المتكررة اليه فى الحضور أن أدانوه ، كما أدانه البلاط فى غيابه وحكموا بأنه مذنب قد ارتكب الجريمة التى اتهم بها ٠

فلما علم الكونت « هيج » بذلك الحكم سلك مسلكا شائنا جلب منه على نفسه كراهية الجميع له واستحق لومهم ، اذ أسرع بالابحار الى مدينة عسقلان الكارهة لكل ما هو مسيحى ، والباسطة كف الصداقة الى أعدائنا ، وطلب من أهلها الوقوف الى جانبه ضد الملك ، فما كان منهم الا أن استجابوا فى الحال الى ما التمسه منهم ليقينهم أن المنازعات الداخلية والاختلافات التى تشب بين الصليبيين بعضهم وبعض سوف تؤدى الى ما فيه صالحهم هم ، وتعود بأفدح الأذى على المملكة ، وانتهى الأمر أخيرا الى ابرام اتفاق بينه وبينهم واذ ذاك قام « هيج » بتسليمهم الرهائن وعاد الى يافا ٠

تحرك العسقلانيون بعدئذ بدافع مما تنطوى عليه صدورهم من الحقد الأسود علينا والبغضاء المريرة لنا ، وزادهم اتفاقهم مع الكونت وتودده اليهم مغالاة فى نقمتهم علينا فأقدموا على غزو أراضينا فى جرأة لم تعهد من قبل ، وغرور لم يسبق العهد به ، فلما لم

يتصد أحد لهم اجتاحوا أرضنا حتى بلغوا « أرسوف »(١٩) المعروفة اليوم باسم « انتيباتر » وأصابوا منها كثيرا من الغنائم ٠

وبلغت أخبار هذه الغارات سمع الملك فاستدعى اليه فى الحال العسكر من شتى أصقاع المملكة ، ونهض فحاصر يافا بحشد كثيف من الناس ، وأصبح من الواضح لأتباع الكونت الخلص الذين كانوا معه فى هذه المدينة ذاتها ، أمثال « بليـــان » الكبير وغيره ممن يخشون الرب أن « هيج » عازم العزم الأكيد على الانزلاق فى هــوة الخطر ، وأنه لم يعد قادرا على التراجع مما أقدم عليه من مشروع مدمر ، وغير مصغ لتحذيرات أصدقائه الصادقين وهى تحذيرات تنطوى على العقل والسداد ، بل لقد أوغل فى الاصرار على السير فى الطريق الذى لابد أن يؤدى الى نكبة أكبر ، واذ ذاك نزلوا عن اقطعياتهم التى كان « هيج » قد أقطعهم اياها وانضموا الى جانب الملك انصياعا منهم الى ما يمليه عليهم الرأى الفطن ٠

(١٧)

ولما كان البطرك وليم رجلا كريما يؤثر السلم ويجنح اليه فقد قام فى هذه اللحظة مع رهط من أمراء المملكة بمهمة الوساطة بين الملك والكونت « هيج » فى محاولة منهم لتهدئة الأمور بين الطرفين ، والتوصل الى التوفيق بينهمـــا ، وكانت تلح على أذهـــان هؤلاء الوسطاء كلمات الانجيل القائلة(٢٠) « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب ، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت » ٠ ورأوا أن أفحش الأخطار التى تهدد المملكة انما تتمثل فى الانقسامات الداخلية وخافوا ـ وكانوا على حق فى خوفهم ـ أن يغتنم مخالفو الملـــة المسيحية هذه الفرصة للاضرار بهم ، وانتهى الوضع أخيرا بدعاة السلام وصانعيه (بعد بذلهم المحاولات الشاقة فى أمور خطيرة من هذا القبيل) الى أن يكتفوا سعيا منهم للوفاق وللحفاظ على شرف

الملك بنفى الكونت لمدة ثلاثة أعوام ، ثم يسمح له بعدها وللضالعين معه فى الجرم بالعودة الى المملكة ، شريطة أن يوافق الملك على هذه العودة ، وان كان ذلك لا يعفى الكونت من اللوم الذى يستحقه بسبب ما اقترف ، كما اشترطوا فى الوقت ذاته أن تستوفى من عائدات أملاكه جميع الديون التى قد تكون فى عنقه ، وكذلك رد كل مال يكون قد اقترضه من أى مكان ·

وكان الملك حينذاك مشغولا فى الناحية التى حول يافا ومعه أيضا لورد « رينييه » الملقب ببروس مع غيره من نبلاء المملكة ، كما كانت مدينة « بانياس » تعانى الحصـــار الذى ضـــربه عليهـا « شمس(٢١) الملوك بورى » ملك دمشق ، وكان الملك « فولك » اذ ذاك يبذل قصارى جهده ليحصل على أية نجدة تمكنه من انقـــاذ الموقف ، ولكن حدث قبل نجاحه فى مسعاه هذا أن سقطت مدينـة « بانياس » عنوة فى يد العدو الذى استرق سكانها والقى القبض على جميع العسكر المرتزقة من فرسان ومشاة ، وكانت من بين السبايا التى حملت مع غيرها زوجة « رينييه » المحارب النبيل ·

(١٨)

فى هذه الأثناء كان كونت يافا مقيما فى بيت المقدس جريا على مألوف عادته ولكن فى انتظار الاذن له بالسفر ، وحدث فى أحـــد الأيام أن كان جالسا يلعب النرد على مائدة أمام حانوت تاجر من التجار اسمه « الفانوس » فى الشارع المسمى بشارع « الفرائين » واستغرقه اللعب استغراقا خلا معه باله من توقع أى خطر يلقـــاه حينما برز له فجأة وأمام جميع الناس فارس من بريتانى ، واستل سيفه وهاجمه وضربه به عدة ضربات ، فاضطربت المدينة من أدناها الى أقصاها حين سمعت خبر هذه الجريمة ، وتجمع فى الحال حشد

كشف من الناس وسرى الهمس الخبيث بينهم الذى لم يكن يخرج عن قول واحد هو انه ما كان لمثل هذه الجريمة أن تتم من غير علم الملك بها ، وأنه ما كان للمجرم أن يجرؤ على مثل هذه المحاولة لو لم يكن واثقا من مساندة الملك « فولك » له ، وقالت الجموع المحتشدة ان الكونت قد رمى بفرية كاذبة هو منها برىء ، وأن الملك قد قدم الدليل الصريح على ما يضمره للكونت من الكراهية التى لا مبرر لها ، وهى كراهية جاوزت كل حدود خصومته مع الكونت الذى أكسبه ذلك الحادث عطفا شعبيا كبيرا ومحبة طاغية ، وأحس الجميع أن التهم التى رمى بها ـ أيا كانت طبيعتها ـ ان هى الا افتراءات أملتها الكراهية ٠

فلما وقف الملك على هذه المشاعر رأى الضرورة تفرض عليه أن يبرىء ساحته وحثته الرغبة فى زيادة البرهنة على براءته ان يأمر بتقديم المجرم الى المحاكمة ، ولم تكن الحاجة تدعو الى متهم وشهود لاثبات الجريمة لأنها ارتكبت أمام الجميع فى وضح النهار ، ولما لم تكن هناك حاجة لاتخاذ الاجراءات القانونية المعتادة فقد أمر الملك بوجوب الحكم على المغتال حكما يتلاءم مع شناعة جرمه ، وصدر الحكم بالاجماع بتقطيع أطرافه ، فلما رفع الحكم الى الملك أمر بتنفيذ ما قضى به عليه فورا واستثنى لسانه من القطع فلم يقطع ، وقد عمد الملك الى هذا الاستثناء حتى لا يتقول قائل بأن القصد كان قطع لسان المجرم كى لا يقدر على الاعتراف بالحقيقة ، ألا وهى أن الملك هو الذى أرسله الى الكونت « هيج » ليقتله ٠ وهكذا نهج « فولك » نهجا حكيما صان به سمعته ، وأخمد السخط الهادر ضده، واستحال على القوم أن يستخلصوا من المجرم فى السر ولا العلانية وقبل تنفيذ الحكم أو بعده ـ اعترافا بأنه ارتكب هذا الاثم الشنيع بتوجيه من الملك أو بعلم منه ، ولكن الذى جرى كان على العكس من

ذلك حيث صرح بأنه أقدم على هذه الفعلة بدافع من تلقاء نفسه أملا منه فى اكتساب عطف الملك عليه ·

❋ ❋ ❋

ظل الكونت مقيما بعض الوقت فى المملكة حتى تندمل جراحاته ويسترد صحته ، فلما نقه وتمت عافيته غادر المملكة الى « أبوليا » وقلبه يفيض بالألم والأسى حزنا من المصائب التى انصبت عليه منذ قريب ، وبسبب القرار الذى جعل منه شريدا كالمتسول فى الأماكن التى لا يعرفها ، ومحروما مما ورثه من أسلافه ·

❋ ❋ ❋

ومضى الى « أبوليا » حيث يوجد « روجر » الذى كان قد أتم فتح الاقليم بأجمعه ، فأكرم روجر وفادته أحسن الاكرام ، ادراكا منه بأن الغيرة منه التى كانت تنهش صدور خصومه هى التى أخرجته هائما على وجهه من المملكة وهو الرجل النبيل الشجاع ، ومن ثم عطف الكونت روجر عليه وأقطعه كونتية « جارجان » لكن ما لبث الموت أن عاجله فيها ، فحق للأجيال التالية له أن ترثى له اذ لم يقدر له أبدا أن يعود الى المملكة ·

❋ ❋ ❋

وراحت الملكة مليزند منذ ذلك الحين تصب جام غضبها على جميع من كانوا يقولون قالة السوء فى الكونت ، وكانوا السبب فى اثارة حنق الملك عليه ، فاضطر هؤلاء لاتخاذ الاحتياطات الشديدة حفاظا على سلامة أرواحهم فقد كان الألم الممض يعصر قلب الملكة حزنا على الكونت « هيج » المنفى وتحقد على هؤلاء الذين شوهوا سمعتها الطيبة بذلك الاتهام المشين بعض الشىء ، وراحت تصب شواظ اضطهادها صبا عنيفا على « روهارد » الكبير الذى عرف

فيما بعد بصاحب نابلس ، فهو الذى كان يسعى فى غير كلل الى اثارة الغيرة فى نفس الملك من « هيج » ، ولم يكن احد من هؤلاء الوشاة بقادر على التواجد فى حضرتها ، بل رأوا الخير كل الخير فى اعتزالهم الاجتماعات العامة حتى ان الملك نفسه لم يكن يحس السلامة التامة ان كان وسط أقارب الملكة وأنصارها ، وأخيرا هدأت حدة غضبها بفضل توسط جماعة من الأصدقاء المخلصين ، ونجح الملك بعد لأى وبعد بذل الجهود الكثيرة المضنية فى أن يفوز بصفحها عن آخرين كانوا محل نقمتها ، فان لم يكن صفحها تاما فلا أقل من أنهم أصبحوا قادرين على الدخول الى حضرتها ، وان كان ذلك مع سواهم ، بيد أن الملك أصبح منذ ذلك الحين شديد الكلف بها ، فكان يعمل كل ما فى وسعه لتهدئة ثائرتها ، ويتجنب كل ما كان يثيرها من قبل ، ولم يعد يتخذ أى قرار ــ مهما يكن تافها ــ دون علمهـــا واستشارتها ٠

(١٩)

وفى حوالى هذا الوقت استجاب الملك لرجاء الدماشقة فهادنهم هدنة مؤقتة كانوا قد سعوا اليها بأن عرضوا بناء على اتفاقهم معه أن يردوا جميع من أسروهم فى مدينة « بانياس » وكان من بينهم زوجة « رينييه دى بروس » الشجاع صاحب هذه المدينة ، فعادت الى زوجها العظيم بعد غيبة طالت سنتين ، فردها مغتبطا الى مكانتها كزوجة ، وان كان قد ظهر بعد حين أنها سلكت أثناء وجودها بين أيدى العدو مسلكا مزريا فلم تحافظ محافظة المرأة الشريفة على فراش الزوجية ، فنبذها رجلها ولم تنكر هى اثمها بل دخلت أحـد الأديرة الخاصة بالنساء الطاهرات ببيت المقدس ، وأقسمت لتلتزمن العفة التامة حتى يوافيها أجلها ، وأن تنضم الى زمرة الراهبـات كواحدة منهن ٠

فلما ماتت تزوج هذا الرجل الشريف من ابنة أخى « وليم بيوزى » وهى « أجنس » التى اقترنت بعد مــوت « رينييه » من « جيرار » صاحب صيداء ، وأنجبت له « رينو » الذى له الحكــم الآن فى صيداء ذاتها ٠

وكان سقوط مدينة « بانياس » كما قلنا أثناء غياب صاحبها ، وكانت موجودة منذ أمد بعيد فى أيدى جماعة الحشاشين ثم سلمها أحد حكامهم واسمه « أمير على »(٢٢) قبل ذلك بقليل الى الصليبيين فعوضوه عنها تعويضا مجزيا اتفقوا عليه في عهد بينه وبينهم ، فبادر الملك « فولك » فى الحــال فأقطعهــا للورد « رينييه » ملكا يتوارثه الخلف عن السلف وسوف نقدم فى موضع آخر جماعــة الحشاشين هؤلاء ونشرح عقائدهم الباطلة ، ونبين سخط الــرب عليهم ٠ أما الآن فيكفى أن نقول انهم قوم لا ذمة ولا أخلاق لهم أبدا ، ومن ثم فقد حق للمسيحيين وغيرهم أن يخشوهم ، وحق للأمراء على وجه الخصوص أن يخافوهم ٠

(٢٠)

كان أهل أنطاكية كما قلت قد أرســلوا فى ذلك الوقت الى « ريموند بن كونت بواتو » الرسل الذين خرجوا يتحرون تحريا دقيقا أى الأماكن التى يتوقع وجوده فيها ، فعرفوا من المصادر الموثوق بها أنه كان فى بلاط « هنرى الكبير » ملك انجلترا الذى نصــبه فارسا وقلده بسلاح الفارس ، ومن ثم اتجهوا مباشــرة اليه فى انجلترا حيث وجدوا الشاب فبينوا له فى سرية تامة الدافع وراء حضورهم ، فنزل « ريموند » على نصيحة مولاه الملك (فولك) ورحب أجمل ترحيب بهذه الفرصة المتاحة له،حتى اذا أتم جميع الاستعدادات اللازمة للرحلة خرج متنكرا ، ولما كان روجر دوق أبوليا عارفا بما

دبره أهل أنطاكية من استدعائهم ريموند فقد أعد فى كل مدينة من مدن « أبوليا » الساحلية كمينا لمسك ريموند ، لعلمه أنه ان تمكن من أن يحول بين هذا الشاب (ريموند) وبين العبور ونجح فى رشوة كبار رجال هذه الناحية أو تلك فانه هو نفسه (أى روجر) يستطيع آن يجنى ثمار التركة التى يسعى ريموند وراءها ٠

على أن ريموند استطاع بما طبع عليه من الحذق والمهارة أن يخفى الغرض الحقيقى من سفره هذا ، فخلى جانبا كل مظاهر الأبهة وطلع على الناس كأنه واحد من عامتهم ، فكان يسير تارة على قدميه ، وتارة يمتطى دابة حقيرة من دواب الحمل ، وجعل رحلته بين العامة ، ولم يبد عليه أى مظهر يشير الى مكانته ويدل عليهـا أو على ثرائه ، كما أن الذين رافقوه من اصحابه واهل بيته وخدمه توزعوا جماعات ، فسبقه بعضهم بثلاثة أيام أو أربعة ، وجاء خلفه غيرهم كأن ليست بينه وبينهم صلة ما ٠

أما هو ذاته فقد تسربل فى أدنى مسوح يتسربل بها واحد من فقراء الحجاج حتى كان فى بعض الأحيان يخدم الناس فيظنه من لا يعرفه خادما ، وتمكن بمظهره هذا أن يخدع الجميع ، وأن يتجنب الوقوع فى الكمائن التى نصبها له خصمه العنيد القوى (روجر دوق أبوليا) ، فلما بلغ أنطاكية فرحت به قلوب أصدقائه وزادت فى خوف الآخرين من أنصار الأميرة الذين كانوا يحاولون جهدهم منعه من الحكم ٠

* * *

على أنه حدث قبل فترة وجيزة من هذا الوقت ـ وان كان بعد سفر المبعوثين لدعوة ريموند ـ أن خرجت الأميرة « اليس » (أرملة الراحل بوهيموند وأخت الملكة مليزند) ومضت للمرة الثانية قاصدة

أنطاكية ، وعلى الرغم من أن أباها كان قد منعها من الوجود فى هذه المدينة وطلب اليها أن تقنع باللاذقية وجبلة الا أنها تمسكت بدور المالكة صاحبة الأمر والنهى ، وبسطت مرة أخرى سيطرتها عليها ، فتشفعت لها أختها (مليزند) عند الملك راجية اياه ألا يتدخل فيما تفعله « أليس » ، وأعان الملكة فى مسعاها هذا نفر معروفون من الأشراف •

كما قام فى الوقت ذاته « رالف » بطرك أنطاكية الداهيـــة الرجل الراسخ القدم فى الحيل والمكائد ، وزعم لأليس زعما أوهمها به أن « ريموند » الذى قيل انه قريب من أنطاكية قد جاء لخطبتها هى ذاتها وليكون زوجها المقبل ، وكان الأسقف يرمى من وراء ذلك الزعم الى كسب ودها ونفوذها ضـــد رجـــال الدين الذين كانوا يعارضونه ، فجاز الأمل المزعوم على عقل « أليس » الساذجة •

وتجلى لريموند فى الوقت ذاته أنه لن يستطيع تحقيق هدفه من غير نفوذ البطرك ورضائه ، ومن ثم بعث الى البطرك بمترجمين تربطهم به وبرالف رابطة الصداقة يسألونه بلسانه الاجتماع بـه ، راميا من وراء ذلك أن يسبغ البطرك عطفه عليه ويكسب تأييده لـه ووقوفه الى جانبه ، فكان رد « رالف » على ريموند أنه اشترط عليه أن يبادر فيعلن ولاءه له ، وأن يقسم يمين الطاعة له ، ويكون جزاؤه على تلك اليمين الزواج ، من « كونستانس » دون أى معارضة ، واذ ذاك تساق اليه الامارة فينالها آمنا مطمئنا •

وزيادة على ذلك فانه اذا جاء أخوه هنرى الى أنطاكية سعى له البطرك سعيا حثيثا ليتزوج من « أليس » والدة الأميرة الصغيرة وأرملة بوهيموند ، ويكون له هو أيضا المدينتان الساحليتان والأراضى الملحقة بهما •

لم يكد يتم الاتفـــاق على هذا الوجه ويؤكد باليمين المغلظة حتى دخلوا المدينة بريموند ، وبينما كانت « أليس » لاتزال غارقة فى وهمها ، ظانة أن كل الترتيبات التى تجرى أمامها انما تعد من اجل اتمام عرسها ، اذا بالقوم يسيرون بريموند الى كنيسة أميـر الرسل حيث تمت مراسـيم قرانه بالأميـــرة الصغيرة الســـيدة « كونستانس » التى لم تكن قد بلغت سن الرشد والزواج ولكن جميع النبلاء الـــكبار طالبوا باتمـــام العقد فتم الأمر كما أرادوا ، وزفه البطرك بنفسه العروس الى زوجها ريموند ٠

ما كادت « أليس » تدرك كيف غرر بها حتى غادرت أنطاكية وارتدت الى مقاطعتها الخاصة وان ظلت تطارد الأمير (ريموند) منذئذ ببغضها الذى لا تهدأ حدته ولا يخبو سعيره ، كما راح البطرك منذ ذلك اليوم يسلك سبيل التعالى ، اذ أدى به اعتقاده برسوخ مكانته عند الأمير (ريموند بن كونت بواتو) الى أظهار غطرسة لم تعهد منه من قبل ، لكن سرعان ما أدرك أنه كان مخدوعا فيما ذهب اليه ، ذلك لأن ريموند أحس بالعار يلحقه بسبب اليمين التى أجبره البطرك على قطعها له ، ومن ثم تناسى النعم التى جناها والتى يرجع الفضل فيها الى البطرك ، وشرع فى النيل منه نيلا شديدا ، ولم يأبه قيد أنملة باليمين التى قطعها له بل انحاز الى خصومه ٠

(٢١)

كانت تجرى فى عروق لورد ريموند دماء تشير الى كـــرم محتده وشرف أرومته ٠

أما صفته فكان فارع الطول ، تتقحمه العين فتسرها طلعته غاية السرور ، وكان ذا وجه قسيم ، قد ظهرت فى خديه أولى طلائع

الشباب ، هذا الى وضاءة فاق بها كل ملوك الأرض وأمرائها ، وكان عذب الحديث لين الجانب ، والواقع أن مظهره كان على وجه العموم ينم عن أنه أمير سرى جذاب أنيق ، كما بز أسلافه وأقرانه بخبرته بفنون الحرب ، وبراعته فى استعمال السلاح ، وعلى الرغم من أن حظه من العلم كان ضئيلا الا أنه كان حفيا بأهل الأدب ، مع اهتمام بالشئون الدينية ، ومحافظة على اداء الشعائر الكنسية لاسيما الأعياد الدينية ، فلما تزوج صار حريصا كل الحرص على مراعاة العلاقات الزوجية والوفاء التام بكل مقتضياتها ٠

وكان وسطا فى مطعمه ومشربه ، وجوادا مبسوط الكف الى حد الاسراف ، فلا يحسب حسابا للغد ، هذا الى شدة ولعه بالألعاب الذميمة كالنرد والميسر ٠

وكان من النقائص التى تؤخذ عليه وتقدح فى خلقه اندفاعه الطائش مما يترتب عليه صدور أفعال مشينة منه ، وكثيرا ما أطلق العنان لغضبه من غير مبرر لهذا الغضب الذى كان لا يستطيع كبحه ٠

وقلما حالفه الحظ الحسن فلم يكترث باليمين التى قطعها على نفسه للبطرك رالف ، فلم يوف قط بعهوده اليه ٠

(٢٢)

كان نجاح العسقلانيين المستمر دافعا لزيادة جراتهم وشن المزيد من الغارات العنيفة المهينة ، وعلى كثرة اجتياحهم المنطقة كلها دون أن يتعرض لهم أحد فيصدهم ، وكانت عسقلان تحت حكم وال مصرى شديد البطش ، ولكان أخوف ما يخافه هذا الوالى أن يقتحم الصليبيون تلك المدينة ثم يغزوا مصر ويعكروا صفو هدوئها ، ومن

ثم فانه لم يبخل بالمال يصرفه ، ولا بالجهد يبذله ، حتى تظل عسقلان خط الدفاع عن مصر والحائل بينها وبين منطقتنا ، ولما كان يخشى تسرب الوهن الى نفوس أهلها من جراء أهوال الحروب الشديدة وأخطارها فقد عنى عناية كبرى بأن يمدها كل ثلاثة أشهر بدماء جديدة وبعسكر غير العسكر الذى يكون عندهم ، مع تزويدهم بالميرة والطعام والسلاح الوفير ، وكان من الطبيعى أن يحاول هؤلاء القادمون الجدد مضاعفة جهدهم للدلالة على شجاعتهم ، لذلك كانوا يكثرون من القيام بغارات وحملات هدفها التخريب رغم معارضة أهل الخبرة ٠

ورأى الصليبيون أن ليس ثمة بارقة أمل تومىء الى توقف هذه الغارات الجريئة من جانب الأعداء لاستمرار تجدد قواتهم التى كانت كالحية ذات الرؤوس التسعة ، فكانوا كلما هلكت طائفة من جندهم حلت أخرى جديدة مكانها ، فيزدادون بأسا على بأس ، لذلك تدبر رجالنا الأمر بينهم طويلا ، وانتهوا الى أنه ينبغى أن يشيدوا بعض الحصون فى أرجاء تلك الناحية لتكون مراكز دفاع لهم ضد هذا الوحش الذى كان عدده يزداد على الدوام ، والذى كان كلما قتل رجال من رجاله وقيل انتهوا عادوا أكثر من ذى قبل فيتضاعف خطرهم علينا ، ورأينا أننا ان أقمنا قلاعا وجهزناها بمزيد من الجند الذين نجمعهم من شتى أرجاء تلك النواحى كنا أكثر استعدادا لصد هجمات الأعداء ، كما تصبح هذه القلاع قواعد نشن منها العديد من الغارات على البلد نفسه ٠

لذلك تخير الصليبيون موضعا ملائما لهذا الغرض فى ذلك الصقع من أرض « يهوذا » التىكانت فى التقسيم الأصلى من نصيب أبناء شمعون ، وهناك استعدوا لاعادة بناء مدينة قديمة درست معالمها وصارت أطلالا وتعرف ببير سبع ، وكان الموقع المختار قائما

عند سفح الجبال فى المدينة المشار اليها ، وجمعوا فيها الناس من اهل الناحية ، كما جاء أيضا البطرك والأشراف ، وهكذا تمت بعون الله المهمة التى خططوا لها فأحسنوا التخطيط ، واهتموا برعايتهـــا فبنوا على بعد أربعة عشر ميلا من عسقلان معقلا منيعا أحيط بسور لا يمكن اقتحامه ، وزود بالأبراج والتحصينات ، وحفروا حوله خندقا وكان هذا المكان زمن بنى اسرائيل هو الحد الجنوبى لأرض الميعاد ، اما حده الشمالى فمدينة « دان »(٢٣) المعروفة الآن باسم «بانياس» أو قيصرية فيليبى · وكثيرا ما يطالع المرء فى العهد القديم(٢٤) هذه العبارة « من دان حتى بير سبع » ، ويقال ان هذا المكان هو الذى حفر فيه ابراهيم بئرا ، كما حفر أمثاله فى أماكن أخرى متعددة ·

ونظرا للماء الوفير الذى كان يخرج من هذه البئر فقد سماه ابراهيم بالوافر ·

كما تكلم عنه أيضا يوسيفوس فى تاريخه فقال « لقد أعطاهم أبو ملخ الأرض والقطعان ، وقبلوا السكن هناك جميعا فى سلام دون حقد ، وأبرموا اتفاقا عند بئر معينة تعرف باسم بير(٢٥) سبع ، ولذلك يسمى باتفاقية البئر ، ولايزال أهل تلك الناحية يطلقون عليها حتى اليوم هذا الاسم كما تسمى هذه البئر أيضا بالبئر السابعة ، أما فى العربية فتعرف ببيت جبرين أو بيت جبريل(٢٦) ·

ولما فرغوا من بناء الحصن(٢٧) وكمل من كل ناحية اتفقوا جميعا على تسليمه للاخوان الاسبتارية فى بيت المقدس الذين أحسنوا الحفاظ على ماعهد به اليهم حتى اليوم · كما خفت حدة غارات العدو منذ ذلك الحين فى تلك الناحية ·

لم ينقض غير وقت يسير حتى أغار « بزواج » قائد جيش دمشق على أرض طرابلس فتصدى له بكل همة كونت « بونس » وخرج له على رأس كل من عنده من العسكر والتقى الجيشان قرب قلعـــة تسمى بقلعة « تل الحجاج » ، وشب قتال شرس بين الجانبين ، لكن مالبثت الدائرة أن دارت على جيش الكونت الذى فر رجـــاله على وجوههم ، أما هو فقد وقع أسيرا فى أيدى العدو ، وقد غدر به السوريون الذين يعيشون على مرتفعات لبنان ، فدبروا له مكيدة أدت الى هلاكه ، فتولى بعده ولده « ريموند » الذى ورثه فى ادارة شئون الكونتية ، كما أسر معه فى الوقت ذاته « جيرالد » اسقف طرابلس الذى بقى فى الأسر فترة كان فيها مجهول الهوية لا يعرفه أحد و لايدرى أحد من يكون ، لكن لما بادل الصليبيون فى النهاية أحد أسراهم به عاد الى حريته ٠

وقد هلك فى هذه الوقعة بعض أشراف طرابلس ، وان يكن أكثر القتلى يومذاك من الطبقة الوسطى ٠



وجمع « ريموند » بعد مصرع أبيه البقية الباقية من الفرسان ، وضم اليهم طائفة قوية من الجند المشاة ومضى بهؤلاء وهؤلاء الى جبل لبنان وكلهم يتفجرون غضبا ، وهناك ألقى القبض على كثير ممن صادفهم من أولئك القتلة وحملهم مقيدين بالســـلاسل الى طرابلس ومعهم نساؤهم وصغارهم ، ذلك لأنه اعتبرهم ضالعين فى مصرع أبيه ، ومسئولين عما وقع بالصليبيين من مذبحة عامة ، فقد غرروا بنفاقهم بهذا الرجل القوى فاستجاب لهم ودخل سهل طرابلس، لذلك أراد ريموند الانتقام لدم من سقطوا فى المعركة فأذاق هؤلاء

القوم شتى صنوف العذاب امام الجميع ، وعذبهم بما يتكافأ وشناعة جرمهم الذى اقترفوه ، وجرعهم غصص الموت فى أفظع صورة له ٠

كانت هذه الدلائل الأولى التى قدمها هذا الكونت الشـــاب بادىء ذى بدء دليلا على شجاعته فاكتسب بها محبة كل شـــعبه وتأييد الجميع له ٠

(٢٤)

أخذت الأخبار الكثيرة ترد فى هذا الوقت وتتردد فى أرجاء الناحية مشيرة الى أن يوحنا (الثانى) امبراطور القســـطنطينية (وهو ابن ألكسيوس كومنين) موشك أن يغير على بلاد الشام ، وانه استدعى من كافة أرجاء الامبراطورية رجـــالا ذوى قوميـات مختلفة وألسنة متباينة ، وأنه آخذ الآن فى الزحف على رأس جيش لا يحصيه العد من الفرسان ، وأرتال كبيرة من العربات (الرومانية) ذات العجلات الأربع ، ولم تكن هذه الأخبار بعيدة عن الواقع ، ذلك أن يوحنا لم يكد يسمع من المصادر الموثوق بها باســـتدعاء أهـل أنطاكية لريموند وتسليمهم المدينة له وتزويجهم اياه من ابنة مولاهم بوهيموند (الثانى) حتى قرر الذهاب الى أنطاكية ، وكان أشد ما أسخطه وأضرم غيظه منهم أنهم دبروا زواج ريموند من ابنة مولاهم من غير مشورته ، وتطاولوا فسلموا المدينة دون اذن منه الى حاكم آخر ، ذلك أن يوحنا (الثانى) هذا كان يعتبر أنطاكية وما جاورها ملكا خالصا له فأراد ردها الى سلطانه ، مؤكدا أن الأمراء الأبطال ذوى الذكر الخالد الذين جاءوا بأمر الرب فى الحملـــة الاولى ، والذين لا يتسع المقام لذكر أسمائهم هنا قد أبرموا مع أبيه وســـلفه الامبراطور ألكسيوس اتفاقا صريحا تبادلوا بعده الهدايا وصرحوا بالمودة بعضا لبعض ، وكانت الشروط تنص على أن يعيد الصليبيون

الى الامبراطورية من غير معارضة جميع القــلاع والمــدن التى يستولون عليها خلال هذه الحملة ، كما نصت على أن تظل فى أيديهم بعد الاستيلاء عليها لحراستها بأمانة حتى يأتى الامبراطور بجيشه ويتسلمها منهم ، وقد أصر يوحنا على أن هذه الشروط واردة فى الاتفاقية ، وأن الأمراء الصليبيين أكدوهــا من جانبهــم باليمين المغلظة ٠

وليس من شك فى أن هؤلاء الأمراء كانوا قد عقدوا اتفاقا مع الامبراطور تعهد لهم بعهود موثقة ، لكنه هو ذاته كان اول حانث فيما قطع على نفسه ، فعد الصليبيون أنفسهم فى حل مما تعاهدوا عليه معه ، اذ كان هو أول شاجب للعهد ، ومن ثم فقد حق لهم (بناء على منطوق المعاهدات) الا يلتزموا من جانبهم بالعهد معه لأنه من الخطأ أن يخلص المرء فى تعامله مع من يحاول العمل بما يناقض فحوى الاتفاق ٠

لذلك أرسل الامبراطور الضباط الى كافة أرجاء امبراطوريته ، وأمضى عاما بأكمله فى اتخاذ الاجراءات اللازمة للقيام بحملــة تليق بالعظمةالامبراطورية ، فلما تم له ذلك أبحر فى البسفور المسمى فى العادة بذراع سنت جورج ميمما وجهه شطر أنطاكية ، وتبعه فى خروجه عدد كبير من العجلات الرومانية الحربية والجياد ، وأخذ معه من الأموال قدرا كبيرا ، ومن المتاع ما لا يقدر بثمن ، فلما تم اجتياز الولايات التى فى طريقه نزل الى كيليكية وتريث لمحاصرة طرسوس احدى المدن الكبرى الشهيرة فيها ، فاستولى عليهــا بالقوة ، وطرد منها رعايا أمير أنطاكية الأوفياء الذين كانت رعاية الامارة موكولة اليهم ، وأحل الامبراطور مكانهم أشرافا من كبــار رجالاته ، ولم يتردد فى أن ينهج نفس النهج فأعلن ملكيته لأذنــة والمصيصة وعين زربة ، وكلها من أكثر مدن كيليكية الصــغرى

ازدحاما بالسكان ، كما استولى أيضا على غيرها من المدن الموجودة فى تلك الولاية بكل ما اشتملت عليه من الأماكن الحصينة والقلاع المنيعة ، فناقض بذلك كل مقاييس العدل والحق ، اذ ضم الى مملكته (كجزء منها) كل ولاية كيليكية التى ظلت على مدى أربعين عاما ملكا لأمير أنطاكية لا ينازعه فى ملكيتها منازع ، حتى انه قبل استيلائنا على أنطاكية كان بلدوين (أخو الدوق) قد رد طرسوس الى الحرية المسيحية كما أن « تانكريد » العظيم حرر المصيصة وكافة أرجاء الاقليم ٠

ثم تقدم الامبراطور يوحنا الثانى فى عسكر كثيف لمضايقة أنطاكية ، فلما بلغها سارع الى فرض الحصار عليها ، فنصب العدد والآلات الحربية الثقيلة ، ووضعها فى وضع استراتيجى حول المدينة وأخذ يكثف من الضغط على المكان يوما بعد يوم ٠

(٢٥)

هكذا كان الموقف فى أنطاكية ٠

وعلم زنكى (وهو رجل شديد الدهاء ومن أكبر مضطهدى المسيحيين) بما حاق منذ قريب بكونت طرابلس وأكثر جنده من هلاك أفناهم ، وأن المنطقة بأجمعها باتت الآن من غير عسكر يذود عنها الضرر ويحمى بيضتها ، فبادر الى الحصار الشديد يضربه على قلعة « مونتفراند »(٢٩) الواقعة على مرتفعات طرابلس والمشرفة على مدينة « رفنية » التى أشرنا اليها منذ قريب ، وزاد من ضغطه على من كان داخل القلعة ووالاهم بهجماته الضارية الموصولة دون أن يترك لمن بها لحظة يلتقطون فيها أنفاسهم ٠

وجاءت الأخبار عن هذا الوضع الى ريموند كونت طرابلس ابن الكونت الراحل « بونس » وابن خالة الملك فبادر الكونت الصغير

فى لحظته بايفاد الرسل على جناح السرعة الى الملك فولك يلح عليه بالحضور فى ساعته لمساعدتهم فى موقفهم المحزن ٠

كانت جميع متاعب الصليبيين تشغل بال الملك فولك انشغال الأب الحنون بأولاده ، ومن ثم استدعى اليه فى الحال كبار رجـــال المملكة ، وجند العسكر من الفرسان والمشاة ، وأسرع بالزحف حتى بلغ أرض طرابلس حيث قابله هناك مبعوثون من قبل أمير أنطاكية يحملون اليه الأخبار السيئة بالرسائل والكلمة ، ويلقون على مسامعه نبأ محاصرة الامبراطور لأنطاكية ، وكانت هذه الأخبار صـــادقة للأسف تمام الصدق ، وألح الرسل على الملك أن يسرع الى هناك ما وسعه الجهد لمد يد المعونة والنجدة لاخوانه فى وضعهم الحــــرج الدقيــق ٠

ونظرا لهذه الحالة الطارئة المخيفة عقد الملك جلسة للتشاور فيما يفعله ، فاتفق الرأى على أن تكون الاولويات لمساعدة الصليبيين المحاصرين فى القلعة المجاورة ٠ وقد بدت هذه المهمة يسيرة ، ثم يزحفون بكل العسكر لنجدة أهل أنطاكية ، فضم الملك والكونتقواتهما بعضا الى بعض فى محاولة منهما للزحف على الأعداء ، غير أن العناية الالاهية لم تصاحبهما ، اذ علم زنكى بخبر اقترابهما فتخلى عن الحصار ورتب صفوفه للقتال ، وتقدم الصليبيون تقدما حثيثا نحو المدينة ، وتهيأوا للقتال وفق قواعد الحرب ، مستهدفين من وراء ذلك أن يمدوا يد المساعدة للمحصورين وامداد البلد بما جاءوا به معهم من المئونة والطعام الذى كان قد نفد من المدينة تمــــاما ، غير ان الأدلاء الذين كانوا يرشدون جيشنا ويقودونه تركوا الطريق الأسهل السوى الذى على اليسار ، (اما عن طريق الخطأ او انقيادا لنية شريرة سوداء) ، وسلكوا طريقا جبليا صعبا ، وســـاروا

بالصليبيين عبر دروب ضيقة كثيرة المجاهل ليست بها ناحية تصلح للمعركة ، بل تصعب فيها المقاومة ، ولا تتاح لهم الفرصة الملائمة للهجوم ٠

وكان زنكى رجلا جادا قد عركته الحروب ، فلم يفته الوضع اذ ذاك ، وأيقن أن الحظ يمشى فى ركابه ، فاستدعى اليه رجاله وهو يتقد حماسة ووقف بينهم وهم ألوف مؤلفة يلهب حماستهم بكلامه ، ويحثهم على الاقتداء به ، وحارب حرب الصنديد البطل ، وهاجم القلب ، وراح يدعو رجاله للقضاء علينا كى يبور أمرنا ، فاضطربت صفوفنا الأمامية وولت الأدبار وهرب رجالها على وجوههم ، فلما رأى قادة عسكرنا فرار الصفوف الأولى فقدوا الأمل فى المقاومة ، وأدركوا أنهم لن يستطيعوا (وهم فى هذه الأحراج الضيقة) أن يهبوا لنجدتهم ، واذ ذاك أشاروا على الملك أن يطلب السلامة لنفسه بالانسحاب الى القلعة القريبة منهم ، فرأى « فولك » مكانة الحق فى كلامهم ، وأدرك أن الانسحاب هو خير طريق أمامه مؤقتا ، لأن جميع الفرسان راحوا ما بين قتيل وأسير ، فتسحب فى شرذمة ضئيلة من حراسه الى القلعة٠ أما كونت طرابلس الشاب الذى كان ذا مستقبل مرموق فقد وقع فى الأسر مع بعض فرسانه ٠

على أن القلة التى تبعت الملك « فولك » فرت الى القلعة وأعدوا المكان ليكون آمنا ، وقد فقدوا فى هذا اليوم كل ما كان معهم من المتاع وكان شيئا عظيما ، كما فقدوا جيادهم ودواب حملهم التى تحمل الميرة التى أعدت لتزود بها القلعة التى لم يستطع الهاربون أن يحملوا معهم اليها أى طعام ، بل كان فرارهم وهم صفر الأيدى الا مما حملوه معهم من السلاح وهو قليل ٠

* * *

كان من بين من هلكوا فى هذا اليوم « جوفرى شـــاريولو » العظيم أخو « جوسلين » الكبير كونت الرها ، وكان رجلا بارزا عظيم المكانة ، مشهورا ببراعته فى استعمال السلاح ، فخلف موته فى النفوس أسى عميقا فقد كان جنديا باسلا شجاعا ، كما أن نهايته المأساوية أحزنت الجيش بأكمله ·

(٢٦)

كان زنكى يعلم تمام العلم أن الصليبيين قد جاءوا الى القلعة بلا طعام لأنه كان قد استولى على جميع مئونتنا وتموينا ، كما كان يعلم أن قوة المملكة الحربية قد بلغت حد الانهاك ، هذا الى جانب وقوع الكونت فى أسره ، ووجود الملك مع أعظم نبلاء مملكته محصورين بلا زاد فى قلعة نصف خربة ، لذلك أزمع أن يعـــاود حصـــار « مونتفراند » ، طمعا منه فى ألا تصل الى الحامية المأسورة بها أية مساعدة من أى مصدر مما جعله واثقا من أنه سوف ينجـــح فى الاستيلاء على القلعة فى وقت قصير ، ولذلك نادى فى عســكره مرة أخرى بالتجمع فاستجابوا لندائه وجاءوا وقد فاضت أيديهم بالأسلاب التى غنموها من الصليبيين ، حتى انهم انصرفوا عما قد يكون هناك من نهب جديد لكثرة ما أخذوه ، وهكذا أحاطت القوات المعادية بمونتفراند ، واشتدت فى حصارها الذى فرضته عليهـــا شدة عنيفة ·

كان من بين كبار رجالات المملكة ذوى المكانة السامية الذين التجأوا مع الملك الى الحصن « وليم دى بيور » الكونستابل الملكى ، و « رينييه دى بروس » المحارب الصنديد ، و « جى دى بريزبار » وبلدوين صاحب الرملة ، وهمفرى صاحب « التورون »(٣٠) وكان شابا لا خبرة عنده بأمور الحرب ، وكثير غير هؤلاء ، فسألهم الملك

أن يشيروا عليه بما يجب عليه أن يفعله فى هذه الأزمة الكالحة ، فانعقد اجماعهم على وجوب طلب النجدة من أمير أنطاكيـــة ومن جوسلين الصغير كونت الرها ، كما أشاروا عليه باستدعاء بطرك بيت المقدس مع جميع أهل المملكة ، وأن يصبروا فى الوقت ذاته ويصابروا حتى توافيهم هذه النجدة ٠

هكذا كان الموقف فى « مونتفراند » ٠

* * *

وحدث فى الوقت ذاته أن وقع فى الأسر « رينو » الملقب بالأسقف وكان محاربا شجاعا بارزا لبراعته الحربية ، وهو ابن أخى «روجر» أسقف اللد ، وكان رئيس جماعة فرسان القديس جورج ، وحـــدث أثناء مطاردته العسقلانيين أن سقط فى كمين من كمائن العدو ، وقد أوقعه فى ذلك ما طبع عليه من الشجاعة والاندفاع ٠

وأسرع الرسل لتوهم ومن غير تلكؤ فى الخروج ، فمضى أحدهم الى أنطاكية شارحا لأميرها ورفاقه الوضع المتردى الذى فيه الملك ومن معه ، وحثهم على الاسراع دون ابطاء لانقاذهم ، كما مضى واحد آخر الى كونت الرها واستطاع بتوسلاته القوية أن يحركـه للعمل ، على حين انطلق ثالث مغذا السير الى القدس لاثـــارة الأهالى كلهم ٠

غير أن أمير أنطاكية تردد بعض الشىء وتحير لا يدرى ما يفعل ، فقد ساوره الخوف على مصير مدينته ان هو غادرها والامبراطور (البيزنطى يوحنا الثانى) لايزال على أبوابها ، كما أنه رأى من ناحية أخرى أن ليس من اللياقة ولا الانسانية أن يمتنع عن الذهاب لمساعدة الملك فى مثل هذا الموقف الحزن ، فاستودع الرب مدينته وتركها فى رعايته ، واثقا تمام الثقة أن مشاركته اخوانه فى كربتهم

خير من أن ينعم وحده بالرفاهية والهدوء ، فاستدعى اليه علية القوم ووجوههم وشرح لهم ما يحس به ، ودعاهم جميعا لنجدة الملك ، فلم يصعب عليه اقناعهم بما يرجوه ، وشاركوه عواطفه عن طيب خاطر ارضاء للرب ، وأسرعوا بالاستعداد للرحيل ، وغادروا المدينة وهى محاصرة بقوات الامبراطور (البيزنطى) ، وخرجوا كلهم لا يشغلهم غير أمر واحد هو انقاذ الملك ٠

وحركت أمثال هذه العواطف كونت الرها فأعد هو الآخر كل جنده ، وخرج بهم فى سرعة مدهشة سعيا وراء الغرض نفسه ، كما أن وليم بطرك بيت المقدس جمع كل قواته ومضى حاملا الصليب وأسرع الى هناك فى لهفة ، وحاول وهو مسرع الخطى تجميع الامدادات متوسلا اليهم أن يذهبوا لمساعدة الملك ٠

(٢٧)

بينما كانت امور الملك تسير على هذا المنوال اذا بأخبار الموقف تصل الى سمع « بزواج » « حاكم دمشق وقائد الجيش الذى أشرنا اليه من قبل ، فعلم أن مملكة بيت المقدس خالية من جيشها الذى جرت العادة أن يكون موجودا بها ، وعرف أن فولك محصور فى ناحية نائية من مملكته ، وأن لا شىء يشغل بال الناس والنبلاء جميعا غير تخليصه مما هو فيه ، فأيقن (بزواج) أن الفرصة التى طال انتظاره لها لضرب الصليبيين قد حلت ، ومن ثم خرج على رأس قوة كبيرة قاصدا غزو المملكة ، وهاجم مدينة نابلس غير المحصنة اذ كانت بلا أسوار ، وخالية من القلاع الأمامية وليس حولها خندق ، فتسلل اليها كاللص تحت جنح الظلام وانقض على سكانها على غير توقع منهم انقضاضا وحشيا لم يراع فيه شيخا ولا أنثى ، فلما أدرك أهلها جسامة الخطر الذى يكتنفهم (وقد جاء ادراكهم هذا

للأسف متأخرا) هب من لازالوا على قيد الحياة وخرجوا بنسائهم وأطفالهم ، ونجحوا فى الوصول الى القلعة القائمة فى وسط البلد ، ونجوا بصعوبة بالغة من بين النيران التى كانت تكتنفهم ، ومن القتل والذبح ، ولم يجد « بزواج » أحدا يعترضه فانطلق مسعورا فى المدينة لا يكبح جماحه شيء ، مضرما النار فى كل ما صادفه ، ثم رحل لم يخسر شيئا ، بل كانت يداه تفيضان بالغنائم والأسرى وكل ذى قيمة فى البلد من غالى المتاع ٠

(٢٨)

استمر زنكى فى هذه الأثناء يواصل هجماته الضارية على المحصورين بعنف لا يعرف الهوادة ، واهتزت الجدران من جـــراء رميات آلاته القوية التى أخذت تقذف بالأحجار والصخور الضخمة فتقع وسط القلعة فتحطم ما بها من البيوت ، وتبث الفزع الشديد فى قلوب اللاجئين اليها الذين أصابتهم قطع حجرية كبيرة باصابات جسيمة ولـــم يعد ثـم موضع أمين داخل الأسوار يمكن أن يلجأ اليه الضعاف والجرحى ، فكان الخطر يجثم فى كل ناحية وفى كل ركن وزاوية ، وكان شبح الموت المفزع يلوح للعيون فى كل موضع ، وراح القوم يتوقعون أن يباغتهم الدمار ما بين لحظة وأخرى ، ولما لم تكن هذه الأمور غائبة عن العدو الفظ فقد ضاعف هجماته ، ونظم رجاله فى فرق تتناوب القتال ، اذا كلت واحدة منها حلت أخــرى مكانها ، وهكذا كان الصف يحل محل الصف ، هذا فى الوقت الذى حرم فيه الصليبيون نعمة الفرق المتجددة وذلك لقلة عددهم ، ولكنهم مع ذلك تحملوا فى صبر وعزم صلب كل الهجمات التى كان بعضها يأخذ بحجز البعض الآخر ، بيد أن البعض منهم أثخنتهم جراحهم الدامية ، وعانى البعض الآخر أمراضا شتى ، فأخذ عسكرنا فى التناقص يوما بعد يوم ، وأدركوا استحالة قدرتهـــم على تحمـــل

الهجوم المستمر عليهم اذ كانوا يقضون ليلهم فى الحراسة لا يغمض لهم جفن ، أما فى النهار فكانت المعارك (التى بدت وكأنها بلا نهاية) ترهقهم أشد الارهاق ، ولم يكن العدو يترك لهم لحظة تستريح فيها أجسادهم المنهكة ٠

كانت ذروة هذه المتاعب هى أن اللاجئين هؤلاء لم يستصحبوا معهم فى مجيئهم ما يأكلونه ، ولم يكن قد تبقى فضلة من طعام فى القلعة من جراء الحصار السابق ، كما استولى العدو على ما كانوا قد أحضروه ، لذلك اضطر الصليبيون فى أعقاب دخولهم القلعة الى أكل لحوم جيادهم بعد أن لم يجدوا شيئا سواها يقتاتونه ، فلما أتوا عليها لم يبق لهم أى نوع من الطعام فأصابتهم مخمصة أوهنتهم جميعا حتى نالت من أشدهم بأسا وأصلبهم عودا ٠

وزيادة على ذلك فان ضخامة عدد من كان منهم بالقلعة لم تجعل ما لديهم من الطعام ــ وكان قليلا ــ كافيا لبعضهم ، ناهيك بضيق المكان عن أن يسع الجميع ، مما حمل الكثيرين منهم على الاقامة فى الشوارع والميادين حتى بدت الأرض وكأنها قد فرشت ببساط منهم ، فكانت سهام الرماة ــ حتى العشوائية ــ قل أن تخطئهم مما أسفر عن اصابتهم بجراح قاتلة ، وجاءت الى زنكى كل أخبار هذه الأحداث : جليلها وتافهها يفصلها له الثقات من رجاله ، فلما أيقن تماما أن الصليبيين لن يستطيعوا احتمال هذه الأهوال أكثر مما احتملوه حتى الآن شجع رجاله على اتخاذ اجراءات أعنف من سابقتها ، ورتب عساكره وجعلهم متقاربين من بعضهم البعض قربا شديدا ووضعهم حول القلعة ، وشدد الحراسة على جميع المنافذ حتى لا يتمكن أحد ما ــ ولو فى محاولة يائسة ــ من الوصول الى رجالنا ، كما لا يستطيع رجالنا الخروج ٠

اخذ الوضع فى المدينة المحاصرة يزداد سوءا يوما بعد يوم ، ونفد الطعام أو كاد ، وفقد الجميع الأمل ، وعلم الصليبيون فى هذه الشدة بالتجربة والخبرة ـ بمدى فتك الجوع ، وصدق المثل القائل « أن المجاعة وحدها تجعل المدن تفك قيدها وتتحرر من ساداتها » ·

لكن الأمل لايزال يداعبهم فى غوث يأتيهم من أمير انطاكية وكونت الرها ومن بيت المقدس صغرت هذه النجدة أو كبرت ، وكان هذا الأمل عاملا على تقوية روح هذه الجماعة المشرفة على الهلاك · لكن لما كانت النفوس النشيطة تتعجل كل شىء فقد كفر الصليبيون بالانتظار ، وزاد تحفزهم ، وأصبحت الساعة عندهم وكأنها عام ·

(٢٩)

بينما كانت هذه الأحداث تجـرى عند قلعة « مونتفراند » المحاصرة كان الأمير ريموند يقترب على رأس قواته ، ولم يعد كونت الرها هو الآخر بعيدا بمن معه من القوة الكبيرة ، كما كان جيش بيت المقدس (ومعه صليب الخلاص) يزحف سريعا الى هناك ، وجاء الرسل الثقات الى زنكى يخبرونه باقتراب هؤلاء القادة العظام فخافهم ، ثم كان الذى أفزعه أشد الفزع خبر وصول الامبراطور (يوحنا الثانى) حين علم بوجوده عند أنطاكية ، وخشى أن يتفطر قلبه شفقة على الصليبيين ان هو علم بما هم فيه من النكد والهم ، فيدفعه ذلك الى الزحف بجيشه الذى لا يغلب فيهاجم زنكى الذى بادر فأرسل رجالا من عنده الى المحاصرين فى القلعة يعرض عليهم الصلح قبل أن يبلغهم خبر اقتراب النجدة ، وعهد الى هؤلاء الرسل أن يوضحوا للملك ونبلائه أن القلعة عاجزة عن الصمود طويلا فى وجهه لما هى عليه من التصدع ، وبينوا لهم أن الصليبيين قد فقدوا شجاعتهم اذ أمضهم الجوع وعضهم بنابه ، ولم يعودوا قادرين على المقاومة ، على حين أن جيشه هو لم يكن تنقصه حاجة مما تعوز

المحاربين ، وأفضى الى الرسل أن يبينوا لفولك أن احترامه له ـ وهو العظيم الشأن ، الجليل القدر بين المسيحيين ـ يجعله مستعدا لاعادة جميع من وقعوا منذ قريب فى أسره ومنهم الكونت ، وأنه يسمح للملك ولجميع من معه بمغادرة الناحية فى أمن وسلام ليعودوا الى بلادهم شريطة أن يسلمه الملك الحصن ٠

كان الصليبيون يجهلون أن النجدة قريبة منهم أشد القرب ، ولكن الجوع والأهوال التى يقاسونها ، والآلام النفسية التى ترهقهم، بالاضافة الى جراحهم المرثة كانت قد أنهكتهم كل الانهاك وصرفتهم عن القتال ، لذلك تلقفوا العرض المبذول لهم بلهفة كبيرة ، واشتدت بهم الدهشة من أن تتوفر مثل هذه الانسانية فى رجل كهذا الرجل الفظ القاسى ، لذلك تقبلوا الشروط المعلنة اليهم ، شاكرين له تقديمها ولم يسألوه عما حداه الى التقدم بها ، وما كاد التفاهم يبلغ حد الاتفاق المرضى لكلا الطرفين حتى أطلق زنكى سراح كونت طرابلس كما أطلق معه جمعا غفيرا من الأسرى ، وخرج الملك فى الحال مع رجاله ، وعاملهم العدو أرق معاملة ، واستسلمت القلعة للمسلمين ، ومع ما كان عليه الملك اذ ذاك من القلق الا أنه كان سعيدا لخلاصه من موقف شديد الخطورة ، ومن ثم نزل من المرتفعات الى الحقول القريبة من « عرقة » حيث عرف بوجود الأمير والكونت على مقربة منه فمضى اليهما فى فرحة عارمة ، وأثنى على حبهما الأخوى وعلى ما أظهراه من الاهتمام الكبير بأمره ، وبذلهما كل ما فى وسعهما لاسعافه بالمعاونة المنشودة ٠

ثم لما فرغوا من تبادل الأحاديث الودية انفصلوا عن بعضهم ومضى كل واحد منهم الى بلده ٠

عاد أمير أنطـــاكية الى بلده على جناح السرعة ، اذ كانت أموره الخاصة هناك تمر بلحظات حرجة أشد الحرج ، فقد غادرها وأقوى ملوك العالم مرابط على أبوابها بنية العدوان عليها ، ولمـا دخلها الأمير « ريموند » من الباب العلوى الملاصق لكل من القلعة وحصن المدينة وجد الامبراطور لايزال مجمعا العزم على ما بيته ومن ثم غبرت عدة أيام جرت خلالها مناوشات حربية بين الجيشين (الصليبى والبيزنطى) ، وكان أهالى أنطاكية ينسلون تارة خلسة وتارة جهرا فيقاتلون جيش الامبراطور ، وكثيرا ما كبدوه الخسائر الفادحة ، وكان كل منهما يحارب الآخر كما لو كان يحارب عدوا لدودا له ، وما من أحد منهما يكترث بالحقيقة التى لا يمكن دحضها ألا وهى أنهما يعتنقان نفس الملة ٠

كان الامبراطور (يوحنا الثانى البيزنطى) قد أصدر أوامره بأن تقذف الآلات الحربية والعدد القوية الأحجار الضخمة ، مستهدفا من وراء ذلك اضعاف وسائل الدفاع عن المدينة وتحطيمها وهدم الأسوار والأبراج القائمة عند مدخل الجسر ، ورتب كتائبه وقد جهزهـــا بالأقواس وشتى أنواع وسائل الرمى ، فأحاطت بالمكان على شكل دائرة ، وكان يعمل فى معاونتهم طائفة قوية من الرماة بالمقاليع وقد اصطفوا صفا طويلا ، وعهد اليهم بمنع أهل البلد من الدفاع عن الأسوار ، كما أمرهم بتحين الفرصة للاقتراب من تحصينات المدينة ونقضها من أساساتها ، ولما أخذ الموقف يتصاعد سوءا خاف رجال أفاضل فى كلا الجيشين أن يفضى الوضع بين الجانبين الى خاتمة محزنة لا يمكن معها التوصل الى حل يدرأ خطر هذه الأزمة ان لم تتدارك تلك النهاية الحكمة والمشورة العاقلة ، ومن ثم سعى من أجل هذا الهدف نفر جعلوا من أنفسهم وسطاء بين الجانبين

فذهبوا الى معسكر الامبراطور يعرضون مقترحات الصـــلح ، وحاولوا استرضاءه بكلمات عذاب ، وأظهروا الخضوع له رغبة فى كسر حدة غضبه ، فاستطاعوا بهذا الأسلوب الحكيم والطريقة المرضية أن يقتربوا من الامبراطور فى محاولة منهم لتمهيد السبيل للصلح المنشود الذى يقضى بأن يحضر الأمير ذاته مصحوبا بجميع بارونات امارته أمام جلالته الامبراطورية ، وأن يقسم فى وجود كبار رجال القصر الامبراطورى يمين التبعية والولاء ليوحنا ، وزادوا على ذلك بأن يقسم الأمير يمينا مغلظة ألا يعـــارض الامبراطور ولا يحاجه فى دخوله المدينة أو قلعتها متى شاء فى السلم والحرب على السواء ، وأنه اذا أعاد الامبراطور للأمير ريموند فى ســـلام مدن حلب وشيزر وحماة وحمص حســـب الشـــروط الواردة فى الاتفاقية فعلى ريموند أن يقنع بهذه الأماكن وغيرها من المدن المجاورة لها ، كما يرد الى الامبراطور (من غير معارضة) مدينة أنطاكية بحق ملكيته لها ، وفى مقابل هذه التبعية التى يعلنها الأمير له فعلى الامبراطور أن يقبل أن يخلع على ريموند مدينتى حلب وشيزر وما جاورهما دون معارضة أو شقاق وذلك حين يأذن الرب له بالاستيلاء عليها ، واذ ذاك تصبح ملكا لريموند وذريته من بعده ، على أن تكون هذه الملكية منحة بالاقطاع ٠

* * *

وتطبيقا لهذا الاتفاق توجه الأمير الى المعسكر الامبراطورى مصحوبا بحاشيته من النبلاء فتلقاه الامبراطور بالاجلال اللائـــق بقدره ، وبعد أن أعيدت تلاوة الاتفاق ليحظى برضاء الجانبين أقسم

الأمير يمين الطاعة للامبراطور الذى قام فى الحال فمنحه تقليدا بالمدن المذكورة أعلاه وبكل ملحقاتها ، وتعهد فى اخلاص أنه اذا استولى عليها بمشيئة الرب فى الصيف التالى فانه سوف يسلمها بنفسه الى الأمير ٠

* * *

ما كادت الاتفاقية تبرم ويرفرف السلام الشامل بجناحيه حتى رفع العلم الامبراطورى على برج أنطاكية الرئيسى ، واذ ذاك انكفأ الأمير بحاشيته الى انطاكية يحملون أنفس الهدايا ، ولما كان الشتاء القارس على الأبواب فقد عاد الامبراطور بعسـكره الى كيليكية ليمضى الشتاء على الساحل قرب طرسوس ٠



هنا ينتهى الكتاب الرابع عشر

حواشى الكتـــاب الرابع عشر

(١) سبق الكلام عن هذه الأميرة « سيسيليا » ٠

(٢) راجع ما سبق ، ص ٤١ ، س ١ ـ ٢ ٠

(٣) أبقينا هذا الاسم على ما ورد عليه فى الأصل ، وان كان يعرف فى تاريخ الصليبيين باسم Mons Ferrandus وفى العربية ببعرين ، أما الحصن المعروف بهذا الاسم فقد جدده الصليبيون عام ٤٨٠ (حوالى ١١٩٠م) ، وهو واقع كما قال ياقوت وابن عبد الحق وأبو الفداء بين حلب وحماة ، وسترد الاشارة الى هذا الاسم فيما بعد فى حاشية رقم ٢٩ ص١٥٤ ٠

(٤) يلاحظ اختلاف التاريخ بين المراجع العربية الاسلامية (ذيـــل تاريخ دمشق) والمراجع الغربية
(Stevenson : Crusaders in the East, P. 132.)
أما فيما يتعلق بقنسرين فهى واردة فى المراجع الصليبية باسم Chalsis ولكنها بلدة اسلامية ، وكانت أحد الأجناد التى أسسها معاوية بن أبى سفيان ٠

(٥) حصـــن حـارم ويعرف عند الصـليبيين بحصــن Harenc وهو من القلاع المنيعة قرب أنطاكية . واعتبره ياقوت الحموى فى معجمه

وفى يومه من ضواحى حلب ، وهو واقع على نشز من الأرض يشرف على بلدة صغيرة هناك أصبحت تنسب اليه ٠

(٦) « بيت نوبا » قرية صغيرة واقعة على مقربة من الرملة ، وقد وردت الاشارة اليها فى معجم البلدان لياقوت ، كما ورد ذكرها فى التوراة حيث جاء : «فجاء داود الى نوب الى أخيمالك الكاهن » ، انظر صمويل الأول ٢١/١ ٠

(٧) كانت « اللد » العاصمة القديمة للولاية المعروفة فى المراجع العربية باسم ولايات فلسطين ، فلما بنى الخليفة سليمان بن عبد الملك « الرملة » نقل اليها سكان اللد التى أخذ شأنها فى التدهور منذ ذلك الحين ، وهى واقعة على بعد ميل واحد من الرملة ، كما أن بالبلد كنيسة تعرف بكنيسة سنت جورج التى يقول المقدسى عنها ان المسيح سوف يصرع على بابها الدجال ٠ ، انظر أيضا لى سترانج :
Palestine Under Moslems, P. 493.

(٨) يطلق وليم الصورى فى كثير من الأحيان على امارة أنطاكية « كلمة « مملكة » ومن ثم فان المقصود بالمملكتين هنا : مملكة بيت المقدس وامارة أنطاكية ٠

(٩) يقصد المؤلف بذلك الأمراء فى البلاد الأوربية لاسيما فى فرنسا ٠

(١٠) هو الأمير النرمندى روبرت جيسكارد الذى كان يتطلع كولديه بوهيموند وروجر الى السيطرة على الامبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور الكسيوس الأول كومنين ، وكانت بينهما من جراء ذلك منازعات طويلة حادة أفصحت عنها الأميرة « أنا كومنينة » فى مؤلفها التاريخى العظيم « ألكسياد » الذى هو سيرة لأبيها الامبراطور ، واذا كان النرمنديون قد استطاعوا انتزاع جزء كبير من جنوب ايطاليا سنة ١٠٥٩ م فقد كانت الضربة الكبرى التى وجهوها لبيزنطة هى ما قام به روبرت جيسكارد ذاته سنة ١٠٧١م من الاستيلاء على مدينة « بارى » فى جنوب ايطاليا ، وكان ذلك العمل منه ذروة الخطر النرمندى الذى تطلع روبرت من بعده للاستيلاء على الامبراطورية ذاتها ، وسيجد القارىء التفصيلات الوافية فى كتاب « ألكسياد » الذى قمنا بترجمته الى العربية ، كما يمكن الاسترشاد فى هذا الموضوع بما يلى :

Gay (J) : L'Italie meridionale et l'empire Byzantine depuis l'avenement de Basil I jus-qu'à la Prise de Bari par les Normands (867 — 1071), Paris 1907, P. 520 et seq; Chalandon (F.) Histoire de la Domination normande en Italie et en Sicile (Paris 1907) t I, PP. 189 et suiv. Buckler : Anna Comnena; Davies : (H.W.) : Europe from 800 to 1789, PP. 34 — 37.

(١١) من الملاحظات الطريفة التى تسترعى الانتباه هو أن هناك تشابها بين وليم الصورى المؤرخ النصرانى وابن القلانسى المؤرخ المسلم فى أن كلا منهما يستعمل عبارات تكاد أن تكون متماثلة فى تكوينها وفى صيغتها ازاء موت الانسان ، فنرى وليم يكثر من مثل هذه العبارة « سار فى الطريق الذى لابد أن يسير فيه كل مخلوق » كناية عن الموت » ، كما أن ابن القلانسى يورد عبارات مماثلة يرددها فى كثير من المواضع ٠

(١٢) ويسميها الصليبيون Mopsuesta واليونان Mamistra كما يشـــير الى ذلك البعض ، ويلاحظ أن الجغرافيين العرب كالبلاذرى وياقوت وابن عبد الحق وأبى الفداء والادريسى يشيرون الى اطلاق هذا الاسم على موضعين . أحدهما قريب من « أدنة » على نهر جيحان فى منطقة الثغور ، والأخر على قرية من قرى دمشق قرب بيت لهيا ، أما فيما يتعلق بالأولى فنستفيد مما ذكره البلاذرى وأبو الفداء والمسعودى أنه فى سنة ٨٤هـ (٧٠٣م) غزاها عبد الله ابن الخليفة عبد الملك فى خلافة أبيه وحصنها وجهزها بالجند ، كما شيد جامعا على التل الموجود بها ، وكانت بها قبل ذلك كنيسة ، ثم لما جاء عمر بن عبد العزيز بنى مسجدا فى قسم منها يعرف باسم « كفر بيا » ، لكنه تهدم زمن الخليفة المعتصم وكان يسمى بمسجد الحصن ، انظر فى ذلك Le Strange : Op. Cit. 505 — 507 وما أورده من المصادر العربية هناك ٠

(١٣) انظر فيما بعد الفصلين ١٦ و ١٧ من الكتاب الخامس عشـــر ص ١٩٣ ، ١٩٦ ٠

(١٤) راجع الحاشية ١١ أعلاه ، وسنكتفى بهذا دون الاشارة الى مثل هذه الصـــيغة كلما وردت مثـــل هذه العبارة فى هذا الموقـــف

(١٥) الواقع أن وليم استعمل صيغة المتكلم بالجمع ، وربما كان ذلك منه تقديرا للمكانة التى يشغلها من كونه رئيس أساقفة صور ، غير

أننا آثرنا فى ترجمتنا العربية استعمال ضمير المتكلم المفرد ليسهل على القارىء فهم الموضوع جيدا ٠

(١٦) انظر صموئيل الأول ١٥/٢٣ حيث جاء فيه « الاستماع افضل من الذبيحة ، والاصغاء أفضل من شحم الكباش ، لأن التمـرد كخطيئة العرافة ، والعناد كالوثن والتراقيم ، لأنك رفضت كلام الرب » ٠

(١٧) سبق لوليم أن أشار الى « أستس جرنييه » هذا فى الجزء الأول من كتابنا هذا انظر ج١ ، الكتاب ١٧ ٠

(١٨) المقصود بالرجل هنا الكونت « هيج » ٠

(١٩) اشارة وليم هنا الى أن « أرسوف » أصبحت تعرف فى يومه بأنتيبياتريس انما هى اشارة صريحة الى محاولة الصليبيين تغيير بنية البـلاد ، فاســتعمالهم لكلمة أنتيبياتريس Antipiatris دليـل على محاولتهم احياء الأسماء القديمة التى لم يعد لها وجود ، فهى أسـماء من التوراة والانجيل ، وهذا الاسم الجديد الذى أطلقوه على « أرسوف » منظور فيه الى ما ورد فى أعمال الرسل ٢٣/٣١ فى أخذ العسكر لبولص وذهابهم به ليلا الى « انتيبياتريس » ، كما عرفت « أرسوف » أيضا فى العصر الصليبى باســم « Apollonia وكانت بلدا اسلاميا عربيا ، ويشير ياقوت الى أنها ظلت محتفظة بطابعها الاسلامى العربى حتى «أخذها كندفرى (أى جودفروى دى بويون) سنة ٤٩٤هـ (١١٠١م) ٠ انظر فى ذلك Le-Strange : Op. Cit., PP. 399, 472

(٢٠) متى ١٢/٢٥ ٠

(٢١) الوارد فى وليم اسم « تاج الملوك » وهو خطأ صوابه ما اثبتناه فى المتن ، وقد تنبهت الترجمة الانجليزية الى هذا الخطأ ولكنها لم تصححه وبالرجوع الى المصادر العربية يتبين لنا أن « تاج الملوك بورى » كان قد مات فى يونيو ١١٣٢م وتولى مكانه ولده شمس الملوك أبو الفتح اسماعيل ٠

(٢٢) أشار الى هذا التسليم ابن القلانسى فى ذيل تاريخ دمشـق ، ص ٢٢٤ ، حيث ذكر أن الحاكم كان يدعى باسماعيل ونعته بالداعى العجمى، وأنه علم أنه ان قام « ببانياس فالبلاء محيط به ، ولم يكن له صـبر على الثبات ، فأنفذ الى الفرنج يبذل لهم تسليم بانياس ليأمن بهم ، فسلمها اليهم

وتسلل هو معه من لف لفه الى « الأعمال الفرنجية على غاية من المذلة ونهاية من السفلة » ٠

(٢٣) أما « دان » المشار اليه فى المتن أعلاه فقد كان أحد اولاد يعقوب ، وصار المكان المدفون فيه مع ثلاثة من اخرته (ليس منهم يوسف الصديق) يعرف بقبر « دان » ، وهو على مقربة من « اربد » ، وقد ذكر ناصرى خسرو فى رحلته أنه زار هذا القبر ، كما ذكر الهروى أنه يوجد قرب هذا الموضع قبر أم موسى عليه السلام ، ويشير ياقوت الحموى فى معجمه (مـــادة اربد) الى أنها قرية فى اقليم الأردن قرب طبرية على يمين المسافر الى مصر ، وقد نقل ذلك كله عنه ابن عبد الحق فى معجمه « مراصد الاطلاع » ٠ ثم يعود ياقوت فيقرر فى موضع آخر من معجمه بأن « هذا الاسم واحد من أسماء صيدا ، راجع فى ذلك كله Le-Strange : Op. Cit. PP. 457 — 458

أما بيت حبرين ، أو بيت جبريل كما جاء فى متن وليم أعلاه فاسمها القديم هو Eleutheropolis كما كان يقال لها أيضا Betocarba

وقد أشار اليها ياقوت فى معجمه فذكر أنها تقع بين القدس وعسقلان أو غزة ، وكانت بها قلعة حصينة انتزعها صلاح الدين من الصليبيين ٠ كما يوجد بين بيت جبرين وعسقلان واد يعرف بوادى النمل المشار اليه فى قوله تعالى (حتى اذا أتوا على واد النمل قالت نملـــة يأيهـــا النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون) ٠

(٢٤) يوئيل ، ١/٢٠ ٠

(٢٥) بير سبع المعروفة عند الغربيين باســـم Beer Sheba

وبها البئر التى حفرها ابراهيم الخليل عليه السلام حسبما ذكر ابن عبد الحق فى مراصد الاطلاع ٠

(٢٦) انظر ما سبق ، حاشية رقم ٢٣ ٠

(٢٧) فيما يتعلق بالقلعة والاخبـــار الواردة فى المتن ومـــا كان من الفرسان الاسبتارية راجع Stevenson : Crusaders in the East, P. 136.

(٢٨) أشار ابن القلانسى فى ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٨ ، الى أنه فى رجب سنة ٥٣١هـ ، نهض الأمير « بزواج » فى فريق كبير من العسكر الدمشقى والتركمان الى ناحية طرابلس فظهر اليه قومصـــها فى عسكره ، والتقى المصافان فدارت الدائرة على القومص ومن معه ولقى الكثيرون

منهم مصرعهم ، وترتب على ذلك أن تملك « بزواج » حصن وادى ابن الأحمر ، وأغلب الظن عندى أن هذا الحصن هو حصن « عثليث » وقد يقال له حصن الحجاج المسمى فى المراجع الصليبية حينا باسم Castellum Peregrinorum وحينا آخر باسم Petra Incisa ، وهو الواقع كما ذكر ياقوت فى معجم بلدانه على الساحل الشامى وقال ان صلاح الدين استرده من الصليبيين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ٠

(٢٩) قلعة « مونتفراند » هى المعروفة عند الصليبيين باسم Mons Ferrandus وقد تآلف الصليبيون على اطلاق هذا اللفظ على «بعرين» كما ذكرنا آنفا (راجع حاشية رقم ٣ ،ص ١٤٩)، ويشير أبوالفداء الى أنه يوجد قربها أطلال مدينة قديمة تدعى « المرفنية » أو « رفنية » Raphanea ٠

(٣٠) كانت « التورون » Le Toron أو « تبنين » واحدة من قلاع الصليبيين الحصينة ، وقد ذكرها ابن جبير فى رحلته ووصفها بأنها واحدة من أكبر قلاع الفرنجة ، وبها محطة تمكيس القوافل ٠ ومن الطريف الذى يذكره ابن جبير فى هذا الصدد قوله ان هذا المكان تحكمه امرأة يدعونها « الخنزيرة » وينعتونها أيضا بالملكة ، ويقول انها أم الملك الخنزير الذى هو صاحب عكا ، كما يشير الى أنه ومن معه نزلوا اسفل هذا الحصن ، كما لاحظ أن معظم جباة الضرائب هنا من المغاربة ، مما يسترعى الانتباه فى دراسة الجباة فى الاقاليم الاسلامية ٠

فصول الكتاب الخامس عشر

الهزيمة النكراء فى « تقوع » ، ويقبض الموت روح « يود دى مونتفوكوت » فى هذه البقعة ٠

٧ ـ زنكى يسبب لدمشق كثيرا من الاضطرابات فيستنجد الدماشقة بالصليبيين فينجدونهم لكن بشروط معينة ، ويعود زنكى الى قواعده ٠

٨ ـ الدماشقة يساعدون الصليبيين فى حصار مدينة « بانياس » ٠

٩ ـ أمير أنطاكية وكونت طرابلس يحضران هما أيضا لمساعدتنا فى الحصار فيشتد التضييق على المدينة ٠

١٠ ـ وصول أمير أنطاكية وكونت طرابلس ، وبناء آلة للرمى ، وقيام الأهالى بالدفاع عن أنفسهم دفاعا مجيدا أملا منهم فى قدوم النجدة اليهم ٠

١١ ـ وصول مبعوث من كنيسة رومة عن طريق البحر ومتابعته المسير الى موقع الحصار ٠ الاستيلاء على مدينة « بانياس » والقبض على أحد الأساقفة هناك ثم عودة جميع الأمراء الى بيت المقدس ٠

١٢ ـ أمير أنطاكية يتآمر مع خصوم لبطرك هذه المدينة الذى يرحل الى رومة فيقع أسيرا فى يد روجر دوق « أبوليا » ، وصول البطرك أخيرا الى رومة فيرميه أعداؤه بالتهم ، ولكنه يعود فى النهاية الى أرضه وقد حظى بالعطف التام ٠

١٣ ـ أتباع البطرك من رجال الدين يرفضون استقباله عند عودته بايحاء من الأمير (ريموند) ، واذ ذاك ينسحب البطرك الى بلاد كونت الرها ، ثم يتم الصلح أخيرا بينه وبين الأمير ريموند فيعود الى أنطاكية ٠

١٤ ـ رئيس أساقفة ليون المندوب البابوى يلفظ أنفاسه الأخيرة في عكا ، فيحضر الى هناك « البيريكوس » أسقف « أوستيا » وينعقد مجمع أسقفى فى أنطاكية ٠

١٥ ـ رمى البطرك بالتهم فى مجمع الأساقفة ٠ المجمع يستدعى البطرك للمثول أمامه لكنه يمتنع عن الحضور واذ ذاك يأخذ « سيرلو » ـ رئيس أساقفة أفاميه ـ مكانه ويتقرر خلـــع البطرك من أسقفيته ٠

١٦ ـ المجمع يقرر خلع البطرك فى غيبته لعدم طاعته ، ويلقى به فى الحبس حيث يعامل معاملة مشينة فيعود أدراجه مرة ثانية الى رومة ويكسب عطف البابا عليه ، الا أنه يمــوت بالسم وهو فى طريق العودة ٠

١٧ ـ المندوب البابوى يعود للقدس ويعقد اجتماعا ويدشن أيضــا هيكل السيد ٠

١٨ ـ الامبراطور (البيزنطى يوحنا الثانى) يسافر مرة اخــــرى الى سورية ويطالب الأمير (ريموند) بتنفيذ الاتفاق الذى كان قد أبرمه معه ٠

١٩ ـ الأهالى يبعثون بالرسل الى الامبراطور يشجبون الاتفاقية ويرفضون دخوله المدينة ٠

٢٠ ـ وصول رسل من قبل الامبراطور الى ملك القدس معلنين اليه عزم مولاهم على المجىء الى بيت المقدس بحجةزيارةالأراضى المقدسة ٠ رد الملك عليه ٠

٢١ ـ اصابة الامبراطور بجرح مميت أثناء خروجه للصيد أثناء اقامته فى « كيليكية » ٠

٢٢ ـ الامبراطور ينادى بأصغر أولاده امبراطورا مكانه ثم يلفظ أنفاسه · عودة الجيش (البيزنطى) الى بلاده تحت قيادة الامبراطور مانويل ·

٢٣ ـ قيام الملك فولك وأشراف المملكة ببناء قلعة « ابلين » أمام عسقلان ·

٢٤ ـ بناء قلعة أخرى أمام عسقلان استجابة لرغبة جماعية من ناحية البارونات ، وتسميتها بقلعة « بلانش جارد » ·

٢٥ ـ الملكة تؤسس ديرا فى « بيثانى » وتوقف عليه حبوسا كبيرة وتقيم أختها رئيسة للدير ·

٢٦ ـ الملك (فولك) يقع على أم رأسه من فوق ظهر جواده أثناء مطاردته لأرنب فى سهل عكا فيموت ويدفن فى بيت المقـدس مع سلفيه ·

محاولة الامبراطور يوحنا بسط نفوذه على الامارات اللاتينية

(١)

أمضى الامبراطور شهور الشتاء فى كيليكية ، فلما اقترب دخول الربيع (وهو أكثر فصول السنة ملاءمة لمتابعة الحرب) أرسل المنادين ينادون بالقرار الامبراطورى قـــواد الجيش وأمراء المئين والخمسين لاعداد قواتهم وتهيئة الات الحرب وتسليح الناس كافة ، كما بعث الرسل الى أمير أنطاكية والى كونت الرها وبقية كبـــار مسئولى هذه النواحى للخروج بصحبته للقتال ، وتم جمع العسكر من شتى النواحى ، حتى اذا كان الفاتح من ابريل سعى الامبراطور للاستفادة من الاتفاق المبرم بينه وبين الأمير ريموند ، فامر بـدق الطبول والنفخ فى الأبواق واذ ذاك زحف الجيش كله نحو « شيزر »

ودخل أرض العدو ، ولم تنقض سوى أيام قلائل بعدئذ حتى كان قد ضرب معسكره أمام المدينة ٠

ما كاد الأمير « ريموند » والكونت يعلمان بهذا الخبر حتى حشدا الحشود من كافة أرجاء بلادهما ، وسارا مجدين فى اثـــر الامبراطور مستهدفين الهدف ذاته ، وسرعان ما وصلا بجيوشهما أمام المدينة المشار اليها ٠

***

وموقع شيزر مشابه تمام المشابهة لموقع أنطاكية ، فهى واقعة بين الجبل والنهر الذى يمر بالمدينة الأخيرة أنطاكية ، كما أن القسم الأكبر منها واقع فى السهل الذى ينبسط حتى يبلغ النهر ، على أنه يوجد قسم آخر منها قد شيد على سفح الجبل ٠

أما قلعتها المشرفة على الأبراج فانها معقل أشب يعز اقتحامه ، كما أن الأسوار تمتد على يمين القلعة ويسارها حتى تفضى الى النهر مع احاطتها بالمدينة وضواحيها المتصلة بها ٠

***

ولقد عبر الامبراطور النهر وأحدقت كتائبه بالمدينة وضرب الحصار على تلك الناحية التى تعتبر الاغارة عليها من أيسر الأمور بسبب وجود الضواحى أمامها ، وأخذت الآلات الحربية المنصــوبة فى المواقع الاستراتيجية ترمى بقذائفها الحجرية الثقيلة قذفا موصولا فتهز الأبراج والأسوار وتصدع ما وراءها من دور الأهالى ، وكانت هذه القذائف الهائلة الحجم يأخذ بعضها بحجز البعض الآخــر بلا انقطاع مما نجم عنه انهيار التحصينات التى كان الأهـــالى يعتبرونها أكبر مدافع عنهم ، فأحدث انهيارها دويا مفزعا بين أهل البلد ، وبث الذعر فى نفوسهم ٠

ونظراً لما طبع عليه الامبراطور من الشجاعة الفائقة فقد ضاعف من شدة هجومه الضارى ، وأظهر حماسة فائقة آذنت بأن النصر المنشود قريب المنال ، كما أثار همة الشباب الطموح فنشطوا هم أيضا من جانبهم فى النضال وأبدعوا فى القتال ، ثم نزل الامبراطور بنفسه بين صفوف جنده ، حاملا درعه ، ومتقلدا سيفه ، وواضعا لامته الذهبية على رأسه ، وسار فى العسكر يشجع بكلامه جماعة هنا وأخرى هناك ، فكان بينهم كواحد منهم ، وقاتل قتالا بطوليا حمل الآخرين على بذل المزيد من الاستبسال فى المعركة ، وهكذا لم يقتصر نشاط هذا الرجل العظيم على ما هو آخذ به نفسه فقط بل لقد تحمل حر المعركة منذ أول النهار حتى آخره دون أن يعطى نفسه بعض الراحة ، أو لحظة يتناول فيها طعامه ، ذلك لأنه كان موزعا بين شد عزائم من يديرون الآلات الحربية ليضاعفوا همتهم فى تحقيق غرضهم ، وبين بث الحماسة فى قلوب الذين هم فى أتون المعمعة ، فأعاد للقتال ضراوته اذ راح يبعث بالصف من الرجال مكان غيره ، ويستبدل من أنهكهم القتال بغيرهم ٠

وبينما كان هؤلاء منصرفين كل الانصراف الى الصراع العنيف اذا بالأمير والكونت – وكانا شابين فى ميعة العمر – يستسلمان لنزوات الشباب الذين فى مثل عمرهما ، فانكبا على ألعاب القمار انكبابا أضر بصالحهما ، وزيادة على ذلك فقد دفعهما عدم رغبتهما فى مواصلة القتال الى اغراء سواهما بالتكاسل والقعود عن القيام بدور جدى فعال فى الحصار ٠

فلما وقف الامبراطور على سلوكهما الشائن تسعر غضبه عليهما ، وكثيرا ما راح يبذل النصيحة الرقيقة لهما فى السر والعلانية ، وجاهد كى يردهما الى واجبهما ، وضرب لهما المثل بنفسه هو ذاته ، وذكر لهما أنه – وهو أقوى ملوك الأرض قاطبة –

لم يرحم نفسه أن يجشمها الكثير من المتاعب الجثمانية ، ويتكبد هو النفقات الطائلة ، ويحارب على مثل هذه الصورة ٠

واستمر الجيش يقاتل بضعة أيام من غير توقف ٠

وكان مما أحنق الامبراطور أشد الحنق أن يرى مدينة ضعيفة كهذه المدينة تقاوم أمدا طويلا جيشه العظيم الذى لا يضـــاهيه أى جيش آخر ، كما أضجره طول وقوفه ، فرمى رجاله بالتراخى ، وراح يحثهم على بذل المزيد من المحاولات العنيفة ، وأمرهـــم بمضاعفة قوة هجومهم ليكون حصارهم أشد ضراوة ٠

كان الحصار عنيفا وان لم يكن فعالا ٠

ثم تم الاستيلاء على ذلك الموضع الواقع أسفل البلد اثر قتال تشابكت فيه الأيدى بالأيدى ، ولم تأخذ الغالب الرحمة بأحد من السكان الذين وجدهم هناك ، فقسا عليهم قسوة لم يستثن معها الا من دلته لهجته أو هندامه أو ما شابه ذلك على اعتناقه الديانة المسيحية فقد كان فى « شيزر » قوم من المؤمنين(١) أذاقهم ساداتهم الكفار ذل الأســـر ٠

(٢)

لم تكد تلك الضاحية تقع (فى يد الامبراطور) حتى خـــاف الأهالى أن يقتحمها العدو ويدخلها قسرا فيفتك بنسائها وأطفالهم ، لذلك التمسوا هدنة قصيرة فأجيبوا اليها ، وكان صاحب « شيزر » اذ ذاك شريفا(٢) عربيا ، فأرسل فى السر الى الامبراطور رجلين من قبله يستعطفانه ، ويلتمســـان منه الابقاء على المدينة والتعطف عليها والرحمة بسكانها فتشملهم رحمتـــه ، كمـــا أخذ هذا الأمير (المسلم) العهد على نفسه أن يدفع لقاء ذلك مبلغا كبيرا من المال ٠

على أن المسلك الشائن الجبان الذى سلكه الأمير (ريموند) والكونت أثناء الحملة أسخط الامبراطور أشد السخط ، لاسيما وأنه كان يحـارب من أجلهمـا وفاء منه بعهده لهما ، أما يمينهما التى أقسماها بالولاء والتبعية له فرآها خدعة أكثر من أن تكون حقيقة واقعة ، ومن ثم اشتد مقته لهما وعزم عزما أكيدا (وافقه فيه ثلة من أصحابه ونصحائه المخلصين) على أن ينزل العقاب بهما جزاء نكثهما بالعهد ، وأن يغتنم أول فرصة تلوح له فيرفع الحصار ويعود الى دياره مع المحافظة على شرفه ٠

لذلك ما كاد يتسلم المال المتفق عليه (من أمير شيزر) لرفع الحصار حتى أمر المنادين أن ينادوا بعودة السلام والاســتعداد للرحيل ، وسرعان ما قوض الجند الخيم ، وصدرت الأوامر الى جميع الفيالق بالانضمام بعضها الى بعض والزحف الى أنطاكية ، وأن يعجل الجيش كله بالذهاب الى هناك ٠

فلما علم الأمير والكونت بمـا فعله الامبراطور ندما على ما كان منهما ، لكن لات ساعة مندم ، وحاولا ثنيه عن عزمه فلـم يفلحا فيما قصداه ، ونبذ هو ظهريا كل مســاعيهما ومحاولاتهما وبادر الى الرحيل ، ويقال ان الكونت كان أكثر حنكة ومكرا من الأمير اذ سلك فى هذا الموقف مسلكا شــديد الخبث ، وذلك لأن ما كانت تنطوى عليه جوانحه من كراهية لسيده الأمير حمله (كما صرح فيما بعد) على أن يستعين بدهائه الذى يعجز الأمير الشاب الطائش عن مجاراته فيه ، فعمل على أن يضله ليزداد هو قـوة ، وسعى بكل وسيلة لحمل الامبراطور على صب جام غضبه ونقمته على الأمير الشاب ، فلا تعلو مكانته عنده ٠

(٣)

وصل الامبراطور الى أنطاكية فى أبنائه وحاشيته ودخل المدينة وحوله أكثر عسكره ، فتلقاه الناس بالحفاوة البالغة ، ثم ساروا به أول ماساروا الى الكاتدرائية فقصر الأمير الذى قام هو والكونت بقيادة الركب الامبراطورى ، وتبعهم كالعادة موكب مؤلف من البطرك وجميع رجال الدين والناس كافة ، وراحت العامة تنشد بين يدى يوحنا أناشيد الثناء ، وتدق له الآلات الموسيقية ، وتشق الأفق هتافات الفرح ، والتصفيق العالى ·

ولقد ظل الامبراطور يتمتع بضعة أيام كما لو كان فى قصره بكل ما شاء من الاستحمام وكل ما ينعش البدن ، وأغدق كرمه على الأمير والكونت ونبلائهما بل وعلى بعض الأهالى ، ففاضت انعاماته عليهم جميعا كأسخى ما يكون الانعام ، حتى اذا انتهى من ذلك كله طلب العاهلين (٣) وجميع أشراف الامارة للمثول بين يديه ، فلما صاروا أمامه قال موجها الكلام الى الأمير :

« انك لتعلم يابنى العزيز ريموند أننا أقمنا فى هذه الناحية زمنا طويلا بسبب حبنا لك ، وقد فعلنا ذلك تنفيذا للاتفاق الذى كنا قد أبرمناه سابقا بفضل سعى بعض أهل الفطنة بين امبراطوريتنا — رعاها الرب — وبينك ، باعتبارك فصلا مخلصا لنا ، وها قد جاءت الفرصة الملائمة كى نفى بوعدنا ، ونضع جميع المنطقة المجاورة تحت حكمك كما تنص على ذلك صراحة شروط الاتفاقية ، ولكنك تعرف جيدا — كما يعرف هؤلاء النبلاء الذين يقفون الآن فى حضرتنا — أن تنفيذ هذه الشروط التى نحن ملتزمون بها تتطلب زمنا ليس بالقصير ، كما أن واقع أمورك يفرض على أن أطيل اقامتى لكنه يكلفنى نفقة أكبر ، وعلى ذلك فالواجب يقتضيك — حسب نص

الاتفاق ـ أن تعهد الينا بقلعة هذه المدينة حتى نضع أموالنا بهـــا فتكون فى مأمن ، كما يجب أن يتوفر لعسكرنا حرية الوصول الى المدينة : يدخلونها متى شاءوا ويخرجون منها متى أرادوا من غير عائق يعوقهم فيما يبغون ، كما أنه لا يمكن الحصـــول على الآلات اللازم جلبها لحصار حلب من طرسوس وعين زربة وغيرهما من مدن كيليكية ، ولكن أنطاكية هى الوحيدة التى هـــى أقـــدر من غيرهـــا فى تقديم هذه الأشـــياء من أجل تحقيق هذه الأهداف وامدادنـــا بالتيسيرات التى لا يستطيعها سواها ، لذلك فعليك الوفاء بعهدك ، واداء واجبك التزاما بيمين الطاعة التى قطعتها على نفسك لنا ، وستكون مهمة عظمتنا الامبراطورية أن ننفذ الالتزامات المفروضـــة علينا ، ٠٠٠ ولن نقصر فى البذل ولن نضن ببذل أقصى جهدنا » ٠

هالت الأمير ونبلاءه خشونة هذه الكلمـــات ، وظلوا فترة طويلة من الوقت يقلبون المشكلة فيما بينهم على شتى وجوهها وهم جزعون ، ولم يعلموا بماذا يجيبونه ، ذلك لأنهـــم رأوا مدى الخطر الجسيم الذى يهدد المدينة ان وقعت فى أيدى الاغريق المدللين ، وهى المدينة التى حصلت عليها أمتنا بعد تعرضها لأخطار جسام ، وردت الى العقيدة المسيحية بعد أن بذل الأمراء الكرام من اجلها دماءهم الغالية ، وكانت أنطاكية على الدوام رأس كثير من الولايات الكبيرة وتاجها ، والتى كان يخيل الينا أنه ما كان لباقى الاقليم أن تقوم له قائمة بدونها ٠ كما أنه لا جدال من ناحية أخرى فى أن هذا الأمر تضمنه الاتفاق الذى كان الأمير قد أبرمه ، بالاضافة الى ذلك فان الامبراطور كان قد أحضر اليها الكثيرين من رجاله مما جعل من الصعب معاندته ان هو رأى اللجوء الى القوة ولما وصلت الأمور الى هذا الحد الحرج تكلم كونت الرها نيابة عن الجميع فقال :

« مولاى : ان كلمات عظمتكم الامبراطورية حافلة بالبلاغة العلوية ، وانها لقمينة بالقبول التام لأننا نرى أن هدفها يرمى الى زيادة قوتنا ، ولكن جد أمر يستدعى الالتفات ، ذلك أنه لم يعد فى قدرة صاحبها الأمير أن يتفرد وحده بالموافقة على هذا الطلب ، بل عليه أن يستوفيه بحثا ومشورة مع كبار رجالاته ومعى أنا ذاتى ومع رعاياه الآخرين المخلصين ، فيشير عليه هؤلاء جميعا بأمثل الطرق لاستجابة قرارك وتنفيذ أمرك على أتم وجه ، اذ لو شبت ثورة من جانب الأهالى لحالت دون تنفيذ مطالبك » •

وصادف رد الكونت قبولا حسنا عند الامبرطور الذى أذن لهم بفترة قصيرة من الوقت حتى يمكنهم مناقشة الأمر فيما بينهم •

ثم انصرف الكونت بعدئذ عائدا الى قصره ، وبقى الأمير فى القصر وان كان فى الواقع سجينه كما ذكر ذلك أحد التقارير •

(٤)

ما كاد الأمير يصل الى داره حتى أنفذ فى السر رجالا من ناحيته الى العامة يخبرونهم بمطالب الامبراطور ، ويحرضونهم على حمل السلاح ، وسرعان ما اندلعت فى أرجاء المدينة المظاهرات الصاخبة ، وتكاثرت الجموع من كل حدب وصوب ، واستحالت الضجة الى زئير غاضب هادر ، فلما سمع الكونت جوسلين الصخب بادر الى امتطاء أحد الجياد وانسل على عجل ميمما وجهه شطر القصر كما لو كان يفر من مطاردته الناس له،وطرح نفسه وهو يلهث على قدمى الامبراطور الذى استبدت به الدهشة من هذا الاقتحام الفجائى ، وتساءل فى اهتمام بالغ عما حمل الكونت على تناسى آداب اللياقة وحرمة القصر العالى فيندفع الى الحضرة الامبراطورية الجليلة على هذه الصورة ، فرد عليه الكونت أن

الضرورات تبيح المحظورات وهى لا تعرف عرفا ولا قانونا ، وأن مطاردة الرعاع العنيفة له أرغمته على خرق القواعد المتبعة فرارا من القتل ، فألح الامبراطور عليه أن يزيده تفصيلا ، فأجابه بأنه قد دخل احدى الحانات يستجم قليلا ، ويتناول بعض الأطعمة الخفيفة واذا بباب النزل قد حاصرته جموع غفيرة مدججة بالسلاح ومنتضية السيوف وشتى أدوات القتل التى يستلزمها غضبهم ، وصاروا كأنهم رجل واحد وليس على لسانها سوى اتهامه بأنه رجل سفاك ، خائن لبلده ، وقاتل لشعبه ، وأنه موشك أن يبيع المدينة للامبراطور لقاء مال رشاه به الامبراطور ، كما طالبوه بتسليم نفسه اليهم ، ثم اقتحموا الخان قبل أن يفر منهم ومن آلاف الأخطار التى تتهدده ٠

❋ ❋ ❋

وتجاوبت أرجاء المدينة فى هذه اللحظة بهدير الجموع الصاخبة الحانقة ، وانطلقت الشائعات تزعم بأن أنطاكية بيعت للاغريق الذين تسلموا قلعتها والذين سوف يحملون الأهالى على هجر دور أجدادهم والرحيل عن أرض أسلافهم ، فأسخطت هذه المزاعم الناس وأحنقتهم، وانطلقوا يهاجمون كل من صادفوه من رجال الامبراطور ، فينزلونهم من على ظهور جيادهم ، ويسلبونهم غصبا كل مامعهم ، ولم يتورعوا عن ضربهم بالسياط ، فمن قاومهم ولو قليلا قتلوه بالسيف ، أما الشاردون الذين انطلقوا على وجوههم وهم فى غمرة اليأس فرارا من أن يقتلوا أو تنالهم الكلوم فقد تتبعتهم العامة بسيوفها المسلولة ، وتعقبوهم حتى داخل القصر الامبراطورى ٠

حينذاك اضطر الامبراطور ازاء ثورة الأهالى وصراخ حاشيته الى القيام بعمل شىء ما ، فبعث فى استقدام الأمير والنبلاء اليه فى لحظته هذه خوفا من قيام مظاهرة خطيرة ضده هو ذاته فكبح جماح

غضبه ساعتئذ ، وقال مشيرا الى الملاحظات التي ذكرها فى حضرتهم جميعا ، فقال :

« انكر أننى تذاكرت معكم اليوم فى موضوع ربما كان هو الذى أدى الى هياج الناس ، والآن أريد أن يعرف أهل المدينة قاطبة وشيوخها أننى شاجب ما قد قضيت به ، وراجع عما كنت راغبا فيه طالما رأيتم أن فيما طلبته ما يلحق الأذى بكم ويكبدكم من أمركم عسرا ، ولذلك فانى مبق بأيديكم القلعة والمدينة كلها ، ويكفينى أن تظل الأمور على ما هى عليه الآن ، وأنا واثق تمام الثقة أنكم أتباعى الأوفياء ، وموقن كل اليقين أنكم لن تحنثوا بعهد الولاء ولا يمين التبعية التى قطعتموها على أنفسكم لى ، وأناشدكم أن تتوجهوا الآن الى هؤلاء الناس الحانقين لتسكتوا ثورتهم ، ولتعلموهم أنــــه اذا كانت اقامتى فى أنطاكية تسبب لهم ذعرا فليقروا نفسا ولتطمئن قلوبهم فاننى راحل غدا باذن الله » ٠

فاستصوب الحاضرون قرار الامبراطور وأثنوا الثناء العاطر على حكمته وبعد نظره ورجاحة عقله وحسن تدبيره ٠

واذ ذاك خرج الأمير ريموند والكونت جوسلين ومعهما غيرهما من كبار الرجال وأشرفوا على العامة وحاولوا بالكلمة والاشـــارة والايماء تهدئة فورتهم ، فهدأوا وانفثأ غضبهم بهذه الكلمات الطيبة وأخلدوا الى السكينة ، ثم التمس منهم الوسطاء أن يعودوا الى بيوتهم ويلقوا سلاحهم جانبا ويلتزموا السكينة ويركنوا للهدوء ، ففعلوا ٠ وانتهى الأمر أخيرا على هذه الصورة ٠

فلما كان اليوم التالى غادر الامبراطور أنطاكية وفى معيته أبناؤه وأقاربه وجميع أتباعه ، وصدر أمره بنصب المعسكر خارج أسوار المدينة ، فتم الأمر كما أراد ٠

(٥)

غير أن ذوى الفطنة من أهل المدينة أدركوا أن الامبراطور كان ساخطا فى قرارة نفسه على الأمير « ريموند » وكبار النبلاء ، وعلى الرغم من كتمانه مشاعره الحقيقية كتمانا أملاه عليه العقل الا أنه كان يؤمن أنهم هم المسئولون عن شغب العامة ، وأنهم هو المشجعون لهم سرا على هذه الفوضى ، لذلك تطلع هؤلاء النفر الى اعادة السلام واقراره ، فأرسلوا رهطا من أهل التجربة والعقل كمبعوثين الى عظمته الامبراطورية ، وعهدوا اليهم أن ينوبوا عن الأميـــر « ريموند » وكبار أعيان البلد فى الاعتذار اليه وتبرئة ساحتهم عنده ، وأنهم لم يكونوا هم الذين دفعوا العامة الى الشغب ٠

وجىء بالرسل الى الحضرة الامبراطوريـــة فأكدوا براءة الأمير ، وبذلوا غاية جهدهم فى اقناع الامبراطور بهذه الحقيقة اذ قالوا له :

« تعرفون يا صاحب العظمة الامبراطورية والجلالة السامية أحسن مما نعرف نحن أن الناس فى كل المجتمعات ـ لاسـيما فى المدن حيث تحتشد الجماهير الغفيرة ـ لا يكونون على درجة واحدة من الفهم ، وأنهم غير متكافئين فى عدالة حكمهم على الشىء ، ذلك لأن عاداتهم شتى وتقاليدهم متباينة ، ومناهجهم متضاربة حسبما تمليه عليهم مصالحهم ، وما أصدق المثل القائل : « كلما كثر الرجال تعددت الأفكار » لذلك فان واجب العاقل فى خضـــم هذه الظروف والأعراف الجمة المتضاربة أن يميز بين من يستحقون ومن لا يستحقون ، ويحكم على كل واحد بما هو أهل له ، وبناء على هذا التعقل فان الفعال المسعورة الصادرة عن رعاع غير مسئولين لا ينبغى أن تعود بالمضرة على العناصر الطيبة ، اذ كثيرا مايحدث أن تطيش أحلام

جماعة من العامة الفوضويين ، يسخطها الزجر فلا تطيقه فتثير المنازعات والاضطرابات ، ولكن من المؤكد ايضا ـ حسبما تـدل العادة القديمة والتى ثبت منذ بعيد صحتها ـ أنه فى جميع المـدن المنظمة قانونيا أن يكون لسراة القوم المعتدلين اثرهم فى كبح جماح النزوات وصد الاندفاع الجنونى ، فان لم يفعلوا ذلك تغلب وضع العامة على وضع النبلاء ، وما لم يتدخل العقلاء لتصحيح أخطاء الرعاع الذين لا تفكير عندهم فان الفوضى الطائشة التى جبل عليها الغوغاء سوف تكون لها اليد العليا وتتغلب على فطنة الحكماء ٠

« ولقد ارتكب جماعة ممن لا خلاق لهم هذه الفوضى دون أن يعلم الأمير ولا أولو الأمر فى الدولة عنها شيئا ٠٠٠ فلينزل بهم العقاب الذى هم أهل له ، ولكن لا تحملوا الأمير ولا الأمراء جريرة السفهاء التى لم يرتكبوها هم أنفسهم » ٠

« ورغبة من الأمير فى البرهنة على براءة ساحته فانـــه مستعد للالتزام بشروط الاتفاق ، ويرجوكم ـ اذا سمحتم ـ أن يضع فى يد الامبراطور المدينة والقلعة معا » ٠

أدى هذا الاعتذار وأمثاله من التبريرات القوية الى هدوء حدة الامبراطور وازالة سخطه الذى كان يرجع الى الشك وحده ، وأفسح المكان لاحساس رقيق ، ومن ثم أرسل الى الأمير والكونت طالبا اليهم المثول بين يديه ٠ فانقشعت بذلك سحابة الغضب التى كانت تفصل بينه وبينهم ، وسعد الامبراطور بتحياتهم ، ورد عليها بأحسن منها ٠

ثم أفضى اليهم أخيرا بأن هناك أسبابا بالغة الأهمية تحمله على العودة الى بلاده ، واستأذنهم فى الخروج ووعدهم وعدا أكيدا أنه راجع اليهم بعون الرب على رأس جند كثيرين ، ومنفذ ما اتفق

عليه ، ثم سار بكل جيشه ودخل كيليكية حتى اذا فرغ من كل ما يشغل باله فى هذا الاقليم وفى سورية أعد عسكره للمسير والعودة الى مملكته •

(٦)

فلما كان الصيف التالى وبعد مرور فترة قصيرة على وقوع هذه الأحداث فى أنطاكية جاء الى القدس للحج « تييرى كونت فلاندرز » ختن الملك ، وكان رجلا وجيها ، عظيم القدر بين أمراء الغرب ، وكان فى صحبته حاشية نبيلة •

واستقبله الملك وكافة الناس استقبالا دل على عظيم فرحتهم به ، ذلك أنه كان قد تم الاتفاق بالاجماع - بناء على توجيه من البطرك ومن عنده من أمراء المملكة - أن يقوم « تييرى كونت فلاندرز » بمن معه من الفرسان الأشاوس بحصار قلعة واقعة على الجانب الآخر من الأردن على مقربة من جبل جلعاد فى اقليم « العمونيين » ، وكانت هذه القلعة مصدر خطر كبير يهدد أرضنا ، وهى عبارة عن مغارة فى منحدر جبل باسق الارتفاع صعب المرتقى ، ويقوم على أحد جانبيه ممر ضيق بالغ الخطورة ، يقع بين جرف صخرى مرتفع وبين المنحدر الذى ذكرناه ، ويؤدى الى نفس الكهف •

كان يغشى هذا الكهف عصبة من اللصوص وقطاع الطرق والأوشاب القادمين من أراضى مؤاب وعمون وجلعاد ، الذين ألفوا - كلما سنحت الفرصة لهم - مراوحة أراضينا بغاراتهم الكثيرة التى يباغتوننا بها على غير توقع منا ، وكثيرا ما أصابتنا هذه الهجمات بالأضرار البليغة ، وكانت أخبار الأراضى الصليبية تصل الى هذه العصابات بواسطة جواسيسهم الخبيرين بالاقليم ،

ممن كانوا يرسلونهم قبل كل غارة يزمعون القيـــام بها • وكان زعماؤنا يتلهفون لاجتثاث هذه الشرور ، ومن ثم اقترحوا ـ كمـا قلنا ـ محاصرة الكهف فاستدعوا أهل تلك الناحية قاطبة ، وعبروا الأردن بصحبة القوات الحربية ، حتى اذا بلغوا وجهتهم نصبوا خيامهم فيما بين الأحراج الضيقة ، ووضعوا القوات على شـــكل دائرة تحدق بالمكان المحاصر ، وتبعـــا لقوانين القتال فقد أخذوا يضايقون العدو بكل السبل ، وأطبقوا عليه كل الاطباق لارغامه على الاستسلام ، أما اللصوص فاستعدوا من جانبهم وبكل ما أوتوا من مكر شرير للدفاع عن أنفسهم •

وهكذا كان الجيش الصليبي كله على وجه التقريب لا يشغله سوى المعركة ، وأدرك جمـــاعة من الأتراك فى نفس الوقت أن كل الاقليم المار بالأردن قد خلا من العسكر ، فأصبح ميسرا للهجمات العدوانية ، فاغتنموا هذه الفرصة التى سنحت لهم حينئذ وعبروا الأردن وجعلوا منطقة « أريحا » على يمينهم ، وساروا على طول ساحل « بحيرة الأسفلت » التى تسمى أيضا بالبحر الميت ، وتقدموا من هناك الى الاقليم الجبلى وهاجموا تلك الناحية من الولاية التى كانت فى العصور القديمة من أرض أبناء يهوذا ، فاستولوا بالغصب على « تقوع » وهى مدينة النبيين عاموس وحبقوق ، وقتلوا القلة القليلة الباقية ممن لازالوا موجودين بها ، اذ كان قد هجرها من كانوا بها من قاطنيها الذين فرت جموعهم منها مستصحبين معهـم نساءهم وأولادهم وقطعانهم وأغنامهم ، ولجأوا الى كهف « أودولا » المجاور ، وذلك لأن النذير جاءهم قبل فوات الأوان باقتراب العدو ، واذ كانت المدينة خالية من أهلها فقد اقتحم المغيرون بيوت الهاربين وحملوا معهم كل ما وجدوه بها بعد رحيل أصحابها عنها •

وحدث فى تلك الأيام أن جاء الى بيت المقـــدس من أنطاكية المجاهد فى سبيل الرب « روبرت » الملقب بالبرجندى ، وكان فارسا مغوارا بارعا فى استعمال السلاح ، هذا الى جانب ما كان عليه من كرم المحتد وسمو الخلق ، وهو من مواليد « أكويتانيا » وكان رئيس جماعة فرسان المعبد ، وصاحب فى قدومه هذا بعض رفاقه ورهطا ضئيلا من الفرسان من مختلف المراتب ممن كانوا قد تخلفوا فى القدس التى ما كاد يصلها هو ومن معه حتى انطلقوا على جناح السرعة الى المكان الذى ذكرناه حالا ، يتقدمهم « برنارد فاشيه » أحد رجال الملك حاملا العلم الملكى ومن ورائه الناس قاطبة ٠

لكن ما كاد الترك يعلمون بأن الصليبيين فى الطريق اليهم حتى غادروا « حبيس »(٤) موطن النبى « يوئيل » وفروا نحو الخليل الذى هو مدفن البطاركة ، وفى نيتهم النزول من هناك الى عسقلان ٠ ومع معرفة الصليبيين بأن العدو شارع فى الارتداد الا أنهم أمسكوا عن مطاردته رغم أنه لا زال قريبا منهم ، كأنما كانوا على ثقة من أن النصر فى جانبهم ، ولكنهم نهجوا عكس ما كان ينبغى عليهـم نهجه ، اذ تفرقوا فى غير اكتراث فى شتى النواحى ، وليس لهم من هم غير النهب الذى فضلوه على استئصال شأفة خصـــمهم ، وسرعان ما أدرك الترك هذا الوضع رغم ركونهم للهرب ، فعاودتهم شجاعتهم ، وتجمعوا ثانية على مألوف عادتهم وحاولوا جهدهم لم شتات قواتهم المبعثرة ، وأغاروا فجأة وبكل ثقة على زمر الصليبيين الذين كانوا يتجولون هنا وهناك ، لا يخامرهم أدنى خوف من أى خطر يترصدهم ، فاستحر القتل فى رجالنا ، ولم تكتب النجاة الا لشرذمة ضئيلة منهم حاولوا الهرب فلملموا فلولهم المشتتة وقاتلوا الترك ٠

وفى هذه الآونة تردد فى الأفق صدى دق الطبول العالى ، والنفخ فى الأبواق وعلك الجياد للجمها ، كما خطف الأبصار بريق

الاسلحة اللامعة ، وسمعت أصوات القادة يشجعون رجالهم ، وحجبت الأفق سحائب من الغبار الكثيف أثارتها سنابك الخيل فكان ذلك كله صيحة النذير الى قوات الصليبيين الأخرى المبعثرة هنا وهناك ، فأسرعوا الى ساحة المعركة ، الا أن صفوفنا الامامية مالبثت أن فرت على وجهها قبل أن يتمكن الصليبيون من الانضمام الى رفاقهم الذين كانوا يجاهدون فى سبيل المقاومة ، واذ ذاك رجحت كفة العدو علينا ، وحاقت القارعة برجالنا •

وحاول الصليبيون الفرار والعدو يلاحقهم بسهامه المشرعة ، ولكن النجاة كانت شبه مستحيلة لامتلاء الناحية كلها بالصخور ، كما كاد المكان أن يكون خلوا من الممرات مما أسفر عن لقاء بعض الصليبيين حتفهم بظبى السيوف •

كذلك هوى آخرون من أعلى المنحدرات فجد الترك فى أثر الباقين من الصليبيين يذبحونهم ذبحا فظيعا بدءا من الجليل الذى هو قرية « عربة »(٥) حتى حدود « تقوع »(٦) •

وهلك فى هذا اليوم كثير من الأشراف والرجال البارزين ، وكان من بين الهلكى « أيودى منتفوكون » الفارس المعلم الذى هو من جماعة فرسان المعبد ، فكان مصرعه مبعث حزن عميق وكثر البكاء عليه •

وعاد العدو الى عسقلان ظافرا منصورا ، تزدهيه النشوة بهلاك الصليبيين ، وتملؤه الفرحة بما فى يده من الغنائم •

أما رجالنا الذين كانوا مشغولين بالحصار (فى جبل جلعاد) فقد فاضت نفوسهم جزعا حين جاءهم النذير بالنكبة التى ألمت بنا ،

لكن خفف من جزعهم وشد من عزمهم ما يعلمونه علم اليقين أن الحرب سجال ، يكون النصـــــر فيها يوما لهذا ويوما لذاك ، ومن ثم استمروا فى العمل الذى يقومون به فى حماسة فائقة ، فلم ينقض بعض الوقت الا وقد تم لهم الاستيلاء على ذلك الحصن بمشيئة الرب فعادوا الى ديارهم سالمين يكلل المجد هاماتهم ٠

(٧)

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى القدس كان زنكى قد غره نصره فجعله أشبه بالدودة التى لا تعرف الاستقرار ، فتطلع الى غزو مملكة دمشق التى جاء الخبر الى حاكمها معين الدين أنر الذى كان فى الوقت ذاته حما الملك بأن زنكى نهض بجيشه فاقتحم دمشق ، فبادر الحاكم أنر فى الحال الى ارسال رسل من ناحيته الى ملك بيت المقدس متوسلا اليه فى الحاح وبكلمات تقطر ودا أن يقوم هو وشعبه المسيحى فينجده بالمدد ويسعفه بالرأى ضد العدو الشرس الذى لا ينكر أحد خطره على المملكتين معا ، وتعهد له بدفع عشرين ألف قطعة من الذهب نفقة للحملة ، وقد فعل ذلك حتى لا يظن أحد أنه ينشد من الملك وأشرافه النجدة بلا ثمن ٠

وكانت الاتفاقية قد نصت على أنه لايكاد يتم اخراج العدو من دمشق حتى يرد « أنر » الينا من غير معارضة مدينة « بانياس » التى انتزعت منا قبل عامين من هذا التاريخ ، وتعهد ـ تأكيدا لشروط الاتفاق ـ أن يسلمنا عددا من كبار رجالاته يتفق عليه ليكونوا رهينة لدينا ٠

فلما استمع الملك الى هذه العروض جمع اليه كافة أشـــــراف المملكة وشرح لهم شرحا دقيقا لكل شروط الاتفاقية وتفاصيلها التى

خملها اليه رسل « أنر » وسألهم ماذا يكون رده عليه ، فطال البحث بينهم ، ثم قر قرارهم بعد اعمال الفكر المتزن والاستعراض الدقيق لمختلف الآراء أن يساعدوا أنر والدماشقة ضد هذا العدو الضارى الذى يهدد المملكتين على السواء ، ورأوا أن خير صورة لهذا العون هى أن تكون مطلقة سخية حتى لايصبح العدو أكثر قوة بسبب تلكئنا فيستولى على مملكة دمشق ويستغل مواردها فيزداد بأسه ضدنا ٠

... كذلك كان هناك ظرف آخر جعل المساعدة أمرا لا مندوحة عنه ، وكان هو أقوى الدواعى التى ساعدت على الاستجابة لهذا العرض الا هو ما تضمنته الاتفاقية فى بندها الأخير من الاشارة الخاصة الى مدينة بانياس ٠

(٨)

على هذه الصورة كانت الموافقة على الخطة العامة ٠

لذلك ما كادت الرهائن المذكورة تصل وتوضع فى مكان أمين حتى صدرت الأوامر (الصليبية) بجمع القوات الكثيرة من الفرسان والمشاة من شتى رحاب المملكة وحشدها حالا فى طبرية ، وقام زنكى فى الوقت ذاته مندفعا بشجاعته الطاغية فغزا أرض دمشق بعسكر كثيرين من الفرسان ، وزحف مخلفا المدينة وراءه حتى بلغ موضعا يسمونه رأس العين ، فأقام به هو وكتائبه وعسكر هناك مؤقتا ، ذلك لأن تقدم الصليبيين فرض عليه شيئا من التردد وكانت ثقته كبيرة ببلوغ غايته المأمولة ما لم تفسد قواتنا عليه خططه ٠

وجاء الى الصليبيين خبر توقف زنكى عند الموضع المذكور ونبأ خروج الدماشقة من بلدهم وانتظارهم فى « نوارة » وصول الملك وعسكره ، واذ ذاك قوض الصليبيون معسكرهم وأسرعوا رافعين بيارقهم ، متجهين على بكرة أبيهم شطر المكان المذكور · بيد أن زنكى ما كاد يعلم بهذه الحركة من جانبهم حتى بادر الى الانسحاب ليعد للأمر أهبته كراهية منه فى محاربة جيشين فى وقت واحد ، وخوض غمار معركة على أرض معادية له ، ومن ثم أسرع قبل انضمام الصليبيين الى الدماشقة الى ترك الناحية التى هو فيها ، وارتد على عجل تاركا قواتنا وقوات الدماشقة الى اليسار ، وزحف صوب الاقليم المعروف عادة باسم « وادى بكار » لكن هذه الحركة من جانبه لم تمنع رجالنا من مواصلة زحفهم الى الموضع المحدد حيث انضموا الى الدماشقة وصاروا يدا واحدة ، وحينذاك تأكد عندهم تماما خبر رحيل زنكى ، فاتفقوا على أن يحولوا زحف الجيش بأجمعه الى ناحية « بانياس » حسبما جرى الاتفاق عليه فى المعاهدة ·

لقد سبق لنا أن قلنا ان « طغتكين » ملك دمشق كان قد استولى قبل سنوات قلائل على هذه المدينة بقوة السلاح ، وعهد بادارتها الى وال من قبله ، لكن سرعان ما انفصل هذا الوالى عن الدماشقة وانضم الى عدوهم عماد الدين زنكى ، وكان هذا هو السبب الذى حمل حلفاءنا (الدماشقة) على بذل الجهود المضنية لوضع مدينتهم تحت نفوذ ملك بيت المقدس ، اذ أنهم رأوا أن ردها الى الصليبيين الذين يتمتعون بعطفهم خير من أن يروها فى قبضة خصم يخافونه أشد الخوف ولا يطمئنون اليه ، ذلك لأنه يستطيع ــ من وجهة نظرهم ــ أن يصيبهم بكثير من الأذى ويسبب لهم ازعاجا أشد وأكبر ·

وتعرف « بانياس » فى العادة باسم « بليناس »(٧) ، وكانت تعرف قبل دخول أبناء اسرائيل أرض الميعاد باسم « بليشم » ، ثم ما لبثت أن صارت من نصيب أبناء « دان » فسموها « لشم دان » حسبما نقرأ ذلك فى يوشع(٨) : « وخرج تخم بنى دان منهم ، وصعد بنو دان وحاربوا لشم ، وأخذوها وضربوها بحد السيف ، وملكوها ويكنوها ، ودعوا لشم دان ، كاسم دان أبيهم » •

ثم سميت هذه المدينة فيما بعد باسم « قيصرية فيلبى » لأن فيليب التراشى بن هيرود الكبير زاد فيها تمجيدا لتيبيريوس قيصر ، كما اشتهرت بفضل ما شيده فيها من العمـــائر الرائعـــة ، ومن ثم فان شطرا من اسمها يشير الى « قيصر ، أما الشطر الآخـــر فمنسوب الى ذلك الرجل الذى زاد فى رقعتها •

* * *

زحفت الجيوش المتحـــالفة نحو هذه المدينة التى ما كادوا يدخلونها يوم أول مايو حتى فرضوا عليها الحصـــار من كـل النواحى ، ووضع « أنر » جيوشه فى ناحية بالجانب الشرقى منها تقع بين المدينة والغابات فى بقعة يسمونها « كوها جار » وأما قوات الملك فقد رابطت فى الناحية الغربية تجاه المزارع الفسيحة ، فأدى وضع القوات على هذه الصورة المحيطة بالمدينة الى منع أى أحد من الوصول الى من بداخلها ، كما حالوا دون خروج أحد منها ، وزيادة على ذلك فقد اقتضتهم الحكمـة أن يبعثوا الرســل الى « ريموند » أمير أنطاكية والى كونت طرابلس لدعوتهما للمشاركة فى الحصار الذى بدأ حالا ، وقد تم ذلك باتفاق عام فبعثوا الرسل اليهما فى الحـال •

شدد الصليبيون فى هذه الأثناء الحصار بلا هوادة ، يعاونهم حلفاؤهم(٩) الدماشقة الذين لا يقلون عنهم حماسة والذين كانوا على

الدوام على استعداد للقتال اليومى ، وأخذوا يقذفون من آلات الرمى المسماة بالبطاريات أحجارا ثقيلة الوزن زلزلت الأسوار ودكت المبانى القائمة داخل المدينة ذاتها ، كما أخذت السهام والنبال تنهال كصيب لا ينقطع على أهالى البلد المنهوكين بصورة أصبح من المستحيل معها أن يوجد أى مكان آمن وراء الأسوار ، حتى ان المدافعين أنفسهم – رغم حماية المتاريس والسور لهم أثناء رميهم الأحجار أو جذبهم أقواسهم – كانوا قل أن يجرؤوا على التطلع بالنظر الى المهاجمين فى الخارج .

وكان منظرا عجيبا ومشهدا لم تر العين مثيلا له من قبل أن يقوم خصم بتشجيع عدوه على تسعير أوار الحرب ، وأن يمضى مدججا بالسلاح فيكون حليفا لعدوه لتدمير العدو المشترك ، كذلك لم يكن أحد قادرا على أن يقول أى الحليفين كان أكثر استبسالا من الآخر ضد العدو المشترك ، وأيهما كان أشرس فى الهجوم أو أكثر صبرا على تحمل عبء المعركة فقد تساوى الصليبيون والدماشقة فى الشجاعة ، واتحدوا معا لتحقيق هدف واحد ، وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا على حد سواء فى التدريب ولا فى استعمال السلاح ، الا أن تلهف الدماشقة فى الاضرار بالعدو الذى هو من جنسهم جعلهم لا يذعنون ، وعلى الرغم من أن المحاصرين أرهقتهم الهجمات التى لا تنقطع ، وأثقل كاهلهم عبء العمل وضخامته الا أنهم ما زالوا يقاومون المقاومة الشديدة ولا يقصرون فى بذل كل جهد للذب عن حريمهم وأبنائهم ، وفوق كل شىء عن حريتهم ، وزاد ضغط الأهوال عليهم من ابداعهم ، فلم يدعوا طريقا للمقاومة الا سلكوه ، واستمروا على ذلك فترة طويلة من الوقت جعلت الصليبيين يوقنون فى آخر الأمر ألا سبيل لكسب شىء ما لم يبنوا برجا خشبيا ثم يحركونه ويلصقونه بالأسوار ، ثم يعتلونه فيقاتلون المحصورين ، غير أن الناحية كلها لم تسعفهم بالمادة الملائمة لصنع

مثل هذا البرج ، وحينذاك كلف « أنر » بعض رجال من عنده بالمضى الى دمشق فى طلب الواح كبيرة الحجم كانت مكدسة هناك منذ زمن بعيد لمثل هذا الغرض ، وأمرهم بانجاز مهمتهم هذه على وجــه السرعة والعودة على عجل ٠

(١٠)

وصل لحظتئذ أمير انطاكية وكونت طرابلس تلبية لرسلنا الذين استدعوهما ، فقدما ومعهما ـ كما أملنا ـ عدد كبير من المقاتلين الأشداء الذين انضموا الى معسكرنا ، فضاعف مجيئهم حــزن المحصورين الذين بدوا وكأنهم فقدوا الأمل فى الصمود ، اذ كان القادمون الجدد حريصين كل الحرص على اظهار باسهم ، فراح البعض منهم ينافس البعض الآخر منافسة حادة ، واذ كانوا يتطلعون الى الثناء والمجد فقد قسموا أنفسهم الى جماعات منفصل بعضها عن البعض ، وهاجموا المدينة فى شدة ترتب عليها مضاعفة جزع المحصورين واستيلاء الشك عليهم فى قدرة عسكرهم على حمايتهم بينما تزايد ـ من ناحية أخرى ـ ايمان المتحالفين باحرازهم النصر فازدادوا بأسا على بأس وشجاعة على شجاعة ، وأخذ مللهــم يتلاشى يوما بعد يوم حتى وجدوا أنفسهم أخيرا أقوى على الهجوم عما كانوا عليه من قبل ٠

* * *

بينما كانت هذه الأحداث تجرى أمام « بانياس » اذا بالرجال الذين أرسلوهم الى دمشق يعودون من غير تريث ولا تأخير بألواح كثيرة من الخشب من كل حجم وقوة يحتاجها العمل ، وسرعان ما بدأ النجارون والفعلة فى ضمها بعضــها الى بعض وتثبيتهــا بالمسامير الحديدية تثبيتا متينا ، وسرعان ما قامت عندهم آلــة

عظيمة الارتفاع يساعد أعلاها على استكشاف كل أرجاء المدينة ، وأخذوا يرمون من فوقها بالسهام والنبال وشتى صنوف القذائف ، وحالت الأحجار التى كانوا يقذفونها باليد دون تمكن المدافعين من التقدم ٠

ولما أصبحت هذه الآلة جاهزة للعمل نصبت على الجدار بعد أن سويت الأرض التى بينها وبين الأسوار ، وكان يخيل للناظر اليها ـ وهى تشرف على المدينة كلها ـ كأنها برج أقيم فجأة وسط الموقع ذاتـه ٠

حينذاك أصبح موقف المحصـورين لأول مرة موقفا لا يمكن احتماله ، ففروا الى أقصى مكان يستطيعون الفرار اليه ، الا أنـه كان من المستحيل استنباط أى علاج ضد ما يلقيه باستمرار هذا البرج المتحرك من وابل هتان من الأحجار والقذائف ، يضاف الى ذلك أنه لم يكن يوجد داخل المدينة أى مكان آمن للمرضى والجرحى ، ولا لأولئك الذين لازال فيهم من القوة والنشاط ما يساعدهم على التضحية بأنفسهم دفاعا عن الآخرين ، فلم يجدوا مكانا ينسحبون اليه التماسا لشىء من الراحة بعد الجهود الشاقة التى بذلوها ٠

زد على ذلك أنه حيل بينهم وبين التقدم أو الارتداد الى الخلف لوجود المتاريس،وأصبحوا عاجزين عن مد يدالمساعدةلاخوانهمالذين يتساقطون ، لأنهم ان فعلوا ذلك عرضوا أنفسهم للهلاك ، ولم تكن الأسلحة ولا أساليب الهجوم التى يستعملها المحاربون الموجودون فى الداخل ذات جدوى تذكر أمام ما يتعرضون له من الأخطـار الجمة على أيدى المقاتلين الموجودين فى البرج ، والحق أن القتال لاح وكأنه معركة ضد الآلهة أكثر مما يكون بين البشر ، وكان زنكى قد وعدهم ـ وكان صادقا مخلصا فى وعده ـ بأنه سـوف يهب

لنجدتهم ، فصدقوا ما وعدهم به منذ أن قاله ، أما الآن فقد تلاشى كل أمل لهم فى الدفاع عن أنفسهم فى ظل هذا الخطر الموشك على الالمام بهم ٠

(١١)

حدث فى أثناء هذه الحملة أن قدم الى صيداء رســـول من كنيسة رومة هو « ألبيريكوس » أسقف « أوستيا » الفرنسى المولد من أسقفية « بوفيه » ، وقد أوفده البابا فى مهمة خاصة لتقصى حقيقة خبر النزاع الناشب فى كنيسة أنطاكية بين قداسة البطرك وبين أتباعه ، ذلك أنه حدث قبل ذلك بفترة قصيرة أن بعث البابا الى سورية بالرجل الطاهر الذيل «بطرس» رئيس أساقفة «ليون» رسولا خاصا من قبله لبحث هذا النزاع بالذات ، غير أن المنية وافته فلم ينجز المهمة التى عهـــد اليه القيـــام بها ، ومن ثـــم فقد اختير « ألبيريكوس » ليحل محله ، وكان بطرس رئيس الأساقفة الموقر موكلا بوضع خاتمة مناسبة لهذا الصراع حسبما نقص خبر ذلك فيما بعد ٠

فلما عرف الأسقف « البيريكوس » أن الجيش الصليبى مشغول بأكمله فى حصـــار « بانياس » ، وأن « وليم » بطرك بيت المقدس « وفولشر » رئيس أساقفة صور وغيرهما من أمراء المملكة موجودون فى مكان الحصار مضى الى « بانياس » على جناح السرعة ، وأدت معونة هذا الرجل الحكيم ومشاركة السلطة الرسولية فى الأمر الى زيادة حماسة الصليبيين لمواصلة القتال رغم أنهم لم يتراخوا فيه أصلا بل كانوا يؤدونه على أكفأ وجه ، غير أن كلمات «ألبيريكوس» المشجعة ضاعفت من قوة هجومهم على البلد ٠

في هذه الأثناء كان الرجال الذين ندبوا للعمل عند الآلات لا يكفون عن الضغط على المحصورين في شدة لا تعرف الرحمة ولا الهوادة ، فلم يتيحوا لهم لحظة من الراحة يلتقطون فيها أنفاسهم وضاعف من بلواهم المستمرة ذعرهم وتوقعهم الهلاك بسبب ما هم فيه الآن ، هذا الى جانب استمرار النقص في أعدادهم فقد هلك بعضهم بالسيف ، وأثخنت البعض الآخر جراحهم المميتة ، وفر غير هؤلاء وهؤلاء بسبب ما حاق بهم من ارهاق مضن أعجز المدافعين عن الاستمرار في دفع الهجمات المتتالية كما كانوا يدفعونها من قبل ٠

كان « أنر » حاكم دمشق والقائد العام للجيش رجلا صادق الفراسة شديد الالتزام بتنفيذ بنود الاتفاق معنا ، وكان يدرك ما فيه الخصم من مرارة ، ويعرف أيضا أن « الابتلاء كثيرا ما يحمل المبتلى به على أن يستمع لكل ناعق ، ويدرك أن التعاسة المتزايدة قادرة على أن تحمل ضحاياها على الرضوخ لأقسى الشروط»ومن ثم فانه وضع هذا القول موضع الاختبار فبعث في الخفاء رهطا من اتباعه يدعون الناس الى الاستسلام للابقاء على أرواحهم ، فاستنكر القوم بادئ ذى بدء هذه الفكرة واستهجنوها ونبذوها ظهريا ، وقالوا انهم قادرون على الثبات على ماهم فيه زمنا أطول ، فبدوا وكأنهم لا يزالون يأملون أن تطول المقاومة من جانبهم ، غير أنهم قبلوا العرض المقدم اليهم بعد طول تمعن واستقراء ، الا أن واليهم(١٠) (وكان رجلا شديد البأس من علية القوم وينعتونه بالأمير) خاف أن تؤول حاله الى الفقر ، فأضاف شرطا الى العروض المقدمة ، اذ سألهم أن يعوضوه تعويضا نقديا ترك أمر تقديره لحكمة عادل منهم ان هو سلمهم المدينة ، ذلك لأنه رأى أنه من المشين المخجل لرجل عظيم القدر مثله كان في السابق حاكما لمدينة كبيرة أن يخرج من كل أملاكه الموروثة ويضطر لمد يده

للاستجداء ، وبدا لأنر أن الحق كل الحق فيما التمسه حاكم «بانياس» ومن ثم أصر على وجوب الاستجابة لما التمسه ، لأنه كان معتزما عزما أكيدا على وضع المدينة تحت حكمنا بأسرع ما يمكن ، وعلى هذا الأساس تم وضع الشرط التالى : وهو أن يخصص لأمير « بانياس » دخل سنوى يتفق على مقداره بينه وبينهم ، ويدفع اليه من دخل الحمامات وبساتين الفاكهة ، وأن يؤذن للاهالى بالخروج بكل متاعهم ان هم أرادوا الخروج ، أما من يؤثرون البقاء هناك أو فى ممتلكاتهم سواء ما كان منها داخل المدينة أو فى الريف ، وسواء أكانت هذه الاقامة دائمة أو مؤقتة ، ولم يشاءوا مكانا غيرها فقد وعدهم بملكية هادئة وفق شروط طيبة حينما يتم أخذ اليمين » ٠

رحب الملك وبقية الصليبيين بهذا الاتفاق ، واستعد الأهالى(١١) كلهم لتسليم المكان من غير توان ، فلما رأى « أنر » أن المفاوضات قد بلغت غاية المرتجى ، وأن الأمر قد حسم من كل نواحيه بادر فوضع امام الملك والبطرك والأمير والكونت جميع الحقائق بطريقة ودية ، وشرح لهم بالتفصيل كل دقائق المفاوضات التى أجراها فى السر ، وحثهم بكل ما أوتى من ذلاقة اللسان على الموافقة على الاتفاق ، وحملهم احترامهم لفطنة هذا الرجل وصدق اخلاصه على قبول الشروط ، وأظهروا استعدادهم لموافقته ، ووعدوه أن يوفوا له بكل ما يقتضيه الواجب وفقا للاجراءات التى اتخذها ٠

ولما استسلمت المدينة أذن لأهلها بالرحيل عنها بحريمهم وأبنائهم وبكل ما ملكت أيديهم من غير مضايقة ، فمضوا الى الناحية التى اختاروها(١٢) ٠

ما كادت المدينة تصبح فى قبضة الصليبيين حتى اختاروا أسقفا لها هو « ادم » رئيس أساقفة عكا ، وقد تم هذا الاختيار

باشارة من البطرك وموافقة ورضاء « فولشر » رئيس اساقفة صور الذى كانت تتبعه كنيسة «بانياس» ، وتدخل فى طاعته باعتبـــاره المطران ، وعهدوا الى « آدم » هذا بالقيام بأداء الطقوس الدينية للمؤمنين الذين يريدون الاقامة بالمدينة ٠

أما السلطة الادارية فقد ردوها الى من كانت قد اغتصبت منه منذ سنوات قلائل وأعنى به « رينيه بروس » واذ ذاك أســـرع الملك وبصحبته أمير أنطاكية والبطرك والمندوب البابوى الى بيت المقدس لأداء صلاة الشكر وتقديم القرابين الجليلة للرب ، ثم بقى الأمير مقيما هنا بضعة أيام لأداء الشعائر المعتادة ، حتى اذا فرغ منها قفل راجعا الى امارته ، لكنه حاول قبل رحيله ان يلفت أنظار المندوب البابوى الى بطرك مدينته مؤكدا له تمام ثقته فى معاونتــه الشخصية ، وتمنى منه ألا يتأخر عن زيارة أنطاكية ٠

وكان النائب البابوى قد وفــد كما قلنا للنظر فيما رمى به البطرك من تهم اتهمه بها نفر من كبار أتباع لكنيسته ، فجاء الرسول البابوى عساه يصل بالموضوع الى خاتمة ملائمة ٠

والآن حان الوقت لشرح ما كان قد قيل فى شأن هذا البطرك، غير أن فهم ذلك يتطلب منا أن نرجع قليلا الى الوراء فى عرض هذه القضـــية ٠

(١٢)

حينما جاء سمو الأمير « ريموند » الى أنطاكية لأول مرة بل وحتى قبل أن تزف اليه عروسه المختارة ، ورغبة منه فى وضـــع خاتمة طيبة لهذه الرغبة فانه قطع على نفسه يمين الولاء والخضوع لرالف الذى كان اذ ذاك رئيسا لكنيسة أنطـــاكية ، اذ وقف بين

يديه واقسم بشرفه اليمين المألوفة بالطاعة له « والا يقدم من الآن فصاعدا على التفكير في القيام بأى عمل أو شيء يمس شـــرف البطرك ، او يؤدى الى هلاكه ، أو يفقده عضوا من أعضاء جسمه،أو ينتهى به الى الأسر الكريه » ، لكنه لم يوف بقسمه هذا ولم يلتزم به ولو لفترة قصيرة ، بل سرعان ما نكث بعهده له ، اذ ما كاد يتم قرانه بالأميرة « أليس » ابنة « بوهيموند » وما كاد يجمع فى كفه شئون الامارة كلها بفضل سعى البطرك وجهوده حتى انقلب عليه ووثق عرى ارتباطه بخصوم البطرك ، وشجب يمين الولاء الذى كان قد أقسمه له ، فمد يد العون لخصوم « رالـــف » ووقف الى جانبهم ، ولم يبخل عليهم بالمشورة الضارة التى يترتب عليها انزال الأذى بالبطرك الذى استمر أعداؤه يدبرون الخطط المعادية له فى قوة وجرأة أشد من ذى قبل ، حتى لقد ذهبوا الى رومة بتأييد من حليفهم القوى « ريموند » .

وكان أعداء البطرك رالف يتمثلون فى « لامبرت » أحد كبار شمامسة تلك الكنيسة ذاتها ، وهو وان يكن رجلا كريم الخلق وعلى جانب كبير من الثقافة الا أنه كان قليل الخبرة بالأمور المدنية ان لم يكن معدومها كما كان من خصومه أيضا « أرنولف » وكان رجـــلا متعلما رفيع المكانة ، بارعا فى معالجة الأمور والمشاكل الدنيوية ، وهو من مواليد « كلابريا » .

واستطاع هذان الرجلان بفضل عطف الأمير عليهما وتأييده لهما ان يرحلا الى رومة لرفع شكواهما الى البابا الذى ذهب اليه أيضا البطرك « رالف » ، وان كان ذهابه هذا رغم أنفه ، فقد أجبره الأمير عليه .

ورتبت الأمور على أن يسبقهم « أرنولف » سالكا اقصر الطرق الى صقلية حيث اتصل بأصدقائه وذوى قرباه هناك ، لأنه كان من

مواطنى « كلابريا » ، كما أصبح فيما بعد أسقف كنيسة «كوسنزا» اذ كان كما قلنا رجلا رفيع المكانة جدا ، ثم مضى « أرنولف » الى روجر الذى كان يعرفه تمام المعرفة ، وقال له :

« أيها الأمير الجليل : لقد تحقق رجاؤك فوقع فى يدك من غير أن تبذل المال ذلك الرجل النكرة الذى قام عدوك (أى رالف) الكاره لك فتحدى القانون اذ ولاه أمر أنطاكية فحرمك وحرم ذريتك من بعدك من حكمها ، ولقد شاء الرب أن يسلم اليك بطرك أنطاكية الذى جاءت به الى هنا خطاياه ، ألا فاغضب لنفسك أيها الأمير وتدبر أحسن الطرق للقبض عليه ، وكن واثقا أنك ستكون من خلاله قادرا على أن تستعيد ارثك الشرعى الذى حرمك منه هذا الرجل فظلمك » .

وآتت هذه الكلمات أثرها فى دوق « أبوليا » الذى كان رجلا ذكيا داهية ، فأمر أن تنصب فى الحال الكمائن لتصيد البطرك (رالف) وأن تراعى السرية التامة فى نصبها فى جميع المدن الساحلية ، حتى اذا وصل البطرك الى واحدة منها أمسكوه وقيدوه بالسلاسل وأرسلوه فى لحظته الى صقلية .

ما كاد « رالف » البطرك يرسو فى « برنديزى » بعد رحلة موفقة وهو لا يدرى شيئا مما دبر له فى الخفاء حتى نفذ القوم توجيهات الدوق « روجر » ، فاستولوا على ما جلبه البطرك معه من الأمتعة ، وشردوا حاشيته التى رافقته باعتباره أميرا ، ثم قيدوه هو ذاته وأسلموه الى « أرنولف » ليذهب به الى صقلية ليحاكم أمام الدوق ، وهكذا واتت الفرصة أرنولف لأول مرة ليتمكن من صب حقده علانية على مضطرده اللئيم « رالف » ، وأن ينتقم منه انتقاما كال له فيه الصاع صاعين لقاء كل المصاعب التى لقيها منه .

وجيء أخيرا بالبطرك « رالف » أمام الدوق « روجر » ، ودار بين الاثنين حديث ودى ، ولما كان « رالف » رجلا رصينا ، جميل المنظر ، ذلق اللسان اذا تحدث ، فقد استطاع أن يسترد فى النهاية كل ما كان قد فقده ، وان كان استرداده اياه حسب شروط معينة ، كما ردوا عليه أتباعه ووعد هو من جانبه أن يعرج على الدوق فى أوبته لزيارته مرة أخرى ، واذ ذاك احتفوا بوداعه احتفاء بالغا ، فتابع هو رحلته الى رومة التى ما أن بلغها حتى وجد فى بادىء الأمر صعوبة فى الحصول على اذن له لمقابلة البابا والتحدث اليه ، اذ كانوا يعدونه فى رومة مناوئا للكنيسة ، وأنه أراد تحجيم مكانة الكرسى الرسولى ، وأنه حاول التطاول على حقوقه بايجاده كرسيا منافسا له وادعائه أن هذا مكافىء لكرسى بابا رومة ، وهكذا كان (رالف) متهما بجريمة الاجتراء على الذات البابوية ، فرفضوا أن يدخل القصر الطاهر وأن يحظى بالحديث الى البابا ٠

كان البابا وجميع رجال الكنيسة حريصين أشد الحرص على اغتنام كل فرصة تلوح لهم لتعقيد الأمور أمام البطرك ، على حين أظهروا منتهى الود نحو خصومه ، وكانوا ينظرون اليه فى الواقع بعين الريبة والشك ، لأنه كان رجلا ثريا عالى المكانة ، وأنـــــه يرفض اعتبار كنيسة أنطاكية التى يرأسها خاضعة لكنيسة رومة ، بل لقد ذهب عكس ذلك فعدها(١٣) مساوية من كل الوجوه لكنيسة رومة قائلا : « لئن كانت كل منهما كنيسة بطرس الا أن كنيســـــة أنطاكية تميزت بميزة الوليد البكر » ، لذلك لم يدع الجميع وسيلة يزعجونه بها الا حاولوها ٠

على أن جماعة من الوسطاء من أصـــــدقاء الطرفين تدخلوا لصالح « رالف » وفتحوا الباب المغلق أمامه حتى استطاع بفضل

مناصبهم الرفيعة أن يحظى بالمثول فى حضـــرة البابا فى احتفال مهيب وهو فى وسط حاشيته ، كما تم استقباله فى حفل رائع ، وبعد ظهوره عدة مرات فى مجمع الكرادلة برياسة البابا اغتنم خصومه فرصتهم وجرموه علانية على رؤوس الأشهاد ، واستعرضت التهم المنسوبة اليه ، واتخذت الاجراءات القانونية الأولية للنظر فيهـــا لمحاكمته ٠

غير أنه كان من المعروف تماما لكل رجال المحكمة أن الذين رموه بهذه التهم لم يكونوا قادرين تماما على اقناع البابا ومعاونيه بصحة تلك الاتهامات ، ومن ثم فقد اقترح البعض أن يركن الجانبان الى ضبط النفس حتى يرسل البابا واحدا من جهته الى أنطاكيــة ليحصل على الشهود ، ويجمع البراهين التى تجلى غوامض هذه القضية وتظهر حقيقتها ٠

وحدث فى هذه الأثناء أن خلع البطرك الطيلسان الذى كان قد أخذه بدون حق مكانته من مذبح الكنيسة بأنطاكية على الرغم ممـــا قيل ان ذلك من حق الكرسى الرسولى ، ثم ناوله للكرادلة ، وحينذاك أخذ رئيس الشمامسة طيلســـانا آخر من فوق جثمـــان بطرس الطوبانى ، وأخلع على البطرك بالأسلوب المعتاد ٠

وأقام البطرك فى رومة فترة اقتضتها مشاغله ، فلما فرغ منها استأذن فى السفر فأذن له بكل العطف والأمان ، وعاد الى صقلية حيث استقبله الدوق استقبالا كريما ، ودار بين الاثنين حديث حول كثير من القضايا المهمة ، ثم جهزه الدوق أخيرا بعدد كاف من السفن للرحلة ، فأقام حتى اذا كانت الريح رخاء أفرد الشـــراع وأبحر الى سورية حيث أرسى عند المكان الذى يعرف عادة باسم السويدية(١٤) والذى يبعد عن أنطاكية بما يقرب من عشرة أميال عند مصب نهر العاص الذى يجرى فى تلك المدينة ٠

حالما بلغ قداسة البطرك اقليم سورية كما قلنا وأصبح قريبا من مدينته كتب الى رجال كنيسته راغبا أن يخرجوا فى يوم حدده لهم لمقابلته فى موكب مهيب وفى مكان معين خارج المدينة ، وكان رجاله على علم تام بما يضمره له الأمير من كراهية سوداء يلاحقه بها لتجاهله يمين الولاء التى كان قد أقسمها له ، ومن ثم فانهـــم رفضوا الاستجابة لسؤال البطرك رفضا تاما وعصوه فيما أراده استجلابا منهم لعطف الأمير (ريموند) عليهم ، بل ان خوفهم من بطش الأمير بهم حملهم على منع البطرك من دخول المدينة ، فلما رأى (رالف) لؤم رجال كهنوته والمكانة المنبوذة التى وضعه فيها من كان يتوقع منهم أن يعاملوه غير هذه المعاملة ، ولما أدرك أيضا مدى غضب الأمير العنيف عليه انسحب الى المنطقة الجبلية القريبة من البلد (١٥) • والمعروفة عند الناس باسم « الجبل الأسود » ، وظل مقيما هناك ردحا من الوقت كان يتنقل فيه بين الأديرة التى تكثر فى تلك الناحية ، وكان يطمع أن يستدعوه للرجوع الى المدينة عندما تهدأ ثورة الأمير وأتباعه من رجال الدين عليه ويحل مكانــه الشعور الطيب •

غير أن الأمير تمادى فى اظهـــار عدائـــه له أكثر عن ذى قبل(١٦) ، وراح يصرح بهذا العداء علانية وعلى رؤوس الأشهاد ، لاسيما حين بعث اليه « أرنولف » من صقلية بخبر زاد من اضرام كراهيتـــه له ، اذ كتب « آرنولف » الى الأمير يخبره أن البطرك تحالف سرا مع الدوق « روجر » ، ودلل له على صدق ما يقول بأن زعم له أن الدوق أغرق البطرك بالهدايا وخصه بآيات الشرف فى عودته عن طريق صقلية ، وجهزه بالسفن اللازمة له فى سفرته •

وطبيعى أن تحمل هذه الأمور كلها الأمير على الاعتقاد بصحة هذا الخبر ٠

* * *

بينما كان البطرك موجودا فى الأماكن التى أشرنا اليها جاءه ممثلون خصوصيون من جوسلين كونت الرها الذى كان يضمر الكراهية الشديدة للأمير ريموند ويعطف عطفا كبيرا على البطرك ، يحملون اليه دعوة خاصة عاجلة يسأله فيها الكونت أن يحضر اليه هو وجميع من معه ، مؤكدا له أنه سيكون آمن السرب سالما كل السلامة فى هذه الزيارة ، ذلك لأن كبار رجال الدين فى هذه الامارة (وهم رؤساء أسقفيات الرها وكورتييوم وهيرابوليس) يقفون الى جانبه ويؤيدون دعواه ، وهم صادقون فى توقيرهم له باعتباره رئيسهم وأباهم ، فانشرح صدر البطرك بهذه الدعوة وسافر الى هناك حيث استقبله رجال الدين بها استقبالا كريما ، وأوفى الكونت جوسلين أيضا بعهده ، وسره أن يرحب بمقدمه ترحيبا لحمته الحب وسداه الاخلاص له ٠

ونجحت وساطة أصدقاء الطرفين فى حمل أمير انطاكية « ريموند » على اعادة عطفه على البطرك ، لكن ذلك كان مجرد عبارات تنطق بها الشفاه وليست نابعة من القلب ، اذ يقال انه لم يفعل ما فعل الا لاعتبارات مالية ، مخفيا البواعث الحقيقية الكامنة وراء الكلمات المعسولة ، فقد أرسل الى البطرك على يد مبعوثيه دعوة ودية يدعوه فيها للعودة الى المدينة واستئناف مهام وظيفته ٠

فلما تسلم البطرك هذه الرسالة استعد للعودة فى الحال مستصحبا معه أساقفة تلك الامارة الذين قام الدليل البين على

وفائهم له فى محنته ، ورجع الى انطاكية ، ولم يقتصر الأمر على أن يلقاه جميع رجال الدين والشعب فحسب بل خف أيضا لاستقباله الأمير (ريموند) بنفسه على رأس رهط من أتباعه الفرسان ، وساروا به فى احتفال مهيب وهو فى مسوحه الكهنوتية الى المدينة وسط التراتيل والأناشيد الدينية ، ثم دخلوا به الكنيسة الكبرى ومنها الى قصره الخاص ·

(١٥)

قدم فى هذه الأثناء الى سورية « بطرس » رئيس أساقفة « ليون » وأرسى بعكا مبعوثا من قبل البابا انوسنت كمندوب لكنيسة رومة رجاء التوصل الى خاتمة طيبة فى قضية البطرك ، وكان « بطرس » هذا برجندى المولد ، طاهر الذيل ، بسيطا ، يخشى الرب، ولكنه كان شيخا هرما طاعنا فى السن ، وما كاد يصل الى سورية حتى مضى الى بيت المقدس للصلاة ، ثم غادرها الى أنطاكية استجابة للدعوة الملحة التى وجهها اليه «لامبرت» وأرنولف للاسراع الى هناك ليضع نهاية للمشكلة ، فغادر القدس ورجع سالكا أقصر الطرق الى عكا ، لكنه ما كاد يسير قليلا حتى باغته مرض خطير ألح عليه وأفضى الى موته ، فانطلقت الشائعات تقول انه مات بسم دسوه له فى شرابه ، فران اليأس على نفوس خصوم البطرك الذين كانوا قد أسرعوا الى أنطاكية ، وكان مرجع حزنهم أنهم حرموا كليا من المساعدة التى كانوا ينشدونها من وراء قدوم المندوب البابوى ، ولما كانت الرحلة قد انهكتهم ، وكذلك المشاق التى تحملوها طويلا فانهم راحوا يلتمسون اقرار السلام عن طريق وسطاء أيقنوا أنهم خير من يصلح لهذه المهمة ، وصرحوا باستعدادهم لشجب الاتهامات التى كالوها للبطرك واعلان طاعتهم له ، وتوسلوا أن تعاد اليهم وظائفهم ورواتبهم ، فردت على « لامبرت » وظيفته

كرئيس شمامسة ، أما « أرنولف » فلم يجد راحما يرحمه ويرق له ، ومن ثم راح يعتمد على عون الأمير له ، وتهيأ بشجاعته المألوفة لأن يتحمل مشاق السفر الى رومة ، وأخذ يجدد اتهاماته بداع ومن غير داع ، وتمكن أخيرا بفضل اصراره العنيف من الحصول على قرار يقضى بأن يرسل الى سورية رجل الدين الذى نتكلم عنه الآن الذى وصل الى القدس كما ذكرنا ، حتى اذا فرغ من حجه استدعى البطرك وكل أساقفة البلد الى مجمع يعقد فى أنطاكية فى مستهل ديسمبر ، كما أسرع هو ذاته الى هناك ٠

(١٦)

ولما كان اليوم المحدد للاجتماع وفد الى أنطاكية من أبرشية القدس كل من البطرك « وليم » و « جودنتيوس » رئيس أســـاقفة قيصرية ، «وأنسلم» أسقف بيت لحم كما حضر أيضا المخلص كل الاخلاص لكنيسة رومة « فولشر » رئيس أساقفة صور ، الذى كان المندوب البابوى عاقدا كل أمله عليه فى أن تكلل مهمته بالنجاح ، لأنه كان رجلا سامى النفس ، رصينا أشد الرصانة ، وكان«فولشر» أخذ معه اثنين من كبار أساقفته ، هما : « برنارد » أسقف صيداء و « بلدوين » أسقف بيروت ، وحضر الاجتماع جميع كبار رجال الدين بامارة أنطاكية لأنها كانت أقرب ما تكون اليهم ، ولكن أهواءهم كانت شتى ليست على اتفاق واحد . فكان « ستيفن » رئيس أساقفة طرسوس ، و « جيرارد » أسقف اللاذقية ، و « هيج » أســـقف جبلة يؤيدون الاتهامات الموجهة ضد قداسة البطرك ٠

أما « فرانكو » أســـــقف « منبج » و « جيرالد » أســـقف « كوريس »(١٧) ، ومعهما « سيرلو » أسقف « أفامية » فقد صرحوا علانية بحمايتهم له باعتباره البطرك ، وكان الأخير منهم يقف ضده فى بادىء الأمر لكن انتهى الوضع به أخيرا الى تاييده ٠

ثم كان هناك غير هؤلاء وهؤلاء من وقفوا صراحة موقف الحيـاد ٠

***

ولما كان اليوم المحدد اجتمع فى كنيسة أمير الرسل رؤسـاء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة وهم جميعا فى مسوحهم الدينية حسب العادة المرعية ، وكان على رأسهم جميعـا مندوب البابا باعتباره ممثله ، وقرىء العهد البابوى عليهم ، فلما تمعنوا جيدا محتواه وفهموا ما تضمنه تمام الفهم وقف أمام الجميع الرجلان اللذان وجها للبطرك الاتهامات وهما « أرنولف » و « لامبيرت » رئيس الشمامسة ، ومع أن ثانيهما كان من قبل شديد الوطأة على البطرك الا أنه تراضى معه ، لكنه مالبث أن انحنى الآن كالقوس ، وعاد مرة أخرى يجرحه ويتهمه ، وشاركهما فى موقفهما هذا كثيرون غيرهما حين تبينوا أن الريح تهب فى غير صالح البطرك ، وحينذاك ظهر صدق المثل الذى قاله « أوفيد » اذ قال : « ان حالفتك الدنيا وعلا نجمك كثر أصحابك ، فان خالفتك الأيام وتجهمت سماؤك انفضوا من حولك ووجدت نفسك وحيدا » ٠

ودخل المدعون قاعة الاجتماع الكبرى وأعلنوا أنه ما دامت وثائق الاتهام قد قدمت فانهم مستعدون لبحثها ومناقشتها مناقشة قانونية ، فان هزموا عوقبوا بما يستحقون ٠

كانت التهم التى اعتمدوا عليها فى ادانة البطرك مدونة فى جزازات ورقية صغيرة ، يتعلق بعضها بتنصيبه بطركا فى مخالفته لنظام الآباء الطاهرين وسننهم ، أما البعض الآخر فكان يتعلق بآثامه وسيمونيته (أى بيعه الوظائف الدينية الكنيسية) ، ولما كان متهمو البطرك قد أصروا على وجوب حضوره شخصيا فقد مضت

الرسل اليه للرد على التهم المنسوبة اليه ، الا انه رفض الحضور رفضا باتا ٠

لذلك لم يتم شيء طوال هذا اليوم الا ما كان من حديث عام وتحذيرات متبادلة كما يحدث عادة فى مثل هذه الاجتماعات ، ثم عادوا للاجتماع ثانية فى اليوم التالى وأخذ كل واحد مكانه حسب مكانته ، واستدعوا البطرك رسميا للمرة الثانية للحضور ، فكان منه فى يومه ما كان منه فى أمسه اذ أبى الحضـــور اباء تاما ٠ وحضر هذه المرة « سيرلو » رئيس أساقفة « أفامية » اجتمـــاع الأساقفة وهو غير مرتد مسوحه الكهنوتية ، اذ لم يكن فى ثيابه البابوية كغيره من الأساقفة ، فلما سأله قداسة النائب البابوى عما يمنعه من مجاراة اخوانه فى زيهم ، ولماذا لم يواصل الاتهام كما فعل من قبل ، رد عليه قائلا : « ان موقفى السابق فى الغض من أبينا لهو شبيه بموقف حام (بن نوح) الملعون الذى جاهـــر بفضيحة أبيه ، وقد اتخذت قرارى آنذاك فى لحظة انفعـــال ذميمة أفقدتنى خلاص روحى ، أما الآن فانى استعيذ بالرب وأتوب عن مسلكى الخاطىء ، وسأحاول ألا أتهمه ولا أجترىء عليه فأدينه ، بل على العكس فانى أقف على استعداد للدفاع عن سلامته وأمنه ، حتى الموت » ٠ وحينئذ صدر الأمر اليه بمغادرة القاعة فى لحظته ، كما صدر ضده قرار الحرمان،سواءأكانيستحقهأملايستحقهوتجريده من وظيفته الدينية والبابوية ، وكان الخوف الشديد من الأمير (ريموند) مسيطرا على الجميع دون استثناء أحد منهم ، وغمز حياد الجانب البابوى ، فلم يسمح لأحد أن يعارض ما تقرر ، وكان الدافـــع للأمير على سلوك هذا المسلك المتطرف البعيد عن العقل هو حارس القلعة واسمه « بطرس أرموان » ، وكان رجلا غارقا الى أذنيه فى الخبث طبعا منه ـ اذا ما كاد يتمم خلع البطرك حتى حمل الأمير « ريموند » على أن يحل مكانه ابن أخته هو ذاته ، ألا وهو «بطرس

أيمرى » الذى كان البطرك قد عينه من قبل شماسا فى نفس الكنيسة. فكان البطرك بذلك العمل ساعيا لحتف نفسه بظلفه ، وهو غير عالم بذلك اذ جاءت الخاتمة كما يهوى « بطرس أرموان » ٠

وسواء أكان خلع « سيرلو » قد تم عن حــق أو كان عملا لا يبرره الشرع ، فانه ترك فى الحال أنطاكية ومضى الى أبرشيته الخاصة ، فلما وصل الى قلعة « حارم » وقد أثقلته همومه خــر مريضا فحملوه الى فراشه فلم يحتمل غلظاته الجسام وأدار وجهه الى الجدار ولفظ أنفاسه ٠

(١٧)

فلما كان اليوم الثالث انعقد المجمع من جديد ، وحين أخذ رجال الدين مقاعدهم بعثوا الرسل الى البطرك مرة ثالثة يستدعونه بقرار لا يقبل النقض للحضور والرد على التهم الموجهــة اليه ، فرفض كما فعل من قبل رفضا باتا وأبى أن يستجيب لطلبهم ، ولسنا ندرى على وجه التأكيد أكان مسلكه هذا بوحى من ذاته أم لأنــه كان يدرك ادراكا تاما أن أعضاء المجمع مجمعون على بكرة أبيهم على اتخاذ قرار معاد له خوفا من بطش الأمير (ريموند) بهم ٠

لكنه ظل رغم ذلك بين جماعته فى قصره الخاص الذى اكتظ بطائفة كبيرة من الفرسان والعامة اذ تجمع أهــل المدينة كافــة لمناصرته ، ولولا خشيتهم من بطش الأمير بهــم لأخرجوا النائب البابوى من البلد على أقبح وجه هو وجميع الذين وافقوا على خلع البطرك ٠

ولما أدرك النائب البابوى أن البطرك لــن يحضر اليه خرج معتمدا على حماية الأمير القوية ، ومضى بنفسه الى مسكن البطرك

حيث تلا عليه الحكم بخلعه ، وأرغمه بالقوة على خلع الخاتم وارجاع عصا الرعوية ، ثم أمر بتسليمه الى الأمير فأوثقه بمهانة وعامله معاملة شائنة كأنه مجرم سفاح ، ثم بعثوا به الى سجن بدير القديس سمعان الواقع على جبل شاهق الارتفاع مطل على البحر ٠

كان قداسة البطرك « رالف » هذا — وقد رأيته بنفسى فى شبابى — رجلا طويل القامة وسيما ، فى عينيه شىء من الحول وان لم يبلغ الحد الذى يشوه منظره ويقبحه ، وعلى الرغم من أنه كان على حظ قليل من التعلم الا أنه كان طلق اللسان لطيفا ، عذب الحديث ، وقد أكسبه شلحه من البطركية عطفا كبيرا ليس من جانب الفرسان وحدهم بل وعند العامة أيضا ، غير أنه كان شديد النسيان لعهوده واتفاقياته ، متقلبا فيما يقول ، مداهنا يفتل فى الذروة والغارب ، ومع ذلك فقد كان حذرا متحفظا لم تخنه فطنته غير مرة واحدة فقط حين رفض استقبال خصومه الذين أثارهم بالحنق ضده حينما أرادوا العودة الى حظيرة عطفه ، وكان الناس يصفونه بالمتعجرف ، وهو وصف لم يجاوزوا فيه الحق ، وكان مغرورا الى أبعد حدود الغرور ، كما نكب بسوء الطالع الذى كان فى استطاعته تجنبه بسهولة لو أنه سلك مسلكا رصينا بعض الشىء ٠ ولقد أخذوه ذات مرة وأوثقوه فى الدير سجينا فطال حبسه ، وبينما كان يتأهب للعودة مات ميتة شنعاء من جرعة سامة دسها له مجرم مجهول استؤجر لهذا الغرض ، فكان بذلك ماريوس(١٧) جديدا جمع فى شخصه كل ما يبلو به القدر المرء من طيب التقلبات وسيئها ٠

(١٨)

بعد أن خلع المندوب البابوى البطـرك وفرغ من المهمـة التى جاء من أجلها الى أنطاكية عاد الى القدس وظل مقيما به حتى فرغت الاحتفالات بعيد الفصح ، وكان يتشاور خلال اقامته هنا مع كبار رجال الكنيسة ، فلما كان ثالث أيام هذا العيد الطاهر مضى فدشن هيكل السيد بمساعدة بطرك القدس وبعض الأساقفة وتجمع يوم التدشين طائفة ضخمة من كبار الرجال ذوى المكانة الرفيعة ونفر من الأشراف الذين جاءوا من البلاد الواقعة وراء الجبال ومن البلاد المطلة على هذا الجانب من البحر ٠ وكان من بينهم « جوسلين الصغير » كونت الرها الذى كان خلال عيد الفصح المبارك مقيما فى المدينة اقامة تجلت فيها مظاهر الروعة الكبيرة ٠

ولما انتهى الاحتفال بعث المندوب البابوى فى اســـتدعاء الأساقفة ورؤسائهم وغيرهم من كبار رجال الدين فى الكنيســة ، فعقد ــ ومعه البطرك ــ مجلسا فى كنيسة صهيون الطاهرة ــ أم جميع الكنائس ــ وحضر هذا المجمع « ماكسيموس » أسقف أرمينيا أو بقول أصح رئيس كل أساقفة « كبادوكيا » و « ميديا » وفارس وأرمينيا الصغرى والكبرى ، وكان « ماكســيموس » هذا يعرف بالجاثليق ــ وقد ناقش مع المندوب البابوى مواد العقيدة التى يبدو أن قومه يخالفون فيها شعبنا ، ووعد بالقيام بحركة اصلاح فى كثير من النواحى ، وما كاد العمل يتم فى هذا المجمع على هذه الصورة حتى عاد المندوب البابوى الى مدينة عكا حيث أبحر منها الى رومـة ٠

* * *

أما رجال الدين فى أنطاكية لاسيما أولئك من كانوا قد تآمروا

على خلع قداسة البطرك « رالف » فقد انتخبوا لكرسى البطركية فى نفس الكنيسة مساعد شماس يدعى « ايمرى »(١٨) ، وقد فعلوا ذلك بتحريض واقتراح من الأمير (ريموند) الذى كان مدفوعا كما قيل ـ الى حد كبير ـ بالهدايا التى غمره بها « ايمرى » ٠

وكان « ايمرى » هذا رجلا جاهلا قدما من ولاية « ليموزان » ، ويأخذ نفسه بحياة هى أبعد ما تكون عن الشرف ، فلما أدرك البطرك « رالف » فيه هذه الصفات أراد أن يجعله صنيعة له فرفعه الى مرتبة رئيس الشمامسة فى كنيسته ، لكن خاب ظنه وطاش سهمه اذ يقال ان « ايمرى » ربط نفسه منذ اليوم الأول لتعيينه بخصوم البطرك ، فتآمر معهم على خلعه وهو رب نعمته غير مكترث بما ينبغى عليه من الولاء له ، ويقال فى توليه هذه الوظيفة ان شخصا معينا كان قواما على قلعة أنطاكية واسمه بطرس ويلقب بأرموان ضـــمن له هذه الوظيفة بالحيل والهدايا والتحف السنية التى كان يبذلها لكل من الأمير ورجال الدين فجذب أنظارهم بها الى « ايمرى » الذى كان من ذوى قرباه ٠

(١٩)

فى حوالى هذا الوقت قام يوحنا (الثـــانى) ـ امبراطور القسطنطينية ـ للمرة الثانية بجمع قواته وكتائبه ، ووجه حملته وجيوشه نحو سورية ولـــم يكن قد مر على تركه « طرســـوس » بكيليكية كلها أكثر من أربع سنوات ، غير أنه تلقى كثيرا من الكتب من أمير أنطاكية ومن أهلها تحمل اليه التماسا بالمجىء اليهـــم ، فاستجاب لهم وخرج الى أنطاكية فى العدد الكبير ، ومعه الخيل والعربات والأموال التى لا يحصيها العد ٠

وابحر « يوحنا » عبر البسفور المعروف بأنه الحد الفاصل بين أوربة وآسيا،واجتاز ما وراءه من البلاد حتى وصل الى«أضاليا» عاصمة « بامفيليا » وهى من المدن الساحلية الكبرى ، وبينما كان موجودا فى هذا المكان أصيب اثنان من أولاده هما « أليكسيوس » الذى كان أكبرهم و « أندرونيكوس » الأصغر منه بمرض شديد، أفضى الى موتهما ، فاستدعى الامبراطور فى الحال اليه ابنه الثالث « اسحق » وكلفه بالرجوع الى القسطنطينية بجثمانى أخويه لأداء ما تقضى به الانسانية من واجبات الاحترام الأخيرة للجثتين(١٩) وتشييعهما الى مثواهما الأخير بما يليق بهما من العظمة الامبراطورية ، فلما انتهت مراسم الجنازة ظل اسحق ـ كما أشار عليه أبوه ـ مقيما فى القسطنطينية حتى جاءه نبأ وفاة الامبراطور ·

ثم استصحب الامبراطور بعدئذ أصغر أبنائه « مانويل » وتابع رحلته عبر « ايسوريا » فى اقليم « كيليكية » التى عبرها بسرعة فائقة ، ولم يعلم الناس بخبر زحفه حتى كان قد اقتحم أرض كونت الرها وعسكر أمام « تل باشر » قبل أن يصل النذير الى أهلها بقدومه ، وكانت قلعة تل باشر هذه قلعة غنية جدا وتقع على بعد أربعة وعشرين ميلا أو أكثر قليلا من الفرات ·

ما كاد الامبراطور يصل الى هناك حتى طلب الرهائن من كونت « جوسلين » الأصغر الذى استبدت الدهشة به والاستغراب من ظهور الامبراطور المباغت ، فلما رأى هذا الجيش العرمرم الذى يبدو وكأن ليس هناك من مملكة على وجه الأرض بقادرة على صده ، وبالنظر الى أنه هو نفسه لم يكن مستعدا ولا قادرا على مقاومته فقد خضع للضرورة ، وبعث باحدى بناته واسمها « ايزابيلا » رهينة عند الامبراطور الذى كان السبب الوحيد الذى حمله على

طلبها رهينة عنده هو أن يربط الكونت به ربطا وثيقا ويحمله على تنفيذ أوامره ، ثم تعجل فزحف على أنطاكية ، حتى اذا كان الخامس والعشرون من شهر سبتمبر (سنة ١١٤٢) ضرب معسكره قرب بلدة معينة اسمها « جاستن »(٢٠) حيث أرســـل الكتب الى أمير أنطاكية يطالبه فيها ـ بناء على الاتفاق المبرم بينهما من قبل ـ أن يسلم اليه المدينة بقلعتها وجميع حصونها ، لايستثنى من ذلك شيئا حتى يكون قادرا على شن الحرب على مدن العدو المجـــاورة من أقرب قاعدة مناسبة ، على أنه أوضح استعداده للوفاء بشــــروط الاتفاقية المعقودة بينهما بقدر ما فى طاقته ، وبالاضافة الى ذلك فانه مستعد لزيادة جهده تبعا لطبيعة الشروط ٠

(٢٠)

كان ريموند أمير أنطاكية قد بعث قبل هذا الوقت كثيراً من الرسائل الى الامبراطور يدعوه فيها للقدوم الى أنطاكية ، أمـــا الآن فقد وجد نفسه فى موقف صعب ، ولما كان يعرف أنه ملتــــزم بشروط الاتفاق فقد تحير فيما ينبغى عليه عمله ، ومن ثم جمع اليه كبار رجال المدينة وسراتها ووجوه بقية النواحى ، وســـألهم أن يشيروا عليه بما ينبغى عليه عمله فى أزمة خطيرة كتلك الأزمة ، وطال حوارهم حتى أفضى أخيرا ـ بالاجماع ـ الى أنه ليس من الصالح أبدا لبلد عظيم كهذا البلد شديد القوة والمنعة أن يسلم الى الامبراطور (مهما كان نوع الاتفـــاق) لما يترتب على مثــل هذا الاجراء من وقوع البلد ومعه كل الاقليم فى يد العدو بسبب تراخى الاغريق ، وهو أمر تكرر وقوعه من قبل مرارا ٠

ورغبة من القوم فى ألا يوجه الاتهام للأمير ـ وان كان اتهاما حقا ـ بنكث العهد فانهم راحوا يفتشون عن ذريعة يتذرعون بها

حتى يبدو الأمر ولا غبار عليه فوجدوا انه قيل ان اتفاقا أبرم بين الاثنين خلال زيارة الامبراطور السابقة تعهد فيه الأمير بتسليم المدينة الى الامبراطور يوحنا (الثانى) من غير جدال ولا مناقشة كما تعددت رسائل(٢١) « ريموند » الى الامبراطور بعدئذ يلح عليه فيها بالقدوم الى سورية ، ويعده فيها أن يخلص النية تجاهه ٠

كذلك حدت الرغبة بهؤلاء القوم فى تبرير مسلك مولاهم الأمير الى أن يبعثوا برسل الى الامبراطور يكونون ممن تميزوا عن النظراء من رجالات الامارة ، ومن أعلاهم قدرا ينهونه (نيابة عن بطرس المبارك وعن البطرك والسكان جميعا) عن دخول المدينة ، وعهدوا اليهم أن يفهموه بطلان الاجراءات السابقة التى اتخذها الأمير من جانبه وحده اذ لا يملك الصلاحية التى تخوله عقد اتفاقات من هذا القبيل تتعلق بممتلكات زوجته ، كما أنه لا يحق لها هى الأخرى أن تنقل الحكومة الى أى شخص آخر من غير موافقة الأهالى والسادة الكبار ، كما أنه ليس هناك من أحد فوضهما فى التنازل عن أى جزء من تلك الأراضى ، فان أصر احدهما أو كلاهما على مثل هذه الخطة أخرج أو أخرجا من المدينة ، وجردا من كل ما يملكان ، ونفيا من البلد ، ونزع ما بايديهما لأن ما يفعلانه اذ ذاك يتضمن أضرارا بليغة تلحق برعاياهما المؤمنين ، ويعتبر ما تم مخالفا للشرع ٠

اشتد غضب الامبراطور حين سماعه هذه الكلمات ، الا أن معرفته العميقة بمشاعر المواطنين وأهل الولايات عامة حملته على أن يصدر أمره الى جيشه بالرجوع الى « كيليكية » تحاشيا لزمهرير الشتاء الذى أصبح على الأبواب ، وحتى يسكون مقيما فى جو ساحلى أكثر ملاءمة ، ذلك لأن هواء الشتاء يكون على الدوام أخف

مما يكون على الساحل ، ويكون الاقليم اكثر ملاءمة للعسكر وأحسن قبولا عندهم ٠

(٢١)

أدرك الامبراطور استحالة تحقيق طلبه فى دخول أنطاكية فى الوقت الحاضر ، ومع ذلك فانه كان يطمع أن يتمكن بعد انصرام الشتاء وعودة الربيع اللطيف أن يحقق بعض رغباته فيما يتعلــق بهذه المدينة حتى ولو كره أهلها ، لذلك كتم نواياه فى صدره ولــم يصرح بها ، ورأى أن خير ما يفعله لاخفاء غرضه الحقيقى هو انفاذ سفارة تتألف من أكبر أعيان رجاله الى « فولك » ملك بيت المقدس تعلن اليه أنه ربما كان من الخير للصليبيين أن يأتى الامبراطور الى هناك للصلاة والتعبد ، وأنه يطيب له أن يمد يد العون لهم جميعا ضد من فى تلك الناحية من الأعــداء ٠ فتبادل الملك (فولــك) ومستشاروه الرأى فيما عرضه الامبراطور ثم أرسل رده على يد رهط من خاصته ، هم « أنسلم » أسقف بيت لحم ، و « جوفرى » الراهب من جماعة فرسان الهيكل الذى كان يتقن اللسان اليونانى ، و « رود هارد » قيم قلعة بيت المقدس ، وحملهم فــولك الرســالة التالية :

« ان أرض المملكة ضيقة كل الضيق فهى لا تستطيع أن توفر من الطعام ما يكفى جيشا كبيرا كهذا الجيش ، كما أنه لا قبل لها باستقبال كل هذا العسكر والا تعرضت لخطر المجاعة الناجمة عن ندرة ضروريات العيش ، ومع ذلك فانه اذا كان يســر جــلالته الامبراطورية المحبوب من الله أن يحضر الى المدينة المقدسة على رأس عشرة آلاف رجل لزيارة الأحرام المقدسة ، وأن تجرى الأمور كما يهوى ويحب فسيجد الناس جميعا قد هبوا لاستقباله تغمرهم

الفرحة العارمة به ، وسيرحبون بحضوره فى غبطة شاملة ، ويكونون طوع أمره باعتباره مولاهم وأقوى أمراء الدنيا قاطبة » ٠

❋ ❋ ❋

ثم يجد الامبراطور بعد سماعه هذه الرسالة بدا من سحب اقتراحه ، اذ ليس من اللائق بجلالته الامبراطورية أن يسير فى مثل هذا العدد القليل ، وهو الذى لم يخرج قط الا ومعه الآلاف المؤلفةمن الجند.لذلك فانه أعاد الرسل محملين بالهدايا المترجمة عن حبه ، وسخا عليهم فكان أريحيا سمحا ، ثم مضى بعد ذلك الى « كيليكية » حيث أمضى فصل الشتاء قرب « طرسوس » فى انتظار دخول الربيع ، غير أنه أضمر فى سريرته أن ينجز بالشام فى الصيف التالى من الأعمال ما يستحق الذكر الخالد ٠

وحدث فى هذا الوقت بالتقريب أن قام وجيه اسمه «باجانوس »(٢٢) فشيد قلعة فى اقليم غرب الأردن سماها «الكرك» وكان « باجانوس » هذا يعمل من قبل ساقيا للملك ثم امتلك أرضا فيما وراء الأردن وذلك بعد « رومان دى بوى » وابنه « رالف » (اللذين خلعا بعدئذ مما بأيديهما لأخطائهما ونفيا عنها) ٠ وكانت الطبيعة قد سخت على هذا الموضع بنعمها ، هذا الى جانب ما شيده الناس بأيديهم ، ويقع حصن الكرك(٢٣) هذا قرب مدينة قديمة كانت تسمى من قبل « الربة »(٢٤) وهى عاصمة نفس الاقليم ٠ ونقرأ أنه قد قتل بها « أوريا » البرىء تنفيذا لأمر داود ، ولكن على يد نواب « يؤآب » أثناء حصار ذلك المكان ، ثم سميت فيما بعد بالبتراء الصحراوية ، ولكنها تسمى الآن ببلاد العرب الصغرى أو « البتراء » العربية ٠

(٢٢)

كان امبراطور القسطنطينية شديد الولع بالطراد فى الغابات والأحراج ، فلما كان مستهل الربيع وقبل الموسم الذى اعتاد الملوك أن يخرجوا فيه بعسكرهم الى الحرب مضى الامبراطور الى الغابة يصحبه حرسه الذى ألف صحبته وعدم مفارقته ، وكان خروجه لغرض القنص الذى جرى العرف منذ القديم بالخروج اليه للتغلب على ساعات الملل الرتيبة • انطلق الامبراطور والقوس فى يده وقد أثقله كثرة ما يحمل من السهام ، وبينما هو فى مطاردته الحيوانات البرية بما عرف عنه من شجاعة اذا بخنزير برى يطلع فجأة وقد اثارته الكلاب وأفزعه نباحها الحاد الذى لا ينقطع ، فاندفع الوحش وانطلق أمام المكان الذى يكمن فيه الامبراطور الذى أسرع فالتقط فى خفة عجيبة قوسا وترها بشدة ورمى عنها بسهم فأصاب نصله كف الامبراطور فجرحه جرحا بسيطا لكنه أفضى الى موته ، فقد اشتد وجعه منه وأثبته الجرح فحمله من معه الغابة مرتثا وعادوا به الى المعسكر واستدعوا له عددا من النطاسيين فشرح لهم الخبر وصارحهم أنه هو ذاته سبب هلاك نفسه فقلقوا على حياته وعالجوه بشتى الأدوية ولم يتركوا سبيلا الا سلكوه معه فلم يجد ذلك كله نفعا ، اذ كان السم يسرى فى بدنه وان كان سريانه فى بطء لكن بصورة تلاشى معها كل أمل فى برئه ، وحينذاك أشاروا عليه أن هناك طريقا واحدا لا طريق سواه ربما أفضى الى الابقاء على حياته ألا وهو بتر اليد المصابة التى تركز فيها الخطر الجسيم وذلك قبل أن يسرى السم الى بقية بدنه فيستحيل حينئذ الشفاء •

لكن الامبراطور كان رجلا عنيدا لا يقبل أن يقهر فيستكين ، اذ أنه على الرغم من معاناته الشديدة ويقينه من أن هذا الجرح لابد أن يفضى الى موته الا أنه كان لا يزال محتفظا بكبريائه الامبراطورى

فأبى أن ينزل على نصح الناصحين ، ويقال انه أجابهم بقوله انه ليس من اللائق بمقام العظمة الامبراطورية الرومانية أن يحكم بيد واحدة ٠

وهلع الجيش لهذا الحادث أشد الهلع وخارت عزيمته من جراء هذا الأمر البغيض الذى لم يكن يملك له دفعا ، وأدت وفاة هذا الحاكم العظيم الى اللوعة الشاملة التى اجتاحت الكتائب ووجدت لهـــا مسا أليما ، فعصر الألم الممض كل قلب ، وعم العسكر حزن لم يكن مثله حــزن قط من قبل ٠

(٢٣)

لما كان الامبراطور رجلا حصيفا بعيد النظر فقد أدرك أن يوم رحيله عن الدنيا قريب ، واذ ذاك استدعى اليه ذوى قرباه وأصهاره الذين كان الكثيرون منهم على الدوام بصــــحبته ، كما دعا كبار رجال القصر السامى وقواد الجيش وراح يشـــاورهم فى أمــر خليفته ، وكان هو ذاته فى حيرة بالغة بصـــدد ما ينبغى عليـه اتخاذه : أيعهد بأمور الامبراطورية الى ولده الأكبر « اسحق » الذى كان قد بعث به الى القسطنطينية من « اضاليا » بجثتى شقيقيه(٢٥) والذى كان من حقه اعتلاء العرش بحكم تقدمه فى السن على أخيه ؟ أم تراه يؤثر بالعرش أصغر ولده (مانويل) الذى كان بصحبته والذى كان شابا فيه أمل ما شابهه أمل فيمن كان فى مثل عمره ، وكان الجميع يتوقعون له أن يكون رجلا عظيما ٠

كذلك كان هناك سبب آخر دعا الامبراطور (يوحنا) للتردد وقد أفصح عنه فى ملاحظته التى قال فيها « اننا اذا أعطينـــــا الصولجان لهذا الابن (الصغير مانويل) فقد يبدو الأمر وكأننـــا

نفعل ما هو مناقض للقوانين المعمول بها والتى تقضى أن تكون التقدمة للابن الأكبر ، أما اذا نهجنا النهج المعتاد وعهدنا بحكومة الامبراطورية الى « اسحق » فليس بيننا من يقود العسكر سالمين الى ديارهم ، لاسيما وأنهم قوة الامبراطورية وعصبها ومعقد مجدها ، والحق الصراح أنه ما كان لهؤلاء العسكر أن يأمنوا على سلامتهم أثناء اجتيازهم الأقاليم الداخلية فى هذه البلاد لأنها كانت غاصة بالأعداء الذين لابد وأن ينصبوا لهم الكمائن وأن يبحثوا فى طلب النجدات من كل النواحى المحيطة بهم » ٠

وكان من بين كبار رجال البلاط الموجودين حينذاك أمير بارز اسمه « يوحنا البروتوسباستوس » ، سعى ومن معه ممن هم على شاكلته فى الرأى سعيا حثيثا لسوق العرش الى « اسحق » ، مؤكدا للامبراطور مخاوفه وشكه فى عودة الجيوش سالمة ، هذا على الرغم من أن « مانويل » ـ أصغر أولاد الامبراطور والذى كان فى الحملة مع أبيه ـ كان يحظى بالتأييد الكبير من جانب الجند ومن اللاتين(٢٦) على وجه الخصوص ، كما قام بعض الأمراء بتأييده ، يزكيهم فى هذا التأييد أن أباه (يوحنا) كان يؤثره على غيره بحبه وكان أكثر ميلا اليه لأنه كان أرجح من أخيه عقلا وأكثر قدرة على استعمال السلاح ، بالاضافة الى ما يمتاز به من حسن القبول عند الناس كافة ٠ هذا الى جانب أنه كانت تقع على كاهله ـ أكثر من سواه ـ مسئولية رجوع العسكر سالما ٠

وقضت مشيئة الرب أن ينتهى الحوار الطويل الى اختيار الابن الأصغر « مانويل » الذى قدمه الجميع امتثالا لأمر أبيه وفى حضوره ، ثم ألبسوه العباءة القرمزية جريا على مألوف العادة فى الامبراطورية ٠

وانطلقت حناجر العسكر هاتفة به امبراطورا عظيما ٠

وبعد أن تبوأ « مانويل » ذروة القوة وتسنم غارب السطوة فى الامبراطورية مات أبوه العظيم ذو المناقب الخالدة السنية ، والذى جمع بين الكرم والتقوى والرحمة ٠

كان يوحنا الامبراطور من حيث الهيئة ربع القوام ، أسود الشعر حالكه أسمر البشرة(٢٧) حتى نعته الناس « بالمغربى » وما زالوا ينعتونه بذلك ، وعلى الرغم من أنه لم يكن ملفتا للانتباه الا أنه كان على خلق رفيع ، مشهورا ببراعته فى الحرب ، وكانت وفاته فى ناحية يسمونها بوادى « العين »(٢٨) على مقربة من « عين زربة القديمة » عاصمة كيليكية الصغرى وذلك فى شهر ابريل سنة ١١٤٣- من مولد المسيح ، وهى السنة السابعة(٢٩) والعشرون من حكمه ٠ والسنة ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ (٣٠) من عمره ٠

❊ ❊ ❊

حين فرغ الامبراطور الجديد من ترتيب أموره فى تلك البلاد قفل بعسكره فى سلام الى القسطنطينية حيث وجد أخاه الأكبر قد احتل القصر لحظة سماعه نبأ وفاة أبيهما ، واذ ذاك حرر « مانويل » رسالة خاصة (لم يعلم بها أخوه) وبعث بها الى الموظف القائم بحفظ القصر وكل خزائنه ، يأمره فيها بالقبض فى الحال على أخيه الذى لم يكن يعلم شيئا من هذا الأمر ٠ كما أمره بايداعه السجن ٠

على أنه بعد دخوله الى المدينة وكان دخولا مهيبا سرعان ما حل الوئام بينه وبين أخيه « اسحق » بفضل المساعى الحميدة الحنونة التى بذلها أقاربهما وبعض نبلاء القصر السامى ، وهكذا أخذ « مانويل » مقاليد أمور الامبراطورية فى يده فى هدوء وسلام

وفق وصية أبيه الأخيرة ، ولم يكف أبدا طول حياته عن تعظيم أخيه والتودد اليه لتقدمه فى السن عليه ٠

(٢٤)

فى هذه الأثناء شعر فولك ملك بيت المقدس وأمراء المملكة الآخرون ومعهم قداسة البطرك وكبار رجال الكنيسة بضرورة وضع نهاية لعيث أهالى عسقلان بالفساد والتدمير الفظيعين ، ورأوا كبح جماحهم ، أو على الأقل تحجيم اجتياحهم الاقليم ، فاستقر الرأى على بناء قلعة هناك متاخمة لمدينـــة الرملـــة وقريبة من « اللد » المعروفة باسم « ديوسو بوليس ، حيث يوجد تل مرتفع بعض الشيء عن السهل ، وتقول الأخبار القديمة انه كان هنا ذات مرة مدينة للفلسطينيين تدعى « جات » كما كانت على مقربة من هنا أيضا وعلى بعد عشرة أميال تقريبا من عسقلان مدينـة أخرى تســـمى « أسدود »(٣١) تابعة لهذه الجماعة ذاتها ٠

لم يتخلف عن استجابة هذا النداء أحد من الصليبيين فشيدوا على التل الذى ذكرناه حالا قلعة من الصخر الشديد الصـــلابة حفروا لها أساسا بعيد العمق ، وجعلوا لها أربعة أبراج ، كما أخذوا كميات كبيرة من الأحجار أمدتهم بها المبانى الدارسة التى لا تزال أطلالها باقية حتى اليوم ، كما أسعفتهم الآبار القديمة التى كانت تكثر فى المدينة الخربة بكميات وفيرة من الماء الذى كان عونا لهم فى عمليات البناء وسد حاجتهم للشرب ٠

ولما فرغوا من بناء القلعة وحصنوها من كل النواحى استقر رأيهم على أن يعهدوا بها الى أحد النبلاء وكان معروفا بالحصافة والحكمة ، ذلك هو « بليان » الكبير والد كل من « هيج » و « بلدوين »

و « بليان الصغير » الملقب كل منهم بالابليني نسبة لذلك المكان الذي كان يسمى بهذا الاسم حتى بناء القلعة ، ولقد أظهر بليان مثابرة كبيرة في حراسة القلعة « ابلين » هذه (أو يبنى) وفي مطاردة العدو الذي بنيت هذه القلعة لردعه ، فلما مات الأب « بليان » قام أبناؤه هؤلاء النبلاء المحاربون البسلاء والأبطال المغاوير وأحسنوا احسانه في مراعاة القلعة حتى تم استرجاع عسقلان أخيرا وارجاعها الى الملة المسيحية ٠

(٢٥)

كان قيام قلعتي « بير سبع » و « ابلين » تجربة أقنعت نبلاء المملكة أنهم قد أحرزوا تقدما في صد الغزوات العقسلانية الجريئة ، وأدرك الجميع أن هذا البناء قد ساعد الى مدى بعيد على كبح جماح عريدة أهل عسقلان وقلل من غاراتهم وأفسد عليهم خططهم ، ومن ثم أزمعوا أن يشيدوا قلعة أخرى في الربيع القادم ، اذ رأوا في الاكثار من الحصون في تلك الناحية ما يعينهم على مضايقة العسقلانيين ، ويساعدهم على مراوحتهم ومغاداتهم بالمغارات يشنونها عليهم فيزيدونهم فزعا لتوقعهم الخطر يلحقهم من حصار رجالنا لهم ٠

وكان هناك موضع يسمونه « تل الصافية » يبعد عن عسقلان بثمانية أميال وهو في ذلك القسم من « يهودا » الذي تنتهي عنده الجبال ويبدأ السهل المنبسط قرب أرض الفلسطينيين ، حيث تسكن قبيلة « شمعون » ، وكان هذا الموضع يبدو وكأنه لا يعدو أن يكون أكمة صغيرة اذا ما قورن بالاقليم الجبلي ، اما اذا قورن بالأرض المنبسطة فهو جبل عال ، فاتفق الرأي من جانب عقلاء المملكة على أن يقيموا هنا قلعة تكون قريبة من المدينة ومن القلاع الأخرى

التى اقيمت من قبل لهذا الغرض ذاته ، وكان هذا الموضع يبدو وكأن الطبيعة حصنته فأحسنت تحصينه ٠

لذلك لم يكد ينقضى فصل الشتاء ويأذن الربيع بالدخول حتى اجتمع الملك بنبلائه وبالبطرك وبكبار رجال الكنيسة فى هذا الموضع وقد اقتنعوا بتلك الفكرة(٣٢) ، وجىء بالعمال وتجهز الناس بكل ما يلزم للبناء ، وأقاموا حصنا من الصخر الأصم على أساس قوى ، وزينوه بأربعة أبراج ذات ارتفاع ملائم اذا اعتلاها المرء طالع من هذا العلو مدينة الخصم على امتداد البصر ولا يحجبها عن ناظريه عائق ٠

ولقد أثبتت هذه البنية بالدليل القاطع أنها أكبر عقبة كأداء أمام العسقلانيين ، وأنها مصدر خطر داهم عليهم ان هم فكروا فى العيث فسادا فى تلك الناحية ، وكان هذا الحصن يعرف فى اللهجة الدارجة باسم « بلانش جارد »(٣٣) ومعناه فى اللاتينية « برج المراقبة الأبيض » ٠

ما كادت هذه القلعة تكتمل بناء حتى وضعها الملك فى حمايته هو ذاته ، وزودها بكميات ضخمة من الأطعمة ، وجهزها بالذخيرة ، وعهد بحراستها الى رجال أشداء ممن عركوا الحروب طويلا ، فبرهنوا على اخلاصهم وتفانيهم فيما كان يوكل اليهم من الأعمال ، اذ كانوا يخرجون تارة وحدهم ، وفى أغلب الأحيان مع غيرهم من رجال القلاع الأخرى التى بنيت لنفس الهدف ، لا يبتغون من وراء ذلك الا صد العدو وهزيمته ان هو حاول الاغارة من المدينة(٣٤) ، بل طالما كانوا يقومون من تلقاء أنفسهم بمهاجمة سكانها فيكبدونهم الخسائر الفادحة ، ثم يعودون فى أغلب الأحيان ترفرف عليهم رايات النصر ٠

ولقد ترتب على ذلك أن أصبح سكان الاقليم المجاور يعتمدون اعتمادا كبيرا على هذه القلعة والقلعتين الأخريين ، ونشأت حولها ضواح كثرة فسكنتها أسر كثيرة عاشت جنبا الى جنب مع الفلاحين فى مزارعهم ، وغدت الناحية أكثر أمنا وازدهارا لازدحامها بقاطنيها وتوافر كل ما يحتاجه الاقليم المجاور من المئونة ٠

***

ولما رأى أهل عسقلان احداق القلاع المنيعة بمدينتهم تضاءلت ثقتهم فى قدرتهم على المقاومة عن ذى قبل ، وتعدد سفاراتهم الى مولاهم خليفة مصر ذى البطش الشديد يخبرونه بما يفرضه عليه الواجب من اتخاذ ما فيه حماية عسقلان التى هى خط الدفـــاع الأول فى امبراطوريته ، بعد أن لم يعد له من ممتلكات سواها فى ذلك الاقليم(٣٥) ٠

(٢٦)

اصبحت المملكة حينذاك بفضل الرحمة الالهية الكبيرة دولة تنعم بحال من الطمأنينة المرضية ، فرأت صاحبة الجلالة الملكة « مليزند » الطيبة الذكر انشاء دير للنساء اذا أمكن توفير المكـــان الصالح الذى يتفق ورغباتها حتى يكون لهن ديرا ، وكانت تســـعى من وراء ذلك الى استجلاب الرحمة لنفسها ولأبويها ولخلاص روح زوجها وولديها ٠

وكانت لها أخت تدعى « ايفيتا » هى أصغر شقيقاتها وقـد ترهبت فى دير القديسة « حنة » أم السيدة العذراء المباركة والدة سيدنا عيسى ، وكان اهتمام الملكة « مليزند » بهذه الأخت هو الذى حدا بها الى القيام بهذا العمل ، لأنها لم تر من اللائق ان تخضع

بنت الملك لنفوذ أم(٣٦) (راهبة) فتستوى بذلك مع أية امرأة من العامة ، لذلك مسحت الاقليم كله بفكرها فى الاستقصاء الدقيق لتجد موضعا ملائما يمكنها أن تؤسس فيه ديرا ، فانتهت بعد طول تمعن الى اختيار العازاريه(٣٧) مسكن مارى ومارتا وأخيهما « العازر » الذين أحبهم عيسى المسيح • وكانت « بيثانى » أو العازارية كما ورد فى الانجيل تقع وراء « جبل الزيتون » على سفحه الشرقى ، وأرضها تابعة لكنيسة القبر المقدس ، ولكن الملكة «مليزند» منحتها لرجال الدين فى « تقوع » مدينة الأنبياء ، وأخذت بدلا منها «بيائنى » ، (تل الصافية) ملكا خالصا لها ، لكن ذلك الموضع كان عرضة لهجمات الأعداء بسبب وقوعه على مشارف الصحراء ، لذلك بذلت الملكة الأموال الطائلة لتشييد برجا منيعا من الحجر الصلد المصقول وكرسته للدفاع حتى تجد فيه العذارى اللائى نذرن نفوسهن للرب حصنا منيعا لا يرام اقتحامه حماية لهن من العدو ، فلما فرغوا من بناء الدير واعداده جريا على العادة لأداء المراسيم الدينية أنزلت الملكة فيه أخوات طاهرات عهدت برعايتهن الى سيدة موقرة بلغت من العمر أرذله ، ذات خبرة دينية كبيرة ناضجة ، ثم حبست الملكة على الكنيسة أراضى فسيحة شاسعة تتبعها أملاك كبيرة حتى لا يكون هذا الدير دون سواه من الأديرة الأخرى فيما عنده من الممتلكات ومن أمور الدنيا ، سواء فى الرجال أو النساء ، بل أرادته أن يكون كما قيل أغنى من بقية الأديرة الأخرى •

وكان من الممتلكات التى وهبتها الملكة أيضا لهذا المكان الطاهر مدينة « أريحا »(٣٨) الشهيرة بكل ملحقاتها الواقعة فى سهل الأردن والغنية جدا بكل شىء ، وزيادة على ذلك فقد أهدت الملكة الدير عددا كبيرا من الأوانى الذهبية والفضية المقدسة المرصعة بالجواهر ، كما منحته أقمشة حريرية لتزيين بيت الرب ، وأفاضت أنواع الثياب لرجال الدين حسبما تقضى بذلك القواعد الديرية •

ثم ان الملكة صرفت جل اهتمامها الى ذلك المكان الذى عهد به الى تلك المرأة الموقرة التى ما كادت تموت حتى قامت « مليزند » بجعل أختها رئيسة له بعد موافقة البابا البطرك ورضاء الأخوات الراهبات الطاهـرات ، وأغدقت بهذه المناسـبة كثيرا من الهدايا الاضافية مثل كؤوس العشاء الربانى والكتب وغير ذلك من الأدوات اللازمة للخدمة الدينية ، وظلت (مليزند) طول حياتها حفية بهذا المكان سعيا وراء خلاص روحها وروح شقيقتها التى كانت تحبها كل الحب ·

***

لكن حدث فى تلك الأيام بعد انقضاء فصل الخريف أن كان الملك والملكة يقضيان بعض الوقت فى مدينة عكا ، حين تراءى للملكة أن تخرج من المدينة الى احدى الضواحى التى تكثر بهـا العيون المائية لتكسر رتابة الأيام بشىء من الرياضة المستحبة ، وخرج الملك فى حرسه الذى اعتاد أن يكون معه ورافقها حتى لا تفتقد صحبته ، وبينما كانوا على صهوات جيادهم اذا بالخدم الذين سبقوا ركبهم يثيرون أرنبا كان يجثم فى حفرة من الأرض فانطلق هاربا تلاحقه من خلفه صيحات الجميع ، وشاء قدر الملك السيىء أن يحمل رمحه وينضم الى المطاردين ، وكانت مطاردته عنيفة للحيوان ، كما راح يهمز جواده ليسرع عدوا الى حيث فر الأرنب ، فما كان من الجواد الا أن انطلق انطلاقا وعدا عدوا سريعا فكبا كبوة طوحت بالملك من فوقه وأوقعته على أم رأسه مغشيا عليه ، وارتطم السرج برأسـه فانبثق الدم من أذنيه وسال من أنفه ، فاستولى الفزع على حرسه سواء من كان منهم أمامه أو خلفه ، وجزعوا من ذلك الحدث المروع ، وهبوا الى نجدته وهو طريح الأرض ولكنهم وجدوه وقد أغمى عليه ، عاجزا عن الكلام أو عن ادراك ما حوله ، فلما أخبروا الملكة عنمصرع زوجها الذى لم يكن متوقعا أحست كأن طعنة نجلاء اخترقت قلبها

من جراء هذا الخطب المشئوم ، فراحت تمــزق ثيابها ، وتجذب شعرها ، وكان صراخها وعويلها دليلين على ما تكابده من الحزن الممض ، ثم طرحت نفسها أرضا معانقة جسده الذى لم يعد فيه رمق يدل على الحياة ، ثم خانتها دموعها من كثرة بكائها المستمر ، وتعالى أنينها يقطع نحيبها ، ولم تستطع كتمان حزنها ، ولم يكن يعنيها الا ارضاء ألمها ، كما لم يستطع أهل بيته كتمان حزنهم العميق الذى تجلى فى عويلهم وكلامهم ، كما أفصح عنه مظهرهم ٠

ما لبث أن ذاع خبر الحادث المبكى الذى ألم بالملك وانطلق الخبر بأجنحة خفاف ، وتسامعت به كل أرجـــاء عكا ، فتقاطرت الجموع الى مكان الحادث يريدون أن يعرفوا بأنفسهم ماهية النكبة التى يعجز اللسان عن وصفها ، وحملوه ــ وعيونهم مغرورقة بالدمع ــ الى المدينة حيث ظل الى اليوم الثالث فى غيبوبة وان كان لايزال به نفس يتردد فى ضعف ٠

فلما كان اليوم العاشر من نوفمبر سنة ١١٤٢ من مولد سيدنا وهى السنة الحادية عشرة من حكم « فولك » غشيته غاشية الموت ، وكان عمره يومذاك كبيرا ٠

ونقل جثمانه من عكا الى بيت المقدس بما يليق به من الاحترام، وخرج رجال الدين بكافة طبقاتهم والناس أجمعون يستقبلون موكب الجنازة ، ودفن فى أبهة ملوكية مع أسلافه العظام ذوى الذكر المجيد فى كنيسة قبر السيد عند جبل الجلجثة عند الباب الواقع الى يمين الداخل ٠

وتراس قداسة البطرك « وليم » بطرك بيت المقدس حفل الدفن الملكى ·

* * *

وقد ترك الملك « فولك » طفلين لم يبلغ أى واحد منهما سن الرشد عند وفاته ، أما أكبرهما فبلدوين وكان فى الثالثة عشرة من عمره ، وأما الآخر فعمورى ، وكان ابن سبع سنوات ·

وانتقلت السلطة الملوكية الى الملكة المعظمة السيدة « مليزند » المحبوبة من الرب ، وكان انتقالها اليها عن طريق الارث الشرعى ·

هنا ينتهى الكتاب الخامس عشر

حواشي الكتــاب الخامس عشر

(١) المقصود بالمؤمنين هنا الجماعات المسيحية من أى مذهب كانت هذه الجماعات ·

(٢) ذكر وليم الصورى فى نصه الاصلى أن هذا الشريف العربى كان يدعى Machedolus ولكننا لم نستطع الاستدلال عمن يكون هذا المنعوت بذلك الاسم عند وليم ، وان رجحت الترجمة الانجليزية أن يكون هو « عز الدين أبو العساكر سلطان » عم أسامة بن منقذ ، وقد بنت هذا الترجيح على ما أورده فيليب حتى فى كتابه :
Usamah Ibn Munqidh, Introd., P. 6:

(٣) المقصود بالعاهلين هنا أمير أنطاكية وكونت طرابلس ·

(٤) وهى حبيس جلدك ، وهى كما ذكر ياقوت فى معجمه قلعة فى سهل دمشــق ·

(٥) لم يزد ياقوت فى تعريفه لعربة هذه عن وصفها بأنها « موضع » فى جند فلسطين ·

(٦) على الرغم من أهمية مكانة « تقوع » الروحية فى نفوس المسيحيين حتى ليطلقون عليها « مدينة الأنبياء » الا أن كل ما ورد عنها فى المراجــع

العربية لايزيد عن القول بأنها قرية من قرى بيت المقدس ، مشهورة بعمل النحل ، انظر فى ذلك :
Le-Strange : Palestine Under the Moslems, P. 542.

(٧) ربما كان من المناسب فى هذا المجال وقد راح المؤلف يشرح كلمة « بانياس » أن نضيف الى ذلك انها تعرف بقيصـــرية فيليبى ، أما كلمـــة «Paneas» « بانياس » القديمة فمشتقة من الاله المسمى « بان » Pan التى يقول ياقوت عنها انها قصبة جند الأردن ، أما المقدسى فيقول انهـــا مدينة على مشارف بحيرة الحولة المعروفة باسم بحيرة « ميروم » ، كما يقول ان بها رافدا ماؤه شديد البرودة ينبع من تحت جبل الثلج فى هيرمون Hermon ، ولمـــا زارهـــا الرحالة المسلم ابن جبير ســـنة ١١٨٥ قال انها ثغر من ثغور الاسلام الحربية ، وكان بها قلعة فى أيدى الفرنجة ثم استردها منهم نور الدين محمود ويسمونها « هونين » وقد أشرت الى ذلك فى كتابنا « نور الدين والصليبيون » ، ويذكر لى سترانج انه يوجد فى المجلة الأسيوية Journ. Asiatique رسم كروكـــى لاحدى ضواحى بانياس ، انظر الفهارس التفصيلية التى ألحقناها بترجمتنا العربية لكتاب فلسطين تحت الحكم الاسلامى لـ « لى سترانج » ٠

(٨) يوشـــع ١٩/٤٧ ٠

(٩) فى الأصل الذى كتبه وليم الصورى باللاتينية وترجمتـــه الترجمة الانجليزية « الترك » ، وهو لفظ نرى من مطالعتنا لنص وليم أنه يطلق على المسلمين ممن احتك بهم الصليبيون دون المصريين ، على أن سياق الخبر أعلاه يقتضى وضع كلمة « الدماشقة » اذ هم المقصودون فى هذا الموقف بالذات دون غيرهم ٠

(١٠) الوالى الذى يقصده وليم فى المتن هو والى بانياس ٠

(١١) المقصود بالأهالى هنا سكان بانياس ٠

(١٢) ليس فى ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى (ص ٢٧٠ ــ ٢٧٢) ما يشير الى قيام « أنر » بتسليم البلد للمسيحيين ، ولكن المعروف هو أن الأتابك عماد الدين زنكى كان قد طلب من صاحب دمشق أن يسلمه البلد فلم يجبه الحاكم الى ما طلب ، ثم حدث أن مات محمد بن تاج الملوك بورى

فنصب أولو الأمر ولده مكانه وهو الأمير « عضد الدولة » ، فلما عرف زنكى ما تم زحف الى دمشق ولكنه لم يصادف « من أجناد دمشق وأحداثها الا الثبات على القراع والصبر على المناوشة ، فانكفأ عائدا الى غزة » ويقول ابن القلانسى أيضا انه كان قد تقرر مع الافرنج (يقصد الصليبيين) الاتفاق « والاعتضاد والمؤازرة والاسعاد والامتزاج فى دفعه ، والاختلاط فى صده عن مراده ومنعه » ، وأمضى الطرفان فيما بينهما معاهدة ، ثم التمس الصليبيون على ذلك « مالا معينا يحمـــل اليهـــم ليكون عونا لهـــم على ما يحاولونه ، وقوة ورهانا تسكن بها نفوســـهم ، وأجيبوا الى ذلك » ٠ وترتب على ذلك رحيل زنكى ٠ ولعل ما يقصده وليم من الاســـتسلام هو ما جرى على « بانياس » فقد جاء فى الذيل لابـــن القلانسى ، ص ٢٧٢) أن شرط الصليبيين أن يبذل لهم انتزاع ثغر بانياس من يد واليها ابراهيم ابن طرغت ٠

(١٣) الضمير فى عدها عائد على كنيسة أنطاكية ٠

(١٤) هو الميناء المعروف عند الصليبيين باسم st. Simon وعنده دير باسم هذا القديس ، وقد وردت الاشارة اليه فى كثير من المصـــادر الجغرافية الاسلامية ، ويذكر صاحب مراصد الاطلاع أن سمعان الذى يطلق اسمه على الناحية هو شمعون الصافى ، كما أن هناك أكثر من دير يعرف كل واحد منها بدير سمعان ٠

(١٥) من رأى ابن القلانسى (الذيل ، ص ٢٦٣) ان صاحب أنطاكية قبض على بطركها الافرنجى « ونهب داره ٠٠٠ وذلك لأن ملك الروم لـما تقرر الصلح بينه وبين ريموند صاحب انطاكية شرط فى جملة الشروط أن ينصب بأنطاكية بترك من قبل الروم » ٠

(١٦) انظر الحاشية السابقة ٠

(١٧) ترد الاشارة فى المراجع العربية الى موضـــعين رســـم كل منهما قريب فى رسمه للاسم الذى أورده وليم الصورى فى المتن أعلاه ، فهنـــاك « قورس » أو « قورص » Kurus التى تسميها المصادر الصليبية باسم Cyrrus حينا وباسم Cyrrhus حينا آخر ، والتى يشير ياقوت تحت نفس الاســـم فيصفها بأنهـــا بلدة قديمة متاخمة لحلب وحولها اطلال كثيرة شديدة القدم ، أما فى القرن الرابع عشر الميلادى فيصفها أبو

الفدا بأنها بلد « كبير وقصبة اقليمها » • ثم نطالع اسما آخر قريبا من هذا الاسم الذى أورده وليم وهو « قرقس » أو بالمصطلح الغربى Corycos ويصفه الادريسى أيضا بأنه حصن يستطيع الناظر منه أن يرى مرتفعات قبرص ، فهل ترى الكلمة الواردة في المتن أعلاه تمت بصلة الى أحد هذين المكانين ، أم أنها غريبة عنهما ؟

(١٨) فيما يتعلق بايمرى هذا ، انظر الفصل السادس عشر من هذا الكتاب ص ١٩٥ ـ ١٩٦ •

(١٩) يستعجل وليم هنا الأحداث حتى ليخيل للقارىء أن الأخوين ولدى الامبراطور ماتا فى هذه الأثناء فى الرحلة فى أضاليا ، لكن الواقع هو أن الموت عاجل ولده البكر « الكسيوس » ، أما الآخر وهو « أندرونيكوس » فقد وافته منيته وهو عائد الى القسطنطينية فأمر يوحنا الثانى ولده بمرافقة جثمان أخيه الكسيوس ، وهذه ملاحظة تستلزم الاشارة اليها فى هذا المكان قبل أن يتوغل القارىء فيما كتبه وليم ، على أنه يلاحظ من ناحية أخرى أن الأخوين ألكسيوس وأندرونيكوس ولدى يوحنا ماتا فى عام واحد هو عام ١١٤٢م ، ومن هنا كانت وصية الأب فى أن يخلفه ولده الرابع مانويل (١١٤٣ ـ ١١٨٠) الذى جمع بين الحرب والسياسة •

(٢٠) أشارت الترجمة الانجليزية فى هامشها (ج٢ ، ص ١٢٤ ، حاشية رقم ٢٤) الى أن « جاستون » هذه كانت حصنا استولى عليه الداوية •

(٢١) الواقع أن ريموند امير أنطاكية دأب على ارسال كثير من الرسائل الى الامبراطور البيزنطى يوحنا الثانى يستنجد فيها به ويلح عليه أن يقدم الى أنطاكية خوفا من بطش عماد الدين زنكى ودفعا لأطماعه فى امارة أنطاكية مما يهدد فى الوقت ذاته هيبة الامبراطور البيزنطية ، وقد تعرض لهذه الناحية ولتلك الرسائل المؤرخ شالاندون فأوضح فى جلاء مدى هذه الاستغاثة وفحوى تلك الكتب ، راجع ذلك بالتفصيل فى :
Chalandon (F.) : Les Comnenes II, Jean Comnene et Manuel Commnene PP. 186 fol.

(٢٢) كان هناك فى هذه الفترة ثلاثة يعرف كل منهم بيجانوس ، ورغم أن الترجمة الانجليزية قد رجعت الى ما كتبه فى هذا الصدد :
J. La-Monte : Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem (1100 — 1291)

الا أنها وقعت فى حيرة : أى هؤلاء الثلاثة هو المقصود عند وليم فى المتن ، لكن بالرجوع الى نفس البحث الذى أشـــارت اليه الترجمة الانجليزية ، (وهو بحث الأستاذ لامونت La-monte : Op. Cit., P. 256 et seq.
نجد ان الذى يقصده وليم الصورى كان يشغل وظيفة « ساقى الملك » كما بالمتن هذا وقد نعته
Le-Strange : Palestine Under The Moslems P. 479.

باسم « باين » Payen ونكر أنه ساقى الملك فولك ·

(٢٣) يشير ابن عبد الحق فى مراصد الاطلاع الى أن هناك ثلاثـــة مواضع يعرف كل منها باسم الكرك ، أما أحدها فقرب الســـويدية فى جند فلسطين ، وأما الثانى فقرب طبرية ، وأما الثالث فبين بعلبك ودمشق · كذلك اختلف الجغرافيون العرب فى وصف الكرك التى تعرف فى الحوليات التاريخية الصليبية باسم Petra Deserti (وسيشير اليها وليم فى نهاية هذا الفصل من الكتاب الخامس عشر) وهى تقع فى أقصى الطرف الجنوبى للبحر الميت · ويلاحظ أن حصن الكرك هذا يشغل البقعة التى وردت فى سفر اشعيا ١٥/١ ، فى قوله « انه فى ليلة خربت قبر مؤاب وهلكت » · ويصف ياقوت الكرك بأنها حصن شديد المناعة على تخوم سورية فى الجبال ، ويقوم على جبل صخرى تحوطه الوديان من كل الجهات ، ثم يزيد على ذلك بأنه واقع بين القدس وأيلة على البحر الأحمر · أما الكرك عند ابى الفدا فبلدة شهيرة ذات حصن يقع فى أرض شديدة الارتفاع ، وانه يوجد على مسيرة يوم منها ـ بتقدير أهل ذلك العصر ـ « مؤتة » حيث دفن بهـــا جعفر الطيار وأصحابه · ويصفها ابن بطوطة بعد زيارته لها سنة ١١٢٥م بأنها من اشهر واقوى القلاع ببلاد الشام ، وتعرف بحصن الغراب ، انظر كل ذلك بالتفصيل Le-Strange : Op. Cit. PP. 479 — 480.

(٢٤) عرض لى سترانج Le-Strange : Op. Cit. P. 494 فى تفسيره لربة هذه بأن اسمها الصليبى منظور فيه الى ما جاء فى العهد القديم بأنها تسمى Rabath Moab وكذلك Areopolis ثم نقل عن أبـــى الفدا أن « الربة » هذه تقع فى اقليم البلقاء فى جبل الشراة ·

(٢٥) راجع ماسبق ص ٢٠٠ والحاشية رقم ١٩ ·

(٢٦) هذه اشارة صريحة الى ميل الامبراطور الى اللاتين ميلا ظاهرا لايحاول اخفاءه ·

(٢٧) نطالع فى التأليف التاريخى « الكسياد » الذى وضعته المؤرخة « أنا كومنينة » والذى استعرضت فيه هذه الفترة اشارات متعدده اليه منها على سبيل المثال ك١ ف١٠ ، ك٣ ف٢ ، ٣ ، ك١٢ ف٣ ، ك١٣ ف١٠ ، ك١٤ ف٣ ، وكان مما ذكرته عنه أنه لم يكن فى مهده بالذى يجذب النظر ، الألكسياد ٨/٦ وانظر فى ذلك أيضا :
Chalandon (F) : Les Comnenes II, P. XXXIII.

(٢٨) أشار ياقوت فى معجمه الى أن « العين » قرية أسفل جبل اللكام قرب مرعش ، ويخرج منها طريق يسمونه درب العين يؤدى الى الهارونية · ويلاحظ أن العين هذه معدودة بين قلاع المصيصة ، أما عين زربة فقد أنشاها الخليفة هرون الرشيد ، واعتبرها ياقوت من مدن « الثغور » · ويحدد أبو الفدا حدودها الجغرافية فيقول انها واقعة بين سيس وتل حمدون ·

(٢٩) الواقع أن الامبراطور يوحنا الثانى تولى العرش بعد وفاة أبيه الكسيوس الأول سنة ١١١٨م ، ومات سنة ١١٤٣م ، وبذلك تكون مدة حكمه ستا وعشرين سنة ·

(٣٠) فراغ فى الأصل ·

(٣١) ذكرها ياقوت باسم « أزدود » ، وقد يقال لها أيضا « يزدود » وهى فى غير اللسان العربى تعرف باسمى Azhdod Azotus راجع فى ذلك Le-Strange : Op. Cit., P. 405

(٣٢) أى فكرة بناء قلعة جديدة ·

(٣٣) « بلانش جارد Blanche-Garde هو الاسم الصليبى لتل الصافية ، وقد عرفه ياقوت فى معجمه بأنه حصن من حصون فلسطين ، ويقع على مقربة من بيت جبرين أو جبريل فى اقليم الرملة ·

(٣٤) المقصود بالمدينة هنا « عسقلان » ، وكانت لاتزال حتى هذا الوقت فى أيدى المسلمين ٠

(٣٥) يعنى بذلك بلاد للشام بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس وطرابلس وانطاكية ٠

(٣٦) المقصود بالأم هنا الراهبة رئيسة دير النساء المشار اليه حالا فى المتن أعلاه ٠

(٣٧) العازارية هو الاسم المتداول فى كتابات المؤرخين والجغرافيين ويدعوها ياقوت أيضا باسم العازارية و «العيزارية» وهى نسبة الى «العازار» الذى أحياه المسيح عليه السلام من بين الموتى ٠

(٣٨) كانت أريحا قصبة اقليم الغور بالأردن ٠

فصول الكتـاب السادس عشر

١ ــ بلدوين الثالث يخلف اباه فولك على العرش بعد موته ٠

٢ ــ نبذة عن حياة بلدوين وخصاله ٠

٣ ــ اعتلاؤه العرش ومدة حكمه تحت وصاية امه ٠

٤ ــ عماد الدين زنكى يحاصر مدينة الرها ٠ وصف موقع الرها ٠

٥ ــ الاستيلاء على الرها والفتك باهلها ٠

٦ ــ استيلاء الملك على مدينة فيما وراء الأردن تدعى « وادى موسى » ٠

٧ ــ اغتيال زنكى اثناء حصاره قلعة جعبر واستخلاف ابنه نور الدين مكانه ٠

٨ ــ قيام احد كبار الدماشقة وهو حاكـم مدينة « بصـــرى » بمحالفة الملك وارسال جيش الملك اليها ٠ « انر » حاكم دمشق يحاول افساد هذه الخطة ٠

٩ ـ الجيش الصليبى يواجه أخطارا لا عد لها أثناء زحفه ٠

١٠ ـ حين يبلغ الصليبيون غايتهم يجدون العدو قد احتل المدينة فيعودون الى ديارهم من غير أن يحققوا هدفهم ٠

١١ ـ الجيش الصليبى يواجه أخطارا جمة فى طريـــق عودته ، والأتراك يعجبون من عزيمة قواتنا ٠

١٢ ـ ارسال مبعوث الى العدو لطلب الصلح ٠ هلاك أحد الفرسان العظام فى الجيش ٠ تشتت شمل الجيش التركى ٠ قواتنا تتقدم من غير عائق يعوقها ٠

١٣ ـ عساكرنا تصل الى الرها ٠ وصفها ٠ عودة العسكر الى ديارهم ٠

١٤ ـ استنجاد أهالى الرها بالكونت واسراعه الى هناك دون أن يعلم العدو بخبره وتسلمه المدينة ٠

١٥ ـ نور الدين يهاجم الرها ويحاصر المدينة ويكبد المسـيحيين أفدح الخسائر ٠

١٦ ـ الكونت « جوسلين » يغادر المدينة بجيشه ويحاول الرجوع الى وطنه ٠ نور الدين يلاحقه ٠ نكبة الجيش ٠ الكونت يفر فينجو ٠

١٧ ـ موت وليم بطرك بيت المقدس فيخلفه فى كرسيه « فولشر » رئيس أساقفة صور ٠ قيام الملك بفرض « رالف »مستشاره رئيسا لكنيسة صور ٠

١٨ ـ اثارة شعوب الغرب · كونراد امبراطور الرومان ولويس ملك فرنسا يقومان مع كثير من الأمراء الآخرين وسواهـم نجدة لمسيحيى المشرق ·

١٩ ـ الامبراطور (كونراد) يخرج أول الجميع بجيشه ويصـل الى القسطنطينية · سلطان « قونية » ينصب له كمينا فى الطريق ·

٢٠ ـ سوء نية الاغريق تجعل جيش الامبراطور كونراد يضـل الطريق بعد عبوره البسفور فيدخل أماكن شديدة الخطورة ·

٢١ ـ الأدلاء الذين يبعثهم الامبراطور البيزنطى لارشـاد جيش الامبراطور كونراد ينسلون خفية ويتركونه معرضا لخطر داهـم ·

٢٢ ـ الترك يقومون بغارة فجائية على القوات التيوتونية وهلاك هذه القوات ولكن تكتب النجاة للامبراطور ·

٢٣ ـ ملك الفرنجة يعبر البسفور ويصل بقواته الى « نيقية » فى اقليم « بيثينيا » · العاهلان (الألمانى والفرنجى) يتفاوضان معا · الامبراطور كونراد يعود الى القسطنطينية ·

٢٤ ـ ملك الفرنجة يسلك طريقا آخر الى « افسوس » وهنا يموت « جى دى بونثيو » · الفرنجة يعبرون نهر « مياندر » رغـم محاولات العدو اعتراض سبيلهم ·

٢٥ ـ نزول أفظع هزيمة بالجيش الفرنسى ونجاة مقدمته التى سبقته ·

٢٦ ـ (الملك لويس السابع) ينجو بالمصادفة فيلجئ بالمقدمة التى سبقته · أما بقية الجيش فتصل الى « اتاليا » ومن هناك تمضى الى الشام فى موكب مهيب ويسيرون به الى أنطاكية ، واخيرا يفترق العاهلان بعضهما عن بعض على أسوأ حال ·

٢٧ ـ انتهاء فصل الشتاء ووصول كونراد الى بلاد الشام بحرا · كذلك رسو كونت الفونس فى مدينة عكا وموته فى قيسارية ·

٢٨ ـ ملك الفرنجة يغادر أنطاكية ويتابع سيره الى القدس وارسال بطركها لاستقباله ·

هنـــا يبدأ الكتاب السادس عشر

اشتراك بلدوين الثالث وأمه مليزند في الحـــكم
الحمـــلة الصليبية الثانيـــة

(١)

لقد تسنى لنا أن نجمع الأخبار التي نسوقها في الكتاب الحالي حتى وقتنا هذا مما رواه الآخرون الذين مازالت ذاكرتهم تعي أخبار الأزمنة السالفة وعيا صادقا ، ولقد كابدنا أكبر المشقة في الحصول على الأخبار الموثوق بصـــحتها وعلى التاريخ الصـحيح وتوالي الحوادث ، ثم أوردنا ما وسعنا الجهد النبأ الحق عن هذه الأحداث التي بلغتنا عن طريق تلك الروايات ذاتها ، الى جانب ما رأيناه بعيني رأسنا وشاهدناه بأنفسنا ، وعلمنا ببعضه الآخر عن طريق العلاقة

الوثيقة بأناس كانوا شهود عيان لها حين وقوعها ، ومن ثم فاننا سوف ندرج فى يسر وأمانة بمشيئة الرب من أجل خير الأجيال التالية بقية هذا التاريخ اعتمادا منا على هذين المصدرين ، لأن الذاكرة تكون أكثر دقة فى استعادة الأحداث القريبة الحية ، كما أن كل ما تنقله العين الى الذاكرة يكون أقل عرضة للنسيان مما ينقل اليها عن طريق الأذن وحدها ، وان كلمات « فلاكوس » لتترجم عما نشعر به اذ يقول : « ان الأشياء التى تروى بالسماع تكون أقل تأثيرا واستيعابا من تلك التى تأتى عن طريق المشاهدة الفعلية بالعين ، أعنى بذلك الأمور التى شاهدها الناظر بنفسه ووعاها فى باطنه » ٠

* * *

لما مات « فولك » ثالث ملوك بيت المقدس اللاتين خلفه «بلدوين» الثالث ابنه من الملكة « مليزند » ، وكان لبلدوين ــ كما قلنا ــ أخ واحد اسمه « عمورى » وكان صبيا مازال فى السابعة من عمره ، فلما مات بلدوين الثالث هذا من غير ولد من صلبه خلفه فى المملكة أخوه (عمورى) كما سنروى خبر ذلك فى الكتب التالية ٠

كان بلدوين (الثالث) فى الثالثة عشرة من عمره حين آل اليه العرش ، وقد طالت أيام حكمه حتى بلغت عشرين عاما ، وكان شابا ذا مقدرة طبيعية رائعة ، فأفصح ــ وهو فى هذه السن المبكرة عن هذا الخلق الذى استكمله بعد حين ، فلما بلغ مبلغ الرجال بز الآخرين جميعا بجمال تقاطيعه ، وحسن هيئته ، ومنظره العام ، كما فاق جميع نبلاء المملكة فى اتقاد ذهنه وفصاحة لسانه ، وكان أطول قامة من المألوف بين الناس ، قد تناسبت أطرافه مع قامته المديدة واتسق بعضها مع بعض ولم يبد منها شىء يتنافر مع غيره ، هذا الى جمال ملامحه وتناسقها ، أما بشرته فقد أشربت بالحمرة دليلا على قوة بنيته واستحكام خلقته ، فكان من هذه الناحية شبيها بأمه ، كما لم

يكن فى ذلك دون ما كان عليه جده لأمه ، وكانت عيناه متوسطتى الاتساع شديدتى التألق بصورة تجذب الانتباه ٠

أما شعره فكان أميل للصفرة ، وتكسو خديه وذقنه لحية كاملة، وكان متناسب أطراف الجسم ولكن ليس كأخيه فى اكتنازه أو نحيفاً كأمه ، ومختصر القول ان مرآه كان يوحى بعظمة تشير الى أنه صاحب مكانة مرموقة ، حتى لقد كان الأغراب لا يفوتهم ادراك هيبته الملوكية ، وهى هيبة ركبت فيه بالفطرة ٠

(٢)

كانت ملكة بلدوين العقلية وجماله الجثمانى متساويين تمام المساواة ، وكان حاد الذكاء ألمعيا بصورة خارقة ، قد وهبته الطبيعية هبة نادرة هى فصاحة اللسان ، ولم يكن دون أحد سواه من الأمراء فى عاداته الرائعة المحبوبة ، وقد بلغ الغاية من طلاقة المحيا ورقة القلب ، الى جانب أنه كان جوادا سمح الكف على كل امرىء سماحة جاوزت ما تملك يداه ، لكنه لم يتطلع الى ما فى يد غيره ، ولم تمتد يده الى إملاك الكنائس ، ولم يحمله اسرافه الى انتزاع شىء من أموال رعيته ، وكان له طابع خاص ندر أن يوجد له ضريب فى الشباب ، فقد كان وهو فى هذه السن المبكرة يخشى الله كل الخشية شديد التوقير للشرائع الدينية ورجال الكنائس ٠

وكان ذا فطرة سليمة وذاكرة واعية دقيقة ، وقد أتيح له أن ينال قسطا طيبا من التعليم أعظم ما تهيأ لأخيه عمورى الذى خلفه ، وكان يسعده أن يمضى فى المطالعة كل فراغ ينتهبه من بين التزاماته العامة ، ويجد لذة لا تضاهيها لذة فى الاستماع الى التاريخ يقرأه الآخرون عليه ٠

وكان ولعا بالسؤال عن أعمال كبار ملوك وأمراء الأزمنة السالفة وعاداتهم ، هذا الى جانب ميله العظيم لمحاورة الأدباء وأفاضل العلمانيين ٠

وقد حملته رقة طبعه على افشاء التحية فى الجميع حتى لأقلهم مكانة ، فكان يناديهم بأسمائهم مما يثير دهشتهم ، وكان يتخيل أختلاق الفرصة للتحدث مع أى امرىء يريد التحدث اليه ، أو يلقاه صدفة ويعرف أنه يسعى لمحادثته ٠ وكان اذا سأله سائل أن يناقشه لم يرفض سؤاله ، ولقد أكسبه هذا الطبع حب الصغار والكبار على السواء ، لذلك كان أكثر شعبية من أسلافه عند هاتين الطبقتين ، هذا الى تجمله بالصبر فى تحمل المتاعب والمشاق ، فيقتدى بأحسن الأمراء فى اظهار مزيد من التعقل وبعد النظر فيما تتمخض عنه حرب غير مضمونة العاقبة ٠

ولقد أظهر ثباتا يليق بالملوك وحضور ذهن جديرين بالرجل الشجاع ، وكان اذا ما ادلهمت الخطوب يتحملها من أجل زيادة رقعة مملكته ، كما كان ملما تمام الالمام بالأعراف التى تحكم مملكة الشرق والتى تنزل فيها منزلة القانون ، لذلك كان الجميع ــ حتى كبار النبلاء ــ يسألونه الرأى فيما يبهم عليهم من الأمور ، ويعجبون من ألمعيته ودقة تفكيره المنظم ٠

وكان فى حديثه حاضر البديهة سريع الخاطر ، بشوش الوجه ، وكان الناس من كل سن وتحت أى الظروف يتقبلونه قبولا حسنا لبساطته فى تكييف ذاته فى غير عسر ولا تكلف مع أى شخص كائنا من كان هذا الشخص ، وزيادة على ذلك فانه جاوز حد المجاملة المألوف بصورة أصبحت واضحة فيه تمام الوضوح ، فهو يطلق للسانه العنان ،فان رأى خطأ فى أحد من خلانه أو فى كبير من القوم لامه علانية ، لا يعبأ ان جرحت كلماته أو ارضت ، ولما كان

يرسل هذا الزجر في شكل دعابة تصدر عن قلب طيب أكثر من أن تكون نابعة من رغبة في الاساءة فانها لم تقلل مما له من حب في نفوس من كانوا هدفا لملاحظاته الخشنة ، وكانت صراحته تقابل بالتسامح، لأنه كان هو الآخر شديدا في احتماله للكلمات الجافة التي توجه اليه ردا عليه ٠

على أنه كان كثير الانغماس بصورة لا تتفق وهيبته الملوكية في ممارسة ألعاب الحظ كالميسر والنرد ، كما يقال ان استسلامه لشهوات البدن افسد روابط الزوجية عند آخرين ، بيد أن ذلك كله كان أيام شبيبته ، أما حين اشتد عوده وبلغ مبلغ الرجال فقد أصبح كالرسول(١) « لما صار رجلا أبطل ما للطفل » ومن ثم فانه بملازمته للفضائل كفر عن زلاته التي كانت منه في فجر شبابه ، اذ يقال انه لما تزوج أخلص لزوجته كل الاخلاص ، وتخلى عن خطيئة بغيضة(٢) الى الرب مذمومة عنده كان قد مارسها في شبابه تحت ظروف حرجة ، ثم تاب عنها بعقل راجح ، واستبدلها بما هو احسن ٠

وكان بلدوين الثالث مقتصداً كل الاقتصاد في تناول المنشطات الجسدية ، بل الحق انه كان زاهداً فيها كل الزهد بالنسبة لاحتياجات هذه السن ، فقد كره الاسراف في الطعام والشراب ، وكان يقول ان هذه ليست الا عقابا على جرائم اشد منها ثقلاً ٠

(٣)

مات « فولك » عاشر يوم من نوفمبر ، فلما كان عيد ميلاد المسيح التالي من عام ١١٤٢ ، أقيم حفل كبير مسح فيه « بلدوين » بالزيت ، ورسم وتوج هو وأمه في كنيسة القيامة ، وأدار مراسم الاحتفال « وليم » بطرك بيت المقدس في حضرة الحشد المعتاد من الأمراء وجميع كبار رجال الكنيسة ٠

وكان بابا كنيسة رومة اذ ذاك هو « يوجين »(٣) الثالث ، أما بطرك انطاكية فكان « ايمرى » ، وبطرك القدس هو « وليم » ، كما كان « فولشر » رئيسا لأساقفة صور ٠

***

وكانت « مليزند » أم الملك امرأة حصيفة راجحة العقل ، كبيرة الخبرة بجميع الشئون الدنيوية ، وقد أربت على كل امرأة من بنات جنسها ، فما كانت تدانيها في مستواها واحدة منهن مما أهلها للقيام بمعالجة الأمور الخطيرة أحســـن قيام ، كما أنها تطلعت لمنافسة أعظم الأمراء مكانة وقوة حتى لا تبدو أبدا أنها دونهمكفاءة، ولما كان ابنها لايزال صبيا غريرا فقد استقلت بمقاليد الحكم هي وحدها ، وسيرت شئون الحكومة بمهارة بلغت من الدقة غاية يمكن أن يقال معها بحق انها كانت مكافئة لأسلافها في هذا المجال ، وكان الشعب ينعم بما يرغب فيه من الطمانينة ، كما كانت أمور المملكة تدبر بنجاح طالما كان ابنها راضيا أن يسير وفق مشورتها ٠ لكن كانت هناك عناصر طائشة في المملكة سرعان ما أدركت أن تأثير حكمة الملكة افسد عليهم محاولاتهم في السيطرة على الملك ليكون طوع يمينهم ورهين اشارتهم ، فكانوا يلاحقون على الدوام مولاهم الذى يكون من فى مثل سنه لينا كالشمع ينحنى نحو الرذيلة ، ويكون شموسا مع من ينقدونه » ـ وكان هدف هذه العناصر المرذولة من ملاحقتهم اياه أن يتخلص من وصاية أمه عليه ، عساه ينفرد هو بالحكم ويستقل وحده بحكم مملكة آبائه ، فقالوا له انه ليس من اللائق أن يظل الملك متعلقا بذيل أمه مثله في هذا مثل أى شخص عادى ، فى الوقت الذى ينبغى فيه أن يستقل بالحكم لا يشـــاركه فيه مشارك ، وعلى الرغم من أن هذه المؤامرة كانت وليدة طيش أرعن تمت ونمت فى مهاد شرود أشخاص معروفين بالذات ، الا أنها كادت أن تدمر المملكة باكملها ، كما سيأتى شرح ذلك بتفصيل أكثر حين نعرض لهذا الموضوع ٠

(٤)

قام عماد الدين زنكى اللعين بحصار مدينة الرها بجيش قوى فى هذه السنة ذاتها وذلك فى الفترة الواقعة بين وفاة الملك « فولك » وارتقاء « بلدوين » الثالث العرش ، وكانت تلك المدينة هى كبرى مدائن أرض الميديين وعاصمتها الزاهية ·

وخلاصة القول فى زنكى انه تركى قوى البأس ، وكان يحكم المدينة التى كانت تسمى فى القديم بنينوى ، ثم أصبحت تعرف الآن بالموصل ، وهى قاعدة الاقليم الذى كان يطلق عليه من قبل أرض آشور ·

لم يكن زنكى يعتمد على كثرة عدد قومه وشدة بأسهم فحسب، بل كان يستثمر أيضا الشقاق المرير بين « ريموند » أمير أنطاكية و « جوسلين » كونت الرها ··

وتقع مدينة الرها على مسيرة يوم واحد وراء الفرات ، ويتولى أمرها ويملكها الكونت « جوسلين » الذى خالف سنة أسلافه فهجر مقامه هناك وجعل مقره الدائم قرب الفرات فى قلعة تعرف بقلعة « تل باشر » ، وكان الذى دعاه الى هذا الانتقال هو ما امتازت به هذه الناحية من الخصب وما تتيحه من البلهنية فى العيش · هذا الى أن وجوده هنا كان يباعد تمام المبـــاعدة بينه وبين المتاعب التى يسببها له أعداؤه ، كما تتوفر له فيها شتى ضـــروب اللهو والمتعة ، وتحرره من كل تبعة كتلك التى يتحملها (والتى يجب أن يتحملها) تجاه المدينة العظيمة ·

***

كان سكان الرها من الكلدانيين المحليين والأرمن المسالمين . وليس فيهم من يعرف ابدا استعمال السلاح بل انهم كانوا لايمارسون سوى التجارة فاتخذوها حرفة لهم ·

وكان اللاتين أيضا يحضرون الى هناك بين آن وآخر فيقيمون بها ، ولكن كانت اعدادهم قليلة ، كما أن حماية المدينة كانت موكولة كلها الى أيدى الجند المرتزقة الذين لم يكونوا يتنـــاولون رواتب وأجورا حسب مقتضيات الوقت أو حسب نوع الخدمة التى يؤدونها ، بل انهم كثيرا ما كانوا يضطرون للانتظار فترة قد تطول فتبلغ عاما أو يزيد قبل أن يستطيعوا أخذ معاشهم ورواتبهم المستحقة ·

ما كاد بلدوين وجوسلين الأب يمتلكان هذه الكونتية حتى جعلا مقامهما الدائم فى الرها ، وعنيا عنـــاية تامة بتوفير التجهيزات الملائمة لها من الســـــلاح والطعام ، يجلبان ذلـك من الأماكـــــن المحيطة بها ·

واســـتطاعا بهذه الوســائل توفير الأمان التام للرها التى أصبحت بفضـــــل هذا العمل مهابة عن جدارة أكثر من بقية مدن الاقليم الأخرى ·

لكن كانت هناك ــ كما قلنا سلفا ــ عداوة بين أمير انطاكية وكونت الرها ، وقد تجلت هذه العداوة للعيان حتى وصلت الى حد الكراهية السافرة ، مما ترتب عليه أن لم يعد أحدهما يأسى على ما يحيق بالآخر من المصائب أو يلم به من سوء الحظ ، بل ان كلا منهما كان يغتبط للمصيبة يبلى بها الآخر ، ويفرح أشد الفرح لأى كارثة تلحق به ·

وقد اغتنم الأمير الكبير زنكى الفرصة التى أتاحتها له هذه العداوة بين الاثنين فقام يجمع أعدادا كبيرة من أهالى المدن المتاخمة وضرب بهم الحصار على الرها ، وســـد كل المداخل المؤدية الى

المدينة ببدا محكما مما أسفر عن عدم قدرة أحد ما على مغادرتها أو الدخول اليها ، وترتب على ذلك أن نزل القحط الشديد فى الأطعمة وشتي أنواع التجهيزات بالأهالي الذين أغلقت عليهم المدينة ٠

* * *

وكانت مدينة الرها يحوطها سور شديد الضخامة ، كما يوجد فى القسم الأعلي منها عدد كبير من الأبراج الشاهقة الارتفاع ، كما يوجد فى القسم الأسفل منها حصن منيع يستطيع الأهالى اللجوء اليه فيما لو تمكن العدو من الاستيلاء على المدينة ٠

وكانت كل هذه التحصينات مجدية في انزال المضرة بالعدو اذا توفر لها المحاربون الأكفاء الذين يستبسلون فى القتال من أجل حريتهم ، ولكنها تصبح غير ذات جدوى لو انعدمت بين المحاصرين الرغبة فى القيام بواجب الدفاع ، ذلك لأن الأســـوار والأبراج والخنادق لا تجدي فتيلا ان لم يحمها الحماة ، فلما وجد زنكي المدينة خالية ممن يذودون عن حياضها تزايد أمله فى التغلب عليها، فرتب جنده على شكل دائرة التفت بها وأحاطتها من كل جانب ، وأنزل قواد العسكر فى أماكن حصينة نافعة وحاصرها ، وانطلقت الآلات الحربية ترمى الأسوار بلا انقطاع ، كما انهمر وابل هتان من السهام لم يترك للأهالى لحظة يلتقطون فيها أنفاسهم ٠

فى هذه الآونة سرت فى الخارج فى سرعة البرق شائعة تنبىء بما تعانيه الرها المؤمنة بالرب من ويلات الحصار على يد خصـــم العقيدة ، فجزعت للخبر قلوب المؤمنين الصادقين سواء من كان منهم قريبا أو كان بعيدا ، وشرع المتحمسون في تسليح أنفسهم للانتقام من العدو الماكر ، فحملت أخبار هذا الموقف الحرج الكونت على العمل ، واهتم اهتماما جديا بجمع قواته ، وتذكر المدينة العظمى ولكن بعد فوات الأوان ، فكان اشبه بمن يعد مراسيم الجنازة لميت

قصر فى اسعافه وقت مرضه وأهمل نجدته فى شدته ، فيمم وجهه شطر الصليبيين وراح يلتمس العون من أصدقائه ، وأنفذ الرسل الى مولاه الاقطاعى أمير أنطاكية متضرعا اليه فى مذلة ، وراجيا اياه الرجاء الحار أن يتعاطف معه فى محنته ويخلص الرها من الرق الذى يتهددها ٠

كذلك وصلت أخبار هذه النكبة المروعة الى ملك بيت المقدس ، وتأيدت لديه شائعة حصار الرها ، وثبت عنده ما يلاقيه أهلوها من الأهوال ، واذ ذاك قامت الملكة (مليزند) التى كانت بيدها دفة أمور الحكومة بعقد مجلس من نبلائها ، وكلفت « مناسيس » الكونستابل الملكى وفيليب النابلسى ، و « اليناندوس » صاحب طبرية بالزحف الى الرها على رأس قوة كبيرة من الجند لنجدة الكونت « جوسلين » والأهالى المنكوبين ، ومع ذلك فقد كانت الفرحة تغمر قلب أمـــير أنطاكية للنكبة التى نزلت بالكونت جوسلين ، ولم يدرك مسئوليته ولا الحقيقة القائلة « انه لا ينبغى أن نسمح للكراهية الشخصية أن تؤذى المصالح العامة » ، اذ راح « أمير أنطاكية » يختلق المعاذير فى تأخره عن المبادرة فى ارسال النجدة التى طلبت منه ٠

(٥)

دأب زنكى فى الوقت ذاته على مهاجمة المدينة بلا انقطاع ، ولم يترك وسيلة من وسائل المضايقة والايذاء الا عمد اليها لالحاق المضرة بها ، ولم يدع أى طريقة تؤدى الى زيادة متاعب المواطنين وتساعده على الاستيلاء على البلد الا جربها ، فأرسل عبر الممرات السفلية عمالا يحفرون الأنفاق تحت الأسوار القائمة على أعمدة من الخشب ويشعلون النيران فيها ، فلما أمسكت النار بهذه الدعائم انهار جزء كبير من السور تاركا ثغرة اربى اتساعها على مئة ذراع

تتيح للخصم الدخول منها ، فتم له ما أراد ، فاندفع عسكره من كل الجهات واقتحموا المدينة وحكموا السيف فى جميع من صادفوهم ، لم يستثنوا شيخا لكبر سنه ، ولا ذكرا أو أنثى ، ولم يراعوا وضعا حتى صح فيهم المثل القائل(٤) : « يقتلون الأرملة والغريب ، ويميتون اليتيم » .

هكذا تم الاستيلاء على المدينة وصار حماها مستباحا لسيوف الأعداء ، واذ ذاك فر عنها من سـكانها أكثرهم عقلانية وتوقعا للخطر ، وفر معهم حريمهم وأولادهم ، ولجأوا الى القلعة التى كانت داخل المدينة كما قلنا ، وقد فعلوا ذلك طمعا منهم فى أن يأمنوا بها على أرواحهم ولو لفترة قصيرة ، ولكن تدافع الجموع الغفيرة من الجماهير أفشى الجزع بين الناس الذين هلك الكثيرون منهم وسـط الرعاع المتزاحمين ، وكان من بين الهلكى الذين قضـوا نحبهم على هذه الصورة رئيس أساقفة الرها الموقر جدا « هيجو » وبعض رجاله .

فأما الذين كانوا موجودين فى ذلك الوقت فقد ألقوا بعض اللوم فى وقوع النكبة على رئيس الأسـاقفة ذاته الذى كان فى امكانه أن يبذل على جمع العسكر للدفاع عن البلد بعض المال الذى يكنزه ، لكن شحه جعله يؤثر خزنه فلا ينفقه فى سبيل قومه الهلكى ، فجنى ثمرة بخله ، وكان مصيره مصير العامة ، وسيظل خبره الكئيب يلاحقه الى الأبد ما لم تتداركه رحمة ربه ، وما أشد وقع كلمات الكتاب المقدس(٥) بشأن من هم على نمطه اذ تقول « لتكن فضتك معك للهلاك » .

* * *

كانت الكراهية الرعناء تسيطر على أمير أنطاكية سيطرة دفعته الى التخلى عن مد يد المعونة الواجبة عليه لاخوانه ، وبينما كان

الكونت « جوسلين » ينتظر المساعدة من الأغراب اذا بالمدينة العتيقة تسقط في يد زنكي ·

هاهي ذي الرها التي حافظت على الاسم المسيحي وسلمت من بدع الكفار بفضل تمسكها بتعاليهم الرســـول « تاديوس » وكلماته تكابد الآن رق العبودية المهيمن رغم أنها لا تستحقه ·

وقد ورد في الأخبار أن الرسول توما كان مدفونا في هذه المدينة ، وكذلك الرسول « تاديوس » و « أبجار » الملك الطوباني حاكمها العظيم الذي أورد « يوسيبيوس » القيصري كتابه الى السيد عيسى المسيح في تاريخه الكنسي فيقول « يوسيبيوس » أن « أبجر » كان أهلا لأن يتسلم ردا من المسيح ، ثم يورد كتاب كل منهما الى الآخر ، ويتبع ذلك بقوله : « وانا لنجد في محفوظات مدينة الرها العامة التي حكمها أبجار هذين الخطابين بين الوثائق التي تحتوي على أعمال الملك « أبجار » وهما محفوظان هناك منذ أحقـــاب بعيدة » ·

ان هناك الكثير مما يمكن أن يقال عن هذا الموضوع ، لكن هيا بنا لمواصلة التاريخ ·

(٦)

في أثناء السنة الأولى من حكم الملك بلدوين (الثالث) احتل الترك واحدا من معاقلنا الحربية في مكان اسمه وادي موسى(٦) في منطقة سورية الجنوبية فيما وراء الأردن ، وقد تم استيلاؤهم عليه بموافقة السكان القاطنين في تلك الناحية فهم الذين استدعوهم · ويقع هذا المكان قرب النبع الذي فجر موسى ماءه من الصخرة

فشرب منه بنو اسرائيل ، وارتوت منه أيضا دوابهم وذلك حين شكوا اليه أنهم موشكون أن يموتوا ظما ٠

فلما ذاع خبر استيلاء العدو على هذه القلعة وفتكه بالمسيحيين النازلين بها نهض الملك رغم شدة صغر سنه وجمع العسكر من كافة أرجاء البلاد وسار بهم عابرا الوادى الشهير الذى يوجد به الآن البحر الميت والمعروف أيضا باسم « بحيرة الأسفلت » ، وانطلق صاعدا الاقليم الجبلى لبلاد البتراء العربية فى أرض « مؤاب » ، ومضى من هناك فاجتاز ناحية الكرك المعروفة الآن عادة بأرض « مونت ريال » حتى بلغ هدفه ، وكان خبر تقدمنا قد بلغ سمع سكان الاقليم ففروا بنسائهم وأولادهم الى القلعة التى كان تحصينها يحمل من يراها على الظن بأنها منيعة على من يرومها ، وضاع عبثا ما حاولته قواتنا من بذلها جهد أيام طويلة وقفتها أمام ذلك الموضع ، ولم ينفع رجالنا ما ألقوه من القذائف الحجرية وما أطلقوه من السهام التى كانت تنهال كصيب من المطر ، ولا ما استعملوه من وسائل الهجوم الأخرى ، وأخيرا تبين للصليبيين أنهم لن يستطيعوا الاستيلاء على ذلك الموضع بفضل استحكاماته الحربية ، فلم يجدوا بدا من اللجوء الى وسائل وخطط أخرى ٠

كانت الناحية كلها مكسوة بأشجار الزيتون ومزارعه الفسيحة التى تغطى سفح الأرض فتبدو أشـــبه ما تكون بالغابات الكثيفة المتشابكة ، وكان سكان هذه المناطق يعيشون كما عاش أسلافهم من قبل على ما تنتجه هذه المزارع التى لو توقفت عن الانتاج لضاع مصدر حياتهم ، ومن ثم عزمنا على اجتثاث هذه الأشجار وجعلها طعمة للنيران ، وكان الظن عندنا أن يعمد الأهالى الجازعون من دمار بساتين زيتونهم الى أحد أمرين : اما أن يستسلموا لنا أو يقوموا بطرد الترك الذين اعتصموا بالقلعة ثم يسلموها لنا ٠٠ وآتت هذه الخطة أكلها اذ ما كاد الأهالى يرون تساقط أشجارهم

الغالية على نفوسـهم حتى غيروا خطتهم فعرضوا على الملك أن يسلموه القلعة ان سمح للترك الذين استنجدوا بهم بالرحيل سالمين ، والا يعاقبهم الملك هم أنفسهم وذويهم بالموت جزاء مسلكهم الشائن ٠

وحينذاك تسلم الملك القلعة وأقام بها حامية وزودها بالمؤونة والسلاح ٠

وهكذا أتم الملك بنجاح أول حملة له بعد اعتلائه العرش ، وعاد منصورا هو وجيشه الى بلدهم ، ورجعوا سالمين آمنين فى انفسهم وأرواحهم ٠

(٧)

شمخ (عماد الدين زنكى) بأنفه تيها لما أحرزه من النصر الرائع باخضاعه مدينة الرها فبادر فى الحال الى بذل جهده فى حصار قلعة « جعبر »(٧) الواقعة على نهر الفرات ، وبينما كان قائما على حصارها اذا بحاكم البلد يتآمر مع بعض غلمان زنكى وخاصة خصيانه ، واغتنموا ليلة أفرط فيها الأمير زنكى فى الشراب حتى بلغ السكر به مبلغا لم يكن يبلغه فى العادة ، فاستلقى فى فسطاطه ، فوثب عليه بعض خاصـته فذبحوه ، فلما جاءنا نبأ مصرعه قال أحد رجالنا معلقا : « ياله من نبأ سعيد مبهج ٠٠ ان قاتلا مذنبا عرف بظمئه للدماء قد أصـبح هو ذاته ملطخا بدم نفسه » ٠

ولجأ القتلة الى حاكم المدينة المحاصرة فأخفاهم وراء أسوارها حسب اتفاق بينه وبينهم ، وبذلك نجوا من انتقام أتباع الراحل القتيل ٠ أما جيش زنكى فقد فر على بكرة أبيه حين حرم من معونة مولاه وحمايته له ٠

وترك زنكى من بعده ولدين اســـتقر أحدهما فى الموصـــل بالمشرق ، واستقر الآخر فى حلب واسمه نور الدين محمود الذى كان رجلا ألمعيا فطنا ، يخشى ربه فى نظر قومه ، وقد حالفه حسن الطالع فتوسع فيما ورثه عن أبيه ·

(٨)

وحدث بعد فترة وجيزة من وقوع هذا الحادث ، وفى السنة الثامنة من حكم « بلدوين » الثالث أن قدم الى بيت المقدس(٨) وال تركى مع بعض كبار خاصته ، كان قد ساء ما بينه وبين مجير الدين ملك دمشق حتى استحق غضبه عليه ، وزاد على ذلك بأن حل عليه سخط الحاكم (معين الدين أنر) الذى كان سلطانه فى بلاد الدماشقة أعظم من سلطان صاحبها ذاته ، وقد أكد هذا الوالى (التركى الطنطاش) للملك بلدوين ولأمه (مليزند) أنه سوف يسلم لهما مدينة بصـــرى التى تحت حكمه ومعها حصـــن صلخد(٩) أن هما أجزلا له العوض لقاء تسليمهما مدينة « بصرى » التى كانت تعتبر عاصمة منطقة بلاد العرب الأولى التى تسمى فى اللسان الدارج باسم « بصرى » ·

ويقال ان هذا الرجل النبيل واسمه « الطنطاش » كان أرمنى المولد ، تميز بطول القامة وجمال الطلعة ، وكان كل ما فيه يشـــير الى طبيعته البطولية ·

* * *

حينذاك عقد مجلس عام من النبلاء الصليبيين بســطت فيه أسباب زيارة هذا الرجل(١٠) العظيم ، ونوقشت كل صغيرة وكبيرة من اقتراحه الذى تقدم به مناقشة دقيقة ، فاتفقوا أخيرا باجماع الآراء على وجوب منحه تعويضا ضخما مرضيا له ، وأن يستنفر

الناس الى حملة ترسل الى بصرى ، ورأوا أنه اذا تم عن طريق هذا الرجل ادخال « بصرى » الى ممتلكاتنا وضمها الى الاسم المسيحى على الدوام فان مثل هذه الاضـــافة فى المملكة ستكون مقبولة كل القبول عند الرب ، ومن ثم تم بين الطرفين اتفاق ارتضاه كل منهما ، وصدر الأمر الى المنادين أن ينادوا بتجمع كل عسكر المملكة فى الحال ، وبعد أن سألوا الله المعونة حمل الملك ونبلاؤه صليب الخلاص المانح الحياة وزحفوا شطر « طبرية » حيث ضربوا معسكرهم قرب الجسر الذى تنفصل عنده مياه الاردن عن البحر ٠

وكان بين الملك « بلدوين » الثالث و « أنر » تحالف وهدنة مؤقتة منذ أيام « فولك » والد الملك الحـــالى ، ومن ثم كان من الضرورى أن يعلن الحاكم رسميا حتى يكون عنده مبرر شرعى حسب عادة البلاد لجمع العساكر والاستعداد للمقاومة ، والا بدا الملك وكأنه قد دخل أرضه على غرة منه ومن غير اعلامه اعلاما رسميا ، وهو أمر يخالف قانون المعاهدات ، ومن ثم أرسلت الرسل الى « أنر » ، ولكنه كرجل فطن لبيب أرجأ الاجابة بعض الوقت حتى انقضى شهر انصرف خلاله انصرافا تاما لضمان المساعدات تأتيه عن طريق المفاوضات ، كما ضمن المال من كل زعماء بنى جنسه ، سواء منهم من جاوره ومن بعدت داره عنهم ، فلما تجمع عنده العدد الكبير من شتى النواحى أرسل الرسالة التالية الى الملك ونبلائه يقول لهم فيها :

« لقد خالفتم شروط الاتفاق الذى ارتضيتموه ، اذ رحتم تستعدون لدخول أرض مولاى ، ورحت أنت أيها الملك تبسط حمايتك على تابعه الخـــارج عليه (الطنطاش) الذى لا يستحق الرعاية ، والذى يعمل عكس ما تمليه عليه يمين الطاعة التى اقسمها له ، واننا لنتوسل الى الملك المعظم فى ضراعة أن يكف عن

هذا العمل المغاير للعدل ، وأن يحافظ على روح الاتفاق السابق عقده بيننا وبينه حتى يبقى العهد سليما ، واننا لمستعدون بكل اخلاص أن نرد على الملك كل ما انفقه من أموال صرفها فى تجهيز هذه الحملة » ٠

فكان رد الملك على هذه الرسالة ما يلى بعد اســـــتشارة الجميع :

« اننا غير عازمين أبدا على أن ننقض بأى حال من الأحوال نصوص الاتفاق الذى أبرمناه معكم ، لكن لما كان هذا الرجل النبيل (الطنطاش) قد جاءنا ليناقش معنا بعض المسائل بروح ودية ، فان الشرف يأبى علينا أن نخذل رجلا وضع أمله فى مملكتنا ، ومع ذلك فاننا قانعون - اذا سمحتم لنا - أن نرده آمنا الى المدينة التى تخلى عنها لصالحنا ، وليفعل به مولاه - بعد رجوعه الى قلعته - ما يشاء حســـب قوانين البلاد ، وليجازه بالعوض الذى يراه أهلا له ، أما نحن فلن نصيب صديقنا ملك دمشق بأى اذى ، سواء فى خروجنا او رجوعنا حســـب اتفاقنا ، ملتزمين فى ذلك بعهد الله » ٠

* * *

كان « أنر » هذا رجلا كبير الحكمة محبا لشعبنا ، وكان له ثلاثة بنات زوج احداهن بملك الدماشقة الذى اشرنا اليه حالا ، وزوج الثانية من نور الدين محمود بن زنكى ، وأما الثالثة فقد زفها الى فارس عظيم هو « مارجار »(١١) ٠

وكان قلب « أنر » ينطوى على ما فيه خير للمملكة ، لا لأنه كان والد زوجة أحد اقارب الملك فقط بل وأيضا لما طبع عليـــه من رجاحة العقل ، غير ان الملك كان متوانيا بطبعهمكبا علىمعاقره الخمر، مسلما زمامه للهو ، ولا يعنيه غير ملذاته ، كما كان غارقا الى أذنيه فى الفجور ٠

وكان « أنر » كما ذكرنا قد بذل جهودا جبارة ليكسب مودة الصليبيين مصطنعا شتى أساليب التودد التى تؤدى الى كســـب الأصدقاء ، وسواء أكان فى سلوكه هذا صادرا عن نية صادقة واخلاص للغرض الذى يسعى اليه ، أو كان أمرا فرضـــته عليه الضرورة وألجأته اليه الظروف المحيطة به على الرغم منه فذلك أمر متروك تقديره لذوى الفطنة ، وسواء أكان دافعه هو هذا الأمر أو ذاك الا أنه كان يشعر نحو ختنه نور الدين بنفس الشك الذى كان يساوره من قبل تجاه أبيه عماد الدين زنكى ، اذ كان يخاف أن يقوم نور الدين فيخلع الملك الذى كان هو الآخر ختنا له ، وان كان صاحب دمشق هذا رجلا جاهلا تمام الجهل ، فان تم ذلك ضاعت مقاليد السلطة من يده هو نفسه ٠

كان هذا هو السبب الحقيقى الذى حمله(١٢) على أن يعتبر صداقتنا ضرورة ملحة للحفاظ على مصالحه ، ومن هنا كان سعيه الحثيث بكل الوسائل لضمان اســـتمرار هذه المودة بيننا وبينه ، ويبدو أن هذا الرجل الفطن كان على جانب من بعد النظر فى التنبؤ بما سوف يقع ، فقد وقع الذى كان يخشاه ، اذ ما كادت توافيه منيته حتى عمد نور الدين بموافقة الدماشقة ــ الى خلع الملك الحاكم عنوة واستيلائه هو ذاته على السلطة ٠

ومن أجل هذا أجهد (أنر) نفسه فى اخلاص لرد ما أنفقه الملك الصليبى على تجهيز الحملة ، كما صدق فى اعادته الى بلده

سالما لم يصبه أذى أو تلحقه مضرة ، ولاشك أنه كان لابد له أن ينحونحوا أقل عداء تجاه الملك وجنده فى هذه المسألة لو أنه استطاع أن يكبح جماح حلفائه الذين استدعاهم من الخارج ، ذلك لأنه توفرت لدينا الشواهد الجمة الموثوق بها التى تقدم الدليل القاطع على اخلاصه ووفائه وحزمه فى كثير من الأمور ٠

(٩)

كان من بين الرسل الذين جاءوا بهذا التقرير شخص معين اسمه « برنارد فاشيه » الذى كانت تربطه بالملك وشيجة قربى ورحم ماسة ، فلما وقف الناس على هذه الحقائق أخذوا منذ لحظتهم هذه يرمون « برنارد » علانية بالخيانة ويعدون كل من يحاول ثنيهم عما هم بصدده واعاقتهم عن الزحف على دمشق خائنا للصليبيين ، وتعالى ضجيجهم ، وأخذ من ليسوا فى العير ولا النفير يطالبون بمتابعة الزحف على هذه المدينة العظيمة ، ويصرون على ألا ينصرفوا حتى يتم لهم الاستيلاء عليها ، مع أن الواجب كان يفرض عليهم أن يعترفوا بالفضل لذلك الرجل الشريف الذى أدى خدمة للمسيحية سوف تظل مذكورة على مدى العصور ، وكان الواجب يقتضيهم أيضا تنفيذ اقتراحه بحذافيره بكل اخلاص وأمانة ، اذ لولا اقتراحه هذا لظلوا يناضلون حتى الموت ٠

وتغلبت ارادة الغوغاء وسط هذا الصخب العالى ، فضرب بمشورة أصحاب العقول الراجحة عرض الحائط ، ومن ثم أعدوا حوائجهم ، وقوضوا خيامهم ، ووجهوا زحفهم نحو مدينة دمشق ، فلما فرغوا من اجتيازهم « كهف رؤاب » أصبحوا فى السهل المسمى « بالسوق الذى جرت عادة العرب والشرقيين على عقد أسواقهم التجارية السنوية به ، وبدأ جيشنا يواجه فى هذه الناحية جموعا كثيفة من عسكر العدو ، وكانت هذه الجيوش من الكثرة بالدرجة

التى حملت حتى من كانوا اشد القوم الحاحا على الزحف يرحبون بالرجوع من حيث جاءوا ما أمكنهم الرجوع ، لكن على الرغم من فزع عسكرنا من روعة نظام العدو الا أنهم أخذوا يستعدون للقتال فى لحظتهم هذه ، غير أن الملك نزل على مشورة أهل الخبرة بفنون الحرب فأمرهم أن يبدءوا أولا بنصب الخيام ، فتم الأمر على الصورة التى أمر بها ، ثم أراح الجند أبدانهم المرهقة بعض الوقت بقدر ما سمحت به ظروفهم القاسـيـة ، وانقضى الليل دون أن تذوق جفونهم الكرى لانشغالهم بالحراسة ، كل ذلك وعسكر العدو آخذ فى التزايد زيادة جاوزت الحد ، حتى أحدقوا بقواتنا وهم على تمام الثقة من أن لن يطلع الغد حتى يصبح الصليبيون فريسة هينة لهم يأخذونهم بالأيدى أخذهم أقل العبيد شأنا ٠

لكن لما كان رجالنا أهل فطنة فقد ظلوا متيقظين في حراستهم المستمرة ، ولم يقصروا فيما يمليه عليهم الواجب ، سالكين في ذلك مسلك الأبطال الصناديد ، حتي اذا طلع النهار عقدوا من بينهم مجلسا قرروا فيه التقدم الي الامام ، اذ لم يكن الإرتداد أمرا مشينا فحسب ، بل كان أيضا مستحيلا من الناحية الواقعية لأن العدو كان محدقا بهم تمام الاحداق من كل جانب ، معطلا كل حركة يقدمون عليها فى كلتا الحالتين ٠

غير أن رجالنا تسلحوا بالشجاعة فشقوا فى النهاية لأنفسهم طريقا خلال صفوف الأعداء وتقدمت قواتنا نحو هدفها صفا واحدا وان اتسم تقدمهم بالبطء الشديد ، لأنهم كانوا مثقلين بما عليهم من الزرديات والخوذ والدروع ، وزاد من هذا الابطاء كثرة جند الخصم المحيطين بهم [٢٠]

أما فرق الخيالة فكانت تتقدم بسرعة لعدم وجود أمتعة معها تثقلها ، ولكنها كانت مضطرة أن تجارى اخوانها المشاة فى بطء

الحركة حتى لا تختل الصفوف ، وحتى لا تواتى الفرصة العدو فيشق طريقه بين جموعها ، فكان لابد أن يكون السير على نسق واحد ٠

وأظهر الفرســـان رعاية شـديدة للمشاة حتى انهم كثيرا ما ترجلوا عن جيادهم وشاركوهم متاعبهم ، بل لقد حملوا المنهوكين منهم حتى تخف مشقة السير عليهم ٠

* * *

فى هذه الأثناء كان العدو مستمرا فى مضايقة الجيش ورميه بسيل لا ينقطع من السهام ، ويجاهد فى تمزيق صفوفنا اذ يضاعف محاولاته ، لكن كان الصليبيون يزدادون تماسكا وتجمعا كلما زادهم العدو تهديدا ، وساروا فى طريقهم وقد بارحهم الخوف وازدادت حماستهم اتقادا ٠

على أنهم اشرفوا على المشقة التى ما بعدها مشقة حين اشتد بهم الظمأ الممض ، وزاد من سعاره صعوبة الزحف وحرارة الصيف الشديدة ، لاسيما وأن سيرهم كان عبر أرض قاحلة انعدم فيها الماء لخلو هذا الاقليم كله من الآبار ، وكان الأهالى اذا حل الشتاء جمعوا مياه الأمطار فى خزانات كان بعضها من صنع الطبيعة ، وأخرى صنعوها هم بأيديهم ، على أن هذه الخزانات لم تعد فى هذا الوقت بذات قيمة لأن أسراب الجراد كانت خربت الاقليم ، وجاوزت هذه الأسراب كل تصور حتى فسدت الخزانات وأسنت المياه بسبب تعفن ما بها من الحشرات الميتة ٠

كان الاقليم الذى يسير فيه رجالنا يسمى « تراخونيتس »(١٣)، وقد ذكره لوقا فى انجيله(١٤) اذ قال : « وفيليبس أخوه كان رئيس ربع على أيطورية بكورة « تراخونيتس » وأكبر الظن عندى أن هذا اسم مشتق من « التراخون » لأن الكهوف والمغارات الموجودة تحت سطح الأرض والموجودة فى هذا الاقليم تسمى بالتراخونات ، ويكاد

جميع سكان هذه الناحية يعيشون فى مغارات وكهوف يتخذونها بيوتا لهم ٠

(١٠)

اجتاز الصليبيون بعض هذا الأقليم فى ظروف بالغة الخطورة حتى اذا كانت آخر ساعة من النهار وصلوا الى موضع كان يعرف قديما باسم « ادرعات » أما الآن فيعرف عادة باسم مدينة « برنارد دى تامب » وهى احدى المدن المطرانية التـــابعة لمدينة بصـــرى الكبيرة ٠

وكان سكانها قد انضموا الى قوات العدو ومن ثم كابد رجالنا مشقة أفدح من أية مشقة كابدوها من قبل ، ذلك أنهم كانوا اذا أرادوا الحصـــول على الماء من الصهاريج المفتوحة لم تعد اليهم دلاؤهم التى أدلوها فيها ، اذ يعمد العدو المختفى فى الكهوف التى تحت الأرض الى قطع الحبال المربوطة بها ، فتضاعف ظمأ رجالنا بسبب فشلهم فى أملهم الذى أجهدوا أنفسهم من أجله طويلا ٠

ولقد ظل رجالنا أربعة أيام سويا لم يذوقوا فيها للراحة طعما لمكابدتهم العذاب طول الوقت ، ولم يكونوا يجدون لحظة فراغ حتى فى الليل تنال فيها أجسادهم ما تنشده من الراحة هنا ، وبينما كانت جموع العدو تتزايد يوما بعد يوم كانت أعدادنا فى تناقص مســتمر بسبب مقتل البعض منهم واصابة البعض الآخر بجراحات مميتة ، وكان هناك غير هؤلاء وهؤلاء رجال آخرون استبد بهم الفزع وداخلهم اليأس فتواروا وراء الأمتعة ، أو اختفوا بين الخيول ودواب الحمل ، وتصنعوا الوهن حتى لا يرغمهم قومهم على الخروج فيقاســـون ضراوة هجمات العدو عليهم ، وأخذت رخات السهام الكثيفة وغيرها من القذائف تتساقط على قواتنا كالمطر فى غزارة ، حتى لقد بدت

جموع الناس والحيوانات وكأنها مغطاة بالرماح ، ولشد ما كان يستلفت النظر دأب العدو من غير انقطاع فى الهجوم ، وكيف كان الصليبيون يقاومونه مقاومة باسلة لا يفل غربها ، ومع ذلك فقد استمر رجالنا يرمون بالأقواس والنشاب ، لكن قذائفنا كانت أهون من أن تصيب العدو بأذى وذلك لعدم وجود عائق يعوق قدرته على الحركة ٠

واستمر الصليبيون فى سيرهم وقد أحدقت بهم الأخطار من كل جانب ، حتى اذا كان اليوم الرابع صاروا قاب قوسين أو أدنى من غايتهم ورأوا المدينة رؤيا العين ، وتمكنوا ولكن بعد صعوبة كبرى من طرد العدو بالقوة والاستيلاء على المياه التى كانت تتدفق سلسلا هادئا بين الصخور ، فضرب الجند معسكرهم على مقربة منها ، ومنحوا انفسهم فترة قصيرة من الهدوء والراحة الجثمانية ، ومن ثم نعم الصليبيون هذه الليلة بشىء من الاستجمام مع تشوقهم الحار الى طلوع الغد ٠

لكن حدث فى هدأة الليل وفى منتصفه أن تسلل من المدينة سرا رسول يحمل أخبارا كريهة واتخذ طريقه عبر خطوط العدو الى معسكرنا ، وصرح أن معه كتبا الى الملك لا يجوز أن يطلع عليها أحد سواه ، وتوسل الى القوم أن يأخذوه حالا اليه فأدخلوه عليه ، فاستدعى الملك النبلاء وفيهم السيد النبيل(١٥) حاكم المدينة السابق الذى كان السبب فى أن نصل الى ما نحن فيه الآن من مأزق حرج ، واذ ذاك أماط الرسول اللثام عما يحمل الا وهو أن زوجة هذا النبيل قد غدرت بالمدينة وأسلمتها الى التركمان الذين أدخلوا فيها قواتهم ، واستولوا على جميع معاقلها بما فى ذلك القلعة ذاتها ، وانفردوا بوجودهم فيها ٠

أزعج نبأ هذه الكارثة رجالنا فعقدوا مجلسا انتهوا فيه الى أن خير الطرق التى يسلكونها انما تتمثل فى رجوعهم على جناح السرعة الى بلدهم دون نظر الى ما يتهددهم من الخطر ، غير أن رهطا من زعماء المملكة اجتمعوا سرا بالملك وأشاروا عليه بامتطاء جواد « جون جومانى » المعروف بأنه يفوق جميع جياد الجيش فى عدوه وقوة احتماله ، وأن يعمل الملك على سلامة نفسه فينطلق وحيدا يحمل صليب النجاة فى يده ، والحق أنهم لم يتقدموا اليه بهذه النصيحة الا بعد يأسهم من قدرتهم على الرجوع ، والا بعد أن أيقنوا أن الجيش بأكمله هالك بعد قليل ، لكن الملك رفض النزول على هذه النصيحة فى اباء وشمم جديرين بمن كان ملكا ، على الرغم من شدة صغر سنه ، فتجلى لهم حينذاك ما سيكون عليه فى سنواته المقبلة ، وأوضح لهم أنه لو أنقذ حياته هو وحده دونهم لظل على الدوام يزدرى نفسه ، لأن هذه الصورة تنطوى على هلاك شعب وهب نفسه للرب ٠

وعلى الرغم من أن هذه النصائح كانت صادرة عن حب صادق الا أن الملك رفضها وأنكرها ، فسلكوا اذ ذاك طرقا أخرى وأعدوا العدة للارتداد ، ايمانا منهم بأن الهلاك المبين يترصدهم ان هم زادوا فى تقدمهم أكثر من ذلك ، وشعروا لأول مرة أن موقفهم تضاعف صعوبة ، فرث حبل رجائهم وأيقنوا ضياع جهودهم أدراج الرياح ، وشعروا أنه اذا كانت متاعبهم حتى الآن موجعة كل الايجاع وغير محتملة وأن ما لاقوه من شدة يعادله ما يلاقونه بعد ذلك ، الا أن مثابرتهم على متابعة نضالهم شدت من عزائمهم ، ومن ثم راودهم الأمل القوى فى الاستيلاء على المدينة ، وقد ساعدتهم هذه التوقعات التى لازالت فى ضمير الغيب صمودا ، لكن سرعان ما تبين لهم أن أملهم كان برقا خلبا ، وأنه ينبغى عليهم التخلى عن مشروعهم ، لذلك نودى بالعودة ، فتجهزوا على بكرة أبيهم للقفول الى ديارهم ٠

(١١)

حين طلع فجر اليوم التالى جاء نور الدين من المدينة التى ذكرناها يسعى مع قوم من الترك لا يحصيهم العد ممن انضموا الى جيشه ، وكان حموه قد استنجد به ليعينه ، الا أن الصليبيين كانوا قد بدءوا رحلة العودة حسبما تواصوا من قبل ، فما كاد الترك يرون هذه الحركة منهم حتى أسرعوا نحوهم مرسلين صرخاتهم العالية فى محاولة منهم لمنعهم من العـــودة والارتداد ، فأورت الصعاب المحدقة برجالنا زناد حماستهم ، فاندفعوا مصلتين سيوفهم وشقوا لأنفسهم طريقا بين صفوف أعدائهم المتلاصقة أمامهم ، غير مبالين بالموت يتخطف أرواح الكثيرين منهم ٠

وصدرت الأوامر بوضع القتلى الصليبيين على ظهور الجمال وغيرها من دواب النقل حتى لا يراها العدو فيعرف كيف أفحش القتل فينا فيقوى ساعده ، ويشتد أزره ٠

كذلك أمر الصليبيون بحمل ضعافهم ومن أثخنتهم جراحهم على دواب الحمل حتى لا يحسب أحد أن أحداً من الصليبيين قد قتل أو أصيب بجرح ، ففعلوا ما أمروا به ٠

بل لقد صدرت الأوامر أيضا الى العجزة أن يستلوا سيوفهم ليوهموا الناظرين على الأقل بما يوحى بما هم عليه من قوة ، فاشتدت الدهشة بالعدو (حتى بأذكى رجاله) من الا يكون بين الصليبيين قتيل ولا جريح بعد تلك السهام الهطالة ، والمعارك العديدة ، والظمأ الممض ، والغبار الكثير ، والحرارة اللافحة التى لا تطاق شدتها ، وقالوا لأنفسهم أن لابد وأن يكون هؤلاء القوم قد خلقوا من الحديد والا ما استطاعوا صبرا على هذا الضغط الشديد عليهم يتحملونه

دون أن يبدو عليهم أى أثر ، فلما أبصر العدو أن جهوده كلها ذهبت أدراج الرياح لجأ الى حيلة أخرى هى اضرامه النار فيما يكسو هذا الاقليم من الحشائش الكثيفة والأشواك الجافة وغيرها من الأعشاب ، هذا الى جانب ما حصدوه من الغلال التى نضجت واستوت على عودها ، وسرعان ما حملت الريح السنة هذه النيران نحونا ، فابتلينا بها شر البلية ، كما ضاعف من مصائبنا اذ ذاك أعمدة اللهب المتصاعدة وسحب الدخان المتكاثفة التى صحبت هذا اللهيب ، فاستغاث الكل بالموقر « روبرت » رئيس أساقفة الناصرة وتضرعوا اليه والدموع تملأ مآقيهم قائلين : « نستحلفك يا أبانا بالصليب الواهب الحياة الذى تحمله فى يدك ، والذى نؤمن ايمانا جازما برفع مخلصنا عليه ، أن تصلى من أجلنا ، وأن تسأله أن ينقذنا من هذه البلايا التى لم نعد قادرين على احتمالها » .

وكانت الريح قد حولت الدخان نحونا حتى اسـوـدت منه الوجوه اسودادا صيرها كسحنة الحداد وهو ينفخ الكير ، وتعاون سعير اللهب وقيظ الصيف وشدة الظمأ على أن يبلغ الضيق بنا حدا لم نعد قادرين على احتماله ، فلما سمع هذا الرجل التقى حبيب الرب عويلهم وتوسلاتهم بلغ التأثر به غايته ، فرفع صليب الخلاص فى خشوع تام ووجهه نحو النار الملتهبة التى كانت مندفعة نحوه بكل قواها ، وطلب النجدة من العلى الذى سرعان ما أدركتنا رحمته الالهية ، فما انقضت لحظة واحدة حتى انحرفت الريح عنا ، وأصلت أعداءنا الترك شواظا من نار فحاق بهم مكرهم السيىء الذى أرادونا به ، فارتد عليهم مكرهم مدمرا اياهم ، حتى لقد وقفوا فى موضعهم مشدوهين من هذه المعجزة العجيبة الفذة فى نوعها ، والتى كانت فى الواقع بسبب أيمان الصليبيين الذين استطاعوا بفضل صلاتهم أن يستجيب لهم الرب فى سرعة ، وانشغل الترك بالخطر الذى يتهددهم مما أتاح لرجالنا قسطا من الراحة والهدوء .

على هذه الصـــورة كان نزول هذه الأهوال التى لا تحتمل بجيشنا ، وأدرك كبار النبلاء وأصحاب التجربة الواسعة انه لم يعد فى قدرة الناس طاقة على تحمل المزيد ، فمضوا الى الملك يحثونه على ارسال مبعوث الى « أنر » فى طلب الصلح ، وكانوا مستعدين لقبول أى شروط مادامت شروطا تساعد الجيش الصليبى على العودة الى دياره ، واختير لهذه المهمة رجل مغموز السيرة ، كان قد قام فى أمر كهذا الأمر من قبل فخان شعب المسيح ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يعلمون بخبره هذا الا انهم وكلوا اليه هذه المهمة لاتقانه اللسان التركى ، ويقال انهم سألوه أن يصـــدقهم فى انجاز هذا الموضوع ، فقال لهم « ان الشكوك التى أرمى بها ان هى الا فرية افتريت على زورا وبهتانا ، ومع ذلك فانني ماض لما ندبتمونى له ، وأدعو الرب الا يردنى اليكم سالما وأن اهلك بسيف العدو ان كنت مذنبا حقا » .

لقد حكم هذا الشقى على نفسه بالموت ، وسرعان ما حق عليه قضاء الرب ، فقد هلك على يد العدو قبل أن يصل الى الترك وينجز سفارته .

* * *

ولقد شارك فى هذه الحملة أربعة اخوة من الزعماء العرب البارزين بعساكرهم ، هم أبناء الوالى العربى « موريبيل »(١٦) العظيم ، جاءوا بجنودهم فشنوا غاراتهم العنيفة المســتمرة على أجنحة جيشنا ، غير أن عسكرنا استجابوا للأوامر الصادرة اليهم فلم يجرؤوا على الخروج من صفوفهم للتصدى لهم لأنهم لو فعلوا ذلك لكان ما فعلوه كسرا لوحده الصف وخروجا على الأمر القتالى، وان ذاك يوقع بهم أشد العقاب باعتبارهم فارين من مواقعهم .

وكان من اتباع هذا التركى (الطنطاش) الذى معنا فارس من الفرسان لم يستطع صبرا على ما يرى ، وتحرق شوقا لتخليصنا من هذا الازعاج ، فخرج مستهينا بحياته غير عابىء بالأمر الذى ينهى عن الخروج وغمز جواده غمزة اندفع اثرها فى شجاعة كبيرة ، وطوح بحربته التى فى يده فاستقرت فى صدر أحد الاخوة الأربعة ثم عاجله فاجهز عليه بسيفه وهو بين رجاله ، وألقى بالجثة الهامدة على الأرض ثم عاد الى صفوفنا لم يمسسه أذى ٠

وتجمع فى الحال حشد كثيف حول الزعيم الصريع فلما تبينوا انه لفظ أنفاسه وأسلم روحه البائرة اجهشوا بالبكاء عليه فى صوت عال ، وانســـابت الدموع هطالة من مآقيهم معبرة عن حـزنهم العميق ٠

أما رجالنا فكانوا أسعد ما يكونون بما جرى ، وتشــوقوا لمعرفة اسم الرجل الذى عرض نفسه للتهلكة حتى اســتحق الذكر الخالد ، فتبينوا أنه غريب فيهم ، وأظهروا استعدادهم لمســامحته على خروجه عن القواعد النظامية المرعية ، والتمسوا له العذر فيما فعل فقالوا انه لا يعرف لساننا ، ولم يفهم النداء العام ، ومن ثم فقد حظى بالعفو التام رغم أنه مما لاشـــك فيه أنه نهج نهجا مخالفا لقواعد النظام الحربى ، ولكن العمل الذى نهض به عمل جـــدير بالثناء ، لا لأنه كان صوابا ولكن لما تمخض عنه ٠

بهذه الطريقة اضطربت صـــفوف العدو فى هذه الناحية الفسيحة ، واصبح جيشنا قادرا على التحرك فيها حرا ثم مالبث أن استولى عليها ، فاستعاض بهذا الاستيلاء عما قاساه من الأهوال ، وظل سائرا بضعة أيام من غير انقطاع حتى جاءوا الى « كهف رؤاب » ، ولما كان الموضع شديد الضيق وكان اجتيازه من الخطورة بمكان فقد صدر أمر القادة بوجوب تجنبه ، فلما لاحظ « أنر » نائب

دمشق أن الملك كان يقود جيشه تجاه ذلك الوادى المشار اليه بعث اليه رسولا من ناحيته يقول له انه يسعده أن يدعوه الى وليمة فيما وراء هذا المكان أن قبل الدعوة ، لأنه يعرف أن الجيش يكابد نقصا فى المؤونة منذ بضعة أيام · غير أننا لا ندرى أكان « أنر » فى دعوته هذه صادرا عن نية صادقة نحو الصليبيين أم أن ذلك كان حيلة منه لارغام الجيش الصليبى على المسير فى الدروب الضيقة والوديان الشديدة الخطورة ، ولما كان من الطبيعى أن ينظر المرء الى كل عرض يقدمه العدو (ولو كان طيبا) بعين ملؤها الريبة والشك فقد تقرر بالاجماع أن يواصل الصليبيون زحفهم عبر الطريق الأعلى الذى كان أكثر استواء وأقل خطورة ·

لم يكن عند رجالنا مرشد يهديهم طريقهم فى الاقليم الذى لابد لهم من اجتيازه ، لكن ظهر أمامهم فجأة فارس لا يعرفونه وقد امتطى صهوة جواد أبيض وراح يخطر أمامهم وعليه درع وزرد من حديد وقميص يصل الى مرفقيه ، وفى يده بيرق أحمر ، فسار بهم هذا الفارس الذى كان كأنه ملاك الرب عبر طريق كان أقصر الطرق المؤدية الى مياه لا يدرى أحد عنها شيئا ، وأرشدهم الى أحسن الأماكن وأكثرها ملاءمة لنصب مخيماتهم ، وكانت هذه الرحلة تستغرق عادة من الحملة خمسة أيام حتى تصل الى الكهف، ولكنهم تمكنوا بهداية هذا القائد من الوصول الى « جدارا » فى مدى ثلاثة أيام فقط ·

(١٣)

وتقع « جدارا » هذه فى المنطقة المسماة بالمدن العشر التى ورد عنها فى انجيل « القديس مرقص »(١٧) ثم خرج ايضا من تخوم صور وصيدا وجاء الى بحر الجليل فى وسط حدود المدن العشر » ·

وهذه الأرض ـ كما يستدل من اسمها ـ تشتمل على عشر مدن هى : « هيبوس ، وبيلا ، وجدارا ، التى ذكرناها حالا وسبعا أخريات ، وتقع هذه المدينة الأخيرة على التخوم الفاصلة بين أرض العدو وأرضنا ، وحدث حين بلغتها طلائع كتائبنا أن عاود الترك الغارة العنيفة على مؤخرتنا كأنما قد استولى عليهم غضبهم الشرير، لكن سرعان ما تبين لهم عبث جهدهم وذهابه أدراج الرياح فقد صار الصليبيون فى بلادهم ، وحينذاك فضوا صفوفهم وشـــرعوا فى الرجوع على بكرة أبيهم الى ديارهم بعد أن أنهكتهم أهوال الدخان، ومسهم لفح الحرارة ، وأعياهم الارهاق ، وقد انقضت هذه الليلة على رجالنا فى هدوء غير مألوف ، فأخذت أجسادهم المنهكة قسطا من الراحة ، ونعموا بالطعام الذى كانوا فى مسيس الحاجة اليه ، حتى اذا طلع صباح اليوم التالى تابعوا زحفهم الى طبرية ٠

ويجمع الذين لازالوا يعون فى ذاكرتهم هذا الحادث أنه لم يكن معروفا اسم قائد(١٨) هذا الزحف الذى ما ان يضرب الجيش مخيماته حتى يختفى عن العيون ولا يعود أحد يرى له أثرا فى أى ناحية من نواحى المعسكر ، لكن ما أن يطلع الصبح على الكون حتى يعود ثانية ليقود الجيش فى زحفه ، ولا يذكر أحد ممن لازال حيا حملة شاهدت هذه الحملة فيما اكتنفها من الأخطار طول وجود اللاتين فى الشرق ، ولا رأوا لها مثيلا فيما انتهت اليه من ظهور حاسم على العدو ٠

***

ولما عاد الملك الى المملكة وعاد صليب السيد الى القدس أحس الجميع ممن كانوا قد تخلفوا فى البلد بالســـرور الطاغى يغمرهم فرحا بعودة أصدقائهم ، وحق لهم أن يقولوا ما قيل(١٩) : « نأكل ونفرح ، لأن ابنى هذا كان ميتا فعاش ، وكان ضالا فوجد ، فابتدءوا يفرحون » ٠

وبعد فترة وجيزة من هذا الحادث بعث « أنر » المخادع فى طلب هذا التركى النبيل (الطنطاش) بحجة المصالحة ، ومداهنا اياه بكلمات معسولة ، فلما صار هذا الرجل التعيس عنده عامله « أنر » أسوأ معاملة تنطوى على العار ، اذ سمل عينيه فعاش ما عاش بعدئذ يقاسى أسوأ صنوف الفقر والتعاسة(٢٠) ٠

(١٤)

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى ناحيتنا اذا بحادث مفجع يلم بامارة الرها يستحق التدوين ، ولابد فى شأن هذا الحادث أن نرجع الى الوراء قليلا رغبة منا فى أن تكون تفاصيله مفهومة كل الفهم ٠ ذلك انه بعد موت زنكى ـ وهو أشد الخلق اضطهادا للعقيدة النصرانية ـ قام ابنه نور الدين فتريث بالموصل بعض الوقت حتى يفرغ من أمر وراثته لامارة أبيه ، ولم يستبق من أتباعه فى الرها سوى نفر قليل لحمايتها ، ولما كان بقية سكانها من غير هذا النفر شديدى التمسك بعقيدتهم المسيحية فقد بعثوا فى السر رسلا من لدنهم الى كونت « جوسلين » ، وأخبروه أن مدينتهم تكاد تكون خالية الا من رهط قليل من الترك لحراسة القلعة ، أما أمر البلد فمتروك فى الواقع لهم هم وحدهم ، وكان الايمان المســـيحى منذ عهد الحواريين قد ترسب فى قلوب أهل الرها حتى لم يكن بينهم ـ كما قلنا فى موضع غير هذا ـ أحد من أصحاب الديانات الأخرى ، لذلك فانهم ألحوا على الكونت « جوسلين » الحاحا لا مزيد عليه وتوسلوا اليه أن يحشد المقاتلين ويسرع الى المدينة التى سوف يسلمونها اليه حال وصوله دون أن يخشى من وراء ذلك خطرا أو يصادف عقبة ٠

وبادر جوسلين فجمع عسكر الامارة من المشاة والخيالة على السواء ، واستصحب معه بلدوين صاحب مرعش وكان من النبلاء

الأقوياء • وعبر النهر بسرعة ، وما كاد الليل يسدل سدوله حتى ظهر بلدوين هو وجميع من يتبعه امام الرها ، فاغتنم الأهالي سكون الليل واستغراق حراس القلعة في سباتهم فأدخلوا بعضا من رجال الكونت بواسطة الحبال والسلالم التى دلوها اليهم ، ففتح هؤلاء الأبواب لبقية من كانوا ينتظرون فى الخارج ، فأقبلوا على بكرة ابيهم وانطلقوا فى جميع رحاب المدينة وأعملوا السيف فى جميع من صادفوهم من رجال العدو الذين قدرت النجاة لبعضهم ، ثم بلغوا القلعة •

هكذا تمكن الكونت وعسكره المسيحيون من الاستيلاء على المدينة أياما عدة ، ولكنهم فشلوا فى أخذ القلعة لشدة تحصينها وحسن تزويدها بالميرة والسلاح والجند ، ويرجع معظم السبب فى فشل قومنا فى هذه الناحية الى أن العسكر لم يستصحبوا معهم الآلات الحربية ومايلزم لبنائها ومايحتاجون منه لصنعها ، كما لم يكن بالمدينة شىء من هذا القبيل يصلح لمثل هذا العمل •

(١٥)

خرجت الرســـل أرتالا تحمل الى الشعب المسيحى أنى كان خبر هذا النصر ، وتدعو المقيمين فى الناحية الى الاسراع الى هناك للمســـاعدة فى أخذ المدينة والمحافظة على دوام بقاء الملة المسيحية التى عرفتها الرها بفضل الرب ، فغمرت النشوة قلوب النصارى انى كانوا بهذا النبأ الذى كان خير عزاء يكافىء الحزن العميق الذى كانوا يحسونه بسبب سقوط الرها ، غير أن البكاء مالبث أن حل محل الغبطة الشاملة ، واستحالت رنات المثانى الى سيل من انات الأسى الذى عاد من جديد أشد مما كان عليه من قبل ، ويرجع السبب فى ذلك الى أنه ما كاد نور الدين يعلم بما فعله أهل

الرها من تسليم البلد الى الكونت حتى حشد العسكر من شتى نواحى المشرق ، وأمر المنادى أن ينادى فى أهالى المدن المجاورة للتجمع فى مكان واحد ، ثم فاجأ الرها بالظهور أمامها وأحدقت قواته بها ، وبدأت عمليات الحصار ، فصدق فى ذلك ما قيل(٢١) « من أن السيف يترصدهم بالخارج ، والرعب يغشاهم فى الداخل » ذلك لأن صفوف العدو الموجودة خارج المدينة استعدت للقتال ، وأغلقت جميع المنافذ فهدد الموت الصليبيين • أما فى الداخل فقد أخذ الترك الذين بالقلعة يبثون الفـــــزع فى نفوس أهل ملتنا ، ويراوحونهم ويغادونهم فى الغدو والآصال بالغارات يأخذ بعضها بحجز البعض الآخر •

لم يدر الصليبيون ماذا يفعلون اذ استحكمت النوازل الجمة بهم ، غير أنهم عمدوا الى الاكثار من عقد الاجتماعات فيما بينهم للتشاور فيما يفعلون ، وكانوا فى كل مرة يغيرون خططهم ، كما كانوا كلما اقترحوا خطة جديدة وجدوا سبل السلامة قد سدت فى وجوههم ، ومن ثم ادركوا الا نجاة لهم مالم يخاطروا بمواجهة الموت ذاته ، ثم رأوا أخيرا تحت هذه الظروف الزمانية والمكانية المحيطة بهم أن مجابهتهم العدو ومحاولتهم شق طريق لنجاتهم بحد السيف خير من تحمل أهوال الحصـــــار الذى لابد أن يؤدى الى زيادة حاجتهم للطعام ، واذ ذاك يسترقهم الترك ويفرضون عليهم الأمر المرير ، ووافقوا كلهم على هذا الرأى ، ومع ما كانت تنطوى عليه هذه الخطة من الخطر الفادح الا انها كانت الطريق الوحيد الذى لابد لهم أن يسلكوه اذا ما قيس بغيره من الطرق التى تهددهم بأذى أكبر وأفدح •

أما الأهالى الذين يرجع الفضل الى جهودهم الحماسية فى دخول الكونت وعسكره المدينة فقد اســـــتولى عليهم من الاحباط

ما تلاشى معه كل أمل لهم فى المقاومة ، ورأوا كيف سـدت فى وجوههم جميع سبل النجاة ، وادركوا أنهم سوف يلاقون الهلاك ـ كأبشع ما يكون الهلاك ـ ان هم ظلوا مقيمين حيث هم فى الرها بعد مغادرة الكونت لها ، ولذلك آثروا الرحيل عنها بنسـائهم وأبنائهم ، وفضلوا أن يشاطروا اخوانهم رجال الجيش الصليبى المصير المجهول الذى لابد لهم منه بدلا من أن يقعوا فى براثن موت مؤكد ، أو ما هو أفدح من الموت ، ألا وهو أن يرسفوا فى قيـود الأسر عند عدو كافر ٠

(١٦)

ما كادت الأبواب تفتح على مصـاريعها حتى تدافع الجميع عبرها كأن ليس لهم سواها من سبيل للنجاة ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يدركون تمام الادراك أنه لابد لهم من أن يشقوا بسـيوفهم لأنفسهم طريقا لهم خلال صفوف العدو الا أنهم اعتبروا أن كل ما يحدث بعد مغادرتهم المدينة لن يكون بذى بال ، وفى أثناء ذلك كان الأتراك الذين قد فتحوا جميع مداخل المدينة أدخلوا بعض رجالهم اليها ، وراحوا يكثفون ضـغطهم من الخلف على الصـليبيين وارغموهم على سرعة الرحيل ٠

وسمع الترك الذين كانوا خارج الأبواب فى هذا الوقت ذاته أن بعضا من قومهم لازالوا داخل البلد ، وأنهم يحاربون الصليبيين، فدفعتهم الرغبة الجامحة فى الانضمام اليهم للاستيلاء عنوة على الأبواب التى كانت قد فتحت ليرحل منها رجالنا ، ومن ثم احتشدت فى هذه النقطة جموع غفيرة من شتى الرتب والطبقات ، يحاول بعضهم أن يشقوا لأنفسهم طريقا للخروج ، والبعض الآخر يجاهد للدخول عنوة ، مما أسفر عن عراك شرس فى هذه البقعة الضيقة تمخض عن عواقب وخيمة اكتوى بنارها كل من الطرفين ، فكان

العدو فى الخارج يقاتل قتالا ضاريا عساه أن يتمكن من الدخول ، لكن انتصر عليه الصليبيون بفضل بسالتهم واصرارهم ، وحالفهم النجاح فى النهاية حين شقوا طريقهم بحد السيف وانتشروا فى السـهل كله ، لكن بعد أن اسـتحر القتل وهلك الكثيرون من الطائفتين ٠

يالله ما كان أبشع المنظر اذ ذاك وأدعاه للرثاء الذى لا مزيد عليه ! ٠

لقد كان هناك جيش من الأهالى لا يعرف الحرب ولم يكن له عون ، وكان هناك أرتال من الطاعنين فى السن وجموع من المرضى، والأمهات والعذارى الرقيقات والعجائز المسنات ومن الصغار بل والرضع على صدور أمهاتهن ، وقد تزاحمت جموعهم الكثيفة عند الممر الضيق فداست الخيل بسنابكها من داسته منهم ، وهلك من هلك من تزاحم هذه الجموع ، وراح غير هؤلاء وهؤلاء يزاحم بعضهم بعضا وقد تناهبتهم سيوف الترك الذين تجردت قلوبهم من كل رحمة ٠٠

كما هلك فى الوقت ذاته أسوأ الهلاك الجزء الأعظم من الأهالى من الرجال والنساء الذين آثروا متابعة الجيش الناكص على أعقابه، ولم ينج الا القليل بفضل قوتهم وبأسـهم أو بفضل الخيل التى يركبونها ٠

***

حين أدرك نور الدين أن الصليبيين يسـتعدون للعودة الى ديارهم جمع كتائبه ليقصهم ، وأعد جنده للمعركة ، ورتبهم أحسن ترتيب ، وشد على مؤخرة الصليبيين بسلسلة من الهجمات الموصولة فاضطروا لأن ييمموا وجوههم شطر الفرات الذى كان على بعد

اربعة عشر ميلا من الرها ، وعانى الكونت وعسكره في اثناء زحفهم كثيرا من الغارات التى لا تنقطع ، كما صادفوا كثيرا من الأخطار الماثلة امامهم ، ولم تخل مرحلة من مراحل زحفهم من هجمة يشنها عليها جموع كبيرة ، أو هجمات فردية مما الحق بالجانبين خسائر جمة فادحة ٠

ومات فى هذا الارتداد الرجل النبيل الذى أشرنا اليه من قبل الا وهو بلدوين صاحب مرعش ، وكان محاربا جلدا تجلت ألمعيته فى انجازاته الحربية ، كما هلك فى هذه الأثناء كثيرون كانوا من علية القوم الذى يستحقون خلود الذكر ٠

الا فليتغمدهم الرب برحمته السرمدية !!

واذا كان النسيان قد سحب ذيوله على اسمائهم فالأمر الذى لا مشاحة فيه هو أنها مكتوبة فى عليين ، لأنهم ماتوا ميتة رائعة فى سبيل العقيدة ، من أجل حرية شعب المسيح ٠

لم يكن عسكر الكونت مكافئا أبدا لعسكر العدو ، فقد فقد الكونت الجانب الأكبر من جنده مما أعجزه عن الصمود طويلا فى وجه هجمات الترك المتواصلة ، وحينذاك رأى أن يعمل للحفاظ على حياته فعبر الفرات وارتد الى سميساط ، أما غيرهم فقد هاموا على وجوههم مشردين ، كل حسبما يراه حسنا ، مخلفين وراءهم ما كان معهم من متاع وتجهيزات ، اذ لم يعد يشغل بالهم سوى حياتهم وسلامتهم ٠

وســـرى خبر هذه النكبة مســـريانا واسعا فى جميع البلاد المجاورة ، كما أن الذين كانوا قد فرحوا بعودة مدينة الرها اليهم أصبحوا الآن يرمضهم الحزن المرير لضياعها ثانية من أيديهم ، ولمقتل النبلاء واندحار الشعب الصليبى ٠

(١٧)

وفى حوالى هذا الوقت سار فى الطريق الذى لابد ان يسير فيه كل الخلق بطرك بيت المقدس وليم ، صاحب الذكرى الخالدة ، وكان رجلا متواضعا يخاف الله ، وكان موته يوم ٢٧ سبتمبر(من عام ١١٤٥) بعد خمسة عشر عاما من توليه البطركية ، فلما كان الخامس والعشرون من يناير من السنة التالية (١١٤٦) اختير مكانه « فولشر » رئيس أساقفة صور الذى هو الثالث من أسلافنا فيها ..

وحدث فى أحد أيام عيد الغطاس أن أصابت صاعقة كنيسة القبر القائم على جبل صهيون ، وأحدثت بها تلفا جسيما ، فكانت نذيرا ارفضت له قلوب أهل المدينة كلهم ، واعتبرناه طالع شـؤم ونذير سوء ، كما توالى لبضعة أيام ظهور نجم مذنب وسـوى ذلك من العلامات التى لم يعتدها أحد ، وشاعت نبوءات بأحداث كبار قادمة .

* * *

ولما كانت كنيسة صور قد خلت من رئيس يدبر أمورها فقد قام الملك وأمه اللذان يقع على عاتقهما أمر تسـيير دفة المملكة والحكومة كلها ، فاجتمعا فى صـور بالبطرك المعظم الذى كانت شئون كنيستها مناطة به من قبل ، كما اجتمعا بكبار أساقفة نفس الكنيسة ، وكان الهدف من هذا الاجتماع تعيين رئيس أساقفة لصور، وتناقشوا جديا ـ كما ينبغى فى مثل هذه المسائل ـ فى موضـوع اختيار راع لها ، واختلفت وجهات النظر فى ما بين بعضهم والبعض الآخر ، اذ طالب فريق بتعيين « رالف » المستشار الملكى فى هذا المنصب ، وهو رجل لا يستطيع أحد أن يطعن فى علمه ، ولكنه كان

شديد الانغماس فى المسائل الدنيوية ، وكان « رالف » هذا انجليزى المولد ، وكان شديد الوسامة ، اثيرا عند الملك والملكة ، بل ومقبولا عند الجميع ورجال البلاط ، وكان الملك وأمه ممن يؤيدون اقتراح تعيينه ، ويزكونه أشد التزكية ٠

أما الفريق الآخر الذى كان يعارض هذا الاختيار فقد تزعمه « جون » الذى هو من أهل « بيزا » وكان كبير شمامسة صور ، ثم صار فيما بعد كردينال كنيسة رومة ، ولقب بلقب القديسين « سلفستر » و « مارتن » ٠

كذلك عارض هذا الترشيح « برنارد » أسقف صيدا ، ثم « جون » أسقف بيروت ٠ ولما كان هؤلاء الرجال الدينيون العظام يعارضون اختيار « رالف » فقد أصدروا فتوى ضد الرهط الآخر الذى كان يعتمد على ما يمارسه الملك من ضغط لاختيار « رالف » ، وراحوا ـ اعتمادا منهم على البطرك كحام لهم ـ يسعون السعى الحثيث ليهزموا النفر الآخر ٠

لكن أسفر الأمر عن نجاح المستشار « رالف » غصبا فاغتصب كنيسة صور وممتلكاتها ، وظل محتفظا بموقعه هذا مدة عامين حتى انتهى الأمر أخيرا برفع القضية إلى رومة ، فاصدر البابا « يوجين » فى حضور الأطراف المتنازعة قراره ببطلان انتخاب المستشار ، واعتبار الأمر كأن لم يكن ٠ غير أن « رالف » إستطاع بفضل تأييد مواطنه البابا « هدريان » الرابع أن يحصل على كنيسة بيت لحم ، فرسم أسقفا لها ٠

* * *

واستقر « بطرس » قيم كنيسة القبر المقدس ـ وهو من برشلونة

فى اسبانيا العليا – فى كنيسة صور برضاء الجميع وموافقتهم ، وكان رجلا شديد البساطة شدة نادرة ، دمث الخلق ، يفيض قلبه بالخوف من الله ، وكان يصون نفسه عن كل الشـــرور ، فحظيت ذكراه برحمة الرب وتمجيد الناس ، وكان نبيلا فى فعاله وأنبل من ذلك فى روحه ، وان حياته وأعماله لتستحق دراسة أطول وأدق من هذه الاشارة العابرة ، ولكن واجبنا فى كتابنا هذا التاريخى أن نتجاوز عن التفاصيل الذاتية وتعود لمتابعة المواضيع العامة ·

(١٨)

حينما سقطت مدينة الرها عم خبر هذه الكارثة المشئومة كل انحاء الغرب ، وقيل ان الترك المارقين لم يكتفوا باجتياحهم المدينة بل زادوا فعاثوا فسادا وتخريبا فى مدن شعبنا وقراه ومواضعه المنيعة ، واكتسحوا الشرق كله دون أن يجدوا أحدا ينهض لصدهم ، وقاسى شعب المسيح محنا بالغة الأذى من جراء المعارك المستمرة والغارات المتكررة عليه ·

وانطلق الرسل بخبر هذه الأمور الى كل الشعوب والأمم ، ومضوا الى شتى الأصقاع ، حتى لقد زاروا فيما زاروا البلاد التى ظلت حتى الآن لا تعبأ بما يجرى ، والتى دب فيها التراخى بسبب طول سنوات السلام التى مرت بها ، وناشد هؤلاء الرسل رجال تلك البلاد أن يعينوهم للانتقام من تلك الأهوال الجسام التى نزلت بهم ، والخطوب التى كرثتهم ، كما ساور القلق البابا « يوجين » الثالث المخلص للرب ، فجزع جزع الأب على أبنائه ، وتعاطف معهم تعاطفا تاما ، فأنفذ من ناحيته الى شتى أقطار الغرب رجالا أهل دين ، بلغاء فى الوعظ ، صادقين فى القول والعمل ليخبروا الأمراء والشعوب على اختلاف أجناسها وألســـنتها أنى كانوا بما يكابده اخوانهم فى الشرق من صنوف المحن التى تضـــيق النفس عن

احتمالها ، كما مضوا يحضونهم على الخروج لمحو عار هذه المصائب المفزعة ، وكان من بين هؤلاء المبعـــوثين « برنارد » راعى دير « كليرفو » الخالد الذكر وحبيب الله الذى كانت حياته الطاهرة مثلا يحتذى فى كل ما هو جدير بالاشارة ، ولما اختير كبيرا السـفارة التى نهضت لأداء هذه الرسالة التى ترضى الرب قام بها خير قيام وعلى أحسن وجه رغم ضعف بنيته بسبب تقدم العمر به وعكوفه على الصوم الذى يكاد يكون مستمرا ، وقلة ما يأكله قلة ملحوظة ، فراح يذرع أرجاء كل مملكة وكل بلد مع رفاقه أحباب الرب ، يبشر فى حماسة وبهمة لا تعرف الكلل بمملكة الرب ، ويصف بدقة متناهية ما ابتليت به شعوب الشرق من المصائب التى كانت تنصب على رءوسها بلا انقطاع ، واوضح للناس فى جلاء أن مدن المؤمنين التى كانت مكرسة للايمان المسيحى أصبحت تعانى الآن أفظع ضروب العبودية فى كنف الذين يضطهدون اسم المسيح ، وذكرهم أن هؤلاء الاخوان الذين اقدم المســيح على الموت من أجلهم بنفس راضـية يعيشون الآن ما بين مستجد ومقيد ، وساغب أمضه الجوع ، وأنه قد زج بهم فى غياهب السجن المفزعة الملأى بالقاذورات ، كما دعاهم للقيام بتحرير أخوانهم المضطهدين ، فحرك قلوبهم حتى تشوقوا لمحو تلك الاهانات ووعدهم بأن العون ألالهى وحسن المثوبة التى كتبت للمتقين فى انتظار كل مشارك فى هذا العمل المقدس ٠

وثابر « برنارد » مثابرة كريمة فى اشاعة هذه الرسالة بين الشـــعوب وفى أرجاء الأقطار والممالك المختلفة ، فحظى بالعطف العاجل يحبوه به الصغار والكبار على السواء ، وابدى الناس كافة موافقتهم السريعة على ما دعاهم اليه بنفس راضية ، واقســموا ليزحفن الى بيت المقدس ، ووضعوا شارة الصـــليب على أكتافهم استعدادا للرحلة ، ولم يقتصـــر الفعل لكلماته المثيرة على العامة وحدهم بل تعداهم الى سواهم من كبار حكام العالم ، ومن يشغلون

أعلى المراتب في الممالك ، وكان ممن استجاب لدعوته وشارك العامة في هذه الرغبة أقوى ملوك الأرض وأعظمهم شأنا « كونراد » امبراطور الرومان ، ولويس (السابع) ملك الفرنجة وزمرة كبيرة من أمراء المملكتين ، وخاط الجميع على أكتافهم وثيابهم الصليب المنجي والباعث الحياة ، رمزا لأنهم حجاج أيضا ٠

(١٩)

اتخذ العاهلان (كونراد ولويس السابع) كل الترتيبات اللازمة لتسيير حكومتي مملكتيهما ، وضم كل منهما الى جيشه من دفعه الشوق الملح لأخذ العهد بخلاص روحه ، فلما تمت جميع الاستعدادات اللازمة للرحيل على الصورة اللائقة بالعظمة الملوكية خرجوا في شهر مايو في رحلة حجهم ارضاء للرب ، لكن لازمهم سوء الطالع وشؤم النذير كما لو كانوا قد بدءوا سفرهم على غير رضى من رب غاضب عليهم ، فعاقبهم على خطايا الانسان ، فلم يتيسر لهم انجاز أي شيء يرضيه طوال رحلة حجهم هذه ، بل انهم زادوا في شقاء الذين جاءوا لخدمتهم ومد يد الانقاذ لهم ٠

أجمع رأي الملكين على أن يسير كل منهما قدما مستقلا عن الآخر، وأن يقود كل منهما عسكره على حدة وانفراد ، تجنبا لما قد ينجم بين الناس من شقاق وتطاحن ، هذا بالاضافة الى أن اتباع هذه الخطة يتيح لجنود كل فريق توافر مواد العيش الضرورية ، وكذلك الأعلاف التي لابد منها للجياد ودواب الحمل ٠

واجتازوا « باقاريا » وعبروا نهر الدانوب العظيم عند مدينة « راتسبون » ، ثم نزلوا أرض النمسا جاعلين النهر على يسارهم ، فأفضى بهم السفر لدخول المجر التي استقبلهم ملكها أحسن استقبال ، ورحب بهم أجمل ترحيب ، فلما غادروا بلاده دخلوا

اقليمى : « بانونيا » ، فأوصلهم السير الى بلاد البلغار وهى « مؤاسيا » و « داكيا » البحرية و « داكيا » الوسطى ، فجعلوا الثانية على يسارهم فبلغوا « تراقيا » وساروا عبر مدينتى « فيليبوبولس » و « أدرنة » الشهيرتين حتى انتهوا أخيرا الى المدينة الملوكية(٢١) ، فتلقاهم امبراطورها « مانويل » بالترحاب ، فأقاموا هنا بضعة أيام نعموا فيها بالراحة التى كانت الجيوش فى مسيس الحاجة اليها ، لاسيما بعد المشاق الجسيمة التى صادفوها ، ثم عبروا البسفور الذى تداعب أمواجه شواطىء القسطنطينية التى تعتبر حدا فاصلا بين أوربا وآسيا ، ودخلوا اقليم « بيثينيا » التى هى أول ولاية آسيوية يبلغها المسافر ، فعسكرت الكتائب فى قرية «خلقدونية» التى لم يكن من العسير عليهم أن يروا منها القسطنطينية التى غادروها منذ قريب ، وكان قد عقد فى مدينة خلقدونية القديمة هذه المجمع المقدس الرابع المكون من ستمائة وستة وثلاثين من كبار رجال الكنيسة زمن الامبراطور « مارنيان » والبابا « ليو » لشجب هرطقة الأسقف « أيوتيش » الراهب الذى نادى بالطبيعة الواحدة للمسيح .



كان سلطان قونية قد علم منذ وقت بعيد بزحف هذين الأميرين العظيمين (كونراد ولويس) ، فأفزعه الخبر فزعا حمله على طلب النجدة ، من أقصى نواحى المشرق ، كما أن انشغاله الشديد باستنباط الوسائل التى تمكنه من دفع ما ينجم عن جموع العدو الكثيرة من خطر جسيم حمله على تحصين المدن واعادة ترميم الحصون وطلب النجدة من الأمم المجاورة ، وراح يترقب من يوم لآخر - وهو فى فزع مقيم - وصول أولئك الأعداء الذين قيل انهم كانوا على الأبواب ، كما ساوره الخوف مما توقعه من دمار يحيق بشعبه ، وخراب يلم ببلده ، وطارت الشائعة تقول انه لم يحدث قط أن كان ثم جيش يكافىء هذا الجيش الزاحف فى كثافته

وكثرة رجاله ، حتى قيل ان خيالته وحدها تغطى سطح البلد كله ، ولا تكفيهم مياه أكبر الأنهار للشرب ، ولا تسد جوعهم وتشبع بطونهم أوتي الحقول انتاجا ٠

وعلى الرغم مما تضمنته هذه التقارير من المبالغات الكبيرة الا أن ما كان فيها من الحقائق كان كافيا لبث الفزع فى قلوب كبار الزعماء الذين ليسوا من أتباع العقيدة المسيحية ، فقد كان من المؤكد الذى لا مراء فيه (وذلك بناء على رواية من شاركوا فى هذه الحملة) أن من انخرطوا فى جيش الامبراطور وحده فى هذه الحملة قاربوا سبعين ألف فارس فى دروعهم الحديدية ، هذا الى جانب من كانوا يسيرون على أقدامهم من النساء والأطفال والخيالة الخفيفة التسليح ، كما قدر من كانوا فى جيش ملك فرنسا بسبعين ألف رجل من الشجعان ، عليهم الزرديات ٠ هذا الى جانب المشاة ولو كان الرب راضيا عنهم ومسبغا عليهم رحمته لأخضعوا من غير شك هذا السلطان وجميع بلاد المشرق للعقيدة المسيحية ، لكن مشيئة الرب قضت أن تنبذ ما يقدمونه من الخدمات ، فلم يحظ ما فعلوه برضائه ، لأنهم قدموا ما قدموا بأيد غير طاهرة ٠

(٢٠)

ثم كادت جميع الكتائب تتحرك عبر البسفور حتى بادر الامبراطور « كونراد » مع رهط من أتباعه الأشراف الى استئذان الامبراطور (البيزنطى) فى الرحيل وركبوا البسفور ، واذ ذاك صدرت الأوامر أن يزحف الى الأمام كل قائد بكتيبته ، فسار « كونراد » جاعلا « غلاطية » و « بافلاجونيا » وولايتى « بونتس » على يساره ، و « ليديا » وآسيا الصغرى على يمينه ، واخترق اقليم « بيثينيا » الى « نيقوميديا » عاصمة تلك النواحى ، وزحف

جاعلا على يمينه مدينة « نيقية » التى كان قد انعقد فيهـــا زمن الامبراطور قسطنطين المجمع(٢٢) الذى ضم ثلاثمائة وثمانية عشر من الآباء الطاهرين ، وكان الغرض من اجتماع هؤلاء هو شـــجب العقيدة الفاسدة التى نادى بها « آريوس » اللعين ، ثم خرج الجيش بأكمله ــ من هذه المدينة ــ فى تنظيمه الحربى الرائع سالكا أقصر الطرق الى « ليكونيا » التى عاصمتها قونية ·

وكان السلطان قد حشد فى هذا الموضـــع أعدادا كبيرة من الرجال المسلحين ، وطائفة ضخمة من ترك البلاد المجاورة ، وظل ينتظر الوقت المناسب ويتخير المكان الملائم لمهاجمة الصليبيين حين يحاولون العبور فيحول اذ ذاك بينهم وبين التقدم ، وقد اســـتطاع بالرشـــاوى والاتفاقيات أن يحرك ضد قواتنا جميع الملوك والقادة والزعماء على اختلاف طبقاتهم فى ولايات المشرق من أدناها الى أقصاها ، ودأب على ارسال المبعوثين اليهم ملتمسا منهم التبصر الى الخطر الملم بهم لو تمكنت هذه الجيوش الضخمة المسلحة من المرور بأرضه دون أن تلقى مقاومة ، فانها حينئذ لابد أن تخضع المشرق كله لسيطرتها بقوة السلاح ، وسرعان ما استجابت لدعوته أمم كثيرة ، وتجمعت لديه حشود كثيفة جاءت من أرمينيا الصغرى وأرمينيا الكبرى و « كبادوكيا » و « ايسوريا » ، وكذلك من «ميديا» و « بارثيا » ، فراوده الأمل أن يتمكن بهذه الجموع من صد الجيش الذى قيل انه أخذ فى الاقتراب منه ، معتمدا فى ذلك على معاونة كل هذه الشعوب له وامدادها اياه بعسكر يكافىء فى كثرته عســـكر العدو ·

❊ ❊ ❊

كان « كونراد » حـــين غادر القســـطنطينية قد التمس من الامبراطور (مانويل البيزنطى) أن يزوده بالمرشدين الملمين بمسالك

الاقليم ، ويمده بأصحاب المعرفة الواسعة بالولايات المجاورة ، غير أن هؤلاء الرجال ما لبثوا أن برهنوا على أنهم ليسوا أهلا للثقة ولا يمكن الاطمئنان اليهم ، فقد كان المعروف أنهم جاءوا ورائدهم الاخلاص فى ارشاد الجيوش المسيحية فلا يباغت العسكر الذين يقتفون خطاهم بخطر لا يتوقعونه ، أو يفاجأون بصعوبة لا ينتظرونها ولا يكابدون نقصا فى الطعام أثناء سيرهم ، لكن ما كاد هؤلاء الأدلاء يخرجون بالجيش ويسيرون به فى أرض العدو حتى أخبروا الزعماء بالتخفف من الطعام الا ما هو ضرورى ويكفيهم لبضعة أيام معدودات ان هم أرادوا الاستفادة من السير فى الطريق الأقصر الذى يخترق أرضا غير محتلة ، ثم وعد هؤلاء الأدلاء العسكر وعدا أكيدا أنهم بالغون فى أيام قلائل مدينة « قونية » الشهيرة فيجدون أنفسهم فى أخصب بقعة من الأرض تفيض بشتى أنواع المؤونة ، فاستجاب لهم الصليبيون وخرجوا بالذخيرة يحملونها على ظهور دواب الحمل وعربات النقل • ثقة منهم بما قاله مرشدهم ، وتبعوهم بايمان ساذج صادق ، وكان ذلك غفلة منهم اذ غرر بهم الاغريق بسبب ما طبعوا عليه من الخيانة والغدر وكراهية للصليبيين ، فتعمدوا قيادة الكتائب الصليبية عبر طريق غير مألوفة افضت بهم الى نواح أتاحت لعدوهم الفرصة الملائمة لمهاجمة قوم كانت جريرتهم أنهم صدقوا هؤلاء الأدلاء ، مما أدى الى تغلب الترك عليهم ، وربما كان هؤلاء المرشدون مدفوعين فيما فعلوه بأمر مولاهم أو برشوة رشاهم بها الترك •

(٢١)

حين رأى الامبراطور « كونراد » انصرام الأيام المحدودة دون أن تبلغ الحملة الناحية التى كانوا شديدى الحرص على الوصول اليها استدعى الأدلاء الاغريق واستفسر منهم فى حضور نبلائه عما أدى الى أن يستغرق الجيش زمنا جاوز الزمن الذى اتفقوا عليه فى

البداية دون أن يبلغ العسكر غايته ، فعاد المرشدون كدأبهم للكذب اذ راحوا يؤكدون له تأكيدا باتا بأن الجند كلهم لابد واصلون بعون الرب الى « قونية » فى مدى ثلاثة أيام ، وصدقهم الامبراطور فيما زعموه لما طبع عليه من طيب السريرة ، وقال لهم انه سوف يتحمل هذه الأيام الثلاثة هى أيضا ثقة منه بعهودهم له ٠

فلما كانت الليلة التالية ـ والخيام منصوبة كالعادة ، والجند مستسلمون للكرى بعد طول الانهاك ـ اذا بهؤلاء المرشدين الخونة ينسلون لواذا تحت جنح الظلام ويتركون وراءهم ناسا وثقوا بهم واطمأنوا الى رعايتهم ، لكن خلفهم هؤلاء الأدلاء وتركوهم بلا هاد يهديهم طريقهم ، فلما طلع الصباح ودنا موعد مواصلة الزحف تلفت الصليبيون (الألمان) فلم يجدوا أثرا لهؤلاء الاغريق الذين جرت العادة أن يسيروا أمام الجيش ، وجاء الى الامبراطور « كونراد » والى زعماء جيشنا نبأ غدر الهاربين الذين تجلت للجميع خيانتهم، وزاد الطين بلة أن أضاف هؤلاء الأبالسة الى لؤمهم لؤما جديدا زاد من جرمهم حين أسرعوا الى ملك فرنسا الذى جاء الخبر بوجوده فى تلك الناحية ، وزعموا له كاذبين أن الامبراطور « كونراد » الذى سبقه وكانوا له مرشدين وأدلاء قد بلغ غاية النجاح وحاز نصرا رائعا على الأعداء ، واستولى على « قونية » بالسلاح ، ودكها من أساسها دكا ٠

ويبدو لنا فى جلاء أنهم راحوا يؤكدون لملك فرنسا هذا الأمر كى يحملوه على سلوك الطريق ذاته ، فيتردى فى نفس المهالك التى تردى فيها « كونراد » ويجعلوه يصدق ما قالوه من نجاح «كونراد»

حتى يحولوا بينه وبين المبادرة الى نجدة اخوانهم الذين أحدق بهم الخطر ، وربما اخترعوا هذه القصة ليصرفوا العقاب عن أنفسهم لأنهم لو كانوا قد أخبروا « لويس » بهلاك جيش « كونراد » لأمسكهم وعدهم خونة ، اذ ما كان للعسكر التيوتونى أن يندفعوا الى ما فيه دمارهم وضياع أرواحهم لولا خبث طوية هؤلاء الأدلاء ٠

* * *

حين أيقن الامبراطور (كونراد) أن الجيش أصبح من غير أدلاء يسترشد بهم عقد مجلسا من جميع الزعماء للنظر فيما ينبغى عليه اتخاذه ، فاختلفت الآراء فيما بينهم اختلافا بينا ، فبينما تمسك البعض بوجوب رجوعهم الى أوطانهم اذا بالبعض الآخر يصرون على متابعة ماهم فيه ، ولربما صدق فيهم فى هذه الأزمة ما قيل(٢٣)

« يسكب هوانا على رؤساء ، ويضلهم فى تيه بلا طريق » ٠

وبينما كانوا فى هذا الوضع القلق وقد استبد بهم الفزع لجهلهم تلك النواحى وانشغال بالهم بما هم فيه من الحاجة الملحة الى مواد المعيشة لنفاد كل ما كان عندهم من العلف للخيل ولدواب الحمل ، وكل صنوف المأكل اللازم للجيش ، أقول بينما كانوا فى ذلك اذا بالخبر يأتيهم بأن جيش العدو التركى قد صار على مقربة منهم ، ثم ما لبث هذا الخبر أن تأكد بالواقع ، فقد رأى الصليبيون أنفسهم فى فلاة بلقع وقد بعد ما بينهم وبين كل الأماكن الخصبة حيث قادهم مرشدوهم الخونة عن قصد الى هنا كما قلنا من قبل ، مع أن الواجب كان يقتضيهم أن يكون زحفهم عبر « ليكونيا » التى تركوها الى يمينهم ، فلو أنهم كانوا قد ساروا فيها لمروا بأراض ذات زرع وضرع حافلة بكل ما يلزمهم من ضروريات الحياة ، ولوصلوا

الى غايتهم المنشودة فى أقصر وقت ، ولكن الاغريق ساروا بهم يسارا فوجد الجيش نفسه مضـــطرا لدخول فيافى « كبادوكيا » البعيدة عن « قونية » ٠

وتناقل الناس ـ وربما كان ذلك حقا ـ أن هذه المكائد التى تنطوى على الخيانة انما دبرت بعلم الامبراطور البيزنطى وبأمر منه ، وقد كان شديد الحسد على الدوام لتقدم الصليبيين الناجح ، كما كان من المعروف أن الاغريق كانوا ـ كشأنهم اليوم ـ لا يطمئنون الى تزايد قوة الشعوب الغربية ، لاسيما الشعب التيوتونى الذى يعدونه منافسا لامبراطوريتهم ، وتخوفوا مما يذهب اليه التيوتون من نعت ملكهم « بامبراطور الرومان » وهو نعت يسلب الكثير عن هيبة امبراطورهم (البيزنطى) الذى يطلقون عليه لقب « الحاكم الأعلى » أى الشخص الذى له السلطان الأعلى على الجميع ، وانه بالتالى « امبراطور الرومان » وليس أحد ســواه امبراطورا ٠

(٢٢)

كان جيش الامبراطور يكابد فى هذه الآونة مرارة الجوع ، ويشقى بالاقليم اذ يجهله ويجهل مســالكه ، ويقاسى العســـرة المستمرة ، الى جانب أهوال الطريق ، كما كان يشكو النقص فى الخيل ، ويضنيه ثقل ما معه من العتاد والمتاع ٠ هذا فى الوقت الذى كان فيه ولاة الترك وعمالهم على اختلاف مراتبهم يدركون هذا الوضع تمام الادراك ، مما دعاهم الى حشد قواتهم وقيامهم بغارة فجائية على المعسكر الصليبى(٢٤) الذى ســادته الفوضى وأطبقت عليه بأجرانها ، فاضطرب عسكره الذين لم يكونوا يتوقعون شيئا من هذا القبيل ٠

كان الترك يعتمدون فى بأسهم على جيادهم السريعة العدو التى لم تشك نقصا فى العلف ، ويعتمد أصحابها على ما يتسلحون به من الأسلحة الخفيفة والنشاب والسهام ، فأحدقوا بالمعسكر وهم يصرخون صرخات عالية مدوية ، وحطوا بخفتهم المعهودة حطا عنيفا على جنودنا الذين أخذوا يرتدون على أعقابهم بسبب ما عليهم من الأسلحة الثقيلة ٠

وكان الصليبيون يفوقون خصمهم فى قوتهم واستعمالهم السلاح ، غير أنهم لما كانوا مثقلين بما عليهم من الزرديات والملابس الحديدية والدروع ، فقد عجزوا عن التغلب على الترك أو مطاردتهم مطاردة طويلة تبعدهم عن معسكرهم ، كما أضنى الجوع والسير الطويل جيادهم فلم تعد قادرة على الكر والفر هنا وهناك ، أما الترك فكان الحال فيهم على العكس من هذا ، فهم يهاجمون بكل حشودهم ، ويرمون من بعيد بسهامهم فتسقط كالوابل الهتان فتصيب الجياد وراكبيها ، وتتركهم جميعا ما بين قتيل قد فارقته روحه ، وصريع قد أثخنته جراحه ، وكان الصليبيون أذا ما حاولوا مطاردة الترك فر هؤلاء على خيولهم السريعة العدو فيسلمون من أن يتخطفهم الموت بسيوف خصومهم ، لكن عسكرنا(٢٥) صاروا فى خطر لكثرة ما انهال عليهم من السهام والنشاب التى لا انقطاع لها ، والتى كانت تنوشهم من كل جانب دون أن تتاح لهم فرصة ينزلون بخصمهم مثل الذى أنزله بهم ، أو يلتحمون من قريب ، وكثيرا ما كانوا يحاولون صده فيفر على جياده السريعة ، ويتفرق رجالنا فى شتى الجهات ٠

على أنه لما عاد الصليبيون الى معسكرهم عاد الترك فنظموا صفوفهم وأحدقوا بقواتنا ، وهاجموها مهاجمة عنيفة تكون أنكى وأشرس من كل هجوم سابق ، وكأنهم فى هجومهم هذا كانوا

يحاصرون احدى المدن . غير أن أهداف الرب الخفية العادلة شاءت أن ينهار فجأة ما تميز به هؤلاء الأمراء الصليبيون العظام من اقدام سهلته عليهم أسلحتهم وقوتهم وشجاعتهم ، وما كانوا عليه من كثرة العدد ، وكان هذا الانهيار الفجائى راجعا الى مناوشات بسيطة حتى انه لم يبق من مجدهم السالف الا أثر واه ، ولم يبق من عسكرهم الكثيف الذى كان قرابة سبعين ألف فارس كمى ومن جموع مشاتهم التى لم يكن يحصيها العد سوى واحد من كل عشرة، شهد بذلك من كانوا فى الحملة ، فقد مات بعضهم سغبا ، وهلك غيرهم بالسيف ، ووقع غير هؤلاء وهؤلاء أسرى فى قبضة العدو ، غير أن الامبراطور استطاع النجاة مع نفر قليل من نبلائه ، ثم قدر له أن ينجح بعد بضعة أيام فى الوصول الى « نيقية » مع البقية الباقية من أتباعه .

على أن الترك الغالبين رجعوا الى حصونهم محملين بالأسلاب وقد فاضت أيديهم بالغنائم التى لا تحصى من الجياد والسلاح الوفير ، ولما كانوا على دراية تامة بالاقليم فقد راحوا يترصدون فى لهفة وصول ملك فرنسا اذ كان خبره قد وصل فعلا الى تلك النواحى وقد شجعهم سحقهم لقوات الامبراطور « كونراد » الغفيرة على التطلع للقضاء فى يسر على جيش ملك فرنسا ، فجاءت الخاتمة كما توقعوا وأملوا .

أما سلطان نيقية فلم يشأ أن يشارك فى هذه المخاطرة الكبرى، ذلك لأن ارادة الله شاءت أن يقوم بهذه المهمة نيابة عنه أمير تركى آخر ، قوى الشكيمة ، اسمه « باراموس » Paramos كان يقود جيش السلطان .

وقد وقع هذا الحادث فى شهر نوفمبر سنة ١١٤٦ من ميلاد المسيح .

(٢٣)

كان ملك فرنسا فى هذه الأثناء قد بلغ القسطنطينية على رأس جيشه سالكا على وجه التقريب نفس الطريق ، فأقام بها فترة قصيرة كان له خلالها بضع جلسات على انفراد مع الامبراطور (البيزنطى) الذى بالغ فى الاحتفاء به ، ثم خلع عليه حين غادره الخلع السنية ووصله بالهدايا الرائعة ، وعامل من معه من أشراف حاشيته مثل المعاملة الطيبة التى عامل بها مولاهم ٠

ومضى الملك (لويس السابع) من القسطنطينية الى «بيثينيا» مع كل عسكره ، حتى اذا بلغ موضعا يقع بين المدينة الملوكية وبين البحر الأسود ـ والبعد بينهما ثلاثون ميلا ـ عبر البسفور الذى يبلغ أضيق موضع فيه ميلا فى العرض ، ثم سـار حول خليج « نيقوميديا » الذى سمى بهذا الاسم نسبة الى المدينة المتاخمة له التى هى عاصمة « بيثينيا » ، وتعتبر هى الأخرى جزءا من البسفور، فلما أدرك الملك قرية « نيقية » التى لا تبعد كثيرا عن المدينة ذاتها ضرب عندها خيامه الى أن يستقر رأيه على الطريق التى يسلكها فى زحفه ، وهنا أجرى استفسارات دقيقة عن امبراطور الرومان (كونراد) الذى كان قد سبقه فى المسير ، فأخبروه أنه فقد جيشه وان نجا هو وقلة من كبار رجاله ، وأنه الآن يهيم على وجهه شريدا هاربا ، فساور الشك فىالبداية الملك فيما سمع وظنه فرية مختلقة ، لكن تأكد لديه بمضى الوقت صـدق الذى أخبروه به ، اذ ما لبث أن جاء بعد قليل « فردريك دوق سوابيا » وذهب الى جيش الفرنجة قادما من معسكر الامبراطور كونراد ، وحاملا معه التفاصيل الكاملة عن هذه النكبة التى لم تكن حتى هذه اللحظة معروفة الا معرفة مبهمة ، ومن خلال شائعات غير موثوق بها ٠

* * *

كان الدوق « فردريك » شابا رائع الصفات ، اعتلى عرش الامبراطورية الرومانية بعد عمه الامبراطور « كونراد » ، ولازالت مقاليد أمورها فى يده حتى وقتنا الحالى ، واتســـم حكمه لها بالنجاح والقوة ٠

كان الدافع لفردريك على الحضور هو دعوة الملك الفرنسى الى حوار مع الامبراطور عن الطريق الذى يجب أن يسلكاه ، ولكن هذا الحوار جاء متأخرا كل التأخر وقد فات أوانه ، فلما سمع العسكر بالمأساة المحزنة التى حاقت باخوانهم وما نزل بهم من المصائب والدمار غضبوا لهم غضبة صدق وتحركت قلوبهم أسى لهم ، وكان لما قرره (فردريك) ورواه أعمق الأثر فى نفس الملك الفرنسى الذى بادر فعقد مجلسا مع رجاله ثم خرج فى ثلة من نبلائه وفى حراسة الدوق ومضى الى الامبراطور (الألمانى) للتشاور معه ، ولم يكن معسكره بعيدا عنهم ٠

وبعد أن تبادل العاهلان التحايا المألوفة وقبلة السلام عقدا اجتماعا أخويا أسفر عن قرارهما باكمال هدفهما وتوحيد قواتهما فى زحفهما ، غير أن الكثيرين من عســـكر الجانبين ــ لاســـيما التيوتون ــ لم يلتزموا بيمين الطاعة التى قطعوها على أنفســـهم فكروا راجعين الى القســـطنطينية وقد فرغ ما معهم من المال ، وأزعجتهم مشقة الطريق ٠

ولما أنتهى تشاور العاهلين مع قواد الجيش الـــكبار تخلى الاثنان عن الطريق الواقع الى اليسار والذى كان الامبراطور قد سلكه من قبل ، ويمما وجهيهما شطر آسيا الصغرى ، جاعلين « فريجيا » بشطريها على يمينهما ، و « بيثينيا » من ورائهما ، وزحفت الجيوش تارة عبر الطريق الداخلى وتارة عبر الساحل ، جاعلة « فيلادلفيا » على يسارها ، فكانت « أزمير » أول محطة وصول

بلغوها ٠ واتجه الجميع منها الى « افسوس » قصبة آسيا الصغرى التى ذاعت شهرتها بأن الحوارى الانجيلى «يوحنا » بشر فيها وعاش بها ، حتى اذا مات ضمت جثمانه تحت ثراها ٠

ولما بلغوا « افسوس » فرض الامبراطور على من بقى حيا من عسكره الارتداد برا ، أما هو فقد أبحر عائدا الى القسطنطينية ٠

ولسنا ندرى الأسباب التى حملته على الذهاب الى القسطنطينية الا اذا كان ما أحسه من شجى ومرارة على الهلكى الكثيرين من جيشه الذين كانوا تحت قيادته ، أو ربما مرجعها ما لقيه من صلف الفرنسيين الذى لا يحتمل ٠ ولقد رحب به امبراطورها ترحيبا فاق ترحيبه به أول مرة ، فظل مقيما بها هو وكبار رجالاته حتى مستهل الربيع التالى ، وكان العاهلان البيزنطى والتيوتونى تربط بينهما رابطة المصاهرة ، فزوجتاهما شقيقتان اذ هما ابنتا(٢٦) « برينجار » الكبير كونت « سولزباخ » أحد الأمراء الأشراف الكبار ، وكان صاحب سطوة نافذة كل النفوذ فى مملكة التيوتون ، وأخذ الامبراطور البيزنطى منذ ذلك الحين فى اظهار عطفه الجميل على « كونراد » واستجاب لرجاء الامبراطور فسخا عليه وعلى من معه من النبلاء أكرم سخاء ، وعمهم جزيل فضله ٠

(٢٤)

كان ملك الفرنجة فى هذه الأثناء منهمكا مع نبلائه فى اعداد ترتيبات الزحف ، وكان قد توقف عند « أفسوس » ليتيح لجيشه فرصة يستجم فيها بعد الانهاك الذى حل له ، وحدث اذ ذاك أن توعك « جى كونت بونتييه » وعكة انتهت بوفاته ، وكان مشهورا بمهارته الحربية وشدة بأسه ، فدفنوه فى احتفال مهيب فى ساحة كنيسة « أفسوس » التى رحل الملك منها بعدئذ بصحبة كل جيشه مسرعا ما وسعه الاسراع الى الشرق فاستغرق الزحف منه بضعة

أيام وصل بعدها الى مخاضات نهر « مياندر » الذى تكثر عنده طيور البجع ، وهذا النهر هو الذى عناه شاعرنا « ناســـو » فى كتابه المسمى « هيرويد » اذ قال :

« حينما ينادى منادى الموت أن اســـتلق على العشب الرطب ، فان البجعة البيضاء تغنى على مياه مياندر الضحلة » ·

ونصب الملك خيامه وسط المروج الخضــــراء الواقعة على شاطىء هذا النهر ، وهنا تحققت رغبة الفرنجة الذين كان قد طال شوقهم لرؤية خصمهم ، اذ بينما كان المسيحيون يحاولون الاقتراب من النهر اذا بجموع غفيرة من الترك تظهر على شـــاطئه المقابل وتحول بينهم وبين ركوبه ، لكنهم تمكنوا أخـــيرا من العثور على المخاضات واستطاعوا رغم مقاومة العدو أن يشقوا لهم طريقا عبر النهر ، فهاجموا الترك وفتكوا بالكثيرين منهم ، وأســـروا أعدادا ضخمة من رجالهم ، مما حمل بقيتهم على الفرار ، وسرعان ما استولى الفرنجة المنتصرون على المعسكر التركى الذى وجدوه زاخرا بكل أنواع الأسلاب وشتى ضروب الغنيمة ، وتمكنوا ببأسهم القوى من السيطرة على الضفة الأخرى من النهر ·

وأمضى الصليبيون ليلة ناعمة هادئة مستبشرين بنصـــرهم الذى حازوه ، وفرحين بالغنائم النفيسة التى أصابوها ، حتى اذا تنفس الفجر أخذوا يعدون العدة لمواصلة الزحف ، وتقدموا فبلغوا « اللاذقية » احدى مدن ذلك الاقليم فتجهزوا بها ــ كدأبهم ــ بالمؤونة التى تكفيهم عدة أيام ، ثم ساروا جميعهم كتلة واحدة ·

كان هناك جبل شديد الانحدار صعب المرتقى يسد الطريق أمام الجيش الزاحف الذى كانت خطته تفرض عليه أن يتسلقه فى يومه هذا ، وجرت عادتهم فى حملتهم هذه أن يختاروا كل يوم فريقا من الرجال البارزين يلقون اليهم مقاليد القيادة ، فتوكل الطليعة الى بعضهم ، ويكلف غيرهم بأن يكونوا فى المؤخرة لحراســـتها والحفاظ على من لا يحاربون لاسيما العامة الذين يسيرون على أقدامهم . كذلك ألقى على عاتق هؤلاء الرجال مهمة التنسيق مع الزعماء فى اختيار الطريق الذى ينبغى عليهم السير فيه ، فيعرفونهم بمقدار طوله وبالموضع الذى يضربون به خيامهم فى اليوم التالى الذى ما كادوا يصلونه حتى وقع الاختيار على أحدأشراف«أكويتانيا» واسمه « جوفرى دى رانكون » فأقبل يحمـــل راية الملك وارتقى الجبل مع الطليعة التى أصدر اليها أمره أن تعسكر على المرتفعات ، فبلغوا القمة وقد أتلع النهار ومازال باقياً منه وقت طويل ، فعزم « جوفرى » رغم ما تقرر على أن يتقدم قليلا لأنه رأى أن المسافة التى قطعوها فى ذلك اليوم كانت قصيرة جداً ، ثم جاءه الأدلاء فأكدوا له أن هناك موضعا أحسن من هذا الموضع يصلح أن يعسكر الجند فيه ، فتابع سيره انصياعا لأمر هؤلاء الأدلاء .

ولما كان الظن عند من هم وراء الطليعة أن المعسكر منصوب فوق قمة الجبل فقد اعتقدوا أن زحف يومهم هذا قد بلغ غايته ، ومن ثم راحوا يتلكؤون فى سيرهم ويبطئون فى مشيتهم اذ لم تساورهم ريبة تدعوهم للحذر ، وهكذا انشطر الجيش شطرين ، فتمكن أحدهما من عبور النتوء الجبلى ، على حين كان الثانى لايزال متمهلا فى سيره ولكن فوقه،ولما كان الترك يتربصون فرصة للاغارة عليهم فانهم ســـرعان ما أدركوا حقيقة الموقف لأنهم كانوا فى الواقع يتابعون الجيش فى انتظار هذه اللحظة ، وكانوا يرصدون عن قرب تحركات

الصليبيين رصدا دقيقا ، وكان الطريق شديد الضيق والعسـكر مبعثرين فى كل ناحية لأن الجانب الأقوى والأكبر من الجيش كان قد سبقهم ، وهنا أدرك الأتراك أن لن يكون من اليسير على هذا الفريق أن يعرف شـيئا عن الصـفوف الخلفية التى ان وقعت فى مأزق فلن تأتيها النجدة من ذاك الفريق ، فاغتنموا هذه الفرصة السانحة واحتلوا قمة الجبل ليزيدوا من الارتباك فى صفوف مقدمة جيشنا وفى مؤخرته ، ثم رتبوا صفوفهم وأغاروا على قواتنا التى فوجئت بالهجوم عليها قبل أن تنهض لانتضاء السـلاح ، ومالبث القتال أن دار بالأقواس والسـهام ، ونظرا لأنهم صـاروا على مقربة منهم فقد راحوا ينهشون الصليبيين بسيوفهم ، وأفحشوا القتل فيهم وألحقوا بهم البوار ، وتتبعوا من حاول الفرار كأبشع مايكون التتبع، وقامت الشعاب الضيقة عقبة كأداء فى طريق قواتنا التى أنهك طول السير جيادها ، وأرهقها وعث الطريق ، وبالاضافة الى ذلك كله فقد عاقهم كثرة ما معهم من الأمتعة لكنهم صمدوا كل الصمود فى شجاعة ملحوظة ، وحاربوا دفاعا عن حياتهم وحريتهم وعن رفاقهم الذين زاملوهم الطريق ، واستمروا فى القتال بالسيوف والرماح يشجع بعضهم بعضا بالكلمات ويمتدحون جهودهم فى مواصلـة القتال ٠

أما الترك فقد حاولوا من جانبهم ـ أملا منهم فى النصر ـ أن يشد كل منهم أزر أخيه ـ ومضوا يستعيدون فى أذهانهم كيف استطاعوا منذ أيام قلائل أن يقضوا على جيش أضخم من هذا الجيش دون أن ينالهم هم أنفسهم كثير من العطب ، وتذكروا كيف انتصروا فى سهولة على قواتنا رغم انها كانت تفوقهم عددا وتشاؤهم بأسا ٠

وطال القتال بين الجانبين دون أن يتبين أحد نتيجته ، الا أن الغلبة كانت فى النهاية للكفار على قواتنا وذلك بسبب خطايانا ، فلقى كثيرمن الصليبيين مصارعهم ، ووقعت فى الأسر منهم جموع

غفيرة فتضاءل عدد عسكرنا تضاؤلا كبيرا ، وهلك فى هذا اليوم كثيرون من علية القوم وأشرافهم ، كما قتل رهط ممن يشار اليهم بالبنان نظرا لأمجادهم الحربية ، وهم أهل الذكر العاطر ، ومنهم « كونت فارن » وهو الذى كان من الســـادة العظـــام المبرزين ، و « جوتييه دى مونت جوى » ، و « ايفرارد دى بريتل » و « ايتييه دى منجناك » وكثيرون غيرهم ممن لا تعى الذاكرة أسماءهم ، ولكنا نؤمن بأنهم مخلدون فى الجنان وستبقى ذكراهم حية على الدوام ٠

* * *

ولقد ضاعت فى هذا اليوم شهرة الفرنجة الرائعة فى خطب كان من أشد الخطوب ، وفى نكبة كانت من أفدح النكبات التى حاقت بالصليبيين ، ذلك أن بسالتهم التى كانت حتى هذه اللحظة مضرب الأمثال عند الشعوب هوت الى الحضيض وأصبحت سخرية فى عيون الأمم النجسة ، بعد أن كانت بالأمس مصدر فزع لها ٠

فلماذا ياسيدى عيسى المبارك تقضى بالهزيمة على هذا الشعب المخلص لك ، المحب لاقتفاء خطـــاك وتقبيل الأماكن الطاهرة التى أكرمتها بوجودك الشخصى فيها ؟

ولماذا قضيت ياسيدى عيسى أن تنزل بشعبك هذه الهزيمة على يد الكارهين لك ؟!

حقا ان أحكامك أشبه ما تكون بهوة سحيقة ما لها من قرار ولا يستطيع أحد ادراكها ، لأنك أنت وحدك أيها السيد القادر على عمل كل شىء ، ولا قدرة لأحد ما على مقاومتها !! ٠

(٢٦)

فى هذه الأثناء تمكن الملك بالصدفة وليس بمجهوداته أن ينجو رغم هذا الخطر والاضطراب ، فقد اغتنم السكون المخيم على الكون

وقد انتصف الليل وخرج من غير مرشد ، وتسلق منحدر الجبل الذى طالما أشرنا اليه ، واستطاع بنفر قليلين أن يصل الى المعسكر الذى كان قد اقامه على بعد من هنا ، وكانت طليعة الجيش (كما قلنا) فى اثناء تتبعها الراية الملكية قد اجتازت ممرات التل دون أن تجد معارضة ، ولم يكن رجال هذه الطليعة يعلمون بشىء مما جرى للجيش الذى وراءهم ، لكنهم شكوا وتوجسوا خيفة لعدم وصول القوات وتأخرها الطويل ، وساورهم القلق بأن شرا مستطيرا قد حدث ، وتملكهم الاحساس بأن الأمور تجرى على غير ما يحبون . ثم تأكد عندهم وقوع هذا الشر المحزن حين جاء الى معسكرهم من فروا مع الملك ، فساد الغم الجيش كله ، وتملك القلوب جزع عنيف ، وراح كل واحد منهم يفتش وينادى بصوت أبحه الصياح وأنات باكية عن عزيز له ، ثم يتضاعف حزنه حين لا يجده ، ورددت أرجاء المعسكر أصداء البكاء والنحيب واستبد الوجد بالجند ، ولم تخل ناحية من نواحى المعسكر من باك على صديق له ، أو قريب له ، فهذا يبحث عن أبيه ، وآخر يفتش عن مولاه ، وتلك امرأة تنشد ولدها ، وغيرها تلتمس أين يكون زوجها ، ولم تغمض عين فى تلك الليلة لمن آبوا بالفشل فى بحثهم عمن يهمهم أمرهم ، وزاد من شجاهم وضاعف من الهم ماتوقعوه من أمر أشد خطورة ربما أصاب الغائبين .

على أنه وفد فى أثناء هذه الليلة الى المعسكر رهط من كل طائفة استطاعوا بطريق الصدفة (لا الترتيب والاعداد) النجاة من الهلاك ، وذلك بالاستخفاء فى الغابات وبين الصخور أو فى الكهوف والمغارات ، ووجدوا فى الظلام ساترا رحيما بهم .

لقد كان وقوع هذه المحنة فى يناير من سنة ١١٤٨ .

وشهد المعسكر منذ ذلك الحين عجزا فى الخبز وجميع مواد التموين الأخرى ، أضف الى ذلك أنهم ظلوا بضعة أيام طويلة

وليس عندهم سوق لشراء أى شىء ، غير أن النكبة التى كانت أدهى من ذلك كله وأفدح هى أنه لم يكن معهم أدلاء يرشدونهم على المسالك ، ويدلونهم على الدروب ، ومن ثم تشردوا وهاموا على وجوههم هنا وهناك ، اذ لم يكن لهم دراية بالناحية التى هم فيها ، ولم ينقذهم مما هم فيه الا دخولهم أخيرا اقليم « بامفيليا » مجتازين الممرات الجبلية والأودية العميقة،ولاقوا فى ذلك عنتا كبيرا وان لم يصطدموا بالعدو ، حتى قيض لهم النجاح أخيرا فى بلوغ « أضاليا » عاصمة تلك الناحية ٠

وتقع « أضاليا » على ساحل البحر ، وهى تابعة لامبراطورية القسطنطينية ، كما أنها حافلة بالمزارع الخصبة وان كانت غير ذات جدوى لأهلها اذ كان الأعداء يحيطون بهم من كل جانب فيمنعونهم من فلاحتها مما أدى الى بقاء أرضها الخصبة بورا لعدم وجود من يقوم بزراعتها ، ومع ذلك فان زوار هذا المكان لا يعدمون أن يجدوا فيه فوائد جمة ، اذ تكثر به المياه الصحية الصافية ، وتتوافر به أشجار الفاكهة ، كما يأتيه القمح من وراء البحار فى كميات ضخمة، لذلك كان رواد هذا المكان ينعمون بجميع ضروريات الحياة ٠

و « أضاليا » تتاخم مباشرة أرض العدو ، ولما وجدت أنه من المستحيل عليها أن تصمد فى وجه العدو لاستمرار هجماته عليها فقد أذعنت لدفع الجزية له ، مما ترتب عليه استمرار متاجرتهـــا معه فى الأشياء الضرورية ٠

ولما كان جندنا يجهلون اللغة اليونانية فقد حرفوا اسم هذه المدينة الى ستاليا » ، ومن ثم فان كل الجزء من البحر الممتد من نتوء « ليسيدنا » حتى جزيرة قبرص يسمى بالبحر الأتالـى ، أما فى اللهجة الدارجة فيعرف بالخليج الساتالى ٠

ولقد كابد ملك الفرنجة وقومه المتاعب وهم فى « أضاليا » بسبب النقص الحاد فى الطعام الوارد الى جانبكثرةأعدادالوافدين الى هناك ، والواقع أن من ظلوا أحياء من العسكر ــ لاسيما فقراؤهــ كادوا أن يهلكوا جوعا ، لذلك ترك الملك وراءه هنا من لا ظهر عندهم يركبونه ، واعتلى هو وأشرافه السفن وأبحروا جاعلين « ايسوريا » وكيليكية على يسارهم ، وجزيرة قبرص على يمينهم ، وكانت رحلة بحرية قصيرة وانتهم فيها الريح طيبة فدخلوا بعدها مصـــب نهر العاص الذى يجرى قرب أنطاكية ، ثم أرســـوا (يوم ١٩ مارس ١١٤٨)(٢٧) فى الموضع المعروف الآن باسم ميناء القديس سمعان قرب مدينة « سلوقية » القديمة وذلك على بعد عشرة أميال من أنطاكية ٠

(٢٧)

ظل أمير أنطاكية يترقب طويلا فى لهفة وصول ملك الفرنجة ، فلما عرف أنه نزل فى امارته استدعى اليه جميع أشرافها ووجوه أعيان عامتها ، وخرج لاستقباله فى رهط مختار منهم ، وتلقى الملك باحترام عظيم ، وسار به فى أبهة رائعة وموكب مهيب شق به أنطاكية حيث كان فى استقباله رجال الدين والأهالى ٠

والواقع أن «ريموند» ما أن سمع منذ فترة بعيدة بقرب وصول الملك لويس (السابع) حتى خامرته فكرة الاستعانة بمساعدته اياه لتوسيع حدود إمارته انطاكية ، والواقع أن هذه الفكرة كانت فى خاطره حتى قبل أن يشرع الملك الفرنجى رحلة حجه هذه ، ومن ثم فقد أرسل اليه ــ وهو لايزال فى فرنسا ــ كمية ضخمة من الهدايا والأشياء الغالية أملا فى كسب مودته ، كما أنه اعتمد كثيرا على

ما كان للملكة (اليانور) من تأثير طيب كبير على جلالة الملك لأنها كانت رفيقته فى حجه ، ثم انها كانت كبرى بنات وليم كونت بواتو شقيق ريموند ٠

لذلك كان اهتمام ريموند كما قلنا عظيما بالملك حين دخوله ، كما أظهر نفس الرعاية لجميع رجال الحاشية الملكية ونبلائها ، وبسط لهم كفه بسطا سخيا ، ومختصر القول انه أبدى كل ما فى وسعه لتقدير كل فرد من الحاشية تقديرا يتكافأ ومكانته ، وأحاطهم جميعا بأعظم أنواع التبجيل ، فقد كان أمله معقوداً فى أن يستطيع بمعونة الملك وقواته له أن يحمل المدن المجاورة له على الخضوع لسلطانه ، وأعنى بهذه المدن حلب وشيزر وغيرهما ، وكان يدرك أنه هيهات أن يذهب هذا الأمل هباء لو أنه استطاع اغـراء الملك وسـراة من معه بمشروعه ٠والحق أن مجيء لويس بث الفزع الشديد فى نفوس أعدائنا حتى لقد تسـرب اليهم اليأس من قوتهم بل ومن الحياة ذاتها(٢٨) ٠

ولقد فاتح « ريموند » الملك (لويس) على انفراد وفى مرات عديدة عما يجول بخاطره من هذه الخطط ، ثم جاء بعد ذلك أمام حاشية لويس وخاصة أشرافه وراح يشرح لهم شرحا مفصلا دقيقا كيف يكون السبيل لتحقيق مبتغاه ورجائه من غير أدنى صعوبة ، كما بين لهم فى الوقت ذاته ما يعود عليهم من الجدوى وحسـن الأحدوثة ٠

أما من ناحية الملك فقد كان شديد اللهفة للذهاب الى القدس لاتمام رحلة حجه ، وكان ذلك منه عزما صادقا لا يثنيه ثان عن الوفاء به ، فلما رأى ريموند عجزه عن حمل الملك على تأييد دعواه بدل من اتجاهه نحوه ، ورأى حبوط مشاريعه الطموحة فقد أبدى كراهيته لخطط الملك ، وراح يتآمر ضده جهرا ولا يتورع عن أى وسيلة تؤدى

الى الحاق المضرة به وايذائه ،فعزم على أن يحرمه من زوجته اما قسرا أو بالمؤامرة يدبرها فى الخفاء ، واستجابت الملكة لريموند لما هى عليه من الرعونة والطيش ، وكان سلوكها قبل هذا الحين وبعده كما قلنا سلوكا يفصح لنا عن أنها كانت امرأة أبعد ما تكون عن التصون ، فنهجت نهجا لا يليق أبدا بمكانتها الملكية ، فلم تراع التزاماتها الزوجية ولم تخلص لزوجها ٠

ما كاد الملك يكتشف هذه المؤامرات حتى اتخذ الوســـائل الكفيلة بالحفاظ على حيـــاته وســـلامته واحتاط من خطط الأمير (ريموند) ، وسرعان ما استجاب للرأى الذى أسداه اليه كبار اشرافه ،وبادر بالرحيل عن انطاكية سرا مع قومه ، وهكذا تغيرت روعة مجرى ما كان اعتزمه كل التغيير وخالفت الخاتمة البداية تمام المخالفة ، واذا كان حضوره مصحوبا بالأبهة والتعظيم فان الحظ القلب جعل النهاية مشينة ، واتسم رحيله بالتجاهل ٠

وينسب البعض هذا المصير الى خساسة سلوك الملك ، ويذهبون للقول بأنه لقى ما يستحقه لأنه لم يستجب الى التماس امير كبير جليل القدر عامله وحاشـــيته معاملة طيبة ، واحـــاطهم بالرعاية الكريمة ، وهذا أمر له اعتباره لأن لأصحاب هذا الرأى مصلحة خاصة فيما راحوا يؤكدونه على الدوام من أن لو كان الملك قد كرس نفسه لهذا العمل لسقطت فى سهولة واحدة أو أكثر من واحدة من المدن المشار اليها ٠

(٢٨)

أما الامبراطور « كونراد » فقد أمضى الشـــتاء فى المدينة الملوكية حيث صادف من امبراطور القسطنطينية أحســـن المعاملة اللائقة بأمير كبير فى مثل مقامه ، فلما حان وقت رحيله أغدق

مانويل عليه كثيرا من الهدايا الرائعة ، ثم ابحر هو ومن معه من النبلاء الذين فى حاشيته الى الشرق فى أسطول جهزه لهم جلالة الامبراطور فأرسى بهم فى ميناء عكا ، حيث تابع زحفه الى مدينة القدس فخف لاستقباله وهو لايزال خارجها الملك بلدوين و « فولشر » البطرك الطيب الذكر مع رجال الدين وعامة الشـــعب ، وتلقوه بالأناشيد والأهازيج ، ودخلوا به بيت المقدس •

* * *

كما أرسى فى الوقت ذاته (ابريل ١١٤٨) فى ميناء عكا رجل عظيم القدر ، بارز المكانة هو « الفونس كونت تولوز » الابن الأكبر للقائد العظيم كونت ريموند (الصنجيلى) الذى حارب فى الحملة الصليبية الأولى وقام فيها بعبء كبير ، وترجع بعض عظمة الابن الفونس الى مكانته الخاصة ، كما يرجع بعضها الى الذكرى العطرة التى خلفها أبوه ، وبينما كان الفونس فى طريقه الى القدس لأداء واجب الشكر على نجاح رحلة حجه توقف عند مدينة «قيصرية» الساحلية ، لكن لم تنقض أيام قلائل من وصوله اليها حتى داهمه مرض أسلم اثره روحه ، وقالت الشائعة انه مات بسم دسه له البعض فى طعامه وان لم يعرف أحد من ذا الذى دبر هذه الجريمة النكراء فى الوقت الذى كان فيه الناس قاطبة يتلهفون على مجيء هذا الرجل الخالد الذكر ، اذ كان الأمل معقودا عليه فى أن يوفر للمملكة ما أراده لها أبوه من النجاح والثمار الطيبة •

(٢٩)

ترددت الأخبار فى هذه الأثناء فى مملكة بيت المقدس بأن ملك الفرنجة (لويس السابع) غادر انطاكية وأصبح على مقربة من طرابلس ، فأجمع العقلاء الرأى فى لحظتهم هذه على أن يبعثوا اليه بالطيب الذكر « فولشر » بطرك بيت المقدس للترحيب به ودعوته

الدعوة اللائقة به لزيارة المملكة ، وكان الحامل لهم على ذلك هو ما تسرب الى نفوسهم من الخوف من أن يتصافى معه أمير انطاكية فيرده اليها ، كما خافوا أن يقوم كونت طرابلس قريب الملك فيعيق سيره فتضيع فى كلتا الحالين رغبات الأهالى فى بيت المقدس .

كانت أملاك اللاتين فى الشرق موزعة فى أربع ولايات ، أولاها فى الجنوب وهى مملكة بيت المقدس التى تبدأ من مجرى الماء الواقع بين « جبيل » وبيروت ،وهما المدينتان البحريتان لولاية « فينيقية » ، وتنتهى هذه المملكة عند الصحراء الواقعة وراء الداروم .

أما الامارة الثانية فتقع شمال مملكة بيت المقدس ، وهى كونتية طرابلس التى تبدأ من عند ذلك المجرى المائى الذى أشرنا اليه حالا وتمتد الى مجرى مائى آخر يقع بين « مرقية » و « فالينيا » .

وأما الثالثة فامارة انطاكية التى تبدأ من النبع الأخير المشار اليه وتمتد غربا الى طرسوس فى كيليكية .

وأما الولاية الرابعة فكانت كونتية الرها التى تبدأ من عند الغابة المسماة بغابة « مريم » وتمتد شرقا الى ماوراء الفرات .

* * *

وقد اتضح منذ البداية أن الأمل كان يراود كل واحد من أصحاب هذه الامارات الكبار الأقوياء فى أن يستطيع أن يمد رقعة أملاكه وحدود ولايته بفضل المعاونة المجدية التى يمده بها هذان العاهلان القادمان عليهم ..

وكان لجميع هؤلاء الأمراء أعداء ذوو بأس شديد من أصحاب المدن المتاخمة لأراضيهم وطالما تطلعوا لضمها الى ما فى يدهم ،

وكانوا كلهم فى فزع مابعده فزع على مصالحهم وكل منهم يطمع فى توسيع ممتلكاته ، ومن ثم فقد كان كل منهم يحاول أن يسبق غيره فيرسل للعاهلين الرسل محملين بالهدايا ، ويوجه اليهما الدعوات لزيارته • وكان من الواضح أن تحقيق آمال ملك بيت المقدس ورغبات شعبها أقرب للاستجابة ، لأنه يكون من الطبيعى أن يدفع ما فى قلبى لويس وكونراد من الحب للأماكن الطاهرة والتوقير العظيم للذهاب الى هذه البقاع الشريفة ، هذا بالاضافة الى أن الامبراطور كان الآن معهما ، وكان هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن ملك الفرنجة لابد وأن يعجل هو الآخر بالذهاب الى هناك لأداء مناسك حجه وانجاز صلواته والقيام ببعض الأمور لخدمة المسيحية حسبما يراه الجميع صالحا •

وكان الخوف الشديد يتملك زعماء المملكة من أن يبقى الملك (لويس السابع) فى اقليم حلب مدفوعا الى ذلك البقاء بواسطة الأمير (ريموند) الذى يرتبط به بروابط المصاهرة والحب الوثيق وهذا أمر كان يبدو كثير الاحتمال •

كذلك خافوا من تدخل الملكة ، ومن ثم ارسلوا البطرك لمقابلته •

على أنهم حين علموا بالفجوة التى تفصل بين الأمير ريموند والملك من جراء أمور هى أبعد ما تكون عن الصداقة انتعشت الآمال فى الصدور أكثر من ذى قبل ، وطمعوا أن يبادر الملك الفرنسى فيغادر الناحية ويأتى الى بيت المقدس على جناح السرعة ، غير أن تحسبهم لتقلبات القدر وخوفهم من وقوع أمور ليست فى الحسبان حملاهم على ارسال البطرك الموقر لتوظيف نفوذه مع الملك (لويس) ولم يذهب أملهم هذا بددا ، فقد استطاعت كلمات « فولشر » أن تستميل الملك (الفرنسى) الذى نهض فى الحال الى بيت المقدس

فهب لاستقباله جميع رجال الدين والشعب ، وساروا به الى المدينة يحوطونه بما يليق به من التوقير والاجلال وما فى قلوبهم من الغبطة ثم ساروا به وبمن معه من النبلاء الى الأحرام الطاهرة ، يزفونهم بالأهازيج ، ويرتلون التراتيل الدينية بين أيديهم ٠

ولما فرغ الملك من أداء صلواته على ما جرت به العادة نودى فى مدينة عكا نداء عاما لسماع ما أسفر عنه هذا الحج العظيم من النتائج ، وما تمخض عنه من جليل الأعمال ، وزيادة رقعة المملكة ٠

ولما جاء اليوم الموعود اجتمعوا فى عكا حسب ما اتفقوا ، وراحوا يتداولون أى الخطط الملائمة التى يجب عليهم اتباعها ، واجتمع معهم اشراف المملكة من الملمين بدقائق الأمور العـالمين بالأماكن المختلفة ٠

هنا ينتهى الكتاب السادس عشر

حواشى الكتـــاب السادس عشر

(١) الرسالة الأولى الى أهل كورنثوس ، ١٣/١١ ٠

(٢) لم يصرح وليم الصــــورى عن ماهية هذه « الذمة » التى كان يمارسها بلدوين فى صدر شبابه ثم تاب عنها ، وربمـــا كان وليم يقصـد ما أشار اليه قبل بضعة أسطر من افساده روابط الزوجية عند البعض ، وممارسته من وسائل اللهو ما يستنكره وليم لاسيما وهو رجل دين ٠

(٣) الواقع أن « يوجين » الثالث الذى يشير اليه وليم فى المتن أعلاه كان قد اعتلى كرسى البابوية بروما سنة ١١٤٥م ٠

(٤) المزامير ٩٤/٦ ٠

(٥) أعمال الرسل ٨/٢٠ ٠

(٦) حدد ياقوت فى معجمه موقع « وادى موسى » هذا بأنه فى جنوب القدس بينها وبين الحجاز ، وقال عنه انه غاص بأشجار الزيتون ٠

(٧) القلعة المشار اليها فى المتن هى قلعة « دوسر » أو « جعبر » ٠ أما حاكم البلد حينذاك فكان الأمير عز الدين على بن مالك بن سالم ، وأما ما جرى بعد ذلك من أحداث فقد ذكرها ابن القلانسى فى ذيل تاريخه لدمشق ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ، حيث ذكر أن أحد خـدم عمـــاد الدين زنكى واســـمه

« بيرتنش » وهو فرنجي الأصل كان يحقد على زنكى لاساءة سبقت منــه اليه فأسرها فى نفسه ، فلما وجد غفلة منه فى ســكره دبر الوثوب عليه « ووافقه بعض الخدم من رفقته فاغتالوه » ليلة الأحد سادس ربيع الآخـر سنة ٥٤١هـ ، ويعلق ابن القلانسى على ذلك فيقول « فتفرقت جيوش زنكى أيدى سبأ ، ونهبت أمواله وخزائنه ، وقبر هناك بغير تكفين الى ان نقل ـ كما حكى ـ الى مشهد على بالرقة » .

(٨) الواقع أن هذا الوالى هو « التنتاش » أو « الطنطاش » ويصفه ابن القلانسى فى كتابه ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٩ بأنه غــلام أمين الدولـة كمشتكين الاتابك .

(٩) صلخد ، وقد يقال لها صرخد ، وهى عند الصليبيين Salchas وتقع فى اقليم حوران قرب بصرى التى هــى Bostra فى الحوليات الصليبية . وتعتبر من اقدم مدن الناحية ، وهى مبنية كلها من الحجـارة السوداء ، ويصف ياقوت صلخد فيقول انها قلعة شديدة الحصانة ، ويقول الدمشقى عن هذه القلعة انها قرب جبل بنى هلال الذى يسمى أيضا بجبل الريـان .

(١٠) « التونتاش » هو المقصود بالعظيــم الذى ينعته به وليم ، فهو « عظيم » من وجهة نظره لموقفه المستنكر من الجانب الاسلامى .

(١١) لم نقف على قصــة هذا الزواج فى المراجــع العربية التى بين أيدينا ، هذا على الرغم من أن الترجمة الانجليزية أشارت الى :
Gibb, Damascus Chronicle PP. 275 — 6.
لكنا لم نجد هناك ما يشير الى هذا الأمر .

(١٢) الضمير هنا عائد على « أنــر » .

(١٣) اقليم التراخونيتس Trachonitis هو أقليم « اللجا » من أعمال دمشق فى ولاية حوران ، وكلمة « التراخونيتس » أصلا يقصد بها الاقليم البركــانى التربة ، ويعرف فى بلاد الشــام باسم « اللجـا » أو « اللجـة » .

(١٤) لوقا ٢/١ .

(١٥) التونتاش هو المعنى بالنبيل ، واما المدينة فيقصد بها «بانياس» .

(١٦) لم نستطع الاستدلال على هذا الوالى الذى يسميه وليم بموريل وما نحسب الخبر الا مختلقا ومن خيال المؤلف .

(١٧) مرقص ٧/٣١ .

(١٨) يقصد وليم بالقائد هنا ذلك الفارس الذى يبدو وكأنه شبح يظهر للصليبيين فيقودهم فى الطريق الصحيح حتى اذا بلغوا غايتهم اختفى حسبما يذكر المؤلف ذلك حالا .

(١٩) لوقا ١٥/٢٤ .

(٢٠) اشار ابن القلانسى الى أن التونتاش والى صرخد وهو غلام أمين الدولة كمشتكين حدثته نفسه بمقاومة متولى دمشق معتمدا على مساعدة الافرنج له ، فخرج من ناحية صرخد الى ناحية الافرنج للاستنفار بهم ... ولم يشعر بما نواه معين الدين من ارهاقه بالمعاجلة فحال بينه وبين العود ... ولم تزل المراسلات مترددة من الفرنج الى معين الدين بالتلطف واصلاح الأمر والوعد والوعيد والتهديد ان لم يجب الى المطلوب .... ومعين الدين لايعدل عن المغالطة والمدافعة ، وراسل نور الدين يسأله الاتحاد على العدو فأجابه .... وتجمع الافرنج ، ثم وصل « التونتاش » بجهله وسخافة عقله الى دمشق من بلاد الافرنج بغير أمان ولا تقرير استئذان توهما منه أنه يكرم بعد الاساءة القبيحة والارتداد عن الاسلام ، فاعتقل فى الحال ... فسمل واطلق الى دار له بدمشق فأقام بها ، راجع ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ، ص ٢٨٩ ــ ٢٩٠ .

(٢١) النص كما جاء فى التثنية ٣٢/٢٥ هو « من خارج السيف يثكل ، ومن داخل الخدور الرعبة » .

(٢٢) سبقت الاشارة الى هذا المجمع فى الجزء الأول من هذه الترجمة العربية ، راجع الكتاب الثالث ، الفصل الأول .

(٢٣) المزامير ١٠٧/٤٠ .

(٢٤) المقصود بالعسكر الصليبى هنا التيوتون الألمان .

(٢٥) المقصود بكلمة « عسكرنا »هنا الجماعات التيوتونية وليس عسكر بيت المقدس ، ويلاحظ استعمال المؤلف وليم الصورى لضمير المتكلم ذلك لأنه يعتبر هذه الجماعات الالمانية والفرنسية القادمة فى هذه الحملة فريقا من الصليبيين الذين فى الشرق بدافع الرابطة الأوربية المسيحية التى تربطهم أصلا بعضا ببعض ٠

(٢٦) كانت برتا السـلزباخية Berta of Sulzbacf أخت زوجة الامبراطور كونراد الثالث ، وقد خطبها الامبراطور يوحنا الثانى فى حياته لولده مانويل الذى أراد توثيق تحالفه وعلاقاته مع المانيا فتزوجها ٠ ثـم ان هذا الزواج كان نابعا ـ كما يفسره العالم الروسى استروجورسكى فى كتابـه :

History of The Byzantine State, trans. by J. Hussey, Oxford, 1968, P. 381.

عن الرغبة فى توحيد القوتين الالمانية والبيزنطية للوقوف فى وجه النرمنديين، ولما صارت الأميرة « برتا » هذه امبراطورة على الدولة البيزنطية غيروا اسمها الى « ايرين » ٠ وقد تم زواج مانويل بها سنة ١١٤٦ ، انظر فى ذلك :
Chalandon : Les Gomnincs II, P. 210 et seq.

(٢٧) التاريخ الوارد بين الحاصرتين من الترجمـة الانجليزية لكتابنا هذا ٠

(٢٨) من العجيب أن هذه الحملة الصليبية الثانية ذات الأحداث الكبيرة العجيبة فى تاريخ بلاد الشام وفى مسيرة الحركة الصليبية لم تستغرق من عناية ابن القلانسى المؤرخ الشامى سوى بضـعة أسطر ، هذا الى جانـب الاضطراب فى تفسير الصلات بين الأوربيين الألمان والفرنسيين من ناحية وبين البيزنطيين من ناحية أخرى،فكان كل ماقالهعنها« ٠٠وفىهذهالسنةوأصلت الأخبار من ناحية القسطنطينية وبلاد الافرنج والروم وما والاهـا بظهور ملوك الافرنج من بلادهم منهم ألمان والفنش وجماعة من كبارهم فى العـدد الذى لا يحصر ، والعدد التى لاتحرز لقصد بلاد الاسلام بعد أن نادوا فى سائر بلادهم ومعقلهم بالنفير اليها والاسراع نحوها ، خلوا بلادهم وأعمالهم خالية من حماتها والحفظة لها ، واستصحبوا من أموالهم وذخائرهم وعددهم الكثير الذى لايحصى ، بحيث يقال ان عدتهـم ألف ألف عنان من الرجالة والفرسان ، وقيل أكثر من ذلك ، وغلبوا على أعمال القسطنطينية ، واحتاج

ملكها الى مداراتهم ومسالمتهم والنزول على أحكامهم ، ولما شاع خبرهـم ، واشتهر أمرهم وشرعت ولاة الأعمال المصاقبة لهم وأطراف الاسلام القريبة منهم فى التأهب للمدافعة لهم ، والاحتشاد على المجـاهدة فيهم ، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم التى تمنعهم من العبور والنفوذ الى بلاد الاسلام وواصلوا شن الغارات على أطرافهم ، واستمر القتال فيهم والفتك بهم الى أن هلك منهم العدد الكثير ، وحل بهم عدم القوت والعلوفات والمير وغـلاء السعر اذا وجد ، وفنى الكثير منهم بموت الجوع والمرض ، ولـم تـزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء أعدادهم الى أواخر سنة ٥٤٢هـ ، بحيث سكنت النفوس بعض السكون ، الى نساد أحوالهم بعض الركون » • انظر ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٩٧ -

فصول الكتــاب السابع عشر

١ ـ عقد مؤتمر عام فى عكا الواقعة قرب الساحل · أسماء من حضروا هذا الاجتماع ·

٢ ـ المجتمعون يقررون فرض الحصار على مدينة دمشـــق ويزحفون عليها حسب اتفاقهم ·

٣ ـ وصف موقع دمشق ·

٤ ـ الصليبيون يشقون طريقهم بين المزارع ويستولون بالقوة على النهر رغم مجهودات العدو · وصف المعركة العظيمة التى خاضها الامبراطور فاستحق الاعجاب ·

٥ ـ اليأس يدفع الدماشقة للتفكير فى الفــرار ، فيقومون برشوة بعض القادة الصليبيين الذين يستجيب الجيش لتحريضهم فينتقل الى الجانب الآخر من المدينة ·

٦ ـ نقص المؤونة لدى الجيش وكشف اللثام عن وضاعة الخونة ورفع الحصار ثم عودة رجالنا الى ديارهم ·

٧ ـ اختلاف الرأى حول المسئول عن هذه الخيانة العظمى ، والاقتراح بمحاصرة عسقلان مرة ثانية ولكن الفشل يصيب هذه المحاولة ٠

٨ ـ عودة الامبراطور « كونراد » الى بلاده وبقـــاء ملك الفرنجة فى الشام ٠

٩ ـ نور الدين يهاجم انطاكية فيصده الأمير « ريموند » ووقوع معركة حربية يموت فيها ريموند ٠

١٠ ـ نور الدين يسير فى معاملته للاقليم بأجمعه حســـب مشيئته ، واسراع الملك الى هناك لمساعدة الناحية ، وقيام سلطان قونية بمهاجمة كونت الرها ٠

١١ ـ وقوع كونت الرها ـ بعد رحيل الملك ـ فى يد العدو وشناعة ميتته ٠

١٢ ـ الملك وكبار رجالاته يعيدون بناء غزة القـــريبة من عسقلان ٠

١٣ ـ نشوب نزاع حاد بين الملك وأمه واتمام تتويجه دون علمها ٠

١٤ ـ تقسيم المملكة بين الأم والابن ، ودخول الملك القدس عنوة ٠ الملك يتغلب على أمه ويبقيها أسيرة فى برج داود ، وأخيرا يسود الوئام بين الطرفين ٠

١٥ ـ سلطان قونية يعود مرة ثانية لغزو كونتية الرها فيمضى الى هناك الملك على جناح السرعة ٠

١٦ ـ امبراطور القسطنطينية يبعث جيشا الى امارة انطاكية ويطالب بخضوع الرها لسلطانه ، فيستجاب طلبه وتستسلم القلاع للاغريق فيقود الملك اللاتين الى هناك ٠

١٧ ـ نور الدين زنكي يلتقى فى طريقه بالملك وينجح فى منعه من الخروج • عودة الملك الى أنطاكية بعد شىء من الصعوبة ، أما نور الدين فيهزم الاغريق ويستولى على الاقليم كله •

١٨ ـ الملك يزجى النصيحة الى الأميرة بالزواج من أحد الأمراء ليدبر شئون مملكتها ، لكنها لا تستجيب لنصحه فيمضى الى طرابلس فى طريق عودته الى القدس •

١٩ ـ اللقاء بين الملك وأمه فى طرابلس فى محاولة لاصلاح ذات البين بين الكونت وزوجته ، ولكن المحاولة تبوء بالفشل الحشاشون يغتالون الكونت عند باب المدينة •

٢٠ ـ تقدم جيش تركى ضخم الى القدس للاستيلاء عليها فيخرج الصليبيون لصده وينزلون به الهزيمة الساحقة •

٢١ ـ خروج الملك وبارونات المملكة الى عسقلان لتخريب الأحراج المحيطة بالمدينة ، ولكنهم يطورون خطتهم الأصلية ويحاصرون البلد •

٢٢ ـ وصف موقع المدينة ومزاياها •

٢٣ ـ بدء عمليات الحصار واختيار الضباط لقيادة الأسطول وكذلك للجيش البرى •

٢٤ ـ مجىء جماعة من الحجاج فى الشهر التالى للحصار فيكونون عونا كبيرا للصليبيين فى استمرارهم فى الحصار •

٢٥ ـ وصول الأسطول المصرى الى عسقلان فى الشهر الخامس من الحصار فيبث وصوله الطمأنينة الكبرى فى نفوس المحصورين •

٢٦ ـ كونستانس أميرة أنطاكية تتزوج من رينو دى شاتيون ، ومهاجمة نور الدين لمملكة دمشق • تنصيب أماريك على كنيسة صـــيدا •

٢٧ ـ المحاصرون يشنون هجوما عاتيا على البلد فيحاول الأهالى اضرام النار فى الآلات الحربية الموجودة خارج الأسوار • سقوط جزء من سور المدينة ، مصرع جماعة من الصليبيين أثناء محاولتهم الدخول ، وجيشنا يفقد الأمل •

٢٨ ـ الطمأنينة تعود الى الصليبيين مرة أخرى مما يشجعهم على مواصلة الحصار وازدياد ضغطهم شدة عن ذى قبل •

٢٩ ـ اليأس يتطرق الى نفوس العسقلانيين فيجمعون الرأى على وجوب الاستسلام •

٣٠ ـ اختيار طائفة من سراة المدينة وارسالهم الى الملك فيأذن للعسقلانيين بالخروج أحرارا بنسائهم وكل ما ملكته ايديهم •• استسلام المدينة •

الاستيلاء على عسقلان

بدلا من الحرب الصليبية الثانية

(١)

قد يكون من الأمور الجديرة بالاشارة اليها والتى تتفق وموضوع التاريخ الحالى أن ندون هنا للأجيال القادمة أسماء الأشراف الذين حضروا الاجتماع المشار اليه حالا ، وفيهم رجال وفدوا من بلاد لها قدرها المهم ، ويأتى على رأسهم « كونراد » الشهير ملك التيوتون وامبراطور الرومان ، وكان فى صحبته من كبار أعلام بلاطه الدينيين كل من أخيه « أوتو » أسقف « فرايزنج » الذى كان من رجال الفكر ، و « ستيفن » أسقف «ميتز » ، وهنرى أسقف تول وهو أخو «تيرى » كونت فلاندرز ، و « ثيوفين » أسقف

بورتو التيوتونى المولد ، والنائب البابوى الذى رافق الحملة الامبراطورية بناء على أمر البابا « يوجين » .

أما الأمراء المدنيون فكان منهم « هنرى » دوق النمسا أخو الامبراطور ، والدوق « جلف » أحد النبلاء البارزين الأقوياء ، والأمير فردريك دوق السوابيين والبافاريين العظيم ، وهو ابن أخى الامبراطور الكبير « كونراد » ، وكان شابا سوى الخلق ، تولى الحكم بعد عمه « كونراد » وهو اليوم الرجل الذى يحكم الامبراطورية الرومانية حكما نشيطا فعالا .

كذلك كان هناك « هيرمان » ماركيز « فيرونا » ، و « برتولد » من اقليم « أنخس » وهو الذى صار فيما بعد دوق بافاريا ، وأيضا نسيب الأمير واسمه وليم مركيز مونتفرات ، وجى كونت « بلاندارس » الذى كانت زوجته أخت المركيز المشار اليه حالا .

وكان هذا النبيلان الأخيران من كبار الأمراء البارزين فى اقليم « لمبارديا » .

وكذلك كان من الحاضرين غير هؤلاء جميعا رجال عظام من أصحاب المكانة الرفيعة ، ممن غابت عن ذاكرتنا أسماؤهم وألقابهم .

كما شارك فى الاجتماع (لويس السابع) أتقى ملوك الفرنجة وصاحب الذكرى المجيدة وفى صحبته « جودفرى » أسقف « لانجرز » وأرنولف أسقف « ليزييه » ، و « جى دى فلورانس » الكردينال لكنيسة رومة والملقب « بخريسو جونس » ، وهو مندوب الكرسى البابوى ، و « روبرت دى بيرش » أخو الملك ، وهنرى كونت « تروى » ابن « ثيوبولد » الكبير وزوج ابنة الملك ، وكان شابا دمث الأخلاق .

وكان مع الملك أيضا كل من « تييرى » كونت فلاندرز العظيم نسيب ملك بيت المقدس ، وجميعهم جديرون بالذكر ، الى جانب أمثالهم من أصحاب المراتب الرفيعة · لكن لما كان ذكرهم يتطلب فراغا كبير فقد اضطررت لاغفال أسمائهم ·

* * *

وشارك من أهل بلادنا « بلدوين » ملك بيت المقدس ، وكان شابا يبشر حاضره بمستقبل زاهر ، كما حضرت أمه (مليزند) وهى امرأة حصان عفيفة جريئة القلب ، لا تقل فى ذكائها عن أى أمير من الحاضرين ، وكان فى صحبتهما(١) « فولشر » بطرك بيت المقدس كما جاء « بلدوين رئيس أساقفة قيسرية » و « روبرت » رئيس أساقفة الناصرة ، و « رورجو » أسقف عكا ، « وبرنارد » أسقف صيداء ، و « وليم » أسقف بيروت ، وآدم أسقف « بانياس » ، و « جيرالد » أسقف بيت لحم ، وروبرت رئيس الفرسان الداوية ، و « ريموند » رئيس الفرسان الاسبتارية ·

وكان من بين النبلاء العلمانيين « مناسيس » الكونســتابل الملكى ، وفيليب النابلسى و« اليناندوس » من طبرية ، و « جيرارد » صاحب صيدا ، وولتر صاحب قيصرية ، و « باينس » صاحب الاقليم الواقع وراء الاردن ، و « باليان » الكبير ، وهمفرى صاحب « تورون » ، و « جى » صاحب بيروت ، وكثيرون غيرهم ممن لو ذكرتهم واحدا واحدا لاستغرق ذلك صفحات طويلة ·

* * *

ولقد اجتمع كل هؤلاء الرجال العظام فى مدينة عكا كما قلنا ليقرروا قبل كل شىء أنسب وقت وأحسن مكان ليزيدوا بمشيئة الرب من رقعة المملكة اتساعا ، ويضيفوا مجدا الى المجد المسيحى ·

(٢)

ومن ثم تدبروا الأمر تدبرا عميقا ، فاختلفت الآراء تبعـــا لاختلاف الجماعات ، وتضاربت الحجج مابين مؤيد ومعارض كما هو المألوف فى موضوع عام كهذا الموضوع ، ثم اســـتقر الرأى أخيرا على أن أحسن ما يفعلونه فى مثل هذه الظروف هو محاصرة مدينة دمشق التى كانت تمثل خطرا من أكبر الأخطار التى تهددنا ، فلما وافقوا على هذا القرار نادى المنادى بأن يكون كل أمير على أتم أهبة لقيادة فيلقه فى اليوم المحدد للزحف الى الناحية المعينة ، لذلك احتشدت جميع قوى المملكة الحربية من المشاة والفرســـان والأهالى والحجاج على السواء ، كما جاء العاهلان العظيمان اللذان يحبهما الرب ، وكانت معهما قواتهما ، حتى اذا كان اليوم الخامس والعشرون من مايو ١١٤٨ من مولد المسيح تقدمت الجيوش المتحالفة على الصورة المتفق عليها رافعة أمامها صليب الحياة ، وتقدمت الى مدينة طبرية ، ومن هنا سلك الجيش بأجمعه أقصر الطرق الواقعة على امتداد بحر الجليل ، والمؤدية الى « بانياس » التى هى قيصرية فيليبى · وهنا تباحث القادة مع رهط من الناس العالمين ببواطن الأمور فى دمشق وما جاورها ، وبعد استشارة زعمائهم قرروا أن أحسن السبل لمضايقة دمشق هى البدء بالاستيلاء على البساتين المحيطة بمعظم البلد ، والتى يعزى اليها الكثير من حمايتها ، فان أمكن أخذ هذه البساتين لم يعد شك فى سهولة الاستيلاء على المدينة ذاتها بالتالى ·

لذلك تابع الصليبيون زحفهم تنفيذا منهم لهذه الخطة ، فعبروا جبل لبنان الواقع بين قيصرية فيليبى ودمشق ، وانحدروا منه الى السهل الموجود عند قرية « داريا » التى تبعد عن المدينة اربعة أميال أو خمسة ، وكان من اليسير عليهم ــ وهم فى هذه البقعة رؤية العاصمة والوادى المحيط بها ·

وتعتبر دمشق أكبر مدن الشام الصغرى المسماة أيضا بفينيقية لبنان ، كما أنها عاصمة تلك المنطقة لأننا نقرأ فى أشعيا (١) أن دمشق «رأس أرام» أى الشام ، والمشتق اسمها من اسم مؤسسها الشهير أحد خدم ابراهيم ، أما تفسيرها فهو المدينة الدموية ، أو المدينة المليئة بالدم ، وهى واقعة فى سهل جاف مجدب الا ما كان منه يسقى من قنوات تجلب الماء اليه من أعلاه · كما أن هناك نهرا ينحدر من جرف جبل مجاور فى الجزء الأعلى من تلك الناحية ،فتتدفق مياهه فى القنوات التى تخترق السهل ثم تنساب فيما تحت ذلك من الأراضى ، فاذا بهذه الأراضى الجدباء تخصب وتخضر ·

واذا كانت المياه هنا شديدة الوفرة فان النهر يروى أيضا ما يقع على جانبيه من بساتين الفاكهة ، ثم يستمر فى جريانه مجاوزا سور المدينة الشرقى ·

* * *

ولما كانت « داريا » شديدة القرب من دمشق فقد صف القواد عساكرهم عندها للقتال وأنزلوا كل كتيبة فى مكانها المخصص لها للزحف ، لأنهم اذا تقدموا من غير خطة مرسومة فلابد أن تشب بينهم المنازعات التى تفسد العمل الذى بين أيديهم ·

ولما كان الأمراء يدركون أن أعرفهم بالاقليم هو ملك بيت المقدس فقد أجمعوا على أن يقدموه عليهم ويجعلوه أمامهم فى الزحف بمن معه من الجند ليفتح الطريق فى وجه الكتائب التى تتلوه ·

أما ملك الفرنجة فقد كان التالى له ، وكان مكانه القلب كى يعين الذين أمامه اذا ما دعت الحاجة الى مثل هذه المعونة ·

واتفقوا على أن يكون الامبراطور « كونراد » على رأس الفريق الثالث أعنى المؤخرة ، استعدادا لصد العدو ان هاجم العسكر من الوراء أو على غير توقع منهم ، وبذلك تكون القوات الأمامية فى مأمن من هجمة مباغتة تأتيهم من الخلف .

فلما تم تنظيم الجيوش الثلاثة على هذه الصورة تقدم عسكرهم وحاولوا الاقتراب من المدينة جهد ما أمكنهم .

وكانت البساتين تمتد الى الغرب عند الناحية التى كان جيشنا آخذا فى الاقتراب منها ، وكذلك الى الشمال مسافة خمسة أميال أو أكثر فى اتجاه لبنان ، وهى أشبه ما تكون بغابة كثيفة تكتنف المدينة من كل جوانبها ، كما أن هذه الاحراج كانت محاطة بأسوار من الطين لبيان حدود كل بستان ، ولصد من تحدثه نفسه باقتحامها والاعتداء عليها .

وأما استعمالهم الطين فراجع الى ندرة الصخور والحجارة فى تلك الناحية ، وكانت هذه الأسوار تجعل صاحب كل بستان من هذه البساتين عارفا لبستانه ، وجعلوا بين بعضها والبعض الآخر ممرات وطرقا عامة شديدة الضيق ، لا تتسع الا بالقدر الذى يسمح للمزارعين والحراس بالسير عبرها ، مستصحبين الدواب المحملة بالفاكهة الى المدينة .

وتعمل هذه البساتين على حماية المدينة حماية عظمى ، ذلك أن العدد الضخم من الأشجار المزروع بعضها الى جانب بعض كانت تجعل من الصعب — ان لم يكن من المستحيل — على المرء الاقتراب من دمشق من ذلك الجانب ، لكن على الرغم من هذه الصعوبة فقد صمم قادتنا منذ البداية على السير بالجيش عبر هذه الأحراج ليصلوا الى المدينة ، وكان يحملهم على ذلك أمران أولهما هو أن

ضياع معظم الأماكن الحصينة من أيدى الدماشقة (وهى الأماكن التى يبنون عليها الآمال الجسام) سوف ييسر على الصليبيين التغلب على كل ماسواها • وأما ثانيهما فنابع من رغبة قادتنا فى توفير الفاكهة والماء للعسكر •

لذلك كان ملك بيت المقدس أول من قاد العسكر خلال هذه الدروب الضيقة فى الأحراج رغم ما صادفه الجيش من صعوبة بالغة فى التقدم ، اذ كانت هذه المسالك الضيقة تعطل سيره فيها ، كما كانت تزعجه أحيانا أخرى مكائد الأعداء الكامنين فى الأيكات ، مما يحمله رغم أنفه على الاشتباك معهم فى القتال حين يجدهم قد سدوا المسالك فى وجهه واستولوا على الدروب الملتوية ، هذا الى جانب تربص أهل البلد له فى الشعاب فى محاولة منهم لقطع الطريق عليه بالهجمات يشنونها عليه خفية وعلانية •

أضف الى ذلك أنه كانت ترتفع فى هذه البساتين ذاتها المبانى الشاهقة التى يقوم على حراستها ويتولى الدفاع عنها رجال قد تلاصقت أملاكهم بعضها ببعض ، فتعاهدوا عهدا وثيقا أن يبذلوا النفس والنفيس دفاعا عنها •

واستفادوا من هذه النقاط فاستمروا يقذفون منها وابلا لا ينقطع من السهام وغيرها مما أدى الى حماية البساتين حماية صحيحة ، ومنعت أى أحد من الاقتراب منها بأى حال من الأحوال • كما أن السهام المنطلقة من بعيد جعلت هى الأخرى السير شديد الخطورة على من يريد السير هناك ، ولم تكن هذه الاجراءات القوية ضد تقدمنا تأتى من جانب واحد فقط أعنى به تلك الحدائق ، بل كانت هناك أخطار مماثلة لها تلحق بكل عابر لا يأخذ حذره ، وأصبح الناس يترقبون الموت يأتيهم من حيث لا يحتسبون ، كما

استخفى رجال على طول السور الداخلى وراحوا يطلون – دون أن يراهم أحد – من الفجوات الصغيرة الموجودة بكثرة فى الأسوار فيطعنون المارة بالرماح التى فى أيديهم ، ويقال انه هلك الكثيرون فى هذا اليوم من جراء هذا الأمر شر هلاك ، كما لحقت الأخطار المختلفة من حاولوا اجتياز هذه الطرق الضيقة ٠

(٤)

حين أدرك الصليبيون حقيقة الموقف ضاعفوا من ضغطهم حتى حطموا المتاريس واستولوا على البساتين ، واخذوا كل من وجدوهم فى المخابىء والبيوت أخذ عزيز مقتدر ، فراح القوم ما بين أسير أخذوه ، وقتيل أردوه بسيوفهم ، فلما علم بذلك أهل البلد الذين جاءوا للدفاع عن البساتين انكفئوا وجلين حتى لا يصيبهم نفس الضر ، وهربوا زرافات الى المدينة التى تمكنت قواتنا من دخولها دون أى مقاومة بعد أن دارت الدائرة على الأعداء : هزيمة وقتلا ٠

وأدرك الجميع أن الصليبيين سوف يتقدمون من البساتين لمحاصرة المدينة ، وحينذاك أسرعت قوات دمشق من الفرسان ومن حلفائهم الذين جاءوا لمساعدتهم وانطلقوا جميعا ناحية النهر الذى يشق المدينة ، طامعين فى أن يتمكنوا بفضل سهامهم ومنجنيقهم أن يحولوا بين العسكر المنهوكين وبين بلوغ النهر ، ويمنعوهم من اطفاء ظمئهم من مياهه التى يتحرقون لهفة عليها ، فلما سمع الصليبيون أن النهر قريب منهم غاية القرب أسرعوا شطره ليطفئوا ظمأهم ويرووا غلتهم التى زاد من شدتها ما تحملوه من المشاق المضنية ، وما أرهقتهم به سحب التراب التى أثارتها سنابك الخيل وأقدام الرجال ، كما حملهم منظر القوات الكثيرة المتجمعة على شاطىء النهر على أن يتوقفوا قليلا ، لكنهم سرعان ما جمعوا

صفوفهم ، وزادهم الموقف جراة واقداما فبذلوا كثيرا من المحاولات للسيطرة على النهر فلم تجدهم محاولاتهم هذه نفعا ٠

بينما كان الملك وفرسانه يجهدون أنفسهم من غير جدوى تعود عليهم اذا بالامبراطور « كونراد » يتساءل ـ وهو على رأس الكتائب القادمة من ورائه ـ عما حمل الجيش على عدم التقدم ، فأعلموه بخبر استيلاء العدو على النهر ، ومنعه عسكرنا من العبور ، فاستشاط غضبا عند سماعه هذا النبأ ، فانطلق بفرسانه ما أسعفتهم السرعة حتى جاوزوا قوات الملك ووصل الى المقاتلين الذين كانوا يبذلون جهدهم للاستيلاء على النهر ، وحينذاك ترجل الجميع عن جيادهم جريا على عادة التيوتون اذا اشتدت بهم الأزمة واصبحوا عسكرا مشاة ، ومدوا دروعهم أمامهم ، واشتبكوا مع العدو بالأيدى ، وتلاحموا بالسيوف ٠

وصمد الدماشقة فى بادىء الأمر صمود الأبطال ، وحاربوا ببسالة ، لكن سرعان ما تسرب اليهم الوهن فلم يعودوا قادرين على تحمل المقاومة ، وتخلوا عن النهر ، ولاذوا بأذيال الفرار وهربوا سراعا الى المدينة ٠

وقيل ان الامبراطور أظهر فى هذا الاشتباك بطولات مجيدة ، حتى ليقال انه صرع بطريقة عجيبة جدا فارسا تركيا ظل يقاومه ببسالة عنيفة ، لكن « كونراد » تمكن من أن يضربه بسيفه ضربة فصلت رأسه ورقبته عن بقية جسده ، وبقيت الكتف اليسرى وقد تدلى منها الذراع وكذلك جزء من جنبه مما أفزع المواطنين الذين شاهدوا المنظر فهلعت له أفئدتهم وأفئدة من سمعوا الخبر من أفواه الآخرين، فيئس الناس يأسا مطلقا من قدرتهم على المقاومة بل ومن الحياة ذاتها(٢) ٠

(٥)

هكذا سيطر الصليبيون على النهر وخلصت لهم ضفتاه ، وان ذاك انطلقوا فنصبوا خيامهمحول المدينة ، وتمتعوا بالنهر وبالأحراج التى استولوا عليها بالقوة ، واشتدت الدهشة بأهل البلد لما شاهدوه من كثرة أعداد الصليبيين وعظيم شجاعتهم ، وخامرهم الشك فيما اذا كانت قوتهم كافية للصمود أمامهم ، كذلك حملهم خوفهم من أن يباغتهم خصومهم بالهجوم عليهم على التشاور فيما بينهم ، فاتخذوا من الاجراءات ما يتسم باليأس ، فسدوا جميع شوارع المدينة المؤدية الى معســـكراتنا بجذوع أشجار شديدة الضخامة بالغة الطول ، نظرا لأن أملهم الوحيد كان يتركز فى أن تسعفهم قوتهم بالهرب فى الاتجاه المعاكس مع زوجاتهم وأولادهم فى الوقت الذى يكون فيه الصليبيون منصرفين الى ازالة هذه الحواجز ٠

وبدا واضحا للعيان أن المدينة لابد ساقطة فى أيدى الصليبيين لكن شاءت ارادة(٣) من « فعله المرهب نحو بنى آدم أن يتم عكس الذى توقعوه » ، اذ بينما كانت المدينة فى أشد حالات الكرب والضيق. وقد ران اليأس على نفوس الناس ، وأيقنوا أن قد عدموا القدرة على المغادرة ، وبينما هم يستعدون للخروج من المدينة بكل متاعهم أملا منهم فى النجاة بأنفسهم اذا بالرب يعاقبنا على خطايانا ، فقد أخذ الدماشقة فى استغلال الطمع الذى كان مستحوذا على نفوس بعض رجالنا فحاولوا السيطرة على قلوب من لا يطمعون فى التغلب عليهم بالقهر ، ونجحت محاولاتهم الماكرة فى أن يحملوا نفرا من أشرافنا على رفع الحصار عن البلد بعد أن بذلوا لهم المال الكثير الذى جمعوه لهم حتى قاموا بدور « يهوذا» الخائن ، فسمح هؤلاء الرجال لأنفسهم بالنزول الى الدرك الأسفل من الجريمة بسبب ما جبلوا عليه من الطمع الذى هو رأس كل الشـــرور ، ومن جراء

الرشوة التى أفسدت ضمائرهم والأمانى الكاذبة التى طمعوا فى تحقيقها ٠

لذلك فان عروضهم(٤) الدنيئة حملت الملك والأمراء والحجاج (الذين كانوا يعتمدون على اخلاصهم وايمانهم) على أن يخرجوا من البساتين والأحراج ، وأن ينطلقوا بجيوشهم الى الجانب الآخر من المدينة وتذرعوا بذرائع واهية لاخفاء جرمهم فادعوا أن الجانب الآخر من البلد المطل على الجنوب والشرق خال من الأحراج التى تحميه ، كما أنه لا يوجد به نهر أو خندق يمنعهم من الاقتراب من التحصينات ، وأذاعوا أن السور المنخفض المبنى من اللبن لن يستطيع الصمود أمام أول هجوم عليه ، وأنهم لن يكونوا فى هذا الموضع فى حاجة ماسة الى الآلات الحربية أو بذل مجهودات عنيفة ، لأن السور لابد أن ينهار عند تعرضـــه لأول هجمة لهم عليه ، ولن يكون من الصعب أن يشقوا لأنفسهم طريقا الى داخل البلد ، وكان هدفهم الوحيد من تقديم هذه المبررات هو أن يحملوا الجيش على التحول من موضعه الحالى الذين زعموا انه يصعب منه تشـــديد الضغط على المدينة ، على حين أنه لا يمكن من الجانب الآخــــر الاستمرار فى الحصار لفترة طويلة ٠

فلما سمع ملكا الجيوش المتحدة وجميع قوادها هذا الكلام الكاذب لم يرتابوا فيه ، اذ سرعان ما أخلوا الموضع الذى حصلوا عليه بشق النفس ، وتكبدوا فيه هلاك الرجال ، وهكذا تحولت جميع الكتائب من هذا المكان بتوجيه من الخونة ، وضرب الجند مخيماتهم فى الجانب الآخر من المدينة ٠

لكن سرعان ما اتضح لهم أن هذا الموضع الجديد بعيد كل البعد عن بساتين الفاكهة الكثيرة وعن الماء الوفير ، وأن كل مالديهم

من الطعام آخذ فى النقصان ، وحينذاك أدركوا أن الخيانة آتت أكلها ، وراحوا يهمهمون — ولكن بعد فوات الأوان — أن قد غرر بهم تغريرا فاحشا ودخلت عليهم الغفلة حين قبلوا الانتقال من موضعهم الذى كانوا فيه لأنه كان أصلح الأمكنة وأجداها عليهم ٠

(٦)

تناقصت المؤونة فى المعسكر الصليبى الذى كان أصحابه قبل زحفهم على ثقة من أن لن يطول الوقت بهم ليتم الاستيلاء على المدينة فلم يحملوا من الزاد الا ما قد يكفيهم أياما قلائل ، وكان ذلك أظهر ما يكون مع الحجاج الذين ما كان لأحد أن يلومهم فقد كانوا يجهلون الاقليم ، فأدخل البعض فى روعهم ماحملهم على الاعتقاد بأنهم سوف يستولون على دمشق فى سهولة ويسر عند أول هجوم يشـــنونه عليها ، وأكدوا لهم فى الوقت ذاته أنهم اذا عدموا كافة أنواع الطعام فان الجيش — مهما كانت كثافة عدده — قادر على أن يعيش على الفاكهة التى سوف يحصلون عليها بلا ثمن يدفعونه ٠

أدى هذا الوضع المضطرب الطارئ الى أن يساور الشك نفوس الصليبيين فاكثروا من المشاورات فيما بينهم سرا وعلانية يتدبرون فيها أى طريق ينبغى عليهم سلوكه فى هذا الموقف،فأدركوا أن رجوعهم الى الموضع الذى كانوا فيه صار أمرا صعبا بل مستحيلا ، ذلك لأنه ما كاد الصليبيون يرحلون عنه حتى بادر الأعداء — وقد أدركوا غايتهم — الى دخول المدينة وأقاموا تحصينات أقوى من تحصيناتها السابقة ، كما عمدوا الى الطرق التى سبق للصليبيين الدخول منها فسدوها بمتاريس من الكتل الخشبية الضخمة والأحجار الثقيلة ، كما أقاموا هناك طائفة كبرى من رماة النبال ليحولوا دون تمكن العدو من البلد من الناحية التى يعسكرون فيها لعدم وجود الطعام

الكاف بين أيديهم ، كما عمدوا من ناحية أخرى الى ما فيه تعطيل الهجوم عليهم من الموقع الحالى ٠

لذلك شرع الأمراء والحجاج فى التشاور فيما بينهم ، وتجلى لهم بأجلى صورة خيانة من كانوا قد وثقوا فى اخلاصهم فاستأمنوهم على حياتهم ومصالحهم ، فتقززت نفوسهم اشمئزازا من الخيانة التى جازت عليهم ، ولما أيقنوا بأن مشروعهم مقضى عليه بالفشل الذريع فقد صمموا على أن ينفضوا أيديهم منه وأن ينكفئوا عائدين الى ديارهم ، وترتب على آثامنا أن اضطر الملوك والأمراء الذين تجمعوا فى أعداد ضـــخمة الى الارتداد دون أن يحققوا هدفهم المنشود ، فعادوا الى المملكة سالكين نفس الطريق الذى جاءوا منه ، يجللهم الخزى ويسيطر عليهم الخوف ، وأصبحوا منذ ذلك الحين وطوال بقائهم فى الشرق بل وبعد ذلك أيضا ينظرون بعين الشك والريبة الى كل ما يفعله قادتنا ، واعتبروا ــ وحق لهم ذلك ــ أن جميع خطط هؤلاء الكبار انما تنطوى على الخيانة ولم يعودوا يكترثون قيد أنملة بأحـــوال المملكة ، وظلت ذكرى الأهوال التى كابدوها عالقة بأذهانهم حتى بعد رجوعهم الى أوطانهم ، وأصبحوا ينظرون بعين الاشمئزاز الى ما ينطوى عليه مسلك هؤلاء النبلاء من الدناءة ٠ ولم تكن تلك النظرة قاصرة على هؤلاء الحجاج فحسب بل جاوزتهم الى غيرهم حتى من لم يساهموا فى الحملة ، فتضاءل حبهم للمملكة ، وترتب على ذلك أن لم يعد يقوم برحلة الحج بعدئذ الا أفراد قلائل وأقوام وهنت حماستهم ، وبالاضافة الى ذلك فالملاحظ حتى اليوم أن من يجيئون لا يطيلون مكثهم بيننا حتى لا يدخلوا نفس التجربة وتصيبهم نفس المصائب ٠

أشير هنا الى أننى كثيرا ما تحدثت الى رجال ألباء ممن لازالت ذاكرتهم تعى أخبار تلك الأيام ، قاصدا من وراء ذلك أن أدون فى هذا الكتاب الحالى ما أخبرونى به ، وقد حاولت أن أفهم علة هذا الخطأ الفادح الشنيع ، وأن أعرف من كانوا وراء الخيانة ، وكيف تم تنفيذ هذه الجريمة القذرة ، فوجدت تضاربا بينا واختلافا كبيرا بين روايات بعضهم وبعض فيما يتعلق بها ، فمنهم من ينسب ما جرى الى كونت فلاندرز ويعتبره المسئول عنها ويحمله اثم ما حدث ، اذ المعروف أنه كا نمع الجيش فى هذه الحملة ، ويقولون انه لما صارت كتائبنا أمام دمشق واحتلت الغابات والنهر بالقوة وفرضت الحصار على البلد جاء هذا الكونت الى كل واحد من العاهلين واحدا بعد الآخر يلح عليه أن يقطعه مدينة دمشق بعد اتمام فتحها ، ويقال ان العاهلين أبديا استجابة الى ما طلبه الكونت منهما .

لكن على الرغم من موافقة بعض لوردات المملكة على ما طلبه كونت « فلاندرز » الا أن هناك آخرين تســـخطوا هذا الخبر عند سماعهم اياه ، واستنكفوا من هذا الأمير العالى القدر الذى تكفيه أملاكه الخاصة كل الكفاية ، والذى كان الظن به أنه يحارب فى سبيل اعلاء مجد الرب وليس سعيا وراء مكافأة ينالها . ولم يكن يخيل لأحد أن يصر على أن يستحوذ لنفسه على قسم كبير من المملكة ، وذلك لأن هؤلاء الأمراء أنفسهم كانوا يطمعون أن تضاف الى المملكة أى رقعة من الأرض مهما كانت مساحتها فيزيدون هم بالتالى مساحة ممتلكاتهم ، ولذلك فقد استفزهم الحنق فدفعهم لسلوك مسلك شائن تمثل فى ايثارهم احتفاظ الدماشقة بمدينتهم بدلا من أن يستردها الصليبيون فتوهب للكونت ، وقالوا انه من الظلم الفادح أن يغفل أمر هؤلاء الذين تحملوا المشاق الجسام ومن بذلوا أرواحهم فى

الحرب فى سبيل المملكة ثم لا يكافأون على ما بذلوا ، فى الوقت الذى يجنى فيه من وفدوا منذ وقت قريب الثمار التى تم الحصول عليها بالجهد المستمر الطويل ٠

* * *

على أن هناك آخرين قالوا ان أمير انطاكية كرس كل جهده ليجعل الفشل من نصيب مشروع الملك لويس (السابع) الذى أثار حنق الأمير اذ فارقه وهو غاضب منه رغم ما قدمه صاحب انطاكية من الاحسانات الكثيرة اليه ، ومن ثم فقد أغرى فريقا من كبار رجال الجيش على تعقيد الأمور تعقيدا حمل الملك الفرنسى على التخلى عن المشروع نهائيا ونفض يديه منه وايثاره الرجوع عنه ، فرجع رجوعا مشينا ٠

وهناك قصص أخرى مفادها أنه لم يحصل شىء من هذا القبيل سوى أن العدو رشا أشخاصا معينين بقدر كبير من المـــال حتى ينتهى الأمر الى هذه الكارثة الفادحة ٠

ومن الأمور العجيبة ما يقال من أنهم تبينوا بعد حين أن كل هذه النقود التى حصلوا عليها بالطرق الخسيسة كانت نقودا مزيفة لا تساوى شيئا ٠

* * *

هكذا اختلفت الآراء اختلافا بينا فى شأن من تقع على عاتقه مسئولية هذا العمل الكريه ، ولقد عجزت (أنا وليم الصورى) عن الوصول الى الخبر اليقين فى هذا الموضوع ٠

وأيا كان الآثمون فلابد من أن سيأتى اليوم الذى يجزون فيه الجزاء المكافىء لما ارتكبوه ، ما لم يسعوا لطلب الغفران من الرب فتشملهم رحمته الواسعة ٠

هكذا رجع قومنا كما ذكرنا لم يجنوا مجدا ، وفرح الدماشقة لرحيلهم ، فقد كان خوفهم من الصليبيين ثقيل الوطأة على نفوسهم · أما أهلنا فكانوا على العكس من ذلك ، اذ يقول لسان حالهم مع القائل(٥) « صار عودى للنوح ، ومزمارى لصوت الباكين » ·

ولما عاد الملوك الى المملكة عقدوا مجلسـا من النبلاء فى محاولة جديدة منهم للقيام بأى عمل آخر يرفع من ذكرهم فى عيون الخلف ، لكنها كانت محاولة باءت بالفشل ، فقد اقترح بعضـهم محاصرة عسقلان التى كانت لاتزال فى أيدى الكفار ، وزعموا أنه لما كانت هذه المدينة تقع تقريبا وسط المملكة فقد كان من اليسير نقل كل ما هو ضرورى اليها وستكون مهمة رجالنا ارجاعها الى حظيرة الايمان المسيحى سهلة ·

كذلك قدمت اقتراحات كثيرة مشابهة لهذا الاقتراح ،ولكنها قوبلت كلها بالرفض كما رفض الاقتراح الأول حتى قبل مناقشته ، اذ يبدو أن غضب الرب عليهم جعل الفشل نصيب كل ما يقدمـون عليه ويفكرون فيه ·

(٨)

أيقن الأمير « كونراد » الآن أن الرب قبض عنه رحمته ومنعه عن أن ينعم بالمساهمة فى أى أمر من أمور المملكة ، لذلك أمر باعداد سفنه لتكون على أهبة الرحيل الى مملكته ، ولم تنقض الا أعوام قليلة حتى مات كونراد (سنة ١١٥٢) فى « بامبرج » ودفن فى كنيستها الكبرى فى احتفال عظيم ·

وكان كونراد جميل الطلعة ، ورعا ، رحيما ، يمتاز عن سواه

بما طبع عليه من روح سامية ، وخبرة واسعة بالأمور الحربية .
وكانت حياته وخلقه مثلا أعلى يحتذى ، فخلد ذكره ·

وخلفه على العرش بعد موته « فردريك » دوق سوابيا العظيم الذى رافق الامبراطور فى رحلة حجه فلم ينفصل فيها عنه قط ، وكان شابا سرى الخلق ، وهو ابن أخيه الأكبر ، وله الحكم اليوم فى الامبراطورية ، يسوسها بفطنة ، ويحكمها حكما لحمته الشجاعة وسداه النجاح ·

* * *

أما ملك الفرنجة فقد أمضى عاما بيننا ، حتى اذا حل الربيع واحتفل بعيد الفصح فى القدس عاد (سنة ١١٤٩) الى مملكته وفى ركابه زوجته ونبلاؤه · فلما بلغ دياره وتذكر الأضرار التى ألحقتها به زوجته (اليانور) خلال الرحلة وطول رحلة حجه عزم على مفارقتها فراقا لا رجعة فيه ، ففسخ (فى سنة ١١٥٢) ارتباطه بها بحجة المسافدة ، وكان شهوده فى هذا الفسخ أساقفة مملكته ، وسرعان ما قامت الملكة (اليانور) دون أن تتريث ولو قليلا ، بل وحتى قبل عودتها الى « أكويتين » فتزوجت من « هنرى » دوق نرماندى وكونت « أنجو » الذى ما لبث فى أعقاب هذا الزواج أن صار ملك الانجليز خلفا لستيفن الذى مات دون أن يخلف ذكرا ·

ولقد كان ملك الفرنجة هذا أسعد حظا فى اختياره الثانى اذ اقترن بماريا ابنة امبراطور اسبانيا ، وهى آنسة مرضى عنها عند الرب ، ومبجلة كل التبجيل بسبب حياتها الطاهرة وخلقها الكريم ·

(٩)

بدأ وضع اللاتين يتدهور فى الشرق بصورة واضحة للعيان منذ ذلك الحين ، ورأى خصومنا ما آلت اليه جهود أعظم ملوكنا

وقوادنا من الفشل ، وذهاب محاولاتهم ادراج الرياح ، فأخذوا يسخرون من تدهور بأس الذبن يمثلون الركن الركين للمسيحيين ، ويهزأون من مجدهم المنهار ، ويزدرون من كانت أسماؤهم وحدها تبث الفزع فى نفوسهم ، ثم زاد اقدامهم وغرورهم زيادة بلغت الذروة فلم يعودوا يقيمون وزنا للعساكر المسيحيين ، ولا يتأخرون عن مهاجمتهم مهاجمة شرسة لم تعهد فيهم من قبل ٠

لم يكد العاهلان (الأوربيان) يرحلان حتى قام نور الدين بن زنكى فجمع جيشا ضخما من كافة أرجاء المشرق ، وراح يعيث فسادا وتخريبا فى كل ما حول أنطاكية فى جراة غير مألوفة ، واذ ادرك أن لم يعد ثم من يمد يد النجدة لبلاد الأمراء اللاتين فقد عزم على تطويق القلعة المعروفة باسم قلعة « انب » ، فلما أيقن ريموند أمير أنطاكية من قيام نور الدين بهذا العمل هب هو لساعته غير منتظر قدوم الفرسان الذين كان قد أمر باستدعائهم ، واندفع فى طيش الى ذلك الموضع مع حفنة صغيرة من الرجال ، وذلك لأنه كان ينطوى على جانب كبير من التسرع الأحمق والاقدام الذى لا يعرف التخاذل مما حمله على ألا يسمح لنفسه بالاسجابة الى نصيحة الناصحين فى أمر من هذا القبيل ٠

وخرج فوجد نور الدين لايزال محاصرا القلعة المشار اليها ٠

لما سمع نور الدين بأن الأمير «ريموند» قادم لصده تردد وأمسك عن الخروج مخافة أن تكون بصحبته قوات كبيرة ، ثم رفع الحصار وارتد الى موضع آمن ظل به حتى تأتيه الاخبار عن نوع العسكر الذى مع الأمير « ريموند » ، وعما اذا كانت هناك امدادات اضافية فى طريقها اليه ٠

انتشى « ريموند » كالعادة بالنجاح المبدئى الذى صادفه دون ان يبذل فيه جهدا ، فانطلق غير متحرز ولا حذر ، وعلى الرغم من وجود قلاع ملك يمينه على مقربة منه يستطيع البقاء فيها آمنا مع اتباعه ثم يعود بهم دون أن تناله مضرة الا انه آثر أن يعسكر فى العراء حتى لا يظن الناس أنه ارتد ــ ولو مؤقتا ــ خوفا من نور الدين ، لذلك فانه آثر المجابهة ولقاء ضراوة الخصم الذى أدرك عدم وصول نجدة لعدوه وأن الأمر ميسر له لمهاجمة «ريموند» ومن معه من العسكر ، فما كاد المساء يحل حتى أحاط بجماعة الأمير وهاجم معسكرهم كما لو كان يهاجم مدينة ·

وأطل الصباح فاذا بريموند يرى نفسه وقد أحاط به عسكر العدو من كل جانب ، فأحس وا أسفاه ــ ولكن بعد فوات الأوان ــ بالشك يخامره فى قوته ، غير أن ذلك لم يمنعه من تنظيم صفوفه للقتال وتهيئة فرسانه لمعركة قريبة ، وهكذا بدأ القتال ، الا أن جنوده كانوا أقل بأسا فلم يستطيعوا الصمود أمام زحوف خصمه الكثيرة ، فولى رجال « ريموند » فرارا ولم يبق سواه فى نفر قليل من عسكره الذين التفوا حوله فحارب بهم فى شجاعة تليق بالمقاتل الباسل ، لكن أجهده استمرار القتال ، ثم جاءته شكة سيف جندلته صريعا فحز الترك رأسه وذراعه اليمنى وحملوهما وتـــركوا بقية جثته المشوهة بين جثث القتلى فى ساحة المعركة ·

وكان ممن لقى حتفه فى هذه المعركة الفارس العظيم القوى الذى تظل بلاده تبكيه وهو « رينو المرعشى » الذى كان كونت الرها قد زوجه من ابنته ، كما هلك الكثيرون غيره من النبلاء الذين لقوا هلاكهم فى نفس البقعة لكن ضاعت أسماؤهم ·

***

لقد كان « ريموند » رجلا عالى الهمة ، متمرسا بالحرب خبيرا بفنها ، يخافه خصومه أشد الخوف ، لكنه كان سيىء الطالع ، وانه لمن الجدير أن يخصص كتاب لأعماله النبيلة وفعاله البطولية الجمة التى نهض بها فى الامارة ، لكن الواجب يحتم علينا أن نسرع الى تلخيص التاريخ العام · ولذلك لا نستطيع التوقف لسرد هذه التفاصيل ، ولا نسمح لقلمنا أن يتوقف عندها أكثر من ذلك ·

وكان مصرعه فى سنة ١١٤٨ ميلادية فى اليوم السابع والعشرين من يونيو الذى وافق يوم عيد المباركين بطرس وبولص ، وكان مقتله فى السنة الثالثة عشرة من حكمه ·

ويعرف المكان الذى قتل فيه باسم « النبع المسور » ، ويقع بين مدينة « أفامية » وقلعة « الروج » ، وقد عثروا على جسده بين القتلى ، وقد دلتهم عليه علامات خاصة وندوب كانت به ، وحملوه الى أنطاكية حيث دفن فى احتفال مهيب وسط قبور أسلافه فى ساحة كنيسة أمير الحواريين ·

(١٠)

قام نور الدين فى محاولة منه لاظهار انتصاره ، وزيادة هيبته ، فأرسل رأس « ريموند » وذراعه اليمنى اللتين كان قد أمر ببترهما الى خليفة بغداد أقوى أمراء المسلمين وحكامهم قاطبة ، دليلا على هلاك واحد من أشد مضطهدى الأمم ، ثم أرسلتا بعدئذ الى جميع الولاة الترك فى كل المشرق ·

حزن أهالى أنطاكية أشد الحزن لحرمانهم من قائدهم العظيم الذى يهتدون بهديه ، وراحوا يستعيدون ذكرى هذا البطل وأعماله العظمى بكلمات حزينة يرثونه بها ، ودموع سخينة يذرفونها عليه ،

ولم يقتصر خبر موته على التياع أفئدة أهالى الناحية وحدهم بل عم الحزن الناس قاصيهم ودانيهم ، كما فاضت قلوب صـــغارهم وكبارهم بالألم الذى راح يعصرها عصرا ويقطع نياطها ٠

* * *

كان نور الدين كأبيه شديد الاضطهاد لكل ما هو مسيحى اسما وعقيدة ، فلما هلك « ريموند » أمير البلاد ومعظم عسكره فى ساحة الوغى رأى ابن زنكى أن المنطقة بأكملها قد صارت تحت رحمته فبادر فى الحال الى ارسال جنده يجتاحون البلاد ويعيثون فيهـا بصورة عدوانية ، حتى اذا مر هو نفسه قرب أنطاكية أحرق كل ما صادفه فى تلك المنطقة ، ثم يمم وجهه شطر دير للقديس «سيمون» يقع على الجبال الموجودة بين أنطاكية والبحر ، فسار هناك السيرة التى تمليها عليه أهواؤه ، وقسا على الأهالى فى معاملته لهم ، ثم انحدر بعدئذ الى البحر الذى كانت هذه هى أول مرة فى حياته يراه فيها ، وأراد القيـــام بشىء يشـــير الى أنه غزا كل شىء : فسبح فيه على مرآى من جنده ، حتى اذا حان موعد رجـــوعه استولى على قلعة « حارم » التى لا تبعد عن أنطاكية أكثر من عشرة أميال ، ثم زودها بالسلاح وجهزها بالميرة وأمدها بالعسكر لتكون قادرة على الصمود أياما كثيرة ٠

حينذاك تملك الشجن الناس قاطبة ، فقد دانت البلاد لنور الدين وذلت أمامه ، لأن الرب مكنه من القضاء على زمرة الجيش وأمير البلاد معا ولم يعد للامارة من أحد يصد عنها الأخطار التى راحت تهددها ، اذ بقيت « كونستانس » (أرملة ريموند) وحيدة مع ولديها وابنتها لتصرف شئون الحكم والامارة ، ولم يعد هناك من قائد ينهض بما كان ينهض به الأمير من الواجبات ، أو يعمل على رفع الناس مما ترديوا فيه من مذلة ، على أنه ظهر فى تلك اللحظة الحرجة « ايمرى » بطرك أنطاكية ، وكان رجلا واسع الثراء فتقدم

لحماية البلاد التى أمضها الحزن العميق وخرج عن مألوف عادته فبذل المال الكثير لاستئجار الجند • وهكذا قــدم فى لحظته هذه ما يحتاجه البلد من ضرورات ملحة عاجلة •

❋ ❋ ❋

أدى نبأ هلاك « ريموند » وخبر وضــع أنطاكية المحزن الى استيلاء الفزع على ملك بيت المقدس الذى بادر فى الحال فجمــع العسكر لنجدة اخوانه فى محنتهم ، وأسرع الى أنطاكية التى كان أهلها قد فت فى عضدهم ما جرى ودب اليأس فى نفوسهم ، فلما علموا بخبر قدوم الملك تنفسوا الصعداء وأظلتهم الطمأنينة •

وضم الملك الجند الذين معه الى من جمعهم من الاقليم كله ، ونادى فى الناس بالصــمود والمقاومة ، كما حملته رغبته فى مساعدتهم على استرداد شجاعتهم المعهودة على فرض الحصار على حصن « حارم » الذى كان العدو قد استولى عليه منذ قريب كما قلنا ، غير أن شدة مناعة القلعة أرغمت الملك على الانصراف عن محاولته هذه بعد حصاره للحصن عدة أيام لم يصادفه فيها النجاح، ثم انقلب بعدها على عقبيه الى أنطاكية •

ولما سمع (مسعود بن قلج أرسلان) سلطان قونية بخبر موت الأمير « ريموند » زحف هو الآخر بجيش كبير على بلاد الشام ، واستولى فى طريقه على كثير من مدن ذلك الاقليم وحصونه حتى أفضى به الزحف أخيرا الى حصار « تل باشر » رغم وجود كونت جوسلين وامرأته وأتباعه فيها ، وكان الملك خلال هذه الفترة قد بعث بـ « همفرى » الكونستابل على رأس ستين فارسا لحماية قلعة « أعزاز » والحيلولة دون سقوطها فى يد الترك ، وانتهى الأمر أخيرا بأن أطلق الكونت كل من كانوا فى أسره من رعايا السلطان ، وأضاف الى ذلك بأن خلع عليه اثنتي عشرة حلة حربية ، وانعقد

الصلح بين الطرفين ، ورحل السلطان ، وانطلق الكونت الى «اعزاز» فى نفس اليوم وقد تخلص من الحصار ثم أسرع الى أنطاكية شاكرا الملك علىما أبداه من العطف عليه ، فلما فرغ من زيارته ودعه منكفئا الى امارته مستصحبا معه الحرس القليل الذى كان قد جاء به معه ٠

ولقد تحمل الملك (بلدوين الثالث) عبء مسئولية البلد المنكود، وكان هذا ما دعاه الى البقاء فى أنطاكية حتى تستقر الأمور بها حسبما يسمح الوقت والمكان ، فلما رأى الهدوء يعود اليها بعض الشىء انفلت راحلا الى بلاده لينصرف الى معالجة شئونه الخاصة ٠

(١١)

كان جوسلين الصغير كونت الرها دون أبيه فى صفاته ، فقد كان شخصا يتسم بالتراخى ، فهو مسلم قياده للملذات الوضيعة الفاسقة حائدا عن الطريق القويم ، لا يعف عن سلوك السبل الدنيئة مع اضماره الكراهية السوداء لأمير أنطاكية الذى كان سقوطه أكبر مايشرح صدره ويثلج قلبه ، لذلك لم يعبأ كثيرا بالمثل القائل « ان شبت النار فى بيت جارك ، فدارك هى الأخرى فى خطر » ٠

على أنه استجاب لنداء البطرك فخرج متلفعا بالظلام الى أنطاكية ، غير مستصحب معه سوى شاب يأخذ بعنان فرسه ، تاركا وراءه حرسه ، وانطلق لقضاء حاجته ، فخرج عليه فجاة من احدى الغابات بعض قطاع الطرق الذين لم يدر بهم أحد ممن أمامه ولا ممن خلفه ، ثم أمسكوه وقيدوه بالسلاسل والأغلال وساروا به الى حلب ، فزج به سجن شديد القذارة ، وقد أثقلته سلاسله الحديدية فأصابه مس فى عقله وآلام فى بدنه ، وهكذا جنى ثمار فسقه وخلاعته ، وانتهى به الأمر الى أسوأ نهاية يمكن تصورها ٠

ونهض حراسه وقد أتلع الفجر وهم لا يدرون شيئا قط مما جرى لمولاهم ، وانطلقوا يفتشون عنه فى كل ناحية ، فلم يسفر بحثهم عن طائل ، فلما تبينوا ذلك كروا عائدين على أعقابهم يحـــدثون بالكارثة التى ألمت بهم ، فعم الفزع البلد مرة أخرى ، واغتم الناس مما جرى ، واذا كان الناس لم يتعاطفوا مع جيرانهم فيما أصابهم من قبل الا أنهم فى هذه اللحظة ـ وقد مسهم هم أيضا الخطر ـ أدركوا وجوب مشاركتهم الآخرين كوارثهم ٠

ثم جاءت الأخبار تؤكد أن الكونت « جوسلين » الصغير أسير فى حلب(٦) ٠

أما امرأة « جوسلين » الصغير هذا (وكانت امرأة عفيفة حصيفة تخاف الرب ويرعاها الله بعطفه) ، فقد بقيت مع ابن صغيرلها لم يناهز الحلم ، وحاولت جهدها الاستعانة بمعونةكبارالرجالالذين لازالوا باقين فى المملكة أن تحكم الناس بأحسن ما فى قدرتها وبما فوق طاقة أية امرأة ، فصـــرفت همتها الى تقوية البلاد وزيادة تحصينها ، وتزويدها بالرجال والطعام ٠

هكذا كان عقاب الله لنا على خطايانا ، اذ قضى على هاتين الامارتين (أنطاكية والرها) أن تحرمـا من توجيهات أميريهمـا ، ولكنهما احتفظتا بكيانهما ـ وان يكن بصـــعوبة ـ تحت حكومة النســاء ٠

(١٢)

على أنه بعد أمد وجيز من هذه الأحـــداث التى جرت فى أنطاكيـــة تعطفت الرحمة الالهية على المملكة(٧) حين نهض الملك وذبلاؤه من غمرة الأسى والمآسى التى ترددوا فيها والمصائب التى

توالى نزولها فاســتردوا بأسهم ، وقرروا اعادة بناء « غزة » ، مؤملين من وراء ذلك أن يكبحوا جماح أعدائهم العسقلانيين الأشداء وايقاف غاراتهم المدمرة ٠

* * *

وغزة بلد موغل فى القدم كل الايغال ، وهى تقع على مسيرة عشرة أميال جنوب عسقلان وقد صارت الآن أطلالا دارسة هجرها الناس ، لذلك أجمع الملك ونبلاؤه العزم على اعادة بنائها حتى يمكن تطويق عسقلان من الجنوب ومن الشمال والشرق بالحصون التى شيدوها هناك ، كما أنهم يستطيعون شن الغارات المتكررة من هذه الناحية ضد المدينة والقيام بعمليات حربية جريئة عليها من غيرانقطاع فلما كان اليوم المحدد للعمل اجتمع الناس قاطبة فى الموضع المعين لهم ، وأقبلوا على ما كلفوا به ، وقد نسقوا جهودهم فيما بينهم ، وراح كل منهم ينافس الآخر فى المساعدة لاعادة بنائها ٠

* * *

ولقد كانت هذه المدينة القديمة « غزة » احدى مدن الفلسطينيين الخمس ، وقد اشتهرت بمبانيها وكنائسها الكثيرة وبيوتها الفسيحة المبنية بالرخام والأحجار الضخمة ، وان استحالت اليوم الى أطلال دارسة ، ومع ذلك فان هذه الأطلال تشير الى ما كان لغزة من المجد الغابر فى سالف العصور ، اذ لايزال بها كثير من الصــهاريج والعيون الزاخرة بالمياه العذبة ، هذا الى جانب قيام البلد على نجد مرتفع بعض الشىء ، وتضم أسوار المدينة أراضى فســيحة الاتساع ٠

ولقد أدرك الصليبيون أن ليس من الأوفق اعادة بناء المدينة بأجمعها ، فلن تكون قدرتهم حينذاك كافية للنهوض بعمل كهذا العمل، ومن ثم عمدوا الى ناحية من التل حفروا فيها الأساس على عمق

ملائم ، وشيدوا قلعة ذاعت شهرتها بفضل ســـورها وأبراجها ، حتى اذا انجزوا ما كلفوا به من العمل على اكمل صورة بعون الله وفى فترة قصيرة ، واستوى البناء من كل نواحيه اتفقوا على أن يعهدوا به الى رعاية فرسان المعبد ليكون ملك يمينهم على الدوام ، وقد قام الاخوان الشجعان المحاربون الأشداء بالمحافظة على هذه الناحية على أكمل صورة وأحسن وجه حتى يومنا هذا ، وطالما شنوا منها الغارة العنيفة تلو الغارة على عسقلان ، تارة جهرا وتارة من الكمائن ، وترتب على هذه الغارات أن هؤلاء الاعداء الذين كثيرا ما اجتاحوا الاقليم وخربوه ، وكانوا مصدر فزع لمسيحييه أن أصبحوا اليوم يرون انفسهم أسعد ما يكونون ان هم اســتطاعوا (بالتوسلات وبالمال يبذلونه) الحصول على سلام مؤقت يوفر لهم المعيشة الهادئة المطمئنة وراء أسوارهم ٠

وقد برهنت « غزة » على جدواها ليس فقط فى ردع عسقلان التى شيدت لمضايقتها بل انها أصبحت بعد فتح المدينة تستعمل خط دفاع حصين من الناحية الجنوبية وصارت مظلة أمان كبرى للاقليم ضد المصريين ٠

فلما كان مطلع الربيع وقد فرغوا بعض الشىء من بناء القلعة عاد الملك والبطرك الى القدس تاركين بغزة فرسان المعبد الذين وكل اليهم الحفاظ على القلعة ، وكانت عادة المصريين أن يبعثوا قوات جديدة ثلاث مرات أو أربع على مدار السنة لدعم قوة العسقلانيين ٠

لكن حدث بعد رحيل الملك أن ظهرت هذه القوات بأعداد هائلة أمام حصن غزة وشنت هجوما ضاريا على الناحية ، مما حمل أهل البلاد على الفرار خوفا من العدو ، ومع ذلك فقد رأى قادة هذه القوات بعد أيام عدة بدوها فى الحصـــــار أن يرحلـــوا الى

عسقلان ، وظهر للعيان أن بأس العدو قد أخذ منذ ذلك الحين فى الضعف ، وأن خطرهم يتضاءل يوما بعد يوم حتى كفوا أخيرا عن اجتياح الأراضى التى حولهم ٠

أما الجيش المصرى الذى قلنا انه كثيرا ما أسعف المدينة المنكوبة بالعون فقد شرع فى المجىء عن طريق البحر فحسب لتخوفه من الكمائن تباغته من القلعة الواقعة فى طريقه ، كما أصابه فزع كبير من الفرسان خوف أن يفتكوا به ٠

(١٣)

كانت أمور المملكة فى المشرق ابان هذا الوقت تسير سيرا مرضيا وقد سادها قدر كبير من الهدوء الذى لم يكن يعكر صفوه غير وقوع كونتية الرها فى قبضة أعدائنا ، وضياعها من أيدينا ، هذا بالاضافة الى تعرض أرض أنطاكية على الدوام للهجمات المعادية ، واذ ذاك نهض الشيطان عدو بنى آدم والمستعد على الدوام لبذر بذور الشر وحسدنا على مانحن فيه من نعيم ، وانطلق يعكر صفو سلامنا فأضرم لهيب المنازعات المدنية ، وتتلخص أصول الشر وما نحن فيه فيما يلى : ألا وهو أن زوج الملكة « مليزند » ذات الذكرى المجيدة والجهد الطيب فى سبيل الرب كان قد رحل عنها تاركا لها طفلين غريرين لم يبلغا مبلغ الرجال ، فأصبحت الوصية الشرعية عليهما ، وآلت اليها عن طريق الارث الصحيح رعاية المملكة وادارة دفة شئونها ، واستطاعت أن تحكم حتى ذلك الوقت كوصية حكما هو فوق قدرة النساء وشجاعتهن ، وذلك بفضل استماعها الى ما ينصحها به بارونا المملكة ، ولقد عاش ابنها الأكبر « بلدوين » الذى نكتب عنه الآن معها فى وفاق تام ، منفذا ما تشير به عليه حتى بعد اعتلائه العرش ٠

وكان من بين من اعتمدت عليهم الملكة وعلى مســـــاعدتهم ومشورتهم قريبها « مناسيس » وكان ذا مرتبة سامية ، وصديقا فى الوقت ذاته حميما لها ، لذلك ما كادت « مليزند » تأخذ مقاليد الحكومة فى يدها حتى نصبته « كونستابلا » وجعلت له قيادة الجيش العليا ، لكن يقال انه استغل عطف الملكة عليه وتأييدها له وسلك مسلكا اتسم بالغطرسة الشديدة ، فتعاظم كأقبح ما يكون التعاظم على كبار رجال المملكة وتعالى عليهم فلم يظهر لهم الاحترام اللائق بهم مما أضرم البغضاء الشديدة نحوه فى قلوب النبلاء الذين ما كان لهم الا أن يترجموا عن كراهيتهم العنيفة له فى عمل ضار ، لولا أن استعملت الملكة سلطتها ٠

* * *

كان « مناسيس » متزوجا من أرملة « بليان » الكبير ، وهى سيدة شريفة وأم للاخوة الثلاثة : « هيج » و « بلدوين » و « بليان » الصغير صاحب الرملة ، واستطاع « مناسيس » بفضل هذا الزواج أن يستحوذ على المال الكثير ، وأن يزيد من رقعة ما بيده من الاقطاع زيادة كبيرة ، وكان الملك بلدوين (الثالث) أشد الماقتين لمناسيس شعورا وفعلا ، وكان يعتقد أن هذا الرجل يعمل على أن يبعده عن عطف الملكة ويعطل كرمها نحوه ٠

كما كان هناك كثيرون يمقتون من « مناسيس » هذا النفوذ ويكرهون أعماله الشريرة ، ومن ثم دأبوا على اذكاء ضرام البغضاء عليه فى قلب الملك ، وراحوا يحثونه دوما على زحزحة أمه من السيطرة على الملكة ، فلما بلغ بلدوين (الثالث) رشده قالوا له انه ليس من الملائم أن تتحكم فيه امرأة وتسيره حسب هواها ، وأن الواجب يقتضيه أن يأخذ فى يده بعضا من تبعات الحكم ٠

وتأثر الملك بهذه الآراء يسمعها من هؤلاء المستشارين وغيرهم ممن على شاكلتهم ،لذلك أجمع العزم على أن يتوج ببيت المقدس يوم عيد الفصح ، فجاءه البطرك وغيره من حكماء المملكة الذين يبغون استتباب السلام بها ، وتوسلوا اليه فى الحاح أن يسمح لأمه (مليزند) أن تشترك فى يوم مجده ، فأظهر الاستجابة لمشيئة هؤلاء الذين ذكرناهم حالا ، لكنه أجل الموعد الذى كان مضروبا للاحتفال حتى لا تتوج أمه معه ، فلما كان اليوم التالى لاجتماعهم طلع بلدوين على الناس علانية وعلى رأسه التاج من غير أن يتوقع أحد شيئا مما جرى ودون استدعاء أمه ·

(١٤)

ولما فرغوا من مراسم الاحتفال عقد الملك مجلسا من نبلائه كان من بين حاضـــريه « ايفز » كونت « ســواسون » ، و « ولتر القشتالى » قيم سنت « أومير » ، وتوجه بلدوين الى أمه وطلب اليها أن تتقاسم فى الحال المملكة معه ، وتخصص له نصيبا مما ورثه عن أسلافه ، وطال الأخذ والرد بينهما ، ثم انتهى الأمر أخيرا بتقسيم التركة بينهما ، وتركوا للملك أن يختار ما يشاء فاختار المدن الساحلية فى أقليمى صور وعكا بكل ملحقاتها ، أما القدس ونابلس وغيرهما من المدن الملحقة بهما فقد تركت فى يد الملكة ، وهكذا تم الفصل بينهما ، وتمنى الناس — من أجل اقرار السلام — أن يدوم الوفاق الذى توصلوا اليه ، وأن يقنع كل منهما بنصيبه ·

وعين الملك فى هذا الوقت أيضا أحد نبلائه العظام «كونستابلا» له وقائدا عاما لجيشه ذلك هو « همفرى » صاحب « تورون » الذى كان له ممتلكات فسيحة وكبيرة فى فينيقية بين الجبال الواقعة قرب صـــور ·

غير أن الرغبة العنيفة فى اضطهاد الملكة لم تخمد فى صدر (ابنها) الملك رغم كل ما جرى بل حدث العكس من ذلك اذ كانت النار تزداد ضراما بسبب أمور تافهة وتنذر بأخطار أشد جسامة من ذى قبل ، ذلك أن الملك راح يستجيب لما يثيره نفس هؤلاء النبلاء الذين اصاخ اليهم السمع فيما مضى ، وشرع يثير القلاقل ضد أمه . ودبر الاستحواذ على شطر المملكة الذى آل اليها من قبل برضاء الطرفين الصادق وكان معنى ذلك حرمانها حرمانا باتا من كل شىء، فلما سمعت الملكة بخطته غادرت نابلس فى رعاية بعض نبلائها المخلصين وأسرعت الى بيت المقدس ٠

وقام الملك فى الوقت ذاته فجمع أكثر ما يستطيع جمعه من عسكر حاصر بهم « مناسيس » فى قلعة يسمونها « ميرابل » ، فاضطر « مناسيس » للاستسلام ، وتخلى رغم أنفه عما ملكت يداه (وهو فلسطين) فى هذا الاقليم الواقع على ذلك الجانب من البحر ، وتلا ذلك قيام الملك بالاستيلاء على « نابلس » وزحف منها الى القدس مطاردا لأمه ٠

وكان هناك رهط من النبـــلاء ممن تقع ممتلكاتهم فى نطاق أراضى الملكة ، وكانوا قد ارتبطوا بها برباط وفاء اسمى واهى العرى ، فلم يضرهم أن ينكثوا بيمين الاخلاص الذى قطعوه على أنفسهم لها وثاروا عليها ٠

أما القلة القليلة من النبلاء الذين وقفوا الى جوارها فقد حافظوا على ولائهم لها ، وكان من بين هؤلاء ابنها « عمورى » كونت يافا ، وكان شابا صغير السن جدا ، وفيليب النابلسى ، و «روهارد» الكبير ، وزمرة قليلة العدد لم نعرف أسماءهم ٠

* * *

ولما سمعت الملكة أن ابنها موشك على الاقتراب بجيشه ارتدت الى القلعة مع أهل بيتها واتباعها الأوفياء ، معتمدة على ما بالقلعة من التحصينات ، ولكن البطرك « فولشر » ـ صاحب الذكر الطيب ـ أدرك أن أزمنة البلوى تهدد بقرب حلولها ، فرغب أن يتدخل لتهدئة الأمور وتقديم اقتراحات السلام ، لذلك اصـــطحب معه رهطا من رجال الدين كانوا أهل ورع وتقوى ، ومضى بهم لمقابلة الملك ، مسديا اليه النصح بالكف عن مشروعه الخبيث وطلب اليه الالتزام بشروط الاتفاق ، وأن يترك أمه تعيش في هدوء ، فلما لم تجد هذه التحذيرات استجابة عنده عاد البطرك الى المدينة وهو أشد ما يكون مقتا وازدراء لخطة الملك الذى أبى الا أن ينفذ ما اعتزمه ، ورآه قد نصب معسكره أمام المدينة التى سعى أهلها لتجنب غضب الملك عليهم ففتحوا له أبوابها وأدخلوه هو وجنده تحاشيا لنقمته عليهم ، فبادر الى محاصرة القلعة التى اعتصمت بها الملكة الوالدة ، وهيأ آلاته الحربية للقصف وراح يرمى من فى المدينة بالمنجنيق والسهام ، ويصب عليها وابلا من القذائف حتى دمرها ، وكان وهو يحاربها كأنما يحارب عدوا لدودا . وواصل الملك هجماته عليها فلم يترك لها لحظة يلتقط فيها أهلها انفاسهم ، ومع ذلك فقد قاومه من كانوا بها ما وسعتهم المقاومة ، وجاهدوا فى رد القوة بالقوة ، واستعملوا نفس الأساليب التى تستعملها القوة المحاصرة لهم من الخارج ، ولم يتوقفوا هنيهة عن انزال الأهوال بخصومهم ، فكبدوهم من الدمار مثل الذى كبدوهم اياه .

واستمر الصراع أياما عدة ، وكان ينطوى على الخطر الجسيم على الجانبين ، وذلك لأنه على الرغم من أن الملك لم يصادف تقدما كبيرا فى الاستيلاء على القلعة الا انه كان لايزال كارها للانسحاب ، عازفا عنه ، لكن حدث فى النهاية أن تقدم رهط من وسطاء الســلام والمحبة واقنعوا الملكة بالاكتفاء بمدينة نابلس وما حولها وبالتخلى

للملك عن بيت المقدس عاصـــمة المملكة ، وتأكد ذلك بتأييد من جانب الملك الذى أقسم اليمين على ألا يعرض بسوء لميليزند فى ملكيتها تلك المدينة ، وهكذا عاد الوئام بين الطرفين ، ورفرف الهدوء من جديد على المملكة والكنيسة ، وكان سلاما أشبه بنجمة الفجر تتلألأ وسط دياجير الظلام ·

(١٥)

سمع ملك بيت المقدس بالكارثة المفجعة التى أسفرت عن أسر كونت الرها ، كما علم من مصـــادر موثوق بها أن هذه الكونتية أصبحت مجردة تماما ممن يدافع عنها ، وصارت مرمى لشـــرور العدو ، وأن الحكم فيها بأكملها – وفى امارة أنطـــاكية – غدا موكولا الى النساء يدبرنه كما يرين ، وكان ذلك أمرا أقلق خاطره ، فاستجاب لهذه الحاجة الملحة ونهض مستصحبا معه « همفرى » الكونستابل و « جى » صاحب بيروت ويمم وجهه شطر طرابلس ·

أما أشراف النواحى التى تملكها الملكة فقد صموا آذانهم عن نداءاته ، ولم يستجب أحد منهم له رغم أنه استدعى كل واحد منهم باسمه على حدة ، لكن انضم اليه فى طرابلس كونتها وفرسانه ، واذ ذاك أغذت هذه القوات جميعها السير الى أنطاكية بأسرع ما يمكن ·

ولقد قيل فى كل مكان – وكان ذلك حقا – ان أميرا قويا من أمراء الترك هو سلطان « قونية » قد غزا ذلك الاقليم بحشد كثيف من الفرسان واستولى تقريبا على كل المنطقة الواقعة على تخوم بلاده ، فما كان من السكان – وهم عاجزون عن التصدى له ولبطش جنده – الا أن أسلموه جميع مدنهم وحصونهم على أن يأذن لهم بالخروج سالمين غير مضارين فى حريمهم ولا أولادهم ، وأن يزودهم

بكتاب أمان الى « تل باشر » الذى كان أحسن تحصينا من بقية الأماكن الأخرى وأكثرها ازدحاما بالســـكان ، كما كان الكونت (جوسلين) قد اتخذ « تل باشر » دار اقامة دائمة له ، فقد كانت أقل اضطرابا من سواها ·

غير أنه لما تم للسلطان الاستيلاء على كل الاقليم باستثناء بضع قلاع قليلة وجد نفسه مرغما على العودة الى دياره لمواجهة أمور أجل خطرا ، لكن هذه العودة من ناحية السلطان لم تخفف من المتاعب التى كابدتها الولايات ولم تقلل من الاضطراب الذى كان سائدا فى نواحيها ، ويرجع السبب فى هذا الى أن نور الدين ـ أعظم مضطهدى شعبنا ـ وكان أميرا تركيا شديد البطش ـ كان يجتاح حينئذ الاقليم بأكمله ، ولم تتوقف غاراته حتى لم يعد أحد يجرؤ على الظهور خارج الحصون · وقد ظل هذا الشعب المنكوب مطحونا على الدوام بين شقى الرحى ، ولقى من العذاب المرير على يد أميرين عظيمى البأس الشىء الكثير الذى لا يطاق ، هذا فى الوقت الذى هو عاجز فيه عن تحمل بطش أمير واحد ·

(١٦)

علم امبراطور القسطنطينية فى نفس الوقت بوضـــع الرها السيىء فأرسل اليها واحدا من وجوه نبلائه ومعه قدر كبير من الذخيرة ، وطائفة ضخمة من خاصة فرسانه ، وعرض على الكونتيسة أنه سوف يجرى عليها راتبا مجزيا يكفى لمعاشها ومعاش أطفالها ، ويهيىء لهم عيشة رفيعة هنية ان هى قبلت أن تسلمه القلعة التى لازالت فى حوزتها ، وكان الامبراطور يعتقد أنه يستطيع بأمواله الضخمة ـ اذا استسلمت له الامارة ـ أن يحفظها آمنة من غارات الترك ، وأن يعيد الى امبراطوريته من غير مشـــقة الأجزاء التى فقدتها ·

وحين وصل الملك الى أنطاكية وعرف ســـر قدوم الرســل الامبراطوريين (البيزنطيين) الذين كشفوا اللثام عن مهمتهم شجر الشقاق بين نبلاء الامارة فقال بعضهم ان الأوضاع لم تصل بعد الى الحد الذى يضطرهم الى سلوك هذا المسلك ، وخالفهم آخرون تمام المخالفة فقالوا بوجوب قبول ذلك العرض قبل أن تقع البلاد كلها فى يد العدو .

وفى وسط هذه الاختلافات رأى الملك أن ليس فى قدرة الامارة الاستمرار طويلا فى وضـــعها الراهن الذى هى فيه ، كما أن مسئوليات مملكته لن تسمح له بالتغيب عنها فترة طويلة من الزمن يقضيها فى أنطاكية ، يضاف الى ذلك أن ليس تحت يده هو نفسه قوات كافية تمكنه من حكم القطرين حكما يتلاءم والصالح العام فى الوقت الذى يبعد فيه الواحد منهما عن الآخر رحلة قدرها خمسة عشر يوما ، ولما كانت أنطاكية ـ وهى وسط بين البلدين ـ قد ظلت أعواما طويلة من غير حاكم يرعى شئونها فقد انتهى به الرأى الى أن خير ما ينبغى عليه عمله هو أن ينقل الى يد الاغريق المعاقل التى لازالت موجودة بيد الكونتسة وذلك حسب الشروط المقدمة منهم . هذا على الرغم من أنه كان عديم الثقة فى أن تظل الامارة قادرة على البقاء سليمة تحت حكم القوات الاغريقية ، لكنه آثر أن تضار على يد الاغريق وبواسطة قواتهم فهذا خير من أن يسقط أهلها الذين يواجهون الخطر الآن واذ ذاك تقع على عاتقه مسئولية خراب البلد .

وعلى الرغم من أنه لم يكن كبير الثقة فى قدرة العســاكر الاغريق على الحفاظ على الامارة سليمة الا أنــه فضل أن تدهمها المصيبة وهى فى كنف اليونان من أن ينسب اليه ســقوط شعبها ودماره . ومن ثم أبرمت اتفاقية برضاء الكونتسة وأطفالها ، وقد ارتضاها الطرفان (الصليبى والاغريقى) وهى قائمة على الشروط المذكورة أعلاه ، كما اتفق على تحديد يوم يذهب فيه الملك الى امارة

الرها بكل قواته ليضع جميع القـــلاع فى أيدى رجال الامبراطور ويملكهم اياها ٠

ولما جاء اليوم الذى حدده الاتفاق خرج الملك (بلدوين الثالث) مستصحبا معه كونت طرابلس وسراة القوم من رجال مملكته وامارة انطاكية ، واجتاز أرض كونت الرها الى « تل باشر » حيث كان الرسل الاغريق فى انتظاره ، فوضـــع تحت حمايته الكونتســـة وصغارها وغيرهم من الجنسين ذكورا وأناثا ، لاتينا كانوا أم أرمن ممن أرادوا مغادرة الناحية ، ثم أسلمها للاغريق ، وكانت القلاع والحصون التى ظلت حتى هذه اللحظة فى حوزة الصليبيين هى « تل باشر » و « عينتاب » و « راوندا » و « رانكولات » و « بايب » و « سميساط » وربما كان هناك أماكن أخرى غير هذه كلها أيضا ، فانتقلت كل تلك النواحى الى سيطرة الاغريق ٠

* * *

ثم استعد الملك للسير وكان فى صحبته جمع ممن رغبوا فى الرحيل ومعهم ما يملكون من دواب الحمل وأثقـــال ضـــخمة من الأمتعة ، لأن كل فرد رأى أن يخرج بكل أهل بيته وخدمه وأثاث بيته ، ثم شرع الملك فى الرحيل بكل هذه الحشود الكثيفة ممن لا علم لهم بالقتال وسار محثا الخطى كى يوصلهم الى مكان يكونون فيه سالمين فى أرواحهم آمنين على أنفسهم ٠

(١٧)

بلغت مسامع نور الدين الأخبار القائلة بأن أهل الرها قد يئسوا من الحفاظ على تراب أرضهم فأسلموا حصونهم الى الاغريق اللينين المخنثين ، وأن الملك بلدوين قد سار اليهم ليأخذ النـــاس بعيدا عن تلك الناحية ٠

وقد أدى احساس الصليبيين بالخوف الى تقوية عزيمة نور الدين وزيادة اقدامه ، وتمثل هذا فى حشـــده فى الحال للقوات المسلحة من جميع الأقاليم المجاورة ومباغتته بها نواحى كان يطمع أن يلتقى فيها بالملك وبمن فى صحبته ممن تزعزعت ثقتهم فى قوتهم ، فلو قدر له أن يلقاهم فى هذه الظروف الملمة بهم وقد أثقلهم متاعهم الكثير الذى حملوه معهم لكان ذلك خيرا كبيرا له ٠

وحدث أنه ما كاد الملك يبلغ مدينة جوها (٨) JOHA التى لا تبعد عن تل باشر أكثر من خمسة أو ستة أميال حتى أطلق نور الدين رجاله يجتاحون الناحية بأكملها التى كان على مقربة منها حصن يعرف بحصن عينتاب الذى لابد أن يمر به الصليبيون فى متابعتهم لزحفهم ، فلما أدركوا الخطر المحدق بهم وأرادوا التعجل فى السير رتبوا صفوفهم وأعدوها للقتال اعدادا جيدا تأهبا لأية غارة قد تفاجئهم على غرة بها قوات العدو التى استعدت هى الأخرى من جانبها فنظمت صفوفها فى انتظار اقترابنا منها انتظار المتلهف ، كما لو كانت واثقة من أن ستكون لها الغلبة علينا ، الا أن الأمور جرت على عكس ماتوقعوا ، ذلك أن جيشنا سار بعون الرب حتى ذلك الحصن سالما ، وهنا أذن لمن أنهكهم التعب وللحيوانات المجهدة بالراحة طول هذه الليلة ، أما قوادنا فقد تجمعوا فى هذه الأثناء للتشاور فى خطة سيرهم فى اليوم التالى ٠

وحينذاك طالب فريق من وجوه النبلاء بأن يعهد اليهم بحراسة ذلك الحصن اعتقادا منهم أن قوتهم كافية باذن الله لحفظ المكان من غارات الأتراك ، وكان من بين رجال المملكة المؤيدين لهذه الفكرة « همفرى » صاحب « تورون » الكونستابل الملكى الشجاع المقدام ، كما وافق على هذا الرأى أيضا « روبرت سورديفال » أحد نبلاء انطاكية الأقوياء ٠ على أن الملك كان مقتنعا تمام الاقتناع بأن ليس لأحد من هذين الاثنين من القوة أو البأس ما يكفى للنهوض بهذه المهمة

واتخاذها على الوجه الأكمل ، ومن ثم فقد رفض عرضهما واعتبره غير ذى موضوع ، وأصر على الحفاظ على الاتفاق ، ومن ثم أسلم المكان الى الاغريق ، وصدرت الأوامر للناس بالاستعداد لمتابعة الزحف •

لقد كنت ترى فى هذا الزحف رجالا من أصول شريفة • وسيدات نبيلات ، وعذارى يسمو بهن كرم المحتد ، وأطفالا صغارا وقد تعالى نحيب الجميع وانسابت الدموع حزنا على مفارقتهم لأوطانهم وأرض أسلافهم وآبائهم ، اذ يهاجرون منها فى حزن الى بلاد غريب عنهم أهلها ، وان أقسى القلوب ــ ولو كانت قد قدت من الحجر ــ لتتفطر أسى من آهات الناس وعويلهم لأنهم ماضون الى المنفى •

فلما عاود الصباح اشراقه رتبوا أمتعتهم وواصلوا سيرهم ، كما رتب العدو هو الآخر من جانبه صفوفه وتقدم معهم على جانبيهم وهو مستعد للوثوب عليهم من كل جهة ، فلما رأى المسيحيون الحشد الكبير يسير فى أتم نظام أعادوا ترتيب كتائبهم وفيها الخمسمائة فارس الذين كانوا معهم وهيأوا أماكن للجميع ، وتم الاتفاق على أن يزحف الملك أمامهم كلهم مع الطليعة وأن يوجه تقدم الناس المشاة ، وأن يقوم كونت طرابلس والكونستابل الملكى « همفرى » بحماية الجماعات التى تسير فى الخلف مع استعانتهما بأقوى القوات وأكثرها عددا للتصدى لهجمات العدو والدفاع عن الناس • أما نبلاء أنطاكية فيقفون على يسار الجيش ويمينه ، وبذلك تحيط بالعامة الذين وضعوا بالقلب قوة هائلة من الرجال المغاوير والفرسان المسلحين •

ولقد ظل المسيحيون يتقدمون يومهم هذا بأكمله وهم على هذه الهيئة حتى آذنت الشمس بالأفول ، وان تعرضوا من غير انقطاع الى أخطار لا تكاد تحتمل من هجمات متكررة عليهم وخروج الكمائن

من النواحى القريبة ، وكانت السهام تنهال عليهم كالمطر وكان أكثرها على القوات الأمامية حتى صارت الأمتعة وكأنها القنفذ،وأصاب الناس ارهاق لم يعودوا يحتملونه بسبب ما تعرضوا له من كثرة الغبار وشدة الحر اللذين يصحبان شهر أغسطس ، وزاد الأمر سوءا ما حاق بهم من ظمأ ممض ، حتى اذا أخذت الشمس فى الأفول أعطى الترك الاشارة للارتداد لنفاذ ما معهم من المؤونة وهلاك بعض كبرائهم ، فارتدوا وقد استولى عليهم الدهشة من مثابرة الصليبيين وثباتهم اللذين لم يروا لهما مثيلا ·

وحمل « همفرى » الكونستابل قوسه وراح يطارد الكفرة فى تقهقرهم ، حتى اذا بعد الجيش برز له من صفوف العدو جندى اقترب منه ثم ألقى بسلاحه وضم كفيه على هذا الجانب مرة وعلى الجانب الآخر مرة أخرى دليلا على التعظيم ، وكان هذا الجندى تابعا أمينا لعظيم تركى قوى ارتبط بالكونستابل بتحالف أخوى وثيق العرى ، ومن ثم أرسل تابعه هذا الى « همفرى » ينبئه بالأوضاع السائدة فى جيش خصمه ، ويخبره أن نور الدين عازم على الرجوع الى بلده بجيشه فى ليلته هذه بسبب نفاد كل أنواع المؤونة من عنده ، وأنه لم يعد قادرا على مطاردة الصليبيين أكثر مما فعل · ثم انفلت الرسول الى جماعته بعد أن فرغ من كلامه ، وعاد « همفرى » هو الآخر الى معسكره ، وأفضى الى الملك بالخبر الذى علمه ·

ولما كان الليل موشكا أن يرخى سدوله على الكون فقد عسكر الجميع فى مكان يعرف باسم « يوها JOHA دون أن يصادفوا أية مشقة ، فلما كانت الأيام التالية قاد الملك الناس عبر الغابة المعروفة بغابة « مريم » الى ناحية داخلة فى نطاق المسيحيين ، وعاد أدراجه الى أنطاكية ·

أما نور الدين فقد اشتد فى التضييق على بلاد الكونت التى لم تعد تجد عونا من اللاتين بعد أن آلت الى أيدى الاغريق الذين

لا يميلون الى القتال ، والذين وجدوا أنفســـهم غير قادرين على الصمود فى وجه الهجمات المتكررة التى يقوم بها نور الدين الذى انتهى الأمر بــه أخيرا الى أن يرسل عسكرا كثيرين لحصـــار المعاقل والحصون ، فأخرج هذا العسكر (الاسلامى) الاغريق عنوة مما فى أيديهم ، واستطاع نور الدين فى مدى عام واحد فقط أن يستولى على الاقليم بأجمعه ٠

ولقد أدت خطايانا الى أن نفقد ولاية شديدة الثراء ، حافلة بالعيون المائية والمراعى ، وأرضا خصبة حافلة بشتى أنواع السلع، كما ضاع من أيدينا ناحية تعيل خمسمائة فارس ، فقد انتقلت كل هذه النواحى الى يد العدو ولازالت حتى اليوم لا تخضع لحكمنا ٠

كما نكبت كنيسة أنطاكية بفقد ثلاثة من رؤساء الأساقفة هم رؤساء أساقفة كنائس الرها و « هيرابوليس » و « كوريتيوم » ، وهى البيع التى لازالت حتى اليوم فى أيدى الكفار حسب خزعبلات « الأمم » ٠

(١٨)

كان جزع بلدوين ملك بيت المقدس فى هذا الوقت على أنطاكية والأراضى المتاخمة لها كأشد ما يكون الجزع مخافة أن تقع فى يد العدو بعد أن حرمت من أمير لها يحميها ويرعاها ، كما خاف الملك أن يكون مصيرها مصير الرها المفجع مما لابد أن ينجم عنه أن تتضاعف متاعب أهلها النصارى وتزداد نكبتهم بخسائر لا طاقة لهم على احتمالها ، ولم يكن هو ذاته قادرا على اطالة مكثه فى أنطاكية لأن مشاكل مملكته كانت تفرض عليه العودة اليها ، لذلك فانه كثيرا ما نصح الأميرة بأن تختار أحد النبلاء ليكون زوجا لها حتى تسترشد حكومة الامارة برأيه وتستفيد من نشاطه ٠

وكان هناك عدد من النبلاء البارزين الموجودين فى بلاط الملك، منهم « ايفز دى نيزل « كونت » سواسون ، وكان رجلا سريا عاقلا رصـــينا كبير النفوذ فى مملكة الفـــرنجة ، ومنهم « وولتر دى فالكنبرج » قيم سنت « أومير » الذى صار فيما بعد أميرا لطبرية ، وهو رجل مهذب الحاشية ، رقيق الطبع ، سديد الرأى فيما يشير به، كما كان باسلا فى القتال ·وكان منهم أيضا « رالف دى ميرل » وهو نبيل عالى المرتبة ، خبير بفن الحرب ، ومعروف باحساسه الطيب ، فكان كل واحد من هؤلاء الثلاثة قادرا بحق على حماية البلد ، لكن الأميرة كانت تتحاشى الزواج وتعده قيدا ، وتؤثر أن تعيش حياتها الخاصة حرة طليقة ، ولم تكن تكترث بحاجات شعبها، بل كان كل الذى يعنيها هو أن تتمتع بلذائد الحياة ومباهجها ·

ولما كان الملك يعرف جيدا ما تفضـــله هذه الأميرة فقد عقد مجلسا عاما فى طرابلس ضم نبلاء المملكة والامارة معا ، ودعا اليه بطرك أنطاكية وكبار مساعديه ، كما دعا اليه الأميرة وكبار رجالها ، وحضر هذا الاجتماع أيضا الملكة « مليزند » مع أمراء المملكة ، وبعد مناقشتهم المواضيع ذات الاهتمام العام مناقشـــة دقيقة طرح موضوع زواج الأميرة على بساط البحث الدقيق ، فلم يستطع الملك ولا الكونت ولا أقاربها ولا الملكة ولا كونتسة طرابلس ولا عمتاها أن يحملوها على الرضوخ لما فيه خيرها وخير امارتها ·

وقد لاكت الألسن أنها كانت فى موقفها هذا تأتمر بأمر البطرك الذى كان أمة فى مكره ودهائه ، والذى يقال أنه أيدها فى خطئها حتى تزداد يده انطلاقا فى تصريف شئون حكومة البلد ، وهو الأمر الذى كان يسعى اليه سعيا حثيثا ·

ولما لم يمكن التوصل لانجاز شىء ما فيما يتعلق بهذا الموضوع فقد انفض الاجتماع وعاد كل الى بلده ·

(١٩)

في هذه الأثناء شبت عداوة مبعثها النزاع الذى كان بين كونت طرابلس وزوجته مما حمل أختها الملكـــة « مليزند » على المجىء الى هنا سعيا منها لازالة شوائب الكدر ولتزور أيضا فى الوقت ذاته بنت أختها أميرة أنطاكية ، فلما لم توفق الملكة التوفيق الذى ترجوه لاصلاح ذات البين بينهما عزمت على الرجوع مستصحبةأختها الأميرة ، فغادرتا مدينة طرابلس ، ورافق الكونت الأميرة فى سفرها بعض الطريق ، ثم استأذن بعد قليل فى العودة الى المدينة وهو خالى الذهن تماما من أى أذى يصيبه · اذ أنه بينما كان يجتاز بوابةالمدينة اذا بسيوف الحشاشين تنوشه فتصرعه فيخر عند مدخل البوابة بين الجدار وبين السور ويهلك على أسوأ صورة ، ويقتل معه الشريف السرى الذى ذكرناه من قبل وهو « رالف دى ميرل » وفارس من فرسانه ، شاء القدر أن يكون هو الآخر مع الأمير فى هذه الرحلة .

* * *

كان الملك فى هذه الأثناء خلى البال من كل شىء يشغله فأخذ نفسه بلعب النرد فى المدينة غير عالم بما جرى ، لكن ما كاد خبر اغتيال الأمير يذاع حتى هبت المدينة على بكرة أبيها ثائرة وهب الناس الى سلاحهم يقتلون كل من يصادفونه ، لا يسألون من يكون قتيلهم ، طالما هو يغاير اللاتين لسانا وهنداما ، مؤملين أن يعثروا بهذه الطريقة على الجناة الذين اقترفوا ذلك الجرم الشنيع البشع ·

وترامت الى سمع الملك غاغة الناس الفجـــائية فلما عرف بمصرع الأمير اشتد غمه ، وفاض بالحزن قلبه ، ولم يستطع أن يمسك دمعه أو يخفى آهاته ، وأمر باستدعاء أمه وخالته فى الحال فلما عادتا ووورى الجثمان التراب فى احتفال مهيب وسط نحيب

القوم وشجنهم أمر الملك جميع أمراء تلك النواحى بقطع يمين الولاء للكونتسة وأطفالها ، فاستجابوا لأمره ٠

وقد ترك الكونت الراحل وراءه ابنا اسمه « ريموند » كاسمه هو ذاته ، وكان قد قارب الثانية عشرة من عمره ، كما خلف بنتا أصغر منه تدعى « مليزند » ، فلما فرغ الملك من تصريف الأمور فى انطاكية على هذه الصـــورة عاد الى المملكة مستصحبا أمه ونبلاء بلاطه ٠

(٢٠)

لم تمض غير فترة وجيزة على هذا الحادث حتى قام جماعة من الولاة الأتراك الأقويا المعروفين بالأراتقة ، والذين ينزلهم قومهم منزلة التعظيم ، فجمعوا حشدا كثيفا من بنى جلدتهم قاصدين الخروج للاســـتيلاء على القدس التى يعتبرون أنفسهم ورثتها الشـــرعيين ، اذ يقال ان المدينة الطاهرة كانت ملكهم وملك أســـلافهم قبل أن يستخلصها الصليبيون لأنفسهم ، وكانت أمهم شديدة التحمس لهذا الموضوع ، وقد لامت أولادها اذ سمحوا لأنفسهم بأن يظلوا منفيين زمنا طويلا من أملاكهم التى ورثوها بعيدين عنها ٠

تأثر الأبناء بتأنيبات أمهم العجوز التى لم تكن تكف قط عن لومهم ، فزحفوا على رأس طائفة كبيرة من الفرسان ، وقد أجمعوا العزم على تحقيق هدفهم باذن ربهم ، فلما بلغوا دمشق تلبثوا بها قليلا حتى يأخذ عسكرهم قسطا من الراحة ويستعيدوا نشاطهم ، وقد حاول أهل تلك المدينة صرفهم عن مشروعهم الأهوج فلم يفلحوا ورفضوا الاستماع اليهم ، وأعادوا تزويد أنفسهم بالميرة ورتبوا أمتعتهم وتابعوا زحفهم الى القدس وهم مؤمنون بأنهم الغالبون ، واجتازوا بكتائبهم الطويلة الأردن ، وصعدوا فى الاقليم الجبلى الذى

تقع به المدينة المقدسة ، ثم جاءوا الى جبل الزيتون المشرف على القدس والمتاخم لها ، وهنا أتيح لهم أن يروا منظرا فريدا طالعوا فيه الأماكن الطاهرة ، لاسيما الهيكل الذى يوقرونه توقيرا عظيما ، وكانت العين تشاهد من هذا الموضع المدينة بأكملها ٠

وكانت معظم قوات الناحية المسلحة قد نهضت الى مدينة نابلس مخافة أن يهاجمها العدو نظرا لأنها كانت خالية من التحصينات ، فلما رأى من ظلوا بالقدس أن جيش الترك شارع فى التقدم جزعوا أن يبادر بالاغارة عليهم ،فهبوا سراعا الى سلاحهم وطلبوا العون من السماء ، وزحفوا زحف المتحمسين لصد العدو وقتاله ٠

* * *

كان الطريق الواصل من القدس الى « أريحا » ثم الى الاردن وعرا كل الوعورة ، خطرا كل الخطر ، ذلك أن المواضع الكثيرة الشديدة الانحدار تجعل الصعود والنزول أمرا بالغ الشدة والمشقة حتى ولو لم يكن هناك من تحد أو ثم داع للخوف ، وحدث أن كر الصليبيون على العدو حين دخوله هذه الطريق كرة وحشية بالغة ملأت قلوبه فزعا حتى اضطر للفرار وهو فى أشد حالات الكرب ، وسقط الكثيرون من رجاله صرعى دون أن تصيبهم ضربة سيف ، ذلك لأن الصخور والمسالك الشديدة الضيق لم تكن تتيح سبيلا للهاربين ، أما الذين أمكنهم الوصول الى نواح أكثر اتساعا فقد حاولوا مواصلة الفرار ، لكن ما لبثت سيوف الصليبيين أن تلقفتهم وأثخنتهم جراحا مميتة كان فيها حتفهم ، كما أن جيادهم التى أنهكها طول السير لم تعد تحتمل السير فى الشعاب الوعرة ، فحرنت ورفضت أن تنقاد لراكبيها حتى اضطر الترك للترجل عنها وصاروا عسكرا مشاة قد ناءت أكتافهم بما يحملون من الأسلحة ولم يكونوا قد اعتادوا صعابا كهذه الصعاب ، ومن ثم تلقفتهم

سيوف مطارديهم فذبحوا ذبح النعاج ، وجرت مجزرة فظيعة على الرجال والخيل على السواء حتى عاقت زحف الصليبيين الذين لم يلتفتوا الى الغنائم والأسلاب فلم تمتد أيديهم قط اليها لاستمرارهم فيما هم آخذون به أنفسهم من المذابح الوحشية ، ورأوا أن خير ما يثابون عليه هو أن يخوضوا فى دمـاء الخصم ويسـبحوا فيها ٠

* * *

ما كاد المجتمعون فى طرابلس يسمعون بزحف العدو لمهاجمة بيت المقدس حتى هبوا مسـرعين هبة رجل واحد واندفعوا الى مخاضات الاردن ليمنعوا الترك من العبور ، فهاجموا من استطاعوا النجاة والافلات من مطارديهم وفتكوا بهم فتكا ذريعا ، وكان بطش الرب بخصومنا جبارا فى ذلك اليوم وذلك كما قيل(٩) « فضـلة القمص أكلها الزحاف ، وفضلة الزحاف أكلها الغوغاء ، وفضـلة الغوغاء أكلها الطيار » ، ذلك أن من نجوا من الوقوع فى أيدى مطارديهم سرعان ما جندلتهم سيوف الصليبيين من الوراء ، كما أن الذين دخلوا الاردن طليعة للصف الرئيسى كانوا يجهلون أين تكون هذه المخاضات فابتلعتهم الأمواج الهادرة وطواهم النهر فى لجته فكانوا من الغرقى ، وهكذا قدر للجيش الذى جاء أول ما جاء بالآلاف المؤلفة وكان مزهوا بقوته ومعتمدا على بطش فرسانه أقول ان هذا الجيش قدر له أن يعودالى دياره مدحورا وقد تضاءل عدده بصورة كبيرة ، وعمته الفوضى وتملكه الفزع حتى ليقال انه هلك منه فى هذا اليوم ما يقرب من خمسة آلاف رجل ٠

وقد جرى ذلك الحادث فى اليوم الثالث والعشرين من نوفمبر سنة ١١٥٢ من مولد المسيح وفى السنة التاسـعة من حكم الملك بلدوين الثالث رابع ملوك بيت المقدس ٠

أما الصليبيون فقد عادوا الى القدس محملين بالغنائم التى استولوا عليها ، يسوقون أمامهم ـ رمزا لانتصارهم ـ كثيرا من الأسلاب والماشية ٠

لقد عادوا ليقربوا قربانهم الطاهر الى الرب شكرا على ما آتاهم من النصر ٠

(٢١)

ارتفعت معنويات الصليبيين ارتفاعا عظيما بسبب هذا النصر الذى ساقته لهم العناية الالهية ، فلما رأوا أن الرب سدد خطاهم فيما قصدوه أجمعوا العزم كلهم : صغيرهم وكبيرهم على انزال المضرة بالعدو المقيم فى تلك الناحية وأعنى به العسقلانيين الذين كثيرا ما أذاقوهم الويلات الفادحة ٠

وكان من الواضح أن أمثل خطة فى الوقت الراهن هى أن يدمروا الأحراج الموجودة ناحية عسقلان ، وهى الأحراج التى كانت ذات قيمة عظمى للمواطنين هناك ، فان فعلوا ذلك كبدوا العدو الفاجر بعض الخسارة ، لذلك قام عسكر المملكة بقضهم وقضيضهم جاعلين هذا الهدف نصب أعينهم ، وتجمعت أعدادهم الكبيرة أمام المدينة المذكورة ، ورأوا أنه اذا ما كتب لهم النجاح فى خطتهم هده فحسبهم هذا وكفى ٠

غير الرحمة الالهية شملت الصليبيين المحتشدين أمام هذا البلد بصورة عجيبة ، فاستنفرتهم للقيام بأعمال أجل خطرا وأعظم أثرا ، اذ ما كادت قواتنا تتخذ مواقعها ازاء المدينة حتى استولى الفزع على الأهالى وتملكهم الرعب فانسحبوا فى لحظتهم الى داخل البلد ، ولم تواتِ الجرأة واحدا منهم على الظهور خارج الأسوار

لمواجهة عسكرنا ، فاغتنم الصليبيون هذا الخوف الشـــديد الذى استبد برجال العدو وعزموا — بتوجيه الهى — على محاصـــرة المدينة أيضا ، وانفذوا الرسل فى الحال الى كافة أرجاء المملكة يعلنون خبر ما اعتزموه بتوجيه من الرب ، ويدعون المتخلفين وراءهم فى بيوتهم ألا تفوتهم فرصة هذا اليوم فيحضرون ٠

وسعدت نفوس الذين دعوهم فأســـرعوا للتجمع وقد غمرتهم النشوة وانضموا الى رفاقهم الذين سبقوهم ، ونصبوا خيامهم مع غيرهم حول المدينة ، وحملتهم الرغبة فى استمرار تصميمهم على تنفيذ خطتهم دون أى خاطر يزعزعها لأن يقسم كل واحد قســـما لا حنث فيه ألا يرفعوا الحصار عن المدينة حتى تســـتسلم وتفتح أبوابها لهم ٠

على هذه الصورة كان استدعاء كل قوى المملكة ، وتجمع الناس لتحقيق هدف واحد ٠

وحينذاك مضى الملك والبطـــرك مع بقية زعماء المملكة من علمانيين وروحانيين ومعهم الصليب الواهب الحياة وعسكروا أمام عسقلان وقد غمرتهم السعادة وراودهم الأمل ، وكان ذلك يوم ٢٥ يناير (سنة ١١٥٣) ٠

وكان من بين كبار رجال الكنيسة الحاضرين يومذاك : بطرك بيت المقدس ، وبطرس رئيس أساقفة صور ، وبلدوين رئيس أساقفة قيصرية ، وروبرت رئيس أساقفة الناصرة ، وفردريك أسقف عكا ، وجيرالد أسقف بيت لحم ٠

كما شارك فى الحضور جماعة من رؤساء الأديرة ٠

كذلك حضر « برنارد دى تريميلى » رئيس فرسان المعبد ، وريموند رئيس الاسبتارية ٠

وحضر من الأمراء العلمانيين « هيج » الابلينى ، وفيليب النابلسى ، وهمفرى صاحب تورون ، وسيمون صـــاحب طبرية ، وجيرارد صاحب صيدا ، وجى من بيروت ، وموريس من منتريال و « رينو دى شاتيون » ، وولتر دى سنت « أومير » ، وكان هذان الأخيران من العاملين بالخدمة فى جيش الملك بأجر يجريه عليهما ٠

وتم نصب الخيام لكل حلقة جند ، وخصص لكل نبيل موضع معين ملائم له ، ثم أقبلوا بعدئذ على ما بأيديهم فى نية خالصة ، وصدقوا فى بذل الجهود التى يتطلبها عمل مهم مثل هذا العمل ٠

(٢٢)

وعسقلان واحدة من مدن الفلسطينيين الخمس ، وتقع على ســـاحل البحر على شكل نصـــف دائرة ، ويمتد قطرها بامتداد الشاطىء ، على حين يقع قوس دائرتها على الأرض المطلة نحو الشرق ، وتوجد المدينة كلها فى حوض ينحدر الى البحر ، وتحوطها من شـــتى نواحيها الروابى الصـــناعية التى تنهض عليها الأسوار ذات الأبراج التى تفصل بعضها عن بعض مسافات متساوية وكلها مبنية من الحجر الأصم ، ويربط بعضها ببعض الاسمنت الذى هو أشد صلابة من الحجر ٠ أما أسوارها فعريضة الاتساع ذات سمك لا بأس به وارتفاع كبير ، كما أن المدينة محـــاطة زيادة على ذلك باستحكامات اضافية لها ذات الصلابة وقد أحكم تحصينها ، ولا توجد جداول مائية داخل نطاق الأسوار أو على مقربة منها ، لكن تتوفر داخلها وخارجها الآبار التى تمدها بالمياه العذبة الصالحة للشرب، ولما كان الأهالى أحرص ما يكونون على كل ما فيه خيرهم والحفاظ على حياتهم فقد قاموا ببناء صهاريج داخل المدينة لتجميع مياه الأمطار بها ٠

ويوجد بالسور أربعة أبواب بولغ فى جعلها أقوى ما تكون فى الدفاع ، وذلك بفضل ما زودت به من الأبراج الضخمة الشاهقة التى يواجه أولها الشرق ويعرف بالبوابة الكبرى ، وأيضا بباب القدس لأنه يطل على المدينة المقدسة ، ويوجد أعلاه برجان مرتفعان أشد الارتفاع ويرجع اليهما الفضل فى الدفاع عن المدينة الرابضة تحتها، كما يوجد فى الفصيل الواقع أمام هذه البوابة ثلاثة أبواب أو أربعة أصغر منها ، تفضى بسالكها الى المدخل الرئيسى عبر دروب مختلفة متعرجة ٠

أما البوابة الثانية فتطل على الناحية الغربية ، وتسمى بباب البحر لأن الناس يخرجون منها الى البحر ٠

وأما الثالثة فتطل على الناحية الجنوبية وتواجه الطـــريق المؤدى الى « غزة » التى أشرنا اليها من قبل ، ولذلك سميت ببوابة « غزة » ٠

وأما البوابة الرابعة فتطل الى الشمال وتسمى ببوابة يافا ، وقد سميت بهذا الاسم نسبة الى المدينة المجاورة لها التى تقع على نفس الساحل ٠

على أن بعسقلان من ناحية أخرى عيبا يرجع الى أن موقعها لا يتيح لها أن تكون ميناء أو مرفأ يصلح لرسو السفن ، فشاطؤها رملى جدا ، كما أن الرياح القوية تجعل البحر المحيط بها عاصفا جدا مما يحمل كل مقترب منها على التخوف منها الا اذا كان الجو شديد الهدوء ٠

ويغطى الرمل أغلب الحقول المحيطة بها مما يجعلهـــا غير صالحة لزراعة أى شىء الا الأعشاب وأشجار الفاكهة ، ومع ذلك

فانه توجد فى الناحية الشمالية منها بضعة وديان قلائل تجود على أهلها بقدر لا بأس به من الفواكه والخضروات حين يحسن تسميدها تسميدا جيدا وتعتمد فى ريها على مياه الآبار ٠

والمدينة مكتظة بالسكان الذين يجرى عليهم خليفة مصر من خزانته رواتب يدفعها لهم جميعا ، حتى لأقلهم اعتبارا بل لأطفالهم كما تقول الأخبار ، وكان الخليفة وأمراؤه يبذلون أكرم البذل للحفاظ على عسقلان وحمايتها ، ويحملهم على ذلك ايمانهم بأنه اذا قدر للمدينة أن تسقط فى قبضة الصليبيين فلن يحول حائل حينذاك بين قادتهم وبين غزو مملكة مصر وامتلاكهم اياها عنوة ٠

لذلك اعتبر المصريون مدينة عسقلان حصن أمان لهم وخط الدفاع عنهم ، واعتادوا أن يغدقوا العون لها فى اسراف أربع مرات فى السنة ، وكان المصريون ينعمون بالسلام الذى يتطلعون اليه ما ظلت عسقلان فى مركز يمكنها من مقاومة جهود الصليبيين العنيفة ضدها وردهم عنها دون أن يبلغوا منها أربا ، لذلك كان المصريون يبذلون الأموال الجمة لامداد المدينة بكل ما هى فى حاجة اليه ، ويجهزونها بالسلاح والطعام والعسكر الذى يتحدد فى فترات منتظمة من السنة ، لأنه مادام المسيحيون مشغولين بعسقلان كلما تضاءل خوف المصريين من قوتنا المفزعة ٠

(٢٣)

ظلت عسقلان تقاوم محاولاتنا وتبرهن على أنها منافس خطير لنا طوال خمسين سنة أو أكثر بعد أن وضع الرب بقية أرض الميعاد فى أيدى الشعب المسيحى ، ولذلك فقد انتهت الأمور بالصليبيين أخيرا الى اجماعهم العزم على حصار المدينة ، وكان هذا عملا شاقا بل هو أقرب الى الاستحالة ، وذلك بفضل ما كانت تتمتع به عسقلان

من التحصينات ، وكثرة مابها من الاستحكامات والأبراج والعوائق التى تقف فى وجه مهاجميها ، هذا الى جانب مالا يتصوره العقل من العتاد والسلاح ووفرة المؤونة وكثرة من بها من المدربين أحسن تدريب والقادرين على حمل السلاح واستعماله على أحسن وجه ، والحق أن عدد المدافعين عنها كان ضعف عدد الجيش المحاصر لها منذ بداية التطويق حتى نهايته ٠

***

ولقد نصب الملك والبطرك وسلفى بطرس رئيس أساقفة صور وغيرهم من كبار رجال المملكة والأمراء وكبار رجال كنيسة وأهالى كل مدينة من المدن ، أقول نصب كل من هؤلاء معسكره منفصلا عن الآخر ، وفرضوا الحصار على البلد من ناحية البر ، كما أن الأسطول المؤلف من خمس عشرة سفينة والمستعد للابحار قد وضـــع تحت قيادة « جيرارد » الصيداوى وهو أحد كبار رجال المملكة بهدف منع اقتراب أى أحد من ناحية البحر ، وكذلك لاحباط أية محاولة للخروج من المدينة ٠

وكان رجالنا : فرساننا أحيانا ومشاة أحيانا أخرى يقومون كل يوم على وجه التقريب بالاغارة على المدينة ، ومع ذلك فقد قاوم أهلها هذه المحاولات بشكل دل على شجاعتهم ، وما هم عليه من روح عالية لأنهم كانوا يدافعون ذودا عن حريمهم وأبنائهم ، وأهم من هذا كله أنهم كانوا يقاتلون دفاعا عن حريتهم ذاتها ، وكان النصر فى هذه الاشتباكات كالعادة تارة فى جانب الأهالى وتارة فى جانب الصليبيين ، وان كان فى غالب الأحيان من نصيبنا ٠

ولقد قيل ان الطمأنينة كانت تغمر ذلك المعسكر بسبب توفر فرص شراء جميع أنواع المتجر ، مما أتاح للناس وهم فى مخيماتهم أن يعيشوا عيشتهم التى ألفوها فى ديارهم وفى مدنهم المسورة ٠

أما الأهالى فكانوا يبذلون أكرم البذل فى حراسة البلد لاسيما فى الليل ، فكانوا يستخدمون العسس يتناوبون الحراسة فيما بينهم، بل ان كبار زعماء المدينة ساهموا بدورهم فى حراسة الأسوار التى كانوا يقضون الجانب الأكبر من الليل فى تفقدها دون أن تغمض لهم عين ٠

وكانت توضع على طول الأسوار والأبراج الحصينة مصابيح زجاجية ملأى بالزيت ، ولها أغطية شـــفافة للحفاظ عليها وعلى شعلتها من الانطفاء مما كان يحيل الليل الى نهار ساطع ، كما عاونت هذه المصابيح العسس على قيامهم بدوراتهم المعتادة على الأسوار ٠

كذلك أقيم فى المعسكر الصليبى طائفة من الحراس لحماية الجند،ولم يكن هذا الرهط من الحراس يكف عن المراقبة لحظة من ليل أو نهار مخافة أن يغتنم الأهالى الفرصة فيهاجموا المعسكر تحت جنح الظلام ، وحتى يدرءوا خطر مبادرة المصريين لنجدة عسقلان ومهاجمة الجيش (الصليبى) ، هذا على الرغم من وضع الكشافة فى كثير من الأماكن التى حول غزة فان رأوا ما ينذر باقتراب العدو بعثوا يحذرون منه قبل فوات الوقت ٠

(٢٤)

استمر الحصار مضروبا على عسقلان أربعة أشهر دون وقوع أى تغيير ، حتى اذا اقترب عيد الفصح حدث ما جرت العادة به من قدوم أعداد كبيرة من الحجاج الى هناك ، فأرسل الصليبيون ــ بعد التشاور ــ فيما بينهم ــ رسلا من الجيش ينهون جميع الحجاج ــ بأمر الملك ــ عن العودة الى ديارهم ، ويدعونهم للمساعدة فى الحصار ابتغاء مرضاة الرب ، ويعدونهم بدفع أجر لهم لقاء هذا العمل ٠

كذلك صدرت الأوامر الى جميع السفن ـ صغيرها وكبيرها ـ بالابحار الى عسقلان ، فما انقضت أيام قلائل الا وقد صار أمام المدينة جميع المراكب التى كانت قد جاءت فى هذه المناسبة رأسعفتها الريح فكانت طيبة عليها ، وانضمت الى صفوفنا أعداد كبيرة من الحجاج : فرسانا ومشاة ، وهكذا أخذت قوة الجيش تزداد يوما اثر يوم ، وبلغت فرحة العسكر غايتها ، وكان الأمل فى احراز النصر كبيرا لا حد له ٠

أما موقف العدو فكان على العكس من ذلك اذ عمهم الحزن ، وفشا فيهم الجزع أكثر وأكثر ، وتضاءلت ثقتهم فى قوتهم الذاتية ، لكنهم على الرغم من ذلك ورغم التحـديات الكثيرة التى كانوا يصادفونها كانوا ينهضون للقتال ، وكثيرا ما بعثوا الى خليفة مصر المرة تلو المرة يلتمسون منه اسعافهم بالنجدة على أسرع وجه ، وحذروه أنه ان لم تصلهم النجدة فلا مفر لهم من التسليم ، لذلك اتخذ الخليفة كل الاستعدادات الجادة لمسـاعدتهم ، فأمر كبار المسئولين عن هذا العمل بتجهيز الأسطول وجمع العسكر ، وزود السفن الطويلة(١٠) بالأسلحة وشـحنها بالمؤونة وآلات الحرب ، وأخرج من المال كل ما يلزم للنفقة ، وعين القادة ، وحذرهم من التأخير ، وأمرهم بالسرعة فى الخروج ٠

كما أن الصليبيين لم يتوانوا فى هذه الأثناء عن بذل الأموال الطائلة من أجل شراء السفن ، ثم جمعوا عندهم العمال وأمروهم ببناء برج من الخشب يكون مرتفعا ارتفاعا كبيرا جدا ، وغطوه بالجلد والأدم من الداخل والخارج مما يجعله بمنجاة من النار ومن كل ما يضر ، وبذلك يكون المحاربون الذين فى داخل هذا البرج آمنين على أنفسهم أمانا تاما أثناء مهاجمتهم المدينة ، أما المواد الخشبية المتخلفة من السفن فقد استعملت لبناء آلات الرمى التى وضعت اذ ذاك فى وضع استراتيجى لهدم الأسوار ، كذلك أقاموا

سقوفا مغطاة صنعوها من نفس المادة للاحتماء بها حين الاقتراب من أرصفة الميناء والزحف عليها ويكونون تحتها آمنين • وقد تم انجاز كل هذه الاســتعدادات على أكمل وجه ، كما راعوا الدقة التامة فى صنع القسم الباقى من السور الذى أرادوه لتيسير وضع الآلات به ، فلما تمت تسوية الجزء الأكبر من هذا الرصيف الذى أشرنا اليه من قبل دفعوا الأبراج الى السور وهم يهتفون هتافات عالية ، وكان فى الاستطاعة مشاهدة المدينة بأجمعها من أعلاه ، كما يمكن الاشتباك فى القتال بالأيدى مع المدافعين الموجودين فى الأبراج المجاورة ، ومع ذلك فان أهل البلد أخذوا يرمون فى جرأة ومن غير انقطاع أقواسهم وسهامهم لمضايقة المختفين فى الأبراج المتحركة ، ولكن ذهبت محاولاتهم هذه هباء لعجزهم عن اصابة من يدفعون الآلة الى الأمام ، وحينذاك احتشد جمهور غفير من المدافعين عن تلك الناحية من السور المواجهة للبرج ، وصدرت الأوامر الى أكثرهم اقداما أن يســتمروا فى قتال المغيرين الموجودين بالبرج المتحرك •

كذلك كان القتال مستمرا فى الوقت ذاته فى جهات متعددة على امتداد الأسوار ، وكان من النادر أن يمر يوم دون حدوث مجزرة ، ولا نقول شيئا عن العدد الكبير من الجرحى الذين تساقطوا من الجانبين •

ولقد ســمعنا أخبارا عن بطولات خالدة قام بها فى أثناء الحصار أشخاص معينون ، كما تلقفنا روايات عن أمور تميزت بالشجاعة الفائقة قام بها رجال من العدو ومن الصليبيين على السواء ، ولكن لما كنا آخذين أنفسنا بتدوين تاريخ عام فما ينبغى لأحداث من هذا القبيل أن تســتأثر من انتباهنا الا بقليــل من الالتفات •

دأب قوادنا على متابعة الحصار على مدى خمسة أشـــهر متتاليات أصيبت قوة العدو فيها بشيء من الوهن الذى اتضـــح معه أن أمر الاستيلاء على المدينة أصبح أقرب مما كان عليه من قبل ، لكن ظهر فجأة الأسطول المصرى أمام المدينة وقد واتته الريح رخاء فدفعته الى هنا ، فما أن شاهده العسقلانيون حتى رفعوا الأكف الى السماء وتعالت أصواتهم هاتفة بأن ليس أمام الصليبيين الا الارتداد حالا أو الهـــلاك على بكرة أبيهم ، فلما رأى « جيرارد الصيداوى » قائد الأسطول الصليبى أن السفن المصرية شارعة فى الاقتراب من المدينة حاول تعطيل اقترابها ، فأمر شوانيه القليلة أن تشرع فى الهجوم عليها ، لكن مالبث الخوف أن تسرب الى نفســه لرؤيته أعدادا كثيرة من العدو فارتد ثانية على عقبيه ، ووجد فى الفرار ما يحفظ على نفسه روحه وأرواح من معه ويضـــمن لهم الســـلامة ٠

ثم واتت الجرأة قوات العدو فأبحرت قاصدة المدينة حاملة الى المحاصرين النجدة التى جاءتهم وان كان وصولها جاء متأخرا طويلا ، وتقول الأخبار ان الأسطول المصرى كان يتألف من سبعين قرقورة وبعض الشوانى المحملة بأكملها بالرجال والذخيرة والطعام، وكانت هذه السفن من ذات الحجم الكبير وقد أرسلها خليفة مصر المشار اليه غوثا للمدينة ٠

فلما أحس العدو بالنجدة قوى ساعده وعاود محاولاته العدوانية من جديد وأدى تجدد بأسه الى أن صار أشد جرأة وأقوى عضدا فعاد يتحدانا لجرنا للقتال ٠

أما سكان البلد أنفسهم الذين كانوا يعرفون تمام المعرفة بأس

رجالنا فقد كانوا حذرين بعض الحذر ، على حين أن القادمين الجدد كانوا يسعون سعيا للمجد ، وراغبين فى البرهنة على اثبات قوتهم وشجاعتهم ، ومن ثم اندفعوا الى المعركة دون أن يأخذوا حذرهم ، فلما جربوا شجاعة الصليبيين الصلبة عرفوا الحذر فى غاراتهم ، واتسم صدهم لهجماتنا بكثير من الاعتدال ٠

(٢٦)

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى المعسكر القائم أمام عسقلان قامت ليدى « كونستانس » أرملة « ريموند » أمير أنطاكية بما تقوم به عادة النساء من رفضهن لكثير من الأشراف المبرزين المتقدمين للزواج ، ولكنها اختارت بدلا منهم « رينو دى شاتيون » الذى كان أحد الفرسان الذين كان الملك يستأجرهم واتخذته لها بعلا ، ، ولكنها أبقت زواجهما هذا سرا مكتوما حتى تأخذ مقاليد السلطة فى يدها وتحصل على موافقة ابن خالتها الملك الذى يبسط حمايته على امارتها،لذلك أسرع «رينو» الى الجيش ليفضى لبلدوين بما اعتزمه ، فلما حصل أرناط على موافقة بلدوين عاد أدراجه الى أنطاكية وتزوج الأميرة ، فتملكت الدهشة الكثيرين من أن سيدة جليلة كهذه السيدة ، لها عظمتها وقوتها ، وكانت زوجة لرجل تسنم ذروة الشهرة كيف تنزل من عليائها وتنحدر فتتزوج من فارس من حثالة الفرسان كأرناط هذا ! ٠

* * *

فى هذه الأثناء علم نور الدين ــ وهو رجل بعيد النظر كثير الحيطة ــ بموت حميه(١١) « أنر » ذلك الرجل البارز الذى كان قائدا عاما لجيش دمشق ومنظم شئون الملك والذى كان على الدوام معارضا أشد المعارضة لمشاريع نور الدين ٠

وإذ كان نور الدين يدرك مدى انشغال بلدوين ملك بيت المقدس وجميع فرسانه بحصار عسقلان منذ حين انشغالا وثق معه أن الملك لن يتخلى عما هو فيه الآن استجابة لنداءات الدماشقة فقد اغتنم هذه الفرصة وزحف على دمشق على رأس جيش كبير ليستولى عنوة عليها ، فتلقاه أهلها بالترحاب واستسلموا له طائعين حيث أزال عن الحكم واليهم الخليع الذى لا يساوى شيئا حتى اضطره الى الهروب الى المشرق لاجئا شريدا على وجهه ·

كان هذا التغيير (الذى أحدثه نور الدين فى دمشق) كارثة لحقت بمصالح مملكة بيت المقدس لأنه وضع الصليبيين فى مواجهة خصم عنيد فى شدته محل رجل كان مسلوب الارادة ، قد جرده ضعفه من أن يكون مصدر أذى عليهم ، كما أنه ظل حتى هذا الوقت يدفع لهم الجزية سنويا شأنه فى ذلك شأن التابع لهم · أما الخصم الجديد (نور الدين) فكان خطيرا · وكان ذلك مصداقا لقول القائل(١٢) « ان كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب » وصدق المخلص اذ قال انه حين تتحد ممالك عدة مع بعضها تكون لها قوة تستمدها الواحدة منها من الأخرى ، فتقف جميعها ضد العدو المشترك ·

لذلك فانه بعد استيلاء نور الدين على دمشق واخضاعه كل ما حولها سعى لمساعدة عسقلان على قدر ما يسمح له بعدها عنه ، فاستغل انشغال الصليبيين بما هم فيه ، وحاصر « بانياس » الواقعة فى أقصى أطراف المملكة ، مؤملا من وراء ذلك أن يرغم قومنا على رفع حصارهم عن عسقلان حين يستنجد بهم أهل «بانياس» المحاصرة، لكن شاءت رحمة الرب التى نسترشد بها الا تحقق آماله الضخمة وألا ينجح مشروعه ، فقد فشل فى حصاره لبانياس ، كما أن الصليبيين نجحوا بعون الله فى ارغام العسقلانيين على التسليم لهم ·

***

على أنه مات فى هذه الأثناء « برنارد » أسقف صيداء الطيب الذكر ، وخلفه « أماليك » الطوباني الذى كان رئيس أحد الأديرة ومنفذا لقوانين الرهبنة فى دير القديس « حبقوق » أو سنت جوزيف فى « أريماثيا » ، وكان رجلا مخلصا يخشى الله ، طاهر الذيل ، ويقال انه لما رأى عدم السماح لأحد ما بالخروج من المدينة المحاصرة تسلم هدية الترسيم من يد طيب الذكر « بطرس » رئيس أساقفة صور .

(٢٧)

فى هذه الأثناء قام المشاركون فى تلك الحملة بمضاعفة جهودهم ونشاطهم لتنفيذ مشروعهم ، ودأبوا على شن هجماتهم الضارية على المدينة من غير توقف ، وكان هذا على وجه الخصوص حول ما يعرف بالبوابة الكبرى حيث تجددت الهجمات بعضها فى اثر بعض ،وأنزلت أفظع الكوارث بالأهالى ، كما أن الأحجار الضخمة التى تقذف بها آلاف الرمى أدت الى زعزعة الأبراج والأسوار ودكت ما بداخل المدينة من الدور ، وترتب على ذلك حدوث مقتلة شنيعة ، كما ان الجند الذين كانوا بالبرج المتحرك استطاعوا بقسيهم ونبالهم أن ينزلوا الدمار الساحق بالمدافعين الذين كانوا يقاومونهم من فوق الأسوار والأبراج ، كما ألحقوا المضرة بمن أرغمتهم ظروف الحاجة للتجول فى المدينة ، وكانت الأهوال التى نزلت بالناس من هذا البرج أفدح مما نزل بالأهالى فى مناطق أخرى ، لذلك راحوا يتبادلون الرأى مسترشدين على وجه الخصوص بنصائح أهل الخبرة الكبيرة فى مثل هذه الظروف ، فأجمعوا أمرهم على وجوب تدمير الآلة الحربية من غير اكتراث بما يتهددهم من الخطر ان هم أقدموا على هذه المخاطرة ، وكانت

خطتهم تتمثل فى أن يقذفوا فيما بين السور والبرج بالأخشاب الملتهبة والمواد التى علقت بها النار فتزيد النار ضراما خفية ويحترق البرج ، وكان الدافع لهم على ذلك أنهم كانوا قد فقدوا الأمل ، كما يئسوا من المقاومة ، واستولى عليهم القنوط المطبق ٠

حينذاك قام رهط من الرجال البواسل الذين عرفوا بما انطبعت عليه نفوسهم من قوة وبسالة ، والذين آثروا سلامة اخوانهم المواطنين على سلامتهم هم أنفسهم ، واستجابوا فى الحال لهذا الرأى ، وأعلنوا استعدادهم للقيام بتلك المهمة الخطيرة ، فجىء بالخشب الى أقرب جزء من سور للبرج وقذفوا به فى الفراغ الخارجى الواقع بين السور وبين الآلة ، حتى اذا صار الخشب كومة عالية كافية لاشعال النار فى البرج صبوا عليها القار والزيت وغيرهما من السوائل التى تزيد النار ضراما ، كما قذفوا بغير ذلك مما يجعل اللهيب قاتلا ، فما كادت النار تشتعل ويزداد لهيبها ضراما حتى أدركتنا الرحمة الالهية ، ذلك أنه على الرغم من زيادة ضرام اللهيب بقوة خارقة الا أنه هبت من ناحية الشرق ريح عاتية حولت اتجاه اللهيب نحو السور الذى استحال رمادا ، واستمرت العاصفة الليل بأكمله تقريبا ، حتى اذا طلع فجر انهار جزء كبير من السور يقع بين البرجين ، محدثا دويا أيقظ الجيش كله ٠

غير أنه حدث عند سقوط هذه الكتلة على البرج أن تناثرت حطاما بعض الأجزاء المهمة من الآلة التى لم تكن النار قد وصلتها ، كما أثر هذا السقوط على الحرس القائمين بالحراسة على القمة فتهاووا الى الأرض ، واستيقظ العسكر جميعهم على دوى هذا الانهيار ، فانتضوا أسلحتهم واندفعوا الى ذلك المكان متلهفين على اقتحامه فى لحظتهم ، فكان كأنه باب فتحته السماء لهم ٠

لكن كان « برنارد دى ترمبيلى » رئيس الداوية هو واخوانه

أسبق الجميع في الوصول الى هناك قبل غيرهم بوقت طويل ، فاحتل «برنارد» الثغرة ولم يأذن لأحد من غير رجاله باجتيازها ، واتهمه الناس أنه منع الآخرين من عبورها قاصدا من وراء ذلك أن يكون رجاله هم أول الداخلين فتكون لهم الأسلاب والغنائم وأثمنها ، اذ جرت العادة بين الصليبيين (حتى صارت عرفا مألوفا الى اليوم) أن يستولى أى فرد ـ كائنا من كان هذا الفرد حين يدخل البلد ـ على أى شىء يصادفه ويأخذه ان كان هو أول الداخلين ، ويصبح هذا الشىء حقا له ولذريته لا ينازعهم فيه منازع • أما اذا دخل الجميع معا واستولوا على المدينة فان الغنائم توزع عليهم جميعا •

لكن قل أن يسفر مشروع سيىء النوايا والمقاصد عن خاتمة طيبة ، وان الكسب الذى يجنيه المرء بطرق دنيئة لا يتمخض الا عن نتائج متدنية ، ولقد رفض هؤلاء الداوية أن يشاركهم رفاقهم فى السلاح فيما استولوا عليه من الأسلاب فمن ثم فانهم (أى الداوية) كانوا هم الذين لاقوا الموت دون سواهم،وترتب على ذلك ان لم يدخل البلد الا قرابة أربعين فقط ، أما من سواهم فلم يدخلوه •



كان المواطنون حتى هذه اللحظة أخوف ما يكونون على حياتهم ، واستعدوا لتحمل العواقب الصارمة دون مقاومة ، لكنهم ما ان رأوا ان هذه الجماعة القليلة (الأربعين من الداوية) قد حيل بينهم وبين رفاقهم حتى عاودتهم شجاعتهم ، واستعادوا قوتهم وهاجموا الداوية هجوما عنيفا وأفنوهم قتلا ، ثم جمعوا قواتهم وقاموا كمن ردت عليهم شجاعتهم وحملوا السلاح الذى كانوا قد ألقوه جانبا القاء المغلوبين واندفعوا اندفاع رجل واحد الى الموضع الذى سقط به السور ، واستطاعوا أن يسدوا الثغرة بالأعمدة الضخمة والكتل الخشبية الكبيرة التى جاءوا بها مما كان بالسفن

منه وفرة كبيرة ، وضموا هذه الأعمدة والكتل بعضها الى بعض وبلغت حماستهم ذروتها فصار المكان عزيزا على من يريد اقتحامه ·

وبعد تدعيم الأبراج المجاورة للناحية المحترقة من كلا الجانبين والتى كانت فظاعة الحريق قد حملت الناس على هجرها تحمسوا مرة أخرى للمعركة وعاودوا القتال من جديد ، وعادوا يتحدوننا للحرب كأنما قد نسوا تماما هزائمهم السالفة ، ولما كان المقاتلون في البرج يعرفون أن أساسه قد ضعف ووهى ، وأن الجزء الأدنى من هيكله القوى قد أصيب تضعضعت ثقتهم فيه ، فتراخوا فى قتالهم ·

وحاول العدو اشـــاعة روح الهزيمة فينا فدلى جثث قتلانا بالحبال من فتحات الســـور ، وبالغ فى تهكمه بنا بالقول تارة وبالاشارة تارة أخرى ، وأظهر الشماتة ، لكن سرعان ما حل الحزن الشديد محل البهجة ، وأثبتت الأحداث التى تلت ذلك بأجلى صورة صدق المثل(١٣) القائل « قبل الكسر الكبرياء ، وقبل الســقوط تشامخ الروح » ·

أما المسيحيون فكان أمرهم عكس أمر هؤلاء ، اذ كانوا مشتتى البال ، جزعين قد تملكهم الأسى وهلعوا ويئسوا من أن تكون لهم الغلبة فى النهاية ·

(٢٨)

فزع الملك حين سماعه نبأ تلك الكارثة الفادحة ، فجمع اليه الزعماء والتأم عقدهم فى خيمته ، وكان من بين الحاضرين البطرك ورئيس الأساقفة بصور وسواهما من كبار رجال الكنيسة ، فوضع الملك أمامهم الصـــليب الحى وسألهم عما ينبغى عليه عمله فى

الموقف الذى تبدل الحظ فيه هذا التبدل العجيب ، فراحوا يتناقشون والخوف الشديد من الرب يسيطر عليهم ، وتشعبت الآراء فيما بينهم ، وانقسموا الى طائفتين ، فأما احداهما فقد ساور الشك رجالها فى كفاءة قواتهم وقدراتهم على الاستحواذ على المدينة ، وقالوا انهم بددوا وقتا طويلا لم يجنوا منه سوى هلاك العديد من عسكرهم ووقوع الكثيرين من زعمائهم ما بين قتيل وأسير ، كما نضبت مواردهم عن آخرها أمام مدينة حصينة لا تقتحم ، الى جانب ما توفر عند الأهالى من كل شىء يحتاجونه وتجدد قواتهم على الدوام ، على حين بدأت قواتنا فى التناقص ، وأن الرأى الذى ينصحوننا به هو أن نرجع ٠

أما الطائفة الأخرى ـ وكانت أرزن تفكيرا ـ فقد أشارت بوجوب الاستمرار فيما هم فيه ، وأن الأمل معقود برحمة الرب الذى عودهم ألا يتخلى عمن توكلوا عليه ووثقوا به ، وأنه لا يخذل من تجملوا العذاب الطويل من أجله صابرين محتسبين ، وقالوا انه لا جدوى من محاولة تبدأ بداية طيبة مالم تنته الى مثل هذه البداية، كما قالوا : لقد كان حقا أنهم بذلوا وقتا كبيرا ومالا طائلا أملا منهم فى مكافأة أجل مما بذلوا ، وهى مكافأة لابد أن يجازيهم الله بها ولا يحرمهم منها وان تخيلوا أنها تأخرت طويلا ٠ كما أنه لا مشاحة فى سقوط الكثيرين من رجالهم ، ولكن الأمل لايزال باقيا رغم ذلك كله ، وهو أمل يمنيهم ببعث آخر باهر وفاء بما وعد الرب به الصادقين(١٤) اذ قال : « سيتحول حزنكم الى فرح » وقوله أيضا(١٥) « اسألوا تعطوا ، اطلبوا تجدوا » ، ولما كان العقل فيما قالوه فقد نهوا أصحابهم عن الارتداد وجاهدوا لحمل الصليبيين على أن يثابروا مثابرة أولى العزم فى التمسك بانجاز مهمتهم هذه ٠

ولقد أيد أغلب الأمراء المدنيين رأى الفريق الأول ، كما أظهر الملك ميله اليه ضجرا مما جرت به المقادير من أمور أزعجتهم ،

أما البطرك ورئيس الأساقفة بصور وجميع رجال الكهنوت وكذلك « ريموند » كبير الاسبتارية واخوانه فقد أيدوا الفريق الآخر فى رأيه المعارض لرأى الأولين ·

وهكذا انقسم المجتمعون على أنفسهم وراح كل واحد يبدى من الرأى ما يناقض رأى الآخر ، ولكن رحمة الله التى كانت معهم على الدوام جعلتهم يأخذون برأى البطرك لجدواه ، ولأنه يعدهم بمجد أبهى ، لذلك صمموا أن يعودوا مرة أخرى الى الرب الذى طلبوا منه العون والتأييد كى يستمروا فى مهمتهم التى اعتزموها حتى يمنحهم النصر ويتحنن رب القدرة على جهودهم ·

* * *

وهكذا قام الجميع مدفوعين بهدف واحد وامتشقوا أسلحتهم وعادوا الى ما كان بين أيديهم ، وأمروا بدق الطبول لاعطاء الاشارة، وسرعان ما استدعى صوت المنادى المجلجل الشعب بأكمله الى المعركة ، فجاءوا وكلهم رغبة ملحة للثأر لاخوانهم المقتولين ، واجتمعوا أمام المدينة يتفجرون حماسة غير عادية وتحدوا العدو فى عنف للقتال ، ولو رحنا ننظر الى عسكرنا لبدوا وكأنهم لم يفقدوا أحدا منهم ، أو كأن امدادات جديدة ترادفت عليهم ·

واجتاحهم غضب مجنون ألح عليهم أن يستأصلوا شأفة العدو فكروا عليه كرة ضارية أذهلته كل الذهول حتى لقد وقف ساكنا لا يستطيع حراكا أمام قوتنا الطاغية وتصميمنا الجازم · ورغم أنه قام بمجهودات كبيرة ليقابل العنف بالعنف ، الا أنه فشل فى مسعاه هذا لعجزه عن الصمود أمام هجمات عسكرنا ولم يتمكن من تجنب سيوفهم ، وشبت المعركة فى ذلك اليوم بين فريقين غير متكافئين ، ومع ذلك فقد حاز الفرسان والمشاة شرف الغلبة فى كل مكان وانتصروا على العدو فى كل موضع التحموا فيه به ·

وهكذا أستحر القتل فى الأعداء ، ورد الصليبيون الهزيمة التى حاقت بهم منذ ثلاثة أيام بأفدح منها ، ولم يخل بيت ما من البيوت لم يمسس أهله قرح ، وضربت الفوضى بأجرانها على المدينة ، على أن البلايا التى كانت قد نزلت بالناس لم تكن شيئا مذكورا ان هى قيست بالخطر الجاثم الآن ، ولم يحدث قط فى أى وقت من الأوقات — منذ أن بدأ الحصار حتى يومهم هذا — أن أصيبوا بمثل هذه النكبات التى أخذت فى التساقط عليهم ، ولم يسبق لهم أن منوا بخسائر كالتى لحقتهم الساعة ، ذلك أنه منذ هلاك زهرة شباب مملكتهم ومصرع حكام المدينة لم يعد هناك من أحد يسترشدون به ، ففترت همتهم وتلاشى كل أمل لهم فى الصمود .

لذلك اتفقوا جميعا على ارسال رهط اختاروه من قادتهم الكبار ليكونوا سفراءهم الى الملك يسألونه هدنة مؤقتة لتبادل القتلى ، وحتى تتوفر لكل جانب فرصة القيام بأداء الطقوس الجنائزية الأخيرة لقتلاه حسب شعائره .

ولقى الطلب استحسان الصليبيين ، فتبودلت جثث القتلى ، ودفنت فى احتفالات جنائزية عظيمة .

(٢٩)

حينما رأى أهل عسقلان الدليل البين على هلاك جيشهم ، وعرفوا ضخامة القوة التى وجهها الله ضدهم تجـــدد الحزن فى قلوبهم التى عصرها الألم ، وولت عنهم شجاعتهم لضخامة النكبة التى حاقت بهم ، يضاف الى ذلك مصيبة أصيبوا بها فى يومهم هذا ضاعفت من تعاستهم وزادت شقوتهم حين كان أربعون رجلا من عسكرهم الأشاوس يسحبون كتلة ضخمة الى موضع يقصدونه فاذا بصخرة هائلة تسقط عليهم فتسحقهم وما يسحبون .

فى غمرة هذه الأحداث المفجعة تقدم كبار المدينة بقلوب منكسرة يدعون الناس للاجتماع بهم فاجتمعوا فى وســـط يملؤه النحيب والدموع الهتانة ، وكان فى المجتمعين نسوة يحملن أطفالهن الرضع على صدروهن ، وشيوخ عجزة وهن العظم منهم ويكادون أن يسلموا الروح ، فقام فى جموعهم وبرضائهم نفر من وجوه رجالهم كانوا أهل فطنة وبلاغة فخاطبوهم قائلين لهم :

« يا أهل عسقلان ، يامن تقيمون خلف هذه الأبواب ، انكم لتعرفون ، وما من أحد أدرى منكم كيف أنا أقمنا على مدى خمسين عاما نثيرها حربا شعواء ضد هذا الشعب الصليبى المخيف ، المصر على موقفه ، وانكم لتعرفون تمام المعرفة بفضل تجربتكم العملية أنهم كثيرا ما قتلوا ساداتنا فى ساحة الحرب فحل الأبناء منا محل الآباء فلاقوا مثل الذى لاقاه أسلافهم ، ولقد كان يشد من عزمنا الأمل فى الحفاظ على هذه الأرض التى خرجنا منها ودرجنا على أديمها ، وكذلك الأمل فى الدفاع عن حريمنا وصغارنا ، وعما هو أعظم من ذلك كله ألا وهو حريتنا ... ان كل ذلك كان ولايزال يشد من عزائمنا »

« ولقد ظل هذا الصراع موصولا على مدى أربع وأربعين سنة ، أى منذ اللحظة التى وفد فيها هؤلاء الأقوام الذين هم مصدر شقاء لنا ، والذين وفدوا علينا من أقصى ربوع الغرب ، واســـتحملوا العنف والقوة فى السيطرة على البلاد من « طرسوس » بكيليكية حتى مصر . لم يشذ عن ذلك سوى هذه المدينة (عسقلان) التى استطاعت بفضل جهود أسلافنا البطولية أن تظل حتى اليوم سليمة ومستقلة بين أعداء ألداء كهؤلاء الأعداء » .

« ومع ذلك فان الأخطار التى كابدناها حتى اليوم تبدو طفيفة ان لم تكن شيئا مذكورا ان هى قيست بالأخطار التى تهددنا اليوم ، وليس فينا حتى الآن الا من هو مصر على المقاومة ، ولكن هاهو ذا الجيش قد هلك ، والمؤونة قد نفدت ، وأصبح عبء الشـــدائد ثقيل الوطأة ثقلا لا يطاق احتماله · كل ذلك وجيش الخصم دائم التربص لنا ، متحفز باستمرار للوثوب علينا ، كما عملت مضايقاتهم التى لا انتهاء لها على وهن قوانا الجثمانية والنفسية على السواء ، وحرمتنا من القدرة على مواجهة النضال ، ومن ثم فقد رأى زعماء عسقلان أن أوفق الأمور ــ ان وافقتم أنتم أيضــــا ــ أن نحـاول التخلص من متاعبنا الحالية ، فهيا بنا نرسل رسلا نيابة عن الشعب كافة الى ذلك الملك القوى الذى يحاصرنا ونحاول أن نحصل منه على شروط مرضية تسمح لنا بالخروج أحرارا بنسائناوأولادناوحواشينا وجوارينا وما ملكت أيدينا ، ازاء موافقتنا على تسليمه المدينة ··· نقول هذا القول والألم يعصر قلوبنا لكى نضع نهاية لهذه الأقدار السوداء » ·

(٣٠)

تلقى الجميع هذه الكلمات بقبول حسن اذ ووفق عليها بصيحات الاستحسان المدوية كما هو الحال فى مثل هذه الظروف ، واختير من بين المجتمعين رجال أهل عقل وفطنة ، وسادة من ذوى المظهر الوقور لينقلوا عنهم الى الملك (بلدوين الثالث) وأشرافه الاقتراح الذى صادقوا عليه ،فلما حصل الرسل على عهد أمان يأذن لهم بالتقدم تقدموا عبر البوابة حتى صاروا فى حضرة الملك ·

فلما اجتمع كافة الأمــــراء الصـــــليبيين بناء على طلب الرسل عرض عليهم الاقتراح ، وبحثت شروط التسليم بحثا دقيقا ثم طلب من السفراء مغادرة الاجتماع بعض الوقت حتى يناقش الملك

الأمر مع كبار مستشاريه المسئولين ويعمل بما ينصحونه به ، فلم يملك هؤلاء المستشارون أنفسهم من البكاء فرحا ورفعوا أكفهم ووجوههم الى السماء بالشكر الجزيل لخالقهم اذ أغدق عليهم هذا العطف الجليل الذى لا يستحقونه ٠

ثم أعيد استدعاء الرسل فتلقوا الجواب المجمع عليه ألا وهو قبول شروطهم ان هم أخلوا المدينة بأجمعها خلال الأيام الثلاثة المقبلة ، فأعلن المبعوثون قبولهم هذا الشرط لكنهم طلبوا تأكيد هذا الاتفاق باليمين فتم قطعها فى خشوع بالغ ، ومد الملك ورهط مختارون من نبلائه أيديهم بنية صادقة ونفس مجردة من الشر وأعلنوا موافقتهم على جميع شروط الاتفاق والمحافظة عليها ٠ وحينئذ تسلم الملك الرهائن الذين طلبهم والذين سماهم بالاسم ٠

ثم انكفأ الرسل (العسقلانيون) الى ديارهم تغمرهم الفرحة ، وصحبهم طائفة من الفرسان المسيحيين ليرفعوا راية الملك على سارية أعلى برج بالمدينة رمزا لانتصاره ٠

أما عسكرنا الذين كانوا يتلهفون لمعرفة ماذا تم فما كادوا يرون البيارق الملكية تخفق من ذروة أعلى برج بالبلد حتى صاحوا صيحة ردد الأفق صداها عاليا ، وتعالى هتافهم بالشكر لله ، وترقرقت عيونهم بالدموع ، وبلغ الهتاف عنان السماء ، وكان هتافهم : « تبارك رب آبائنا الذى لم يتخل عمن وثقوا به ، وجل اسم جلالته القدوس ، لأننا رأينا اليوم أمورا عجيبة » ٠

ومع أن الاتفاق أباح للأهالى ثلاثة أيام متتالية الا أن خوفهم الشديد من مجىء الصليبيين حملهم على انجاز أعمالهم قاطبة فى يومين فقط أصبحوا بعدها على أهبة الرحيل فخرجوا بنسائهم

وأولادهم وعبيدهم وجواريهم وامائهم وكل متاعهم ، واستجاب الملك لشروط العهد فأمدهم بالمرشدين الذين رافقوهم حتى بلغوا العريش وهى احدى المدن القديمة الواقعة فى الصحراء وارسلوهم فى أمان ٠

* * *

ولما تم الأمر على هذه الصورة نهض الملك والبطرك وفى صحبتهما كل أمراء المملكة وكبار رجال الكنيسة مع كافة رجال الدين والناس قاطبة ، ودخلوا مدينة عسقلان ينشدون التراتيل والأغانى الدينية ، ويحملون أمامهم صليب المسيح الذى وضعوه فى أكبر مساجد الترك بالمدينة ، وهو بناء عظيم الروعة ثم عمدوا فخصصوه لتمجيد الرسول بولص ، ولما فرغوا من اقامة المراسيم الدينية وأدوا صلاة الشكر انسحبوا جميعا الى الأحياء التى خصصت لهم ، وقضوا يوما بهيجا لا يغيب أبدا عن الأذهان ٠

ورتب البطرك كنيسة عسقلان بعد أيام قلائل من دخولهم البلد كما رتب بها عددا معينا من رجال الدين أجرى عليهم الرواتب الثابتة التى عرفت بالمنح ، واختار كاهنا اسمه « ابسالوم » من كنيسة القبر المقدس ليكون أسقفا للبلد على الرغم من شدة احتجاج « جيرالد » أسقف بيت لحم على هذا الاختيار وشجبه اياه ، حتى لقد رفعت القضية من جراء ذلك الى البابا فى رومة الذى خلع الأسقف « ابسالوم » الذى رسمه البطرك ومنح أسقف بيت لحم كنيسة عسقلان بكل ملحقاتها لتكون هى والكنيسة الأخرى حقا لا ينازعه أحد فيهما ٠

* * *

وانصاع الملك الى نصيحة أمه فأخذ يوزع الأملاك والأراضى الموجودة داخل المدينة وخارجها على من يستحقونها بالعدل ، وأقطع

بعضها لآخرين نظير مال قاموا بدفعه ، كما أقطع أخاه الصغير « عمورى » كونت يافا مدينة عسقلان التى كان قد أخذها فى اليوم الثانى عشر من أغسطس سنة ١١٥٣ وهى السنة العاشرة من حكم الملك بلدوين الثالث ٠

* * *

ولقد نزلت كارثة محزنة بأهل عســـقلان المنكوبين وهم فى طريقهم الى مصر حين رحل عنهم الرجال الذين وكل اليهم الملك القيام بحراستهم أثناء خروجهم ، وكلفهم بمنع أى أذى يلحق بهم ٠ اذ ما كاد هؤلاء الرجال يفارقونهم ويعودون فى طريقهم الى القدس حتى هاجمهم تركى اسمه «توكوينوس» Noquanus ، وكان رجلا شديد البأس بفضل كثرة ما لديه من السلاح ، ولكنه كان يسلك فى حياته مسلكا لحمته الشر وسداه الفساد ٠

وكان هذا الرجل قد شاطر القوم متاعبهم ، وحارب معهم جنبا الى جنب زمنا طويلا لقاء أجر ينقدونه اياه ، فلما هموا بالخروج أظهر رغبته فى مرافقتهم فى رحيلهم الى مصر ، فرافقهم ، حتى اذا رأى الحرس (الصليبى) قد غادرهم تخلى عن كل مايفرضـــه الشرف والانسانية ، وهاجمهم بلا رحمة ولا شفقة ، وسلبهم كل ما معهم ، ثم تركهم يهيمون فى العراء والفيافى على وجوههم ٠

هنا ينتهى الكتاب السابع عشر

حواشى الكتاب السابع عشر

(١) اشعيا ٨/٧ ٠

(٢) يلاحظ أن ابن القلانسى الذى كان موجودا حينذاك هناك لم يسمع شيئا عن هذا الحصار ٠

(٣) مزامير ٦٦/٥ ٠

(٤) الضمير هنا عائد على كبار الصليبيين المرتشين ٠

(٥) سفر أيوب ٣٠/٣١ ٠

(٦) لم يستغرق أسر جوسلين فى كتابات ابن القلانسى سوى سطرين قال فيهما « ان عسكر حلب من التركمان ظفروا بابن جوسلين الصغير وأصحابه ، وأنه حصل فى قبضة الأسر فى قلعة حلب » ، ثم علق الذيل على ذلك بقوله « فسر بهذا الفتح كافة الناس » ، ثم أشار بعد ذلك مباشرة الى ذهاب نور الدين الى « أعزاز » ونزوله عليها ، ومضايقتها ، ومواظبة قتالها الى أن سهل الله تعالى ملكها بالأمان «٠٠٠ ورتب فيها من ثقاته من وثق به ورحل عائدا الى حلب » ٠ وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ٥٤٥هـ » ٠ هذا وقد ورد فى وصف « اعزاز بأنها على غاية من الحصانة والمنعة والرفعة » ـ Le-Strange : Palestine Under The Moslems, P. 405 كما أورد ما ذكره عن « اعزاز » كل من ياقوت وابن عبد الحق وأبى الفدا ٠

(٧) المقصود بكلمة « المملكة » فى النص أعلاه امارة الرها . وليس مملكة بيت المقدس أما « الملك » هنا فهو بلدوين الثالث ٠

(٨) لم نستطع الاستدلال على المكان الذى يسميه وليم فى المتن JOHA

(٩) يوئيل ١/٤ ٠

(١٠) اكتفى وليم فى ذكره لهذه السفن بوصفها بالطويلة ولكنه لـم يسمها ، ويلاحظ أن المراكب العربية الطويلة كثيرة فى قائمة أسماء أنواع السفن ، ويمكن الرجوع لمزيد من المعلومات عن هذه السفن وأسمائها المختلفة الى معجم السفن الاسلامية للنخيلى ٠

(١١) فيما يتعلق بموت معين الدين أنر نرى ابـن القلانسى يذكـــر فى ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٦ ، أنه أمعن فى الأكل فلحقه « انطـــلاق تمادى به ، وتولد منه المرض المعروف بجوسنطريا ، وعمله فى الكبد وهو مخوف لايكاد يسلم صاحبه » ، وكانت وفاته يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٤٤ هـ ، الموافق لشهر ابريل ، انظر أيضا ٠
Gibb : Damascus Chronicle, PP. 294, 295.

(١٢) متى ١٢/٢٥ ٠

(١٣) الأمثال ١٦/١٨

(١٤) يوحنا ١٦/٥٠ ٠

(١٥) متى ٧/٧ ٠

فصول الكتاب الثامن عشر

١ ـ رينو دى شاتيون (أرناط) يتهم البطرك الأنطاكى بما يشينه · البطرك يلجأ الى المملكة · المجاعة الفاحشة تعم البلاد ·

٢ ـ انتخاب « هادريان » لكرسى البابوية بعد موت « أناستاسيوس » ، تتويج الامبراطور فردريك فى رومة · اندلاع الكراهية العنيفة بين البابا ووليم ملك صقلية ·

٣ ـ الملاحاة بين البطرك والاخوان الاسبتارية حول العشور وحول الاضرار التى ألحقها نظام الفرسان الاسبتارية ·

٤ ـ ذكر نشأة الفرسان الاسبتارية وتطورهم ·

٥ ـ ذكر استجابة خليفة مصر لالتماس الأمالفيين ، وتخصيص مكان لهم لاقامة كنيسة خاصة بهم ·

٦ ـ ذهاب البطرك على رأس معظم أساقفة الشرق الى رومة لزيارة البابا هادريان ·

٧ ــ امبراطور القسطنطينية يهاجم « أبوليا » بموافقة البابا ، ووصول البطرك ورهطه الى البلاط البابوى •

٨ ــ البابا « هادريان » يسرع الى « بنفنتو » كما يسرع اليها البطرك ليشرح له القضية ، لكن الرشاوى والهدايا الجمة تحمل البابا على الوقوف ضد العدالة مما يحمل البطرك على العودة دون تحقيق غرضه •

٩ ــ وقوع فتنة داخلية فى مصر تؤدى الى هروب السلطان (الوزير ضرغام) فيلقى مصرعه على أيدى الصليبيين ويقع ابنه نصر الدين أسيرا فى أيديهم •

١٠ ــ استيلاء « أرناط » على جزيرة قبرص عنوة وسلبه سكانها •

١١ ــ الملك يلقى القبض على طائفة معينة من الترك والعرب فى غابة « بانياس » رغم الاتفاقية التى سبق أن أبرمها معهم •

١٢ ــ الكونستابل همفرى يقطع الاخوان الاسبتارية نصف مدينة « بانياس » ، ونور الدين يستولى على الامدادات الواصلة اليها ويحاصر المدينة ذاتها •

١٣ ــ الملك يسرع الى بانياس ويتمكن من رفع الحصار عنها ويتقدم جيشنا فى أثناء رجوعه غير متحرس فيسقط فى كمائن خطيرة •

١٤ ــ الملك يفر من ساحة القتال ويصل الى قلعة صفد ، والهزيمة تلحق بالجيش ، ويقع معظم قادته فى الأسر •

١٥ ــ نور الدين يحاصر « بانياس » من غير أن يلقى النجاح لأن الملك يخرج لصده •

١٦ ـ رسو « تييرى » كونت فلاندرز وارسال السفراء الى القسطنطينية فى طلب زوجة للملك ٠

١٧ ـ الملك يسرع الى أنطاكية بكل عسكر المملكة ويستصحب معه كونت فلاندرز ، ويصاب نور الدين بمرض شديد ٠

١٨ ـ محاصرة شيزر والاستيلاء عليها بالقوة فى فترة وجيزة ٠

١٩ ـ اخو نور الدين يتحرك ضدنا وموت فولشر بطرك القدس وعودة حصن الكهف الواقع فيما وراء الأردن الينا ، ومحاصرة الملك لحصن « حارم » بامارة أنطاكية واستيلاؤه عليه ٠

٢٠ ـ اختيار « أمالريك » بطركا وكان من قبل رئيسا لرجال الدين فى كنيسة القبر المقدس بالقدس فيؤدى انتخابه الى حدوث انشقاق فى صفوف الأساقفة ٠

٢١ ـ نور الدين يحاصر كهفا فى اقليم السواد التابع للصليبيين فيزحف الملك ضده وينجح فى رفع الحصار ويلحق الهزيمة بنور الدين فى محاربته الصليبيين ٠

٢٢ ـ عودة الرسل الذين كانوا قد سافروا الى القسطنطينية بشأن زواج الملك وفى صحبتهم أخت الامبراطور لتزف الى الملك ٠

٢٣ ـ مجيء الامبراطور الى القسطنطينية ٠ ارناط يعتذر له عن أخطائه فى قبرص ٠ الامبراطور يقبل عذره ويعفو عنه ٠

٢٤ ـ الملك يسرع الى امارة أنطاكية ويرحب به الامبراطور ويغدق عليه الهدايا الجمة ٠

٢٥ ـ الامبراطور يدخل أنطاكية ويسخو على أهلها سخاء كبيرا ثم لا يلبث أن يعود الى وطنه ٠

٢٦ ـ حدوث شقاق خطير فى كنيسة رومة عقب موت البابا « هادريان » ٠

٢٧ ـ نور الدين يهاجم بلاد سلطان قونية ويستولى على بعضها بالقوة كما يمضى الملك مخربا أرباض دمشق ٠

٢٨ ـ الترك يأسرون أرناط أمير أنطاكية ويحبسونه فى حلب ٠

٢٩ ـ مجىء أحد كرادلة رومة واسمه « جون » الى الشام كمندوب بابوى فيشب النزاع بين الأساقفة حول استقباله ٠ ولادة ابن لكونت يافا « عمورى » أخى الملك وتسميته باسم عمه بلدوين ٠

٣٠ ـ استدعاء أهل أنطاكية للملك واسراعه الى هناك ووصول مبعوثين امبراطوريين يلتمسون احدى قريبات الملك لتكون زوجة لمولاهم ٠

٣١ ـ الملك يختار العذراء الفاتنة « مليزند » أخت كونت طرابلس لتكون عروسا للامبراطور الذى يقوم بعد سنة فيعلن رفضه للتى اختارها بلدوين ويتزوج من « ماريا » بنت الأمير ريموند ٠

٣٢ ـ الملك يشيد حصنا قرب أنطاكية يسمونه حصن « جسر الحديد » ٠ وفاة أمه الملكة « مليزند » ٠

٣٣ ـ أمير طرابلس يستشيط غيظا لرفض الامبراطور البيزنطى الزواج من أخته ويحاول الاضرار به بأية وسيلة يستطيعها ٠

٣٤ ـ وضع السم للملك وهو فى أنطاكية فيمرض مرضه الأخير ويلتمس اعادته الى بلده لكن وعكته تزداد سوءا فى أثناء السفر ويموت فى بيروت ٠

هنا يبدأ الكتاب الثامن عشر

القدس اللاتينية في ذروة قوتها
زمن بلدوين الثالث والتطلع الى مصر

(١)

كان « رينو دى شاتيون » كما قلنا سابقا قد تزوج بأرملة « ريموند » أمير انطاكية ، لكنه أدرك منذ اللحظة الأولى أن هذا الزواج لم يقع موقع الرضا والقبول من نفس البطرك الذى ظل مقيما على هذا الرفض مما جعل « أرناط » ينظر بعين الريبة الى كل ما يصدر عن البطرك الذى كان رجلا واسع الثراء ، بالغ السطوة بصور كبيرة ، وكثيرا ما ذهب مذهبا بعيدا فى التعبير عما فى نفسه فى مجالسه الخاصة والعامة تجاه « أرناط » وفعاله ، وكانت هذه الاشارات تصل الى الأمير كما هى العادة بواسطة أشخاص كانوا لا يكفون عن السعى لما يؤدى الى زيادة الكراهية بين الاثنين ، فلا

عجب اذا ما تسعر الغضب وبلغ ذروته فى نفس « أرناط » ضد البطرك ، وحقد عليه حقدا بالغا طاغيا حتى انتهى الأمر بالقائه القبض عليه قبضا زريا مشينا ، واندفع فى حدته اندفاعا وقحا اذ أمسكه مسكا مهينا ، وساقه ذليلا الى القلعة المشرفة على أنطاكية ، وزاد فى طغيانه فأرغمه - وهو الشيخ المسن ، وخليفة بطرس كبير الحواريين - على أن يجلس وهو الواهن العظم الذى لا حول له ولا قوة فى حمارة القيظ فى يوم من أيام الصيف القائظة عارى الرأس بعد أن لطخها بالعسل ، فما حركت الرحمة أحدا ما ليقدم له ما يحميه من أشعة الشمس المحرقة أو يهش الذباب عنه ٠

فلما وصلت أنباء هذه المهانة الى سمع ملك بيت المقدس استبدت به الدهشة وتقززت نفسه من هذا المسلك الجنونى الذى سلكه ذلك الأمير الطاغية (ارناط) فأرسل اليه - وهو فزع مما جرى - رسولين موقرين من ناحيته ، هما : « فردريك » أسقف عكا ، و « رالف » المستشار الملكى يحملان رسالة ملكية يلومه فيها (بما له من حق السلطة الملوكية) على مسلكه الشائن ويحذره مغبة ما فعل وينصحه بالاقلاع عن هذه الأساليب الدنيئة ، فلما استمع الأمير الى الرسولين ووقف على كتاب الملك أطلق سراح البطرك بعد أن صب عليه سيلا من الشتائم المقذعة ، وان رد عليه وعلى شعبه جميع ما كان قد اغتصبه منهم ، فغادر البطرك أخيرا أنطاكية وانقلب الى مملكة بيت المقدس حيث تلقاه الملك وأمه الفاضلة لقاء كريما ، وفعل فعلهما بطرك القدس وجميع أساقفة المملكة ، فظل مقيما هنا اقامة امتدت بضع سنوات ٠

* * *

ولما كان العام التالى عمت المجاعة الفظيعة كل الناحية ، فقد غضب الرب علينا غضبا شديدا أدى الى حرماننا من مصدر عيشنا الرئيسى ألا وهو الخبز ، حتى بيعت الوزنة من القمح فى عسقلان بأربع قطع ذهبية ، والحق أنه لولا عثورنا على كميات ضخمة من

الحنطة فى عسقلان بعد وقوعها فى أيدينا لعمت المجاعة الاقليم كله ولأفنت الناس جميعا ، ويرجع السبب(١) فى ذلك الى معاناة الناس ويلات الحرب خمسين عاما ، مما ادى الى أن أصبحت الحقول التى حول عسقلان أرضا قاحلة جرداء ، ولكن حدث فى خلال السنة التالية للاستيلاء على البلد أن صارت الأرض تحظى بعناية الفلاح كما زال كل خوف كان قابعا فى نفوس سكان المنطقة من ناحية العدو، فعادوا أحرارا فى زراعتهم الأرض وفى فلاحتهم اياها ، وتمتعت المملكة كلها منذ ذلك الحين بكميات وفيرة من الانتاج حتى انه ليمكن تسمية السنوات الماضية كلها ـ ان هى قيست بما هو جار الآن ـ بالسنوات العجاف ، فقد انعدمت فيها الفاكهة ، كما حرمت الأرض من المحراث يخرج ما فى بطنها ، وترتب على ذلك أن استجابت الأرض لشدة عناية الفلاح بها وأخرجت ما تدخره وأنتجت من الغلة ضعف ما كانت تغله من قبل ستين مرة

(٢)

خلال هذه الأحداث التى جرت فى بلاد المشرق مات البابا « أناستاسيوس » الرابع فى رومة ، واختير مكانه (سنة ١١٥٤) «هادريان» الرابع الانجليزى المولد ، وهو من أهل قلعة « سـنت ألبانز » ، وكان من قبل رئيس دير رهبان فى كنيسة « سـنت روفوس » قرب مدينة « أفينيون » فى « بروفنس » بأبرشية « آرلس »، وقد استدعاه الطيب الذكر البابا « يوجين » الى كنيسة رومة ونصبه أسقفا لـ « ألبانز » ، وسماه « نيكولا » ثم أرسـله بعد ذلك البابا « أناستاسيوس » خليفة « يوجين » مندوبا عنه فى النروويج التى هى أقصى ولايات الغرب ، فلما عاد من هناك بعد موت هذا البابا تسنى له أن يحضر انتخاب خليفته ، فأجمع رجال الدين والناس قاطبة على اختياره هو بالذات ليكون « البابا » وسمى بهادريان ٠

وحدث فى هذه السنة ذاتها أن قام فردريك ملك التيوتون ـ ولم يكن قد صار بعد امبراطورا ـ بالاغارة على ايطاليا بجيوش كثيفة ، وحاصر « تورتونا » احدى مدن لمبارديا حصارا طال مداه ، حتى اذا استسلم البلد (فى ابريل ١١٥٥) عزم على الشخوص الى رومة ليتوج فيها امبراطورا ٠

كذلك شب فى الوقت ذاته عداء عنيف يرجع الى أسباب متعددة بين البابا « هادريان » الذى كنا نتكلم عنه الآن وبين وليم ملك صقلية ابن روجر الطيب الذكر ، وبلغ النزاع بين الاثنين ذروته ، حتى ان البابا أصدر ضد الملك قرار الحرمان وأعلنها حربا شعواء عليه ٠

غير أن فردريك أصر على عزمه وأسرع فى طريقه الى رومة فبلغها فى أيام قلائل قادما اليها من «المبارديا» فأثار وصوله المباغت الشك فى نفس البابا ورجال الكنيسة الرومانية ، الا أن الأمور استتبت بينهما فى النهاية وتوصلا الى الاتفاق على شروط عادلة بفضل تدخل بعض الوسطاء ، فتم تتويج فردريك فى احتفال رائع بكنيسة القديس بطرس ، ونودى به امبراطورا ، وذلك فى اليوم السادس والعشرين من يونيو ٠

وبعد ثلاثة أيام من هذا التتويج أعنى يوم عيد الرســـولين الطاهرين بطرس وبولس وضعت العصابة الامبراطورية على جبين فردريك ، وقام البابا فى مسوحه الكهنوتية البابوية وانضـــم الى العسكر فى موضع يسمونه « جسر لوكان » قرب مدينة « تيفولى » ، وتابع الاثنان (وعليهما أكاليل الغار) المسيرة وسط فرحة رجال الدين والشعب،فلما انتهى الاحتفال فارق كل واحد منهما الآخر وهما على أتم وفاق ، وأسرع الامبراطور الى « أنكونا » حيث كانت شئون الامبراطورية تستدعى وجوده هناك ، أما البابا فقد تابع سيره الى رومة وان كان قد تريث قليلا فى بعض المدن الجبلية ٠

كان ملك صقلية فى هذه الأثناء قد أصدر أمره الى نبلائه بحصار مدينة « بنفنتو » التى كانت من ممتلكات الكنيسة الرومانية الخاصة ، وأمرهم بتشديد الحصار عليها جهد طاقتهم . فانزعج خاطر البابا من هذا الاجراء أشد الانزعاج ، وأرادا أن يكيل له بنفس الكيل فحاول تأليب نبلائه عليه ٠

ورافق النجاح جهوده الا أنه استطاع أن يضم اليه « روبرت دى باسافيلا » ابن عمة الملك وأقوى كونتات صقلية ، كما استمال اليه كثيراً من النبلاء ودفعهم للتمرد على مولاهم ، واعدا اياهم بمعونة الكنيسة الرومانية واسدائها المشورة اليهم ، يضاف الى ذلك أن كثيرا من كبار الاشراف الأقوياء (الذين كان وليم وأبوه قد جردوهم من ممتلكاتهم ونفوهم من المملكة ثم عـادوا اليها بتوجيـه من البابا لهـم ليسـترجعوا ما اغتصـب منهـم من أرض كانوا قد ورثوها شرعا ، وكان من بين هؤلاء « روبرت السرنتونى » أمير « كابوا » ، وأندريا كونت « راباكانينا » وغيرهما ، ولقد أكد لهم البابا تأكيدا قاطعا بصفته البابوية أن كنيسة رومة لن تخذلهم أبدا وعلى الرغم من هذا الوعد الا أنه راح يحث كلا من الامـبراطور الرومانى وامبراطور القسطنطينية على احتلال مملكة صقلية ، أما حثه لأولهما فكان شفاها ، وأما للثانى فكان عن طريق الرسائل ٠

(٣)

بينما كانت كنائس ايطاليا تمر بهذه الحالة من عدم الاستقرار وبينما كانت الأمور فى مملكة صقلية تشهد مثل هذه الفوضى كان قسمنا الشرقى لا يخلو هو الآخر من المتاعب ، ففى نفس اللحظة التى تعطفت العناية الالهية فيها على الصليبيين برد مدينة عسقلان اليهم ، وفى الآونة التى كانت المملكة تسير هى الأخرى سيرا مرضيا ، والحبوب متوفرة بكثرة اذا بالشيطان عدو الانسـان الكاره لهذا

الهدوء الذى أسبغه الرب علينا يقوم ببذر بذور الشر فنفث فى روح « ريموند » مقدم الاسبتارية ورفاقه فملأها شرا ، اذ أنه على الرغم من أن « ريموند هذا كان رجلا ورعا يخشى الله ، الا أنه قام هو ورفاقه بمضايقة البطرك وغيره من رجال الكنيسة حول موضوع « العشور » وغيرها ، وكان الاسبتارية قد اعتادوا ألا يصدوا عن احتفالاتهم بالعشاء الربانى أى شخص يطرق بابهم أيا كان هذا الشخص ، ولا يفرقون بين واحد والآخر ولا يسألونه من يكون ، وربما كان من طارقى أبوابهم رجال أدانهم أساقفتهم فأصدروا ضدهم قرار الحرمان عقابا لهم على آثام اقترفوها ٠

كذلك رفض هؤلاء الاسبتارية أن يمنعوا من تناول القربان ومن المسح بالزيت نفس هؤلاء الأشخاص عندما يمرضون ، ونددوا بعدم دفنهم ان وافاهم أجلهم ٠

وكان اذا صدر الأمر بفرض الصمت على جميع الكنائس أو على كنائس مدن أو قلاع معينة لما قد يكون قد ارتكب من الجرائم قام الاسبتارية فدقوا أجراسهم ، ونادوا بصوت أعلى من المألوف أولئك المحرومين من رحمة الكنيسة لحضور الخدمات الدينية ، وقد فعلوا ذلك حتى يتمتعوا هم بالذبائح وغيرها من الدخول التى كانت تؤول بالحق للكنائس العظمى ، ونسوا كلمات المبشـــر(٢) العظيم القائل : « فرحا مع الفرحين ، وبكاء مع الباكين » ٠

يضاف الى ذلك أن الاســـبتارية لم يستجيبوا لما تقضى به القوانين القديمة للشرائع المقدسة ، وهى تقديم قسسهم الى أسقف ناحيتهم حتى يحظوا برضاء رؤسائهم فيمنحوهم حق اقامة الشعائر الدينية فى أبرشياتهم ٠

كذلك فانهم كانوا اذا شلحوا قسيسا من أبرشيته – ان حقا أو ظلما – لم يوافوا الأساقفة بما تم ليكونوا على علم بالأمر ، هذا الى جانب أن هؤلاء الاسبتارية رفضوا رفضا باتا تقديم ما ينبغى عليهم تقديمه من « العشور » التى تحصل عليها كنائسهم الخاصة . أو الدخول التى تؤول اليها بأى وجه من الوجوه ·

ولقد تشكى الأساقفة جميعهم من هذه الأمور ، وتعالت شكايات الكنائس الكاتدرائية فى شتى البقاع من الخسائر التى لحقتها من جراء هذا العمل ذاته ·

ثم كانت ثالثة الأثافى التى اشمأزت منها نفوس جميع المسيحيين ما أوقعه الاسبتارية ببطرك بيت المقدس وبكنيستها العامة . ذلك أنهم عمدوا فى ازدرائهم البشع لكنيسة القيامة الى تشييد مبنى أمام أبوابها كان أعلى وأغلى ثمنا من هذه الكنيسة التى دشنها دم مخلصنا الغالى الذى رفع على الصليب ، وهى الكنيسة التى ضمت بين جدرانها قبرا له بعد عذابه على الصليب ، وزيادة على ذلك فانه كلما خرج على العادة البطرك المبارك من الموضع الذى رفع فيه مخلص البشر لخلاصنا وافتداء العالم حاول الاسبتارية منعه من أداء مهمته ، تحركهم نواياهم السيئة فيدقون نواقيسهم الهائلة دقا مستمرا فلا يصل صوت البطرك الى أبعد من موضعه فلا يسمع الناس ما يقوله رغم ما يبذله من المحاولات لاسماعهم ، وكثيرا ما اشتكى البطرك للأهالى من سلوك الاسبتارية المثير للسخط ، ولم يكن ذلك خافيا عن أحد ما ·

وعلى الرغم من توسل الكثيرين الى الاسبتارية للكف عن ذلك العمل الا أنهم دأبوا على ما هم فيه بصورة لا يرجى معها اصلاح الحال ، بل انهم كثيرا ماهددوا بأنهم سوف يتخذون من الاجراءات

ما هو أشد وأنكى من تلك التى سلفت ، ثم مالبثوا أن نفذوا تهديدهم بما يرضى غرورهم فتطرفوا وأقدموا بروح ملؤها العنف على حمل السلاح واقتحموا كنيسة الرب المحبوبة ودخلوها دخولهم بيت شخص من العامة ، ورموا بالسهام عن أقواسهم كما لو كانوا يهاجمون كمين لصوص ٠

وقد جمعت هذه النبال فيما بعد وحزمت ورأيتها بنفسى كما رآها الكثيرون غيرى مدلاة بحبل أمام جبل الجلجثة حيث موضع الصلب ٠

ان الذين تقصوا هذا الخبر فى دقة وأناة يعتقدون أن الكنيسة الرومانية هى المسئولة قبل غيرها عن هذا الشر المستطير وان لم يكن ذلك عن قصد منها ودون اعتبار كاف لما هو مناط بها ، ذلك لأن الكنيسة هى التى أعفت جماعة الاسبتارية من أن تدين بالتبعية لبطرك بيت المقدس ، وهى تبعية شرعية ، ومن ثم لم يكن عند الاسبتارية خشية من الله أو اهتمام بأى شخص ما لم تكن الجماعة تخافه وتخشى بطشــه ٠

اننا نشجب كل شكل من أشكال العجرفة لأننا نعتبرها خطيئة والخطيئة أبغض شىء عند الله ، كما أنها أم جميع الكبائر ، والحق أننا نعتقد أنه من المستحيل فى منظمة ضخمة كهذه المنظمة أن يتبع الجميع نفس النهج دون انحراف فى السلوك ٠

ولكى نشرح فى مؤلفنا التاريخى هذا كيف تطورت هذه الجماعة المؤسسة من جرم صغير تافه الى مؤسسة شديدة البأس ، وكيف أنها طغت ، ولازالت تطغى فى أفعالها ضد كنائس الرب فانه ينبغى علينا أن نبدأ القصة من أولها فنرجع الى الوراء قليلا ٠ وسنحاول بعون الرب أن نفعل ذلك دون أن نحيد قيد أنملة عن جادة الحق ٠

(٤)

تقول الأخبار القديمة ان قوة شعب الجزيرة العربية تضخمت زمن الامبراطور الرومانى « هرقل » وصارت خطرا يهدده ، وترتب على خطايانا أن وقعت مملكة بيت المقدس وكل بلاد الشام ومصر وما تاخمهما من الأقطار فى يد أعداء الملة المسيحية والاسم المسيحى وعلى الرغم من أن الأماكن الطاهرة كانت تقع تحت سيطرة الأعداء بين آونة وأخرى الا أنها كانت على الدوام مزارا لطوائف كثيرة من شعوب الغرب ، يقصدونها اما للعبادة أو للعمل أو للاثنين معا ،وكان من بين الذين قدموا من الغرب للمتاجرة طائفة معينة من ايطاليا يعرفون بالأمالفيين ، نسبة الى مدينتهم (أمالفى) التى قدموا منها ٠

وهذه المدينة واقعة بين البحر والجبال الشاهقة ، كما يوجد على بعد سبعة أميال منها مدينة « سالرنو » الرائعة ، والى الغرب منها « سورنتو » و « نابلى » التى هى مدينة « فرجيل » ، كما تقع صقلية جنوبها على بعد مائتى ميل تقريبا عبر البحر التيرانى ٠

وكان الأمالفيون كما يقال أول من حملوا الى الشرق بقصد الكسب بضائع لم تكن معروفة للشرق ، وقد أدى جلبهم هذه المواد الضرورية التى جاءوا بها الى هنا أن أصبحت لهم امتيازات خاصة بهم منحها لهم رؤساء تلك البلاد ، وأذنوا لهم بالمجىء وقتما يشاؤون، كما انعطف اليهم الأهالى ٠

كان لخليفة مصر فى هذه الأثناء السيادة على كل المنطقة الساحلية الممتدة من مدينة « جبلة » المطلة على البحر والقريبة من « اللاذقية » فى سورية حتى الاسكندرية التى هى آخر حدود مصر (من الغرب) ، وكان يتولى شئون كل مدينة وال من الولاة يعمل على تثبيت هيبة الخليفة وبثها شرقا وغربا ، ومع ذلك فقد تمتع

الأمالفيون بكامل عطف ملك القدس ونبلائه ، وكان لهم مطلق الحرية فى السفر فى كل أنحاء البلاد كتجار ومتعاملين فى كل ما يحملونه من سلع مفيدة ، ولما كان هؤلاء التجار أوفياء لتقاليد آبائهم وللعمل المسيحى فقد جرت عادتهم على زيارة الأماكن الطاهرة كلما سنحت لهم الفرصة ٠

ولم يكن لهم نزل خاص بهم فى بيت المقدس ينزلونه ، ويقيمون به بعض الوقت كما كان شأنهم فى المدن الساحلية ، ولما كانت لهم رغبة فى عمل خطة كريمة خامرتهم منذ أمد بعيد فقد حشدوا أكثر من يستطيعون حشده من الأمالفيين أهل مدينتهم وزاروا خليفة مصر واستمالوا اليهم أهل بيته ، ثم رفعوا اليه التماسا مكتوبا ، وكان رده عليهم مشجعا ومتفقا مع رغباتهم ٠

(٥)

لذلك صدر أمر كتابى الى والى بيت المقدس لتخصيص مساحة كبيرة فيها بالقسم الذى يقطنه المسيحيون استجابة لرجاء الأصدقاء أهل أمالفى الذين يجلبون المواد المهمة ، وأن تخصص هذه المساحة لاقامة مكان لهم يتفق ورغبتهم ، وكانت المدينة مقسمة يومذاك ــ كما هو الحال اليوم ــ الى أربعة أقسام متساوية ، فوقع الاختيار على الربع الذى يوجد به القبر الطاهر ومنح للمسيحيين ليكون موضع خانهم ، أما بقية المدينة فلم يكن يسكنها سوى المسلمين ٠

وخصص موضع كبير الى حد ما لأهالى « أمالفى » بناء على أوامر الخليفة يكون كافيا للمبنى الذى يلزمهم ، فبادروا الى جمع الهبات المالية من التجار ، وشيدوا أمام باب كنيسة القيامة وعلى رمية حجر منها ديرا تمجيدا لأم السيد المبجلة مريم العذراء ، وألحقت به

مواضع خاصة يستخدمها الرهبان ، وأخرى لاستقبال الضيوف القادمين من مدينتهم أمالفى ٠

ولما فرغوا من تشييده أحضروا من « أمالفى » أحد الديريين وطائفة من الرهبان وأقاموا الدير حسب نظام معين ليكون موضعا لأداء شعائر الدين وممارسة الحياة الطاهرة التى يرضاها المسيح، ولما كان الذين أنشأوا هذا الدير وأعانوه دينيا من اللاتين فقد سمى منذ ذلك الوقت حتى الآن « بدير اللاتين » ٠

وكثيرا ما كان يحدث فى تلك الأيام أن تأتى النساء والأرامل الطاهرات الى بيت المقدس لتقبيل المواضع المكرمة ، ورغم ما طبعن عليه من الحياء الطبيعى الا أنهن كن يواجهن أخطار الطريق التى لا حصر لها دون ما خوف ٠

ولما لم يكن وراء أبواب هذا الدير موضع لايواء هؤلاء الحاجات ايواء يكفل ما ينبغى لهن من التوقير فقد قام نفس الرجال الأتقياء الذين أسسوا دير اللاتين فألحقوا به موضعا ملائما لأولئك النسوة الطاهرات اللائى متى وفدن وجدن المكان الذى ينشدنه للتعبد ، والدار التى يأوين اليها ، وأماكن خاصة بهن على انفراد ، ولذلك أقيم أخيرا دير صغير لهن هناك تمجيدا للخاطئة التائبة مريم المجدلية التقية ، كما نزل به عدد كبير من الأخوات للقيام بخدمة النسوة الحاجات ٠

* * *

كذلك توافدت فى هذه الأثناء الخطيرة جماعات من شعوب أخرى من النبلاء وأهل الطبقة الوسطى على السواء ، ولما لم يكن هناك من طريق للوصول الى المدينة الطاهرة الا عبر البلاد المعادية فقد كان من المعتاد ألا يصل أولئك الحجاج الى بيت المقدس الا وقد فرغت أيديهم

من المال أنفقوه فيما احتاجوا اليه فأصبحوا صفر الأيدى ، وكان يتحتم عليهم حينذاك (وهم حجاج بؤســاء لا عون لهم وقد وقعوا فريسة الجوع والعطش) أقول أصبح يتحتم عليهم أن يظلوا واقفين أمام أبواب المدينة لا يدخلونها حتى يدفع الواحد منهم القطعة المقرر دفعها فان تسنى له دفعها أذن له بالدخول ·

كان هؤلاء الحجاج بعد الاذن لهم بالدخول وقضائهم مناسك حجهم وزيارة الأماكن الطاهرة واحدا اثر واحد لا يجدون موضعا يستريحون فيه ويقيمون فيه ولو ليوم واحد اللهم الا ما كان يتعطف به عليهم الاخوان المقيمون بهذا الدير ، يفعلون ذلك بروح أخوية ·

كان جميع سكان بيت المقدس الآخرون خليطا من الشــرقيين والكفار باستثناء البطرك ورجال الملة والشعب السريانى المنكود ، وكان هؤلاء الأخيرون مثقلين بالتزاماتهم اليومية الكريهة وشــتى أعمال السخرة والقيام بأحط الخدمات التى تكاد تزهق أنفاسهم ، ويعيشون فى أدنى درك من الفقر والخوف الدائم من الموت ·

ولما لم يكن هناك من أحد يتعطف بالمأوى على حجاج ملتنا التعساء الذين بلغت الخصاصة بهم غايتها أخذت الرحمة الرجال الطاهرين النازلين بدير اللاتين فاقتطعوا مما يعيشون عليه ما يسمح لهم المكان الذى هم فيه بقعة شيدوا فيها « بيمارستان » لاغاثة أمثال هؤلاء الحجاج يستقبلونهم فيه على كافة طبقاتهم : مرضى كانوا أو أصحاء حتى لا يظلوا مشردين فى الشوارع فتمتد اليهم يد الاغتيال ·

وبالاضافة الى توفيرهم المأوى لهم فى هذا البيمارستان ، فانهم اتفقوا فيما بينهم على أن يتنازلوا لهم عما يتبقى من طعــام رهبان وراهبات الديرين فيكون مادة اعاشــة تفى بحاجات هؤلاء الناس الحجاج اليومية ·

كذلك شيدوا فى هذا الموضع مذبحا تمجيداً للقديس « جون المنير » الذى كان من أهل قبرص ، وكان رجلا طاهر الذيل ، أهلا بالثناء عليه من كل جانب ، ثم صيرته فضـــائله فيما بعد بطرك الاسكندرية ، وتقوم شهرته أكثر ما تقوم على أعماله المنطوية على الشفقة ، كما أن جميع كنائس القديسين تشهد له بقوة ايمانه وكثرة احسانه ، فنعتته الآباء الطاهرون(٣) « بالأليمون » ٠ أى الرحيم ٠

لم يكن هناك دخول ولا ممتلكات لهذه المؤسسة الموقرة التى كانت تمد يد الاحسان لأتباعها من الرجال ، ولكن كان يحدث فى كل عام أن يقوم أهالى « أمالفى » سواء من كان منهم بأمالفى نفسها أم من يتاجرون خارجها بجمع المال من بين أنفسهم تبرعا اختياريا ، ثم يرسلوه الى رئيس الخان (أيا كان هذا الرئيس) على أيدى المسافرين الى القدس ، فيصرف من هذا المال على الطعام والمأوى للاخوان والأخوات ، أما ما يبقى بعد ذلك فيصرف فى مساعدة الحجاج المسيحيين الذين يجيئون الى البيمارستان ٠

وظل هذا النزل على هذه الصورة أعواما طويلة حتى شاءت ارادة الخالق الأعظم أن يطهر من رجس « الأمم » هذه المدينة التى طهرها بدمه ، ثم جاء أخيرا شعب مسيحى بقيادة زعمائه وبرعاية الرب الذى شاء أن تخضع هذه المملكة لهم ٠

كانت ادارة أمر دير النساء اذ ذاك فى يد امرأة طاهرة الذيل، مخلصة لله قانتة ، اسمها « أجنس » وهى امرأة شريفة رومانية الأصل انحدرت من أسرة كريمة ، قدمت القدس وعاشت بضع سنوات فيه بعد أن عادت هذه المدينة الى حظيرة الايمان المسيحى(٤) ٠

وكان يعيش فى المارستان رجل يحيا حياة برة اسمه « جيرالد » قد أوقف خدماته منذ أمد طويل وبتوجيه من رئيس الدير ورهبانه لمعاونة الفقراء فى البلد وقت أن كانت السيادة فيه للعدو ٠

ثم جاء بعد « جيرارد » شخص اسمه « ريموند » الذى نتكلم عنه حالا ٠

(٦)

من هذه البداية المتواضعة البسيطة نمت اهمية منظمة هؤلاء الاخوان الاسبتارية نموا ملحوظا فكان اول ما أقدموا عليه هو انسلاخهم من تبعيتهم لرئيس الدير ، فلما تضخمت مواردهم المالية تضخما فاحشا قامت الكنيسة الرومانية فحررتهم من سلطان البطرك وفصلتهم عنه ، فلما أصبحوا يتمتعون بهذا القدر الكبير من الحرية لم يعودوا يأبهون بابداء أى احترام لرجال الكنيسة ، كما رفضوا رفضا باتا دفع العشور عن أى مقاطعة من مقاطعاتهم دون أن يراعوا الظروف التى آلت فيها هذه المقاطعات اليهم ، ولقد نهج هذا النهج كثير من الأماكن التى تنعت بالطاهرة ، سواء ما كان منها أديرة أو مارستانات ، وانتهى بها الأمر اخيرا الى شجب ولائها بسبب الأموال الكثيرة التى تراكمت فى يديها ، وكانت الكنيسة اصلا قد أقامت كثيرا من هذه الأماكن من الهبات التى جاءتها بسبب الشفقة التى انطبعت عليها ، فأصبحت هذه الأماكن فى حال من الرخاء تحسد عليه ، لكنهم جميعا هجروا أمهم الحنون التى عالتهم فى البداية ورعتهم رعاية أطفال ترضعهم من ثديها حتى اذا تقدم الزمن واشتد عودهم أمدتهم بالطعام الجاف ، ولذلك حق للكنيسة أن تشكو(٥) قائلة : « ربيت بنين ونشأتهم ، أما هم فعصوا على » ٠

فليسامحهم الرب ، وليتحنن عليهم فيرجعهم الى محجة الحق والصواب حتى يتعلموا كيف يخدمون أمهم التى هجروها ٠

وعسى أن يكون الرب أكثر تسامحا معهم كما تسامح مع الرجل الذى طمع فى شاة فقير رغم أنه كان عنده مائة شــاة ـ فقال له السيد(٦) « هل قتلت وورثت أيضا » ٠

فيا شقوة مثل هذا الرجل ، لأنه « رجل قاتل » كما وصفه النبى ٠

* * *

لقد كثرت مطالبات البطرك وغيره من كبار رجال الكنيســة بحقوقهم من هؤلاء الاخوان الاسبتارية ، ولكن سرعان ما ذهبت هذه المطالبات أدراج الرياح ، فلجأ الجانبان أخيرا كما قلنا الى بلاط البابا فى رومة فسافر الى هناك البطرك رغم أنه كان شيخا مسنا قارب المائة من العمر ، واستصحب معه من كبار رجال الكنيســة بطرس رئيس أساقفة صور ، وبلدوين رئيس أساقفة قيصــرية ، وقسطنطين أسقف اللد ، ورينييه أسقف سميساط ، وهربرت أسقف طبرية ٠

ما كاد جو الربيع المنعش يطل من جديد على الدنيا وتبدأ حدة الشتاء فى الانكسار بسبب هبوب الرياح الغربية حتى شرعوا فى سفرهم ، وكانت رحلة موفقة باذن الله ، فقد بلغوا بعدها مدينة « أترانتو » الساحلية فى « ابوليا » سالمين من كل سوء ٠

(٧)

فى اللحظة التى أرسى فيها البطرك المعظم وأساقفة الشرق فى « ابوليا » أرسل امبراطور القسطنطينية بعض عظماء دولته بناء على اقتراح من البابا بمبلغ كبير من المال لغزو الناحية حربيا ، وقد تم هذا الأمر برضاء كبار رجال أجهزة النواحى ، ولما وصل البطرك وحاشيته الى « برنديزى » ، بعد مغادرتهم « أترانتو » كان رجال

الامبراطور قد فرغوا من استيلائهم على تلك المدينة ، كما استسلم المكان كله وأهله (باستثناء القلعة) التى لازال باقيا بها رهط قليل من المخلصين للملك ، وزيادة على ذلك فان كونت روبرت المذكور آنفا كان قد استولى بالقوة بمن معه على المدينتين الشهيرتين « تارانتو » و « بارى » وعلى كل الاقليم الساحلى حتى حدود المملكة ، وما كان انضمام الذين انضموا اليه فى هذا الاستيلاء الا بدافع الكراهية منهم للملك أكثر من تعلقهم بشخصه ·

واستولى « روبرت » أمير « كابوا » وكونت « أندرياس » وهما من الرجال العظام البارزين على كافة منطقة « كامبانيا » المعروفة بأرض العمل ، وهى التى تمتد حتى « سالرنو » ونابلى وسان جرمانو ، وكانت الفوضى وعدم الاستقرار يعمان فى الواقع كل هذا الاقليم ، ولم يعد أحد من الراغبين فى السير فى تلك الناحية بواجد فى سيره الأمان ولا السلامة ·

* * *

كان فردريك امبراطور الرومان لايزال فى نواحى « أنكونا » بكتائبه ، وان كانت القوات التى اصطحبها معه داخل ايطاليا قد منيت بخسائر فادحة ، فقد هلك معظم كبار أمرائه هلاكا لم يبق معه من جيشه سوى واحد من كل عشرة ، فألح عليه من معه ممن ظلوا على قيد الحياة بالعودة الى ديارهم ، فلما رأى الامبراطور نفسه عاجزا عن استبقائهم أخذ هو الآخر يستعد للرجوع ، وكان فى عمله هذا مغلوبا على ارادته ، لأنه لكان عازفا عن العودة اذ لازال باقيا كثير من الأعمال التى تستلزم وجوده ، وكان من أخطرها جميعا حملته على صقلية ·

لذلك أخذ البطرك والمسافرون معه يتدبرون تدبرا عميقا أى الطرق يسلكونها فى هذا البلد المضطرب حتى يصلوا الى البابا ،

آمنين على أنفســـهم ، ســـالمين فى ذاتهم ، اذ كانت الحـــروب والاضطرابات الناشبة فى كل مكان تكاد أن تقطع كل سبيل للوصول اليه ، على أن أقصرها هو الذى كان يمر بمدينة « بنفنتو » ، التى كانت تعانى من حصار « أرسكويناس » مستشار ملك صقلية ، لذلك أرسل البطرك اليه رسلا يسألونه أن يزودهم بطائفة من الحرس ، بيد أن المستشار رفض رفضا باتا أن يسمح لهذه الجماعة بالمرور فى ذلك الاقليم ، واضطر البطرك « فولشر » فى النهاية أن ينزل على نصيحة أهل الحجا بأن يسلك الطريق الساحلى فسلكه ، فأفضى السير فيه به وبمن معه الى الوصول الى « أنكونا » التى أرسل منها بعض أساقفته الى امبراطور الرومان (فردريك) الذى علمنا انه كان موشكا على الرحيل الى بلده ،وكانهؤلاء الأساقفة يحملون اليه تحيات البطرك ويسألونه على لســـانه أن يزودهم برســـائل امبراطورية الى البابا تتعلق بسفارته ، ونجح الرسل فيما كلفوا به على الرغم من أن الامبراطور فى تعجله العودة الى وطنه كان قد جاوز ما وراء مدينتى « سينيجاليا » و « بيسارو » ٠

يمم البطرك وحاشيته بعدئذ وجهه نحو رومة فى ملاحقة منه للبابا الذى كان قد غادر مدينة « نارنى » مما حمل البطرك ومن معه على البقاء بضعة أيام ، فلما جاءه الخبر بتوقف البابا فى «فيرينتينو» أسرع الى هناك مؤملا انجاز الموضوع الذى جاء الى ايطاليا من أجله ٠

وقال البعض ان البابا تعمد عن قصد مقابلة البطرك حتى يرهقه من أمره نصبا ، ويزيد من تكاليف نفقته ، وأكد هذا البعض أن الاسبتارية كانوا قد زاروا البابا قبل ذلك بزمن طويل ، ورشـــوه بالهدايا الكثيرة حتى استمالوه الى جانبهم استمالة كبيرة ٠

وقال غير هؤلاء وهؤلاء ان البابا اغذ الخطى فى سفره الى « بنفنتو » التى كانت تعانى الحصار ، ولكن الحقيقة التى لا مراء فيها هى أن البابا وكل رجال بلاطه كانوا قد استقبلوا الاسبتارية استقبالا اتسم بالود العميق ، على حين ان البابا ورجاله ردوا البطرك ومن معه ردا شنيعا ملؤه الغضب منهم والازدراء بهم كما لو كانوا أبناء غير شرعيين لا يستحقون الالتفات ٠

(٨)

ما كاد البطرك يصل الى « فيرينتينو » حتى بادر للمثول بين يدى البابا حسبما يقتضى العرف ، لكنه لم يجد منه ترحيبا كبيرا ، بل كانت المعاملة التى عومل بها أسوأ ما تكون ، فقد عارضه الكرادلة فى معظم الحالات ، وأدرك هو من جو استقباله عند وصوله بما يكشف النقاب عما سيكون عليه اتجـاه البابا نحوه ، لكنه استطاع بفضل ارادته الصلبة ونزوله على رأى مستشاريه أن يخفى شعوره ، فكان يحضر على الدوام فى خدمة البابا ويثابر (وحوله من معه من الأساقفة الموقرين) على حضور الاحتفالات الدينية ، هذا الى جانب أنه كان هناك على الدوام نفر من المحامين المستعدين لبذل جهودهم ومساعيهم كلما دعت الحاجة الى هذا البذل ٠

وأخيرا صدر الاذن بعقد جلسة لاستماع ما يقوله كل من الطرفين ، وظل الجدل موصولا بضعة أيام دون أن يسفر عن الوصول الى نتيجة ما ، ثم أدرك البطرك فى النهاية أن قضيته خاسرة ، فقد أفهمه ذلك بعض أصدقائه الخلص ، لذلك استأذن فى الرجوع وشرع فى رحلة العودة فى جو من التوتر والخوف ، ورأى أن قد أسىء الى مركزه فتدهور بدلا من أن يتحسن ، اذ لم يكن بين هذا الجيش الكبير من الكرادلة سوى اثنين أو ثلاثة فقط ممن يقتفون خطى المسيح هم

الراغبون بحق فى مساعدة خادم الرب هذا فى تلك القضية ، وكان من بينهم « أوكتافيوس » و « يوحنا » كرديتال « سنت مارتن » الذى كان أحد رؤساء شمامسة البطرك يوم كان البطرك رئيسا لأساقفة صور ، أما من سوى هذين الرجلين فقد أضلتهم الهدايا وحادت بهم عن الطريق السوى فاتبعوا(٧) طريق بلعـــام بن بعـــور ، غير أن مشاغل البابا الداخلية اضـــطرته الى عبور « كمبانيا » والرحيل الى « بنفنتو » .

***

وفد فى هذا الوقت على وليم ملك صقلية كثير من الرســـل يخبرونه بالاضطرابات الواقعة فى شمال ايطاليا مثل قيام كل من روبرت « كونت باسافيلا » بمعاونة اليونان للاستيلاء على «أبوليا» بقوة السلاح ، وقيام أمير «كابوا» وكونت « أندرياس » بمد سلطانهما فى كمبانيا » طولا وعرضا ، ثم ذهاب البابا الى « بنفنتو » ليمدها بالعسكر ، وتشجيعه جميع الحكام الذين ذكرناهم حالا مما أدى الى قيام وليم (ملك صقلية) بحشد الجند من شتى النواحى بصقلية وقلهورية والزحف فى « أبوليا » على رأس قوة كبيرة جدا ، فبادر كونت روبرت الى الفرار فى لحظته ، واستطاع وليم فى أول معركة له خاضها ضد القوات البيزنطية أن ينزل بها الهزيمة النكراء قرب « برنديزى » ، وأن يأســـر قوادها ويكبلهم بالحديد ، وهـــكذا استطاع بقوة السلاح ومحالفة الحظ له أن يملأ خزائنه بالأموال الكثيرة التى جاء بها الاغريق معهم ، ولما تم استرداد كافة الاقليم الذى كان قد تمرد عليه ورد الناس الى الطاعة مضى فحاصـــر « بنفنتو » حصارا انطوى على الخطر الكبير على البابا وكرادلته بل وعلى المدينة ذاتها ، لأن المؤونة أخذت فى التناقص ، وأصبح الناس كلهم فى جزع شامل على سلامتهم ، الا أن رسل الوفاق المترددين بين الطرفين نجحوا أخيرا فى عقد السلام بين البابا ووليم الملك بشروط ظلت طى الكتمان ، ولم يشمل هذا الوفاق جميع الذين استجابوا من

قبل لغواية البابا لهم فكان نصيبهم المتاعب الجمة والأهوال الجسيمة والتعرض للمهالك ٠

ولما رأى النبلاء أن الأمور جرت عكس ما كانوا يتوقعون ، وأن البابا عقد صلحا منفردا فيه سلامته هو نفسه وسلامة كنيسة رومة دون أن يأخذ ضمانات لهم من الملك فقد أدركوا فداحة البلوى التى حاقت بهم ، ولذلك راحوا يفتشون عن طريق يستطيعون من خلاله أن يغادروا المملكة سالمين فى أنفسهم وأرواحهم ٠ لذلك أسرع « روبرت » و « أندرياس » ورهط من النبلاء الى لمبارديا ، ومثلوا بين يدى الامبراطور ، أما أمير « كابوا » فكان أسوأ الجميع حظا فقد أسره من كانوا يحملونه أثناء تأهبه لعبور نهر « جساريليانو » فى أحد القوارب ، وكان قد أرسل أمامه جماعته ووقف هو فى رهط قليل من فرسانه فى انتظار العبور الى الضفة الأخرى من النهر ، فاذا به يجد نفسه مقبوضا عليه وسلموه الى رعايا الملك (وليم) الأوفياء الذين حملوه الى صقلية وبالغوا فى القسوة عليه فسملوا عينيه وألقوا به فى الحبس فظل به حتى حانت منيته ٠ فختمت حياته التعسة ٠

(٩)

كانت مملكة بيت المقدس فى هذه الآونة تنعم برحمة الله ، فقد عمها قدر كبير من الرخاء عكس البلاد المتاخمة لها من كل جانب التى كانت نهبا للاضطرابات الكبيرة بسبب الأحداث الجارية فيها ، فقد اغتيل بمصر خليفتها وحاكم البلاد الذى اعتاد المصريون أن ينزلوه منزلة القداسة ، وكانوا يعتبرونه نائب الله فى الأرض ٠ وكان اغتياله بيد أحد المصريين الأقوياء وكان يشغل منصب الوزارة وله التصرف المطلق فى شئون مولاه الخاصة من غير أن يستأذنه فلم يكن بينهما حجاب ، وقد وثب عليه واغتاله ثم فر ناجيا بنفسه ٠

ويقال انه ارتكب جريمته هذه ليرفع ابنه نصر الدين الى منصب الخلافة فيستطيع فى ظل ولاية هذا الابن أن يستمر فى الهيمنة على شئون البلاد لا يسأله أحد ماذا يفعل ، وكان ظنه أن ستظل جريمته هذه خافية بضعة أيام يتمكن خلالها من السيطرة على معظم القصر ويستحوذ على الخزائن بأجمعها ، وكان يتوقع ـ ان تم له ذلك ـ أن يتمكن بالاعتماد على معاونة بعض أتباعه وشركائه الذين جمعهم حوله أن يقاوم من يحاولون قتله جزاء جرمه ، لكن الأمور جرت على غير ما يظن ويشتهى اذ مالبث نبأ جريرته أن ذاع وشاع ، واجتمع جمهور غفير من كبار الناس وصغارهم للوقوف ضده فأحدقوا بالدار التى هرب اليها بعد ارتكابه جريمته ، وطالبوا ـ دون أن يشذ عنهم أحد ـ بالسفاك القاتل الذى اغتال سيد البلاد لينزلوا به العقاب على ماجنت يداه ، واستمرت هذه التهديدات حتى رأى ألا سـبيل لدفعها الا أن يأمر بنثر الذهب والجواهر وما معه من غال وثمين من النافذة على الرعاع الثائرين ، مؤملا من وراء ذلك أن يفسح لنفسه طريقا للنجاة أثناء انشغالهم بالتقاط تلك الغنائم ٠

فهل ثم مزيد من القول بعد هذا ؟

أجل ٠٠ لقد استطاع رغم حصار الرعاع له أن يفر من المدينة ويخرج منها فى كوكبة من الحرس الكثير من أبنائه وأبناء اخوته ، وأن ييمم وجهه شطر الصحراء متجها الى دمشق كما قيل ، ولكن المنتقمون لم يكفوا عن مطاردته ، باذلين المحاولات العنيفة لمنعه من الهروب ، غير أن أكبر أولاده وبعض أتباعه ورجالا شجعانا فطنين استطاعوا أن يمنعوا خصـومه من أخذه ، وباعدوا بينه وبينهم ، وتحملوا هم هجماتهم ٠

كان أنصاره على درجة عالية من الدهاء فكانوا يلقون من وقت الى آخر بجرار ملأى بالذهب وبالثياب الغالية والمنسوجات الحريرية

الثمينة ليغروا بها من يقتفون اثره فيتوقفون ليجمعوا هذه الأشياء فيتقاتلون فيما بينهم للاستحواذ عليها فلما تبين المصريون في النهاية عدم جدوى مطاردتهم هذا الوزير عادوا من حيث جاءوا فاشلين، أما هذا الوزير فتابع سيره اعتقادا منه بأنه صار في مأمن من كل خطر يهدده ، لكنه كان واهما فيما اعتقد ، اذ ما كاد ينجو من هؤلاء حتى كان هناك خطر أفدح منه يترصده ، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، اذ ما كاد ينمى الى علم الصليبيين خبر اقترابه حتى نصبوا له كمينا فيه أذاه باعتباره عدوا لهم واستخفوا يترقبونه، فسقط الوزير على غير توقع منه فيما دبر له ، وأصيب في أول اصطدام بهم بجروح قاتلة ، فقد أصابته ضربة سيف أودت بحياته، وكان هذا الوزير المصري يسمى بعباس ، وقد وقع في أيدي الصليبيين ابنه « نصر » وجميع أهل بيته وما معهم من الأموال الطائلة التي خرجوا بها من مصر ، فكان ذلك غنيمة تقاسموها فيما بينهم ·

وهكذا عاد رجالنا الى ديارهم محملين بأغلى الأسلاب ، وناءت كواهلهم بما حملوا من أشياء لم تعرفها بلادنا ·

* * *

كان ممن ساهموا في هذه العملية أيضا كثير من فرسان الداوية الذين أدت كثرتهم الى استيلائهم على القسم الأكبر من الغنيمة بما في ذلك العبيد ، فلما جاءوا الى تقسيم الأسلاب وتوزيع الغنائم كان من نصيب الداوية فيما آل اليهم عن طريق القرعة « نصر بن عباس » ، وكان رجلا مقداما ، بارعا في الأمور القتالية على غير ما هو جار بين المصريين ، حتى لقد كان اسمه وحده ، كافيا لبث الرهبة في نفوس أهل البلاد ، وكانت قلوبهم ترتجف لمرآه ويتملكها فزع ما بعده فزع · وقد ظل الداوية محتفظين بهذا الرجل أسيرا عندهم زمنا طويلا ثم أظهر الرغبة القوية في التنصر وتعلم اللاتينية والوقوف على أصول الايمان المسيحي ، ثم باعه الداوية بستين الف قطعة ذهبية

الى المصريين الذين ألحوا فى المطالبة به ليقتلوه عقابا له على ما كان منه ، فكبلوا قدميه ويديه بقيود حديدية ثقيلة ، ووضعوه فى داخل قفص من الحديد وحملوه على جمل الى مصر ، فمزقه أهلها اربا بأسنانهم اطفاء لغضبهم الوحشى ٠

(١٠)

وفى خلال العام التالى استجاب « رينو دى شاتيون » أمير أنطاكية لمشورة أهل السوء الذين كان تأثيرهم عليه شديدا ، فقام ثانية بعمل مزر اذ أرسل كتائبه مهاجما جزيرة قبرص القريبة منه واستولى عليها بالقوة والسلاح ، وهى الجزيرة التى كانت على الدوام ذات جدوى للمملكة وصديقة لها ، كما كان يسكنها جمع كبير من المسيحيين ، ويبدو أن الدوافع التى حملته على ذلك الغزو المشين تتلخص فيما يلى :

ذلك أنه كان يقيم فى بلاد « كيليكية » قرب طرسوس واحد من كبار الأرمن المرهوبى الجانب اسمه « توروس » الذى كثيرا ما ادت أعماله المستنكرة وفعاله الغادرة الى سخط الامبراطور (البيزنطى) وغضبه عليه ، فلطالما أغار على سهل « كيليكية » وعاد محمـــلا بالغنائم والأسلاب اعتمادا منه على بعد بلاده عن بلاد الامبراطورية بعدا كبيرا واقامته فى الجبال الشاهقة الارتفاع مما يجعل الوصول اليه أمرا عسيرا لذلك لم يكن يتحرج عن تصيد أية وسيلة للاغارة على أرض الامبراطور وانزال الأهوال الفادحة برعايا الامبراطورية المخلصين دون ما ذنب جنوه ودون أن يراعى هو من جانبه فى ذلك الا ولا ذمة ٠

فلما سمع الامبراطور بهذا الوضع ووقف على فعال « توروس » كتب الى « أرناط » ليرسل الى هناك فرسانه ويدفع « توروس » عن

أراضى الامبراطورية حتى تصبح الممتلكات الامبراطورية فى «كيليكية» بنجوة من أمثال هذه التعديات العدوانية ، وأخبره الامبراطور انه اذا احتاج الى المال لتنفيذ ما كلفه به فسوف يبعث اليه بالقدر الكافى منه من خزانته الخاصة •

واستجاب « أرناط » فى لحظته للأمر الامبراطورى فاستدعى قوة كبيرة من الفرسان وخرج بهم الى « كيليكية » وهاجم « توروس » وكسره ، وأجهز تماما على جيشه ، لكن خيل اليه أن المكافأة العظيمة التى كان يتطلع اليها جزاء قيامه بالعمل المجيد الذى أداه قد ابطأت فى الوصول اليه ، فلم يطق صبرا على انتظارها ، وارتكب الجرم الذى أشرنا اليه آنفا •

نبه المخلصون للقبارصة القبارصة الى الخطر القادم عليهم فشرعوا فى حشد كل قوات جزيرتهم ، ولكن الأمير « أرناط » كان أسرع منهم فزحف فى الحال وهزم عسكرهم ومزقهم شر ممزق حتى لا يجرؤ أحد بعد ذلك على رفع يده ضده ، ثم اكتسح الجزيرة كلها فلم يلق أى مقاومة ، فعاث تدميرا فى كل المدن والحصون التى صادفها ، واقتحم أديرة الرهبان والراهبات على السواء ، واغتصب الراهبات والعذارى الصغيرات اغتصابا مخجلا ، ومع أن الثياب والذهب والفضة التى سلبها وحملها معه كانت كبيرة جدا الا أنها لم تكن شيئا يقاس الى الشراسة التى أوقعها بالفضيلة •

وظلت قواته تواصل نهب الجزيرة كلها أياما عدة ، ولما لم تجد أحدا يصدها أو يتصدى لها فقد تخلت عن الرحمة ولم تراع سنا ولا جنسا ، ثم انطلق عسكره يحملون كميات ضخمة من الأموال والغنائم من كل نوع ، وعادوا الى الساحل ، وركبوا السفن مبحرين

الى أنطاكية ، لكن مالبث كل الذى أصابوه بالخبث أن نهب عن آخره وصدق فيه المثل القائل « لا ينفع المال الحرام » ٠

(١١)

فى هذه الأثناء تجمع فى احدى الغابات القريبة من « بانياس » طائفة كبيرة من العرب والتركمان فى أعداد كبيرة كانت فى كثرتها أكبر مما سبق جمعه من قبل ٠

وكان التركمان كالعرب قد اعتادوا العيش فى الخيام والاعتماد على اللبن فى حياتهم ، وكانت هذه الغابة تعرف عادة باسم « غابة بانياس » نسبة الى المدينة ، لكن ذلك الوضع كان فى القديم بما فيه من النواحى التى تمتد جنوبا وشمالا والقسم الذى يشمل لبنان ذاته يعرف بغابة لبنان ، وهى التى جاء فى الأخبار أن سليمانا بنى فيها قصرا عظيما عرف بقصر غابة لبنان(٨) ٠

وبعد أن تم للناس الذين أشرنا اليهم الحصول على اذن من الملك بالاقامة هنا وأبرموا اتفاق سلام معه جاءوا بعدد كبير من حيواناتهم لاسيما الخيل وتركوها ترعى فى هذه الغابة لوفرة المراعى الخصيبة بها ٠

على أن طائفة من أولاد ابليس الشريرين الذين لا يخافون الله جاءوا الى الملك ونجحوا بسهولة فى اغرائه على أن يشاركهم خططهم الخبيثة ، اذ أقترحوا عليه (دون مراعاة منه للعهد الذى قطعه على نفسه لهؤلاء البدو) أن يباغتهم فى غفلة منهم بالهجوم عليهم بعد أن يكونوا قد ساقوا الى السرح قطعانهم ومواشيهم لترعى، فيأخذها الملك غنيمة باردة لرجاله ، ووافقهم الملك على هذه الخطة

بلا تريث لأنه كان مثقلا بالديون ، وكانت عليه التزامات جمة ليس في قدرته الوفاء بها ، ومن ثم كان من السهل الحصول على موافقته على كل ما اقترحوه عليه ، وعلى كل خطة تخفف من الضغط عليه ٠

واستمع الملك الى هؤلاء المشيرين الأوغاد واستجاب الى اقتراحاتهم ، فأضلته مشورتهم واستدعى فرسانه وشن هجمة خاطفة مباغتا بها أولئك الناس فوجدهم غير متأهبين لصد هجومه اذ لم يكن ببالهم قط أى هجوم عليهم ولكنه هاجمهم كما لو كانوا من أشد الأعداء لددا ، ثم أسلمهم بعدئذ الى جشع أتباعه ٠

غير أن بعض هؤلاء المعاهدين البدو استطاعوا بفضل سرعة جيادهم انقاذ أنفسهم ، كما اضطر بعضهم الآخر الى الاستخفاء فى الغابات ، أما البقية الباقية منهم فقد راحوا ما بين قتيـــل جندله السيف ، وأسير يرسف فى فظاظة الرق الوحشى ٠

ويقال انه لم يسبق قط أن وجد فى بلادنا مثل هذا العدد الكبير من الأسرى ، ومثل هذه الكمية الضخمة من الأسلاب ، كما وزع عدد كبير من الجياد بالقرعة فلم يبق فرد (حتى من أدنى القوم مكانة) الا وكان له نصيبه ، ومع ذلك فان هذا العمل لم يكن عملا صالحا ولم يحظ بالثناء من ناحة شعبنا ، لأن رجالنا شجبوا اتفاقا سلميا وأساءوا السيرة مع قوم لم يكونوا موضع ريبة عندنا ، فقد اطمأن رجالهم الى حسن ايمان الملك ووثقوا به ، ولم يكن عندهم وسائل للمقاومة ، ولكن الرب المنتقم الذى يجازى الخطاة بما يستحقون لم يأذن لنا أن ننعم طويلا بثمرة خطيئتنا ، والحق أنه سرعان ما أظهر فى جلاء أنه ينبغى الحفاظ على العهد والوفاء به حتى ولو كان مع الكفار ، ولقد عاقبنا الرب على جرمنا فصب انتقامه علينا لســـوء صنيعنا ولخطايانا الكثيرة ، فضاعف عقابنا وأشاع فينا الاضطراب ، كما سيتضح ذلك فى الصفحات التالية ٠

حوالى هذا الوقت ذاته أخذ « همفرى » صـــاحب تورون الكونستابل الملكى يضيق ذرعا بالمسئوليات الجسام التى لا انتهـــاء لها الواقعة على كاهله ، وما يتكبده من النفقات الجمة للحفاظ على مدينة « بانياس » التى ورثها ، ولما لم يعد قادرا على أن يحكمها بالصورة المرجوة وأن يحافظ عليها من غير مساعدة تأتيه فقد عزم على أن يشاركه الاسبتارية الأمر فيها مناصفة بينهما ، ووافقه الملك على عزمه هذا ، وكانت الشروط التى اتفق عليها تنص على أن تكون ملكية المدينة وما يتبعها مناصفة بينه وبين الاخوان الاســبتارية ، فيتكفلون بدفع نصف النفقات اللازمة ، وعليهم مسئولية حكم نصف المدينة ٠

* * *

وتقع مدينة « بانياس » على تخوم بلاد العدو وهى أقرب ما تكون اليها حتى انه لم يكن أحد بقادر على الاقتراب منها أو مغادرتها من غير أن يتعرض للخطر ، اللهم الا أن يكون فى عصبة قوية ، أو أن يسلك طرقا سرية ، وقد أراد الاخوان(٩) أن يجعلوا هذا القسم الذى آل اليهم من المدينة قادرا تماما على الدفاع عن نفسه ، فجمعوا لذلك أكداسا من الذخيرة والسلاح ، وجهزوا فرقة من العسكر ، حتى اذا كان يوم محدد من الأيام أخذوا طريقهم الى « بانياس » فى قافلة كبيرة من الجمال وغيرها من دواب الحمل وعليها الامدادات فى حراسة طائفة من الفرسان الذين كانت عليهم مهمة قيادة الحملة الى المدينة واللجوء الى القوة ان دعت الضرورة الى استعمال القوة ، وكان الغرض من ذلك الخروج هو امداد الموضع بكل ما يلزمه من احتياجاته لمدة طويلة ، فلما أصبحوا على مقربة من « بانياس » كانت أخبارهم قد بلغت مسامع الترك الكفار فطلعوا عليهم (يوم ٢٦ ابريل

١١٥٧) وأخذوهم أخذا شديدا(١٠) بسيوفهم وبددوا قافلة الصليبيين وفتكوا بالكثيرين منهم ، ثم نهبوا ما معهم من متاع ، فهرب من بقى حيا حفاظا على حياته(١١) ٠ أما الذين حالت الهجمة الشرسة بينهم وبين النجاة فقد راحوا ما بين قتيل بالسيف وأسير ، وهكذا وقعت جميع الامدادات (التى كانت قد جمعت لتموين المدينة) فى أيدى الكفار لتستعمل فى غير الغرض الذى أرسلت من أجله ، وخاف الاخوان الاسبتارية بعد هذه النكبة من فداحة الاتفاق الذى أبرموه مع الكونستابل فانسحبوا منه وردوا على « همفرى » بانياس بكل التزاماتها ودخولها ٠



ازدهى هذا النصر « نور الدين » فعزم على اغتنام الفرصة فى الحال فطوق « بانياس » التى أجبرتها النكبة على أن تخر على ركبتيها ، فاستدعى فرسانه وحرك آلاته الحربية اليها ، وباغت المدينة بالظهور فجأة أمامها وطوقها بقواته وبدأت عمليات الحصار ٠ وكان فى احدى ضواحى « بانياس » مجهزة بالسلاح ومزودة بالرجال وبكميات وفيرة من الطعام وان لم تكن تكفى الا فترة قصيرة من الوقت وكانت هذه القلعة ملاذا للأهالى لو سقط البلد ذاته ، ولكن السكان كانوا كبيرى الثقة فى تحصيناتها لاسيما وقد جربوا الكثير من هذه الهجمات من قبل ، لذلك اجمعوا عزمهم على الدفاع عنها لعل النصر يكون من نصيبهم ، غير أن مبالغتهم فى ثقتهم بأنفسهم التى بلغت حد الغرور حملتهم على الا يتخذوا الحيطة ، الكافية فكان الفشل رفيقهم ٠

أما نور الدين فقد هاجمها بآلاته الحربية وراح يرميها بسيل هتان من السهام رميا موصولا غير مقطوع مما لم يسمح للمحاصرين داخلها بلحظة يلتقطون فيها أنفاسهم ، بعد أن لم يعد أمامهم مفر من القتال ليلا ونهارا بلا توقف حتى بلغ الانهاك منهم مبلغه فأغمى

عليهم ، كما لم يبق للدفاع غير شرذمة ضئيلين بسبب مصرع أغلب المدافعين عنها ، واصـــابة غيرهم بالجراح المميتة ، ولولا قيام الكونستابل وابنه الذى ماثله فى شجاعته بمواصلة القتال فى غيرة ملحوظة دفاعا عن أملاكهم الموروثة،فكانا مثلين يشحذان همم الآخرين ويحملانهم على الصمود ، أقول انه لولا هذان الرجلان لما كان ثم شك فى أن يستسلم الأهالى امام قوة عدوهم الطاغية بعد أن أرهقتهم أعماله البطولية ، ولكن حضور ساداتهم منعهم من ذلك ، كما نجحت شجاعة هؤلاء السادة التى لم يتسرب اليها الوهن فى اثارة حميتهم وردت عليهم ما تلاشى من بأسهم وأمدتهم بطاقة جديدة من المقاومة ٠

* * *

وحدث فى أحد الأيام ـ وقد ضاعف العدو ضـــغطه على المحاصرين بصورة لم تعهد من قبل ـ أن قام الأهالى ففتحوا أبواب المدينة وكروا على خصمهم وهو وراء الأسوار كرة عنيفة ، لكنهم فى كرتهم هذه لم يأخذوا حذرهم حين اقتحموا ساحة القتال ، فقد أثاروا جمعا غفيرا من الأعداء ضدهم ، فاندفع الترك عليهم اندفاعا أعجزهم عن الحفاظ على موضعهم ، فحاولوا مضطرين الانسحاب الى داخل المدينة ، وفاتهم ان يغلقوا البوابة خلفهم لتزاحم جموعهم على الدخول، ومن ثم اختلط العدو بأهل البلد ودخلت أعداد كثيرة من رجاله أدت الى سقوط المدينة قسرا فى يده ، مما أرغم الصليبيين على ركوب مخاطرة جسيمة أودت بحياة الكثيرين منهم ، وأما من سلم فقد ارتد الى القلعة ٠

وترامى الخبر الى بلدوين الثالث فى هذه الأثناء بما تعانيه « بانياس » من كرب عنيف على يد نور الدين ، وأنها موشكة على الوقوع فى يده ، فأسرع ما أسعفته السرعة الى حشد كل من أمكن حشده من العسكر ، وعجل بالزحف على « بانياس » ، وصمم على

أحد أمرين : اما أن يرفع الحصار عنها ، أو أن تكون معركة فاصلة بينه وبين نور الدين ٠

(١٣)

ما كاد نور الدين يعلم أن الملك فى طريقه اليه وأنه عازم على ذلك عزما لا رجعة فيه حتى رفع الحصار لأنه كان عازفا عن الاشتباك فى معركة ليست خاتمتها مؤكدة على وجه اليقين ، لكنه دمرها قبل أن يغادرها ، فأشعل النيران فيها بعد استيلائه عليها ، وقد هداه ثاقب فكره وبعد نظره الى عدم الاذن للقوات التى كان قد حشدها بالتفرق ، ثم زاد فاستدعى المزيد منها ، وأكمن كمينا فى الغــابة المجاورة فى انتظار ما تسفر عنه الأحداث ٠

لقد كان وصول الملك (بلدوين الثالث) الى « بانياس » غوثا للمحصورين الذين كانوا يتلهفون الى مجيئه ، فوعدهم بالبقاء الى جانبهم حتى يتم استرداد الأماكن التى ســقطت واعادة ترميمها واصلاح ما خرب من أسوارها ، ويعود للبلد وضعه الذى كان عليه من قبل ، لذلك استدعى البنائين وكل ذى خبرة بفن البناء من شتى المدن المجاورة ومن كافة أرجاء الاقليم المتاخم له ، فتم ترميم الأبراج والأسوار على أحسن وجه ، وجددت التحصينات ، وأعيد تشييد المساكن الواقعة داخل نطاق الأسوار ، ورجعت المبانى العامة الى وضعها الأصلى ، لأن نور الدين كان قد صرف همته أثناء احتلاله المدينة الى تخريب كل هذه المبانى تخريبا تاما ٠

فلما فرغ البناؤون من هذه الأمور أحس الملك ونبلاؤه أن لم تعد ثم حاجة لاطالة المكث بين الأهالى ، لاسيما وقد أعاد كل شىء الى سابق عهده،وجهزت القلاع بما تحتاجه من السلاح والمؤونة والرجال، ومن ثم سرح مشاته ، وعزم على العودة الى طبرية ولا يصحبه سوى

عصائل الفرسان ، فلما خرج من « بانياس » يمم خطاه نحو الجنوب ونصب خيامه الى جوار بحيرة يسمونها « بحيرة ميخائيل » حيث استراح الجيش تلك الليلة ، لكنه لم يتخذ الاحتياطات الكافية ولم يراع القواعد اللازمة لنزول العسكر مما تفرضه ضرورات التنظيم الحربى ٠

وكثيرا ما يحدث أن يتراخى الناس بعض الشيء حين تسير الأمور سيرا حسنا يسر الناظرين ، أما فى الظروف المزعجة فانهم يصبحون عادة أشد حرصا فى ادارة أعمالهم ، ويترجم عن هذا الرأى القائل(١٢) « يسقط عن جانبك ألف وعشرة آلاف عن يمينك» ٠

وهناك ظروف تبدو موفقة تندفع فيها الأغلبية مزهوة بنجاحها فتعمل يد التخريب ، على حين يجرى العكس من ذلك عند من أضرت بهم النكبات اذ يكون الخطر الذى يصادفونه مرشدا اياهم للسير فى حكمة وتعقل ٠

واعتمادا من الملك على ما حدث من ارغامه هذا الأمير(١٣) العظيم على الانسحاب من « بانياس » فقد ظن ظنا لا يخامره الشك فيه أن هذا الأمير قد أصبح بقواته بعيدا عنه وانه لن يعود قادرا على جمع أمم كثيرة ضده ، ومن ثم راح يتهاون بعض الشىء كما قلنا ، وأصبح يستمع الى نزغات بعض الناس ، وسرعان ماجاءت الأنباء الى العدو الذى كان مشغولا ينصب أحد الكمائن تفيد بأن الملك سرح مشاته ، وأن بقية جنده قد استناموا للتراخى وللفوضى من غير حراسة قرب بحيرة ميخائيل ٠

كذلك جاء الخبر أيضا بأن بعض القادة كفيليب النابلسى وكثيرين غيره قد غادروا المعسكر بكتائبهم ، واذ ذاك أدرك هو ومن معه أن الأمور تغيرت الى مافيه فائدتهم فبادروا الىتحريكمعسكرهم، وهب قائدهم الحصيف مغتنما هذه الفرصة الملائمة له وأسرع

بالزحف الى تلك الناحية ، وسرعان ما بلغوا الأردن الواقع بين الجيشين وعبروه وكمنوا فى بقعة تعرف باسم « مخاضة يعقوب » على هذا الجانب من الأردن الذى كان لابد لجيش الملك أن يجتازهفى غده ٠

ولما طلع اليوم التالى تابع الصليبيون سيرهم وهم لا يعلمون بخبر الكمين الذى نصب لهم فى الليلة السابقة ، ولا بخطط العدو التى أعدها سرا لهم ، وواصلوا زحفهم تغشاهم الطمأنينة الكاذبة ولا يتوقعون شرا ، فاذا بالكمين الخفى الذى أعده نور الدين يطلع عليهم وهم فى غفلة ساهون ، وباغتهم من حيث لا يحتسبون ، وذلك أنهم تقدموا وهم خليو البال من أى سوء يحيق بهم فاذا بهم يرون انفسهم وقد أشرعت فى وجوههم سيوف خصم آلى على نفسه الا أن يتركهم ما بين قتيل أو جريح قد ارتثت عليه جراحه ، فانتبهوا ــ ولكن لات ساعة التفات ــ الى هذا الخطر ، وأدركوا أن لابد من حدوث معركة ضارية ، فامسكوا عما هم فيه من جدل عقيم ، وانطلقوا الى جيادهم فأسرجوها وامتطوها ، غير أن صفوفهم مالبثت أن تصدعت قبل أن يستطيعوا تنظيم انفسهم للقتال وللدفاع ، ذلك لأن العدو أغار عليهم بسيوفه غارة شعواء حتى بات من المستحيل على رجالنا أن يلموا شملهم فى أية ناحية الا ما يكون من مجموعات صغيرة جدا ٠

(١٤)

ظل الملك حيث هو فى رهط قليل من الفرسان الذين لازالوا متمسكين بالوقوف الى جانبه ، بيد أنه أدرك انفراط عقد صفوفه وأن الفوضى سادتها وأصبح من معه أنى كانوا عرضة لغضبة العدو الذى كانت قوته ــ من جانب آخر ــ تزداد على الدوام ، على حين أن قواتنا أخذت ــ منذ البداية فى الفرار على وجهها ، ومن ثم أملت

عليه الضرورة أن ينسحب ليضمن لنفسه النجاة الى تل قريب منه استطاع عنده بفضل جواده الذى تحته أن يتجنب العدو الذى يناوره من اليمين تارة ومن اليسار أخرى ، وقد نجح الملك بعد لأى فى الوصول الى قلعة « صفد » الواقعة على نفس التل ٠

لكن وقع فى الأسر يومذاك طائفة كبيرة من زعمائنا وان كان القتل جرى على قلة منهم ، كما استسلم من غير مقـــاومة وكأحط العبيد المحاربين الذين عرفوا بحسن تدبيرهم وخبرتهم بالقتال ، كما استسلم مثلهم تماما المحاربون العاديون فلم يتميز واحد من الفريقين عن الآخر ، وذلك سعيا منهم جميعا للابقاء على أرواحهم الشقية ، ولم يأبهوا قط برق الأسر المذل ولا بالعار الذى يظل عالقا الى الأبد بأسمائهم ٠

وكان من بين الأسرى النبيل السرى « هيج دى ابلين » و « ايود دى سنت أماند » مارشال الملك ، و « جون جوتمانوس » و « روهارد» اليافاوى وأخوه « بليان » وريناردد صاحب « بلانكفـورت » رئيس فرسان المعبد ، وكان رجلا ورعا تقيا ، وكثيرون غيرهم ممن لم نقف على أسمائهم ٠

لقد جازانا الرب على فعالنا الشريرة ، فقد سخرنا بسـنن الانسانية وضللنا السبيل السوى فظلمنا البرىء ومن وثقوا فى صدق ايماننا ، فضوعف لنا الجزاء ، وكان من جراء خطايانا أن عاقب الرب زعماءنا وجعلهم سخرية للعدو ، فقد ظلمنا « الأمم » وسخرنا بها سخرية « تجعلنا مثلا بين الشعوب لانغاض الرأى بين الأمم »(١٤)

على أن الرب ـ حتى فى غضبته ـ لم يمسك عنا كل رحمته ، اذ كتب السلامة للملك الذى لو قدر له أن يقع فى يد الأعداء يومئذ

لما كان هناك شك في سـقوط المملكة هي الأخرى في هوة الدمار السحيق ، لا قدر الله ٠

ان ضياع فارس واحد ـ مهما كات عظمة هذا الفارس ـ انما هو ضياع لشخصه هو وحده ، أماسقوط الملك فمعناه سقوط المملكة كلها ، لذلك فان المخلص « داود » حين اشتد به الكرب على ملكه صاح « ليحفظ الرب الملك » ٠

ولقد ترتب على الشائعات المتضاربة حول سلامة الملك حدوث فزع شديد في كل أرجاء المملكة ، فقد زعمت بعض هذه الشائعات أنه لقى حتفه بالسيف ، وقالت أخرى أن الأعداء أخذوه أسيرا فيمن أخذوا من الأسرى دون أن يعرفوه ، كذلك أشيع أن العناية الالهية لاحظته عيونها ففر من ساحة المعركة سليما لم ينل منه خصمه ، وهكذا استبد الخوف بالناس على مليكهم وجزعوا عليه جزع الأم على وحيدها ، ولما لم يكونوا عالمين بما آل اليه مصيره فقد ذهب بهم الخيال أسوأ ما يمكن الذهاب اليه ، وحملهم حبهم له أن يكون قدره هو الذى تخيلوه ٠

أما الملك فانه لم يكد يرى نفسه بعيداً عن يد العدو حتى أسرع الى « عكا » هو والقلة الذين كانوا قد تبعوه الى « صفد » وسواهم ممن قدرت لهم النجاة من أخطار اليوم السابق ، فرحب به الناس ، وخرجوا يهتفون به هتافات عالية ملؤها الغبطة به ، كما لو أن كان قد مات ثم بعث وردت اليه الحياة ٠

وقد جرت هذه الأحداث في العـام الرابع عشـر من حكم بلدوين(١٥) ، وفي اليوم التاسـع عشر من شهر يونيو (سـنة ١١٥٧) ٠

(١٥)

كان نور الدين محاربا لا يعتريه الكلل ولايناله النصب ، وكان شديد الحرص على أن تتوالى انتصاراته بعضها فى أثر بعض ومن ثم اجتاح الاقليم بأجمعه وامتلأت يداه بالغنائم يأخذها من هنا وهناك ، واستدعى اليه كتائبه وأمر بتعبئة قوات اكبر راح يجمعها من دمشق ومن غيرها من النواحى الخاضعة لسلطانه ، ذلك لأنه كان قد أجمع العزم على محاصرة « بانياس » للمرة الثانية ، وكان أبعد شىء يخطر على باله أن يتمكن الملك (بلدوين الثالث) ورجاله الذين أنزل بهم الهزيمة النكراء من النهوض ثانية لنجدة البلد المحاصر ، لذلك سعى لمتابعة خطته بفرض الحصار مرة أخرى على « بانياس » ، ووضع آلاته الحربية العنيدة فى مراكز استراتيجية ، فأدت القذائف الحجرية الى زعزعة الأبراج وتخلخل الأسوار ، كما أخذت السهام والنبال تتساقط كالوابل الهتان فمنعت من بداخل الأبراج من المقاومة،ومعذلك فان أهل « بانياس » أدركوا عدم جدوى جهودهم الصادقة فى تخليص المدينة من هذا الحصار فارتدوا كلهم الى القلعة بمحض ارادتهم حتى لا ينكبوا من جديد نكبتهم فى المرة السالفة ٠

* * *

لما تخلى الكونستابل عن المدينة (بانياس) للالتفات الى غيرها من الشئون الأخرى اختار للقيادة العليا رجلا من أقاربه اسمه «جى» الاسكندرونى ، وكان رجلا واسع التجربة والخبرة بالحرب ، ولكنه مغموز فى أمانته ولا يخشى الله ، أما همفرى وقد حملته رغبته فى استرضاء من عهد اليه بالحكم واعتمادا منه على شهرته هو ذاته ، وسعيا منه حتى لا يتوارى مجد صيته الذى اكسبته اياه بسالته الحربية فانه حاول ـ قولا وعملا ـ أن يحمل الآخرين على المقاومة ، مؤكدا لهم أن النجدة واصلة اليهم عن قريب ، وأن مجدا رائعالاتبلى

جدته على مر الزمن فى انتظار من هم أهل له ، ونجم عن هذا أن حارب الجميع كما لو كانوا يحاربون من أجل منفعتهم الشخصية ، حتى ان قدرتهم على تحمل الأهوال الطويلة والشدائد المستمرة جعلتهم لا تغمض لهم عين ، مما أثار دهشة عدوهم واعجابه بهم ، الا أن ذلك لم يمنع الترك من العزم عزما أكيدا على أن يحاربوا بكل قوتهم خصما قاومهم هو الآخر بنفس العزيمة ، وأن يكبدوا المدافعين خسائر لا حصر لها ، وكان الترك أكثر منهم عددا وأقدر على تجديد قواهم بمدد بعد مدد ، أما الصليبيون فكانوا على العكس من ذلك ليس لديهم احتياطى يجددون به باسهم ، كما أن الضغوط اليومية غالبا ما كانت تؤدى بهم الى الاستسلام ٠

وجاءت الأخبار الى الملك فى هذه الأثناء بأن « بانياس » تعانى شدة ما بعدها شدة ، وهى حقيقة لم تكن خافية عن نبلاء المملكة الذين لازالوا أحياء ، فجاءت الرسل الى أمير أنطاكية والى كونت طرابلس لحثهما على عدم التوانى عن نجدة المدينة ، كما بعث الملك بالمنادين لاستدعاء الفرسان القلائل الذين تخلفوا فى المملكة ، وشاء فضل الله أن يتمكن هذان الأميران البارزان (أمير طرابلس وكونت طرابلس) وأتباعهما الأفاضل من الوصول الى المعسكر الملكى فى وقت قصير وأسرع مما كان متوقعا وكان تجمعهم بجوار الحصن الجديد(١٦) وفى موضع يعرف « بالحارس الأسود » ، وكان مكانا تستطيع العين المجردة أن ترى منه المدينة المحاصرة أقرب ما تكون اليها ٠



سرعان ما علم نور الدين بانضمام هذين القائدين الى الملك وشروعهم جميعا فى الزحف الى « بانياس » ، غير أن المحصورين فقدوا كل أمل لهم فى الصمود أمام نور الدين لما هو معروف عنه من بعد النظر وسداد الرأى فى ادارة دفة الشئون وتعدد مرات نجاحه فى فتح الحصون ، لذلك رأى الملك أن الخير فى الا يجرب تقلبات

القتال وما ينجم عنها من أخطار وأمور ليست فى الحسبان فتخلى عن الحصار وانسحب الى ناحية قاصية من مملكته .

(١٦)

بينما كان كثير من الأحداث المتباينة كل التباين تجرى فى المملكة ، وبينما كانت الغالبية العظمى من قوادنا فى الأسر كانت البلاد تعانى احباطا شـــديدا ، لكن حدث فى هذا الوقت بالذات وبتوجيه من الارادة الالهية أن أرسى « تييرى » كونت فلاندرز فى ميناء بيروت ومعه زوجته «سبيلا» أخت الملك من أبيه، وكثيرا ما عادت علينا زيارة هذا الرجل السرى الشهير بالفائدة كما رحب الناس قاطبة به وهزتهم الغبطة ، فقد بث وصوله مع أتباعه الأمل فى نفوس الناس بقرب انجلاء الغمة السوداء التى حاقت بالمملكة ، فتجددت الآمال القوية فى صدور الذين طال ترقبهم للسلام يعم المملكة ، اذ ما كاد الكونت يصلها حتى كان هذا الوصول أشبه بملاك النصح الطيب فقد أخذ على عاتقه تدبير شئونهم وسار الى ما فيه خير المملكة واعلاء مجد العقيدة المسيحية ، كما سنشير الى ذلك فى موضع آخر فيما بعد .

***

وفى حوالى هذا الوقت أخذت فكرة بقاء الملك عزبا رغم بلوغه طور الرجولة تبرز وتشغل بال أمراء المملكة سواء منهم من كان من العلمانيين أو من الدينيين ، وكان أهم ما يسيطر على الخواطر أن يكون له ولد من صلبه عساه يخلفه ويكون وريثه الشرعى فى المملكة، ولذلك اجتمعوا للتشاور فى أمر زواج مولاهم الذى مازال بلا ولد ، وبعد طول البحث اتفقت آراؤهم على التشـــاور مع الامبراطور (البيزنطى) حول هذا الموضوع ، فقد كان فى قصره كثير من العذارى النبيلات من قريباته ، يضاف الى ذلك أنه أصبح فى مقدوره

ـ وهو أقوى ملوك العالم وأغناهم ـ أن يسعف بالمال مملكتنا فيفيض عليها سخاؤه ببعض ما تملك يداه فينشلها من هوة البؤس الذى ترددت فيها ، ويحيل متربتنا الى الرخاء الوفير ، لذلك صح العزم على ايفاد رسل الى القسطنطينية ، تحمل هذا المشروع بمعونة الرب ٠

واختاروا لهذه المهمة كلا من « أثارد » رئيس أساقفة الناصرة ، والكونستابل الملكى « همفرى » صاحب « تورون » اللذين أبحرا بعد ترتيبهما لأمورهما وارسيا على الشاطىء هناك ٠

(١٧)

كان الرأى الذى أطبق عليه الجميع هو أن وصول أمير خطير كهذا الأمير العظيم(١٧) وزهطه الكبير من النبلاء والأبطال لا يمكن أن يمر من غير الاستفادة به أو يسفر عن لا شىء ، لذلك صمم القوم وبرضاء الجميع وبتاييد الرب أن يمضوا كلهم الى انطاكية مع القوات المحاربة المتضامنة ، ونقلوا هذا الغرض الى مسمع أمير البلاد والى كونت طرابلس حيث وجهت اليهما الدعوة مخلصة لأن تكون قواتهما متاهبة فى يوم محدد لمهاجمة بلاد الخصـــم ، ومن ثم اجتمع كافة الصليبيين من شتى النواحى ترعاهم العناية الربانية فى موضـــع يعرف بالبقاع من ارض طرابلس قاصدين مهاجمة بلاد العدو ، فلم يصادفهم النجاح فى بادىء الأمر فى هجمتهم الشعواء على الحصن المعروف بقشتال الروج ، فلم تتمخض عن شىء ، واذا كان « الحظ الحسن يأتى فى أعقاب البداية السيئة » فأن الأمراء المجتمعين تحركوا بناء على اقتراح « أرناط » أمير انطاكية ونزولا على الحاحه وتقدموا فى رعاية الله نحو أرض انطاكية ، وتلبثوا هناك بعض الوقت لرسم أمثل خطة فى هذه الظروف التى يمرون بها ، واذ ذاك وصل رسول الى الملك والى كبار رجاله يحمل أطيب الأنباء ويؤكد لهم أن نورالدين ـ أقوى خصومنا ـ الذى كان يعسكر بجيش ضخم قرب قلعة « انب »

قد مات أو أنه مريض مرضاً لا يرجى له الشفا ءمنه ، وأراد المبعوث أن يبرهن على صدق مايقوله فقرر أنه شاهد بعيني رأسه فى اليوم السابق اضطرابا كبيرا فى معسكر نور الدين ، وكان من الواضح الجلى أن عبيده بل وأقرب الناس اليه قد تخلوا عنه ، وأن كل أمتعته الخاصة قد أصبحت نهبا مشاعا لكل من يريد منها شيئا دون زاجر . وزاد هذا الرسول فقرر أن عسكر نور الدين قد تفرقوا بيكونه وأن الفوضى ضاربة بأجرانها(١٨) عليهم ٠

وقد أثبت الواقع صدق ما جاء به الرسول اذ كان نور الدين يعانى وعكة كأشد ما تكون الوعكة ، وساد الاضطراب صفوف جيشه ، وحدث بين عسكره ما يحدث عادة لأمثالهم حين يموت كبيرهم ، وشاع النهب ، واجتاح العنف الذى لا يقيده قيد ٠ والواقع هو أن المرض كان قد أوهن نور الدين حتى أقعده وأعجزه تماما ، فنقله مرافقوه الأوفياء فى محفة الى حلب ٠

حينذاك أدرك الصليبيون أن الأمور تجرى بما يبشر بنجاح خطتهم، لذلك اتفقوا جميعا على انفاذ الرسل الى « توروس » الأمير الأرمنى القوى يلتمسون منه أن يحسن اليهم فينضم بمن عنده لهم فى حملتهم التى يتوقعون لها النجاح التام ، وعهدوا الى أولئك الرسل أن يصطنعوا كل وسيلة حتى يتخلى عن كل المعاذير وينضم بامداداته الى عسكر الحلفاء الموجود فى أنطاكية ، فتلقى « توروس » هذه الدعوة بالغبطة ، ولما كان رجلا ذا خلق قويم وطبيعة نشيطة فقد نهض فى لحظته فجمع شيئا كبيرا وأسرع به الى أنطاكية ، فهب الصليبيون الى لقائه وهم أشد ما يكونون فرحا به ، وسار العسكر فى الحال من المدينة واتجهوا شطر « شيزر » ٠

(١٨)

وتقع مدينة شيزر على نهر العاص الذى يجرى الى أنطاكية ويسميها البعض بقيصرية ويعدها هذا البعض كبرى بلاد « كبادوكيا » التى رأسها ذات مرة المعلم الكبير القديس « فاسيل » ، ولكن الذين يأخذون بهذا القول واهمون فيما يذهبون اليه ومخطئون خطأ شنيعا لأن « قيصرية » تقع على بعد خمسة عشر يوما أو أكثر من أنطاكية ، أما مدينة « شيزر » فتقع فى اقليم البقاع ، ويفصلها عن « كبادوكيا » كثير من البلاد ، كما ان الاسم الصحيح هو « قيصــــرة » وليس « قيصرية » ، وهى احدى المدن الكبرى التابعة لبطركية أنطاكية ، كما أنها ذات موقع طيب ، ويمتد القسم الأدنى منها على طول السهل، على حين توجد القلعة على مرتفعات القسم الأعلى ، وهى ذات طول كبير ولكنها تميل للضيق ، واذا خلينا جانبا مناعتها الطبيعية فانها شديدة الحصـــانة ، لأن النهر يحميها من أحد جانبيها ، كما أن وقوعها على الجانب الآخر منه يجعل اقتحامها أمرا غير ممكن ٠

تقدم الصليبيون بعساكرهم المرتبة وفق النظام الحربى، وما كادوا يبلغون المدينة حتى بادر القادة الكثيرون الى ترتيب جنودهم أحسن ترتيب وحاصروا المكان ، أما الأهالى فقد دفعهم ما اعتراهم من الخوف من العدو الى الانسحاب الى ما وراء الأسوار حالما بدأ الحصار ، وسرعان ما نصب الملك والمعسكرون فى الخارج مكاحلهم وآلاتهم الحربية ولم يكفوا عن الرمى لحظة واحدة ، بل بذلوا كل ما فى قدرتهم حتى يستنفد الضرر الذى يلحقونه بالمدافعين كل ما لديهم من بأس لذلك حرص كل قائد أن يبذل غاية جهده فى القسم الذى عين له منذ البداية ، وراح يشجع رجاله بالكلمة ، ويعدهم المكافأة لتزداد جهودهم فعالية ، وود كل واحد من هؤلاء القادة أن يكون أول من يقتحم المدينة ، كما حاول كل منهم أن يحوز الفخر لنفســـه

بأن يكون أول من يدخلها ، مما أسفر عن الحاقهم كلهم بها من الدمار الشامل ما بدا معه الموت يكتنف البلد من كل صوب وناحية ٠

أما معرفة السكان باستعمال السلاح فكانت ضئيلة لانصرافهم كليا الى المتاجرة ، وكانوا على جهل تام بالخطب الذى ألم بهم منذ قريب ، اذ لم يبد عليهم أدنى خوف من الحصار ، ومرجع ذلك ثقتهم بوسائل الدفاع عن مدينتهم من جهة ، وفى قوة أميرهم الذى كانوا يظنونه ناعما بالعافية ، ومن ثم فانهم لم يكونوا قادرين على تحمل مثل هذه الشدائد ولا الصمود فى وجه هذه الهجمات والمناوشات المتصلة ، لذلك لم تكد تنقضى أيام قلائل من الهجوم المستمر عليهم حتى نفضوا أيديهم من كل شىء واستسلموا ، فتحكم الصليبيون فى استحكامات المدينة واندفعوا حتى صاروا فى وسطها واستولوا عليها عنوة ، فارتد الناس على أعقابهم الى القلعة ، وأخلوا كل ما بقى من أسفل المدينة ، وصار كل شىء نهبا مستباحا للعدو ، وظل الصليبيون يستعملون دور الناس بضعة أيام بكل ما حوته ويتصرفون فيها حسبما يشاؤون ٠

على أنه فى اللحظة التى بات فيها من المؤكد أن القلعة موشكة على السقوط هى وجميع من فروا اليها بسبب الضغط المستمر اذا بنزاع تافه يشب بين قوادنا ، ثم لا يلبث هذا النزاع أن يزداد ضراما ، ذلك أن الملك ــ وهو الحريص على كل ما فيه خير بلادنا ــ قرر منذ البداية أن يقطع مدينة « شيزر » الى كونت فلاندرز ، لعلمه بأنه أقدر الرجال على حمايتها من بطش الترك ومكائدهم ، ويرجع ذلك الى كثرة ما لديه من الفرسان وما عنده من الأموال الطائلة ، لذلك عزم على شن غارة أكثر ضراوة على القلعة حتى يضعها هى والمدينة تحت حماية الكونت لتكون الاثنتان ملكا شـــرعيا له الى الأبد ٠ فاستصوب كافة القواد هذا الترتيب ورأوه صحيحا ووافقوا عليه

بالاجماع . غير أن كونت « أرناط » شذ عن أجماعهم ، فأثار المشكلات حين أعلن أن « شيزر » وملحقاتها كانت منذ البداية جزءا من ارث أمير أنطاكية ، ومن ثم فلابد لمن يأخذها اقطاعا أن يقسم يمين الولاء والتبعية له هو ذاته باعتباره صاحب الأمر .

وعلى الرغم من أن كونت « تييرى » كان مستعدا لقطع اليمين للملك لاقطاعه « شيزر » الا أنه رفض رفضا باتا أن يقسم اليمين لأمير أنطاكية ، سواء أكان ذلك هو الأمير « أرناط » الذى يدير شئون الامارة الآن ، أم كان « بوهيموند » الصغير الذى كان الأمل معقودا على أن يتسلم السلطة كلها فى يده بعد قليل ، وقال كونت « فلاندرز » انه لن يعلن تبعيته الا لمن يكون ملكا .

على هذه الصورة نشب الخلاف اذ ذاك بين قوادنا حول هذه المشكلة(١٩) ، وكان نشــوبه عقابا لنا على خطايانا ، واذ كان المشروع(٢٠) بالغ الأهمية وكان على وشك التمام الا أنهم تخلوا عنه ، مما ترتب عليه أن عاد الصليبيون الى أنطاكية بكتائبهم مكتفين بالغنائم والأسلاب التى يحملونها والتى بلغت حد الكظة .

(١٩)

فى حوالى هذا الوقت علم « نصرت الدين » ـ أخو نور الدين ـ بسوء حال شقيقه واعتقد أنه مات ، فقدم الى حلب التى سرعان ما أسلمه الأهالى اياها دون أية صعوبة ، لكن بينما كان يوالى القلعة بالقصف الشديد ليرغمها على الاستسلام هى الأخرى اذا بالخبر يصله بأن أخاه لايزال حيا ، فلم يكن منه الا أن بادر فسرح عسكره ورحل(٢١) .

* * *

كذلك حدث فى الوقت ذاته أن مات ، فولشر » ثامن بطاركة بيت المقدس اللاتين ، وكان رجلا ورعا تقيا يخاف الله ، وكانت وفاته فى الســـنة الثانية عشرة من شغله كرسى البطركية ، وفى اليوم العشرين من نوفمبر سنة ١١٥٧ ·

كذلك اســـترد الصليبيون فى هذه الفترة ايضا أحد المعاقل القائمة على الجانب الآخر من الأردن فى اقليم «جلعاد»،وكانملاذا منيعا ، لكن تراخى قواتنا فى الدفاع عنه أدى الى وقوعه قبل ذلك ببضع سنوات فى يد العدو بحيلة ماكرة احتالها فملكه ، على أن استرداده اليوم يرجع أكثر ما يرجع الى المحاولات الجدية التى بذلتها الملكة « مليزند » ، والى الجهد الشاق من جانب أولئك الذين تخلفوا فى المملكة ، لاسيما ما بذله « بلدوين دى ليل » على وجه الخصوص من الاهتمام والنشاط ، وهو بلدوين الذى كان الملك قد عهد اليه بالقيام بمسئولية أمور المملكة أثناء غيابه عنها ، وجاءت اخبار هذا النجاح الى الملك فأدخلت الفرحة الكبرى على نفوس الجيش كله · كما كانت مبعث سعادة طافحة للجميع ·

كان القادة الصليبيون فى هذه الأثناء لايزالون متلكئين فى انطاكية ، وعلى الرغم مما كان بينهم من بعض الاختلاف وهم امام انطاكية الا أنهم وصلوا الآن برحمة من الله الى توفيق جماعى ، اذ صمموا على القيام بعمل كبير مجيد من أجل السلام ، فاتفقوا قلبا وقالبا على محاصرة أحد الحصون الواقعة على بعد اثنى عشر ميلا من أنطاكية ، وكان هذا الحصن يتحكم تحكما تاما فى القرى المعروفة باسم « كازاليا » كما انه كان مصدر ازعاج كبير للمدينة ذاتها ، فلما كان يوم مولد السيد المسيح مضى الجيش كله كتلة واحدة الى ذلك الموضع وضرب معسكره أمامه ·

كان نور الدين فى هذه الأثناء لايزال رهن المرض الذى هاجمه من قبل بشدة اضطرت القوم أن يستدعوا له أحسن المطببين من كافة بلاد الشرق ، لكن وعكته كانت تزداد لحظة بعد أخرى ولم تستجب للعلاج الذى وصفوه له ، حتى لقد يئس الأطباء من برئه وحياته ، فاستبشر الصليبيون خيرا ، وعدوا حالته هذه نعمة الهية خصتهم بها السماء ، كى تنجح حملتهم ، ذلك لأنه طالما كان نور الدين متمتعا بعافيته وبأسه كعادته كان من الصعب على جيشنا أن يتمكن من العمل بحرية فى تلك الناحية الخاضعة له ٠

غير أن الملك ومن صحبه فى هذه الحملة استطاعوا استغلال هذا الوضع المهم لصالحهم ، ذلك أن معرفتهم الجازمة بعجز هذا المحارب العظيم عن المساهمة بنصيب فى أمور دولته دعتهم لمضاعفة الحصار كأشد ما يكون الحصار عنفا وضراوة ، فأحدقوا بالحصن من شتى نواحيه ، ونصـــبوا آلاتهم ، وأعدوا كل ما جرت عادتهم باعداده في حصارهم أية قلعة ٠

* * *

كان الحصن(٢٢) الذى نتحدث عنه يقع على تل منخفض يوحى منظره كأنه بناء صناعى ، لذلك قام أحكم الرجال فى جيشنا بتكريس أنفسهم لعمل ممرات سرية يختفى داخلها الجند الموكول اليهم تقويض الحصن ويكونون بها فى مأمن على أنفسهم . وخيل اليهم ــ وكان حقا ما تخيلوه ــ أنهم اذا حفروا فى التل ممرات خفية انهار جزء من المبانى القائمة عليه ، ولذلك أسرعوا الى ترتيب كل شىء من عمل سلالم خشبية من خشب الصفصاف ذات ارتفاع متوسط الى غير ذلك من الآلات التى يحتاجها مثل هذا العمل ، فلما جهز قادة كتائب الفرسان والمشاة كل شىء بعناية فائقة ووفق ما يرومون نودى على هذه الكتائب علانية وسرا الا يكفوا عن الهجوم ، وخصصوا لكل قائد موضعا لا يشاركه فيه أحد سواه ، وأن يقوم هو ومن معه

بالعمل الجاد كما لو كان النجاح كل النجاح متوقفا على هذا القائد وحده دون غيره ، لذلك كان كل قائد منهم حريصا على أن يكون هو ومن معه أحسن الجميع ، وهكذا استطاعوا بهجماتهم الموصولة ومناوشاتهم اليومية أن يستمر العمل استمرارا كان من جرائه أن الأمر الذى كان يتطلب ردحا طويلا من الزمن أصبح ينجز فى عناية دقيقة فى مدى شهرين ٠

وحدث فى ذات يوم أن آلة الرمى التى كانت لا تكف عن رمى القلعة ليلا ولا نهارا أن قذفت حجرا بالغ الضخامة أصاب قائد القلعة القائم بعبء الدفاع كله فسحقه الحجر فتفرق الناس بعد مصرعه تفرق الماشية قتل راعيها وأصبحوا مشـــردين ، وتوقفت مقاومتهم العنيدة التى كانوا يظهرونها ٠

ما كاد الصليبيون يتحققون مما جرى حتى ضاعفوا الجهد وتسرب اليأس الى المحصورين فوهى صـــمودهم ، ولم يلبثوا غير بضعة أيام قلائل الا وأرسلوا نفرا الى الملك يعرضون عليه استعدادهم لمغادرة المكان شريطة أن يسمح لهم بالخروج أحرارا الى ديارهم بكل ما يملكون ، كما سألوه أن يمدهم بمرشدين لحمايتهم من أى هجوم قد يتعرضون له ، ويسيروا بهم حتى يبلغوهم مأمنهم المنشود سالمين ٠

بهذه الصورة تم الاستيلاء على القلعة فتسلمها أمير أنطاكية الذى كانت القلعة تابعة له رسميا من قبل ، وعاد القادة الى أنطاكية بعد أن تكللت حملتهم بالنجاح ٠

وبعد تبادل كلمات الوداع غادرهم الملك الى مملكته وفى صحبته « كونت فلاندرز » الأفخم ، وكان فى وداعهما كونت طرابلس ٠

(٢٠)

نجم عن وفاة طيب الذكر « فولشر » أن لم يعد لكنيسة بيت المقدس بطرك ، لذلك اجتمع كبار رجالها فى المدينة الطاهرة ليتدبروا أمر اختيار الرجل العفيف الكفء لهذه الكنيســـة المهمة بما يتفق والقواعد الكنسية ، ويقال ان الاختيار تم بطريقة غير نظامية بسبب تدخل امرأتين : احداهما هى أخت للملكة « مليزند »(٢٣) والأخرى هى الكونتيسة « سبيلا » أخت الملك وزوجة كونت فلاندرز ، وأسفر الأمر عن اختيار « أماليك » الذى كان قيم لكنيسة القبر المقـدس فصار البطرك ٠

كان « أماليك » فرنجى الأصل من بلدة « نيزل » فى أسقفية « نويون » ، وكان على جانب كبير من الثقافة العميقة ولكنه كان شديد السذاجة قليل النفع للكنيسة ، وقد اختير لهذه الوظيفة على غير رغبة كل من « هيرنيسيوس » رئيس أساقفة قيصرية » ، ورالف أسقف بيت لحم فقد عارضا قرار تعيينه ٠ على أن « أماليك » مالبث أن وضع المسألة ـ بعد توليه الكنيسة ـ فى يد « فردريك » أسقف عكا الذى مضى الى كنيسة رومة التى يتولاها « هدريان » ، واستطاع كما يقولون بفضل عطاياه التى أغدقها على رجال الحاشية البابوية من أن يحصل لأماليك ـ فى غياب خصـــومه ـ على تأييد البابا الرومانى ، ثم قفل راجعا من لدنه ومعه مســـوح الكهنوتية ، مع الاعتراف الكامل بحق « أماليك » فى منصب البطركية ٠

(٢١)

لكن حدث فى هذه الأثناء أن أبل نور الدين من وعكته بفضل العلاج الدقيق الذى والاه به مطببوه،وكان الملك قد عاد هو الآخرالى مملكته ، فرجع الأمير التركى(٢٤) معافي الى دمشق فلما كان صيف

العام التالى كره « نور الدين » أن يمضى وقته ساكنا مخافة أن يظن الناس ان الوهن تسرب الى نشاطه المعهود ، لذلك استدعى جيشه وحشد جمعا كثيفا من الاحتياطى وباغت احدى قلاعنا على غير توقع منا ، وكانت هذه القلعة واقعة فى اقليم يسمى « بالسواد » فى جانب تل عال شديد الانحدار ، وليس هناك من منفذ الى هذا المكان من أعلاه ولا من أسفله ، بل من جانب واحد فقط يمر عبر طريق ضيق خطر يشرف على هاوية ، وكان بداخل هذه القلعة غرف ومنامات مما يحتاجه الموجودون بها ، كما كان يوجد هناك أيضا نبع ماء صاف لا تنضب مياهه أبدا ، وهكذا كانت هذه القلعة ـ بقدر ما تسمح به ظروف المكان الضيقة جيدة التجهيز نافعة للاقليم ٠

ثم تأكد تأكيدا باتا عند الملك خبر هذا الحصار ، وسرعان ما جمع فى الحال قوات المملكة وأسرع الى هناك مستصحبا معه كونت فلاندرز ، وكان من بداخل القلعة ، ـ وقد عجزوا عن تحمل مشاق الحصار ـ قد اتفقوا تحت وطأة ما يفرضه عليهم وضعهم أن يسلموا المكان ان لم تصلهم النجدة خلال عشرة أيام ، فلما علم الملك بهذا القرار أسرع الى نجدتهم وعسكر بجيشه قرب « طبرية » عند الجسر الذى يفصل مابين أكواخ الأردن ومياه بحيرة «جينيسارت »٠

لكن ما كاد نور الدين يعلم بأن الملك قريب منهم حتى استمع الى نصيحة قائده « شيركوه » وكان رجلا شديد البطش كبير الثقة فى نفسه ، فرفع الحصار وزحف بجيشه لضرب الصليبيين ٠

واذ عرف الملك بعزم نور الدين على مهاجمته فقد استدعى كبار رجاله للحضور الى معسكره مع أولى طلائع الفجر ، فأدوا الاحترام الواجب للصليب الذى كان يحمله سلفنا الطيب الذكر « بطرس » رئيس أساقفة صور ، واتفقوا عن طيب خاطر على الحرب ، ورتبت الصفوف للزحف فخرجوا وقد قوى عزمهم وكأنما وثقوا من النصر ،

وزحفوا الى الناحية التى قيل ان عسكر نور الدين موجود فيها ، فلما دنت الكتائب الصليبية منها اســـتعدت للقتال وهى فى كامل سلاحها من الرأس الى أخمص القدمين ، وانقضت كلها على الترك وقاتلتهم بالسيف أشرس قتال حتى كان يخيل لرائيها أنها تسعى الى الموت فى قتالها ، ولكن ذلك لم يرهب الأتراك الذين تحملوا وطأة المعركة دون أن يضطربوا ، فهاجمونا بسيوفهم وحاولوا بمقاومتهم الباسلة صد هجوم أعدائهم عليهم ٠

وكان الحظ تارة مع هؤلاء وتارة مع هؤلاء ، ثم انتهى الأمر اخيرا بأن كتبت السماء النصر لنا ، وتكبد الأعداء خسائر هائلة ، ووقف الملك فى ساحة المعركة منتصـــرا ، وكانت هذه الوقعة عند بزاعة(٢٥)فى الرابع عشر من يوليو سنة ١١٥٥ وفى السنةالخامسة عشرة من حكم الملك بلدوين ٠

ولما رأى بلدوين أن الوقت مسعفه بالزحف على القلعة التى كانت محاصرة تقدم فرمم ما تهدم منها ، واهتم غاية الاهتمام بامدادها بالسلاح والطعام وتجهيزها بالرجال الأشداء ، حتى اذا فرغ من ذلك سرح عسكره وبعث بهم الى ديارهم ، وعاد هو الى مملكته بعد حملة أحرز فيها النصر ٠

(٢٢)

كان المبعوثون قد ذهبوا الى القسطنطينية لترتيب أمر زواج الملك ، وكان من بينهم « أتارد »(٢٦) رئيس أساقفة الناصرة لكنه مات بها فرد زملاؤه جثمانه الى كنيسته لاهتمامهم العظيم به،ثمخلفه « لينارد » كبير رجال الكهنوت بنفس الكنيسة ، وكان كبير الرحمة سمحا ، وقد ظل فى وظيفته هذه ثلاثا وعشرين سنة ، أما المبعوثون الذين ظلوا على قيد الحياة وهم «همفرى» الكونستابل ، وجوسلين

« بيسيلوس » و « وليم دى بارى » الذين كانوا من علية القوم وذوى الخبرة بالأمور العلمانية فقد تابعوا مهمتهم التى كلفوا بها على خير وجه ، وعرضوها أحسن العرض فى البلاط الامبراطورى ، وبعد كثير من التوقفات والمراوغات والأخذ والرد ومداورات فى الكلام ، وهى أمور يتقنها الاغريق ويميلون اليها واعتادوها ، وقع الاختيار على أميرة عذراء درجت منذ نعومة أظفارها فى أبهاء القصر الامبراطورى ، وهى ابنة اسحق أخى الامبراطور الأكبر ، واسمها « تيودورا » وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها ، وهى ذات فتنة طاغية فى الجسم والطلعة ، تشد الناظر اليها ٠

وكان صداقها مائة ألف قطعة ذهبية من الوزن المعتاد ، بالاضافة الى عشرة آلاف قطعة من نفس العملة يتكرم بها الامبراطور للصرف على نفقات الزواج ٠

أما جهاز العروس فكان من الذهب والجواهر والثياب واللآلىء والطنافس والأقمشة الحريرية ، الى جانب الأوعية الغالية الثمن ، وتقدير ذلك كله مبلغ اضافى هو أربعة عشر ألف قطعة من تلك العملة البيزنطية ٠

وأرسل الملك الى الامبراطور تأكيدا بخطه يعلن فيه قبوله شخصيا جميع ما يوافق عليه مبعوثوه الذين قطعوا العهد الأكيد نيابة عن الملك انه اذا مات مولاهم فسيكون من حق الملكة « تيودورا » بمقتضى هذا الزواج الاحتفاظ بنصيب يضمن لها دخلا مدى الحياة لا يعارضها فيه معارض ، ولا يجادلها فيه مجادل ٠

اما هذا النصيب فيكون مدينة « عكا » بكل ملحقاتها ، وبذلك أمضى الطرفان العقد برضائهما التام ، واختير رهط من أعلى الناس مقاما فى الامبراطورية لمرافقة العروس فى سفرها الى الملك ٠ ومن ثم مضت الى زوجها بالشام فى حراسة الرسل ٠

وارست السفينة بالأميرة سالمة هى وكل حاشيتها فى صور فى شهر سبتمبر التالى ، وتم زفافها بعد أيام قلائل فى القدس على مألوف عادة المملكة ، وتوجت بالتاج الملكى ، فلما فرغ القوم من مراسيم الزواج الرائعة أدخلت الى زوجها ٠

ولما لم يكن قد تم حتى هذه اللحظة ترسيم بطرك القدس المنتخب نظرا لأن المبعوثين الذين مضوا الى البابا فى شأن قضيته لم يكونوا قد عادوا بعد،أقول انه لما لم يكن قد تم ترسيم البطرك الجديدفقدصدر التوجيه الملكى باستدعاء « ايمرى » بطرك انطاكية ، وفوض اليه أن يمسح الملكة بالزيت المقدس وأن يمضى مراسيم الزواج المعتادة ٠

على أن الملك منذ زواجه نبذ ظهريا جميع ما كان يتسم به من رعونة طائشة لم يكن يتورع ــ كما قيل ــ عن التظاهر بها من قبل ، ومن ثم حق لهم أن يقولوا مع الرسول(٢٧) « لما كنت طفلا ، كطفل كنت أتكلم ، وكطفل كنت أفطن ، وكطفل كنت أفتكر ، لكن لما صرت رجلا أبطلت ما للطفل » ٠

ويقال انه ظل يحبو زوجته على الدوام بالمحبة الجديرة بالثناء والمعتقد أنه ظل وفيا لها حتى آخر عمره ، فتخلى عن كل ما يشينه ، وصار رجلا غير الذى كانه من قبل ، وتفرغ للأعمال المجيدة ، وشغل نفسه بالأمور الجدية ٠

(٢٣)

فى خلال هذه السنة ذاتها عزم امبراطور القسطنطينية على المضى الى سورية فحشد الحشود من كافة أرجاء مملكته بما يتلاءم وعظمته الامبراطورية ، وخرج على رأس هذا الجيش الكثيف الذى جمعه من شتى القبائل والشعوب وعلى اختلاف الألسن والأمم ، وعبر البسفور وأسرع فاجتاز الاقليم المجاور ، حتى اذا كان مستهل ديسمبر

ظهر فجأة بعسكره فى « كيليكية » ظهورا لم يكن يتوقعه أحد ، ويتلخص السبب المباشر لهذا الزحف السريع فى أنه كان هناك أمير قوى اسمه « توروس » الذى أشرنا اليه من قبل ، وكان « توروس » هذا قد احتل بالقوة سائر بلاد « كيليكية » المجاورة للجبال التى له فيها عدة قلاع شديدة المنعة ولم ينج من بطشه أى بلد مهما كان محاطا بالأسوار ، كما لم تسلم منه القرى حتى البعيدة ، وترتب على ذلك أن سقطت فى يده « طرسوس » عاصمة « كيليكية » الكبرى ، و « عين زربة » قصبة « كيليكية » الصغرى ، كما سقط فى يده غيرهما من المدن التى كان من بينها « المصيصة » و « أدنة » و « سيس »(٢٨) فأخرج عن جميعها حكامها الموكلين بادارة شـــئونها الامبراطورية ، وحينذاك أسرع الامبراطور فى زحفه ولم يصـــرح بوجهته كى يأخذ الأرمنى على غرة ٠

* * *

على أنه كان لرحلته هذه هدف آخر غير هذا الهدف ، ذلك أنه كان قد تأثر بالوضع السيىء الذى صار فيه القبارصة الذين كانوا يستحقون عن حق عطفه عليهم والذين كانوا كما قلنا قد أذلهم طغيان أمير انطاكية وجبروته حتى عاملهم كأنهم أعداء لملته أو كأنهم مجرمون أثمة ٠

هكذا كان مجىء الجيوش الامبراطورية على غير انتظار حتى ان « توروس » الذى كان مقيما اذ ذاك فى « طرسوس » لم يسعفه الوقت بالفرار الى الجبال المجاورة قبل أن تنتشر الكتائب ورؤساؤ الجيش فى السهل الفسيح ٠

فلما سمع أرناط أمير أنطاكية بهذا النبأ ساوره الفزع اذ أحس بجرمه ، وأنبه ضميره لما كان قد فعله قبل قليل من قدوم الامبراطور (مانويل) من صب غضبه وبطشه بالقبارصة الأبرياء ، وما أذاقهم

هم ونساءهم وأبناؤهم من الأهوال الفاحشة التى يكرهها الله ويمقتها الناس ، لذلك جزع من مجىء الامبراطور مخافة أن تحركه الشكايات المتتالية من جانب هذا الشعب المنكوب فيثأر له لما نزل به من الكوارث لذلك أخذ « أرناط » يتدبر الموقف تارة بينه وبين نفسه وتارة مع ثقات أصحابه الذين استدعاهم اليه عساهم يرشدونه الى السبيل الذى ينبغى عليه سلوكه ، وماذا يفعل لارضاء عظمته الامبراطورية ليسكت عن تلك الجريمة النكراء التى جنتها يداه ، وبلغ من شدة انزعاجه من مجىء الامبراطور أنه لم يطق صبرا فينتظر وصول ملك بيت المقدس الذى كان على وشك الوصول ، رغم أنه كان يعرف انه مستطيع الحصول على شروط أحسن لو تدخل بلدوين لما له من نفوذ ملموس عند الامبراطور وبفضل تحالفه معه ·

لكنه (أى أرناط) أصاخ السمع الى نصيحة جماعته فاختار من بينهم رهطا معينا من النبلاء لمصاحبته ، وانطلق الى « كيليكية » حيث كان الامبراطور بها مع قواده ورافقه فى هذه السفرة «جيرارد» أسقف اللاذقية المبجل ، واستطاع « أرناط » فى بادىء الأمر أن يكتسب الى جانبه تأييد بعض رجال من حاشية الامبراطور اذ قبلوا أن يتشفعوا له عند مولاهم ، فلما اطمأن الى ذلك تابع سيره الى مدينة المصيصة ·

وبعد أن قدم للمسيحيين كثيرا من التبريرات الفجة وأبدى ندمه وما يحسه من العار عاد لينعم بعطف جلالته الامبراطورية ، ويقال انه ظهر على مرأى من الكتائب المتجمعة وأمام الامبراطور حافى القدمين ، وعليه قميص خشن من الصوف قصير الأكمام يصل الى مرفقيه ، وجعل حول عنقه حبلا من مسد ، وأمسك بيده ذباب سيفه الذى استله من غمده وقدمه الى الامبراطور مانويل ، ثم طرح نفسه أرضا عند موطىء قدميه

معفرا وجهه فى التراب ، فاشمئز الجميع مما فعل، وكسف مجد اللاتين الذى استحال بفعلته هذه معرة ونقيصة ·

وكان « أرناط » رجـــلا مطبوعا على الاندفاع فى خطاياه اندفاعه فى توبته على السواء ·

(٢٤)

حين علم الملك بوصــــول الامبراطور مضى الى أنطـاكية مستصحبا معيته وفيها أخوه (عمورى) وحوله رهط اصطفاهم من أعظم نبلاء مملكته ، ولم يستثن منهم غير كونت فلاندرز الذى كان قد تخلف عن مصاحبة الملك لعزمه على العودة الى دياره فى الرحلة البحرية التالية ، وكان الملك قد بعث حين وصوله سفارة من قبله الى الامبراطور تتألف من « جوفرى » رئيس رهبان دير فرســــان المعبد ، وكان « جوفرى » هذا يتقن اللسان اليونانى اتقانا عظيما ، كما بعث معه بجوســـلين « بيسيلوس » ، وكلفهما أن ينقلا الى الامبراطور فى لهجة ودية التحيات التى تليق بمقامه الســـامى ، ويستفسرا منه عما اذا كان يسمح بمجىء الملك الى حضرته ، فرد الامبراطور عليهما بأنه يرحب غاية الترحيب بحضور (بلدوين) فى الحال ، وأضاف الى ذلك أنه مرسل مســـتشاره الكبير ومعه آخرون من قبله هو ذاته ، ومكلفا اياهم أن يستعجلوا الملك باعتباره ابنا محبوبا للامبراطور ·

فلما كان اليوم المحدد ذهب الملك (بلدوين الثالث) فى نخبة مختارة من أعظم رجاله الى هناك ، فقوبل بأعظم مظاهر التشريف اذ كان الامبراطور قد أصدر أمره أن يخرج لاستقباله اثنان من أعظم رجال قصـــره الســـامى مكانة وأعلاهم منزلة هما « جون البروتوسيباستوس » و « الكسيوس » حاجب حجاب ديوانه ، وهما

شـــقيقان من أم واحدة ، كما أنهما من أبناء أخوة الامبراطور (مانويل) ذاته ، وكان فى صحبتهما طائفة من النبلاء ، فساروا جميعا بالملك الى مدخل الخيمة التى أعدت لاقامة الامبراطور مؤقتا هو وكبار رجال دولته ٠

وقوبل الملك استقبالا رائعا وبالغ الامبراطور فى الترحيب به ، وقبله قبلة السلام ، ثم أجلسه الى جواره فى مقعد الشرف وان كان أوطأ من كرسيه الخاص ، ثم حيا بطانة الملك بما يليق بهم من الاحترام ، ومنحهم هم أيضا قبلة السلام ، وراح يستفسر من الملك وحاشيته عن أحوالهم الصحية استفسارا دقيقا ، ونمت أسارير وجهه وأفصحت كلماته العذبة ومظهره العام عن مدى غبطته وعظيم ســـروره لقدوم الملك (بلدوين) ومن معه ، كما لم يخف فرحته الكبرى لوجود ملك عظيم كهذا الملك وحاشية مبجلة كهذه الحاشية عنده ، وظل بلدوين (الثالث) مقيما مع الامبراطور عشرة أيام ، سعد خلالها كل منهما بهذا اللقاء الرائع ، وجرت الأحاديث الودية بينهما على انفراد تارة وبحضور حاشية الملك تارة أخرى ، وكان بلدوين يبدو خلال هذه الفترة طيب المزاج رضيه ، كما اكتسب عطف الامبراطور ورجاله ، والحق أنه حتى بعد هذا اللقاء بل وطول حياته ظلوا يؤثرونه ايثارهم ابنا لهم ، كما لم يمسكوا عن ذكره بالكلام الحسن حتى بعد موته ٠

***

كان بلدوين رجلا جم النشاط ثاقب النظرة فى الأمور الدنيوية لذلك أراد أن تثمر اقامته عند الامبراطور أطيب الثمار ، فقد لاحظ أن الامبراطور كان قد أمر قواده بالتجمع فى معسكر خارج المدينة بهدف ارسال حملة ضد « توروس » الذى كان شديد الكراهية له ، لكن بلدوين استطاع بعد استئذانه أن يصل لأول مرة(٢٩) الى تفاهم طيب بين كل من مانويل وهذا الأرمنى الكبير ، فاستدعى الملك اليه

الأمير « توروس » ثم اتفق معه على أن يعيد الى الامبراطور الحصن الذى كان يطالب به ، فاستجاب له « توروس » فحظى بعطفه عليه كما أن وساطة الملك أدت الى قيام توروس - قبل رجوعه الى دياره - بقطع يمين الولاء والتبعية للامبراطور .

وأخيرا عاد الملك ومن معه الى انطاكية مشيعين بالاعجاب وحب الجميع ومحملين بالهدايا الجمة التى أغدقها الامبراطور عليهم لاظهار عظمته الامبراطورية .

* * *

لقد علمت من أناس معينين(٣٠) موثوق بشهادتهم كل الثقة ان الهدايا التى أسرف (مانويل) الامبراطور فى اغداقها على اتباع الملك والتى لا حصر لها وبلغت الأموال التى أعطاها الملك وحده اثنين وعشرين ألف دينار ذهبى ، وثلاثة آلاف مارك فضى من الوزن الخاص ، كما كان من بين الهدايا التى أتحفهم بها ثياب وأقمشة حريرية ومزهريات غالية .

وحين بلغ الملك انطاكية وجد بها أخاه عمورى كونت يافا وعسقلان، ومعه « هيج دى ابلين » الذى اطلق سراحه منذ قريب من أسر العدو فرجع ليستعيد مركزه السالف ، ولما كان هذان يرغبان هما أيضا فى زيارة الامبراطور فانهما سرعان ما انطلقا الى هناك حيث استقبلهما جلالته الامبراطورية استقبالا فخما ، واحاطهما بكل آيات الشرف العظيم حسب التقاليد الامبراطورية ، فلما أوشكت زيارتهما على الانتهاء وصلهما بالمنح الغالية وردهما الى المملكة مكرمين .

أحيا الامبراطور عيد الفصح المقدس فى «كيليكية» ، وأمضى هناك بضعة أيام ، فلما فرغ من ذلك زحف بجيشه الى مدينة أنطاكية ووقف أمام أبوابهـــا ، فأفزعت كثرة جنــده نفوس الناس وخف لاستقباله البطرك حاملا الأناجيل وحوله رجال الدين فى أبهة كهنوتية رائعة ، وشارك فى هذا الموكب الحافل الفخم عامة الناس أيضا ، ثم تقدم الملك الى الامبراطور محييا اياه وكان بصحبته أمير أنطاكية وكونت عسقلان ومن ورائهم جميع سراة المملكة وكبار الأنطاكيين ، وساروا به حتى دخل المدينة بين دق الطبول ونفخ الأبواق الحربية وكان مرتديا العباءة الامبراطورية وعلى رأسه التاج الامبراطورى ، وساروا به أولا الى الكاتدرائية ، أعنى الى كنيسة كبير الرسل ، ثم الى القصر ، يحرسه نفس كبار رجال المدينة وأهلها •

وقضى الامبراطور بضعة أيام فى صور متنعما بلذة الاستحمام وغير ذلك من وسائل البلهنية ، ومغدقا خلالها الهدايا فى اسراف على المدينة حسب العادة المتبعة ، فلما انقضى ذلك كله عزم على القيام برحلة صيد تزجية للوقت فخرج ومعه الملك ، ومضوا الى ناحية تصلح للطراد والقنص ، وبينما كانوا فى الغابة على صهوات جيادهم يفعلون ما يفعله الصيادون فى ممارستهم هذه الرياضة وقع لهم حادث ، وكان ذلك يوم الاحتفال بصعود سيدنا ، اذ بينما كان الملك ممتطيا حصانه الخفيف الحركة ويخب به فوق أرض غير معبدة تكسوها الأعشاب القصيرة وأشجار العوسج اذا به يسقط من فوق دابته فينكسر ذراعه ، فلم يكد الامبراطور يعلم بذلك حتى اندفع فى حنان بالغ وقام بما يقوم به الجراحون حيث ركع الى جــوار الملك وخصه بعناية لا يظنه من يراه وهو يفعل مايفعل الا شخصا عاديا ، فانعقدت السنة كبار رجاله وأقاربه دهشة لما يطالعونه ، ورأوا أن الامبراطور وقد طرح جانبا (بما فعل) كل مظاهر العظمة

الامبراطورية ، وتنازل تنازلا كبيرا عن مكانته الرفيعة ، كما أدهشهم اهتمامه بالملك هذا الاهتمام الودى البالغ ، وعدوا ذلك أمرا لا يليق به ، ولما عادوا الى أنطاكية بسبب هذا الحادث لميكن يمر يوم دون أن يزور الامبراطور الملك ويبدل له بنفسه ضماداته بأخرى ويضع له المراهم الشافية ، ثم يضمد جراحاته فى عناية فائقة ، والحق أنه ما كان يفعل أكثر من ذلك فيما لو كان بلدوين ولده من صلبه ٠

فلما استرد بلدوين عافيته وشفى من وعكته أمر الامبراطور المنادين أن ينادوا فى قادة كتائبه أن يبعثوا أمامهم آلاتهم الحربية ، وأن يسيروا بالجيش الى حلب فى يوم حدده لهم ، وخرج هو وراءهم وقد صحبه الملك وحكام المملكتين ، ثم رحل عن أنطاكية والطبول تقرع حوله وحول من معه ، والأبواق يتعالى نفخها ، حتى اذا بلغ موضعا تسميه العامة بلسانها بمخاضة « البلانة » توقف الجيش كله وأرسل الامبراطور من موضعه هذا الرسل الى نور الدين الذى شاءت الظروف بأن يكون حينئذ فى حلب ، وتم على يد هؤلاء الرسل اطلاق سراح واحد اسمه « برترام » الذى كان ابنا غير شرعى لكونت سنت جيل ، كما أطلق معه سراح بضعة أسرى آخرين ، ثم عاد الامبراطور بعد قليل الى مملكته حيث تطلبت أحداث البلد ضرورة تواجده ، فلما سافر عاد الملك هو الآخر الى بلده ، مصحوبا بمن كانوا فى رفقته ٠

(٢٦)

مات فى هذه الأثناء البابا « هدريان » بمرض الخناق فى « أنانى » بأقليم « كمبانيا » ، وحمل القوم جسده الى رومة وواروه القبر فى احتفال مهيب بكنيسة القديس بطرس كبير الحواريين ، وحينذاك اجتمع الكرادلة لمناقشة موضوع اختيار خلف له ، وحدث

كما يحدث غالبا فى مثل هذه الأحوال أن اختلفت وجهات النظر وتباينت الآراء ، فاختارت طائفة من القوم « رولاند » كردينال نفس كنيسة القديس بطرس والمنعوت بالقديس مرقص وراعى الكنيسة المقدسة ووضعوا أيديهم عليه وأعلنوا أنه البابا وسموه بالبابا « اسكندر » ٠

أما الفريق الآخر فقد اختار « أوكتافيوس » وهو من الأشراف ، وكان هو الآخر كردينال الكنيسة الملقبة بكنيسة « سنت سيسيليا » الواقعة وراء التايبر ، وتم ترسيمه هو الآخر بنفس الطريقة ونصب بابا ، ولقب « بفكتور » ٠

كان هذا الانشقاق بسبب خطايانا ، وقد أدى الى حدوث انقسام وبينونة لا رجعة فيها فى الكنيسة اللاتينية كلها ، كما أن أعظم نبلاء البلاد أصبحوا شيعا ربطت كل واحدة منها نفسها بواحد من الاثنين ٠ وقد استمر هذا الوضع قرابة تسع عشرة سنة حتى قام فى النهاية امبراطور الرومان « فردريك » المناصر لحزب فكتور والمؤيد له باعادة الوحدة للكنيسة وباتفاقه التام مع البابا اسكندر ، وهكذا عاد الوفاق من جديد وتلاشت سحب الشقاق وأشرق السلام فكان كنجمة الصباح ٠

(٢٧)

أحس نور الدين بالفرحة الكبرى تملأ جوانحه لرحيل هذا الامبراطور ذى البأس الشديد الذى كان وصوله سببا فى اشاعة الخوف الكبير فى نفسه ، كما أن رحلته فى البلاد كانت ذات وقع سبب له قلقا عظيما ٠

فلما رحل الامبراطور اطمأن خاطر نور الدين من ناحية « مانويل » فهو صاحب الحول المفزع الذى زادت مغادرته الناحية

من يقين نور الدين أن قد جاءته الفرصة التى طال انتظاره لها ، لذلك استدعى عسكره من شتى أرجاء دولته ، وأنفذ حملة ضد سلطان « قونية » الواقعة على تخوم بلاده ، فسقطت فى يده مدينة « مرعش » وقلعتا « كيسوم » و « بهسنا » لانصياع السلطان ودلك لوجود السلطان بعيدا عنها ، ولم يكن من اليسير عليه ارسال النجدة الى هذه الأماكن ، وقد وضع نور الدين فى ذهنه هذه الأمور فخاطر فهاجم « قونية » وكان صاحبها أقوى منه هو ذاته ٠

وجاء خبر هذه الحملة الى الملك الذى كان لايزال معوقا حيث هو على رأس قواته ، ولكن دله ادراكه على أن دمشق – وقد خلت من قوتها الحربية – قد أصبحت فريسة سهلة لمطامع كل متربص لها ، لذلك صمم على الاستفادة من هذا الوضع فجمع العسكر مهاجما دمشق ولم يجد أحدا يصده فاضرم النار فى كل ما صادفه ، وعاث فى كل نواحيها افسادا حسبما أملت عليه أهواؤه ، واستباح لجنده الناحية كلها امتدادا من « بصرى » مدينة بلاد العرب الشهيرة حتى دمشق فراحوا يحرقونها ويدمرونها كيفما شاءوا ٠

وكان يوجد فى دمشق رجل من علية القوم اسمه «نجم الدين» أدرك نور الدين فيه خبرته التامة بالشئون الدنيوية فعهد اليه بادارة أموره الخاصة ورعاية المدينة بكل ملحقاتها ، تاركا له حرية التصرف فى الحكم بها ، فلما عرف نجم الدين انشغال مولاه بأمور مهمة فى أماكن أخرى غير هذه النواحى ، على حين أن ليس تحت يده هو ذاته سوى قوة ضئيلة هى التى يمكنه بها أن يقاوم الملك (بلدوين) فقد راح يتدبر الوسائل التى تجنبه الأخطار التى تكتنفه ، فقدم للملك أربعة آلاف قطعة من الذهب ورد عليه ستة فرسان من الفرسان العاديين كانوا فى أسره ، وجعل ذلك كله ثمنا لهدنة أمدها ثلاثة أشهر ، وقد استطاع نجم الدين بفطنته هذه أن يستخدم المال لرشوة

الكثيرين حتى يتشفعوا له عند الملك الذى استجاب لما يرجوه ، ونجح نجم الدين بهذه الاجـــراءات الحازمة أن يخلص البلد من جيش الملك ٠

* * *

مرضت الملكة « مليزند » فى هذه الأثناء ، وكانت امرأة ذات عقل راجح وفطنة نادرة ، ولم يكن ثم أمل فى أن يزايلها المرض الا أن تموت ، وقامت على رعايتها فى وعكتها خير قيام أختاها كونتسة طرابلس ، و « ايفيتا » رئيسة دير راهبات سنت لازار فى « بيثانى » ، وقد جيء لها بأمهر المطببين الموجودين هناك ، وعولجت بأحســـن الأدوية التى اقترحوها ٠

ولقد حكمت الملكة « مليزند » المملكة ثلاثين عاما أو تزيد خلال فترة حياة زوجها وبعده فى أثناء حكم ولدها (بلدوين الثالث) وكانت قوية فى حكمها حتى لقد فاقت فى القوة كل امرأة سواها ، كما اتسم حكمها بالحصـــافة والعقل ، ثم لازمت الفراش منهوكة الجسد ، وكانت تعتريها أحيانا نوبات من الذهول وفقدان الذاكرة والوعى ، وظلت طريحة فراشها زمنا طويلا وهى شبه ميتة وما هى بالميتة ، ولم يكن يسمح برؤيتها الا للقليلين جدا ٠

* * *

وانتهى فى هذه الأثناء أمد الهدنة التى كان نجم الدين حاكم دمشق قد اتفق عليها مع الملك ، وكان انصرامها قبل أن يفزع نور الدين من حملته مما ترتب عليه ضـــرورة بقائه فى تلك النواحى المذكورة آنفا ، لذلك اقتحم الملك (بلدوين الثالث) أرض العدو بقوة السلاح وراح يخرب الاقليم كما يهوى ، فساق الماشية والأسرى ، وأحرق ما صادفه ، وأفسد الناحية دون أن يجد أحدا يتصدى لدفعه ،

حتى اذا فرغ من تدمير البلد والحقول المحيطة به واسترقاق السكان عاد الى مملكته سالما ٠

(٢٨)

مالبث « أرناط » أمير أنطاكية أن علم منكشافته أن فى الناحية التى كانت من قبل من أملاك كونت الرها ، وهى المنطقة الواقعة بين مرعش ودلوك ، قطعانا كثيرة من البقر والأغنام ، ولما كانت هذه الناحية خالية من أى قوات تحرسها ، ولم يتعود أهلها استعمال السلاح ، فقد كانت ميسرة للنهب ، وأصاخ « أرناط » الأحمق الى هذا الخبر بأذن واعية فجمع فى الحال عسكرا كثيرين وزحف بهم على تلك الناحية والشر يملأ جوانحه ، فوجد صدق ماسمع وما نقل اليه ، اذ كان المكان فى الواقع زاخرا بعدد كبير من القطعان والدواب ، ولكن أصحابها كانوا نصارى ، وليس فى الأقليم كله أحد من الترك الذين اقتصر وجودهم على القلاع فحسب ، بل ان هؤلاء الترك كانوا قلة قليلة وما كان وجودهم هناك الا لغرض حماية الحصون وجمع الجزية من الأهالى والحفاظ عليها حتى يتسلمها الكبار الذين كانوا هم وكلاء لهم ، كما أن المزارع المحيطة بهم كانت فى أيدى السريان والأرمن المسيحيين الذين يقومون بفلاحة الأرض ولا يمارسون شيئا سوى الزراعة ٠

ولقد تمكن « أرناط » وقواته من نهب تلك النواحى كلها دون أن يصادفوا أدنى مقاومة ، وبينما كانوا عائدين الى دورهم آمنين ناعمى البال بالغنائم وشتى أنواع المتاع والمتجر الذى نهبوه اذا بمجد الدين حاكم حلب (وهو صديق نور الدين الحميم وحليفه المخلص) يطلع عليهم حين ترامى الى سمعه أن « أرناط » عائد من غزاة له ، فبادر الى الخروج ضده بكل من فى هذه الناحية من

الفرسان المسلحين بالأسلحة الخفيفة ، وكان قصـــده أن يفاجىء الصليبيين فى بعض الممرات الضيقة ويبيدهم وهم يحملون الأثقال والغنيمة ، أو يرغمهم على الأقل على ترك ما معهم من الغنائم . ولقد نفذ الترك خطة الحاكم السديدة فزحفوا على أرناط مسترشدين ببعض الأدلاء الذين كانوا قد جاءوهم بالأخبار ، وأصبحوا الآن فى المكان الذى سموه لهم ، والذى كان الأمير أرناط معسكرا عنده بكل أسلابه وغنائمه .

فلما علم « أرناط » أن العدو قد صار قاب قوسين أو أدنى منه أخذ فى مشاورة من معه فيما ينبغى عليه عمله فى هذه الظروف وكانت الخطة المثلى هى التخفف مما معهم ، وترك ما بيدهم من الغنيمة حتى لا تعرقل هذه الأثقال سرعة عودتهم الى ديارهم ، لكن حدث النقيض من ذلك فقد آثروا الاحتفاظ بما نهبوه ، بل والقتال العنيف ان دعت الحاجة الى القتال ، فلما كان الصباح التالى وقد تقدموا فى سيرهم بعض الشىء اذا بالقوات المعادية تلقاهم مقاتلة وراحت ترميهم عن أقواسها ، وتنوشهم بسيوفها ، وتحاربهم أضرى حرب ، وحاول الصليبيون فى بادىء الأمر الصمود القوى لكنهم اضطروا أخيرا للفرار تحت وطأة الضغط عليهم ، فهربوا تاركين وراءهم كل ما معهم من الأسلاب ، وكفر الأمير «أرناط» عن جميع أخطائه وجرائمه التى اقترفها ، فقد وقع فى أسر العدو الذى كبله بالقيود وسار به الى حلب على أقبح صـــورة ليكون هو ورفاقه الأسرى تسلية للكفار .

ولقد حدثت هذه الكارثة يوم ٢٣ نوفمبر فى السنة الثامنة عشرة من حكم بلدوين (الثالث) بين « كيسوم » و « مرعش » فى موضع يعرف باسم « كومى » .

أرســـت فى هذا الوقت ذاته طائفة من الجنوية فى « جبيل » وبصحبتهم كردينال من كنيسة رومة اســـمه « يوحنا » أوفده البابا « اسكندر » نائبا عنه الى أقطار المشرق ، وقد سعى « يوحنا » هذا للحصول من الملك وأمراء المملكة المدنيين والعلمانيين على الاذن له بدخوله المملكة بصفته مندوبا بابويا، ذلك لأن الناس كانوا كما أشرنا فى شقاق ، وقد انقسموا فريقين أحدهما يؤيد البابا اسكندر ، والآخر يقف الى جانب الحزب المعارض له ، ودار حوار ونقاش طويلان حول هذه المشكلة ، ثم اقترحوا على المندوب أن يظل بعض الوقت بجبيل حيث هو ، وألا يدخل المملكة حتى يفرغ كبار أمرائها ورجال الكنيسة من بحث الموضوع البحث الجديد به ثم يخبرونه بما يقر عليهقرارهم •

لذلك بعثوا فى استقدام البطرك وغيره من رجال الكنيسة الى الناصرة حيث عقد اجتماع مع الملك وبعض البارونات للتشاور فى الطريق الذى يسلكونه فى هذا الموقف الحرج ، اذا كان جميع كبار رجال المشرق فى البطريركيتين يقفون موقفا محايدا لم يكتموه بصفتهم الشخصية ، الا كانوا منقسمين سرا فيما بينهم ، ما بين مؤيـــد لهذا الفريق أو ذاك ، لذلك لم يستطيعوا الوصول الى رأى بات فيما بينهم كما هى الحال فى مثل هذه الظروف ، فقد صرح بعضهم ممن كان الأمر فى أيديهم بوجوب استقبال مندوب البابا « اسكندر » لأنه صاحب الأمر ، وكان على رأس هذا الفريق ســـلفنا الخالد الذكر « بطرس » كبير أساقفة صور ، بينما عارضه آخرون آثروا جانب « فكتور » ، على أساس انه كان على الدوام صديقا للمملكة والمدافع عنها ، وكان هذا الفريق يرفض استقبال المندوب البابوى رفضا باتا أيا كانت الظروف •

أما الملك فقد محضهم النصح بوجوب اتباع طريق وسط ، فنهاهم عن استقبال أحد ما من الجانبين ، وأيده فى هذا الرأى نفر من البارونات ورجال الكنيسة ، وكان الحامل للملك على اتخاذ هذا الرأى هو خوفه من حدوث انقسام بين الأساقفة يؤدى الى شقاق فى الكنيسة، وقال انه ان خلى المندوب البابوى جانبا دعوى حقـــوقه ومـكانته الرسمية وأراد المجىء كحاج الى الأراضى المقدسة للصلاة والعبادة فله مايريد ، ويكون له مطلق الحرية فى البقاء بالمملكة ماشاء حتى يحين موعد الرحلة البحرية التالية فيعود الى بلاده ، وبرر الملك رأيه هذا بما يلى : « بأن الانشقاق حديث الظهور ، ولا يعرف الناس أى الفريقين أرجح حجة ، ومن ثم فانه من الخطر فى مثل هذه المسألة التى لاتزال موضع جدل اعتناق فكرة مستقلة فتكون تأييدا مقدما لقرار عام فى الوقت الذى لازالت فيه الخاتمة غير واضحة ، يضاف الى هذا انه ليست هناك ضرورة لوجود نائب بابوى فى المملكة يرهق الكنائس والأديرة فيها ويحملها أعباء الانفاق عليه ، ويكلفها عســـرا بما يأخذه منها » ٠

كان هذا هو رأى الملك الذى بدا صائبا كل الصواب لكنهم أخذوا برأى الفريق المؤيد لوجوب استقبال المندوب البابوى ، ومن ثم فانهم استدعوه لدخول المملكة ، وقد ثبت بعدئذ انه كان عبئا ثقيلا على الكثيرين الذين أيدوا فكرة الاذن له بالدخول ٠

* * *

وحدث فى هذه الأثناء تقريبا أن ولد ولد لعمورى كونت يافا وزوجته « أجنس » التى هى ابنة كونت الرها ، فالتمس أبوه من الملك أن يحضر حفل تعميده ، وأن يأذن لهم بتسميته باسمه فقبل ، فلما سألوه مازحين ماذا هو خالع على الوليد وهو شـــاهده فى جرن المعمودية الطاهر رد عليهم قائلا بما جبل عليه من الدعابة « مملكة بيت المقدس » ٠

لقد تركت هذه العبارة العـــابرة أثرا عميقا فى نفوس بعض العقلاء الذين سمعوها ، لأنها بدت لهم وكأنها نذير شؤم بأن الملك رغم أنه كان يزال شابا وكذلك زوجته سوف يموت دون أن ينجب ، وقد تحققت هذه النبوءة ٠

(٣٠)

أدى أسر أمير أنطاكية الى حرمان الامارة من معاونة قائد لها ، ومن ثم استحوذ الخوف والقلق من جديد على الأهالى الذين راحوا يتوقعون بين يوم وآخر وفى فزع بالغ خراب بلدهم ان لم تتداركهم رحمة ربهم فتحميهم ، وانتهى بهم الأمر أخيرا للرجوع الى مصدر غوثهم يسألونه أن يخلصهم من الشرور التى تهددهم ، ويلتمسون منه ما التمسوه كثيرا منه فلم يخيب لهم رجاءً قط ، ذلك أنهم بعثوا من جانبهم سفارة الى ملك بيت المقدس تتوسل اليه ضارعة باكية أن يسرع فى لحظته لنجدة شعب يائس قد أصبح على شفا جرف هار من الهلاك فيكتسب بما يفعل الشرف والمجد فى عيون الناس ، ويكون له الجزاء الأوفى من الرب ٠

حين علم الملك بالوضع المتردى فى أنطاكية تحركت مشاعره اشفاقا على شعبها مما يقاسيه من البلوى فنهج نهج أسلافه وحمل العبء عن طيب خاطر وأســـرع الى أنطاكية مستصحبا رهطا من النبلاء الفرسان ، فتلقاهم أهلها : صغارهم وكبارهم على السواء بالفرحة الغامرة والسرور الطاغى ،وأقام الملك بها ما تطلبته ظروف الوقت والمكان ، وراح يبذل أقصى همته للعناية بشئون الامارة بذلا كما لو كانت هى شئونه الخاصة ، ثم عهد بتصريف أمور حكومتها مؤقتا الى البطرك حتى يعود هو نفسه اليها ، ولما فرغ من ترتيب مساعدة الأميرة مساعدة تتفق وأوضاعها رجع الى مملكته حيث كانت شئونه الخاصة تقضى بوجوده ٠

* * *

بعد عودة الملك جاءته سـفارة عالية المقـام من امبراطور القسطنطينية تحمل اليه كتابا مختوما بالخاتم الذهبى ورسالة خاصة . وكان على رأس هذه السافرة العظيمة الشأن «كونت ستيفانوس» أحد أقارب الامبراطور ، وأما رفيقه فكان كبير مترجمى القصر واسمه « ثيوفلاكت » وهو رجل حاد الذكاء ، شديد الغيرة على المصالح الامبراطورية ، وكان هذا المبعوثان كما قلنا يحملان رسائل سامية تتضمن التالى :

« لتعلم أيهاالعزيز الغالى ، يا أحب أهل امبراطوريتنا لنا ، أن زوجتنا الجليلة ايرين العظيمة ذات الذكر المجيد قد انقضت أيامها المقدرة لها على هذه الأرض وجاورت أرواح الطوبانيين المرضى عنهم ، بعد أن خلفت لنا ابنة واحدة هى الوريثة لهذه الامبراطورية ، ولما لم يكن لنا ولد ذكر فاننا مشغولون كل الانشغال بأمر من يخلفنا ، وكثيرا ما عقدنا اجتماعات هامة مع أبرز رجال البلاط التشاور فى عقد زواج ثان ، فأيدوه بالاجمـاع ووافقوم جميع أمرائنا على وجوب عقد قراننا الملكى على أميرة من بيتكم ومن ذوى قرباكم نظرا لما لكم من عظيم الحب فى نفسنا ، وهى محبة نحوطكم بها من بين كافة أهل الامبراطورية ، وان التى سوف تختارونها لنا من تريباتكم ـ سواء أكانت أخت كونت طرابلس الأمجد أو صغرى أخوات أمير انطاكية المعظم فاننا سوف نتخذها بكل ثقة زوجة لنا ، وسـتكون بعـون الله زوجتنـا الامبراطورية ورفيقتنا فى المملكة ، ثقة منا فى صـدق ولائكم وحسن اختياركم » .

فلما أفضت السفارة الى الملك بعزم الامبراطور شفاها وكتابة ، وعد هو من جانبه بالاستجابة والمساعدة فيما طلبه منه ، وأفصح

عن صادق شكره لعظمته الامبراطورية أولا لأنه رأى أن يربط نفسه ــ وهو ذو المكانة السامية ــ بواحدة من قريبات الملك ، وثانيا لأنه عهد الى الملك دون سواه باختيار عروسه المقبلة وزوجته اعتمادا منه على وفاء بلدوين واخلاصه ٠

(٣١)

بعد أن تباحث الملك مع مستشاريه بشأن هذا الزواج الذى سيكون أحسن ما يرتجى لمصالحه الشخصية ومصالح صاحب العظمة الامبراطورية بعث فى طلب رسولى الامبراطور ، وراح يحدثهما حديثا مقنعا بأن تكون « مليزند » (احدى أخوات كونت طرابلس » هى الزوجة لمولاهما ، وكانت « مليزند » هذه فتاة ذات خلق سام وكفاءة رائعة ، فأخذ المندوبان اقتراح الملك بما هو جدير به من الاحترام ووافقاه عليه ، ولكنهما التمسا منه أن يعلم الامبراطور بهذا القرار على يد رسل يبعثهم اليه وبالكتب ينفذها اليه ٠

وتمت فى هذه الأثناء الاستعدادات الضخمة التى فاقت الاستعدادات الملوكية ذاتها والتى تكلفت مبالغ باهظة أنفقتها كل من أم العذراء وخالتها من أجلها ٠ لاسيما وقد وقع عليها الاختيار لتشغل هذه المكانة السامية ٠ كما أنفق أخوها وأصدقاؤها المال الكثير لشراء الأساور والحلقان ودبابيس ملابس الرأس والشلاخيل والخواتم والعقود والعصائب المصنوعة من الذهب الخالص ، كما جهزت الأدوات الفضية الثقيلة الوزن والمختلفة الأحجام اللازمة للاستعمال فى المطبخ وأدوات المائدة والحمام ، الى جانب اللجم والسروج ٠ وبالاختصار فانهم لم يتركوا شيئا الا جهزوها به ، وانفقوا على ذلك المبالغ الطائلة انفاقا فاحشا ، وكانت أجرة صياغتها وحدها شاهدا على تجاوز كل الأثمان الباهظة حتى فاقت اسراف الملوك ٠

وكان الاغريق فى الوقت ذاته يتقصون كل دقيقة وصغيرة عن حياة الأميرة ومسلكها ، بل لقد زادوا فأوغلوا فى البحث فى أدق صفاتها الجثمانية مما يعتبر ســـرا ، وكانوا على اتصـــال دائم بالامبراطور ينتظرون الاذن لهم بالعودة لاسيما وقد طالت اقامتهم حتى استدار الحول •

وأثار البطء فى الاجابة غضب الملك ورجال بلاطه وأقارب الأميرة وأصدقائهما ، وبلغ الغضب ذروته فاســـتدعوا ســـفيرى الامبراطور علانية وخيروهما بين أن يفضوا هذا الزواج الذى طال أمد اتمامه ، وطال الأخذ والرد بشأنه ، أو يرد الأموال التى انفقت ، وأن يتوقفا عن سوق الأسباب الغامضة للتسويف ويعقد العقد وفقا للشروط التى اتفق عليها فى الأصل ، ذلك لأن أخاها كونت طرابلس كان قد أنفق أموالا طائلة ، اذ أمر ببناء اثنتى عشرة سفينة جهزها بكل شيء ، لأنه كان مجمعا العزم على اصطحاب أخته الى زوجها ، وبالاضافة الى ذلك فقد جاء الى طرابلس كل سراة المملكة والامارة ليصحبوا الأميرة « مليزند » فى رحلتها القـــادمة ، وكان الكونت يتكفل بدفع نفقاتهم جميعا من جيبه الخاص •

كان الرسولان الاغريقيان (كالعهد بالاغريق) يسوفان فى الرد جهد ما أمكنهما التسويف ، فعمد الملك الى وقف أساليبهم الماكرة فأرسل « أوتو ديزبيرج » مبعوثا خاصا الى القسطنطينية ، وفوضه فى مطالبة القوم هناك بالافصاح له شخصيا ـ باعتباره ممثل الملك الشخصى ـ عن حقيقة نوايا الامبراطور دون مراوغة ، فعاد رسوله اليه بأسرع مما كان متوقعا ومعه كتاب من الامبراطور ورسائل تبين أن كل ما اتخذ بشأن هذا الزواج لم يقع أبدا موقع القبول والرضا من نفس عظمة الامبراطور •

فلما علم الملك بهذا النبأ تسحب من المفاوضات فقد رأى فيها اهانة كبرى لحقت بذاته ، وتذمر الملك من أن ينتهى الى لا شىء كل ما ساهم هو فى الاعداد له وسار فيه قدما ، وكان يعده بعض واجبه ٠

وخاف الرســـولان الامبراطوريان أن يمسهما أذى من جراء غضب كونت طرابلس فبادرا الى الرحيل مسرعين الى قبرص فى مركب صغير شاء حسن طالعهما أن يجداه على أهبة الابحار ٠

* * *

ما كاد النبلاء المجتمعون فى طرابلس يرحلون حتى مضى الملك الى أنطاكية استجابة منه لالتماسات اهلها الملحة بأن يأخذ فى يده مقاليد الامارة ، فلما وصلها صادف نفس رسولى الامبراطور اللذين كان المفروض أنهما عائدان الى ديارهما بعد مغادرتهما طرابلس ، ووجدهما يعقدان اجتماعات ودية يومية مع الأميرة صاحبتها بشأن ابنتها الصغرى مارية ، يضاف الى ذلك أنه كان فى أيديهما رسائل من الامبراطور ، مختومة بخاتمه الذهبى،يؤكد فيهاموافقتهالتامةعلى كل اتفاق يبرمه رسولاه مع الأميرة وأصدقائها بشأن موضـــوع الزواج ، وقد أفضى القوم الى الملك لحظة وصـــوله بخبر هذه المفاوضات ، فأحس بجرح عميق فى نفسه ، واهانة بالغة لشخصه من جراء هذه المسألة ، التى رأى الصواب فيها أن يرفض أنيكونطرفا مع الامبراطور فى موضوع الزواج ، غير أن عطفه على قريبته اليتيمة التى لم يكن لها من أب يحميها حمله على التفكير فى الأمر طويلا ، وانتهى تفكيره الى أن يكون هو كفيلها ، ونجح فى عقد الزواج ٠

ما كادوا يفرغون من هذا الموضوع حتى كانت السفن معدة فى المكان المعروف بميناء القديس سمعان ، عند مصب نهر العاص ،

حيث استقبل الرسل الفتاة وفي صحبتها حاشية كبيرة العدد من أعظم رجال البلد الذين عهد اليهم بمرافقتها الى حيث يقيم زوجها ، وأبحرت هي معهم •

(٣٢)

ولقد شاء الملك أن يعود مقامه بأنطاكية بالخير عليها ، فأعاد أثناء وجوده بها ترميم حصنها الذى كان يقع فى القديم عند جسر على نهر العاص يعرف عادة باسم « جسر الحديد » ، وهو حصن يبعد عن أنطاكية خمسة أو ستة اميال ، وكان ذا نفع كبير في صد هجمات المغيرين عليها ، كما كان يقوم فى الوقت ذاته عقبة كأداء فى وجه العصابات المتسللة اليها •

وبينما كان الملك منصرفا للاهتمام بشئون الامارة إذا بزوجته المؤمنة التقية ــ وقد أنهكها المرض الذى لم تشف منه ــ تمضي في الطريق التى لابد لكل ابن أنثى من أن يسير فيها ، فلفظت أنفاسها فى الحادى عشر من سبتمبر (سنة ١١٦١)(٣١) ، فشق عليه موتها حين نعوها اليه وأسلم نفسه للحزن ، ولم يخف لوعة فجيعته فيها ، مما أظهر للعيان مدى ما كان ينطوى عليه قلبه من الحب العميق لها . والواقع أنه ظل عدة أيام بعد رحيلها تتساقط نفسه حسرة ، وجزع جزعا شديدا لم يستطع احد ازاءه الاقتراب منه لعزائه •

لقد راحت الملكة « مليزند » ذات الذكرى المجيدة لتعيش مع الملائكة ، ودفنت فى وداى « يهوشافاط » على يمين النازل الى قبر العذراء المباركة الطاهرة مريم البتول أم مخلصنا ، وسجى جثمانها فى قبو حجرى تحت الكنيسة ذى أبواب حديدية ، والى جواره مذبح يقام فيه القداس اليومى ترحما على روحها وأرواح جميع المسيحيين الذين ماتوا من أجل السيد •

كانت نياط قلب كونت طرابلس فى هذه الأثناء تتقطع ألما وغيظا اذ سخر به الامبراطور فكلفه نفقات باهظة لاعداد أخته للزواج منه ، ثم عاد فرفضها دون أن يبين الحامل على هذا الرفض ، فنبذها كما لو كانت هذه الفتاة بنت رجل من الرعاع • وأسلم الكونت نفسه للحزن المحرق ، وراح يفكر تفكيرا عميقا كيف يجازى الامبراطور مجازاة تكافىء ما فعله به ، وكيف يرد الضربة بمثلها ، وعلى الرغم من أنه كان فى غمرة هذه الأشجان يدرك أن الامبراطور يعتبر أقوى ملوك الأرض قاطبة وأن قوته(٣٢) هو ذاته لن تجديه أبدا فى انزال أى عقاب به ، الا أن نقمته عليه حركته للعمل ضده ، وحتى لا يظهر للملأ أنه غير عابىء بما لحقه من الاهانة أو ساكت عليها فقد أمر بتسليح السفن(٣٣) التى كان قد أعدها لغير هذا الغرض ، واستدعى جماعة من القراصنة والعيارين وأرباب أبشع الجرائم وعهد اليهم بهذه السفن ، وكلفهم بالعيث فســـادا فى أراضى الامبراطور وألا تأخذهم فى ذلك رعاية لشىء أو رحمة بأحد ، وأمرهم باضرام النار فى كل من يصادفونه ، غير مبالين بعمر أو جنس أو وضع ، وألا يستثنوا من بطشهم كنيسة ولا ديرا ، وأن ينطلقوا ينهبون ويسلبون ويدمرون كل مكان ، قرب هذا المكان أو بعد، مبينا لهم أنهم يستعملون السلاح والبطش لاحقاق العدالة التامة •

أطاع هؤلاء الرجال الكونت وأبحروا وانساحوا فى كل ممتلكات الامبراطور ينفذون أوامر الكونت على مجال واسع فى كل ناحية : جزيرة كانت أو أرضا تجاور بحرا ، وساروا سيرة خرقاء : سداها النهب والحرق ولحمتها الفتك بكل من يصادفونه ، فلم يبالوا أن يدنسوا الكنائس ، ولم يتورعوا عن اقتحام الأديرة ، ولم يوقروا مكانا ما من الأماكن الطاهرة ، ولم يعفوا عن نهب أموال الحجاج

المخصصة لسفرهم وهم فى طريقهم الى الأماكن المقدسة أو فى رجوعهم ، وسقوهم كأس الموت دهاقا ، وقضوا عليهم أن يبقوا فقراء عراة ، ولم يرحموا ذا حاجة ولا عريان الا وزادوا فى بلواه ، كما استولوا على أمتعة التجار المسافرين الذين يستبضعون ويتاجرون لكسب عيشهم وعيش نسائهم وأولادهم ، وأرغموهم على الرجوع الى ديارهم صفر الأيدى ، قد خسروا أموالهم وما يربحون ٠

(٣٤)

فى الوقت الذى كان فيه كونت طرابلس منصرفا لتحقيق رغبته فى الثأر كان الملك موجودا فى انطاكية ٠

ورغبة من الملك فى تناول مسهل قبل دخول الشتاء كما جرت عادته فقد حصل من « باراك » مطبب الكونت على حبوب معينة كان من المفروض أن يتناول القليل منها فى لحظته ، أما البقية فبعد مرور فترة معينة من الوقت ٠

واذ كان أمراؤنا الشرقيون واقعين تحت تأثير زوجاتهم فانهم كانوا يحتقرون الأطبـــاء اللاتين ولا يثقون فى مقدرتهم ، ويؤمنون بكفاءة اليهود والسامريين والسريان والمسلمين فقط ، ولذلك فان أمراءنا هؤلاء أسلموا أنفسهم لأيدى أولئك الممارسين للعـــلاج ، واستأمنوا على أرواحهم قوما جهلاء بالطب ٠

ولقد أشيع أن هذه الحبوب (التى استعملها الملك) كانت سامة وهو قول ربما لم تجاوز الاشاعة فيه الواقع ، ذلك أن القوم عمدوا بعدئذ ــ وهم فى طرابلس ــ الى وضع بقية الدواء فى رغيف قدموه لكلب ليروا أثره فيه فمات الحيوان بعد بضعة أيام قلائل ٠

أما الملك فما كاد يتناول هذه الحبـــوب حتى اعترته حمى ، وأصابه اسهال استحال الى مرض السل الذى لم يبرأ منه أبدا ، ولما اشتدت به آلامه ، وتزايد وجعه لحظة بعد أخرى ، طلب ممن حوله أن يغادر أنطاكية فغادرها الى طرابلس حيث ظل بها طريح الفراش بضعة أشهر وهو يرجو الشفاء مما هو فيه يوما بعد يوم ، فلما تبين له فى النهاية أن وعكته تضاعفت ، وأن الشفاء بات أمرا ميئوسا منه ، أمر أن يحملوه الى بيروت واستدعوا له كبار رجالاتها وأساقفتها ونبلاء المملكة على جناح السرعة ، فاستجابوا لما طلبه ، فلما وافوه صارحهم بايمانه الصادق بالرحمة والاخلاص ، كما اعترف للقسس بنفس خالصة ملؤها الندم بكل آثامه ، وحينذاك بارحت روحه سجنها وانطلقت من هيكلها البشرى وصعدت الى السماء لتنعم برحمة الرب فى صحبة الأخيار ، ولتتوج بالتاج الذى لايفنى أبدا ٠

* * *

وكانت وفاة الملك بلدوين فى الثالث عشر من فبراير سنة ١١٦٢ من مولد سيدنا ، وذلك فى السنة العشرين من حكمه ، وكان عمره يوم موته ثلاثا وثلاثين سنة ، ولما لم يكن قد أنجب فقد آل العرش شرعا الى أخيه عمورى ٠

وقد حمل جثمان بلدوين الى بيت المقدس فى موكب باك مهيب واحتفال ملوكى ٠ ووقف رجال الدين والناس قاطبة فى الطـــريق يشيعون جنازته ، وساروا الى كنيسة القيامة حيث دفن فى توقير مع أسلافه ، أمام مكان الجلجثة ، حيث صــلب الســـيد من أجل خلاصـــنا ٠

* * *

ولا يعرف التاريخ كما لا يذكر أحد من الأحياء أن الناس قد أحسوا بمثل الذى أحسوه تجاه بلدوين من الحزن العميق والألم

الممض عند موت أى شـــخص آخر من أمتنا أو غيرها من الأمم ، وبالاضـــافة الى ما أبداه أهل المدن التى مر بها موكبه الجنائزى الملوكى من الحزن والبكاء ، فقد جاء من الجبال جمع كثيف من الكفار الذين تتبعوا جثمان الراحل وهم ينتحبون ٠

ولقد ظل البكاء موصولا والحزن متجددا عليه ساعة بعد أخرى طوال الأيام الثمانية التى استغرقها انتقال موكب جنازته من بيروت الى بيت المقدس ، بل انه ليقال ان أعداءه أنفسهم أحزنهم رحيله ، كما يقال ان البعض اقترحوا على نور الدين أن يغتنم فرصة موته وانشغال أعدائه بتشييع الجنازة فيغير على بلادهم ، فأجابهم « بل يجب علينا أن نشاطرهم حزنهم ، وإن ندعهم وما هم فيه فلا نزيدهم بلوى على بلواهم لأنهم فقدوا أمـــيرا ليس له فى الدنيا شبيه » ٠

* * *

ولما كنا قد وصلنا الى نهاية هذا الكتاب فى تسجيلنا لأعمال هذا الملك فاننا نسال بحق أرواح القديســـين المجتبين أن تنعم روحه بالراحة الكبرى ٠

آمين ٠٠

هنا ينتهى الكتاب الثامن عشر

حواشي الكتاب الثامن عشـــر

(١) اذا كان هذا هو السبب فى هذه المجاعة عند وليم الصورى فـان ابن القلانسى يشير فى ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٢٥ ، الى ارتفاع الأسعار بدمشق فى ذى القعدة سنة ٤٤٨هـ ، وذلك بسبب عدم الواصلين « اليهـا بالغلات من بلاد الشمال حيث بلغ سعر الغرارة من الحنطة ٢٥ دينارا ، وزاد على ذلك » •

(٢) رومية ١٢/١٥ •

(٣) راجع الكتاب الأول من هذه الترجمة العربية •

(٤) أشارت الترجمة الانجليزية فى تعليـــق لها على « أجنس » هذه فقالت انها من الشخصيات شبه الأسطورية ، وكذلك الحال مع جيرالد ، ونحيل القارىء الى الجزء الثانى من هذه الترجمة العربية ، ص ٦٩ ، والى الفهرس الأبجدى الملحق باخر الجزء الرابع من ترجمتنا هذه •

(٥) اشعيا ١/٢ •

(٦) الملوك أول ٢١/١٩ •

(٧)فيما يتعلق ببلعام راجع القصة فى العهد القديم ، العدد ، ٢١ ـ ٢٣ •

(٨) ورد هذا المكان باسم « بيت وعر لبنان » فى التوراة ، فقد جاء فى الملوك أول ١٠/١٧ ، « وعمل الملك سليمان بيتى ترس من ذهب وجعلها فى بيت وعر لبنان » ، كذلك وردت الاشارة اليه أيضا فى سفر الأيام (ثانى) ٩/٢٠ .

(٩) « الاخوان » الذين اجملهم هنا وليم الصورى فسرهم ذيل تاريخ دمشق ، صفحة ٣٣٩ ، بأن عدتهم كانت سبعمائة فارس من أبطال الاسبتارية والسرجندية والداوية .

(١٠) كان خروجهم بامر نصرة الدين امير ميران من راس العبد التى يقول « لى سترانج » عنها ان أبحاث سير ولسون افضت به الى اعتبارها هى « كفر سلام » التى وردت فى سفر الاعمال ٢٣/٣١ باسم « أنتيبياتريس » فى قوله « فالعسكر أخذوا بولص كما أمر داود وذهبوا به ليلا الى انتيبيا تريس » .

(١١) ذكر الذيل ، ص ٣٤٠ ، أن نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمنجنيقات كان قبل السابع من ربيع الآخر عام ٥٥٢هـ ، أما فتحها فكان عندما « تناهى النقب واطلاق النار فيه » . وجاء فى نفس المرجع وصف مذلة الفرنجة وقد وصلت الأسرى ورؤوس القتلى الى دمشق وقد زينوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ومعهما راية من راياتهم منشورة ، وفيها من جلود رؤوسهم والمقدمون منهم وولاة المعاقل ، كل واحد منهم على فرس وعليه الزرد والخوذة ، وفى يده راية ، والرجالة من السرجندية والدركبوليه كل ثلاثة وأربعة وأقل واكثر فى حبل » ومما قيل من الشعر فى وصف ذلك :

مثل يوم الفرنج حين علتهم ... ذلة الأسر والبلا والشقاء
وبراياتهم على العيس زفوا ... بين ذل وحسرة وعناء
بعد عز لهم وهيبة ذكر ... فى مصاف الحروب والهيجاء
هكذا ، هكذا ، هلاك الأعادى ... عند شن الاغارة الشعواء
لا حمى الله شملهم من شتات ... بمواض تفوق حد المضاء
فجزاء الكفور قتل وأسر ... وجزاء الشكور خير الجزاء

(١٢) المزامير ٩١/٧ .

(١٣) المقصود بالأمير العظيم هنا السلطان نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى .

(١٤) المزامير ٤٤/١٤ .

(١٥) كان الداعى لهذه الحرب هو نقض الصليبيين لمعاهدتهم مع نور الدين واغاراتهم على الجشارات ومواشى المسالمين والفلاحين المضطرين الى الرعى فى الصحراء لسكونهم الى الأمن بالمهادنة والموادعة » (راجع ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣٩) ، وقد نزل الصليبيون على الملاحة من طبرية وبانياس فنهض لهم نور الدين فتمكن من فرسانهم قتلا وأسرا « ولم يفلت منهم على ما حكاه الخبير الصادق غير عشرة نفر .... ، وقيل ان ملكهم فيهم ، وقيل انه فى جملة القتلى ، ولم يعرف له خبر » . انظر الذيل لابن القلانسى ص ٣٤١ وراجع الحاشية أعلاه رقم ١١ .

(١٦) أورد وليم الصورى هذا الحصن باسم Chastel Neuf اما موضعه فسماه باسم Noire Garde

(١٧) أى تييرى كونت فلاندرز .

(١٨) فيما يتعلق بخبر مرض نور الدين وما كان له من ذيول وأحداث فى الجانب الاسلامى نعود الى ابن القلانسى فنجده يذكر فى ذيله لتاريخ دمشق أنه فى رمضان سنة ٥٥٢هـ عرض لنور الدين مرض حاد خاف منه على نفسه حتى انه استدعى اليه أخاه نصرة الدين ميرميران واسد الدين شيركوه وأعيان الأمراء والمقدمين ، ثم قرر بحضرتهم أن يكون أخوه نصرة الدين فى الحكم من بعده على أن يكون مقيما بحلب ، ويكون أسد الدين فى دمشق ، ثم زادت العلة به فنقلوه فى محفة الى حلب ثم جاءت الأخبار مرجفة بما أزعج خاطر الناس عن نور الدين حتى لقد « طمع الافرنج فقصدوا مدينة شيزر ، وأفحشوا القتل فى أهلها والنوب ، ولكن تصدى لهم الاسماعيلية فأخرجوهم من شيزر » . ثم يتكلم ابن القلانسى عما حدث بحلب من أن والى قلعتها واسمه مجد الدين منع نصرة الدين من دخولها ، فثار الأهالى ضد مجد الدين وكسروا الباب وأدخلوا نصرة الدين ، وكان موقف والى القلعة ناجما عن أنه كان يعلم أن نور الدين لايزال حيا ، وصعد الى القلعة من شاهد نور الدين حيا يفهم ما يقول وما يقال » ، ولقد صفح نور الدين عما كان من العامة وقال : « ماطلبوا الا صلاح حال أخى وولى عهدى من بعدى »

أما نصرة الدين فقد انصرف الى مدينة حران التى كان قد وليها . ويلاحظ أن ابن القلانسى كان شاهد عيان لهذه الأحداث ولشفاء السلطان الملك العادل، فنظم هذه الأبيات :

لقد حسنت صفاتك يا زمانى	وفزت بما رجوت من الأمانى
فكم أصبحت مرعوبا مخوفا	فبدلت المخافة بالأمان
وجاءتنا أراجيف بملك	عظيم الشأن مسعود الزمان
فروعت القلوب من البرايا	وصار شجاعها مثل الجبان
وثارت فتنة يخشى أذاها	على الاسلام من قاص ودان
ووالى بعد ذاك بشير صدق	بعافية المليك مع التهانى
فولى الخوف مهدوم المبانى	وعاد الأمن معمور المغانى

(١٩) يعنى مسألة لمن يكون قطع يمين الولاء والتبعية حسبما تقضى الأنظمة الاقطاعية .

(٢٠) المقصود « بالمشروع » هنا هو الاستيلاء على شيزر واقطاعها لتيرى كونت فلا ندرز .

(٢١) راجع فى دخول « مير ميران » حلب ثم سرعة انسحابه منها الحاشية رقم ١٨ .

(٢٢) كان الحصن الذى يشير اليه وليم فى المتن أعلاه هو حصن حارم المجاور لأنطاكية ، وقد سبق التعريف بهذا الحصن المعروف عند الصليبيين باسم Harenc

(٢٣) ترجح الترجمة الانجليزية أن هذه الأخت هى « ايفيتا » IVETA أصغر شقيقات الملكة مليزند ، وكانت « ايفيتا » هذه حينذاك رئيسة للدير الذى أسسته الملكة ، وتبنى الترجمة الانجليزية هذا الترجيح على ماجاء فى :
Chronique De Robert de Torigni, abbe du monte-Saint-Michel, (ed. Par Delisle,) t. I, P. 325.

(٢٤) المقصود بالأمير التركى هنا نور الدين محمود .

(٢٥) أوردها وليم فى المتن برسم Puthala وقال جب فى Damascus Chronicle انها « بزاعة » .

(٢٦) كانت هذه السفارة التى فيها أتارد فى أواخر سنة ١١٥٧م ، ولكن اشارة وليم الى وفاة هذا الاسقف التى وقعت سنة ١١٨١ تبين أنـه كتب هذا الخبر فى تلك السنة أو التى بعدها ، أى قبل ثلاث سـنوات من « القائه القلم » ، راجع مقدمتنا العربية للجزء الأول من هذه الترجمة لكتاب وليم الصورى ، الحروب الصليبية ٠

(٢٧) كورنثوس الأولى ١٣/١١ ٠

(٢٨) فيما يتعلق بسيس التى يقول عنها أبو الفدا انها احدى مـدن أرمينيا الكبرى راجع ما أورده عنها Le-Strange : Op. Cit. P. 538 من أقوال الجغرافيين والمؤرخين العرب ٠

(٢٩) يستفاد مما هو وارد فى :
Chalandon : Les Comnénes II, PP. 448 — 450.

أن المفاوضات مع توروس قد تمت بينه كطرف أول وبين الملك بلدوين والداوية كطرف ثان ٠

(٣٠) ترجح الترجمة الانجليزية لكتاب وليم هذا أنه لا يستبعد أن يكون وليم قد حصل على هذه المعلومات من « عمورى » أخى بلدوين الثالـث نفسـه ٠

(٣١) أشارت الترجمة الانجليزية (ج٢ ص ٢٩١ ، حاشية رقم ٨٨) الى صحة هذا التاريخ الذى أكدته أبحاث :
R. Rohricht : Geschichte des Konigreiche Jersualem, 1100 — 1291, P. 307

(٣٢) الضمير هنا عائد على كونت طرابلس ٠

(٣٣) أى السفن التى كانت مهيأة لسفر أخته وكبـار المدعوين الى القسطنطينية ٠

صدر فى هذه السلسلة

٢٠ ــ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبدالرحمن فهمى
د. محمد أنيس

٢١ ــ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى جـ ١
توفيق الطويل

٢٢ ــ نظرات فى تاريخ مصر
جمــال بدوى

٢٣ ــ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى جـ ٢
توفيق الطويل

٢٤ ــ الصحافــة الوفديــة
د. نجوى كامل

٢٥ ــ المجتمع الاسلامى والغرب
ترجمة : د. عبد الرحيم مصطفى

٢٦ ــ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د. سعيد اسماعيل على

٢٧ ــ فتح العرب لمصر جـ ١
ترجمة : محمد فريد ابو حديد

٢٨ ــ فتح العرب لمصر جـ ٢
ترجمة : محمد فريد ابو حديد

٢٩ ــ مصر فى عهد الاخشيديين
د. سيدة اسماعيل كاشف

٣٠ ــ الموظفون فى مصر
د. حلمى احمد شلبى

٣١ ـ خمسون شخصية وشخصية
شــكرى القــاضى

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ ٢
لمعى المطيعى

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د. خــالد الكومى

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د. يونان لبيب رزق

٣٥ ـ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى

٣٦ ـ المجتمع الاسلامى والغرب جـ ٢
ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

٣٧ ـ الشيخ على يوســف
تاليف : د. سليمان صالح

٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصــادى والاجتماعى فى العصر العثمانى
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

٣٩ ـ قصة احتلال محمد على لليونان
د. جميــل عبيــد

٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى

٤١ ـ محمد فريد الموقف والمـأساة
رفعت الســعيد

٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غربال

٤٣ ـ رحلة فى عقول مصرية
ابراهيم عبد العزيز

٤٤ ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد عفيفى

٤٥ ـ الحروب الصليبية جـ ١
ترجمة : أ.د. حسن حبشى

٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٩ : ١٩٥٧
تأليف : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو

٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث
تأليف : أ.د. لطيفة محمد سالم

٤٨ ـ الفلاح المصرى
تأليف : د. زبيدة عطا

٤٩ ـ العلاقات المصرية الاسرائيلية
تأليف : أ.د. عبد العظيم رمضان

٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية
تأليف : د. سهير اسكندر

٥١ ـ تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية
اعداد : د. عبد العظيم رمضان

٥٢ ـ مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر
تأليف : د. الهام محمد على ذهنى

٥٣ ـ أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك
د. محمد كمال الدين عز الدين على

٥٤ ـ الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى
تأليف الدكتور محمد عفيفى

٥٥ ـ الحروب الصليبية جـ ٢
ترجمة وتحقيق : د. حسن حبشى

٥٦ ـ المجتمع الريفى فى عصر محمد على
د. حلمى أحمد شلبى

٥٧ ـ مصر الاسلامية وأهل الذمة
د. سيدة اسماعيل كاشف

٥٨ ـ أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة
د. ابراهيم عبد الله المسلمى

٥٩ ـ الرأسمالية الصناعية فى مصر
د. عبد السلام عبد الحليم عامر

٦٠ ـ المعاصرون من رواد الموسيقى العربية
عبد الحميد توفيق زكى

٦١ ـ تاريخ الاســـــكندرية
أ٠د٠ عبد العظيم رمضان

٦٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ ٣
لمـعى المطيعى

٦٣ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور
اعداد ـ د٠ عبد العظيم رمضان ٠

٦٤ ـ مصر وحقوق الانسان
د٠ محمد نعمان جلال

٦٥ ـ موقف الصحافة المصرية من الصهيونية
د٠ سهام نصار

٦٦ ـ المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى
د ٠ نريمان عبد الكريم أحمد

٦٧ ـ الأصول التاريخية لمساعى السلام العربية الاسرائيلية
أ ٠ د ٠ عبد العظيم رمضان

الفهـــرس

الصفحة

رقم الايداع ١٩٩٣/٨٩٧١

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3525 — 9

هذا هو الجزء الثالث من الترجمة العربية لكتاب وليم الصورى عن الحروب الصليبية لفترة تستمد أهميتها من أن المؤلف شاهد بعض أحداثها ، وشارك فيها ، كما اطلع على ملفاتها ووثائقها فى دور المحفوظات بالقسطنطينية والقدس وكنيسة روما ذاتها .

ولقد كانت امنية اساتذة تاريخ الحروب الصليبية والعصور الوسطى أن يجدوا هذا الكتاب فى العربية ، لكن كانت ضخامته تحول دون تحقيق هذه الأمنية حتى اضطلع لها استاذ فاضل ومؤرخ كبير ترجم إلى العربية العديد من وثائق تلك العصور من اللاتينية والفرنسية القديمة . ذلك هو الأستاذ الدكتور حسن حبشى ، وقد خرجت ترجمته العربية وتعليقاته شاهدة على المعيته ودقته وسعة اطلاعه ، كل ذلك فى أسلوب عربى فصيح ، وبيان مشرق الديباجة لا يحس فيه قارئه شبهة الترجمة .

ويسر هيئة الكتاب أن تقدم لقرائها وطلاب الثقافة العميقة الجادة فى العالم العربى هذا الكتاب .



٥٧٥ قرشا